

المِرَاةُ فِي الْقِصَصِ الْقُرْآنِيِّ

إِعْدَادُ

الدُّكْتُورُ أَحْمَدُ الشُّرَاوِي

مُدْرِسُ بَقْسَةِ التَّفْسِيرِ وَعُلُومِ الْقُرْآنِ

بِمَكْتَبَةِ الشُّرُكَةِ الدِّينِ وَالنَّحْوَةِ - جَامِعَةِ الْأَزْهَرِ

المَجْلَدُ الْأَوَّلُ

دارُ السَّلَامِ

للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة

هذا الكتاب

رسالة علمية تقدم بها الباحث لنيل درجة العالمية الدكتوراه من كلية أصول الدين والدعوة الإسلامية بجامعة الأزهر الشريف قسم التفسير وعلوم القرآن وقررت اللجنة بالإجماع منح الباحث درجة العالمية الدكتوراه في التفسير وعلوم القرآن بمرتبة الشرف الأولى

كافة حقوق الطبع والنشر والترجمة محفوظة

للمنشر

دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع

لصاحبها

عبد غادر محمود البكار

الطبعة الأولى

1421 هـ - 2001 م

المائة
في قصص القرآن

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

شكر وتقدير

إهداء

﴿ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ
الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾

(سورة آل عمران : 62)

﴿ وَكَلَّا نَقْصُصُ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي
هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾

(سورة هود : 120)

﴿ لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا
يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ
وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾

(سورة يوسف : 111)

﴿ رَبَّنَا إِنَّا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴾ .

(سورة الكهف : 10)

المقدمة

وتشمل على :

* أهمية الموضوع وأسباب اختياره .

* خطة البحث ومنهجه .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقدمة

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَكُمْ عِوَجًا ﴿١﴾ قِيمًا لِيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِمَّنْ لَدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾ تَكْتَبِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴿٣﴾ ﴾ . (1)

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله ، وصفيه من خلقه وخليله ، بعثه بعد دروس السبل (2) ، وطموس الملل ، وعبادة الأوثان ، وكثرة الطغيان ، فقام لدين الله ناصحًا ، ولمعالم الشرك فاضحًا ، وعبادة الأصنام قامعًا ، وللملة الإسلام شارعًا ، وعن الآفة بريًا ، وفي الحق قويًا ، فصلوات الله وسلامه عليه وعلي آله الذين اختارهم الله وطهرهم ، وأصحابه الذين اجتباهم وآثرهم ، ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين .

- ثم أما بعد : فإن من أعظم العلوم مقدارًا ، وأرفعها شرفًا ومنارًا ، وأعلاها على الإطلاق ، وأولها تفضيلًا بالاستحقاق ، وأساس قواعد الشرائع والعلوم ، ومقياس ضوابط المنطوق والمفهوم ، وأعزُّ ما يُرغَّب فيه ، ويعرَّج عليه ، وأهم ما تناخ المطايا لديه : هو علم التفسير لكتاب العليِّ القدير ؛ لكونه أوثق العلوم تبيانًا ، وأصدقها قيلًا ، وأحسنها بيانًا ، وأكرمها نتائجًا ، وأمعها سراجًا ، وأفصحها حجةً ودليلًا ، وأوضحها مَحَجَّةً وسبيلًا ؛ وشرف العلوم بشرف المعلوم ، والمعلوم هنا هو كتاب الله تعالى الذي ﴿ لَا يَأْتِيهِ الْبُطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ (3) أنزله الله على قلب رسوله الكريم ﴿ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ ﴾ (4) وضمن الله لمن آمن به وعمل بما جاء فيه السعادة في الدارين ، قال تعالى : ﴿ فَمَنْ أَتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴾ (5) وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى ﴿٦﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا ﴿٧﴾ قَالَ كَذَلِكَ أَنتَكَ ءَايَاتُنَا فَنَسِينَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ كُنْتُمْ ﴿٨﴾ . (5)

(1) سورة الكهف : 1 : 3 .

(2) درس السبيل دروسا من باب قعد : عفا وخفيت آثاره .

(3) سورة طه : 123 : 126 .

(4) سورة البقرة : 185 .

(5) سورة فصلت : 42 .

ومن ثمّ كان علم تفسير كتاب الله تعالى والعمل به هو أولى ما يتنافس فيه المتنافسون وأحرى ما يتسابق في حلبة سباقه المتسابقون .

هذا ومن فضل الله عليّ أن وفقني إلى خدمة كتابه ، فأعاني على حفظه وتعاهده ، وهداني إلى دراسة أحكامه ومقاصده .

● ولقد تقدمت إلى قسم التفسير وعلوم القرآن - بكلية أصول الدين والدعوة الإسلامية - جامعة الأزهر بالقازيق : بعدة موضوعات واستقر الرأي على اختيار موضوع (المرأة في القصص القرآني) فلقي هذا الاختيار المبارك قبولاً في نفسي وانشراحاً في صدري .

وترجع أهمية هذا الموضوع ، وأسباب اختياره إلى ما يلي :

1 - الإسهام في خدمة كتاب الله ﷻ ، وخاصة القصص القرآني وهو جانب من جوانب عظمة القرآن ، ورفعته وروعته ، ووجه من وجوه إعجازه وبلاغته .

2 - إبراز دور المرأة ومكانها في القصص القرآني ، مع بيان ما يتصل بذلك من أحكام وعبر .

3 - الرد على شبهات أعداء الإسلام التي أثاروها - بخبث نية وسوء طوية - حول موقف الإسلام من المرأة ؛ سعياً إلى تشويه صورته ، ودفع المرأة المسلمة إلى طريق لا يحمد عقباه ، تحت شعارات براقة ودعوات هدامة ودعاوى زائفة ، تارة باسم المساواة ، وتارة باسم الحرية ، وتارة باسم التقدم والمدنية .

● هذا بالإضافة إلى بيان موقف الإسلام في كثير من قضايا المرأة في ضوء القصص القرآني .

4 - الرد على كثير من المفتريات الواردة في قصص العهدين القديم والجديد ، والتنبيه على كثير من الإسرائيليات التي تسربت إلى بعض كتب التفسير ، وبيان ضعفها وتهافتها .

5 - وترجع أهمية الكتابة في هذا الموضوع أيضاً إلى أنني وحتى هذه اللحظات التي أخط فيها هذه الكلمات لم أجد في هذا الموضوع المهم بحثاً علمياً وافياً .

لذا : فإنني لأرجو أن يكون هذا البحث إضافة جديدة مفيدة ، ولبنة مباركة طيبة في صرح الدراسات الإسلامية .

أما عن خطتي في هذه الرسالة : فلقد قسمتها إلى مقدمة وتمهيد وعشرة فصول وخاتمة .
 أما المقدمة فلقد تحدثت فيها عن أهمية الموضوع وأسباب اختياره وخطة البحث ومنهجه .
 وأما التمهيد فلقد دار الحديث فيه حول القصص القرآني (تعريفه ، أقسامه ، مقاصده ، سماته) .

وأما الفصل الأول فهو بعنوان :

حواء عليها السلام

ويشتمل هذا الفصل على تسعة مباحث :

- المبحث الأول : خلق حواء .
- المبحث الثاني : سكنى حواء مع آدم عليه السلام الجنة .
- المبحث الثالث : وسوسة الشيطان لآدم وحواء .
- المبحث الرابع : أكل آدم وحواء من الشجرة .
- المبحث الخامس : توبة آدم وحواء .
- المبحث السادس : هبوط آدم وحواء إلى الأرض .
- المبحث السابع : من المسئول عن الأكل من الشجرة ؟ .
- المبحث الثامن : فوائد حول القصة .
- المبحث التاسع : نظرات فيما ورد في العهدين القديم والجديد : في شأن آدم وحواء .

وأما عن الفصل الثاني فهو بعنوان :

المرأة في قصة نوح عليه السلام « امرأة نوح »

ويشتمل هذا الفصل على أربعة مباحث :

- المبحث الأول : دعوة نوح عليه السلام وموقف قومه من دعوته .
- المبحث الثاني : موقف امرأة نوح عليها السلام من دعوته .

المبحث الثالث : دروس مستفادة من قصة نوح عليه السلام .

المبحث الرابع : نظرات في العهد القديم : في ما ورد في شأن نوح عليه السلام

وأما الفصل الثالث فهو بعنوان :

سارة وهاجر - عليهما السلام « زوجا الخليل إبراهيم عليه السلام »

ولقد قسمت هذا الفصل إلى تمهيد وأربعة مباحث :

التمهيد : ويدور الحديث فيه بإيجاز عن نبي الله إبراهيم عليه السلام

- دعوته ومحنته وهجرته إلى الشام ومنها إلى مصر مع زوجته سارة - .

المبحث الأول : وفيه أتحدث عن البشارة بإسحاق عليه السلام وموقف إبراهيم عليه السلام وزوجه

سارة من البشارة .

المبحث الثاني : وفيه أتحدث عن هاجر زوج سيدنا إبراهيم عليه السلام وأم الذبيح إسماعيل عليه السلام .

المبحث الثالث : ويشتمل على فوائد مهمة ودروس مستفادة .

وهي : أولا : الذبيح : هو إسماعيل عليه السلام .

ثانيا : إكرام الضيف .

ثالثا : صورة المرأة في هذه القصة .

المبحث الرابع : نظرات في العهد القديم - في ما ورد في شأن سارة وهاجر عليهما السلام .

وأما الفصل الرابع فهو بعنوان :

المرأة في قصة لوط عليه السلام « امرأة لوط وبناته »

ويشتمل هذا الفصل على تمهيد وسبعة مباحث :

التمهيد وفيه أتحدث عن لوط عليه السلام من حيث قرابته من نبي الله إبراهيم عليه السلام ونشأته

وهجرته معه إلى الشام .

● المبحث الأول : دعوة نبي الله لوط عليه السلام .

- المبحث الثاني : موقف قوم لوط من دعوته .
- المبحث الثالث : خيانة زوجته .
- المبحث الرابع : هلاك المكذبين بنبي الله لوط عليه السلام ونجاته ومن آمن به « .
- ويشتمل على : أولاً : الملائكة في ضيافة لوط عليه السلام
- ثانياً : موقف قوم لوط عليه السلام من ضيفه .
- ثالثاً : حوار بين لوط عليه السلام وقومه .
- رابعاً : فائدة مهمة .
- خامساً : نجاة لوط وبناته وهلاك امرأته .
- سادساً : هلاك قوم لوط وبيان صنوف العذاب التي حلت بهم

المبحث الخامس « فوائد حول القصة » ويشتمل على :

- أولاً : فائدة حول : ذم اللواط وعقوبة فاعله .
- ثانياً : عقوبة اللواط في الشريعة الإسلامية .
- ثالثاً : تنمة في بيان حكم السحاق وحكم إتيان البهائم وحكم إتيان المرأة في حيضها أو في دبرها .
- المبحث السادس : دروس مستفادة من القصة .
- المبحث السابع وهو بعنوان : نظرات في العهد القديم فيما ورد في شأن لوط عليه السلام .

وأما الفصل الخامس فهو بعنوان :

قصة يوسف عليه السلام مع امرأة العزيز

ويشتمل هذا الفصل على تمهيد وستة فصول :

- التمهيد : وهو بعنوان : كلمة في السياق .
- المبحث الأول : يوسف عليه السلام في بيت العزيز .

المبحث الثاني : مراودة امرأة العزيز ليوسف عليه السلام وعصمته .

وفي هذا المبحث أتحدث عن :

معنى المراودة وكيف تمت ؟ وموقف يوسف الصديق عليه السلام منها ، تفسير الهمّ ومعنى البرهان ، شهادة الجميع ببراءة يوسف عليه السلام وعفته ، امرأة العزيز تبادر باتهام يوسف عليه السلام - كذبًا وزورًا - حين فوجئت بالعزيز عند الباب ، يوسف عليه السلام يدافع عن نفسه ، الشاهد يحسم القضية .

المبحث الثالث : وهو بعنوان حديث النسوة في المدينة عن مراودة امرأة العزيز ليوسف عليه السلام وموقف امرأة العزيز منهن .

وفي هذا المبحث أتحدث عن :

حديث النسوة ، موقف امرأة العزيز منهن - مكر بمكر - خروج يوسف على النسوة وأثر ذلك عليهن ، اعتراف امرأة العزيز أمام النسوة بثبوت مراودتها ليوسف عليه السلام وإصرارها على موقفها ، وتهديدها ليوسف عليه السلام بالسجن إن لم يستجب لها .

المبحث الرابع : السجن طريق النجاة

المبحث الخامس : الفوائد المتعلقة بقصة يوسف عليه السلام مع امرأة العزيز .

وفي هذا المبحث أتحدث عن : أساس التربية القويمة . التربية حصن منيع . حرمة الاختلاط والخلوة بالمرأة الأجنبية وأثرهما السيئ . الاعتصام بالله تعالى وصيانة الحرمة والمحافظة على النعمة .

من تبصّر العاقبة أمن الندامة . منزلة الإخلاص وثمرته . الحكم بالقرائن العقلية *فضيلة العفة . ذم الهوي . أنواع النفوس . فائدة : حول الغيرة . كيد النساء . معنى قول رسول الله صلى الله عليه وآله لعائشة رضي الله عنها : « إنكن صواحب يوسف » . فضل الصبر . فتنة النساء . القصص القرآني أحسن القصص .

المبحث السادس : ما جاء في العهد القديم في شأن قصة يوسف عليه السلام وامرأة العزيز .

وأما الفصل السادس فهو بعنوان :

المرأة في قصة أيوب عليه السلام

ويشتمل هذا الفصل على : تمهيد وخمسة مباحث :

التمهيد : وفيه تعريف موجز بنبي الله أيوب عليه السلام من حيث نسبه الشريف والمكان الذي عاش فيه .

المبحث الأول : ابتلاء أيوب عليه السلام .

المبحث الثاني : سؤال أيوب عليه السلام العافية .

المبحث الثالث : استجابة الله له وكشف الضر عنه .

المبحث الرابع : فوائد مهمة ودروس مستفادة من القصة .

* هل يجوز للزوج أن يضرب زوجته ؟ ما حكم الحيلة في الشريعة الإسلامية ؟ .

وهل الرخصة التي وقعت لأيوب عليه السلام يُحتاج إلى مثلها في شريعتنا .

* دروس مستفادة من القصة .

المبحث الخامس : ما ورد في العهد القديم والجديد في شأن أيوب عليه السلام .

وأما الفصل السابع فهو بعنوان :

المرأة في قصة موسى عليه السلام

ويشتمل على تمهيد وأربعة مباحث :

تمهيد :

المبحث الأول : حديث القرآن عن أم موسى ، وآسية بنت مزاحم امرأة فرعون ، وأخت موسى .

المبحث الثاني : حديث القرآن عن ابنتي الشيخ الكبير .

المبحث الثالث : الفوائد المتعلقة بالآيات الكريمة وفي هذه الفوائد أتحدث عن حق

الطفل في الرضاعة الطبيعية . عمل المرأة . جواز عرض الولي ابنته على الرجل الصالح ليتزوج منها . الكفاءة في النكاح . الولاية على المرأة في النكاح .

كما أتحدث عن جملة من الأخلاق والآداب الفاضلة التي تستفاد من القصة ، وهي :
النصح - إساءة المعروف - مقابلة المعروف بالشكر - خلق الحياء - القوة والأمانة -
فضل تربية البنات والإحسان إليهن - الوفاء بالعهد .

المبحث الرابع : وهو بعنوان : نظرات في العهد القديم فيما ورد في قصة موسى عليه السلام .

وأما الفصل الثامن فهو بعنوان :

قصة نبي الله سليمان عليه السلام مع بلقيس ملكة سبأ :

ويتكون هذا الفصل من خمسة مباحث :

المبحث الأول : بيان القصة كما وردت في القرآن الكريم .

المبحث الثاني : فوائد حول القصة وفيها أتحدث عن : نظام الشوري في الإسلام ، حكم تولي المرأة الولاية العامة والقضاء ، فائدة : حول رد سليمان عليه السلام الهدية ، فائدة حول قوله صلى الله عليه وسلم : ﴿ وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴾ سورة النمل : 43 .
دروس في القيادة والحكم ، فائدة حول الابتلاء .

المبحث الثالث : نظرات في العهد القديم فيما ورد في شأن سليمان عليه السلام .

المبحث الرابع فائدة حول تفسير قول الله تعالى :

﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً ثُمَّ أَنَابَ ﴾ سورة ص : 34 .

المبحث الخامس : من افتراءات اليهود على نبي الله داود عليه السلام .

وأما الفصل التاسع فهو بعنوان

حديث القرآن الكريم عن مريم عليها السلام

ويشتمل هذا الفصل على أحد عشر مبحثاً :

المبحث الأول : النسب الطاهر .

المبحث الثاني : مع أم مريم عليها السلام .

المبحث الثالث : كفالة زكريا عليه السلام لمريم عليها السلام .

المبحث الرابع : اصطفاء الله عز وجل لمريم عليها السلام .

المبحث الخامس من أوجه إعجاز القرآن الكريم إخباره عن أحوال الأمم السابقة .

المبحث السادس : بشارة الملائكة لمريم عليها السلام بعيسى عليه السلام وجملة من أوصافه .

المبحث السابع : مجيء جبريل عليه السلام وظهوره لمريم في صورة بشرية .

المبحث الثامن : وقوع النفخ في مريم عليها السلام وحملها بعيسى عليه السلام .

المبحث التاسع : ولادة عيسى عليه السلام وما صاحبها من رحمت ونفحات .

المبحث العاشر : مجيئها بعيسى إلى قومها واتهامهم لها .

المبحث الحادي عشر : فوائد حول القصة :

وفي هذه الفوائد أتحدث عن :

- عامل الوراثة والبيئة وأثرهما في التربية .
- حرية المرأة في الإسلام .
- قضية المساواة بين الرجل والمرأة .
- الترغيب في كفالة اليتيم .
- مشروعية القرعة في الإسلام .
- كرامات الأولياء .
- فائدة حول نفخ الروح في عيسى عليه السلام .
- حكم تمنى الموت .
- التوكل على الله لا يتنافى مع الأخذ بالأسباب .
- فوائد الرطب للنفساء .
- فائدة حول الصمت ، حكم نذر الصمت في شريعتنا .
- ما يتعلق بقصة زكريا ويحيى عليهما السلام من عبر وأحكام .

وأما الفصل العاشر فيدور الحديث فيه حول

نساء في العهد النبوي أنزل الله عز وجل في شأنهن قرآنا

ويشتمل هذا الفصل على ستة مباحث :

المبحث الأول : ما نزل في شأن حادثة الإفك .

ويشتمل هذا المبحث على ثلاثة مطالب :

المطلب الأول : قصة الإفك كما في الصحيحين .

المطلب الثاني : التفسير التحليلي للآيات الكريمة التي نزلت في هذا الشأن .

المطلب الثالث : فوائد مهمة وهي :

- 1 - حكم من قذف أم المؤمنين عائشة وسائر أمهات المؤمنين رضي الله عنهن .
- 2 - هل يحبط العمل الصالح بارتكاب الكبيرة .
- 3 - منهج الإسلام في حماية الأعراض .

المبحث الثاني : زواج رسول الله ﷺ من السيدة زينب بنت جحش رَضِيَ اللهُ عَنْهَا والحكمة من إباحة الإسلام تعدد الزوجات

ويشتمل هذا المبحث على ما يلي :

- أولا : الآيات الواردة في هذا الشأن .
- ثانيا : تحقيق القول في سبب النزول .
- ثالثا : التفسير التحليلي للآيات .

رابعا : الحكمة من إباحة الإسلام تعدد الزوجات .

خامسا : موقف الديانتين اليهودية والنصرانية من التعدد .

سادسا : الحكمة من تعدد زوجات الرسول ﷺ .

المبحث الثالث : ما نزل في سورة التحريم في شأن أمهات المؤمنين

وفي هذا المبحث أتحدث عن :

- أولا : الآيات الواردة في هذا الشأن .
- ثانيا : تحقيق القول في سبب النزول .
- ثالثا : التفسير التحليلي للآيات .

رابعا : المعنى الإجمالي .

خامسا : فوائد حول الآيات .

المبحث الرابع : ما نزل في شأن خولة بنت ثعلبة التي ظاهر منها زوجها أوس بن الصامت

وفي هذا المبحث :

أولاً : آيات الظهار .
ثانياً : سبب النزول .

ثالثاً : التفسير التحليلي للآيات .
رابعاً : فوائد حول الآيات .

خامساً : المعنى الإجمالي لها .

المبحث الخامس : ما نزل في سورة الممتحنة في شأن النساء .

ويشتمل هذا المبحث على ما يلي :

أولاً : من عدالة الإسلام وسماحته مع غير المسلمين .

ثانياً : ما نزل في شأن امتحان المؤمنات المهاجرات .

ثالثاً : ما نزل في شأن بيعة النساء .

رابعاً : فوائد حول الآيات .

المبحث السادس : وفيه أتحدث عن أم جميل امرأة أبي لهب

وفي هذا المبحث نتحدث عن :

أولاً : نزول سورة المسد في شأن أم جميل وزوجها .

ثانياً : بين يدي سورة المسد .

ثالثاً : التفسير التحليلي .

رابعاً : المعنى الإجمالي .

وأما الخاتمة فإنها تشتمل على :

* خلاصة البحث ونتائجه وتوصياته ، وقائمة بمراجع البحث ، وفهرس للأحاديث النبوية الواردة في الرسالة ، وفهرس للأعلام المترجم لهم ، وفهرس عام لموضوعات الرسالة .

أما عن منهجي في هذه الرسالة :

- فلقد قسّمْتُها إلى مقدمة وتمهيد وعشرة فصول وخاتمة ، وقسّمْتُ الفصول إلى مباحث ، وراعت في ذلك ترتيب الموضوعات وترابطها وتناسقها .
- استعنت بكثير من مراجع التفسير وعلوم القرآن التي أمكنني الوصول إليها ، كما رجعت إلى كتب السيرة والتاريخ والعقيدة والفقه واللغة وغير ذلك .
- قمت بتوثيق جميع النقول ، بالرجوع إلى المصادر التي وردت فيها وذكر اسم المؤلف ورقم الصفحة ، والجزء إذا كان الكتاب مقسما إلى أجزاء ، كما أذكر مكان الطبعة وزمانها ورقمها إن وجد .
- لما كانت المرأة عنصراً بارزاً من عناصر القصة وجزءاً مهماً من أجزائها : فلقد رأيت لزاماً عليّ أن أبرز معالم كل قصة ، وأوفيتها حقها في التفسير والتحليل والبيان ، مع التركيز على دور المرأة في القصة .
- نظراً لما اشتمل عليه القصص القرآني من أحكام وعبر فلقد رأيت لزاماً عليّ أن أتناول في نهاية الحديث عن كل قصة أهم ما ورد فيها من الأحكام والعبر ، خاصة ما يتعلق منها بالمرأة .
- قمت بتخريج الآيات القرآنية الواردة في الرسالة بذكر اسم السورة ورقم الآية .
- قمت بتخريج جميع الأحاديث الواردة في الرسالة ، بذكر الراوي الأعلى وعزو كل حديث إلى مصادره من كتب السنة التي روي فيها ، وذكر موضعه ، مع بيان ما في الحديث من ألفاظ غريبة بالرجوع إلى كتب اللغة وكتب غريب الحديث وغيرها .
- وإذا كان الحديث في الصحيحين أو أحدهما : فالحديث صحيح ، وإذا لم يكن فيهما ولا في أحدهما رجعت إلى أقوال المحدثين الثقات في الحكم عليه ، فإن لم أجد حكماً عليه اجتهدت في الحكم عليه بعد النظر في سنده .
- بينت معاني مفردات ألفاظ القرآن الكريم بالرجوع إلى كتب التفسير وكتب علوم القرآن وكتب اللغة .
- اعتمدت في بيان أسباب النزول على كتب السنة وكتاب أسباب النزول للواحدي ولباب النقول في أسباب النزول للسيوطي ، وكتب التفسير بالمأثور .

● عزوت القراءات التي أوردتها في الرسالة إلى أصحابها مع توجيه كل قراءة بالرجوع إلى الكتب المتخصصة في ذلك .

● أبرزت في هذه الرسالة كثيرا من أوجه المناسبة والصلة بين الآيات ، وقمت بدفع ما يوهم ظاهره التعارض ، واستعنت بالمراجع المتخصصة في ذلك ، كما استعنت بكتب مشتهرات القرآن ، كالبرهان في توجيه متشابه القرآن للكرماني ، ودرة التنزيل وغرة التأويل للخطيب الإسكافي ، وكشف المعاني في التشابه من المثاني لبدر الدين بن جماعة ، وملاك التأويل في توجيه المتشابه اللفظ من آي التنزيل للإمام أحمد بن إبراهيم ابن الزبير الغرناطي ، وغير ذلك .

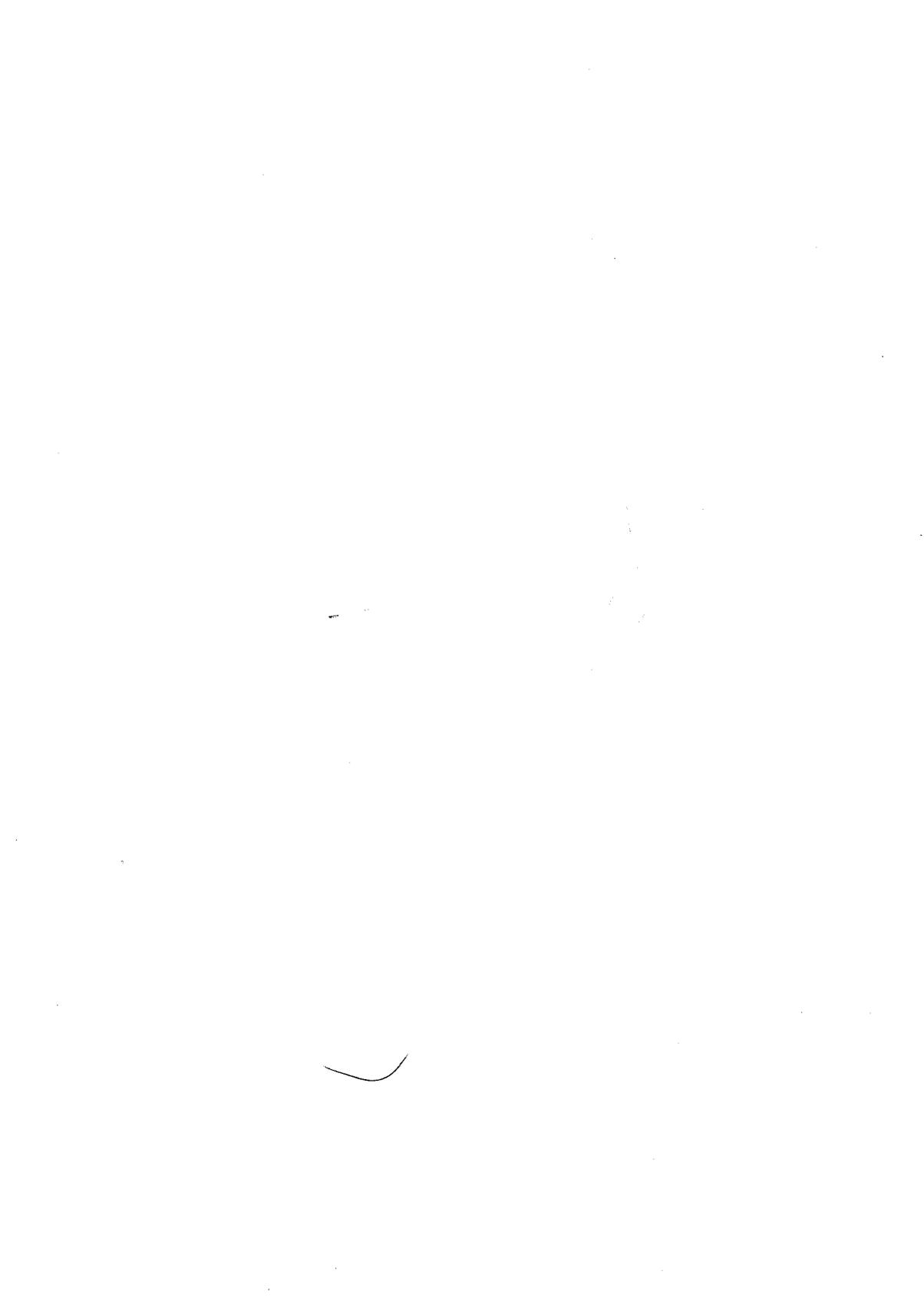
● قمت بترجمة الأعلام الواردة في الرسالة مستعينًا بالكتب المتخصصة في ذلك .

● قمت بالرجوع إلى العهدين القديم والجديد لبيان ما فيهما من التناقضات والأباطيل والافتراءات ، وللمقارنة بين ما ورد فيهما وبين ما ورد في القرآن الكريم ليتجلى لنا من خلال ذلك إعجاز القرآن الكريم وهيمته على الكتب السابقة التي حُرِّفت وبُدِّلت ، كما يتبين لنا من خلال ذلك أنه لا يمكن الاعتماد على العهدين بأي حالٍ من الأحوال .

● أوردت في خاتمة البحث : خلاصته ونتائجه وتوصياته وفهارس للمراجع وللأحاديث والأعلام وفهرسًا عامًا لمحتويات الرسالة .

وبعد فهذه هي خطتي في البحث ومنهجي فيه وأسأل الله ﷻ أن يجعل هذا العمل خالصًا لوجهه الكريم ، وأن يوفقنا إلى ما يحبه ويرضاه .

﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتُمْ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ (1) .



تمهيد

حول القصص القرآني

(تعريفه ، أقسامه ، مقاصده ، سماته)

أولاً : تعريف القصص القرآني :

القَصَصُ : الخبر المقصوص ، وضع موضع المصدر حتى صار غالبًا عليه ، والقِصص جمع قصة : وهي الخبر والحادثة .

وتقصص الخبر أي تتبعه ، واقتصصت الحديث رويته على وجهه ، والقص : البيان ، والقاص الذي يأتي بالقصة على وجهها كأنه يتتبع معانيها وألفاظها ، وقص الأثر تتبعه قال تعالى : ﴿ فَأَرْتَدَّا عَلَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصًا ﴾⁽¹⁾ أي رجع موسى وفتاه من الطريق الذي سلكاه يقصان الأثر أي يتتبعانه⁽²⁾ .

● والقرآن في اللغة : مصدر قرأ بمعنى تلا على وزن (فُعْلان) كغفران ورجحان ثم نقل هذا المصدر وجعل اسماً لكلام الله تعالى المنزل على رسوله ﷺ قال تعالى : ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْتَهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ﴾⁽³⁾ أي فاتبع قراءته .

وقيل : إن القرآن وصف مشتق من القراء بمعنى الجمع ، وسمي بذلك لأنه يجمع السور ، أو يجمع القصص والأمثال والأوامر والنواهي والحكم والمواعظ والوعد والوعيد وغير ذلك قال تعالى : ﴿ وَزَلَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾⁽⁴⁾ .

(1) سورة الكهف : 64 .

(2) يراجع لسان العرب لجمال الدين أبي الفضل محمد بن مكرم بن علي بن أحمد بن أبي القاسم بن منظور (630 - 711 هـ) مادة (ق ص ص) ط 3650/5 ط دار المعارف .

ويراجع / تاج العروس من جواهر القاموس للإمام محب الدين أبي الفضل السيد محمد مرتضي الحسيني الواسطي الزبيدي الحنفي ، نزيل مصر (1145 - 1205 هـ) - 421/4 ، 424 مادة ق ص ص ط المطبعة الخيرية بجمالية مصر سنة 1306 هـ

ويراجع أيضًا المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للعلامة أحمد بن محمد بن علي المقرئ الفيومي (ت 770 هـ) 72/2 مادة (ق ص ص) ط / المطبعة العثمانية بمصر - 1312 هـ .

ويراجع المفردات في غريب القرآن للإمام أبي القاسم الحسين بن محمد المعروف بالرغب الأصفهاني (ت 502 هـ) ص 404 مادة (ق ص ص) ط دار المعرفة بيروت لبنان .

(4) سورة النحل : 89 .

(3) سورة القيامة : 17 ، 18 .

● والقول بأن القرآن من القرء بمعنى الجمع قول ضعيف لا يساعد عليه الاشتقاق ، وذهب البعض إلى أن القرآن عَلم لا اشتقاق له .

والذي أرجحه - والله تعالى أعلم - هو أن القرآن مصدر : قرأ ، على وزن فُعْلان ، كغُفْران وُرُجْحان (1) .

● والقرآن في الاصطلاح : هو كلام الله تعالى المنزل على رسوله الكريم ﷺ ، الموجودُ بين دفتي المصحف ، المنقولُ إلينا تواتراً ، المتعبدُ بتلاوته والمتحدي بأقصر سورة منه (2) .

● والقصص القرآني هو : إخبار الله تعالى في كتابه الكريم عن أحوال الأمم الماضية والنبوات السابقة والحوادث الواقعة (3) .

وبناء على هذا التعريف فالقصص القرآني يشتمل على :

● قصص الأنبياء : وقد تضمن مناهجهم في الدعوة إلى الله تعالى ومعجزاتهم التي

(1) يراجع لسان العرب لابن منظور مادة ق ر أ - 3563/5 .

ويراجع / البرهان في علوم القرآن للإمام بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي ت 794 هـ / 1 / 277 ط دار التراث القاهرة بدون تاريخ .

(2) يراجع مباحث في علوم القرآن د / صبحي الصالح أستاذ الدراسات الإسلامية وفقه اللغة بكلية الآداب الجامعة اللبنانية ص 21 ط دار العلم للملايين بيروت ط 14 سنة 1984 ، ويراجع الفوز الكبير في العلم بأصول التفسير للأستاذ الدكتور محمد متولي إدريس أستاذ التفسير وعلوم القرآن بكلية أصول الدين والدعوة جامعة الأزهر بالرقازيق ص 5 ط 2 سنة 1413 هـ ط المكتب العلمي الحديث بالرقازيق .

(3) مباحث في علوم القرآن لفضيلة الشيخ الداعية متاع خليل القطان مدير المعهد العالي للقضاء بالرياض ص 273 ط مكتبة وهبة سنة 1401 هـ سنة 1981 م ط 5 .

والأستاذ متاع القطان علم من أعلام الأزهر الشريف . ولد في أكتوبر سنة 1925 م بقرية شنشور مركز أشمون محافظة المنوفية بمصر وحفظ القرآن الكريم ودرس في الأزهر الشريف حتى التحق بكلية أصول الدين بالقاهرة وحصل على الإجازة العالية وتخصص التدريس بتفوق ، ومن أساتذته د . محمد البهي ود . محمد يوسف موسي والشيخ عبد الرازق عفيفي الذي صحبه معه للتدريس في المعهد العالي للقضاء بالرياض . سنة 1953 م . من مؤلفاته : مباحث في علوم القرآن - تفسير آيات الأحكام - التشريع والفقه في الإسلام تاريخاً ومنهجاً - موقف الإسلام من الاشتراكية - نظام الأسرة في الإسلام - مباحث في علوم الحديث - رفع الحرج في الشريعة الإسلامية - الإسلام رسالة الإصلاح - القضاء في العهد النبوي والخلافة الراشدة .
تراجع ترجمته في كتاب علماء ومفكرون عرفتهم لمحمد المجذوب 447/1 : 460 ط دار الاعتصام .

أيدهم الله بها ، وأخلاقهم ، وموقف المعاندين منهم وجزاء المؤمنين وعاقبة المكذبين الضالين .

● قصص قرآني يتعلق بحوادث غابرة وأشخاص ليسوا بأنبياء كقصة قاييل وهابيل وأصحاب الكهف وأصحاب الجنتين وذي القرنين ، وأصحاب السبت وأصحاب الأخدود وأصحاب الفيل .

● قصص يتعلق بأحداث ووقائع حدثت في عصر النبوة كالإسراء والمعراج والهجرة وغزوة بدر وأحد وغزوة الأحزاب وزواج الرسول ﷺ من زينب بنت جحش وحديث الإفك وغزوة حنين وتبوك وقصة المجادلة التي ظاهر منها زوجها وغير ذلك (1) .

مقاصد القصص القرآني

القرآن الكريم كتاب هداية للبشرية جمعاء في شتى مجالات الحياة قال تعالى ﴿وَزَلَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ (1) .
وقال تعالى : ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ (2) .

وللقصص القرآني مقاصد سامية وأغراض حكيمة وفوائد متعددة تتواكب وتناسب مع المقصد العام للقرآن الكريم . وهو هداية البشرية إلى ما يصلحها في عاجلها وآجلها ، في معاشها ومعادها . قال تعالى : ﴿لَقَدْ كُنَّا فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةً لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (3) .

وقال ﷺ : ﴿وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (4) .

● فالقصص القرآني : عظة وعبرة وهداية ورحمة وتفصيل وبيان (5) وتثبيت للقلوب وتزكية للنفوس وسمو بالأرواح .

● والقصص القرآني : حجة ساطعة وآية قاطعة تشهد على صدق رسول الله ﷺ فيما جاء به ، وكل قصة قرآنية تعد دليلاً واضحاً على نبوته ﷺ قال تعالى في سورة آل عمران في سياق الحديث عن مريم عليها السلام : ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُ أَفْلَمْهَمُ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ (6) . فهذه القصة - بما فيها من أحداث وعبر وتفصيل وبيان - ما كان ﷺ ليعلمها إلا عن طريق الوحي الإلهي .

وقال تعالى في سورة هود بعد أن ذكر قصة نوح عليه السلام : ﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَقِيبَةَ لِلْمُنَاقِبِ﴾ (7) .

(2) سورة الإسراء : 9 .

(1) سورة النحل : 89 .

(4) سورة هود : 120 .

(3) سورة يوسف : 111 .

(5) جوي القصص القرآني في طياته موضوعات عديدة في العقيدة وفي الشريعة والأخلاق والتاريخ والحضارات والأديان والثقافات والعبر والعظات .

(6) سورة آل عمران : 44 .

(7) سورة هود : 49 .

وقال تعالى في سورة يوسف : ﴿ ذَلِكْ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴾ (1) وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿ (1)

وفي سورة القصص يقول ﷺ في مستهلها : ﴿ طَسَمَ ﴿١﴾ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿٢﴾ تَتْلُوا عَلَيْكَ مِنْ نَبَأِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣﴾ (2)

وفي ختام قصة موسى مع فرعون يقول ﷺ : ﴿ وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْفَرْقِ إِذْ فَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴾ (3) وَلَكِنَّا أَنْشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنْتَ تَأْوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿١٥﴾ وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَأْتَتْهُمِ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ (3)

● فالقصص القرآني وجهٌ من وجوه إعجاز القرآن الكريم يدل دلالة واضحة على صدق رسول الله ﷺ فيما جاء به من عند ربه .

● ومن أهداف القصص القرآني تقريرُ العقيدة الإسلامية عقيدة التوحيد ، وهي عقيدة جميع الأنبياء من لدن آدم ﷺ وحتى خاتم النبيين والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، قال تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴾ (4) فَمَنْ تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١٧١﴾ أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿١٧٢﴾ قُلْ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَالْيَسَاقَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿١٧٣﴾ (4)

وقال ﷺ : ﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْيَسَاقَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُوشَعَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَعَائِينَ دَاوُدَ زَبُورًا ﴾ (5) وَرُسُلًا قَدْ فَصَّصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٧٤﴾ رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ

(2) سورة القصص : 1 ، 2 ، 3

(1) سورة يوسف : 102 ، 103

(4) سورة آل عمران : 81 ، 84

(3) سورة القصص : 44 ، 46

لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١﴾ .

وقال سبحانه وتعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا ﴾ (2) .

وقال سبحانه وتعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ (3) .

وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ ﴾ (4) .

● فالدين واحد ، والرسالة واحدة ، والمنبع واحد ، والمشكاة واحدة ، والسلسلة متصلة الحلقات من آدم عليه السلام حتى الحبيب المصطفى عليه السلام .

● والقصص القرآني تثبيت لقلب رسول الله عليه السلام وتسليية وتسرية وزاد له في دعوته ﴿ وَكَلَّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (5) .

● ولقد واجه رسول الله عليه السلام كثيرا من المحن والابتلاء ، والصدود والإعراض والإيذاء ، والاضطهاد ، والسخرية والاستهزاء ، والمساومة والإغراء ، فبين له المولي عليه السلام أن ما يحدث له عليه السلام وما يمر به قد حدث مثله للأنبياء من قبله فصبروا وصمدوا وثبتوا حتى نجاهم الله تعالى ونصرهم على أهل الكفر ، فطريق الدعوة إلى الله تعالى طريق محفوف بالأشواك والعقبات والابتلاءات .

يقول عليه السلام في سورة البقرة : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَاءُ وَزُلْزَلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصُرَ اللَّهُ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴾ (6) .

ويقول عليه السلام في سورة آل عمران : ﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ نَجِيٍّ قَتَلْنَا مَعَهُ رِيثُونَ كَثِيرٌ فَمَا

(2) سورة الأحزاب : 7 .

(4) سورة النحل : 36 .

(6) سورة البقرة : 214 .

(1) سورة النساء : 163 - 165 .

(3) سورة الأنبياء : 25 .

(5) سورة هود : 120 .

وَهُنَا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ﴿١﴾ .
ويقول تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آسَأْتَهُزَىٰ بُرْسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالذِّئِبِ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا
كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ (2) .

ويقول تعالى : ﴿ قَدْ نَعَلِمُ إِنَّهُ لِيَحْزَنَكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يَكْذِبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ
بِعَايِنَتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾ ﴿٣﴾ . وَلَقَدْ كَذَّبْتَ رَسُولٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبْرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأَوْدُوا حَتَّىٰ
أَنلَّهُمْ نَصْرًا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَاِ الْمُرْسَلِينَ ﴾ (3) .

● والقصص القرآني تقرير للأحكام الشرعية وترسيخ لها فالأنبياء جميعا متفقون في
أصول الشرائع وإن اختلفوا في بعض الفروع ؛ نظرا لاختلاف الأزمان والأحوال
والبيئات قال تعالى : ﴿ وَكُنَّا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ
وَالْأَنفَ بِالْأَنفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصًا فَمَن تَصَدَّقَ
بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ وَمَن لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُم الظَّالِمُونَ ﴾ ﴿٥﴾ وَفَقِينَا
عَلَىٰ آثَرِهِمْ يَعِيسَىٰ ابْن مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّورَةِ وَآيِنَهُ الْإِنجِيلَ فِيهِ هُدَىٰ
وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّورَةِ وَهُدَىٰ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٦﴾ وَلِيَحْكُمَ أَهْلُ الْإِنجِيلِ
بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَن لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُم الظَّالِمُونَ ﴿٧﴾ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ
الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم
بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا
وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَقِيمُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى
اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٨﴾ وَإِن أَحْكَمَ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ
وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَم أَنَّهُ
يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِن كَثُرُوا كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَسِقُونَ ﴿٩﴾ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ
وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ (4) .

● وفي القصص القرآني بيان لعداوة إبليس للعين للإنسانية جمعاء ، وجذور هذه
العداوة وامتدادها وكثير من أخطارها عبر العصور والأجيال قال تعالى : ﴿ يَتَّبِعِيَّ آدَمَ
لَا يَفْنَىٰكُمْ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّن الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا

(2) سورة الأنعام : 10

(1) سورة آل عمران : 146

(4) سورة المائدة : 45 ، 50

(3) سورة الأنعام : 33 ، 34

سَوَّاهُمَا إِنَّهُ بَرَكْتُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ .

وقال تعالى في سورة النمل مخبراً عن كلام الهدهد مع نبي الله سليمان عليه السلام عن ملكة سبأ : ﴿ إِنِّي وَجَدْتُ أَمْرًا تَمَلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٦﴾ وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَانَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٧﴾ أَلَا سَجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٨﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾ ﴾ (2) .

وقال تعالى في سورة سبأ : ﴿ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يُوْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴿٣٦﴾ ﴾ (3) .

وفي سورة يس يقول الله تعالى : ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يٰبَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٣٦﴾ وَأَنْ أَعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِلاً كَثِيراً أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾ (4) .

فلقد كشف لنا القرآن الكريم عن عداوة الشيطان الرجيم ومخططاته ووسائله في إضلال البشرية وإغوائها .

● ومن أغراض القصص القرآني : مقارنة أهل الكتاب بالحجة والبرهان ومواجهتهم بما وقعوا فيه من التحريف والتبديل والكتمان وبيان القول الفصل فيما اختلفوا فيه والإجابة على تساؤلاتهم وتفنيدهم ومزاعمهم وشبهاتهم ودحض حججهم ومفترياتهم .

قال تعالى : ﴿ كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلاً لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنزَلَ التَّوْرَةُ فَلْ فَاَتُوا بِالتَّوْرَةِ فَاَتَلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾ (5) .

وقال تعالى : ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ لِيَجْعلُوهُ قُرْآنًا يَدُونَهَا وَخُفُونَ ﴾

(2) سورة النمل : 22 - 26 .

(4) سورة يس : 60 - 62 .

(1) سورة الأعراف : 27 .

(3) سورة سبأ : 20 - 21 .

(5) سورة آل عمران : 93 .

كثيراً وَعَلَّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿١١﴾
 وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مَبَارَكٌ مُصَدِّقٌ لَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِنُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ
 يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿١٢﴾ (1)

وقال تعالى في سورة النمل: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَفُصُّ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي
 هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ (2)

ومن أغراض القصص القرآني بيان نعم الله تعالى على بني إسرائيل مع أنبيائهم وسوء
 طبائعهم وفساد أخلاقهم حتى نكون منهم على حذر، وحتى يحذروا من أن يصيهم ما
 أصاب أسلافهم الذين مضوا. قال تعالى: ﴿يَبْنَئِ إِسْرَائِيلَ أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ
 عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوْفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيتِي فَرَاهِبُونَ ﴿١٣﴾ وَعَامِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا
 مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلَا تَشْتَرُوا بِعَابَتِي نَهْمًا قَلِيلًا وَإِيتِي فَاتَّقُونِ ﴿١٤﴾ وَلَا تَلْسَبُوا
 الْحَقَّ بِالْبَطْلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٥﴾ (3)

ويقول الله تعالى: ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ
 سَنَكْتُمُ مَا قَالُوا وَقَتَلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلًا دُوفُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿١٦﴾ ذَلِكَ
 بِمَا قَدَّمْت أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَامٍ لِلْعَالَمِ ﴿١٧﴾ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ
 إِلَيْنَا أَلَّا نُرْسِلَ رَسُولًا حَتَّىٰ يَأْتِينَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ
 قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٨﴾ فَإِنْ كَذَّبُوكَ
 فَقَدْ كَذَّبَ رَسُولٌ مِّنْ قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴿١٩﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ
 الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّقُونَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحْجِحَ عَنِ النَّارِ وَأَدْخِلَ الْجَنَّةَ
 فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْفُرُورِ ﴿٢٠﴾ لَتُسَبَّوْا فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ
 وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى
 كَثِيرًا وَإِنْ نَصَرْتُمْ وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿٢١﴾ (4)

● والقصص القرآني أسلوب من أساليب الدعوة إلى الله تعالى نتعرف من خلاله على
 مناهج الأنبياء في الدعوة إلى الله تعالى، وأحوال المدعوين وجزاء المؤمنين وعاقبة
 المكذبين الضالين فهو زاد للدعاة إلى الله تعالى ونبراس لهم.

(2) سورة النمل : 76 .

(1) سورة الأنعام : 91 ، 92 .

(4) سورة آل عمران : 181 - 186 .

(3) سورة البقرة : 40 - 42 .

يقول فضيلة الشيخ محمد الغزالي (1) في كتابه (نظرات في القرآن الكريم) :
[القصة من أبرز الأساليب القرآنية في شرح الإسلام وبيان رسالته ومزج تعاليمه
بالقلوب ، والقصة القرآنية تاريخ لسير الدعوة في الحياة وكيف خطت مجراها بين
الناس منذ فجر التاريخ ؟ .

وما هي العقبات التي اعترضتها ؟ وهل وقفت عندها أم تغلبت عليها ؟ وماذا صنع
الأنبياء بإزائها ؟ وكيف قبلت الأمم المدعوة رسالات الله أو صدّت عنها ؟ وكيف انتهى
الصراع بين الغي والرشاد ؟ ... فالقرآن الكريم كتاب الدعوة وتاريخها ، وفي تضاعيف
السرد التاريخي لأخبار الأولين يزداد عرض الدعوة وضوحاً ويستبين منهجها الذي تحدى
البشرية إليه والذي لا يختلف وإن اختلفت العصور وكرت الدهور [(2) .

ويقول الدكتور محمد السيد الوكيل : [والقصة من أبرز الأساليب القرآنية في الدعوة
إلى الله ومعالجة المشكلات ، فهي أسلوب أخذ يستحوذ على القلوب وسيطر على
النفوس ويهيئ العقول لحسن التلقي فتدعن له في يقين ، وتسلم بالنتائج في رضا وثقة ،
حتى إنك وأنت تقرأ القصة أو تستمع إليها يخيل إليك أنها تعالج واقعاً تعيش فيه ويعيش
معك فيه المجتمع الذي أنت جزء منه ؛ ذلك لأن مشكلات العالم مهما تباينت الأزمنة ،
ومهما اختلفت البيئات ، ومهما تغيرت الظروف تكاد تكون واحدة ، غير أنها تتكرر في

(1) هو فضيلة الشيخ محمد الغزالي السقا . داعية ومفكر وكاتب إسلامي ولد بقرية نكلا العنب ، إيتاي
البارود / محافظة البحيرة في 1917/9/22 - وحفظ القرآن في سن مبكرة ، والتحق بالأزهر الشريف وحصل
على الإجازة العالية في أصول الدين ودرجة التخصص في الدعوة والإرشاد ، وللغزالي مواقف مشهودة
محمودة في حياته ، تدل على قيامه وتجرده للحق ، وصبره على المحن والابتلاءات في طريق الدعوة فلقد كان
فارساً من فرسان الدعوة مات في ميدانها وذلك في شهر مارس سنة 1996 بالسعودية حيث كان يحاضر في
مؤتمر . مات رحمه الله تاركاً وراءه تراثاً ذاخراً وميراثاً عامراً من المؤلفات الكثيرة الغزيرة ، منها على سبيل المثال .
نحو تفسير موضوعي / المحاور الخمسة للقرآن الكريم / كيف نتعامل مع القرآن / معركة المصحف ، نظرات في
القرآن / هذا ديننا / كيف نفهم الإسلام / ليس من الإسلام / ظلام من الغرب / كفاح دين / جدد حياتك /
من معالم الحق / فقه السيرة / عقيدة المسلم / خلق المسلم / من هنا نعلم ، وغير ذلك .

تراجع ترجمته في مجلة المجتمع الكويتية عدد 1192 ذو القعدة سنة 1416 هـ - مقال بعنوان الشيخ الغزالي فارس
الكلمة بقلم الدكتور يوسف القرضاوي وللقرضاوي أيضاً كتاب ألفه عن الغزالي بعنوان - الشيخ الغزالي كما
عرفته - رحلة نصف قرن - ط دار الوفاء سنة 1417 هـ . وتراجع مجلة الأزهر عدد شهر ذي القعدة سنة 1416 هـ
مقال بعنوان - من أعلام الأزهر الشيخ محمد الغزالي للأستاذ الدكتور محمد رجب البيومي .

(2) نظرات في القرآن الكريم لفضيلة الشيخ الغزالي رحمه الله ص 110 بتصرف ط دار الكتب الحديثة ط 5 .

صور شتى ، لتعطي المشكلة حجمها الطبيعي في البيئة والظروف التي تتكرر فيها ، ومن هنا كان القصص القرآني الكريم للعبارة لا للتسلية [(1)] .

من سمات القصص القرآني

سمو الهدف . الواقعية . إيراد بعض القصص في أكثر من سورة .
وفيما يلي أتحدث عن هذه السمات فأقول وبالله التوفيق .

1 - سمو الهدف :

للقصص القرآني أهداف سامية ، ومقاصد عالية ، فهو صورة حية ومشاهد واقعية وعظات وعبر ، وبرهان ساطع على صدق رسول الله ﷺ فيما جاء به ، وهو تقرير للأحكام الشرعية يرسخها في النفوس ويجلي حكمها البالغة ومقاصدها الحكيمة ، وهو سجل حافل بأحوال الأنبياء ومناهجهم في الدعوة إلى الله تعالى وصبرهم وثباتهم على الحق .

● وبالجملة فالقصص القرآني هداية وبيان وعظة واعتبار .

● ولقد جمع القصص القرآني بين سمو الهدف وسمو الأسلوب وروعته ورفعته ، وورقته ، ودقته .

2 - الواقعية :

فالقصص القرآني تصوير حي وتعبير دقيق عن أحداث وقعت ، هذه الأحداث مليئة بالعبر والعظات التي نستمددها ونتزود بها في واقعنا المعاصر ، فهو واقعي في أحداثه ، واقعي في عبره وعظاته .

(1) نظرات في أحسن القصص د / محمد السيد الوكيل 8/1 ط دار القلم بسوريا ط أولي 1415 هـ .
د . محمد السيد الوكيل - أستاذ التاريخ الإسلامي بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة سابقاً ، له مؤلفات كثيرة منها : هذا الدين بين جهل أبنائه وكيد أعدائه ، أسس الدعوة وآداب الدعاة ، قواعد البناء في المجتمع الإسلامي ، الترويح في المجتمع الإسلامي ، كبرى الحركات الإسلامية في القرن الرابع عشر الهجري ، جولة تاريخية في عصر الخلفاء الراشدين ، تأملات في سيرة الرسول ﷺ - تاريخ اليهود في بلاد العرب - القيادة والجندي في الإسلام ، تحقيق كتاب (الأوائل لأبي الهلال العسكري) ، موسوعة المدينة المنورة التاريخية ، عناية الإسلام بتخطيط المدن وعمارته .

3 - إيراد بعض القصص في أكثر من سورة :

وهذه سمة من السمات البارزة والملامح المميزة للقصص القرآني وفي هذا ما يدل على بلاغة النظم القرآني وإعجازه .

يقول الإمام الباقلائي (1) :

[... إعادة ذكر القصة الواحدة بألفاظ مختلفة تؤدي معني واحدا من الأمر الصعب الذي تظهر فيه الفصاحة وتبين فيه البلاغة ، وأعيد كثير من القصص في مواضع مختلفة على ترتيبات متفاوتة ، ونبهوا بذلك عن عجزهم عن الإتيان بمثله مبتدأ به ومكررا ، ولو كان فيهم تمكن من المعارضة لقصدوا تلك القصة فعبروا عنها بألفاظ لهم تؤدي معناها وتحويها ، وجعلوها بإزاء ما جاء به ، وتوصلوا بذلك إلى تكذيبه وإلي مساواته فيما جاء به] (2) .

● وذكر الزركشي (3) في الحكمة من إيراد بعض القصص القرآني في أكثر من سورة وجوهاً كثيرة نذكر منها ما يلي :

● أن إيراد بعض القصص القرآني في أكثر من سورة لم يوقع في اللفظ هجئة ولا أحدث مللاً فباين بذلك كلام المخلوقين .

● أنه ألبسها زيادة ونقصاً وتقديمًا وتأخيرًا ، ليخرج بذلك الكلام أن تكون ألفاظه

(1) الباقلائي هو : محمد بن الطيب بن محمد بن جعفر بن القاسم البصري ثم البغدادى المعروف بالباقلاني (أبو بكر) - (338 - 403 هـ) ولد بالبصرة ، وانتقل إلى بغداد وسمع بها الحديث ودرس علم الكلام ، وله مصنفات كثيرة منها : إعجاز القرآن ، ومناقب الأئمة ونقض المطاعن على سلف الأمة وأسرار الباطنية ، وهداية المسترشدين في علم الكلام تراجع ترجمته في معجم المؤلفين لعمر رضا كحالة 110/10 ط مكتبة المشى بيروت بدون تاريخ . وشذرات الذهب في أخبار من ذهب لأبي الفلاح عبد الحي بن العماد الحنبلي ت 1089 هـ ط دار الآفاق الجديدة بيروت بدون تاريخ 169/3 . وتاريخ بغداد للحافظ أبي بكر أحمد بن علي الخطيب البغدادى ت 463 هـ ط دار الكتب العلمية بيروت بدون تاريخ . ووفيات الأعيان 481/1 .

(2) إعجاز القرآن للقايسى أبي بكر الباقلائي بهامش الإتقان في علوم القرآن 116/1 ط دار عالم المعرفة بدون تاريخ .

(3) هو الإمام بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي من علماء القرن الثامن الهجري (745 - 794) ولد بالقاهرة وتلقى على كبار علمائها ورحل في طلب العلم إلى حلب ثم إلى دمشق حيث تتلمذ على يد الحافظ ابن كثير ... له مؤلفات كثيرة من أشهرها : البرهان في علوم القرآن وإعلام الساجد بأحكام المساجد والإجابة لإيراد ما استدركته عائشة على الصحابة والبحر المحيط في أصول الفقه ، تراجع ترجمته في الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة لابن حجر 397/3 ط حيدر آباد ، ومعجم المؤلفين لعمر رضا كحالة 121/9 .

واحدة بأعيانها ، فيكون شيئاً معاداً فنزّهه عن ذلك بهذه التغييرات .

● أن المعاني التي اشتملت عليها القصة الواحدة من هذه القصص صارت متفرقة في تارات (1) التكرير فيجد البليغ - لما فيها من التغيير - ميلاً إلى سماعها لما جبلت عليه النفوس من حب التنقل في الأشياء المتجددة التي لكل منها حصة من الالتذاذ به مستأنفة .

● ومنها ظهور الأمر العجيب في إخراج صور متباينة في النظم بمعنى واحد ، وقد كان المشركون في عصر النبي ﷺ يعجبون من اتساع الأمر في تكرار هذه القصص مع تغاير أنواع النظم وبيان وجوه التأليف ، فعرفهم الله سبحانه وتعالى أن الأمر بما يتعجبون منه مردود إلى قدرة من لا يلحقه نهاية ولا يقع على كلامه عدد ، لقوله تعالى : ﴿ قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ نُنْفِذَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا ﴾ (2) ، وكقوله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَمٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ ﴾ (3) . (4) .

ويقول الأستاذ مصطفى صادق الرافعي في كتابه (5) (إعجاز القرآن والبلاغة النبوية) :

[... والتكرار في القصص القرآني من أوجه إعجازه حيث يرد المعنى في صور متعددة وبعبارات مختلفة ، وهو مذهب للعرب معروف ولكنهم لا يذهبون إليه إلا في ضروب من خطابهم للتسهيل والتوكيد والتخويف والتفجع وما يجري مجراها من الأمور العظيمة ، وكل ذلك مأثور عنهم منصوص عليه في كتب البلاغة والأدب .

بيد أن وروده في القرآن الكريم مما حقق للعرب عجزهم بالفطرة عن معارضته لقوة غريبة فيه ، ولضعف غريب في أنفسهم لم يعرفوه إلا بهذه القوة ؛ لأن المعنى الواحد

(1) تارات جمع تارة بتخفيف الراء وهي المرة الواحدة يراجع المصباح المنير 38/1 مادة (ت و ر) .

(2) سورة الكهف : 109 .

(3) سورة لقمان : 27 .

(4) يراجع البرهان في علوم القرآن للزركشي 25/3 ط دار التراث .

(5) مصطفى صادق الرافعي :

كاتب ، أديب شاعر ، ولد في القليوبية سنة 1297 هـ سنة 1880 م ونال الشهادة الابتدائية وعين كاتباً في محكمة طنطا ، وأصيب بصمم فكان يكتب له ما يراد مخاطبته به ، وانتخب عضواً بالمجمع العلمي العربي بدمشق وتوفي في طنطا في 29 من صفر سنة 1356 هـ سنة 1937 م ، من مؤلفاته : ديوان شعر ، تاريخ آداب العرب ، السحاب الأحمر ، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية .

تراجع ترجمته في معجم المؤلفين لعمر رضا كحالة 256/12 والأعلام للزركلي 235/7 .

يتردد في أسلوب بصورتين أو صور كل منها غير الأخرى وجهاً أو عبارة ، وهم على ذلك عاجزون عن الصورة ومستمرون على العجز لا يطيقون ولا ينطقون [(1)] .

ويقول الأستاذ عفيف طبارة (2) في كتابه مع الأنبياء في القرآن الكريم [ومما يلفت النظر في قصص الأنبياء هو أن معاني القصة ترد مكررة في مواضع شتى من سور القرآن وهذا التكرار لا يتناول القصة كلها وإنما هو تكرار لبعض حلقاتها ... هذا التكرار البليغ برهان على كونه وحياً إلهياً يستشعره كل مطلع على أسرار فصاحة اللغة العربية ، فالشاعر أو الكاتب إذا كرر قولاً لا يكون كلامه الثاني في درجة الأول في الفصاحة ، بل تظهر عليه علامات الضعف والتكلف والتفكك أما أسلوب القرآن فقد بلغ الغاية في الفصاحة في جميع ما كرر من قصص وسواها [(3)] .

وفي تكرار القصة في أكثر من سورة اهتمام بشأنها وتمكين لعبورها في النفوس حتى يتذكرها المسلم دائماً ويتزود منها لمعاشه ومعاده والتكرار كما أنه عادة البلغاء وشيمة الفصحاء فهو أيضاً أسلوب بليغ من أساليب التربية ووسيلة من وسائل الإقناع والتأثير والتغيير .

يقول الأستاذ الدكتور عبد الغني الراجحي (4) رحمه الله : [كُرِّرَت القصة الواحدة في القرآن في أكثر من سورة ؛ لتوكيد ما تفيده من المعاني والأهداف في نفوس السامعين ، فالتكرار من أقوى وسائل الإقناع وتركيز الفكرة والعقيدة في النفس البشرية] (5) .

(1) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية مصطفى صادق الرافعي ص 193 ، 194 بتصرف ط دار الكتاب العربي الطبعة التاسعة سنة 1393 هـ سنة 1973 م .

(2) والأستاذ عفيف عبد الفتاح طبارة : كاتب إسلامي له مؤلفات كثيرة منها : مع الأنبياء في القرآن ، روح الصلاة في الإسلام - الخطايا في نظر الإسلام ، اليهود في القرآن ، تفسير ربع يس وتفسير سور فاطر ، سبأ ، الأحزاب ، السجدة ، لقمان ، الروم ، العنكبوت ، القصص ، النمل ، الشعراء ، الفرقان .

(3) مع الأنبياء في القرآن الكريم (قصص ودروس وعبر) الأستاذ عفيف عبد الفتاح طبارة ص 26 ، 27 بتصرف دار العلم للملايين ط الثامنة عشرة . سنة 1993 م .

(4) الأستاذ الدكتور عبد الغني الراجحي : من علماء الأزهر الشريف حصل على العالمية - الدكتوراه من جامعة الأزهر الشريف من كلية أصول الدين ودرس فيها وتولى عمادة كلية أصول الدين بأسبوط وأشرف وناقش رسائل علمية عديدة ، له مؤلفات في التفسير وعلوم القرآن منها آدم ~~الخطايا~~ كما تحدث القرآن الكريم ، والنهج القويم في دراسة علوم القرآن الكريم .

(5) النهج القويم في دراسة علوم القرآن الكريم للدكتور / عبد الغني عوض الراجحي ص 19 بتصرف ط الباي الحلبي بدون تاريخ .

ويقول الأستاذ عفيف طبارة [... ولا بد من الإشارة إلى أن في التكرار أثرًا ملموسًا في التأثير على الجماعات والأفراد ، فإذا تكرر الشيء رسخ في الأذهان رسوخًا ينتهي بها إلى قبوله وهذه حقيقة ساطعة] (1) .

ويقول الدكتور التهامي نفرة في كتابه (سيكولوجية القصة في القرآن) .

[... وتكرار القصة القرآنية يخدم غرضين في آن واحد غرضًا فنيًا يتمثل في تجدد أسلوبها إيرادًا وتصويرًا ، والتفنن في عرضها إيجازًا وإطنابًا ، والتنوع في أدائها لفظًا ومعنى ، وغرضًا نفسيًا بماله من تأثير في النفوس ؛ لأن المكرر ينطبع في تجاويف الملكات اللاشعورية التي تختمر فيها أسباب أفعال الإنسان ودوافعها كما هو مقرر في علم النفس] (2) .

ويقول الدكتور التهامي [وفي رأيي أن التكرار في القرآن لم يقصد به الإعجاز البياني بقدر ما قصد به التأثير النفسي ؛ لما يعلم الله من تفاوت في مدارك البشر وأمزجتهم ، إذ منها ما ينفذ إلى الحقيقة ، ومنها ما يسيطر عليه الوهم تحت سلطان الأفكار الموروثة ، ومنها ما يصل به برود العاطفة إلى جمودها رغم المثيرات العاصفة ، فالنفوس متباينة والعقول متفاوتة والطبائع مختلفة] (3) .

كما يقول أيضًا : [فتكرار القصة في عدة سور بأساليب مختلفة إنما يهدف إلى تمكين هذه السنن في النفس وتثبيتها في القلب حتى تقوي داعية الإصلاح عند المصلح فلا يجد اليأس سبيلًا إليه ، وقد كان من تربية الله لنبيه محمد ﷺ أن قص عليه من سير الأنبياء ما يسليه ؛ لأن نفوس المفسدين في كل زمان ومكان متقاربة ووسائلهم في محاربة الحق متشابهة .

والقرآن لم يقتصر في مثل هذه المقامات التي يثبت فيها القلوب ويقوي العزائم على ذكر قصة واحدة لأحد الأنبياء يستدل بها ، بل قدم طائفة من قصص الأنبياء بقصد توكيد هذه الحقيقة وتقرير أنها من سنن الله التي لا تتخلف] (4) .

● وفي ورود القصة القرآنية الواحدة في سور متعددة وبأساليب متنوعة وطرائق شتى

(1) مع الأنبياء في القرآن الكريم (قصص ودروس وعبر) عفيف عبد الفتاح طبارة ص 27 .

(2) سيكولوجية القصة في القرآن . رسالة دكتوراه - جامعة الجزائر د / التهامي نفرة ص 116 الشركة التونسية

للتوزيع ط 1974 م .

(4) المرجع السابق ص 130 .

(3) المرجع السابق ص 128 .

ما يدل دلالة واضحة على الوحدة الموضوعية للقرآن الكريم ؛ وذلك لأننا حين نجمع هذه الآيات المتفرقة الواردة في قصة واحدة ونتأمل فيها بدقة نجد أنفسنا أمام نسيج فريد وبناء محكم مكتمل وصورة وافية للقصة .

يقول الدكتور عبد الغني الراجحي : [المفارقات اللفظية التي جاء عليها مكرر القصص عندما نبحث عن أسرارها وأسبابها : يتجلى لنا بوضوح رعاية المقامات في كلام الله ومناسبته لمقتضى الحال] (1) .

ومما سبق يتضح لنا ما يلي :

● للقصص القرآني أهدافه السامية ومقاصده الحكيمة ؛ فهو عظة واعتبار وتفصيل وبيان وهداية وبرهان على صدق رسول الله ﷺ فيما جاء به .

● وهو قصص حقيقي واقعي في أحداثه وعبره .

● في ورود القصة القرآنية الواحدة في سور متعددة وبأساليب متنوعة وطرائق شتى : حجة ساطعة وآية رائعة تشهد ببلاغة القرآن ورفعته ، وأسلوب حكيم من أساليب التربية والتقويم ، له أثره الملموس في ترسيخ المعاني في النفوس ، وبرهان واضح على الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم .

ويتجلى ذلك حين تجمع الآيات المتفرقة الواردة في قصة واحدة ونتأمل فيها بدقة : حيث نجد أنفسنا أمام نسيج فريد وبناء محكم مشيد ، وصورة وافية للقصة .

● وورود القصة الواحدة في سور متعددة وبأساليب متنوعة يتناسب ويتناسق مع أهداف كل سورة ومقاصدها وسياقها .

(1) النهج القويم في دراسة علوم القرآن الكريم ، للدكتور / عبد الغني عوض الراجحي ط باب الحلبي بدون

الفصل الأول

حواء عليها السلام

ويشتمل هذا الفصل على تسعة مباحث :

- المبحث الأول : خلق حواء .
- المبحث الثاني : سكنى حواء مع آدم عليه السلام الجنة .
- المبحث الثالث : وسوسة الشيطان لآدم وحواء .
- المبحث الرابع : أكل آدم وحواء من الشجرة .
- المبحث الخامس : توبة آدم وحواء .
- المبحث السادس : هبوط آدم وحواء إلى الأرض .
- المبحث السابع : من المسئول عن الأكل من الشجرة ؟ .
- المبحث الثامن : فوائد حول القصة .
- المبحث التاسع : نظرات فيما ورد في العهدين القديم والجديد في شأن آدم وحواء .

تمهيد :

حواء عَلِيهَا السَّلَامُ هي أم البشرية ، خلقها الله سُبْحَانَهُ من أحد أضلاع أدينا آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ ، ثم أسكنهما الجنة ليتمتعاً معاً بما فيها من نعيم ، ونهاهما الله تعالى عن الأكل من شجرة واحدة ، وحذرهما من عداوة الشيطان ، ومع هذا فلقد تمكن اللعين بحيله الماكرة وأساليبه المتتوية ووساوسه الخبيثة الخسيسة أن يغيرهما ويغويهما ويدفعهما دفْعاً إلى الأكل من الشجرة المحظورة ، فلما أكلا منها وبدت لهما سوءاتهما ناداهما المولي سُبْحَانَهُ وخاطبهما خطاب لوم وعتاب فندما على صنيعهما وتاباً معاً إلى الله سُبْحَانَهُ فتاب عليهما وأهبطهما إلى الأرض .

وفي هذا الفصل : وقفة مع الآيات الكريمة التي ورد الحديث فيها عن خلق حواء ، والآيات الكريمة الواردة في سكنها الجنة مع زوجها آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وفي هذا الفصل أيضاً أتحدث عن وسوسة الشيطان لهما وأكلهما من الشجرة وتوبتهما إلى الله تعالى ، وهبوطهما إلى الأرض .

- كما أجيب عن سؤال مهم : وهو من المسئول عن الأكل من الشجرة ؟
 - كما أتناول في هذا الفصل أيضاً بعض الفوائد المهمة المتصلة بالقصة وهي :
- مكانة الزواج في الإسلام ، وعبادة الشيطان للإنسان ، وأثر الذنوب ووجوب المبادرة إلى التوبة .

وفي الختام : أتناول موقف العهدين القديم والجديد من قصة آدم وحواء ، وانعكاس هذا الموقف على نظرة الديانتين اليهودية والنصرانية للمرأة .

الفصل الأول

حواء عَلَيْهَا السَّلَامُ

المبحث الأول

خلق حواء

تمهيد : وفيه يدور الحديث عن خلق آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ .

● بين يدي الحديث عن خلق حواء عَلَيْهَا السَّلَامُ ، وهي أم البشر يطيب لي أن أتحدث عن خلق آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ ؛ فهو أبو البشرية وأصلها ، خلقه الله تعالى ثم خلق منه حواء ومنهما كانت البشرية جمعاء .

ولقد تحدث القرآن الكريم عن خلقه عَلَيْهِ السَّلَامُ في مواضع كثيرة ولمناسبات متعددة ، والمتأمل في تلك الآيات الكريمة التي ورد الحديث فيها عن خلق آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ يجدها تتناول تلك المراحل والأطوار التي مر بها خلقه .

● قال تعالى في سورة آل عمران : ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ ⁽¹⁾ فإذا كان خلق عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ - من غير أب - آية عجيبة فإن خلق آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ من تراب آية عجاب ، فعيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ خلق من غير أب وآدم عَلَيْهِ السَّلَامُ خلق من غير أب ومن غير أم .

● وقال صَلَّى في سورة (ص) : ﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِّنْ طِينٍ ﴾ ⁽²⁾ وقال سبحانه في سورة الصافات : ﴿ فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ مَن خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِّنْ طِينٍ لَّازِبٍ ﴾ ⁽³⁾ أي من طين لزج متماسك .

قال الإمام الطبري ⁽⁴⁾ : [طين لازب أي لاصق وإنما وصفه جل ثناؤه باللزوب لأنه

(1) سورة آل عمران : 59 . (2) سورة ص : 71 . (3) سورة الصافات : 11 .

(4) الإمام الطبري : هو شيخ المفسرين الإمام أبو جعفر محمد بن جرير الطبري صاحب كتاب جامع البيان عن تأويل آي القرآن ، وتاريخ الأمم والملوك ، والجامع في القراءات ، وله مؤلفات أخرى في الحديث منها تهذيب الآثار - وفي الفقه وأصول الدين ولد سنة 224 هـ وعاش في بغداد حتى توفي بها سنة 310 هـ .

ترجع ترجمته في طبقات الشافعية الكبرى 120/3 ط الباني الحلبي بمصر سنة 1963 م ، وغاية النهاية في =

تراب مخلوط بماء ، والتراب إذا خلط بماء صار طينًا لازبًا [(1)] .

وقال تعالى في سورة الحجر : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ ﴾ (2)
وقال سبحانه في سورة الرحمن : ﴿ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ كَالْفَخَّارِ ﴾ (3)
والصلصال هو الطين اليابس الذي يصلصل ، وإذا أدخل النار أو تعرض مدة للشمس صار فخازًا ، أما الحمأ فهو الطين الذي اسود وتغير من طول ملازمته الماء ، والمسنون المصور ، وقيل المصبوب المفرغ ، أي أفرغ صورة إنسان كما تفرغ الصور من الجواهر المذابة في قوالبها ، وقيل : المسنون هو المتغير الرائحة ومنه قوله تعالى ﴿ فَأَنْظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهٖ ﴾ (4) أي لم يتغير مع مضي مائة عام عليه (5) .

وهكذا نرى آيات متعددة تدل في مجموعها على خلق آدم ﷺ وتبين المراحل والأطوار التي مر بها خلقه ﷺ ، ومرجعها كلها إلى أصل واحد وهو التراب الذي تحول مع الماء إلى الطين ثم انتقل إلى المراحل الأخرى .

يقول الزمخشري (6) في تفسير قوله تعالى : ﴿ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ كَالْفَخَّارِ ﴾ :

= طبقات القراء للإمام شمس الدين أبو الخير محمد بن محمد الجزري (ت 833 هـ) - 2/106 ط دار الكتب العلمية بيروت ط 3 سنة 1402 هـ وشذرات الذهب في أخبار من ذهب لأبي الفلاح عبد الحي بن العماد الحنبلي (ت 1089 هـ) 2/260 مكتبة المقدسي بمصر سنة 1350 هـ .

وفيات الأعيان لأبي العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان (ت 681 هـ) - 3/332 ط النهضة المصرية سنة 1367 هـ ط 1 - والأعلام لخبر الدين الزركلي 6/294 ط بدون إشارة إلى جهة الطبع - والفهرست لمحمد بن إسحاق بن النديم (ت 385 هـ) ص 326 ط دار المعرفة بيروت بدون تاريخ - ومعجم المؤلفين لعمر رضا كحالة 9/147 ط مكتبة المثنى بيروت بدون تاريخ - وطبقات المفسرين لشمس الدين بن محمد بن علي بن أحمد الداوودي (ت 945 هـ) 2/110 ط دار الكتب العلمية بيروت ط أولى سنة 1403 هـ والتفسير والمفسرون للدكتور محمد حسين الذهبي 1/202 ط مكتبة وهبة سنة 1413 هـ ط خامسة .

(1) جامع البيان عن تأويل آي القرآن للطبري 3/42 ط البايي الحلبي . ويراجع المصباح المنير للعلامة أحمد ابن علي المقرئ الفيومي (ت 770 هـ) 2/93 مادة (ل ز ب) ط المطبعة العثمانية بمصر سنة 1312 هـ .

(2) سورة الحجر : 26 .

(3) سورة البقرة : 259 .

(4) والخطاب هنا لعزير ﷺ الذي أماته الله مائة عام ثم بعثه .

(5) الإمام الزمخشري هو محمود بن عمر أبو القاسم الزمخشري النحوي اللغوي المفسر المعتزلي الملقب بجار

الله ؛ لأنه جاور بمكة زمانًا ، ولد بزمخش - وهي قرية من قري خوارزم سنة 467 هـ وقدم بغداد وتلمذ على

أيدي كبار علمائها وصنف في كثير من العلوم ومن مصنفاته الكشاف في التفسير والفائق في غريب الحديث =

[فإن قلت قد اختلف التنزيل في هذا وذلك قوله ﷺ : ﴿ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ ﴾ ، ﴿ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ ﴾ ، ﴿ مِنْ تُرَابٍ ﴾ قلت : هو متفق في المعنى ومفيد أنه خلق من تراب جعله طيناً ثم حمأ مسنون ثم صلصالاً] (1) .

● وآدم ﷺ هو أصل البشر ، أما حواء : فهي فرع منه وتبع له وقصتها جزء من قصته ، ولقد جاء الحديث عنها في القرآن الكريم بصورة ضمنية تبعية ، وورد الحديث عن خلقها في آيات متعددة وفيما يلي بيان ذلك :

وقفه مع الآيات التي ورد الحديث فيها عن خلق حواء ﷺ :

أولاً : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَجِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ (2) .

وقفه مع هذه الآية الكريمة :

بدأت سورة النساء بهذه الآية الكريمة التي استهلكت بهذا الخطاب الموجه للناس جميعاً ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ﴾ وكان التوجيه الأول في هذه السورة هو دعوة الناس جميعاً إلى تقوى الله ﷻ ﴿ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَجِدَةٍ ﴾ فالتقوى هي أساس كل خير ، وهي عصمة ووقاية من كل سوء ، والناس جميعاً مأمورون بتقوى الله ﷻ الذي خلقهم ﴿ مِنْ نَفْسٍ وَجِدَةٍ ﴾ هي نفس آدم ﷺ ﴿ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾ هي حواء خلقت من أحد أضلاع آدم ﷺ .

و (من) في قوله تعالى ﴿ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾ تفيد التبعية ؛ لأن حواء خلقت من بعض آدم ﷺ ويجوز أن تكون (من) بيانية لأن حواء خلقت من جنس آدم ، وخلقها الله من جنسه لتتحقق الألفة والوثام (3) والمودة ، والانسجام ؛ لأن الجنس إلى الجنس أميل .

= وأساس البلاغة والمفصل في النحو - ومؤلفات أخري في الأدب والوعظ .

وتوفي سنة 538 هـ تراجع ترجمته في طبقات المفسرين للدواودي 314/2 وطبقات المفسرين لجلال الدين السيوطي ص 31 ط طهران سنة 1960 م ومعجم الأدباء لياقوت الحموي 147/7 ط دار صادر - بيروت ، ووفيات الأعيان لابن خلكان 254/4 والأعلام للزركلي 55/8 ومعجم المؤلفين 186/12 .

(1) الكشف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل للإمام محمود بن عمر الزمخشري 445/4 ط دار الريان للتراث ط 3 سنة 1407 هـ .

(2) سورة النساء : 1 .

(3) الوثام : الوفاق ، واءمه : صنعت مثل صنيعه موافقة له - المصباح المنير 151/2 مادة (وأم) .

وفي السنة النبوية ما يدل على أن حواء خلقت من ضلع آدم ﷺ .

● روى الإمام البخاري (1) في صحيحه بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « استوصوا بالنساء خيراً فإنهن خلقن من ضلع وإن أعوج شيء في الضلع أعلاه ، فإن ذهبت تقيمه كسرته ، وإن تركته لم يزل أعوج ، فاستوصوا بالنساء خيراً » (2) .

● وروى الإمام مسلم (3) في صحيحه بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن المرأة خلقت من ضلع لن تستقيم لك على طريقة ، فإن استمتعت بها استمتعت بها وبها عوج ، وإن ذهبت تقيمها كسرتها ، وكسرها طلاقها » (4) .

وصفوة القول فيما سبق أن حواء عليها السلام خلقت من ضلع من أضلاع آدم عليه السلام بكيفية لانعلمها ، وإنما نفوض علمها إلى الله ﷻ ، وقد اختلفت طبيعة المرأة عن طبيعة الرجل نظراً لاختلاف مهمة كل في الحياة ، وفي الحديثين السابقين وصية بالنساء ودعوة إلى الصبر عليهن والترفق بهن ومراعاة طبيعتهم ، ولا يعني خلق حواء من ضلع آدم أن تكون أضلاع آدم ناقصة عن أضلاع حواء - كما ذكر ذلك بعض المفسرين (5) - وإنما

(1) الإمام البخاري : هو أمير المؤمنين في الحديث الإمام محمد بن إسماعيل بن إبراهيم أبو عبد الله البخاري وكتابه (صحيح البخاري) هو أصح كتاب بعد كتاب الله ﷻ وللإمام البخاري جهوده العظيمة في علم الحديث ومن مؤلفاته . صحيح البخاري : (الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور الرسول ﷺ وسننه وأيامه) والأدب المفرد والتاريخ الكبير والأوسط والصغير وغير ذلك .

ولد ببخارى سنة 194 هـ وتوفي سنة 256 هـ تراجع ترجمته في طبقات الحفاظ للسيوطي ص 252 ط دار الكتب العلمية بيروت ط 1 سنة 1403 هـ وتهذيب التهذيب للحافظ أحمد بن حجر العسقلاني 144/2 ط دار صادر بيروت ، ومعجم المؤلفين 52/9 .

(2) رواه الإمام البخاري في صحيحه عن أبي هريرة كتاب النكاح باب الوصاة بالنساء [فتح الباري بشرح صحيح البخاري للإمام الحافظ أحمد بن حجر العسقلاني 161/9 حديث 5186 - ط دار الريان للتراث 1407 هـ ط ثالثة .

(3) الإمام مسلم : هو مسلم بن الحجاج أبو الحسين القشيري النيسابوري ولد سنة 206 هـ في بيت علم وارتحل في طلب العلم إلى كثير من البلدان وتوفي بنيسابور سنة 261 هـ بعد حياة مباركة وعمر مديد أمضاه في طلب العلم وتعليمه ، وله مؤلفات كثيرة أهمها الجامع الصحيح ومؤلفات أخرى في علم الرجال .

طبقات الحفاظ للسيوطي ص 264 ، ووفيات الأعيان لابن خلكان 280/4 والفهرست ص 322 .

(4) رواه الإمام مسلم في صحيحه كتاب الرضاع باب الوصية بالنساء صحيح مسلم بشرح النووي (يحيى بن شرف النووي ت 676 هـ) 57/10 ط دار إحياء التراث العربي ط 3 بدون تاريخ .

(5) يراجع ما ذكره الإمام شهاب الدين الخفاجي في حاشيته (عناية القاضي وكفاية الرازي) على تفسير البيضاوي (أنوار التنزيل وأسرار التأويل) 328/7 ط دار صادر .

الصواب أن عدد أضلاع الرجل مساوية لعدد أضلاع المرأة .

يقول الإمام فخر الدين الرازي ⁽¹⁾ - في تفسيره مفاتيح الغيب [.. الذي يقال : إن عدد أضلاع الجانب الأيسر أنقص من عدد الجانب الأيمن فيه مؤاخذه تبين عن خلاف الحس والتشريح] ⁽²⁾ .

ويقول الأستاذ الدكتور محمد متولي إدريس : [وليس معني ما ورد في الصحيح أن المرأة خلقت من ضلع إن جرينا على ظاهر اللفظ أن تكون أضلاع الرجل قد نقصت ضلعًا من أي ناحية ، وإنما يكون المعنى : أن الله خلقها من ضلع والضلع باقية على حالها ، لم تنقص شيئًا ، وهذا يدل على عجب قدرته تعالى] ⁽³⁾ .

أقول : نعم إن خلق حواء من ضلع آدم عليه السلام دليل بين على عظيم قدرة الله تعالى وبديع صنعه ، ﴿ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴾ ⁽⁴⁾ .

= كما يراجع ما ذكره سليمان بن عمر بن منصور العجيلي المعروف بالجمل (ت 1204 هـ) في حاشيته على تفسير الجلالين - لجلال الدين المحلي وجلال الدين السيوطي [الفتوحات الإلهية بتوضيح تفسير الجلالين للدقائق الخفية] 42/1 ط الباي الحلبي .

كما يراجع ما ذكره صديق حسن خان في كتابه فتح البيان في تفسير القرآن 111/1 ط المدني . حيث ورد في الأول (حاشية الشهاب) [وقيل إن الضلع ناقصة في النساء] وورد في الثاني (حاشية الجمل وفي الثالث فتح البيان : أن الأضلاع ناقصة في الرجال ، في الجانب الأيسر 17 ضلعًا وفي الجانب الأيمن 18 ضلعًا . وهذا الكلام لا أساس له من الصحة وهو منقول عن أهل الكتاب وموجود في العهد القديم ونصه [فأوقع الرب سبائًا على آدم فنام فأخذ واحدة من أضلاعه وملأ مكانها لحمًا ، وبنى الرب الضلع التي أخذها من آدم امرأة وأحضرها إلى آدم] العهد القديم / سفر التكوين / أصحاب 2 - فقرة 22 ، 23 .

(1) هو محمد بن عمر بن الحسين فخر الدين الرازي (544 - 606 هـ) ولد بـ (الري) ورحل إلى بلاد عديدة - وكان من كبار علماء عصره وله مؤلفات كثيرة ومتنوعة منها : المحصول في أصول الفقه وشرح المفصل للزمخشري ومؤلفات كثيرة في علم الكلام - تراجع ترجمته في طبقات الشافعية للسبكي 18/8 ووفيات الأعيان 248/4 وشذرات الذهب لابن العماد 21/5 وطبقات المفسرين للسيوطي ص 100 .

(2) مفاتيح الغيب 93/15 ط دار الفكر .

(3) قصة آدم عليه السلام دراسة تحليلية موضوعية للأستاذ الدكتور محمد متولي إدريس أستاذ التفسير وعلوم القرآن بكلية أصول الدين والدعوة جامعة الأزهر بالقازيق ص 91 ، 92 سنة 1993 بدون إشارة إلى جهة الطبع .

(4) سورة المؤمنون : 14 .

● عود إلى تفسير الآية الكريمة (الآية الأولى من سورة النساء)

وقوله تعالى : ﴿ وَبَيْنَ مِثْمَهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ﴾ أي فرق ونشر في أرجاء الأرض منهما رجالاً كثيراً ونساءً كثيرات ، وفي الآية إشارة إلى اتحاد أفراد الإنسان من حيث الحقيقة ، وأنهم على كثرتهم رجالاً ونساءً فإنهم قد نشأوا من أصل واحد ، فصاروا كثيراً على ما هو ظاهر قوله تعالى : ﴿ وَبَيْنَ مِثْمَهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ﴾ .

● يقول الإمام الطبرسي (1) في تفسيره : [وإنما منّ علينا تعالى بأن خلقنا من نفس واحدة ؛ لأنه أقرب إلى أن يعطف بعضنا على بعض ويرحم بعضنا بعضاً ؛ لرجوعنا إلى أصل واحد ولأن ذلك أبلغ في القدرة وأدل على العلم والحكمة] (2) .

● ويقول الإمام ابن كثير (3) ... ولهذا ذكر الله تعالى أن أصل الخلق من أب واحد وأم واحدة ليعطف بعضهم على بعض ويحننهم على ضعفائهم ، وقد ثبت في صحيح مسلم من حديث جرير بن عبد الله البجلي ؓ أن رسول الله ﷺ حين قدم عليه أولئك النفر من مضر (4) وهم مجتابوا الثمار - أي : من عريهم وفقرهم ؛ قام فخطب بعد صلاة الظهر وقال في خطبته : « ﴿ يَأْتِيهَا النَّاسُ أَتْفُوا رَبِّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾ حتى ختم الآية ثم قال : ﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَتْفُوا اللَّهَ وَلَتَنْظُرَ نَفْسٌ مَّا

(1) الإمام الطبرسي هو أبو علي الفضل بن الحسن بن الفضل الطبرسي من علماء الشيعة ، والطبرسي نسبة إلى طبرستان كما في معجم البلدان لياقوت الحموي 13/4 - توفي رحمه الله سنة 548 هـ عن عمر يقارب التسعين سنة وله مصنفات كثيرة من أشهرها مجمع البيان ، وجوامع الجامع : في التفسير تراجع ترجمته في معجم المؤلفين 269/3 والتفسير والمفسرون للدكتور محمد حسين الذهبي 276/1 .

(2) مجمع البيان في تفسير القرآن 6/3 ط دار المعرفة بيروت ط 1 سنة 1406 هـ .

(3) الإمام ابن كثير هو الإمام الحافظ إسماعيل بن عمر بن كثير بن ضوء عماد الدين أبو الفداء محدث مؤرخ مفسر وفقهه - نشأ بدمشق وعاش فيها وتوفي بها سنة 774 هـ وله مؤلفات كثيرة من أهمها تفسير القرآن العظيم ، والبداية والنهاية ، وجامع السنن والمسانيد ، والباعث الخيبي إلى معرفة علوم الحديث .

تراجع ترجمته في : الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة لابن حجر العسقلاني 373/1 ط دار الجيل بيروت وطبقات المفسرين للداودي 111/1 ومعجم المؤلفين 283/2 والأعلام 320/1 وطبقات الحفاظ للسيوطي ص 533 .

(4) مُضَرٌ : من أولاد عدنان وعدنان من ذرية إسماعيل عليه السلام وإلى مضر تنسب قبائل مضر وهي هوازن وخطفان وتميم وعدي وقريش يراجع السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة د . محمد بن محمد أبو شهبة ط دار القلم سنة 1409 هـ ط 1 ويراجع - مكة في عصر ما قبل الإسلام تأليف السيد أحمد أبو الفضل عوض الله الباحث بدارة الملك عبد العزيز ص 43 - مطبوعات الدارة ط سنة 1401 هـ ط 2 .

قَدَمَتْ لِعَدَّتِ ﴿ (1) ثم حضهم على الصدقة فقال : « تصدق رجل من ديناره ، من درهمه ، من صاع بره ، من صاع تمره ، حتى قال : ولو بِشِقِّ تَمْرَةٍ » ، قال : فجاء رجل من الأنصار بِصُرَّةٍ كادت كفه تعجز عنها بل قد عجزت ، ثم تتابع الناس حتى رأيت كومين من طعام وثياب ، حتى رأيت وجه رسول الله ﷺ يتهلل كأنه مُدْهَبَةٌ (2) [(3) .

● وقوله تعالى : ﴿ وَأَتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ .

أي اتقوا الله ﷻ أن تعصوه ، واتقوا الأرحام أن تضعوها وتقطعوها ، واعلموا أن الله مطلع عليكم ، لا يخفي عليه شيء من أحوالكم .

● قرأ (4) ابن كثير ونافع وابن عامر (تَسَاءَلُونَ بِهِ) بالسین المشددة . وقرأ عاصم

(1) سورة الحشر : 18 .

(2) رواه الإمام مسلم في صحيحه كتاب الزكاة باب الحث على الصدقة - صحيح مسلم بشرح النووي 102/7 : 104 - والتمار جمع نمرة وهي ثياب صوف، ومعني مجتايي النمار : أي خرقوها وقوروا وسطها .

(3) تفسير القرآن العظيم لابن كثير 448/1 ط دار التراث العربي .

(4) علم القراءات : علم بكيفية أداء كلمات القرآن واختلافها بعزو الناقلة - يراجع إتخاف فضلاء البشر بالقراءات الأربعة عشر للشيخ أحمد بن محمد البنا 67/1 ط عالم الكتب بيروت ومكتبة الكليات الأزهرية بالقاهرة سنة 1407 هـ تحقيق د . شعبان محمد إسماعيل .

وفي كشف اصطلاحات الفنون : علم القراءات [علم يبحث فيه عن كيفية النطق بألفاظ القرآن ، وموضوعه : القرآن من حيث كيفية قراءته] كشف اصطلاحات الفنون لمحمد علي الفاروقي التهانوي 37/1 تحقيق د . لطفي عبد البديع ط المؤسسة المصرية للتأليف والترجمة والنشر ط سنة 1382 هـ .

والقراءة الصحيحة عرفها الإمام ابن الجزري بأنها كل قراءة وافقت العربية ولو بوجه ، ووافقت الرسم العثماني للمصحف ولو احتمالاً ، وصح سندها : فهي القراءة الصحيحة التي لا يجوز ردها ولا يحل إنكارها [النشر في القراءات العشر للمحافظ ابن الجزري [أبو الخير محمد بن محمد الدمشقي ت 833 هـ] 247/2 ط دار الفكر بدون تاريخ .

وفي الطيبة

فكل ما وافق وجه النحو وكان للرسم احتمالاً يحوي

وصح إسناداً هو القرآن فهذه الثلاثة الأركان

طيبة النشر في القراءات العشر تأليف حجة القراء ابن الجزري - المقدمة ص 3 - ط البايي الحلبي ط أولي 1369

هـ 1950 م .

والقراءات تنقسم إلى ثلاثة أقسام : القسم الأول : قسم اتفق على تواتره وهي القراءات السبع وأصحابها : نافع (نافع ابن عبد الرحمن بن أبي نعيم إمام أهل المدينة (ت 169 هـ) أخذ القراءات عن أبي جعفر القاري وعن سبعين من أهل المدينة وأخذ عنه قالون وورش - وابن كثير (عبد الله بن كثير الداري إمام القراء بمكة (ت 118 هـ) تلقى =

وحزمة والكسائي ﴿ تَسَاءُلُونَ بِهِ ﴾ بتخفيف السين ، والحجة لمن خفف سقوط إحدى التائين تخفيفاً وأصلها تتساءلون والحجة لمن شدد أن التاء ساكنة ومدغمة في السين للمقاربة فلزم التشديد ، ومعنى ﴿ تَسَاءُلُونَ بِهِ ﴾ يسأل بعضكم بعضاً به ، ومدار القراءتين حول معنى واحد (1) . وقرأ الجمهور ﴿ وَالْأَرْحَامُ ﴾ بالنصب ، وقرأ حمزة ﴿ وَالْأَرْحَامِ ﴾ بالجر ، وورد في القراءات الشاذة بالرفع (2) .

= القراءة عن المغيرة بن شهاب عن عثمان بن عفان - وأبو عمرو بن العلاء البصري (ت 154 هـ) روى عن مجاهد وسعيد بن جبير وروى عنه السوسي - وابن عامر (إمام قراء الشام عبد الله بن عامر ت 118 هـ) تلقى القراءة عن المغيرة بن شهاب عن عثمان - وعاصم بن أبي النجود الأسدي (ت 127 هـ) أخذ القراءة عن ابن مسعود وأخذ عنه حفص وغيره) .

وحزمة بن حبيب الكوفي (ت 156 هـ) بخلوان وأخذ عنه خلاد وخلف .

والكسائي على بن حمزة الكسائي النحوي الكوفي روى عنه كثيرون (ت 189 هـ) .

القسم الثاني : قسم اختلف في تواتره : وهي القراءات الثلاث المتممة للعشرة وأصحابها أبو جعفر (يزيد بن القعقاع القاري ت 130 هـ) ويعقوب البصري (أبو محمد يعقوب بن إسحاق الحضرمي ت 205 هـ) .
وخلف البغدادي (أبو محمد خلف بن هشام بن ثعلب بن خلف ت 229 هـ) والأصح بل الصحيح المختار تواترها .

القسم الثالث : قسم اتفق على شذوذه وهو ما سوى هؤلاء العشرة .

يراجع إتخاف فضلاء البشر 72/1 والمستنير في تخريج القراءات المتواترة من حيث اللغة والإعراب والتفسير للدكتور محمد سالم محيسن 6/1 : 11 ط مكتبة الكليات الأزهرية
ويراجع شرح شعلة على الشاطبية المسمى كنز المعاني شرح حرز الأماني لأبي عبد الله محمد بن الحسن الموصلي ص 17 : 31 ط الاتحاد العام لجماعة القراء - ويراجع مناهل العرفان في علوم القرآن للشيخ محمد عبد العظيم الزرقاني 321/1 ط دار الفكر .

(1) النشر في القراءات العشر 247/2 وإتخاف فضلاء البشر 502/2 والمستنير في تخريج القراءات المتواترة 136/1 .
(2) قراءة الجمهور ﴿ وَالْأَرْحَامُ ﴾ بالنصب ؛ لكونها معطوفة على لفظ الجلالة فهي منصوبة والمعنى : اتقوا الله الذي تتساءلون به أن تعصوه واتقوا الأرحام أن تقطعوها وتضيعوها ، ويجوز النصب عطفاً على محل (به) ومحلها النصب كقولك : مرتت به وزيداً ؛ لأن معنى مرتت به وزيداً أي لا بست زيداً فهو في موضع نصب على المعنى - أقول والتوجيه الأول أولى وأظهر .

وقراءة حمزة (والأرحام) بالجر عطف على الضمير المتصل في (به) والتقدير : واتقوا الله الذي تتساءلون به وبالأرحام ، أي اتقوا الله تعالى الذي يسأل بعضكم بعضاً بحقه ﷻ كما تتساءلون بالأرحام ، نقول مثلاً : نسألك بالله وبالرحم ننشدك الله والرحم ، أي بحق الرحم ؛ لأن للرحم حقاً ينبغي مراعاتها وسؤال بعضنا بعضاً بالله على سبيل الاستعطف يقتضي اتقاء الله ﷻ وسؤالنا بالرحم على سبيل الاستعطف والتواد والتراحم يقتضي مراعاة حقوق الرحم وصلتها ، وقول الإنسان : أنشدك بالرحم ليس قسماً ، وإنما سؤال بها .
يراجع مجموع الفتاوى للإمام أحمد بن عبد الحليم بن تيمية 339/1 كتاب / التوسل والوسيلة ط الرياض =

● وتكرار الأمر بالتقوى في الآية الكريمة للتنبيه والتأكيد على أهميتها ، أفاد ذلك الإمام القرطبي (1)

= وقراءة (والأرحام) بالجر عطفًا على الضمير المتصل في (به) : وهي قراءة موافقة لوجه من وجوه النحو ، حيث أجاز الكوفيون عطف الاسم الظاهر على الضمير المجرور بدون إعادة حرف الجر ومنع ذلك البصريون ، والصواب ما ذهب إليه الكوفيون لوروده في القرآن الكريم في هذا الموضع - قراءة حمزة - وهي قراءة متواترة ، ولوروده في قوله تعالى في سورة البقرة : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْزَالِ فَتَالِ فِيهِ قُلْ قَدْ قَالَ فِيهِ كَثِيرٌ وَصَدَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكَفَرُوا بِهِ وَأَلْمَسُوا السَّجِدَ الْأَنْزَالِ ﴾ سورة البقرة : 217 - حيث عطف (المسجد) على الضمير المجرور في (به) بدون إعادة حرف الجر ، وفي الشعر العربي شواهد كثيرة على ذلك . قال الشاعر :

فاليوم قد بت تهجوناً وتشتمناً
فاذهب فما بك والأيام من عجب
والشاهد عطف (والأيام) على الضمير المجرور في (بك) بدون إعادة حرف الجر . والتقدير : وبالأيام .
ومثاله أيضًا :

أكر على الكتيبة لا أبالي
أفيها كان حتفي أم سواها
فعطف (سواها) بأم على الضمير المجرور في (فيها) والتقدير : أم في سواها ، ومن هنا فإن قراءة حمزة موافقة لوجه النحو ، فلاحجة إذا لمن ردها لكونها تخالف مذهبه النحوي ، فالقراءة المتواترة لا ترد ولا تضعف وهي حكيم على اللغة وليست اللغة حَكَمًا عليها . يقول الإمام ابن مالك في ألفيته :

وعود خافض لدي عطف على
وليس عندي لازماً إذ قد أتى
وفي البيتين يشير ابن مالك إلى أنه لا يشترط عند عطف الاسم الظاهر على الضمير المجرور المتصل عود الخافض (حرف الجر) .

يراجع شرح ابن عقيل (بهاء الدين عبد الله بن عقيل الهمداني المصري ت 769 هـ) على ألفية ابن مالك (أبو عبد الله محمد جمال الدين بن مالك ت 682 هـ) ص 252 ط الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية ط / سنة 1410 هـ . ويراجع الإنصاف في مسائل الخلاف بين النحويين البصريين والكوفيين للإمام كمال الدين أبي البركات عبد الرحمن بن محمد أبي سعيد الأنباري النحوي (ت 577 هـ) 464/2 ط المكتبة التجارية بالقاهرة سنة 1380 هـ ط 4 ويراجع النشر 247/2 - وإتحاف فضلاء البشر 502/2 - والمستتير 136/1 - والسبعة في القراءات لأبي بكر أحمد بن موسى بن العباس بن مجاهد التميمي البغدادي ت 324 هـ تحقيق د . شوقي ضيف ص 226 ط دار المعارف - والحجة في القراءات السبع لابن خالويه (الحسين بن أحمد بن خالويه ت 370 هـ) ص 94 ط / دار الشروق بيروت 1971 م - والكشف عن وجوه القراءات السبع وعللها وحججها لأبي محمد مكي بن أبي طالب القيسي ت 437 هـ تحقيق محيي الدين رمضان 376/1 ط مؤسسة الرسالة بيروت .

أما عن قراءة (والأرحام) بالرفع فهي قراءة شاذة ، رويت عن (أبي عبد الرحمن بن عبد الله بن يزيد البصري ت 213 هـ وهو عالم بالقراءات والحديث) ، والرفع على أنها مبتدأ والخبر محذوف أي والأرحام كذلك ، مما يجب أن تتقوه وتحتاطوا لأنفسكم فيه - يراجع المحتسب في تبين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها لأبي الفتح عثمان بن جني ت 392 هـ - 179/1 ط المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بالقاهرة 1386 هـ .

(1) الإمام القرطبي هو أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي الأندلسي المفسر ، =

في تفسيره⁽¹⁾ ، وأضاف الإمام الرازي أوجهاً آخر في بيان سر تكرار التقوى زيادة على التنبيه والتأكيد وفي ذلك يقول : [... أَمَرَ بِالتَّقْوَى فِي الْأَوَّلِ لِمَكَانِ الْإِنْعَامِ بِالْخَلْقِ وَغَيْرِهِ ، وَفِي الثَّانِي أَمَرَ بِالتَّقْوَى لِمَكَانِ وَقُوعِ التَّسَاوُلِ بِهِ فِيمَا يَلْتَمَسُ الْبَعْضُ مِنَ الْبَعْضِ ، وَقَالَ فِي الْأَوَّلِ : ﴿ اتَّقُوا رَبَّكُمْ ﴾ وَفِي الثَّانِي ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾ وَالرَّبُّ لَفْظٌ يَدُلُّ عَلَى التَّرِيَةِ وَالْإِحْسَانِ ، وَاللَّهُ لَفْظٌ يَدُلُّ عَلَى الْقَهْرِ وَالْهَيْبَةِ ، فَأَمَرَ بِالتَّقْوَى بِنَاءً عَلَى التَّرْغِيبِ كَمَا قَالَ : ﴿ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾⁽²⁾ وَقَالَ : ﴿ وَيَدْعُونَكَ رَبِّعًا وَرَهْبًا ﴾⁽³⁾ كَأَنَّهُ قِيلَ : إِنَّهُ رَبَّاكَ وَأَحْسَنَ إِلَيْكَ ، فَاتَّقِ مَخَالَفَتَهُ لِأَنَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَعَظِيمُ السُّطُورَةِ]⁽⁴⁾ .

ويقول الإمام البيضاوي : [وترتيب الأمر بالتقوى على هذه القصة لما فيها من الدلالة على القدرة الباهرة التي من حقها أن تخشى ، والنعمة الباهرة التي توجب الطاعة لمولياها ، أو لأن المراد به تمهيد الأمر بالتقوى فيما يتصل بحقوق أهل منزله وبني جنسه على ما دلت عليه الآيات التي بعدها ...]⁽⁵⁾ .

ويقول الإمام الزمخشري : [فَإِنِ قُلْتَ : الَّذِي يَقْتَضِيهِ سِدَادُ النِّظْمِ وَجِزَالَتُهُ أَنْ يَجَاءَ عَقِيبَ الْأَمْرِ بِالتَّقْوَى بِمَا يُوْجِبُهَا أَوْ يَدْعُو إِلَيْهَا وَيُحِثُّ عَلَيْهَا ، فَكَيْفَ كَانَ خَلْقُهُ إِيَاهُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ عَلَى التَّفْصِيلِ الَّذِي ذَكَرَهُ مُوجِبًا لِلتَّقْوَى وَدَاعِيًا إِلَيْهَا ؟ قُلْتَ : لِأَنَّ ذَلِكَ مِمَّا يَدُلُّ عَلَى الْقُدْرَةِ الْعَظِيمَةِ ، وَمَنْ قَدَرَ عَلَى نَحْوِهِ كَانَ قَادِرًا عَلَى كُلِّ شَيْءٍ ، وَمَنْ الْمَقْدُورَاتِ عِقَابِ الْعَصَاةِ ، فَالنَّظَرُ فِيهِ يُؤَدِّي إِلَى أَنْ يَتَّقِيَ الْقَادِرَ عَلَيْهِ وَيَخْشَى عِقَابَهُ ، وَلِأَنَّهُ يَدُلُّ عَلَى النِّعْمَةِ السَّابِغَةِ عَلَيْهِمْ فَحَقَّقَهُمْ أَنْ يَتَّقَوْهُ فِي كُفْرَانِهَا وَالتَّفْرِيطِ فِيمَا يَلْزِمُهُمْ]

= من أهم مؤلفاته الجامع لأحكام القرآن والتذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة - والأسنى في شرح أسماء الله الحسنى - توفي رحمته بالأندلس سنة 671 هـ - تراجع ترجمته في طبقات المفسرين للداودي 65/2 وطبقات المفسرين للسيوطي ص 28 ونفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب للشیخ أحمد بن محمد المقرئ التلمساني (ت 1041 هـ) ط دار صادر بيروت سنة 1388 هـ والأعلام للزركلي 217/6 ومعجم المؤلفين 239/8 .

(1) سورة السجدة 16 .

(2) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي 2/5 .

(3) مفاتيح الغيب للرازي 171/9 .

(4) سورة الأنبياء 90 .

(5) أنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي ص 101 ، 102 ط دار الجيل .

والإمام البيضاوي هو عبد الله بن عمر بن محمد بن علي الشيرازي البيضاوي ، ولد في المدينة البيضاء بفارس قرب شيراز وولي قضاء شيراز وضرّف عنه ورحل إلى تبريز وتوفي بها سنة 685 هـ - له مؤلفات كثيرة تدل على غزارة علمه ورحابة فكره منها تفسيره أنوار التنزيل وأسرار التأويل ، وطوال الأنوار في علم التوحيد ومنهاج الوصول إلى علم الأصول ولب اللباب في علم الإعراب ، والغاية القصوي في علم الفتوى .

تراجع ترجمته في طبقات المفسرين للداودي 248/1 ومعجم المؤلفين 97/6 .

من القيام بشكرها ، أو أراد بالتقوى : تقوى خاصة وهي أن يتقوه فيما يتصل بحفظ الحقوق بينهم ، فلا يقطعوا ما يجب عليهم وصله ، فقيل : اتقوا ربكم الذي وصل بينكم حيث جعلكم صنواناً⁽¹⁾ مفرعة من أرومة واحدة فيما يجب على بعضكم لبعض فحافظوا عليه ، ولا تغفلوا عنه وهذا المعنى مطابق لمعنى السورة [(2)] .

● الآية في مجملها دعوة إلى تقوى الله ﷻ فهو سبحانه المنعم على البشرية بنعمة الوجود من العدم ، ودعوة إلى صلة الرحم⁽³⁾ والعدل والمساواة بين البشرية جميعاً فالأصل واحد والمنبت واحد .

(1) الصنوان جمع صنو : وهي النخلة لها رأسان وأصلهما واحد .

قال صاحب المفردات : [الصنو : الغصن الخارج عن أصل الشجرة يقال لهما صنوا النخلة، وعلان صنو أبيه . قال تعالى : ﴿ وَزَرَعَ وَنَخَّلٌ وَصِنَوَانٌ وَعَصْرٌ صِنَوَانٌ ﴾ سورة الرعد - 4 - يراجع المفردات للإمام الراغب الأصفهاني مادة (صنو) ص 287 ط دار المعرفة . والأرؤمة أصل الشيء .

(2) الكشف للزمخشري 461/1 ، 462 .

(3) وفي السنة النبوية أحاديث كثيرة تحثنا على صلة الأرحام ؛ لما فيها من خير وبركة ورحمة ، من ذلك ما ورد في الصحيحين عن أبي هريرة ؓ عن النبي ﷺ قال : « إن الله خلق الخلق حتى إذا فرغ من خلقه قالت الرحم : هذا مقام العائذ بك من القطيعة ، قال : نعم ، أما ترضين أن أصل من وصلك وأقطع من قطعك ؟ قالت : بلي يا رب قال : فهو لك » . قال رسول الله ﷺ : « فاقربوا إن شئتم ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴾ » سورة محمد : 22 .

الحديث رواه البخاري في صحيحه كتاب الأدب باب من وصل وصله الله حديث 5987 - فتح الباري 10/430 - ورواه الإمام مسلم في صحيحه كتاب البر والآداب والصلة - باب صلة الرحم وتحريم قطيعتها - صحيح مسلم بشرح النووي 112/16 .

وفي الصحيحين عن أنس بن مالك ؓ قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من سره أن يبسط له في رزقه وينسأ له في أثره فليصل رحمه » رواه البخاري في صحيحه ك الأدب - باب من بسط له في الرزق بصلة الرحم حديث 5986 - فتح الباري 10/429 - ورواه الإمام مسلم في صحيحه ك البر والآداب والصلة باب صلة الرحم وتحريم قطيعتها - صحيح مسلم بشرح النووي 114/16 .

وروي الإمام مسلم في صحيحه عن أبي هريرة ؓ أن رجلاً قال : يا رسول الله إن لي قرابة أصلهم ويقطعونني وأحسن إليهم ويسيئون إلي ، وأحلم عنهم ويجهلون علي ، فقال ﷺ : « لئن كنت كما قلت فإنما تسفهم المأل ، ولا يزال معك من الله ظهير عليهم ما دمت على ذلك » رواه الإمام مسلم في صحيحه ك البر والآداب والصلة باب صلة الرحم وتحريم قطيعتها . صحيح مسلم بشرح النووي 115/16 .

والمأل : الرماد الحار ومعنى « كأنما تسفهم المأل » أي كأنما تطعمهم الرماد الحار، وهو تشبيه لما يلحقهم من الألم بما يلحق أكل الرماد الحار من الألم وهم يتلون الإنم العظيم بموقفهم القبيح المخزي حيث يقابلون الإحسان بالإساءة .

● وقريب من هذه الآية الكريمة في معناها ومقاصدها نجد الآية الثالثة عشرة في سورة الحجرات : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقْوَمُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ (1) .

وفي هذه الآية الكريمة يتوجه الخطاب الإلهي إلى الناس جميعًا على اختلاف ألوانهم وألسنتهم وأجناسهم ببيان أنهم خلقوا من أصل واحد ﴿ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ ﴾ أي من آدم وحواء عليهما السلام وإذا كان الأمر كذلك : فلماذا يتفاخر الناس بأنسابهم وأحسابهم ، ويتعالى بعضهم على بعض ، وقد خلقوا جميعًا من أصل واحد؟! فالكل سواء ، والواجب عليهم أن يتعارفوا ويتآلفوا ويتعاطفوا فيما بينهم ، وأن يعلموا أن التفاضل الحقيقي بالتقوى والعمل الصالح ؛ فالمتقون هم أكرم الناس عند الله عز وجل (2) .

وفي الحديث الشريف يقول صلى الله عليه وسلم : « إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم » (3) .

ويقول المصطفى الأكرم صلى الله عليه وسلم : « إن من أحبكم إليّ وأقربكم مني مجلسًا يوم القيامة أحاسنكم أخلاقًا ، وإن أبغضكم إليّ وأبعدكم مني مجلسًا يوم القيامة الثرثارون والمتشدقون والمتفيهقون » قالوا : يا رسول الله ! قد علمنا الثرثارون والمتشدقون فما المتفيهقون ؟ قال : « المتكبرون » (4) .

(1) سورة الحجرات آية : 13 .

(2) ويحضرني في هذا المقام قول الإمام علي بن أبي طالب :

الناس من جهة التمثيل أكفاء
أبوهم آدم والأم حواء
فلو كان لهم في أصلهم نسب
يتفخرون به فالطين والماء
وقول أحد الشعراء :

دعك من ذكر أب وجد
ونسب يعليك سور المجد
ما الفخر إلا في التقى والزهد
وطاعة تدنيك من جنة الخلد

(3) الحديث رواه الإمام مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه كتاب البر والصلة والآداب باب تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره [صحيح مسلم بشرح النووي 121/16] .

وفي رواية أخرى عن أبي هريرة أيضًا قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله لا ينظر إلى أجسادكم ولا إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم » وأشار بأصبعه إلى صدره . صحيح مسلم كتاب البر والصلة والآداب باب تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره [صحيح مسلم بشرح النووي 121/16] .

(4) رواه الترمذي في السنن عن جابر بن عبد الله - كتاب البر والصلة - باب ما جاء في معالي الأخلاق -

حديث 2018 - 325/4 ط دار الكتب العلمية بيروت ، وأخرجه الخطيب في تاريخ بغداد 63/4 - والثرثارون =

وفي الحديث الشريف يقول ﷺ : « لا فضل لعربي على عجمي ولا لعجمي على عربي ، ولا لأبيض على أسود ولا لأسود على أبيض ، إلا بالتقوى ، كلكم لآدم وآدم من تراب » (1) .

ويقول ﷺ عن مكانة أهل التقوي : ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٥﴾ فِي مَقْعَدٍ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُّقَدِّرٍ ﴿٥٦﴾ ... فيالها من منزلة سامية . (2)

فائدة : يلاحظ الصلة الوثيقة والعلاقة الدقيقة بين الآية الأولى من سورة النساء والآية الثالثة عشرة من سورة الحجرات في المطع وفي المضمون وفي الختام : فالمطع فيهما ﴿ يَكُونُ النَّاسُ ﴾ والمضمون فيهما : هو الحديث عن أصل الخلق والدعوة إلى تقوى الله ﷻ والتراحم والتألف بين الناس والختام في الآية الأولى ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ . وفي الثانية ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ فرقابة الله ﷻ لعباده مبنية على علمه سبحانه بأحوالهم وخبرته ببواطنهم ، فسبحان من لاتخفى عليه خافية وجل من لاتغيب عنه غائبة .

ثانياً : وفي سورة الأعراف يقول المولى ﷻ : ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيًّا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلتْ دَعَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْنَا صُلْحًا صَلِحًا لَنُكَونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴾ (3) .

ولقد اختلف المفسرون في المراد بالنفس الواحدة هنا ، كما اختلفوا في المراد بـ ﴿ زَوْجَهَا ﴾ ، فقال كثير من المفسرين : النفس الواحدة هي نفس آدم ﷺ و ﴿ زَوْجَهَا ﴾

= جمع ثراث وهو كثير الكلام تكلفاً . والمتشققون جمع متشقق : وهو الذي يتكلم بملء شذقيه تفاصحاً وتعاطفاً واستعلاءً وتطاولاً على غيره . وقال الترمذي حديث حسن غريب وأورده الألباني (أبو عبد الرحمن محمد ناصر الدين) . في سلسلة الأحاديث الصحيحة برقم 791 - 434/2 ط المكتب الإسلامي . (1) الحديث رواه الإمام أحمد في مسنده عن أبي نضرة 411/5 وإسناده صحيح - إلى أبي نضرة - إلا أنه مرسل ؛ لأن أبا نضرة ليس صحابياً ، ولقد ورد الحديث متصلاً عند الطبراني والبيزار . حيث رواه الطبراني في المعجم الأوسط عن أبي سعيد الخدري حديث 4746 - 376/5 ط / مكتبة المعارف بالرياض ، ورواه البيزار في مسنده عنه . يراجع كشف الأستار عن زوائد البيزار للحافظ نور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي (ت 807 هـ) حديث 2044 - 435/2 ط مؤسسة الرسالة بيروت ط 1 سنة 1404 هـ .

وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد وقال : رواه البيزار في مسنده عن أبي سعيد الخدري ورجال البيزار رجال الصحيح ، ورواه الطبراني في المعجم الأوسط عنه حديث 4746 - 376/5 - يراجع مجمع الزوائد ومنبع الفوائد للحافظ نور الدين أبي بكر الهيثمي ت 807 هـ 84/8 ط دار الكتاب العربي بيروت سنة 1402 هـ .

هي حواء عَلِيهَا السَّلَامُ ولكنهم اختلفوا في توجيه الآيات : -

● فقال بعضهم : إن الكلام منقطع عند قوله تعالى : ﴿ لَتَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴾ ، وتمتة الكلام ليس مقصودًا به آدم وحواء وإنما المقصود المشركون من ذريتهما ففي الكلام التفات من الحديث عن آدم وحواء إلى الحديث عن المشركين من ذريتهما .

● وقيل الكلام على حذف مضاف والتقدير : ﴿ فَلَمَّا آتَاهُمَا ﴾ ولدا ﴿ صَالِحًا ﴾ جعل أولادهما شركاء فيما آتي أولادهما ، ولذلك قال صَلَّى : ﴿ فَتَعَلَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ ، ولم يقل عما يشركان (1) .

● وقيل يجوز أن يكون الضمير في ﴿ جَعَلَا ﴾ لآدم وحواء كما هو الظاهر والكلام خارج مخرج الاستفهام الإنكاري ، والكناية في ﴿ فَتَعَلَى ... ﴾ إني للمشركين وذلك أنهم كانوا يقولون : إن آدم صَلَّى كان يعبد الأصنام ويشرك كما يشركون فرد عليهم بذلك ، ونظير هذا أن ينعم رجل على آخر بوجوه كثيرة من الإنعام ثم يقال لذلك المنعم : إن الذي أنعمت عليه قصد إيذاءك وإيصال الشر إليك ، فيقول : فعلت في حقه كذا وكذا وأحسنت إليه بكذا وكذا ، ثم إنه يقابلني بالشر والإساءة !!؟ ومراده أنه بريء من ذلك ومنفي عنه ، ذكر هذا الوجه الإمام الألوسي (2) في تفسيره (3) .

- وقيل : الكلام على ظاهره ، وآدم وحواء قد وقع منهما الشرك ، واستدل القائلون على هذا بحديث رواه الإمام أحمد في مسنده قال : حدثنا عبد الصمد حدثنا عمر بن إبراهيم حدثنا قتادة عن الحسن عن سمرة عن النبي صَلَّى قال : « لما ولدت حواء طاف

(1) ذكر هذا الرأي الإمام الرازي ، ثم قال : فإن قيل : على هذا التأويل ما الفائدة في التثنية في قوله ﴿ جَعَلَا لَكُمْ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا ﴾ قلنا : لأن ولده قسمان : ذكر وأنثى ، فقوله : ﴿ جَعَلَا ﴾ المراد منه الذكر والأنثى ، مرة عبر عنهما بلفظ التثنية ؛ لكونهما صنفين ونوعين ، ومرة عبر عنهما بلفظ الجمع وهو قوله : ﴿ فَتَعَلَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ مفاتيح الغيب للرازي 92/15 .

أقول : وهذا التأويل مستبعد لأنه يحتاج إلى الحذف ، وما لا يحتاج أولى .

(2) الإمام الألوسي هو شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسين الألوسي البغدادي شيخ العلماء في العراق ، جمع كثيرًا من العلوم وكان عالمًا بالمذاهب الكلامية وتفسيره روح المعاني من أشهر التفاسير ومن أجمعها . وتوفي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ سنة 1270 هـ - وعمره 63 سنة . تراجع ترجمته في - معجم المؤلفين 175/12 والأعلام للزركلي 53/8 والتفسير والمفسرون للذهبي 352/1 .

(3) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني للإمام الألوسي 141/9 ط دار إحياء التراث العربي .

بها إبليس ، وكان لا يعيش لها ولد ، فقال : سمه عبد الحارث فإنه يعيش ، فسمته عبد الحارث فعاش وكان ذلك من وحي الشيطان وأمره » (1) .

وهكذا رواه ابن جرير عن محمد بن بشار عن عبد الصمد بن عبد الوارث به (2) . ورواه الترمذي في تفسير هذه الآية (3) عن محمد بن المثني عن عبد الصمد به وقال هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث عمر بن إبراهيم عن قتادة (4) ، ورواه بعضهم عن عبد الصمد ولم يرفعه ، ورواه الحاكم في المستدرک من حديث عبد الصمد مرفوعاً ثم قال : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه (5) .

يقول الإمام ابن كثير معلقاً على هذا الحديث : [وهذا الحديث معلول من ثلاثة أوجه : أحدها : أن عمر بن إبراهيم (6) هذا هو البصري وقد وثقه ابن معين ولكن قال أبو حاتم الرازي : لا يحتج به ، ولكن رواه ابن مردويه من حديث المعتمر عن أبيه عن الحسين عن سمرة مرفوعاً والله أعلم .

والثاني : أنه قد روي من قول سمرة نفسه ليس مرفوعاً ، كما قال ابن جرير : حدثنا ابن عبد الأعلى حدثنا المعتمر عن أبيه حدثنا بكر بن عبد الله عن سليمان التيمي عن أبي

(1) رواه الإمام أحمد في مسنده عن سمرة بن جندب [الفتح الرباني في ترتيب مسند الإمام أحمد بن حنبل الشيباني - جمع وترتيب الشيخ أحمد عبد الرحمن البنا الساعاتي - كتاب أحاديث الأنبياء باب ماورد في قوله تعالى ﴿... جَعَلْنَا لَكُمْ شُرَكَاءَ فِيمَا ءَاتَيْنَاهُمْ﴾ 34/20 ط دار الشهاب بالقاهرة .

(2) جامع البيان للطبري 101/1 .

(3) رواه الترمذي في السنن ك التفسير باب (ومن سورة الأعراف حديث 5073) 250/5 - وفي تحفة الأحوذى بشرح سنن الترمذي 459/8 ط المكتبة السلفية بالمدينة سنة 1387 هـ .

(4) قتادة : هو قتادة بن دعامة السدوسي أبو الخطاب البصري ، الحافظ العلامة المفسر ، كان آية في الحفظ ، بحراً في اللغة وأيام العرب - توفي سنة 117 هـ وقيل سنة 118 هـ بواسط ، في الطاعون ، تراجع ترجمته في : تذكرة الحفاظ للذهبي 122/1 وشذرات الذهب لابن العماد 53/1 ومعجم الأدباء لياقوت الحموي 202/6 ووفيات الأعيان لابن خلكان 248/3 ونكت الهميان في نكت العميان لصلاح الدين الصفدي ص 230 - المطبعة الجمالية سنة 1911 م .

(5) رواه الحاكم في المستدرک التارخ باب ذكر آدم 545/2 وقال : حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبي .

(6) عمر بن إبراهيم العبدى : وثقه الإمام أحمد ولكنه قال : يروى عن قتادة أحاديث مناكير ، وقال أبو حاتم : يكتب حديثه ولا يحتج به وقال ابن عدي : يروي عن قتادة أشياء لا يوافق عليها وحديثه خاصة عن قتادة مضطرب وذكره ابن حبان في الثقات وقال : يخطئ ويخالف ثم ذكره في الضعفاء فقال : كان ممن ينفرد عن قتادة بما لا يشبه حديثه فلا يعجبني الاحتجاج به إذا انفرد ، فأما فيما روى عن الثقات : فإن اعتبر به معتبر لم أر بذلك بأساً ، وقال الدارقطني : لين يترك . يراجع تهذيب التهذيب لابن حجر 425/7 ط دار صادر .

العلاء بن الشخير عن سمرة بن جندب قال : سمي آدم ابنه عبد الحارث (1) .

الثالث : أن الحسن (2) نفسه فسر الآية بغير هذا فلو كان هذا عنده عن سمرة مرفوعاً لما عدل عنه ، قال ابن جرير ، حدثنا ابن وكيع حدثنا سهل بن يوسف عن عمرو عن الحسن ﴿ جَعَلَا لَمْ شُرَكَاءَ فِيمَا ءَاتَهُمَا ﴾ قال : كان هذا في بعض الملل ولم يكن بآدم ، وحدثنا محمد بن عبد الأعلى حدثنا محمد بن ثور عن معمر قال : قال الحسن : عَنِّي بِهَا ذَرِيَّةُ آدَمَ وَمَنْ أَشْرَكَ مِنْهُمْ بَعْدَهُ . وحدثنا بشر حدثنا سعيد عن قتادة قال : كان الحسن يقول : هم اليهود والنصارى رزقهم الله أولاداً فهودوا ونصروا .

● وهذه أسانيد صحيحة عن الحسن رضي الله عنه أنه فسر الآية بذلك وهو من أحسن التفاسير ، وأولى ما حملت عليه الآية ، ولو كان هذا الحديث عنده محفوظاً عن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما عدل عنه هو ولا غيره ولا سيما مع تقواه لله وورعه فهذا يدل على أنه موقوف على الصحابي ، ويحتمل أنه تلقاه عن أهل الكتاب - من آمن منهم - مثل كعب الأبحار (3) وهب بن منبه (4) ، وغيرهما (5) .

وتناول الإمام ابن كثير بعد ذلك الأقوال المروية ، التي ورد فيها نسبة الشرك إلى آدم وحواء عليهما السلام عن بعض السلف وذكر أنها منقولة عن أهل الكتاب وفي ذلك

(1) جامع البيان للطبري 102/1 .

(2) الحسن البصري هو الحسن بن يسار أبو سعيد البصري ، إمام من أئمة التابعين روى عن ابن عمر وابن عباس وغيرهما من الصحابة وروى عن كبار التابعين ، وهو تابعي ثقة مشهود له بالعلم والصلاح ، توفي سنة 110هـ - تراجع ترجمته في : تهذيب التهذيب لابن حجر 263/2 - ووفيات الأعيان لابن خلكان 354/1 .

(3) كعب الأبحار هو أبو إسحاق كعب بن مافع الحميمي ، أصله من يهود اليمن وأسلم في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه وتوفي في مدينة حمص سنة 32هـ على أشهر الأقوال ، وعرف كعب بالنقل عن كتب أهل الكتاب دون أن يتحرى الصواب فيما ينقل . تراجع ترجمته في التفسير والمفسرون للدكتور محمد حسين الذهبي 1 رضي الله عنه / 178 ط - والإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير والمفسرون للدكتور محمد بن محمد أبي شهبة رضي الله عنه ص 100 ط مكتبة السنة سنة 1408 هـ - وتهذيب التهذيب 166/11 وميزان الاعتدال للإمام الذهبي 352/4 ط / عيسى الحلبي .

(4) وهب بن منبه هو أبو عبد الله وهب بن منبه اليماني التابعي ولد باليمن سنة 34هـ وتوفي سنة 110هـ واشتهر بالنقل دون تحر ، ونسب إليه الموضوعون كثيراً من الروايات الموضوعية . تراجع ترجمته في : طبقات فقهاء اليمن لعمر بن علي بن سمرة الجعدي (ألفه سنة 586هـ ولم يعرف له سنة وفاة) - ص 57 ط / مطبعة السنة المحمدية القاهرة سنة 1957 م - ويراجع وفيات الأعيان 88/5 والتفسير والمفسرون 195/1 والإسرائيليات لأبي شهبة ص 72 ، ص 105 .

(5) تفسير القرآن العظيم لابن كثير 274/2 ، 275 بتصرف - ويراجع جامع البيان للطبري 103/1 ، 104 .

يقول : [وهذه الآثار يظهر عليها أنها من آثار أهل الكتاب وقد صح الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال : « إذا حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم » (1) .

ثم أخبرهم على ثلاثة أقسام : فمنها ما علمنا صحته بما دل عليه الدليل من كتاب الله أوسنة رسوله ﷺ ، ومنها ما علمنا كذبه بما دل عليه خلافه من الكتاب والسنة أيضا ، ومنها ما هو مسكوت عنه فهو المأذون في روايته بقوله ﷺ : « حدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج » (2) .

وهو الذي لا يصدق ولا يكذب لقوله ﷺ : « فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم » وهذا الأثر هو من القسم الثاني أو الثالث (3) [وفيه نظر فأما من حدث به من صحابي أو تابعي فإنه يراه من القسم الثالث ثم يوضح الإمام ابن كثير رأيه في هذه المسألة فيقول : وأما نحن فعلى

(1) الحديث ونصه في البخاري عن أبي هريرة (كان أهل الكتاب يقرأون التوراة بالعبرانية ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام فقال رسول الله ﷺ : « لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم وقولوا : ﴿ ءَأَمَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأَنْزَلَ إِلَيْكُمْ ﴾ » سورة العنكبوت : 46 - صحيح البخاري ك الاعتصام بالكتاب والسنة . باب قول النبي ﷺ « لا تسالوا أهل الكتاب عن شيء » حديث 7362 فتح الباري 13/345 .

(2) الحديث ونصه عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال : « بلغوا عني ولو آية وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج » . صحيح البخاري ك أحاديث الأنبياء باب ما ذكر عن بني إسرائيل حديث 3461 - فتح الباري 6/572 .

(3) وصفوة القول في الإسرائيليات أنها على ثلاثة أقسام :

القسم الأول : ما وافق شريعتنا بأن ورد في الكتاب والسنة ما يوافق ويدل على صحته وذلك كتعيين اسم صاحب موسى ﷺ - الخضر ﷺ - فلقد ورد اسمه في الإسرائيليات (الخضر) وجاء في السنة النبوية الصحيحة ما يثبت ذلك . ففي صحيح البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إنما سمي الخضر ؛ لأنه جلس على فروة بيضاء فإذا هي تهتز من تحت خضراء » .

صحيح البخاري ك / أحاديث الأنبياء باب حديث الخضر مع موسى فتح الباري 6/499 والفروة القطعة البيضاء من الأرض لانبات فيها . قام عنها فإذا هي تهتز خضراء أي أنبتت من تحتها بقدرته الله ﷻ .

القسم الثاني : ما يعلم كذبه بأن ناقض وخالف ما جاء في شريعتنا أو خالف العقل أو التاريخ . وهذا القسم لا يصح قبوله ولا روايته إلا للتحذير منه وإظهار كذبه وبطلانه بالنقل والعقل .

القسم الثالث : ما هو مسكوت عنه فهو لا يخالف العقل ولا النقل ولم يرد في شرعنا ما يثبتته وهذا القسم مختلف في حكم روايته أجاز البعض روايته وإن كان الأولى تركه مطلقاً والاكتفاء بما ورد في الكتاب والسنة وما صح عن أهل العلم الثقات ، ولكن إن نقل هذا النوع فلا بد من التنبيه على كونه من الإسرائيليات . يراجع الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير د . محمد بن محمد أبو شهبه - ويراجع أيضًا الإسرائيليات وأثرها في كتب التفسير د . رمزي نعاقة ط دار القلم دمشق سنة 1390 هـ .

مذهب الإمام الحسن البصري رحمه الله في هذا وأنه ليس المراد من السياق آدم وحواء وإنما المراد المشركون من ذريته ولهذا قال تعالى : ﴿ فَتَعَلَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ فذكر آدم وحواء أولاً كالتوطئة لما بعدهما من الوالدين وهو كالأستطراد من ذكر الشخص إلى ذكر الجنس كقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ ﴾ (1) .

ومعلوم أن المصابيح وهي النجوم التي زينت بها السماء ليست هي التي يرمي بها وإنما هذا استطراد من شخص المصابيح إلى جنسها ولهذا نظائر في القرآن والله أعلم [(2) .

● واختلف القائلون في وقوع الشرك من آدم وحواء في حقيقة هذا الشرك : وفي ذلك يقول الإمام القرطبي [... قال المفسرون : كان شركاً في التسمية والصفة ، لا في العبودية والربوبية ، وقال أهل المعاني : إنهما لم يذهبا إلى أن الحارث ربهما بتسميتهما ولدهما عبد الحارث لكنهما قصدا إلى أن الحارث كان سبب نجاة الولد فسمياه به كما يسمي الرجل نفسه عبد ضيفه على جهة الخضوع له لاعلى أن الضيف ربه كما قال حاتم الطائي :

وإني لعبدُ الضيفِ ما دام ثاويًا وما فيَّ إلا تيك من شيمة العبدِ [(3)

أقول : وكيف خفي على آدم عليه السلام وقد علمه ربه الأسماء كلها ؟ وكيف كان الحارث سبباً لنجاة الولد والأقدار كلها بأمر الله !!؟ .

- وقيل : ﴿ جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ ﴾ في طاعته ولم يكن في عبادته .

يقول الإمام النيسابوري (4) في غرائب القرآن ورغائب الفرقان :

(1) سورة الملك آية : 5 .

(2) تفسير القرآن العظيم لابن كثير 2/275 ، 276 بتصرف .

وفي تفسير ابن كثير لقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ ﴾ يقول : [عاد الضمير في قوله : ﴿ وَجَعَلْنَاهَا ﴾ على جنس المصابيح لا على عينها ؛ لأنه لا يرمي بالكواكب التي في السماء بل بشهب من دونها وقد تكون مستمدة منها والله أعلم] . تفسير القرآن العظيم 396/4 .

(3) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي 7/338 ، 339 .

(4) هو حسن بن محمد بن حسين القمي النيسابوري المعروف بنظام الأعرج (نظام الدين) والقمي نسبة إلى قم - مدينة بيلاد فارس - والنيسابوري نسبة إلى نيسابور وهي أيضاً من بلاد فارس - من آثاره : غرائب القرآن ورغائب الفرقان وشرح الشافية في التصريف لابن الحاجب والشمسية في علم الحساب وتوضيح التذكرة للطوسي - توفي رحمه الله سنة 728 هـ - معجم المؤلفين 3/282 والتفسير والمفسرون للذهبي 1/305 .

[إن الضمير في ﴿ جَعَلَا ﴾ وفي ﴿ ءَاتَهُمَا ﴾ لآدم وحواء إلا أنهما كانا عزمًا أن يجعلاه وفقًا على خدمة الله وطاعته ، ثم بدا لهما فكانا ينتفعان به في مصالح الدنيا فأريد بالشرك هذا القدر وعلى هذا فإنما قال تعالى : ﴿ فَتَعَلَّى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ من باب « حسنات الأبرار سيئات المقربين »] (1) .

أقول : وهذا التأويل غير مقبول وليس له دليل ، والشرك المراد هنا على ظاهره بدليل قوله تعالى : ﴿ أَيَشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلِقُونَ ﴿١٦﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ ﴾ (2) .

(1) غرائب القرآن و رغائب الفرقان للإمام النيسابوري 103/8 وعبرة (حسنات الأبرار سيئات المقربين) من كلام أبي سعيد الخزاز - وهو من كبار الصوفية - صاحب كتاب الصدقات سنة 280 هـ - وقيل : هذه العبارة من كلام الجنيد ، ذكر ذلك إسماعيل بن محمد العجلوني في كتابه كشف الخفا ومزيل الإلباس فيما اشتهر من الحديث على ألسنة الناس 428/1 ط مكتبة التراث الإسلامي - بدون تاريخ ويراجع / تمييز الطب من الخبيث فيما يدور على ألسنة الناس من الحديث للشيخ عبد الرحمن على بن محمد بن عمر بن الدبيع الشيباني ص 68 ط مطبعة صبيح سنة 1382 هـ وقال الألباني في كتابه سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة معلقًا على هذه العبارة : [معناها غير صحيح ؛ لأن الحسنة لا يمكن أن تصير سيئة أبدًا مهما كانت منزلة من أتى بها وإنما تختلف الأعمال باختلاف مرتبة الآتين بها إذا كانت من الأمور الجائزة التي لا توصف بقبح أو حسن مثل الكذبات الثلاث التي أتى بها إبراهيم عليه السلام لأنها كانت على سبيل الإصلاح ومع ذلك فقد اعتبرها إبراهيم عليه السلام سيئة واعتذر بسببها عن أن يكون أهلاً لأن يشفع في الناس بسببها، وأما اعتبار الحسنة التي هي قرينة إلى الله سيئة بالنظر إلى أن الذي صدرت منه من المقربين فمما لا يكاد يعقل . سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيئ في الأمة للشيخ محمد ناصر الدين الألباني 135/1 ، 136 ط المكتب الإسلامي .

وأقول : وما وقع من إبراهيم عليه السلام هو من قبيل المعاريض . ولقد نقل عن بعض السلف (إن من المعاريض لمدوحة عن الكذب) أي حينما يلجأ المسلم إلى ذلك في حالة الضرورة فقط والضرورة تقدر بقدرها . وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : أما في المعاريض ما يكفي الرجل عن الكذب . يراجع إحياء علوم الدين للإمام أبي حامد الغزالي ج 3/136 ط المكتب الثقافي .

وأقول أيضا : عبارة (حسنات الأبرار سيئات المقربين) ليس المقصود بها المعنى الظاهر ؛ لأن الحسنة لا يمكن أن تصير سيئة بأي حال من الأحوال ، وإنما تحمل هذه العبارة على معنى معين محدد هو : أن ما يفعله البار من الأعمال الصالحة : يفعل المقرب أضعافه - وعلي سبيل المثال : إذا كان البار يتصدق بفضله ماله - فيحمد منه هذا الفعل - : فإن المقرب يوجد بأفضل وأنفس ما عنده ولكن إذا اكتفى المقرب بالتصدق بفضله ما عنده ولم يتفق أنفس وأجود ما عنده فإنه مقصر مفرط ؛ لأنه فعل ما لا يليق بمقامه ورتبته ولذلك قيل : (حسنات الأبرار سيئات المقربين) .

● رأي الشيخ محمد صديق حسن خان ⁽¹⁾ في تفسيره فتح البيان .

وذهب صاحب فتح البيان إلى أن الشرك لم يقع من آدم لأن الأنبياء معصومون ، وإنما وقع الشرك من حواء واستدل على ذلك بظاهر الحديث المروي عن سمرة ، والذي تقدم ذكره ، حيث أورده وعلق عليه بقوله : [وفيه دليل على أن الجاعل شركاء فيما آتاها هو حواء دون آدم ، وقوله : ﴿ جَعَلَا لِمِ شُرَكَاءَ ﴾ بصيغة التثنية لا ينافي ذلك لأنه قد يسند فعل الواحد إلى الاثنين بل إلى جماعة وهو شائع في كلام العرب ، وفي الكتاب العزيز من ذلك كثير . قال تعالى : ﴿ فَلَقَى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ ﴾ ⁽²⁾ ثم قال في هذه السورة : ﴿ قَالَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا ﴾ ⁽³⁾ فالقصد هنا هو آدم ⁽⁴⁾ وقال تعالى : ﴿ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَّتْ بِهِ ﴾ ⁽⁵⁾ والمراد به الزوج فقط ⁽⁶⁾ .

قال الفراء ⁽⁷⁾ : وإنما ذكرهما جميعاً لاقترانهما ، وقال تعالى : ﴿ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنَهُمَا نِسِيَا جُوعَهُمَا ﴾ ⁽⁸⁾ والناسي هو يوشع بن نون وليس موسى ⁽⁹⁾ وقال تعالى : ﴿ أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عِنْدِ ﴾ ⁽¹⁰⁾ والخطاب لواحد دون اثنين ⁽¹¹⁾ .

(1) محمد صديق حسن خان الفنوجي نسبة إلى فنوج وهي من بلاد الهند ولد سنة 1248 هـ في بيت صالح ورحل في طلب العلم وتلمذ على أيدي كبار علماء الهند - وله مؤلفات كثيرة منها فتح البيان في مقاصد القرآن ، ونيل المرام من تفسير آيات الأحكام ، وحسن الأسوة بما ثبت من الله ورسوله في النسوة . توفي رحمه الله سنة 1307 هـ - تراجع ترجمته في الأعلام للزركلي 36/7 ومعجم المؤلفين لكحالة 90/10 .

(2) سورة البقرة : 37 .

(3) سورة الأعراف : 23 .

(4) وأقول أيضاً : ولا وجه لاستدلاله هنا على إطلاق المثني وإرادة المفرد فالتعبير بـ ﴿ قَالَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا ﴾ على ظاهره لأن التوبة وقعت من آدم وحواء معاً ، ولم تقع من آدم وحده .

(5) سورة البقرة : 229 .

(6) ونفي الجناح عن الاثنين معاً ؛ فلا جناح على الزوج فيما أخذ ولا على الزوجة فيما أعطت في مقابل الخلع .

(7) الفراء هو يحيى بن زياد بن عبد الله أبو زكريا الديلمي الفراء ، كان مجتهداً للعربية من أوسع الكوفيين علماً بها وله تصانيف كثيرة منها . معاني القرآن . والمذكر والمؤنث ، والكافي في النحو ، والمقصور والمددود ، توفي سنة 207 هـ . وهو في طريقه إلى مكة . تراجع ترجمته في إنباه الرواة للقطبي 1/4 ط دار الكتب المصرية . ومعجم الأدباء لياقوت الحموي 276/7 - ووفيات الأعيان لابن خلكان 225/5 والفهرست لابن النديم ص 66 وطبقات المفسرين للداوودي 367/2 .

(8) سورة الكهف : 61 .

(9) والنسيان وقع من موسى وفتاه معاً وليس من الفتى وحده . (10) سورة ق : 24 .

(11) والخطاب في ﴿ أَلْقِيَا ﴾ على ظاهره وهو موجه للملكين ، وقيل : للسائق والشهيد ، ويجوز أن يكون جاء بصيغة التثنية على إرادة المفرد والأولى حمل اللفظ على ظاهره .

وقال امرؤ القيس :

قفنا نبيك من ذكرى حبيبٍ ومنزلٍ (1)

والمخاطب واحد وقد أكثر الشعراء من قولهم خليلي ، والمراد بهما واحد دون الاثنين ، وعلي هذا فمعنى الآية الكريمة : جعل أحدهما له شركاء ، وهو حواء [(2)] .

أما عن نوع الشرك فقد قال عنه صاحب فتح البيان : [وكان هذا شركاً في التسمية ولم يكن شركاً في العبادة ، وقيل : والشرك في التسمية أهون] (3) .

وهل كان آدم على علم بما فعلته حواء ؟ يجيب عن ذلك صاحب فتح البيان فيقول : [ولعلها سمته بغير إذن منه ، ثم تابت بعد ذلك] (4) .

أقول : لم يقع شرك من حواء عليها السلام . وكيف يقع منها ؟ وكيف تستجيب لنداء إبليس ووسوسته لها بأن تشرك بالله تعالى ؟! كيف تستجيب له وهو الذي أخرجها هي وآدم عليهما السلام من الجنة بوسوسته وإغوائه ؟ وأين كان آدم عليه السلام حينما سمت حواء ولدها بهذا الاسم ؟ وكيف تصنع حواء شيئاً من هذا دون أن تستشير نبي الله آدم الذي علمه الله الأسماء كلها ؟!

● وذهب بعض المفسرين إلى أن قوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَجِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا ... ﴾ عام في جنس الذكر والأنثى وليس في آدم وحواء على وجه الخصوص . يقول صاحب الانتصاف على الكشاف (5) : [والأسلم والأقرب أن يكون المراد والله

(1) البيت لامرؤ القيس :

قفنا نبيك من ذكرى حبيب ومنزل بسقط اللوى بين الدخول فحومل

ديوان امرؤ القيس ص 8 جمع وتحقيق ودراسة محمد أبو الفضل إبراهيم ط دار المعارف سنة 1984 م ط 4 ، ويراجع شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات لأبي بكر محمد بن القاسم الأنباري (ت 328 هـ) . تحقيق عبد السلام محمد هارون ص 15 ط دار المعارف سنة 1400 هـ ص 15 ، وشرح القصائد العشر لأبي زكريا يحيى بن علي بن محمد الخطيب التبريزي (ت 502 هـ) - ص 47 ط صبيح بالقاهرة سنة 1384 هـ .

(2) فتح البيان في مقاصد القرآن لمحمد صديق حسن خان 478/3 مطبعة العاصمة - بالقاهرة ..

(3 ، 4) المرجع السابق 479/3 .

(5) هو الإمام أحمد بن محمد بن منصور بن أبي القاسم بن مختار ، أبو العباس ناصر الدين المعروف بابن المنير الإسكندراني المالكي ولد سنة 620 هـ وكان إماماً بارعاً في الفقه وأصوله واللغة والقراءات وفي أصول الدين - تولى القضاء في الإسكندرية ، وله مؤلفات جليلة منها تفسير القرآن العظيم ، والانتصاف من الكشاف ، وله =

أعلم : جنس الذكر والأنثى . لا يقصد فيه إلى معين وكأن المعني خلقكم جنسًا واحدًا وجعل أزواجكم منكم أيضًا لتسكنوا إليهن ، فلما تغشى الجنس الذي هو الذكر الجنس الذي هو أنثى جرى من هذين الجنسين كيت وكيت ، وإنما نسب هذه المقالة إلى الجنس وإن كان فيهم الموحدون لأن المشركين منهم فجاز أن يضاف الكلام إلى الجنس على طريقة « قتل بنو تميم فلائًا » والقاتل واحد منهم وليس كلهم ⁽¹⁾ .

● وما ذكره صاحب الانتصاف لا يخلو من التعسف والتكلف في فهم النص القرآني ، إذ يلزم منه إجراء اللفظ على غير ظاهره وحمله على أوجه بعيدة ، وجمهور المفسرين يرون أن النفس الواحدة هي آدم وزوجها حواء عليهما السلام .

● وذهب بعض المفسرين إلى أن النفس الواحدة هي نفس قصي ⁽²⁾ وكانت له زوجة عربية قرشية وطلب من الله تعالى الولد فرزقهما أربعة بنين فسميا أولادهما : عبد مناف وعبد شمس وعبد العزي وعبد الدار .

● وهذا القول ذكره بعض المفسرين دون تعليق عليه كالإمام النسفي ⁽³⁾ والإمام

= ديوان خطب وغير ذلك - توفي سنة 683 هـ . تراجع ترجمته في طبقات المفسرين للدوادوي 89/1 - وحسن المحاضرة للسيوطي 316/1 وفوات الوفيات لمحمد بن شاكر أحمد الكتبي ت 764 هـ 132/1 ط مطبعة السعادة بمصر ومكتبة النهضة المصرية بدون تاريخ . وبغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة للسيوطي 385/1 ونزهة الألباء في طبقات الأدباء لأبي البركات الأنباري ص 81 .

(1) الانتصاف من الكشاف بهامش الكشاف 186/2 .

(2) هو قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة ، ولي حجابة الكعبة وأمر مكة وجمع كلمة قريش وأنشأ دار الندوة - من أولاده عبد الدار، وعبد مناف الذي كان من ولده هاشم والد عبد المطلب جد المصطفى ﷺ .

يراجع الرحيق المختوم لصفى الرحمن المباركفوري ص 22 و ص 54 ط دار الوفاء ، ويراجع [السيرة النبوية لأبي محمد عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري ت 218 هـ 1/1 ، ط 2 البائي الحلبي سنة 1375 هـ . ويراجع مكة في عصر ما قبل الإسلام للسيد أحمد أبو الفضل عوض الله - الباحث بدارة الملك عبد العزيز سنة 1401 هـ . (3) مدارك التنزيل وحقائق التأويل للإمام النسفي 90/2 ط الحلبي - والإمام النسفي هو أبو البركات عبد الله بن أحمد بن محمود النسفي - نسبة إلى نسف ببلاد السند بين جيحون وسمرقند - معجم البلدان 285/5 كان عالماً بالفقه وأصوله وبأصول الدين والتفسير ، من مؤلفاته : متن الوافي في الفروع ، وشرحه الكافي وكنز الدقائق في الفقه والمنار في أصول الفقه والعمدة في أصول الدين ومدارك التنزيل وحقائق التأويل - توفي رحمه الله سنة 701 هـ . تراجع ترجمته في التفسير والمفسرون للذهبي 288/1 ، 289 والأعلام للزركلي 67/4 ومعجم المؤلفين 32/6 والدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة 347/2 .

النيسابوري (1) والإمام أبي حيان الأندلسي (2) ومنهم من قواه وحسنه كالزمخشري (3) والرازي (4) ومنهم من ضعفه كالإمام الألويسي (5) الذي أورد عليه ثلاثة اعتراضات هي :

[أن المخاطبين لم يخلقوا من نفس قصي لا كلهم ولا معظمهم - وأن زوجة قصي ليست قرشية ، وإنما كانت بنت سيد مكة من خزاعة (6) وقريش إذ ذاك متفرقون ليسوا في مكة ، وأيضاً من أين العلم أنهما وعدا عند الحمل أن يكونا شاكرين لله رب العالمين ، ولا كفران أشد من الكفر الذي كانا عليه ؟ وما مثل من فسر بذلك إلا كمن عمّر قَصْرًا فهدم مِصْرًا] (7) .

والرأي الذي اختاره في هذا الموضوع : أن قوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمَلًا خَفِيًّا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلتْ دَعَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا لَنُكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴾ (8) : نزلت في آدم وحواء ثم انتقل الكلام بعد ذلك إلى ذريتهما ﴿ فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ (9) أَيْشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴾ .

فذكر آدم وحواء من قبيل التوطئة للحديث عن المشركين من ذريتهما ، واستهل الحديث بخلق آدم وحواء لبيان نعمة الله ﷻ على البشرية بخلقهم ومع ذلك فإن المشركين من ذرية آدم ﷻ قد تجاهلوا هذه الحقيقة ، وكفروا بهذه النعمة وأشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا .

(1) غرائب القرآن و رغائب الفرقان 102/9 .

(2) البحر المحيط للإمام أبي حيان الأندلسي 438/4 ط دار إحياء التراث . بيروت - لبنان - والإمام أبو حيان هو محمد بن يوسف بن حيان ، أبو حيان الأندلسي ، المفسر المؤرخ صاحب المصنفات الكثيرة - من أهمها البحر المحيط . والنهر الماد من البحر وهو مختصر للبحر المحيط وعقد اللآئى في القراءات ولد سنة 654 هـ وتوفي سنة 745 هـ - تراجع ترجمته في طبقات المفسرين للداودي 287/2 .

وبغية الوعاة للسيوطي 280/1 ونفح الطيب 43/2 ومعجم المؤلفين 130/12 والدرر الكامنة 70/5 .

(3) الكشاف 185/2 . (4) مفاتيح الغيب 85/15 : 89 .

(5) روح المعاني 137/9 : 141 .

(6) سيد مكة من خزاعة هو حليل بن حبشة بن سلول الخزاعي وابنته (حتى) زوجها حليل لقصي لما عرف من نسبه وخصاله - يراجع مكة في عصر ما قبل الإسلام للسيد أحمد أبو الفضل ص 47 .

(7) روح المعاني 137/9 : 141 . (8) سورة الأعراف : 189 .

يقول الإمام الطبرسي في مجمع البيان : [وقال أبو مسلم (1) : تقدير الآية هو الذي خلقكم ، والخطاب لجميع الخلق من نفس واحدة يعني آدم وحواء وجعل من تلك النفس زوجها وهي حواء ، ثم انقضى الحديث عن آدم وحواء وخص بالذكر المشركين من أولاد آدم الذين سألوا ما سألوا وجعلوا له شركاء فيما آتاهم ، وقال : ويجوز أن يذكر العموم ثم يخص البعض بالذكر، ومثله كثير في الكلام ، قال تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي يُسَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحِ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرِينَكُمْ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ ﴾ (2) فخطاب الجماعة بالتسيير ثم خص راكب البحر بالذكر وكذلك هذه الآية أخبرت عن جملة البشر بأنهم مخلوقون من آدم وحواء ثم عاد الذكر إلى الذي سأل الله تعالى ما سأل فلما أعطاه الله إياه جعل له شركاء في عطيته] (3) .

ثالثاً :

● وفي سورة الزمر يقول ﷻ في سياق الحديث عن دلائل قدرته ومظاهر حكمته وعزته : ﴿ خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَنِيَّةً أَرْوِجَ بِخَلْقِكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِمَّنْ بَعْدَ خَلْقٍ فِي ظُلْمَتٍ ثَلَاثٍ ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَآفَىٰ تُصْرَفُونَ ﴾ (4) .

وهذه الآية معطوفة على سابقتها (5) التي تحدثت عن خلق السموات والأرض وتكوين الليل والنهار وتسخير الشمس والقمر . وجاء العطف بغير الواو لما بين الآيتين من كمال الاتصال فالآية الثانية تنمة للآية الأولى ؛ وهي بيان لآيات الرحمن في خلق الإنسان وفي خلق الأنعام بعد الحديث عن آيات الله تعالى في خلق السموات والأرض ، ويمكن أن تكون الآية الثانية جواباً عن سؤال يفهم من الآية الأولى فكان سائلاً يسأل بعد أن استمع إلى الآية الأولى التي تناولت خلق السموات والأرض - فيقول فماذا عن خلق الإنسان وخلق الأنعام ؟ وعلي هذا فبين الآيتين شبه كمال اتصال وقوله تعالى : ﴿ خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾ أي نفس آدم ﷻ : ﴿ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾ حواء

(1) أبو مسلم : هو محمد بن بحر الأصبهاني كان على مذهب المعتزلة وصنف لهم تفسيراً على مذهبهم ومات سنة 322 هـ وهو ابن سبعين سنة - طبقات المفسرين للداودي 109/2 ، 110 والفهرست ص 322

(2) سورة يونس : 22 .

ومعجم المؤلفين 97/9 .

(4) سورة الزمر : 6 .

(3) مجمع البيان للطبرسي 782/4 .

(5) الآية الخامسة من سورة الزمر .

عليها السلام خلقها الله من آدم عليه السلام ، فالبشر جميعًا خلقوا من أصل واحد ، وقوله تعالى : ﴿ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمِينَةَ أَزْوَاجٍ ﴾ .

انتقال من خلق الإنسان إلى خلق الأنعام وكما أن خلق الإنسان آية عجيبة ونعمة عظيمة فكذلك خلق الأنعام آية باهرة ونعمة ظاهرة . قال تعالى : ﴿ وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنْفَعٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ (١) وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٢﴾ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَلِّغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿٣﴾ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ (١) .

وقال تعالى : ﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً لِّتُنذِرُوا وَمِمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنفَعٌ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ (٢) .

- وأخبر عن الأنعام بالنزول لأنها تعيش على الماء ، والماء ينزل من السماء فصار التقدير كأنه أنزلها ، فهو مجاز مرسل علاقته السببية ، وقيل : إن الخلق يكون بأمر إلهي . والأمر الإلهي ينزل من السماء لذلك كان التعبير عن خلق الأنعام بالإنزال لأن خلق الأنعام صدر بأمر إلهي ، وقيل : إن الأنعام خلقت في الجنة ثم أنزلها الله إلى الأرض (٣) .
- أقول : وهذا الرأي الأخير لا دليل عليه .

● وقال الإمام النيسابوري : وفي هذه العبارة ﴿ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ﴾ نوع تفخيم وتعظيم يفيد الرفعة والاستعلاء ولهذا يقال : رفع الأمر إلى الأمير وإن كان الأمير في سرب (٤) .

● وقال شارح العقيدة الطحاوية في سر التعبير بالإنزال [والأنعام تخلق بالتوالد المستلزم إنزال الذكور الماء من أصلابها إلى الأرحام للإناث ولهذا يقال : أنزل ، ثم الأجنة تنزل من بطون الأمهات إلى وجه الأرض ، ومن المعلوم أن الأنعام تعلق فحولها إنائها عند الوطاء وينزل ماء الفحل من علو إلى رحم الأنثى ويلقى ولدها عند الولادة من

(1) سورة النحل : 5 : 8 .

(2) سورة المؤمنون : 21 .

(3) يراجع مفاتيح الغيب للرازي 245/26 والجامع لأحكام القرآن للقرطبي 235/15 .

(4) غرائب القرآن ورغائب الفرقان للنيسابوري 116/23 ، والسرب كما جاء في المصباح المنير هو بيت في الأرض لا منفذ له ، وهو الوكر ، المصباح 124/1 ، وفي لسان العرب [والسرب حفير تحت الأرض ، وقيل : بيت تحت الأرض] لسان العرب 1982/3 مادة (س ر ب) .

علو إلى سفلى [(1)] .

وقوله تعالى : ﴿ تَمَنِّيَةَ أَرْوَجِ ﴾ : من الضأن اثنين ومن الابل اثنين ومن البقر اثنين ومن المعز اثنين .

قال الإمام الراغب الأصفهاني في مفردات القرآن : [يقال لكل واحد من القرينين من الذكر والأنثى في الحيوانات المتزاوجة : زوج ولكل قرينين فيها وفي غيرها : زوج كالحنف والنعل ولكل ما يقترن بآخر مماثلاً له أو مضاداً : زوج قال تعالى : ﴿ جَعَلَ بَيْنَهُ الرَّوْحَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى ﴾ (2) وقال تعالى : ﴿ وَبِتَادُمِ أَسْكُنُ أَنْتَ وَرَوْجَكَ الْجَنَّةَ ﴾ (3) [(4) .

وقوله تعالى : ﴿ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ﴾ (5) إخبار من الله ﷻ عن تلك المراحل التي يمر بها الجنين في بطن أمه (6) .

قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِّنْ طِينٍ ﴿١٦﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٧﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظْمًا فَكَسَوْنَا الْعِظْمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴾ (7) .

والظلمات الثلاث قيل هي : ظلمة البطن والرحم والمشيمة (8) .

وقيل : الظلمات الثلاث هي : الأغشية الثلاثة التي تحيط بالجنين وهي :

1 - ظلمة الغشاء الأمينوسي : وهو يحيط بالتجويف الأمينوسي المملوء بالسائل

(1) شرح العقيدة الطحاوية للإمام ابن أبي العز علي بن علي ص 196 ط المكتب الإسلامي ط 4 سنة 1391 هـ وابن أبي العز هو علي بن علي بن محمد بن أبي العز الدمشقي الحنفي علاء الدين (731 - 792) هـ - فقيه ولي القضاء بدمشق وشرح العقيدة الطحاوية - الأعلام للزركلي 4/313 ، الدرر الكامنة 87/3 .

والعقيدة الطحاوية نسبة إلى مؤلفها الإمام أبي جعفر الطحاوي . وهو أبو جعفر أحمد بن محمد بن سلامة الأزدي المصري الحنفي وهو إمام تقي جليل ولد بمصر سنة 239 هـ ومات بها سنة 321 هـ من مؤلفاته معاني الآثار ومشكل الآثار والعقيدة الطحاوية وأحكام القرآن - معجم المؤلفين 2/107 والأعلام 1/306 .

(2) سورة القيامة : 39 .

(3) سورة الأعراف : 19 .

(4) سورة الزمر : 6 .

(5) المفردات للراغب ص 215 .

(6) عبر سبحانه بالبطن دون الأرحام ؛ لأن الجنين قد يتكون خارج الرحم كما أثبت ذلك العلم الحديث والله

(7) سورة المؤمنون : 12 - 14 .

أعلم .

(8) تفسير القرآن العظيم لابن كثير 4/46 ومجمع البيان للطبرسي 8/766 .

وتفسير الجلالين - لجلال الدين المحلي وجلال الدين السيوطي ص 606 ط دار المعرفة بيروت .

الأمينوسي الذي يسبح فيه الجنين .

2 - ظلمة الغشاء الكوريوني : الذي تصدر عنه الزغابات الكوريونية التي تنغرس في مخاطية الرحم .

3 - ظلمة الغشاء الساقط : وهو عبارة عن مخاطية الرحم السطحية وسمي بالساقط ؛ لأنه يسقط مع الجنين عند الولادة والله أعلم (1) .

- يقول الأستاذ عبد المجيد الزنداني : « ما هي الظلمات الثلاث التي ينطوي داخلها الإنسان في بطن أمه من طور إلى طور ؟ » .

سؤال عرفت إجابته بدقة بعد أن تقدم علم التشريح ، وكشف أن الغشاء الذي يحيط بالجنين في بطن أمه ليس غشاء واحدًا كما يرى بالعين المجردة وإنما هو أغشية ثلاثة هي الغشاء المنباري ، والحزبون والغشاء اللفائفي . وكل من هذه الأغشية لايسمح بنفاذ الضوء أو الماء أو الحرارة أفلا يكون بتلك الخصائص ظلمة ؟ وتكون جميعها ظلمات ثلاثًا ؟ [(2) .

أقول : وفي خلق الإنسان وخلق الأنعام ما يدل على عظيم قدرة الله تعالى وبديع صنعه ﴿ ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ ﴾ (3) فهو سبحانه المالك وهو الخالق وهو المنعم المتفضل وهو القادر وهو القاهر لا إله غيره ولا معبود سواه ﴿ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ ﴾ فكيف تعدلون عن عبادته إلى عبادة غيره ؟ أين يذهب بعقولكم ؟ كيف تعرضون عن الحق مع وضوحه وجلائه ؟ .

(1) مع الطب في القرآن الكريم تأليف ط / عبد الحميد دياب د . أحمد قرقوز ط سلسلة علوم القرآن دمشق بيروت ط 7 سنة 1404 هـ سنة 1984 م .

(2) توحيد الخالق 59/3 للأستاذ الدكتور عبدالمجيد الزنداني ط دار السلام سنة 1415 هـ ط 3 والمؤلف داعية إسلامي معروف في العالم الإسلامي ، وهو يمني ، درس علوم الصيدلة وعلوم الشريعة وله باع كبير في دراسة الإعجاز العلمي وعمل رئيسًا لهيئة الإعجاز العلمي للقرآن الكريم برابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة من مؤلفاته كتاب التوحيد، وكتاب توحيد الخالق .

(3) سورة الزمر : 6 .

ومما سبق يتضح لنا : أن حواء عليها السلام خلقت من ضلع من أضلاع آدم عليه السلام وفي هذا دليل على قدرة الله تعالى وعجيب صنعه ﴿ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴾ (1) .

● وفي خلق حواء من أحد أضلاع آدم دليل على تبعيتها لآدم ، وتفرعها منه ، فأدم عليه السلام هو الأصل وحواء فرع منه وفي خلق حواء من جنس آدم حكمة بالغة ، فالجنس إلى الجنس أميل وكل منهما لا يستغني عن صاحبه ، والصلة التي ينبغي أن تجمعهما هي صلة المحبة ورباط المودة والوئام والانسجام .

● وحواء عليها السلام وللنساء عموماً طبيعتهن وفطرتهن التي تتناسب مع دورهن في الحياة ، وأي تغيير لهذه الفطرة فهو تغيير لخلق الله واستجابة لدعوة إبليس اللعين التي يهدف من خلالها إلى إضلال الناس ، يقول تعالى في سورة النساء مبيئاً لنا جانباً من مخططات الشيطان الرجيم الذي يسعى من خلالها إلى الإغواء والتضليل والصد عن سواء السبيل بأساليب ملتوية خداعة وشعارات براءة ووعود كذابة ، قال تعالى في كتابه الكريم في سورة النساء : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴾ (2) . إن يدعون من دونه إلا إنشأ وإن يدعون إلا شيطناً مريباً ﴿ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الَّذِينَ لَا يَتَّخِذُونَ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا ﴾ (3) . ولأضلنهم ولأمنينهم ولأمرنهم فليبتكن آذات الأنعام ولأمرنهم فلأعزرن خلق الله ومن يتخذ الشيطان ولياً من دون الله فقد خسر خسراناً مبيناً ﴿ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴾ (4) .

● أما عن كيفية خلق حواء من أحد أضلاع آدم . فهذه حقيقة غيبية ، يعلمها الخالق تعالى ، ولا علم لنا بها ، وصدق الله تعالى إذ يقول : ﴿ مَا أَشْهَدُهُمْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلَقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُمْ مَتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴾ (5) .

● والذين ذهبوا إلى تحديد الضلع الذي خلقت منه حواء لا دليل لهم على ما ذهبوا إليه حيث لم يرد في القرآن ولا في السنة أي تحديد للضلع الذي خلقت منه ، والله تعالى أعلم .

(1) سورة المؤمنون : 14 .

(2) سورة النساء : 116 - 120 .

(3) سورة الكهف : 51 .

المبحث الثاني

سكنى حواء مع آدم الجنة

وينقسم هذا البحث إلى مطلبين :

● المطلب الأول بيان المراد بالجنة التي سكنها آدم وحواء

● اختلف العلماء في حقيقة الجنة التي سكنها آدم وحواء عليهما السلام ، قال الجمهور : إنها الجنة التي وعد المتقون دخولها في الآخرة .

وقد استدلوا على ذلك بأدلة صحيحة صريحة نذكر منها ما يلي :

1 - حينما ترد كلمة (الجنة) في القرآن الكريم فإن المتبادر من ذكرها أنها جنة الخلد فاللام في (الجنة) للعهد الذهني ، يقول الإمام ابن القيم (1) في كتابه حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح وهو يسوق الحجج الدالة على أنها الجنة التي وعد المتقون : [قالوا أيضًا : فالجنة جاءت معرفة بلام التعريف في جميع المواضع كقوله تعالى : ﴿ أَسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ ﴾ (2) . ونظائره ، ولا جنة يعهدها المخاطبون ويعرفونها إلا جنة الخلد التي وعد المتقون ، فقد صار هذا الاسم علمًا بالغلبة كالمدينة والنجم والبيت والكتاب ونظائرها ، فحيث ورد لفظها معرفًا انصرف إلى الجنة المعهودة المعلومة في قلوب المؤمنين ، وأما إن أريد به جنة غيرها فإنها تجيء منكورة أو مقيدة بالإضافة ، أو مقيدة من السياق بما يدل على أنها جنة في الأرض فالأول : كقوله تعالى : ﴿ جَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ ﴾ (3) والثاني : كقوله تعالى : ﴿ وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتِكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ ﴾ (4) والثالث :

(1) هو محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد الدمشقي الفقيه الأصولي الإمام شمس الدين أبو عبد الله بن قيم الجوزية ولد سنة 691 هـ ونشأ في بيت علم وتلمذ على يد الإمام ابن تيمية ولازمه وتأثر به ، له مؤلفات كثيرة منها إعلام الموقعين عن رب العالمين ، إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان ، بدائع الفوائد ، التبيان في أقسام القرآن ، تفسير المعوذتين ، حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح ، الروح ، الطب النبوي ، زاد المعاد في هدي خير العباد ، مدارج السالكين ، روضة المحبين ، عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين ، وغير ذلك ، توفي سنة 751 هـ تراجم ترجمته في : الأعلام 280/6 ، ومعجم المؤلفين 106/9 .

(2) سورة البقرة : 35 ، وسورة الأعراف : 19 .

(3) سورة الكهف : 32 .

(4) سورة الكهف : 39 .

كقوله تعالى : ﴿ إِنَّا بَلَوْنَهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ ﴾ (1) [(2) .

ويقول الإمام ابن كثير : [والجمهور على أنها هي التي في السماء ، وهي جنة المأوى ، لظاهر الآيات والأحاديث كقوله تعالى : ﴿ وَقَلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ ﴾ (3) والألف واللام ليست للعموم ولا لمعهد لفظي وإنما تعود إلى معهود ذهني ، وهو المستقر شرعاً من جنة المأوى وكقول موسى ﷺ لآدم ﷺ : علام أخرجتنا ونفسك من الجنة ... ؟ الحديث] (4) .

2 - واستدلوا أيضاً بقول الله ﷻ : ﴿ قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ (5) قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿ (5)] فهذا يدل على أن الهبوط كان من الجنة إلى الأرض من وجهين ، أحدهما من لفظة ﴿ اهْبِطُوا ﴾ ، فإنه نزول من علو إلى سفلى ، والثاني ﴿ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ ﴾ عقب قوله ﴿ اهْبِطُوا ﴾ فدل على أنهم لم يكونوا قبل ذلك في الأرض . ثم أكد هذا بقوله في سورة الأعراف ﴿ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴾ (6) ، ولو كانت الجنة في الأرض لكانت حياتهم فيها قبل الإخراج وبعده [(7) .

3 - كما استدلوا بحديث في الشفاعة رواه الإمام مسلم في صحيحه بسنده عن

(1) سورة القلم : 17 .

(2) حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح لابن القيم ط مكتبة المدني بالقاهرة بدون إشارة إلى جهة الطبع وما ذكره في كتاب حادي الأرواح عن تعيين الجنة هو نفس ما ذكره في كتابه مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة ص 12 : 34 ط مكتبة حميدو بالإسكندرية سنة 1399 هـ ط 3 .

(3) سورة البقرة : 35 .

(4) قصص الأنبياء لابن كثير ص 16 بدون إشارة إلى جهة الطبع ولا تاريخه - ونص الحديث كما في صحيح البخاري عن أبي هريرة ؓ عن النبي ﷺ قال : « احتج آدم وموسى فقال له موسى : يا آدم أنت أبونا ، خيبتنا وأخرجتنا من الجنة ! قال له آدم : يا موسى اصطفاك الله بكلامه وخط لك يده أتولمني على أمر قدره الله علي قبل أن يخلقني بأربعين سنة ؟ فحج آدم موسى ثلاثاً » صحيح البخاري كتاب القدر باب تحاج آدم وموسى عند الله حديث 6614 [فتح الباري 513/11] .

ورواه الإمام مسلم في صحيحه عنه في كتاب القدر باب حجاج آدم وموسى صلى الله عليهما وسلم [صحيح مسلم بشرح النووي 200/16 : 202 ط دار إحياء التراث العربي .

(5) سورة الأعراف : 25 .

(6) سورة الأعراف : 24 ، 25 .

(7) حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح لابن القيم ص 27 .

حذيفة بن اليمان قال : قال رسول الله ﷺ : « يجمع الله تبارك وتعالى الناس فيقوم المؤمنون حتى تزلف (1) لهم الجنة فيأتون آدم فيقولون : يا أبانا استفتح لنا الجنة فيقول : وهل أخرجكم من الجنة إلا خطيئة أبيكم آدم ؟ لست بصاحب ذلك ، اذهبوا إلى ابني إبراهيم الخليل » (2) إلخ الحديث .

وهذا نص صريح صحيح في كون الجنة التي أخرج منها آدم هي جنة الخلد .

4 - واستدلوا أيضًا بأن الجنة التي أسكنها آدم وصفت بأوصاف لا تكون إلا في جنة الخلد قال تعالى مخاطبا آدم ﷺ : ﴿ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى ﴿١٧﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَى ﴾ (3) قال الإمام ابن القيم في كتابه حادي الأرواح [وقد وصف الله سبحانه جنة آدم بصفات لا تكون إلا في جنة الخلد فقال : ﴿ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى ﴿١٧﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَى ﴾ وهذا لا يكون في الدنيا أصلاً ، فإن الرجل ولو كان في أطيب منازلها لا بد أن يعرض له شيء من ذلك ..] (4) .

5 - وقالوا أيضًا لو كانت تلك الجنة في الدنيا لعلم آدم كذب إبليس في قوله كما أخبر القرآن ﴿ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَى ﴾ (5) فإن آدم ﷺ كان يعلم أن الدنيا منقضية فانية ، وأن ملكها يفنى (6) .

● ولأصحاب هذا الرأي أدلة أخرى كثيرة ، ولكننا نكتفي هنا بما سبق وفيه الكفاية على صحة هذا الرأي إن شاء الله .

● وذهبت طائفة إلى أن الجنة التي سكنها آدم وحواء ليست بالجنة التي وعد الله عباده المتقين ، وقالوا : إن جنة الخلد لا يدخلها أحد في الدنيا ، وقد وصفها الله بأوصاف ، ومحال أن يصف الله تعالى شيئاً بغير صفته . ووصفها بدار الخلد ودار المقامة ولم يخلد فيها آدم ، ولم يقم فيها ، ووصفها بأنها دار الثواب والجزاء ، وإنما كلف فيها بأن لا يقرب الشجرة ﴿ فَمَلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمْ وَلَا تَقْرَبُوا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونُوا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ (7) ووصفها بأنها دار سلامة مطلقة لا دار ابتلاء وامتحان وقد ابتلي فيها آدم وامتنحن فيها . ووصفها

(1) أي تقرب منهم كما قال تعالى : ﴿ وَأَزَلَّتْ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴾ سورة ق : 31 .

(2) رواه الإمام مسلم كتاب الإيمان - باب الشفاعة من حديث حذيفة بن اليمان ؓ - صحيح مسلم بشرح النووي 70/3 .

(3) سورة طه : 118 : 119 .

(5) سورة طه : 120 .

(4) حادي الأرواح ص 27 بتصرف .

(7) سورة الأعراف : 19 .

(6) المرجع السابق بتصرف .

بأنها لا يعصى الله فيها أبداً وقد عصى آدم فيها ربه . ووصفها بأنها دار فرح وسرور لآحزن فيها ولاخوف ، وقد حزن آدم ﷺ وزوجه لما أكلا من الشجرة وندما على فعلتهما ، ووصفها بأنها ﴿ لَا لَعْوُ فِيهَا وَلَا تَأْنِيهِ ﴾ (1) وقد لغا فيها إبليس ووسوس إلى آدم ﷺ ؟ ولو كانت جنة الخلد فكيف دخلها إبليس اللعين وقد طرد منها ؟ قال تعالى : ﴿ قَالَ فَأَهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴾ (2) .

● وقد رد الجمهور على أصحاب هذا الرأي بأدلة نذكرها فيما يلي :

- أما قولهم بأن دار الخلد لا يدخلها أحد في الدنيا : فهذا حق في دخول الدوام والاستقرار ، أما الدخول العارض فيقع قبل يوم القيامة كما دخل رسول الله ﷺ ليلة الإسراء والمعراج (3) ، فمن أين لكم أن مطلق الدخول لا يكون في الدنيا ؟!

- وأما قولهم بأنها دار جزاء وثواب لآدار تكليف : فإن الممنوع التكليف فيها إذا دخلها المؤمنون يوم القيامة ، وأما في الدنيا فلا مانع من التكليف فيها ، ولا دليل على امتناعه البتة .

- وأما قولهم بأنه لا يعصى الله فيها ولا خوف فيها ولا حزن ولا غم ولا ندم : فإنما ذلك في الآخرة حين يدخلها المؤمنون ويحيون فيها حياة طيبة أما حين دخلها آدم ﷺ فقد دخلها ليتعرف على نعيمها ويتنعم بخيراتها فإذا خرج منها اشتاق إلى الرجوع إليها وعمل بما يقربه إليها ، وعصى من كان سبباً في خروجه منها .

وقد قال ﷺ للملائكة : ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ (4) فكان هبوط آدم ﷺ

(1) سورة الطور : 23 .

(2) سورة الأعراف : 13 .

(3) في صحيح البخاري من حديث أنس عن النبي ﷺ أنه قال : « بينما أنا أسير في الجنة ، وإذا بنهر في الجنة حافته قباب الدر المحجوف قال : قلت : ما هذا يا جبريل ؟ قال : هذا الكوثر الذي أعطاك ربك ، فضرِب الملك بيده فإذا طينة المسك الأذفر » رواه الإمام البخاري في صحيحه - كتاب الرقاق - باب في الخوض وقول الله تعالى : ﴿ إِنَّا أَنْعَمْنَا بِكَ الْكُوفِرَ ﴾ حديث 6581 الفتح 472/11 والأذفر الذكي الرائحة .

وفي صحيح مسلم من حديث جابر بن عبد الله ﷺ قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « دخلت الجنة فرأيت فيها قصرًا ودارًا فقلت : لمن هذا ؟ فقيل : لرجل من قريش ، فرجوت ان أكون أنا هو ، فقيل : لعمر بن الخطاب : فولوا غيرتك يا أبا حفص لدخلته » قال : فبكى عمر ، وقال : أويغار عليك يا رسول الله ؟ - رواه الإمام مسلم في صحيحه ك / فضائل الصحابة باب فضائل عمر ﷺ - صحيح مسلم بشرح النووي 163/15 .

(4) سورة البقرة : 30 .

إلى الأرض تحقيقاً لقدرة الله ﷻ الذي اقتضته حكمته ومشيبته ﴿ قَالَ أَهبطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾ (1) .

- أما عن وقوع الوسوسة من إبليس وقد طرد من الجنة وأهبط من السماء : فإنه لا يمتنع أن يصعد إلى هناك صعوداً عارضاً لتمام الابتلاء والامتحان الذي قدره الله تعالى وقدر أسبابه ، فهو صعود عارض لادوام له ، وقد كان الشياطين يسترقون السمع قبل بعثة رسول الله ﷺ وكانوا ينقلون ما يسمعون إلى الكهنة والعرافين مع ما يضيفونه من خرافات وأكاذيب يقول تعالى في سورة الجن مخبراً عن حالهم : ﴿ وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَا فِيهَا مَلَأَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴿٥﴾ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقْعِدًا لِّلسَّمْعِ فَمَن يَسْمَعِ آلَانَ يَجِدْ لَهُ شُهَابًا رَّصَدًا ﴿٦﴾ وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴿٧﴾ (2) .

● يقول الإمام ابن كثير مجيباً على حجة القائلين بأن جنة آدم ليست دار الخلد ولو كانت هي فكيف دخلها إبليس بعد أن طرد منها : [إنه لا يمتنع أن يجتمع بهما في الجنة على سبيل المرور فيها لا على سبيل الاستقرار بها وأنه وسوس لهما وهو على باب الجنة أو من تحت السماء] (3) .

أقول : ولا مانع من أن تكون وسوسة إبليس من خارج الجنة وقد وصلت لآدم بكيفية لا نعلمها ، والعلم الحديث يشهد ويؤكد هذا فيما كان رجل في مصر أن يخاطب آخر في أمريكا أو أوروبا أو آسيا . وأن تجرى المحادثة بالصوت والصورة - على الهواء مباشرة .

وعلي هذا فلا مانع من وسوسة إبليس للعين وهو خارج الجنة ووصول هذه الوسوسة إلى آدم ﷺ والله تعالى أعلم .

● وقد اعترض القائلون بأن الجنة التي أسكنها آدم ﷺ ليست هي جنة الخلد ، اعترضوا بأن إبليس حين وسوس لآدم ﷺ قال له كما بين القرآن الكريم ﴿ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿٤﴾ فلو كانت هذه الجنة جنة الخلد فكيف يطلب آدم ﷺ الخلد فيها ؟ وأجاب القائلون بأنها جنة الخلد على هذا الاعتراض بقولهم : ولو

(2) سورة الجن : 8 ، 10 .

(1) سورة الأعراف : 24 ، 25 .

(3) يراجع قصص الأنبياء لابن كثير ص 17 ، 18 . (4) سورة طه : 120 .

كانت الجنة التي أسكنها آدم عليه السلام في الأرض فكيف يطلب آدم عليه السلام الخلود في دار الفناء ؟ .

- ومن خلال عرض أدلة الفريقين يتبين لنا أن الرأي الراجح في هذا الموضوع هو رأي الجمهور ، فأدلتهم قوية وحجتهم ساطعة قاطعة صحيحة صريحة .

- ويقي لنا أن نوضح أن القائلين بأن الجنة التي أسكنها آدم وحواء غير جنة الخلد قد اختلفوا في تحديدها : فمنهم من قال : هي في السماء ومنهم من قال : هي في الأرض وفسروا الهبوط بالانتقال من مكان إلى مكان كما قال عليه السلام مخبراً عن قول موسى عليه السلام لبيبي إسرائيل : ﴿ أَهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَّا سَأَلْتُمْ ﴾ ⁽¹⁾ وقالوا : إنما سميت بالجنة لكثرة أشجارها وكثافة أغصانها .

ومن العلماء من توقف في المسألة ولم يرجح فيها شيئاً ⁽²⁾ والله تعالى أعلم .

(1) سورة البقرة : 61 .

(2) من القائلين بأنها جنة في الأرض أبو مسلم الأصفهاني في تفسيره . ذكر ذلك الطبرسي في مجمع البيان 1/194 . ومنذر بن سعيد البلوطي الذي قال : إن القول بأنها في الأرض قول تكثر الدلائل الشاهدة له والموجبة للقول به ذكر ذلك ابن القيم في حادي الأرواح نقلاً عن تفسير منذر بن سعيد البلوطي - حادي الأرواح ص 22 : 25 . ومنذر بن سعيد بن عبد الله بن عبد الرحمن القرطبي أبو الحاكم البلوطي : إمام عالم وقاضي قضاة الأندلس في عصره وأشهر الخطباء في زمانه - كان شاعراً أدبياً فقيهاً وكان يقول الحق ولا يخشى في الله لومة لائم . من مؤلفاته الإنباه عن الأحكام من كتاب الله ، والإبانة عن حقائق أصول الديانة توفي سنة 355 هـ عن 99 سنة تراجع ترجمته في سير أعلام النبلاء للذهبي 16/173 والبداية والنهاية لابن كثير 11/288 . وشذرات الذهب للعماد الحنبلي 3/17 والأعلام للزركلي 7/294 .

ومن القائلين بأنها جنة في السماء غير جنة الخلد : أبو هاشم الجبائي ذكر ذلك الطبرسي في مجمع البيان 1/194 . وأبو هاشم الجبائي هو أبو هاشم عبد السلام بن محمد بن عبد الوهاب الجبائي نسبة إلى جباء من أعمال البصرة بالعراق . كان من كبار المعتزلة في عصره ووالده أبو علي الجبائي محمد بن عبد الوهاب شيخ المعتزلة في عصره ، توفي أبو هاشم ببغداد سنة 321 هـ تراجع ترجمته في طبقات المعتزلة لابن المرتضى ص 94 ط بيروت - ومن الذين توقفوا في هذه المسألة الإمام الألويسي في تفسيره روح المعاني 1/233 وصديق حسن خان في تفسيره فتح البيان 1/112 وسيد قطب في الظلال 1/59 ، 3/127 حيث ذكر أن هذه المسألة من الأمور الغيبية التي لا علم لنا بها .

المطلب الثاني تفسير الآيات الكريمة الواردة في سكنى آدم ﷺ وزوجه حواء الجنة .

1 - قال تعالى في سورة البقرة : ﴿ وَقَلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ (1) .

2 - وقال ﷺ في سورة الأعراف : ﴿ وَيَتَّعَدُمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ (2) .

3 - وقال سبحانه في سورة طه : ﴿ وَلَقَدْ عَاهَدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلِ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا ﴿١٧١﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى ﴿١٧٢﴾ فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِرِجْلِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكَ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى ﴿١٧٣﴾ إِنَّ لَكَ أَلًا تَجُوعُ فِيهَا وَلَا تَعْرِى ﴿١٧٤﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَى ﴾ (3) .

وفيما يلي نتناول هذه الآيات الكريمة بالتفسير والبيان .

ونبدأ أولاً بتفسير موضعي سورة البقرة وسورة الأعراف فنقول وبالله التوفيق :

قوله تعالى : ﴿ اسْكُنْ ﴾ فعل أمر من السكن والأمر إما للوجوب وإما للإباحة .
والراجع أنه للوجوب .

قال صاحب المصباح المنير : [وسكنت الدار ، وفي الدار سكناً من باب طلب والاسم السكنى فأنا ساكن ، والجمع ساكن ، ويتعدى بالألف فيقال : أسكنته الدار ، والمسكن بفتح الكاف وكسرهما : البيت ، والجمع مساكن ، والسكن ما يسكن إليه من أهل ومال وغير ذلك وهو مصدر سكنت إلى الشيء من باب طلب أيضاً ، والسكينة أيضاً الرزانة والوقار] (4) .

● وقال الإمام القرطبي : [في قوله تعالى : ﴿ اسْكُنْ ﴾ تنبيه على الخروج لأن السكنى لا تكون ملكاً ولهذا قال بعض العارفين : السكنى تكون إلى مدة ثم تنقطع فدخولهما في الجنة كان دخول سكنى لادخول إقامة] (5) .

وأصل (الجنة) من الجن وهو ستر الشيء عن الحاسة يقال : جنه الليل وأجنه وجن عليه فجنه ستره وأجنه جعل له ما يجنه كقولك : قبرته وأقبرته وسقيته وأسقيته ، ومنه

(2) سورة الأعراف : 19 .

(1) سورة البقرة : 35 .

(4) المصباح المنير 129/2 مادة س ك ن .

(3) سورة طه : 115 : 119 .

(5) تفسير القرطبي 1/299 وفي بعض النسخ (لا دخول ثواب) .

الجنان بمعنى القلب لغيا به عن الحواس والجن لاختفائهم عن الإنسان ، ومنه الجنة الحديقة الكثيرة الأشجار الوارفة الظلال ؛ لأن من يدخلها يختفي بين أشجارها عن الناظرين ، وسميت جنة الآخرة بذلك لكثرة أشجارها وامتداد ظلها . وقيل : لأن نعمها مستورة عنا ففيها ما نشتهيه ، وفيها فوق ما نشتهيه : قال تعالى : ﴿ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ ﴾ (1) وقال سبحانه : ﴿ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ كَانَتْ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعَدًّا مَسْئُورًا ﴾ (2) : قال تعالى : ﴿ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴾ (3) .

وقال أكرم الأكرمين : ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (4) .

وفي الحديث القدسي يقول المولى ﷺ : « أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر » (5) .

والجنة المقصودة هنا في ﴿ أَسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ ﴾ .

هي جنة الخلد على الرأي الراجح واللام في الجنة للمعهود الذهني كما ذكرنا آنفاً . وقد دخلها آدم ﷺ وزوجه حواء تكريماً لهما وابتلاء ، وحتى يتعرفا على نعيمها فيكونا أشد شوقاً إليها لأن : - من ذاق عرف - .

وقوله تعالى في سورة البقرة : ﴿ وَكَلَّا مِنْهَا رَعْدًا حَيْثُ شِئْتُمَا ﴾ أمر من المولى ﷺ لآدم وحواء أن يأكلا من الجنة أكلاً رعداً .

والرغد : العيش الواسع الهنيء الكثير الذي لا عناء فيه ، قال صاحب المصباح المنير : (رغد العيش بالضم رغادة : اتسع ولان فهو ورغد ورغيد ، ورغد رعداً من باب تعب ، لغة ، فهو راغد ، وهو في رغد من العيش أي رزق واسع) (6) .

وقال صاحب المفردات : (عيش رغد ورغيد طيب واسع ، قال تعالى : ﴿ وَكَلَّا مِنْهَا رَعْدًا ﴾ (7)

(1) سورة الزخرف : 71 .

(2) سورة الفرقان : 16 .

(3) سورة ق : 35 .

(4) سورة السجدة : 17 .

(5) الحديث رواه الإمام البخاري في صحيحه عن أبي هريرة ؓ - كتاب التفسير باب ﴿ فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرّة أعين ﴾ السجدة : 17 - حديث 4779 فتح الباري 8/375 .

(6) المصباح المنير للفيومي 106/1 مادة (رغ د) والأساس في البلاغة للزمخشري مادة (رغد) ط دار الكتب المصرية ط 1 سنة 1372 هـ سنة 1953 م .

(7) سورة البقرة : 35 .

وقال : ﴿ يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّنْ كُلِّ مَكَانٍ ﴾ (1) [(2) .

وقوله تعالى : ﴿ حَيْثُ شِئْتُمَا ﴾ أي من أي مكان في الجنة شئتما .

وقوله تعالى : ﴿ وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ ﴾ خطاب لآدم ﷺ خطاب رحمة ومودة وإقبال ووصال بعد أن خاطب إبليس العين خطاب إغراء وإبعاد .

● أقبل المولى ﷺ على آدم وقال له : ﴿ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا ﴾ أي كلا منها أكلاً هنيئاً ، والرغد هو السعة في العيش ، والوفرة والكثرة في الخيرات وتحصيلها بلا عناء .

وتخصيص الخطاب لآدم هنا « للإيذان بأصالته في تلقي الوحي وتعاطي الأمور به وتجنب المنهي عنه ، وحواء مساوية له فيما ذكر بخلاف الشكنى فإنها تابعة له فيها » (3) .

وقوله تعالى : ﴿ حَيْثُ شِئْتُمَا ﴾ أي من أي مكان شئتما .

● وأطلق الأكل هنا توسعة على آدم وحواء ، وحتى لا يبقى لهما عذر في تناول من الشجرة التي نهيا عن الأكل منها .

﴿ وَلَا نَقْرَبًا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ القرب : هو الدنو ، قرب الشيء قرابة وقرباً وقربة وقربى ، ويقال : القرب في المكان والقربة في المنزلة ، والقربى والقرابة في الرحم ... وقربت الأمر أقربه فعلته أو دانيته (4) ، والمنهيه عنه هنا هو الأكل من ثمار تلك الشجرة وتعليق النهي على القرب منها للمبالغة في النهي عن الأكل ، إذ في النهي

(1) سورة النحل : 112 .

(2) المفردات للإمام الراغب الأصفهاني مادة (ر غ د) والإمام الراغب هو أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني له مؤلفات كثيرة ومتنوعة منها المفردات في غريب القرآن ، والذريعة إلى مكارم الشريعة ، ومحاضرات الأدباء ، وتفصيل النشأتين وتحصيل السعادتين ، توفي ﷺ سنة 502 هـ - تراجع ترجمته في الأعلام للزركلي 255/2 وبغية الوعاة للسيوطي ص 396 ومعجم المؤلفين 59/4 .

(3) إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الحكيم للإمام أبي السعود 111/1 بتصرف ط دار الفكر .

والإمام أبو السعود هو : محمد بن محمد بن مصطفى العمادي الحنفي ولد سنة 898 هـ بقرية قريبة من القسطنطينية في بيت عرف بالعلم والفضل ، وله مؤلفات في كثير من العلوم ، منها تفسيره إرشاد العقل السليم وكتاب تحفة الطلاب وقصة هاروت وماروت وغير ذلك ، توفي ﷺ سنة 982 هـ - تراجع ترجمته في الأعلام للزركلي 288/7 - والتفسير والمفسرون للذهبي 344/1 ومعجم المؤلفين لكحالة 301/11 .

(4) يراجع المصباح المنير للفيومي مادة - ق ر ب 67/2 .

عن القرب من الشيء نهى عن فعله من باب أولى ، وقوله تعالى : ﴿ فَتَكُونًا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ أي من الذين ظلموا أنفسهم بالمعصية .

● الشجرة المحظورة : والشجرة التي نهيا عن الأكل منها : قيل هي شجرة الحنطة ، وقيل : الكرم ، وقيل غير ذلك .

أقول : وليس في القرآن الكريم ولا في السنة النبوية أي نص يدل على تعيينها ، والله أعلم بحقيقتها .

وللإمام ابن جرير الطبري في هذا المقام كلام طيب حيث يقول بعد أن أورد روايات متعددة ومختلفة في تحديد تلك الشجرة : [... والصواب في ذلك أن يقال : إن الله جل ثناؤه نهى آدم وزوجته عن أكل شجرة بعينها من أشجار الجنة دون سائر أشجارها فخالفا إلى ما نهاهما الله عنه ، فأكلا منها ولا علم عندنا بأي شجرة كانت على التعيين ؛ لأن الله لم يضع لعباده دليلاً على ذلك في أي القرآن ، ولا في السنة الصحيحة وقد قيل : كانت شجرة البر ، وقيل : كانت شجرة العنب ، وقيل : كانت شجرة التين ، وجائز أن تكون واحدة منها ، وذلك علم إذا علم لم ينفع العالم به علمه ، وإن جهله جاهل لم يضره جهله] (1) .

ثانياً : فائدة في مشتبهات القرآن

في سورة البقرة يقول المولى ﷻ : ﴿ وَقُلْنَا يَتَّادُمُ اسْكَنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَعَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ (2) .

وفي سورة الأعراف يقول المولى ﷻ : ﴿ وَبِتَّادُمُ اسْكَنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ (3) .

ولنا عند هاتين الآيتين وقفة ، فنقول وبالله التوفيق :

● في سورة البقرة : ﴿ وَقُلْنَا يَتَّادُمُ ﴾ وفي سورة الأعراف ﴿ وَبِتَّادُمُ ﴾ ، في سورة

(1) جامع البيان للإمام الطبري 520/1 : 521 بتصرف تحقيق محمود شاكر وأحمد محمد شاكر ط دار المعارف .

ويراجع في هذا المقام أيضاً ما ذكره النيسابوري في تفسيره غرائب القرآن ورغائب الفرقان 276/1 حيث ذكر أيضاً أنه لافائدة من معرفة نوع هذه الشجرة ، وليس في الظاهر ما يدل على تعيينها .

(3) سورة الأعراف : 19 .

(2) سورة البقرة : 35 .

البقرة ﴿ وَقُلْنَا ﴾ لأنه قال في الآية السابقة ﴿ وَإِذْ قُلْنَا ﴾ فعطف القول الثاني على القول الأول .

● ونداء آدم ﷺ باسمه نداء القرب والإكرام والحب والإنعام وفي سورة الأعراف ﴿ وَبَقَادُمْ ﴾ لأنه ﷺ بعد أن خاطب إبليس اللعين خطاب إبعاد وزجر وإهانة وهجر حيث قال ﷺ : ﴿ قَالَ فَأَهِيْطْ مِنْهَا فَمَا يَكُوْنُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّٰغِرِيْنَ ﴾ (1) وقال تعالى : ﴿ قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْهُومًا مَّدْحُوْرًا لَّمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِيْنَ ﴾ (2) بعد هذا الخطاب الذي جمع بين الإهانة والهجر والتوبيخ والزجر واللعنة والطرود والتهديد والوعيد بالعذاب الشديد أقبل المولى ﷺ على آدم ﷺ وخاطبه خطاب التكريم والإنعام والإقبال والوصول والقرب والحب . فقال ﷺ : ﴿ وَبَقَادُمْ أَسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ ﴾ .

فكأن قائلاً يقول : إذا كان هذا حال إبليس اللعين ، فما هو حال آدم ﷺ ؟ فجملة ﴿ وَبَقَادُمْ أَسْكُنْ ﴾ ... إلخ الآية جملة بيانية مستأنفة للإجابة على هذا السؤال .

● وفي سورة البقرة : ﴿ أَسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا ﴾ .

● وفي سورة الأعراف : ﴿ أَسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا ﴾ .

جاء الخطاب بـ ﴿ أَسْكُنْ ﴾ لآدم والخطاب بـ ﴿ وَكُلَا ﴾ ، ﴿ فَكُلَا ﴾ لآدم وحواء معاً : لأن حواء ﷺ وآدم ﷺ في الأكل سواء ، بخلاف السكنى فإنها تابعة له فيها ، وجاء الخطاب بالأكل إليهما معاً تعميماً للتشريف والتكريم والإنعام وإيداناً بتساويها في مباشرة الأمور به تمهيداً للإيدان بتساويهما في اجتناب الأكل من الشجرة المحظورة .

وعن السر في التعبير بالواو في موضع سورة البقرة ، وبالفاء في الأعراف - والله أعلم - يقول الإمام بدر الدين بن جماعة (3) في كتابه كشف المعاني في التشابه من المثاني : [.... جوابه : قيل : إن السكنى في سورة البقرة من الإقامة ، وفي الأعراف

(1) سورة الأعراف : 13 .

(2) سورة الأعراف : 18 .

(3) هو الإمام أبو عبد الله بدر الدين محمد بن إبراهيم بن سعد الله بن جماعة الكناني الحموي الشافعي (639 هـ - 733 هـ) هـ ولد في بيت علم وفضل في أسرة حموية ، نسبة إلى حماة ودرس فيها وتولى القضاء والخطابة والتدريس في مدارس دمشق - له مؤلفات كثيرة منها : غرر التبيان في من لم يسم في القرآن - وكشف المعاني عن التشابه من المثاني - والعمدة في الأحكام ، وكشف الغمة في أحكام أهل الذمة وغير ذلك . تراجع ترجمته في الأعلام للزركلي 298/5 ، وطبقات المفسرين للداوودي 53/2 ومعجم المؤلفين 201/8 .

اتخاذ المسكن ، فلما نسب القول إليه تعالى ﴿ وَقُلْنَا يَتَّكِدُمْ ﴾ ناسب زيادة الإكرام بالواو الدالة على الجمع بين السكن والأكل ولذلك قال فيه : ﴿ رَعَدًا ﴾ وقال : ﴿ حَيْثُ سِثْتُمْ ﴾ لأنه أعم ، وفي الأعراف : ﴿ فَكَلَّا مِنْ حَيْثُ سِثْتُمْ ﴾ فأتي بالفاء الدالة على ترتيب الأكل على السكني المأمور باتخاذها [(1) ؛ لأن الأكل بعد الاتخاذ ، و ﴿ مِنْ حَيْثُ ﴾ لا يعطي عموم معنى ﴿ حَيْثُ سِثْتُمْ ﴾ .

وهذا توجيه جيد مقبول وقريب منه ما ذكره الإمام الكرمانى (2) في كتابه (البرهان في توجيه متشابه القرآن لما فيه من الحججة والبيان) حيث قال ﷺ : [... ﴿ أَسْكُنْ ﴾ في الآيتين ليس بأمر بالسكون الذي هو ضد الحركة وإنما الذي في سورة البقرة من السكون الذي معناه الإقامة وذلك يستدعي زماناً ممتداً فلم يصلح إلا بالواو .

لأن المعنى اجمع بين الإقامة فيها والأكل من ثمارها ولو كانت الفاء مكان الواو لوجب تأخير الأكل إلى الفراغ من الإقامة لأن الفاء للتعقيب وللترتيب .

والذي في الأعراف من السكنى الذي معناها اتخاذ الموضع مسكناً لأن الله تعالى أخرج إبليس من الجنة بقوله : ﴿ أَخْرَجْنَا مِنْهَا مَذْمُومًا ﴾ (3) .

وخاطب آدم ﷺ فقال : ﴿ وَيَتَّكِدُمْ أَسْكُنْ أَنْتَ وَرَزَوَجُكَ الْجَنَّةَ ﴾ (4) أي اتخذها لأنفسكما مسكناً ﴿ فَكَلَّا مِنْ حَيْثُ سِثْتُمْ ﴾ (5) فكانت الفاء أولى ؛ لأن اتخاذ المسكن لا يستدعي زماناً ممتداً ، ولا يمكن الجمع بين الاتخاذ والأكل فيه بل يقع الأكل عقيب [(6) .

● **وذهب الخطيب الإسكافي (7) في كتابه (درة التنزيل وغرة التأويل) إلى أن السكن**

(1) كشف المعاني في المتشابه من المثاني للإمام بدر الدين بن جماعة ص 92 ، 93 دار الوفاء .
(2) هو تاج القراء محمود بن حمزة بن نصر الكرمانى ، عالم فقيه كان في حدود الخمسمائة من الهجرة وصنف كتاب (لباب التفسير) و (البرهان في متشابه القرآن) و (الإفادة في النحو) ، و (الإيجاز في النحو) وغير ذلك . تراجع ترجمته في طبقات المفسرين 312/2 للداودى ، ومعجم الأدباء لياقوت الحموى 125/19 ومعجم المؤلفين 161/12 والأعلام 44/8 .

(3) سورة الأعراف : 19 .

(4) سورة الأعراف : 18 .

(5) البرهان في توجيه متشابه القرآن لما فيه من الحججة والبيان (أسرار التكرار في القرآن) لتاج القراء محمود بن حمزة بن نصر الكرمانى . تحقيق عبد القادر أحمد عطا ص 26 ط دار الاعتصام سنة 1977 م .

(6) هو أبو عبد الله محمد بن عبد الله المعروف بالخطيب الإسكافي عالم باللغة والأدب من أهل أصبهان ، ولي خطابة الري ومات سنة 420 هـ وله كتب في اللغة والأدب والوعظ من أهمها (درة التنزيل وغرة التأويل) و (لطف التدبير في سياسة الملوك) . معجم المؤلفين 211/10 - وبغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة للسيوطي 149/2 .

في الأعراف بمعنى الدخول ولا أكل إلا بعد الدخول فناسبت الفاء وكأنه يرى أن آدم أمر مرة بدخول الجنة وقد كان خارجها وأمر مرة أخرى بالسكنى بعد أن دخلها (1) .

وما ذكره الخطيب الإسكافي في درة التنزيل أورده الإمام القاسمي (2) في محاسن التأويل وحاصل كلامه : [.... ففي البقرة ورد الأمر بعد أن كان آدم في الجنة فكان المراد المكث ، والأكل لا يتعلق به فجاء بالواو ، وفي الأعراف ورد قبل أن يدخل الجنة والمراد الدخول والأكل متعلق به فورد بالفاء] (3) .

ثانيا : تفسير الآيات الواردة في سورة طه في شأن سكنى آدم وحواء الجنة :

قال تعالى : ﴿ فَقُلْنَا يَنْتَادُمْ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكَ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى ﴿١٣١﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى ﴿١٣٢﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَى ﴿١٣٣﴾ ﴾ (4) .

بعد أن امتنع إبليس عن السجود لآدم ﷺ وعصى بذلك أمر الله طرده الله من رحمته ، وصب عليه سوط غضبه ولعنته ، ثم أقبل المولى ﷺ على آدم يحذره من إبليس ومن إغوائه وإضلاله فقال ﷺ لآدم : ﴿ يَنْتَادُمْ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ ﴾ (5) .

يعني عدو لك وعدو لزوجك ، فوجب على كل منهما أن يأخذ حذره ، كما قال المولى ﷺ : ﴿ يَتَأَبَّأُ النَّاسُ إِنَّ وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا فَلَا تَعْرَتُكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّتْكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ ﴿١٣٠﴾ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُرْهُ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ (6) .

فيجب علينا معاداته كما يعادينا ومخالفته حتى لانضل ونشقى .

وفي ذلك يقول البوصيري :

فخالف النفس والشيطان واعصهما وإن هما محضاك النصح فاتهم

- (1) يراجع درة التنزيل وغرة التأويل للخطيب الإسكافي ص 11 ط دار الآفاق الجديدة . بيروت لبنان سنة 1973 م .
 (2) هو جمال الدين بن محمد سعيد بن قاسم القاسمي من كبار العلماء في عصره - له مصنفات كثيرة ومشهورة منها : تفسيره محاسن التأويل ، وكتابه دلائل التوحيد وكتب أخرى في الحديث وفي الفقه وفي الوعظ - توفي بدمشق سنة 1332 هـ - الأعلام للزركلي 131/2 ومعجم المؤلفين / كحالة 175/3 .
 وتراجم الأعلام المعاصرين في العالم الإسلامي للأستاذ . أنور الجندي ص 60 ط دار الاعتصام .
 (3) محاسن التأويل للإمام العلامة جمال الدين القاسمي 107/1 ط دار إحياء الكتب العربية بدون تاريخ .
 (4) سورة طه : 117 - 119 . (5) سورة طه : 117 . (6) سورة فاطر : 5 ، 6 .

ولا تطع منهما خصماً ولا حكماً فأنت تعرف كيد الخصم والحكم⁽¹⁾

وقوله تعالى : ﴿ فَلَا يُخْرِجَنَّكَ مِنَ الْجَنَّةِ ﴾ أي فلا يكون سبباً لإخراجكما باستجابتكما لوسوسته وإغوائه ﴿ فَتَشْقَى ﴾ شقاء دنيوياً بالتعب والنصب في طلب العيش .

ونسب الشقاء لآدم مع نسبه الخروج لآدم وحواء معاً : قيل : لمراعاة الفواصل ، وقيل : اكتفى بنسبة الشقاء لآدم ؛ لأنه هو الأصل وحواء تبع له ، فلزم من نسبه الشقاء لآدم نسبه إلى حواء ؛ لأن المرأة تشقى بشقاء زوجها ، وقيل : لأن التعب في طلب المعاش ووظيفة الرجل ومهمته في الحياة فهو القيم على أهله .

● يقول الإمام القرطبي في تفسيره : [... وإنما خصه بذكر الشقاء ولم يقل فتشقى : ليعلمنا أن نفقة الزوجة على الزوج ، فمن يومئذ جرت نفقة النساء على الأزواج ، فلما كانت نفقة حواء على آدم كانت كذلك نفقات بناتها على بني آدم بحق الزوجية ، وأعلمنا في هذه الآية أن النفقة التي تجب للمرأة على زوجها هذه الأربعة : الطعام والشراب والكسوة والمسكن ، فإذا أعطاها هذه الأربعة فقد خرج إليها من نفقتها ، فإن تفضل بعد ذلك فهو مأجور ، فأما هذه الأربعة فلا بد لها منها لأن بها إقامة المهجة⁽²⁾ (3) .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى ﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَى ﴾ .

● الخطاب هنا لآدم ﷺ وحواء تبع له يلحقها ما يلحق به .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى ﴾ أي في الجنة لدوام أكلها وثيابها ﴿ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَى ﴾ لا تعطش ، ولا يصيبك حر الشمس⁽⁴⁾ .

(1) البيتان للبوصيري في البردة - يراجع ديوان البوصيري ص 240 ط البايي الحلبي . ويراجع نقد البردة للأستاذ عبد البديع صقر رحمه الله - ص 81 دار الاعتصام ط 2 سنة 1406 هـ سنة 1986 م .

(2) المهجة دم القلب الذي هو قوام الحياة وقيل : المهجة هي الدم وقيل : هي خالص النفس يقال : بذلت له مهجتي أي بذلت له نفسي وخالص ما أقدر عليه - يراجع لسان العرب مادة (م ه ج) 4286/6 .

(3) الجامع لأحكام القرآن للإمام القرطبي 253/11 بتصرف ، ويراجع في هذا المقام ما ذكره الإمام زين الدين محمد بن أبي بكر بن عبد القادر بن عبد المحسن الرازي الحنفي ت 666 هـ / في كتابه غرائب آي التنزيل 308/4 ، 309 هدية مجلة الأزهر عدد جمادى الأولى سنة 1410 هـ .

(4) الضحوة ارتفاع الشمس أول النهار والضحى والضحاء بالضم مقصور ومددود فوقه والضحاء بفتح الضاد ، والمد : إذا امتد النهار ، وقرب أن ينتصب .

يراجع المصباح المنير للفيومي 3/2 ولسان العرب مادة (ض ح ا) 2559/4 .

لأن الجنة لا شمس فيها وإنما فيها ضياء ونور، وظل ظليل ممدود قال ﷺ : ﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴾ (1) وقال ﷺ : ﴿ وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ ﴾ (٢٧) فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ ﴿ ٢٨ ﴾ وَطَلْحٍ مَّنْضُودٍ ﴿ ٢٩ ﴾ وَظِلِّ تَمْدُودٍ ﴿ (2) .

فائدة مهمة

من أسرار التعبير القرآني

مقابلة بديعة (3) :

التأمل في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ لَكَ أَلَّا يَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى ﴾ (٣٠) وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَى ﴿ يلحظ أن الحق سبحانه قابل في الآية الكريمة بين الجوع والعري وبين الظمأ والضحو والأصل في المقابلة أن تكون بين شيئين بينهما وجه اتصال ومناسبة فلماذا جاءت المقابلة في الآية الكريمة على هذا الوجه ؟ .

أقول : لقد أجاب العلماء عن ذلك بأجوبة متعددة تكشف لنا عن روعة ورفعة النظم القرآني فالمقابلة لون بديع من ألوان البلاغة ، والمقابلة الواردة في الآية الكريمة من أجمل وأكمل وأبداع وأروع صور المقابلة .

1 - يقول الإمام الزركشي في كتابه البرهان في علوم القرآن : [فائدة : قد يجيء نظم الكلام على غير صورة المقابلة في الظاهر ، وإذا توّمل كان من أكمل المقابلات ، ولذلك أمثلة منها قوله تعالى : ﴿ إِنَّ لَكَ أَلَّا يَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى ﴾ (٣٠) وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَى ﴿

(1) سورة النساء : 57 .

(2) سورة الواقعة : 27 : 30 .

(3) المقابلة لون بديع من ألوان البلاغة وحقيقتها كما وردت في كتاب الصناعتين : إيراد الكلام ثم مقابله بمثله في المعنى أو اللفظ على جهة الموافقة أو المخالفة .

يراجع كتاب الصناعتين . الكتابة والشعر . لأبي الهلال الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري (فرغ من تأليفه سنة 395 هـ) ص 346 تحقيق علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم ط البائي الحلبي .

وفي البرهان للزركشي : المقابلة : هي ذكر الشيء مع ما يوازيه في بعض صفاته ويخالفه في بعضها وهي من باب المفاعلة كالمقاتلة والمضاربة . يراجع البرهان في علوم القرآن للزركشي 458/3 ط دار التراث .

وفي البلاغة الواضحة : المقابلة : هي أن يؤتى بمعنيين أو أكثر ثم يؤتى بما يقابل ذلك على الترتيب . يراجع البلاغة الواضحة تأليف علي الجارم ومصطفى أمين ط دار المعارف مصر .

والواقف مع الظاهر ربما يخيل إليه أن الجوع يقابل بالظماً ، والعري بالضحى : والمدقق يري هذا الكلام في أعلى مراتب الفصاحة ؛ لأن الجوع ألم الباطن والضحى موجب لحرارة الظاهر ، فاقترنت الآية جميع نفي (1) الآفات ظاهراً وباطناً ، وقابل الخلو بالخلو والاحتراق بالاحتراق [(2) .

2 - وفي حاشية الجمل على الجلالين :

[قابل سبحانه وتعالى بين الجوع والعري والظماً والضحو ؛ وإن كان الجوع يقابل العطش والعري يقابل الضحو ؛ لأن الجوع ذل الباطن ، والعري ذل الظاهر ، والظماً حر الباطن ، والضحو حر الظاهر، فنفي عن ساكنها ذل الظاهر والباطن وحر الظاهر والباطن] (3) .

3 - وقال الإمام الطبرسي في تفسيره - مجمع البيان : [... ويسأل ههنا فيقال : كيف جمع بين الجوع والعري وبين الظماً والضحو ؟ والجوع من جنس الظماً ، والعري من جنس الضحى ؟ وأجيب على ذلك بجوابين أحدهما : أن الظماً أكثر ما يكون من شدة الحر والحرق إنما يكون من الضحى وهو الانكشاف للشمس ، فجمع بينهما لاجتماعهما في المعنى ، وكذلك الجوع والعري متشابهان من حيث إن الجوع عري في الباطن من الغذاء ، والعري للجسم في الظاهر . والثاني : أن العرب تلف الكلامين بعضهما ببعض ، اتكألاً على علم المخاطب ، وأنه يرد كل واحد منهما إلى ما يشاكلة كما قال امرؤ القيس :

كأنني لم أركب جواداً للذة ولم أتبطن كاعباً ذات خلخال
ولم أسبأ الزق الرويِّ ولم أقل لخلي كُرِّي كَرَّةً بعدَ إجفالٍ (4)

وكان حقه أن يقول كما قال عبد يغوث :

(1) هكذا في الأصل ولعلها : [نفي جميع الآفات] .

(2) البرهان في علوم القرآن للإمام بدر الدين الزركشي 465/3 تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ط دار التراث بدون تاريخ .

(3) حاشية الجمل على تفسير الجلالين المسمى بالفتوحات الإلهية 114/3 .

والإمام الجمل مؤلف الحاشية هو : سليمان بن عمر بن منصور العجيلي الأزهري المعروف بالجمل من أهل منية عجيل - الغربية بمصر ومن مؤلفاته : الفتوحات الإلهية - حاشية على تفسير الجلالين - والمواهب المحمدية بشرح الشماثل الترمذية توفي سنة 1204 هـ .

تراجع ترجمته في الأعلام 194/3 ، ومعجم المؤلفين 271/4 .

(4) ديوان امرئ القيس جمع وتحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ص 35 ط 4 دار المعارف 1984 م .

كأني لم أركب جوادًا ولم أقل لخليي كرى نفسي عن رِحاليا
ولم أسيا الزق الروي ولم أقل لأيسارِ صديقٍ أظهِروا ضوءَ ناريا

وقد يؤول قول امرئ القيس على الجواب الأول [(1)] .

4 - ويقول أحمد بن المنير الإسكندري في كتابه الانتصاف بذيل تفسير الكشاف :
[وفي الآية (2) سر بديع من أسرار البلاغة يسمى قطع النظير عن النظير ، وذلك أنه قطع
الظماً عن الجوع والضحو عن الكسوة مع ما بينهما من التناسب والغرض من ذلك
تحقيق تعداد هذه النعم وتصنيفها ، ولو قرن كلاً بشكله لتوهم المعدودات نعمة واحدة] .

ويذكر صاحب الانتصاف شواهد بلاغية من الشعر العربي للمقابلة بين المتغيرات ،
ثم يعود فيكشف وجهًا جديدًا من وجوه إعجاز النظم القرآني في الآيتين فيقول : [على
أن في هذه الآية سرًا لذلك زائدًا على ما ذكر ، وهو قصد تناسب الفواصل ، ولو قرن
الظماً بالجوع فقيل : إن لك أن لا تجوع فيها ولا تنظماً : لانشر سلك رؤوس الآي ،
وأحسن به منتظماً ، والله أعلم] (3) .

أقول : وهذا سر بديع من أسرار البلاغة القرآنية يدل على روعة النظم وجمال
الأسلوب وقوة المعني وجزالة اللفظ .

● فائدة مهمة عن سر التعبير بـ ﴿ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى ﴾ وَأَنَّكَ لَا
تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَى ﴾ .

يقول الإمام الرازي : [الشبع والري والكسوة والاكنتان في الظل : هي الأقطاب
التي يدور حولها أمر الإنسان ، فذكر الله تعالى حصول هذه الأشياء له في الجنة من غير
حاجة إلى الكسب والطلب ، وذكرها بلفظ النفي لأضدادها التي هي الجوع والعري
والظماً والضحي ، ليطرق سمعه شيئاً من أصناف الشقوة التي حذرته منها حتى يبالح في
الاحتراز عن السبب الذي يوقعه فيها وهذه الأشياء كلها كأنها تفسير للشقاء المذكور في
قوله : ﴿ فَتَشْقَى ﴾] (4) .

(1) هو عبد يغوث بن وقاص وهذه الأبيات موجودة في معجم الشواهد العربية للأستاذ عبد السلام هارون

(2) هما آيتان لا آية واحدة .

(3) الانتصاف للإمام أحمد بن المنير الإسكندري بذيل الكشاف للزمخشري 92/3 بتصرف .

(4) مفاتيح الغيب للإمام الرازي 125/22 ويراجع الكشاف للزمخشري 92/3 .

المبحث الثالث

وسوسة الشيطان لآدم ﷺ وزوجه حواء

أسكن الله تعالى آدم ﷺ وحواء الجنة ، وأباح لهما الأكل من ثمارها والتمتع بطيباتها ، ونهاهما عن الأكل من شجرة واحدة ، وحذرهما من وسوسة إبليس اللعين ؛ وأنه قد يكون سبباً في خروجهما من الجنة .

ولقد تمكن اللعين من إغواء آدم ﷺ وحواء ؛ واستخدم في سبيل ذلك حيلة خسيسة ، وأساليب شيطانية خبيثة .

ولقد سجل القرآن الكريم أحداث هذه المؤامرة الشيطانية في مواضع متعددة .

1 - قال تعالى في سورة البقرة : ﴿ فَازْلَهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ﴾ (1) .

2 - وقال سبحانه في سورة الأعراف : ﴿ فَوَسَّوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْءَاتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَتَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ﴿١١٠﴾ وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ ﴿١١١﴾ فَذَلَّهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقُلَّ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿١١٢﴾ (2) .

3 - وقال ﷻ في سورة طه : ﴿ فَوَسَّوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَتَّبِعُكَ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَى ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَّتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى ءَادَمُ رَبَّهُ فَغَوَى ﴿١٢١﴾ (3) .

وفيما يلي نوضح من خلال هذه الآيات كيف وسوس الشيطان لآدم وحواء وأخرجهما من الجنة .

أولاً : في سورة البقرة يقول المولى ﷻ : ﴿ فَازْلَهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ﴾ (4) ولنا عند هذه الآية الكريمة وقفة . فنقول وبالله التوفيق :

معنى (أزلهما) أوقعهما في الزلة .

(2) سورة الأعراف : 20 : 22 .

(1) سورة البقرة : 36 .

(4) سورة البقرة : 36 .

(3) سورة طه : 120 ، 121 .

● يقول الراغب الأصفهاني في المفردات : [زل : الزلة في الأصل : استرسال الرجل من غير قصد ، يقال: زلت رجل ، تزل ، والزلة المكان الزلق ، وقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا أَسْتَرْزَلَهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا ﴾ (1) أي استجرهم الشيطان حتى زلوا] (2) .

● ويقول الإمام الزمخشري في كتابه أساس البلاغة في مادة [(ز ل ل)] : زل عن الصخرة وفي الطين زللاً ، وهذه مزلة من المزال ، ومن المجاز : زل في قوله ورأيه زلة وزللاً ، وأزله الشيطان عن الحق واستزله ، وزل من الشهر كذا أي مضى منه] (3) .

فالزلل في الأصل يستعمل لزلة القدم (4) ، واستعمل في زلة الرأي لما يترتب عليه من ضرر ، وفي هذا إبراز للمعنوي في صورة المحسوس ، وأزلهما الشيطان أوقعهما في الزلة ، وهي الخطيئة التي خرجا بسببها من الجنة .

قرأ حمزة (فأزلهما) بألف بعد الزاي ولام مخففة من الزوال أي نَحَّاهما وأبعدهما عن الجنة بسبب استجابتهما لوسوسته .

فالسوسة وما ترتب عليها هي السبب في إخراجهما من الجنة .

وقرأ الجمهور ﴿ فَأَزَلَهُمَا ﴾ : أي أوقعهما في الزلة أي المعصية عن طريق الوسوسة إليهما ومدار القراءتين حول معنى واحد .

ولذلك قال سبحانه : ﴿ فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ﴾ أي من اللباس والزينة والمنزل الرحب والعيشة الهائلة الهادئة الرغيدة (5) .

ثانياً : وفي سورة الأعراف يأتي الحديث عن وسوسة الشيطان للعين لآدم وحواء ﷺ بصورة مفصلة حيث يقول المولى ﷺ : ﴿ فَوَسَّوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْءَاتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَتَيْنِ أَوْ تَكُونَا

(1) سورة آل عمران : 155 .

(2) المفردات للإمام الراغب الأصفهاني ص 214 مادة زل ل .

(3) أساس البلاغة للزمخشري ص 194 مادة ز ل ل .

(4) وقد ورد في القرآن الكريم استعمال زلة القدم كناية عن الوقوع في المخاطر والمهلك وسوء العاقبة .

قال تعالى : ﴿ وَلَا تَنْخَدُوا يَمَنَّاكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا الشَّوْءَ بِمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمُ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ سورة النحل : 94 .

(5) النشر 211/2 وإتحاف فضلاء البشر 388/1 والمستنير 16/1 والسبعة في القراءات ص 154 والكشف عن

وجوه القراءات السبع لأبي طالب مكي القيسي 235/1 .

مِنَ الْخَلْدِيِّينَ ﴿١٥﴾ وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ ﴿١٦﴾ فَذَلَّلْنَاهُمَا بِعُرْوَةٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ
بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْضِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن
تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقُلَّ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٧﴾ . (1)

والوسوسة هي الصوت الخفي ، وهي الخطرة الرديئة ، وأصلها من الوسواس وهو الصوت الخفي ، وفي المصباح المنير [... الوسواس بالفتح اسم من وسوست إليه نفسه إذا حدثته وبالكسر: الوسواس المصدر ووسوس متعد يألئ ، وقوله تعالى : ﴿ فَوَسَّوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ ﴾ اللام بمعنى إلى ... ويقال لما يخطر بالقلب من خطرة رديئة ولما لا خير فيه : وسواس] (2) .

● يقول الإمام الطبرسي في مجمع البيان [الوسوسة الدعاء إلى أمر بصوت خفي ، والفرق بين وسوس إليه ووسوس له : أن معنى وسوس إليه أنه ألقى إلى قلبه المعنى بصوت خفي ، ومعنى وسوس له : أنه أوهمه النصيحة له في ذلك] (3) .

● وقال صاحب حاشية الجمل : [والفرق بين وسوس له ووسوس إليه : أن وسوس له بمعنى وسوس لأجله كما تقدم ، ووسوس إليه ألقى إليه الوسوسة ، والوسوسة الكلام الخفي المكرر ومثله الوسواس وهو صوت الحلي ، والوسوسة أيضا الخطرة الرديئة] (4) .

● وقال أبو البقاء العكبري (5) : [عدي وسوس يألئ لأنه بمعنى أسر - إليه - وعدي في موضع آخر باللام لكونه بمعنى ذكر له ، أو لكونه بمعنى لأجله] (6) .

وفي سورة الأعراف ﴿ فَوَسَّوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ ﴾ (7) وفي سورة طه ﴿ فَوَسَّوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ ﴾ (8) .

(1) سورة الأعراف : 20 - 22 .

(2) المصباح المنير للفيومي 143/2 مادة (و س س) - ويراجع المفردات للإمام الراغب ص 522 .

(3) مجمع البيان للطبرسي 626/4 . (4) حاشية الجمل على الجلالين 129/2 .

(5) هو عبد الله بن الحسين بن عبد الله بن الحسين الإمام محب الدين أبو البقاء العكبري البغدادي النحوي الحنبلية والعكبري نسبة إلى عكبرا بلد على دجلة فوق بغداد - كما ورد في لب الأبواب في تحرير الأنساب 119/2 - وللعكبري مؤلفات كثيرة ومن أشهرها كتاب التبيان في إعراب القرآن .

تراجع ترجمته في طبقات المفسرين للدوادودي 231/1 وإنباه الرواة للقفطي 116/2 ووفيات الأعيان لابن خلكان 286/2 وبغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة للسيوطي 462/1 . ط دار الكتب العلمية ط 1 سنة 1411 هـ .

(6) التبيان في إعراب القرآن للعكبري بهامش حاشية الجمل على الجلالين 602/3 .

(7) سورة طه : 120 .

(8) سورة الأعراف : 20 .

في الموضوع الأول صدرت الوسوسة لهما معاً (آدم وحواء) .
 وفي الموضوع الثاني صدرت الوسوسة إلى آدم ولم يأت ذكر لحواء والجواب على ذلك :
 أن الوسوسة متكررة فمرة يوسوس لآدم وحده ومرة يوسوس إلى آدم وحواء معا .
 وقوله تعالى في سورة الأعراف : ﴿ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْءَاتِهِمَا ﴾ بيان لعلة
 هذه الوسوسة أو لعاقبتها ، فاللام هنا يجوز أن تكون للتعليل ويجوز أن تكون لبيان العاقبة .
 وقوله تعالى : ﴿ لِيُبْدِيَ لَهُمَا ﴾ أي ليظهر لهما ، ﴿ مَا وُورِيَ عَنْهُمَا ﴾ أي ما ستر
 وغطى عنهما ﴿ مِنْ سَوْءَاتِهِمَا ﴾ السوءات جمع سوءة وهي العورة وسميت بذلك لأن
 إظهارها يسوء صاحبها .

● قال الإمام القرطبي : [وسمي الفرج عورة لأن إظهاره يسوء صاحبه . ودل هذا
 على قبح كشفها فليل ؛ إنما بدت سوءاتهما لهما لا لغيرهما ؛ إذ كان عليهما نور ،
 يستر عوراتهما فزال النور ، وقيل ثوب ؛ فتهافت والله أعلم] (1) وتهافت الثوب عنهما
 أي سقط .

وقال الإمام القاسمي : [في الآية تنبيه على أن كشف العورة من عظام الأمور وأنه
 مستهجن في الطباع ولذلك سميت سوءة ؛ لأنه يسوء صاحبها كشفها] (2) .

● فائدة في مشتبهات القرآن :

في سورة الأعراف : يقول ﷺ : ﴿ وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ
 تَكُونَا مَلَكَتَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ﴾ (3) وفي سورة طه يقول الحق ﷻ : ﴿ قَالَ يَتَذَكَّرُ هَلْ
 أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَى ﴾ (4) .

● في الموضوع الأول : بينت الآية الكريمة أن إبليس اللعين توجه بالوسوسة إلى آدم
 وحواء ﷺ .

وفي الموضوع الثاني : بينت الآية الكريمة أن إبليس اللعين توجه بالوسوسة إلى آدم .

● وفي الآية الأولى جاءت الوسوسة بأسلوب القصر ، وبأسلوب خبري ليفيد التقرير
 والتأكيد .

(1) الجامع لأحكام القرآن للإمام القرطبي 178/7 . (2) محاسن التأويل للإمام القاسمي 2640/7 .

(4) سورة طه : 120 .

(3) سورة الأعراف : 20 .

وفي الآية الثانية : جاءت الوسوسة بأسلوب الاستفهام ﴿ هَلْ أَدُلُّكَ ﴾ عرض عليهما وفي هذا إغراء وخداع لهما وفي الآية الأولى ﴿ هَذِهِ الشَّجَرَةُ ﴾ وفي الثانية ﴿ شَجَرَةٌ أَلْخُلْدِ ﴾ فأشار إليها باسم الإشارة القريب ليقربها إلى قلب آدم وحواء ويرغبهما فيها ، وفي الآية الثانية ﴿ شَجَرَةٌ أَلْخُلْدِ ﴾ أضافها إلى الخلد ، وفي الآية الأولى قدم الملكية على الخلد وعطفهما بـ (أو) التي تفيد التنوع والتخيير والإيهام ، وفي الآية الثانية قدم شجرة الخلد على الملك الذي لا يلى ، فجاءت الوسوسة بصورة متكررة ومختلفة وبأساليب متنوعة ، وفي ذلك تلبس على آدم وحواء وإيقاع لهما في الحيرة والتردد .

يقول الأستاذ الدكتور عبد الجواد طبق في كتابه متشابه النظم القرآني في قصة آدم عليه السلام :

[ولا يخفى ما في نداء آدم باسمه في مجال وسوسة الشيطان له في سورة طه ﴿ قَالَ يَتَّأدُّمُ ﴾ من استمالة إلى المطلوب ، هذا وفي الأعراف ترديد في المخادعة بين الملكية والخلود وأما في طه فجمع بينهما ، وكأن اللعين ردد بين الأمرين في المخادعة مرة ، وجمع بينهما مرة أخرى إمعاناً في الإغواء والإضلال ، أو ردد بينهما في مخادعة الاثنین ، وجمع في مخادعة الواحد لعدم كفاية أحدهما في الخداع للواحد بخلاف الملكية للاثنین معاً ⁽¹⁾ ، أو أن (أو) في الأعراف للإباحة لا للتخيير فيجوز الجمع بين الاثنین كما في قولك : « كل عنبًا أو موزًا » ، أو أن التردد في الأعراف للدلالة على احتياط اللعين في الإغراء ، فيكون أدعى لتصديقه ، وفي ذلك مناسبة للمقام] ⁽²⁾ .

- وقوله تعالى : ﴿ وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ ﴾ ⁽³⁾ : إخبار عن حيلة أخرى من حيل إبليس اللعين وهي القسم الكاذب ولقد لجأ اللعين إلى هذه الحيلة ليصدقاه ؛ لأنهما كانا يعتقدان أنه لا يحلف أحد بالله كذبًا .

والمقاسمة على وزن المفاعلة ، وهي لا تكون إلا بين طرفين كالمشاركة والمقاتلة والمجاهدة والمبايعة .

وقد ذكر الإمام الرازي ثلاثة أوجه في سر التعبير بـ (قاسم) حيث قال : [فإن قيل :

(1) أشار المؤلف في الهامش إلى أن : الإغراء بالخلود للواحد لا يكون في قوة الإغراء به للاثنین وكذلك الملكية .

(2) متشابه النظم القرآني في قصة آدم عليه السلام للأستاذ الدكتور عبد الجواد محمد محمد طبق أستاذ بكلية اللغة العربية / قسم البلاغة والنقد جامعة الأزهر بالزقازيق ص 192 ، 193 ط دار الأرقم بالزقازيق .

(3) سورة الأعراف : 21 .

المقاسمة أن تقسم لصاحبك ويقسم لك تقول : قاسمت فلاناً أي حالفته ، وتقاسما تحالفاً ، ومنه قوله تعالى : ﴿ قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ... ﴾ (1) : قلنا : فيه وجوه :

الأول : التقدير أنه قال : أقسم لكما إني لكما لمن الناصحين ، وقال له : أتقسم بالله إنك لمن الناصحين ؟ فجعل ذلك مقاسمة بينهم .

والثاني : أقسم لهما بالنصيحة ، وأقسما له بقبولها .

الثالث : أنه أخرج قسم إبليس على زنة المفاعلة ؛ لأنه اجتهد فيه اجتهاد المقاسم ، إذا عرفت هذا فنقول : قال قتادة : [حلف لهما بالله حتى خدعهما ، ﴿ إِنِّي لَكُمَا لَيِّنَ النَّصِيحِينَ ﴾ أي قال إبليس : إني قد خلقت قبلكما ، وأنا أعلم أحوالاً كثيرة من المصالح والمفاسد لا تعرفانها ؛ فامتلا قولي أرشدكما] (2) وقوله تعالى : ﴿ فَذَلَّهُمَا بِغُرُورٍ ﴾ بيان لأسلوب آخر من أساليب إبليس القائمة على الخداع والإغراء .

قال الإمام القرطبي : [﴿ فَذَلَّهُمَا ﴾ ، يقال : أدلى دلوه أرسلها ، ودلاها أخرجها ، وقيل : دلاهما : أي دللها من الدالة وهي الجرأة ؛ أي جراهما على المعصية فخرجا من الجنة] (3) .

وقال الإمام الرازي : [وذكر أبو منصور الأزهري (4) لهذه الكلمة أصلين أحدهما : أصل الرجل العطشان يدلي رجله في البئر ليأخذ الماء فلا يجد فيها ماء ، فوصفت التدللية موضع الطمع فيما لا فائدة فيه ، فيقال : دلاه إذا أطمعه ، الثاني ﴿ فَذَلَّهُمَا بِغُرُورٍ ﴾ أي جراهما إبليس على أكل الشجرة بغيره ، والأصل فيه دللها من الدل والدالة وهي الجرأة ، قال ابن عباس : ﴿ فَذَلَّهُمَا بِغُرُورٍ ﴾ أي غرهما باليمين وكان آدم يظن أن من يحلف بالله لا يحلف إلا صادقاً، وعن ابن عمر ؓ أنه كان إذا رأى من عبده طاعة وحسن صلاة أعتقه ، فكان عبيده يفعلون ذلك طلباً للعتق ، فقيل له : إنهم يخدعونك فقال : من خدعنا بالله انخدعنا له] (5) .

(1) سورة النمل : 49 .

(2) مفاتيح الغيب للإمام الرازي 52/14 .

(3) الجامع لأحكام القرآن للإمام القرطبي 180/7 .

(4) هو أبو منصور محمد بن أحمد الأزهري من علماء اللغة وله كتاب مشهور فيها وهو تهذيب اللغة . توفي 370 هـ .

- تراجع ترجمته في نزهة الألباء ص 237 ومعجم المؤلفين لعمر رضا كحالة 230/8 وبغية الوعاة للسيوطي 19/1 .

(5) مفاتيح الغيب للإمام الرازي 52/14 ، 53 بتصرف .

● وقال الخازن (1) : [﴿ فَذَلَّلْنَاهَا بِغُرُورٍ ﴾] : يعني فخدعهما بغرور ، يقال : ما زال فلان يدلي فلاناً بغرور يعني مازال يخدعه ويكلمه بزخرف من القول الباطل [(2)] .

● وفي حاشية الجمل على الجلالين في بيان معنى الباء في بغرور [قيل : إنها للحال أي مصاحبين للغرور منه ، أو مصاحباً هو للغرور ، فهي حال من الفاعل أو المفعول ، ويجوز أن تكون سببية أي دلاهما بسبب أن غرها] (3) .

وإذا كانت التدلوية هي الإلقاء بالشيء من علو إلى سفلى فيمكن أن يحمل قوله تعالى : ﴿ فَذَلَّلْنَاهَا ﴾ على معنى فحطهما عن درجتهما العالية وأنزلهما عن رتبة الطاعة إلى رتبة المعصية بعد أن أغراهما وأغواهما .

● يقول الإمام البيضاوي : [﴿ فَذَلَّلْنَاهَا ﴾] : أي فنزلهما إلى الأكل من الشجرة ، نبه به على أنه أهبطهما بذلك من درجة عالية إلى رتبة سافلة ، فإن التدلوية والإدلاء إرسال الشيء من أعلى إلى أسفل [(4)] .

(1) هو علاء الدين أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن إبراهيم الشيجي الصوفي نسبته إلى شبيحة من أعمال حلب ، وولد في بغداد سنة 678 هـ وبها نشأ ثم انتقل إلى دمشق وعمل خازناً للكتب بالمدرسة السمساطية وله مؤلفات كثيرة منها : تفسيره لباب التأويل في معاني التنزيل - وقد اعتمد فيه على تفسير معالم التنزيل للبخاري وغيره من كتب التفسير - ومن مؤلفاته أيضاً : مقبول المنقول جمع فيه بين مسندي أحمد والشافعي والكتب الستة والموطأ وسنن الدارقطني ورتبه على الأبواب ، وتوفي الخازن في حلب سنة 741 هـ .

تراجع ترجمته في : طبقات الشافعية لابن قاضي شهبة 194/2 ط دار الندوة الجديدة بيروت ، وطبقات المفسرين للداوودي 426/1 ومعجم المؤلفين 177/7 والتفسير والمفسرون للذهبي 294/1 .

(2) لباب التأويل في معاني التنزيل للخازن 217/2 ط / البائي الحلبي سنة 1375 هـ ط ثانية .

(3) حاشية الجمل على الجلالين 130/2 بتصرف .

(4) أنوار التنزيل وأسرار التأويل للإمام البيضاوي ص 201 .

المبحث الرابع

أكل آدم وحواء من الشجرة

● استعمل إبليس في معركته أسلحة فتاكة ، واستخدم أساليب خداعة متنوعة ، وكلمات مضللة وعبارات براقية وشعارات كذابة زائفة ، مرة يقول لهما : إنها شجرة الخلود وللأكل منها ملك لا يبید ، ومرة يقول : إن الآكل منها يرتقي إلى مقام الملائكة أو يحظى بالخلود ، وفي هذه الوعود الكذابة والشعارات البراقية ما يثير النفس ، ويهيج بواعث الحرص ، ويدفع إلى الميل والاستجابة والوقوع في المحذور .

ولقد استجاب آدم عليه السلام وحواء لهذه الحملة المضللة واغترا بهذه الوسوس واقتربا من تلك الشجرة المحظورة وتناولوا منها قدرًا يسيرًا فبدت سوءاتهما .

● قال عليه السلام في سورة الأعراف : ﴿ فَذَلْنَهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقُلَّ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴾ (1) .

2 - وفي سورة طه يقول الحق سبحانه : ﴿ فَأَكَلَا مِنْهَا فِدَّتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ ﴾ (2) .

ولنا وقفة مع هاتين الآيتين : فنقول وبالله التوفيق :

● في سورة الأعراف : ﴿ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ ﴾ وفي سورة طه ﴿ فَأَكَلَا مِنْهَا ﴾ وفي هذا إشارة إلى أنهما أكلا من الشجرة شيئًا يسيرًا بمقدار ما يتذوق الإنسان .

● يقول الإمام الطبرسي [....] ﴿ فَلَمَّا ذَاقَا ﴾ أي ابتداء بالأكل منها ونالا منها شيئًا يسيرًا ، ولذلك أتى بلفظة ﴿ ذَاقَا ﴾ عبارة عن أنهما تناولوا شيئًا قليلًا من ثمرة الشجرة ، على خوف شديد ؛ لأن الذوق ابتداء الأكل والشرب ليعرف الطعم ، وفي هذا دلالة على أن ذوق الشيء المحرم يوجب الدم ، فكيف باستيفائه وقضاء الوطر منه ؟ [(3)] .

● وفي حاشية الجمل على الجلالين [﴿ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ ﴾ يعني طعامًا من ثمرها ،

(2) سورة طه : 121 .

(1) سورة الأعراف : 22 .

(3) مجمع البيان للطبرسي 628/2 .

وفيه دليل على أنهما تناولا اليسير من ذلك ؛ قصدًا إلى معرفة طعمه ؛ لأن الذوق يدل على الأكل اليسير [(1)] .

● وقوله تعالى : ﴿ فَبَدَّتْ لَهْمًا سَوَاءَهُمَا ﴾ : نتيجة لأكلهما من تلك الشجرة : انكشف ذلك الستر النوراني وبدت العورات .

﴿ وَطَفِقًا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ ﴾ أي وجعلا (2) يلزقان عليهما من أوراق الجنة ليستترا بها ، كما تخصف النعل أي ترفعه (3) .

﴿ وَنَادَيْتُهُمَا رَبَّهُمَا ﴾ وهو العليم بحالهما ﴿ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقُلَّ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴾ عاتبهما على أكلهما من الشجرة وقد نهاهما عنها ، كما عاتبهما على استجابتهما لوسوسة إبليس وقد حذرهما من عداوته الظاهرة وأساليبه الماكرة الغادرة ، وكان الأولى بهما أن يحذرا ويخالفاه ، والإشارة إلى الشجرة بلام البعد ﴿ تِلْكَمَا ﴾ لتحقير شأنها ، ولأنهما لما أكلا منها وبدت لهما سوءاتهما نفرا منها وابتعدا عنها ، فناسب ذلك الإشارة بلام البعد ، والتثنية للمخاطبين : (آدم وحواء) .

﴿ وَأَقُلَّ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴾ ظاهر العداوة ، وكان الأولى بكما وقد حذرتكما منه أن تحذراه وتخالفاه ولا تقعا في حبائله .

(1) حاشية الجمل 130/2 .

(2) قال الإمام الراغب : [طفق يفعل كذا : كقولك : أخذ يفعل كذا ويستعمل في الإيجاب دون النفي لا يقال (ما طفق) ، قال تعالى : ﴿ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ ﴾ سورة ص : 33 . وقال : [﴿ وَطَفِقًا يَخْصِفَانِ ﴾] المفردات للراغب ص 305 مادة (ط ف ق) .

(3) وقال ابن دريد في الاشتقاق : [... وكل لونين مجتمعين فهما خصيف ، وخصفت النعل أخصفتها خصفًا ، والمخصف الذي يخصف به] . كتاب الاشتقاق - تصنيف / أبي بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي (ت 321 هـ) تحقيق وشرح / عبد السلام محمد هارون ص 266 مادة (خ ص ف) ط دار المسيرة بيروت ط 2 سنة 1399 هـ سنة 1979 م . وابن دريد هو محمد بن الحسن بن دريد ولد بالبصرة سنة 223 هـ وهو : عالم لغوي أديب - من أهم مؤلفاته : أدب الكاتب ، الاشتقاق ، الأمالي ، جمهرة اللغة ، تراجع ترجمته في معجم الأدباء 129/18 ، طبقات النحويين للزيدي ص 202 ، إنباه الرواة 95/3 - وبغية الوعاة 76/1 .

المبحث الخامس

توبة آدم وحواء

● تحدث القرآن الكريم عن توبة آدم عليه السلام وحواء في أكثر من موضع : ففي سورة البقرة : يقول عليه السلام : ﴿ فَلَقَىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ (1) .

وفي سورة الأعراف يقول عليه السلام : ﴿ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّا تَغْفِرَ لَنَا وَتَرْحَمَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ (2) .

وفي سورة طه يقول سبحانه : ﴿ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ أَجْنَبَهُ رَبُّهُ فَأَبَىٰ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴾ (3) .

● وفي الموضع الأول من سورة البقرة إخبار عن توجيه الله تعالى لآدم إلى التوبة وتعليمه كيف يتوب ، والهداية إلى التوبة رحمة من الله ، فالمولى عليه السلام هو التواب الذي يهدي إلى التوبة ويقبلها ، وهو الرحيم الذي يرحم عباده التائبين .

● وهذه الكلمات التي تعلمها آدم عليه السلام هي الواردة في سورة الأعراف : ﴿ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّا تَغْفِرَ لَنَا وَتَرْحَمَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ (4) .

وفيها إشارة إلى اشتراك آدم وحواء في المعصية ، واعترافهما بالذنب . وطلبهما المغفرة والرحمة من الله تعالى (5) .

● أما قوله تعالى في سورة طه : ﴿ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ أَجْنَبَهُ رَبُّهُ فَأَبَىٰ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴾ (6) فقد دلت على وقوع المعصية من آدم عليه السلام حينما أكل هو وزوجه

(1) سورة البقرة : 37 . (2) سورة الأعراف : 23 .

(3) سورة طه : 121 ، 122 . (4) سورة الأعراف : 23 .

(5) التلقي نظير التلقن يقال : تلقيت منه أي أخذت وقبلت - قرأ ابن كثير (آدم) بالنصب (وكلمات) بالرفع ، على إسناد الفعل إلى كلمات ولم يؤنث الفعل لأن الفاعل مؤنث غير حقيقي - وقرأ الباقون (آدم) بالرفع (وكلمات) بالنصب على إسناد الفعل إلى آدم وإيقاعه على كلمات لأن آدم هو الذي تلقى الكلمات أي استقبلها وتلقاها وقبلها ودعا بها - أما على قراءة ابن كثير فالمعنى فجاءته الكلمات واستقبلته ، يقال : نلت خيرا ونالني خيرا وأصببت شيئا وأصابني شيء وقابلت محمداً وقابلني محمد .

يراجع المستشير 17/1 ، 18 والنشر 211/2 وإتحاف فضلاء البشر 388/1 ، 389 .

(6) سورة طه : 121 ، 122 .

حواء من الشجرة وخص آدم عليه السلام بالمعصية مع دلالة السياق على أن حواء شريكته في الأكل ، لأن بداية الحديث عن آدم فهو المقصود بالذكر هنا ؛ لأنه لما نسي العهد وقع في المعصية قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ عَاهَدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسَىٰ وَلَمْ يَجِدْ لَهُ عَزْمًا ﴾ (1) أي فترك ما أمر به ، أو فنسيه من النسيان بمعنى الترك أو النسيان الذي يقابل الذكر ﴿ وَلَمْ يَجِدْ لَهُ عَزْمًا ﴾ العزم هو توطين النفس على الفعل ، قيل : ﴿ وَلَمْ يَجِدْ لَهُ عَزْمًا ﴾ أي لم يحفظ ما أمر به ، أو لم يصبر عما نهى عنه ، أو لم يكن له عزم في الأكل بل أكل ناسيًا (2) ؛ فسياق الكلام في آدم عليه السلام لأنه لما نسي العهد وقع في المعصية ولقد وقع آدم في ثلاثة أمور [نسي ، وعصي ، وغوي] وفي مقابل هذه الثلاثة أكرمه الله بثلاثة ﴿ ثُمَّ أَجْنَبَهُ رَبُّهُ فَنَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴾ (3) وذلك لما اعترف بذنبه وتاب إلى ربه (4) .

(1) سورة طه : 115 .

(2) يراجع زاد المسير في علم التفسير للإمام أبي الفرج عبد الرحمن بن الجوزي القرشي البغدادي (508 - 596 هـ) 328/5 ط المكتب الإسلامي .

وابن الجوزي : هو الإمام عبد الرحمن بن علي بن محمد جمال الدين أبو الفرج الجوزي البغدادي الحنبلي صاحب المصنفات الشهيرة في التفسير والحديث والفقه والوعظ وغير ذلك - ولد سنة 508 هـ وتوفي سنة 597 هـ ببغداد بعد حياة حافلة وعمر مديد في خدمة العلم والدعوة الإسلامية ، من أهم مؤلفاته كتابه زاد المسير في علم التفسير ، والمنتظم في تاريخ الأمم ، وصفة الصفوة ، والأذكياء ، والبصرة في الوعظ - وتبليغ إبليس ، وذم الهوى - وغير ذلك . يراجع ترجمته في طبقات المفسرين للداوودي 270/1 ومعجم المؤلفين 157/5 والأعلام 89/4 وطبقات القراء لابن الجزري 375/1 والجوزي نسبة إلى الجوز ويبعه ، كما ورد في اللباب لابن الأثير 309/1 ولب اللباب في تحرير الأنساب للسيوطي 220/1 ط دار الكتب العلمية بيروت ط 1 سنة 1411 هـ .

(3) سورة طه : 122 .

(4) وهل المعصية التي وقعت من آدم عليه السلام من الصغائر أم من الكبائر ؟ وهل تخل هذه المعصية بعصمة آدم عليه السلام ؟ أقول : مذهب أهل السنة والجماعة هو إثبات عصمة الأنبياء بعد النبوة من الكبائر والصغائر ، أما قبل النبوة فلا يجوز بأي حال وقوع الكبيرة منهم ولا الصغيرة المنفرة والخسيصة ، وقد يقع قبل النبوة من الصغائر غير المنفرة وغير الخسيصة التي لاتخل بالمرء ولا تحط من قدرهم [وإنما تلك الأمور التي تقع على جهة الخطأ والنسيان أو تأويل دعا إلى ذلك . فهم صلوات الله وسلامه عليهم وإن كان قد شهدت النصوص بوقوع ذنوب منهم فلم يخل ذلك بمناصبهم ولم يقدح في رتبهم بل قد تلافاهم واجتباهم وهاداهم ومدحهم وزكاهم واختارهم واصطفاهم ، صلوات الله عليهم وسلامه] الجامع لأحكام القرآن للإمام القرطبي 309/1 بتصرف . وتلافاهم : تداركهم .

* ويقول الأستاذ الدكتور / محمد أبو النور الحديدي أستاذ التفسير وعلوم القرآن وعميد كلية الدراسات الإسلامية للبنات بالمنصورة - في كتابه عصمة الأنبياء مجيبًا عن السؤال الذي طرحه وهو [هل وقع بالفعل =

فائدة : وثم في قوله سبحانه ﴿ ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ ﴾ للتراخي الرتبي ، لإظهار البون الشاسع بين المعصية والاجتباء ، أو للتراخي الزمني لبيان المرحلة التي تكون بين المعصية والاجتباء وهي مرحلة التوبة ؛ إذ لا يكون هناك اجتباء بعد المعصية إلا مسبوقة بالتوبة المقبولة (1) .

= من الأنبياء ذنوب قبل بعثتهم أم لم يقع ؟ [.

[والذي أختاره في الجواب عن هذا السؤال : هو امتناع ارتكابهم الكبائر قبل البعثة وكذلك الصغائر الخسيسة - عمدًا أو سهوًا - وهي التي تزي بفاعلها، وتحط بمنزلته ، وتسقط مروءته ، لأمرين : الأول : أن اختيار الله تعالى لهم للنبوّة يقتضي إعدادهم منذ نشأتهم لمنصبها السامي بالتأديب الحسن والحفظ من قبح الخلق وسوء السيرة . الثاني : أنه لم ينقل إلينا أن أحدا من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام قد ارتكب كبيرة أو صغيرة خسيسة قبل البعثة [. عصمة الأنبياء والرد على الشبه الموجهة إليهم - للدكتور محمد أبو النور الحديدي ص 118 : 120 بتصرف مطبعة الأمانة سنة 1399 هـ سنة 1979 م .

وأقول : إن الأنبياء هم صفوة خلق الله اصطفاهم الله وآثرهم واجتباهم وطهرهم قال تعالى : ﴿ اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِمَّنْ أَلْتَأْتِي إِبْرَاهِيمَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾ سورة الحج - 75 وقال ﷺ : ﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾ سورة الأنعام - 124 وقال ﷺ : ﴿ إِنْ اللَّهُ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿ ذُرِّيَّتًا مِّنْ بَعْضِهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ سورة آل عمران : 33 ، 34 وقال ﷺ عن أنبيائه : ﴿ أَوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَّتْهُمْ أَفْتَدَةٌ ﴾ سورة الأنعام : 90 .

وما حدث من آدم ﷺ كان قبل النبوّة وكان من الصغائر غير الخسيسة وغير المنفرة ، وصدر عن نسيان منه وانخداع إبليس الذي أقسم بالله كاذبًا ، ولقد تاب الله على آدم ﷺ واجتباها وهداه واصطفاه قال تعالى : ﴿ ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى ﴾ . ولقد فسر الإمام النيسابوري (الاجتباء) بالاختيار للرسالة ، وجعل الآية دليلًا على أن ما جرى كان قبل البعثة . غرائب القرآن و رغائب الفرقان 166/16 .

وقال الإمام الطبرسي في مجمع البيان ﴿ ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ ﴾ أي اصطفاها للرسالة . مجمع البيان للطبرسي 55/7 . وقال الإمام الألوسي : [: ﴿ ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى ﴾ وهدى إلى الثبات على التوبة ، والتمسك بما يرضي الله سبحانه وتعالى وقيل : إلى كيفية التوبة بتعلم الكلمات ، ... وقيل : إلى النبوّة والقيام بما تقتضيه وقدم أبو حيان هذا على سائر الاحتمالات [. روح المعاني للألوسي 275/16 .

والبحر المحيط لأبي حيان الأندلسي 286/6 .

(1) متشابه النظم القرآني في قصة آدم ﷺ د . عبد الجواد طبق ص 217 .

المبحث السادس

هبوط آدم وحواء إلى الأرض

تاب الله تعالى على آدم وحواء وأهبطهما إلى الأرض قال تعالى في سورة البقرة : ﴿ فَازْلِهْمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتْنَعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾ فَلَقِيَ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١﴾ .

سر تكرار الأمر بالهبوط

ويلاحظ في هذه الآيات أن الأمر بالهبوط قد تكرر ، والسر في تكراره : قيل : لأن الهبوط الأول من الجنة إلى السماء الدنيا ، والهبوط الثاني من السماء الدنيا إلى الأرض ، وقيل : للتأكيد ، وضعف الأول بأنه لو كان كذلك لكان ذكر قوله تعالى : ﴿ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتْنَعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ عقب الهبوط الثاني أولى ، وأيضاً قوله تعالى : ﴿ اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا ﴾ يدل على أن الهبوط الثاني أيضاً من الجنة .

وقيل : إن آدم وحواء لما أكلا من الشجرة ، وتابا - بعد الأمر بالهبوط - وقع في قلبهما أن الأمر بالهبوط يرتفع بزوال الزلّة فأعيد الأمر مرة ثانية ، ليعلما أن حكمه باق ، تحقيقاً للوعد المتقدم في قوله تعالى : ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ (2) . (3) .

يقول الإمام البيضاوي : [... كرر الهبوط للتأكيد ، أو لاختلاف المقصود ؛ فإن الأول دل على أن هبوطهم إلى دار البلية ، يتعادون فيها ولا يخلدون ، والثاني أشعر بأنهم أهبطوا للتكليف فمن اهتدى نجا ، ومن ضل هلك ، وقيل : الأول من الجنة إلى السماء الدنيا ، والثاني منها إلى الأرض] (4) .

● والأرجح أن يحمل التكرار هنا على اختلاف المتعلق في كل .

(2) سورة البقرة : 30 .

(1) سورة البقرة : 36 - 38 .

(3) يراجع : غرائب القرآن و رغائب الفرقان للإمام النيسابوري 1/287 ، 288 .

(4) أنوار التنزيل وأسرار التأويل للإمام البيضاوي ص 5 .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَكُم فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ المستقر : موضع الاستقرار ، والمتاع هو ما يتمتع به في الدنيا ويتنفع به زماناً ممتداً من المأكل والمشرب والركب والمسكن والملبس والنكاح وغير ذلك من أنواع المتع الدنيوية الزائلة ، وقوله تعالى : ﴿ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ أي إلى أجل معلوم ووقت محدود وزمان معين ينتهي بانتهاء الآجال (1) .

قال تعالى : ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ (2) وقال ﷻ : ﴿ كُلُّ مَنَ عَلَيْنَا فَاِنِ ﴿١٦﴾ رَبَّنَا وَجَهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴾ (3) .

● من المخاطب بالهبوط

جاء الأمر بالهبوط مرة بصيغة التثنية (اهبطا) ، وثلاث مرات بصيغة الجمع ﴿ أَهْبِطُوا ﴾ .

ولقد اختلف العلماء في المخاطب هنا :

قيل : آدم وحواء ، وجمع الضمير لتنزليهما منزلة البشر كلهم لاعتبارهما أصل البشرية .

(1) في المصباح المنير : الحين : الزمان قل أو كثر والجمع أحيان - المصباح 74/1 مادة (ح ي ن) . وفي لسان العرب : الحين : الدهر ، وقيل : وقت من الدهر مبهم يصلح لجميع الأزمان كلها طالت أو قصرت - لسان العرب 1073/2 مادة (ح ي ن) .

وفي المفردات للراغب - الحين : وقت بلوغ الشيء وحصوله وهو مبهم المعنى ويتخصص بالإضافة نحو قوله تعالى : ﴿ وَوَلَدَ حِينٍ مَّامٍ ﴾ سورة ص : 3 .

وكلمة ﴿ حِينٍ ﴾ بدون إضافة تأتي على أوجه مختلفة يحددها السياق ، منها السنة قال تعالى : ﴿ تُوَفَّىٰ أَكُلِّهَا كُلٌّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا ﴾ سورة إبراهيم : 25 .

ومنها الساعة قال تعالى : ﴿ فَسَبِّحْنَا اللَّهَ حِينِ نُمْسُونَ وَحِينِ تُصْبِحُونَ ﴾ سورة الروم 17 ، وقال تعالى : ﴿ أَوْ تَقُولَ حِينِ تَرَىٰ الْعَدَابَ ﴾ سورة الزمر : 58 أي ساعة معاينته .

ومنها وقت معين في علم الله ﷻ لا نعلمه نحن . قال تعالى : ﴿ وَلَعَلَّمَنَّا بَنَاءَ بَعْدِ حِينٍ ﴾ سورة ص 88 . أي بعد وقت يعلمه الله تعالى وإنما فسر ذلك بحسب ما وجد قد علق به .

يراجع المفردات للراغب ص 138 مادة (ح ي ن) .

وفي الأشباه والنظائر لابن الجوزي [الحين : الزمان : قليله وكثيره ، يقال : أَخْبَيْتُ بِالْمَكَانِ إِذَا أَقَمْتُ فِيهِ حِينًا ، وحيان حين كذا : أي قرب - وقوله تعالى : ﴿ وَلَكُم فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ أي إلى حين منتهى الآجال] نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر لابن الجوزي ص 254 ، 255 بتصرف ط مؤسسة الرسالة بيروت سنة 1405 هـ ط ثانية .

ويراجع الأشباه والنظائر في الألفاظ القرآنية التي ترادفت مبانيها وتنوعت معانيها تأليف / عبد الملك بن محمد الثعالبي (ت 429 هـ) ص 118 ط عالم الكتب بيروت سنة 1404 هـ . ط أولى .

واختار الفراء أن المخاطب هما وذريتهما ، وفيه خطاب المعلوم ، وعن ابن عباس ومجاهد وكثير من السلف أن المخاطب آدم وحواء وإبليس ، واعترض بخروجه قبلهما ، وقيل : هم والحية ، وأرى أن قصة الحية قصة أسطورية خيالية .

قال الإمام الزمخشري : [... قوله تعالى : ﴿ أَهْبِطُوا ﴾ خطاب لآدم وحواء وإبليس ، وقيل : والحية ، والصحيح أنه لآدم وحواء ، والمراد : هما وذريتهما ، لأنهما لما كانا أصل الإنس : جعلتا كأنهما الإنس كلهم ، والدليل عليه قوله تعالى : ﴿ قَالَ أَهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴾ (1) ويدل على ذلك أيضاً قوله تعالى : ﴿ فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ ، وما هو إلا حكم يعم الناس كلهم ومعنى ﴿ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴾ ما عليه الناس من التعادي والتباغض وتضليل بعضهم لبعض] (2) .

وقال الإمام الشوكاني (3) في تفسيره فتح القدير موضعاً المخاطب في قوله تعالى : ﴿ قَالَ أَهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴾ : [خطاب لهما ولذريتهما - يعني آدم وحواء وذريتهما - لأنهما لما كانا أصل هذا النوع الإنساني جعلتا بمنزلة الجمع ، ويدل على ذلك قوله تعالى : ﴿ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴾ فإن هذه الجملة واقعة حالاً مبينة للهيئة الثابتة للمأمور به بالهبوط فهي تفيد ذلك] (4) .

واختار صاحب التحرير والتنوير (5) أن الجمع في سورة البقرة ﴿ أَهْبِطُوا ﴾ مراد به المثني وفي ذلك يقول : [فالذي أراه : أن جمع الضمير مراد به التشبية ، لكرامية توالي المثنيات بالإظهار والإضمار من قوله تعالى : ﴿ وَكَلَّا مِنْهَا رَعْدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا

(1) سورة طه : 123 . (2) الكشاف للزمخشري 128/1 بتصرف يسير .

(3) الإمام الشوكاني هو الإمام المجدد محمد بن علي بن محمد الشوكاني الصنعاني من كبار علماء اليمن ، ولي قضاء صنعاء ، وتوفي بها سنة 1250 هـ واشتهر بالزهد والورع وله مؤلفات كثيرة غزيرة ومتنوعة منها نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار - والفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعية ، وفتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير - تراجع ترجمته في الأعلام للزركلي 736/6 والإمام الشوكاني حياته وفكره د . عبد الغني قاسم أستاذ التربية بجامعة صنعاء ط مؤسسة الرسالة بيروت ط 1 سنة 1408 هـ . والمجددون في الإسلام من القرن الأول إلى القرن الرابع عشر الهجري للأستاذ عبد المتعال الصعيدي ص 472 : 475 ط مكتبة الآداب بالقاهرة .

(4) فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية عن علم التفسير 195/2 ط الباني الحلبي .

(5) هو محمد الطاهر بن عاشور - مفتي المالكية بتونس وشيخ جامع الزيتونة وفروعه بتونس . من مصنفاته تفسير التحرير والتنوير - ومقاصد الشريعة الإسلامية توفي سنة 1393 هـ تراجع ترجمته في الأعلام للزركلي 174/6 ويراجع معجم المؤلفين 101/10 .

هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا ﴿١﴾ والعرب يستقلون ذلك [(2)] .

والذي اختاره في هذا الموضوع أن الخطاب لآدم وحواء، وقد جاء بصيغة التثنية على حقيقته، وبصيغة الجمع لأن أقل الجمع اثنان، وأعلى اعتبار الذرية، والعداوة بين الذرية: ما يقع بينهم من تباض وتحاسد وفرقة واختلاف .

ويمكن أن يقال: إن الأمر بالهبوط هنا يشمل آدم وحواء وإبليس فيشمل آدم وحواء من حيث الحقيقة ويشمل إبليس للدلالة على ملازمته لهما بعد الهبوط، فهو مسلط على آدم وحواء وذريتهما إلى أن تقوم الساعة .

● لسائل أن يسأل فيقول: إذا كان إبليس خارج الجنة، قد أخرج منها مذءومًا مدحورًا، فكيف توصل إلى الوسوسة لآدم وحواء؟ وهو خارج الجنة؟ .

وأجيب عن هذا السؤال فأقول: قيل: إن إبليس اللعين دخل في فم الحية، ولهذا سقطت قوائمها؛ عقوبة لها على تواطئها مع إبليس، وقيل: دخل الجنة متخفيًا في صورة دابة، وقيل: إن آدم وحواء كانا يخرجان إلى باب الجنة وإبليس كان يقترب من الباب ويوسوس، وقيل: وسوس على لسان بعض أتباعه، لأنهما كانا يعرفان ما عنده من الحسد والبغضاء؛ فيستحيل أن يقبلا منه قوله (3)، وقيل: لعله صعد إلى الجنة صعودًا عارضًا من أجل الوسوسة فلا يتعارض هذا مع الأمر بالهبوط (4) .

وهذه الآراء فيها نظر. أما قولهم: إنه دخل في فم الحية متخفيًا ولهذا حكم على الحية بقطع قوائمها فهذا رأي ضعيف وقول سخيف، فالحية من يوم خلقها الله وهي حية، وقصة الحية قصة إسرائيلية وأسطورة خيالية، وقد وردت في سفر التكوين الإصحاح الثالث منه .

وأما قولهم إنه دخل الجنة متخفيًا في صورة دابة، فهذا قول يمجُّه العقل؛ إذ كيف يتخفى إبليس؟ وعلى من يتخفى؟ على الملائكة الكرام! خزنة الجنة، وكيف دخلت

(1) سورة البقرة: 35، 36 .

(2) التحرير والتنوير 434/1 ط الدار التونسية للطباعة والنشر .

(3) يراجع في ذلك غرائب القرآن ورغائب الفرقان للنيسابوري 283/1 .

(4) يراجع التفسير الكبير للإمام الرازي 17/2 .

هذه الدابة إلى الجنة ؟ وهل خفي على الملائكة أمرها ؟ .

وأما قولهم : كان آدم وحواء يخرجان إلى باب الجنة فيقترب إبليس من الباب ويوسوس : فهذا مجرد ظن وتخمين لأن الوسوسة لا تكون إلا بصوت خفي وهذه الحالة تحتاج إلى صوت مرتفع جهوري حتى يتمكن إبليس وهو خارج الجنة أن يوسوس إلى آدم وحواء وهما في الجنة .

وأما قولهم : كان يوسوس على لسان بعض أتباعه فهو قول مردود ؛ إذ كيف يمنع إبليس من دخول الجنة ويسمح لدخول أحد أتباعه ليؤدي هذه المهمة ، والنص القرآني يفيد أن الموسوس هو إبليس وليس أحد أتباعه . وأما من قال بأنه صعود عارض : فكلامه فيه نظر ؛ إذ كيف يعود إبليس إلى الجنة بعد أن طرد منها لذلك فإني أرى والله أعلم - أن إبليس لم يدخل الجنة بعد أن أخرج منها ولا مانع من وسوسة إبليس لهما وهو في خارج الجنة ، والعلم الحديث يقرب إلى أذهاننا هذا التصور فيمكن أن رجل في أمريكا أن يجري حوارًا مع آخر في الصين - بالصوت والصورة - عن طريق وسائل الاتصال المتقدمة ، المسموعة والمرئية . وقد ذكر القرآن الكريم أن الرجل من أهل الجنة يطَّلِعُ على أهل النار فيراهم يتقلبون فيها ويعذبون يقول المولى ﷺ في سورة الصافات : ﴿ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٥٦﴾ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَهِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ إِذَا مِنَّا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا إِهْتَا لَمْدِينُونَ ﴿٥٣﴾ قَالَ هَلْ أُنتُمْ مُّطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾ فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ قَالَ تَاللَّهِ إِنْ كِدَتْ لَتُرِيدِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾ أَمَا نَحْنُ بِمَبْتَلِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوْلَانَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَدِّيْنَ ﴿٥٩﴾ إِنَّ هَذَا هُوَ الْقَوْمُ الْعَظِيمُ ﴿٦٠﴾ لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ ﴿٦١﴾ ١ .

● قال الشيخ الصابوني ⁽²⁾ في صفوة التفاسير : ﴿ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴾ أي جلسوا يتحدثون عما جرى لهم في الدنيا ويتذكرون ثمرة الإيمان ونعيم الجنة قال

(1) سورة الصافات : 50 : 61 .

(2) هو الشيخ محمد علي الصابوني ولد بحلب سنة 1925 - ... وحصل على الإجازة العالية في الشريعة الإسلامية وعمل مدرسًا في المرحلة الثانوية بحلب ثم أستاذًا بجامعة أم القرى بمكة المكرمة . من أهم مؤلفاته : صفوة التفاسير وهو تفسير وسيط للقرآن الكريم ، وروائع البيان في تفسير آيات الأحكام ، والنبوة والأنبياء وقبس من نور القرآن الكريم . وهو دراسة موضوعية للسور القرآنية تراجع ترجمته في معجم المؤلفين السوريين ص 296 تأليف الأستاذ عبد القادر عياش ط / دار الفكر - دمشق سوريا .

قائل من أهل الجنة إني كان لي في الدنيا صديق ينكر البعث ويقول لي : أَتُصَدِّقُ بِالْبَعْثِ وَالْجِزَاءِ !! ﴿ أَيْتُكَ لِمَنْ أَلْمُصَدِّقِينَ ﴾ ﴿٥٦﴾ أَيْدَا مِنَّا وَكُنَّا تَرَابًا وَعِظْمًا أَيْنَا لَمَدِينُونَ ﴿٥٧﴾ قَالَ هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ ﴿٥٨﴾ أَي قَالَ ذَلِكَ الْمُؤْمِن لِأَخْوَانِهِ فِي الْجَنَّةِ هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ إِلَى النَّارِ لِلنَّظَرِ إِلَى حَالِ ذَلِكَ الْقَرِينِ ؟ ﴿ فَأَطَّلَعَ فَرَأَاهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴾ أَي فَنظَرَ فَأَبْصَرَ صَاحِبَهُ الْكَافِرَ فِي قَلْبِ النَّارِ يَتَلَطَّى سَعِيرَهَا ⁽¹⁾ . فَقَالَ الْمُؤْمِنُ لِلْكَافِرِ مَعَاتِبًا : ﴿ تَأَلَّهَ إِنْ كِدْتَ لَتُرْدِينَ ﴾ ﴿٥٩﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُخْضَرِّينَ ... ﴿ إِنْخِ الْآيَاتِ وَيَتَّبِعِنَا لَنَا مِنْ هَذِهِ الْآيَاتِ : أَنْ الْمُؤْمِنَ قَدْ يَطَّلِعُ وَهُوَ فِي الْجَنَّةِ عَلَى أَهْلِ النَّارِ وَيَتَحَاوَرُ مَعَهُمْ ، وَفِي هَذَا دَلِيلٌ عَلَى إِمْكَانِ وَسُوسَةِ إِبْلِيسَ اللَّعِينِ وَهُوَ خَارِجُ الْجَنَّةِ إِلَى آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَحَوَاءَ وَهُمَا فِي الْجَنَّةِ .
والله تعالى أعلم .

(1) صفوة التفاسير 12/14 بتصرف ط دار القرآن الكريم بيروت - ويراجع تفسير القرآن العظيم لابن كثير 7/4 : 10 - والجامع لأحكام القرآن للإمام القرطبي 84/81/15 والكشاف للزمخشري 44/4 ، 45 .

المبحث السابع

من المسئول عن الأكل من الشجرة

الحقيقة إن المسئولية مشتركة بين آدم وحواء كما ورد في الآيات الكريمة التي سبق ذكرها .

وسوس الشيطان إليهما ، واغترا معًا وأكلا من الشجرة معًا وبدت سوءاتهما ، وعاتبهما المولى ﷺ على ذنبهما ، وتابا معًا إلى الله ، وتاب الله عليهما ، وأهبطا سويًا إلى الأرض .

فالمسئولية مشتركة بينهما كما صرحت بذلك الآيات الكريمة .

المبحث الثامن

فوائد حول القصة

- 1 - مكانة الزواج في الإسلام .
- 2 - عداوة الشيطان للإنسان .
- 3 - أثر الذنوب ووجوب المبادرة إلى التوبة .

1 - مكانة الزواج في الإسلام

ملاحظة مهمة :

لم تذكر حواء عَلَيْهَا السَّلَامُ باسمها في القرآن الكريم وإنما كان يشار إليها دائماً بكلمة « زوج » وفي ذكر حواء بهذه الكلمة دون الإشارة إليها بالاسم الظاهر سر من أسرار التعبير القرآني يدل على بلاغته وفصاحته وحسن دلالاته ، فالعلاقة الوحيدة الشرعية التي تجمع بين الرجل والمرأة الأجنبية هي علاقة الزواج ، ولقد خلق الله حواء لآدم عَلَيْهِ السَّلَامُ : ليأنس بها ويسكن إليها ويستمتع بها وليحدث بينهما ما يؤدي إلى التناسل والتكاثر .

والزواج سنة من سنن الفطرة وهو آية كونية وإنسانية وسنة نبوية :

● أما كونه من سنن الفطرة : فلأنه يوافقها ويلائمها ولأن السياج الذي جمع بين أبويننا آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ وزوجه حواء هو رباط الزواج ، ولقد جاء الإسلام بما يوافق الفطرة السليمة : قال تعالى في سورة الروم : ﴿ فَأَقِمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَوِيمُ وَلَكِن كَثُرَ النَّاسُ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (1) .

وعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال : [جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يسألون عن عبادته ، فلما أخبروا كأنهم تقالُّوها ، فقالوا : وأين نحن من النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ؟ قد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، قال أحدهم : أما أنا فأنا أصلي الليل أبداً ، وقال آخر : وأنا أصوم الدهر ولا أفطر ، وقال آخر : وأنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبداً ، فجاء رسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

فقال : « أتم الذين قاتم كذا وكذا؟ أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له ، لكنني أصوم وأفطر ، وأصلي وأرقد ، وأتزوج النساء ، فمن رغب عن سنتي فليس مني » [(1)] .

● وأما كونه آية كونية فكما قال الحق تبارك وتعالى : ﴿ وَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا رَوْحِينَ ﴾ (2) .

وكما قال ﷻ : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُثْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (3) .

وأما كونه سنة إنسانية فكما قال ﷻ : ﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴾ (4) .

وقال تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (5) .

● فالزواج آية إنسانية تدل على قدرة الله ﷻ وحكمته .

● يقول الإمام ابن كثير في تفسيره : [﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ ﴾ الدالة على عظمته وكمال قدرته ﴿ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا ... ﴾ ولو أنه تعالى جعل بني آدم كلهم ذكورا ، وجعل إناثهم من جنس آخر غير جنسهم لما حصل هذا الائتلاف بينهم وبين الأزواج بل كانت تحصل لهم نفرة لو كانت الأزواج من غير الجنس ، ثم من تمام رحمته ببني آدم أن جعل أزواجهم من جنسهم وجعل بينهم وبينهن مودة وهي المحبة

(1) رواه البخاري في صحيحه واللفظ له عن أنس بن مالك ، كتاب النكاح باب الترغيب في النكاح [فتح الباري 5/9 حديث 5063] ورواه الإمام مسلم في صحيحه عنه - كتاب النكاح باب استحباب النكاح لمن تاققت نفسه إليه ووجد المؤنة - [صحيح مسلم بشرح النووي 175/9 - ورواه الإمام البيهقي في السنن ك النكاح باب الرغبة في النكاح 77/7 .

وقال ابن حجر : [والمراد بالسنة : الطريقة لا التي تقابل الفرض ، والرغبة عن الشيء الإعراض عنه إلى غيره ، والمراد فمن ترك طريقي وأخذ بطريقة غيري فليس مني ، ولمح بذلك إلى طريقة الرهبانية فإنهم الذين ابتدعوا التشديد كما وصفهم الله تعالى : ﴿ وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ﴾ سورة الحديد : 27 - وقد ذمهم بأنهم ماوفوا بما التزموا . وطريقة النبي ﷺ هي الخنيفة المسحة [فتح الباري 7/9 بتصرف يسير . فالزواج إذا سنة فطرية ، وتركه انحراف عن الفطرة السليمة وزيع عن الطبيعة المستقيمة .

(3) سورة يس : 36 .

(2) سورة الذاريات : 49 .

(5) سورة الروم : 21 .

(4) سورة الفرقان : 54 .

ورحمة وهي الرأفة ، فإن الرجل يمسك المرأة إما لمحبتة لها أو لرحمة بها بأن يكون له منها ولد أو محتاجة إليه في الإنفاق أو للألفة بينهما وغير ذلك ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [(1)] .

● ويقول صاحب الظلال (2) [... والناس يعرفون مشاعرهم تجاه الجنس الآخر ، وتشغل أعصابهم ومشاعرهم تلك الصلة بين الجنسين ، وتدفع خطاهم وتحرك نشاطهم تلك المشاعر المختلفة الأنماط والاتجاهات بين الرجل والمرأة ، ولكنهم قلما يتذكرون يد الله التي خلقت لهم من أنفسهم أزواجاً ، وأودعت نفوسهم هذه العواطف والمشاعر ، وجعلت في تلك الصلة سكناً للنفس وراحة للجسم والقلب واستقراراً للحياة والمعاش وأنساً للأرواح والضمائر واطمئناناً للرجل والمرأة على السواء ، والتعبير القرآني اللطيف الرفيق يصور هذه العلاقة تصويراً موحياً ، وكأنما يلتقط الصورة من أعماق القلب وأغوار الحس : ﴿ لَنَسْكُنُوا إِلَيْهَا ﴾ ﴿ وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾ ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ... ﴾ فيدركون حكمة الخالق في خلق كل من الجنسين على نحو يجعله موافقاً للآخر ، مليباً لحاجته الفطرية : نفسية وعقلية وجسدية بحيث يجد عنده الراحة والطمأنينة والاستقرار ، ويجدان في اجتماعهما السكن والاكتماء والمودة والرحمة لأن تركيبهما النفسي والعصبي والعضوي ملحوظ فيه تلبية رغائب كل منهما في الآخر ، واتلافهما وامتزاجهما في النهاية لإنشاء حياة جديدة تتمثل في جيل جدي ...] (3) .

(1) تفسير القرآن العظيم للإمام ابن كثير 429/3 باختصار .

(2) هو الأديب المفكر الداعية الأستاذ سيد قطب رحمه الله ولد في إحدى قرى محافظة أسيوط 9 من أكتوبر سنة 1906 وترى تربية إسلامية وتخرج من كلية دار العلوم وكتب في كثير من المجالات الأدبية وسافر إلى أمريكا في بعثة علمية ثم عاد إلى مصر .. وتعرض لكثير من المحن والابتلاءات بعد انضمامه لجماعة الأخوان المسلمين .. وألف جزءاً كبيراً من تفسيره وهو في المعتقل .. وحكم عليه بالإعدام ونفذ الحكم فجر الاثنين 1966/8/29 ولقد ترك رحمه الله تراثاً زاخراً من المؤلفات القيمة منها العدالة الاجتماعية - في ظلال القرآن - التصوير الفني في القرآن - مشاهد يوم القيامة - معالم في الطريق - خصائص التصور الإسلامي ومقوماته - الإسلام ومشكلات الحضارة - أمريكا من الداخل وغير ذلك .

تراجع ترجمته في (سيد قطب حياته وأدبه د . عبد الباقي محمد حسين ط دار الوفاء ، سيد قطب خلاصة حياته منهجه في الحركة والنقد الموجه إليه للأستاذ محمد توفيق بركات دار الدعوة بيروت بدون تاريخ والأعلام للزركلي 147/3 والموسوعة الحركية للأستاذ فتحي يكن 206/1 ط مؤسسة الرسالة .

(3) في ظلال القرآن 2763/5 .

● والزواج نعمة من نعم الله ﷻ على عباده يقول ﷻ في سورة النحل في سياق الحديث عن النعم الإلهية : ﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَيْنًا وَحَفْدةً وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ أَفَبِالْبِطْلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴾ (1) .

يقول الإمام ابن كثير في تفسيره : [.. يذكر تعالى نعمه على عبده بأن جعل لهم من أنفسهم أزواجًا من جنسهم وشكلهم ، ولو جعل الأزواج من نوع آخر ما حصل الائتلاف والمودة والرحمة ، ولكن من رحمته خلق من بني آدم ذكورًا وإناثًا ، وجعل الإناث أزواجًا للذكور ، ثم ذكر تعالى أنه جعل من الأزواج البنين والحفدة وهم أولاد البنين] (2) .

فالزواج نعمة من الله ، ومن تمام هذه النعمة وكمالها أن يرزق المؤمن زوجة صالحة تعينه على طاعة الله فتسعده في دنياه وفي أخراه ، يقول رسول الله ﷺ : « الدنيا متاعٌ وخيرُ متاعِ الدنيا المرأةُ الصالحة » (3) .

ويقول ﷺ : « تُنكحُ المرأةُ لأربعٍ : لمالها ولحسبها ولجمالها ولدينها ؛ فاظفر بذات الدين تربت يداك » (4) .

والزوجة الصالحة من أعظم حسنات الدنيا وخير متاعها : يقول المولى ﷻ : ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾ (5) .
ولقد ذكر المفسرون أن من أعظم حسنات الدنيا : الزوجة الصالحة (6) .

فعلى المؤمنين الأبرار المحسنين الأخيار أن يحسنوا الاختيار وأن يحسنوا العشرة والتأديب حتى تكون حياتهم الزوجية حياة طيبة كريمة ، هادئة هانئة ، راضية مرضية ،

(1) سورة النحل : 72 . (2) تفسير القرآن العظيم لابن كثير 577/2 .

(3) رواه الإمام مسلم في صحيحه عن عبد الله بن عمرو كتاب الرضاع باب استحباب نكاح البكر [صحيح مسلم بشرح النووي 56/10] ورواه البيهقي في السنن ك / النكاح باب استحباب التزويج بذات الدين 80/7 .

(4) الحديث رواه البخاري في صحيحه عن أبي هريرة ؓ ك / النكاح باب الأكل في الدين حديث 5090 [فتح الباري بشرح صحيح البخاري 35/9] ورواه الإمام مسلم في صحيحه عن أبي هريرة كتاب الرضاع - باب ما يؤمر به من تزويج ذات الدين - صحيح مسلم بشرح النووي 51/10 .

ورواه أبو داود في السنن عن أبي هريرة ك / النكاح باب ما يؤمر به من تزويج ذات الدين

حديث 2047 - سنن أبي داود 219/2 . (5) سورة البقرة : 201 .

(6) يراجع الجامع لأحكام القرآن القرطبي 432/2 ، 433 ، والكشاف للزمخشري 248/1 .

ومجمع البيان للإمام الطبرسي 530/1 .

أمنة مطمئنة ، سعيدة ورغيدة ، تقرر لها وبها العيون (1) ، ولذلك كان من دعاء عباد الرحمن كما ورد في سورة الفرقان : ﴿ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾ (2) فلن تقرر العين ولن يستريح البال إلا إذا كانت الزوجة صالحة ، وصلاح عباد الرحمن وزوجاتهم يترتب عليه بإذن الله صلاح الذرية وإذا كان البيت صالحاً والحياة طيبة كان ذلك عوناً على طاعة الله والتسابق إلى فعل الخيرات حتى يبلغ المؤمن مقام المتقين ويسير في مقدمتهم ، ويصير إماماً لهم .

يقول صاحب الظلال : [... وهذا هو الشعور الفطري الإيماني العميق شعور الرغبة في مضاعفة السالكين في الدرب إلى الله وفي أولهم الذرية والأزواج ، فهم أقرب الناس تبعه وهم أول أمانة يسأل عنها الرجال والرغبة كذلك في أن يحس المؤمن أنه قدوة للخير ، يأتم به الراغبون في الله ، وليس في هذا من أثره ولا استعلاء ؛ فالركب كله في الطريق إلى الله] (3) .

● فللزواج مكانته في الإسلام فهو شرعة ربانية ونعمة إلهية وسنة فطرية وآية كونية وإنسانية وسنة نبوية ، قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً ﴾ (4) وفي الحديث الشريف يقول ﷺ : « من أحبني فليستن بسنتي ، ومن سنتي النكاح ، ومن رغب عن سنتي فليس مني » ، وهو الطريق إلى تكثير نسل المسلمين يقول ﷺ : « تزوجوا الودود الودود فإني مكاثر بكم الأمم يوم القيامة » (5) وهو الطريق الشرعي لبناء الأسرة المسلمة ، الأسرة المسلمة الخلية الحية واللبنة الصالحة والمحضن

(1) ويحضرني في هذا المقام قول أحد الشعراء :

وكوز ماء بارد تشربه من صافية	رغيف خبزٍ واحد تأكله في زاوية
وزوجة مطيعة عينك عنها راضية	وغرفة نظيفة نفسك فيها هانية
واختارك الله له حتى تكون داعية	وظفلة جميلة محفوفة بالعافية

خير من الدنيا وما فيها وهي لعمرى فانية

(3) في ظلال القرآن 2581/5 .

(2) سورة الفرقان : 74 .

(4) سورة الرعد : 38 .

(5) رواه أبو داود في السنن عن معقل بن يسار- ك / النكاح باب النهي عن تزويج من لم يلد من النساء حديث 2050 - 220/2 ورواه النسائي في السنن عن معقل بن يسار- ك / النكاح باب كراهية تزويج العقيم 72/2 ورواه الحاكم في المستدرک عنه وصححه ووافقه الذهبي 162/2 وأورده الألباني في إرواء الغليل حديث 1784 - 195/6 - وفي سلسلة الأحاديث الصحيحة 498/5 - وفي صحيح سنن النسائي حديث 3026 - 680/2 - وفي صحيح سنن أبي داود حديث 1789 - وفي آداب الزفاف في السنة المطهرة ص 53 ، 54 ط المكتب الإسلامي .

الطبيعي لبناء المجتمع المسلم ، فهي الدرّة المصونة والجوهرة المكنونة التي ينتظم منها وبها عقد المجتمع المسلم .

المجتمع المسلم مجتمع المودة والرحمة والتآلف والتعاطف ، والتعاون والتضامن والعدالة والإنصاف والطهر والعفاف والمساواة والمؤاخاة ، والبر والتقوى . والتراحم والتواصل ، والتماسك والتكافل .

ولذلك حث الإسلام على الزواج ورغب فيه ودعى إلى تيسيره والإعانة عليه وإزالة العقبات التي تقف في طريقه ، يقول المولى ﷺ في سورة النور، وهي سورة قرآنية اشتملت على كثير من الأحكام البليغة والحكم البالغة التي تدعو إلى العفة والطهر والنقاء يقول ﷺ : ﴿ وَأَنْكِحُوا الْأَيْمَانَ مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ (1) .

والأيا مئى جمع أئيم ، والأئيم من الرجال ومن النساء من لا زوج له .

ويقول ﷺ : « يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج ؛ فإنه أغض للبصر ، وأحصن للفرج ، ومن لم يستطع ؛ فعليه بالصوم فإنه له وجاء » (2) .

فالمبادرة إلى الزواج مطلوبة وتيسيره أمر مطلوب والإعانة عليه شيء مرغوب ، وتعسيره شر مستطير وفساد كبير .

يقول ﷺ : « إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه ، إلا تفعلوه تكن فتنه في الأرض وفساد عريض » (3) .

(1) سورة النور : 32 .

(2) رواه البخاري في صحيحه عن عبد الله بن مسعود ؓ ك النكاح باب قول النبي ﷺ من استطاع الباءة فليتزوج - 5065 - فتح الباري 8/9 - ورواه مسلم في صحيحه عنه ك النكاح باب استحباب الزواج لمن تاقت نفسه إليه ووجد المؤنة - صحيح مسلم بشرح النووي 172/9 .

(3) رواه الترمذي في سننه عن أبي حاتم المزني وقال : حديث حسن غريب ، وأبو حاتم المزني له صحة ولا نعرف له عن النبي ﷺ غير هذا الحديث . سنن الترمذي حديث 1085 - 395/3 - ورواه الترمذي أيضًا عن أبي هريرة بلفظ (إذا خطب إليكم ..) الحديث رقم 1084 - 394/3 ، 395 ، ورواه ابن ماجه في السنن عن أبي هريرة حديث 1967 ك / النكاح باب نكاح الأكفأ 632/1 ، ورواه الحاكم في المستدرک عن أبي هريرة 164/2 وقال : صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبي . وأورده الألباني في الصحيحة حديث / 1022 - 20/3 وقال حديث حسن لغيره له شواهد تقويه - وفي إرواء الغليل حديث 1868 - 267/6 وفي صحيح سنن الترمذي حديث / 866 - 314/1 وصحيح سنن ابن ماجه حديث / 1601 - 333/1 .

فائدة مهمة : لاحظ الصلة بين هذا الحديث وبين قول المولى ﷺ : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴾ (1) : فالفساد الناتج عن ترك ترويح صاحب الدين والخلق : فساد أخلاقي ، واجتماعي ، داخلي ، والفساد الناتج عن موالة أعداء الله فساد سياسي ، خارجي ولكلا الفسادين ضرر بالغ على المجتمع المسلم .

وفي قوله تعالى : ﴿ أَتَسْكُنُ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ ﴾ .

المعنى : اسكن أنت ولتسكن معك زوجك ، وإنما لم يكرر الفعل ﴿ أَتَسْكُنُ ﴾ مرة أخرى حتى يكون الفعل مشتركاً بين الطرفين ، فالسكنى الحقة للرجل لا تتم إلا في وجود المرأة التي تحقق له السكون والسكينة والطمأنينة ؛ ومن هنا جمع القرآن بين آدم وزوجه بحرف العطف إشارة إلى التآلف والتعاطف والتلاحم والتراحم الذي يجمعهما ، فهو بمفرده لا يكون سكنه سكناً ، وهي بمفردها لا يكون سكنها سكناً ، وإنما يتحقق بهما ولهما معا السكن والسكنى والسكينة ، وهي لاحتياج إلى فعل مستقل بالسكن لأنها لا تستقل عن الرجل ولا تستغني عنه كما أنه لا يستقل ولا يستغني عنها قال تعالى : ﴿ هُنَّ لِيَاسٍ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِيَاسٍ لَهُنَّ ﴾ (2) .

واللباس وقاية وستر وزينة للإنسان وهو ضرورة من الضرورات وحاجة من الحاجات الأساسية التي لا يستغني عنها كذلك الزوج بالنسبة لزوجته والزوجة بالنسبة لزوجها ستر وعصمة وزينة ومتعة ومودة ورحمة .

- كما أنه لا يمكن تصور كلمة (زوج) بمفردها دون أن يتبادر إلى أذهاننا شقها الآخر ، « فالنساء شقائق الرجال » (3) .

(2) سورة البقرة : 187 .

(1) سورة الأنفال : 73 .

(3) الحديث : « النساء شقائق الرجال » من كلام المصطفى ﷺ كما ورد في الحديث الذي رواه الإمام الترمذي وأبو داود والدارمي في السنن ونصه كما ورد في الترمذي عن عائشة قالت : سئل رسول الله ﷺ عن الرجل يجد البلل ولا يذكر احتلاماً ؟ قال : « يغتسل » وعن الرجل يرى أنه قد احتلم ولم يجد بللاً ؟ قال : « لا غسل عليه » ، قالت أم سلمة : يا رسول الله هل على المرأة إذا رأت ذلك غسل ؟ قال : « نعم ؛ إن النساء شقائق الرجال رواه الترمذي في السنن أبواب الطهارة - باب ما جاء فيمن يستيقظ فيرى بللاً ولا يذكر احتلاماً حديث 113 - سنن الترمذي 189/1 ، 190 .

ورواه الإمام أبو داود في سننه عن عائشة كتاب الطهارة باب في الرجل يجد البلة في منامه وفي نصه « إنما النساء شقائق الرجال » - حديث 236 - سنن أبي داود 61/1 ورواه الدارمي في السنن عن أنس بن مالك وفيه =

- ولذلك كان التعبير بـ (زوج) بدلاً من الاسم الظاهر (حواء) لما توحىه كلمة زوج من دلالات بهية وإشارات سنية ومحام قدسية .

● وفي قوله تعالى : ﴿ فَقَلْنَا يَتَّعَدُمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ ﴾ (1) : دلالة على أن عداوة إبليس اللعين لهما سوياً ، ليست لأحدهما دون الآخر فعليهما أن يتعاونوا على التصدي لهذا اللعين .

وعلى الزوجة المؤمنة في كل زمان ومكان أن تكون عوناً لزوجها على طاعة الرحمن ، عليها أن ترضي زوجها وتأخذ بيده إلى ساحة الرضوان ، وعلى الزوج المسلم أن يكون كذلك .

وفي قوله تعالى : ﴿ يَأْتِيهَا النَّاسُ آتِفُوا رَبِّكُمْ أَلَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَجِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ﴾ (2) تقرير وإرساء للقاعدة التي خلق منها البشر ، وانطلاقاً من هذه القاعدة تأتي التشريعات الإسلامية الحكيمة التي تتوافق مع طبيعة البشر وتتلاءم مع ظروفهم وتتواكب مع شتى عصورهم وتقوي وشائج الصلة ، وتدعم أوامر الأخوة بينهم فالأصل واحد والوجهة واحدة والهدف واحد والمنهج واحد .

2 - عداوة الشيطان للإنسان

● وعداوة الشيطان للإنسان عداوة قديمة منذ أن خلق الله آدم عليه السلام ، وأمر الملائكة أن تسجد له سجود تكريم ، فامتنع الشيطان الرجيم عن السجود ، وأعلن التمرد والعصيان فكان جزاؤه الطرد والحرامان ، أخرج من الجنة وحقت عليه اللعنة ، وأصبح مذمومًا مدحورًا ، ملومًا محسورًا ، وطلب من المولى ﷺ أن ينظره فأنظره قال تعالى في سورة (ص) : ﴿ قَالَ فَأَخْرِجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ﴿٧٨﴾ قَالَ

= « قالت أم سلمة : وللنساء ماء يا رسول الله !؟ قال : « نعم ، فأين يشبههن الولد ؟ إنما هن شقائق الرجال » سنن الدارمي كتاب الطهارة . باب في المرأة ترى في منامها ما يرى الرجل حديث 764 - 214/1 ، 215 - والحديث بمجموع طرقه صحيح ، ولقد صححه الشيخ أحمد محمد شاكر رحمته الله في تعليقه على سنن الترمذي 189/1 : 192 و صححه الألباني وأورده في صحيح سنن الترمذي برقم 98 - 35/1 وفي صحيح سنن أبي داود برقم 234 وقال الإمام الخطابي في معالم السنن : ومعنى « النساء شقائق الرجال » أي مماثلات ومشابهات لهم في الخلق والطباع فكأنهن شققن من الرجال - معالم السنن للإمام الخطابي (أبي سليمان محمد بن محمد الخطابي ت 388 هـ 79/1 ط / المكتبة العلمية بيروت .

(2) سورة النساء : 1 .

(1) سورة طه : 117 .

رَبِّ فَأَنْظِرْ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٨﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴿٧٩﴾ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴿٨٠﴾
قَالَ فِعْرِيكَ لَا غَوْلَى لَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨١﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٨٢﴾ (1) .

● ولقد بدأ إبليس اللعين معركته بالوسوسة لآدم وحواء وإغرائهما حتى يأكلا من الشجرة التي نهيا عن الأكل منها واستخدم في معركته أسلحة كثيرة منها الإغراء والخداع والقسم ، وادعاء النصح وغير ذلك حتى خدعهما وأغراهما فأكلا من الشجرة المحظورة ، وأخرجا من الجنة .

هذا : ولا يزال إبليس ماضيا في وسوسته وإغرائه للبشر حتى تقوم الساعة ولقد حذرنا المولى ﷺ من إبليس اللعين وعداوته وسعيه الدائم الدائب إلى إغواء البشر وإضلالهم .

يقول المولى ﷺ : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ ﴿٥٦﴾ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُفْرٌ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿٥٧﴾ (2) .

ويقول الحق سبحانه : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ .. ﴿٣﴾ .

ويقول جل وعلا : ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَبْنَىٰ ءَادَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٦﴾ وَأَنْ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿١٧﴾ (4) .

وهذا خطاب تقرير وتوبيخ للكفرة من البشر، الذين لم يعتبروا من قصة أبيهم آدم عليه السلام الذي أخرج من الجنة بسبب معصية عصى فيها الله تعالى ، فما بال الكفرة وقد عبدوا الشيطان وسلكوا طريقه ، وتركوا عبادة الواحد القهار !! .

ويقول الحق ﷻ : ﴿ يَبْنَىٰ ءَادَمَ لَا يَفْنَىٰكُمْ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَا إِنَّهُ يَرْتِكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيْطَانَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾ .

يلاحظ الصلة بين هذه الآية وسابقتها : ﴿ يَبْنَىٰ ءَادَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ لِبَاسًا يُورَىٰ

(2) سورة فاطر : 5 ، 6 .

(1) سورة ص : 77 : 83 .

(4) سورة يس : 60 ، 61 .

(3) سورة النور : 21 .

(5) سورة الأعراف : 27 .

سَوَاءَ تَكُنَّ وَرِيثًا وَوَلِيًّا أَلْتَقَوِي ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَكَّرُونَ ﴿٢٠﴾ يَبْنِي
 آدَمَ لَا يَفْنِنَنَّكُمْ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا
 سَوَاءَ لِيَهُمَا إِنَّهُ يَرَكَكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيْطَانَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا
 يُؤْمِنُونَ ﴿٢١﴾ (1)

فاللباس نعمة من الله أنزله ليكون ستراً ووقاية للأبدان كما أن التقوى ستر للقلوب
 ووقاية للنفوس .

وصدق القائل :

إذا المرء لم يلبس ثياباً من التقى تقلب عُرياناً ولو كان كاسياً
 وخيرُ ثيابِ المرءِ طاعةُ ربه ولا خيرَ فيمن كان لله عاصياً

يقول الأستاذ سيد قطب في ختام كلامه عن قصة آدم وحواء التي وردت في مستهل
 سورة الأعراف : [... وأخيراً فإن القصة والتعقيبات عليها - كما سيجيء - تشير إلى
 مركز في طبع الإنسان وفطرته وهو الحياء من التعري وانكشاف السوءة . ﴿ فَوَسَّسَ
 لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْءَاتِهِمَا ﴾ (2) ﴿ فَذَلَّلَهُمَا يَتُّرُونَ فَلَمَّا ذَاقَا
 الشَّجَرَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ ﴾ (3) ﴿ يَبْنِي آدَمَ قَدْ
 أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ لِبَاسًا يُؤَدِّي سَوَاءَ تَكُنَّ وَرِيثًا وَوَلِيًّا أَلْتَقَوِي ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ
 لَعَلَّهُمْ يَذَكَّرُونَ ﴿٢٠﴾ يَبْنِي آدَمَ لَا يَفْنِنَنَّكُمْ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ
 عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوَاءَ لِيَهُمَا ﴾ (4) .

وكلها توحى بأهمية هذه المسألة ، وعمقها في الفطرة البشرية . فاللباس زينة للإنسان
 وستر لعوراتهِ الجسدية . كما أن التقوى لباس وستر لعوراتهِ النفسية ، والفطرة السليمة
 تنفر من انكشاف السوات الجسدية والنفسية ، وتحصر على سترها وموارتها .

والذين يحاولون تعرية الجسم من اللباس ، وتعرية النفس من التقوى ، ومن الحياء من
 الله ومن الناس ، والذين يطلقون ألسنتهم وأقلامهم وأجهزة التوجيه والإعلام كلها
 لتأصيل هذه المحاولة - في شتى الصور والأساليب الشيطانية الخبيثة - هم الذين يريدون
 سلب الإنسان خصائص فطرته وخصائص إنسانيته التي بها صار إنساناً . وهم الذين

(1) سورة الأعراف : 26 ، 27 .

(2) سورة الأعراف : 20 .

(4) سورة الأعراف : 26 ، 27 .

(3) سورة الأعراف : 22 .

يريدون إسلام الإنسان لعدوه الشيطان وما يريده به من نزع لباسه وكشف سواته . وهم الذين ينفذون المخططات الصهيونية الرهيبة لتدمير الإنسانية وإشاعة الانحلال فيها ؛ لتخضع ملكك صهيون بلا مقاومة وقد فقدت مقوماتها الإنسانية ! [(1)] .

نعم إن حلفاء الشيطان وخلفاءه - أعني اليهود - يعملون جاهدين على تنفيذ مخططاتهم الشيطانية من أجل إضعاف النفس البشرية بانحلالها وضلالها وخوضها في مستنقع الرذيلة منحرفة عن الفطرة السليمة ومنصرفه عن منهج الله وشرعته الحكيمة . حين ذلك يصبح الناس عموماً والمسلمون على وجه الخصوص فريسة يسهل السيطرة عليها والتحكم فيها .

يقول صاحب الظلال : [ومن هنا يستطيع المسلم أن يربط بين الحملة الضخمة الموجهة إلى حياء الناس وأخلاقهم ، والدعوة السافرة لهم إلى العري الجسدي باسم الزينة والحضارة والمودة ! وبين الخطة الصهيونية لتدمير إنسانيتهم والتعجيل بانحلالهم ، ليسهل تعييدهم لملك صهيون ! ثم يربط بين هذا كله وبين الخطة الموجهة للإجهاز على الجذور الباقية لهذا الدين في صورة عواطف غامضة في أعماق النفوس ، فحتى هذه توجه لها معاول السحق بتلك الحملة الفاجرة الداعرة إلى العري النفسي والبدني الذي يدعو إليه أقلام وأجهزة تعمل لشياطين اليهود في كل مكان ! والزينة الإنسانية هي زينة الستر ، بينما الزينة الحيوانية هي زينة العري ... ولكن الآدميين في هذا الزمان يرتدون إلى رجعية جاهلية تردهم إلى عالم البهيمية ، فلا يتذكرون نعمة الله بحفظ إنسانيتهم وصيانتها !!!] (2) .

(1) في ظلال القرآن 1275/3 بتصرف .

(2) المرجع السابق 1279/3 ويراجع ما ذكره في 1284/3 حيث وضع أن اليهود يقفون وراء كل ما يدعو إلى العري والانحلال كبيوت الأزياء ونوادي وشواطئ العراة ومحلات التجميل والأفلام والروايات الهابطة الماجنة والصور والمجلات العارية ومسابقات ملكات الجمال اللاتي يظهرن أمام الجماهير شبه عاريات وغير ذلك من الأساليب الشيطانية والوسائل التي تشيع الفواحش في المجتمعات ، وإضافة إلى أهدافهم الخسيسة التي أشرنا إليها ، فإنهم يستغلون ذلك في سبيل ملء خزائنهم بالأموال القذرة التي ينفقون منها على تحقيق أهدافهم الأخرى . وتحت الشعارات البراقة الزائفة التي يطلقها اليهود كالحرية والمساواة والإخاء وغير ذلك من الشعارات الكاذبة تحت هذه الشعارات تتحرك الأفى اليهودية لتحقيق أهدافها فبالحرية يمكن سب الأديان ومحاربتها ، وبالحرية تخرج المرأة مبتذلة سافرة عارية ، وبالإخاء يخدع البسطاء والعوام والجهلاء باليهود ويحبونهم ويوالونهم .

لمزيد بيان - يراجع بروتوكولات حكماء صهيون ترجمة محمد خليفة التونسي دار الكتاب العربي بيروت لبنان و يراجع كتاب الماسونية والمرأة تأليف جمعان بن عايش الزهراني - كتاب صادر عن رابطة العالم الإسلامي / =

● هذا ومما ينبغي أن ينبه عليه في هذا المقام أن للشيطان اللعين أساليب كثيرة ووسائل متنوعة وطرائق شتى في الإغواء والإضلال وله مع كل طائفة طريقة تتناسب معها ، وله قدرات فائقة على تلبيس الحق بالباطل وتلبيس الباطل بالحق ، فكم من بدعة حسنتها ، وكم من معصية هونتها ، وكم من فتنة زينتها ، وكم من طاعة صرف الناس عنها وثقلها ، وكم من توبة سوفها وأجلها ، حتى قال العلماء : احذروا (سوف) فإنها جند من جنود إبليس .

● والشيطان مسلط على الإنسان من ساعة الميلاد وحتى مفارقة الأرواح للأجساد .

وفي الحديث الصحيح يقول ﷺ : « ما منكم من أحد إلا وقد وُكِّلَ به قرينه من الجن » قالوا : وإياك يا رسول الله ؟ قال : « وإياي إلا أن الله أعانني عليه فأسلم ؛ فلا يأمرني إلا بخير » (1) وكما حذرنا القرآن من شياطين الجن فلقد حذرنا من شياطين الإنس الذين لا يقولون خطراً وضرراً عن شياطين الجن ، قال تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرَفَ الْقَوْلِ عُرُورًا وَأَلَوُ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرَهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١٧١﴾ وَلِنَصِّحِي إِلَيْهِ أَفَعِدَّةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرَضُوهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُّقْتَرِفُونَ ﴿١٧٢﴾ » (2) .

● إنه التواصل والتعاون بين شياطين الإنس والجن ، تعاون على الإثم والعدوان ، تعاون على الزور والبهتان ، تعاون على الفسوق والعصيان .

● وإنه أيضاً التوافق والترافق من أجل هدف واحد هو القضاء على الحق وأهله .

= السنة الثالثة عشرة عدد / 149 جمادى الأولى سنة 1415 هـ . ويراجع : واقعنا المعاصر للأستاذ / محمد قطب ط مؤسسة المدينة للصحافة جدة السعودية - ويراجع : المؤامرة على المرأة المسلمة د . السيد أحمد فرج دار الوفاء بالمنصورة - ويراجع : الماسونية بين الحقيقة والشعارات - تأليف الأستاذ / محمد زكي الدين ط دار السعودية للنشر والتوزيع جدة السعودية . ويراجع : خطر اليهودية العالمية على الإسلام والمسيحية - تأليف الأستاذ / عبد الله التل ط المكتب الإسلامي بيروت لبنان .

(1) رواه الإمام مسلم في صحيحه عن ابن مسعود رضي الله عنه / صفة القيامة والجنة والنار باب تحريش الشيطان وبعثه سرايا لفتنة الناس وأنه مع كل إنسان قرين . صحيح مسلم بشرح النووي 157/17 ورواه الإمام أحمد في مسنده بسند صحيح عن ابن عباس حديث 3648 - 5/235 ، 236 المسند بتحقيق الأستاذ المحدث أحمد

محمد شاكر ورواه الإمام أبو يعلى الموصلي في مسنده عن ابن مسعود حديث 5121 - 78/5 .

(2) سورة الأنعام : 112 ، 113 .

فعلينا جميعاً أن نحذر من إبليس اللعين ومن شياطين الإنس ونستعيز بالله تعالى منهم .
﴿ وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيْطَانِ ﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ ﴿ (1)

3 - أثر الذنوب ووجوب المبادرة إلى التوبة

● من الدروس المستفادة من قصة آدم وحواء : خطر المعصية وعاقبتها الوخيمة ،
فعلينا جميعاً أن نتجنب المعاصي وأن لا نستهين بها مهما كانت . وأن لا ننظر إلى
صغرها ولكن ننظر إلى عظمتها من نعتيه .

يقول ﷺ : « إياكم ومحقرات الذنوب ، كقوم نزلوا في بطن واد ، فجاء ذا بعود وجاء
ذا بعود حتى أنضجوا خبزتهم ، وإن محقرات الذنوب متى يؤخذ بها صاحبها تهلكه » (2) .

ويقول ﷺ : « إن العبد إذا أخطأ خطيئة نكتت في قلبه نكتة سوداء ، فإذا هو نزع
واستغفر وتاب سقل قلبه ، وإن عاد زيد فيها حتى تعلق قلبه وهو الران الذي ذكر الله
﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ (3) . (4)

(1) سورة المؤمنون : 97 ، 98 .

(2) رواه الإمام أحمد في مسنده من حديث سهل بن سعد - المسند 331/5 ط المكتب الإسلامي وأورده
الهيثمي في مجمع الزوائد وقال : رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح ، ورواه الطبراني في المعجم الثلاثة من
طريقين ورجال إحداهما رجال الصحيح غير عبد الوهاب بن عبد الحكم وهو ثقة [مجمع الزوائد 190/10]
والمعجم الكبير للطبراني 165/6 حديث 5872 ط دار البيان العربي والمعجم الأوسط 158/8 ط مكتبة المعارف
باليرياض وفي المعجم الصغير 49/2 ط دار الكتب العلمية بيروت .

ورواه البيهقي في شعب الإيمان حديث 7267 - 456/5 ط دار الكتب العلمية بيروت .
وأورده الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة برقم 389 - 673/1 وجاء في سنن ابن ماجه عن عائشة بلفظ :
« يا عائشة إياك ومحقرات الذنوب فإن لها من الله طالبا » سنن ابن ماجه - ك / الزهد باب ذكر الذنوب
حديث 4243 - 1417/2 وقال البوصيري في مصباح الزجاجة في زوائد ابن ماجه : إسناده صحيح ورجاله
ثقات . (3) سورة المطففين : 14 .

(4) رواه الترمذي في السنن عن أبي هريرة ؓ وقال : هذا حديث حسن صحيح سنن الترمذي ك / تفسير
القرآن باب تفسير سورة المطففين حديث 3334 - 404/5 ورواه ابن ماجه في السنن عنه ك / الزهد باب ذكر
الذنوب حديث 4244 - 1418/2 ورواه الحاكم في المستدرک وقال : صحيح على شرط مسلم ووافقه
الذهبي - 517/2 وأورده الألباني في صحيح سنن الترمذي برقم 2654 - 127/3 .

والنسائي (أحمد بن شعيب النسائي ت 303 هـ) في عمل اليوم والليلة عن أبي هريرة حديث 418 ص 317 ط
مؤسسة الرسالة بيروت .

فللذنوب وإن صغرت وحقرت أخطارها الجسيمة وأضرارها العظيمة على النفس والمجتمع ولقد كانت الذنوب سبباً في هلاك كثير من الأمم ، قال تعالى في سورة العنكبوت في سياق الحديث عن عقابه سبحانه لأهل الكفر والعصيان ﴿ فَكَلَّا أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِمْ فَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَنَاطِرًا مَّاءً غَافِقًا فَجَعَلْنَا لَهَا جَوَارِحَ مَكَّةَ عَلَوًا فَنَزَّلْنَا عَلَافًا كَالسَّهَابِ كَثِيفًا قَدِيمًا غَدَقْنَا بِهِ لِقَابَهُمْ أَنَّكَ يَسْأَلُونَ عَنِ الْغَدَقِ الْمَكِينِ وَقَدْ أَخَذْنَا مِنَ الذَّنُوبِ أَجْرًا كَثِيفًا وَفَعَلْنَا بِقَوْمِكَافِرِينَ لِيُظَاهِرَ مِن دُونِكُمْ لَوْلَا فَتْنَانَا عَلَيْهِمْ فَفَتَنَّا آلَ الْيَتِيمِ وَإِنَّ لِكُلِّ أَصْحَابٍ لَّدُنَّا عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ (1) .

وواجب العبد أن يبادر إلى التوبة النصوح قبل فوات الأوان قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رِزْقًا وَاسِعًا ﴾ (2) .

وقال سبحانه : ﴿ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهُ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (3) وقال تعالى عن توبة آدم عليه السلام : ﴿ فَلَقِيَ ءَادَمَ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَتٍ فَنَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّجِيمُ ﴾ (4) .

وقال سبحانه عن هذه الكلمات : ﴿ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّنَا لَعَفْوٌ رَبَّنَا ارْحَمْْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ (5) ، تاب آدم عليه السلام وتابت حواء عليها السلام فقبل الله توبتهما وتاب عليهما .

ومن هنا : فإنه يجب على العبد المذنب أن يبادر إلى التوبة ويسارع إليها قبل فوات الأوان يقول عليه السلام : ﴿ إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾ وَكَانَ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْكُفْرَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ (6) .

ويقول عليه السلام : « إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر » (7) .

(1) سورة العنكبوت : 40 .

(2) سورة النور : 31 .

(3) سورة البقرة : 37 .

(4) سورة الأعراف : 23 .

(5) سورة النساء : 17 ، 18 .

(7) الحديث رواه الترمذي في السنن عن عبد الله بن عمر وقال : حديث حسن غريب سنن الترمذي حديث 3537 ك التوبة - باب التوبة مفتوح بابها قبل الغرغرة 511/5 ورواه الحاكم في المستدرک عن ابن عمر وقال : صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبي 257/4 ، ورواه ابن ماجه في السنن عن ابن عمر ك / الزهد باب ذكر التوبة 4252 - 1420/2 ورواه الإمام أحمد في مسنده عن ابن عمر - الفتح الرباني في ترتيب مسند الإمام أحمد بن حنبل الشيباني للشيخ أحمد عبد الرحمن الساعاتي ك التوبة باب الوقت الذي تقبل فيه التوبة 339/19 - =

ويقول صلوات الله وسلامه عليه : « لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها فإذا رآها الناس آمنوا وذلك حين ﴿ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَو تَكُنَّ ءَامَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا ﴾ » (1) .

وفي الحديث الشريف أيضا يقول ﷺ : « من تاب قبل أن تطلع الشمس من مغربها تاب الله عليه » (2) .

ويقول ﷺ : « إن الله تعالى ييسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار وييسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل حتى تطلع الشمس من مغربها » (3) .

ويشترط في التوبة الندم على الفعل والإقلاع عنه ورد المظالم إلى أهلها والاستغفار والإقبال على العمل الصالح والاجتهاد في تحصيله ، يقول تعالى في سورة الفرقان في سياق الحديث عن صفات عباد الرحمن : ﴿ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٧٦﴾ يُضْعَفُ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدُ فِيهِ مُهَانًا ﴿٧٧﴾ إِلَّا مَنْ تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٧٨﴾ وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا ﴾ (4) .

ومما سبق يتضح لنا : أن للذنوب وإن صغرت وحقرت آثارها الجسيمة وأخطارها الوخيمة على النفس والمجتمع (5) ، والواجب على كل مذنب أن يبادر إلى التوبة النصوح

= ورجاله ثقات غير عبد الرحمن بن ثابت فهو صدوق يخطئ فحديثه حسن .

وأورده الألباني في صحيح سنن ابن ماجه - 3430 - 418/2 وقال : حديث حسن .

وقوله ﷺ : « ما لم يفرغ » معناه ما لم تبلغ روحه الخلقوم فتكون بمنزلة الشيء الذي يفرغ به المريض وهو جعل الشراب في الفم ثم ترديده إلى أصل الخلقوم فلا يتلعه .

(1) رواه الإمام البخاري في صحيحه بسنده عن أبي هريرة كتاب التفسير باب (لا ينفع نفسا إيمانها) حديث 4636 [فتح الباري 147/8] .

(2) رواه مسلم في صحيحه بسنده عن أبي هريرة ك / الذكر والدعاء والتوبة - باب التوبة [صحيح مسلم بشرح النووي 25/17] .

(3) رواه الإمام مسلم في صحيحه ك / الذكر والدعاء والتوبة - باب قبول التوبة من الذنوب وإن تكررت [صحيح مسلم بشرح النووي 76/17] .

(4) سورة الفرقان : 68 - 71 .

(5) ويحضرني في هذا المقام قول الشاعر محمود الوراق :

= يا غافلا ترنو بعيني راقدا ومشاهدا للأمر غير مشاهد =

قبل فوات الأوان .

وصفوة القول فيما سبق :

أن في قصة آيينا آدم وأمنا حواء عَلَيْهِمَا السَّلَامُ كثيرا من العبر والعظات التي ينبغي لنا أن نتأملها ونستفيد منها .

ومن هذه العبر : خطر الذنوب وآثارها الوخيمة ، ووجوب المبادرة إلى التوبة والعمل الصالح قبل فوات الأوان ، والتحذير من مكائد الشيطان فهو عدو للبشرية جمعاء ، وهو الذي كان سببا في خروج أبويننا من الجنة ؛ بوساوسه وإغوائه ، وكما أخرج أبويننا من الجنة فإنه يسعى بكل ما يملك من وسائل خبيثة وخسيسة وأساليب ماكرة غادرة إلى إغوائنا وإضلالنا وحرماننا من دخول الجنة ، ويحضرني في هذا المقام قول الشاعر الحكيم :

فحيّ على جناتٍ عدنٍ فإنّها	منازلنا الأولى وفيها الخيم
ولكننا سبيّ العدوّ فهل تُرى	نعود إلى أوطاننا ونَسَلَمُ ؟
وقد زعموا أن الغريب إذا نأى	وشطّط به أوطأته فهو مغرّم
وأئيّ اغترابٍ فوقَ غربتنا التي	لها أضحت الأعداءُ فينا تحكّم !!

درك الجنان بها وفوز العابد
منها إلى الدنيا بذنّب واحد .
الأبيات في العقد الفريد لابن عبد ربه 179/3 ط لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة .

تصل الذنوب إلى الذنوب وترتجي =
ونسيت أن الله أخرج آدم
وقول شاعر آخر :

إن الصغير غدا يصيرُ كبيرا
عند الإله مسطّرا تسطيّرا
وقد يورث الذلّ إدمائها
وخيرٌ لنفسيك عصيائها

لا تحقرن من الذنوبِ صغيرا
إن الصغيرَ وإن تقادمَ عهده
ومن الشعر الحكيم أيضا :
رأيت الذنوبَ تميثُ القلوبَ
وتركُ الذنوبَ حياةَ القلوبَ

المبحث التاسع

نظرات في العهدين القديم والجديد : فيما ورد في شأن آدم وحواء

● المتأمل في نصوص العهدين القديم (1) والجديد (2) فيما ورد في شأن آدم وحواء

(1) يشتمل العهد القديم على 39 سفرًا مقسمة على أربعة أقسام هي :

أ - القسم الأول ويشتمل على أسفار موسى الخمسة وهي :

- سفر التكوين (الخليقة) ، سفر الخروج ، سفر اللاويين ، سفر العدد ، سفر التثنية .

ب - القسم الثاني ويشتمل على الأسفار التاريخية : وهي اثنا عشر سفرًا ، سفر يوشع ، والقضاة وراعوث وصموئيل الأول وصموئيل الثاني والملوك الأول والملوك الثاني وأخبار الأيام الأول وأخبار الأيام الثاني وعزرا ونحميا وأستير .

ج - القسم الثالث وهو أسفار الأنشيد أو الأسفار الشعرية ويشتمل على حكم ومواعظ وأمثال وهي :

سفر أيوب ، ومزامير داود ، وسفر الأمثال ، والجامعة ، ونشيد الأنشاد ، والثلاثة الأخيرة لسليمان .

د - القسم الرابع : ويشتمل على أسفار الأنبياء وهي : سبعة عشر سفرًا : سفر أشعيا ، ومرثي ، وأرميا ، وحزقيال ، ودانيال ، وهوشع ، ويوثيل ، وعاموس ، وعوبديا ، ويونس ، وميني ، وناحوم ، وحبقوق ، وصفنيا ، وحجي ، وزكريا ، وملاخي .

يراجع : سلسلة مقارنة الأديان / الجزء الأول / اليهودية - تأليف د . أحمد شلبي ص 234 : 236 .

ط النهضة المصرية ط 4 سنة 1974 م .

ويراجع الأسفار المقدسة للأستاذ الدكتور علي عبد الواحد وافي ص 12 : 66 ط دار المعارف .

والعقيدة اليهودية وخطرها على الإنسانية د . سعد الدين صالح ط دار الهدى مصر سنة 1404 هـ سنة 1984 .

ويراجع دراسات في التوراة للشيخ عطية إبراهيم الشوافي مدير عام الوعظ بالأزهر - سابقًا - ص 65 : 67 ط المؤتمر العاشر لمجمع البحوث الإسلامية سنة 1406 هـ سنة 1985 م .

ودراسات حول أسفار موسى الخمس للقمص صليب سوريال ص 14 : 16 ط مكتبة التربية الكنسية الأرثوذكسية بالجيزة ط 1 سنة 1987 م .

(2) العهد الجديد وهو مجموعة الأناجيل والرسائل والرؤى التي يؤمن بها النصارى فضلًا عن إيمانهم بأسفار العهد القديم التي ذكرناها وينقسم العهد الجديد إلى سبعة وعشرين سفرًا هي كما يلي :

- الأناجيل الأربعة :

أ - الإنجيل كما دونه متى .

ب - الإنجيل كما دونه مرقس .

د - الإنجيل كما دونه يوحنا .

ج - الإنجيل كما دونه لوقا .

- أعمال الرسل ، ورسائل بولس إلى أهل رومية وإلى كورنثوس الأولى والثانية وإلى أهل غلاطية وإلى أهل

أفسس وإلى فيلبي وكولوسي والرسالة الأولى إلى أهل تسالونيكي والثانية إليهم ، والأولى والثانية إلى

تيموثاوس ، ورسالة إلى تيطس ، وإلى فيليمون ، وإلى العبرانيين ، ورسالة يعقوب ورسالة بطرس الأولى والثانية =

﴿التيسار﴾ : يجد في تلك النصوص الكثير من التناقضات والأباطيل والخرافات التي تدل دلالة قاطعة على وقوع التحريف والتبديل في التوراة والإنجيل .

وفيما يلي نشير إلى بعض من ذلك :

1 - ورد في العهد القديم في سفر التكوين : نهى الله آدم وحواء عن الأكل من ثمر الشجرة .

[وقال لهما : لا تأكلا منه ولا تمساه لئلا تموتا] سفر التكوين إصحاح 3 فقرة 3 ، 4 ولنا هنا أن نتساءل ونقول : لقد أكل آدم عليه السلام وزوجه حواء من الشجرة فلم يموتا فهل كذب الرب عليهما ؟ .

والجواب : إن الحق والصواب فيما جاء به القرآن الكريم قال تعالى : ﴿ وَقُلْنَا يَتَّادَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ ⁽¹⁾ أي من الظالمين ؛ بسبب وقوعكما في المعصية فالمعصية ظلم ، والظلم وضع الشيء في غير موضعه ، وما ورد في سفر التكوين كذب وافتراء على الله تعالى .

2 - وفي حين يصرح القرآن الكريم بأن الذي أغوى آدم عليه السلام وزوجه حواء ودعاهما إلى الأكل من الشجرة هو إبليس اللعين نرى في العهد القديم والجديد تناقضاً واضطراباً في تحديد من الذي أغوى وأغرى آدم وحواء .

● ففي سفر التكوين : أن الحية هي التي أغوتها : [وكانت الحية أحيل جميع حيوانات البرية التي عملها الرب الإله فقالت للمرأة : أحقاً قال الله لا تأكلا من كل شجر الجنة فقالت المرأة للحية : من ثمر شجر الجنة تأكل . وأما ثمر الشجرة التي في وسط الجنة فقال الله : لا تأكلا منه ولا تمساه لئلا تموتا ، فقالت الحية للمرأة : لن تموتا بل الله عالم أنه يوم تأكلان منه تتفتح أعينكما وتكونان كالله عارفين الخير والشر] تكوين إصحاح 3 فقرات 1 : 6 .

● وفي العهد الجديد - رسائل بولس الثانية إلى أهل كورنثوس [... ولكنني أخاف

= رسالة يوحنا الأولى والثانية والثالثة ورسالة يهوذا ورؤيا يوحنا اللاهوتي . يراجع مقارنة الأديان الجزء الثاني / المسيحية د . أحمد شليبي 203/2 : 215 ط النهضة ويراجع - الإنجيل كتاب الحياة المقدمة ص 5 ط سنة 1983 دار الثقافة بالقاهرة ويراجع الأسفار المقدسة د . علي عبد الواحد وافي ص 75 .

أنه كما خدعت الحية حواء بمكرها هكذا تفسد أذهانكم عن البساطة التي في المسيح [رسائل بولس / 2 إلى كورنثوس إصحاح 11 فقرة 3 .

لاحظ أن الحية أغوت حواء ، فمن الذي أغوى آدم وجعله يأكل كما أكلت حواء ؟
أهي الحية أم حواء ؟ أم هما معا ؟ .

● وفي رؤيا يوحنا اللاهوتي [فطرح التنين العظيم الحية القديمة المدعو إبليس والشيطان الذي يضل العالم كله] رؤيا يوحنا اللاهوتي إصحاح 12 فقرة 9 .

وفي هذا النص ما يدل على أن الحية هي إبليس كما ورد في قاموس الكتاب المقدس في معنى كلمة إبليس : [وهو الحية القديمة التي أوقعت حواء في التجربة] ⁽¹⁾ بينما نقرأ في موضع آخر من هذا القاموس [وربما لم تتبصر حواء شيئاً أكثر من حية لكن الشيطان كان في هذه الحية ، كما كانت الأرواح النجسة فيما بعد في الناس وفي الخنازير تقودها وتعيها دهاء خارقاً وتستخدمها كوسيلة بها تقترب إلى ما تريد] ⁽²⁾ .

وفي معجم الإيمان المسيحي في بيان كلمة - حية - [اتخذ إبليس شكل الحية وهي أحيل الحيوانات ؛ ليجرب آدم وحواء فلعن الله الحية وجعل عداوة بينها وبين الجنس البشري] ⁽³⁾ .

● ويلاحظ مما سبق وقوع التناقض بين النصوص ، وتناقض علماء اللاهوت في تفسيرها ففي سفر التكوين تصريح بأن الحية هي التي أغوت حواء وكان عقاب الحية قطع أطرافها حتى صارت بعد ذلك تزحف على بطنها عقاباً لها ، بالإضافة إلى لعنها وأكلها من التراب طوال أيام حياتها ، بالإضافة إلى العداوة بين الحية وبين حواء ونسلها من بعدها .

وفي العهد الجديد يقول بولس : إن الحية خدعت حواء بمكرها ، وأما في سفر رؤيا يوحنا اللاهوتي وهو جزء من العهد الجديد الذي يعتبره النصارى كلام الله فإنه يصرح بأن الحية القديمة هي إبليس ، وتارة أخرى يقول إن الشيطان كان متلبساً بالحية ، وعلى

(1) قاموس الكتاب المقدس تأليف نخبة من علماء اللاهوت ص 15 ط دار الثقافة ط 9 سنة 1994 م .

(2) المرجع السابق ص 332 : 333 .

(3) معجم الإيمان المسيحي تأليف القس صبحي حموي يسوعي - كلمة حية ط دار المشرق بيروت ط 1 سنة 1994 م ويراجع تفسير الكتاب المقدس للأرشمند ياكوب ص 93 ط مدارس الأحد بروض الفرج بالقاهرة .

هذا فإن الحية لما دخلت الجنة دخل معها إبليس الذي كان متلبسًا بها .

- كما كانت الأرواح النجسة تتلبس في الناس وفي الخنازير .

ويقول الأرشيد ياكوب نجيب جرجس - أحد شراح العهد القديم : [والأصح أنه - يعني إبليس - دخل الحية وتكلم بلسانها] (1) .

ونقرأ في معجم الإيمان المسيحي : أن إبليس تشكل بصورة الحية ؟

● وفي هذا تناقض يبيِّن واختلاف كبير فهل الحية المذكورة هي إبليس ؟ أم أن إبليس

جاء متلبسًا في الحية أي دخل فيها وتكلم بلسانها ؟ أم أنه تشكل بصورة حية ؟

أقول : إن هذا التناقض المريب ، والاختلاف العجيب يدل على ما في العهدين من تحريف وتبديل ، وهذا التناقض والاضطراب مرجعه إلى الأساطير القديمة التي اعتمد عليها كتاب العهد القديم . وفي هذه الأساطير التي نقلها لنا المؤرخون وعلماء الآثار نجد الصلة الواضحة الوثيقة والعلاقة العميقة بين العهد القديم والجديد وبين أساطير العالم القديم .

ففي الأساطير الهندية القديمة : ورد ذكر الحية وأنها كانت تناصب آدم وحواء العداء (2) .

وعند الفراعنة : كان (ست) عندهم - في زعمهم - إله الشر الذي كان يمثل دور الشيطان ودور الحية في نفس الوقت وكان سببا للشرور والأخطار (3) .

وعند السومرية والبابلية : أن الحية هي الشيطان (4) .

وفي هذا التشابه الواضح بين الأساطير القديمة وبين العهد القديم والجديد ما يدل على

تحريفهما وتزييفهما .

3 - وفي الإصحاح الثالث من سفر التكوين [فقالت المرأة للحية : من ثمر الجنة

(1) تفسير الكتاب المقدس للأرشيد ياكوب ص 93 .

(2) يراجع : الفولكلور في العهد القديم تأليف جيمس فريزر ترجمة د . نبيلة إبراهيم 83/1 ط دار المعارف ط 2 .

(3) يراجع علم الفولكلور تأليف د . محمد الجوهري 374/2 ط دار المعارف سنة 1980 م ويراجع ديانة مصر القديمة نشأتها وتطورها تأليف أدولف أورمان ترجمة عبد المنعم أبو بكر ص 56 ط الهيئة المصرية العامة

للكتاب . ويراجع كتاب - إبليس - لعباس محمود العقاد ص 48 ط نهضة مصر بدون تاريخ .

(4) العرب واليهود في التاريخ تأليف أحمد سوسة ص 196 ط دار العربي بسوريا بدون تاريخ .

نأكل وأما ثمر الشجرة التي في وسط الجنة فقال الله : لا تأكلا منها لئلا تموتا ، فقالت الحية للمرأة : لن تموتا ، بل الله عالم أنكما يوم تأكلان منها تفتتح أعينكما وتكونان كالله عارفين بالخير والشر [(1)] .

ويفهم من هذا أن الحية تكذب الله وتقول لحواء وزوجها آدم : (لن تموتا) وتبين لهما أن تحريم الشجرة لأنها شجرة المعرفة ولو أكلا منها لكانا كالرب في معرفة الخير والشر .

● والغريب أن القمص صليب سوريال في كتابه دراسات حول أسفار موسى الخمسة يقول عن كلام الحية : [كان الكلام في حد ذاته حقيقة لأنها كانت شجرة معرفة الخير والشر ولكنها حقيقة في ثوب الإغراء في أن يخالفا الله الذي أوصاهما أن لا يأكلا منها وهذه هي الخطية وهكذا كثيرا ما نسقط نحن نتيجة وساوس المحتال التي يلبسها ثوب الحقيقة] (2) .

فالقمص يعترف ويقر بصدق الحية وكذب الرب على آدم وحواء ؟ .

4 - وفي الإصحاح الثالث [فرأت المرأة أن الشجرة جيدة للأكل وأنها بهجة للعيون وشهية للنظر ، فأخذت من ثمرها وأكلت وأعطت زوجها أيضًا معها فأكل] تكوين إصحاح 3 فقرة 7 .

والقرآن الكريم يبين لنا أنهما أكلا منها شيئًا يسيرًا بمقدار ما يتذوق الإنسان ﴿ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ ﴾ (3) .

5 - وفي الإصحاح الثالث أيضًا (فخاطا أوراق تين وصنعا لأنفسهما مآزر) . تكوين إصحاح 3 فقرة 8 .

أقول : وهل ورق التين يصلح أن يخيط الإنسان منه معزرا وهو ورق صغير ؟ .

6 - وفي نفس الإصحاح يمشي الرب في الجنة فيسمع آدم وحواء صوت الرب فيختبان منه ويسأله الرب : أين أنت ، .. هل أكلت من الشجرة ؟ تكوين إصحاح 3 فقرات 8 : 12 .

(1) تكوين إصحاح 3 فقرة : 5 .

(2) دراسات في أسفار موسى الخمسة للقمص صليب سوريال ص 30 ط مكتبة التربية الكنسية الأرثوذكسية

(3) سورة الأعراف : 22 .

ط سنة 1987 م .

وهذا الكلام كذب وافتراء عظيم ، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً : فالله تعالى ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ (1) .

● وفي إصحاح 3 فقرة 22 [وقال الرب الإله : هو ذا الإنسان قد صار كواحد منا عارفاً للخير والشر ، والآن لعله يمد يده ويأخذ من شجرة الحياة أيضاً ويأكل فيحيا إلى الأبد ، فأخرجه من الجنة وطرده إلى الأرض ليعمل فيها وأقام حراسة على شجرة الخلد من - لهيب سيف متقلب] ويفهم من هذه الفقرات أن آدم طرد من الجنة وأهبط إلى الأرض حتى لا تمتد يده إلى شجرة الخلد فيكتب له الخلود ، وآدم كالإله يعرف الخير والشر وشجرة الخلد تقام عليها حراسة من نار حتى لا يصل إليها أحد .

أقول : ياله من تحريف وتبديل وكذب وافتراء على الله ﷻ الذي قدر لآدم ~~الخلد~~ أن يهبط إلى الأرض قبل أن يخلقه وأعلم ملائكته بأن مكان آدم ~~الخلد~~ هو الأرض ليكون خليفة فيها قال تعالى : ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَأِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (2) .

● وهكذا يوصف الرب في العهد القديم بالكذب وبالجهل وبأنه جسم يمشي كما يمشي الإنسان وبأنه يخاف من يد آدم التي امتدت إلى شجرة المعرفة فصار كالرب عارفاً بالخير والشر ، فخاف منه الرب أن تمتد يده إلى شجرة الخلد فيخلد ؛ فطرده من الجنة وجعل حراسة مشددة محكمة على شجرة الخلد .

﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ (3) .

و ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عَلَواً كَبِيراً﴾ (4) .

● وفي العهد القديم نرى آدم يلقي المسؤولية على حواء التي أغوته وأغرته في حين لم يرد ذكر للتوبة ، وفي العهد القديم أيضاً : أن الله عاقب الحية عقاباً قاسياً ، بإسقاط أرجلها ، وبلعنها . تكوين / إصحاح 3 فقرة 12 : 16 .

والحقيقة إن إبليس هو الذي وسوس أما الحية فلا وجود لها في القصة وإنما ورد ذكرها في العهد القديم ، كما ورد في أساطير العالم القديم ، والحية خلقها الله يوم خلقها على هيأتها وصورتها الحالية باختلاف أنواعها :

(2) سورة البقرة : 30 .

(1) سورة الشورى : 11 .

(4) سورة الإسراء : 43 .

(3) سورة الصافات : 180 .

قال تعالى في سورة النور: ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (1).

أما عن حواء فإنها تعاقب عقابًا قاسيًا أليماً بتكثير آلام الحمل ومتاعب الولادة .

أقول : وهل ترث البنات عقوبة الأمهات هل هذا من العدل ؟ .

وهل متاعب الحمل وآلام الوضع عقوبة إلهية أم سنة كونية وابتلاء من الله ﷻ للمرأة ؟ فإن صبرت على هذه الآلام فلها أجر صبرها ، وإن ماتت بسبب حملها أو وضعها فلها أجر الشهداء عند الله ﷻ ، روى الإمام أحمد في مسنده عن عبادة بن الصامت ﷺ قال : دخلنا على عبد الله بن رواحة نعوذ فأنعمي عليه فقلنا : رحمك الله إن كنا لنحب أن تموت على غير هذا ، وإن كنا لنرجوا لك الشهادة فدخل النبي ﷺ ونحن نذكر هذا فقال : « وفيم تعدُّون الشهادة فيكم ؟ » فأرْم القوم ، وتحرك عبد الله فقال : ألا تجيبون رسول الله ﷺ ؟ ثم أجابه هو فقال : نعدُّ الشهادة في القتل ، فقال ﷺ : « إن شهداء أمتي إذا لقليل ، إن في القتل شهادة ، وفي الطاعون شهادة ، وفي البطن شهادة ، وفي الغرق شهادة ، وفي النفساء يقتلها ولدها جمعًا شهادة » (2) .

(1) سورة النور : 45 .

(2) رواه الإمام أحمد في مسنده عن عبادة بن الصامت [الفتح الرباني في ترتيب مسند الإمام أحمد بن حنبل الشيباني للشيخ أحمد عبد الرحمن الساعاتي ﷺ - ك / الجهاد باب الطاعون والغرق والنفساء شهادة 37/14 ، 38 ط دار الشهاب . ورواه الطبراني في الأوسط عن عبادة بن الصامت [المعجم الأوسط الطبراني (حديث 9310 - 146/10) ط / مكتبة الترية العربية بالرياض . ورواه البزار في مسنده عن عبادة بن الصامت [كشف الأستار عن زوائد البزار للهيتمي حديث 1717 - 285/2 ط مؤسسة الرسالة] .

وأورده الهيتمي في مجمع الزوائد وقال : رواه البزار والطبراني وفيه المغيرة بن زياد وثقه جماعة وضعفه آخرون وبقية رجاله ثقات مجمع الزوائد 299/5 .

ورواه البيهقي في شعب الإيمان عن عبادة / باب 70 وهو باب في الصبر على المصائب وعمّا تنزع إليه النفس من لذة وشهوة - فصل في ذكر ما في الوجاع والأمراض حديث 9879 - 169/7 . وقال المنذري في الترغيب والترهيب رواه أحمد والطبراني ورواهما ثقات وأرم القوم أي سكتوا ، ويقتلها ولدها جمعًا ، أي ماتت وولدها في بطنها [الترغيب والترهيب للحافظ زكي الدين عبد العظيم بن عبد القوي المنذري ت 656 هـ ك الجهاد فصل في فضل الشهداء 201/1 ط دار الحديث .

ورواه الحارث بن محمد بن أبي أسامة في مسنده عن عبادة بن الصامت ورجاله ثقات . يراجع بغية الباحث عن زوائد مسند الحارث للحافظ الهيتمي ك الجهاد باب جامع في من هو الشهيد حديث 635 - 659/2 تحقيق ودراسة د . حسين احمد صالح الباكري ط مركز خدمة السنة والسيرة النبوية بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة .

● إن الحمل والوضع ليس عقوبة متوارثة وليس عارًا للمرأة وإنما هو دور من أعظم أدوار المرأة والقرآن الكريم حين يوصي الإنسان بأمه يذكره بهذه الأدوار التي مرت بها وكابدت فيها المتاعب وعانيت الأخطار والمصاعب حتى خرج إلى الحياة .

قال تعالى : ﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهَنَا عَلَى وَهْنٍ وَفَصَلَّهُ فِي عَمَامِينَ أَنْ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَى الْمَصِيرِ ﴾ (1) وقال ﷺ : ﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كَرْهًا وَوَضَعَتْهُ كَرْهًا وَحَمَلُهُ وَفَصَلُّهُ تَلْثُونَ شَهْرًا ﴾ (2) .

ويحضرني في هذا المقام تلك المنازعة والمخاصمة بين أبي الأسود الدؤلي (3) ومطلقة على حضانة ولدهما ، الأم المطلقة تقول للقاضي : أيها القاضي لقد حملته ووضعت وأرضعته ، كان بطني له وعاء وصدري له سقاء وحجري له وطاء ، وأبو الأسود الدؤلي يرد على كلام مطلقة فيقول : أيها القاضي إن كانت قد حملته في بطنها فقد حملته في ظهري ، وإن كانت قد وضعت فقد وضعت نطفة قبل أن تضعه ، فقالت المرأة : إن كان قد حملة خفة فقد حملة ثقلاً ، وإن كان قد وضعه شهوة فقد وضعه كرهاً ، فأعجب القاضي بردها البليغ وجوابها المفحج وحكم لها بحضانة الولد (4) .

هذا : وفي السنة أحاديث كثيرة في فضل بر الأم ، منها ما رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قيل : يا رسول الله من أحق الناس بحسن صحابتي ؟ قال : « أمك » قيل ثم من ؟ قال : « أمك » قيل : ثم من ؟ قال : « أمك » قال : ثم من ؟ قال : « أبوك » (5) .
فلألم مكانتها في الإسلام ، وبرها والإحسان إليها فرض على كل مسلم .

(2) سورة الأحقاف : 15 .

(1) سورة لقمان : 14 .

(3) أبو الأسود الدؤلي : ظالم بن عمرو بن سفيان ، عالم بالنحو والقراءات ، وله ترجمة في كثير من كتب الأعلام وتوفي في طاعون بالبصرة سنة 69 هـ وله شعر جيد وطرائف كثيرة في كتب الأدب تراجع ترجمته في تاريخ العلماء النحويين لأبي المحاسن التنوخي المعري ت 442 هـ ص 164 وطبقات فحول الشعراء لابن سلام 12/1 تحقيق الأستاذ محمود محمد شاكر ط / المدني بمصر سنة 1394 هـ .

والفهرست لابن النديم ص 59 ومعجم الأدباء لياقوت الحموي 34/12 ووفيات الأعيان 535/2 وشذرات الذهب 76/1 .

(4) عيون الأخبار لأبي محمد عبد الله بن سليم بن قتيبة الدينوري ت 276 هـ 122/4 ط المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر .

(5) رواه البخاري في صحيحه كالأدب باب من أحق الناس بحسن الصحبة حديث 5971 فتح الباري 415/10 ورواه مسلم في صحيحه ك البر والصلة والآداب حديث 2548 صحيح مسلم بشرح النووي 102/16 .

● أما ما ورد في العهد القديم من أن متاعب ومخاطر الحمل والولادة عقوبة إلهية متوارثة بسبب حواء فهذا يخالف العقل والمنطق ؛ إذ كيف تعاقب البنت بسبب ما فعلته الأم ؟ كما أن حواء تابت إلى الله كما تاب آدم ﷺ قال تعالى : ﴿ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِن لَّآ تَغْفِرَ لَنَا وَتَرْحَمَنَا لَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ (1) .

● وليس في العهد القديم ولا الجديد أي إشارة إلى توبة آدم وحواء ﷺ ، وفي هذا ما يدل على وقوع التحريف والتزييف فيهما (2) .

(1) سورة الأعراف : 23 .

(2) والنصارى يدعون أن الخطيئة ظلت متوارثة جيلا بعد جيل حتى جاء (المسيح) (فصلب فكان صلبه تكفيرا لتلك الخطيئة التي توارثتها الأجيال من آدم وحواء ﷺ) ، يقول القس إلياس مكار : [وغير خاف أن الأبوين لم يصبحا خاطئين فحسب بل مورثين للخطيئة لجميع أبنائهما على وجه التعاقب والاستمرار .. ومن ثم فمن العبث أن يقال : إن خطيئة آدم لم تنحدر إلينا] . القضايا المسيحية الكبرى . تأليف إلياس مكار ص 373 ط دار الثقافة بمصر ط 3 سنة 1981 .

ويقول القس لبيب ميخائيل : [لقد كان آدم نائبا وممثلا لجميع الجنس البشري الذي كان في صلبه يوم تعدى على وصية الله ، وبعد طرده من الجنة ولد نسل ساقط نظيره في حالة الفساد الروحي والأدبي ... وقد ورث هذا النسل عن أبويه الأولين حياة العداوة لله والتمرد على شرائعه ووصاياه] . قضية الصلب لبيب ميخائيل ص 51 نقلاً عن : الكنيسة أسرارها وطقوسها دراسة مقارنة للباحث عادل محمد محمد درويش ص 224 - رسالة العالمية الدكتوراة بقسم الدعوة بكلية أصول الدين القاهرة سنة 1414 هـ سنة 1994 م ويقول القس وديع ميخائيل : [كان لا بد أن يتدخل الله بنفسه لكي يحل مشكلة عدالته ورحمته وما كان في الاستطاعة أبداً . إيجاد حل لهذه المعضلة إلا عن طريق الله ؛ خاصة وأن العالم كله بدخول الخطيئة إليه بلا استثناء تحت قصاص من الله] . يراجع براهين ألوهية المسيح ص 112 القس وديع ميخائيل ط 4 سنة 1984 م نقلاً عن الأسرار الكنسية ص 225 ويقول إبراهيم لوقا : [لم يجد له من يكفر هذه الخطيئة ، فلم يكن بد من أن يتخذ الله جسداً فيه يتحد اللاهوت والناسوت وهذا ما تم في المسيح باعتباره الله ظهر في الجسد ، ففي المسيح : كمال مطلبي العدل والرحمة] المسيحية في الإسلام إبراهيم لوقا - المطبعة التجارية الحديثة ط 3 سنة 1985 م أقول : الحق والصواب أن آدم وحواء تابا فتاب الله عليهما وعفا عنهما ، كما أخبرنا القرآن الكريم قال تعالى : ﴿ فَلَقَىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ سورة البقرة : 37 وقال سبحانه : ﴿ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ ۖ ثُمَّ اجْنَبْنَاهُ رِيثُ فَنَابَ عَلَيْهِ وَهَدَيْنَاهُ ۖ وَسُورَةُ طه : 121 : 122 وقال سبحانه عن توبة آدم وحواء معا : ﴿ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِن لَّآ تَغْفِرَ لَنَا وَتَرْحَمَنَا لَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ سورة الأعراف : 23 . وأقول أيضاً : وهل من المعقول والمقبول أن يتحمل الأبناء خطيئة الآباء ؟ وهل هذا من مقتضيات العدالة ؟ وماذنب الأبناء فيما ارتكبه الآباء ؟ وهل يعني هذا أن جميع الأنبياء من آدم ﷺ وحتى عيسى ﷺ حاملون للخطيئة ؟ وإذا كانت الخطيئة متوارثة فما هي فائدة إرسال الرسل ؟ وإذا كان المسيح - على زعم النصارى - قد صلب من أجل خطيئة واحدة وهي خطيئة الأكل من الشجرة ، فمن الفداء للملايين الخطايا التي يقع فيها =

ومما سبق يتضح لنا ما يلي :

1 - اجترأ اليهود والنصارى على الذات الإلهية حيث ورد في العهد القديم افتراءات وأباطيل لاتليق بالذات الإلهية منها تشبيه الله بخلقه ووصفه بعدم العلم ، وجعل آدم عليه السلام بحقيقة الذات الإلهية حيث اختبأ من الله حتى لا يراه وكذب على الله ، وكذب الله على آدم وحواء في حين كانت الحية صادقة معهما .

● وهذا الكلام افتراء على الله تعالى والله تعالى منزه عن جميع صفات النقص التي لا تليق بذاته المقدسة وهو سبحانه متصف بجميع صفات الكمال والجلال ، ومنها العلم المطلق والإحاطة الكاملة والمخالفة للحوادث قال تعالى : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ (1) .

وقال سبحانه : ﴿ وَأَسِرُوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّكُمْ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ (2) وقال عليه السلام : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴾ (3) .

2 - التصور الخاطئ المتعمد والفكرة المنحرفة المحرفة لحواء عليها السلام ذلك التصور وتلك

= البشر في كل زمان ومكان ؟ كما أنه ثبت في العهدين القديم والجديد أن الله عاقب آدم وحواء على أكلهما من الشجرة بإخراجهما من الجنة وابتلاء حواء بالحمل والوضع وما فيهما من متاعب وآلام ، فهل يعاقب الله على الخطيئة مرتين ؟ ويؤاخذ عليها شخصين أحدهما جاني والآخر بريء ؟ هل هذا من العدل ؟ .
* إن كل هذه التساؤلات والاعتراضات والإشكالات لتؤكد لنا بطلان ما ذهب إليه النصارى في شأن الخطيئة فالحق والصواب أن آدم وحواء تابا إلى الله فتاب الله عليهما . ولقد ورد في العهد القديم في سفر التثنية [لا يقتل الآباء عن الأولاد ، ولا يقتل الأولاد عن الآباء كل إنسان بخطيئته يقتل] « تثنية : 24 : 16 » : وفي سفر حزقيال : [والابن لا يحمل من إثم الأب . والأب لا يحمل من إثم الابن . بر البار عليه يكون ، وشر الشرير عليه يكون] [حزقيال : 18 : 20] .

فلا يتحمل الأبناء أوزار الآباء ، كما لا يتحمل الآباء أوزار الأبناء .

قال تعالى في كتابه الكريم : ﴿ وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى ﴿ وَأَنْ سَعَيْهِ سَوْفَ يُرَى ﴾ سورة النجم 39-40 وقال عليه السلام : ﴿ وَكُلُّ إِنْسَانٍ أَلَمْتَهُ طَلَبُهُ فِي عُنُقِهِ وَنُجِرَ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا ﴾ ﴿ أَقْرَأُ كِتَابَكَ كَفَى نَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾ سورة الإسراء 13 وقال سبحانه : ﴿ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿ إِلَّا مَنْ آتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ سورة الشعراء 88 : 89 وقال عليه السلام : ﴿ يَكَايِبُهَا النَّاسُ أَنْفُسًا رَبَّكُمْ وَأَخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَائِزٌ عَنِ وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّكَ وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا فَلَا تَغْرِبْكُمْ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغْرِبْكُمْ بِاللَّهِ الْقَرُورُ ﴾ سورة لقمان : 33 .

(1) سورة الشورى : 11 .

(3) سورة آل عمران : 5 .

(2) سورة الملك : 13 ، 14 .

الفكرة التي نجد لها جذورها وامتداداتها وانعكاساتها في الديانتين اليهودية والنصرانية اللتين تنظران إلى المرأة نظرة كاذبة خاطئة ، نظرة قاصرة جائرة ، ولا يتسع المقام هنا لتناول ومعالجة موقف الديانتين من المرأة وإنما نكتفي هنا بأمثلة تدل دلالة واضحة على المقصود .

● في الديانة اليهودية تعتبر حواء هي المسئولة عن الخطيئة حيث أكلت من الشجرة أولاً ثم أعطت آدم فأكل ، وحملها آدم المسئولية حيث قال : [المرأة التي جعلتها معي هي أعطتني من الشجرة فأكلت] تكوين إصحاح 3 فقرة 13 .

● وما آلام الحمل والولادة في نظرهم إلا عقوبة متوارثة لجميع النساء بسبب خطيئة حواء كما أن المرأة وهي في حالة الحيض والنفاس نجسة لا يجوز مؤاكلتها أو الاقتراب منها فمن أكل معها أو اقترب منها فقد صار نجسًا مثلها ، [وحين تطهر من نجاستها فعليها أن تذهب إلى الكاهن ومعها يمامتان أو فرخا حمام وتعطيهما إلى الكاهن فيعمل الكاهن واحدة ذبيحة خطية والأخرى محرقة ؛ ليكفر عنها أمام الرب من سيل نجاستها] .
يراجع سفر اللاويين إصحاح 12 فقرات 1 : 8 - وإصحاح 15 فقرات 28 : 30 .

وتمتد فترة النجاسة عند النساء : إذا كانت المولودة أنثى . ففي الأحكام الشرعية الإسرائيلية [عندما تضع الأم ولدا تكون مدة النجاسة أربعين يومًا ، أما إذا وضعت بنتًا فمدة النجاسة ثمانون يومًا] (1) .

وفي الأحكام الشرعية (ما أسعد من رزقه الله ذكورًا وما أسوأ حظ من لم يرزقه بغير الإناث ، نعم لانكسر لزوم البنات للتناسل إلا أن الذرية كالتجارة سواء بسواء ؛ فالجلد والعطر كلاهما لازم للإنسان إلا أن النفس تميل إلى رائحة العطر الذكية وتكره رائحة الجلد الخبيثة فهل يقاس الجلد بالعطر ؟] (2) .

فالبنت - في اعتقادهم - شؤم على أهلها وعار على أبيها وأمها ، وعند طائفة الربانيين (3) نجد في صلاة أتباعها يحمد الرجل الرب ويشكره لأنه لم يخلقه امرأة (4) .

(1) يراجع الأحكام الشرعية الإسرائيلية - نقلًا عن مركز المرأة في الشريعة اليهودية تأليف السيد محمد عاشور ص 95 دار الاتحاد العربي بالقاهرة .
(2) المرجع السابق ص 92 .

(3) طائفة الربانيين هي أكبر الطوائف اليهودية عددًا وانتشارًا وهي تؤمن بكل ما جاء في التوراة والتلمود وهذه الطائفة تسلب المرأة حقها وتمتهن كرامتها . شأنها في ذلك شأن سائر الطوائف اليهودية .

(4) مركز المرأة في الشريعة اليهودية ص 86 .

وفي سفر الخروج : للرجل الحق في بيع ابنته كرقيق [وإن باع الرجل ابنته أمة لاتخرج كما يخرج العبيد] (1) .

والمرأة اليهودية لا تترث من زوجها في حين يرثها زوجها (2) ، وحين يموت الزوج دون أن يعقب ذرية من الذكور فإن المرأة تزوج من أحد إخوة الميت لكي ينجب منها ولدًا يحمل اسم الزوج المتوفى (3) .

ومن هنا فإنها تورث كما يورث المتاع . وفي هذا ظلم واحتقار وامتهان للمرأة .

● وفي النصرانية نجد في العهد الجديد (4) في رسائل بولس إلى كورنثوس [ولكنني أخاف أنه كما خدعت الحية حواء بمكرها هكذا تفسد أذهانكم عن البساطة التي في المسيح] . الرسالة الثانية إلى كورنثوس إصحاح 11 فقرة 4 .

وفي رسائل بولس إلى تيموثاوس [على المرأة أن تتلقى التعليم بسكوت وخضوع ، ولست أسمح للمرأة أن تعلم ولا أن تتسلط على الرجل بل عليها أن تلزم الصمت ؛ ذلك لأن آدم كُون أولاً ثم حواء ولم يكن آدم هو الذي انخدع بمكر الشيطان بل المرأة التي انخدعت فوقعت في المعصية] الرسالة الأولى إلى تيموثاوس إصحاح 2 فقرات 12 : 14 .

وسألت امرأة الأنبا غريغوريوس قائلة : لماذا تبقى النفساء بعيدة عن الأماكن المقدسة أربعين يوماً إذا ولدت ذكراً ، وثمانين يوماً إذا ولدت أنثى ؟ فأجاب الأنبا : الحكمة في هذا الاختلاف في الأم التي ولدت أنثى فهي على ما نعتقد بسبب أن حواء أخطأت أولاً وهي التي مدت يدها وأكلت من ثمرة الشجرة وسقطت ، وهذه للأسف حقيقة لا مفر من الاعتراف بها ولا سبيل لنا إلى إنكارها أو تبريرها (5) .

ويقول ترتليان - أحد الخطباء النصراني المفوهين : [أما تعلمن أن كلاً منكن حواء والجريمة بحكم الضرورة لا تزال قائمة ، أنتن باب الشيطان ، أنتن الآكلات من الشجرة ... أنتن أول من خالف الشريعة الإلهية] (6) .

(1) سفر الخروج إصحاح 21 فقرة 8 .

(2) تراجع المادة 419 من الأحكام الشرعية الإسرائيلية .

(3) مركز المرأة في الشريعة الإسرائيلية ص 15 ويراجع سفر التكوين إصحاح 38 فقرات من 6 : 11 وسفر

راعوث إصحاح 4 فقرات 9 ، 10 وسفر التثنية إصحاح 25 فقرات 5 : 10 .

(4) يؤمن النصراني بالعهد القديم والجديد . (5) جريدة وطني الأحد 18/11/1979 .

(6) يراجع المرأة بين البيت والمجتمع للبهى الخولي ص 8 ط دار الكتاب العربي .

ويقول القس سان بول فنتورا لتلاميذه : إذا رأيتم امرأة فلا تحسبوا أنكم ترون كائناً بشرياً ولا كائناً وحشياً ، وإنما الذي ترونه هو الشيطان (1) .

ويقول الأب سبيريان إن المرأة شيطان يدخلك الجحيم من باب الجنة وهي الطريق الوحيد لارتكاب الأخطاء (2) .

ويقول الأب جريجوري توما : لقد بحثت عن العفة بينهن ولكن لم أعر على أي عفة ، يمكن أن تعثر على رجل ذي عفة وحياء من بين ألف رجل ولكن لا يمكن أن تعثر على امرأة واحدة لها عفاف وخجل (3) .

وكتب أسقف فرنسي : إن كل النساء بلا استثناء مومسات (4) .

ويقول مارتين لوثر أحد زعماء الإصلاح في الكنيسة : [إذا تعبت النساء أو حتى ماتت فكل ذلك لا يهم ، دعهن يمتن في عملية الولادة فلقد خلقن من أجل ذلك] (5) .

ومما سبق يتضح لنا نظرة اليهودية والنصرانية إلى المرأة تلك النظرة القاصرة الجائرة التي تدل على جور وقصور تلك الديانتين بسبب التحريف والتبديل الذي وقع في كتبهم .

(1) يراجع الأسرة تحت رعاية الإسلام ص 325 للشيخ عطية صقر ط مؤسسة الصباح ط 1 سنة 1400 هـ سنة 1980 م .

(2) يراجع المرأة في الميزان للأستاذ أمين سلامة ص 29 ط دار النشر المتحدة ط 1 سنة 1985 م .

(3) المرأة والشرائع السماوية : إنجيل المرأة لكارن أرمسترونغ ص 23 نقلاً عن مكانة المرأة للأستاذ أحمد عبد الوهاب ص 230 ط مكتبة وهبة سنة 1989 م ط 1 .

Karen Armstrong / the Gospel According to Woman - EM tree books london / 1980 .

(4 ، 5) إنجيل المرأة ص 61 ، 62 نقلاً عن مكانة المرأة للأستاذ أحمد عبد الوهاب ص 235 .

الفصل الثاني

المرأة في قصة نوح عليه السلام

« امرأة نوح »

ويشتمل هذا الفصل على أربعة مباحث :

المبحث الأول : دعوة نوح عليه السلام وموقف قومه من دعوته .

المبحث الثاني : موقف امرأة نوح عليه السلام من دعوته .

المبحث الثالث : دروس مستفادة من قصة نوح عليه السلام .

المبحث الرابع : نظرات في العهد القديم : فيما ورد في شأن نوح

عليه السلام .

المبحث الأول

دعوة نوح عليه السلام وموقف قومه من دعوته

أرسل الله ﷺ نوحاً عليه السلام إلى قومه فلبث فيهم عمراً مديداً ، يدعوهم إلى عبادة الله سبحانه قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا ﴾ (1) .

وقال تعالى : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ (2) وقال ﷺ : ﴿ كَذَبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا نَنْفَعُونَ ﴿١٦﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١٨﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرْتُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٩﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿٢٠﴾ قَالُوا أَنْزَمْنَا لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَالُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ (3) .

وقال جل وعلا : ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١﴾ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٢﴾ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَأَتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا ﴿٣﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُخَوِّرْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنْ أَجَلَ اللَّهُ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (4) .

ومع طول تلك المدة التي قضاها نوح عليه السلام في قومه يدعوهم إلى عبادة الله تعالى ، وقيم عليهم الحجج القاطعة والبراهين الساطعة والآيات البينات التي تدل على صدق دعوته ، كما تدل على بطلان ما عليه قومه من عقائد فاسدة إلا أنه عليه السلام لم يلق منهم إلا التكذيب والإعراض والسخرية والعناد والإيذاء والاضطهاد .

قال تعالى في سورة الأعراف : ﴿ قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرْنَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿١٥﴾ قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٧﴾ أَوْ عَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِمَّنْكُمْ يَنْذِرُكُمْ وَلِنَفْسِكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَرْحَمُونَ ﴾ (5) .

وقال ﷺ في سورة هود : ﴿ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرْنَكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرْنَكَ آتِبْعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِادْيِ الْأَرَائِي وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ

(1) سورة العنكبوت : 14

(2) سورة الأعراف : 59

(3) سورة الشعراء : 105 - 111

(4) سورة نوح : 1 - 4

(5) سورة الأعراف : 60 - 63

نَفَخْتُمْ كَذِبِيكَ ﴿٧٧﴾ قَالَ يَقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ يَدَيْكُمْ مِنْ رَبِّي وَءَالِئِنِّي رَحْمَةٌ مِّنْ عِنْدِيهِ فَعِمَّتْ عَلَيْكُمْ أَنْزَلْتُكُمْهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَرِهُونَ ﴿٧٨﴾ وَيَقَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَىٰ اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّهُمْ مُّلتَقُوا رَبَّهُمْ وَلَكِنِّي أَرْدِكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٧٩﴾ وَيَقَوْمِ مَنْ يَصُرُّنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَفْتُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدِرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٨١﴾ قَالُوا يَبْنُوخُ قَدْ جَدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدْلَنَا فَإِنَّا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتُمْ مِنَ الصّٰدِقِينَ ﴿٨٢﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيَكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿٨٣﴾ (١)

وقال تعالى في سورة القمر: ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدَجَرَ ﴿٢﴾

وفي سورة نوح يقول ﷻ: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿١﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا ﴿٢﴾ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصْوَعًا ﴿٣﴾ وَأَسْتَغْشَوْنَ بَنِيهِمْ وَأَصْرُوا وَأَسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ﴿٤﴾ (٣)

● كان الرجل من قوم نوح إذا دنا أجله وحضرته الوفاة جمع أولاده وذويه وأوصاهم قائلاً لهم: احذروا هذا المجنون - يعني نبي الله نوحاً ﷺ - فإنه قد حدثني آبائي أن هلاك الناس على يديه، وكان الرجل منهم يحمل ولده على عاتقه، أو يأخذ بيده حتى يقف به عند نوح ﷺ ويقول: يا بني احذر هذا المجنون، وهكذا كانوا يتوارثون هذه الوصايا الكاذبة الخاطئة، ويؤثرون عبادة الأحجار على عبادة الواحد القاهر، أنكروا على النبي أن يكون بشراً ولم ينكروا على الإله أن يكون حجراً؟ (٤) . جحدوا بآيات الله

(1) سورة هود : 27 - 33 . (2) سورة القمر : 9 . (3) سورة نوح : 5 - 7 .

(4) روى الإمام البخاري في صحيحه من حديث ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا لَا نَدْرَأُ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا نَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَفُوتُ وَيَعْبُوقُ وَشَرًّا ﴾ نوح : 23 قال ابن عباس (كانت هذه الأصنام على أسماء رجال صالحين من قوم نوح فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون بها أصنامًا وسموها بأسمائهم ففعلوا فلم تعبد حتى إذا هلك أولئك وتنسخ العلم عبت وقال ابن عباس : (وصارت هذه الأوثان التي كانت في قوم نوح في العرب بعد) الحديث : رواه البخاري - ك التفسير - باب ﴿ وَقَالُوا لَا نَدْرَأُ ءَالِهَتَكُمْ ... ﴾ حديث 4920 فتح الباري 535/8 ومعنى تنسخ العلم : اندرس وذهبت آثاره .

وقال ابن جرير الطبري: [كانوا قوماً صالحين بين آدم ونوح وكان لهم أتباع يقتدون بهم فقالوا: لو صورناهم كان أشوق لنا إلى العبادة إذا ذكرناهم فصوروهم فلما ماتوا وجاء آخرون وسوس إليهم إبليس وقال: إنما كانوا يعبدونهم وبهم يستسقون المطر فعبدهم] جامع البيان للطبري 62/29 ويراجع البداية والنهاية لابن كثير 106/1 والدر المنثور للسيوطي 269/6 .

وأنكروا الحجج الظاهرة والأدلة الباهرة ، وتمادوا في غيهم ولجوا في طغيانهم وأصرروا على كفرهم ، وهددوا نوحاً عليه السلام وتوعده إن لم يكف عن دعوته فسوف يرمونه ﴿ قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنْتَهَ يَنْتُوخْ لَنُكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ ﴾ (1) واستعجلوا وقوع العذاب فقالوا ﴿ يَنْتُوخْ قَدْ جَدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدْلَنَا فَأَيْنَا يَا تَعْدُنَا إِن كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ (2) .

● وهنا يأتي الوحي الإلهي إلى نوح عليه السلام بأن يصنع السفينة التي ينجوا بها هو ومن آمن معه من الطوفان الذي يعم الكافرين فيغرقهم جميعاً .

قال تعالى : ﴿ وَأوحى إِلَى نوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ (3) وَأَصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحِّينَا وَلَا تَخْطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ ﴾ (4) وَيَصْنَعِ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنِّي فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴾ (5) فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ ﴾ (6) حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ وَمَا ءَامَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ (7) وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرِبَهَا وَمُرسِنَهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (8) وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نوحٌ أُمَّتَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَبْتِئُ ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ ﴾ (9) قَالَ سَوِّىءَ إِلَى جِبَلٍ يَتْعَصَمُونَ مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ﴾ (10) وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَنَسَمَاءَهُ أَقْبَعِي وَغِيضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ (11) .

وقال ﷻ : ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَجْحَبْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ ﴾ (12) وقال تعالى في سورة يونس : ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَجَبْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلِيفَةً وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ (13) .

وقال ﷻ في سورة الأنبياء : ﴿ وَنوحًا إِذْ نَادَى مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴾ (14) وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمٌ سَوْءٌ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ (15) .

(2) سورة هود : 32 .

(1) سورة الشعراء : 116 .

(4) سورة الأعراف : 64 .

(3) سورة هود : 36 - 44 .

(6) سورة الأنبياء : 76 ، 77 .

(5) سورة يونس : 73 .

وقال تعالى في سورة الشعراء : ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَوْمِي كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَأَفْنَعُ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتَحًا وَيَجْعَلِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ فَأَنْجِيَنَّهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفَلَاقِ الْمَشْحُونِ ﴿١١٩﴾ ثُمَّ أَعْرَفْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٢١﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١﴾ .

وقال تعالى في سورة القمر : ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ ﴿١﴾ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرَ ﴿٢﴾ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَرٍ ﴿٣﴾ وَفَجَرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدِيرٍ ﴿٤﴾ وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ الْأَوْجِ وَدُسِّرَ ﴿٥﴾ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ ﴿٦﴾ وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴿٧﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرٍ ﴿٨﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴿٩﴾ . (2)

المبحث الثاني

موقف امرأة نوح عليها السلام من دعوته

قال تعالى : ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِنَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّٰخِلِينَ ﴾ (1) .

وفي هذه الآية حديث صريح عن موقف امرأة نوح التي ظلت على كفرها فلم ينفعها زواجها من نبي الله نوح عليه السلام .

والخيانة هنا : هي الخيانة في الدين بمعنى الكفر وليس المقصود بها الخيانة بمعنى الزنا .

● قال ابن عباس رضي الله عنهما : ما بغت امرأة نبي قط ، إنما كانت خيانتها في الدين (2) .

● وقال الإمام ابن كثير [﴿ فَخَانَتَاهُمَا ﴾ أي في الإيمان ، لم توافقاهما على الإيمان ولا صدقتاهما في الرسالة فلم يجد ذلك كله شيئاً ، ولا دفع عنهما محذوراً ولهذا قال تعالى : ﴿ فَلَمْ يُغْنِنَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ﴾ أي لكفرهما ﴿ وَقِيلَ ﴾ للمرأتين ﴿ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّٰخِلِينَ ﴾ وليس المراد بقوله ﴿ فَخَانَتَاهُمَا ﴾ في فاحشة بل في الدين فإن نساء الأنبياء معصومات عن الوقوع في الفاحشة لحرمة الأنبياء ...] (3) .

● لقد كذبت امرأة نوح بزواجها عليها السلام وكان الأولى بها أن تكون أول المؤمنين به لا سيما وهي زوجته وأعلم الناس بأحواله وأقرب الناس منه ، ولكنها أثرت ما عليه قومها من الكفر والضلال فكان عاقبتها الخسران والنكال ، كفرت امرأة نوح مع الكافرين وسخرت من زوجها مع الساخرين فلم يغن عنها نوح عليه السلام من الله شيئاً ، ودخلت النار مع الداخلين .

● قال صاحب الكشاف : [مثل الله عليه السلام حال الكفار - في أنهم يعاقبون على كفرهم ومعاداتهم للمؤمنين معاقبة مثلهم (4) من غير إبقاء ولا محاباة ، ولا ينفعهم مع عداوتهم لهم ما كان بينهم وبينهم من لحمة نسب أو وصلة صهر ؛ لأن عداوتهم لهم وكفرهم

(1) سورة التحريم : 10 .

(2) النكت والعيون للماوردي 267/4 - وفتح القدير للشوكاني 255/5 .

(3) تفسير ابن كثير 393/4 . (4) مثلهم : من الكفار الذين لا علاقة بينهم وبين المؤمنين .

بالله ورسوله قطع العلائق وبت الوصل ، وجعلهم أبعد من الأجانب وأبعد ، وإن كان المؤمن الذي يتصل به الكافر نبياً من الأنبياء - بحال امرأة نوح وامرأة لوط ، لما نافقتنا وخانتا الرسولين لم يغن الرسولان عنهما - بحق ما بينهما وبينهما من وصلة الزواج - إغناء ما - من عذاب الله ، ﴿ وَقِيلَ ﴾ لهما عند موتهما أو يوم القيامة ﴿ أَدْخُلَا النَّارَ مَعَ ﴾ سائر ﴿ الدَّاخِلِينَ ﴾ الذين لا وصلة بينهم وبين الأنبياء ، أو مع داخلها من إخوانكم من قوم نوح وقوم لوط [(1)] .

وقال الإمام القشيري (2) في لطائف الإشارات [... إن الجسارة على الزلة وخيمة العاقبة ، ولو بعد حين ، ولا ينفع المرء اتصاله بالأنبياء والأولياء إذا كان في الحكم والقضاء من جملة الأشقياء] (3) .

(1) الكشف 571/4 .

(2) هو : عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك النيسابوري القشيري الشافعي (أبو القاسم زين الإسلام) : صوفي مفسر ، فقيه ، أصولي ، محدث ، متكلم ، واعظ ، وأديب (376 - 465 هـ) وله مؤلفات كثيرة متنوعة منها : لطائف الإشارات ، حياة الأرواح ، الرسالة القشيرية ، الأربعين في الحديث ، وآداب الصوفية . تراجع ترجمته في معجم المؤلفين 6/6 وطبقات الأولياء لسراج الدين أبوحفص عمر بن علي بن أحمد المصري (723 - 804 هـ) ص 257 ط الخانجي سنة 1393 هـ وطبقات المفسرين للداودي 344/1 .

(3) لطائف الإشارات للإمام القشيري 3 : 149 ط دار الكتاب العربي .

المبحث الثالث

دروس مستفادة من قصة نوح ﷺ

1 - التوحيد هو أساس دعوة جميع الأنبياء ﷺ من لدن آدم ﷺ وحتى رسول الله محمد ﷺ قال تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ (1) .

وقال ﷺ : ﴿ يُنَزَّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ ﴾ (2) .

2 - ضرب نبي الله نوح ﷺ أروع الأمثلة في الصبر والثبات على الحق والحكمة في الدعوة إلى الله ﷻ والثقة واليقين بوعده سبحانه الذي لا يتخلف فلقد لبث في قومه ألف سنة إلا خمسين عاما يدعوهم إلى الله ﷻ بالحكمة والموعظة الحسنة ويجادلهم بالتي هي أحسن ولكنه لم يلق منهم إلا العنت والعناد والجحود والإنكار والعمى والاستكبار والأذى والاضطهاد فقابل ﷺ مواقفهم بالصبر والثبات والعزم والمضاء :

وما زادته أحداث الليالي وألوان الأسى إلا صمودا

3 - ويستفاد من هذه القصة أيضا : أن الكافر يعاقب على كفره ، ولا تنفعه قرابته من أهل الإيمان ، نسباً أو صهراً ، كما أن المؤمن يثاب على إيمانه ولا يضره قرابته من الكافرين في النسب أو المصاهرة .

قال تعالى في سورة التحريم : ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّٰخِلِينَ ﴾ (3) .

وقال ﷺ : ﴿ لَنْ تَنْفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصَلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ (4) .

وفي الحديث عن أبي هريرة ؓ قال : قام رسول الله ﷺ حين أنزل الله ﷻ :

(2) سورة النحل : 2 .

(4) سورة الممتحنة : 3 .

(1) سورة الأنبياء : 25 .

(3) سورة التحريم : 10 .

﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ فقال يا معشر قريش - أو كلمة نحوها - اشترؤا أنفسكم ، لا أغني عنكم من الله شيئاً ، ويا صفية عمه رسول الله ﷺ لا أغني عنك من الله شيئاً ، ويا فاطمة بنت محمد سليمان ما شئت من مالي ، لا أغني عنك من الله شيئاً (1) .

* وامرأة نوح عليها السلام مع أنها أقرب الناس إليه وأعلمهم بأحواله وصدقه إلا أنها كذبت به وآثرت ما عليه قومها من الكفر والضلال على ما جاء به زوجها نبي الله من الإيمان والهدى فلم تنفعها قرابتها له ولم يشفع لها قربها منه ؛ لأنه لا شفاعة لكافر ، قال تعالى : عن حال الكفار يوم القيامة : ﴿فَمَا نَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾ (2) .

وقال ﷻ : ﴿مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ (3) .

فلا شفاعة لكافر تنجيه من عذاب النار التي يخلد فيها .

(1) رواه البخاري في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه / التفسير باب ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ سورة الشعراء : 214 - حديث 4779 فتح الباري 8/360 ورواه النسائي في السنن بألفاظ متقاربة عنه ك / الوصايا باب إذا أوصى لعشيرته الأقربين 248/6 .

(3) سورة غافر : 18 .

(2) سورة المدثر : 48 .

المبحث الرابع

نظرات في العهد القديم فيما ورد في شأن نوح عليه السلام

● المتأمل فيما ورد في العهد القديم في شأن نوح عليه السلام يجد فيه إهمالاً كبيراً للقضايا الأساسية والركائز الجوهرية لقصة نوح عليه السلام وفيما يلي نذكر أمثلة على ذلك :

● لم يصرح العهد القديم بما كان عليه قوم نوح من كفر بواح ، حيث كانوا يعبدون الأصنام من دون الله تعالى .

● ورد في العهد القديم في سفر التكوين : [ورأى الرب أن شر الإنسان قد كثر في الأرض وأن كل تصور أفكار قلبه إنما هو شرير كل يوم فحزن الرب أنه عمل الإنسان في الأرض وتأسف في قلبه . فقال الرب : امحوا عن وجه الأرض الإنسان الذي خلقتة . الإنسان مع بهائم ودبابات وطيور السماء ؛ لأنني حزنت أني عملتهم . وأما نوح فوجد نعمة في عيني الرب] (1) .

وفي سفر التكوين أيضا : [ورأى الله الأرض فإذا هي قد فسدت إذ كان كل بشر قد أفسد طريقه على الأرض . فقال الله لنوح : نهاية كل بشر قد أتت أمامي ؛ لأن الأرض امتلأت ظلماً منهم فها أنا مهلكهم مع الأرض اصنع لنفسك فلكاً من خشب ...] (2) .

ومن هذه العبارات نرى عدم التصريح بما كان عليه قوم نوح من كفر بواح والاكتفاء بالإشارة إلى كثرة الشر وفساد الأرض وانتشار الظلم فيها .

وقول العهد القديم : [وندم الرب على خلقه للإنسان] هذا القول : كذب وافتراء على الله تعالى ؛ لأنه خلق كل شيء لحكمة قال تعالى : ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴾ (3) وقال تعالى : ﴿ لَا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ ﴾ (4) فمن المحال أن يندم رب العزة على شيء خلقه ، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً .

● لم يتحدث العهد القديم عن منهج نوح عليه السلام في الدعوة إلى الله وموقف قومه من دعوته ، وصبره وثباته على الحق .

● وفي حين أغفل العهد القديم هذه القضايا الأساسية والمحاور الرئيسية في قصة

(2) تكوين إصحاح 6 فقرة 12 : 14 .

(1) تكوين إصحاح 6 فقرة 5 / 8 .

(4) سورة الأنبياء : 23 .

(3) سورة القمر : 49 .

نوح عليه السلام ، نجده قد ركز على أمور لا طائل من ورائها ولا فائدة من التوسع في ذكرها وفيما يلي نذكر أمثلة على ذلك : -

● توسع العهد القديم في الحديث عن سفينة نوح من حيث طولها وعرضها وشكلها وعدد أدوارها وبابها وكوتها وطلائها - بالقار من الداخل والخارج - وغير ذلك (1) .

● كما توسع العهد القديم أيضاً في الحديث عن الطوفان وركز على كيفيته وزمنه وآثاره ونقطة البدء ونقطة التوقف وما بينهما من زمن ، وكيف خرج نوح من السفينة ومتى خرج (2) .

ولقد ورد الحديث عن الفلك في القرآن الكريم بعبارات موجزة معبرة ، كلمات قلائل لكنها كثيرة الدلائل ، كما تحدث القرآن الكريم عن الطوفان وصوره تصويراً حياً دقيقاً يدل على بلاغة القرآن وروعته ورفعته .

قال تعالى في كتابه الكريم : ﴿ وَأَوْحَىٰ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا يَتَّبِعْهُمَا كَاثِرًا مَّا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ (3) وَأَصْنَعُ الْفُلَكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحِّينَا وَلَا تَخَاطَبُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُّغْرَقُونَ ﴾ (4) وَيَصْنَعُ الْفُلَكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴾ (5) فَسَوْفَ نَعْلَمُوتُ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَجِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾ (6) حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ وَمَا ءَامَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ (7) وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ جَعَلْنَاهَا مِرْسًا وَنُجَّةً وَإِن يَأْمُرُوكَ لِأَنْ تَخْرُجَ مِنْهَا فَخَرِّبْهَا لِمَن يَخْرُجُ مِنْهَا وَلَا يَخْرُجُ عَلَيْكَ يُجَارِهُتَمْ وَكُلٌّ مِنَ الْعَدُوِّ يُرِيدُونَكَ فَاتَّقِ اللَّهَ مَا ظَهَرَ لَكَ مِنْهُ وَالسَّمَاءَ الَّتِي عَلَيْكَ وَالْأَرْضَ وَمَنْ حَوْلَها إِنَّهَا رِجْسٌ لِّلنَّاسِ وَاللَّحْمِ الْمُحَلَّلِ إِلَّا مَا جُعِلَ لِبَهِيمٍ أُولِي الْأَنْفُسِ إِنَّكَ عَلَىٰ ذِكْرِ عَدُوِّكَ فَاعْبُدْهُ وَاسْتَوِرْ لِعِمَّتِكَ وَبُقِعْ بِرِجْلِكَ مَعَهُ يُرِيدُونَ فَاصْبِرْ إِنَّ عَذَابَ الْبَاطِلِ لَشَدِيدٌ ﴾ (8) وَقَالَ رَبِّ انقِصْ مِنِّي الْقَدْرَ وَأَنْقِصْ عَنِّي الْوَجْهَ وَالْجِسْمَ وَالْكَافِرِينَ ﴾ (9) قَالَ سَوِّىءَ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصَمُنِي مِنَ الْعَمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِن أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ﴾ (10) وَقِيلَ يَتَّأْرِضُ اأَبْلَعِي مَاءَهُ وَيَسْمَأَهُ أَقْلَعِي وَيَغِيضُ اأَمَاءَ وَفِيصَى اأَلَامْرُ وَأَسْتَوْتِ عَلَى اأَلْجُودِي وَيَقِيلُ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ اأَظْلَمِينَ ﴾ (11) .

وقال عليه السلام في سورة المؤمنون : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ لِقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِن إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ (12) فَقَالَ اأَلْمَلُؤُا الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَنْفِضَ عَلَيْكُمْ وَكَوَشَاءَ اللَّهُ لَآئِزِلَ لِمَلَكَةٍ مَّا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي ءَأَبَائِنَا اأَوَّلِينَ ﴾ (13) إِنَّ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فترَضُّوا بِهِ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾ (14) قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كُنتُ بِنْتًا لِّلَّهِ

(2) التكوين إصحاح 7 فقرة 8 ، 9 .

(1) سفر التكوين إصحاح 6 فقرة 13 : 22 .

(3) سورة هود : 36 - 44 .

أَنْ أَصْبَحَ الْفَلَكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُورُ فَاسْأَلْكَ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ
 اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تَحْطِئُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِلَيْهِمْ
 مُعْرِضُونَ ﴿٧٧﴾ فَإِذَا أَسْتَوَيْتِ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفَلَكَ فَقُلْ أَلْتَدُلُّونَنَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٧٨﴾
 وَقُلْ رَبِّ أُنزِلْنِي مُنزَلًا مُبَارَكًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ ﴿٧٩﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴿٨٠﴾ (1)

قال تعالى في سورة القمر: ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدَجَرَ ﴿١﴾
 فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرَ ﴿٢﴾ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ ﴿٣﴾ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا
 فَالْتَفَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ فُدِرَ ﴿٤﴾ وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَجٍ وَدُسْرٍ ﴿٥﴾ تَجْرَى بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ
 كُفِرَ ﴿٦﴾ وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴿٧﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرٍ ﴿٨﴾ (2)

وتأمل أيها القارئ الكريم في الآية الكريمة ﴿ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَبَسِّمَاءِ أَقْلِي ﴾
 وَغِيصَ الْمَاءُ وَغِيصَ الْأَمْرُ وَأَسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٦﴾ تجدها وقد
 عبرت عن المطلوب بأبلغ وأوجز وأدق وأرق وأروع تعبير ، ولقد توقف أمامها كثير من
 البلغاء وأشاروا إلى ما يمكنونها من درر وما بساحلها من فوائد وروافد وشواهد ، يقول
 الإمام الألوسي في روح المعاني في حديثه الطويل عن هذه الآية الكريمة :

[هذا واعلم أن هذه الآية الكريمة قد بلغت من مراتب الإعجاز أفاصيها واستدلت
 مصاقع العرب بنواصيها ، وجمعت من المحاسن ما يضيق عنه البيان ... وقد فصل بعض
 مزايا هذه الآية المهرة المتفننون وتركوا من ذلك ما لا يكاد يصفه الواصفون ، ولا بأس
 بذكر شيء مما ذكر إفادة لجاهل وتذكيرا لفاضل غافل فنقول : ذكر العلامة السكاكي
 أن النظر فيها من أربع جهات من جهة علم البيان ، ومن جهة علم المعاني ، وهما مرجعا
 البلاغة ، ومن جهة الفصاحة المعنوية واللفظية) ... ثم أخذ يعرض هذه الوجوه ، فأبرز
 ما فيها من مجاز واستعارة وكناية وتشبيه وترشيع وتجريد وتصريح وتلميح وفصاحة
 الألفاظ ، وعذوبتها وسلاستها : [كالماء في السلاسة وكالعسل في الحلاوة وكالنسيم
 في الرقة ، ولله تعالى در التنزيل ماذا جمعت آياته : وعلى تفتن واصفيه بحسنه يفتى
 الزمان وفيه ما لم يوصف وما ذكر في شرح مزايا هذه الآية بالنسبة إلى ما فيها : قطرة
 من حياض وزهرة من رياض ، وقد ذكر ابن أبي الإصبع أن فيها عشرين ضربا من البديع
 مع أنها سبع عشرة لفظة وذلك : المناسبة التامة في ﴿ اَبْلَعِي ﴾ و ﴿ اَقْلِي ﴾ والاستعارة

فيها والطباق بين الأرض والسماء والمجاز في ﴿ وَيَسْمَاءُ ﴾ فإن الحقيقة يا مطر السماء ، والإشارة في ﴿ وَغِيصَ أَلْمَاءُ ﴾ فإنه عبر به عن معان كثيرة - لأن الماء لا يغيض حتى يقلع مطر السماء وتبلع الأرض ما يخرج منها فينقض ما على وجه الأرض ، ومن الإرداف في ﴿ وَأَسْتَوَتْ ﴾ والتمثيل في ﴿ وَفُضِيَ الْأَمْرُ ﴾ والتعليل : فإن غيض الماء علة الاستواء وصحة التقسيم فإنه استوعب أقسام الماء حال نقصه والاحتباس في الدعاء لئلا يتوهم أن الغرق لعمومه شمل من لا يستحق الهلاك فإن عدله ﴿ يَمْنَعُ أَنْ يَدْعُو عَلَى غَيْرِ مُسْتَحِقٍّ ﴾ ، وحسن النسق واثتلاف اللفظ مع المعنى والإعجاز فإنه سبحانه قص القصة مستوعبة بأخصر عبارة والتسهيم لأن أول الآية يدل على آخرها والتهديب لأن مفرداتها موصوفة بصفات الحسن وحسن البيان من جهة أن السامع لا يتوقف في فهم معنى الكلام ولا يشكل عليه شيء منه والتمكين لأن الفاصلة مستقرة في محلها مطمئنة في مكانها ، وزاد السيوطي بعد نقل هذا عن ابن أبي الإصبع : الاعتراض ، وزاد آخرون أشياء كثيرة إلا أنها ككلام ابن الإصبع قد أشير إليها بإصبع الاعتراض ، وقد ألف شيخنا علاء الدين - أعلى الله درجته في أعلى عليين - رسالة في هذه الآية الكريمة جمع فيها ما ظهر له ووقف عليه من مزاياها فبلغ ذلك مائة وخمسين مزية وقد تطلبت هذه الرسالة لأذكر شيئاً من لطائفها فلم أظفر بها وكأن طوفان الحوادث أغرقها ، ولعل فيما نقلناه سداً من عذر والله تعالى الموفق للصواب وعنده علم الكتاب [(1)] .

3 - أسهب العهد القديم في الحديث عن نسب نوح عليه السلام ، ووقت ميلاده ، والفاصل الزمني بينه وبين آدم وأسماء أولاد نوح ، وكل هذه الأمور لا فائدة من ذكرها (2) .

4 - ومن الأخطاء الجسيمة والافتراءات العظيمة التي وردت في العهد القديم في شأن نوح عليه السلام والتي تقدح في عصمته ما ورد أنه شرب الخمر فسكر وانكشفت عورته فأبصرها أحد أولاده (حام) فأخبر أخويه (سام ويافت) فجاءوا وستروا عورة أبيهما فلما أفاق نوح من سكره لعن (كنعان ولد حام) وعبارة العهد القديم : [وابتدأ نوح يكون فلاحاً وغرس كرماً وشرب من الخمر فسكر وتعري داخل خبائه فأبصر (حام أبو كنعان) عورة أبيه وأخبر أخويه خارجاً فأخذ سام ويافت الرداء ووضعاه على أكتافهما ومشيا إلى الوراء وستروا عورة أبيهما ووجهاهما إلى الوراء فلم يبصرا عورة أبيهما ، فلما استيقظ نوح من خمرة علم ما فعل به ابنه الصغير فقال : ملعون كنعان عبد العبيد يكون

(1) يراجع : روح المعني للألوسي باختصار 93/7 . (2) تكوين إصحاح 5 فقرة 6 .

لإخوته ، وقال : مبارك الرب إله سام وليكن كنعان عبدًا لهم ليفتح الله لياث فيسكن في مساكن سام وليكن كنعان عبدًا لهم [(1)] .

● ولنا وقفة أمام هذا النص لنكشف ما فيه من زيف وضلال وكذب وافتراء :

أولاً : كيف يزعمون أن نوحًا عليه السلام شرب الخمر وفي العهدين القديم والجديد نصوص كثيرة تحرمها؟! (2) .

كيف يشربها وهو النبي المعصوم وهي أم الخبائث؟؟؟ .

الجواب : إنه محض افتراء على نبي الله نوح عليه السلام يدل على ما في التوراة من تناقضات وتحريفات ؛ واليهود يبررون لأنفسهم شرب الخمر أسوة بالأنبياء - كما يزعمون - ونوح عليه السلام بريء مما يدعيه اليهود فهو عليه السلام نبي معصوم .

ثانيًا : كيف يلعن نوح عليه السلام كنعان ويحكم عليه وعلي ذريته بالرق والذل والهوان وكنعان لم يذنب ؟ .

وإنما لعنه نوح بسبب فعل أبيه حام الذي أخبر أخويه يافث وسام بانكشاف عورة أبيهما نوح فهل يجازى الولد بفعل أبيه ؟ .

● أقول : إن هذا النص ما هو إلا محض كذب وافتراء من اليهود دسوه ليبرروا لأنفسهم النزعة العنصرية التي يتسمون بها والتي تدفعهم دائمًا إلى قهر الآخرين والخط من شأنهم واستعبادهم والسيطرة عليهم واستحلال أرضهم وأموالهم ودمائهم وأعراضهم بدون وجه حق .

● صرح القرآن الكريم بأن امرأة نوح كانت كافرة قال تعالى : ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّٰخِلِينَ ﴾ (3) .

بينما ورد في العهد القديم أن امرأة نوح نجت معه في السفينة يقول سفر التكوين

(1) تكوين إصحاح 9 فقرة 20 - 27 .

(2) ورد في العهدين القديم والجديد نصوص متعددة تحرم الخمر وتبين خبثها يراجع سفر القضاة إصحاح 13 فقرة 2-14 - وسفر أشعيا إصحاح 5 فقرة 23 واللاويين إصحاح 10 فقرة 8 ، 9 وأشعيا إصحاح 28 فقرة 7 ، 8 ،

(3) سورة التحريم : 10 .

وإنجيل لوقا إصحاح 1 فقرة 15 .

[ولكن أقيم عهدي معك فتدخل الفلك أنت وبنوك وامراتك ونساء بنيك معك] (1) .
والحق والصواب فيما جاء في القرآن الكريم .

● **وصفوة القول فيما سبق :**

أن العهد القديم أهمل وأغفل القضايا الأساسية والركائز الجوهرية في قصة نوح عليه السلام ،
بينما أطنب في أمور لا فائدة في ذكرها ولا طائل من ورائها وورد فيه ما يقدر في
عصمة نبي الله نوح عليه السلام كما ورد فيه ما يخالف ما صرح به القرآن الكريم فضلاً عن
ركاكة الألفاظ وتنافر التراكيب .

الفصل الثالث

سارة وهاجر ؑ

زوجا الخليل إبراهيم ؑ

ويتكون هذا الفصل من تمهيد وأربعة مباحث :

- التمهيد : ويدور الحديث فيه بإيجاز عن نبي الله إبراهيم ؑ .
- دعوته ومحنته وهجرته إلى الشام ومنها إلى مصر مع زوجه سارة .
- المبحث الأول : وفيه أتحدث عن البشارة بإسحاق ؑ وموقف إبراهيم ؑ وزوجه سارة من البشارة .
- المبحث الثاني : وفيه أتحدث عن هاجر زوج سيدنا إبراهيم ؑ وأم الذبيح إسماعيل ؑ .
- المبحث الثالث : ويشتمل على فوائد مهمة ودروس مستفادة .
- وهي : أولاً : الذبيح : هو إسماعيل ؑ .
- ثانياً : إكرام الضيف .
- ثالثاً : صورة المرأة في هذه القصة .
- المبحث الرابع : نظرات في العهد القديم - فيما ورد في شأن سارة وهاجر ؑ .

● تمهيد : ويدور الحديث فيه بإيجاز عن نبي الله إبراهيم عليه السلام - من حيث مكان مولده ونشأته ودعوته ومحنته وهجرته إلى الشام ومنها إلى مصر مع زوجته سارة .

● قبل أن أتحدث عن سارة وهاجر عليه السلام يجدر بي أن أتحدث عن نبي الله إبراهيم عليه السلام حتى تتم الفائدة .

وإبراهيم عليه السلام هو خليل الرحمن وأبو الأنبياء ، ولد عليه السلام ببابل (1) وفيها نشأ ، وكان قومه حينذاك يعبدون الأصنام من دون الله ﷻ ، وكانوا ينحتونها بأيديهم ، ولقد أيقن عليه السلام منذ نعومة أظفاره أن هذه الأصنام لا تضر ولا تنفع ، وأنها حجارة صماء لا تنطق ولا تبصر ولا تسمع ، كما أيقن عليه السلام أن لهذا الكون إلهاً واحداً هو الخالق الرزاق القادر المحيي المميت المتصف بجميع صفات الكمال ونعوت الجلال .

هذا ولقد ابتلي عليه السلام بمحنة الإلقاء في النار وذلك حين عارض قومه وجادلهم وأقام الحجج الواضحة على فساد معتقداتهم وقام بتكسير أصنامهم فكان عاقبة ذلك أن جمعوا له ناراً عظيمة وألقوه فيها فنجاه الله منها .

قال تعالى في سورة الأنبياء : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ ﴾ (٥١) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ عَابِدُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عِبَادِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوا أَجِئْنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَلْ زَكَّرْتُ رَبِّي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُمْ وَأَنَا عَلَى ذَلِكَ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٥٦﴾ وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُولُوا مُدِيرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ جُذُودًا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾ قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا سَمِعْنَا فَتَى يَذُكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا فَأَتُوا بِهِ عَلَى عَيْنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوا ءَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَشَئَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوا إِلَى أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نَكَسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أَفِ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَنْتَازُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْآخِسِينَ ﴿٧٠﴾

(1) بابل اسم مدينة قديمة كانت بالعراق يمر بها نهر دجلة والفرات - معجم البلدان لياقوت الحموي 309/1 ط دار صادر .

وَجَعَلْنَاهُ لُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ ﴿١١﴾ .

وقال تعالى في سورة العنكبوت : ﴿ وَإِذْ هَمَّ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ ۗ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٢﴾ وَإِنْ تَكْذِبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلْغُ الْأَمِيثُ ﴿١٣﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ بَدَأَ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ۗ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٤﴾ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٥﴾ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا أَنشَأَ بِمُعْجِزَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٧﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَٰئِكَ يَئِسُوا مِنْ رَحْمَتِي وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَّاصِرِينَ ﴿٢٠﴾ * فَمَنْ لَّهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢١﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٢٢﴾ .

وقال تعالى في سورة الصافات : ﴿ وَإِن مِّن شَيْعَةٍ لَّإِبْرَاهِيمَ ﴿٨٢﴾ إِذْ جَاءَ رَبُّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَفِيكَاءَ آلِهَةٍ دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٨٧﴾ فَظَنَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾ فَتَلَوْنَا عَنْهُ مُدْرِينٌ ﴿٩٠﴾ فَرَاغَ إِلَىٰ آلِهِنَّ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنْطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ صَرْبًا بِالْيَمِينِ ﴿٩٣﴾ فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزْفُونَ ﴿٩٤﴾ قَالَ أَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْفُوهُ فِي الْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾ .

ولقد هاجر النبي ﷺ من بلاد بابل إلى بلاد الشام ثم هاجر منها إلى مصر وفي صحبته

(2) سورة العنكبوت : 16 - 27 .

(1) سورة الأنبياء : 51 - 71 .

(3) سورة الصافات : 83 - 98 .

زوجها سارة عليها السلام (1) .

قيل : إنه عليه السلام هاجر من بلاد الشام إلى مصر لما عم القحط وشاع الجذب والغلاء وضافت سبل العيش في الشام (2) فرحل عليه السلام إلى مصر وفي صحبتها زوجته سارة وكانت على قدر كبير من الجمال ولما علم ملك مصر بجمالها عن طريق بعض حاشيته أراد أن يحظى بها وينال منها ولكن الله تعالى حال بينه وبينها ، ولقد ورد تفصيل ذلك في السنة النبوية وفيما يلي بيان ذلك :

روى الإمامان البخاري ومسلم في صحيحيهما عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لم يكذب إبراهيم النبي عليه السلام قط إلا ثلاث كذبات : ننتين في ذات الله قوله : ﴿ إِنِّي سَقِيمٌ ﴾ وقوله : ﴿ بَلْ فَعَلَكُمْ كَيْدَهُمْ هَذَا ﴾ وواحدة في شأن سارة ، فإنه قدم أرض جبار ومعه سارة وكانت أحسن الناس فقال لها : إن هذا الجبار إن يعلم أنك امرأتي يغلبني عليك ، فإن سألك فأخبريه أنك أختي فإنك أختي في الإسلام ؛ فإنني لا أعلم في الأرض مسلماً غيبي وغيرك ، فلما دخل أرضه رآها بعض أهل الجبار فأتاه فقال له : لقد قَدِمَ أرضك امرأة لا ينبغي لها أن تكون إلا لك ، فأرسل إليها فأتي بها فقام إبراهيم عليه السلام إلى الصلاة ، فلما دخلت عليه لم يتمالك أن بسط يده إليها فقبضت يده قبضة شديدة ، فقال لها : ادعي الله أن يطلق يدي ولا أضرك ، ففعلت ، فعاد فقبضت أشد من القبضة الأولى ، فقال لها مثل ذلك ، ففعلت ، فعاد فقبضت أشد من القبضتين الأوليين ، فقال : ادعي الله أن يطلق يدي فلك الله أن لا أضرك ، ففعلت وأطلقت يده ، ودعا الذي جاء بها فقال له : إنك إنما أتيتني بشيطان ولم تأتني بإنسان فأخرجها من أرضي وأعطتها هاجر ، قال : فأقبلت تمشي فلما رآها إبراهيم عليه السلام انصرف فقال لها : مهيم ، قالت : خيراً كف الله يد الفاجر وأخذ منا خادماً ، قال أبو هريرة : فتلك أمكم يا بني ماء السماء [(3)] .

(1) قال ابن كثير : [والمشهور أن سارة ابنة عمه هاران الذي تنسب إليه حران] قصص الأنبياء ص 144 .
وخزان : بلدة بالشام على طريق الموصل والنسبة إليها حرانيون ، فتحت في عهد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه على يد عياض بن غنم : معجم البلدان 2/235 ، 236 .

(2) قصص الأنبياء محمد أحمد جاد المولى ورفاقه ص 53 ويراجع قصص الأنبياء أحداثها وغيرها للأستاذ محمد الفقي ص 78 ط وهبه وتاريخ الدعوة للدكتور جمعة علي الخولي 1/165 ط دار الطباعة المحمدية ط 1 سنة 1404 هـ .

(3) رواه الإمام البخاري في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه ك / أحاديث الأنبياء باب 8 - قول الله تعالى :

﴿ وَأَتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا ﴾ سورة النساء : 125 حديث 3358 فتح الباري 6/447 ورواه الإمام مسلم في =

لقد حفظ الله ﷻ سارة ﷺ وصانها وحال بين الملك وبينها فلم يمسهها بسوء بل إنه هابها وعرف قدرها فوهب لها هاجر ، ثم عاد إبراهيم ﷺ وكانت سارة لا تنجب وقد رأت أن تهب هاجر لزوجها إبراهيم رغبة وطمعاً في أن تنجب ولدًا لإبراهيم ﷺ ليكون امتدادًا له من بعده في النبوة والصلاح .

ولقد أكرم المولى ﷻ إبراهيم ﷺ ووهبه إسماعيل من هاجر كما وهبه إسحاق من سارة وفيما يلي نتحدث عن البشارة بإسحاق وموقف إبراهيم ﷺ وزوجه سارة من تلك البشارة كما نتحدث بعد ذلك عن هاجر ﷺ .

= صحيحه - واللفظ له - عن أبي هريرة كتاب الفضائل باب من فضائل إبراهيم الخليل ﷺ . حديث 2371 صحيح مسلم بشرح النووي 123/15 ومعني مهيم : ما الخير ؟ ومعني (يا بني ماء السماء) : قيل : خطاب للعرب لكثرة ملازمتهم للفلوات التي بها مواقع القطر ، وقيل : أراد بماء السماء ماء زمزم ؛ لأن الله أتبعها لهاجر فعاش ولدها بها فصاروا كأنهم أولادها . يراجع فتح الباري 454/6 وقيل : المراد ببني ماء السماء العرب لخلوص نسبهم وصفائه يراجع شرح النووي لصحيح مسلم 127/15 .

المبحث الأول

البشارة بإسحاق عليه السلام

وموقف إبراهيم عليه السلام وزوجه سارة من البشارة

سجل القرآن الكريم هذا الحدث العظيم في حياة الخليل إبراهيم عليه السلام وزوجه سارة، وفي هذا دلالة واضحة على أهمية هذا الحدث، وإشارة جليلة إلى تكريم الله ﷻ لإبراهيم ولزوجه سارة وإسحاق عليه السلام. يقول ﷻ في سورة هود: ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلَنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبَشْرَى قَالُوا سَلَمًا قَالَ سَلَّمَ فَمَا لِيكَ أَنْ جَاءَ بِعِجَلٍ حَنِيدٍ ﴿٦٦﴾ فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٦٧﴾ وَأَمْرَانُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكْتُمْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَقَ يَعْقُوبَ ﴿٦٨﴾ قَالَتْ يَبْئُوتَنِيَ أَعْلَدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٦٩﴾ قَالُوا أَنْتَعْجِبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحِمْتُ اللَّهُ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ ﴿٧٠﴾ (1)

وفي سورة الحجر يقول ﷻ: ﴿وَنَبِّئْتَهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ ﴿٥١﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَمًا قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِئُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا لَا نُوَجِّدُ لَكَ إِتَابًا بِشْرِكَ يُغْلَبُ عَلَيْكَ ﴿٥٣﴾ قَالَ أَمْشِرْتُمُونِي عَلَى أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فِيمَ تَبْشُرُونَ ﴿٥٤﴾ قَالُوا بِشْرَتِكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْفٰئِطِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ ﴿٥٦﴾ (2)

ويقول تعالى في سورة الذاريات: ﴿هَلْ أُنذِرُكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ ﴿١٧﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَمًا قَالَ سَلَّمَ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ ﴿١٨﴾ فَرَأَى إِلَيْكَ أَهْلِيهِ فَجَاءَ بِعِجَلٍ سَمِينٍ ﴿١٩﴾ فَفَرَّيْتَهُمْ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٠﴾ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشِّرْهُ بِغُلَامٍ عَلَيْهِ ﴿٢١﴾ فَأَقْبَلَتْ أَمْرَانُهُ فِي صَرَقٍ فَصَكَتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٢﴾ قَالُوا كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴿٢٣﴾ (3)

وسوف نتناول إن شاء الله هذه الآيات الكريمة بالتفسير والبيان فنقول وبالله التوفيق:

(2) سورة الحجر : 51 - 56 .

(1) سورة هود : 69 - 73 .

(3) سورة الذاريات : 24 - 30 .

أولاً : مجيء الملائكة لإبراهيم ﷺ

في صورة من أبهى وأجمل الصور البشرية جاء الملائكة الكرام إلى إبراهيم ﷺ وبادروه بالتحية فحياهم بأحسن منها .

قال تعالى في سورة هود : ﴿ وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلْنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَمًا قَالَ سَلَمٌ ﴾ (1)

وقال سبحانه في سورة الحجر : ﴿ وَنَبَّيْتُهُم عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ ﴿٥١﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَمًا قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَحِلُونَ ﴾ (2)

وفي سورة الذاريات يقول جل وعلا : ﴿ هَلْ أَنْتَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ ﴿٦٢﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَمًا قَالَ سَلَمٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ ﴾ (3) وفي هذه الآيات الكريمة يخبر المولى ﷺ عن نزول الملائكة في صورة بشرية ومجيئهم إلى الخليل إبراهيم ﷺ بالبشرى . والبشرى هي الخبر السار والمراد هنا البشارة بإسحاق ﷺ .

● تحية مباركة طيبة :

● قال تعالى في سورة هود : ﴿ وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلْنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَمًا قَالَ سَلَمٌ ﴾ (4)

حيوه ﷺ ، بتحية السلام وهي تحية من عند الله مباركة طيبة (5) ، ﴿ قَالُوا سَلَمًا ﴾ أي نسلم عليك سلاماً أو سلمنا عليك سلاماً ، ﴿ قَالَ سَلَمٌ ﴾ أي عليكم سلام أو سلام عليكم .

● قال الألوسي : [وقد حياهم ﷺ بأحسن من تحيتهم لأنها : بجملة اسمية دالة على الدوام والثبات فهي أبلغ] (6) .

(2) سورة الحجر : 51 ، 52 .

(1) سورة هود : 69 .

(4) سورة هود : 69 .

(3) سورة الذاريات : 24 ، 25 .

(5) يقول تعالى في سورة النور : ﴿ فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبْرَكَةٌ طَيِّبَةٌ ﴾ النور : 61 .

(6) روح المعاني للألوسي 94/12 - ويراجع تفسير القرآن العظيم لابن كثير 451/2 .

● **وقال البقاعي** (1) : [... فللرفع مزية على النصب لأنه إخبار عن ثابت ، والنصب تجديد ما لم يكن فصار مندرجاً في ﴿ وَإِذَا حُيِّتُمْ بِبِئْسَ فَحِيُوًا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا ﴾ (2)] (3) .

وفي سورة الذاريات : ﴿ قَالَ سَلِّمْ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ ﴾ (4) .

● **قال الزمخشري** : [أنكرهم للسلام الذي هو تحية الإسلام ، أو أراد أنهم ليسوا من معارفه أو من جنس الناس الذين عهدهم ، أو رأى لهم حالاً أو شكلاً خلاف حال الناس وشكلهم ، أو كان هذا سؤالاً لهم كأنه قال : أنتم قوم منكرون ؛ فعرفوني من أنتم ؟] (5) .

● **وقال ابن كثير** : [إنما أنكرهم لأنهم قدموا عليه في صورة شبان حسان عليهم مهابة عظيمة ولهذا أنكرهم] (6) .

● **وقال أبو حيان الأندلسي** : [والذي يناسب حال إبراهيم عليه السلام أنه لا يخاطبهم بذلك إذ فيه من عدم الأنس ما لا يخفى ، وإنما قال ذلك في نفسه ، أو لمن معه من أتباعه وغلماينه بحيث لا يسمع ذلك الأضياف] (7) .

ومع أنه عليه السلام لم يعرفهم إلا أنه أكرم نزلهم وأحسن ضيافتهم وفيما يلي نتحدث عن ذلك :

ثانياً : كرم الضيافة

حيثاهم عليه السلام بأفضل مما حيوه ، وفي هذا ما يشير إلى أدب هام من آداب الضيافة هو

(1) هو الإمام العلامة برهان الدين إبراهيم بن عمر بن حسن الرباط بن علي بن أبي بكر البقاعي المفسر المؤرخ المحدث الأديب - ولد سنة 809 هـ وتوفي 885 هـ - من أهم مؤلفاته : نظم الدرر في تناسب الآيات والسور - وله ديوان شعر - ورسالة (ليس في الإمكان أبدع مما كان) في الرد على بعض الفلاسفة - والأصل الأصيل في تحريم النقل من التوراة والإنجيل ، ومؤلفات أخرى قيمة في التصوف .

تراجع ترجمته في معجم المؤلفين 71/1 - وشذرات الذهب 339/7 - والموسوعة الصوفية للدكتور عبد المنعم حفني ص 61 : 66 ط دار الرشد سنة 1412 هـ سنة 1992 م .

(2) سورة النساء : 86 .

(3) نظم الدرر للبقاعي 329/9 ط حيدر آباد وراجع الكشف للزمخشري 41/4 .

(4) سورة الذاريات : 25 . (5) الكشف للزمخشري : 410/4 .

(6) تفسير ابن كثير 235/4 . (7) البحر المحیط لأبي حيان 139/8 .

حسن استقبال الضيف (1) .

وبادر ﷺ إلى إعداد الطعام لضيوفه دون أن يسألهم عن شأنهم ، وفي هذا ما يدل على كرمه ومروءته ، قال تعالى : ﴿ فَمَا لَيْتَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴾ (2) وقال ﷺ : ﴿ فَرَاغَ إِلَيْكَ أَهْلِيهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴾ (3) فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴾ (3) .

والتعبير بـ ﴿ فَمَا لَيْتَ أَنْ جَاءَ ... ﴾ يدل على سرعة مبادرة الخليل إبراهيم ﷺ إلى إعداد الطعام لضيوفه الكرام ، واستغراق ذلك وقت يسير ، رغم أن الطعام الذي أعده وقدمه عجل سمين حنيد أي مشوي على الرضف وهي الحجارة المحماة ، فهو عجل سمين لذيد ، وفي هذا ما يدل على إكرام إبراهيم ﷺ لضيوفه ، وحفاوته بهم حيث قدم لهم أفضل ما عنده .

● وقوله تعالى : ﴿ فَرَاغَ إِلَيْكَ أَهْلِيهِ ﴾ : يدل على ذهابه إلى أهله في خفية ؛ حتى لا يشعر به الضيفان (4) .

(1) من آداب الضيافة : حسن استقبال الضيف بيسط الوجه له والحفاوة به ولين القول معه ، ولذلك قيل : إكرام الضيف شيء هين : بشاشة وجه ، وقول لين ، وقيل : البشاشة في الوجه خير من القرى ، وقيل أيضًا : تمام الضيافة الطلاقة عند أول وهلة وإطالة الحديث عند المؤكلة .
وقال الشاعر :

شيء كطارقة الضيوف النزّل
ضيّفًا له والضيّف ربّ المنزل

اللّه يعلم أنه ما سرنبي
مازلت بالترحيب حتى خلعتي

وقال آخر :

ونشبعه بالبشر من وجه ضاحك

إنا لنقري الضيف قبل نزوله

وقال أحد الشعراء :

ويخصّب عندي والمحلّ جديب

أضاحك ضيفي قبل أن أنزل رحله

ولكنما وجه الكرم خصيب

وما الخصب للأضياف أن تكثر القرى

يراجع في هذا المقام بهجة المجالس وأنس المجالس للإمام أبي عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر النمري القرطبي ت 463 هـ / 295/1 ط دار الكتب العلمية بيروت ويراجع المستطرف في كل فن مستظرف لشهاب الدين الأبيهي ت 850 هـ - 266/1 ط دار مكتبة الحياة بيروت سنة 1988 .

(3) سورة الذاريات : 26 - 27 .

(2) سورة هود : 69 .

(4) وفي أساس البلاغة : ولا يقال : راغ عن كذا ، إلا إذا كان عدوله عنه في خفية [أساس البلاغة مادة روغ ص 184] وفي المفردات للراغب - الروغ الميل على سبيل الاحتيال ، ومنه راغ القلب يروغ وروغانًا وطريق رافع إذا لم يكن مستقيماً كأنه يراوغ . المفردات مادة ر و غ ص 208 .

- وقوله تعالى : ﴿ فَكَّرَبَهُمْ إِلَيْهِمْ ﴾ يدل على تقديمه للطعام إثر فراغه من إعداده دون تمهل أو تباطؤ ، وتقريب الطعام وجعله في متناول يد الضيف من آداب الضيافة .
- ومن كرمه الطيّب وحسن أدبه مع ضيفه أنه قرب الطعام إليهم أي جعله في متناول أيديهم ، ولم يكتف بذلك بل دعاهم إلى الأكل بملاطفة ولين ﴿ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴾ .
- وفي قيامه الطيّب بخدمة ضيفه بنفسه ما يدل على حفاوته بهم .
- وفي قوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكَّرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ﴾ إشارة إلى أدب هام من آداب الضيافة ، هذا الأدب هو تفقد حال الضيف بتلطف ، حتى يعرف صاحب البيت هل يأكل ضيفه أم لا يأكلون ؟ وهل هم في حاجة إلى فضل طعام أم لا يحتاجون ؟ (1) .

وبعد فهذه جملة من الآداب الكريمة والخلال الحميدة ، تدل على حسن أدب الخليل إبراهيم الطيّب ، وإكرامه لضيفه ، ولنا في الأنبياء الطيّبين القدوة الحسنة والأسوة الطيبة ، ولقد حثنا ديننا الحنيف ورغبنا في هذا الخلق الكريم والأدب العظيم ، ولنا عودة إلى هذا الموضوع في الدروس المستفادة من القصة .

ثالثاً : فزعه الطيّب من ضيفه ومعرفته بحالهم

قدم إبراهيم الطيّب الطعام إلى الملائكة الكرام ، فلم يمدوا إليه يداً ؛ وذلك لأن الملائكة لا يأكلون ولا يشربون ، ولم يكن الطيّب يعلم أنهم ملائكة ﴿ فَأَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكَّرَهُمْ ﴾ : نكر ذلك منهم ووجدته على غير ما يعهد من الضيف ، فإن الضيف لا يمتنع من طعام المضيف إلا لرية ، أو قصد سيئ ، وأحسن في نفسه خيفة منهم :

(1) يقول الإمام القرطبي : [من أدب الطعام : أن لصاحب الضيف أن ينظر في ضيفه هل يأكل أم لا ، وذلك ينبغي أن يكون بتلفت ومسارعة ، لا بتحديد نظر ، روي أن أعرابياً أكل مع سليمان بن عبد الملك ، فرأى سليمان في لقمة الأعرابي شعرة فقال له : أزل الشعرة عن لقمتك ، فقال له : أنتظر إليّ نظر من يرى الشعرة في لقمتي ؟ والله لا أأكل معك ، قلت : وقد ذكر أن هذه الحكاية إنما كانت مع هشام بن عبد الملك لامع سليمان وأن الأعرابي خرج من عنده وهو يقول :

وَلَمَمْتُ خَيْرَ مِنْ ضِيَاةٍ بَاخِلٍ
يَلْحَظُ أَطْرَافَ الْأَكِيلِ عَلَى عَمَدٍ

الجامع لأحكام القرآن للقرطبي 66/9 وسليمان بن عبد الملك وهشام من خلفاء الدولة الأموية يراجع في ذلك تاريخ الخلفاء للسيوطي ص 225 ، ص 247 ط / مطبعة المدني 1383 هـ .

﴿ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ﴾ .

والوجس : هو الصوت الخفي ويطلق على ما يعترى النفس من الخواطر عند الفزع ولقد صرح إبراهيم عليه السلام للملائكة الكرام بما جاش في صدره من خوف وترقب فقال لهم كما ورد في سورة الحجر : ﴿ قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ ﴾ (1) .

فلما رأوا منه ذلك بادروا إلى تهدئة روعه وطمأنة قلبه ، فأظهروا حقيقتهم وكشفوا عن مهمتهم التي من أجلها جاءوا . وهي إهلاك قوم لوط وقطع دابريهم بعد أن تبادوا في الكفر والطغيان وأصروا على الفسوق والعصيان ، كما جاءوا أيضاً لتبشير إبراهيم عليه السلام وزوجه سارة بإسحاق (ومن وراء إسحاق يعقوب) .

● وفيما يلي نتحدث عن هذه البشارة وموقف إبراهيم عليه السلام وزوجه سارة منها .

رابعاً : البشارة بإسحاق ، وموقف إبراهيم عليه السلام وزوجه سارة من البشارة .

سجل القرآن الكريم موقفهما من البشارة بإسحاق عليه السلام .

● أما عن إبراهيم عليه السلام فكما أخبر القرآن الكريم في سورة الحجر عن بشارة الملائكة له وموقفه من تلك البشارة من خلال الحوار الذي دار بينه وبين الملائكة الكرام عليهم السلام . قال تعالى : ﴿ وَنَبَّأَهُمْ عَنْ صَيفِ إِبْرَاهِيمَ ۖ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَمًا قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ ۗ قَالُوا لَا نَؤْجَلُ إِنَّا نَبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلَيْكَ ۖ قَالُوا أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰ أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فِيمَ تَبَشِّرُونَ ۗ قَالُوا نَبَشِّرُكَ بِإِلْحَقٍ فَلَا تَكُن مِّنَ الْفٰطِنِينَ ۗ قَالِ وَمَنْ يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ ﴾ (2) .

- وفي هذه الآيات الكريمة بيان لما كان بين إبراهيم عليه السلام والملائكة ، حيث بشروه بإسحاق ، وذلك حين جاءوا في صورة بشرية وأعد لهم طعاماً وقرّبه إليهم فلم يأكلوا منه فخاف منهم وأظهر لهم خوفه ﴿ قَالُوا لَا نَؤْجَلُ إِنَّا نَبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلَيْكَ ﴾ يولد لك من سارة وتكون له مكانة عالية ودرجة رفيعة في العلم .

- سمع إبراهيم عليه السلام تلك البشارة فتعجب منها ، وقال للملائكة الكرام مصرحاً بتعجبه ﴿ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰ أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ ﴾ أي مع ما مسني من الكبر ، يا له من أمر عجيب يدعو إلى الدهشة والتعجب ! ﴿ فِيمَ تَبَشِّرُونَ ﴾ فبأي أمر عجيب تبشرونني ؟

(2) سورة الحجر : 51 - 56 .

(1) سورة الحجر : 52 .

وكيف تتحقق هذه البشارة العجيبة مع كبر سني وعقم زوجي ؟ .

﴿ قَالُوا بَشِّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْفٰنِطِينَ ﴾ أي إن بشارتنا ملازمة للحق لاتنك عنه ونحن رسل الحق لا نزل إلا بالحق ﴿ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْفٰنِطِينَ ﴾ لا تكن يائسا من الإنجاب وأنت في هذه السن ، وامراتك عجوز لا تلد ؛ لأن هذه البشارة هبة من الله وكرامة منه ، وهو سبحانه قادر على كل شيء ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ (1) ﴿ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ (2) فالبشارة من الله والواهب هو الله ونحن رسل الله إليك .

ملكُ الملوك إذا وهب لا تسألن عن السبب

مشيئة الله في أحبابه سبقت لحكمة حيرت في فهمها الفكر

﴿ قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ ﴾ (3) .

بين لهم إبراهيم عليه السلام أنه ليس قانطاً من رحمة الله ﷻ لأنه ﷻ يعلم علم اليقين أن رحمة الله واسعة وأنها قريب من المحسنين وأن عطاءه ﷻ عطاء ممدود وقدرته سبحانه لا تحدها حدود ولا تقيدتها قيود ، وهو سبحانه الخالق لنواميس هذا الكون ، والقادر على خرق هذه النواميس بخوارق العادات التي تدل على كمال قدرته وطلاقة مشيئته .

﴿ قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ ﴾ عن معرفته ﷻ ، والأنبياء هم أعرف الناس بمقام الله ﷻ .

● قال الزمخشري : [﴿ قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ ﴾ : يعني لم استنكر ذلك قنوطاً من رحمته ، ولكن استبعاداً له في العادة التي أجراها الله] (4) .

● وقال الصابوني [﴿ قَالُوا بَشِّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْفٰنِطِينَ ﴾ ، أي بشرناك بالحق الثابت والأمر المحقق ، فلا تستبعده ولا تيأس من رحمة الله ، فإن الله لا يعجزه شيء ، ﴿ قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ ﴾ الذين أخطأوا طريق الصواب ، ولم يعرفوا قدرة الله ، ومراد إبراهيم عليه السلام نفي القنوط عن نفسه على أبلغ

(2) سورة الأعراف : 54 .

(1) سورة يس : 82 .

(4) الكشاف 581/2 .

(3) سورة الحجر : 56 .

وجه ، أي ليس بي قنوط من رحمته تعالى] (1) .

وإنما يتعجب عليه السلام من هذه البشارة ويتساءل عن كيفية وقوعها وهو شيخ كبير ، بلغ وامراته العجوز العقيم من الكبر عتياً .

● هذا عن موقف إبراهيم عليه السلام من البشارة ، أما عن موقف سارة عليها السلام فلقد ورد الحديث عنه في سورة هود وفي سورة الذاريات وفيما يلي بيان ذلك .

أولاً : ما ورد في سورة هود :

قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَهُ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦١﴾ فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكَّرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٦٢﴾ وَأَمْرَانَهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكْتُمْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِهِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴿٦٣﴾ قَالَتْ يَتُوبَلَىٰ أَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٦٤﴾ قَالُوا أَتَعْجِبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ ﴿٦٥﴾ (2) .

قوله تعالى : ﴿ وَأَمْرَانَهُ قَائِمَةٌ ﴾ بيان من الله ﷻ لحال سارة عليها السلام حين جاءتها البشارة حيث كانت قائمة من وراء الستر من أجل خدمة الضيفان ، وقيل : كانت قائمة تخدمهم بنفسها ، وهي عجوز في التسعين لا يخشى عليها ولا منها الفتنة .

والذي أرجحه : أنها كانت قائمة من وراء الستر في خدمتهم ، وإبراهيم عليه السلام معهم يخدمهم ؛ وظاهر الآيات يفيد ذلك قال تعالى : ﴿ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَهُ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦١﴾ فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكَّرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً .. ﴾ وقال تعالى : ﴿ فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ فَجَاءَهُ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٦٢﴾ فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا نَأْكُلُونَ .. ﴾ فهو عليه السلام الذي قام على خدمتهم بنفسه وامراته كانت قائمة من وراء الستر في خدمتهم ، ولما سمعت الملائكة تبشره أقبلت من وراء الستر قال تعالى : ﴿ فَأَقْبَلَتْ أَمْرَانَهُ فِي صَفَرٍ .. ﴾ .

● حقيقة ضحكها وسببه

● واختلف في ضحكها على أقوال : قيل : هو الضحك المعروف ، وهو قول الجمهور ، واختلف في سببه ، قيل : فرحها لما سمعت الملائكة تخبر إبراهيم عليه السلام بنجاة

(1) قيس من نور القرآن دراسة تحليلية موسعة بأهداف ومقاصد كل سورة للشيخ محمد علي الصابوني الأستاذ بجامعة أم القرى 6/69 بتصرف ط دار القلم بسوريا .
(2) سورة هود : 71 - 73 .

لوط ومن آمن معه وهلاك المكذبين له المعرضين عن دعوته .

● قال ابن كثير : [**فَضَحَكَتُ**] استبشارًا بهلاكهم لكثرة فسادهم وكفرهم وعنادهم ، فلهذا جوزيت بالبشارة بالولد بعد الإياس [(1)] .

● وقيل : ضحكت تعجبًا من قوم لوط ، وإنكارًا عليهم لغفلتهم وقد أظلمهم العذاب ، قاله قتادة (2) ، وقيل : ضحكت لما علمت أنهم ملائكة والملائكة لا يأكلون ولا يشربون فضحكت تعجبًا من هذا الموقف (3) .

● وقيل : ضحكت بسبب زوال الخوف عن إبراهيم (4) عليه السلام .

● وقيل : ضحكت تعجبًا من البشارة بالولد وهذا الرأي يتنافى مع سياق الآيات **﴿ وَأَمْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحَكْتُ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ ﴾** قال ابن كثير : [وقال وهب بن منبه : إنما ضحكت لما بشرت بإسحاق . وهذا مخالف للسياق ؛ فإن البشارة صريحة مرتبة على ضحكها] (5) .

● وذهب بعض العلماء إلى أن معنى **﴿ فَضَحَكْتُ ﴾** أي : (فحاضت) .

● قال القرطبي : [قال مجاهد (6) وعكرمة (7) : حاضت وكانت آيسة ، تحقيقًا للبشارة وأنشد على ذلك اللغويون :

وإني لآتي العرس عند طهورها
وضحك الأرانب فوق الصفا
وأهجرها يوما إذا تك ضاحكا
كمثل دم الجوف يوم اللقا

(1) تفسير القرآن العظيم لابن كثير 452/2 بتصرف .

(2) المرجع السابق 452/2 وتفسير الماوردي 255/2 والكشاف 411/2 وتفسير الطبري تحقيق أحمد شاكر 389/15 .

(3) تفسير الماوردي 255/2 . (4) الكشاف 410/2 ومفاتيح الغيب 25/18 .

(5) تفسير القرآن العظيم 452/2 .

(6) هو مجاهد بن جبر أبو الحجاج المكي (21 - 104 هـ) ، مولى بني مخزوم ، تابعي عالم بالتفسير والحديث والقراءات روى عن أبي هريرة وأم سلمة وأم هانئ ، وحدث عنه عكرمة وعطاء وقتادة ، ومات رحمته الله وهو ساجد . تراجع ترجمته في غاية النهاية لابن الجزري 41/3 ، وطبقات المفسرين للداوودي 302/2 وتقريب التهذيب لابن حجر 520 .

(7) هو أبو عبد الله عكرمة البربري المدني مولى ابن عباس ، أصله من البربر بالمغرب روى عن مولاه ابن عباس وعن علي بن أبي طالب وأبي هريرة وغيرهم وهو تابعي موثوق بعدالته ودينه . وله في العلم منزلة سامية ، توفي رحمته الله سنة 104 هـ . تراجع ترجمته في تهذيب التهذيب 263/7 .

والتفسير والمفسرون للذهبي 109/1 .

والعرب تقول ضحكت الأرنب إذا حاضت ، وقد أنكر بعض اللغويين أن يكون في كلام العرب ضحكت بمعنى حاضت ، وقال الجمهور : الضحك المعروف ، وليس الضحك الحيض في اللغة بمستقيم وأنكر الفراء ذلك وقال : لم أسمعه من ثقة ، وإنما هو كناية (1) [(2) .

● وقال الإمام أحمد بن المنير : وهو يرد على من زعم أن ضحكها بمعنى حيضها : [...] ويعد هذا التأويل أنها قالت بعد ﴿ قَالَتْ يَوَلَيْتُءِآلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي سَيِّئًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴾ فلو كان حيضها قبل بشارتها لما تعجبت ؛ إذ لا عجب في حمل من تحيض والحيض في العادة علامة على إمكان الحمل [(3) .

والرأي المختار في تفسير ﴿ فَضَحَّكَتْ ﴾ هو ما ذهب إليه جمهور المفسرين : أن الضحك هنا على حقيقته ، وسببه الفرح والتعجب ، فَرِحَتْ حين سمعت الملائكة الكرام يخبرون إبراهيم عليه السلام بأمر نجاة لوط عليه السلام ومن آمن معه وهلاك المكذبين به المعرضين عن دعوته وتعجبت من حال الهالكين ، كيف يتمادون في الضلال ويصرون على الانحلال مع قرب هلاكهم ؛ فالأولى بهم أن يتوبوا إلى الله قبل فوات الأوان .

● وهذا يدل على قوة إيمانها وحبها وولائها للإيمان وأهله ، وبغضها وبرائها من الكفر وأهله ، وفي ظل هذه المشاعر الإيمانية جاءت البشارة بالذرية الصالحة لتكتمل فرحتها وتتم سعادتها ، جاءت البشارة وهي في هذا الموقف المحمود ، كما جاءت البشارة لذكريا عليه السلام بالولد بعد طول انتظار - جاءت البشارة وهو قائم يصلي في الحراب - وكما أن الصلاة هي من أسمى العبادات : فموالاة أولياء الله ومعاداة أعدائه ، من أعظم القربات ، وفي مجيء الملائكة بالبشارة أعظم تكريم لها عليه السلام .

(1) في معاني القرآن للفراء : [وإنما ضحكت سرورًا بالأمن فأتبعوها بشرى بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب ، وقد يقول بعض المفسرين هذا مقدم ومؤخر ، والمعنى فيه فبشرناها بإسحاق فضحكت بعد البشارة وهو مما يحتمله الكلام ، والله أعلم بصوابه ، وأما قوله : ﴿ فَضَحَّكَتْ ﴾ بمعنى حاضت فلم نسمعه من ثقة [معاني القرآن لأبي زكريا يحيى بن زياد الفراء المتوفى سنة 203 هـ ، 21/2 ، 22 ط دار السرور بيروت . وفي معاني القرآن وإعرابه للزجاج : [فأما من قال : ﴿ فَضَحَّكَتْ ﴾ حاضت فليس بشيء وإنما ضحكت سرورًا بمجيء الأمر بإهلاك المكذبين [معاني القرآن وإعرابه للزجاج 62/3 ط عالم الكتب .

(2) الجامع لأحكام القرآن. للقرطبي 66/9 ، 67 بتصرف .

(3) الانتصاف للإمام أحمد بن المنير الإسكندري بهامش الكشاف 410/2 ، 411 بتصرف .

● أما عن حمل الضحك على الحيض : فهو ضرب من التعسف والتكلف في فهم النص القرآني ، والعرب لا يعرفون الضحك بمعنى الحيض ، وما استشهد به بعض المفسرين في استعمال الضحك بمعنى الحيض إذا صح هذا الشاهد فإن استعمال الضحك بمعنى الحيض شاذ غير مألوف ، وحمل القرآن على هذا الشاذ مما لا يليق ببيانه وبلاغته ، ولو كانت سارة عليها السلام قد جاءها الحيض قبل البشارة لما تعجبت وقالت ﴿يَوَلِّيَّيْ أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ .

قيل : كان عمرها حين بُشِّرَتْ تسعين سنة وكان عمر زوجها إبراهيم عليه السلام قرابة المائة (1) ، ولم ترد الدعاء على نفسها بالويل ولكنها كلمة تجري على السنة النساء إذا طرأ عليهن ما يعجبن منه ، ولقد عجبت من الولادة وهي في هذه السن وزوجها شيخ كبير ، لخروجه عن العادة وما خرج عن العادة مستغرب ومستنكر (2) ، ﴿شَيْخًا﴾ منصوب على الحالية والعامل فيه ما في ﴿هَذَا﴾ من معنى الإشارة (3) ﴿إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ : أن يولد ولد من هرمين ، وهو استبعاد من حيث العادة التي أجراها الله (4) .

● وقال الرازي [إنها تعجبت بحسب العرف والعادة لبحسب القدرة ؛ فإن الرجل المسلم لو أخبره مخبر صادق بأن الله تعالى يقلب هذا الجبل ذهبًا خالصًا فلا شك أنه سيتعجب نظرًا إلى أحوال العادة ، لا لأجل أنه استنكر قدرة الله على ذلك] (5) .

﴿قَالُوا أَتَعَجِبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحِمْتُ اللَّهُ وَبَرَكَتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ﴾ .

قال الملائكة الكرام لسارة عليها السلام : أتعجبين من هذا الأمر الخارق وأنت في بيت النبوة ، ومهبط الوحي ، وموئل الرحمات ومعهد البركات والنفحات وخوارق العادات ؟ فكيف تعجبين من ذلك ؟ .

● قال الإمام البيضاوي : [... قالوا منكبين عليها : فإن خوارق العادات باعتبار أهل

بيت النبوة ومهبط المعجزات ، وتخصيصهم بمزيد النعم والكرامات ليس بيدع ولا حقيق بأن يستغربه عاقل ، فضلا عن نشأت وشابت في ملاحظة الآيات] (6) .

(1) جامع البيان للطبري 398/15 بتحقيق أحمد شاكر والجامع لأحكام القرآن للقرطبي 70/9 وروح المعاني 99/12 .

(2) يراجع الجامع لأحكام القرآن للقرطبي 69/9 - وتفسير القرآن العظيم لابن كثير 452/2 مجمع البيان

للطبرسي 274/5 . (3) روح المعاني للألوسي 100/12 .

(5) مفاتيح الغيب 28/18 .

(4) الكشف للزمخشري 411/2 .

(6) يراجع حاشية الشهاب على البيضاوي 116/5 .

● وقال الزمخشري : [وإنما أنكرت عليها الملائكة تعجبها لأنها كانت في بيت الآيات ومهبط المعجزات والأمور الخارقة للعادة ، فكان عليها أن تتوقر ولا يزدهيها ما يزدهي سائر النساء الناشئات في غير بيوت النبوة ، وأن تسبح الله وتمجده مكان التعجب ، وإلي ذلك أشارت الملائكة صلوات الله عليهم في قولهم : ﴿ رَحِمْتُ اللَّهُ وَبَرَكَتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ ﴾ أرادوا أن هذه البشارة ومثلها مما يكرمكم به رب العزة ويخصكم به يا أهل البيت فليست بمكان عجب ... فإن أمثال هذه الرحمة والبركة متكاثرة من الله عليكم] (1) ﴿ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴾ .

فهو سبحانه المحمود بما اتصف به من صفات الكمال ونعوت الجلال وهو المحمود ولا يزال على ما أبدى من النعم وأسدى من الكرم .

● يقول أبو حامد الغزالي : [الحميد بحمده لنفسه أولاً ، وبحمد عباده له أبداً] (2) .

ويقول عبد الكريم القشيري : [﴿ حَمِيدٌ ﴾ أي محمود بحمده لنفسه وبحمد غيره له] (3) .

وقال الطبري : [﴿ حَمِيدٌ ﴾ محمود في تفضله عليكم بما تفضل به من النعم عليكم وعلي سائر خلقه] (4) .

و ﴿ مَجِيدٌ ﴾ : واسع الكرم ، جزيل العطاء ، عظيم القدر ، رفيع الدرجات .

● قال الطبري : [﴿ مَجِيدٌ ﴾ ذو مجد ومدح وثناء كريم] (5) .

● وقال الزمخشري [﴿ مَجِيدٌ ﴾ كثير الإحسان إلى عباده] (6) .

● وقال الرازي [المجيد ذو الشرف والكرم] (7) .

● وقال الطباطبائي : [قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴾ في مقام التعليل لقوله تعالى : ﴿ رَحِمْتُ اللَّهُ وَبَرَكَتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ ﴾ ؛ لأنه تعالى مصدر كل فعل محمود ، ومنشأ

(1) الكشاف 411/2 بتصريف - و ﴿ أَهْلَ الْبَيْتِ ﴾ منصوب على النداء ، والتقدير : يا أهل البيت - (فأهل)

منادى منصوب لأنه مضاف وحرف النداء محذوف ، ويجوز أن يكون نصب هنا على المدح أو التخصيص

(2) المقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى ص 115 ط مكتبة القرآن .

(3) شرح أسماء الله الحسنى للإمام عبد الكريم القشيري ص 323 ط مجمع البحوث الإسلامية / 1390 هـ .

(4) جامع البيان للطبري بتحقيق أحمد شاكر 400/15 . (5) المرجع السابق 400/15 .

(6) الكشاف 411/2 . (7) مفاتيح الغيب 28/18 .

كل كرم وجود ، يفيض من رحمته وبركاته على من يشاء من عباده [(1)] .

ثانياً : ما ورد في سورة الذاريات

قال تعالى في سورة الذاريات ﴿ فَأَقْبَلَتْ أَمْرَاتُهُ فِي صَرْقٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴾ (2) قَالُوا كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴿ (2) .

وفي هذه الآيات مزيد بيان لموقف سارة عليها السلام من البشارة ومعنى ﴿ فَأَقْبَلَتْ أَمْرَاتُهُ فِي صَرْقٍ ﴾ أي جاءت لما سمعت البشارة في صيحة وضجة ، ﴿ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا ﴾ ضربته بيدها على عادة النساء حين يتعجبين من أمر عجيب غريب .

● قال الماوردي (3) : [وأما قوله تعالى : ﴿ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا ﴾ ففيه قولان أحدهما : معناه لطمت وجهها ، قاله ابن عباس ، الثاني : ضربت جبينها تعجباً] (4) .

● وقال الزمخشري : [لطمت بيسط يديها وقيل : فضربت بأطراف أصابعها جبهتها فعل المتعجب] (5) ﴿ وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴾ فكيف ألد وأنا كذلك ؟ ﴿ قَالُوا كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴾ إنما نخبرك عن الله ، والله قادر على كل شيء ، وهو المصرف لأمر الخلق بحكمته والعليم بأحوال الناس ، وما يصلحهم في معاشهم ومعادهم .

● وتحقق البشارة وتلد سارة إسحاق عليه السلام وينمو ويترععرع في هذا البيت الطاهر ، وفي هذا الجو الإيماني ويتزوج ويولد له يعقوب عليه السلام ، وهكذا تتجلى لنا آية من آيات الله عز وجل الدالة على عظيم قدرته ، وسعة رحمته ، وإكرامه وتكريمه لأنبيائه وأوليائه .

(1) الميزان 326/10 . (2) سورة الذاريات : 29 ، 30 .

(3) هو أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري البغدادي (الماوردي) مفكر ومفسر وفقه وأديب (364 - 450) هـ . من أهم مؤلفاته : (النكت والعيون : تفسير القرآن الكريم) ، والحاوي الكبير في فقه الشافعية ، والإقناع وهو مختصر للحاوي الكبير ، وأدب القاضي ، وأدب الدنيا والدين ، وأعلام النبوة ، ونصيحة الملوك ، والأحكام السلطانية .

تراجع ترجمته في طبقات الشافعية للسبكي 303/3 وفيات الأعيان 445/2 - شذرات الذهب 286/3 .

معجم الأدياء : 52/15 وطبقات المفسرين للداوودي 427/1 .

(4) النكت والعيون 113/4 ط / دار الصفوة بالكويت 1413 هـ ط / 1 .

(5) الكشف 402/4 .

المبحث الثاني

هاجر عليها السلام

زوج سيدنا إبراهيم وأم الذبيح إسماعيل عليهما السلام

ذكرنا فيما سبق أن ملك مصر وهب هاجر عليها السلام لسارة ، ولقد وهبت سارة هاجر لإبراهيم عليه السلام فتزوجها وأنجب منها - على الكبر - إسماعيل عليه السلام ، ولقد أمر المولى عليه السلام إبراهيم أن يخرج بهاجر وإسماعيل عليهما السلام إلى البلد الحرام ، فخرج بهما وتركهما هناك ، (ولما أراد أن ينصرف قالت له هاجر عليها السلام : إلى من تتركنا يا إبراهيم ، آله أمرك بهذا ؟ قال : نعم ، قالت : إذن لا يضيعنا ، ثم رجعت فانطلق إبراهيم حتى إذا كان عند الثنية حيث لا يرونه استقبل بوجهه البيت ثم دعا بهؤلاء الكلمات ورفع يديه فقال : ﴿ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنْ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ... ﴾ (1) [(2) .

(1) سورة إبراهيم : 37 .

(2) جزء من الحديث الذي رواه الإمام البخاري في صحيحه ، عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما ونص الحديث : « أول ما اتخذ النساء المنطق من قبل أم إسماعيل اتخذت منطقاً لتعفي أثرها على سارة ، ثم جاء بها إبراهيم وبانبتها إسماعيل - وهي ترضعه - حتى وضعها عند البيت عند دوحه فوق زمزم في أعلى المسجد وليس بمكة يومئذ أحد ، وليس بها ماء فوضعها هناك ، ووضع عندهما جراباً فيه تمر ، وسقاء فيه ماء ، ثم قفي إبراهيم منطلقاً ، فنبته أم إسماعيل فقالت : يا إبراهيم أين تذهب وتتركنا بهذا الوادي الذي ليس فيه إنس ولا شيء ؟ فقالت له ذلك مراراً ، وجعل لا يلتفت إليها . فقالت له : آله أمرك بهذا ؟ قال : نعم . قالت : إذن لا يضيعنا . ثم رجعت . فانطلق إبراهيم عليه السلام حتى إذا كان عند الثنية حيث لا يرونه استقبل بوجهه البيت ثم دعا بهؤلاء الكلمات ورفع يديه فقال : ﴿ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ ﴾ - حتى بلغ - ﴿ يَشْكُرُونَ ﴾ وجعلت أم إسماعيل ترضع إسماعيل وتشرب من ذلك الماء ، حتى إذا نفذ ما في السقاء عطشت وعطش ابنها ، وجعلت تنظر إليه يتلوى - أو قال : يتلبط - فانطلقت كراهية أن تنظر إليه فوجدت الصفا أقرب جبل في الأرض يليها فقامت عليه ، ثم استقبلت الوادي تنظر هل ترى أحداً ، فلم تر أحداً ، فهبطت من الصفا ، حتى إذا بلغت الوادي رفعت طرف ذراعها ، ثم سعت سعي الإنسان المجهود حتى جاوزت الوادي ، ثم أتت المروة فقامت عليها فنظرت هل ترى أحداً فلم تر أحداً ففعلت ذلك سبع مرات . قال ابن عباس : قال النبي صلى الله عليه وسلم : « فذلك سعي الناس بينهما » . فلما أشرفت على المروة سمعت صوتاً فقالت : صه - تريد نفسها - ثم تسمعت أيضاً فقالت : قد أسمعت إن كان عندك غواث ، فإذا هي بالملك عند موضع =

وفي هذه الآية الكريمة يتوجه إبراهيم عليه السلام بالدعاء إلى المولى عليه السلام فيقول : ﴿ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ ﴾ هو وادي مكة المكرمة ، وهو واد غير مزروع وليس بصالح للزرع .

● قال ابن عطية : [وإنما لم يصفه عليه السلام بالخلو من الماء مع أنه حاله إذ ذاك لأنه علم أن الله تعالى لا يضيع إسماعيل وأمه عليها السلام ، وأنه سبحانه يرزقهما الماء ، فنظر عليه السلام نظر البعيد] (1) .

﴿ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ ﴾ سمي محرماً لأن الله حرم التعرض له والتهاون به وجعل ما حوله حرماً لمكانه ، أو لأنه لم يزل منيعاً عزيزاً يهابه كل جبار كالشيء المحرم الذي حقه أن يجتنب أو لأنه عظيم الحرمة لا يحل انتهاكه (2) . قال تعالى : ﴿ وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ (3) ﴿ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ ﴾ اللام متعلقة بأسكنت أي ما أسكنتهم هذا الوادي الخلاء البلقع (4) من كل مرتفق ومرتق (5) إلا ليقموا الصلاة عند بيتك المحرم ويعمره بذكرك وعبادتك ، متبركين بالبقعة التي شرفتها على سائر البقاع وآمنين مطمئنين هائنين بجوارك الكريم ، ومستنزلين الرحمة التي آثرت

= زمزم ، فبحث بعقبه - أو قال : بجناحه - حتى ظهر الماء ، فجعلت تحوضه وتقول بيدها هكذا ، وجعلت تغرف من الماء في سقايتها وهو ينفور بعد ما تغرف . قال ابن عباس : قال النبي صلى الله عليه وسلم : « يرحم الله أم إسماعيل لو تركت زمزم - أو قال : لو لم تغرف من الماء - لكانت زمزم عيناً معيناً » قال : فشربت وأرضعت ولدها ، فقال لها الملك : لا تخافوا الضيعة ، فإن ها هنا بيت الله بينه هذا الغلام وأبوه ، وإن الله لا يضيع أهله ... » الحديث رواه البخاري في صحيحه ك / أحاديث الأنبياء - باب 9 حديث 3364 [فتح الباري - 456/6] .

(1) المحرر الوجيز لابن عطية 341/3 .
(2) الكشاف للزمخشري 558/2 .
(3) سورة الحج : 25 .
(4) البلقع : القفر المجدب .
(5) المرتفق والمرتق : الرفق والمرفق والمرتفق ما استعين به وفي سورة الكهف يقول عليه السلام : ﴿ وَيَهَيِّئْ لَكَ مِنْ أَمْرِكَ مَرْفَقًا ﴾ آية : 16 .

وفي تفسير الجلالين [ما ترتفقون به من غداء وعشاء] تفسير الجلالين ص 382 - وتفسير القرآن العظيم لابن كثير [ما ترتفقون به] 75/3 - ويقول القرطبي في الجامع [ما يرتفق به] 367/10 وفي الكشاف للزمخشري : [ما يرتفق به أي ما ينتفع به] 77/2 .

وحاصل القول أن المرفق والمرتفق ما يستعان به، وينتفع به ، وترافق القوم وارتفقوا صاروا جماعة وصحبة في السفر والجمع مترافقون ، ورافقه مرافقة : صاحبه في سفره فهو رفيق والجمع رفاق ورفقة ورفاق - يراجع لسان العرب 1694/3 : مادة - ر ف ق .
والمرتق : ما يلتمس منه الرزق من الماء والأقوات وغيرها . يراجع لسان العرب 1636/3 : مادة - رزق .

بها سكان حرمك⁽¹⁾ ، وخص الصلاة من جملة العبادات لفضلها ومكانتها فهي عماد الدين وهي الركن الركين وهي أساس العبادات ونبراسها .

﴿ فَاجْعَلْ أَفْتِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنه : لو قال أفئدة الناس لازدحمت عليه فارس والروم والناس جميعًا ولكنه قال : ﴿ أَفْتِدَةً مِنَ النَّاسِ ﴾ أي بعض الناس وهم المؤمنون الصالحون ، العباد الزهاد⁽²⁾ وقال سبحانه : ﴿ تَهْوِي إِلَيْهِمْ ﴾ أي تسرع إلى هذا المكان شوقًا وحنينًا ، قال القرطبي : [تهوي إليهم : أي تنزع إليهم وتحن إليهم]⁽³⁾ .

﴿ وَأَرْزُقُهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴾ قال الزمخشري [وَأَرْزُقُهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ ﴾ مع سكانهم واديًا ما فيه شيء منها ، بأن تجلب إليهم من البلاد ﴾ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴾ النعمة ، في أن يرزقوا أنواع الثمرات حاضرة في واد يباب ليس فيه نجم⁽⁴⁾ ولا شجر ولا ماء ، لاجرم أن الله ﷻ أجاب دعوته فجعله حرمًا آمنًا تجبى إليه ثمرات كل شيء رزقًا من لدنه ، ثم فضله في وجود أصناف الثمار فيه على كل ريف ، وعلي أخصب البلاد وأكثرها ثمارًا ، وفي أي بلد من بلاد الشرق والغرب ترى الأعجوبة التي يريكها الله بواد غير ذي زرع وهي اجتماع البواكير والفواكه المختلفة الأزمان من الربيعية والصيفية والشتوية والخريفية في يوم واحد ؟ وليس ذلك من آياته بعجيب ، متعنا الله بسكنى حرمه ووقفنا لشكر نعمه ، وأدام لنا التشرف بالدخول تحت دعوة إبراهيم عليه السلام ، ورزقنا طرفًا من سلامة ذلك القلب السليم]⁽⁵⁾ .

● ملاحظة مهمة :

ذكر الإمام البخاري في صحيحه عن ابن عباس رضي الله عنه ، ... أن سيدنا إبراهيم عليه السلام دعا بهذا الدعاء عند الثنية ، وذلك لما أراد أن يترك هاجر وإسماعيل فقالت له هاجر : آله أمرك بهذا ؟ قال : نعم ، قالت : إذًا لا يضيعنا الله أبدًا ، فانطلق إبراهيم عليه السلام حتى إذا كان عند الثنية حيث لا يرونه استقبل بوجهه البيت ثم دعا بهذه الدعوات : ﴿ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْتِدَةً مِنَ

(1) الكشف للزمخشري 558/2 بتصرف . (2) قيس من نور القرآن الكريم للصابوني 39/6 .

(3) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي 373/9 .

(4) واد يباب ليس فيه نجم أي واد قفر مجذب لا نبات فيه والنجم من النبات الذي لاساق له، والشجر ما له

ساق . ومنه قوله تعالى : ﴿ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ﴾ سورة الرحمن : 6 .

(5) الكشف 559/2 ، 560 .

النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَأَرْزُقُهُمْ مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿١﴾ .

هذا ولقد ورد هذا الدعاء في سورة إبراهيم ضمن جملة أخرى من الأدعية التي دعا بها إبراهيم عليه السلام .

قال تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ ﴿٣٦﴾ رَبِّ إِنَّهُمْ أَضَلَلَنِي كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٧﴾ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بُوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْعَدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَأَرْزُقْهُمْ مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعَلِّنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴿٣٨﴾ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴿٣٩﴾ رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءَ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ ﴿٤١﴾ ﴾ . (2)

● ومن المحتمل أن يكون إبراهيم عليه السلام دعا بهذا الدعاء ﴿ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بُوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْعَدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَأَرْزُقْهُمْ مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴾ دعا به مرتين ، مرة حين ترك إسماعيل وأمه هاجر في هذا المكان الذي كان قفراً موحشاً ، ومرة أخرى بعد أن أتم بناء البيت مع ابنه إسماعيل عليه السلام .

ومن المحتمل أيضاً أن يكون دعا به مرة واحدة ، وذلك حين ترك زوجته هاجر مع ولده إسماعيل عليه السلام ، وجاء ذكر هذا الدعاء في هذا الموضع من سورة إبراهيم ، بمناسبة ذكر جملة من الأدعية التي دعا بها إبراهيم عليه السلام .

● يقول الإمام الألوسي في تفسير قوله تعالى : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴾ : [ولا يخفى أن إسحاق عليه السلام لم يكن مولوداً عند دعاء إبراهيم عليه السلام السابق ، فالوجه أن لا يُجعل ذلك اعتراضاً بل يحمل على أن الله تعالى حكى (3) جملاً مما قاله إبراهيم عليه السلام في أحيان مختلفة تشترك

(1) سورة إبراهيم : 37 .

(2) سورة إبراهيم : 35 - 41 .

(3) لا يليق التعبير عن كلام الله تعالى بالحكاية التي تعني المضاهاة والتقليد والمماثلة . جل كلام الله تعالى أن يوصف بذلك .

كلها فيما سيق له الكلام من كونه **السَّيِّئَاتِ** على الإيمان والعمل الصالح ، وطلب ذلك لذريته ، وأن ولده الحقيقي من تبعه على ذلك فترك العناد والكفر ...] (1) .

ويعضده ما أخرجه ابن جرير الطبري عن ابن عباس **رضي الله عنهما** أنه قال في قوله تعالى : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ .. ﴾ : قال هذا بعد ذلك بحين (2) .

المبحث الثالث

فوائد مهمة ودروس مستفادة

أولاً : الذبيح هو إسماعيل عليه السلام :

الصحيح في مسألة الذبيح أنه نبي الله إسماعيل وليس إسحاق عليه السلام - كما يعتقد أهل الكتاب - والأدلة على ذلك كثيرة نذكر منها ما يلي :

أولاً : من القرآن الكريم :

● قال تعالى في سورة الصافات : ﴿ وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَاهِبِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٢٢﴾ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴿١٢٣﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَبْنَؤُا إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ يَتَّبِعُكَ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٢٥﴾ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴿١٢٦﴾ وَنَدَيْنَاهُ أَنِ يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿١٢٧﴾ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٨﴾ إِنَّ هَذَا لَمَوْءٌ أَلْبَتَوُا الْمَيْمَنُ ﴿١٢٩﴾ وَقَدَيْنَاهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٠﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿١٣١﴾ سَلَّمْ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿١٣٢﴾ كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٣﴾ إِنَّهُمْ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٤﴾ وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٣٥﴾ .

● ولقد ورد في هذه الآيات الكريمة ذكر الغلام الحليم الذي بشر به إبراهيم عليه السلام ووهب له وهو سيدنا إسماعيل عليه السلام ﴿ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٢٢﴾ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴿١٢٣﴾ .

● يقول أبو السعود في تفسير هذه الآية : [ولقد جمع فيه بشارات ثلاثاً ، بشارة أنه غلام ، وأنه يبلغ أوان الحلم ، وأنه يكون حليماً ، وأي حلم يعادل حلمه عليه السلام حين عرض عليه أبوه الذبيح ﴿ قَالَ يَبْنَؤُا إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ﴿١٢٤﴾ ؟ فأجاب إسماعيل بحلم وأناة : ﴿ قَالَ يَتَّبِعُكَ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٢٥﴾] (1) .

● صبر في طاعة الله وامتنل لأمره تعالى بطيب نفس وسكون قلب ، ووعد أباه من نفسه الصبر على الذبيح وكان وقتاً بما وعد ، ولقد وصفه الله تعالى في كتابه الكريم بالصبر كما وصفه بصدق الوعد قال تعالى : ﴿ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ

(1) يراجع إرشاد العقل السليم لأبي السعود 273/4 بتصرف .

مِنَ الصَّابِرِينَ ﴿١﴾ وقال تعالى : ﴿ وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ﴾ (2) .

● وبعد أن تحدثت الآيات في سورة الصافات عن إسماعيل الذبيح أعقبتها بالحديث عن البشارة بإسحاق عليه السلام وهذا يؤكد ويؤيد أن الذبيح إسماعيل لا إسحاق ؛ لأن ذكر البشارة بإسحاق بعد ذكر الذبيح : صريح في أن إسحاق غير الذي ابتلي إبراهيم عليه السلام بذبحه .

● كما أن الابتلاء بذبح الولد (البكر الوحيد) أشد وأعظم على النفس من الابتلاء بذبح الولد الثاني .

لأن إبراهيم عليه السلام لما وهب الولد على الكبر تعلق به نفسه وقرت به عينه ، فكان الابتلاء بذبحه عظيمًا والامتحان بفقده عصيبًا ، لذلك فإنه لما استجاب للأمر الإلهي وشرع في تنفيذه فدى الله ولده إسماعيل بذبح عظيم ... وأكرمه بعد ذلك بإسحاق عليه السلام .

● يقول الإمام ابن القيم : [إن الله سبحانه أجرى العادة البشرية أن بكر الأولاد أحب إلى الوالدين ممن بعده ، وإبراهيم عليه السلام لما سأل ربه الولد ووهبه له تعلقت شعبة من قلبه بمحبته والله تعالى قد اتخذته خليلًا ، والخلة منصب يقتضي توحيد المحبوب بالمحبة وأن لا يشارك بينه وبين غيره فيها ، فلما أخذ الولد شعبة من قلب الوالد جاءت غيرة الخلة تنتزعها من قلب الخليل فأمره بذبح المحبوب ، فلما أقدم على ذبحه وكانت محبة الله أعظم عنده من محبة الولد خلصت الخلة حينئذ من شوائب المشاركة فلم يبق في الذبح مصلحة ، إذ كانت المصلحة إنما هي في العزم وتوطين النفس فيه ، فقد حصل المقصود فنسخ الأمر وفدى الذبيح وصدق الخليل الرؤيا وحصل مراد الرب ، ومعلوم أن هذا الامتحان والاختبار إنما حصل عند أول مولود ولم يكن ليحصل في المولود الآخر دون الأول بل لم يحصل عند المولود الآخر من مزاحمة الخلة ما يقتضي الأمر بذبحه وهذا في غاية الظهور ..] (3) .

● ومن الأدلة الصريحة التي تدل على أن الذبيح إسماعيل :

- قوله تعالى في سورة هود ، في قصة البشارة بإسحاق : ﴿ وَأَمْرًا تَقِيْمَةً فَصَحَّكَتْ

(2) سورة مريم : 54 .

(1) سورة الأنبياء : 85 .

(3) زاد المعاد لابن القيم 17/1 ط الباني الحلبي ط 1369 هـ ط / 2 .

فَبَشِّرْنَهَا يَا سَحَقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَقَ يَعْقُوبَ ﴿١﴾ .

فإبراهيم عليه السلام وزوجه سارة عليها السلام علما من الملائكة الكرام أنه سيولد لهما إسحاق عليه السلام ويعيش ويتزوج ويولد له يعقوب عليه السلام ، وإذا كان الأمر كذلك وكان إبراهيم عالماً بأن ولده سيعيش فكيف يؤمر بذبحه ؟ .

● قال ابن كثير : [وقد قال بأنه إسحاق طائفة كثيرة من السلف وغيرهم وإنما أخذوه والله أعلم من كعب الأخبار أو من صحف أهل الكتاب ، وليس في ذلك حديث صحيح عن المعصوم عليه السلام ؛ حتى يُترك لأجله ظاهر نص الكتاب العزيز ، ولا يُفهم هذا من القرآن ، بل المفهوم ، بل المنطوق بل النص عند التأمل : على أنه إسماعيل وما أحسن ما استدل به ابن كعب القرظي ⁽²⁾ على أنه إسماعيل وليس بإسحاق عليه السلام : من قوله تعالى : ﴿ فَبَشِّرْنَهَا يَا سَحَقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَقَ يَعْقُوبَ ﴾ حيث قال : فكيف تقع البشارة بإسحاق وأنه سيولد له يعقوب ثم يؤمر بذبح إسحاق وهو صغير قبل أن يولد له ؟ هذا لا يكون ؛ لأنه يناقض البشارة المتقدمة ، والله أعلم] ⁽³⁾ .

ثانياً : الأدلة من السنة على أن الذبيح إسماعيل

● روى الإمام أحمد في مسنده وأبو داود في السنن عن صفية بنت شيبة قالت : أخبرتني امرأة من بني سليم وُلدت عامة أهل دارنا قالت : أرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى عثمان بن طلحة - وقالت مرة : إنها سألت عثمان - : لم دعاك رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال : قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إني رأيت قرني الكباش حين دخلت البيت فنسيت أن آمرك أن تخمرهما ، فخرهما ⁽⁴⁾ ؛ فإنه لا ينبغي أن يكون في البيت شيء يشغل المصلي » ⁽⁵⁾ .

(1) سورة هود : 71 .

(2) هو محمد بن كعب القرظي المدني وأبوه كعب من سبي بني قريظة وكان قد نزل بالكوفة ثم المدينة وحدث محمد عن كثير من الصحابة كما روي عنه خلق كثير ، وكان ثقة عالماً كثير الحديث ، توفي سنة 120 هـ سير أعلام النبلاء للذهبي 65/5 وتقريب التهذيب لابن حجر ص 504 .

(3) قصص الأنبياء لابن كثير ص 160 .

(4) خرهما أي استرهما عن الأنظار حتى لا ينشغل المصلون بالنظر إليهما .

(5) الحديث رواه الإمام أحمد في مسنده 86/4 ، 380/5 وأبو داود في السنن عن صفية بنت شيبة ك المناسك

باب في الحجر حديث 2030 - 215/2 .

- قال ابن كثير بعد إيراد هذا الحديث : قال سفيان لم يزل قرنا الكبش معلقين في البيت حتى احترق البيت فاحترقا (1) ، وكذا روي عن ابن عباس أن رأس الكبش لم يزل معلقاً عند ميزاب الكعبة . وهذا وحده دليل على أن الذبيح إسماعيل لأنه كان هو المقيم بمكة وإسحاق لا نعلم أنه قدمها في حال صغره والله أعلم (2) .

- وقال ابن القيم : [.... ولا ريب أن الذبيح كان بمكة ولذلك جعلت القرابين يوم النحر بها كما جعل السعي بين الصفا والمروة ورمي الجمار ؛ تذكيراً لشأن إسماعيل عليه السلام وأمه وإقامة لذكر الله ومعلوم أن إسماعيل عليه السلام وأمه هما اللذان كانا بمكة دون إسحاق عليه السلام وأمه ، ولهذا اتصل مكان الذبيح وزمانه بالبيت الحرام الذي اشترك في بنائه إبراهيم عليه السلام وإسماعيل عليه السلام ، وكان النحر بمكة من تمام حج البيت الذي كان على يد إبراهيم عليه السلام وابنه إسماعيل عليه السلام زماناً ومكاناً ، ولو كان الذبيح بالشام كما يزعم أهل الكتاب ومن تلقى عنهم لكانت القرابين والنحر بالشام لا بمكة] (3) .

● وقال ابن القيم أيضاً : الذبيح هو إسماعيل عليه السلام ، على القول الصواب عند علماء الصحابة والتابعين فمن بعدهم (4) وهذا الرأي هو المشهور عند العرب قبل البعثة ، نقلوه بالتواتر جيلاً بعد جيل ، وذكره أمية بن أبي الصلت في شعره ، منه :

وإبراهيم الموفِّي بالنذر	احتساباً وحامل الأجدال
بكره لم يكن ليصبر عنه	لو رآه في معشر أقتال
أُتْبِيَّ إني نذرتك لله شحيطاً	فاصبر فذلك حالي (5)

(1) احترق البيت في عهد يزيد بن معاوية بن أبي سفيان ، على يد الحصين بن نمير الذي قاد جيش ليزيد لقتال عبد الله بن الزبير لأنه لم يبايع يزيد بالخلافة ورمي الكعبة بالمنجنيق . وذلك يراجع في : مروج الذهب للمسعودي ت 346 هـ 71/2 ط دار الأندلس بيروت وتاريخ الخلفاء للسيوطي ص 209 . كما أحرقت الكعبة في عهد عبد الملك بن مروان الخليفة الأموي ، على يد الحجاج بن يوسف الثقفي الذي جاء على رأس جيش لقتال عبد الله بن الزبير سنة 73 ورمي الكعبة بالمنجنيق . يراجع تاريخ الخلفاء للسيوطي ص 211 ومروج الذهب 112/2 والتاريخ الإسلامي لمحمود شاكر 177/4 ط المكتب الإسلامي والحبر للعلامة المؤرخ أبي جعفر محمد بن حبيب ت 245 هـ . ص 24 ط المكتب التجاري بيروت . (2) قصص الأنبياء لابن كثير ص 159 .

(3) زاد المعاد في هدي خير العباد للإمام ابن القيم 16/1 . (4) المرجع السابق 15/1 .

(5) الأبيات من قصيدة لأمية بن أبي الصلت وهو من شعراء الجاهلية يراجع ديوانه ص 440 : 444 - ط المطبعة التعاونية دمشق ط 1 سنة 1974 م والأجدال جمع جذل وهو ما عظم من أصول الشجر المقطع ، وأقتال جمع قتل وهو العدو ، والشحيط هو الذبيح لأنه يشحط في دمه .

قال الأصمعي⁽¹⁾ : سألت أبا عمرو بن العلاء⁽²⁾ عن الذبيح فقال : يا أصمعي ! أين عزب عنك عقلك ؟ (أي غاب عنك) ، و متي كان إسحاق بمكة ؟ وإنما كان إسماعيل بمكة ، وهو الذى بنى البيت مع أبيه ، والمنحر بمكة⁽³⁾ .

ثالثاً : أدلة من العهد القديم

● جاء في العهد القديم سفر التكوين أن إسماعيل وُلِدَ قبل إسحاق وأن عمر إبراهيم عليه السلام حين وُلِدَ إسماعيل كان 86 سنة : سفر التكوين إصحاح 16 فقرة 1 : 12 - وفقرة 15 ، 16 .

● وفي الإصحاح 17 فقرة 15 : 21 [وقال الله لإبراهيم : ساراي امرأتك لاتدعو اسمها ساراي بل اسمها سارة ، وأباركها وأعطيك أيضاً منها ابناً ، أباركها فتكون أمماً ، وملوك شعوب منها يكونون . فسقط إبراهيم على وجهه وضحك وقال في قلبه : هل يولد لابن مائة سنة ؟ وهل تلد سارة وهي بنت تسعين سنة ؟ ... وقال إبراهيم : لله ، ليت إسماعيل يعيش أمامك ، فقال : الله بل سارة امرأتك تلد لك ابناً . وتدعو اسمه إسحاق وأقيم عهدي معه عهداً أبدياً لنسله من بعده وأما إسماعيل فقد سمعت لك فيه ، ها أنا أباركه وأثمره وأكثره كثيراً جداً . وأجعله أمة كبيرة] . تكوين إصحاح 16 - فقرة 15 : 21 .

- وفي هذا دليل على أنه بين إسماعيل وإسحاق أربع عشرة سنة ؛ لأن إسماعيل ولد وعمر أبيه 86 سنة وولد إسحاق وعمر أبيه 100 سنة .

● وفي الإصحاح الحادي والعشرين تصريح بأن إبراهيم أخذ هاجر إلى بركة فاران أي جبال مكة . وتركهما هناك في واد قفر مجذب لا زرع فيه ولا ماء ، ولما نفذ الماء الذي كان مع هاجر : [طرحت الولد تحت إحدى الأشجار ، ومضت وجلست مقابله ، بعيداً نحو رمية قوس ؛ لأنها قالت : لا أنظر موت الولد ، فجلست مقابله ورفعت

(1) الأصمعي : عبد الملك الأصمعي بن قريب بن عبد الملك بن أصمع : لغوي أديب ، صاحب ظرف وفكاهة كان الرشيد يسميه شيطان الشعر لقوة حافظته وسرعة بديهته - عاش إحدى وتسعين سنة وتوفي في شهر رمضان سنة 216 هـ . تراجع ترجمته في تاريخ العلماء النحويين ص 218 والفهرست لابن النديم 82 ، 83 وطبقات القراء لابن الجزري 470/1 وطبقات المفسرين للداودي 354/1 وإنباه الرواة للقفطي 197/2 .

(2) أبو عمرو بن العلاء عالم في النحو والقراءات . وشاعر . ولد سنة 72 هـ وتوفي سنة 154 هـ - تراجع ترجمته في تاريخ العلماء النحويين ص 140 ، ومعجم الأدباء 156/11 ، وإنباه الرواة 125/4 والفهرست ص 42 وطبقات القراء 288/1 وشذرات الذهب 237/1 . (3) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي 100/15 .

صوتها وبكت فسمع الله صوت الغلام ، ونادى ملاك الرب هاجر من السماء ، وقال لها : مالك يا هاجر ؟ لا تخافي لأن الله قد سمع لصوت الغلام حيث هو ، قومي احملي الغلام وشدي يدك به لأنني سأجعله أمة عظيمة ، وفتح الله عينها فأبصرت بثر ماء فذهبت وملأت القرية ماء وسقت الغلام ، وكان الله مع الغلام فكبر وسكن في البرية ، وكان ينمو رامي قوس ، وسكن في بيرة فاران ، وأخذت له أمه زوجة من أرض مصر [(1) . التكوين إصحاح 21 - فقرة 9 : 21 .

- وفي هذا دليل صريح على أن إسماعيل وأمه هاجر عليهما السلام كانا بمكة بلاد (فاران) .

● وفي الإصحاح الثاني والعشرين : [أن الله قال لإبراهيم : خذ ابنك وحيدك الذي تحبه إسحاق واذهب إلى أرض المريا بالشام واصنع محرقة ، اجعله فيها ، فذهب إبراهيم ومعه إسحاق واثنان من غلمانة وفي اليوم الثالث رفع إبراهيم عينيه وأبصر الموضع من بعيد فقال لغلاميه : اجلسا أتما ههنا وأما أنا والغلام فنذهب إلى هناك ونسجد ثم نرجع إليكما فأخذ إبراهيم حطب المحرقة ووضع على إسحاق ابنه ، وأخذ بيده النار والسكين فذهبا كلاهما معًا ، وكلم إسحاق إبراهيم أباه وقال له : يا أبي هو ذا النار والحطب ، فأين الخروف للمحرقة ؟ فقال إبراهيم : الله يرى له الخروف للمحرقة يا ابني ، فذهبا كلاهما معًا ، فلما أتيا إلى الموضع الذي قال له الله ، بنى هناك المذبح ورتب الحطب ، وربط إسحاق ابنه ووضع على المذبح فوق الحطب ثم مد إبراهيم يده وأخذ السكين ليذبح ابنه فناداه ملاك الرب : يا إبراهيم لاتمد يدك إلى الغلام ولا تفعل به شيئًا لأنني الآن علمت أنك خائف الله ؛ فلم تمسك ابنك وحيدك عني فرفع إبراهيم عينيه فرأى كبشًا وراءه ممسكًا في الغابة بقرنيه .. فأخذ إبراهيم الكبش وأصعده محرقة عوضًا عن ابنه) تكوين - إصحاح 22 - فقرة 14/1 .

● والناظر في هذا النص يجد علامات الوضع والتحرير ظاهرة واضحة عليه فقد صرح هذا النص بأن الذبيح هو إسحاق - الولد الوحيد البكر ، علمًا بأن النصوص السابقة في نفس السفر تفيد بأن إسماعيل هو الولد البكر وأنه ولد قبل إسحاق بأربعة عشر عامًا .

● وهذا تناقض واضح وتحريف فاضح ، وعبرة العهد القديم تنسب الكذب إلى إبراهيم

(1) الصحيح الوارد في السنة النبوية أنه تزوج من العرب من قبيلة جرهم تزوج منهم مرتين كما ورد في صحيح البخاري من حديث ابن عباس ك / الأنبياء باب 9 - ح 3364 - صحيح البخاري بشرح ابن حجر 456/6 ، 457 .

عليه السلام حيث قال لغلاميه : [اجلسا أنتما ههنا ، وأما أنا والغلام فذهب إلى هناك ونسجد ثم نرجع إليكما] علما بأن إبراهيم يعلم أنه ذاهب إلى المحرقة ليذبح ولده ويضعه بالمحرقة فكيف ينسبون إليه أنه قال : إنه سوف يذهب إلى المحرقة ثم يرجع هو وإسحاق ؟ .

● وعبرة العهد القديم تفيد أن إبراهيم أخفى الأمر على ولده إسحاق حتى فوجئ إسحاق بصنيع أبيه حيث قيده ووضع على المذبح فوق الحطب ثم مد يده بالسكين ليذبحه ... فجاءه ملاك الرب .

أما القرآن الكريم فإنه يعرض هذه القصة عرضًا واضحًا صادقًا ، بعبارات موجزة جامعة ، وإشارات لطيفة رائعة .

فلقد أخبر إبراهيم ولده إسماعيل عليه السلام بالأمر الإلهي ﴿ يَبْنِيْٓ اِيۡتِيۡ اَرۡىۡ فِىۡ الْمَنَآرِ اِيۡتِيۡ اَذۡبَحُكَ فَاَنْظُرۡ مَاذَا تَرٰى ۗ ﴾ فاستقبله إسماعيل بالرضا والقبول والسكينة والطمأنينة والإذعان والامتثال ﴿ قَالَ يَتَابَعُ اَفَعَلۡ مَا تُؤۡمَرُ سَتَجِدُنِيۡٓ اِنْ شَاءَ اللّٰهُ مِنَ الصّٰدِقِيۡنَ ۗ ﴾ وشرع إبراهيم عليه السلام في تنفيذ الأمر الإلهي ﴿ فَلَمَّا اَسۡلَمَا وَتَلۡمٰهُ لِلۡجَبِيۡنِ ﴿١٣١﴾ وَتَدَيَّنٰهُ اَنۡ يَّتَابَعِيۡهُ ﴿١٣٢﴾ قَدۡ صَدَقَتِ الرَّوۡيَاۗءُ اِنَّا كَذٰلِكَ نَجۡزِيۡ الْمُحۡسِنِيۡنَ ۗ ﴾ أي لما أسلما أمرهما لله تعالى وشرع إبراهيم في التنفيذ ، جاءه النداء الإلهي ﴿ يَّتَابَعِيۡهُ ﴿١٣٣﴾ قَدۡ صَدَقَتِ الرَّوۡيَاۗءُ ﴾ أي قد امتثلت للأمر الإلهي ﴿ اِنَّا كَذٰلِكَ نَجۡزِيۡ الْمُحۡسِنِيۡنَ ۗ ﴾ وصف الله ﷻ الخليل إبراهيم وولده عليه السلام بالإحسان ، وهو مقام من أسمى المقامات الإيمانية .

﴿ اِنَّكَ هٰذَا لَهٗوَ اَلۡبَلَوۡاۗءُ الْمِيۡنِ ۗ ﴾ أي بلاء شديد ، وبلاء بين يتميز فيه المخلص من غيره - وفي هذا ثناء من الله ﷻ على عبديه إبراهيم وإسماعيل عليه السلام إذ إنهما واجها هذا الابتلاء الصعب بكل طاعة وانقياد وصبر [(1)] .

﴿ وَفَدَيْنٰهُ بِذَبِيۡحٍ عَظِيۡمٍ ﴿١٣٧﴾ وَرَكَّعۡنَا عَلَيۡهِ فِىۡ الْاٰخِرِيۡنَ ﴿١٣٨﴾ سَلَمًا عَلٰٓى اِبۡرٰهِيۡمَ ﴿١٣٩﴾ كَذٰلِكَ نَجۡزِيۡ الْمُحۡسِنِيۡنَ ﴿١٤٠﴾ اِنَّهُۥٓ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤۡمِنِيۡنَ ۗ ﴾ .

رابعًا : شهادة من إنجيل برنابا (1) : بأن الذبيح هو إسماعيل عليه السلام

● ورد في إنجيل برنابا ما يشهد بأن الذبيح هو إسماعيل عليه السلام : حيث ورد فيه : قال المسيح : (.. صدقوني لأنني أقول لكم الحق إن العهد صنع بإسماعيل لا بإسحاق ..) . ويقول المسيح أيضًا : (... أجاب إبراهيم ها هو ذا عبد الله مستعد لأن يفعل كل ما يريد الله فكلم الله حينئذ إبراهيم قائلاً : خذ ابنك بكرك إسماعيل ، واصعد الجبل لتقدمه ذبيحة) . إنجيل برنابا - فصل 43 فقرة 20 - 31 باختصار . وهذا النص يشهد صراحة على أن الذبيح إسماعيل لا إسحاق .

● وما سبق ذكره يتضح لنا أن القول الصحيح في مسألة الذبيح أنه إسماعيل عليه السلام وآيات القرآن الكريم تصرح بذلك ، وفي السنة ما يدل على ذلك ويصرح به ، وما ورد في نصوص العهد القديم وإنجيل برنابا يؤكد ويؤيد ويشهد بأن الذبيح إسماعيل لا إسحاق وماورد عن بعض العلماء من أنه إسحاق : إنما هو منقول عن الإسرائيليات التي صنعها اليهود ؛ بغيًا وحسدًا من عند أنفسهم ، وكتبهم كما ذكرنا تشهد بأن الذبيح إسماعيل .

ولقد ورد في البداية والنهاية وتاريخ الأمم والملوك : أن محمد بن كعب القرظي : ذكر أمام أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه أن الذبيح هو إسماعيل عليه السلام ، واستدل على ذلك بقوله تعالى : ﴿ فَبَشِّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَإِمْرَأَةً وَرَأَى إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴾ (2) فقال له عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه : إن هذا الشيء ما كنت أنظر فيه ، وإني لأراه كما قلت ، ثم أرسل إلى رجل كان عنده بالشام ، وكان يهوديًا فأسلم وحسن إسلامه ، وكان يرى أنه من علمائهم ، فسأله عمر : أي ابني إبراهيم أمر بذبحه ؟ فقال : إسماعيل والله يا أمير المؤمنين ، وإن اليهود لتعلم بذلك

(1) إنجيل برنابا : نسبة إلى برنابا أحد حواربي المسيح ، وبرنابا مذكور في العهد الجديد تراجع أعمال الرسل 36 : 4 ، 9 : 26 ، 11 : 23 ، 15 : 39 .

وينص هذا الإنجيل على بشرية عيسى ، وينفي قصة صلبه ، ويثبت أن الذبيح إسماعيل لا إسحاق ، وفي هذا الإنجيل بشارات بالرسول الخاتم سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وذكر لأوصافه . ونظرًا لما اشتمل عليه هذا الإنجيل من أمور تخالف ما عليه النصارى فلقد حرموا قراءته وتداوله ، ومن ذلك قرار البابا جلاسيوس بتحريم قراءته وتداوله وإصداره منشورًا بذلك .

ولقد عثر على نسخة منه في مكتبة البلاط الملكي ببغينا ، ثم قام نائب المطران لونسدال راغ بترجمته إلى الإنجليزية سنة 1907 ونقل المؤرخ خليل سعادة هذه الترجمة إلى العربية . تراجع مقدمة إنجيل برنابا لخليل سعادة ورشيد رضا ط دار القلم بالكويت . (2) سورة هود : 71 .

ولكنهم يحسدونكم معشر العرب على أن يكون أباكم الذي كان من أمر الله فيه ، والفضل الذي ذكره الله منه لصبره لما أمر به ، فهم يجحدون ذلك ويزعمون أنه إسحاق (1) .

● وبعد أن تبين لنا الصحيح في مسألة الذبيح أختتم كلامي في هذا الموضوع بما ذكره القرطبي في تفسيره - قال : سئل أبو سعيد الضرير عن الذبيح فقال منشداً :

إن الذبيح هُديت إسماعيلُ نطق الكتاب بذلك والتنزيلُ
شرفٌ به حصَّ الإلهُ نبينا وأتى به التفسيرُ والتأويلُ
إن كنت أُمَّتُهُ فلا تُنكزْ له شرفاً به قد خصَّه التفضيلُ (2)

● ثانياً : درس مهم مستفاد من القصة : إكرام الضيف

● إكرام الضيف : من الأخلاق الفاضلة التي حث عليها الإسلام ورغب فيها ، وإكرام الضيف من شيم الأنبياء والصالحين ، ولقد ضرب إبراهيم عليه السلام أروع الأمثلة في إكرام الضيف وبلغ عليه السلام في ذلك أرفع درجات الكرم .

● وعلى المسلم أن يتحلى بهذا الخلق الكريم ويتمسك بهذا الهدي القويم لما فيه من الخير العميم قال تعالى في وصف الأبرار : ﴿ وَيُطْعَمُونَ أَلْطَعَامَ عَلَىٰ حَيْثُ مَسَكِينًا وَبَيْتًا وَأَسِيرًا ﴾ (8)
﴿ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكْرًا ﴾ (9)
﴿ إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَطَطِيرًا ﴾ (10)
﴿ فَوْقَهُمْ اللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّهْم نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴾ (11)
﴿ وَجَرَّهْم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴾ (12) (3) .
وقال عليه السلام : ﴿ لَنْ نَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴾ (4) .

وقال سبحانه في وصف الأنصار الذين ضربوا أروع الأمثلة في الكرم والإيثار : ﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (5) .

● وروى الإمام البخاري ومسلم في صحيحيهما عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رجلاً أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله : إني مجهود (6) ، فأرسل النبي صلى الله عليه وسلم إلى بعض نسائه فقالت : والذي بعثك بالحق ما عندي إلا ماء ، ثم أرسل إلى أخرى فقالت مثل ذلك ،

(1) تاريخ الأمم والملوك للطبري 1/269 ، 270 والبداية والنهاية 1/160 وقصص الأنبياء لابن كثير ص 161 ، 162 .

(2) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي 15/100 . (3) سورة الإنسان : 8 - 12 .

(4) سورة آل عمران : 92 . (5) سورة الحشر : 9 . (6) من الجهد وهو الجوع والمشقة والتعب .

حتى قلن كلهن مثل ذلك : لا والذي بعثك بالحق ما عندنا إلا ماء ، فقال : من يضيف هذا الليلة ﷺ ؟ » فقام رجل من الأنصار فقال : أنا يا رسول الله ، فانطلق به إلى رَحْلِهِ ، فقال لامرأته : هل عندك شيء ؟ قالت : لا . إلا قوت صبياني ، قال : فعَلَّيْهِمْ (1) بشيء ، فإذا دخل ضيفنا فأطعمي السراج وأريه أنا نأكل فإذا أهوى ليأكل فقومي إلى السراج حتى تطفئيه ، قال : فقعدوا وأكل الضيف ، فلما أصبح غدا (2) على النبي ﷺ فقال : « قد عَجِبَ اللهُ من صنعكما بضيفكما الليلة » (3) .

● وعن أبي هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره ، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه ، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت » (4) .

● وعن أبي شريح العدوي قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره ، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه جائزته » قيل : وما جائزته يا رسول الله ؟ قال : « يوم ليلة ، والضيافة ثلاثة أيام ، فما كان وراء ذلك فهو صدقة عليه ، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت » (5) .

● وعن عبد الله بن عمرو ﷺ أن رجلاً سأل النبي ﷺ أي الإسلام خير ؟ قال : « تطعم الطعام ، وتقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف » (6) .

● وعن جابر بن عبد الله ﷺ قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « طعام الواحد

(1) أي اشغليهم وألهيهم ، وفي رواية البخاري : قالت : والله ما عندي إلا قوت الصبية ، قال : فإذا أراد الصبية العشاء فنوميهم ، وتعالى فأطعمني السراج ونطوي بطوننا الليلة .

(2) غدا : أي الضيف وصاحب البيت ، وعجب الله : رضاه وجه لهذا الفعل .

(3) رواه البخاري ومسلم واللفظ لمسلم - صحيح البخاري ك / التفسير باب ﴿ وَرِزْقُونَ عَلَيَّ أَنفُسِهِمْ ﴾ - حديث - 4889

- [فتح الباري 500/8] وصحيح مسلم بشرح النووي كتاب الأشربة - باب إكرام الضيف وفضل إيثاره - 12/14 .

(4) أخرجه البخاري في صحيحه - ك / الأدب باب من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره حديث

6018 فتح الباري 460/10 ورواه الإمام مسلم في صحيحه - ك / الإيمان باب الحث على إكرام الجار والضيف

صحيح مسلم بشرح النووي - 18/2 .

(5) أخرجه البخاري في صحيحه ك / الأدب باب من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره - حديث / 6019

فتح الباري 460/10 .

(6) رواه البخاري في صحيحه ك / الإيمان باب أي الإسلام خير حديث - 12 فتح الباري 72/1 .

ورواه الإمام مسلم في صحيحه ك الإيمان باب بيان تفاضل الإسلام صحيح مسلم بشرح النووي 9/2 .

يكفي الاثنتين ، وطعام الاثنتين يكفي الأربعة ، وطعام الأربعة يكفي الثمانية » (1) .

ثالثاً : صورة المرأة في هذه القصة

● كانت سارة عليها السلام نموذجاً طيباً ومثلاً رائعاً للمرأة المؤمنة بربها ، الواثقة بوعده ، والراضية بحكمه ، كانت نموذجاً طيباً للمرأة العفيفة الطاهرة الكريمة الخيرة المطيعة لزوجها والبارة به ، والتي تعرف له قدره وهيبته (2) ، وتبذل ما في وسعها في سبيل سعادته ورضاه .

كانت عليها السلام نموذجاً للمرأة المؤمنة التي توالي أولياء الله وتعاوي أعداءه ، تفرح وتستبشر بنجاة أهل الإيمان ، وبهلاك أهل الكفر والطغيان .

وفي هذا درس هام للمرأة المسلمة أن تكون وثيقة الصلة بالدعوة إلى الله تعالى ، وأن تكون جنداً من جنودها ، وأن تهتم بأمور المسلمين وتستشعر أحوالهم ، وفي الحديث الشريف يقول صلى الله عليه وسلم : « ترى المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضوٌ تداعى له سائر الأعضاء بالسهرِ والحُمى » (3) .

● ولقد كانت هاجر عليها السلام نموذجاً طيباً ومثلاً رائعاً ، للمرأة المؤمنة الواثقة بوعده الله ، والراضية بقضائه ، والمرأة التي تطيع زوجها وتعينه على طاعة الله ، ولقد تجلّى هذا واضحاً في ذهابها مع إبراهيم عليه السلام وولدهما إسماعيل عليه السلام إلى البلد الحرام وعودة إبراهيم عليه السلام إلى الشام وتركه هاجر وإسماعيل عليه السلام في مكة وهي يومئذ مكان فقر مجذب فقالت له تلك الكلمات المضيئة الطيبة المباركة : (إلى من تتركنا يا إبراهيم آله أمرك بهذا ؟ قال : نعم ، قالت : إذن لا يضيعنا الله أبداً) .

(1) رواه الإمام مسلم في صحيحه ك / الأشربة باب فضيلة المواساة في الطعام القليل - صحيح مسلم بشرح النووي 22/14 .

(2) في قول سارة عليها السلام كما أخبر القرآن الكريم ﴿ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا ﴾ : ما يدل على تقديرها واحترامها لزوجها نبي الله إبراهيم عليه السلام ، فهي لم تقل : وهذا إبراهيم شيخاً ، وإنما قالت : ﴿ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا ﴾ والبعل المراد به الزوج ؛ لأنه القيم على أهله . ولم تقل : وهذا بعلي لا يقدر على الإنجاب ؛ لكبر سنه ولكنها قالت ﴿ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا ﴾ وفي هذه العبارة ما يدل على المراد بأحسن أسلوب وألطف بيان وأبلغ تعبير .

(3) الحديث رواه الإمام مسلم في صحيحه عن النعمان بن بشير رضي الله عنه - ك / البروالصلة

باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاوضهم - صحيح مسلم بشرح النووي 139/16 .

ورواه الإمام أحمد في مسنده 270/4 ط المكتب الإسلامي . ورواه الإمام البيهقي في السنن 353/3 .

وكما كانت ﷺ مثلاً طيباً للزوجة الصالحة فلقد كانت نموذجاً رائعاً للأم الحنون العطوف ، ولقد تجلى هذا واضحاً حين تركها إبراهيم ﷺ ومعها إسماعيل وهو طفل رضيع ، تركهما في مكان قفر مجذب ، ونفذ ما معهما من ماء ، واشتد بهما العطش كما اشتد بإسماعيل ﷺ حتى إنه كان يتلوى من شدة العطش - فانطلقت كراهية أن تنظر إليه وهو في هذه الحال ، وأخذت تسعى بين الصفا والمروة بحثاً عن الماء حتى أجهدتها السعي وأعيابها البحث وسلمت أمرها لله ﷻ فأدركتها العناية الإلهية ونبع الماء من عين زمزم بقدره الله ورحمته ولطفه وعنايته ، ففرحت بفضل الله واستبشرت برحمة الله وسقت وليدها حتى ارتوى ، ثم شربت هي أيضاً من ماء زمزم بعد أن اطمأنت على صغيرها .

هذا ولا يزال الحجيج والمعتمرون يشربون من ماء زمزم - ذلك النبع الصافي - ويسعون حول الصفا والمروة ، ويتذكرون ويستحضرون ذلك الحدث الجليل وتلك القصة العجيبة التي تدل على قدرة الله ورحمته كما تعد نموذجاً جلياً ومثلاً رائعاً لتلك العاطفة الجياشة عاطفة الأمومة ذلك النبع الصافي ، نبع الحنان وركن الأمان وواحة العطاء (1) .

(1) ويحضرني في هذا المقام قول الشاعر الحكيم :

كبيرك يا هذا لديه يسير
لها من جواها أنة وزفير
فمن غصص منها الفؤاد يطير
وما حجرها إلا لديك سرير
حئوا وإشفاقاً وأنت صغير
وأما لأعمى القلب وهو بصير
فأنت لما تدعو إليه فقير

لأمك حق لو علمت كبير
فكم مرة باتت بثقلك تشتكي
وفي الوضع لو تدري عليها مشقة
وتفديك مما تشتكيه بنفسها
وكم مرة جاءت وأعطتك قوتها
فأها لذي عقل ويتبع الهوى
فدُونك فارغب في عميم دعائها

المبحث الرابع

نظرات في العهد القديم فيما ورد في شأن سارة وهاجر عليهما السلام

● ورد في العهد القديم أن سارة لما وهبت هاجر لإبراهيم عليه السلام فدخل بها وحملت غارت سارة غيرة شديدة وصلت إلى حد إيذاء هاجر : ففي سفر التكوين إصحاح 16 : [ولما رأت أنها حبلت صغرت مولاتها في عينيها فقالت ساراي لا أبرام : ظلمي عليك . أنا دفعت جاريتي إلى حضنك ، فلما رأت أنها حبلت صغرت في عينيها يقضي الرب بيني وبينك . فقال أبرام لساراي : هو ذا جاريتك في يدك افعلي بها ما يحسن في عينيك . فأذلتها ساراي . فهربت من وجهها فوجدها ملاك الرب على عين الماء في البرية . على العين التي في طريق شور . وقال : يا هاجر جارية ساراي من أين أتيت وإلى أين تذهبين ؟ فقالت : أنا هاربة من وجه مولاتي ساراي ، فقال لها . ملاك الرب : ارجعي إلى مولاتك واخضعي تحت يديها . وقال لها ملاك الرب : تكثيراً أكثر نسلك فلا يعد من الكثرة . وقال لها ملاك الرب : ها أنت حبلتي فتلدين ابناً . وتدعين اسمه إسماعيل لأن الرب قد سمع لمذلتك . وإنه يكون إنساناً وحشياً . يده على كل واحد ويد كل واحد عليه] (1) .

وفي سفر التكوين إصحاح 21 [ورأت سارة ابن هاجر المصرية الذي ولدته لإبراهيم يمزح . فقالت لإبراهيم : اطرد هذه الجارية وابنها ؛ لأن ابن هذه الجارية لا يرث مع ابني إسحاق . فقبح الكلام جدًّا في عيني إبراهيم لسبب ابنه . فقال الله لإبراهيم : لا يقبح في عينيك من أجل الغلام ومن أجل جاريتك . في كل ما تقول لك سارة اسمع لقولها . لأنه ياسحاق يدعي لك نسل . وابن الجارية أيضا سأجعله أمة ؛ لأنه نسلك فبكر إبراهيم صباحًا وأخذ خبزًا وقربة ماء وأعطاها لها هاجر واضعًا إياهما على كتفها والولد وصرفها . فمضت وتاهت في بركة بئر سبع] (2) .

● وما سبق يتضح لنا - حسب ما ورد في سفر التكوين - : أن سارة غارت من هاجر غيرة شديدة وصلت إلى درجة إيذاء هاجر بمرأى ومسمع من إبراهيم عليه السلام ، حتى هربت هاجر من وجه سارة وهامت في البرايا ، وهي حبلت في إسماعيل عليه السلام ولقيها ملاك الرب وأمرها أن تعود إلى مولاتها سارة وأن تتحمل إيذاءها . هذا ما صرح به العهد القديم ، وصرح أيضًا بأن سارة أمرت إبراهيم عليه السلام أن يطرد هاجر وابنها وذلك لما

(1) سفر التكوين إصحاح 16 فقرات 5 : 13 .

(2) سفر التكوين إصحاح 21 فقرات 10 : 15 .

رأت إسماعيل يمرح ويضحك كما يمرح الصبيان ويضحكون ، فتحركت في نفسها ثورة الغضب وتأججت في قلبها نار الغيرة فأمرت إبراهيم أن يطرد هاجر إلى مكان سحيق حتى يهدأ بالها ويستريح قلبها ويسكن غضبها وتخمد نار غيرتها وكره إبراهيم منها ذلك ، فجاءه ملك الرب بما يوافق هوى سارة وأمره أن يستمع إلى كلامها ويلبي رغبتها ، فقام إبراهيم بطرد هاجر ولدها في الصباح الباكر ، مكتفياً بإعطائها قربة ماء وكسراً من الخبز ، فخرجت هاجر ومعها ولدها وهامت في الصحاري والقفار حتى نفذ الماء ، واشتد بها وبصغيرها العطش فطرح ولدها بعيداً عنها حتى لا تراه وهو يموت من العطش فيتفطر قلبها حزناً على ولدها !! وهما في هذا المكان القفر المجدب الموحش !! .

● وهكذا يرد في العهد القديم تواطؤ سارة مع إبراهيم على طرد هاجر مع ولدها وتعريضهما للهلاك ومجيء ملاك الرب موافقاً ومؤيداً ومؤكداً ومزكياً لرغبة سارة التي تنبع من قلبها المفعم بنار الغيرة والحسد لهاجر !! .

أي عدالة في هذا ؟ وأي رحمة ؟ وأي حلم ؟ وأي رفق ؟ .

هذا ما صرح به العهد القديم ، ونسبه إلى أبي الأنبياء خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام ، وإلي زوجته سارة .

تلك الزوجة الصادقة الصابرة ، العفيفة الطاهرة ، المطيعة لزوجها ، التي وهبت هاجر لإبراهيم عليه السلام رغبة في الذرية الصالحة ، وما كان لها أن تندم على هذا العمل الصالح الذي يدل على إخلاصها وطهرها ونقاها وإيثارها (1) .

ولا يعني هذا أننا ننفي وجود الغيرة من سارة لهاجر عليه السلام ، فالغيرة أمر فطري وشيء طبيعي والإنسان في كثير من الأحيان يتطلع إلى من هو أفضل منه ، ويتمنى أن يصل إلى ما وصل إليه والمرأة العاقرة غالباً ما تغير من المرأة الولود ، وتشتد الغيرة إذا جمع المرأتين بيت واحد وكانت تحت رجل واحد ، وقد يصل الأمر إلى حد الحسد ، وهو تمنى زوال النعمة عن الغير ، ولا يكون هذا إلا عندما يغيب الإيمان أو ينقص فيضعف تأثيره في النفوس .

● فالغيرة في غياب الإيمان : غيرة هوجاء عمياء عاصفة لا تبقي ولا تذر ، أما الغيرة

(1) نعم إن هذا العمل يدل على قوة إيمانها وشدة إخلاصها ومن الغريب والعجيب ما ورد في « قاموس الكتاب المقدس » تعليقاً على هذا العمل (أما هذا العمل من ناحية سارة فمصدره ضعف الإيمان بمواعيد الرب لإبراهيم وسارة بأن يكون لهما ابن) قاموس الكتاب المقدس ص 74 .

في رحاب الإيمان فهي غيرة محكومة ومنضبطة بأحكام الشرع وآدابه ، نعم نحن لا ننفي وقوع الغيرة من سارة عليها السلام لهاجر عليها السلام سيما وقد ورد الإشارة إليها في حديث ابن عباس الذي رواه الإمام البخاري في صحيحه وفيه : « أول ما اتخذ النساء المنطق من قبل أم إسماعيل ، اتخذت منطقاً لتعفي أثرها على سارة ، ثم جاء بها إبراهيم وبانها إسماعيل وهي ترضعه ، حتى وضعهما عند البيت ... » .

وفي رواية أخرى : « لما كان بين إبراهيم وبين أهله ما كان خرج بإسماعيل ومعهم شنة فيها ماء ... » .

● **قال صاحب لسان العرب :** [المنطق والمنطقة والنطاق كل ما شد به وسطه وقد انتطق بالنطاق والمنطقة وتنطق وتمنطق ، والنطاق شبه إزار فيه تكة كانت المرأة تنتطق به ، وفي حديث أم إسماعيل اتخذت منطقاً هو النطاق وجمعه مناطق وهو أن تلبس المرأة ثوبها ثم تشد وسطها بشيء وترفع وسط ثوبها وترسله على الأسفل عند معاناة الأشغال لئلا تعثر في ذيلها] (1) .

● **وقال الإمام ابن حجر في الفتح :** [والمنطق هو ما يشد به الوسط ... قيل : كان السبب - في اتخاذ أم إسماعيل له - أن سارة كانت قد وهبت هاجر لإبراهيم وحملت منه بإسماعيل عليها السلام ، فلما ولدته غارت منها فحلفت لتقطعن منها ثلاثة أعضاء ، فاتخذت هاجر منطقاً فشدت به وسطها وهربت وجرت ذيلها لتخفي أثرها على سارة ويقال إن إبراهيم شفع فيها وقال لسارة : حللي يمينك بأن تقبلي أذنها وتخفضيها ، وكانت أول من فعل ذلك ... ويقال إن سارة اشتدت بها الغيرة فخرج إبراهيم بإسماعيل وأمه إلى مكة لذلك ...] (2) .

● **وقال الإمام بدر الدين العيني** (3) [معنى اتخاذ أم إسماعيل للمنطق أنها تزينت بزبي

(1) لسان العرب 4463/6 مادة ن ط ق ، ويراجع تاج العروس للسيد محمد مرتضى الزبيدي 77/7 والنهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير مجد الدين أبي السعادات المبارك بن محمد الجزري ت 606 هـ 75/5 ط المكتبة العلمية بيروت .
(2) فتح الباري لابن حجر 461/6 .

(3) هو محمود بن أحمد بن موسى بن أحمد بن حسين بن يوسف بن محمود الحلبي ثم القاهري الحنفي المعروف ببدر الدين العيني (762 - 855) هـ ، فقيه أصولي محدث مفسر مؤرخ نحوي ، ولي الحسبة والقضاء في مصر ، ومن مؤلفاته شرح الجامع الصحيح للبخاري (عمدة القاري في شرح صحيح البخاري) ، وعقد الجمان في تاريخ أهل الزمان ، والمقاصد النحوية في شرح شواهد الألفية ، ورمز الحقائق في شرح كنز الدقائق في فروع الفقه الحنفي ، تراجع ترجمته في معجم المؤلفين 150/12 والضوء اللامع للسخاوي 131/10 وشذرات الذهب 287/7 .

الخدم إشعارًا بأنها خادمتها يعني خادم سارة لتستميل خاطرها وتجبر قلبها ... [(1)] .
والذي أراه في هذه المسألة - والله أعلم - أنها اتخذت المنطق وهو ما يشد به الوسط حتى تظهر بمظهر التواضع فتستعطف قلب سارة وتمحو ما قد يكون في نفسها من غيرة ، حين ترى هاجر عليه السلام مشغولة بالخدمة ومتواضعة في زيها ، أما ما ورد من أن سارة لما ولدت هاجر حلفت لتقطعن منها ثلاثة أعضاء ، فهذا شيء لا يليق بفضليات النساء فضلاً عن سارة التي وهبت هاجر لإبراهيم عليه السلام طمعاً ورغبة في أن يكون له منها ذرية صالحة فهل يعقل أن تندم على صنعها .

نعم كانت هناك غيرة ولكنها لم تكن سبباً في خروج الخليل إبراهيم عليه السلام مع هاجر وإسماعيل عليه السلام من بلاد الشام إلى البلد الحرام وتركها هناك ، ولكنه عليه السلام فعل ذلك امتثالاً للأمر الإلهي .

ففي رواية ابن عباس رضي الله عنهما (... فقالت له : آله أمرك بهذا ؟ قال : نعم ، قالت : إذن لا يضيعنا ، ثم رجعت فانطلق إبراهيم حتى إذا كان عند الثنية حيث لا يرونه استقبل بوجهه البيت ثم دعا بهؤلاء الكلمات ورفع يديه فقال : ﴿ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴾ (2) .

والدعاء الذي دعا به إبراهيم عليه السلام والذي صرحت به الآية الكريمة يدل على أنه كان عالماً بأن هذا المكان الذي قدم إليه مع زوجه هاجر وولده إسماعيل هو البلد الحرام ، ومن هنا فإن خروج إبراهيم عليه السلام مع هاجر وإسماعيل وتركهما في هذا المكان أمر إلهي ، لحكمة ظاهرة وليس بسبب غيرة سارة كما ورد في العهد القديم ، أنه أعطاهما قربة ماء وكسر خبز وطردهما امتثالاً لأمر سارة التي قالت له : (اطرد هذه الجارية وابنها ، لأن ابن الجارية لا يرث مع ابني إسحاق) سفر التكوين إصحاح 21 فقرة 11 .

● إن ما ورد في العهد القديم في شأن الغيرة ما هو إلا افتراء على خليل الرحمن إبراهيم وعلي زوجه سارة التي تربت في بيت النبوة مهبط الرحمات ومنزل البركات ودرجت في ساحة التربية والتزكية وواحة المحبة والعطاء في صحبة نبي الله إبراهيم عليه السلام .

(1) عمدة القاري شرح صحيح البخاري للعيني 255/16 ط دار إحياء التراث العربي .

(2) سورة إبراهيم : 37 .

● هذا ولقد ورد في العهد القديم أن خروج هاجر وإسماعيل بعد مولد إسحاق : [ورأت سارة ابن هاجر المصرية يمزح فقالت لإبراهيم : اطرد هذه الجارية وابنها لأن ابن هذه الجارية لا يرث مع ابني إسحاق] تكوين إصحاح 21 / فقرة 11 . وعلي هذا فإن عمر إسماعيل حين خرج من الشام كان أكثر من أربعة عشر عامًا ؛ لأنه ولد قبل إسحاق بأربعة عشر عامًا ، وهذا الكلام مخالف لما ورد في الحديث الذي رواه ابن عباس أن إسماعيل كان طفلاً رضيعاً - في المهدي ولم يكن غلاماً حين خرج مع أبيه وأمه من الشام إلى مكة .

● والصحيح ما ورد في السنة من أنه عليه السلام كان في المهدي ، ولم يكن إسحاق قد ولد بعد ، ولقد صرح القرآن الكريم بأن إبراهيم عليه السلام بُشِّرَ بِإِسْحَاقَ بعد قصة الذبيح قال تعالى في سورة الصافات : ﴿ .. وَوَدَّعَيْنَاهُ بِذَنْبٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿١٣٨﴾ سَلَّمَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿١٣٩﴾ كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٠﴾ إِنَّكُمْ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤١﴾ وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٤٢﴾ ⁽¹⁾ . وقد ورد في سفر التكوين على أن إسماعيل كان في المهدي ، فالبشارة بإسحاق كانت بعد ابتلاء إبراهيم عليه السلام .

● وورد في العهد القديم [وحدث جوع في الأرض . فانهدر أبرام إلى مصر ليتغرب هناك ؛ لأن الجوع في الأرض كان شديداً . وحدث لما قرب أن يدخل مصر أنه قال لساراي امرأته ، إني قد علمت أنك امرأة حسنة المنظر - فيكون إذا رآك المصريون أنهم يقولون هذه امرأته فيقتلونني ويستبقونك . قولي إنك أختي . ليكون لي خير بسببك وتحيا نفسي من أجلك .

فحدث لما دخل أبرام إلى مصر أن المصريين رأوا المرأة أنها حسنة جداً . ورآها رؤساء فرعون ومدحوها لدى فرعون . فأخذت المرأة إلى بيت فرعون فصنع إلى أبرام خيراً بسببها - وصار له غنم وبقير وحمير وعبيد وإماء وأتن وجمال . فضرب الرب فرعون وبيته ضربات عظيمة بسبب ساراي امرأة أبرام . فدعا فرعون أبرام وقال : ما هذا الذي صنعت بي ؟ لماذا لم تخبرني أنها امرأتك ؟ لماذا قلت هي أختي حتى أخذتها لي لتكون زوجتي ؟ والآن هو ذا امرأتك . خذها واذهب . فأوصى عليه فرعون رجالا فشيعوه وامرأته وكل ما كان له [تكوين 12 / فقرات 10 : 13 .

● وتكرر هذا الموقف مع (أيمالك ملك جرار) حين أراد أن يأخذ سارة وينال منها فقال إبراهيم : هي أختي [وجاء الرب إلى أيمالك في حلم الليل وحذره وأنذره من الاقتراب من سارة ، وأخبره أنها متزوجة بإبراهيم ، فلما كان الغد جمع أيمالك جميع عبيده وحدثهم بما رآه في حلمه ثم دعا إبراهيم وقال له : ماذا رأيت حتى عملت هذا الشيء ؟ فقال إبراهيم : إنني قلت ليس في هذا الموضع خوف الله البتة ، فيقتلونني لأجل امرأتي وبالْحَقِيقَةُ أَيضًا هِيَ أُخْتِي ابْنَةُ أَبِي غَيْرِ أَنَّهَا لَيْسَتْ ابْنَةُ أُمِّي فَصَارَتْ لِي زَوْجَةً [تكوين إصحاح 20 .

وما ورد في الإصحاح السابق يفيد أن زواج إبراهيم بسارة باطل لأنها أخته لأبيه ولا يجوز زواج الرجل من أخته لأبيه لأنها من المحرمات عليه (1) .

● والذي ورد في هذا الشأن في السنة النبوية ما رواه الإمام مسلم في صحيحه بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لم يكذب إبراهيم عليه السلام إلا ثلاث كذبات ... وعدّ منها أنه : « قدم أرض جبار ومعه سارة وكانت أحسن الناس ، فقال لها : إن هذا الجبار إن يعلم أنك امرأتي يغلبني عليك ، فإن سألك فأخبريه أنك أختي في الإسلام ؛ فإني لا أعلم في الأرض مسلمًا غيري وغيرك .. » الحديث (2) .

فإبراهيم عليه السلام لجأ إلى المعارض في ثلاث مواقف منها هذا الموقف حين قال : إنها أخته وهي حقًا أخته في الدين قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ (3) .
فهو عليه السلام لجأ إلى التورية وقد قيل : « إن في المعارض لمدوحة عن الكذب » (4) .

● هذا : ولقد رخص الكذب في ثلاث حالات ، روى الإمام مسلم في صحيحه بسنده عن حميد بن عبد الرحمن بن عوف أن أمه أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط وكانت من المهاجرات الأول اللاتي بايعن النبي صلى الله عليه وسلم أخبرته أنها سمعته صلى الله عليه وسلم وهو

(1) ورد في سفر اللاويين تحريم زواج الأخ من أخته يراجع ذلك في الإصحاح 18 / فقرات 1 : 18 .

(2) الحديث سبق تخريجه . (3) سورة الحجرات : 10 .

(4) قال الإمام الغزالي (إن في المعارض لمدوحة عن الكذب) هذا القول منقول عن بعض السلف ، وقال عمر رضي الله عنه : أما في المعارض ما يكفي الرجل عن الكذب ، وروي ذلك عن ابن عباس وغيره ، وإنما أرادوا بذلك إذا اضطر الإنسان إلى ذلك فأما إذا لم تكن حاجة وضرورة فلا يجوز التعريض ولا التصريح جميعًا .

يقول: « ليس الكذاب الذي يصلح بين الناس ويقول خيراً وينمي خيراً »⁽¹⁾ ، قال ابن شهاب⁽²⁾ « ولم أسمع يرخص في شيء مما يقول الناس كذباً إلا في ثلاث : الحرب والإصلاح بين الناس ، وحديث الرجل امرأته ، وحديث المرأة زوجها »⁽³⁾ .

● وقال ابن حزم في الفصل : [أما الحديث أنه ﷺ كذب ثلاث كذبات فليس كل كذب معصية ، بل منه ما يكون طاعة لله ﷻ ، وفرضاً واجباً يعصي من تركه ، وقد صح أن رسول الله ﷺ قال : « ليس الكذاب الذي يصلح بين الناس فينمي خيراً » ، وقد أباح ﷺ كذب الرجل لامرأته فيما يستجلب به مودتها ، وما يطيب به خاطرها ، وكذلك الكذب في الحرب ... ويباح الكذب في إظهار الكفر في التقية⁽⁴⁾ ، وكل ما روي عن إبراهيم ﷺ في تلك الكذبات فهو داخل في الصفة المحمودة لا في الكذب المنهي عنه]⁽⁵⁾ .

● وقال الإمام النووي في شرحه لصحيح مسلم : (... إن الكذبات المذكورة إنما هي بالنسبة إلى فهم المخاطب والسماع وأما في نفس الأمر فليست كذباً مذمومًا ؛ لوجهين أحدهما أنه ورى بها فقال في سارة أختي في الإسلام ، وهو صحيح في باطن الأمر ، والوجه الثاني أنه لو كان كذباً لا تورية فيه لكان جائزاً في دفع الكافر الظالم عن

(1) صحيح مسلم بشرح النووي ك / البر والآداب والصلة باب تحريم الكذب وبيان ما يباح منه 157/16 .
(2) وهو ابن شهاب الزهري (أبو بكر محمد بن مسلم بن عبيد الله بن شهاب الزهري المدني سمع عن كثير من الصحابة وكبار التابعين واشتهر بسرعة حفظه وقوة ذاكرته وأجمع العلماء على أنه كان أول من دَوّن السنة بأمر من الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز وكان كريماً سمح النفس ، وروى عنه كثير من علماء الحديث .

تراجع ترجمته في تهذيب التهذيب 449/9 . (3) المرجع السابق 157/16 .

(4) قال تعالى : ﴿ مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ سورة النحل : 106 .
ولقد نزلت هذه الآية الكريمة في عمار بن ياسر رضي الله عنه حين تعرض لأشد صنوف التعذيب في مكة . على أيدي الكفار حتى أكرهوه على النطق بكلمة الكفر فنطق بها مكرها . يراجع أسباب النزول للواحدي ص 190 وأسباب النزول للسيوطي بهامش تفسير الجلالين ص 506 .

وهي وإن كانت نزلت في هذا السبب إلا أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب .

(5) الفصل في الملل والأهواء والنحل لابن حزم الظاهري 6/4 وابن حزم هو علي بن أحمد بن سعيد بن حزم ابن غالب الأندلسي القرطبي الظاهري فقيه أديب أصولي محدث متكلم (384 - 456) هـ من مؤلفاته الفصل ، والمجلى بالآثار في شرح المحلى بالاختصار في الكتاب والسنة ، ومداواة النفوس ، والإحكام في أصول الأحكام ، وأسماء الله الحسنی ، وجمهرة الأنساب ، والناسخ والنسوخ - تراجع ترجمته في سير أعلام النبلاء 188/11 ووفيات الأعيان 428/1 ونفح الطيب 202/6 وشذرات الذهب 299/3 .

مواقعة فاحشة عظيمة ، فنبه النبي ﷺ على أن هذه الكذبات ليست داخلية في نطاق الكذب المذموم [(1)] .

● وقال ابن حجر : [وأما إطلاقه الكذب على الأمور الثلاثة فلكونه قال قولاً يعتقدُه السامع كذباً لكنه إذا حقق لم يكن كذباً ؛ لأنه من باب المعارض المحتملة للأمرين فليس كذباً محضاً ، فقوله إني سقيم يحتمل أن يراد به : سأسقم ، واسم الفاعل يستعمل بمعنى المستقبل كثيراً ، ويحتمل أن يكون إني سقيم بما قُدِّرَ على من الموت أو سقيم الحجّة على الخروج معكم (2) ، وقوله : ﴿ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ ﴾ : قال القرطبي : قاله تمهيداً للاستدلال على أن الأصنام ليست بألّهة وقطعاً لقومه في قولهم إنها لا تضر ولا تنفع (3) ، ... وقال ابن قتيبة : معناه ﴿ إِنْ كَانُوا يَنْطُقُونَ ﴾ فقد فعله كبيرهم هذا ، والحاصل أنه مشترط بقوله : ﴿ إِنْ كَانُوا يَنْطُقُونَ ﴾ أو أنه أسند إليه ذلك لكونه السبب ، وعن الكسائي أنه كان يقف عند قوله : ﴿ بَلْ فَعَلَهُ ﴾ : أي فعله من فعله كائناً من كان ثم يتدبّر بـ ﴿ كَبِيرُهُمْ هَذَا ﴾ وهذا خبر مستقل ثم يقول ﴿ فَسَأَلُوهُمْ ﴾ إلى آخره ، ولا يخفى تكلفه (4) .

(1) صحيح مسلم بشرح النووي 124/15 .

(2) يعني بهذه العبارة ليس هناك حجة عندي في إثبات صحة خروجكم فهو خروج منكرا باطل ، أقول : والأولى أن يحمل السقم هنا على ضيق الصدر والهيم والغم الذي لحق به ﷺ حزناً على أفعالهم وتحرجاً منها ، قال صاحب الكشاف : [وقيل : ﴿ إِنْ سَقِيمٌ ﴾ أي سقيم النفس لكفركم] 49/4 فهو سقم معنوي .

(3) يراجع المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم للإمام الحافظ أبي العباس أحمد بن عمر بن إبراهيم القرطبي المالكي (578 - 656) هـ 432/1 ، 184/6 ط دار ابن كثير دمشق ط 1 سنة 1417 هـ والإمام أبو العباس أحمد بن عمر القرطبي فقيه ومحدث ولد في قرطبة وهاجر منها في طلب العلم إلى كثير من البلدان الإسلامية حتى استقر به المقام بالإسكندرية ، من مؤلفاته : المفهم ، والإعلام بمعجزات النبي ، تلخيص صحيح مسلم ، ومختصر البخاري . تراجع ترجمته في الديباج المذهب ص 68 وتذكرة الحافظ 1438/4 ونفح الطيب 615/2 وحسن المحاضرة 760/1 وشذرات الذهب 473/7 .

(4) يراجع تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة الدينوري ص 59 ط دار الكتب الإسلامية سنة 1402 هـ ط 1 . وابن قتيبة هو عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري ، عالم بالحديث والتفسير واللغة والعقيدة والفقه والأدب (213 - 276) هـ .

من مؤلفاته : تأويل مشكل القرآن ، وتأويل مختلف الحديث ، طبقات الشعراء ، عيون الأخبار ، غريب القرآن ، غريب الحديث ، إصلاح المنطق وغير ذلك . يراجع : معجم المؤلفين 150/6 - سير أعلام النبلاء 68/9 تاريخ

بغداد 170/10 شذرات الذهب 169/2 - وطبقات المفسرين للداودي 251/1 .

وقوله هذه أختي : مراده أنها أخته في الإسلام ، قال ابن عقيل (1) : دلالة العقل تصرف ظاهر إطلاق الكذب على إبراهيم ، وذلك أن العقل قطع بأن الرسول ينبغي أن يكون موثوقاً به ليعلم صدق ما جاء به عن الله ، ولا ثقة مع تجويز الكذب عليه ، فكيف مع وجود الكذب منه ، وإنما أطلق عليه ذلك لكونه بصورة الكذب عند السامع ، وعلى تقديره فلم يصدر ذلك من إبراهيم عليه السلام يعني إطلاق الكذب على ذلك - إلا في حالة شدة الخوف لعلو مقامه ، وإلا فالكذب المحض في مثل تلك المقامات يجوز ، وقد يجب لتحمل أخف الضررين دفعا لأعظهما ، وأما تسميته إياها كذبات فلا يريد أنها تدم ، فإن الكذب وإن كان قبيحاً مخلاً لكنه قد يحسن في مواضع وهذا منها [(2) .

ومن هنا فإن ما فعله إبراهيم عليه السلام ليس كذباً على الإطلاق وإنما هو تورية في الكلام وكان عليه السلام مضطراً إلى اللجوء للمعاريض ، وقوله : ﴿ إِنِّي سَقِيمٌ ﴾ أي سقيم النفس مهموم حزين على حال قومه ، وقوله : ﴿ بَلْ فَعَلَهُم كَيْدُهُمْ هَذَا فَسَتُّوهُمْ إِنَّ كَانُوا يَنْطَفُونَ ﴾ نوع من أساليب إقامة الحجة على الخصم بطريقة قاطعة وحجة ساطعة ، وقوله : هي أختي لون من ألوان التورية ، حيث فهم المخاطب شيئاً وأراد عليه السلام شيئاً آخر ، فهي في الحقيقة أخته في الدين لا في النسب ، ولقد قال عليه السلام : إنها أختي ولم يقل إنها زوجتي حتى لا يقتله الملك ويستأثر بها .

● البشارة بإسحاق عليه السلام في العهد القديم

ورد في سفر التكوين إصحاح 17 [وقال الله إبراهيم ساراي امرأتك لا تدعو اسمها ساراي بل اسمها سارة ، وأباركها وأعطيك أيضاً منها ابناً ، أباركها فتكون أمماً وملوك شعوب ، منها يكونون ، فسقط إبراهيم على وجهه وضحك وقال في قلبه : هل يولد لابن مئة سنة ؟ وهل تلد سارة وهي بنت تسعين سنة ؟] .

وفي الإصحاح 18 [أن الرب ظهر لإبراهيم وهو جالس عند باب الخيمة وقت حر النهار ، فرفع إبراهيم عينيه ونظر فإذا بثلاثة رجال واقفون لديه ، فلما نظر ركض لاستقبالهم من باب الخيمة وسجد إلى الأرض ، وقال : يا سيد إن كنت قد وجدت

(1) هو أبو الوفاء علي بن عقيل البغدادي الحنبلي (431 - 513 هـ) صاحب كتاب الفنون وهو كتاب جامع لشتى فروع العلم ، ومن مؤلفاته الانتصار لأصحاب الحديث تراجع ترجمته في سير أعلام النبلاء 443/19 .

(2) فتح الباري 451/6 .

نعمة في عينيك فلا تتجاوز عبدك، ليؤخذ قليل ماء ، واغسلوا أرجلكم ، واتكفوا تحت الشجرة ، فأخذ كسرة خبز فتسندون قلوبكم ثم تجتازون ، فقبلوا دعوة إبراهيم ، وأسرع إبراهيم إلى الخيمة إلى سارة وقال : أسرعي بثلاث كيلات دقيق ، اعجنني واصنعي خبز ملة ، ثم ركض إبراهيم إلى البقرة وأخذ عجلاً جيداً وأعطاه للغلام فأسرع لعمله ثم أخذ زبدًا ولبنًا والعجل الذي عمله ووضع قدامهم وإذا كان هو واقفًا لديهم تحت الشجرة أكلوا] .

● وفي هذا النص نرى إغفالاً وإهمالاً لكثير من الآداب السامية التي تحلى بها إبراهيم عليه السلام ، وبينها القرآن أجمل بيان فليس في العهد القديم ذكر لسلام الملائكة على إبراهيم عليه السلام وردته التحية بأحسن منها .

● وفي العهد القديم أنه دعاهم إلى الجلوس تحت ظل شجرة ريثما يحضر لهم طعامًا ، وفي هذا إغفال لأدب كريم تحلى به الخليل إبراهيم وذكره القرآن الكريم قال تعالى : ﴿ فَرَأَعِ إِلَىٰ أَهْلِيهِ فَبَجَاءَ بِعِجَلٍ سَمِينٍ ﴾ ، والروغان هو الذهاب في خفية حتى لا يشعر به الضيفان فيتخرجوا .

● في العهد القديم توسع في ذكر ما قدمه إبراهيم عليه السلام من طعام وفي القرآن الكريم اكتفا بذكر العجل السمين الحنيد .

● وفي العهد القديم أنه قرب إليهم فأكلوا جميعًا . أما القرآن الكريم فلقد بين أنهم لم يأكلوا قال تعالى : ﴿ فَرَبَّيْهِمُ إِلَيْهِمْ قَالًا لَا تَأْكُلُونَ ﴾ (1) ، وقال تعالى : ﴿ فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكَرَهُمْ ﴾ (2) فأبراهيم عليه السلام بادر إلى إعداد الطعام ثم سارع إلى تقديمه ثم دعا الضيف إليه بتلطف وأدب . والحق فيما ذكره القرآن الكريم فالملائكة لا يأكلون ولا يشربون .

ومن هذا الافتراء على الملائكة ، والكذب على الله سبحانه وتعالى نعلم علم اليقين أن العهد القديم قد داخله التحريف وخالطه التزييف واشتمل على عقائد فاسدة ، ودعاوى باطلة لا أساس لها من الصحة ، إلى جانب الافتراء على الملائكة والكذب على الله ، وفي العهد القديم أيضًا افتراء على نبي الله إسماعيل عليه السلام وتحقير من شأنه وانتقاص من قدره في مقابل التعصب والتحيز لنبي الله إسحاق عليه السلام ، وادعاء أن العهد لإسحاق لا لإسماعيل ، وأن الذبيح إسحاق لا لإسماعيل ، وأن ميراث إبراهيم لإسحاق لا لإسماعيل .

وهذا افتراء على نبي الله إسماعيل ، وتفريق بين رسل الله عليه السلام ، ولقد أمرنا الله سبحانه

في كتابه أن لا نفرق بين رسل الله وأن نعرف لكل نبي قدره ومنزلته التي أخبرنا الله بها في كتابه أو على لسان نبيه ، فالأنبياء هم صفوة الخلق وأطهرهم وأشرفهم وأكرمهم ، قال تعالى : ﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾ (1) .

وقال ﷺ : ﴿ اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾ (2) .

وقال سبحانه : ﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿ (3) .

وقال تعالى : ﴿ ءَامَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نَفَرُوا بَيْنَ يَدَيْهِ إِذِ اتَّخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَوْ أَنِّي آتَيْنَاكَ كِتَابًا فَمَا لَكُم مِّنْ آيَاتِنَا إِلَّا أَن تَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ﴾ (4) .

وفي الحديث الصحيح يقول ﷺ : « .. الأنبياء إخوة من علات ، أمهاتهم شتى ودينهم واحد » (5) .

● هذا : ومن الملاحظات على العهد القديم في قصة إبراهيم عليه السلام : التوسع في ذكر التفاصيل التي لا فائدة من ورائها ولا جدوى من معرفتها كالأزمنة وأسماء الأمكنة والأشخاص في مقابل إهمال القضايا الأساسية والركائز الجوهرية والأهداف الحقيقية للقصة من ذلك أننا نرى تفاصيل واهتمامات بتنقلات إبراهيم وحجم ثرواته وتحديد عمره حين رزق بإسماعيل وتحديد عمره وعمر سارة حين رزقا بإسحاق وكيف اختار زوجة لولده إسحاق وما هي الهدايا التي قدمها لها ، وكيف تم الزواج ، وسن إبراهيم حين مات وأين دفن ، وسن سارة حين ماتت وكيف وأين دفنت ، وذكر القرابين التي أقامها إبراهيم في فلسطين ، وغير ذلك من التفاصيل .

(1) سورة الأنعام : 124

(2) سورة الحج : 75 .

(3) سورة آل عمران : 33 ، 34 .

(4) سورة البقرة : 285 .

(5) رواه الإمام مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه كتاب الفضائل باب فضائل عيسى عليه السلام .

صحيح مسلم بشرح النووي 119/15 .

وأولاد العلات هم الإخوة لأب ، ومعنى الحديث أن أصل الإيمان واحد والشرائع مختلفة ، فهناك اتفاق في أصول التوحيد ، وأما فروع الشرائع فوقع فيها الاختلاف لحكمة يعلمها الله ﷻ فهو العليم بما يصلح عباده .

يراجع شرح النووي على صحيح مسلم 119/15 ، 120 .

وهذا في مقابل إغفال دعوة إبراهيم عليه السلام ، ومنهجه في الدعوة إلى الله ، ومعاناته وصبره على قومه وهجرته في سبيل نشر دعوة الله تعالى ، وإغفال ذكر الأديان الباطلة التي كانت منتشرة في زمنه عليه السلام فضلاً عن ذكر موقفه منها حيث أقام الحجة على بطلان عبادة الكواكب والشمس والقمر والحجر والبشر ، وبيّن إبراهيم عليه السلام العقيدة الصحيحة بياناً واضحاً صادقاً . وأقام الحجج الساطعة والأدلة اليقينية على صحتها وثبوتها .

- ولقد أغفل العهد القديم ذكر وصايا إبراهيم عليه السلام لبنيه أن يلزموا عقيدة التوحيد ويثبتوا عليها ، في حين اهتمت التوراة بذكر الثروات التي تركها إبراهيم عليه السلام بعد موته من أموال ومواشي وعبيد ومراعي وحقول وهكذا نرى العهد القديم يركز على التفصيلات التي لا فائدة منها ويغفل عن القضايا الجوهرية والمحاور الأساسية في حياة نبي الله إبراهيم عليه السلام وهذه أدلة دامغة على وقوع التحريف والتبديل في العهد القديم (التوراة) .

الفصل الرابع

المرأة في قصة لوط عليه السلام امرأة لوط وبناته

- ويشتمل هذا الفصل على تمهيد وسبعة مباحث :
- التمهيد : وفيه أتحدث عن لوط عليه السلام من حيث قرابته من نبي الله إبراهيم عليه السلام ونشأته وهجرته معه إلى الشام .
- المبحث الأول : دعوة نبي الله لوط عليه السلام .
- المبحث الثاني : موقف قوم لوط من دعوته عليه السلام
- المبحث الثالث : خيانة زوجته .
- المبحث الرابع : هلاك المكذبين بنبي الله لوط عليه السلام ونجاته ومن آمن به .
- ويشتمل على : أولاً : الملائكة في ضيافة لوط عليه السلام .
- ثانياً : موقف قوم لوط عليه السلام من ضيفه .
- ثالثاً : حوار بين لوط وقومه .
- رابعاً : فائدة مهمة .
- خامساً : نجاة لوط وبناته وهلاك امرأته .
- سادساً : هلاك قوم لوط وبيان صنوف العذاب التي حلت بهم .
- المبحث الخامس : « فوائد حول القصة » ويشتمل على :
- أولاً : فائدة حول : ذم اللواط .
- ثانياً : عقوبة اللواط في الشريعة الإسلامية .
- ثالثاً : تنمة في بيان حكم السحاق وحكم إتيان البهائم وحكم إتيان المرأة في حيضها أو في دبرها .
- المبحث السادس : دروس مستفادة من القصة .
- المبحث السابع : نظرات في العهد القديم فيما ورد في شأن لوط عليه السلام .

● تمهيد :

لوط عليه السلام نبي من الأنبياء ، الذين بعثهم الله سبحانه وتعالى لهداية الناس وإصلاحهم ولقد عاش في زمن الخليل إبراهيم عليه السلام وذهب كثير من المفسرين والمؤرخين إلى أن لوطاً عليه السلام : ابن أخي إبراهيم عليه السلام (1) .

هذا ولقد آمن عليه السلام بدعوة عمه إبراهيم عليه السلام وهاجر معه من بابل إلى فلسطين (2) ، قال تعالى : ﴿ فَمَنْ لَّمْ يُؤْمَرْ بِالْعَمَلِ فَلْيُجَنَّبِهَا فَهَسْ لَوْ أَنَّ لُوطًا وَآلَهُ كَانُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَعَلَّيْهِمْ لِيُؤْمَرُوا بِهَا لَعَلَّيْهِمْ لَعَلَّيْهِمْ ﴾ (3) ، وقال تعالى في سياق الحديث عن إبراهيم : ﴿ وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ ﴾ (4) .

(1) لوط - عليه السلام - هو ابن هاران بن آزر ، وقيل : هو لوط بن هاران بن تارح ، وقيل : آزر هو تارح ، وقيل : آزر هو أبو إبراهيم عليه السلام وتارح عمه ، والذي نص عليه القرآن وصرحت به السنة المطهرة أن آزر هو أبو إبراهيم عليه السلام قال تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آازَرَ اتَّخِذْ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ الأنعام آية 74 ، وروى البخاري في صحيحه بسنده عن أبي هريرة ؓ عن النبي ﷺ - قال : « يلقى إبراهيم أباه آزر يوم القيامة وعلى وجه آزر قفرة وغبرة ، فيقول له إبراهيم : ألم أقل لك لا تعصني . فيقول له أبوه : فاليوم لا أعصيك ، فيقول إبراهيم : يا رب إنك وعدتني أن لا تخزني يوم يعثون فأبي خزي أخزى من أبي الأبعد؟ فيقول الله تعالى : إني حرمت الجنة على الكافرين ، ثم يقال : يا إبراهيم : ما تحت رجلك ؟ فينظر فإذا هو بذيخ ملتطخ ، فيؤخذ بقوائمه فيلقى في النار » . الحديث : رواه البخاري ك / أحاديث الأنبياء باب ﴿ وَأَتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ حَبِيلًا ﴾ حديث 3350 فتح الباري 6/445 ، 446 .

(وذيخ) بكسر الهمزة والميم : الذكر من الضباع والأنتى ذيخة .

يراجع لسان العرب 3/1528 مادة ذي خ ، والنهية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير 2/174 ط المكتبة العلمية بيروت .

وعلي هذا فإني أرى أن لوطاً عليه السلام هو لوط بن هاران بن آزر ، ولا مانع من كون آزر وتارح اسمين لمسمى واحد هو والد إبراهيم عليه السلام ولا مانع أيضاً من كون آزر اسماً وتارح لقباً . والله أعلم .

(2) يراجع جامع البيان للطبري 7/159 ط دار المعرفة ، وتفسير ابن كثير 3/357 ، والدر المنثور للسيوطي 3/495 ، والبحر المحیط لأبي حيان الأندلسي 4/332 ، وروح المعاني للألوسي 8/168 ، ومحاسن التأويل للقسامي 7/195 ، ومختصر أخبار البشر لابن كثير 15/1 ط دار المعرفة بيروت ، ومرآة الزمان في تاريخ الأعيان تأليف سبط بن الجوزي 1/317 ط دار الشروق ط 1 سنة 1405 هـ سنة 1985 م ، والأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل للقاضي مجير الدين الحنبلي 1/70 المطبعة الحيدرية بالنجف الأشرف والطبقات الكبرى لابن سعد 1/54 ط دار صادر بيروت ، ومروج الذهب ومعادن الجوهر لأبي الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي (ت 346 هـ) 1/42 تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ط دار الكتب العلمية بيروت سنة 1416 هـ ط 1 .

هاجر لوط عليه السلام مع عمه إبراهيم إلى الشام ، وهي الأرض المباركة ، قال الإمام الزمخشري : [نجيا من العراق إلى الشام ، وبركاته الواصلة للعالمين : أن أكثر الأنبياء بعثوا فيه فانتشرت في العالمين شرائعهم وآثارهم الدينية وهي البركات الحقيقية وقيل : بارك الله فيه بكثرة الماء والشجر والتمر والخصب وطيب العيش للغني والفقير ، وروى أن إبراهيم عليه السلام نزل بفلسطين ولوطا عليه السلام بالمؤتفكة وبينهما مسيرة يوم وليلة] (1) .

● وقال الإمام القرطبي : [قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَاهُ لُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ ﴾ يريد نجينا إبراهيم ولوطا إلى أرض الشام وكانا بالعراق ، وكان إبراهيم عليه السلام عم لوط ، قاله ابن عباس ، وقيل لها مباركة لكثرة خصبها وثمارها وأنهارها ، ولأنها معادن الأنبياء ، والبركة ثبوت الخير ، ومنه برك البعير : إذا لزم مكانه فلم يبرحه ...] (2) .

● وقال الفيروزابادي [خرج لوط من أرض أهل العراق مع عمه إبراهيم - عليه السلام - تابعا له على دينه مهاجرا إلى الشام] (3) .

وظل لوط في صحبة عمه إبراهيم - عليه السلام - حتى استقر به المقام في قرية سدوم بالأردن ، ولقد أرسله الله إلى أهل هذه القرية .

(1) الكشاف 126/3 ، 127 والمؤتفكة هي قرية سدوم وهي قرية واقعة عند جنوب البحر الميت بالأردن ، يراجع معجم البلدان لياقوت الحموي 200/3 ، وسميت بذلك لما حدث لأهلها حين كذبوا واعترضوا على دعوة لوط عليه السلام حيث نزل على أهلها العذاب الشديد وجعل عاليها سافلها ، والإفك هو قلب الشيء .

(2) الجامع لأحكام القرآن 305/11 .

(3) بصائر ذوي التمييز 55/6 والفيروزابادي هو محمد بن يعقوب بن محمد بن إبراهيم بن عمر الفيروزابادي الشيرازي الشافعي (729 - 817 هـ) لغوي وعالم بالحديث والتفسير والفقہ ، من أهم مؤلفاته : بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز ، والقاموس المحيط ، وفتح الباري بالسيوط الفسيح الجاري في شرح صحيح البخاري) .

ترجع ترجمته في الضوء اللامع 79/10 ، وشذرات الذهب 126/7 ومعجم المؤلفين 118/12 .

المبحث الأول

دعوة نبي الله لوط عليه السلام

أرسل الله تعالى لوطاً عليه السلام إلى قومه ، ليدعوهم إلى العقيدة الصحيحة عقيدة التوحيد ، وما يتصل بها من شرائع حكيمة وأخلاق كريمة .

● قال تعالى في سورة الشعراء : ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١١٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطُ أَلَا نُنْقِذُكُمْ ﴿١١٧﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١١٨﴾ فَانْقُوا لِلَّهِ وَأَطِيعُوا ﴿١١٩﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢٠﴾ أَتَأْتُونَ الذِّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿١٢١﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٢٢﴾ (١) .

● حثهم لوط عليه السلام على تقوى الله عز وجل فهي جماع كل خير ، وبين لهم أنه مرسل من عند الله عز وجل ، أمين في دعوته لا يكذب ولا يخدع ولا يزيد ولا ينقص شيئاً مما كلف بتبليغه ، أمين في قوله ، أمين في فعله ، أمين في سره ، أمين في علنه ﴿ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١١٨﴾ فَانْقُوا لِلَّهِ وَأَطِيعُوا ﴿١١٩﴾ والفاء لترتيب ما قبلها على ما بعدها ، يعني إذا كنت رسولا أمينا فيجب عليكم أن تتقوا الله وتطيعوني فيما جئت به من عند الله .

﴿ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢٠﴾ لا أنتظر منكم أجراً على دعوتي ؛ لأن أجري على من أرسلني وهو رب العالمين .

﴿ أَتَأْتُونَ الذِّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿١٢١﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٢٢﴾ .

أنكر عليهم هذا الفعل القبيح وتلك العادة المستهجنة المخالفة للفطرة السليمة وللطبائع المستقيمة ، تلك العادة التي تفردوا بها من بين سائر الخلق ، وكانوا أول من فعلها ، فتجاوزوا بذلك الحد في الفساد والإجرام والضلال والانحلال .

● وقال تعالى - في سورة الأعراف : ﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿٨٨﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ ﴿٨٩﴾ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٩٠﴾ (٢) .

أنكر عليهم إتيانهم لتلك الرذيلة المنكرة ، التي لم يسبقهم إليها أحد والتي تدل على إسرافهم في الفساد وتماديهم في الفجور والانحلال .

● قال أبو حيان الأندلسي : [والفاحشة هنا إتيان ذكران الآدميين في أدبارهم ، ولما كان هذا الفعل معهودا قبحه ومركزاً في العقول فحشه أتى معرّفًا بالألف واللام ⁽¹⁾ ، أو تكون (أل) فيه للجنس على سبيل المبالغة كأنه لشدة قبحه جعل جميع الفواحش] ⁽²⁾ .

وقال الإمام ابن كثير : [بعث الله لوطاً عليه السلام إلى أهل سدوم وما حولها من القرى يدعوهم إلى الله سبحانك ويأمرهم بالمعروف وينهاهم عما كانوا يرتكبونه من المآثم والحارم والفواحش التي اخترعوها ؛ فلم يسبقهم بها أحد من بني آدم ولا غيرهم وهو إتيان الذكور دون الإناث وهذا شيء لم يكن بنو آدم تعهده ولا تألفه ، ولا يخطر ببالهم حتى صنع ذلك أهل سدوم - عليهم لعائن الله - قال الوليد بن عبد الملك - الخليفة الأموي ، باني جامع دمشق - : لولا أن الله سبحانك قص علينا خبر قوم لوط ما ظننت أن ذكرا يعلو ذكرا] ⁽³⁾ .

● ويقول صاحب الظلال : [والإسراف الذي يدمغهم به لوط هو الإسراف في تجاوز منهج الله الممثل في الفطرة السوية . والإسراف في الطاقة التي وهبهم الله إياها ، لأداء دورهم في امتداد البشرية ونمو الحياة ، فإذا هم يريقونها ويبعثونها في غير موضع الإخصاب . فهي مجرد « شهوة » شاذة ؛ لأن الله جعل لذة الفطرة الصادقة في تحقيق سنة الله الطبيعية . فإذا وجدت نفس لذتها في نقيض هذه السنة ، فهو الشذوذ إذن والانحراف والفساد الفطري ، قبل أن يكون فساد الأخلاق ... ولا فرق في الحقيقة ؛ فالأخلاق الإسلامية هي الأخلاق الفطرية ، بلا انحراف ولا فساد . إن التكوين العضوي للأنتى - كالتكوين النفسي - هو الذي يحقق لذة الفطرة الصادقة للذكر في هذا الالتقاء ، الذي لا يقصد به مجرد : الشهوة . إنما هذه اللذة المصاحبة له رحمة من الله ونعمة ، إذ يجعل القيام بتحقيق سنته ومشيئته في امتداد الحياة ، مصحوبًا بلذة تعادل مشقة التكليف ! فأما التكوين العضوي للذكر - بالنسبة للذكر - فلا يمكن أن يحقق لذة للفطرة السليمة ، بل إن شعور الاستقذار ليسبق ، فيمنع مجرد الاتجاه عند الفطرة السليمة] ⁽⁴⁾ .

(2) البحر المحيط 4/332 .

(4) في ظلال القرآن 3/1315 .

(1) وعلى هذا تكون (أل) للعهد الذهني .

(3) تفسير القرآن العظيم 2/230 .

● وفي سورة النمل يقول ﷺ: ﴿وَلَوْطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٥﴾ أَيُنَّكُمْ لَأَأْتِئُنَّ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿٥٦﴾ (1).

أنكر عليهم لوط عليه السلام فعلهم لتلك الفاحشة مع علمهم بقبحها وشناعتها ﴿أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ أي تعلمون قبحها .

علي حد قول الشاعر :

فإن كنت لا تدري فتلك مصيبة وإن كنت تدري فالمصيبة أعظم

وقيل : ﴿وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ أي يبصر بعضكم بعضًا أي ينظر إليه تلذذا واستمتاعًا حيث كانوا يرتكبون الفاحشة في العلن وقيل : ﴿وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ آثار العصاة ممن قبلكم فاعتبروا بهم ، فالسعيد من اتعظ بغيره والشقي من اتعظ بنفسه .

﴿أَيُنَّكُمْ لَأَأْتِئُنَّ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ .

وصفهم بالجهل ، والمقصود به هنا الجهل : ضد الحلم ، وهو الطيش والسفه الذي يدفع صاحبه إلى ارتكاب هذا المنكر (2) .

● وفي سورة العنكبوت يقول ﷺ: ﴿وَلَوْطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَأَأْتِئُنَّ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿٥٥﴾ أَيُنَّكُمْ لَأَأْتِئُنَّ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿٥٦﴾ (3) .

أنكر عليهم لوط عليه السلام على قومه تلك الفعل المنكرة القبيحة التي لم يسبقهم إليها أحد ، كما أنكر عليهم قطعهم للسبيل ومجاهرتهم بالمنكرات في المجالس دون خجل أو وجل .

قال صاحب الكشاف : [وقطع السبيل : عمل قطاع الطريق ، من قتل النفس وأخذ الأموال وقيل : اعتراضهم السابلة (4) بالفاحشة ، وعن الحسن قطع النسل بإتيان ما ليس بحرث] (5) .

وقال الإمام ابن كثير : [... وكانوا مع ذلك - أي مع إتيانهم الفاحشة - يقطعون

(1) سورة النمل : 54 ، 55 .

(2) يراجع الكشاف للزمخشري 3/374 - والتفسير الكبير للرازي 24/204 .

(3) العنكبوت : 28 ، 29 .

(4) السابلة : المرة .

(5) الكشاف للزمخشري 3/452 .

الطريق ويخونون الرفيق ويأتون في ناديهم - وهو مجتمعهم ومحل حديثهم وسميرهم - المنكر من الأقوال والأفعال على اختلاف أصنافه ، حتى قيل إنهم كانوا يتضارطون في مجالسهم ولا يستحيون من مجالسيهم ، وربما وقعت منهم الفعلة العظيمة في المحافل ولا يستنكفون ولا يرعون لوعظ واعظ ، ولا نصيحة من عاقل ، وكانوا في ذلك وغيره كالأنعام بل أضل سبيلاً ولم يقلعوا عما كانوا عليه في الحاضر ولا ندموا على ما سلف من الماضي ولا راموا في المستقبل تحويلاً فأخذهم الله أخذاً ويبلاً [(1)] .

(1) قصص الأنبياء ص 192 ، وراجع البداية والنهاية 167/1 ط دار الكتب العلمية .

المبحث الثاني

موقف قوم لوط من دعوته

دعاهم صلى الله عليه وسلم إلى عبادة الله ﷻ ، والامثال لما أمر به واجتناب كل ما نهى عنه ، وحذروهم من سخط الله تعالى ، وأليم عقابه ، فقابلوا تلك الدعوة الصادقة بالكذب والإعراض والسخرية والاضطهاد والعداء والإيذاء ، والتهديد والوعيد .

قال تعالى في سورة الأعراف : ﴿ وَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِّنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَّنْظَهُرُونَ ﴾ (1) .

وفي سورة الشعراء يقول ﷻ : ﴿ قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنْتَهَ يَلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ ﴾ (2) .

وفي سورة العنكبوت يقول سبحانه : ﴿ فَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَتَيْنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ (3) .

وفي سورة القمر يقول ﷻ - ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالَّذِرِ ﴾ (4) .

ومن جملة هذه الآيات يتضح لنا موقف قوم لوط من دعوته ، فلقد كذبوا به وأعرضوا عنه وسخروا منه ، وتعجلوا وقوع العذاب ، وهددوا بإخراجه من قريتهم لأنه طاهر عفيف ، وكان الطهر والعفاف ظلم وإجحاف وجرم وانحراف .

يقول صاحب الظلال : [ويتجلى لنا انحراف قوم لوط في جوابهم لبيهم ، ﴿ وَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِّنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَّنْظَهُرُونَ ﴾ يا عجبا !! أو من يتطهر يخرج من القرية إخراجا ليقى فيها الملوثون المدنسون ؟ ! ولكن لماذا العجب ؟ وماذا تصنع الجاهلية الحديثة ؟ أليست تطارد الذين يتطهرون ، فلا ينغمسون في الوحل الذي تنغمس فيه مجتمعات الجاهلية ، وتسميه تقديمية وتحطيما للأغلال عن المرأة وغير المرأة ؟! أليست تطاردهم في أرزاقهم وأنفسهم وأموالهم وأفكارهم وتصوراتهم كذلك ، ولا تطيق أن تراهم يتطهرون ؛ لأنها لا تتسع ولا ترحب إلا بالملوثين الدنسين الأقدار ؟! إنه منطق الجاهلية في كل حين !!] (5) .

(2) سورة الشعراء : 167 .

(1) سورة الأعراف : 82 .

(4) سورة القمر : 33 .

(3) سورة العنكبوت : 29 .

(5) في ظلال القرآن 1316/3 .

● لقد مكث لوط عليه السلام في قومه مدة طويلة (1) ، يدعوهم إلى العقيدة الصحيحة والأخلاق الفاضلة والشريعة القويمية الحكيمة ، التي جاء بها من عند الله - تعالى - ، ولكنهم صموا آذانهم وعموا أبصارهم عن الحق ، وقابلوا الحجج الساطعة والأدلة القاطعة بالجحود والإنكار وأصروا على كفرهم وتمادوا في غيهم وضلالهم حتى يئس لوط من إيمانهم ، فتوجه إلى الله عز وجل بالدعاء أن ينجيه هو ومن آمن معه .

قال تعالى : ﴿ فَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَتَيْنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ (١٦٦) قَالَ رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ ﴿ (2) .

وقال سبحانه : ﴿ قَالُوا لَنْ لَمْ تَنْتَهَ بِلُوطٍ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ ﴾ (١٦٧) قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ ﴾ (١٦٨) رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿ (3) .

بين لهم بغضه لعملهم الطالح وتبرأه منه .

قال صاحب الكشاف : [﴿ مِنَ الْقَالِينَ ﴾ أبلغ من أن يقول إني لعملكم قالي ، كما تقول : فلان من العلماء ، فيكون أبلغ من قولك : فلان عالم ؛ لأنك تشهد له بكونه معدودًا في زميرتهم ، ومعروفة مساهمته لهم في العلم ، والقلبي : البغض الشديد ؛ كأنه بغض يقلي الفؤاد والكبد ، وفي هذا دليل على عظم معصيتهم ، والمراد : القلي من حيث الدين والتقوى ، وقد تقوى همة الدين في دين الله حتى تقرب كراهته للمعاصي من الكراهة الجبلية] (4) .

(1) قال المسعودي في مروج الذهب : مكث لوط في قومه بضعة وعشرين سنة يدعوهم إلى الله فلم يؤمنوا - مروج الذهب ومعادن الجوهر للمسعودي 46/1 ط دار المعرفة بيروت - والذي أراه أنه عليه السلام مكث فيهم مدة طويلة ، ولم يرد في تحديد هذه المدة نص يعتمد عليه في ذلك .

(2) سورة العنكبوت : 29 - 30 .

(3) سورة الشعراء : 167 - 169 .

(4) الكشاف للزمخشري 331/3 بتصرف .

المبحث الثالث

خيانة زوجته

قال تعالى في سورة التحريم : ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحِينَ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ ﴾ (1) .

والخيانة هنا هي خيانة كفر لا خيانة زنا ، خيانة في الدين لا في العرض .

قال الإمام ابن كثير : [﴿ فَخَانَتَاهُمَا ﴾ أي في الإيمان ، لم يوافقاهما على الإيمان ، ولا صدقتهما في الرسالة فلم يجد ذلك كله شيئاً ولا دفع عنهما محذوراً ولهذا قال تعالى : ﴿ فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ﴾ أي لكفرهما ﴿ وَقِيلَ ﴾ للمرأتين ﴿ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ ﴾ وليس المراد بقوله : ﴿ فَخَانَتَاهُمَا ﴾ في فاحشة ، بل في الدين ، فإن نساء الأنبياء معصومات عن الوقوع في الفاحشة لحرمة الأنبياء ، عن ابن عباس رضي الله عنه قال : كانت خيانتهم أنهما كانتا على غير دينهما ، فكانت امرأة نوح تطلع على سر نوح ، فإذا آمن مع نوح أحد أخبرت الجبارة من قوم نوح به ، وأما امرأة لوط فكانت إذا أضاف لوط أحداً أخبرت به أهل المدينة ممن يعمل السوء ، وقال الضحاك (2) عن ابن عباس : ما بغت امرأة نبي قط ، إنما كانت خيانتاهما في الدين [(3)] .

لقد كذبت امرأة لوط بزوجها ، وكان الأولى بها أن تكون أول من آمن به وأن تكون عوناً له على دعوته ؛ لأنها أعلم الناس بأحواله ، وأقرب الناس منه ، ولكنها أثرت ما عليه قومها من الكفر والضلال ؛ فكان عاقبتها الخسران والنكال .

ولم ينفعها زواجها من نبي الله لوط عليه السلام ، وما أجمل قول القشيري في اللطائف [إن الجسارة على الزلة وخيمة العاقبة ، ولو بعد حين ، ولا ينفع المرء اتصاله بالأنبياء والأولياء إذا كان في الحكم والقضاء من جملة الأشقياء] (4) .

(1) سورة التحريم : 10 .

(2) هو الضحاك بن مزاحم أبو القاسم الخراساني ، التابعي عالم بالتفسير والحديث والقراءات سمع من سعيد ابن جبير ، وعنه أخذ التفسير ، توفي سنة 105 هـ . تراجع ترجمته في طبقات المفسرين للداودودي 1/216 - وغاية النهاية لابن الجزري 1/337 .

(3) تفسير القرآن العظيم لابن كثير 4/393 بتصرف . (4) لطائف الإشارات للقشيري 3/149 .

المبحث الرابع

هلاك المكذبين بنبي الله لوط عليه السلام ونجاته ومن آمن به

أولاً : الملائكة في ضيافة لوط عليه السلام .

● حق على قوم لوط العذاب ، وجاءت الملائكة الكرام إليه في صورة بشرية ، كما جاءوا إلى إبراهيم عليه السلام ، وظن لوط عليه السلام أنهم بشر كما وقع في ظن إبراهيم عليه السلام فخاف لوط عليهم من تحرش قومه بهم وتعرضهم لهم بالإيذاء ، ولولا حق الضيافة وآدابها لطلب منهم عليه السلام أن يغادروا القرية في الحال ، ولكنه استحيا من مواجهتهم بالواقع المرير .

قال تعالى : ﴿ وَكَلَّمَآ جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴾ (1) .

قال ابن كثير : [... قال المفسرون : لما فصلت الملائكة من عند إبراهيم وهم جبريل وميكائيل وإسرافيل أقبلوا حتى أتوا أرض سدوم في صورة شبان حسان ، اختبأوا من الله - تعالى - لقوم لوط ، وإقامة للحجة عليهم ، فاستضافوا لوطاً عليه السلام وذلك عند غروب الشمس ، فخشي إن لم يضيفهم أن يضيفهم غيره ، وحسبهم بشراً من الناس ، ﴿ سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴾ قال ابن عباس ومجاهد وقتادة : شديد بلاؤه ، وذلك لما يعلم من مدافعة الليلة عنهم ، كما كان يصنع بهم في غيرهم ، وكانوا قد اشترطوا عليه أن لا يضيف أحداً ، وذكر قتادة : أنهم وردوا عليه وهو في أرض له يعمل فيها فتضيفوا فاستحيا منهم وانطلق أمامهم ، وجعل يعرض لهم في الكلام لعلهم ينصرفون عن هذه القرية وينزلون في غيرها ، فقال لهم فيما قال : والله يا هؤلاء ما أعلم على وجه الأرض أهل بلد أخبث من هؤلاء ، ثم مشي قليلاً ، ثم أعاد ذلك عليهم حتى كرره أربع مرات ، قال : وكانوا قد أمروا أن لا يهلكوهم حتى يشهد عليهم نبيهم بذلك] (2) .

ثانياً : موقف قوم لوط عليه السلام من ضيفه

قال تعالى : ﴿ وَجَاءَهُ قَوْمُهُ مُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَنْقَوْمِر

(1) سورة هود : 77 .

(2) قصص الأنبياء لابن كثير : ص 193 ، 194 باختصار ، ويراجع تاريخ الأمم والملوك للطبري 210/1 .

ويراجع التفسير الكبير للرازي 31/18 .

هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ ﴿٧٧﴾ قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَمَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَتَّى وَإِنَّكَ لَغُلَامٌ مَا تُرِيدُ ﴿٧٨﴾ قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةٌ أَوْ آوَىٰ إِلَيَّ رُكْنِي أَشَدِيدٌ ﴿٧٩﴾ (1)

● لما سمع قوم لوط بقدوم ضيف عليه جاءوا مهرولين إلى بيته ، ولقد عبر القرآن عن مجيئهم مسرعين بـ ﴿يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ﴾ أي يسبق بعضهم بعضاً إليه ويتدافعون إلى بيته .

قال الزمخشري [يسرعون كأنما يدفعون دفعا] (2) ، وقال ابن منظور [هرع : الهرع والهراع والإهراع : شدة السوق وسرعة العدو ... وفي التنزيل : ﴿وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ﴾ قال أبو عبيدة : يستحثون إليه كأنما يحث بعضهم بعضاً] (3) .

﴿وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ﴾ .

قال ابن كثير : [أي هذا مع ما سلف لهم من الذنوب العظيمة الكبيرة الكثيرة] (4) .

وقال القرطبي [﴿وَمِنْ قَبْلُ﴾ أي ومن قبل مجيء الرسل ، وقيل : من قبل لوط كانوا يعملون السيئات أي كانت عاداتهم إتيان الرجال ...] (5) .

وقال الألوسي : [قيل : المراد سيئة إتيان الذكور إلا أنها جمعت باعتبار تكرارها أو باعتبار فاعليها ، وقيل : المراد ما يعم ذلك وغيره من أعمالهم القبيحة المنكرة ، والمراد من ذكر عملهم السيئات من قبل بيان أنهم اعتادوا المنكر فلم يستحيوا ، فلذلك أسرعوا لطلب الفاحشة من ضيوفه المطهرين غير مكترئين ، فالجملة معترضة لتأكيد ما قبلها ، وقيل : إنها بيان لوجه ضيق صدره لما عرف من عاداتهم ، ويجوز أن تكون في موضع الحال كالتي قبلها ، أي جاءوا مسرعين والحال أنهم كانوا منهمكين في عمل السيئات] (6) .

وقال صاحب الميزان [والجملة كالمعترضة بين قوله : ﴿وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ﴾ وقوله : ﴿قَالَ يَلْقَوْنَ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي﴾ إلخ ، وهي مناسبة لمضمون طرفيها أما فيما قبلها فإنها توضح أن الذي كان يهرعهم ويسوقهم إلى لوط عليه السلام هو أنهم كانوا يعملون السيئات وصاروا بذلك معتادين على إتيان الفحشاء ولعين بها ؛ فساقهم ذلك إلى المجيء

(2) الكشاف : 413/2 .

(1) سورة هود : 78 - 80 .

(3) لسان العرب : 4653/6 مادة هرع ويراجع مجاز القرآن لأبي عبيدة معمر بن المثنى التميمي (ت : 210 هـ)

(4) قصص الأنبياء لابن كثير : ص 194 .

294/1 .

(6) روح المعاني للألوسي 106/12 بتصرف .

(5) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي 75/9 .

إليه وقصد السوء بأضيافه ، وأما فيما بعدها فإنها تفيد أنهم برسوخ الملكة واستقرار العادة سلبوا سمع القبول ، وأن يزجرهم زاجر من عظة أو نصيحة ، ولذلك بدأ لوط في تكليمهم بعرض بناته عليهم ثم قال لهم ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ ﴾ [(1)] .

ثالثاً - حوار بين لوط وقومه

﴿ قَالَ يَقَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ﴾ .

أدرك عليه السلام الغرض الخبيث الذي جاء من أجله القوم ، ورأى أنهم عازمون على هذا الأمر فقال لهم : ﴿ قَالَ يَقَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ﴾ عرض بناته على قومه لكي يتزوج بعض رجال القوم بهن ويستمتعن بهن استمتاعاً حلالاً طيباً ، ويهجروا عاداتهم القبيحة المنكرة وهي إتيان الرجال في أدبارهم ، فإذا تزوج بعض الرجال بهن فسوف يسير جميع القوم على هذا السنن القويم والنهج المستقيم ويلجأون إلى الزواج الحلال الطيب ويهجرون الفاحشة .

﴿ قَالَ يَقَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ ﴾ أدرك عليه السلام ذلك فأراد أن يوقظ فيهم داعي الفطرة قبل فوات الأوان ، ويبعث فيهم روح النخوة والمروءة والطهارة والكرامة ، ويحيي ضمائرهم الميتة ويعمر قلوبهم الخربة ، يعمرها بتقوى الله عز وجل التي هي جماع كل خير وأساس كل بر وهي العصمة من كل سوء فقال لهم ﴿ يَقَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ ﴾ .

● عودوا إلى الفطرة السليمة ، وأقبلوا على الزواج وانشدوا الحلال الطيب ، وأنا أول من يعرض بناته للتزويج منكم ، ورحم الله من كان مفتاحاً للخير مغلقاً للشر .

للخير أهل لا تزل قلوبهم تدعو إليه
طوبى لمن جرت الأمور الصالحات على يديه

ومن هنا فإنه عليه السلام عرض عليهم أن يتزوجوا بناته ، ولكنهم أبوا وآثروا الفاحشة المنكرة على الحلال الطيب ، آثروا النجس والندس والشذوذ والانحراف على الطهر

والعفاف ، وقالوا للوط عليه السلام كما أخبر القرآن : ﴿ لَقَدْ عَلِمْتَمَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقِّ وَإِنَّكَ لَنَعْلَمُ مَا تُرِيدُ ﴾ .

قال الإمام الألوسي [... عنوا به قضاء الشهوة : أي ما لنا حاجة في بناتك ، يجوز أن يكون المعنى : ما لنا في بناتك نكاح حق لأنك لا ترى جواز نكاحنا للمسلمات ... وقيل : إنما نفوا أن يكون لهم الحق في بناته لأنهم كانوا قد خطبوهن فردهم وكان من سنتهم أن من رد في خطبة امرأة لم تحل له أبداً ، وقيل : إنهم لما اتخذوا إتيان الذكور مذهبا كان عندهم هو الحق وأن نكاح الإناث من الباطل فقالوا ما قالوا] (1) ، ﴿ وَإِنَّكَ لَنَعْلَمُ مَا تُرِيدُ ﴾ تعلم أن بغيتنا ونهمتنا في الرجال لا في النساء .

عرض لوط عليه السلام بناته عليهم عرضا حقيقياً ، وهنا يعرض لنا سؤال مهم ، وهو كيف عرض على قومه الكفار التزوج بيناته المسلمات ؟ وهل يصح ذلك ؟ .

ويجاب عن ذلك : بأنه دعاهم إلى التزوج بهن بشرط أن يقدموا الإيمان ، وإليه ذهب الزجاج (2) وهو مبني على أن تزويج المسلمات من الكفار لم يكن جائزاً إذ ذاك ، وقبل كان جائزاً في شريعتهم كما كان في أول الإسلام ثم ورد تحريمه (3) ؛ ولقد زوج النبي صلى الله عليه وآله ابنته زينب لأبي العاص بن الربيع ، وابنته رقية لعتبة بن أبي لهب قبل نزول الوحي ، وكان العاص وعتبة كافرين ، إلا أن عتبة لم يدخل بزفيرة وفارقها بطلب أبيه حين نزلت سورة (المسد) فتزوجها عثمان رضي الله عنه ، وأما أبو العاص فكان قد دخل بزینب فلما أسر يوم بدر وافتدى نفسه أخذ النبي صلى الله عليه وآله عليه العهد أن يردّها إذا عاد وأرسل صلى الله عليه وآله زيد بن حارثة ورجلاً من الأنصار - في طلبها فجاء بها ، ثم إن أبا العاص أسلم وأتى المدينة فردها - عليه الصلاة والسلام - إليه (4) .

وذهب بعض المفسرين إلى أن عرض لوط عليه السلام بناته ليس عرضاً حقيقياً ؟ .

● قال الزمخشري [ويجوز أن يكون عرض البنات عليهم مبالغة في تواضعه لهم

(1) روح المعاني للألوسي 107/12 . (2) يراجع معاني القرآن وإعرابه للزجاج 67/3 .

(3) قال تعالى : ﴿ وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَةَ حَتَّىٰ يُؤْمِنَ وَلَا أُمَّةٌ مُّؤْمِنَةٌ حَتَّىٰ مِّنْ مُّشْرِكَةٍ وَلَا أُعْجَبَتْكُمْ ﴾ البقرة 221 .

(4) عصمة الأنبياء للأستاذ الدكتور / أبو النور الحديدي ص 299 بتصرف ، ويراجع الجامع لأحكام القرآن

للقرطبي 76/9 ، روح المعاني للألوسي 106/12 ويراجع الكشاف للزمخشري 413/2 ، 414 ، والانتصاف

لأحمد بن المنير بهامش الكشاف 413/2 ، 414 .

وإظهارًا لشدة امتعاضه مما أوردوا عليه ، طمعًا في أن يستحيوا منه ويرقوا له إذا سمعوا ذلك ، فتركوا له ضيوفه مع ظهور الأمر ، واستقرار العلم عنده ، وعندهم أن لا مناكحة بينه وبينهم ومن ثم قالوا : ﴿ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَنَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴾ لأنك لا ترى مناكحتنا [(1)] .

وقال الشيخ عبد الوهاب النجار : [... فهو عرض غير مؤكد ، لا يقصد به الجد ، ولكنه - ﷺ - عرض بناته عليهم طمعًا في أن يستحيوا منه ويخجلوا من فعلتهم ، ويكفوا عنها - كما تقول لرجل يضرب آخر وأنت تحجزه عنه : دعه واضربني أنا ، لأنك تقول هذا القول وأنت جد واثق بأنه لا يضربك ، ولو علمت أنه يضربك حقيقة ما قلت هذا القول] (2) .

● وذهب بعض المفسرين إلى أن لوطًا ﷺ يقصد بيناته نساء القوم عامة .

● قال الزمخشري [... ﴿ قَالَ هَؤُلَاءِ بَنَاتٌ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴾ (3) : إشارة إلى النساء ، لأن كل أمة أولاد نبيها رجالهم بنوه ، ونسأؤهم بناته ، فكأنه قال لهم : هؤلاء بناتي فانكحوهن واخلوا بناتي فلا تتعرضوا لهن ﴿ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴾ شك في قبولهم لقوله ، كأنه قال : إن فعلتم ما أقول لكم وما أظنكم تفعلون ، وقيل : إن كنتم تريدون قضاء الشهوة فيما أحل الله دون ما حرم] (4) .

والذي نراه في هذا الموضوع : أن المراد بناته حقيقة لا نساء القرية عامة ، لقوله : ﴿ هَؤُلَاءِ ﴾ وهؤلاء إشارة إلى قريب حاضر لا إلى بعيد غائب ، ولقولهم : ﴿ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَنَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴾ وهذا الجواب واضح الدلالة على أن المراد بناته ﷺ لا نساء القوم ، والأصل هو الأخذ بظاهر النص ، وما لا يحتاج إلى تأويل خير مما يحتاج إلى تأويل .

قال الطباطبائي [.... على أن قولهم في جوابه ﴿ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَنَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴾ لا يلائم كون المراد بالبنيات في كلامه إنما هن نسأؤهم لا بناته من صلبه فإنهم ما كانوا مؤمنين به حتى يعترفوا بكون نسأؤهم بناته ، إلا أن يكون المراد

(1) الكشاف 414/2 وإرشاد العقل السليم لأبي السعود 54/3 .

(2) قصص الأنبياء عبد الوهاب النجار ص 150 بتصرف .

(3) الكشاف : 585/2 بتصرف .

(4) سورة الحجر : 71 .

التهكم ولا قرينة عليه ، ولا يقال تعبيره عليه السلام بالبنات وليس له عندئذ إلا بنتان يدل على أن مراده بناته من نساء أمته لا بنتاه غير الصادق عليه لفظ الجمع ، لأننا نقول : لا دليل مع ذلك من كلامه تعالى ولا وقع ذلك من نقل صحيح ، وإنما ورد في التوراة الحاضرة أنه كان للوط بنتان فقط ، ولا اعتماده على ما تتضمنه [(1)] .

وصفوة القول : أنه عليه السلام عرض بناته على قومه عرضًا حقيقيًا ، ومقصده من ذلك أن يرغبهم في الحلال الطيب ويصرفهم عن الفاحشة ، وأن يردهم إلى الفطرة السليمة والطبيعة المستقيمة ويعددهم عن الشذوذ والانحراف ، وأن ينقلهم من مستنقعات النجاسات والأدناس ، ويأخذ بأيديهم إلى واحة الطهر والعفاف ، والزواج هو الحصن الحصين من جميع الانحرافات الجنسية ، قيل : كان لقومه سيدان مطاعان أو ثلاثة وكان العرض موجهاً إليهم على وجه الخصوص فإذا قبلوا وتزوجوا من بنات لوط عليه السلام كان الزواج الحلال الطيب سنة ماضية في سائر القوم وبذلك ينصرف الجميع عن الفاحشة .

﴿ قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةٌ أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴾ .

ماذا يصنع نبي الله لوط عليه السلام في هذا الموقف العصيب ؟ ماذا يفعل ؟ ومنطق الحق وحلاوة الإيمان لم تجد الطريق إلى تلك القلوب القاسية والعقول المتحجرة والنفوس الأمارة بالسوء ؟ كيف يحمي ضيفه من تلك الهجمة الشرسة العاتية ؟ .

كيف يحفظ كرامتهم ؟ ويحميهم من قومه الذين عدموا المروءة والكرامة وانغمسوا في أوحال الشذوذ والانحلال ؟ .

أين يلقي القوة التي ترددهم والمنعة التي تصدهم ! وهم وراء الباب يتزاحمون عليه ويرومون فتحه بالدفع أو بالكسر ؟ .

ولم يكن عليه السلام يعلم أن هؤلاء الضيوف الذين يزود عنهم بشتى الطرق هم الذين جاءوا ليدافعوا عنه وينزلوا بقومه أشد صنوف العذاب والنكال ! .

لقد استفرغ لوط عليه السلام ما في وسعه وبذل أقصى جهده في دفع قومه ، وصرفهم عن هدفهم الخبيث ، ولم يعد في وسعه عليه السلام إلا أن يعتذر لضيفه الكرام ويقول لهم : ﴿ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةٌ أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴾ .

● وفي هذه اللحظة العصيبة تكشف الملائكة . عن حقيقتها ومهمتها .

قال الإمام القشيري : [لما ضاق به الأمر : كشف الله عنه الضر ، فعرف إليه الملائكة] (1) .

﴿ قَالُوا يَلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصْلُوا إِلَيْكَ ﴾ بشروه الطَّيِّبَاتِ وطمانوه ﴿ فَاسْرِبْ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ ﴾ أي بجزء من الليل وهو آخره ﴿ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا أَمْرًا نَكَحًا ﴾ لا يلتفت أحد منكم حتى يرى العذاب المروع الذي ينزل بالمكذبين ، وقيل : حتى لا يتعلق قلبه بتلك البلدة ، وربما حدثته نفسه بالرجوع إليها والبقاء فيها فيهلك مع الهالكين .

وقيل : ليسرعوا في السير لأن من يكثر الالتفات لا يسرع في سيره .

وقال تعالى في سورة الحجر : ﴿ فَاسْرِبْ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴾ (2) أمره الطَّيِّبَاتِ بأن يسير خلفهم ، وأن يمضوا جميعاً في الطريق الذي أمروا بالسير فيه وبذلك أخبرت الملائكة لوطاً بزمان السير ومكانه وكيفيته ومن يسير معه ، وعاقبة المكذبين من قومه وعاقبة امرأته التي تهلك كما يهلك جميع المكذبين ﴿ إِنَّهُمْ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴾ .

رابعاً : فائدة مهمة :

قال تعالى : ﴿ قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةٌ أَوْ آوَىٰ إِلَيَّ رُكْنٌ شَدِيدٌ ﴾ .

وفي الحديث الشريف يقول صَلَّى : « ويرحم الله لوطاً لقد كان يأوي إلى ركن شديد » (3) .

(1) لطائف الإشارات للقشيري : 149/3 . (2) سورة الحجر : 65 .

(3) نص الحديث : « نحن أحق بالشك من إبراهيم إذ قال : ﴿ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أُولِمُ تُوْمِنُ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قُلُوبِي ﴾ [سورة البقرة : 260] ويرحم الله لوطاً لقد كان يأوي إلى ركن شديد ، ولو لبثت في السجن ما لبث يوسف لأجبت الداعي » .

الحديث رواه البخاري ومسلم في صحيحهما عن أبي هريرة رَضِيَ .
رواه البخاري ك / الأنبياء باب 11 حديث 3372 فتح الباري 473/6 .

ورواه مسلم - ك / الإيمان باب زيادة طمأنينة القلب بتظاهر الأدلة (صحيح مسلم بشرح النووي 183/2 ورواه الترمذي في السنن ك التفسير باب من سورة يوسف حديث 3116 - 274/5 وفي رواية الترمذي « فما بعث الله من بعده نبياً إلا في ثروة من قومه » أي : في قوة وكثرة وعزة ومنعة من العشيبة والأنصار .

● قد يتوهم البعض أن هناك تعارضاً بين الآية الكريمة والحديث الشريف ، فالآية تفيد أنه تمنى وجود القوة والمنعة التي تمكنه من الدفاع عن الحق ومحاربة الباطل والقضاء على الانحراف والزود عن الأضياف .

وفي الحديث ما يدل على أنه عليه السلام كان يأوي إلى ركن شديد ، « ويرحم الله لوطاً لقد كان يأوي إلى ركن شديد » وهذا هو المناسب لحال الأنبياء - عليهم السلام - الذين وصلوا إلى أعلى درجات المعرفة وأسمى مقامات التوكل واليقين برب العالمين ، وطلبه للقوة والمنعة لا يتنافى مع الأخذ بالأسباب لأنه لا بد للحق من قوة تحميه .

● يقول ابن حزم الظاهري في الفصل : [ولا جناح على لوط عليه السلام في طلب قوة من الناس فقد قال تعالى : ﴿ وَلَوْلَا دَفَعُ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا هَلَكَ مَنَاصِرُ سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا لَكُمْ لَوْلَا إِذْ دَفَعُ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ (2) ، ولقد طلب رسول الله صلى الله عليه وسلم المنعة من الأنصار حتى يبلغ كلامه ربه (3) .

وإنما أخبر صلى الله عليه وسلم أن لوطاً كان يأوي إلى ركن شديد يعني الملائكة الكرام الذين أرسلهم الله - تعالى - لحمايته ونصرته ولم يكن لوط عليه السلام يعلم بذلك ، ومن اعتقد أن لوطاً كان يعتقد أنه ليس له من الله ركن شديد فقد كفر ؛ إذ نسب إلى نبي من الأنبياء هذا الكفر ، وهذا أيضاً ظن سخيف ؛ إذ من الممتنع أن يظن برب أراه المعجزات وهو دائب يدعو إليه هذا الظن [(4)] .

(1) سورة الحج : 40 . (2) سورة البقرة : 251 .

(3) روى الإمام أحمد في مسنده من حديث جابر بن عبد الله في بيعة العقبة الثانية وفيه قال جابر : قلنا : يا رسول الله على ما نبايعك ؟ قال : « على السمع والطاعة في النشاط والكسل وعلى أن تصروني إذا قدمت عليكم وتمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم وأزواجكم وأبناءكم » .

أقول : وطلبه صلى الله عليه وسلم المنعة والنصرة من الأنصار لا يتنافى مع التوكل على الله تعالى ؛ لأن التوكل على الله تعالى لا يتنافى مع الأخذ بالأسباب .

والحديث رواه الإمام أحمد في مسنده بإسناد حسن ، المسند 3/322 ، 329 وصححه الحاكم ووافقه الذهبي . 624/2 ، 625 .

ورواه البيهقي في السنن 9/9 وقال ابن كثير في السيرة النبوية 2/196 : هذا إسناد جيد على شرط مسلم .

(4) الفصل في الملل والنحل لابن حزم 9/4 .

● وقال الإمام النووي في شرحه على صحيح مسلم : [وأما قول النبي ﷺ : « ويرحم الله لوطاً لقد كان يأوي إلى ركن شديد » فالمراد بالركن الشديد هو الله - سبحانه وتعالى - فإنه أشد الأركان وأقواها وأمنعها ، ومعنى الحديث - والله أعلم - أن لوطاً عليه السلام لما خاف على أضيافه ولم يكن له عشيرة تمنعهم من الظالمين ضاق ذرعه واشتد حزنه عليهم فغلب ذلك عليه فقال في ذلك الحال لو أن لي بكم قوة في الدفع بنفسي أو آوي أي إلى عشيرة تمنع لمنعتكم ، وقصد لوط عليه السلام إظهار العذر عند أضيافه وأنه لو استطاع دفع المكروه عنهم بطريق ما لفعله ، وأنه بذل وسعه في إكرامهم والمدافعة عنهم ولم يكن ذلك إغراضاً منه عليه السلام عن الاعتماد على الله - تعالى - وإنما كان لما ذكرناه من تطيب قلوب الأضياف ، ويجوز أن يكون نسي الالتجاء إلى الله في حمايتهم ، ويجوز أن يكون قد التجأ فيما بينه وبين الله تعالى وأظهر للأضياف التألم وضيق الصدر - والله أعلم] (1) .

● وقال الحافظ ابن حجر : [قوله ﷺ : « يغفر الله للوط إن كان ليأوي إلى ركن شديد » أي إلى الله سبحانه وتعالى ، يشير إلى قوله تعالى : ﴿ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴾ .

ويقال : إن قوم لوط لم يكن منهم أحد يجتمع معه في نسب لأنهم من سدوم ، وهو من الشام ، وكان أصل إبراهيم ولوط من العراق ، فلما هاجر إبراهيم إلى الشام هاجر معه لوط فبعث الله لوطاً إلى أهل سدوم فقال : لو أن لي منعة وأقارب وعشيرة لكنت استنصر بهم عليكم ليدفعوا عن ضيفاني ...] (2) .

خامساً : نجاة لوط وبناته وهلاك امراته

كشفت الملائكة الكرام للوط عليه السلام عن حقيقتهم ومهمتهم التي أرسلوا من أجلها فقالوا للوط عليه السلام كما أخبر القرآن الكريم في سورة هود قال تعالى : ﴿ قَالُوا يَلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْبُغْ مِنكُم أَحَدٌ إِلَّا أَمْرًا إِنَّكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴾ (3) .

(1) شرح النووي على صحيح مسلم 185/2 وقول النووي : [ويحتمل أن يكون نسي الالتجاء إلى الله تعالى في حمايتهم] : قول غير مقبول ؛ لأنه لا يليق بمقام النبوة فالنبي وثيق الصلة بالله ﷻ في سائر الأحوال .

(2) فتح الباري : 478/6 .

(3) سورة هود : 81 .

وفي سورة الحجر يقول تعالى : ﴿ قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿١٦﴾ وَأَتَيْنَكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿١٧﴾ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلَا يَلْقَئُكَ مِنْكُمُ أَحَدٌ وَآمَضُوا حَيْثُ تُوْمَرُونَ ﴿١٨﴾ وَفَضِينَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرُ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴿١٩﴾ . (1)

بشروه ﷺ بنجاته هو ومن آمن به من أهل بيته وهلاك قومه الذين كذبوا به وأعرضوا عنه ، وخرج لوط عليه السلام في جنح الظلام مع أهل بيته ، وسار من ورائهم حتى لا يتخلف منهم أحد فينال العذاب ، وسار الجميع في الطريق الذي أمروا بالسير فيه ولم يتلفت منهم أحد إلا امرأة لوط التي التفتت نحو القرية فأصابها ما أصاب قومها من العذاب قال ﷺ : ﴿ فَجَنَّبْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴿١٧﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَدِيرِينَ ﴾ أي في الهالكين . يقول الإمام القرطبي [: إن امرأة لوط لما سمعت هذة (2) العذاب التفتت وقالت : وا قوماه ! فأدركها حجر فقتلها] (3) .

وفي سورة الذاريات يقول ﷺ : ﴿ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾ فَأَوْحَيْنَا إِلَيْكَ فِيهَا عَنِّي ذَا قُرْآنٍ مُّذَمَّنًا وَمِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦﴾ فَمُؤْمِنَةٌ وَتِلْكَ أَمْرُهُمْ وَتِجَارَتِهِمْ وَمِثْلُ نَارٍ تُوقَدُ مِن قُرْآنٍ مُّذَمَّنًا ﴿١٧﴾ وَأَنذَرْتَهُمْ أَضْحَارًا وَعَلَىٰ هَؤُلَاءِ نَارُ الْهَدْيَةِ ﴿١٨﴾ وَتِلْكَ نَارُ الْهَدْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تُوقَدُ مِن قُرْآنٍ مُّذَمَّنًا وَمِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾ فَمُؤْمِنَةٌ وَتِلْكَ أَمْرُهُمْ وَتِجَارَتِهِمْ وَمِثْلُ نَارٍ تُوقَدُ مِن قُرْآنٍ مُّذَمَّنًا ﴿٢٠﴾ وَأَنذَرْتَهُمْ أَضْحَارًا وَعَلَىٰ هَؤُلَاءِ نَارُ الْهَدْيَةِ ﴿٢١﴾ .

سادسًا : هلاك قوم لوط وبيان صنوف العذاب التي حلت بهم :

تحدث القرآن الكريم حديثًا مفصلاً عن صنوف العذاب التي حلت بقوم لوط عليه السلام ، فلقد طمست أعينهم حين راودوا لوطاً عليه السلام عن ضيفه ، وقلبت قراهم فجعل عاليها سافلها ، وأمطروا بحجارة من سجيل منضود ، وأخذتهم الصيحة فهلكوا جميعاً .

● يقول المولى ﷺ في سورة القمر : ﴿ وَلَقَدْ رَاودُوهُ عَنْ صَيفِيهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذِرٌ ﴿٧٧﴾ وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بِكُرَّةٍ عَذَابٌ مُّسْتَقَرٌّ ﴿٧٨﴾ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذِرٌ ﴿٧٩﴾ . (5)

(1) سورة الحجر : 63 - 66 .

(2) الهدية : صوت شديد تسمعه من سقوط ركن أو حائط أو ناحية جبل تقول منه : هد يهد هديداً ، والهدية : الخوف ، وما يقع من السماء . يراجع لسان العرب 4631/6 مادة ه د د .

(3) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي 38/10 . (4) سورة الذاريات : 35 ، 36 .

(5) سورة القمر : 37 - 39 .

● قال القرطبي في تفسيره : [قال ابن عباس وأهل التفسير : أغلق لوط بابَه والملائكة معه في الدار وهو يناظر قومه ويناشدهم من وراء الباب وهم يعالجون تسور الجدران ، أو كسر الباب أو دفعه بالقوة ، فلما رأت الملائكة ما لقي من الجهد والكرب والنصب بسببهم قالوا : يا لوط إن ركنك لشديد ، وإنهم آتيهم عذاب غير مردود ، وإنا رسل ربك ، فافتح الباب ودعنا وإياهم ، ففتح الباب فضربهم جبريل بجناحه ... وقيل : أخذ جبريل قبضة من تراب فأذراها في وجوههم ...] (1) .

● وعن قلب قراهم بجعل عاليها سافلها يقول ﷻ : ﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَلَيْهِمَا سَافِلَهَا ﴾ (2) .

قال الحافظ ابن حجر : [أهلكهم الله ﷻ على يد جبريل فقلب مدائنهم بعد أن خرج عنهم لوط بأهل بيته إلا امرأته فإنها تأخرت مع قومها (3) ، أو خرجت مع لوط فأدركها العذاب فقلب جبريل المدائن بطرف جناحه ، فصار عاليها سافلها ، وصار مكانها بحيرة منتنة لا يتفجع بمائها ولا بشيء مما حولها] (4) .

● ويقول ﷻ : ﴿ وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى ۖ فَغَشَّهَا مَا عَشَى ﴾ (5) .

والمؤتفكة هي : قرى قوم لوط ، سدوم وما حولها : وسميت بالمؤتفكة لأنها انقلبت رأساً على عقب ، والإفك هو صرف الشيء عن وجهه ، ﴿ وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى ﴾ : قيل دفعها جبريل بيده بعد أن اقتلعها ثم أهواها إلى الأرض : أي أسقطها ﴿ فَغَشَّهَا مَا عَشَى ﴾ تهويل وتعظيم لما أصابها وعمها من عذاب مهين أليم .

● ويقول تعالى : ﴿ وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَتُ بِالْخِطَايَةِ ۚ فَعَصَا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَابِيَةً ﴾ (6) ﴿ وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ ﴾ من الأمم البائدة ، ﴿ وَالْمُؤْتَفِكَتُ ﴾ أي قرى قوم لوط ﴿ بِالْخِطَايَةِ ﴾ أي بالخطايا الشنيعة ، ﴿ فَعَصَا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَابِيَةً ﴾ أخذة شديدة زائدة في الشدة كما زادت قبائحهم في القبح ، يقال : ربا الشيء

(1) الجامع لأحكام القرآن 78/9 ، 80 بتصرف ، ويراجع قصص الأنبياء لابن كثير ص 196 ، 197 .

(2) سورة هود : 82 .

(3) الصحيح هو ما صرح به القرآن من أنها خرجت مع لوط وبناته ثم التفتت في الطريق فهلكت ﴿ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا أَمْرَانِكَ ۚ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ ﴾ فالاستثناء هنا من الالتفات والهلاك لا من الخروج .

(4) سورة النجم 53 ، 54 .

(5) فتح الباري 478/6 .

(6) سورة الحاقة : 9 ، 10 .

يربو : إذا ازداد (1) .

● ويقول المولى ﷺ عن عذاب قوم لوط : ﴿ إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰ أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾ (2) .

والرجز هو العذاب من قولهم ارتجز إذا اضطرب ، وذلك لما يلحق المعذب من قلق واضطراب وجزع وهلع ، وفي هذه الآية إشارة إلى الحالة النفسية التي لازمت قوم لوط حين عابنوا العذاب وحل بهم ؛ بسبب ما كانوا عليه من الفسق ، فالعذاب الذي حاق بهم عذاب حسي ومعنوي .

● ويقول تعالى : ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿١٤٦﴾ مُسَوَّمَةٌ عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴾ (3) .

والسجّيل : هو الحجارة الصلبة ، قال قتادة وعكرمة : السجّيل : الطين بدليل قوله تعالى : ﴿ لَنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴾ ، فهو الطين الذي جف وأصبح صلبا شديدا الصلابة ، وقال الحسن : والسجّيل عند العرب كل شديد صلب (4) .

(والمنضود) هو المتواصل المتتابع كطلقات المدافع ، قد أعد لعذابهم ، والمسومة : هي مالها علامة مميزة ، وقيل : مكتوب على كل حجر اسم من يرمى به .

● ويقول سبحانه : ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ ﴾ (5) .

● وفي مختار الصحاح : [الحصباء بالمد الحصى ، والحاصب الريح الشديدة تثير الحصباء] (6) .

● وقال القرطبي [﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا ﴾ أي : ريحا ترميهم بالحصباء وهي الحصى] (7) .

(1) ومن بدائع الإشارات القرآنية اللطيفة قوله تعالى : ﴿ فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ ﴾ فهم قد عصوا رسلا كثيرا ؛ ولكن لما كانت دعوة الرسل واحدة ومصدرهم واحد وهو الوحي الإلهي وغايتهم واحدة كانوا جميعا كرسول واحد يمثل حقيقة واحدة .

(2) سورة هود : 82 ، 83 .

(3) سورة العنكبوت : 34 .

(4) سورة القمر : 34 .

(5) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي 81/9 ، 82 .

(6) مختار الصحاح للإمام محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي ص 139 مادة ح ص ب - ط / دار مصر للطباعة .

(7) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي 143/17 .

● وقال أبو حيان في البحر المحيط [والحاصب من الحصباء وهو المعني بقوله تعالى : ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴾] (1) .

● وقال الألوسي : [﴿ حَاصِبًا ﴾] ملكًا يحصبهم أي : يرميهم بالحصباء وهي الحجارة [(2)] .

أقول : يحتمل أن تكون الحصباء المشار إليها في قوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْكُمْ حَاصِبًا .. ﴾ هي الحجارة المشار إليها في قوله تعالى : ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنْضُودٍ ﴾ وهذه الحجارة قذفتها الملائكة وحملتها الرياح حتى بلغت أهدافها ، والرياح جند من جنود الله ﷻ ويحتمل أن تكون الحصباء غير الحجارة المشار إليها ، وبهذا يكون قد اجتمع على قوم لوط صنفان من العذاب : إرسال الحصباء عليهم بواسطة الرياح التي تُثِيرُهَا وتحملها ، وإمطار السماء عليهم بحجارة من سجيل منضود سريعة متتابعة مسومة لا تخطئ أهدافها والله تعالى أعلم .

ويقول ﷻ في سياق الحديث عن عذابهم ﴿ فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةَ مُشْرِقِينَ ﴾ (3) .

بين المولى ﷻ صنفا آخر من صنوف العذاب التي حقت بهم وهي صيحة مدوية مزعجة كالرعد القاصف .

وخلاصة ما سبق ذكره : أن قوم لوط عذبوا بأنواع شتى من العذاب طمست أعينهم ، وقلبت قراهم وأمطروا بحجارة من سجيل منضود ، كما أخذوا بالصيحة المخيفة المرعبة التي تدوي في الأذان فيهتز منها الكيان ويشيب من هولها الولدان .

● قال الإمام ابن تيمية [وعذب قوم لوط بأنواع من العذاب لم يعذب بها أمة غيرهم فجمع لهم بين الهلاك والرجم بالحجارة من السماء وطمس الأبصار وقلب الديار بأن جعل عاليها سافلها] (4) .

● وقال الإمام ابن القيم [جمع الله أنواع العقوبات بين الإهلاك وقلب ديارهم عليهم والخسف بهم ورجمهم بالحجارة من السماء فنكل بهم نكالا لم ينكله بأمة سواهم وذلك لعظم مفسدة هذه الجريمة التي تكاد الأرض تميد من جوانبها حين تعمل

(2) روح المعاني 90/27 .

(1) البحر المحيط 181/8 .

(4) مجموع الفتاوى لابن تيمية 250/16 .

(3) سورة الحجر : 73 .

عليها ...] (1) .

● لقد صموا آذانهم وأعموا أبصارهم عن صوت الحق ونوره ، واختلطت مفاهيمهم وانقلبت موازينهم واستباحوا اللواط وهو أشنع وأفحش من الزنا وأعظم منه جرماً وإثماً فعاقبهم الله بطمس أبصارهم التي عمت عن نور الحق ، وأخذتهم الصيحة تدوي في آذانهم التي صمت عن الحق ، وقلبت قراهم فجعل عاليها سافلها ؛ فلقد انقلبت موازينهم واختلطت مفاهيمهم فاقتروا تلك الفاحشة وهي إتيانهم الرجال من دون النساء وفي هذا انقلاب في ميزان الفطرة .

واعتبروا الطهر والعفاف إثماً وجرمًا يستحق صاحبه العقاب والطرده ﴿ أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَّبْطِئُونَ ﴾ (2) .

أما الشذوذ والانحراف فهو حق لهم يجاهرون به ويتباهون بفعله ويطالبون به كما يطالب الإنسان بحقه المشروع ﴿ قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَمَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنِّ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَنَعْلَمُ مَا تُرِيدُ ﴾ (3) .

﴿ وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِيهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ ... ﴾ (4) .

واستعجلوا وقوع العذاب وكان واجبههم طلب الهداية والنجاة ، قال تعالى : ﴿ فَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَتَيْنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ (5) ، فكان حالهم في استعجال العذاب كحال كفار قريش حين قالوا كما أخبر القرآن الكريم ﴿ وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَتْ هَذِهِ حَقًّا مِنْ عِنْدِكَ فَامْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابًا مِنَ السَّمَاءِ أَوْ آتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ (6) .

وكان الأولى بكفار قريش أن يقولوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا إليه وحببنا فيه وثبتنا عليه .

ومن مظاهر انقلاب موازين قوم لوط أنهم اعتبروا واجب الضيافة أمراً منكراً يجب

(1) الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي / لابن قيم الجوزية ص 251 ط دار الكتب العلمية بيروت .

ويراجع أيضًا لابن القيم الداء والدواء ص 208 ط مكتبة التراث الإسلامي .

(2) سورة النمل : 56 .

(3) سورة هود : 79 .

(4) سورة القمر : 37 .

(5) سورة العنكبوت : 29 .

(6) سورة الأنفال : 32 .

اجتنابه فقالوا للوط عليه السلام ﴿ أَوْلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾ ولم يراعوا حق الضيافة ولا حرمة الضيف بل هرعوا إلى بيت لوط وراودوه عن ضيفه ، وبسبب هذه الأفعال المنكرة التي تدل على انقلاب موازينهم واختلاط المفاهيم عندهم استحقوا العذاب الأليم المهين ، حيث قلبت قراهم فأصبح عاليها سافلها ورجموا بالحجارة وأخذوا بالصيحة ، أصناف مختلفة من العذاب لتنوع جرائمهم وكثرة مفسدهم وذنوبهم .

لقد حل بقوم لوط أشد وأنكى صنوف العذاب بسبب كفرهم وفسقهم وفي ذلك عبرة لمن يعتبر قال تعالى بعد أن ذكر ما حل بقوم لوط من العذاب الشديد ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّالْمُتَوَسِّمِينَ ﴾ (٥٦) وَإِنَّهَا لِسَبِيلٍ مُّقِيمَةٍ ﴿٥٧﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٨﴾ (١) وقال سبحانه : ﴿ وَإِن كُنتُمْ لَنُرُونَهُمْ عَلَيْهِمْ مَّصِيبَةٌ ﴿٥٩﴾ وَيَأْتِلُّ أَفْلا تَعْقِلُونَ ﴾ (٢) وقال عليه السلام ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٦٠﴾ مُسَوِّمَةٌ عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الْغَالِيَةِ ﴿٦١﴾ بِعِيدٍ ﴿٦٢﴾ (٣) .

(2) سورة الصافات : 137 ، 138 .

(1) سورة الحجر 75 - 77 .

(3) سورة هود : 82 ، 83 .

المبحث الخامس

فوائد حول القصة

أولا : فائدة حول : ذم اللواط

● اللواط من أكبر الفواحش ، ومن أفحش الكبائر ، وهو مرض خطير وشر مستطير وجرم كبير ، عاقبته وخيمة ونهايته مفزعة مفرجة أليمة ، وهو شذوذ وانحراف ، وفسوق وإسراف وضلال وانحلال ، ومزلة للرجال ؛ لأنه يقتل فيهم الرجولة والمروءة والشهامة ، ويصيروا بارتكابه مخشين معقدين أذلاء صاغرين ، في حالة قلق واضطراب .

رأيتُ الذنوبَ تميثُ القلوبَ وقد يورث الذلُّ إدمانها
وتركُ الذنوبَ حياةَ القلوبِ وخيرٌ لنفسك عصيانها

● واللواط مفسدة للنساء ؛ إذ ينصرف الرجال عنهن ، وقد تلجأ المرأة إلى الزنا لإشباع رغبتها الملحة وقد تلجأ إلي السحاق ⁽¹⁾ . كما فعل نساء قوم لوط حين انشغل الرجال عنهن باللواط فعن حذيفة رضي الله عنه قال : « إنما حق القول على قوم لوط حين اشتغل الرجال بالرجال والنساء بالنساء » ⁽²⁾ .

● واللواط جناية على الفطرة السليمة ومفسدة للشباب ، حيث ينصرفون عن الزواج الحلال وينغمسون في أحوال تلك الفاحشة ، كما يترتب على اللواط قلة النسل بسبب الانصراف عن الزواج ، وبذلك تنقوض أركان الأسرة وينفطر عقد المجتمع وتنهار الحضارات ، فاللواط عامل كبير من عوامل الفساد ، ومعول ثقيل من معاول الهدم للنفس والمجتمع ، وهو سبب أساسي في انتشار كثير من الأمراض الفتاكة المزمنة كالزهري ⁽³⁾

(1) السحاق هو إتيان المرأة المرأة .

(2) مختصر تاريخ دمشق 240/21 وتفسير المنار 463/8 .

(3) الزهري : Syphiliz (السفلس) : جراثيم لولبية الشكل حار في شأنها العلماء المتخصصون وعجزوا عن إيجاد مصل واق منها ، وهذه الجراثيم تنتقل عن طريق الاتصال الجنسي ولا تظهر أعراضها إلا بعد أن تتكاثر ويصل أعدادها إلي عشرات الملايين دون أن يلاحظ المريض شيئا وتبدأ أعراضها بقرحة غير مؤلمة في مكان الفرج أو القضيب إذا ضغط المريض علي هذه القرحة أخرجت سائلا مليئا بملايين الجراثيم المعدية هذا إلي جانب تضخم الغدد الليمفاوية وظهور التقرحات التي تنتشر في جسم المصاب وقد يؤدي الأمر إلي تآكل القضيب ، هذا بالإضافة إلي تخريب هذا المرض وتدميره للكبد والقلب والكليتين والمعدة بالإضافة إلي تشويه =

والسيلان (1) والهريس (2) ، والجرب وتكمل العانة والشرج ، ومرض الإيدز (3) الذي لم

= العظام والمفاصل والأسنان وفقد السمع والبصر وتلف الجهاز العصبي ، ويتنقل السفلس من الأم المصابة إلى الجنين فيؤدي إلى الإجهاض وإن سلم من ذلك فإن الجنين يولد مصابا بهذا المرض الفتاك ، ويتنشر هذا المرض بين الزناة واللوطيين .

(1) السيلان Gonorrhoea : وأول أعراض هذا المرض هو آلام مبرحة في الإحليل يتبعها نزول سائل صديدي أصفر وهذا السائل مليء بجراثيم هذا المرض الذي ينتقل إلى الفرج والشرج عن طريق الزنا واللواط ، ويؤدي إلى التهابات وتورمات للجهاز التناسلي عند الرجل والمرأة وقد يؤدي هذا إلى انغلاق مجرى البول من شدة الورم ، ويصل الالتهاب إلى الحويصلات المنوية فتصبح العملية الجنسية مؤلمة جدا لدرجة أنه قد يختلط المنى بالدماء وتتورم الخصيتان تورما خطيرا قد يؤدي إلى تلفهما ، أما بالنسبة للمرأة فإن هذا المرض إذا أصابها يسبب لها العقم ، ويؤدي إلى التهابات وتورمات خطيرة في جهازها التناسلي ولا يقتصر انتشار هذه الجرثومة على الأجهزة التناسلية عند الرجل والمرأة فحسب بل إنه قد يصل إلى الفم والحلق عند أولئك الذين يستعملون أفواههم وألسنتهم في العملية الجنسية فتتقرح الشفاه وتتورم الألسنة واللثة وتمتد الالتهابات إلى الأغشية المخاطية في الفم والحلق حتى يظهر سائل مائل إلى الصفرة شبيه بالسائل الذي يخرج من القضيب أو الفرج عند المصابين وهذا السائل مليء بجراثيم السيلان ، ويمكن لجراثيم هذا المرض أن تصل إلى أي مكان في الجسم عن طريق الدم . هذا وقد يؤدي هذا المرض إلى إصابة المريض بالعمى نظرا لتقرحات العين ، وقد يصاب الجنين عند الولادة بالعمى نظرا لانتقال المرض إليه من الأم أثناء الحمل وأثناء الولادة .

(2) مرض هريس الجنس Herpes Genitalls : وهو مرض خطير جدا تبدأ أعراضه بتقرحات شديدة حمراء اللون تكبير وتتكاثر بسرعة ويسببه فيروس يسمى هريس هومنس H 0 Hominis وتظهر الحكمة والبثور على الأعضاء التناسلية لدى الزناة واللوطيين وتكبر هذه البثور وتكثر وتلتهب ويخرج منها سائل يشبه البلازما ثم صديد وقد يمتد الالتهاب إلى الفخذ ومنطقة العانة فتتضخم الغدد الليمفاوية في المنطقة . ويتهيج الفرج المصاب بهذا المرض الخطير ويصل الالتهاب إلى عنق الرحم ، ويتسبب هذا المرض في إصابة الجنين بالتهاب خلايا المخ والعين والكبد ويقدر العلماء وجود علاقة وثيقة بين هذا المرض وبين سرطان عنق الرحم ، أما الذين يستعملون الفم واللسان والحلق عند العملية الجنسية فنصيبهم من هذا المرض كبير حيث تلتهب الشفتان والحلق التهابا حادا .

(3) مرض الإيدز (انهيار المناعة) : وهو من أخطر الأمراض الجنسية وأسرعها وأوسعها انتشارا وكلمة الإيدز Aids هي عبارة عن الأحرف الأولى للكلمات التي يتكون منها اسم المرض باللغة الإنجليزية وهو Acquired immuno Deficiency synarome ومعناها انهيار المناعة المكتسبة ، إذ تنهار لدى المصاب الوسائل الدفاعية التي أودعها الله جسم الإنسان لتدافع عنه فيقع فريسة سهلة لكل الجراثيم ، حيث يصبح الجسم عاجزا عن صد أي هجوم جرثومي مهما كان بسيطا ؛ لذلك سرعان ما يصاب . مريض الإيدز بالسرطانات الجلدية والالتهابات الرئوية وغير ذلك ، وقد ذكر العلماء أن 95% من مرضى الإيدز هم ممن يمارسون اللواط وأن نسبة قليلة منهم من مرضى المخدرات أو من أطفال ورثوا هذا المرض عن أمهات مصابات إما أثناء الحمل أو أثناء الرضاعة وتظهر علي المريض الكثير من الأعراض كالإجهاد الشديد والارتفاع الحاد في درجة الحرارة ونقص في الوزن وتضخم في الغدد الليمفاوية والطحال ونقص في الصفائح الدموية وفي عدد خلايا الدم البيضاء ونوبات متتالية من =

يعرف إلا سنة 1981 م ، ومن ذلك الحين وحتى وقتنا هذا لم يعرف له علاج رغم التقدم العلمي الكبير .

وصدق رسول الله ﷺ إذ يقول : « يا معشر المهاجرين خمسُ خصالٍ إذا ابتليتم بهن وأعوذ بالله من أن تدركوهن ، لم تظهر الفاحشة في قوم حتى يعلنوا بها إلا فشا فيهم الطاعونُ والأوجاع التي لم تكن في أسلافهم الذين مضوا ، ولم ينقصوا المكيالَ والميزانَ إلا أخذوا بالسنينَ وشدة المؤنة وجور السلاطين عليهم ، ولم يمنعوا زكاة أموالهم إلا منعوا القطر من السماء ولولا البهائم لم يمطروا ، ولم ينقضوا عهد الله وعهد رسوله إلا سلبوا عليهم عدوا من غيرهم فأخذوا بعَضَ ما في أيديهم ، وما لم تحكُم أئمتهم بكتاب الله إلا جعل بأسهم بينهم شديدا) (1) .

= الإسهال وسرطانات جلدية والتهابات رئوية ، هذا ورغم أن هذا المرض معروف منذ سنة 1981 م إلا أنه حتى الآن لم يعرف له علاج طبي رغم التقدم العلمي الهائل .

* هذا بالإضافة إلي أمراض أخرى تصيب اللوطي كالجرب وتقل شعر العانة والإبط وغير ذلك من الأورام والالتهابات والتقيحات التي تصيب اللوطيين والزناة ، هذا ويتسبب اللواط أيضا في ارتخاء عضلات المستقيم أو تمزيقها وبالتالي فقدان السيطرة على عملية التغوط بشكل كامل وقد يخرج البراز بدون إرادة المريض .
* هذا وقد ذكرت صحيفة « المسلمون » نقلا عن مصادر غربية أن هناك 800 مليون مصابا بالإيدز والزهري والسيلان والهريس وغير ذلك من الأمراض الجنسية ، وفي جريدة الأهرام بتاريخ 1997/12/3 م أعلن الرئيس الأمريكي بيل كلينتون بمناسبة الاحتفال باليوم العالمي لمرضى الإيدز ، أعلن أنه في كل ساعة يصاب شابان في أمريكا بالإيدز وفي نفس الجريدة ونفس العدد أن عدد الذين يصابون يوميا بمرض الإيدز في الدول النامية 16 ألف شخص .

يراجع في هذا الموضوع :

1 - الأمراض الجنسية عقوبة إلهية للدكتور عبد الحميد القضاة ط 1 سنة 1985 دار النشر الطبية لندن ويراجع مع الطب في القرآن ط / عبد الحميد دياب و د . أحمد قرقوز الفصل الثالث (تحريم الفواحش) .
ط مؤسسة علوم القرآن ط 7 سنة 1404 هـ .

ويراجع مجلة (أسماء) وهي مجلة فصلية نسائية فكرية جامعة تصدر عن الاتحاد الثقافي في فرنسا / باريس عدد 3 السنة الأولى جمادى الآخرة سنة 1409 هـ مقال بعنوان الأمراض الجنسية عنوان الحضارة الغربية المعاصرة د / محمود العناني ص 42 وكتاب داء الإيدز والأمراض التناسلية تأليف الفاضل العبيد عمر ط دار النفائس سنة 1993 م . ويراجع صحيفة المسلمون عدد 24 شوال سنة 1407 هـ .

(1) رواه ابن ماجه في السنن ك الفتن ، باب العقوبات عن ابن عمر حديث 4019 - 1333/2 ورواه الحافظ

شهردار بن شيرويه الديلمي في مسند الفردوس عن ابن عباس 12/2 ط دار الكتاب العربي .

وذكره السيوطي في الجامع الصغير عن ابن عباس وأشار إليه بالصحة . [فيض القدير بشرح الجامع الصغير =

فالأضرار الجنسية السالفة الذكر عقوبة إلهية للزناة واللوطيين الذين تعدوا حدود الله وانتهكوا محارمه .

انتشار اللواط في المجتمعات الغربية

● وما يؤسف له أن اللواط قد انتشر انتشارا واسعا في الغرب ، مع كثرة النساء وانتشار البغاء ، وفي الدول الغربية قوانين وتشريعات تبيح اللواط وتشجع عليه طالما كان بين بالغين دون إكراه .

وفي دائرة المعارف البريطانية ⁽¹⁾ أن الشواذ جنسياً خرجوا من دائرة السرية إلى العلنية وأصبح لهم متدياتهم - نوادي العري - وحدائقهم ، ومراحيضهم الخاصة بهم ، وتعرف الشرطة هذه الأماكن وتقوم على حمايتها ورعايتها .

● وهناك آلاف الجمعيات في الغرب ترعى شئون الشواذ جنسيا وتطالب لهم بمزيد من الحقوق ، ولقد أصبحوا قوة لا يستهان بها ، وورقة رابحة ناجحة في الانتخابات العامة والرئاسية ، ولقد وجدنا كبار الساسة والقادة يخطبون ود الشواذ ويفرقونهم بالعود إن هم وقفوا بجانبهم في حملاتهم الانتخابية ، فإذا حقق هؤلاء الساسة والقادة بغيتهم وفازوا بالمناصب فإنهم يسارعون إلى تحقيق ما وعدوا به من تنازلات للشواذ جنسياً ، ولو نظرنا علي سبيل المثال للحملات الانتخابية لرئاسة الولايات المتحدة الأمريكية لوجدنا كيف يتبارى المرشحون ويتنافسون على كسب أصوات الشواذ ، بل إن نسبة كبيرة من الشواذ تتبوأ مقاعد حساسة ومناصب هامة في الحكومات الغربية بل وفي الجيوش ، وفي أمريكا وأوروبا كنائس مخصصة للشواذ يباح فيها للرجل أن يتزوج بالرجل ، وللمرأة أن تتزوج من المرأة ، بل إن بعض الجامعات في الولايات المتحدة تخصص منحاً دراسية للشواذ فقط ، ومن هذه الجامعات جامعة سير جورج وليامز ، ولا يمكن للطالب أن يحصل على منحة بتلك الجامعات إلا إذا ثبت أنه شاذ جنسيا .

● وفي إحدى المجلات الصادرة في إنجلترا والخاصة باللوطيين نجد هجوما متتابعا على

= للحفاظ عبد الرؤف المناوي 452/3 ط دار الفكر العربي ورواه الحاكم في المستدرك 540/4 وقال صحيح الإسناد ووافقه الذهبي . وصححه الألباني في كتابه صحيح سنن ابن ماجه رقم 3246 - 370/2 .
وسلسلة الصحيحة حديث 106 - 167/1 وقال الحديث بمجموع طرقه وشواهدة صحيح بلا ريب .
(1) دائرة المعارف البريطانية 604/12 ط سنة 1982 م .

موقف الكنيسة من الشذوذ ولقد قام أحد الكرادلة (1) بالرد على هذا الهجوم فقال إن الكنيسة البروتستانتية هي في حالة مخاض الآن وأنه عما قريب ستعترف الكنيسة بالشذوذ الجنسي وأنه شخصيا يرى أنه أمر عادي مألوف ولا مانع في نظره من أن يصبح الشاذ قسيسا .

وفي اجتماع مجلس الكنائس الإنجيلية وافق المجلس بأغلبية الأصوات على إباحة الشذوذ الجنسي بشرط حدوثه بين بالغين مختارين ، وكان كبير الأساقفة في كاتربرى (2) هو الذي قاد الحملة التي تهدف إلي إباحة الشذوذ ، ولقد صرح قائلاً : « إنه يشعر بالقلق لما يصيب الشخص المصاب بالشذوذ الجنسي من ظلم القانون ، في حين يستطيع أي شخص آخر أن يدمر أسرة ويشردها بدون عقاب يوقع عليه » .

أقول : أي منطق هذا وأي عدالة يسعى إليها كبير الأساقفة !! .

إن كلامه هذا يعني أنه يجب إباحة كل الجرائم وعدم توقيع العقاب علي مرتكبيها طالما أن هناك من يتمكنون من الإفلات بجرائمهم ! .

ولقد ذكرت إحدى الإحصائيات أن نسبة كبيرة من القساوسة في إنجلترا شواذ جنسيا ، وقد ذكرت صحيفة Daily Mail و Daily Mirror أن 40 % من الرهبان يمارسون الشذوذ الجنسي و 80 % منهم زناة (3) .

● ومجمل القول فيما سبق : أن الزنا واللواط قد انتشر في المجتمعات الغربية المنحلة كانتشار النار في الهشيم وما ذلك إلا بسبب بعدهم وضلالهم عن الحق ، وترفعهم

(1) الكرادلة جمع كردينال وهو منصب في الكنيسة الغربية (الكاثوليك والبروتستانت) .

(2) كبير أساقفة كاتربرى : هو أكبر منصب في الكنيسة [البروتستانتية] ومقرها في إنجلترا والبروتستانتية مذهب من المذاهب النصرانية نشأ عن حكومة الإصلاح الكنسي التي قادها (مارتن لوثر) ودعا فيها إلى تحرر الفرد من سلطان الكنيسة (الكاثوليكية) يراجع - المعجم الوسيط - مجمع اللغة العربية 55/1 ط 3 - وفي الموسوعة العربية الميسرة [البروتستانتية : حركة دينية نشأت عن حركة الإصلاح اللوثرية : الموسوعة العربية الميسرة ص 357 ط دار القلم ومؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر بإشراف شفيق غربال .

ودائرة المعارف لبطرس البستاني 5/380 ، 381 ط دار المعرفة بيروت .

(3) يراجع فيما سبق - مجلة المجتمع الكويتية سنة 13 ع 649 .

كما يراجع تاريخ الدعوة للدكتور / جمعة علي الخولي 193/1 ويراجع أيضا العادات الجنسية لدى المجتمعات الغربية د / أحمد علي المجدوب ص 325 وما بعدها ط الدار المصرية اللبنانية ط 1 سنة 1991 م ويراجع أيضا مجلة الوعي الإسلامي عدد 355 سنة 1416 هـ ص 65 مقال بعنوان أخطار الفوضى الجنسية .

وإسرافهم ، واستغلالهم التقدم العلمي الهائل والغنى المادي الفاحش في إشباع الشهوات والنزوات .

يقول الأستاذ / فتحي يكن في كتابه « الإسلام والجنس » [... إن انحراف التربية وانعدام الحس الديني ، وفساد الأخلاق من شأنها جميعاً أن تهين الأجواء والمناخات المناسبة للانحراف والشذوذ ، وإن الفراغ والترف وتميع مواقف القوانين الوضعية من الجرائم الأخلاقية والجنسية من الأسباب الرئيسية الكامنة وراء ظاهرة الشذوذ الجنسي] (1) .

ثانياً : عقوبة اللواط في الشريعة الإسلامية

اختلف الفقهاء في عقوبة اللوطي ، وذلك على ثلاثة مذاهب :

المذهب الأول : وهو مذهب الإمام مالك والإمام أحمد وقول للشافعي وهو أن حد اللوطي القتل فاعلاً كان أو مفعولاً ، محصناً كان أو غير محصن ، وهذا القول مروى عن أبي بكر وعمر وعلي وابن عباس - ؓ - ونقل بعض الخنايلة إجماع الصحابة على ذلك (2) .

واستدل أصحاب هذا الرأي بما يلي :

1 - الحديث الذي رواه الخمسة إلا النسائي عن ابن عباس - ؓ - أن رسول الله ﷺ قال : « من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول » (3) .

(1) الإسلام والجنس تأليف الأستاذ / فتحي يكن ص 49 ط مؤسسة الرسالة بيروت ط سنة 1401 هـ سنة 1981 والأستاذ / فتحي يكن داعية ومفكر إسلامي وعضو بالبرلمان (مجلس الشعب) اللبناني ، وله مؤلفات كثيرة في الدعوة والثقافة الإسلامية منها : مشكلات الدعوة والداعية - وأبجديات التصور الحركي للعمل الإسلامي - والعالم الإسلامي والمكائد الدولية خلال القرن الرابع عشر الهجري .

(2) يراجع المغني لابن قدامة 187/8 والمتنقى على الموطأ 142/7 .

والجامع لأحكام القرآن للقرطبي 244/7 ويراجع ذم اللواط للإمام الآجري ص 56 وما بعدها .

(3) رواه الخمسة إلا النسائي عن ابن عباس - ؓ - فرواه الترمذي في السنن وقال حديث حسن سنن الترمذي ك / الحدود باب / ما جاء في حد اللوطي . سنن الترمذي ح 1456 - 47/4 ورواه أبو داود في السنن ك الحدود

باب فيمن عمل عمل قوم لوط . حديث 4438 عون المعبود 153/12 .

ورواه ابن ماجه في السنن ك الحدود باب من عمل عمل قوم لوط 187/2 حديث 2561 ورواه الإمام أحمد في

المسند 269/1 وأورده البغوي في شرح السنة حديث 2593 - 308/10 .

وقال الشوكاني معلقاً على روايات هذا الحديث : وهي بمجموعها تنهض للاحتجاج بها - نيل الأوطار 116/7 =

2 - كما استدل أصحاب هذا المذهب بما روي عن أبي بكر رضي الله عنه أنه جمع أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فسألهم عن رجل ينكح كما تنكح النساء فكان أشدهم يومئذ قولاً علي ابن أبي طالب رضي الله عنه قال : هذا ذنب لم تعص به أمة من الأمم إلا أمة واحدة صنع الله بها ما قد علمتم ، نرى أن نحرقه بالنار ، فكتب أبو بكر إلي خالد بن الوليد يأمره أن يحرق بالنار من فعل هذا الفعل (1) .

قال ابن القيم في زاد المعاد [ولم يثبت عنه صلى الله عليه وسلم أنه قضى في اللواط بشيء لأن هذا لم يكن معروفاً عند العرب ولم يرفع إليه صلى الله عليه وسلم ولكنه ثبت عنه أنه قال : « اقتلوا الفاعل والمفعول به » رواه أهل السنة الأربعة وإسناده صحيح وقال الترمذي حديث حسن ، وحكم به أبو بكر الصديق وكتب به إلى خالد بن الوليد بعد مشاورة الصحابة وكان علي - كرم الله وجهه - أشدهم في ذلك . وقال ابن القصار (2) وشيخنا (3) : أجمعت الصحابة على قتله ، وإنما اختلفوا في كيفية قتله ، فقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه : يرمى من شاهق ، وقال علي رضي الله عنه : يهدم عليه حائط ، وقال ابن عباس - رضي الله عنهما - : يقتلان بالحجارة ، فهذا اتفاق منهم على قتله وإن اختلفوا في كيفية [(4)] .

أقول وورد عن علي كما ذكرنا آنفاً أنه أمر بحرق من فعل هذا الفعل ، وإنما ذكر الصحابة الكرام هذه الكيفيات المختلفة لأن الله تعالى عذب قوم لوط بصنوف مختلفة من العذاب .

قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَنِيبَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَابًا مِّن سِجِّيلٍ مَّنْضُودٍ ﴿٢٦﴾ مُسَوِّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٢٧﴾ ﴾ . (5)

= ط دار الحديث . وقال ابن القيم : [وإسناده صحيح] زاد المعاد 209/3 .

ورواه الآجري في ذم اللواط عن ابن عباس برقم 25 ، 26 ، 27 ، ص 56 ، 57 ذم اللواط للإمام المحدث الحافظ أبي بكر محمد بن الحسين الآجري ت 360 ط مكتبة القرآن ورواه الخرائطي في مساوئ الأخلاق ومذمومها عن ابن عباس ح 435 ص 165 مساوئ الأخلاق ومذمومها لأبي بكر محمد بن جعفر بن سهل السامري الخرائطي ت 327 هـ ط مكتبة القرآن .

(1) رواه البيهقي في السنن ك / الحدود باب / ما جاء في حد اللوطي 232/8 ط دار الفكر .

(2) ابن القصار : هو علي بن أحمد بن البغدادي المعروف بابن القصار أبو الحسن ، فقيه أصولي ولي قضاء بغداد ، من آثاره عيون الأدلة وإيضاح الملة في الخلافات ت 398 هـ معجم المؤلفين 12/7 .

(3) ويقصد بـ « شيخنا » شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمته الله .

(4) زاد المعاد 209/3 .

(5) سورة هود : 81 ، 82 .

● المذهب الثاني :

أن اللواط في حكم الزنا ، يرجم المحصن ويجلد غير المحصن فاعلا كان أو مفعولا ، وهذا هو مذهب الشافعية ، وقد استدلوا على مذهبهم بالنص والمعقول .

أما النص : فالحديث الذي رواه البيهقي في السنن والطبراني في الكبير عن أبي موسى الأشعري - رضي الله عنه - أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إذا أتى الرجل الرجل فهما زانيان وإذا أتت المرأة المرأة فهما زانيتان » (1) .

وأما المعقول : فلقد قالوا إن الزنا عبارة عن إيلاج فرج في فرج مشتهي طبعاً محرم شرعاً ، والدبر أيضاً فرج لأن القبل إنما سمي فرجاً لما فيه من الانفراج ، وهذا المعنى حاصل في الدبر فيكون حكم اللواط كحكم الزنا (2) .

● المذهب الثالث :

وهو مذهب الأحناف (3) : الذين قالوا بأن في اللواط التعزير ، إذ أن اللواط غير الزنا ، فاللواط يقع بين الرجل والرجل ، أما الزنا فهو اسم لوطء الرجل للمرأة التي لا تحل له ، والزنا تشتهيه النفس ويميل إليه الطبع ، أما اللواط فإن الطباع السليمة والفترة المستقيمة تأباه وتستعجنه وتستقذره ، والزنا أعظم ضرراً لما يترتب عليه من فساد الأنساب .

والذي أرجحه في هذه المسألة أن اللوطي يقتل محصناً كان أو غير محصن ، فاعلا كان أو مفعولاً به ، وهذا هو مذهب الإمام مالك وأحمد وقول للشافعي وهو المروي عن صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم والحديث الذي استندوا إليه « من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط

(1) رواه البيهقي في السنن ك الحدود باب ما جاء في اللوطي 233/8 ، وفي اسناده محمد بن عبد الرحمن كذبه أبو حاتم وقال البيهقي [لا أعرفه ، والحديث منكر بهذا الإسناد ، وقال الحافظ ابن حجر في التلخيص الحبير 55/4 بعد أن عزاه للبيهقي] وفيه محمد بن عبد الرحمن القشيري كذبه أبو حاتم ورواه أبو الفتح الأزدي في الضعفاء والطبراني في الكبير من وجه آخر عن أبي موسى وفيه بشر بن الفضل البجلي وهو مجهول] . ورواه الآجري في ذم اللواط عن أبي موسى حديث 16 ص 51 وفي سنده بشر البجلي قال الأزدي ضعيف مجهول يراجع الميزان 324/1 واللسان 31/2 ورواه أيضاً عنه حديث 17 ص 51 وإسناده ضعيف جداً فيه محمد ابن عبد الرحمن قال عنه ابن الترمذاني : متروك الحديث كان يكذب ويفتعل الحديث .

(2) يراجع التفسير الكبير للرازي 132/23 ، وآيات الأحكام للسايس 114/3 ، وروائع البيان في تفسير آيات الأحكام للصابوني 43/2 ، ويراجع المهذب 268/2 ومعني المحتاج 144/4 .

(3) يراجع بدائع الصنائع 4157/9 وفتح القدير 152/4 وحاشية ابن عابدين 156/3 .

فاقتلوا الفاعل والمفعول « صححه الحاكم وواقفه الذهبي ، وقال ابن القيم حديث : صحيح وقال الترمذي حديث حسن ، وقال الشوكاني معلقا على روايات الحديث : وهي بمجموعها تنهض للاحتجاج بها ، أما الحديث الذي استدل به الشافعية « إذا أتى الرجل الرجل فهما زانيان وإذا أتت المرأة المرأة فهما زانيتان » فهو حديث ضعيف الإسناد كما ذكرنا في تخريجنا له ، وعلى فرض صحته فإنه لا يصرح بأن حكم اللواط هو حكم الزنا ، وإنما يفيد الترهيب من اللواط وأنه محرم وكبيرة من الكبائر كالزنا .

● يقول الإمام الشوكاني : [واحتجوا بأن اللواط نوع من أنواع الزنا ، إيلاج فرج في فرج ؛ فيكون اللواط والملوط به داخلين تحت عموم الأدلة الواردة في الزاني المحصن والبكر ، ويؤيد ذلك حديث إذا أتى الرجل الرجل فهما زانيان ... وعلى فرض عدم شمول الأدلة المذكورة لهما فهما لاحقان بالزاني بالقياس ، ويجاب عن ذلك بأن الأدلة الواردة بقتل الفاعل والمفعول به مطلقا مخصصة لعموم أدلة الزنا الفارقة بين البكر والثيب علي فرض شمولها للوطي ومبطللة للقياس المذكور على فرض عدم الشمول ؛ لأنه يصير فاسد الاعتبار كما تقرر في علم الأصول ، وما أحق مرتكب هذه الجريمة ومقارن هذه الرذيلة أن يعاقب عقوبة يصير بها عبرة للمعتبرين ويعذب تعذبا يكسر شهوة الفسقة المتمردين ، فحقيق بمن أتى فاحشة قوم ما سبقهم بها من أحد من العالمين أن يصلى من العقوبة بما يكون في الشدة والشناعة مشابها لعقوبتهم ، وقد خسف الله بهم واستأصل بذلك العذاب بكرهم وثيبهم] (1) .

- حقا إن اللواط أعظم إثما وجراما من الزنا ، وإذا كان الزنا يترتب عليه هتك للأعراض واختلاط للأنساب وغير ذلك ، فإن للواط أضرارا كثيرة نفسية واجتماعية وصحية وغير ذلك ، فهو أخطر وأفحش من الزنا ، وهو مفسدة للرجال والنساء على السواء .

(1) نيل الأوطار 118/7 بتصرف .

ثالثاً : تتمة في بيان حكم السحاق وحكم إتيان البهائم وحكم إتيان المراة في

حيضها أو في دبرها :

1 - حكم السحاق :

السحاق هو إتيان المراة للمراة بشهوة ويسمى السحق والتدالك وهو حرام شرعا لعموم قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنْ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴿٧﴾ ﴾ (1) . وفي الحديث الشريف يقول ﷺ : « لا ينظر الرجل إلى عورة الرجل ولا تنظر المراة إلى عورة المراة ، ولا يُفْضِي الرجل إلى الرجل في الثوب الواحد ولا المراة إلى المراة في الثوب الواحد » (2) .

يقول الأستاذ عبد القادر عودة (3) - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - في كتابه التشريع الجنائي : [وهذا النص صريح في تحريم السحاق ؛ لأنه إفضاء المراة إلى المراة ، ومن المتفق عليه أنه لا حد علي هذا الفعل وأن عقوبته التعزير ، فهو معصية لا حد فيها ، ولا يأخذ حكم الزنا لأن الزنا مباشرة وإيلاج أما السحاق فهو مباشرة بدون إيلاج] (4) .

وقال الشيخ السائس : [ولا نعلم خلافا بين الفقهاء في أن السحاق لم يشرع فيه إلا

(1) سورة المؤمنون : 5 - 7 .

(2) رواه مسلم في صحيحه عن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ك / الحيض - باب / تحريم النظر إلى العورات حديث 338 - صحيح مسلم بشرح النووي 30/4 ورواه أبو داود في السنن عنه ك اللباس باب ما جاء في التعري حديث 4018 - 40/4 ط دار الفكر .

ورواه الإمام الترمذي في السنن عنه ك الأدب باب كراهية مباشرة الرجال للرجال والمراة للمراة وقال : حسن صحيح حديث 2793 - 101/5 ط دار الفكر .

ورواه ابن ماجه في السنن عنه حديث 661 - ك الطهارة باب النهي أن يرى الرجل عورة أحد سنن ابن ماجه 217/1 ورواه الإمام أحمد في مسنده عنه 63/3 .

(3) عبد القادر عودة : عالم بالشريعة والقوانين الوضعية ، تخرج من كلية الحقوق سنة 1930 م واشتغل بالقضاء ، واستقال منه ، وتفرغ للدعوة والمحاماة ، له مواقف عظيمة في الدعوة ، ونصح الحاكم ... حكم عليه بالإعدام سنة 1954 م ونفذ فيه هذا الحكم الجائر ، من مؤلفاته التشريع الجنائي في الإسلام . الإسلام وأوضاعنا السياسية ، والإسلام وأوضاعنا الاقتصادية ، تراجع ترجمته في الموسوعة الحركية لفتحي يكن 179/1 : 181 ط مؤسسة الرسالة .

(4) التشريع الجنائي في الإسلام مقارنا بالقانون الوضعي للأستاذ : عبد القادر عودة 368/2 ط مؤسسة الرسالة ويراجع شرح الزرقاني 78/8 وفتح القدير 150/4 ونهاية المحتاج 404/7 والمهذب 286/2 .

والمغني 162/10 والمحلى 390/1 .

التعزير ، وأما إتيان البهائم فالصحيح أنه ليس فيه إلا التعزير [(1)] .

2 - حكم إتيان البهائم :

هو أمر مستهجن عقلا مستقدّر طبعاً حرام شرعاً ؛ لعموم الآية الكريمة ﴿ ... فَمَنْ
أَبْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴾ (2) .

ولقد اتفق الفقهاء على أن عقوبته هي التعزير بما يراه الحاكم رادعاً ومانعاً وزاجراً ، أما ما ورد في الحديث الذي رواه الإمام أحمد وأبو داود والترمذي وغيرهم عن ابن عباس - رضي الله عنهما - أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من أتى بهيمة فاقتلوه واقتلوهام معه » فهو حديث ضعيف (3) وهو مخالف لما صح عن ابن عباس - رضي الله عنهما - أنه قال : « من أتى بهيمة فلا حد عليه (4) ، فالثابت في هذه المسألة ما ورد عن ابن عباس موقوفاً ، أما المرفوع فإنه ضعيف الإسناد ، قال الشوكاني عن الحديث الموقوف وهذا أصح من الأول أي من المرفوع والعمل به عند أهل العلم (5) يعني أن إتيان البهائم لا حد فيه .

وقال الإمام الترمذي [هذا حديث لا نعرفه إلا من حديث عمرو بن أبي عمرو عن عكرمة عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وقد روى سفيان الثوري عن عاصم عن أبي رزين عن ابن عباس أنه قال : من أتى بهيمة فلا حد عليه وهذا أصح من الحديث الأول - يعني الموقوف أصح من المرفوع - والعمل على هذا عند أهل العلم وهو قول أحمد وإسحاق] (6) .

(1) أحكام القرآن للسايس 114/3 ، وأحكام القرآن للصابوني 45/2 ، ويراجع الفقه الإسلامي وأدلته 66/6 كما يراجع فتح القدير 152/4 ، والبدائع للكاساني 34/7 .

والمغني لابن قدامة 189/8 ، ومغني المحتاج 146/4 والمنتقى على الموطأ 142/7 . (2) سورة المؤمنون : 7 .

(3) رواه أحمد في مسنده حديث 2420 تحقيق أحمد شاكر ، وأبو داود حديث 4440 ك الحدود باب فيمن أتى بهيمة . عون المعبود 157/12 والترمذي ك / الحدود- باب / ما جاء فيمن وقع على بهيمة حديث 1455 - 46/4 والبيهقي في السنن ك حدود باب ما حكم من أتى بهيمة 233/8 ، وابن ماجه 187/2 .

والحديث رواه الخرائطي في مساوئ الأخلاق بسنده عن عكرمة عن ابن عباس ح 436 ص 166 وإسناده ضعيف فيه ابن جريح وهو مدلس وقد رواه بالنعنة وعبد الله بن صالح يرويه عنه غير العبادة فهو ضعيف ولكنه في المتابعات .

(4) رواه أبو داود في السنن ك الحدود باب فيمن أتى بهيمة 4441 ، عون المعبود 158/12 ورواه الترمذي ك / حدود باب / ما جاء فيمن وقع على بهيمة حديث 1455 - 46/4 .

ورواه الخرائطي في مساوئ الأخلاق ح 453 ص 169 عن ابن عباس في الذي يأتي البهيمة قال : ليس عليه حد ، وإسناده حسن وأخرجه البيهقي في سننه 234/8 وفي سننه عاصم بن أبي النجود وهو صدوق له أوهام كما ورد في التقريب 383/1 .

(5) نيل الأوطار 118/7 . (6) سنن الترمذي 46/4 ، 47 .

3 - حكم إتيان المرأة في حيضها :

ويحرم على الرجل إتيان زوجته أثناء حيضها قال تعالى : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذَى فَأَعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرُبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهَرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ (1) .

وسبب نزول هذه الآية الكريمة : ما ورد عن أنس رضي الله عنه قال : كانت اليهود إذا حاضت امرأة لم يؤاكلوها ولم يضاجعوها ولم يجتمعوا معها في بيت واحد ، فسأل أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم النبي صلى الله عليه وسلم عن ذلك فأنزل الله ويسألونك عن المحيض ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم اصنعوا كل شيء إلا النكاح - الحديث (2) .

قال الشيخ الصابوني : [كان اليهود يباعدون في التباعد عن المرأة حال حيضها فلا يؤاكلونها ولا يشاربونها ولا يساكنونها في بيت واحد ويعتبرونها دنسا ورجسا ، وكان النصراني على النقيض من ذلك يُفِرطون في التساهل ويجامعون النساء في حال حيضهن ، فجاء الإسلام بالحد الوسط « افعلوا كل شيء إلا النكاح » وهذا من محاسن الشريعة الإسلامية الغراء] (3) .

ولقد اختلف الفقهاء في الذي يجب اعتزاله في المحيض ، قيل ما بين السرة والركبة ، وقيل موضع الأذى وهو الفرج ، والذي نرجحه في هذه المسألة أنه يجوز الاستمتاع بكل شيء إلا الجماع وذلك لما ورد في الحديث « اصنعوا كل شيء إلا الجماع » ولما روي عن عائشة - رضي الله عنها - حين سئلت عن : ما للرجل من امرأته الحائض ؟ فقالت : « له كل شيء إلا فرجها » (4) ، وإن كنا نرى أن الأحوط أن يكون الاستمتاع فيما فوق المئزر ودونه حتي لا يقع في المحذور ؛ ولا يجوز للرجل أن يأتي زوجته إلا بعد أن تنقطع عاداتها وتغتسل .

(1) سورة البقرة : 222 .

(2) أخرجه مسلم في صحيحه عن أنس بن مالك ك / الحيض باب جواز قراءة القرآن في حجر الحائض حديث : 302 صحيح مسلم بشرح النووي 211/3 وأخرجه الترمذي في السنن عنه ك التفسير باب 3 / حديث 199/5 - 2977 .

ويراجع أسباب النزول للسيوطي بهامش تفسير الجلالين ص 117 وأسباب النزول للواحد ص 46 .

وجامع البيان 387/2 وأحكام القرآن للقرطبي 89/3 وفتح القدير للشوكاني 226/1 .

(3) تفسير آيات الأحكام للصابوني 296/1 . (4) جامع البيان للطبري 383/2 .

قال تعالى : ﴿ وَلَا تَقْرُبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهَرْنَ ﴾ فيحرم إتيانها في أثناء حيضها .
 وقال تعالى : ﴿ فَإِذَا ظَهَرَ فَأْتُوهُنَّ مِمَّا بَيْنَ يَدَيْكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ فلا بد من انقطاع الدم والغسل وهذا مذهب الجمهور مالك وأحمد والشافعي .

وذهب أبو حنيفة إلى أن المراد بالطهر انقطاع الدم ، فإذا انقطع جاز إتيانها قبل أن تغتسل وذهب طاووس⁽¹⁾ ومجاهد إلى أنه يكفي أن تغسل فرجها من أثر الدم حتى تحل لزوجها .

أقول والراجح ما ذهب إليه الجمهور وهو اختيار الإمام الطبري في جامع البيان .
 ● واختلف الفقهاء في الذي فعل ذلك هل تجب عليه كفارة ؟ .
 فذهب الجمهور : مالك والشافعي وأبو حنيفة إلى أنه لا كفارة على من فعل ذلك وليس له إلا التوبة والاستغفار .

وذهب الإمام أحمد إلى أنه يتصدق بدينار أو بنصف دينار ، لحديث ابن عباس عن النبي ﷺ في الذي يأتي امرأته وهي حائض قال يتصدق بدينار أو بنصف دينار⁽²⁾ .
 والصحيح : ما ذهب إليه الإمام أحمد ؛ لأن الحديث الذي استدل به حديث صحيح .

4 - حرمة إتيان النساء في أدبارهن

قال تعالى : ﴿ نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأَتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ وَقَدِمُوا لأنفُسِكُمْ وَأَتَقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُّلَقَوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾⁽³⁾

(1) هو أبو عبد الرحمن طاووس بن كيسان اليماني ، ثقة فقيه فاضل ت سنة 106 هـ تراجع ترجمته في التقريب 377/1 والتهديب 8/5 .

(2) الحديث رواه الإمام أبو داود في سننه عن ابن عباس وقال : هكذا الرواية الصحيحة « دينار أو نصف دينار » سنن أبي داود ك الطهارة باب إتيان الحائض حديث 264 - 69/1 وأورده الألباني في صحيح سنن أبي داود برقم 256 ورواه ابن ماجه في السنن عن ابن عباس ، ك الطهارة وسننها باب في كفارة من أتى حائضا حديث 640 - 210/1 وأورده الألباني في صحيح سنن ابن ماجه برقم 523 - 105/1 .

(3) سورة البقرة : 223 .

وفي هذه الآية بيان لحرمة إتيان النساء في أدبارهن ؛ لما في ذلك من الأذى والضرر
وسبب نزول هذه الآية الكريمة ما ورد عن جابر رضي الله عنه قال : « كانت اليهود تقول : من
أتى امرأته في قبلها من دبرها كان الولد أحول فنزلت : ﴿ نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ
أَنَّى شِئْتُمْ ﴾ » (1) .

(1) رواه البخاري في صحيحه عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه ك / التفسير باب / ﴿ نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ
أَنَّى شِئْتُمْ ... ﴾ حديث 4528 [فتح الباري 37/8] .
ورواه الترمذي في السنن عنه ك التفسير باب 3 [ومن سورة البقرة] وقال حديث حسن صحيح - حديث
2978 - سنن الترمذي 199/5 ، 200 .

ورواه أبو داود في السنن عنه حديث 2163 - ك النكاح باب في جامع النكاح 249/2 .
ويراجع أسباب النزول للسيوطي ص 118 بهامش تفسير الجلالين ، وأسباب النزول للواحدي ص 47 وعن أبي
هريرة - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ملعون من أتى المرأة في دبرها - رواه أبو داود في السنن ، واللفظ
له ورواه أحمد وابن ماجه ولفظه (لا ينظر الله إلى رجل جامع امرأته في دبرها) .
سنن أبي داود كتاب النكاح باب في جامع النكاح حديث 2162 - 249/2 .
والمسند للإمام أحمد 444/2 ، 479 وسنن ابن ماجه ك / النكاح باب / النهي عن إتيان النساء في أدبارهن
حديث 1923 - 619/1 وقال البوصيري في الزوائد إسناده صحيح .
قال الإمام ابن تيمية ومتى وطئها في دبرها وطاوعته عُزْرًا جميعًا ، وإلا فرق بينهما كما يفرق بين الفاجر ومن
يفجر به فقه السنة 245/2 .

وفي الحديث عن خزيمه بن ثابت رضي الله عنه أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول : « إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ لَا
يَحِلُّ لِأَحَدٍ أَنْ يَأْتِيَ النِّسَاءَ فِي أَدْبَارِهِنَّ » .
الحديث رواه الإمام أحمد في مسنده 213/5 والشافعي في مسنده وصححه 360/2 ورواه ابن حبان في
صحيحه 200/6 - والطبراني في الكبير 3742 ، 3737 والبيهقي في الكبرى 196/7 وفي سننه عبد الله بن عبد
الله بن الحصين .

وفيه لين لم يُخْرِجْ له سوى النسائي كما في التقريب 535/1 وفيه هرمي بن عبد الله ويقال عبد الله بن هرمي
مستور أخرج له النسائي كما في التقريب 317/2 . ولعبيد الله بن الحصين متابعات من عبد الله بن علي عند
أحمد 214/5 وابن حبان 201/6 وصححه والدارمي 260/1 وأبو نعيم في الحلية 376/8 ، وفي مسنده أحمد عن
عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال الهيثمي في مجمع الزوائد ورجاله ثقات ونصه [أن النبي صلى الله عليه وسلم قال في
الذي يأتي امرأته في دبرها هي اللوطية الصغرى - المسند 213/5 ، والمجمع 299/4 .
وزواه الخراطمي في مساوئ الأخلاق برقم 457 ، 458 - ص 170 والحديث بمجموع طرقه يقوي بعضه بعضًا .
وروى الدارقطني بسنده عن جابر يرفعه « إن الله لا يستحي من الحق لا يحل مأتاك النساء في حشوشهن »
سنن الدارقطني 288/3 .

● لماذا حرم الشرع إتيان المرأة في حيضها ودبرها ؟

حرم الشرع ذلك لما يترتب على ذلك من أضرار أشار إليها النص القرآني ﴿وَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذَى﴾ .

وبيان ذلك : أن الجماع أثناء الحيض يؤدي إلى حدوث التهابات في المهبل ، كما يساعد على التهاب باطن الرحم بسبب صعود الجراثيم من المهبل إلى باطن الرحم عبر عنقه ، والجماع أيضا أثناء الحيض يؤدي إلى حدوث احتقان دموي ، ويؤدي هذا الاحتقان إلى زيادة كمية النزف ، ويزداد الأمر سوءا بالالتهاب الحاصل الذي يسبب آلاما في الحوض مع الشعور بثقل فيه ، وترتفع الحرارة ، ويحتقن الغشاء المخاطي ، ويظهر الرشح المدمي ، وفي الأحوال الشديدة قد يمتد الالتهاب إلى ملحقات الرحم ، وقد يسبب العقم كما يمتد إلى المثانة ويؤدي إلى التهابها ، أما بالنسبة للرجل فإنه معرض لالتهاب مجرى البول وسائر الجهاز التناسلي ، وصعوبة التبول والتغوط ، وغير ذلك من المتاعب الصحية .

كما أن الجماع أثناء الحيض يؤدي إلى التنافر بين الزوجين ، فمنظر دم الحيض ورائحته كريهة ينفر منها الطبع ، وتشمئز منها النفس ، والمرأة في حيضها غير مستعدة نفسيا ولا عضويًا لهذه المباشرة الجنسية .

أما عن إتيان المرأة في دبرها فإنه أمر تنفر منه النفوس وتأباه العقول ، وهو مخالف للطبيعة السليمة والفطرة المستقيمة ، يقول ﷺ : ﴿يَسْأَلُونَكَ حَرْثَ لَكُمْ﴾ أي موضع حرث ، وفي هذا إشارة إلى أن موضع الجماع هو الحرث وهو الفرج لأنه موضع الولد كما أن الأرض موضع الزرع .

إنما الأرحام أرضون لنا محترثات

فعلينا الزرع فيها وعلى الله النبت

فالمرأة كالأرض والنطفة كالبذرة والولد كالنبت ﴿فَأَنزَلْنَا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ﴾ أي كيف شئتم ، يباح لكم الاستمتاع بالنساء ، وإتيانهن في موضع الحرث مقبلات كن أو مدبرات (1) .

(1) وفي هذا التعبير القرآني ما يدل على بلاغة القرآن وروعته ولطفه ورفعته .

● ومن الأضرار الناتجة عن إتيان النساء في أدبارهن : تهتك الشرح والمستقيم وعدم التحكم في الغائط ، لذلك فإنه معرض للنزول بصورة لا إرادية ، هذا إلى جانب ماينتج عن هذا الفعل القبيح من عقد نفسية للرجل والمرأة ومن تنافر وتباغض بينهما ، بالإضافة إلى الانصراف عن موضع الحرث ، كما أنه لا يشبع الرغبة الجنسية للمرأة والرجل ، ويفتح الباب إلى الزنا ، وهذا الفعل القبيح يساعد على نقل الأمراض الجنسية التي سبق الإشارة إليها كما أنه يحرم المرأة من حقها في الاستمتاع في موضع الحرث .

أما وطء الدبر فإنه لا يقضي الوطر ولا يحصل المقصود ؛ لأنه لم يخلق لهذه الفعلة المنكرة .

ومن الأضرار الناتجة عن هذا الفعل المنكر القبيح :

ظلمة وفترة في الوجوه والقلوب ، وفساد في الطباع وانتكاس في العقول وفقدان للمشاعر والإحساس ، وذهاب الحياء ، وزوال النعم ، وحلول النقم ، واستجلاب اللعنات ، كما أن هذا الفعل الفاحش يورث صاحبه وقاحة وجرأة ودناءة وخسة وينزع من قلبه المودة والرحمة ، ويزرع فيه العداوة والبغضاء ، والغفلة والنسيان والقسوة والجمود ، والإعراض والجمود⁽¹⁾ .

(1) يراجع مع الطب في القرآن الكريم د . عبد الحميد دياب ، د . أحمد قرقوز . ص 47 والتبيان فيما يحتاجه الزوجان للشيخ جاسم محمد مهلهل ص 107 ط دار الدعوة بالكويت 1405 هـ ط أولى .

ثالثاً : دروس مستفادة من قصة لوط عليه السلام :

في قصة لوط عليه السلام - كما وردت في القرآن الكريم الكثير من الدروس المستفادة نذكر منها ما يأتي :

1 - التوحيد هو أساس دعوة جميع الأنبياء من لدن آدم عليه السلام حتى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ (1) .

وقال تعالى : ﴿ يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ ﴾ (2) .

ولقد استهل لوط عليه السلام دعوته بعرض العقيدة الصحيحة الخالصة ، عقيدة التوحيد ، قال تعالى : ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ ﴾ (3) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطُ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿٣٢﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرًا ﴿٣٣﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٤﴾ (3) .

بدأ بالعقيدة قبل أن ينكر على قومه ما هم فيه من الفاحشة والمنكرات ، وذلك لأن الطريق إلى الإصلاح المنشود ، الإصلاح الاجتماعي ، والاقتصادي ، والسياسي ، لا بد أن يبدأ من إصلاح العقيدة وإخلاص العبادة فإذا صحت العقيدة ورسخت في قلوب المؤمنين ، وخلصت العبادة لله رب العالمين كان الطريق إلى الإصلاح والتغيير طريقاً سهلاً ممهداً ، وبدون العقيدة الصحيحة لن تفلح أي محاولة للإصلاح أو التغيير .

فالعقيدة هي الحصن الحصين والأساس المتين والنبراس المين للدعاة والمصلحين (4) .

2 - ضرب لوط عليه السلام أروع الأمثلة في الصبر والثبات على الحق ، والحكمة في الدعوة إلى الله صلى الله عليه وسلم والثقة بالله تعالى واليقين بوعده - سبحانه - الذي لا يتخلف ، كما ضرب عليه السلام أروع الأمثلة في إكرام الضيف ورعاية حقوقهم والترحيب بهم حتى في أصعب الأحوال .

فلقد استضافهم عليه السلام رغم أن قومه نهوه عن ضيافة الغرباء وحذروه من عاقبة ذلك ﴿ قَالُوا أَوْلَئِكَ تَنْهَكُ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾ (5) .

(1) سورة الأنبياء : 25 . (2) سورة النحل : 2 . (3) سورة الشعراء : 160 - 164 .

(4) وحول هذا المعنى يقول صاحب الظلال [... وطبيعة التصور الاعتقادي ونظام الحياة الذي يقوم عليه ذو أثر حاسم في هذا الشأن ، فهذه هي الجاهلية الحديثة في أوروبا وفي أمريكا ينتشر فيها هذا الانحراف الجنسي الشاذ انتشاراً ذريعاً بغير ما مبرر إلا الانحراف عن الاعتقاد الصحيح وعن منهج الحياة الذي يقوم عليه] .

وحين هرعَ قومه إلى بيته وراودوه عن ضيفه نجده يدافع عن ضيفه ، ويزود عنهم بكل ما يملك حتى وصل به الأمر إلى عرض بناته على قومه - ليتزوجوا بهن - في مقابل عدم تعرضهم للضيف الكرام ، وفي هذا درس مهم في إكرام الضيف ، ولنا في أنبياء الله الأسوة الحسنة والقدوة الطيبة .

3 - في موقف لوط عليه السلام من قومه حين هرعوا إلى بيته وراودوه عن ضيفه ، وحاول بكل السبل منعهم ، وصدهم حتى ضاقت به السبل فالتفت إلى ضيفه وقال لهم معتذرا ﴿ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةٌ أَوْ آوِيٌّ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴾ (1) .

في هذا الموقف إشارة إلى أهمية القوة في نصره الحق وفي نشر الدعوة وفي مواجهة أهل الباطل ، فالحق لا بد له من قوة تحميه . وصدق الشاعر إذ يقول :

لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى حتى يراق على جوانبه الدم
والظلم من شيم النفوس وإن تجد ذا عفة فلعللة لا يُظلم (2)

ولذلك كان الجهاد في سبيل الله للقضاء على النظم الجاهلية التي تحول دون وصول الحق وتكره الإنسان على عبادة غير الله وتقف للمسلمين بالمرصاد فلا بد إذا من الجهاد لإزالة وإزاحة هذه النظم المتسلطة الجائرة ، حتى يكون الطريق ممهدا لدعوة الله ، لتجد طريقها إلى القلوب الصادقة والنفوس المتشوقة والعقول المتعطشة لدين الله ، دين الحق والرشاد . ولا بد من الجهاد لحماية المؤمنين المستضعفين المضطهدين .

قال تعالى : ﴿ وَقَالُوا هُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الَّذِينَ كُلَّهُمُ لِلَّهِ قَانِتِينَ أَنْتَهُمْ قَانِتُونَ اللَّهُ بِمَا يَمْعَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ (3) .

وقال تعالى : ﴿ أُوذِنَ لِلَّذِينَ يُقْتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴾ (4) .

ولقد حثنا الإسلام على إعداد القوة في مواجهة أعداء الله الذين يصدون عن سبيله ويغونها عوجا قال تعالى : ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴾ (5) .

(1) سورة هود : 80 .

(2) البيتان للمنتبي يراجع ديوانه ص 571 ط المكتبة الثقافية بيروت .

(3) سورة الأنفال : 39 .

(4) سورة الحج : 39 .

(5) سورة الأنفال : 60 .

فالقوة في الإسلام وسيلة لا غاية ، وسيلة نبيلة إلى غاية سامية هي إرهاب أعداء الله لأنهم متى استهانوا بالمؤمنين قهروهم . قال تعالى : ﴿ إِنْ يَشْفِقُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَسْطُورُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتُهُمْ بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ ﴾ (1) .

4 - ويستفاد من هذه القصة أن الكافر يعاقب على كفره ولا تنفعه قرابته من أهل الإيمان في النسب أو المصاهرة ، كما أن المؤمن يثاب على إيمانه ولا يضره قرابته من الكافرين في النسب أو المصاهرة .

قال تعالى : ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا أَمْرَاتٍ نُوحٍ وَأَمْرَاتٍ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحِينَ فَخَاتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّٰخِلِينَ ﴾ (2) .

وقال تعالى : ﴿ وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى ﴿١٦﴾ وَأَنْ سَعِيَهُ سَوْفَ يُرَى ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى ﴿١٨﴾ وَأَنْ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنْتَهَىٰ ﴾ (3) .

وقال تعالى : ﴿ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٣١﴾ إِلَّا مَنْ آتَىٰ اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ (4) .

وقال ﷺ : ﴿ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ أَنْفُقًا رَبِّكُمْ وَأَحْشُوا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَانٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغُرُورُ ﴾ (5) .

وقال سبحانه : ﴿ لَنْ تَنْفَعَكُم أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصَلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ (6) .

روى البخاري بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : « قام رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أنزل الله ﷻ وأنذر عشيرتَك الْأَقْرَبِينَ ﷻ قال : يا معشر قريش أو كلمة نحوها - اشتروا أنفسكم ، لا أغني عنكم من الله شيئا . يا بني عبد مناف ، لا أغني عنكم من الله شيئا . يا عباس بن عبد المطلب ، لا أغني عنك من الله شيئا . ويا صفية عمه رسول الله صلى الله عليه وسلم لا أغني عنك من الله شيئا ، ويا فاطمة بنت محمد صلى الله عليه وسلم ، سليني ما شئت من مالي ، لا أغني عنك من الله شيئا » (7) .

(1) سورة الممتحنة : 2 . (2) سورة التحريم : 10 . (3) سورة النجم : 39 - 42 .

(4) سورة الشعراء : 88 ، 89 . (5) سورة لقمان : 33 . (6) سورة الممتحنة : 3 .

(7) رواه البخاري في صحيحه كالتفسير باب ﴿ وَأَنْذَرَ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ فتح الباري حديث 4771 - 360/8

ورواه النسائي في السنن بألفاظ متقاربة عن أبي هريرة ك الوصايا باب إذا أوصى لعشيرته الأقربين 248/6 .

وامرأة لوط رغم أنها أقرب الناس إليه وأعلمهم بأحواله وأفعاله إلا أنها كذبت به وآثرت ما عليه قومها من الكفر والضلال على ما جاء به لوط عليه السلام من الإيمان والهدى والفلاح والصلاح ، فلم تنفعها قربتها له وقربها منه .

قال تعالى : ﴿ فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَا مِنْ الْغَيْرِيبِ ﴾ (1) .

وقال تعالى : ﴿ فَجَعَلْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴿٧٧﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَدِيرِ ﴾ (2) .

نجى الله لوطاً عليه السلام ومن آمن به من أهل بيته وأهلك زوجته ، تلك العجوز الحمقاء التي شبت على الكفر وشابت عليه - وكان الأولى بها وقد أصابها الكبر - فبدل قوتها ضعفا وهوانا وشبابها شيبا ، فكان بلوغها الكبر : من أبلغ النذر ، ومن أعظم العبر (3) .

ومنطق الحق يقول : إن الإنسان كلما كبرت سنه كلما نضج عقله وصفا ذهنه وجادت قريحته وزادت خبرته وفراسته ، ولكن امرأة لوط تلك العجوز على النقيض من ذلك فهي ما زادتها أحداث الليالي وتتابع الأعوام إلا غفلة على غفلة وضلالا على ضلال .

(2) سورة الشعراء : 170 ، 171 .

(1) سورة النمل : 57 .

(3) وصدق من قال :

وكلُّ يومٍ مضى نقصٌ من الأجل

والمرء يفرح بالأيام يقطعها

وقال أبو العتاهية :

فعند الله أحتسب الشبابا
لمن خلقت شبيبته وشابا

مضى عني الشبابُ بغير أمرِي
وما من غايةٍ إلا المنايا

وقال محمود الوراق :

ودعا المشيبُ شبيبتي لنفادِ
وكفى بذاك علامةً لحصادِ

ابيضُ مني الرأسُ بعد سواده
واستحصد القومُ الذي أنا منهم

وقال ابن المعتز :

فكيف به والشيبُ في الرأسِ شاملٌ ؟

فما أبيضُ التفريطِ في زمن الصبا

يراجع المستطرف في كل فن مستظرفه لشهاب الدين الأبهسي 6/2 ط بيروت وراجع بهجة المجالس وأنس

المبحث السادس

نظرات في العهد القديم فيما ورد في شأن لوط عليه السلام

وردت قصة لوط عليه السلام في العهد القديم في سفر التكوين ولكنها تختلف اختلافا جوهريا عما ورد في القرآن الكريم وفيما يلي بيان ذلك :

● ذكر العهد القديم أن لوطا عليه السلام هاجر مع عمه عليه السلام إلى الشام ولكنه لم يذكر سبب هجرتهما وهو جوهر القصة وركيزتها الأساسية ولقد ورد بيان ذلك في القرآن الكريم بصورة مفصلة في آيات كثيرة .

● ورد في العهد القديم أن لوطا وعمه إبراهيم قد افترقا بسبب اختلاف رعائهما ، ففي العهد القديم [فحدثت مخاصمة بين رعاة مواشي أبرام ورعاة مواشي لوط وكان الكنعانيون والفرزيون حينئذ ساكنين في الأرض فقال أبرام للوط لا تكن مخاصمة بيني وبينك وبين رعاتي ورعاتك لأننا نحن أخوان أليس كل الأرض أمامك ، اعتزل عني إن ذهبت شمالا فأنا يمينا وإن يمينا فأنا شمالا] (1) .

وأرى أن لوطا عليه السلام ذهب إلى سدوم بأمر إلهي حيث أرسله الله إلى أهل تلك القرية . ولم يذهب عليه السلام بسبب خلاف بينه وبين عمه إبراهيم عليه السلام ، فأنبأ الله هم أظهر الناس وأكرمهم وأزهدهم في حطام الدنيا الزائل .

- وفي الوقت الذي ركز العهد القديم فيه على التفصيلات التي لا طائل من ورائها ولا فائدة من ذكرها نراه قد أهمل الحديث عن القضية الجوهرية والركيزة الأساسية في قصة لوط عليه السلام ألا وهي دعوته إلى التوحيد وإنكاره على قومه ما هم فيه وعليه من الفواحش والمنكرات .

بل إن العهد القديم لم يصرح بتلك الفاحشة التي كان عليها قومه - وهي اللواط - . أما القرآن الكريم فلقد تحدث عن دعوة سيدنا لوط عليه السلام كما تحدث عن إنكاره على قومه جريمة اللواط وغيرها من المنكرات .

* ورد في العهد القديم أن الله تعالى قال لإبراهيم : [وقال الرب إن صراخ سدوم

وعمورة قد كثر وخطيتهم قد عظمت جدا أنزل وأرى هل فعلوا بالتمام حسب صراخها الآتي إلى ؟ ..] (1) وفي هذه العبارة افتراء على الله ﷻ واتهام له سبحانه بأنه لم يكن يعلم ما كان عليه قوم لوط من الفسق والفجور ، لذلك فهو محتاج إلى النزول إلى الأرض ، والظهور في صورة الإنسان حتى يتأكد بنفسه من صحة هذه الأخبار .

● والحق الذي نؤمن به أنه سبحانه قد أحاط بكل شيء علما فلا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء ولا تغيب عنه غائبة قال ﷻ : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴾ (2) .

وقال سبحانه : ﴿ وَأَسْرَأُ قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّكُمْ عَلِيمُ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ (3) أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ (3) .

وقال سبحانه : ﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ (4) ، فهو سبحانه عالم بكل شيء وهو سبحانه كما أخبر عن نفسه ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ (5) .

والجدالة لم تحدث بين إبراهيم وبين الرب كما يزعم العهد القديم في سفر التكوين إصحاح 18 فقرات 24 : 33 ولكنها حدثت بين إبراهيم ﷺ وبين الملائكة قال تعالى : ﴿ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ ﴾ (6) قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنَنْجِيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا أُمَّرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴾ (6) .

وقال تعالى : ﴿ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجْدِلْنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ ﴾ (7) إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ ﴿ يَتَابَرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ لَانْتِهَى عَذَابٌ عَيْرٌ مَرْدُودٌ ﴾ (7) .

فإبراهيم ﷺ كان يرجو أن يمهل الله تعالى قوم لوط ويؤخر عنهم العذاب لعلمهم

(1) تكوين إصحاح 18 فقرة 20 : 22 .

(2) سورة الملك : 13 ، 14 .

(3) سورة يونس : 61 .

(4) سورة الشورى : 11 .

(5) سورة العنكبوت : 31 ، 32 .

(6) سورة هود : 74 ، 76 .

يرجعون ويتوبون ، لكن قوم لوط أصروا على كفرهم وعنادهم وتمادوا في طغيانهم وكذبوا بما جاء به نبي الله لوط عليه السلام من حجج قاطعة وآيات ساطعة فحق عليهم العذاب .

● تحدث القرآن الكريم والعهد القديم عن مجيء الملائكة إلى لوط عليه السلام وضيافته لهم غير أن العهد القديم ذكر أن الملكين ذهبا إلى سدوم وكان لوط جالسا في باب سدوم فلما رآهما لوط قام لاستقبالهما وسجد بوجهه إلى الأرض وقال يا سيدي ميلا إلى بيت عبدكما ويبتا واغسلا أرجلكما ثم تبركان وتذهبان فمالا إليه ودخلا بيته فصنع لهما ضيافة وخيزا فأكلا [(1)] .

وفي القرآن الكريم يقول تعالى : ﴿ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴾ (2) .

فلوط عليه السلام كان يظنهم بشرا عاديين فخاف عليهم من أذى قومه لهم .

ولنا أن نتساءل عن حقيقة سجود لوط عليه السلام للملائكة هل كان سجود تعظيم أم تكريم ؟ .

فإن كان سجود تعظيم فهو يتنافى مع عصمة الأنبياء .

وإن كان سجود تكريم فعلى أي أساس يسجد لهم هذا السجود وهو لا يعرفهم فكيف يسجد لهم ؟ .

وما ورد في العهد القديم عن الملكين أنهما أكلا من الطعام الذي قدمه لوط عليه السلام كذب وافتراء وجهل عظيم بأحوال الملائكة عليهم السلام الذين لا يأكلون ولا يشربون ولا يتناكحون ولا يتناسلون .

وفي هذه الأكاذيب والافتراءات ما يدل على تحريف العهد القديم .

● ورد في القرآن الكريم أن لوطا عليه السلام عرض بناته على قومه ﴿ هُوَ لَأَبْنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ ﴾ (3) .

(2) سورة هود : 77 .

(1) تكوين إصحاح 19 فقرة 1 : 3 .

(3) سورة هود : 78 .

ففي قوله تعالى : ﴿ هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ﴾ إشارة إلى أنه عرض للنكاح وليس للسفاح لأن الطهر لا يكون إلا في النكاح الشرعي وقوله الطَّيِّبَاتِ لهم عقب عرض بناته عليهم : ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزَوْا فِي ضَيْفِ الْإِنْسَانِ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ ﴾ .

يؤكد هذا المعنى إذ إن التقيّ الرشيد هو الذي يراعي حق الضيف ويحفظ حرمة ولا يجروا على المعصية .

وفي رد قوم لوط عليه ما يؤكد هذا المعنى أيضا ﴿ قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَمَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَنَعْلَمُ مَا تُرِيدُ ﴾ (1) .

فلقد صرحوا بكل سفاهة ووقاحة بأنهم لا يرغبون في الحلال الطيب وإنما يرغبون في الخبيث المنكر الذي جاءوا من أجله .

أما في العهد القديم فقد ورد عن عرض لوط بناته على قومه أنه [خرج إلى الباب وأغلقه وراءه وقال لا تفعلوا شرا يا إخوتي هو ذا لي ابنتان لم تعرفا رجلا : أخرجهما إليكم افعلوا بهما كما يحسن في عيونكم] (2) .

وهذه العبارة محض افتراء على نبي الله لوط الطَّيِّبِ إذ إنها تفيد أنه الطَّيِّبِ عالج المنكر بمنكر أفبح حيث قدّم ابنتيه لقومه ليفعلوا بهما كما يحسن في عيونهم .

وهذا أمر لا يليق بالعوام فكيف يليق بنبي الله لوط الطَّيِّبِ ؟ كيف يعالج المنكر بمنكر آخر ؟ .

إن الصواب في هذه المسألة هو ما ذكره القرآن الكريم أنه الطَّيِّبِ عرض بناته للنكاح لا للسفاح .

● ورد في العهد القديم أن لوطا الطَّيِّبِ حين أمر بالخروج هو وزوجته وبناته تواني وتباطأ عن هذا الأمر فأمسك الملكان بيده ويده امرأته ويده ابنتيه لشفقة الرب عليه وأخرجاه ووضعاه خارج المدينة (3) .

وهذا محض افتراء على سيدنا لوط الطَّيِّبِ إذ كيف يتواني وتباطأ ويتناقل عن هذا الأمر .

يقول الإمام القرافي في كتابه (الأجوبة الفاخرة) :

[وما ذكرته التوراة من أن لوطا الطَّيِّبِ لما أمره الله تعالى بالخروج عن القرية الظالمة لم

(2) تكوين إصحاح 19 فقرة 6 ، 7 .

(1) سورة هود : 79 .

(3) تكوين إصحاح 9 فقرة 12 : 19 .

يسارع وتباطأ عن الامتثال حتى بقيت الملائكة تدفعه في ظهره دفعا عنيفا حتى أخرجوه كرها ، يدل على الكذب والافتراء ، فإن خواص المؤمنين لا يشكون في أوامر الله تعالى لا سيما مع وجود الملائكة المشاهدين بالحس فكيف بخواص الأنبياء عليهم السلام ، كلا والله . بل بواطنهم مملوءة إجلالا وتعظيما وهم المخصوصون بدوام المراقبة لأوامر الله تعالى انقيادا وتسليما وما هي بأول جرأة من اليهود على الأنبياء عليهم السلام [(1)] .

● تحدث العهد القديم عن هلاك قوم لوط كما تحدث عن هلاك امرأة لوط وأنها وهي تسير مع زوجها لوط وابنتيهما (نظرت من ورائها فصارت عمود ملح) (2) .
ولم يصرح العهد القديم بسبب هلاك امرأة لوط .

ولقد صرح القرآن الكريم بسبب هلاكها وهو بقاؤها على كفرها قال تعالى ﴿ صَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا أَمْرَاتَ نُوحٍ وَأَمْرَاتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِن عِبَادِنَا صَالِحِينَ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّٰخِلِينَ ﴾ (3) .

● وفي العهد القديم أن لوطا عليه السلام فعل الفاحشة بابنتيه بعد أن سقته إحداهما خمرا في ليلة حتى سكر ووقع عليها فحملت منه ثم جاءت الأخرى في الليلة التالية وسقته خمرا حتى سكر ووقع عليها فحملت منه أيضا .

نص العهد القديم : [وصعد لوط من صوغر وسكن في الجبل وابنتاه معه . لأنه خاف أن يسكن في صوغر . فسكن في المغارة هو وابنتاه وقالت البكر للصغيرة أبونا قد شاخ وليس في الأرض رجل ليدخل علينا كعادة كل الأرض . هلم نسق أبانا خمرا

(1) الأجوبة الفاخرة عن الأسئلة الفاجرة للإمام القرافي ص 381 ، 382 تحقيق أ. د بكر زكي عوض أستاذ الدعوة ومقارنة الأديان بكلية الدعوة الإسلامية بالقاهرة ط مكتبة وهبة سنة 1407 هـ سنة 1987 م .
والإمام القرافي هو أحمد بن إدريس بن عبد الرحمن أبو العباس ، شهاب الدين الصنهاجي : نسبة إلى صنهاجة إحدى القبائل من المغرب العربي والبهنسي : نسبة إلى بهنسا بصعيد مصر ، القرافي نسبة إلى القرافة وهي الحلة المجاورة لقبر الإمام الشافعي بالقاهرة :

من مؤلفاته الأجوبة الفاخرة ، وأدلة الواحدانية في الرد على النصرانية، وشرح الأربعين في أصول الدين للفخر الرازي ، والاستغناء في أحكام الاستثناء ، والذخيرة في الفقه المالكي ، وتنقيح الفصول في علم الأصول ، والعقد المنظوم في الخصوص والعموم . توفي رحمته الله سنة 684 هـ تراجع ترجمته في الديباج المذهب لابن فرحون 236/1 : 239 وحسن المحاضرة للسيوطي 316/1 وتاريخ الإسلام للذهبي 98/1 والأعلام للزركلي 94/1 .

(2) تكوين إصحاح 9 فقرة 26 . (3) سورة التحريم : 10 .

ونضطجع معه فنحيي من أيينا نسلا فسقتا أباهما خمرا في تلك الليلة ودخلت البكر واضطجعت مع أييها ولم يعلم باضطجاعها ولا بقيامها وحدث في الغد أن البكر قالت للصغيرة إني قد اضطجعت البارحة مع أبي ، نسقيه خمرا الليلة أيضا ، فادخلي اضطجعي معه فنحيي من أيينا نسلا .

فسقتا أباهما خمرا في تلك الليلة أيضا . وقامت الصغيرة واضطجعت معه . ولم يعلم باضطجاعها ولا بقيامها ، فحبلت ابنتا لوط من أييها فولدت البكر ابنا ودعت اسمه موآب . وهو أبو المؤابيين إلى اليوم والصغيرة أيضا ولدت ابنا ودعت اسمه بن عمي . وهو أبو بني عمون إلى اليوم (1) .

وهذا الكلام إفك وافتراء وبهتان عظيم على نبي الله لوط عليه السلام .

وهو دليل كاف على وقوع التحريف والتبديل في العهد القديم .

يقول ابن حزم : [هذا كلام أحقق في غاية الكذب أترى هل انقطع نسل ولد آدم كله حتى لم يبق في الأرض أحد يضاجعهما - إن هذا لعجب ، فكيف والموضع معروف إلى اليوم ليس بين تلك المغارة التي كان فيها لوط عليه السلام مع ابنتيه وبين قرية الخليل إبراهيم عليه السلام إلا فرسخ واحد] (2) .

● ولنا أن نتساءل : كيف ينص العهد القديم على شرب لوط عليه السلام الخمر مع أنه ورد في سفر القضاة « ومنع الرب زوجته من شرب الخمر وشرب كل مسكر وقت حملها ليكون ولدها من الأتقياء » . وكرر الرب الوصية على زوجته منوح أكثر من مرة (3) .

فكيف يحرم الرب الخمر على زوجته منوح ثم لا يحرمها على لوط الذي شربها مرتين وسكر ووقع على ابنتيه كما نص سفر التكوين على ذلك .

كما ينسبون إلى لوط شرب الخمر وقد حرمها الرب على هارون وذريته كما ورد في سفر اللاويين [وكلم الرب هارون قائلا خمرا ومسكرا لا تشرب أنت وبنوك معك عند دخولكم إلى خيمة الاجتماع لكي لا تموتوا] (4) .

(1) تكوين إصحاح 19 فقرة 30 ، 37 .

(2) الفصل في الملل والأهواء والنحل لابن حزم 1/133 يتصرف والفرسخ يساوي 3 أميال 5544 م 12000 خطوة .

(4) اللاويين إصحاح 10 فقرة 8 ، 9 .

(3) القضاة إصحاح 13 فقرة 2 : 14 .

وفي سفر أشعياء [ويل للأبطال على شرب الخمر ولذوي القدرة على مزج المسكر الذين يبررون الشرير من أجل الرشوة وأمام حق الصديقين فينزعونهم منهم] (1) .

وفي نفس السفر أيضا [ولكن هؤلاء أيضا ضلوا بالخمر وتاهوا بالمسكر . الكاهن والنبي ترنحا بالمسكر ابتلعتهما الخمر تاهتا من المسكر ضللا في الرؤيا ، قلقا في القضاء ، فإن جميع الموائد امتلأت قيما وقذرا ...] (2) .

وفي العهد الجديد إنجيل لوقا [لما بشر الملاك زكريا لولادة يحيى أوصاه ألا يشرب الخمر ؛ لأنه يكون عظيما أمام الرب وخمرا ومسكرا لا يشرب] (3) .

ومن هنا : فإن ما ورد في سفر التكوين من شرب لوط للخمر يتنافى ويتناقض مع ما ورد في تحريمها وتجريمها في سفر اللاويين وأشعياء وفي سفر القضاة وفي إنجيل لوقا . وفي هذا دليل قاطع على وقوع التحريف والتبديل في العهدين القديم والجديد .

يقول الإمام السموأل (4) - وهو أحد أحبار اليهود الذين هداهم الله للإسلام - في كتابه إفحام اليهود [ومن المحال أن يكون شيخ كبير قد قارب المائة قد سقي الخمر حتى سكر سكرًا حال بينه وبين معرفة ابنتيه فضاجمته إحداهما واستنزلت منيه وقامت عنه وهو لا يشعر - قاتلهم الله أنى يؤفكون] (5) .

● ولنا أيضا أن نتساءل عن موقف لوط عليه السلام حين رأى حمل ابنتيه ينمو يوما بعد يوم كما يزعم سفر التكوين ، ترى ماذا كان موقفه ؟ .
هل سكت على هذا الفعل وأقر بهذا المنكر ؟ .

(1) يبررون الشرير : أي يدعون أن الأشرار أختيار أبرار .

(2) أشعياء إصحاح 28 ققرة 7 ، 8 . (3) لوقا إصحاح 1 ققرة 15 .

(4) هو أحد أحبار اليهود الذين هداهم الله للإسلام وسمى نفسه السموأل بن يحيى المغربي وكان عالما بالرياضيات وبالفسفات والآداب وكان طبيبا بارعا ، درس الإسلام واعتنقه بعد اقتناع وله رسالة بعنوان بذل المجهود في إقحام اليهود ورغم صغر حجمها إلا أنها عظيمة الفائدة وكانت وفاته سنة 571 هـ سنة 1175 م . تراجع ترجمته في عيون الأنباء في طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة (ت 668 هـ) 31/2 تحقيق نزار رضا ط سنة 1965 بيروت . وإخبار العلماء بأخبار الحكماء لجمال الدين القفطي (ت 646 هـ) ص 142 ط دار الآثار بلبنان .

(5) بذل المجهود في إفحام اليهود ص 149 تحقيق د . محمد عبد الله الشرقاوي أستاذ الفلسفة الإسلامية بكلية دار العلوم بالقاهرة ط دار الهداية سنة 1406 هـ .

أم غضب وثار وعاقب ابنتيه ؟ .

إن ما ورد في العهد القديم في هذا الشأن يتنافى مع عصمة نبي الله لوط عليه السلام ومع دعوته إلى الطهر والعفاف وإنكاره على قومه إتيانهم للفواحش وعزمهم على إخراجه هو ومن آمن به من أهل بيته لأنهم أطهار .

نعم إنه بهتان عظيم وإفك قديم على نبي الله لوط عليه السلام وابنتيه وهم الذين شهد لهم قومهم بالطهر والعفاف : ﴿ أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَّنطَهَرُونَ ﴾ (1) .
فياعجا كيف يشهد عليهم أهل الفسق بالطهر ويتهمهم العهد القديم بشرب الخمر والزنا .

● لقد اختلق اليهود هذه القصة المفتراة : لتشويه صورة الأنبياء وطمس معالمهم وذلك ، أن اليهود كما عُرف عنهم عبر التاريخ يتساهلون في أمر العرض .

ويريدون أن يستندوا في هذا إلى ما يكون قدوة في نظرهم فجعلوا من بنتي نبي الله لوط عليه السلام - وهما مثال للعفة والطهارة - مثالا للفجر والعهر وذلك حتى لا يكون على بناتهم لوم في ارتكاب هذه الخيانة (2) ، وحتى يجعلوا من عشق المحارم - ذلك الأمر الشاذ ، الذي يخالف الفطرة السليمة والطبيعة المستقيمة - يجعلوه أمرا طبيعيا مألوفا في نظرهم (3) .

● ومن أسباب اختلاقهم لهذه القصة أيضا :

العداء الذي كان بين بني إسرائيل وبين (بني عمو وموآب) ولقد حملت تلك العداوة بني إسرائيل على تشويه صورة (بني عمو وموآب) والظعن في نسبهم بزعم أن أصلهم أولاد زنا (4) .

(1) سورة النمل : 56 .

(2) أدلة اليقين للأستاذ عبد الرحمن الجزيري ص 435 مطبعة الإرشاد .

(3) يقول الدكتور صبري جرجس : [إن عشق المحارم من الظواهر التي تكاد تكون وقفا على المجتمع اليهودي ؛ لأنه مجتمع مغلق ، يحرم على أفرادها الزواج خارج دائرته ، ومن أجل ذلك كانت إحدى مهام التراث اليهودي محاولة استنباط الوسائل الكفيلة لا بمعالجة هذه المشكلة ، ولكن بالتخفيف من مشاعر الخطيئة الناتجة عنها] . التراث اليهودي الصهيوني والفكر الفرويدي تأليف د . صبري جرجس نشر عالم الكتب بالقاهرة ط 1970 م ط أولى .

(4) تنزيه نبي الله داود عن مطاعن وأكاذيب اليهود في العهد القديم والإسرائيليات / أ د . فتحي محمد الزغبى طبعة 1991 سنة 1412 هـ ط أولى بدون إشارة إلى جهة الطبع .

وبطعنهم في عمو وموآب وزعمهم أنهما ولدا من الزنا فهم يطعنون في نسب داود عليه السلام الذي يرجع نسبه - كما يزعمون - إلى موآب بن لوط وعلى هذا فداود عليه السلام في زعمهم من زنا ومثله عيسى عليه السلام الذي ينتسب إلى داود وفي هذا يقول السموأل : [عند بني إسرائيل أن موسى جعل الإمامة في الهاروتيين ، فلما ولي طالوت وثقلت وطأته على الهاروتيين قتل منهم مقتلة عظيمة ثم انتقل الأمر إلى داود بقي في نفوس الهاروتيين التشوف إلى الأمر الذي زال عنهم ، وكان (عزرا) خادما لملك القدس حظيا عنده فتوسط إلى بناء بيت المقدس وعمل التوراة التي بين أيديهم ، فلما كان هارونيا كره أن يتولى عليهم في الدولة الثانية داوودي ، فأضاف إلى التوراة فصلين طاعنين في نسب داود أحدهما قصة بنات لوط ...] (1) .

ومما سبق يتضح لنا من خلال عرضنا لقصة لوط عليه السلام في العهد القديم أنها خلقت من الركائز الأساسية للقصة وهي دعوة لوط عليه السلام إلى التوحيد وإنكاره عليهم ما هم فيه من الفواحش والمنكرات وسبب هلاك زوجته التي أصرت على كفرها .

كما أنها حوت كثيرا من الضلالات والسفاهات من ذلك :

الزعم بأن الرب نزل إلى الأرض في صورة إنسان ليتحقق من أحوال قوم لوط ويتأكد من ضلالهم - تعالى الله عما يقولون علواً كبيرا - .

ومن ذلك أيضا زعمهم بأن الملائكة أكلوا عند لوط عليه السلام وهذا كذب وافتراء ؛ لأن الملائكة أجسام نورانية لا تأكل ولا تشرب ولا تتناكح ولا تتناسل ، ومن ذلك تلك الفرية العظمى في حق لوط عليه السلام وابنتيه ، ولقد أثبتنا بطلانها وزيفها .

ومن خلال ما ذكرناه يتبين لنا ما عليه العهد القديم من التحريف والتبديل .

الفصل الخامس

قصة يوسف عليه السلام مع امرأة العزيز

تمهيد : كلمة في السياق .

المبحث الأول : يوسف عليه السلام في بيت العزيز .

المبحث الثاني : مراودة امرأة العزيز ليوسف عليه السلام وعصمته .

المبحث الثالث : حديث النسوة في المدينة عن مراودة امرأة العزيز

ليوسف عليه السلام وموقف امرأة العزيز منهن .

المبحث الرابع : السجن طريق النجاة

المبحث الخامس : الفوائد المتعلقة بقصة يوسف عليه السلام مع امرأة العزيز

المبحث السادس : ما جاء في العهد القديم في شأن قصة يوسف

عليه السلام وامرأة العزيز .

تمهيد :

● قصة يوسف مع امرأة العزيز فصل من فصول قصته عليه السلام التي أوردتها المولى عليه السلام كاملة في سورة واحدة هي سورة يوسف وسميت بذلك ؛ تكريماً له عليه السلام ، فهو نبي الله يوسف الصديق ابن نبي الله يعقوب ابن نبي الله إسحاق ابن خليل الله إبراهيم أبي الأنبياء عليهم السلام فيوسف عليه السلام هو « الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم » (1) .

فرع من فروع تلك الشجرة الطيبة المباركة ، شجرة الأنبياء ، التي بدأت بآدم عليه السلام وكان مسك ختامها رسول الله محمد عليه السلام ... ﴿ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ (2) .

● ولقد بدأت سورة يوسف بالحروف المقطعة ﴿ الرَّ ﴾ وهي كما قيل : نص حكيم قاطع له سر ونحن نفوض علم حقيقة هذه الحروف إلى الله عليه السلام فهو العليم بأسرار كتابه ، أما عن سر إيرادها في القرآن الكريم ؛ حيث استهلَّت بها بعض السور : فليلتنبه ، وقيل لبيان إعجاز القرآن الكريم حيث ركب من هذه الحروف وغيرها وهي حروف عربية وكلمات القرآن عربية ومع ذلك فقد عجز العرب والعجم ، عن الإتيان بمثله ، بل إن المولى عليه السلام تحدى الإنس والجن جميعاً أن يأتوا بمثله فعجزوا قال تعالى : ﴿ قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ (3) .

يقول الإمام القرطبي في تفسيره [اختلف أهل التأويل في الحروف التي وردت في

(1) روى الإمام البخاري في صحيحه عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي عليه السلام أنه قال : « الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم : يوسف ابن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام » صحيح البخاري كتاب أحاديث الأنبياء - باب ﴿ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ ﴾ سورة البقرة : 133 حديث 3382 . فتح الباري 480/6 .

وروى الإمام البخاري في صحيحه أيضاً عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : « سئل رسول الله عليه السلام : من أكرم الناس ؟ قال : أتقاهم لله ، قالوا ليس عن هذا نسألك قال فأكرم الناس يوسف نبي الله ابن نبي الله - يعقوب ابن خليل الله ، قالوا : ليس عن هذا نسألك . قال فعن معادن العرب تسألونني ؟ الناس معادن خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا . رواه البخاري في صحيحه كتاب أحاديث الأنبياء باب قول الله تعالى ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ ءَايَاتٌ لِّلسَّالِئِينَ ﴾ سورة يوسف 7 - حديث 3383 فتح الباري 481/6 .

(3) سورة الإسراء : 88 .

(2) سورة آل عمران : 34 .

أوائل السور فقال عامر الشعبي⁽¹⁾ وسفيان الثوري⁽²⁾ وجماعة من المحدثين : هي سر الله في القرآن ولله في كل كتاب سر ، فهي من المتشابه الذي انفرد الله تعالى بعلمه ، ويجب أن تؤمن بها ونقر بها كما جاءت ثم ذكر القرطبي جملة من الصحابة الذين ورد عنهم هذا القول فعزاه إلى أبي بكر الصديق وعمر وعثمان وعلي وابن مسعود رضي الله عنهم [(3) .

وقال الإمام ابن كثير : [... فتعين أن لها معنى في نفس الأمر ، فإن صح لنا عن المعصوم شيء فيها قلنا به وإلا وقفنا حيث وقفنا وقلنا ﴿ءَأَمَّنَّا بِهِ كُلُّ مَن عِنْدَ رَبِّنَا﴾ (4) [(5) .

﴿ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴾ (6) .

إشارة إلى القرآن الكريم ، فهو كتاب واضح بين لا لبس فيه ولا غموض ولا اضطراب ولا إشكال يكشف عن الحقائق ويفصل في الأمور ، ومن ضمن ما بينه وكشف عنه قصة يوسف عليه السلام .

﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ (7) .

واللغة العربية لغة أصيلة ثرية بمفرداتها وتراكيبها وأساليبها ، ولقد نزل بها القرآن لتزداد أصالة وثناء وذيوعا وانتشارا .

﴿ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾

نزل بلسان عربي مبين لكي تفهموا معانيه . التي تستضيء بها العقول وتستتير بها

(1) هو أبو عمرو ، عامر بن شراحيل الشعبي الحميري الكوفي ، التابعي قاضي الكوفة ، روى عن كثير من أعلام الصحابة ، توفي سنة 109 هـ ، تهذيب التهذيب 65/5 ، خلاصة تهذيب الكمال ص 155 التفسير والمفسرون للذهبي 123/1 .

(2) هو سفيان بن سعيد بن مسروق بن حبيب بن رافع شيخ الإسلام إمام الحفاظ سيد العلماء العاملين في زمانه (97 - 161 هـ) تهذيب التهذيب 111/4 طبقات القراء لابن الجزري 308/1 - سير أعلام النبلاء 229/7 .

(3) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي 155/1 . (4) سورة آل عمران : 7 .

(5) تفسير القرآن العظيم لابن كثير 37/1 وسلك هذا المسلك الكثير من المفسرين - حيث فوضوا علم حقيقة هذه الحروف إلى المولى صلى الله عليه وسلم . ومن هؤلاء المفسرين الإمام أبو حيان في البحر المحيط 35/1 والسيوطي في الإتقان 11/2 والشوكاني في فتح القدير 21/1 وغيرهم .

لمزيد بيان يراجع براءة الاستهلال في فوائح القصائد والسور د . محمد بدري عبد الجليل أستاذ بأداب الإسكندرية ط المكتب الإسلامي ، ومباحث في علوم القرآن د . صبحي الصالح ص 244 ، 245 .

(6) سورة يوسف : 2 .

(7) سورة يوسف : 1 .

القلوب وتنشرح لها الصدور .

﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ ﴾ (1) .

والقصص القرآني هو أحسن القصص ؛ لأنه قصص حقيقي ، واقعي ، قصص هادف وبناء هو أحسن القصص في حسن ألفاظه وروعة أسلوبه ورفعة وسمو مقاصده ، ودقة وجلال معانيه ، هو أحسن القصص ، لأنه نزل من عند أحكم الحاكمين ﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَابًا نَقَشَهُ مِنْهُ جُلُودَ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَالَهُ مِنَ هَادٍ ﴾ (2) .

قال الألويسي [وأحسنيته لأنه قد قص على أبداع الطرائق الرائعة الرائقة وأعجب الأساليب الفائقة اللائقة ...] (3) .

ويجدر بنا أن نشير في هذا المقام إلى أنه : ليس في القرآن شيء أفضل من شيء وليس هناك قصة أحسن من قصة ، وإنما لكل قصة أسلوبها وطريقتها وسياقها ومقاصدها ، والقرآن كلام الله ﷻ وهو على درجة واحدة من الحسن والقوة والروعة والرفعة ، والتناسق ، والمواكبة لكل زمان ومكان ، وقصة يوسف عليه السلام من أحسن القصص ؛ لأنها جزء من القصص القرآني ، وهي من أحسن القصص لما يتعلق بها من عبر وعظات ، ولكثرة ما عاجته من مقاصد وموضوعات .

يقول الإمام النيسابوري في غرائب القرآن : [ووجه حسنها اشتغالها على الغرائب والعجائب والنكت والعبير وأن الصبر مفتاح الفرج وأن ما قضى الله كائن لا محالة لا يرده كيد كائد ولا حسد حاسد] (4) .

﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ الْغَافِلِينَ ﴾

أي من الغافلين عن قصة يوسف عليه السلام حيث لم تعلمها إلا عن طريق الوحي الإلهي ولقد علمك الله ﷻ ما لم تكن تعلم ، قال تعالى : ﴿ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾ (5)

(1) سورة يوسف : 3 . (2) سورة الزمر : 23 . (3) روح المعاني للألويسي 175/12 .

(5) سورة النساء : 113 .

(4) غرائب القرآن للنيسابوري 80/12 .

وقال سبحانه : ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكَلْبُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (1)

وفي هذه القصة وغيرها حجة ساطعة ودلالة قاطعة على نبوته ﷺ لأن هذه الأخبار ما كانت لتعرف إلا عن طريق الوحي .

﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴾ (2)

● بدأت قصة يوسف ﷺ بالحديث عن الرؤيا التي رآها وحكاها لأبيه يعقوب .

وببصيرة الأنبياء ورحمة الآباء وحنوهم وخوفهم على أبنائهم النجباء يجيب يعقوب ﷺ على ابنه يوسف ﷺ فيقول - كما أخبرنا القرآن - ﴿ قَالَ يَبْنَئِي لَا نَقْصُصُ رُءْيَاكَ عَلَيَّ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ وكذلك يَجْنِبُكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ (3)

وهنا نشير إلى بلاغة القرآن الكريم في براعة استهلال القصة الذي يتناسب مع حسن خاتمها حيث بدأت القصة بالرؤيا وانتهت عند تحقيقها بفضل الله تعالى وقدرته وعلمه وحكمته ورحمته وإرادته قال تعالى في سورة يوسف : ﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ ﴾ (4) وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُءْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلْنَا رُبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِن بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾ (5) رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحَقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾ (4)

(2) سورة يوسف : 4 .

(1) سورة الشورى : 52 .

(4) يوسف 99 : 101 .

(3) يوسف 5 ، 6 .

المبحث الأول

يوسف عليه السلام في بيت العزيز

مر يوسف عليه السلام بكثير من المحن ، منها محنة كيد الإخوة وحسداهم له وما ترتب على ذلك من محاولتهم التخلص منه بإلقائه في البئر ، وبعد ذلك مر يوسف عليه السلام بمحنة الاسترقاق ، حيث أصبح سلعة تعرض في الأسواق ، ثم صار إلى بيت العزيز .

هذا فضلا عن محنة المراودة ، ثم محنة السجن التي أعقبها الفرج والرخاء ، حيث خرج من السجن بعد أن علم الجميع ببراءته ونزاهته ، وتولى الوزارة ، ليقود سفينة مصر بأمانة ومهارة ، من سنوات القحط والجذب إلى سنوات الرخاء والخصب ، ثم تتم النعمة على يوسف بعد ذلك بلقاء الأهل واجتماع الشمل .

● في بيت عزيز مصر :

قال تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٢١﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ ءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٢﴾ .

انتقل يوسف عليه السلام إلى بيت عزيز مصر بعد رحلة من العناء ، انتقل فيها من ضيق إلى ضيق ، فمن ضيق صدور الإخوة وظلمهم إلى ضيق البئر وظلمته ووحشته ومنه إلى ضيق الاسترقاق حيث عرض في الأسواق واشتراه عزيز مصر في ذلك الوقت .

● من هو عزيز مصر في ذلك الوقت ؟ .

قبل رئيس الشرطة وقيل هو القائم على خزائن مصر (وزير الزراعة والاقتصاد والتجارة والمالية والتموين) ، واختلف في اسمه ، قيل هو قطفير وقيل إطفير ، والملك هو الريان بن الوليد رجل من العماليق ، آمن بيوسف ومات في حياته عليه السلام فملك بعده قابوس بن مصعب فدعاه يوسف عليه السلام إلى الإسلام فأبى . ذكر ذلك الزمخشري في الكشاف (1) .

● وقال الماوردي : [العزيز هو الملك واسمه إطفير بن رويحب ، وقال ابن عباس : اسمه

قطيفير وكان على خزائن مصر وكان الملك يومئذ هو الوليد بن الريان من العماليق [(1)] .
والذي يظهر لي : أن العزيز هو الرجل الثاني بعد الملك ، والمفوض في شئون مصر ،
وقد جرت العادة في كثير من النظم والحكومات أن الرجل الثاني في الحكم هو الذي
يدير البلاد ويتحمل أعباء الحكم ويياشر المهام والمسئوليات ، أما عن اسم العزيز واسم
الملك فليس هناك دليل صحيح يدل عليه ونحن نفوض علمه إلى الله تعالى ، والذي
يعيننا في هذا المقام هو الاستفادة من العبر والعظات لا معرفة المبهمات التي لا تفيدنا
معرفتها ، كما لا يضرنا الجهل بها .

● وكما لم يذكر القرآن اسم العزيز ولا اسم الملك كذلك لم يذكر اسم امرأة العزيز ،
التي قيل إن اسمها زُليخًا أو زليخًا وقيل اسمها راحيل أو راعيل قال ابن كثير في قصص
الأنبياء [واسم امرأة العزيز راعيل بنت رمايل وقيل كان اسمها زليخا والظاهر أنه
لقبها ...] (2) والله أعلم بحقيقة اسمها .

● يقول الأستاذ الدكتور سيد جبل رحمته الله [... وقد ذكر المفسرون أقوالا كثيرة في
اسمه واسم امرأته ، واسم ملك مصر وكلها أقوال لا سند لها يعتمد عليه من كتاب أو
سنة] (3) .

والظاهر المتبادر لنا من كلام العزيز لزوجته ومن سياق القصة أنهما قد حرما من نعمة
الولد ، ولا يعني هذا أن العزيز كان عقيما فهذا قول لا يدل عليه دليل والله أعلم بحقيقته ،
ولقد اشترى العزيز يوسف وتوسم فيه الخير والصلاح ، وأمر زوجته أن تكون به محسنة
كريمة قال تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ ﴾ (4) .
المثوى : مكان الثوى والإقامة والمبيت ، ﴿ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ ﴾ : أي أكرمي منزله
ومقامه بالقيام على أموره والاهتمام بشئونه .

● قال صاحب الكشاف : ﴿ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ ﴾ أي اجعلي منزله ومقامه عندنا
كريما ، حسنا مرضيا بدليل قوله ﴿ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ ﴾ والمراد تفقّديه بالإحسان

(1) النكت والعيون للماوردي 292/2 ويراجع جامع البيان للطبري 175/12 وتفسير القرآن العظيم لابن كثير 473/2
وحاشية الجمل 443/2 .

(2) قصص الأنبياء لابن كثير ص 233 .

(3) تفسير سورة يوسف تأليف الدكتور السيد أحمد خليل جبل ص 56 ط سنة 1409 هـ ط / الزقازيق .

(4) سورة يوسف : 21 .

وتعهديه بحسن الملكة حتى تكون نفسه طيبة في صحبتنا ساكنة في كنفنا [(1)] .

● وفي تفسير المنار : [وقد تفرس هذا الوزير الكبير في يوسف أصدق فراسة ، إذ أوصى امرأته بإكرام مثواه ، والمثوى مصدر واسم مكان من ثوى بالمكان يثوي - كرمى يرمي - ثواء ، إذا أقام ، فتضمنت هذه الوصية إكرامه وحسن معاملته في كل ما يختص بإقامته بحيث يكون كواحد منهم ولا يكون كالعبيد والخدم] (2) .

ويقول صاحب الظلال : [والمثوى مكان الثوى والمبيت والإقامة والمقصود بإكرام مثواه إكرامه ، ولكن التعبير أعمق ، لأنه يجعل الإكرام لا لشخصه فحسب ، ولكن لمكان إقامته ... وهي مبالغة في الإكرام . في مقابل مثواه في الحب وما حوله من مخاوف وآلام] (3) .

﴿ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَّا أَوْ نَنْجِدَهُمُ وَلَدًا ﴾ (4) .

بين سر اهتمامه بهذا الغلام ، الذي يتوسم فيه الخير والصلاح فقال كما أخبر القرآن ﴿ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَّا ﴾ بالقيام على بعض شئوننا الخاصة ، أو شئون الدولة العامة .

وفي مجمع البيان للطبرسي : [﴿ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَّا ﴾ عسى أن نبيعه فربح على ثمنه] (5) . وهذا رأي غير مقبول ، والصواب ما ذكرناه أولاً .

﴿ أَوْ نَنْجِدَهُمُ وَلَدًا ﴾ فتقرّ به عيوننا وتشرح له صدورنا ويكون لنا عوضاً وسلواناً عما حرمانا منه .

قال القرطبي [.... وقال عبد الله بن مسعود : (أحسن الناس فراسة ثلاثة العزيز حين تفرس في يوسف فقال : ﴿ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَّا أَوْ نَنْجِدَهُمُ وَلَدًا ﴾) وبنت شعيب حين قالت لأبيها في موسى : ﴿ يَتَابَتِ اسْتَشَجْرَةٌ إِنْ خَيْرٍ مِّنْ اسْتَجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ ﴾ (6) وأبو بكر حين استخلف عمر] (7) .

(1) الكشف للزمخشري 454/2 .

(2) تفسير المنار 224/6 ، 225 ، ويراجع المصباح المنير مادة (ث و ي) 42/1 .

(3) في ظلال القرآن 1978/4 .

(4) سورة يوسف : 21 .

(5) مجمع البيان للطبرسي 338/5 .

(6) سورة القصص : 26 .

(7) ورد هذا الأثر في جامع البيان للطبرسي 175/12 وتفسير القرآن العظيم لابن كثير 473/2 وفي المصنف لابن أبي شيبة برقم 1894 ك المغازي 574/14 - والحاكم في المستدرک 345/2 وصححه ووافقه الذهبي .

قال ابن العربي : عجا للمفسرين في اتفاقهم على جلب هذا الخبر ، والفراسة هي علم غريب على ما يأتي بيانه في سورة الحجر ⁽¹⁾ وليس كذلك فيما نقلوه ؛ لأن الصديق إنما ولى عمر بالتجربة في الأعمال والمواظبة على الصحبة وطولها والاطلاع على مشاهد منه من العلم والمنة وليس ذلك من طريق الفراسة وأما بنت شعيب فكانت منها العلامة البينة على ما يأتي بيانه في القصص ، وأما أمر العزيز فيمكن أن يجعل فراسة لأنه لم يكن معه علامة ظاهرة ؟ والله أعلم [⁽²⁾] .

﴿ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ ﴾ ⁽³⁾ .

أي كما أنعمنا على يوسف بالنجاة من البئر، وعطف قلب العزيز عليه (مكننا له في الأرض) .
قال صاحب الكشاف : [والكاف منصوب تقديره ومثل ذلك الإنجاء والعطف مكننا له في الأرض أي كما أنجينا عطفنا عليه العزيز كذلك مكننا له في الأرض وجعلناه ملكا يتصرف فيها بأمره ونهيه] ⁽⁴⁾ .

(1) يراجع الجامع لأحكام القرآن القرطبي 42/10 ويراجع أحكام القرآن لابن العربي 1131/3 حيث يقول ابن العربي في تفسيره لقوله تعالى : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّمُتَوَكِّلِينَ ﴾ التوسم : تفعل من الوسم وهو العلامة التي يستدل بها على مطلوب غيرها وهي الفراسة أيضا ، يقال توسمت وتفرست ، ويكون ذلك بجودة القريحة وحدة الخاطر وصفاء الفكر .

(2) تفسير القرطبي 160/9 وأحكام القرآن لابن العربي 1080/3 - والأصل في علم الفراسة قول الله ﷻ في سياق الحديث عن عاقبة قوم لوط ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّمُتَوَكِّلِينَ ﴾ الحجر 75 ، أي للمتفرسين وقيل للناظرين وقيل للمعتبرين وقيل للمتفكرين ولا تنافي بين هذه الأقوال ؛ لأن النظر يدعو إلى الفكر والفكر يدعو إلى الاعتبار والاعتبار يؤدي إلى صفاء الذهن ورجاحة العقل ورهافة الحس وكل ذلك يؤدي إلى وجود ملكة الفراسة ، وفي مدارج السالكين لابن القيم يقول [وللفراسة سببان أحدهما جودة ذهن المتفرس وحده قلبه وحسن فطنته والثاني ظهور العلامات والأدلة على المتفرس فيه فإذا اجتمع السببان لم تكد تخطئ للبعد فراسة وإذا انتفيا لم تكد تصح له فراسة وإذا قوي أحدهما وضعف الآخر كانت فراسته بين بين] مدارج السالكين لابن القيم 509/2 ط دار الحديث بالقاهرة بدون تاريخ - ويراجع تهذيب مدارج السالكين 493 هذب عبد المنعم صالح العلي العزي ط دولة الإمارات العربية المتحدة ، ويراجع تفسير القرطبي 42/10 : 44 .

(3) سورة يوسف : 21 .

(4) الكشاف للزمخشري 454/2 ويراجع مجمع البيان للطبرسي 338/5 وغرائب القرآن للنيسابوري 94/12 ، 95 ومفاتيح الغيب 112/18 ويراجع ما ذكر الألويسي في روح المعاني 207/12 - وما ذكره صاحب التحرير والتنوير 246/12 ، 247 وما أورده الصابوني في كتابه قيس من نور القرآن الكريم 120/5 وهو دراسة تحليلية موسعة بأهداف ومقاصد السور الكريمة ط دار القلم سوريا ط 1 سنة 1409 هـ سنة 1988 م .

ويقول الأستاذ عبد الحميد طهماز (1) [وقد جرت العادة أن يهان الرقيق ولا يكرم ، ولكن الله تعالى هياً ليوسف عليه السلام أن يعيش مكرماً ومعزواً في أرفع بيوت مصر وأعلاها مما يدل على عنايته تعالى ورعايته له في محنته وغرته ورقه وحرمانه من أبيه وأهله ، ولهذا قال جل وعلا : ﴿ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ ﴾ أي جعلنا له مكاناً كريماً في أرض مصر حتى أمر عزيز مصر - وهو الرجل الثاني في الحكم - امرأته دون سائر حاشيته بالعناية بيوسف وإكرام مثواه وإقامته] (2) .

● وهكذا كانت إقامة يوسف في بيت العزيز بداية الطريق إلى التمكين له في أرض مصر والتمكين دائماً تسبقه محن وابتلاءات وهذا ما حدث ليوسف عليه السلام .

﴿ وَتَعَلَّمُوا مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ ﴾ (3) .

تأويل الأحاديث أي فهم الرؤيا وتعبيرها وهو علم لدني ، لا يطلع عليه إلا الخواص من العلماء العاملين المخلصين ، أصحاب العقول النيرة والنفوس الزكية الطاهرة والقلوب النقية المبصرة ، ولقد أكرم المولى عليه السلام عبده ونبيه يوسف عليه السلام بمعرفة هذا العلم .

﴿ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ ﴾ لا يقع في ملكه عليه السلام إلا ما يريد به فهو سبحانه المقدر وهو المدير قال تعالى : ﴿ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ (4) وقال سبحانه ﴿ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ (5) وقال تعالى : ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ (6) .

وصدق الشاعر حين يقول :

لا تجزعنّ فبعد العسر تيسيرُ	وكل شيء له وقت وتقديرُ
وللمقدر في أحوالنا نظرٌ	وفوق تدبيرنا له تدبيرُ
سيكون الذي قضي	سخط العبد أم رضي

(1) هو عبد الحميد طهماز مدرس الشريعة في ثانويات حماة له مؤلفات عديدة منها سلسلة من موضوعات للسور القرآنية ، ومن مؤلفاته : الصحيح أن كل ما في البخاري صحيح - وله دراسة حول موقف الشريعة الإسلامية من التلقيح الصناعي ، (أطفال الأنابيب) معجم المؤلفين السوريين ص 321 .

(2) الوحي والنبوة والعلم في سورة يوسف ص 40 تأليف عبد الحميد طهماز ط دار القلم سوريا .

(3) سورة يوسف : 21 .

(4) سورة التكوير : 29 .

(5) سورة الإنسان : 30 .

(6) سورة يس : 82 .

فَدَعَ الِهَمَّ يَا فَتَى كُلِّ هَمِّ سَيْنَقِضِي

والمولى ﷺ هو الغالب على أمر يوسف عليه السلام يتولاه بقدرته ويحفظه بعلمه ورحمته وعنايته ؛ لقد أضمر إخوة يوسف شرًا وأرادوا التخلص من أخيهم وحرمانه من أبيه وحرمان أبيه منه ، وأراد الله ﷻ بيوسف خيرا ، حفظه وأكرمه وعصمه وعلمه ويمكن له في الأرض وجمع له شمله ، ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿ ونحن نرى هذه الآية الإلهية ونشهد هذه الحقيقة القرآنية ونلمسها في كل مشهد من مشاهد هذه القصة ، وكثير من الناس لا يفتن لهذه الحقيقة ولا يوقن بها قال تعالى : ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أي لا يعلمون لطائف صنع الله ، ولا يدركون أن سنته ماضية وقضاه نافذ وأمره كائن .

﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ ۖ ءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۖ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ (1) .

بلغ أشده : أي بلغ زمان اشتداد جسمه وقوته ، والأشد اسم جمع لا مفرد له ، وهو وقته ، قيل ثمان عشرة سنة ، وقيل عشرون ، وقيل ثلاث وثلاثون وقيل أربعون وقيل أقصاه ثنتان وستون (2) ، وقال الألوسي هو ما بين الثلاثين والأربعين (3) ، وقال ابن كثير ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ ۖ ﴾ أي استكمل عقله وتم خلقه (4) ، وفي تفسير المنار ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ ۖ ﴾ أي رشدته وكمال قوته وشدته باستكمال نموه البدني والعقلي (5) .

● ورجح الإمام ابن حجر أن بلوغه الأشد هو سن الحلم (6) وهي عادة تكون ما بين الثانية عشرة والسادسة عشرة في الذكور وأقل من ذلك في الإناث وتختلف باختلاف العوامل الوراثية وعوامل البيئة .

● والذي أرجحه في هذا الموضوع أن معنى ﴿ بَلَغَ أَشُدَّهُ ۖ ﴾ أي وصل إلى السن التي اكتمل فيها نموه وقوي جسمه واستوت خلقته ونما عقله ، ولم يرد في تحديد هذه السن نص ، لذا فإننا نفوض علمها إلى الله تعالى .

وقوله تعالى : ﴿ ءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾ الحكم هو العلم النافع الذي يصحبه عمل ،

(1) سورة يوسف : 22 .

(2) يراجع الكشاف للزمخشري 454/2 .

(3) روح المعاني للألوسي 209/12 ويراجع النكت والعيون للماوردي 293/2 .

(4) تفسير القرآن العظيم لابن كثير 473/2 .

(5) تفسير المنار 226/12 .

(6) فتح الباري 209/8 .

والحكم هو الفهم والاستيعاب والقدرة على التصرف في الأمور ومواجهة الصعاب ،
والحكم أيضا هو الفصل بين الناس وتدير أمورهم ، والحكم هو الملكة التي تعين على
ذلك ، والحكم أيضا هو النبوة وثمراتها (1) .

ولقد اختلف المفسرون في المراد بالحكم في هذه الآية ، وتعددت آراؤهم وفيما يلي
نستعرض بعضا منها ثم نعقب عليها :

● قال صاحب الكشاف : [﴿ حُكْمًا ﴾] أي حكمة وهو العلم بالعمل واجتناب ما
يُجْهَلُ فيه وقيل حكما بين الناس وفقها [(2)] .

وقال الإمام ابن كثير في تفسيره : [﴿ ءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾] يعني النبوة ، أنه حباه
بها بين أولئك الأقوام [(3)] .

وقال الإمام النيسابوري [... ﴿ ءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾] والحكم هو الحكمة العملية
والعلم هو الحكمة النظرية ، وإنما قدمت العملية ؛ لأن أصحاب الرياضات والمجاهدات
يصلون أولا إلى الحكمة العملية ثم إلى العلم اللدني ، بخلاف أصحاب الأنكار
والأنظار، والأول هو طريقة يوسف لأنه صبر على البلاء والمحن ففتح عليه أبواب
المكاشفات ، وقيل الحكم النبوة ؛ لأن النبي حاكم على الخلق ، والعلم علم الدين ،
وقيل الحكم صيرورة النفس المطمئنة حاكمة على النفس الأمارة قاهرة لها ... [(4)] .

وقال الإمام الألوسي : [﴿ ءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا ﴾] أي حكمة وهي في لسان الشرع العلم
النافع المؤيد بالعمل ؛ لأنه بدونه لا يعتد به ، والعمل بخلاف العلم سفه ، أو حكما بين
الناس ﴿ وَعِلْمًا ﴾ يعني علم تأويل الرؤيا ، وَخُصَّ بالذكر ؛ لأنه غير داخل فيما قبله ، أو
أفرد بالذكر لأنه مما له شأن وليوسف عليه السلام به اختصاص تام كذا قيل ، وفسر بعضهم
الحكمة بالنبوة ، والعلم بالتفقه في الدين ، وقيل الحكمة : حبس النفس عن هواها
وصونها عما لا ينبغي ، والعلم هو العلم النظري ، وقيل أراد الحكم بين الناس والعلم
بوجوه المصالح ، وعن ابن عباس أن الحكم هو النبوة والعلم الشريعة ، وتنكيرهما
للتفخيم ، أي حكما وعلما لا يكتنن كنههما ولا يقادر قدرهما [(5)] .

(1) ذكر الإمام الفيروزابادي في بصائر ذوي التمييز ستة وجوه في معنى الحكم لا تخرج عن جملة ما ذكرناه
يراجع البصائر 490/2 .

(2) الكشاف 454/2 .

(4) غرائب القرآن للنيسابوري 95/12 .

(3) تفسير القرآن العظيم 473/2 .

(5) روح المعاني للألوسي 209/12 .

وفي تفسير المنار [﴿ءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ أي وهبناه حكما إلهاميا وعقليا بما يعرض له أو عليه من النوازل والمشكلات مقرونا بالحق والصواب ، وعلمنا لدنيا وفكريا بحقائق ما يعنيه من الأمور] (1) .

ويقول صاحب الظلال : [... أوتي صحة الحكم على الأمور وأوتي علما بمصائر الأحاديث أو بتأويل الرؤيا أو بما هو أعم من العلم بالحياة وأحوالها فاللفظ عام ويشمل الكثير وكان ذلك جزاء إحسانه . في الاعتقاد والسلوك ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾] (2) .

والذي أرجحه هنا : أن الحكم هو النبوة وما يتعلق بها من فطنة ، وفهم واستيعاب وقدرة على مواجهة الصعاب ، والحكم على الأمور بعقل راجح وبصيرة نافذة ، والعلم هنا : ثمرة من ثمرات النبوة ، والتنكير في (حكما) للتعظيم وفي (علما) للتعظيم والتكثير أي علما كثيرا غزيرا نافعا ، أو للتنوع أي علما معينا هو علم تأويل الرؤيا ، وهو ثمرة من ثمرات النبوة وفي هذا دليل على أنه أوتي النبوة عند بلوغه الأشد وهو سن النضج والكمال البدني والعقلي .

● هذا ولقد ورد في بعض كتب التفسير أنه ﷺ أوتي النبوة وهو في البئر واستدل القائلون بهذا الرأي بقوله تعالى : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ (3) ووجه استدلالهم أنه أوحى إليه وهو في البئر (4) .

والذي نراه أن هذه الآية السابقة لا تدل على حقيقة الوحي الشرعي ، وإنما تدل على الوحي بمعناه اللغوي وهو مطلق الإعلام ، وقد يكون هنا بالإلهام أو بالمنام وهو في البئر ، لأن الوحي هنا كالوحي لأم موسى ﷺ وهي ليست نبية ، وسيأتي لهذا مزيد بيان إن شاء الله عند الحديث عن أم موسى ﷺ وعند الحديث عن مريم بنت عمران ﷺ .

﴿ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ .

أي ومثل ذلك الجزاء نجزي المحسنين على قدر إحسانهم ، والإحسان مقام رفيع ودرجة عالية من الدرجات الإيمانية ، وفي حديث جبريل ﷺ لما سأل رسول الله ﷺ

(2) في ظلال القرآن 4/1979 .

(1) تفسير المنار 12/226 .

(3) سورة يوسف : 15 .

(4) ورجح الرازي هذا القول كما رجحه الإمام القرطبي وغيرهما - يراجع مفاتيح الغيب للرازي 9/18 والجامع

لأحكام القرآن للقرطبي 9/142 .

عن الإحسان قال له : « أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك » (1) .
 ومن هذه الآية الكريمة ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ ۖ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾
 يتبين لنا أن الحكم والعلم نعم إلهية يختص بها المولى عليه السلام من يشاء من عباده ، وأن
 الإحسان هو مفتاح الفتوحات ومسلك النفحات ، ولقد جاءت هذه الآية قبل آية
 المرادة مباشرة لإبعاد كل شبهة قد تثار حوله عليه السلام ولتنزيهه عن كل ما لا يليق بمقام
 النبوة وفي مجيء هذه الآية في هذا الموضع أيضا - إشارة إلى أن هذه الصفات من
 الحكم والعلم والإحسان صفات طيبة لا تثمر إلا الخير والبر والعفاف والطهر .

(1) رواه الإمام البخاري في صحيحه بسنده من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه ك / الإيمان ب / سؤال جبريل
 النبي عليه السلام عن الإيمان والإسلام والإحسان حديث 50 [فتح الباري 140/1] ورواه الإمام مسلم في صحيحه
 عنه وأول الحديث بينما نحن جلوس عند رسول الله عليه السلام إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب ... الحديث
 صحيح مسلم كتاب الإيمان باب تعريف الإسلام والإيمان حديث 8 - صحيح مسلم بشرح النووي 157/1 .

المبحث الثاني

مراودة امرأة العزيز ليوسف عليه السلام وعصمته

- معنى المراودة وكيف تمت ؟ وموقف يوسف الصديق عليه السلام منها .
- تفسير الهم ومعنى البرهان .
- شهادة الجميع ببراءة يوسف عليه السلام وعفته .
- امرأة العزيز تبادر باتهام يوسف عليه السلام - كذبا وزورا - حين فوجئت بالعزيز عند الباب .
- يوسف عليه السلام يدافع عن نفسه .
- الشاهد يحسم القضية . وموقف العزيز .

مراودة امرأة العزيز ليوسف عليه السلام وعصمته

● معنى المراودة وكيف تمت ؟ وموقف يوسف الصديق عليه السلام منها :

قال تعالى في سورة يوسف : ﴿ وَرَوَدَتْهُ الْمَتَىٰ هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَعَلَّقَتْ الْأَتْرَابَ وَقَالَتْ لَيْسَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنَّ رَجُلًا بَرَّهِنَّ رَبِّيَ كَذَلِكَ لِنَصَّرَفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴿١٣﴾ وَأَسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَالْفِيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٤﴾ قَالَ هِيَ رَوَدْتَنِي عَنْ نَفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿١٥﴾ وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٦﴾ فَلَمَّا رَأَىٰ قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿١٧﴾ يُوسُفُ أَعْرَضَ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرَ لِذُنُوبِكُمْ إِنَّكَ كُنْتَ مِنَ الْخَاطِئِينَ ﴿١٨﴾ .

- كلمة في السياق :

تبين لنا الآيات الكريمة : ما حدث من امرأة العزيز ، التي فتنت بجمال يوسف عليه السلام ، وحاولت بشتى الطرق أن تستميله وتفتنه ، كما تبين لنا موقف الصديق يوسف عليه السلام تلك المراودة ، وتصور لنا هذه المشاهد تصويرا حيًا يدل على روعة النظم ورفقته وجمال الأسلوب ورقته وحسن التعبير ودقته .

وفيما يلي نتناول الآيات الكريمة بالتفسير والبيان فنقول والله المستعان :

قوله تعالى : ﴿ وَرَوَدَتْهُ الْمَتَىٰ هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ ﴾ .

● المراودة : أصلها من (رود) .

وعن هذه المادة ورد في لسان العرب : [الرود والرائد : الذي يرسل في التماس النجعة وطلب الكلاء والجمع : رواد ، مثل زائد وزواد .

وامرأة راد ورواد ورؤد : طوافة في بيوت جاراتها ، وقد رادت ترود رودا ورودانا ورؤودا فهي رادة : إذا أكثر الاختلاف إلى بيوت جاراتها ، والرادة من النساء التي ترود وتطوف ، وأراد الشيء شاءه وأحبه ... والرود والرؤد : المهلة في الشيء ، وقالوا : رويدا أي مهلا ، والإرواد الإمهال .. وراوده على أن يفعل كذا طلب منه وراود فلان

جاريته عن نفسها وراودته هي عن نفسه ، ومنه قوله تعالى : ﴿ تَرُودُ فَئِنَّهَا عَن نَّفْسِهِ ۗ ۙ ﴾ .
وريح رود لينة الهبوب ، وريح رادة إذا كانت هوجاء تجيء وتذهب ... [(1)] .

وفي المصباح المنير : [أراد الرجل كذا إرادة : أي طلب واختار واسم المفعول : مراد ، وراودته على الأمر مراودة من باب قاتل : طلبت منه فعله ، وكأن في المراودة معنى المخادعة ؛ لأن الطالب يتلطف في طلبه لتلطف المخادع ويحرص حرصه ...] (2) .

وفي معجم مقاييس اللغة (رود) : [الرء والواو والذال : يدل على مجيء وذهاب ، تقول راودته على أن يفعل كذا : إذا أردته على فعله ، والرود : فعل الرائد ، يقال بعثنا رائدا يروء الكلاء أي ينظر ويطلب وراودت المرأة ترود : إذا اختلفت إلى بيوت جاراتها] (3) .

وفي المفردات للراغب : [(الرود) التردد في طلب الشيء يرفق ... والمراودة : أن تنازع غيرك في الإرادة ، فتريد غير ما يريد أو ترود غير ما يروء ، وراودت فلانا عن كذا ، قال تعالى ﴿ قَالَ هِيَ رَاودَتْنِي عَن نَّفْسِي ۗ ۙ ﴾ (4) ، وقال تعالى : ﴿ أَمْرَأْتُ الْعَزِيزِ تَرُودُ فَئِنَّهَا عَن نَّفْسِهِ ۗ ۙ ﴾ (5) أي تصرفه عن رأيه وعلى ذلك قوله تعالى مخبرا عن كلام المرأة أمام النسوة : ﴿ وَلَقَدْ رَاودْنَاهُ عَن نَّفْسِهِ ۗ ۙ ﴾ (6) وقوله تعالى : ﴿ قَالُوا سَرَوُدُ عَنهُ أَبَاهُ ۗ ۙ ﴾ (7) [(8)] .

وفي بصائر ذوي التمييز : [الرود : التردد في طلب الشيء يرفق ، وراودت المرأة في مشيتها ترود رودانا : إذا تمهلت فيها ، .. والمراودة : أن تنازع غيرك في الإرادة فتريد غير ما يريده ... وقوله تعالى : ﴿ تَرُودُ فَئِنَّهَا عَن نَّفْسِهِ ۗ ۙ ﴾ أي تصرفه عن نفسه] (9) .

ومما سبق يتضح لنا : أن المراودة طلب الفعل يرفق ولطف ومخادعة ، وكثرة المجيء والذهاب والإقبال والإدبار ، وراودها عن نفسها طلب منها الجماع وراودته عن نفسه طلبت منه ذلك .

(1) لسان العرب 1772/3 : 1774 باختصار مادة (رود) .

(2) المصباح المنير 112/1 مادة رود .

(3) معجم مقاييس اللغة لأبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا ت 395 هـ 457/2 ، 458 مادة رود .
ط البايي الحلبي سنة 1970 م ط ثانية .

(4) سورة يوسف : 26 .

(5) سورة يوسف : 30 .

(6) سورة يوسف : 61 .

(7) سورة يوسف : 32 .

(8) المفردات للراغب 206 ، 207 باختصار مادة (رود) .

(9) بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز بصيرة في الرود - 110/3 .

يقول ابن عطية في تفسيره : [المروادة : الملاحظة في السوق إلى غرض ، وأكثر استعمال هذه اللفظة إنما هو في هذا المعنى الذي يكون بين الرجال والنساء ويشبه أن يكون من (راد ، يرود) إذا تقدم لاختبار الأرض والمراعي ؛ فكأن المرواد يختبر بأقواله وتلفظه حال المرواد من الإجابة أو الامتناع] (1) .

والذي يظهر لنا حين نتأمل في قوله تعالى : ﴿ وَرَوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ... ﴾ أن المرأة قامت بمحاولات كثيرة ولجأت إلى حيل متنوعة لإغراء يوسف عليه السلام والإيقاع به في حبائلها ، من هذه المحاولات والحيل - على سبيل المثال - : إبداء المفاتن وإبراز المحاسن والتميع والملاطفة في الكلام والتمايل في المشي ، إلى غير ذلك من الأفعال والأقوال التي تهيج الغرائز الكامنة وتحرك الشهوات الساكنة ، ولا بد أن هذه المرحلة قد استغرقت أمدا طويلا زاد المرأة شوقا وهياما ، ورغبة وإصرارا وإقداما ، أما يوسف عليه السلام : فهو العفيف الطاهر ، التقى الصابر ، الثابت الصامد ، أمام أمواج الفتن وأعاصير الحن ومن هنا يظهر لنا سر التعبير القرآني ب ﴿ وَرَوَدَتْهُ ﴾ فالمرودة على وزن المفاعلة ، وهذه الصيغة تدل على المبالغة في هذا الأمر وكثرة تكراره .

ويمكن أن تكون المفاعلة هنا من نحو ملاحظة المدين ومطالبة الدائن ومداواة الطبيب ونظائرها مما يكون من أحد الجانبين الفعل ومن الآخر سببه ، فإن هذه الأفعال وإن كانت صادرة من أحد الجانبين لكن لما كانت أسبابها صادرة من الجانب الآخر جعلت كأنها صادرة عنهما ؛ على اعتبار أن سبب الشيء يقوم مقامه ، ويطلق عليه اسمه ، كما في قوله تعالى : ﴿ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ ﴾ (2) ، ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ ﴾ (3) فأقام الفعل مقام إرادته ، أي إذا أردتم القيام إلى الصلاة ، وإذا أردت قراءة القرآن ، ومماثلة الغريم لأجل المطالبة التي هي من جانب الدائن ومطالبة الدائن لأجل المماثلة التي هي من جانب الغريم ، ومداواة الطبيب للمرض الذي هو من جانب المريض ، وكذلك مروادة امرأة العزيز ليوسف بسبب حسنه وجماله ، وقيل صيغة المفاعلة هنا في ﴿ وَرَوَدَتْهُ ﴾ بمعنى أنها طلبت الفعل وطلب يوسف عليه السلام الترك فهناك منازعة بين طلب الفعل وتركه (4) .

(1) المحرر الوجيز 232/3 ط دار الكتب العلمية .

(2) سورة المائدة : 6 .

(3) سورة النحل : 98 .

(4) يراجع في هذا المقام : إرشاد العقل السليم 92/3 ، 93 وحاشية الجمل على الجلالين 444/2 وحاشية الشهاب

على البيضاوي 167/5 .

وعن سر التعبير القرآني بالاسم الموصول ﴿الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا﴾ دون ذكر الاسم الظاهر .

يقول أبو السعود : [والعدول عن التصريح باسمها : سترها عليها أو للاستهجان بذكره ، وإيراد الموصول لتقرير المرادة ، فإن كونه في بيتها مما يدعو إلى ذلك ، قيل لواحدة ما حملك على ما أنت عليه مما لا خير فيه ؟ قالت قرب الوساد وطول السواد - أي الليل - ، وإظهار كمال نزاهته ﷺ ؛ فإن عدم ميله إليها مع دوام مشاهدته لمحاسنها ، واستعصائه عليها مع كونه تحت ملكتها يناهض بكونه في أعلى معارج العفة والنزاهة] (1) .

﴿ وَعَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ﴾ .

لقد استفرغت المراة جميع أساليب التلميح ، ولم يعد أمامها لكي تصل إلى بغيتها إلا التصريح ، فقامت بتغليق الأبواب ودعت يوسف ﷺ إلى نفسها قائلة هيت لك .

وجاء التعبير القرآني بـ ﴿ وَعَلَّقَتِ ﴾ للدلالة على المبالغة في إغلاقها من جهة الإحكام في الغلق ، أو لكثرة الأبواب وفي تغليقها للأبواب دلالة واضحة على إصرارها على الفاحشة ولفتها لنظر يوسف ﷺ إلى ما تريده منه ومع ذلك فإنه ﷺ يعرض عن هذه المراة ولا يلتفت إليها ؛ علما أن تعود إلى رشدها .

لقد غلقت الأبواب بإحكام وإتقان لتخلو بيوسف ﷺ بعيدا عن أعين الرقباء ، غلقت الأبواب كلها إلا بابا واحدا هو باب الذي لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء .

وما أجمل قول الإمام القشيري في اللطائف : [ولما غلقت عليه أبواب المسكن فتح الله له باب العصمة ، فلم يضره ما أغلق بعد إكرامه بما فتح] (2) .

﴿ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ﴾ .

لجأت إلى التصريح بعد أن استفرغت جميع أساليب التلميح فقالت بعبارة سافرة ﴿ هَيْتَ لَكَ ﴾ .

و ﴿ هَيْتَ ﴾ . اسم فعل أمر بمعنى هلم وأقبل وفي قراءة ﴿ هَيْتَ لَكَ ﴾ . أي

(2) لطائف الإشارات للقشيري 177/3 .

(1) إرشاد العقل السليم لأبي السعود 93/3 .

حسنت هيأتي من أجلك (1) ولما كان عرضها وطلبها سافرا مكشوفاً كانت إجابته عليه السلام إجابة قاطعة حاسمة: ﴿ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾ .
﴿ مَعَاذَ اللَّهِ ﴾ : أعتصم وأستجير به مما تدعونني إليه (2) ، فمنه سبحانه العصمة والهداية .

﴿ إِنَّهُ رَبِّي ﴾ خلقني وأنشأني وأدبني ورعاني وأحسن إلي ورفع مكاتي فلا أعصيه أبداً ، وفي كلامه عليه السلام زجر لها وتوبيخ .
وقيل : ﴿ إِنَّهُ رَبِّي ﴾ يقصد العزيز ، أي هو سيدي ومالكي - بحسب الظاهر ، فالضمير ضمير الشأن والقصة ، وقال : ﴿ رَبِّي ﴾ على حسب زعمهم ، لأنه عليه السلام في حقيقة الأمر حر والحر لا يصير عبداً بالبيع .

وقيل ﴿ إِنَّهُ رَبِّي ﴾ يقصد العزيز الذي رباه ورعاه و ﴿ أَحْسَنَ مَثْوَايَ ﴾ أكرم نزلي فلا أهينه ولا أخونه في عرضه ، وفي كلامه عليه السلام - إرشاد لها إلى وجوب رعايتها لحق زوجها الذي أكرمها وأنعم عليها وأحسن إليها ، فكيف تقابل الإحسان بالإساءة والإنعام بالخيانة والإكرام بتدنيس الفراش وفعل ما يورث العار والذل ؟ .

● يقول الإمام الرازي عن سر نظم الآية الكريمة [... هذا الترتيب في غاية الحسن ، وذلك ؛ لأن الانقياد لأمر الله تعالى وتكليفه أهم الأشياء لكثرة إنعامه وألطافه في حق العبد ، فقلوه : ﴿ مَعَاذَ اللَّهِ ﴾ إرشاد إلى أن حق الله تعالى يمنع من هذا العمل ، وأيضاً حقوق الخلق واجبة الرعاية ، فلما كان هذا الرجل قد أنعم في حقي فإنه يقبح مقابلة إنعامه وإحسانه بالإساءة ، وأيضاً صون النفس عن الضرر واجب وهذه اللذة قليلة منقضية يتبعها خزي في الدنيا وعذاب شديد في الآخرة ، واللذة القليلة إذا لزمها ضرر شديد فالعقل يقتضي تركها والاحتراز منها فقلوه : ﴿ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾ إشارة إليه فثبت أن هذه الجوابات الثلاثة مرتبة على أحسن وجوه الترتيب [(3)] .

(1) قرأ نافع وابن ذكوان عن ابن عامر ، وأبو جعفر بكسر الهاء وفتح التاء ، (هَيْتَ) وقرأ ابن كثير بفتح الهاء وضم التاء (هَيْتُ) وقرأ الباقون بفتح الهاء وفتح التاء (هَيْتَ) ، وقرأ هشام - كما روى عنه إبراهيم بن عباد - هَيْتُ لك بكسر الهاء وضم التاء أي تهيأت لك ، ومدار القراءات حول معنى واحد وهو : هلم وأقبل فلقد تهيأتُ لك - يراجع : إتحاف فضلاء البشر 2/143 ، 144 والنشر في القراءات العشر 2/293 .

(2) نصب معاذ على المصدرية ، والتقدير : أعوذ بالله معاذاً ، تقول عدت بالله عوداً وعباداً ومعاذةً ، يراجع

(3) مفاتيح الغيب للرازي 117/18 .

مجمع البيان للطبرسي 340/5 .

وقال أبو حيان الأندلسي في البحر المحيط [والضمير في ﴿ إِنَّهُمْ رَبِّي ﴾ الأصح أن يعود إلى الله تعالى ، أي إن الله ربي أحسن مثواى إذ نجاني من الجب وأقامني في أحسن مقام ...] (1) .

● والذي أرجحه هو : أن الضمير عائد إلى لفظ الجلالة ، كما ذكر ذلك أبو حيان وغيره وذلك ؛ لأن مراعاة يوسف عليه السلام لحقوق الله تعالى وصونه لنعمة : يتضمن مراعاة حقوق العباد ، وقوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾ : الذين يسلبون حقوق الآخرين ، ويفرطون في العهود ، ويخونون الأمانات ويتهكون الحرمات .

(1) البحر المحيط لأبي حيان 294/5 ورجح هذا الرأي الطباطبائي في تفسيره - الميزان 125/11 .

تفسير الهم ومعنى البرهان

قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِءُ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِءُ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴾ (1) .

تواصل الآيات الكريمة الحديث عن عصمة يوسف عليه السلام وعفته وثباته أمام الإغراءات والمساومات ، حيث امتنع عن تلبية رغبة امرأة العزيز رغم إلحاحها واستمرارها في إبداء المحاسن والمفاتن ودعوتها يوسف بصريح العبارة بعد أن غلقت الأبواب وهيأت الدواعي والأسباب ولبست أجمل الثياب ، وترينت بأحلى الحلبي .

ومن هنا فإن هم المرأة بيوسف هم واضح معروف ، وهو : الهم بالفاحشة .

أما همه عليه السلام فلقد اختلف المفسرون في المراد به :

فهناك من نفى وقوع الهم مطلقا من يوسف عليه السلام ، وهناك من فسره بما لا يتنافى مع عصمته عليه السلام ، وهناك من اعتمد في تفسيره على الإسرائيليات التي تقدر في عصمة الأنبياء ؛ فادعوا على يوسف أنه هم بمخالطة المرأة كما همت به ، وأن البرهان هو الذي عصمه ، وفسروا البرهان بما يتوافق مع مزاعمهم .

● يقول الدكتور محمد بن محمد أبو شهبه (2) في كتابه الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير : [ومن الإسرائيليات المكذوبة التي لا توافق عقلا ولا نقلا : ما ذكره ابن جرير الطبري في تفسيره وصاحب الدر المنثور وغيرهما من المفسرين في قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِءُ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِءُ ﴾ فقد ذكروا في هم يوسف عليه السلام ما ينافي عصمة الأنبياء وما يخجل القلم من تسطيره ، لولا أن المقام مقام بيان وتحذير من الكذب على الله وعلى رسله وهو من أوجب الواجبات على أهل العلم فقد رووا عن ابن عباس (رضي الله عنهما) أنه سئل عن هم يوسف عليه السلام ما بلغ ؟ فقال حل الهميان - يعني

(1) سورة يوسف : 24 .

(2) هو محمد بن محمد بن أبي شهبه ولد في قرية منية جناح مركز دسوق في بيت عرف بالصلاح والعلم وحفظ القرآن الكريم والتحق بالأزهر ، وحصل على الدكتوراة سنة 1946 م من مؤلفاته المدخل لدراسة القرآن الكريم - الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير ، السيرة النبوية في ضوء الكتاب والسنة ، الكتب الصحاح الستة - ترجمته في كتاب / المحدثون في مصر والأزهر تأليف د . الحسيني هاشم والدكتور / أحمد عمر هاشم ص 390 ط المؤتمر العاشر لمجمع البحوث الإسلامية بالأزهر سنة 1406 هـ .

السرراويل - وجلس منها مجلس الخائن ، فصيح به يا يوسف لا تكن كالطير له ريش فإذا زنى فقد ليس له ريش ، ورووا مثل هذا عن علي عليه السلام وعن مجاهد وسعيد بن جبير ⁽¹⁾ ، ورووا أيضا في البرهان الذي رآه بأنه نودي يا يوسف أنت مكتوب في ديوان الأنبياء وتعمل عمل السفهاء ، وقيل رأى صورة أبيه يعقوب في الحائط وقيل في سقف الحجر ، وأنه رآه عاضا على إبهامه ، وأنه لم يتعظ بالنداء ، حتى رأى أباه على هذه الحال ، بل أسرف واضعوا هذه الإسرائيليات الباطلة فزعموا أنه لم يرهو من رؤية صورة أبيه عاضا على أصابعه ، حتى ضربه أبوه فخرجت الشهوة من أنامله ... وزعموا أيضا في البرهان فيما رووه عن ابن عباس أنه رأى ثلاث آيات من كتاب الله قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ۖ كِرَامًا كَنِينِينَ ﴾ ⁽²⁾ وقوله تعالى : ﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ ⁽³⁾ وقوله تعالى : ﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ ⁽⁴⁾ ، وقيل رأى مكتوبا : ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا ﴾ ⁽⁵⁾ .

ويعلق الدكتور أبو شهبه على هذه الإسرائيليات التي لا توافق العقل ولا النقل ولا تتناسب مع عصمة الأنبياء ، فيقول : [ومن البديهي أن هذه الآيات بهذا اللفظ العربي لم تنزل على أحد قبل نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وإن كان الذين ادعوا هذا لا يعدمون جوابا بأن يقولوا رأى ما يدل على معاني هذه الآيات بلغتهم التي يعرفونها ، بل قيل في البرهان إنه رأى تمثال الملك ... وكل ذلك مرجعه إلى أخبار بني إسرائيل وأكاذيبهم التي افتروها على الله وعلى رسله وقد وصلت إلينا عن طريق كعب الأبحار ووهب بن منبه وغيرهما ...] ⁽⁶⁾ .

(1) هو سعيد بن جبير أبو عبد الله الأسدي بالولاء الكوفي ، التابعي عالم بالحديث والتفسير والقراءات والفقهاء قتله الحجاج بسبب ثباته على كلمة الحق ، وذلك سنة 95 هـ ، تراجع ترجمته في تقريب التهذيب لابن حجر 234 - وشذرات الذهب لابن العماد 108/1 .

(2) سورة الأنفطار : 10 ، 11 .

(3) سورة يونس : 61 .

(4) سورة الرعد : 33 .

(5) سورة الإسراء : 32 .

(6) الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير د . محمد بن محمد أبو شهبه ص 220 ، 221 بتصرف . ويراجع تفسير الطبري 108/12 والدر المنثور للسيوطي 13/4 ولقد انتقد كثير من المفسرين هذا الرأي وأكدوا أنه من الإسرائيليات التي لا يقبلها العقل ولا النقل ومن هؤلاء المفسرين أبو السعود الذي قال في تفسيره [.. وما =

● أما الذين نفوا وقوع الهم من يوسف عليه السلام ، فلقد ذكروا أن في الآية تقدما وتأخيرا ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهٖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنَّ رَّبَّا بُرْهَنَ رَبِّيَهٗ ﴾ ؛ حيث تقدم جواب ﴿ لَوْلَا ﴾ الشرطية عليها ، وتقدير الكلام لولا أن رأى برهان ربه لهم بها ، ولكنه رأى البرهان فلم يهم بها وقيل في الكلام حذف ، والمحذوف هو جواب لولا ، وقد دل عليه ما سبقه والتقدير ﴿ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنَّ رَّبَّا بُرْهَنَ رَبِّيَهٗ ﴾ لهم بها ، وعلى هذا فإن قوله تعالى : ﴿ وَهَمَّ بِهَا ﴾ دليل الجواب ، أما الجواب فإنه محذوف كما ذكرنا .

يقول أبو حيان في البحر المحيط : [.... والذي أختره أن يوسف عليه السلام لم يقع منه هم البتة بل هو منفي لوجود رؤية البرهان ، كما تقول : لقد قارفت لولا أن عصمك الله ، ولا نقول إن جواب لولا متقدم عليها وإن كان لا يقوم دليل على امتناع ذلك ، بل صريح أدوات الشرط العاملة مختلف في جواز تقديم أجوبتها عليها وقد ذهب إلى ذلك

= قيل إنه حل الهميان وجلس مجلس الختان وإنما هي خرافات وأباطيل تمجها الآذان وتردها العقول والأذهان [إرشاد العقل السليم 63/2 - ومن المفسرين أيضا أبو حيان الذي قال عن هذه الإسرائيليات [.. نسب بعضهم ليوسف عليه السلام ما لا يجوز نسبته إلى أحد الفساق] . ثم قال بعد توجيه الآية توجيهها صحيحا يتناسب مع مقام العصمة] وأما أقوال السلف فاعتقد أنه لا يصح عن أحد منهم شيء من ذلك ، لأنها أقوال متكاذبة ، يناقض بعضها بعضا مع كونها فادحة في بعض فساق الملل فضلا عن المقطوع لهم بالعصمة [. يراجع البحر المحيط 290/5 - وفي غرائب القرآن للنيسابوري [.... ولو أن أوقع الزناة وأشطرهم إذا لقي ما لقي به نبي الله مما ذكروا لما بقي منه عرق ينبض وعضو يتحرك فكيف احتاج النبي إلى جميع هذه الزواجر حتى ينتهي عن إمضاء العزمة ؟] غرائب القرآن 98/12 .

وقال الثعالبي [.. ولا يصح عندي شيء مما ذكر من حل تكة ونحو ذلك) الجواهر الحسان في تفسير القرآن للثعالبي . والإمام الثعالبي هو عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبي الجزائري المالكي أبو زيد (785 - 875) هـ . مفسر فقيه متكلم صوفي من تصانيفه : الذهب الإبريز في غرائب القرآن العزيز ، والعلوم الفاخرة في النظر إلى أمور الآخرة ، وقطب العارفين ومقامات الأبرار والأصفياء والصدقيين ، وغير ذلك تراجع ترجمته في الضوء اللامع 152/4 ومعجم المؤلفين 192/5 .

أما صاحب الظلال فإنه يصف هذه الإسرائيليات بأنها تصورات أسطورية لا أساس لها من الصحة ، فهي واضحة التلفيق والاختراع . يراجع : الظلال 1981/4 ، ويراجع تفسير القرآن العظيم لابن كثير 474/2 ، 475 ، وقصص الأنبياء لابن كثير ص 235 وقصص الأنبياء للنجار ص 158 ، 159 . والتفسير الكبير للرازي 20/18 وتفسير روح المعاني للألوسي 213/12 وتفسير المنار 229/12 وعصمة الأنبياء للرازي ص 85 وما بعدها وتفسير سورة يوسف للدكتور سيد جبل ص 66 . وتفسير الميزان 122/11 وقبس من نور القرآن للصابوني 129/5 وغير ذلك من كتب التفسير .

الكوفيون ومن أعلام البصريين أبو زيد الأنصاري⁽¹⁾ وأبو العباس المبرد⁽²⁾ بل نقول إن جواب لولا محذوف لدلالة ما قبله عليه كما يقول جمهور البصريين في قول العرب أنت ظالم إن فعلت فيقدرونه إن فعلت فأنت ظالم ، ولا يدل قوله أنت ظالم على وقوع الظلم ، بل هو مثبت على تقدير وجود الفعل ، وكذلك هنا التقدير ﴿لَوْلَا أَنْ رَعَا بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾ لهم بها ، فانتفى الهم لوجود البرهان ..]⁽³⁾ ومثال هذا قوله تعالى : ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَدَرًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَّنَا عَلَيْنَا لَقَلْبُهَا﴾⁽⁴⁾ والشاهد ﴿إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَّنَا عَلَيْنَا لَقَلْبُهَا﴾ على أن في الآية تقدما وتأخيرا والتقدير: لولا أن ربطنا على قلبها إن كادت لتبدي به ، فقدم جواب لولا عليها ، أو في الآية حذف ، حذف جواب الشرط ودل عليه دليله والتقدير ﴿إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَّنَا عَلَيْنَا لَقَلْبُهَا﴾ لأبدت به . فالكلام على التقديم والتأخير أو على الحذف .

● وذكر هذا الرأي الإمام الرازي في تفسيره⁽⁵⁾ وفي كتابه عصمة الأنبياء ورجح كون جواب لولا مقدا عليها لا محذوفا وقال : [فَإِنْ قُلْتَ فَأَيُّ فَائِدَةٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿وَهُمْ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَعَا بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾ إِذَا لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ هُمْ ؟ قُلْتَ : الْفَائِدَةُ فِيهِ الْإِخْبَارُ بِأَنْ تَرَكَ الِهِمَّ بِهَا وَإِجَابَتُهَا لَمْ يَكُنْ مِنْ حَيْثُ كَانَ غَيْرَ رَاغِبٍ فِي النِّسَاءِ لِعَجْزِ ، لَكِنَّهُ تَرَكَ ذَلِكَ لِلَّهِ وَفِي اللَّهِ طَلِبًا لِثَوَابِهِ وَهَرَبًا مِنْ أَلِيمِ عِقَابِهِ]⁽⁶⁾ .

● وقال الإمام الزركشي في البرهان في حديثه عن لولا واستعمالاتها في القرآن الكريم : [... وقد قيل في قوله تعالى : ﴿وَهُمْ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَعَا بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾ : لهم بها لكنه (امتنع همه بها لوجود رؤية البرهان فلم يحصل منه هم البتة كقولك لولا زيد

(1) أبو زيد سعيد بن أوس الأنصاري ، عالم باللغة والآدب له مؤلفات كثيرة منها : (النوادر) في اللغة وكتاب (الهمة) توفي سنة 215 هـ تراجع ترجمته في تاريخ العلماء النحويين ص 224 والفهرست 81 ومعجم الأدباء 212/11 وإنباه الرواة 30/2 ، ووفيات الأعيان 378/2 وطبقات القراء لابن الجزري 305/1 وطبقات المفسرين للدوادودي 179/1 .

(2) أبو العباس المبرد : - (محمد بن يزيد) - (210 - 286 هـ) عالم بالنحو والقراءات والأدب ولد بالبصرة وذاع صيته واشتهر أمره في بغداد ، له مؤلفات عديدة منها الكامل ، والمقتضب والمدخل إلى علم سيبويه ، تراجع ترجمته في تاريخ العلماء النحويين من البصريين والكوفيين للقاضي أبي المحسن المفضل التنوخي المعري ترجمة رقم 28 ص 53 ، ومعجم الأدباء للحموي 111/19 ، وتاريخ بغداد للخطيب البغدادي 380/3 وبغية الوعاة للسيوطي 269/2 وإنباه الرواه للقطبي 241/3 .

(3) البحر المحیط لأبي حيان الأندلسي 295/5 .

(4) سورة القصص : 10 .

(6) عصمة الأنبياء للرازي ص 89 ، 90 .

(5) مفاتيح الغيب للرازي 20/18 .

لأكرمك ؛ المعنى إن الإكرام ممتنع لوجود زيد ، وبه يتخلص من الإشكال الذي يورد وهو كيف يليق به الهم ! [(1)] .

وقال الإمام الطبرسي [... يحمل الكلام على التقديم والتأخير ويكون التقدير ولقد همت به ولولا أن رأى برهان ربه لهم بها ، ولما رأى برهان ربه لم يهم بها ويجري ذلك مجرى قولهم قد كنت هلكت لولا أنني تداركتك ، وقد كنت قتلت لولا أنني خلصتك والمعنى لولا تداركي لهلكت ولولا تخليصي إياك لقتلت وإن كان لم يقع هلاك وقتل ومثله قول الشاعر :

فلا يدعني قومي ليوم كريهة
لئن لم أعجل ضربة أو أعجل (2)

وقال تعالى : ﴿ إِنَّ كَادَتْ لَسُبِّي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَّنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا ﴾ وهذا الوجه اختاره أبو مسلم [(3)] .

● وقال ابن عاشور في التحرير والتنوير [... التقدير : ﴿ لَوْلَا أَنْ رَأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ ﴾ لهم بها فقدم الجواب على شرطه للاهتمام به ، ولم يقرن الجواب باللام التي يكثر اقتران جواب لولا بها لأنه ليس لازماً ، ولأنه لما قدم على ﴿ لَوْلَا ﴾ كره اقترانه باللام قبل ذكر حرف الشرط فيحسن الوقف على قوله ﴿ وَقَدْ هَمَّتْ بِهِ ﴾ ليظهر الابتداء بجمله ﴿ وَهَمَّ بِهَا ﴾ بمعناه واضحا ، وبذلك يظهر أن يوسف عليه السلام لم يخالطه هم بامرأة العزيز ؛ لأن الله عصمه من الهم بالمعصية بما أراه من البرهان ، قال أبو حاتم : كنت أقرأ غريب القرآن على أبي عبيدة فلما وصلت إلى قوله تعالى : ﴿ وَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا ﴾ الآية ، قال أبو عبيدة : هذا على التقديم والتأخير أي تقديم الجواب وتأخير الشرط كأنه قال ولقد همت به ولولا أن رأى برهان ربه لهم بها [(4)] .

(1) البرهان في علوم القرآن للزركشي - النوع السابع والأربعون في الكلام على المفردات من الأدوات 377/4 .

(2) في هذا البيت تقديم وتأخير والتقدير لئن لم أعجل ضربة أو أعجل فلا يدعني قومي ليوم كريهة . فقدم

الجواب على شرطه . (3) مجمع البيان للطبرسي 343/5 بتصرف يسير .

(4) التحرير والتنوير لابن عاشور 252/12 ، 253 .

ويراجع النكت والعيون للماوردي 295/2 ، 296 وقد ذكر هذا الرأي ضمن ما ذكره من آراء . ويراجع أيضا :

أضواء البيان للشنقيطي 60/3 .

والشيخ الشنقيطي هو الإمام محمد الأمين الشنقيطي الحنكي ولد في مورتانيا سنة 1325 هـ ونشأ في جو يغلب عليه الطابع العلمي وحب الجهاد تعلم في بلده ثم انتقل إلى المدينة المنورة واستقر به المقام فيها يدرس في الجامعة الإسلامية ويحاضر في المسجد النبوي حتى توفي رحمته الله ضحى يوم الخميس 17 من ذي الحجة سنة 1393 هـ =

وفي الدر المصون : [... المعنى لولا رؤيته برهان ربه لهم بها لكنه امتنع همه بها لوجود رؤية البرهان فلم يحصل منه هم البتة ، كقولك لولا زيد لأكرمتك فالمعنى أن الإكرام امتنع لوجود زيد وبهذا يتخلص من الإشكال الذي يورد هنا ...] (1) .

● وهناك اتجاه آخر لبعض المفسرين في تفسير ﴿ وَهَمَّ بِهَا ﴾ وهو إثبات الهم ، واعتباره كهم الصائم لشرب الماء فهو هم لا يعاقب صاحبه ولا يصير مذموماً ، لأنه مجرد خطرة في البال وليس بعزم على الفعل .

● قال الإمام البيضاوي : [والمراد بهمة التلذذ ميل الطبع ومنازعة الشهوة لا القصد الاختياري ، وذلك مما لا يدخل تحت التكليف بل التحقيق بالمدح والأجر الجزيل من الله تعالى من يكف نفسه عن الفعل عند قيام هذا الهم] (2) .

● وقال البغوي : [قال بعض أهل الحقائق : الهم همان ، هم ثابت ، وهو إذا كان معه عزم وعقد ورضا مثل هم امرأة العزيز ، والعبد مأخوذ به ، وهم عارض وهو الخطرة

= بمكة المكرمة من مؤلفاته : أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ودفع إيهام الاضطراب عن أي الكتاب ، وأدب البحث والمناظرة وله محاضرات كثيرة في العقيدة والفقه وأصوله . تراجع ترجمته في كتاب علماء ومفكرون عرفتهم للأستاذ محمد المجذوب 171/1 : 191 ط دار الاعتصام وتراجع ترجمته أيضا في مقدمة تفسيره للشيخ عطية محمد سالم القاضي بالمحكمة الشرعية بالمدينة - أضواء البيان 3/1 ، وما ذهب إليه الشنقيطي ذهب إليه د / حجازي في كتابه التفسير الواضح 2 - 74/11 ، وقد رجح كل من الشنقيطي ود . حجازي هذا الرأي كما رجحه الشيخ عبد الوهاب النجار في قصص الأنبياء ص 159 ورجحه أيضا الدكتور أبو شهبه في كتابه الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير ص 227 - 229 ورجحه أيضا الدكتور أحمد جمال العمري أستاذ الدراسات العربية والإسلامية بأداب الرقازيق سابقا رجحه في كتابه دراسات في التفسير الموضوعي للقصص القرآني ص 249 ط مكتبة الخانجي . ورجح هذا الرأي أيضا صاحب كتاب الوحي والنبوة والعلم في سورة يوسف / عبد الحميد طهماز يراجع ص 47 ، 48 ويراجع مجاز القرآن لأبي عبيدة 308/1 . (1) الدر المصون في علوم الكتاب المكنون للإمام شهاب الدين السمين 466/6 : 470 ط دار القلم بدمشق ط 1 سنة 1407 هـ .

والإمام السمين : هو أحمد بن يوسف بن عبد الدائم بن محمد الحلبي ، نزيل القاهرة ، المعروف بالسمين (شهاب الدين) نحوي مفسر فقيه مقرئ وأديب توفي بالقاهرة سنة 756 هـ من مؤلفاته الدر المصون ، شرح تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد لابن مالك في النحو ، شرح الشاطبية في القراءات المسمى بالعقد النضيد في شرح القصيد . تراجع ترجمته في طبقات القراء لابن الجزري 152/1 . وحسن المحاضرة للسيوطي 309/1 ومعجم المؤلفين 211/2 والدرر الكامنة لابن حجر 339/1 . وشذرات الذهب 179/6 .

(2) أثور التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي ص 312 .

وحديث النفس من غير اختيار ولا عزم ، مثل هم يوسف عليه السلام والعبد غير مأخوذ به ما لم يتكلم أو يعمل [(1)] .

- وقال أبو السعود : [إن همه بها يعني ميله إليها بمقتضى الطبيعة البشرية ميلا جبليا ، لا أنه قصدتها قصدا اختياريا ، ألا يرى إلى ما سبق من استعصامه المنبئ عن كمال كراهيته له ، ونفرته عنه ، وحكمه بعدم إفلاح الظالمين ، وهل هو إلا تسجيل باستحالة صدور الهم منه تسجيلا محكما ؟ ...] (2) .

وقال الإمام النسفي : [**﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهٖ ﴾** هم عزم **﴿ وَهَمَّ بِهَا ﴾** هم الطباع مع الامتناع قاله الحسن وقال الشيخ أبو منصور رحمته الله (3) وهم بها هم خطرة ولا منع للعبد فيما يخطر بالقلب ولا مؤاخذه عليه ولو كان همه كهمها لما مدحه الله تعالى بأنه من عباده الخالصين] (4) .

وقال القرطبي : [قال أبو نصر القشيري (5) وقال قوم : جرى من يوسف هم ، وكان ذلك الهم حركة طبع من غير تصميم للعقد على الفعل ، وما كان من هذا القبيل لا يؤاخذ به العبد وقد يخطر بقلب المرء وهو صائم شرب الماء البارد وتناول الطعام اللذيذ ، فإذا لم يأكل أو يشرب ولم يصمم عزمه على الأكل والشرب لا يؤاخذ بما هجس في النفس ، والبرهان صرفه عن هذا الهم حتى لم يصر عزمًا مصمما قلت - أي ، قال القرطبي - هذا قول حسن] (6) .

وقال الدكتور سيد جبل رحمته الله [والذي يميل إليه القلب وتطمئن له النفس ما ذهب إليه بعض المحققين من أن الهم همان هم ثابت وهو ما كان معه عزم وقصد ومضاء وهو

(1) معالم التنزيل للبغوي 272/3 . (2) إرشاد العقل السليم لأبي السعود 63/2 .

(3) هو محمد بن محمد بن محمود الماتريدي السمرقندي (أبو منصور) متكلم أصولي توفي بسمرقند 333 هـ من مؤلفاته شرح الفقه الأكبر المنسوب لأبي حنيفة ، تأويلات أهل السنة ، بيان أوهام المعتزلة ، تأويلات القرآن . معجم المؤلفين 300/11 وتفسيره مخطوط بدار الكتب ولم يطبع منه إلا قدر يسير .

(4) مدارك التنزيل للنسفي 217/2 .

(5) هو عبد الرحيم بن عبد الكريم بن هوازن القشيري الشافعي (أبو نصر) فقيه ، أصولي ، مفسر ، أديب توفي سنة 514 هـ من مؤلفاته تفسير القرآن والموضح في فروع الفقه الشافعي . تراجع ترجمته في معجم المؤلفين 207/5 وطبقات المفسرين للدواودي 298/1 .

(6) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي 167/9 ورجح هذا الرأي أيضا الزمخشري في تفسيره 456/2 والألوسي في روح المعاني 215/12 والقاسمي في محاسن التأويل 3528/9 وغيرهم .

مثل هم امرأة العزيز فالعبد مؤاخذ به ومعاقب عليه ، وهم عارض وهو الخطرة في القلب وحديث النفس من غير اختيار ولا عزم ، مثل هم يوسف فالعبد لا يؤاخذ به ما لم يتكلم أو يعمل به .

ويؤيد هذا المعنى ما رواه البخاري في صحيحه عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : فيما يرويه عن رب العزة جل وعلا : « إن الله كتب الحسنات والسيئات ثم بين ذلك فمن هم بحسنة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة ، فإن هم بها وعملها كتبها الله له عشر حسنات ، إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة ، ومن هم بسيئة ولم يعملها كتبها الله له عنده حسنة كاملة وإن هم بها فعلمها كتبها الله عليه سيئة واحدة (1) [(2) .

. وفي حديث آخر يقول صلى الله عليه وسلم : « إن الله تجاوز لأمتي عما حدثت به أنفسها ما لم تتكلم به أو تعمل به » (3) .

ويوضح الدكتور أبو جبل رحمته الله معنى البرهان فيقول : [وذلك البرهان هو ما أودعه الله تعالى في قلب يوسف من العلم بالخير والشر وعاقبة كل منهما في حياة الإنسان الدنيوية والأخروية .. وبذلك البرهان خضع ميله الطبيعي لقواه الروحية خضوعا تاما فلم يترتب عليه أثر عملي ، وبه صرف الله تعالى عنه الفحشاء والمنكر لأنه من عباده المخلصين] (4) .

● وقيل : ولقد همت به هم فعل وهم بها هم ترك ، أو همت به قبولا وإقبالا وهم بها إعراضا وإدبارا ، أو همت به هم فاحشة وهم بها هم عفة وطهارة فهناك تغاير بين الهمين ، وهذا من قبيل المشاكلة اللفظية ومثاله قوله صلى الله عليه وسلم : ﴿ وَيَمَكُرُونَ وَيَمَكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ هَمِيمٌ ﴾

(1) الحديث رواه البخاري في صحيحه عن ابن عباس رضي الله عنهما (كتاب الرقاق - باب / من هم بحسنة أو سيئة حديث 6491 - فتح الباري 331/11 ورواه الإمام مسلم في صحيحه عن ابن عباس كتاب الإيمان باب تجاوز الله تعالى عن حديث النفس صحيح مسلم بشرح النووي 150/2 .

(2) تفسير سورة يوسف ص 78 ، 79 بتصرف .

(3) الحديث رواه الإمام البخاري في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه كتاب الطلاق باب (الطلاق في الإغلاق . والإكراه . والسكران . والمجنون وأمرهما والغلط والنسيان في الطلاق والشرك وغيره) حديث 5269 - فتح الباري 300/9 ورواه الإمام مسلم في صحيحه عن أبي هريرة كتاب / الإيمان باب / تجاوز الله تعالى عن حديث النفس . (4) تفسير سورة يوسف ص 80 بتصرف .

حَيْرُ الْمَكْرِينِ ﴿١﴾ .

وقوله سبحانه : ﴿ وَحَزَّوْنَا سِتَّةً سِتَّةً مِثْلَهَا ﴾ (2) .

وقول الشاعر :

قالوا اقترح شيئا نُجِدُ لَكَ طَبْحَهُ قلتُ اطبخوا لي جبَّةً وقميصا

● قال الإمام الماوردي في تفسيره : [وقيل همها كان شهوة ، وهمه كان عفة] (3) .

● وقيل : ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ ﴾ أي بضربه أو بجذبه أو بإجباره وإكراهه على الفاحشة ﴿ وَهَمَّ بِهَا ﴾ أي بدفعها عنه ، أو بالفرار منها ، أو بضربها تأديبا لها . وزجرا .

- ولقد ذكر هذا الرأي الإمام الماوردي في تفسيره ، وفي ذلك يقول [...] ﴿ وَهَمَّ بِهَا ﴾ ليضربها حين راودته عن نفسها ولم يهجم بمواقعتها ، قاله بعض المتأخرين [(4)] .

- كما أورد هذا الرأي أيضا الإمام الطبرسي في تفسيره حيث قال [...] ولقد همت به أي بالفاحشة وهم بها أي بضربها ودفعها عن نفسه كما يقال هممت بفلان أي بضربه وإيقاع مكروهه به ، وعلى هذا فالبرهان الذي رآه هو علمه بأنه لو ضربها لأهلكه أهلها أو لادعت عليه أنه راودها عن نفسها فلما امتنعت ضربها فأراه الله البرهان وصرف عنه السوء وهو القتل أو الظن السيئ به وما يترتب عليه [(5)] .

- وذكر هذا الرأي أيضا الإمام الرازي حيث قال : [... المراد أنه عليه السلام هم بدفعها عن نفسه ومنعها عن ذلك القبيح ؛ لأن الهم هو القصد ، فوجب أن يحمل في حق كل أحد على القصد الذي يليق به ، فاللائق بالمرأة : القصد إلى تحصيل اللذة والتنعم والتمتع ، واللائق بالرسول المبعوث إلى الخلق : القصد إلى زجر العاصي عن معصيته وإلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، يقال هممت بفلان أي بدفعه وضربه] (6) .

● ووضح الرازي معنى البرهان بناء على هذا الرأي حيث قال : [إنه تعالى أعلم يوسف عليه السلام أنه لو هم بدفعها لقتلته أو لكانت تأمر الحاضرين بقتله ... كما أنه لو

(1) سورة الأنفال : 30

(2) سورة الشورى : 40

(3) النكت والعيون للماوردي 296/2 .

(4) المرجع السابق 295/2 .

(5) مجمع البيان 343/5 بتصرف .

(6) مفاتيح الغيب للرازي 121/18 بتصرف ويراجع عصمة الأنبياء ص 88 .

اشتغل بضربها فربما تعلقت به ومزقت ثوبه من قدام فيكون حجة عليه [(1)] .

● وذكر القرطبي هذا الرأي حيث قال : [... وقيل هم بها أي بضربها ودفعتها عن نفسه والبرهان كفه عن الضرب ، إذ لو ضربها لأوهم أنه قصدوا بالحرام فامتنعت فضربها] (2) .

- واختار هذا الرأي الشيخ رشيد رضا في تفسير المنار ، ويبيّن أن معنى ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ ﴾ أي ولقد أرادت أن تضربه انتقاما منه ، لأنه أذل كبرياءها وهي امرأة العزيز وحطم غرورها وهي الحسنة الفاتنة وعصاها وهي سيدته :

يقول الشيخ رشيد رضا : [... وهمه لأول وهلة بدفع صيالها (3)] : هم بأمر مشروع ، وجد مقتضيه مقترنا بالمانع منه وهو رؤيته البرهان فلم ينفذه فكان الفرق بين همها وهمه أنها أرادت الانتقام منه ؛ شفاء لغيظها من خيبتها وإهانتها لها ، فلما رأى أمانة وثوبها عليه استعد للدفاع عن نفسه وهم بها ، فكان موقفهما موقف المواثبة والاستعداد للمضاربة ، ولكنه رأى من برهان ربه وعصمته ما لم تره في مثله ، فألهمه أن الفرار من هذا الموقف هو الخير الذي تتم به حكمته سبحانه وتعالى فيما أعده له فلجأ للفرار ترجيحاً للمانع على المقتضى ، وتبعته هي مرجحة للمقتضى على المانع حتى صار جزماً ، واستبقا باب الدار ، وكان من أمرهما ما يأتي بيانه في الآية التالية ...] (4) .

- واختار هذا الرأي أيضا الدكتور محمد بكر إسماعيل أستاذ التفسير وعلوم القرآن بجامعة الأزهر .

حيث قال في كتابه قصص القرآن : [وفي قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ ، وَهَمَّ بِهَا ﴾ أقوال : أرجحها وأولاها بالقبول : هي أنها همت بضربه أو بحمله على الفاحشة ؛ قسرا وقهرا ، وهم هو بضربها أو الفرار منها فكان همها هم إقدام وكان همه هم إحجام ، والبرهان الذي رآه يوسف : نور عقلي جعله يختار الفرار من وجهها لأنه مأمون العواقب ...] (5) .

(1) مفاتيح الغيب للرازي 121/18 بتصرف ويراجع عصمة الأنبياء : ص 88 .

(2) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي 166/9 .

(3) الصيال هو الاعتداء على الغير وأصلها صال يصلح صولا وصيالة ، وصال البعير على الإبل أي وثب عليها

يقاتلها - يراجع المصباح 161/1 مادة ص و ل . (4) تفسير المنار 229/12 : 231 .

(5) قصص القرآن أ . د محمد بكر إسماعيل ص 124 ، 125 بتصرف ط مكتبة فياض بالمنصورة ودار المنار

بالقاهرة ط 1 واختار هذا الرأي أيضا أحمد عز الدين عبد الله صاحب كتاب يوسف بن يعقوب رحمته الله يراجع

ص 79 ، 80 من هذا الكتاب .

وبناء على هذا الرأي فإن تفسير البرهان هو : أنه عليه السلام علم بأنه لو ضربها وعنفها فسوف يعرض نفسه للمخاطر ؛ حيث إنها ستدعي أنه ضربها ؛ انتقاما منها وإجبارا لها على ارتكاب الفاحشة ، وقد تتعلق بشيابه فتمزقها من جهة الأمام ويكون ذلك شاهدا عليه لذلك فإنه عليه السلام قرر الفرار من ذلك المكان .

وصفوة القول فيما سبق : أن هناك اتجاهات متعددة في تفسير ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ ۖ ﴾ ، فهناك من نسب الهم ليوسف بما لا يتفق مع عصمته عليه السلام ، واستند أصحاب هذا الرأي إلى الآثار الموضوعية والإسرائيليات المكذوبة التي تقول بهم يوسف عليه السلام هم فاحشة وعزمه وإقباله على المعصية لولا وقوع البرهان ، والبرهان عندهم يتناسب مع زعمهم حيث فسروه بأنه ظهور صورة يعقوب على الجدران وهو عاض على أنامله ، وقيل ضربه يعقوب فخرجت شهوته من أنامله ، وقيل وجد مكتوبا على الحائط آيات قرآنية تحذر من الزنا ، وقيل وجد هذه الآيات مكتوبة على كف ظهرت له وغير ذلك من الأكاذيب والسخافات التي لا توافق نقلا ولا عقلا .

● والأنبيا عليهم السلام : معصومون من الكبائر ومن الصغائر التي تستوجب الخسة وتقذح في الشرف والكرامة ، ولولا عصمة يوسف عليه السلام وعفته لما امتدحه المولى عليه السلام بهذا الثناء الطيب ، ولما أنعم عليه وأحسن إليه ...

● ولقد رد جمهور المفسرين هذا الاتجاه المنحرف في تفسير الآية ، وأثبتوا عصمة يوسف عليه السلام وبيّنوا عفته وطهارته ، وإن اختلفوا بعد ذلك في توجيه الآية ، فمن العلماء المحققين من نفى وقوع الهم من يوسف عليه السلام وحمل الآية على التقديم والتأخير حيث قدم جواب لولا عليها ، وجوزوا أيضا حمل الآية على حذف جواب لولا لوجود ما يدل عليه . والتقديم والتأخير ، والحذف وجهان من وجوه اللغة العربية التي نزل بها القرآن الكريم ، ولهما شواهد كثيرة في القرآن أيضا وفي كلام العرب ، والمعنى بناء على هذا الرأي أنه عليه السلام لم يهم بها مطلقا ؛ لأنه رأى البرهان ، وهو الحجة الدالة على قبح الزنا وحرمته وسوء عاقبته .

● ومن العلماء المحققين أيضا من أثبت وجود الهم ووقوعه من يوسف عليه السلام ولكنهم فسروه بما يوافق العصمة ، حيث قالوا إنه هو الخاطر القلبي الذي لا يعاقب صاحبه ولا يذم عليه ، لأنه كميل الصائم في اليوم الصائف لشرب الماء البارد ، وفسروا البرهان بناء

على هذا الرأي بأنه عليه السلام : لولا معرفته بقبح الزنا وحرمة زناهم بها هم عزم كما همت هي به .

● ومنهم من فسر ﴿ وَهَمَّ بِهَا ﴾ أي وهم بضربها وتأديبها وزجرها ودفعها ، وفسروا البرهان بأنه علم أنه لو ضربها لكان الضرب حجة عليه لا حجة له ...

● ومنهم من فسر الهم على طريقة المشاكلة اللفظية ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا ﴾ همت به إقبالا وهم بها إعراضا ، همت بالفاحشة وهم هو بالعفة والطهارة .

● والذي نرجحه من هذه الأقوال : هو أنه عليه السلام لم يقع منه هم مطلقا وفي الآية تقديم وتأخير - قدم جواب لولا الشرطية عليها ، أو حذفت - حذف جواب الشرط لوجود ما يدل عليه - والتقديم والتأخير والحذف من أساليب اللغة العربية التي نزل بها القرآن ... ويوسف عليه السلام لم ينشغل بالمرأة ولم يفكر فيها ولو للحظة واحدة لأن انشغاله وفكره دائما في طاعة الله تعالى وفي رضاه سبحانه .

● وهذا الرأي هو الأنسب لمقام يوسف عليه السلام ومنزلته .

شهادة الجميع ببراءة يوسف عليه السلام وعفته

ولقد ثبتت براءة يوسف عليه السلام من جهات متعددة ، فلقد شهدت له المرأة ، وشهد له العزيز وشهد له النسوة ، وشهد له رجل من أهلها ، وشهد له الملك .

أما المرأة فلقد شهدت ببراءة يوسف حين قالت - كما أخبر القرآن - ﴿ قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَنِي فِيهِ وَلَقَدْ زودتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا ءَأْمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونَا مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴾ (1) وشهدت له بقولها كما أخبر القرآن ﴿ أَلْقَنَ حَصْحَصَ الْحَقِّ أَنَا زودتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ (2) وشهد له الشاهد حين قال لما رأى البينة الدالة على براءة يوسف - كما أخبر القرآن - ﴿ إِنَّهُ مِن كَذِبِكُنَّ إِنَّ كَذِبَكُنَّ عِظِيمٌ ﴾ (3) على القول أنه من كلام الشاهد وقيل إنه من كلام العزيز . وأما النسوة فلقد شهدن ببراءة يوسف عليه السلام شهادة معلنة حين قلن - كما أخبر القرآن -

(2) سورة يوسف : 51 .

(1) سورة يوسف : 32 .

(3) سورة يوسف : 28 ، 29 .

﴿ قُلْنَا حَسَنَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ ﴾ (1) ، وأما الملك فإنه قال - كما أخبر القرآن - ﴿ أَتُؤْنِفُ بِهِ أَسْتَحْلِصُهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ لَيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴾ (2) . وهكذا يشهد العزيز وامرأته والشاهد والنسوة والملك ببراءة يوسف عليه السلام .

● قوله تعالى : ﴿ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُمْ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخَلَّصِينَ ﴾ .

يشير المولى عليه السلام إلى رحمته ولطفه وعصمته ليوسف عليه السلام فيقول : ﴿ كَذَلِكَ ﴾ أي أريانه البرهان لنصرف عنه السوء والفحشاء . ﴿ السُّوءَ ﴾ الشهوة و ﴿ وَالْفَحْشَاءَ ﴾ الزنا ، وقيل السوء عقوبة الملك أو العزيز ، والفحشاء واقعة الزنا (3) .

● قال الزمخشري : [﴿ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ ﴾ خيانة العزيز ﴿ وَالْفَحْشَاءَ ﴾ الزنا ... ويجوز أن يريد بالسوء مقدمات الفاحشة من النظرة والقبلة والعناق ونحو ذلك] (4) .

● وفي حاشية الجمل : [﴿ السُّوءَ ﴾ الخيانة ، ﴿ وَالْفَحْشَاءَ ﴾ الزنا] (5) .

والمعنى : فعلنا ذلك لنصرف عن يوسف عليه السلام السوء والفحشاء ، والزنا من السوء لأنه قبيح ولأنه يجلب على صاحبه الهم والغم والخزي والعار والندامة والمهانة ، وهو أيضا من الفحشاء بل إنه من أكبر الفواحش التي نهى عنها المولى عليه السلام لما يترتب عليه من الأضرار والأخطار . قال عليه السلام : ﴿ وَلَا تَقْرُبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا ﴾ (6) .

● قال الألوسي : [ولا يخفى ما في التعبير بما في النظم الجليل دون لنصرفه عن السوء والفحشاء من الدلالة على رد ما نسب إليه والعياذ بالله تعالى] (7) .

﴿ إِنَّهُمْ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخَلَّصِينَ ﴾ .

الذين خلصت نفوسهم وقلوبهم لله عليه السلام ، فهو سبحانه غايتهم ووجهتهم لا يفكرون إلا في طاعته ولا ينشغلون إلا بما يرضيه .

قرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر ويعقوب ونافع بكسر اللام (المخلصين) وقرأ

(2) سورة يوسف : 54 .

(1) سورة يوسف : 51 .

(4) الكشاف للزمخشري 458/2 بتصرف .

(3) النكت والعيون للماوردي / 298 بتصرف .

(6) سورة الإسراء : 32 .

(5) حاشية الجمل على تفسير الجلالين 446/2 .

(7) روح المعاني للألوسي 217/12 .

عاصم وحمزة والكسائي وأبو جعفر وخلف بفتح اللام ﴿الْمُخْلِصِينَ﴾⁽¹⁾ .
 قال الزمخشري : (الْمُخْلِصِينَ) بالكسر الذين أخلصوا دينهم لله ، و ﴿ الْمُخْلِصِينَ ﴾ بالفتح الذين أخلصهم الله بطاعته بأن عصمهم [(2)] .
 أقول والمعنى الثاني لازم للأول فمن اصطفاه الله تعالى لا بد أن يكون مخلصا .
 قال الماوردي : [كان يوسف عليه السلام بهاتين الصفتين ؛ لأنه كان مخلصا في طاعة الله تعالى مستخلصا لرسالته] (3) .

وقال الإمام الرازي : (الْمُخْلِصِينَ) بكسر اللام الذين أخلصوا دينهم لله تعالى ، وبالفتح أراد الذين خلصهم الله من السوء [(4)] .

والتعبير بالجملة الاسمية لإفادة الثبوت والتأكيد فهو عليه السلام من العباد المخلصين .
 ● قال الألوسي [والتعبير بالجملة الاسمية لإفادة انتظامه عليه السلام في سلك أولئك العباد الذين هم من أول الأمر لا أنه حدث له ذلك بعد أن لم يكن ...] (5) .

● وقال صاحب الميزان : [ويظهر من الآية أن من شأن المخلصين من عباد الله أن يروا برهان ربهم ، وأن الله سبحانه يصرف كل سوء وفحشاء عنهم فلا يقتربون معصية ولا يهمون بها بما يريهم الله من برهانه ، وهذه هي العصمة الإلهية] (6) .

● استباق الباب وقد القميص

قال تعالى في سورة يوسف : ﴿ وَأَسْتَبَقَا بَابَ وَقَدَّتْ فَمِصَّهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيْدَهَا لَدَا بَابٍ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ .

ما زال السياق القرآني يواصل الحديث عن مراودة امرأة العزيز ليوسف ، وما نتج عنها من أحداث ومواقف .

(1) النشر في القراءات العشر 2/295 .
 (2) الكشف 2/458 .
 (3) النكت والعيون للماوردي 2/298 ، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي 9/170 .
 (4) مفاتيح الغيب للرازي 8/123 بتصرف .
 (5) روح المعاني للألوسي 12/217 .
 (6) الميزان للطباطبائي 12/130 .

فهذه امرأة العزيز لا تزال مستمرة في مراودتها ، سادرة ⁽¹⁾ في غيها ، منقادة لأهوائها ، ومنساقه وراء شهواتها ، ويوسف عليه السلام مستمسك بالحق ومعتمصم بالله تعالى وثابت على طريق الطهر والعفاف .

وقوله تعالى : ﴿ وَأَسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ ﴾ .

إخبار عن تطورات الأحداث ، حيث قصد يوسف الباب هربا وجرت امرأة العزيز وراءه طلبا ، فلم تنل منه إلا قد قميصه من دبر . وهنا يعرض لنا سؤال وهو كيف عبر القرآن الكريم هنا بـ ﴿ وَأَسْتَبَقَا الْبَابَ ﴾ وفي موضع سابق ﴿ وَعَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ ﴾ ؟ وللإجابة عن هذا السؤال نقول : اللام في الباب هنا لام الجنس فهي تشمل جميع الأبواب المغلقة ، التي قصدتها يوسف عليه السلام وفتحها بابا بابا حتى وصل إلى آخرها والمرأة في أثره تريد اللحاق به .

● وقال الزمخشري : [فإن قلت كيف وحد الباب ، وقد جمعه في قوله : ﴿ وَعَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ ﴾ قلت أراد الباب البراني الذي هو المخرج من الدار والمخلص من العار] ⁽²⁾ .

● وقال الألوسي : [ويحتمل أنه لم تكن تلك الأبواب المغلقة على الترتيب بابا فبابا ، بل كانت في جهات مختلفة كلها منافذ للمكان الذي كان فيه فاستبقا إلى الباب يخرج منه ، والأصل أن يقال استبقا إلى الباب ، وإنما قال استبقا : لتضمن استبقا معنى ابتدرا أو قصدا] ⁽³⁾ .

● وفي حاشية الجمل : [ووحيد الباب هنا وجمعه قبل ؛ لأن إغلاق الباب للاحتياط لا يتم إلا بإغلاق الجميع وأما هروبه منها فلا يكون إلا إلى باب واحد حتى لو تعددت أمامه لم يقصد منها أولا إلا الأول ؛ فهذا وحيد الباب هنا وجمعه ثم] ⁽⁴⁾ .

وقيل كان للغرفة نوافذ كثيرة وغلقتها حتى لا يشعر بها أحد ، ولكنه هرب إلى أقرب باب له فلحقته لتمنعه من الخروج منه ⁽⁵⁾ .

﴿ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ ﴾ .

(1) سادرة تائهة وضائعة ومتحيرة ، والسادر الذي لا يهتم بشيء ولا يبالي بما صنع يراجع اللسان 1972/3 مادة

(2) الكشاف للزمخشري 2 / 458 .

س د ر .

(4) حاشية الجمل 2/446 ، 447 .

(3) روح المعاني للألوسي 12/217 .

(5) أضواء البيان على مشابهاة القرآن للشيخ خليل ياسين 1/294 ط دار ومكتبة الهلال بيروت ط 2 سنة

القد : هو القطع وأكثر استعماله في الشق طولا ، والدبر جهة الورا والمعنى : قدت قميصه من جهة الورا طمعا في اجتذابه إليها وعدم تمكينه من الهروب .

امراة العزيز تبادر باتهام يوسف ﷺ - كذبا وزورا - حين فوجئت بالعزيز عند

الباب

قال تعالى : ﴿ وَالْفِيَا سَيِّدَهَا لَدَا أَلْبَابٍ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ .

﴿ وَالْفِيَا سَيِّدَهَا لَدَا أَلْبَابٍ ﴾ : وجدا العزيز عند الباب ، ولم يكن مجيئه في هذه الساعة متوقعا .

و ﴿ سَيِّدَهَا ﴾ بمعنى زوجها ، وعبر بالسيد عن الزوج ؛ لأنه صاحب سلطان وقوامة على زوجته ولأنه هو وحده الذي يملك الاستمتاع بها فليس من حق أحد أن يستمتع بالزوجة سوى زوجها ولم يقل - سيدهما - لأن العزيز ليس له سلطان في الحقيقة على يوسف فالحر لا يصير عبدا بالبيع ونبي الله يوسف ﷺ هو الكريم ابن الكريم ابن الكريم .

فهو أكرم وأشرف من العزيز ومن زوجته .

﴿ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ .

بادرت امراة العزيز بتبرأة نفسها واتهام يوسف ﷺ ، على حد المثل الشعبي [ضربني وبكى وسبقني واشتكى] ، وعلى حد المثل العربي - [رمتني بدائها وانسلت] (1) .

وضعت المراة نفسها في موضع المدعي ومقام القاضي وأصدرت الحكم على يوسف انتقاما منه ﷺ ؛ لأنه لم يستجب لها ، وصنعت ذلك أيضا لتبادر بالدفاع عن نفسها ، وكما يقولون : - الهجوم خير وسيلة للدفاع - .

● قال الإمام النيسابوري [.. جمعت بين غرضين : تنزيه ساحتها عند زوجها من الرية ، والغضب على يوسف وتخويله ؛ طمعا في أن يواتيها خوفا وكرها إن لم يأتها لهفا

(1) هذا المثل (رمتني بدائها وانسلت) يضرب لمن يعير غيره بعيب هو فيه .

يراجع مجمع الأمثال لأبي الفضل أحمد بن محمد بن إبراهيم الميداني 23/2 ط دار الجيل بيروت .

وطوعا ، ثم إنها لحبها يوسف راعت دقائق المحبة ؛ فذكرت السجن أولا ، ثم العذاب ؛ لأن الحب لا يريد ألم المحبوب ما أمكن وأيضا لم تصرح بذكر يوسف ، وأنه أراد بها سوءا ، بل قصدت العموم ليندرج يوسف فيه ، وفي قولها ﴿ إِلَّا أَنْ يُسَجَّنَ ﴾ إشعار بأن ذلك السجن غير دائم بخلاف قول فرعون لموسى ﴿ لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُورِينَ ﴾ (1) [(2) .

وفي تفسير المنار : [وكان قولها مكررا وخداعا لزوجها من وجوه : أولها إيهام زوجها أن يوسف قد اعتدى عليها بما يسوءه ويسوءها ، ثانيها : أنها لم تصرح بذنبه لئلا يشتد غضبه فيعاقبه بغير ما تريده ، كبيعه مثلا ، ثالثها : تهديد يوسف وإنذاره بما يعلم من خلاله أن أمره بيدها ليخضع لها ويطيعها ...] (3) .

● ويقول صاحب الميزان : [... ولم تعين الجزاء ، بل رددته بين السجن والعذاب الأليم لأن قلبها - الواله به المليء بحبه - ما كان يساعدها على التعيين ، فإن في الإيهام نوعا من الفرج إلا أن في تعبيرها بقولها ﴿ يَا هَلِكُ ﴾ نوعا من التحريض عليه وتهيجه على مؤاخذته ولم يكن ذلك إلا كيدا منها للعزيز بالتظاهر بالوجد والأسى لئلا يتفطن بواقع الأمر فيؤاخذها ، أما إذا صرفته عن نفسها المجرمة ، فإن صرفه عن مؤاخذة يوسف عليه السلام لم يكن صعبا عليها تلك الصعوبة] (4) .

ويقول صاحب الظلال : [وهنا تبدى المرأة المكتملة ، فتجد الجواب حاضرا على السؤال الذي يهتف به المنظر المريب إنها تتهم الفتى ﴿ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا ﴾ ولكنها امرأة تعشق فهي تخشى عليه ، فتشير بالعقاب المأمون ﴿ إِلَّا أَنْ يُسَجَّنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (5)] .

يوسف عليه السلام يدافع عن نفسه

احتاج يوسف عليه السلام في هذا المقام إلى أن يكشف الحقيقة ويبرئ ساحته مما ادعته المرأة ظلما وبهتاننا فقال عليه السلام كما أخبر القرآن ﴿ قَالَ هِيَ رَوَدَّتْنِي عَنْ نَفْسِي ﴾ .

يلاحظ التعبير بـ (ضمير الغيبة) دون الخطاب أو اسم الإشارة وفي ذلك مراعاة

(2) غرائب القرآن 99/12 بتصرف .

(4) تفسير الميزان للطباطبائي 141/12 .

(1) سورة الشعراء - 29 .

(3) تفسير المنار 236/12 .

(5) في ظلال القرآن 1982/4 .

لحسن الأدب ، وإشارة إلى الإعراض عنها (1) .

ويلاحظ ما في جواب يوسف ودفاعه عن نفسه من الإيجاز دون ذكر التفاصيل والمحاولات المتكررة والأساليب المتنوعة التي كانت من امرأة العزيز ، اكتفى عليه السلام بما يثبت براءته وإدانتها بكلام واضح صريح لا لبس فيه ولا غموض ، لأن الحق واضح أبلج أما الباطل فإنه غامض لجلج ، والتعبير عن الحق وإظهاره أمر يسير أما الدفاع عن الباطل فإنه يحتاج إلى تليس ، وتدويق وتنميق ، وتكلف وتعسف ، وكذب وخداع ، وتضليل وإبهام .

الشاهد يحسم القضية . وموقف العزيز

قال تعالى : ﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدٌّ مِّنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٧٦﴾ وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدٌّ مِّنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدٌّ مِّنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِّنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٧٨﴾ يُوسُفُ أَعْرَضَ عَن هَذَا وَاسْتَعْفَرَى لِدُنْيِكَ إِنَّكَ كُنْتَ مِنَ الْخَاطِئِينَ ﴿٧٩﴾ .

- اختلفت الأقوال في بيان من هو الشاهد .

● قيل كان رجلا من أهلها .

● وقيل الشاهد هو القميص ويرد هذا الرأي ظاهر النص والسياق ، لأن القميص ليس من أهلها فالقميص ليس شاهدا ولكنه دليل على براءته عليه السلام .

● وقيل كان صبيا في المهد ، أنطقه الله ﷻ بهذا الكلام واستند أصحاب هذا القول إلى حديث مروى عن رسول الله ﷺ رواه الحاكم في المستدرک قال : [حدثنا أبو الطيب محمد بن محمد الشعيري ثنا السري بن خزيمة ثنا مسلم بن إبراهيم ثنا جرير بن حازم ثنا محمد بن سيرين عن أبي هريرة ، قال : قال رسول الله ﷺ : « لم يتكلم في المهد إلا ثلاثة عيسى ابن مريم وشاهد يوسف وصاحب جريج وابن ماشطة بنت فرعون »] .

● قال الحاكم صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ، وقال الذهبي صحيح (2) .

● ولقد ذكر الشيخ ناصر الدين الألباني [هذا الحديث في سلسلة الأحاديث الضعيفة ، وأشار إليه بالضعف ، وقال العجب كيف أورده الحاكم وصححه والأعجب كيف

(1) ذكر ذلك أبو السعود في تفسيره إرشاد العقل السليم 97/3 .

(2) رواه الحاكم في المستدرک كتاب التاريخ باب ذكر عيسى ابن مريم 595/2 .

وافقه الذهبي ؛ (والسري بن خزيمة) أحد الرواة لم أجد له ترجمة وكذلك (محمد بن محمد الشعيري) لم أجد له إلا أن يكون هو الذي أورده السمعاني في الأنساب (محمد ابن جعفر بن محمد الشعيري) ⁽¹⁾ حدث عن عثمان بن صالح الخياط ، وروى عنه علي بن هارون الحرابي ولم يذكر فيه جرحا ولا تعديلا [⁽²⁾ .

ثم أشار الألباني إلى بطلان هذا الحديث من جهتين ، جهة المتن وجهة السند فقال [وهذا الحديث بهذا الإسناد باطل عندي وذلك لأمرين الأول : أنه حصر المتكلمين في المهدي في ثلاثة ثم ذكرهم عند التفصيل أربعة والثاني أن الحديث الذي رواه الإمام البخاري في صحيحه من الطريق التي عند الحاكم قال : حدثنا « مسلم بن إبراهيم بسنده » عند الحاكم تماما ⁽³⁾ إلا أنه خالفه في اللفظ . فقال لم يتكلم في المهدي إلا ثلاثة ، عيسى وكان في بني إسرائيل رجل يقال له جريج - قلت : فذكر قصته وفيها ثم أتى الغلام فقال من أبوك يا غلام ؟ فقال الراعي ، ثم قال وكانت امرأة ترضع ابنا لها من بني إسرائيل فمر بها رجل راكب ذو شارة ، فقالت اللهم اجعل ابني مثله فترك ثديها وأقبل على الراكب وقال : اللهم لا تجعلني مثله ... الحديث وأخرجه مسلم أيضا ورواه الإمام أحمد في مسنده من طريقين آخرين عن جرير به ⁽⁴⁾ .

والحديث الذي أورده الحاكم في المستدرک : أورده ابن جرير الطبري في تفسيره ⁽⁵⁾ موقوفا على ابن عباس قال ابن جرير حدثنا ابن وكيع قال حدثنا العلاء بن عبد الجبار عن حماد بن سلمة عن عطاء بن السائب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : « تكلم أربعة في المهدي » وذكرهم كما وردوا في المستدرک للحاكم ، وهذا الحديث به علتان :

(1) الأنساب للسمعاني 335/2 .

(2) سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيئ على الأمة للمحدث محمد ناصر الدين الألباني حديث 272 ، 271/2.880 .

(3) قال البخاري حدثنا مسلم بن إبراهيم حدثنا جرير بن حازم عن محمد بن سيرين عن أبي هريرة عن النبي ﷺ لم يتكلم في المهدي إلا ثلاثة وذكرهم :

الحديث كتاب الأنبياء باب 48 قول الله في سورة مريم ﴿ وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ .. ﴾ سورة مريم آية 16 حديث 3436 / فتح الباري 549/6 ورواه مسلم في صحيحه كتاب البر باب تقديم الوالدين على التطوع بالصلاة وغيرها - 104/16 ، 108 .

ورواية مسلم من طريق يزيد بن هارون عن جرير بن حازم عن محمد بن سيرين عن أبي هريرة عن النبي ﷺ .

(4) مسند الإمام أحمد 307/2 ، 308 .

(5) جامع البيان للطبري 195/12 .

● الأولى أن (عطاء بن السائب) (1) كان قد اختلط وقد روي عنه (حماد بن سلمة) قبل الاختلاط وبعده ، ولا يمكن تمييز حديثه قبل الاختلاط وبعده ؛ لذا نتوقف في تصحيحه .

● والثانية : أن (ابن وكيع) (2) كان صدوقا كما ذكر الحافظ ابن حجر إلا أنه ابتلي بوراقه فأدخل عليه ما ليس من حديثه فنصح فلم يقبل فسقط حديثه .

● وروى ابن جرير في تفسيره عن الحسن بن محمد قال : أخبرنا عفان ، قال ثنا حماد قال أخبرني عطاء بن السائب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال : تكلم أربعة وهم صغار ... وذكر فيهم شاهد يوسف (3) ، وأخرجه الحاكم في المستدرک من طريق أخرى عن عفان به وقال صحيح الإسناد ووافقه الذهبي مع أنه قال في عطاء في كتابه (المغني في الضعفاء) مختلف فيه من سمع منه قديما أي قبل الاختلاط فهو صحيح (4) ، وحماد بن سلمة قد سمع من عطاء في اختلاطه أيضا ولا يمكن تمييز ما سمعه في هذا الحال عن ما سمعه قبلها فلذا يتوقف عن تصحيح روايته عنه .

● ويقول الألباني رحمه الله : [هذا ولم أجد في حديث صحيح ما ينافي هذا الحصر الوارد في الصحيحين إلا ما في قصة غلام الأخدود ، ففيها أنه قال لأمه يا أمه : اصبري فإنك على الحق رواه أحمد في مسنده (5) من حديث صهيب مرفوعا بسند صحيح على شرط مسلم ، والقصة عند مسلم أيضا (6) ، وقد جمع بين هذا الحديث وحديث الصحيحين بأن حمل هذا على أنه لم يكن في المهدي ؛ ففي نص الحديث [حتى جاءت

(1) عطاء بن السائب بن مالك وثقه حماد بن زيد وأحمد ، وقال ابن سعد والطبراني ثقة اختلط في الآخر ، وقال العجلي : جائر الحديث إلا أنه كان يلحق بآخره ، وضعفه ابن معين وقال ابن عدي : من سمع منه بعد الاختلاط ففي أحاديثه بعض النكرة ، وقال ابن حجر في التقريب : صدوق اختلط من الخامسة : يراجع سير أعلام النبلاء 10/6 وتهذيب التهذيب 203/7 والتقريب 22/2 وتهذيب الكمال 54/13 .

(2) سفيان بن وكيع بن الجراح الكوفي ، كان صدوقا إلا أنه ابتلي بوراقه فأدخل عليه ما ليس من حديثه ، فنصح فلم يقبل فسقط حديثه ، من العاشرة . يراجع التهذيب 312/1 وتقريب التهذيب 312/1 والجرح والتعديل 231/4 . (3) تفسير الطبري 194/12 .

(4) المغني في الضعفاء للذهبي 187/2 . (5) مسند الإمام أحمد 16/6 .

(6) رواه مسلم في صحيحه عن صهيب رضي الله عنه ك الزهد والرقائق باب قصة أصحاب الأخدود والساحر والراهب والغلام حديث 3005 - صحيح مسلم بشرح النووي 130/18 .

امرأة ومعها صبي لها فتقاعست (1) أن تقع فيها فقال لها الغلام : يا أماه اصبري فإنك على الحق . والله أعلم .

ومما سبق يتضح لنا أن الذين تكلموا في المهد كما وردوا في السنة النبوية الصحيحة : ثلاثة : عيسى عليه السلام والطفل الذي نطق ببراءة جريج والطفل الذي رد على أمه وهي ترضعه ، فقال اللهم لا تجعلني مثله أي مثل الفارس الظالم ، وقال اللهم اجعلني مثلها أي مثل الفتاة الضعيفة المظلومة ، وذلك لمكانتها عند الله .

ومن هنا فإننا نرجح في مسألة شاهد يوسف أنه رجل كبير وليس طفلا في المهد ولأنه لو كان طفلا في المهد لشهد ببراءة يوسف بأسلوب مباشر .

وقد روى ابن جرير في تفسيره قال : حدثنا ابن بشار قال ثنا عبد الرحمن قال ثنا يوسف عن منصور عن مجاهد قال في تفسير قوله تعالى : ﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا ﴾ : الشاهد رجل (2) وهذا الحديث من هذا الطريق إسناده حسن ومن متابعاته الأخرى يصل إلى درجة الصحيح لغيره .

وقد روى ابن جرير أيضا بإسناد رجاله ثقات عن ابن عباس رضي الله عنهما أن الشاهد كان رجلا ذا لحية (3) .

● وقال أبو حيان في البحر المحيط : [وكونه من أهلها ليكون أوجب للحجة عليها وأوثق لبراءة يوسف وأنفى للتهمة] (4) .

والذي يظهر لنا أن الشاهد كان مع العزيز في ذلك الوقت ، ولعله استدعاه للتحقيق في المسألة لحكمته ولتقاربه من زوجته والذي نرجحه هو الأول ، والله أعلم .

ولقد تبين للشاهد وللعزيز : أن القميص قد من دبر ، فظهر بذلك براءة الصديق يوسف عليه السلام وكذب المرأة فيما ادعته وثبوت مراودتها له عليه السلام .

﴿ فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قَدْ مِنْ دُبُرٍ ﴾ لما رأى الشاهد ذلك قال للمرأة : ﴿ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴾ .

(1) تقاعست : ترددت وتوقفت .

(2) جامع البيان للطبري 196/12 وأورده في تاريخه / تاريخ الأمم والملوك عن مجاهد من أربعة طرق 205/1 .

(3) جامع البيان للطبري 196/12 . (4) البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي 267/5 .

فالكيد ليس من طبيعة امرأة العزيز وحدها بل هو طبيعة وسجية في كثير من النساء اللاتي يُظهِرن خلاف ما يُتِطِنُّن من مشاعر فياضة وعواطف جياشة ، وهذه امرأة العزيز قد كتمت حبها وهيامها حين رأت زوجها بالباب وتظاهرت له بالعفاف والإنصاف ، والطهر والحشمة والعصمة ، وزعمت أن يوسف راودها عن نفسها ، وهيجت قلب العزيز حتى يعاقب يوسف بالطريقة التي ترضيها ﴿ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ .

برأت نفسها واتهمت يوسف الصديق وحكمت عليه ، وأوغرت صدر زوجها ، كل هذا في عبارة واحدة وفي هذا ما يدل على دهائها وسرعة بديهتها وفصاحتها .
والمرأة تستغل ميل الرجل إليها وهيامه بها ، فتأخذ بمجامع قلبه وتحقق كل مآربها بسلطان جمالها وسطوة دلالتها .

قال صاحب تفسير الميزان : [ونسبة الكيد إلى جماعة النساء مع كونه من امرأته للدلالة على أنه إنما صدر منها بما أنها من النساء ، وكيدهن معهود معروف ولذا استعظمه وقال : ﴿ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴾ ؛ وذلك أن الرجال أوتوا من الميل والانجذاب إلى النساء ما ليس يخفى ، وأوتين من أسباب الاستمالة والجلب ما في وسعهن أن يأخذن بمجامع قلوب الرجال ، وَيُسْحَرْنَ أرواحهم بجلوات فاتنة وأطوار ساحرة تسلب أحلامهم ، وتصرفهم إلى إرادتهن من حيث لا يشعرون وهو الكيد ، وإرادة الإنسان بسوء] (1) .

ثم يتوجه الشاهد بالخطاب إلى يوسف عليه السلام ، قائلا كما أخبر القرآن الكريم ﴿ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا ﴾ أي لا تحدث به أحدا وفي نداء يوسف باسمه وبدون ذكر - ياء النداء - : ما يفيد تلفظه بيوسف وقربه منه ، وتوقيره له .

كما يلتفت الشاهد إلى امرأة العزيز فيخطبها خطاب اللوم والزجر والعقاب قائلا كما أخبر القرآن : ﴿ وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ ﴾ .

(1) تفسير الميزان 143/12 وفي هذا المعنى الذي ذكره الطباطبائي يقول الشاعر عن هذا الصنف من النساء :
يُضْرَعْنَ ذَا اللَّبِّ حَتَّى لَا جَزَاكَ بِهِ
وَمَنْ أضعفُ خَلَقِ اللَّهِ إِنْسَانًا
أَلَا إِنْ تَقْوِمِ الضَّلُوعِ انْكَسَارَهَا
أَلَيْسَ عَجِيبًا ضعفها واقتدارها
أَيُجْمَعْنَ ضعفا واقتدارًا على الفتى

قال الألويسي : [ويقال إن أولئك القوم وإن كانوا يعبدون الأوثان ، إلا أنهم مع ذلك يثبتون الصانع ، ويعتقدون أن للقبائح عاقبة سوء من لدنه سبحانه إذا لم يغفرها ، واستدل على أنهم يثبتون الصانع أيضا بأن يوسف عليه السلام قال لهم ﴿ عَزَابٌ مُّتَّفِرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَّاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾ ⁽¹⁾] ⁽²⁾ والزنا من أقبح الكبائر التي حرمها الشرع والعقل والعرف والطبع ؛ ولذلك رغم أنهم ليسوا على دين صحيح فلقد رأوا الزنا من أقبح القبائح ومن أعظم الذنوب .

أقول ويجوز أن يكون قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا رَأَىٰ قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴾ ⁽³⁾ يُوسُفُ أَعْرَضَ عَن هَذَا وَأَسْتَغْفِرِي لِدُنْيِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ ﴿ .

من كلام العزيز أثبت براءة يوسف بعد أن عاين الدليل على براءته وأثبت كذب المرأة ومراودتها ليوسف وأمر يوسف بكتمان هذا الأمر حتى لا يعرفه أحد فيفشيها في الناس ، وأمر المرأة بأن تكف عن القبيح وأن تستغفر لربها من ذنبها .

● والذي نرجحه : أنه من كلام الشاهد ؛ والسياق يشهد بذلك .

● ويبدو لنا أن العزيز كان قليل الغيرة على زوجته ، بدليل أنه لم يعاقبها عقابا شديدا ولم يجرها ويردها إلى صوابها رداً عنيفا ، ويبدو أنها كانت مهممة عليه وأنه كان شديد الحب لها لا يطيق فراقها ، ولا يقدر على زجرها وتعنيفها ، قال القرطبي [قيل إنه لم يكن غيوراً فلذلك كان ساكتاً ، وعدم الغيرة في كثير من أهل مصر موجود ، وقيل إن الله تعالى سلبه الغيرة وكان فيه لطف بيوسف حتى كفى بادرته وعفا عنها] ⁽³⁾ .

(1) سورة يوسف : 39 .

(2) روح المعاني للألويسي 224/12 .

(3) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي 175/9 و (بادرته) أي غضبه .

وهذا الكلام الذي ذكره القرطبي من أن عدم الغيرة في كثير من أهل مصر موجود كلام لا أساس له من الصحة ولا أدري كيف ذكره القرطبي ونقله في تفسيره الجامع ، وهذا الكلام أيضا ذكره أبو حيان في البحر المحيط 298/5 - حيث زعم أن قلة غيرة العزيز منشؤها طبيعة أرض مصر ويعتتها ، ولا أدري على أي أساس علمي تاريخي حكم القرطبي وأبو حيان على شعب مصر بهذا الحكم وهل قاما بدراسات وإحصاءات تاريخية ونفسية واجتماعية وتوصلا من خلالها لهذا الحكم ؟ .

وإذا كان هناك من المصريين من هو قليل الغيرة فإن مرجع ذلك ليس إلى أنه مصري وليس بسبب طبيعة التربة ، وإنما مرجع ذلك إلى ضعف الإيمان وعدم اكتمال المروءة والرجولة وغلبة الهوى وفساد التربية .

● وقال ابن كثير : [.... وقد كان لين العريكة سهلا ، ولعله عذرهما لأنها رأت مالا صبر لها عنه] (1) .

● وقال النسفي : [وكان العزيز رجلا حليما فاكتفى بهذا القدر من مؤاخذتها] (2) .

● وقال صاحب تفسير الميزان : [... وربما قيل إن الآية تدل على أن العزيز كان فاقدا للغيرة ، والحق أن الذي تدل عليه أنه كان شديد الحب لامرأته] (3) .

● أقول إن حبه لها وهيامه بها جعله لا يتخذ معها موقفا حاسما يرهن على غيرته ، لأن الحب كما يقولون يعمي ويصم ...

وعين الرضا عن كل عيب كليلة كما أن عين السخط تُبدي المساويا

هذا ومع حرص العزيز على أن تظل هذه الأحداث في طي الكتمان حتى لا تؤثر على مكانته ولا تنل من هيئته إلا أنها شاعت وذاعت حتى أصبحت حديث النسوة في المدينة .

= ودليل ذلك ما نراه ونسمع عنه في المجتمعات الكافرة التي شاع فيها التبرج والاختلاط وعمت فيها العلاقات المريية الآئمة بين المرأة وبين جارها أو زميلها في العمل أو صديق زوجها على مرأى ومسمع من زوجها الذي لا يحرك ساكنا بسبب بروده ونقص مروءته وعدم غيرته على عرضه .

وهذه الإباحية وتلك الفوضى مرجعها إلى العقيدة الباطلة والأخلاق الفاسدة والشعارات البراقة الزائفة التي يغتر بها الحمقى : كالحرية والمساواة ، والتقدم والثقافة والفن . (1) تفسير ابن كثير 476/2 بتصرف .

(2) مدارك التنزيل للنسفي 219/2 . (3) الميزان في تفسير القرآن للطباطبائي 144/12 .

المبحث الثالث

حديث النسوة في المدينة عن مراودة امرأة العزيز لـيوسف عليه السلام وموقف امرأة العزيز منهن

في هذا المبحث :

● حديث النسوة

● موقف امرأة العزيز منهن - مكر بمكر - . خروج يوسف على النسوة وأثر ذلك عليهن

● اعتراف ... وإصرار ... وتهديد

اعتراف امرأة العزيز أمام النسوة بثبوت مراودتها لـيوسف عليه السلام وإصرارها على موقفها، وتهديدها لـيوسف عليه السلام بالسجن إن لم يستجب لها .

حديث النسوة في المدينة عن مراودة امرأة العزيز ليوسف وموقف امرأة العزيز منهن

● حديث النسوة :

قال تعالى : ﴿ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ فَدَّ سَخِفَهَا حَبًّا إِنَّا لَنَرَنَّهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ (1) .

شاع خبر المراودة في المدينة وأصبح حديث النسوة فيها ، وهن بين منبهرات بهذا الخبر ، وبين لائمات لامرأة العزيز ، أو شامتات فيها ؛ لانكشاف سترها ولضلال سعيها .
وقوله ﴿ وَقَالَ نِسْوَةٌ ﴾ كلمة نسوة : جمع قلة للنساء وليس له واحد من لفظه بل من معناه وهو امرأة ، وعبر بـ ﴿ وَقَالَ ﴾ بدون تاء التأنيث ؛ لأن تأنيثه غير حقيقي كاللمة والفرقة ، فيجوز فيه إلحاق التاء ويجوز حذفها (2) .

وقال الطبرسي : [إنما حذف فيه حرف التأنيث لأنه تأنيث جمع وتأنيث الجمع تأنيث لفظ ، يبطل تأنيث المعنى ؛ لأنه لا يجتمع في اسم واحد تأنيثان ، وكذلك يبطل تذكير المعنى في رجال ، وإذا صار كذلك جاز فيه الحمل على اللفظ والحمل على المعنى] (3) .

● والذي نراه والله أعلم : أن الخير أشيع عن طريق الخادمتين وزوجات الخدم ، ولقد لقي هذا الخبر رواجاً بين نساء عليّة القوم ، وطبيعي أن تشغل هذه الطبقة المترفة بهذا الخبر ، الذي أصبح موضوعاً لأحاديثهن في محافلهن ومجامعهن ؛ لما فيه من متعة ولذة وتعجب وتندر من حال امرأة العزيز وشماتة بها .

قال ابن كثير : [﴿ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ ﴾ مثل نساء الكبراء والأمراء ، ينكرن على امرأة العزيز ، ويعين ذلك عليها] (4) .

فاللاتي أفشين الخير وأذعنه هن الخادمتين وزوجات الخدم واللاتي وصل إليهن الخير حتى أصبح حديثهن هن زوجات الكبراء والوجهاء .

وسر التعبير بـ ﴿ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ ﴾ دون الاسم الظاهر للتهكم بها وتحقيرها فهي مع

(1) سورة يوسف : 30 .

(2) يراجع الكشاف للزمخشري 492/2 وحاشية الجمل 449/2 وروح المعاني للألوسي 225/12 .

(4) تفسير ابن كثير 476/2 .

(3) مجمع البيان للطبرسي 351/5 .

كونها زوجة لعزیز مصر ، وهو أكبر منصب في البلاد بعد الملك ، وكلمة العزیز من العزة ، والعزة تعني القوة والصلابة والغلبة والقهر والمنعة ، والكرامة ، إلا أن المرأة لم تحترم مكانة زوجها ، ولم تحفظ له عهدا ولا وداً ، ولم تصن له حرمة ولا نعمة ، وعرضت هذا البيت للإنهيار ، ونالت من عزة العزیز وكرامته .

ورد في تفسير المنار : [﴿ أَمْرَاتُ الْعَزِيزِ تُرْوَدُ فَتَلْمِزْنَ عَنْ نَفْسِهِنَّ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ﴾] هذا خبر يراد به لازمه وهو التعجب والإنكار من عدة جهات :

- 1 - كون المتحدث عنها امرأة عزيز مصر .
 - 2 - كونها تهين نفسها وتحقر مركزها بأن تكون مراودة لرجل عن نفسه وشأن مثلها - إن سخت بعفتها - أن تكون مراودة لرجل عن نفسها لا مراودة لغيرها كما تقدم .
 - 3 - أن الذي تراوده عن نفسه هو فتاها ورقيقها .
 - 4 - أنها بعد أن افتضح أمرها وعرف زوجها ، وعاملها بالحلم وأمرها بالاستغفار لا تزال مصرة على ذنبها مستمرة على مراودتها وهو ما أفاده قولهن ﴿ تُرْوَدُ ﴾ وهو فعل مضارع يدل على التجدد والاستمرار [(1)] .
- وقال صاحب الظلال : [ولأول مرة نعرف - من خلال سياق الآيات - أن المرأة هي امرأة العزيز ، وأن الرجل الذي اشتراه من مصر هو عزيز مصر - أي كبير وزرائها - ليعلن هذا مع إعلان الفضيحة العامة بانتشار الخبر في المدينة] (2) .

﴿ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ﴾

أي أصاب الحب شغاف قلبها أي باطنه وقيل وسطه وهما متقاربان (3) .

● قال الطبرسي : [أحبته حبا دخل شغاف قلبها] (4) أي حجابها .

وقال الزمخشري في الكشاف : [﴿ شَغَفَهَا ﴾] : خرق الحب شغاف قلبها حتى وصل إلى الفؤاد ، والشغاف حجاب القلب وقيل جلدة رقيقة يقال لها لسان القلب [(5)]

(1) تفسير المنار 240/12 بتصرف .

(2) في ظلال القرآن 1983/4 بتصرف ويراجع ما ذكره الطباطبائي في الميزان 148/12 .

(3) يراجع المفردات للراغب ص 263 مادة ش غ ف .

(4) مجمع البيان للطبرسي 352/5 . (5) الكشاف 462/2 .

وقرئ في الشواذ (شعفها حُبًّا) بالعين المهملة (1) .

قال الزجاج معنى شعفها بالعين : ذهب بها كل مذهب ، مشتق من شعفات الجبال أي رؤوس الجبال يقال فلان مشعوف بكذا أي قد ذهب به الحب أقصى المذاهب (2) وقال ابن جني معناه وصل حبه إلى قلبها فكاد يحرقه لذته وأصله من البعير يهنأ (3) بالقطران فتصل حرارة ذلك إلى قلبه قال امرؤ القيس :

لتقتلني وقد شعفت فؤادها كما شعف المهنوءة الرجل الطالبي (4)

وفي روضة المحبين ونزهة المشتاقين لابن قيم الجوزية [والشغاف غلاف القلب يقال شغفه الحب أي بلغ شغافه ... وأما الشعف بالعين المهملة : ففي الصحاح شعفه الحب أي أحرق قلبه ، وقيل : أمرضه ، وقد شعف بكذا فهو مشعوف ..] (5) .

والتعبير بـ ﴿ قَدَّ ﴾ والفعل الماضي ﴿ شَعَفَهَا ﴾ للدلالة على التحقق والثبوت .

﴿ إِنَّا لَنَزَّلْنَا فِي ضَلَالٍ مِّثِينَ ﴾ (6)

حيث خلعت ثياب الحياء والعفة وهوت من سنام العزة والكرامة ، وهامت في حب

(1) قال ابن جني قرأ أبو رجاء ويحيى بن يعمر وقتادة وغيرهم .. قد شعفها بالعين المحتسب لابن جني 339/1 يتصرف .

(2) معاني القرآن وإعرابه للزجاج 105/3 .

(3) يهنأ أي يطلى بالقطران حين يصاب بالحرب .

(4) المعنى : حرقت فؤادها بحيي كما أحرق الطالبي البعير بالهناء أي القطران لأنها تجد للهناء لذة مع حرقة يراجع - مجمع البيان للطبرسي 349/5 والكشاف 463/2 - ومشاهد الإنصاف على شواهد الكشاف للشيخ محمد عليان المذكور بهامش الكشاف 463/2 .

(5) روضة المحبين ونزهة المشتاقين لابن قيم الجوزية ت 751 هـ ص 32 ط دار الفكر العربي ويراجع مختار الصحاح للإمام محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي ت 666 هـ ص 340 ط دار المعارف .

* وللحب أسماء كثيرة ومراتب عديدة : فأول مراتب الحب الهوى ثم العلاقة وهي الحب اللازم للقلب ثم الكلف وهو شدة الحب ثم العشق وهو اسم لما فضل عن المقدار المسمى بالحب ثم الشعف بالمهملة وهو احتراق القلب مع لذة يجدها وكذلك اللوعة واللاعج ثم الشغف بالمعجمة وهو أن يبلغ الحب شغاف القلب ثم الجوى وهو الهوى الباطن ثم التيم وهو أن يهيمن عليه الحب ثم التبل وهو أن يسقمه الحب ثم التدله وهو ذهاب العقل من الحب ثم الهيام وهو أن يهيم الرجل على وجهه لغلبة الهوى عليه . يراجع روح المعاني للألوسي 266/12 ، 277 وروضة المحبين الباب الأول والثاني والثالث (23 : 57) .

(6) يوسف : 30 .

فتاها وأطلقت العنان لهواها .

قال صاحب الكشاف : [﴿ إِنَّا لَنَرْنَهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾] : خطأ وبعد عن طريق الصواب [(1)] .

موقف امرأة العزيز منهن

قال تعالى في سورة يوسف : ﴿ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكًا وَآتَتْ كُلَّ وَجِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٢١﴾ قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رُودْنَهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا ءَامُرُهُ لَيَفْعَلْنَّ وَيَكُونَنَّ مِنَ الصَّغِيرِينَ ﴾ (2) .

علمت امرأة العزيز بما يدور في مجالس النساء من حديث عنها وقد سماه المولى ﷺ بالمكر لما فيه من خداع وسوء نية وخبث طوية .

وقال ابن القيم في إغاثة اللهفان : [وكلام النسوة متضمن لوجوه من المكر منها قولهن ﴿ أَمْرَاتُ الْعَزِيزِ ﴾ - بوصفها لا باسمها - الذي يؤكد قبح صنيعها لكونها ذات بعل ، فصدور الفاحشة منها أفبح من صدورها ممن لا زوج لها ، وزوجها عزيز مصر فهي لم تحترم مكانة زوجها ، وأنها هي المرادة الطالبة وأن المراد فتاها الذي هو في بيتها وتحت كنفها ، وأن الحب بلغ بها أعظم مبلغ حتى وصل إلى شغاف قلبها ، وأن فتاها غفيف طاهر متصف بالوفاء والحياء وهي على النقيض من ذلك ، وأن المرادة لا تزال مستمرة ومتجددة] (3) .

وقال أبو السعود : [وتسمية ذلك مكر الكونه خفية منهن كمكر الماكر وقيل استكتمتهن سرا فأفشينه عليها وقيل إنما قلن ذلك ليتوصلن من خلاله إلى رؤية يوسف] (4) وقد كان .

مكر بمكر

قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ ﴾ أي إلى من تكلم في شأنها من النساء في المدينة .

(1) الكشاف 463/2 ويراجع تفسير المنار 240/12 . (2) يوسف : 31 ، 32 .

(3) إغاثة اللهفان من مكائد الشيطان 88/2 بتصرف .

(4) إرشاد العقل السليم 271/4 ويراجع روح المعاني 227/12 والجامع لأحكام القرآن للقرطبي 177/9 .

- قال الخازن : [وكن أربعين من أشرف المدينة وهن اللاتي عيّرنها] (1) .
- وقال الزمخشري : [قيل دعت أربعين ، منهن الخمس المذكورات] (2) . يعني نساء الخدم اللاتي أفشين أمر المراودة حتى بلغ نساء الكبراء والوجهاء .
- وقال الطباطبائي : [وإنما أرسلت إليهن لترهين يوسف وتبتليهن بما ابتليت به فيكففن عن لومها ويعذرنها في حبه] (3) .
- فقابلت مكرهن القولي بهذا المكر الفعلي ، الذي يدل على دهائها وعظيم مكرها .

﴿ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكًا ﴾

- قال صاحب المفردات : المتكأ المكان الذي يتكأ عليه ، والمخدة المتكأ عليها وقوله : ﴿ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكًا ﴾ أي أترجا ، وقيل طعاما متناولاً ، من قولك اتكأ على كذا فأكله] (4) .

- وفي المصباح المنير [اتكأ على وزن افتعل ، ويستعمل بمعنيين الجلوس مع التمكن ، والقعود مع تمايل معتمدا على أحد الجانبين] (5) .
- ويقول صاحب المصباح أيضا : [وفي التنزيل ﴿ وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكُونَ ﴾ أي يجلسون وقال وأعدت لهن متكأ أي مجلسا يجلس عليه] (6) .

- وقال الإمام الماوردي في تفسيره : [وفي المتكأ ثلاثة أقاويل : أحدها أنه المجلس والثاني أنه النمارق والوسائد يتكأ عليها والثالث أنه الطعام مأخوذ من قول العرب اتكأنا عند فلان أي طعمنا عنده ، وأصله أن من دعي إلى طعام أعد له متكأ فسمي الطعام بذلك متكأ على الاستعارة ...] (7) .

- وروي البخاري في صحيحه بسنده عن مجاهد قال متكأ : الأترج بالحبشية (متكأ) وروي عنه أيضا قال كل شيء قطع بالسكين (8) .

(1) تفسير الخازن 279/3 .
 (2) الكشف 463/2 وإرشاد العقل السليم 271/4 .
 (3) الميزان في تفسير القرآن 148/12 .
 (4) المفردات للراغب ص 74 مادة (ت ك أ) .
 (5) المصباح المنير 37/1 مادة (ت ك أ) .
 (6) المرجع السابق 149/2 مادة (و ك ي) .
 (7) النكت والعيون للماوردي 301/2 .
 (8) صحيح البخاري كتاب التفسير / سورة يوسف - فتح الباري 208/8 .

وروى الطبري في تفسيره بسنده عن مجاهد قال : متكأ طعام ومتكا هو الأترج (1) .

● قال الزمخشري [متكأ أي مجلس طعام ؛ لأنهم كانوا يتكئون للطعام والشراب والحديث ، كعادة المترفين ، وقيل متكأ طعاما من قولك اتكأنا عند فلان أي طعمنا على سبيل الكناية ، لأن من دعوته ليطعم عندك اتخذت له تكأة يتكئ عليها ، قال جميل :
فظللنا بنعمة واثكأنا وشربنا الحلال من قُلِّله (2)

وعن مجاهد ﴿ مُتَكَا ﴾ طعاما يحز حزا كأن المعنى يعتمد بالسكين ؛ لأن القاطع يتكئ على المقطوع بالسكين [(3)] .

﴿ وَآتَتْ كُلَّ وَجْدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا ﴾

دلالة على وجود ما يحتاج إلى تقطيع من الفاكهة أو من غيرها ، وفي هذا إشارة إلى العيشة المترفة والحياة الناعمة التي كن متنعمات وامتعت بها ، ورافلات فيها .

يقول صاحب الظلال : [... لقد أقامت لهن مأدبة في قصرها ، وندرك من هذا أنهن كن من نساء الطبقة الراقية ؛ فهن اللواتي يدعين إلى المآدب في القصور وهن اللواتي يؤخذن بهذه الوسائل الناعمة المظهر، ويبدو أنهن كن يأكلن وهن متكئات على الوسائد والحشايا على عادة الشرق في ذلك الزمان ، فأعدت لهن متكأ وآتت كل واحدة سكيينا تستعملها في الطعام ، ويؤخذ من هذا أن الحضارة المادية في مصر قد بلغت شأوا بعيدا ، وأن الترف في القصور كان عظيما ؛ فإن استعمال السكاكين في الأكل قبل هذه الآلاف من السنين له قيمته في تصوير الترف والحضارة المادية] (4) .

● خروج يوسف على النسوة واثر ذلك عليهن

وبينما هن منشغلات بهذه الموائد الفاخرة وبتلك الأثاثات الباهرة : إذ بامرأة العزيز تأمر يوسف عليه السلام بالخروج إليهن ﴿ وَقَالَتْ أَخْرِجْ عَلَيْنَ ﴾ .

(1) جامع البيان للطبري 203/12 وهذا القول المروي عن مجاهد رجاله ثقات وهو صحيح الإسناد . وقراءة الجمهور بالهمز والتشديد ﴿ مُتَكَا ﴾ وقرأ أبو جعفر بحذف الهمزة مع تشديد التاء ﴿ مُتَكَا ﴾ النشر في القراءات العشر 399/1 .

ورقئ في الشواذ عن مجاهد (متكا) بتخفيف التاء وترك الهمز يراجع / المحتسب لابن جني 339/1 .

(2) البيت لجميل بن معمر وقيل لحميد بن ثور ، (واثكأنا) أي اتخذنا متكأ نضطجع عليه (ومن قُلِّله) جمع قلة وهي الجرة العظيمة يراجع مشاهد الإنصاف على شواهد الكشاف بهامش الكشاف 464/2 .

(3) الكشاف 463/2 ، 464 بتصرف . (4) في ظلال القرآن 1984/4 .

ولم يكن ﷺ مدركا لحقيقة الموقف ؛ ولم يكن على علم بتلك المؤامرة ، التي دبرتها امرأة العزيز للنسوة اللاتي كن منشغلات بما في أيديهن فخرج عليهن يوسف ﷺ بطلعته البهية وجماله الفائق وحسنه الرائق ، فخطف أبصارهن كما يصنع البرق الخاطف ، وغيب عقولهن ؛ فقطعن أيديهن ، ليدل ذلك دلالة قاطعة على جماله ﷺ ويدل على شدة إعجابهن وانبهارهن به . مصداقا لقول الشاعر :

دلائل العشق لاتخفى على أحد كحامل المسك لا يخلو من العبق

قال تعالى ﴿ فَلَمَّا رَأَيْتُهُ أَكْبَرْتُهُ وَفَطَعَنْ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾ .

● وإذا كانت الأذن تعشق قبل العين أحيانا ، فليس العيان كالبيان ولقد رأين يوسف أجمل مما سمعن ومما تصورن .

● روى الإمام مسلم في صحيحه من حديث الإسراء أن رسول الله ﷺ مر بيوسف ﷺ في السماء الثالثة قال فإذا هو قد أعطي شطر الحسن (1) .

ولقد أثر جمال يوسف على قلوبهن حبا وطربا وعلى لسانهن ثناء ومدحا وعلى أيديهن دماء وجرحا قال تعالى مخبرا عن حالهن : ﴿ فَلَمَّا رَأَيْتُهُ أَكْبَرْتُهُ ﴾ أي عظمنه وقيل أكبرنه أي حضن من شدة الإعجاب وهول المفاجأة .

● قال صاحب الكشاف : [أكبرنه أي عظمنه وهين ذلك الحسن الرائع والجمال البارع ، وقيل أكبرنه بمعنى حضن والهاء للسكت يقال أكبرت المرأة إذا حاضت ، وحقيقته : دخلت في الكبير ؛ لأنها بالحيض تخرج من حد الصغر إلى حد الكبير ، وكان أبا الطيب أخذ من هذا التفسير قوله :

خف الله واستر ذا الجمال بيرقع فإن لح حاضت في الخدور العواتق (2) [(3)

(1) رواه الإمام مسلم في صحيحه عن أنس ؓ - صحيح مسلم بشرح النووي ك الإيمان ب - الإسراء برسول الله ﷺ 213/2 .

(2) البيت لأبي الطيب المتنبي يراجع ديوانه ص 78 ط المكتبة الثقافية - بيروت والمعنى اتق الله واستر هذا الجمال الذي في وجهك بيرقع ، لأنك إن ظهرت حاضت العواتق ، أي خيار النساء وهن في خدورهن لما ينظرن من جمالك ، ولاح ، يلوح أي ظهر ، يظهر ، يراجع مشاهد الإنصاف بهامش الكشاف 465/2 .

(3) الكشاف للزمخشري 464/2 ، 465 باختصار .

والذي نراه : أن معنى أكبرنه أي عظمته وهبته - أما حمل الإكبار هنا على الحيض ، فهو كلام مخالف لظاهر النص ومفهومه ، وليس هناك صلة بين اللذة وبين حدوث الحيض - مجرد اللذة وحصول الشهوة - (1) .

قال القرطبي [... وأنكر ذلك أبو عبيدة وغيره (2) - يعني تفسير الإكبار بمعنى الحيض - وقالوا ليس ذلك في كلام العرب ولكنه يجوز أن يكون حضن من شدة إعظامهن له ، وقد تفرع المرأة فتسقط ولدها أو تحيض ، قال الزجاج يقال أكبرنه ولا يقال حضنه فليس الإكبار بمعنى الحيض وأجاب الأزهري فقال يجوز أكبرت بمعنى حاضت ؛ لأن المرأة إذا حاضت في الابتداء خرجت من حيز الصغر إلى الكبر] (3) .

● وقال صاحب كتاب حسن الأسوة بما ثبت من الله ورسوله في النسوة : ﴿ فَلَمَّا رَأَتْهُ أَكْبَرْتُهُ ﴾ أي أعظمته وقيل هبته وقيل دهشن من شدة جماله وقيل أمذين وقيل حضن والأول أولى (4) .

﴿ وَقَطَعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ﴾

أي جرحنها وعبر بالتقطيع هنا للمبالغة في الجرح ، ولكثرة الأيادي الجروحة ، وما شعرن بآلام الجروح لانشغالهن بالنظر إلى حسن يوسف ، فلما أفقن من سكرات النظر

(1) وفي حالة تفسير أكبرنه بمعنى حضنه : فما الفائدة من ذكر الهاء هنا ؟ .

قيل إنها هاء الوقف ، وهذا رأي غير مقبول لأن هاء الوقف تسقط في الوصل وهذه الهاء لا تسقط في الوصل وقيل الهاء كناية عن مصدر الفعل ، والمعنى أكبرن إكبارا بمعنى حضن حياضا ولا يخفى ما في هذا الرأي من تكلف وتعسف وأما حملها على السكت فإنه لا يصح لأن هاء السكت تكون ساكنة وهذه الهاء متحركة ﴿ أَكْبَرْتُهُ ﴾ .

قال أبو حيان [وإجماع القراء على ضم الهاء في الوصل دليل على أنها ليست هاء السكت] البحر المحيط 303/5 وقال الزجاج : [معنى ﴿ أَكْبَرْتُهُ ﴾ أعظمته وقيل ﴿ أَكْبَرْتُهُ ﴾ حضن وقد رويت عن مجاهد وليس ذلك بمعروف في اللغة وقد أنشدوا بيتا في هذا وهو قوله :

يأتي النساء على أطهارهن ولا يأتي النساء إذا أكبرن إكبارا

وهذه اللفظة ليست بمعروفة في اللغة بهذا المعنى ، والهاء في ﴿ أَكْبَرْتُهُ ﴾ تنفي هذا لأنه لا يجوز أن يقول : النساء قد حضنه يا هذا ؟ لأن حضن لا يتعدى إلى مفعول [معاني القرآن وإعرابه للزجاج 106/3 ، 107 .

(2) مجاز القرآن لأبي عبيدة 309/1 . (3) تفسير القرطبي 180/9 .

(4) حسن الأسوة بما ثبت من الله ورسوله في النسوة تأليف سيد محمد صديق حسن خان ت سنة 1307 هـ

وجدن آثاره على أيديهن دماء وجراحا قال صاحب الكشاف : [وَقَطَعَنَ أَيْدِيَهُنَّ ﴿١﴾ أي جرحنها كما تقول قطعت اللحم فقطعت يدي تريد جرحتها] (1) .

﴿ وَقُلْنَ حَسَّ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾ .

قال أبو السعود : [﴿ وَقُلْنَ حَسَّ لِلَّهِ ﴾ تنزيها له سبحانه عن صفات النقص والعجز ، وتعجبا من قدرته على مثل ذلك الصنع البديع] (2) .

● وقال الخازن : [والمقصود من هذا إثبات الحسن العظيم المفرط ليوסף ؛ لأنه قد تقرر في النفوس أنه لا شيء أحسن من الملك فلذلك وصفته بكونه ملكا ، وقيل لما كان الملك مطهرا من بواعث الشهوة وجميع الآفات والحوادث التي تحصل للبشر وصفن يوسف بذلك] (3) .

وقال صاحب الظلال : [﴿ وَقُلْنَ حَسَّ لِلَّهِ ﴾ وهي كلمة تنزيه لله تعالى في هذا الموضوع تعبيرا عن الدهشة بصنع الله ﴿ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾ وهذه التعبيرات دليل - كما قلنا في تقديم السورة - على تسرب شيء من ديانات التوحيد في ذلك الزمان] (4) .

نزهن المولى ﷺ عن العجز ، والنقص ونفين عن يوسف البشرية لما شاهدن من جماله الذي لم يعهد مثله في البشر ، وأثبتن ليوسف الملكية لما تركز في النفوس من جمال صورة الملك كما تركز في النفوس أيضا قبح صورة الشيطان .

اعتراف ... وإصرار ... وتهديد

اعتراف امرأة العزيز أمام النسوة بثبوت مراودتها ليوسف ﷺ وإصرارها على

موقفها ، وتهديدها ليوسف ﷺ

قال تعالى : ﴿ قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَنِي فِيهِ وَلَقَدْ زودتهُٔ عَنْ نَفْسِهِ فَاَسْتَعَصَمَ وَلَٰكِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا ءَامُرُهُ لِيَسْجَنَ وَلِيَكُونَ مِنَ الصَّغِيرِينَ ﴾ (5) .

(1) الكشاف 465/2 .

(2) إرشاد العقل السليم 271/4 .

(3) تفسير الخازن 280/3 .

(4) في ظلال القرآن 1984/4 .

(5) سورة يوسف : 32 .

● رأت المرأة ما حدث للنساء فقالت بكل تيه وفخر وزهو ﴿ فَذَلِكَ الَّذِي لُمْتَنِي فِيهِ ﴾ ، فلقد أعجبتك كما أعجبتني فكيف ولماذا تلمتني فيه أيتها اللائعات العاذلات العشيقات ؟ وإذا حدث لكن ما حدث من انبهار ودهش (1) ، ظهر أثره على أيديكن جراحا ودماء ، وعلى قلوبكن طربا وحبا ، وعلى أبصاركن سكرة وحيرة ، إذا حدث ذلك لكن من أول نظرة ، فكيف وقد جمعنا بيت واحد ؟ وأظننا سقف واحد ؟ كيف بي وقد نما وترعرع وأزهر وأثمر وأينع على مرأى مني ومسمع ؟ .

● يلاحظ روعة التعبير بـ ﴿ فَذَلِكَ ﴾ فالفاء فصيحة عن شرط محذوف أي إذا كان الأمر كذلك فذلكن الذي لمتني فيه .

و (ذلكن) (ذا) اسم إشارة ، والمشار إليه يوسف عليه السلام ، واللام لام البعد لبعده منزلته وسمو مكانته ، وبعده عن السوء ، ولأنها تعلم أن وصالها به صعب المنال ، بل إنه محال فهو عليه السلام رغم عيشه معها في بيت واحد إلا أن نجوم السماء أقرب إليها منه وهي مع ذلك تحبه وتطمع في قربه .

﴿ وَلَقَدْ زَوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعَصَمَ ﴾ .

إقرار منها بما أنكرته أمام زوجها ، وشهادة ليوسف تثبت عصمته وعفته ، حيث بينت أنها راودته عن نفسه ، ﴿ فَاسْتَعَصَمَ ﴾ أي طلب العصمة ولجأ إليها واستمسك بها بقوة (2) ، وكأنها بهذا الكلام تشكو إليهن ، بعد أن شربن من نفس الكأس كما يشكو العاشق مرارة الحب ولوعته إلى محب مثله لأنه :

لا يعرف الشوق إلا من يكابده ولا الصبابة إلا من يقاسيها

● يقول عبد الوهاب النجار : [... فأنتم ترون أن امرأة العزيز كتبت أمرها حتى صادتھن وأوقعتھن في شبك غرامه ، فصرن كلھن في الهوى سواء ثم باحت لهن بذات نفسھا آمنة النمیمة علیھا ، ومن هذا القبیل قول القائل :

(1) الدهش ذهاب العقل من الدهل والوله ، أو من الفرع: دهش دهشا فهو دهش ودهش فهو مدهوش
يراجع اللسان 1441/2 مادة د ه ش .

(2) وفي حاشية زادة [والاستعصام بناء مبالغة يدل على الامتناع البليغ والتحفظ الشديد كأنه في عصمة وهو يجتهد في الاستزادة منها ونحوه استمسك واستعظم واستجمع الرأي] .
حاشية محيي الدين شيخ زادة على تفسير البيضاوي 83/3 .

لاتخف ما فعلت بك الأشواق وشرح هواك فكلنا عشاق] (1)

ثم تلتفت امرأة العزيز إلى يوسف عليه السلام مصرحة بالتهديد والوعيد فتقول كما أخبر القرآن الكريم : ﴿ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا ءَامُرُهُ لَيَسْجَنَنَّ وَكَيْكُونَا مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴾ .

وهنا يتوجه يوسف عليه السلام فيطلب من الله تعالى العصمة والعافية من هذا المجتمع الفاسد الذي انقلبت فيه الموازين واختلطت المفاهيم وعلت أصوات الرذيلة مدوية في كل ناحية ، ولا يجد يوسف عليه السلام مكانا ينأى به عن هذا المجتمع الفاسد إلا السجن فهو مع قسوته : خير من البقاء في هذا الجو الملوث .

(1) قصص الأنبياء عبد الوهاب النجار ص 161 .

المبحث الرابع

السجن طريق النجاة

﴿ قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ (1)

فالسجن مع ما فيه من الأهوال ، والنكال ، والحرمات من الأهل والأصحاب والخلان (2) ، والتعرض لقسوة السجن ، والابتلاء بقله الطعام ، والشراب والنام ، مع كثرة المضاعف والمتاعب والآلام ، والحشرات والآفات والهوام ، والإحساس بالوحدة والوحشة والغربة ومعاشرة الأضداد ، إلا أن يوسف عليه السلام يفضلته ويختاره لنفسه طريقا للنجاة من النساء الفاتنات المفتونات ، الرافلات في المتع والملذات ، ربائب القصور الخاوية ، من القيم والأخلاق السامية .

● يقول ابن كثير : [﴿ قَالَ رَبِّ السِّجْنُ ... ﴾] يعني إن وكلتني إلى نفسي فليس لي من نفسي إلا العجز والضعف ولا أملك لنفسي نفعا ولا ضرا إلا ما شاء الله ، فأنا ضعيف إلا ما قويتني وعصمتني وحفظتني ، وحطمتني بحولك وقوتك [(3)] .

● وقال أبو السعود : [وهذا فزع منه إلى أطفاف الله تعالى جريا على سنن الأنبياء والصالحين في قصر نيل الخيرات والنجاة من الشرور بجانب الله تعالى وسلب القوى والقدر عن أنفسهم ومبالغة في استدعاء لطفه في صرف كيدهن بإظهار أن لا طاقة له بالمدافعة كقول المستغيث أدركني وإلا هلكت لا أنه يطلب الإجبار والإلجاء إلى العصمة والعفة وفي نفسه داعية تدعوه إلى هواهن] (4) .

● ويقول صاحب الظلال : [.... وهي دعوة الإنسان العارف ببشريته الذي لا يعتر بعصمته فيريد مزيدا من عناية الله وإحاطته يعاونه على ما يعترضه من فتنة وكيد وإغراء] (5) .

(1) سورة يوسف : 33 .

(2) ويحضرني في هذا المقام بيتان من الشعر لصالح بن عبد القدوس الذي ذاق مرارة الحبس فأشدد يقول :

خرجنا عن الدنيا وعن وصل أهلها
فلسنا من الأموات ولسنا من الأحياء
إذا جاءنا السجنان يوما لحاجة
عجبنا وقلنا جاء هذا من الدنيا !

(3) قصص الأنبياء لابن كثير ص 238 .

(4) إرشاد العقل السليم لأبي السعود 104/3 .

(5) في ظلال القرآن سيد قطب 1985/4 .

﴿ قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ (1) .

ولنا امام هذه الآية الكريمة وقفنا :

الأولى : ما معنى ﴿ أَحَبُّ إِلَيَّ ﴾ ؟ وهل دخول السجن أو الاستجابة لدعوة النساء أمران محبوبان عند يوسف عليه السلام ، كما يدل على ذلك أفعال التفضيل ؟ .

والثانية : وهي تساؤل عن المرادة هل وقعت من النساء جميعا كما يتبادر من ظاهر النص ﴿ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ ﴾ ؟ .

الوقف الأولى : ما معنى أحب إليّ ؟ وهل دخول السجن أو الاستجابة لدعوة النسوة أمران محبوبان عند يوسف عليه السلام ؟ كما يدل على ذلك أفعال التفضيل ؟ .

● ولقد أجاب المفسرون عن ذلك : بأجوبة متعددة نذكر منها ما يلي .

● قال الزمخشري : [فإن قلت نزول السجن مشقة أحب إليه من اللذة ؟ قلت كانت أحب إليه وآثر عنده نظرا إلى حسن الصبر على احتمالها لوجه الله وإلى قبح المعصية ، وإلى عاقبة كل واحدة منهما ، لا نظرا إلى مشتهى النفس ومكروهاها] (2) .

● وقال الإمام الرازي في كتابه عصمة الأنبياء : [سجنهم ليوسف معصية بالاتفاق ، وهو عليه السلام قال : ﴿ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ ﴾ فدل على حبه لدخول السجن مع أنه معصية ؟ فكيف يحب يوسف المعصية ؟ والجواب من وجهين ، الأول : المراد من الأحب : الأخف والأسهل فهذا كمن يخير بين شيئين مكروهين جدًّا فيقول : إن هذا أحب إلي أي أخف .

الثاني : أن توطئ النفس على تحمل مشقة السجن أحب إليّ من واقعة المعصية ، فأما قوله : ﴿ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ : فهو تصريح بأن شيئا من الطاعات لا يتم إلا بمعونة الله تعالى ولطفه] (3) .

● وقال أبو حيان [﴿ أَحَبُّ ﴾ ليست على بابها من التفضيل ؛ لأنه لم يحب إليه ما يدعونه إليه قط وإنما هذان شران فأثر أحدهما على الآخر وإن كان في أحدهما مشقة

(1) سورة يوسف : 33 .

(2) الكشاف 467/2 - والنيسابوري في غرائب القرآن 104/12 .

(3) عصمة الأنبياء للرازي ص 92 بتصرف .

وفي الآخر لذة [(1)] .

● وقال القرطبي : [دخول السجن ﴿ أَحَبُّ إِلَيَّ ﴾ أي أسهل عليّ وأهون من الوقوع في المعصية لا أن دخول السجن مما يحب على التحقيق] (2) .

● ويقول الإمام البيضاوي [﴿ أَحَبُّ إِلَيَّ ﴾ أي آثر عندي من موالاتها نظرا إلى العاقبة وإن كان هذا مما تشتهي النفس وذلك مما تكرهه] .

● وفي حاشية زادة [لما كان محبة الشيء مستلزما لكونه مرضيا عند المحب وكان السجن مكروها غير مرضي : فسر المحبة بالإيثار لأن اختيار الشيء لا يستلزم كونه مرضيا ، فإن المكروه يختار أهون الشرين مع أن شيئا منهما غير مرضي عنده] (3) .

● وذكر الألوسي أن أفعل التفضيل ليس على بابه وإنما آثر السجن مع ما فيه من مشقة زائلة لما يستتبعه من راحات كثيرة أبدية ، والأمران شران لكن أقربهما إلى الإيثار هو السجن ، وسر التعبير بـ ﴿ أَحَبُّ ﴾ في مقام الإيثار لحسم مادة طمعها عن المساعدة لها على مطلوبها خوفا من الحبس (4) .

● وقال صاحب التحرير والتنوير : [لما علم أنه لا محيص من أحد الأمرين صار السجن محبوبا إليه باعتبار أنه يخلصه من الوقوع في الحرام فهي محبة ناشئة عن ملاءمة الفكر كمحبة الشجاع للحرب ...] (5) .

● وهكذا يتوجه يوسف عليه السلام إلى ربه ويطلب منه أن يثبتته على طريق العصمة ويدرك عليه السلام أن طريق النجاة أمامه هو السجن فيؤثره رغم ما فيه من مشقة وعناء ، وإذا كان في الاستجابة للنسوة متعة ولذة فانية فإن دخول السجن في طاعة الله أمر فيه متعة ولذة حقيقية وباقية لأصحاب النفوس المطمئنة التي تبحث عن السعادة والرضا فتجدها في طاعة الله عز وجل .

● الوقفة الثانية هل وقعت المراودة من النسوة جميعهن ؟ أم من امرأة العزيز وحدها ؟

ولقد أجاب المفسرون عن ذلك بأجوبة متعددة نذكر منها ما يلي :

(2) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي 184/9 .

(1) البحر المحيط لأبي حيان 306/5 ، 307 .

(3) حاشية محيي الدين شيخ زادة على البيضاوي 83/3 .

(5) التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور 265/12 .

(4) روح المعاني للألوسي 235/12 بتصرف .

● قال الزمخشري [وقال : ﴿ رَبِّ السِّجْنِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونِي إِلَيْهِ ﴾ على إسناد الدعوة إليهن جميعا ؛ لأنهن تنصحن له وزين له مطاوعتها ، وقلن له إياك وإلقاء نفسك في السجن والصغار] (1) .

● وقال الماوردي [ويحتمل وجهين : (أحدهما) أنه أراد امرأة العزيز فيما دعته إليه من الفاحشة ، وكني عنها بخطاب الجمع إما تعظيما لشأنها في الخطاب ، وإما ليعدل عن التصريح إلى التعريض ، (الثاني) أنه أراد بذلك جماعة النسوة اللاتي قطعن أيديهن حين شاهدنه لاستحسانهن له ، وسعيهن إلى استماله قلبه] (2) .

● وقال الخازن : [إن الدعاء كان منها خاصة وإنما أضافه إليهن جميعا خروجاً من التصريح إلى التعريض ، وقيل إنهن جميعا دعونه إلى أنفسهن ، وقيل إنهن لما قلن له أطع مولاتك صحت إضافة الدعاء إليهن جميعا] (3) .

● وقال الإمام الألوسي : [﴿ مِمَّا يَدْعُونِي إِلَيْهِ ﴾ من مواعاتها التي تؤدي إلى الشقاوة والعذاب الأليم ... وإسناد الدعوة إليهن ؛ لأنهن خوفته من مخالفتها وزين له مطاوعتها ، فقد روي أن كل واحدة منهن طلبت الخلوة لنصيحته فلما خلت به دعته إلى نفسها ، وعن علي بن الحسين عليه السلام : أن كل واحدة منهن أرسلت إليه سرّاً تسأله الزيارة ، فإسناد ذلك إليهن ؛ لأنهن أيضا دعونه إلى أنفسهن صريحا أو إشارة] (4) .

● وقال صاحب الظلال : [ولم يقل ما تدعوني إليه ؛ فهن جميعا كن مشتركات في الدعوة ، سواء بالقول أم بالحركات واللفظات ... وإذا هو يستنجد ربه أن يصرف عنه محاولاتهم لإيقاعه في حبالهن ، خيفة أن يضعف في لحظة أمام الإغراء الدائم فيقع فيما يخشاه على نفسه ويدعو الله أن ينقذه منه] (5) .

● ويرى صاحب تفسير الميزان أن المرادة وقعت من النسوة جميعهن كما استفاد من ظاهر النص فلقد رأين من حسنه وجماله ما سلب قلوبهن وعقولهن حتى قطعن أيديهن ، ويؤيد هذا الرأي أيضا صاحب كتاب كيد النساء وعصمة الأنبياء ، ولايستبعد وقوع المرادة من النسوة وهن كامرأة العزيز خلاعة ومجوناً (6) . ويقول صاحب كتاب يوسف

(1) الكشف 467/2 . (2) النكت والعيون للماوردي 303/2 بتصرف . (3) تفسير الخازن 281/3 .

(4) روح المعاني للألوسي 235/12 باختصار . (5) في ظلال القرآن 1985/4 .

(6) يراجع تفسير الميزان 153/12 ، 154 ، ويراجع أيضا كيد النساء وعصمة الأنبياء لعبد العظيم عبد العزيز سبيع

ابن يعقوب : [قال بعض المفسرين : إنهن دعونه إلى طاعة امرأة العزيز وتمكينها من رغبتها فيه ، وقال آخرون إنهن دعونه إلى مثل ما دعته امرأة العزيز والدلائل تدل على أن الأمرين قد حدثا] (1) .

● والذي نراه أن المرادة قد وقعت من النساء جميعا لما يتبادر لنا من ظاهر النص ومفهومه ﴿ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ ﴾ ﴿ مَا حَطْبُكَ إِذْ رَوَدْتَنِي يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ ﴾ فهذا يدل على أن المرادة وقعت منهن جميعا ، بالقول الصريح أو بالنظرات والتلميح .

وقوله تعالى : ﴿ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ .

- صبا يصبو صبوة إذا مال ، والصبوة هي الميل القلبي قال الزمخشري : [والصبوة الميل القلبي ، ومنها ريح الصبا ، لأن النفوس تصبو إلى لطيف نسيما وروحها] (2) .
﴿ وَأَكُنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ أي من الذين لا يعملون بما يعلمون ، لأن الذي لا ينتفع بعلمه والجاهل سواء .

﴿ فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُمْ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ .

استجاب الله دعاء يوسف عليه السلام على أبلغ وجه ، ﴿ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُمْ ﴾ أي كيد النسوة ، صرفه عليه السلام عن يوسف عليه السلام وثبته على طريق العصمة والعفة .

﴿ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ السميع للدعاء ، المحيب لصالحه ، والعليم بأحوال العباد وما تنطوي عليه قلوبهم ، وقد سمع الله عليه السلام دعاء يوسف واستجاب له لعلمه سبحانه وتعالى بصدق يوسف عليه السلام وإخلاصه .

﴿ ثُمَّ بَدَأَ لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا آيَاتِنَا لِيَسْجُنُنَّهُ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾ .

﴿ بَدَأَ لَهُمْ ﴾ أي ظهر لهم ولاح ، ﴿ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا آيَاتِنَا ﴾ أي البراهين والأدلة الثابتة الواضحة القاطعة ببراءة يوسف عليه السلام ، وطهارته ، وبدلا من تكريم يوسف عليه السلام ومعاقبة النسوة إذ بهم يلقون بيوسف الصديق في غياهب السجن ، أي منطلق هذا ؟ وأي ميزان ؟ إنه منطلق الظلم وميزان الطغيان ، فبدلا من معاقبة الجاني على جنائته وإثابة البريء على براءته وطهارته نجد الميزان وقد انقلب ، رأسا على عقب ، ليعاقب البريء ،

(1) يوسف بن يعقوب تأليف أحمد عز الدين عبد الله ص 202 مطبعة السعادة .

(2) الكشف 467/2 .

ويترك الجاني ! على حد قول الشاعر :

ولزُبِّ مأخوذٍ بذنبٍ عشيرةٍ ونجى المقارفُ صاحبُ الذنبِ
وكما قال أبو العلاء المعري :

إذا وصف الطائيَّ بالبخلِ مادُرُ وعيِّرَ قسًا بالفهاةِ باقُلُ
وقال السها للشمس أنت ضئيِّلةٌ وقال الدُّجى للصبح لونك حائلُ
وطاولت الأرضُ السماءَ سفاهةً وفاخرت الشهبُ الحصى والجنادُلُ
فياموت زُرُّ إن الحياةَ ذميمةٌ ويا نفسِ جِدِّي إن دهرَكَ هازلُ

● لقد نجحت امرأة العزيز ، وهي الأمرة المطاعة أن تدخل يوسف عليه السلام غياهب السجن كما نجح إخوانه من قبل في إلقاءه في غيابة الحب ، ولكنها والحق يقال تمكنت من تحقيق التهديد الأول ﴿ لَيْسَجَنَّ ﴾ بسلطانها ونفوذها ودلالها على زوجها ، أما التهديد الثاني ﴿ وَلَيَكُونَنَّ مِنَ الصَّغِيرِينَ ﴾ فهيهات هيهات ؛ إن من أعزه الله وأكرمه فلن يستطيع أي مخلوق إذلاله والعزة الحقيقية في الإيمان بالله وطاعته .

قال تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (1) .
وقال عليه السلام : ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ ﴾ (2) فالعزة لله عليه السلام والعزة من الله نلتمسها في الإيمان وفي الكلم الطيب والعمل الصالح .

والمذلة والهوان في الكفر والعصيان .

قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحَادِّثُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ ﴾ (3) .

وقال سبحانه : ﴿ وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴾ (4) .

ولقد ورد عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب أنه قال : « نحن قوم أعزنا الله بالإسلام فمهما ابتغينا العزة من غيره أذلنا الله » (5) .

(2) سورة فاطر : 10 .

(1) سورة المنافقون : 8 .

(4) سورة الحج : 18 .

(3) سورة المجادلة : 20 .

(5) قالها عمر بن الخطاب وهو في طريقه لفتح بيت المقدس يراجع البداية والنهاية لابن كثير 60/7 ومناقب أمير =

● لقد صبر يوسف عليه السلام على محنة السجن كما صبر من قبل أمام محنة المراودة والاسترقاق والبئر وأيقن بأن الفرج من عند الله عز وجل ، وأن إرادته عز وجل هي الغالبة ﴿ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ومع الصبر واليقين تحقق له التمكين .

● يوسف عليه السلام في السجن

ويدخل يوسف عليه السلام السجن ، ويجعل منه خلوة للذكر والفكر ومحرابا للعبادة وساحة للعلم والدعوة ، ويلتقي بخادمي الملك الساقلي والحجاز ويرى كل واحد منهما رؤيا فيطلب تفسيرها منه عليه السلام .

﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانٍ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْرًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (1) .

ويقوم يوسف عليه السلام بتفسير رؤيائهما بعد أن يدعوها إلى عبادة الله الواحد القاهر .

قال تعالى : ﴿ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِيهِ إِلَّا نَبَأُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿٢٥﴾ وَأَتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانُوا لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَٰلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾ يَصْدِحِي السِّجْنَ ۖ أَرْيَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَالِدُ الْقَهَّارُ ﴿٢٧﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَبَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَإِبْرَاهِيمَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ يَصْدِحِي السِّجْنَ ۖ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصَلِّبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴾ (2) .

قدم لهما العقيدة الصحيحة بأسلوب مقنع وبصورة واضحة ، وفسر لهما رؤيائهما

المؤمنين عمر بن الخطاب للإمام ابن الجوزي ص 150 ط دار الكتب العلمية بيروت ط 3 سنة 1407 هـ . وهذا القول لأمر المؤمنين عمر أخرجه الحاكم في المستدرک 1/62 - ك الإيمان ، وقال صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ووافقه الذهبي .

تفسيرا صادقا ، وطلب من الساقى أن يرفع أمره إلى الملك حين يلتقي به .

قال تعالى في سورة يوسف : ﴿ وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنَسَهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴾ (1) .

ويمضي قدر الله ﷻ في يوسف ﷺ فيمكث في السجن بضع سنوات ويرى الملك رؤيا ، ولا يجد من يفسرها له . قال تعالى في سورة يوسف : ﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِن كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ ﴾ (2) .

وهنا يتذكر الساقى يوسف ﷺ الذي فسر له رؤياه في السجن فوَقعت كما فسرت ، ويستأذن الساقى الملك ويذهب إلى يوسف في السجن ويطلب منه تعبير الرؤيا ، فيعبرها يوسف ﷺ ويضع خطة اقتصادية لمواجهة سنوات القحط والجذب التي تنتظر مصر وبعض البلاد من حولها ، ويبلغ التفسير والتخطيط إلى الملك فيعجب بيوسف ﷺ ويأمر بخروجه من السجن وحضوره إلى القصر لمقابلته ، ولكن يوسف ﷺ يأبى الخروج من السجن إلا بعد إعادة النظر في سبب دخوله السجن وإعادة التحقيق في القضية التي مرت الأعوام عليها ، لأن الحقوق في منظور الشرع لا تسقط بالتقدم ، وليعلم الناس جميعا أنه دخل السجن ظلما .

قال تعالى : ﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُؤْتِنِي بِهٖ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ الَّتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴾ (3) .

شهادة النسوة واعتراف المرأة ، والخروج من السجن

قال تعالى في سورة يوسف : ﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُؤْتِنِي بِهٖ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ الَّتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴾ (4) . قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رُودْتُنَّ يُوسُفَ عَنِ نَفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْفَنِّ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رُودْتُهُ عَنِ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ (5) ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْغَافِلِينَ (6) وَمَا أُبْرِيئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ

(2) سورة يوسف : 43 ، 44 .

(1) سورة يوسف : 42 .

(3) سورة يوسف : 50 .

لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَجِمَ رَبِّيَّ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١﴾ .

جاء رسول الملك إلى يوسف في السجن ليشره بإعجاب الملك به وأمره بالإفراج عنه قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ أَرْجِعْ إِلَيَّ رَبِّكَ ﴾ أي إلى سيدك وهو الملك ، ﴿ فَسَأَلَهُ مَا بَأَلِ السُّوءِ الَّتِي قَطَعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ﴾ ما خطبهن ؟ ولماذا قطعن أيديهن ؟ .

قال الشيخ الصابوني : [راعى يوسف عليه السلام الأدب ، فاقتصر في كلامه على أن يسأل الرسول الملك عن تلك الواقعة ، لئلا يشتمل اللفظ على ما يجري مجرى الأمر للملك فإن الملوك يأمرون ولا يؤمرون ، وهذا الأسلوب الرفيع يهيج الملك على البحث والتفتيش ، وهكذا حدث فإنه لما بلغه أن يوسف لم يخرج من السجن ، حتى يطلع الملك وحاشيته على الحقيقة اهتم بالأمر غاية الاهتمام] (1) .

طلب يوسف التحقيق في القضية وإعادة النظر في صفحاتها المنسية [وفي ذلك دليل على أن الاجتهاد في نفي التهم واجب وجوب اتقاء الوقوف في مواقفها ، ولقد قال الرسول صلى الله عليه وآله وسلم للصحابة الذين مروا به وهو واقف مع زوجته السيدة صفية رضي الله عنها إنها صفية (2) لئلا يترك في النفوس شيئا يستدعي الرية ، والتهمة .

ويوسف عليه السلام يطلب إعادة النظر في القضية وهو ما زال في السجن ولا يتعجل خروجه حتى يعرف الجميع ببراءته (3) .

(1) قيس من نور القرآن الكريم للصابوني 161/5 .

(2) الحديث رواه الإمام البخاري في صحيحه عن علي بن الحسين رضي الله عنهما عن صفية رضي الله عنها ك الاعتكاف باب هل يخرج المعتكف لحوائجه إلى باب المسجد حديث 2035 فتح الباري 326/4 ورواه الإمام مسلم في صحيحه عن علي بن الحسين عن صفية ك / السلام باب دفع ظن السوء - صحيح مسلم بشرح النووي 156/14 .

(3) وقد كان بإمكانه عليه السلام أن يرجئ إعادة النظر والتحقيق في القضية إلى حين خروجه من السجن وتولية المنصب الكبير الذي ينتظره ، ولكنه عليه السلام أصر على فتح - الصفحات المطوية - للقضية قبل أن يتنسم عبير الحرية ، حتى يخرج من السجن بعد أن يعرف الجميع ببراءته ونزاهته وطهارته وجدارته بتقلد أعلى المناصب ، ولو أنه عليه السلام بادر بالخروج إلى السجن وأرجأ فتح - سجل - القضية بعد أن يتبوأ منصباً رفيعاً : فلربما ظن بعض الناس أنه استغل نفوذه وسلطانه في إثبات براءته .

وفي هذا الموقف الحكيم للصديق يوسف عليه السلام درس هام في النزاهة والطهارة وأصول الحكم ، ما أحوجنا إلى الاستفادة منه سيما في هذا الزمان العجيب الذي كثر فيه من يتحصن بمصبه ويتستر بسلطانه ويستغل حصانته ونفوذه في قلب موازين القضاء ، أين موقف يوسف عليه السلام ذلك الموقف المهيب من المواقف المريبة المخزية لرؤساء ووزراء - في بقاع شتى من عالمنا المعاصر - يستغلون حصانتهم - (الدبلوماسية) في التغطية على أفعال تخل =

وهذا يدل على جميل صبره ، وقوة تحمله ، وفي هذا المعنى يقول ﷺ [... ولو لبثت في السجن ما لبث يوسف ثم أتاني الداعي لأجبتة] (1) .

ولم يصرح يوسف ﷺ بذكر امرأة العزيز تأدبا وتعففا ولقد قابلت هذا الأدب الرفيع من يوسف ﷺ بالاعتراف بما صنعته والشهادة ليوسف ﷺ بالعفة والطهارة فقالت كما أخبر القرآن ﴿ الْفَنَ حَصَّصَ الْحَقُّ ﴾ أي ظهر جليا ، ﴿ أَنَا رَوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِي ﴾ اعتراف واضح صريح ﴿ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ مع ربه ومع نفسه ومع العزيز ، والصدق هو أساس الأخلاق الحميدة ومنبعها .

﴿ ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِبِينَ ﴾ ﴿ وَمَا أُبْرِئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَجَعَهُ رَبِّي إِنَّ رَبِّي عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (2) .

● هل هذه العبارة من تنمة كلام المرأة كما يتبادر من السياق أم أنها من كلام يوسف

ﷺ ؟

الذي أراه والله أعلم : أن العبارة من تنمة كلام المرأة ، كما يفهم من ظاهر النص والسياق ، ولقد أقرت المرأة بما صنعت وبرأت يوسف ﷺ ، ليعلم ﷺ أنها لم تخنه بالغيب أي لم تكذب عليه ولم تذكره بسوء حين غيبته بل اعترفت بالحقيقة .

وقيل أرادت أنها لم تخن زوجها بالوقوع في الزنا ؛ لأن رغبتها لم تتحقق ، فهي تعترف بأنها راودت يوسف عن نفسه ، وأنه ﷺ لم يستجب لها .

﴿ وَمَا أُبْرِئُ نَفْسِي ﴾ من تنمة كلام المرأة ، اعتراف منها بالتهمة ﴿ إِنَّ النَّفْسَ

= بالمرءة والشرف والأمانة ، تحميمهم قوانين وضعية جائزة قاصرة .

(1) رواه البخاري في صحيحه عن أبي هريرة ؓ - كتاب أحاديث الأنبياء باب قول الله تعالى في سورة يوسف ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِّلسَّائِلِينَ ﴾ يوسف : 7 - حديث 3387 - فتح الباري 6/481 ، 482 [ولقد قال الرسول ﷺ ذلك تواضعا والتواضع لا يحط من رتبة الكبير بل يزيده رفعة وجلالا] فتح الباري 6/476 ورسول الله ﷺ هو المثل الأعلى في الأنبياء ، في مكارم الأخلاق كلها والتي من جملتها ، خلق الصبر ، فلقد تحمل رسول الله ﷺ كثيرا من الابتلاءات والمحن في حياته ودعوته .

ويقول ابن قتيبة في تأويل مختلف الحديث [... وهذا أيضا جنس من تواضعه ﷺ ، امتداح لنبي الله يوسف الذي ضرب مثلا رائعا في الصبر] تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة الدينوري ت 276 هـ ص 105 ط دار

لَأَمْرًا بِالسَّوِّءِ ﴿ فَالهداية والعصمة من الله ﷻ ، ﴿ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ هو ﷻ الغفور الرحيم لمن تاب وأتاب . وهذا الكلام كما ذكرنا من تنمة كلام المرأة (1) .

وقيل إن هذا الكلام ﴿ ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِبِينَ ﴾ ﴿ وَمَا أُبْرِئُ نَفْسِي ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ من كلام يوسف ﷻ ، والمعنى طلبت التحقيق في القضية لتظهر براءتي ويعلم العزيز أنني لم أخنه في زوجه ، أو تمسكت بالعصمة والعفة ليعلم العزيز أنني لم أخنه في عرضه .

وهذا الكلام من يوسف تعريض بامرأة العزيز التي خانت زوجها ، أو تعريض بالعزيز الذي قابل الأمانة بالخيانة حيث حبس يوسف ﷻ وكان الأولى به أن يكافأه لأمانته وعفته وفي هذا الكلام إشارة إلى أن الخيانة عاقبتها وخيمة ونهايتها مفرعة أليمة .

وقوله ﷻ : ﴿ وَمَا أُبْرِئُ نَفْسِي ﴾ ﴿ من تنمة كلام يوسف ﷻ - على هذا الرأي - وهذا الكلام تواضع منه ﷻ ؛ لتلا يكون لها مذكيا وبها معجبا ، وليبين للناس أن أمانته وعفته وطهارته : فضل من الله ونعمة ، وهداية ورحمة ، ورعاية وعصمة (2) .

والذي نختاره في هذه المسألة : أن قوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِبِينَ ﴾ ﴿ وَمَا أُبْرِئُ نَفْسِي ﴾ إِنَّ النَّفْسَ لَأَمْرًا بِالسَّوِّءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ : من تنمة كلام امرأة العزيز ، لأن السياق يؤكد ذلك وظاهر النص يفيد ، وهذا الكلام هو اللائق بحال المرأة ، وحمله على يوسف ﷻ لا يخلو من تكلف وتعسف ، ويوسف ﷻ لم يحضر التحقيق في القضية ؛ لأنه كان في السجن في ذلك الحين لم يخرج منه بعد ، لاحظ الصلة بين قول المولى ﷻ إخبارا عن اعتراف المرأة ﴿ أَلَنْ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوِدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ وبين ﴿ ذَلِكَ

(1) ذكر هذا الرأي القرطبي في الجامع 209/9 والماوردي في النكت والعيون 314/2 .

- ويراجع قصص الأنبياء لابن كثير ص 245 ، واختار هذا الرأي أن الجملة من كلام امرأة العزيز : الإمام الرازي في تفسيره 158/18 ، واختاره أيضا رشيد رضا في تفسير المنار 267/12 وسيد قطب في الظلال 1995/4 ، 1996 ، والدكتور محمد البهي في كتابه التفسير الموضوعي لسورة يوسف ص 32 ، 33 ط مكتبة وهبة ط 1 سنة 1396 هـ - وعفيف طبارة في كتابه مع الأنبياء في القرآن الكريم ص 172 ، وغيرهم .

(2) ذهب إلى هذا الرأي الإمام ابن جرير الطبري في تفسيره 238/12 والزمخشري في الكشاف 479/2 ، والإمام الجمل في حاشيته على تفسير الجلالين - 460/2 ، ورجحه الألوسي أيضا 261/12 وصاحب تفسير الميزان 196/12 : 198 ، وعبد الكريم الخطيب في كتابه قصص آدم ويوسف ﷻ ص 104 ، 105 وغيرهم .

لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ ﴿٤٠﴾ . ولو كان من كلام يوسف لاحتاج إلى ما يدل على وقوع الالتفات من كلام المرأة إلى كلام يوسف ﷺ ، والله تعالى أعلم

التمكين ليوسف ﷺ

مر يوسف ﷺ بمحن كثيرة منها محنة كيد الإخوة به ، وإلقائه في البئر، ومحنة الاسترقاق وبيعه في الأسواق ، ومحنة المراودة وهي من أعظم المحن ومن أشد الفتن ، ثم محنة السجن ، وهي محنة شاقة عصبية .

وبعد الثبات أمام هذه المحن والابتلاءات يكرم المولى ﷺ عبده ونبيه يوسف بالتمكين في الأرض ، فيختاره الملك ليكون قائما على خزائن الأرض ، لما رأى من أمانته وعفته وصدقه وعلمه . [ومن كان أمينا على الأعراض فهو أولى أن يكون أمينا على الأموال وخزائن الأرض] (1) .

قال تعالى : ﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُؤْتِيهِمْ مِنْهُمُ اسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٤١﴾ قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلَيْمُ ﴿٤٢﴾ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُونَ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٤٣﴾ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَنْقُوتُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ (2) .

اجتماع الشمل

استقبل يوسف ﷺ فيض المنح بشكر المنعم ﷻ ... وجاء إليه إخوته ، فعرفهم ولم يعرفوه ، وكان بمقدوره أن ينتقم منهم ويثأر لنفسه ولكنه كان معهم عادلا منصفا وبهم رفيقا رحيفا ... ولقد طلب منهم إحضار أخيهام معهم فجاءوا به ، وتمكن ﷺ بحيلة شرعية أن يستبقه ... وتمضي الأحداث بيوسف وإخوته حتى يكشف لهم عن حقيقته ويخبرهم بأنه يوسف ، يوسف الذي حسدوه ، يوسف الذي استدرجوه حتى نزعوا قميصه وألقوا به في غيابة الجب ، ثم كذبوا على أبيهم وادعوا أن الذئب قد أكله ، والذئب بريء من دمه .

(1) التذوق الجمالي لسورة يوسف محمد علي أبو حمدة ص 84 ط دار البشير عمان ط 1 سنة 1405 هـ سنة

(2) سورة يوسف : 54 ، 57 .

أخبرهم يوسف بنفسه : ﴿ قَالَ هَلْ عَلَّمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ يَوْسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ ﴾ (١) قَالُوا أَوَإِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٢﴾ قَالُوا تَأَلَّه لَقَدْ آتَيْنَاكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَطِئِينَ ﴿٣﴾ قَالَ لَا تَثْرِبَ عَلَيْكُمْ أَيُّومَ يَعْفُرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٤﴾ (١) .

... ثم تتواصل الأحداث ويجتمع شمل يوسف بأبويه وإخوته بعد طول الفراق يجتمع الشمل ، ويلتقي يوسف بأهله أجمعين في أرض مصر .

قال تعالى في سورة يوسف : ﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ ﴾ (١) وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٢﴾ .

وظاهر النص الكريم يفيد بأن أم يوسف كانت على قيد الحياة وأنها قدمت إلى مصر مع زوجها يعقوب عليه السلام لتلتقي بولدها يوسف عليه السلام بعد طول فراق والتعبير بـ (أبويه) من باب التغليب (٢) .

قال محمد بن إسحاق وابن جرير الطبري : كان أبوه وأمه على قيد الحياة وقال ابن جرير : لم يقيم دليل على موت أمه وظاهر القرآن يدل على حياتها ، وقال ابن كثير: هذا الذي نصره ابن جرير هو المتصور الذي يدل عليه السياق (٣) .

والسجود ليوسف عليه السلام كان سجود تحية وتكريم لا سجود عبادة وتعظيم ولقد كان سائغا، جائزا في الشرائع السابقة ، أما في الإسلام فقد شرع لنا « السلام » وهو ﴿ تَحِيَّةٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبْرَكَةٌ طَيِّبَةٌ ﴾ (٤) .

وبعد تمام هذه النعم الإلهية يتوجه يوسف عليه السلام إلى ربه ليطلب منه حسن الخاتمة ،

(١) سورة يوسف : 89 ، 92 .

(٢) الأيونان : الأب والأم ، كالأسودين التمر والماء والعمرين : أبو بكر وعمر وهذا من قبيل التغليب .

(٣) جامع البيان للطبري 67/13 وتاريخ الطبري 218/1 . وتفسير ابن كثير 491/2 .

(٤) سورة النور : 61 .

ويطلب منه الفلاح في الآخرة كما أصلح الله شأنه في الدنيا وجمع له شمله فيقول كما أخبر القرآن الكريم .

﴿ رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحَقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾ (1) .

المبحث الخامس

الفوائد المتعلقة بقصة يوسف عليه السلام مع امرأة العزيز

- أساس التربية القويمة .
- التربية حصن منيع .
- حرمة الاختلاط والحلوة بالمرأة الأجنبية وأثرهما السيئ .
- الاعتصام بالله تعالى وصيانة الحرمه والمحافظه على النعمه .
- من تبصر العاقبة أمن الندامة .
- منزلة الإخلاص وثمرته .
- الحكم بالقرائن العقلية .
- فضيلة العفة .
- ذم الهوى .
- أنواع النفوس .
- فائدة : حول الغيرة .
- كيد النساء .
- معنى قول رسول الله صلى الله عليه وسلم لعائشة (رضي الله عنها) : « إنكن صواحب يوسف » .
- فضل الصبر .
- فتنة النساء .
- القصص القرآني أحسن القصص .

الفوائد المتعلقة بقصة يوسف ﷺ مع امرأة العزيز

في قصة يوسف مع امرأة العزيز : كثير من العبر المستخلصة والدروس المستفادة نذكر منها ما يلي :

أساس التربية القويمة

● في قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ ۖ ءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۖ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ بيان لأسس ودعائم التربية القويمة الراشدة ، وهي التي تحقق التوازن التام والانسجام بين الروح والجسد ؛ ففي قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ ۖ ﴾ إشارة إلى اكتمال نموه وقوة واستواء جسمه ، وفي قوله تعالى : ﴿ ءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۖ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ إشارة إلى القوة الروحية المتمثلة في العلم والحكمة والإحسان ، علم نافع وعقل راجح وبصيرة نافذة ، وإدراك واع وقلب سليم ونفس طاهرة زكية آمنة مطمئنة راضية مرضية ، وكل ذلك من ثمرات النبوة ومن قبساتها . وفي هذا درس عظيم للمربين : - أن يجمعوا بين التربية البدنية ، والتربية العقلية ، والتربية الروحية حتى تكون التربية مكتملة ومثمرة .

التربية حصن منيع

● وفي ذكر هذه الآية ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ ۖ ... ﴾ قبل الحديث عن فتنة المراهقة التي تعرض لها يوسف ﷺ ، في ذلك إشارة واضحة إلى فائدة جليلة من فوائد التربية ، فهي حصن منيع لصاحبها ، يتخطى بها الصعوبات ويصمد أمام المحن والابتلاءات .

حرمة الاختلاط والخلوة بالمرأة الأجنبية وأثرهما السيئ

● ومن قوله تعالى : ﴿ وَرَوَدَتْهُ الْمَتَىٰ هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ ۖ وَعَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ ۖ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ﴾ ندرك خطورة الاختلاط والخلوة بالمرأة الأجنبية ، فهما من الأسباب الداعية والدواعي المسببة في وقوع الفاحشة .

ولقد حرم الإسلام الزنا وحرّم كل خطواته ومقدماته من نظرة محرمة ، ومن اختلاط وخلوة ، وتبرج ، وغير ذلك من الدواعي والأسباب التي تؤدي إلى الوقوع في الزنا ، قال تعالى : ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزَّيْنَةَ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا ﴾ (1) .

وقال تعالى في سورة النور: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوبَ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوبَ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١﴾ .

الاعتصام بالله ﷻ وصيانة الحرمه والمحافظة على النعمة

● وفي قول يوسف عليه السلام حين راودته المرأة وغلقت الأبواب ودعته إلى نفسها ﴿ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾ .

إشارة إلى وجوب الاستعاذة بالله ﷻ والاعتصام به سبحانه من الفتن ﴿ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ ﴾ ، وصيانة الحرمه ورعاية العهد والذمة وأداء شكر النعمة ﴿ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ ﴾ ، وفي قوله تعالى: ﴿ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾ إشارة إلى شؤم المعصية وسوء عاقبتها في الدنيا والآخرة (2) .

من تبصر العاقبة أمن الندامة

● وفي قوله تعالى: ﴿ لَوْلَا أَن رَّءَا بُرْهَانَ رَبِّيَ ﴾ إشارة إلى أن من تبصر العاقبة أمن الندامة ، وعلى المرء أن ينظر في عاقبة أمره ويتذكر دائما مرجعه إلى الله ﷻ ووقوفه بين يديه سبحانه قال تعالى: ﴿ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (3) .

ولينظر الإنسان في عاقبة العصيان وفي لذته المنقضية الفانية في مقابل ما يترتب على المعصية من عقاب ، وليتفكر العاشق في مصير من يعشق من الفاتنات الحسان ، وانتقالهن من صفوة الشباب ونضرتة إلى ضعف المشيب وكدرته ، ومن الحياة إلى الممات ، ومن المساكن والقصور إلى القبور ، ومن التقلب في الفراش الوثير والتنعم بالحرير إلى الرقاد في التراب .

(1) سورة النور : 21 .

(2) وفي هذا المعنى يقول الشاعر الحكيم :

إذا كنت في نعمة فارعها
وداوم عليها بشكر الإله
إذا تم شيء بدا نقصه

فإن المعاصي تزيل النعم
فإن الإله سريخ النقم
ترقب زوالا إذا قيل تم

(3) سورة المائدة : 105 .

وفي هذا المقام يحضرنى قول الشاعر الحكيم :

قبر الحبيب فلم يردّ جوابي !!	مالي مررت على القبور مسلماً
أملت بعدي خلة الأصحاب ؟	أحبيب مالك لا تجيب مناديا
وأنا رهين جنادلٍ وترابٍ	قال الحبيب وكيف لي بجوابكم
وحجبت عن أهلي وعن أصحابي	أكل التراب محاسني فستيتكم
يا طالما لبست رفيع ثياب	وتمزقت تلك الجلود تمزقا
ما كان أحسنها لخط كتابي	وتساقطت تلك الأنامل من يدي
ما كان أحسنها لرد جوابي	وتناثرت تلك الشنايا لؤلؤا
يا طالما نظرت بهم أحبائي	وتساقطت تلك العيون على الثرى

منزلة الإخلاص وثمرته

● وفي قوله تعالى : ﴿ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴾ .

بيان بأن العصمة والهداية من الله ﷻ ، وبيان لمنزلة الإخلاص وطيب ثمرته ؛ فالقلب الذي نور بالإخلاص لا مكان فيه لظلمات السوء والفحشاء ، فهو قلب متعلق بالله ، مشغول به عما سواه ، قلب لا يعرف الهمم الدنية ولا يهتم بالأعراض الدنيوية (1) .

الحكم بالقرائن العقلية

● وفي قوله تعالى : ﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدًّا مِنْ قَبْلِ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَذَّابِينَ ﴾ (٧) وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدًّا مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿ (٨) فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدًّا مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴾ (2) .

(1) فهو كما قال الشاعر :

ما سواك ملأته بهداك
مني مكانا خاليا لسواك

لما علمت بأن قلبي فارغ
وملأت كلي منك حتى لم أدع

(2) سورة يوسف : 26 - 28 .

في هاتين الآيتين إشارة إلى أهمية الشواهد والقرائن العقلية في الحكم ومعرفة القضايا الشائكة الخفية ، ومعرفة الجناة كما نرى ونسمع في عصرنا الحاضر .

فضيلة العفة

في قصة يوسف عليه السلام مع امرأة العزيز والنسوة ، وثباته أمام الإغراءات والمراوذة ، وإيثاره السجن على الاستجابة لهن مع ما في السجن من شدة ومحنة ، ومع ما في الاستجابة لهن من متعة ولذة .

في هذا الموقف الكريم الذي ثبت عليه يوسف عليه السلام درس بليغ في العفة ⁽¹⁾ ، يقول ابن القيم في كتابه روضة المحبين : [وقد ذكر الله سبحانه وتعالى عن يوسف الصديق عليه السلام من العفاف أعظم ما يكون ، فإن الداعي الذي اجتمع في حقه لم يجتمع في حق غيره ؛ فإنه عليه السلام كان شاباً والشباب مَرَكِبُ الشهوة ، وكان عزبا ليس عنده ما يعوضه ؛ وكان غريبا عن أهله ووطنه والمقيم بين أهله وأصحابه يستحيي منهم أن يعلموا به فيسقط من عيونهم فإذا تغرب زال هذا المانع ؛ وكانت المرأة ذات منصب وجمال والداعي مع ذلك أقوى من داعي من ليس كذلك وكانت هي الطالبة والراغبة وهو المطلوب المرغوب ؛ وبذلك لن يتكلف عناء الطلب وخيبة الرجاء ؛ ولقد برهنت على حبها ورغبتها بإغلاق الأبواب والمراوذة ؛ لتأمن هجوم الداخل على بغتة ، وأتته بالرغبة والرغبة ، ومع هذا كله فقد عف لله ولم يطعها ، وقدم حق الله وحق سيدها على ذلك كله] ⁽²⁾ .

والعفة خلق كريم ومنهج قويم ، ينبغي على كل مسلم أن يسلك طريقها ويتمسك بها :

قال صاحب لسان العرب : [العفة : الكف عما لا يحل ويجمل ، عَفَّ عن المحارم والأطماع الدنية يِعْفُ عِئْفَةً وَعَعْفًا وَعَعْفًا وَعَعْفًا فهو عَفٌّ وعفيف ، والاستعفاف طلب العفاف ، وهو الكف عن الحرام والسؤال من الناس ، وقيل الاستعفاف الصبر والنزاهة عن الشيء] ⁽³⁾ .

(1) درس مهم ومثل رائع ونموذج طيب ينبغي أن يقتدي به الشباب المسلم في البلدان الإسلامية عموما وفي البلاد الأجنبية على وجه الخصوص حيث تكثر الإغراءات وتشتد الابتلاءات .

(2) روضة المحبين ونزهة المشتاقين لابن قيم الجوزية ص 309 بتصرف ط دار الفكر العربي .

(3) يراجع لسان العرب 3015/4 مادة ع ف ف .

ويقول الإمام الراغب الأصفهاني : [العفة هي ضبط النفس عن الملاذ الحيوانية وهي حالة متوسطة بين إفراط هو الشره ، وتفريط وهو جمود الشهوة ، وهي أسُّ الفضائل من القناعة والعفة والزهد وغنى النفس والسخاء ... ومن اتسم بسمه العفة قامت العفة له بحجة ما سواها من الفضائل وسهلت له سبيل الوصول إلى المحاسن] (1) .

● وقال ﷺ : ﴿ وَلَسْتَ عَفِيفٌ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُعِينَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ (2) .

أي على هؤلاء الذين لا يقدرّون على تكاليف الزواج المالية أن يتمسكوا بالعفة حتى يعينهم المولى ﷺ ويعينهم على الزواج .

● ومن دعاء الرسول ﷺ اللهم إني أسالك الهدى والتقى والعفاف والغنى (3) .

ويقول ﷺ : « سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله ، الإمام العادل ، وشاب نشأ في عبادة ربه ، ورجل قلبه معلق في المساجد ، ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه ، ورجل طلبته امرأة ذات منصب وجمال فقال : إني أخاف الله ، ورجل تصدق ، أخفى حتى لا تعلم شماله ما أنفقت يمينه ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه » (4) .

وبمناسبة هذا الموقف العظيم لنبي الله يوسف ﷺ يطيب لي في هذا المقام أن أقدم للقارئ الكريم مواقف أخرى في العفة والطهارة بدأها بهذا الموقف الذي حدثنا عنه الصادق المصدوق ﷺ حيث ورد عن أبي عبد الرحمن عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « انطلق ثلاثة نفر ممن كان قبلكم حتى آواهم المبيت إلى غار فدخلوه فانحدرت صخرة من الجبل فسدت عليهم

(1) الذريعة إلى مكارم الشريعة للراغب الأصفهاني تحقيق د . أبو اليزيد العجمي ص 318 بتصرف ط دار الوفاء

ط 1 سنة 1405 هـ سنة 1985 م . (2) سورة النور : 33 .

(3) الحديث رواه الإمام مسلم في صحيحه عن عبد الله بن مسعود كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار .

باب في الأدعية : حديث 2721 - صحيح مسلم بشرح النووي 40/17 ، 41 .

(4) رواه الإمام البخاري في صحيحه بسنده عن أبي هريرة ؓ - واللفظ له - صحيح البخاري ك / الآذان

باب / من جلس في المسجد ينتظر الصلاة وفضل المساجد حديث / 660 فتح الباري 168/2 - ورواه في

كتاب الزكاة باب الصدقة باليمين عن أبي هريرة ؓ حديث / 1423 وفيه (إمام عدل) و (رجل تصدق

بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما أنفقت يمينه) - فتح الباري 344/3 ورواه الإمام مسلم في صحيحه عنه

ك / الزكاة باب فضل إخفاء الصدقة حديث / 91 صحيح مسلم بشرح النووي 122/7 ورواه النسائي في السنن

عنه ك / آداب القضاة باب الإمام العادل 222/8 ورواه الإمام أحمد في المسند عنه 439/2 .

الغار فقالوا : إنه لا ينجيكم من هذه الصخرة إلا أن تدعوا الله بصالح أعمالكم - فقال رجل منهم : اللهم كان لي أبوان شيخان كبيران ، وكنت لا أغبق قبلهما أهلاً ولا مالاً فأنى بي في طلب شيء يوماً فلم أرح عليهما حتى ناما فحلبت لهما غبوقهما فوجدتهما نائمين ، فكرهت أن أغبق قبلهما أهلاً ولا مالاً ، فلبثت والقده على يدي - أنتظر استيقاظهما حتى برق الفجر فاستيقظا فشربا غبوقهما - اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك ففرج عنا ما نحن فيه من هذه الصخرة فانفرجت شيئاً لا يستطيعون الخروج منه - قال النبي صلى الله عليه وسلم : وقال الآخر اللهم كانت لي بنت عم كانت أحب الناس إليّ وفي رواية كنت أحبها كأشد ما يحب الرجال النساء - فأردتها عن نفسها فامتنعت مني حتى أملت بها سنة من السنين فجاءتني فأعطيتها عشرة ومائة دينار على أن تخلي بيني وبين نفسها ففعلت ، حتى إذا قدرت عليها - وفي رواية فلما وعدت بين رجلها - قالت : لا أحل لك أن تفض الخاتم إلا بحقه فتخرجت من الوقوع عليها ، فانصرفت عنها وهي أحب الناس إليّ وتركت الذهب الذي أعطيتها اللهم إن كنت فعلت ذلك إبتغاء وجهك فافرج عنا ما نحن فيه فانفرجت الصخرة غير أنهم لا يستطيعون الخروج منها ، قال النبي صلى الله عليه وسلم : وقال الثالث : اللهم إنني استأجرت أجراً فأعطيتهم غير رجل واحد ترك الذي له وذهب فثمرت أجره حتى كثرت منه الأموال فجاءني بعد حين فقال : يا عبد الله أد إلي من أجري فقلت له : كل ما ترى من الإبل والبقر والغنم والرقيق ، فقال يا عبد الله لا تستهزئ بي فقلت : إنني لا أستهزئ بك فأخذه كله فاستاقه لم يترك منه شيئاً . اللهم فإن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنا ما نحن فيه ، فانفرجت الصخرة فخرجوا يمضون « (1) .

2 - ومن المواقف المشهورة في العفة والطهارة ومراقبة الله تعالى ما ورد عن أحد السلف الصالح وهو سليمان بن يسار وكان من أحسن الناس وجهاً خرج من المدينة حاجاً ومعه عطاء بن يسار حتى نزلا بالأبواء فقام رفيقه وأخذ السفارة وانطلق إلى السوق لبيتاع شيئاً وجلس سليمان في الخيمة فبصرت به أعرابية فانحدرت إليه حتى وقفت بين يديه وعليها البرقع والقفازان فأسفرت عن وجه لها كأنه فلقة قمر وقالت : أهنتني فظن أنها تريد طعاماً فقام إلى فضلة السفارة ليعطيها فقالت لست أريد هذا إنما أريد من يكون من الرجل إلى أهله فقال جهّزت إلى إبليس ؟ ثم وضع رأسه بين ركبتيه وأخذ في النحيب فلم يزل يبكي فلما رأت منه ذلك سدلت البرقع على وجهها وانصرفت راجعة حتى

(1) الحديث رواه البخاري في صحيحه 369/4 ، 370 ، ومسلم في صحيحه برقم 2743 .

بلغت أهلها وجاء رفيقه فرآه احمرت عيناه من البكاء فقال ما يبكيك ؟ قال خير ، ذكرت صبيتي ، قال لا والله ، إلا أن لك قصة إنما عهدك بصبيتك منذ ثلاث أو نحوها فلم يزل به حتى أخبره خبر الأعرابية فوق رفيقه السفارة وجعل يبكي بكاء شديدًا فقال سليمان وأنت ما يبكيك ؟ قال أنا أحق بالبكاء منك لأنني أخشى أن لو كنت مكانك لما صبرت عنها فلم يزالا يبكيان فلما انتهى سليمان إلى مكة فسعى وطاف ثم أتى الحجر فاحتبى بثوبه فأخذته عينه فنام وإذا برجل وسيم له شارة حسنة وهيئة طيبة ورائحة عطرة فقال له سليمان رحمك الله من أنت ؟ قال له أنا يوسف قال يوسف الصديق ؟ قال نعم قال إن في شأنك وشأن امرأة العزيز لعجبا ، فقال له يوسف شأنك وشأن صاحبة الأبناء عجيب (1) ! .

3 - وروى ابن الجوزي في كتاب ذم الهوى قال : حدثني أبو محمد عبد الله بن علي المقرئ قال : حدثني أبو سعيد أبي عمامة أن رجلاً أحب امرأة فأحبته فاجتمعا فراودته المرأة عن نفسه فقال : إن أجلي ليس بيدي وأجلك ليس بيدك فربما كان الأجل قد دنا فنلقى الله عاصيين : فقالت : صدقت فتابا وحسنت حالتها (2) .

4 - وروى أيضًا بسنده عن شيخ من بني عبد القيس قال : سمعتهم يقولون : إن رجلاً أراد امرأة عن نفسها ، فقالت إنك قد سمعت الحديث وقرأت القرآن فأنت أعلم فقال لها : غلقتي جميع الأبواب فأغلقتها فدنا منها فقالت : بقي باب لم أغلقه قال : أي باب قالت : الباب الذي بينك وبين الله تعالى (3) .

5 - وخلا رجل بامرأة جميلة فراودها عن نفسها فقالت : أما تستحي من أن يرانا أحد فقال : ليس معنا أحد ولا يرانا أحد إلا الكواكب !! فقالت له : وأين مكوكبها ؟ تعني أين خالقها ومسيرها .

وإذا خلوت برية في ظلمة والنفس داعية إلى العصيان

فاستحيى من نظر الإله وقل له إن الذي خلق الظلام يراني

6 - وأورد ابن الجوزي في كتاب ذم الهوى بسنده عن صالح بن أحمد بن عبد الله ابن مسلم العجلي قال حدثني أبي قال حدثني أبي عبد الله قال : كانت امرأة جميلة بمكة وكان لها زوج فنظرت يوماً إلى وجهها في المرأة فقالت لزوجها : أترى أحدًا يرى هذا

(1) إحياء علوم الدين 101/3 ، 102 ودم الهوى لابن الجوزي ص 354 .

(2) ذم الهوى ص 274 .

(3) ذم الهوى ص 268 .

الوجه لا يفتن به ؟ قال نعم : قالت من : قال عبيد بن عمير : قالت فأذن لي فيه فلافتننه قال قد أذنت لك . قال : فأتته كالمستغيثة فخلا معها في ناحية من المسجد الحرام قال : فأسفرت عن مثل فلقة القمر فقال لها : يا أمة الله قالت : إني قد فتنت بك فانظر في أمري .

قال : إني سائلك عن شيء فإن أنت صدقتيني نظرت في أمرك .

قالت : لا تسألني عن شيء إلا صدقتك ، قال : أخبريني لو أن ملك الموت أتاك ليقبض روحك أكان يسرك أني قضيت لك هذه الحاجة ؟ قالت : اللهم لا قال : صدقت - قال : فلو أدخلت في قبرك وأجلست للمساءلة أكان يسرك أني قضيت لك هذه الحاجة قالت : اللهم لا قال : صدقت قال : فلو أن الناس أعطوا كتبهم ولا تدرين تأخذين كتابك يمينك أم بشمالك ، أكان يسرك أني قضيت لك هذه الحاجة ؟ قالت : اللهم لا قال : صدقت ، قال : فلو جيء بالموازين وجيء بك لا تدرين تخفين أن تثقلين أكان يسرك أني قضيت لك هذه الحاجة ؟ قالت : اللهم لا ، قال صدقت قال : اتقي الله ، فقد أنعم الله عليك وأحسن إليك قال : فرجعت إلى زوجها فقال : ما صنع ؟ قالت : أنت بطلال ونحن بطالون !! فأقبلت على الصلاة والصوم والعبادة قال : فكان زوجها يقول : مالي ولعبيد بن عمير أفسد علي امرأتي ، كانت في كل ليلة عروسًا فصارت راهبة ! .

ذم الهوى

غلب الهوى على امرأة العزيز ، وأصبحت أسيرة للشهوات والملذات وملك الحب شغاف قلبها ، واستولى على عقلها . أما يوسف عليه السلام فهو النبي المعصوم ، صاحب العقل المستنير بأنوار النبوة ، وليس للهوى أي سلطان عليه .

ولقد حذرنا المولى عليه السلام في كتابه الكريم من اتباع الهوى ، وأندر الذين ملك الهوى زمام قلوبهم ، قال تعالى ﴿ أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهُهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ (1) .

وقال تعالى : ﴿ أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهُهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكَيْلًا ﴾ (2) أم تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنَّ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ (2)

وقال ﷺ : ﴿ وَلَا تُطْعَمَنَّ أَغْفَلَنَا قَلْبُهُمْ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوْنَهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرْطًا ﴾ (1) ، وقال سبحانه : ﴿ بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴾ (2) .

● قال ابن الجوزي في كتابه ذم الهوى [قد مدح الله ﷺ مخالفة الهوى ، فقال ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ۗ ﴾ (3)] . قال المفسرون هو نهي النفس عما حرم الله عليها ، وقال مقاتل هو الرجل يهجم بالمعصية فيذكر مقامه للحساب فيتركها [(4)] .

وقال ابن الجوزي أيضا : [قال ابن عباس ما ذكر الله ﷺ الهوى في موضع من كتابه إلا ذمه ، وقال الشعبي إنما سمي الهوى ؛ لأنه يهوي بصاحبه] (5) .

وصاحب الهوى لا يرى إلا الهوى وقد ورد في الحديث عن أبي الدرداء ؓ عن النبي ﷺ . قال : « حبك الشيء يُعْجِي وَيُصِمْ » (6) ويقول ﷺ : « ثلاث منجيات وثلاث مهلكات ، فأما المنجيات فتقوى الله في السر والعلانية ، والقول بالحق في الرضا والسخط ، والقصد في الغنى والفقر ، وأما المهلكات : فهوى متبع ، وشح مطاع ، وإعجاب المرء بنفسه » (7) .

(1) سورة الكهف : 28 .

(2) سورة النازعات : 40 ، 41 .

(3) ذم الهوى لابن الجوزي ص 16 ط دار الكتب الإسلامية بالقاهرة .

(4) المرجع السابق ص 12 ، 13 .

(5) الحديث : رواه الإمام أحمد في مسنده عن أبي الدرداء 194/5 ورواه الإمام أبو داود في السنن عنه كالأدب باب في الهوى حديث 5130 - 334/4 - ورواه القضاعي في مسند الشهاب عنه حديث 219 - 157/1 [مسند الشهاب للقاضي أبي عبد الله محمد بن سلامة القضاعي ت 454 هـ ط مؤسسة الرسالة بيروت سنة 1405 هـ ط أولى] . ورواه ابن الجوزي في كتابه - ذم الهوى - عنه - ذم الهوى ص 20 ط . وهذا الحديث ضعيف الإسناد ، لأن في رواه أبا بكر بن أبي مريم وهو ضعيف (اختلط مع سوء حفظه) وأورد الألباني هذا الحديث في ضعيف سنن أبي داود برقم 1097 ص 507 . وفي سلسلة الأحاديث الضعيفة برقم 1868 - 348/4 .

(6) الحديث : أخرجه البزار في مسنده عن أنس بن مالك ؓ [كشف الأستار عن زوائد البزار - حديث 80 - 59/1 ورواه أبو نعيم في الحلية عنه 343/2 حلية الأولياء وطبقات الأصفياء للحافظ أبي نعيم أحمد بن عبد الله الأصفهاني ت 430 هـ ط مطبعة الأنوار المحمدية] وأخرجه أبو نعيم في الحلية - أيضا - عن ابن عباس 219/3 ورواه القضاعي في مسند الشهاب عن أنس حديث 325 ، 326 ، 327 - 214/1 ، 215 - ورواه الطبراني في المعجم الأوسط عن أنس حديث 5584 - 272/6 .

ولقد أورد ابن الجوزي في كتابه ذم الهوى آثارا للسلف في ذلك منها ما رواه عن مالك بن دينار ⁽¹⁾ أنه قال : بس العبد عبداً همُّه هواه وبطنه ، وقال ابن السماك ⁽²⁾ إن شئت أخبرتك بدائك وإن شئت أخبرتك بدوائك داؤك هواك ودواؤك ترك هواك . وقال الأصمعي سمعت أعرابيا يقول إذا أشكلَ عليك أمران لا تدري أيهما أرشد ، فخالف أقربهما من هواك فإن أكثر ما يكون الخطأ مع متابعة الهوى ... إلى غير ذلك من أقوال ⁽³⁾ .

وقال الأصمعي سمعت رجلا يقول :

إن الهوان هو الهوى قُلب اسمه
فإذا هويت فقد لقيت هواناً
وأنشدوا لابن المبارك ⁽⁴⁾ :

- = ورواه ابن عبد البر (أبي عمر يوسف بن عبد البر النمري القرطبي ت 463 هـ) في كتابه جامع بيان العلم وفضله 173/1 ط المكتبة السلفية بالمدينة المنورة سنة 1388 هـ ورواه البيهقي في شعب الإيمان عن أبي هريرة حديث 7252 - 452/5 والحديث بمجموع طرقه حسن وفي ذلك يقول الحافظ المنذري [رواه البزار والبيهقي وغيرهما ، وهو مروى عن جماعة من الصحابة وأسانيده وإن كان لا يسلم شيء منها من مقال إلا أنه بمجموع طرقه حسن إن شاء الله تعالى] - الترغيب والترهيب للمنذري 162/1 ط دار الحديث . وأورده الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة برقم 1802 - 416/4 . وقال والحديث بمجموع طرقه حسن إن شاء الله تعالى .
- (1) مالك بن دينار عالم ، عابد ، زاهد واعظ من ثقاة التابعين سمع من أنس بن مالك وحدث عنه وعن الأحنف بن قيس وسعيد بن جبيرة والحسن البصري ومحمد بن سيرين وحدث عنه سعيد بن أبي عروبة وعبد الله بن شاذب وهمام بن يحيى وغيرهم توفي سنة 127 هـ وقيل 128 هـ .
- تراجع ترجمته في صفة الصفوة لابن الجوزي 634/2 ط دار صلاح الدين بالقاهرة وسير أعلام النبلاء للذهبي 362/5 والتاريخ الكبير للبخاري 309/7 والجرح والتعديل لابن أبي حاتم 208/8 .
- (2) هو ابن السماك : أبو العباس محمد بن صبيح العجلي مولاهم الكوفي ابن السماك واعظ زاهد عابد ، روى عن هشام بن عروة والأعمش وي زيد بن أبي زياد وروى عنه أحمد بن حنبل وغيره توفي سنة 183 هـ - سير أعلام النبلاء للذهبي 328/8 والجرح والتعديل 290/7 وحلية الأولياء 203/8 .
- (3) يراجع كتاب ذم الهوى ص 12 : 35 .
- (4) هو عبد الله بن المبارك بن واضح الحنظلي المروزي عالم فقيه محدث . مؤرخ نحوي لغوي صوفي وشاعر (118 - 181) هـ من مؤلفاته كتاب الزهد ، والسنن في الفقه ، وكتاب التفسير ، والتاريخ ، والبر والصلة . معجم المؤلفين 106/6 سير أعلام النبلاء 378/8 .

ومن البلاء وللبلاء علامة أن لا يرى لك عن هواك نزوع
العبد عبد النفس في شهواته والحريشبع تارة ويجوع (1)

أنواع النفوس

قال تعالى : ﴿ وَمَا أُبْرِيئُ نَفْسِي ۚ إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ ۚ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي ۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (2)

● رجحنا أن هذه الآية من تنمة كلام امرأة العزيز وهي تعترف ببراءة يوسف عليه السلام وعصمته وتقر بأنها هي التي راودته عن نفسه .

ولقد تحدث القرآن الكريم عن النفس الإنسانية وخصائصها وطبائعها وأنواعها ، فهناك النفس اللوامة ، وهي التي تلوم صاحبها وتحاسبه قال تعالى في سورة القيامة : ﴿ لَا أَقِيمُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۝ وَلَا أَقِيمُ بِالنَّفْسِ اللّوَامَةِ ۝ ﴾ (3) وهذا قسم من الله تعالى ، وفيه معنى التكريم والتشريف لتلك اتنفس التي تلوم صاحبها على التقصير في الطاعة وتلومه إذا هم بمعصية أو وقع فيها ، عن مجاهد قال في : ﴿ لَا أَقِيمُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ هي التي تندم على ما فات وتلوم صاحبها .

● وقال صاحب المفردات : [﴿ وَلَا أَقِيمُ بِالنَّفْسِ اللّوَامَةِ ﴾ : هي النفس التي اكتسبت بعض الفضيلة فتلوم صاحبها إذا ارتكب مكروها ، فهي دون النفس المطمئنة ، وقيل بل هي النفس التي قد اطمأنت في ذاتها وترشحت لتأديب غيرها ، فهي فوق النفس المطمئنة] (4) .

والذي نرجحه هو الأول . والمؤمن دائما يجتهد في إصلاح نفسه وتركيتها بفعل الطاعات وهجر المعاصي ، ودائما يحاسب نفسه قال تعالى : ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۝ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۝ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ۝ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ۝ ﴾ (5) أي قد أفلح من اجتهد في تركية نفسه وقد خاب وخسر من أضل نفسه وأغواها .

وفي الحديث الشريف عن شداد بن أوس رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الكيس

(2) سورة يوسف : 53 .

(1) يراجع كتاب ذم الهوى ص 12 : 35 .

(4) المفردات للراغب ص 457 مادة : ل و م .

(3) سورة القيامة : 1 ، 2 .

(5) سورة الشمس : 7 ، 10 .

من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والأحمق من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله « (1) .
وعن فضالة بن عبيد رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « المجاهد من جاهد نفسه في الله تعالى والمهاجر من هجر الخطايا والذنوب » (2) .

وهناك النفس المطمئنة وهي نفس المؤمن الزكية الطاهرة الراضية المرضية التي اطمأنت إلى الطاعة وسكنت إليها ، قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٧٨﴾ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً ﴿٧٩﴾ فَأَدْخِلِي فِي عِندِي ﴿٨٠﴾ وَأَدْخُلِي جَنَّاتٍ ﴿٨١﴾ ۝ (3) .

وهناك النفس الأمانة بالسوء ، وهي التي تزين المعصية لصاحبها وتدعوه إليها وتعيّنه

(1) الحديث : رواه الإمام أحمد في المسند عن شداد بن أوس 124/4 .

ورواه الإمام الترمذي في السنن عنه ك صفة القيامة والرقائق باب 25 حديث 2459 - 550/4 وقال الترمذي حديث حسن ودان نفسه حاسبها في الدنيا قبل أن تحاسب يوم القيامة ورواه ابن ماجه في السنن عنه ك الزهد باب ذكر الموت والاستعداد له حديث 4260 - 1423/2 ورواه الحاكم في المستدرک وقال صحيح على شرط البخاري وتعقبه الذهبي قائلا : لا والله أبو بكر واه ، المستدرک 57/1 .

قلت : ومدار الحديث على أبي بكر بن أبي مريم عن ضمرة بن حبيب عن شداد بن أوس وأبوبكر بن أبي مريم واه فالحديث ضعيف الإسناد .

ولقد أورده الألباني في ضعيف سنن ابن ماجه برقم 930 - ص 348 ولهذا الحديث شاهد من حديث أنس أخرجه البيهقي في شعب الإيمان برقم 10545 - 350/7 وقال فيه عون بن عمارة وهو ضعيف .

(2) الحديث : رواه الإمام أحمد في مسنده من حديث فضالة بن عبيد رضي الله عنه المسند 21/6 ، 22 .
ورواه الترمذي في السنن عنه ك / فضائل الجهاد باب / ما جاء في فضل من مات مرابطا حديث 1621 سنن الترمذي 142/4 وقال حسن صحيح .

ورواه ابن ماجه في السنن عنه ك الفتن باب حرمة دم المؤمن وما له حديث 3934 - 1298/2 وقال البوصيري في الزوائد إسناده صحيح ورجاله ثقات ، ورواه الحاكم في المستدرک 10/1 عنه وقال صحيح على شرطهما ، ولم يخرجاه وأقره الذهبي . ورواه ابن المبارك في مسنده عنه حديث 29 ص 16 ط مكتبة المعارف بالرياض تحقيق د . صبحي البدری ، ورواه ابن حبان في صحيحه عنه - يراجع موارد الظمآن إلى زوائد ابن حبان للهيتمي حديث 25 - 128/1 ط دار الثقافة العربية بدمشق - ويراجع الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان لابن بلبان حديث 4862 - 203/11 ط مؤسسة الرسالة بيروت .

ورواه الطبراني في المعجم الكبير عنه 309/18 - حديث 796 ، 797 ورواه البزار عنه - [كشف الأستار حديث 1143 - 35/2] ورواه القضاعي عنه في مسند الشهاب حديث 183 - 139/1 .

وقال الهيتمي رواه البزار والطبراني في الكبير ورجال البزار ثقات - مجمع الزوائد 268/3 .

وأورده الألباني في الصحيحية برقم 549 - 81/1 .

(3) سورة الفجر : 27 - 30 .

عليها ، وتصرفه عن الطاعات ، وتثقلها عليه ، وتسوف له التوبة .

قال تعالى : ﴿ وَمَا أُبْرِيئُ نَفْسِي ۚ إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ ۗ إِلَّا مَا رَجَعَا رَبِّي ۚ ﴾ .

وقال أحد الصالحين : أعدى أعدائك نفسك التي بين جنبيك أي النفس الأمارة التي تدعو صاحبها إلى المعاصي وتصرفه عن الطاعة .

وصدق من قال :

إني ابتليت بأربع ما سلطوا	إلا لشدة محنتي وعنائِي
إبليس والدنيا ونفسي والهوى	كيف الخلاص وكلهم أعدائي
وأرى الهوى تدعو إليه خواطري	في ظلمة الشهوات والآراء

فعلى المؤمن أن يجتهد في تزكية نفسه والارتقاء بها إلى أسنى الدرجات وأرفع المقامات وأن يشغلها دائماً بالطاعات والقربات ؛ لأن النفس كما قالوا : « إن لم تشغلها شغلتك » أي إن لم تشغلها بالحق شغلتك بالباطل .

اللهم آت أنفسنا تقواها وزكاها فأنت خير من زكاها ، أنت وليها ومولاها .

فائدة : حول الغيرة

أصل الغيرة : الحمية والأنفة ، وقيل هي ثوران الغضب حمية على أكرم الحرم ، وأكثر ما تراعى في النساء ، يقال غار الرجل على أهله ، وغارت المرأة على زوجها تغار غيرة وغيرا وغارا وغارا ورجل غيران والجمع غيارى وغيارى وغيور غير وامرأة غيرى وغيور أي شديدة الغيرة ، ورجل مغيار وقوم مغايير وفلان لا يتغير على أهله أي لا يغار ، وأغار أهله تزوج عليها فغارت (1) .

قال الراغب الأصفهاني في كتابه الذريعة إلى مكارم الشريعة .

[وجعل الله سبحانه هذه القوة - قوة الغيرة - في الإنسان سببا لصيانة الماء ، وحفظا للإنسان ، ولذلك قيل : كل أمة وضعت الغيرة في رجالها وضعت العفة في نسائها ، وقد يستعمل ذلك في صيانة كل ما يلزم الإنسان صيانتته في السياسات الثلاث التي هي سياسة الرجل نفسه ، وسياسة منزله وأهله وسياسة مدينته وضيعته ولذلك قيل

(1) لسان العرب 3326/5 مادة - غ ي ر - روضة المحبين لابن القيم ص 287 .

ليست الغيرة ذب الرجل عن امرأته ولكن ذبه عن كل ما هو مختص به ... [(1)] .
 وغيرة الرجل على أهله أمر واجب ، وللغيرة حدود وضوابط فهي غير معتدلة ، غيرة
 لا تلقي بصاحبها في خضم الشك وظلمات الوهم ؛ لأن الأصل في المعاملة : حسن
 الظن والثقة بالغير ما لم يتبين خلاف ذلك ، وكم من بيوت قد تهدمت وكم من أسيرٍ
 تحطمت وتفرقت بسبب الأوهام والظنون التي لا أساس لها من الصحة .

قال تعالى محذرا من سوء الظن : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ
 بَعْضَ الظَّنِّ إِثْرٌ وَلَا تَجَسَّسُوا ... ﴾ (2) .

وروى الإمام مسلم في صحيحه بسنده عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال : « نهى رسول
 الله صلى الله عليه وسلم أن يطرق الرجل أهله ليلا يتخونهم أو يلتمس عثرتهم » (3) أي يعود من سفره
 ليلا متعمدا قاصدا تفقد خيانة زوجته ، بسبب الهواجس والظنون .

فالأصل في الحياة الزوجية أن تكون مبنية على أساس متين من المودة والرحمة ،
 والإخلاص وصدق النية والثقة المتبادلة بين الزوجين - ما لم يتبين خلاف ذلك .

وفي الحديث الشريف عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الله يغار
 والمؤمن يغار وغيرة الله أن يأتي المؤمن ما حرم عليه » (4) .

وفي الحديث أيضا يقول صلى الله عليه وسلم : « إن من الغيرة ما يحب الله ومنها ما يكره الله
 فالغيرة التي يحبها الله الغيرة في الريبة ، والغيرة التي يكرهها الله الغيرة في غير ريبة » (5) .

(1) الذريعة إلى مكارم الشريعة ص 347 . (2) سورة الحجرات : 12 .

(3) رواه الإمام مسلم في صحيحه ك الإمارة باب كراهة الطروق وهو الدخول ليلا لمن ورد من سفر - صحيح
 مسلم بشرح النووي 72/13 .

(4) رواه الإمام البخاري في صحيحه عن أبي هريرة ك / النكاح باب الغيرة حديث 5223 [فتح الباري 230/9
 - ورواه الإمام مسلم في صحيحه عنه كتاب / التوبة باب / غيرة الله تعالى وتحريم الفواحش صحيح مسلم
 بشرح النووي 78/17 .

(5) رواه الإمام أحمد في مسنده عن جابر بن عتيك رضي الله عنه ، 445/5 ورواه الطبراني في المعجم الكبير عنه حديث
 1776 - 190/2 وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد وقال رواه أحمد والطبراني ورجاله ثقات مجمع الزوائد 329/4 .
 ورواه ابن حبان في صحيحه عنه بإسناد جيد - وأورده الهيثمي في موارد الظمان - حديث 1313 - 254/4
 ورواه البيهقي في السنن عنه ك / في القسم والنشوز باب في غيرة الأزواج 308/7 .

ورواه الدارمي في السنن عنه ك / النكاح باب / الغيرة حديث 2226 - 200/2 ورواه ابن أبي شيبة في المصنف =

وفي الحديث يقول ﷺ : « ثلاثة لا ينظر الله ﷻ إليهم يوم القيامة : العاق لوالديه والمرأة المترجلة ، والديوث ، وثلاثة لا يدخلون الجنة : العاق لوالديه والمدمن على الخمر والمنان بما أعطى » (1) .

وحين نتأمل في موقف العزيز من زوجته التي راودت يوسف ﷺ فاستعصم ومع ذلك لم يعاقبها ولم يحسم في الأمر ولكنه ترك الأمور كما هي ، ورغم انتشار الخبر بين النسوة في المدينة واجتماعهن في بيت العزيز استجابة لدعوة زوجته ، ورؤيتهن يوسف وإعجابهن به - ذلك الإعجاب الذي ظهر واضحا على أيديهن دماء وجرحا - وموافقتهن المرأة في هواها ، وانقلابهن من عاذلات إلى راضيات بالمنكر وداعيات إليه وتهديد المرأة ليوسف بالسجن أو الصغار إن لم يستجب لدعوتها ويحقق رغبتها ، رغم كل هذه الأحداث الجسام والخطوب العظام التي حدثت في بيت العزيز إلا أننا لم نجد له موقفا حاسما وحكما قاطعا يدل على حزمه وغيرته ، بل إننا نراه يسجن يوسف ﷺ ظلما وعدوانا ، رغم براءته ﷻ وأمانته ووفائه وعفته ، ولو كان للغيرة موضع في قلب العزيز وموطن في دمه لما ضعف أمام المرأة التي خانته ، ولرأينا منه موقفا حاسما يزود به عن عرضه ويحفظ كرامته ومروءته .

فموقف العزيز المتهاون يدل على ضعف غيرته وقلة مروءته ، كما يدل على فرط حبه لها ، وعدم قدرته على فراقها وهزيمته النفسية أمام جمال المرأة ودلالها ، وكم تحكم

= عنه ك النكاح باب في الغيرة [المصنف في الأحاديث والآثار لعبد الله بن محمد بن أبي شيبة الكوفي العسبي ت 235 هـ 467/3 ورواه الحاكم في المستدرک عن عقبة بن عامر الجهني ، وصححه ووافقه الذهبي - المستدرک 1/417 ، 418 .

كما رواه عبد الرزاق في المصنف عن عقبة ك النكاح باب في الغيرة [المصنف لأبي بكر عبد الرزاق بن همام الصنعاني حديث 19522 - 409/10] .

(1) رواه النسائي في السنن عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما - واللفظ له - كتاب الزكاة باب المنان بما أعطى - 80/5 ومعنى المترجلة : المشبهة بالرجال في زيهم وهياتهم .

وأورده الألباني في صحيح سنن النسائي - برقم 2402 - 541/2 ، كما أورده في الصحيحة برقم 674 - 289/2 ورواه الإمام أحمد في مسنده عن عبد الله بن عمر 69/2 .

ورواه البزار في مسنده عنه - كشف الأستار عن زوائد البزار حديث 1875 ، 1876 - 372/2 ، 373 . وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد 327/4 وقال رواه أحمد وفيه راو لم يسم ببقية رجاله ثقات كما أورده الهيثمي أيضا في المجمع 148/8 وقال رواه البزار بإسنادين ورجالهما ثقات . ورواه أبو يعلى في مسنده عن ابن عمر حديث 5531 - 222/5 ورواه الطبراني في المعجم الكبير 302/12 .

سلطان الهوى في ملوك وسلاطين حتى صاروا ضعفاء صاغرين ، متقادين للشهوات والملاذات ، وكم من عزيز أذله الحب . وكم من ملك صار مملوكا أسيرا لمن يحب (1) .

كيد النساء

الكيد : التدبير بباطل أوحق ، وهو ضرب من الحيلة ، وقد يكون مذموما وقد يكون ممدوحا ، وإن كان يستعمل في المذموم أكثر .

قال تعالى : ﴿ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴾ (2) وقال تعالى : ﴿ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ ﴾ (3) وقال : ﴿ وَإِلَّا نَصْرَفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ ﴾ (4) وقال : ﴿ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴾ (5) وقال سبحانه : ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ ﴾ (6) وقال سبحانه : ﴿ كَذَلِكَ كِيدْنَا لِيُوسَفَ مَا كَانَ لِأَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ﴾ (7) .

وفي لسان العرب : [الكيد التدبير بباطل أو حق ، والكيد إظهار المرء غير ما يبطنه ، وفلان يكيد أمرا لا أدري ما هو : إذا كان يحتال له ويسعى له ، ويقال بلغوا الأمر الذي كادوا : أي طلبوا وأرادوا] (8) . فالكيد هو التدبير في الخير أو الشر وأكثر استعماله في الشر ، ومن صور الكيد إظهار المرء خلاف ما يبطن .

ولقد تعرض يوسف عليه السلام لضروب كثيرة من الكيد : منها كيد إخوته به حيث ألقوه في البئر وما سبق ذلك وترتب عليه من الكذب والخداع ، وتعرض يوسف لكيد امرأة العزيز التي راودته عن نفسه واستعملت في ذلك كثيرا من الوسائل والأساليب ،

(1) وفي هذا المعنى يقول الشاعر :

أرى ماءً وبني عطشٌ شديدٌ
أما يكفيك أنك تملكيني
وأنتك لو قطعيت يدي ورجلي

وقال آخر :

أستز الحبيب أَمِيرًا
فأرحموا دُلَّ عَزِيزًا

لم يكن قبيل أسيرا
صغار عبدا مستجييرا

(3) سورة يوسف : 31 .

(5) سورة يوسف : 50 .

(7) سورة يوسف : 76 .

(2) سورة يوسف : 28 .

(4) سورة يوسف : 33 .

(6) سورة يوسف : 52 .

(8) لسان العرب مادة ك ي د 3966/5 باختصار .

وتظاهرت أمام زوجها بالعفّة والطهارة وألقت التهمة على يوسف وهو البريء العفيف الطاهر . وهي الخائنة المرادة ، المظهرة خلاف ما تبطن ولذلك قال لها الشاهد لما انكشف أمرها وثبتت مرادتها ليوسف : ﴿ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴾ .

وفي القصة أيضا من أنواع الكيد : كيد النسوة بالمرأة ، حين أفشين سرها وهتكن سترها وذاع الخبر وشاع بين أرجاء المدينة قال تعالى : ﴿ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتْنَهَا عَن نَّفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَنَّهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ ولم يكن حديث النسوة عن المرأة بغضا في الفاحشة واستنكارا للمرادة والرذيلة ، وحرصا وحبا للعفّة والفضيلة ، بل إن الدافع إلى هذا الكلام هو الشماتة بالمرأة ذات المنصب والجمال ، والغيرة منها والإساءة إليها ، والتشهير بها بإشاعة خبر مرادتها لفتاها .

● كما قصدن أيضا من وراء ذلك التوصل إلى رؤية ذلك الفتى الجميل يوسف عليه السلام ، فأظهرن بذلك خلاف ما يبطن ، وكان كلامهن وإشاعتهن للخبر ضربا من الكيد .

● وكادت امرأة العزيز بالنسوة ودعتهن إلى مأدبة ، وأخرجت يوسف إليهن فانبهرن بجماله وقطعن أيديهن ، ولم تكن دعوة امرأة العزيز لهن بدافع الحب والصلة والإكرام ، ولكنها كانت مؤامرة ومكيدة دبرتها امرأة العزيز للنسوة ، اللاتي وقعن في حب يوسف وانقلبن من عاذلات ⁽¹⁾ إلى معجبات مفتونات بيوسف ، ملتزمات للمرأة العذر ، وراضيات عن فعلها المنكر ، ومن هنا فإن المرأة كادت ، بعزمها على المرادة وتديرها للخلوة بيوسف وتفننها في إغرائه وإغوائه - لكنه ثبت على طريق العفة والعصمة والأمانة - وكادت المرأة بإظهارها أمام زوجها خلاف ما تبطن ، وإظهارها أمام النسوة خلاف ما تبطنه ، وكذلك كيد النسوة في مكرهن بالمرأة وإظهارهن خلاف ما يبطن .

معنى قول رسول الله ﷺ لعائشة رضي الله عنها

« إنكن صواحب يوسف »

روى البخاري في صحيحه عن عائشة رضي الله عنها قالت : إن النبي صلى الله عليه وسلم قال لها - في مرضه الذي مات فيه - : « مُرِّي أبا بكر فليصل بالناس » قالت إنه رجل أسيف متي

(1) عاذلات : شديداً اللوم لها على فرط حياء لفتاها وهي امرأة العزيز .

يقم مقامك رق ، قال شعبة : فعاد عليه السلام فعادت رضي الله عنها ، فقال عليه السلام في الثالثة أو الرابعة : « إنكن صواحب يوسف مروا أبا بكر فليصل بالناس » (1) .

وروى البخاري أيضا في صحيحه عن عائشة رضي الله عنها قالت : « لقد راجعت رسول الله عليه السلام في ذلك وما حملني على كثرة مراجعته إلا أنه لم يقع في قلبي أن يحب الناس بعده رجلا قام مقامه أبدا ولا كنت أرى أنه لن يقوم أحد مقامه إلا تشاءم الناس به ، فأردت أن يعدل ذلك رسول الله عليه السلام عن أبي بكر » (2) .

قال ابن حجر : [والمراد أنهم مثل صواحب يوسف في إظهار خلاف ما في الباطن ثم إن هذا الخطاب وإن كان بلفظ الجمع فالمراد به واحد وهي عائشة رضي الله عنها فقط كما أن « صواحب » صيغة جمع والمراد زليخا فقط ، ووجه المشابهة بينهما في أن زليخا استدعت النسوة وأظهرت لهن الإكرام بالضيافة ومرادها زيادة على ذلك وهو أن ينظرن إلى حسن يوسف ويعذرنها في محبته ، وأن عائشة (رضي الله عنها) أظهرت أن سبب إرادتها صرف الإمامة عن أيها كونه لا يسمع المأمومين القراءة لبكائه ، ومرادها زيادة على ذلك وهو أن لا يتشائم الناس به ، وقد صرحت هي فيما بعد ذلك فقالت : لقد راجعته وما حملني على ذلك إلا أنه لم يقع في قلبي أن يحب الناس بعده رجلا قام مقامه أبدا] (3) .

ومن هنا فإن وجه الشبه بين أم المؤمنين عائشة (رضي الله عنها) وبين امرأة العزيز والنسوة : هو من جهة إظهارها أمرا وإرادتها أمرا آخر ، فهي صادقة في قولها : « إن أبا بكر رجل أسيف » أي رقيق القلب قريب الدمع إذا حضر الصلاة وقام مقام رسول الله عليه السلام ، وهي في الحقيقة تخشى من موقف الناس من أبي بكر رضي الله عنه إذا قام هذا المقام والرسول عليه السلام في فراش المرض . فيبغض الناس أبا بكر ، أما عن امرأة العزيز فإنها كما ذكرنا دعت النسوة للمأدبة في قصرها وكان هدفها المكر بهن ومقابلة كيدهن بكيد أعظم ، واستجاب النسوة لها حتى يستمتعن بتلك المأدبة الفاخرة ويحظين برؤية يوسف

(1) رواه البخاري في صحيحه كتاب الأنبياء باب قول الله تعالى في سورة يوسف ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٍ لِّلْمُتَلَبِّينَ ﴾ سورة يوسف : 7 - حديث 3384 فتح الباري 481/6 .

كما رواه البخاري أيضا في كتاب الآذان باب حد المريض أن يشهد الجماعة حديث 664 - 178/2 .

(2) رواه البخاري في صحيحه كتاب المغازي - باب / مرضه عليه السلام ووفاته حديث 4445 فتح الباري 747/7 .

(3) فتح الباري لابن حجر 179/2 ، 180 .

﴿التَّائِبِينَ﴾ ، فهي صنعت شيئا وأرادت أشياء أخرى وكذلك النسوة أظهرن خلاف ما يظن .

فضل الصبر

● هذا وفي القصة كثير من العبر والعظات منها فضل الصبر وحسن عاقبته في الدنيا والآخرة ، فلقد تحلى يوسف ﴿التَّائِبِينَ﴾ بالصبر فنال الثواب والأجر والسعادة في الدارين ، والصبر أنواع فمنه الصبر على المصائب والأهوال ، والصبر بمعنى توطين النفس وحملها على الطاعات مع ما فيها من مشقة ظاهرة ، والصبر على ترك المحرمات وهجرها وإن كان فيها راحة ولذة ، ولقد جمع يوسف ﴿التَّائِبِينَ﴾ بين أنواع الصبر جميعا وتحلى بها .

فتنة النساء

● ومن أعظم الفتن التي يتعرض لها الرجال : فتنة النساء قال تعالى ﴿ زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْبُ الْمَعَادِ ﴾ (1) .

وقال ﴿صَلَّى﴾ : « ما تركت بعدي فتنة أضرب على الرجال من النساء » (2) وقال ﴿صَلَّى﴾ : « إن الدنيا حلوة خضرة وإن الله مستخلفكم فيها فينظر كيف تعملون فاتقوا الدنيا واتقوا النساء فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء » (3) .

والثبات أمام فتنة النساء يكون بالعفة والطهارة والانشغال بطاعة الله ﴿صَلَّى﴾ . والاعتصام به والاستعاذة به سبحانه من فتنة النساء ومن جميع الفتن ما ظهر منها وما بطن .

(1) سورة آل عمران : 14 .

(2) الحديث رواه الإمام البخاري في صحيحه عن أسامة بن زيد ﴿صَلَّى﴾ ك النكاح باب ما يتقى من شؤم المرأة حديث / 5096 - فتح الباري 41/9 ورواه الإمام مسلم في صحيحه عنه ك / الرقاق باب / بيان الفتنة بالنساء صحيح مسلم بشرح النووي 54/17 .

(3) رواه الإمام مسلم في صحيحه عن أبي سعيد الخدري ﴿صَلَّى﴾ ك / الرقاق باب / بيان فتنة النساء صحيح مسلم بشرح النووي 54/17 .

القصص القرآني أحسن القصص

● للمرأة في كثير من القصص الذي يصوغه البشر دور أساسي ؛ فهي وسيلة لتسليمة القارئ وإثارة مشاعره وتحريك غرائزه ولولا تركيز القصاصين على المرأة وإطالتهم الوقوف عند ذكر محاسنها وإبراز مفاتيحها لما لقيت قصصهم رواجاً بين أصحاب القلوب المتعطشة والعقول الطائشة والأنظار التي تلهث وراء المتعة والإثارة .

وكم من كلام لا يوافق حكمة لقي الرواج بسوق من لا يعلم

● وكثير من القصص والروايات التي يصوغها البشر نراها تبدأ بلقاء شاب وفتاة يحدث بينهما تعارف ثم تألف ثم غرام وهيام ، لتنتهي أحداث القصة باجتماع ووصال وقرب بعد كفاح طويل في سبيل الحب .

نظرة فابتسامه فسلام فكلام فموعد فلقاء

● وفي غمرة هذه الإثارة والمتعة تضيع المعاني الطيبة والمقاصد الحسنة من وراء القصص والروايات ؛ لأن الكاتب يركز دائماً على المتعة والإثارة هذا بالنسبة لما يحدث في كثير من الأعمال التي يكتبها البشر والتي تزيد المجتمع خللاً والمريض عللاً ، والطين بللاً .

● أما عن القصص القرآني فهو قصص حقيقي واقعي ، له خصائصه المميزة وسماته البارزة ومعاله الواضحة ، فلقد جمع بين ربانية المصدر وسمو الغاية وصدق الأسلوب وروعته .

وللأستاذ عبد الكريم الخطيب في هذا المقام كلام طيب نذكر منه ما يلي :

[... إذا كان للمرأة مكان بارز في قصة يوسف ، وإذا كان دورها في هذه القصة هو الدور الذي يشتهي الرجل منها ، ويشوقه الحديث الذي يعرض لوسائل كيدها ، وأساليب إغرائها ، فإن دورها في القصة لم يكن مستجلباً ليملاً فراغاً فيها ، أو ليلطف من جو المأساة التي تتحدث عنها ، أو ليجدد نشاط المتلقي لها ... وإنما كان حدثاً جارياً من أحداثها في الصراع بين الخير والشر ... ، وصدق القرآن في نقله للأحداث وبلاغته في العرض هو الذي يعطي القصة القرآنية هذا الجلال وتلك الروعة التي يستشعر المرء معها ما يستشعر العابد في محراب صلاته من ضراعة وخشوع ، إن جلال الحق يرتفع بمشاعر الإنسان ويسمو بإدراكه ... فالمرأة في القصص القرآني لا تستجلب لغاية غير العبرة والعظة ، ولا تأخذ مكاناً في القصة إلا حيث تكون درساً مستفاداً في الدعوة إلى

الخير والعدل والإحسان ، وفي التنفير من الشر والبغي والعدوان [(1)] .

ثم يشير الخطيب إلى أن القصص القرآني في درجة واحدة من الحسن والروعة والسمو والرفعة فيقول : [والذي يجده القارئ أو المستمع لقصة يوسف عليه السلام في القرآن الكريم من روعة البيان وجلال العرض ومن سمو بالعاطفة واستعلاء بالنفس على الشهوات وقيادتها إلى مواقع الخير على طريق مفروش بالأشواك محفوف بالمكاره ، هذا الذي يجده القارئ أو المستمع لقصة يوسف ، هو : هو ما يجده في قصة أصحاب الكهف أو قصة موسى والعبد الصالح مثلا وفي كلتا القصتين لا يبدو وجه المرأة ولا يشار إليها من قريب أو بعيد] (2) .

أقول : إن دقة الألفاظ ورقتها ، وقوة وبلاغة دلالتها ، وروعة النظم ورفعته ، وجمال الأسلوب وجلاله وهيبته : كل ذلك نجده في القصص القرآني عامة ، ونلمسه في قصة يوسف عليه السلام ونشهده في مشاهد المرادة التي عرضها القرآن الكريم عرضا وافيا شافيا ، وغطى أحداثها تغطية كافية ونقلها لنا نقلا دقيقا عميقا ، يكشف لنا عن طبائع النفوس وخلجات الصدور ، ولحظات الضعف والقصور البشري كما يقدم لنا العفة والطهارة ومراقبة الله عز وجل في أبهى صورة واقعية ، كما يلقي الأضواء على شيء مما يقع في القصور في أحيان كثيرة وهو من نتاج الحياة المترفة الناعمة ، والخواء الروحي والفكري ، كل ذلك في عبارات موجزة لكنها معبرة ، وكلمات قلائل لكنها كثيرة الدلائل ، في آيات معدودات يحتاج تفسيرها وبيانها إلى موسوعات .

أما عن جمال يوسف الفائق وحسنه الرائق فإننا نشهده ونلمسه بصورة واضحة ناصحة من خلال تعلق وشغف وهيام امرأة العزيز ، ومرادتها التي كشفت عن حبها الدفين .

كما نشهد ونلمس جمال يوسف البارِع وحسنه الرائع بصورة أوضح من خلال ما حدث للنسوة حين أقبل عليهن بطبعته البهية ﴿ فَلَمَّا رَأَيْتَهُ أَكْبَرْتَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾ ﴿ قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنِّي فِيهِ وَلَقَدْ رُودْنَهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ ... ﴾ (3) .

فأي وصف لجمال يوسف أجمل وأبلغ وأصدق وأدق وأرق من هذا الوصف ؟ .

(1) قصتا آدم ويوسف عليه السلام / للأستاذ عبد الكريم الخطيب ص 47 ، 48 بتصرف .

(2) المرجع السابق ص 48 بتصرف . (3) يوسف : 31 ، 32 .

وأى وجه للمقارنة بين القصص التي يؤلفها البشر ، والتي يتخللها القصور والتقصير ، وبين كلام الحكيم الخبير ، العليم بذات الصدور ؟ لا وجه للمقارنة .

وهل يستوي وحي من الله منزل وقافية في العالمين شرود

● يقول صاحب الظلال في سياق حديثه عن واقعية القصة القرآنية والتي تتجلى في صدق المعنى ودقة التعبير ، وروعة ورفعة وجمال الأسلوب : [الواقعية الصادقة الأمانة النظيفة السليمة في الوقت نفسه ، لا تقف عند واقعية الشخصيات الإنسانية التي تحفل بها القصة في هذا المجال الواسع على هذا المستوى الرائع ولكنها تتجلى كذلك في واقعية الأحداث والسرد والعرض وصدقها وطبيعتها في مكانها وزمانها وفي بيئتها وملابساتها ... فكل حركة وكل خالجة ، وكل كلمة تجيء في أوانها ، وتجيء في الصورة المتوقعة لها ... حتى لحظات المرودة في القصة ومواقفها أخذت مساحتها كاملة - في حدود المنهج النظيف اللائق بالإنسان في غير تزوير ولا نقص ولا تحريف للواقعية البشرية في شمولها وصدقها وتكاملها - ولكن استيفاء اللحظات لمساحتها المتناسقة مع بقية الأحداث والمواقف لم يكن معناه الوقوف أمامها كما لو كانت هي كل واقعية الكائن البشري وكما لو كانت هي محور حياته كلها وهي كل أهداف حياته التي تستغرقها ! كما تحاول الجاهلية أن تفهمنا أن هذا وحده هو الفن الصادق ! ... إن الجاهلية إنما تمسخ الكائن البشري باسم الصدق الفني ! .

وهي لا تفعل هذا ؛ لأن هذا هو الواقع ، ولا لأنها هي مخرصة في تصوير هذا الواقع إنما تفعله ؛ لأن بروتوكولات حكماء صهيون⁽¹⁾ تريد هذا ، تريد تجريد الإنسان من كل القيم السامية والمعاني الفاضلة حتى لا يوصم اليهود وحدهم بأنهم متجردون من كل القيم

(1) بروتوكولات حكماء صهيون : هي مجموعة من التقارير والتوصيات والمخططات السرية الصادرة عن مؤتمر حكماء صهيون الذي عقد في مدينة بال بسويسرا بتاريخ 1897 م . ولقد بقيت هذه البروتوكولات في طي الكتمان إلى أن كشف القناع عنها لأول مرة فظهرت ضمن كتاب روسي صدر بعنوان (الكبير في الصغير) تأليف سرجيوس نيلوس النصراني وبعد مضي سنوات ظهر في لندن كتاب آخر بعنوان الخطر اليهودي ويتضمن تلخيصا لهذه البروتوكولات ويبدو أنه ترجمة للأصل الروسي .

- ولقد اشتملت هذه البروتوكولات على مخططات خبيثة خسيصة لتدمير الكيان الأسري وإشاعة الفوضى الجنسية والإطاحة بالقيم والأخلاق الفاضلة ، والسيطرة على الشعوب . يراجع بروتوكولات حكماء صهيون ترجمة محمد خليفة التونسي كما يراجع العالم الإسلامي والمكائد الدولية خلال القرن الرابع عشر الهجري تأليف فتحى يكن ط / مؤسسة الرسالة بيروت ط 2 سنة 1403 هـ .

غير المادية ، وتريد أن تغرق البشرية كلها في وحل المستنقع لتضليلها واستفراغ طاقتها ، والهيمنة عليها ، ... والفن وسيلة إلى هذا الشر كله ، إلى جانب الأفكار والمذاهب الهدامة التي تؤدي إلى ذلك الهدف الخبيث ... تارة باسم الداروينية (1) وتارة باسم الفرويدية (2) وتارة باسم الماركسية (3) وكلها سواء في تحقيق المخططات الصهيونية (4) .

(1) الداروينية : نسبة إلى دارون وهو عالم غربي زعم أنه توصل عن طريق أبحاثه إلى أن الإنسان أصله قرد وأنه تطور حتى صار إنسانا يمشي على قدمين ويفكر ، ولقد كان لهذه النظرية صدها في بعض الأوساط العلمية إلى أن اضمحلت وتلاشت وأثبت العلم بطلانها يراجع . الإنسان بين المادية والإسلام للأستاذ محمد قطب ط - البياتي الحلبي بدون تاريخ .

(2) الفرويدية : نسبة إلى سيجمون فرويد وهو يهودي حاول تفسير جميع مظاهر السلوك الإنساني من الطفولة وحتى الكهولة على أساس الغريزة الجنسية وبناء على هذه النظرية فإن محور الحياة البشرية هي إشباع الشهوات والانغماس في الملذات والتحرر من القيم والأخلاق والانسلاخ من الأديان . ولذلك كان لنظريات فرويد آثار وخيمة على المجتمعات الغربية .

يراجع : الأساليب الحديثة في مواجهة الإسلام - د . سعد الدين صالح ط دار الأرقم ط أولى سنة 1409 . (3) الماركسية : نسبة إلى اليهودي كارل ماركس الذي أقام فلسفته على أساس المادية الجدلية ، والتفسير المادي للتاريخ : بمعنى أن جميع الأحداث والصراعات والوقائع التاريخية ما هي إلا نتيجة للصراع المادي الاقتصادي فلا اعتبار لأي فكر أو اعتقاد ، فالاقتصاد وبعبارة أوضح : أساليب الإنتاج هي العامل الحاسم والمؤثر والفعال في سير التاريخ وليس للعوامل الروحية والثقافية وغيرها أي تأثير يذكر ، ولقد قام ماركس صاحب النظرية بإنكار جميع الغيبيات وازدراء جميع الأديان وقال إن الدين أفيون الشعوب وقال : لا إله والكون مادة ، وعلى هذا النهج سار تلامذة ماركس وأتباعه كما قامت هذه النظرية على إنكار القيم والأخلاق وهدم الأسرة وإنكار الملكية الفردية وإلغاء نظام الموارث وساعد على انتشار هذه الأفكار المظلمة والمبادئ الظالمة في الغرب وغيره من بلاد الشرق : الخواء الروحي والفراغ الديني والضعف والانحلال والتفكك والتمزق والضياع .

هذا ولقد هزمت الماركسية في عقر دارها وانهار بانيها بعد أن كانت لها سطوة وقوة في أنحاء المعمورة وصدق المولى ﷺ إذ يقول : ﴿ قَالُوا أَلَمْ يَكُنْ لَهُ الْبَنَاتُ عَلَى الْبَنَاتِ فَأَيَّ آلِهَةٍ يَعْبُدُ حَتَّىٰ يَخْشَىٰ إِلَهَهُمْ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُخَالَفُوا سَبِيلَهُم يَقُولُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ ﴾ سورة الرعد : 17 .

يراجع أصول الفكر الماركسي / أوجست كونو- ترجمة مجاهد عبد المنعم مجاهد ط دار الآداب بيروت ط أولى سنة 1968 م وأصول الفلسفة الماركسية جورج بوليتنزر ترجمة شعبان بركات ط المكتبة العصرية صيدا - لبنان ، وهزيمة الشيوعية في العالم الإسلامي للأستاذ أنور الجندي ط دار الاعتصام سنة 1983 م والحلول المستوردة : كيف جنت على أمتنا ؟ للدكتور يوسف القرضاوي ط / وهبة القاهرة سنة 1397 هـ ط 3 وأساليب الغزو الفكري د . علي جريشة ، ود . محمد شريف الزريق ط دار الاعتصام سنة 1978 م والإسلام في مواجهة الزحف الأحمر للشيخ محمد الغزالي ط المكتبة العصرية / صيدا بلبنان . وانتهيار الشيوعية أمام الإسلام أد . سعد الدين صالح ط دار الأرقم ، ويراجع مذاهب فكرية معاصرة محمد قطب ط دار الشروق ط 4 .

المبحث السادس

ما جاء في العهد القديم في شأن قصة يوسف عليه السلام وامرأة العزيز

● عرض القرآن الكريم قصة يوسف مع امرأة العزيز ومع النسوة عرضًا موجزًا بليغًا ، عرضًا وافيًا شافيًا يدل على روعة النظم القرآني وجماله ورفعة الأسلوب وجلاله ودقة التعبير وكماله .

● أما في العهد القديم فإننا نجد ركافة في الأسلوب ، وإغفالًا وإهمالًا لكثير من الحقائق التي جاء بها القرآن الكريم والتي تعد من الركائز الأساسية للقصة .

● ومن ذلك على سبيل المثال :

1 - في سفر التكوين (وكان يوسف حسن الصورة وحسن المنظر) (1) .

● ولقد عبر القرآن الكريم عن جمال يوسف بصورة ضمنية وصور ذلك تصويرًا حيًا يقول تعالى : ﴿ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَكًا وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿ ٢٠ 〉 (2) .

وشتان بين ما ذكره القرآن الكريم وما ورد في العهد القديم ، شتان بين صورة حية باهرة تدل على جمال يوسف الرائع وحسنه البارع دلالة واضحة قوية : وبين تلك الصورة الباهتة العابرة التي وردت في العهد القديم وشتان أيضًا بين حديث القرآن الكريم عن الهم والمرادة وبين حديث العهد القديم عن ذلك .

● يقول الله تعالى في كتابه الكريم : ﴿ وَرَوَدَتْهُ الْمَتَىٰ هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنِ نَفْسِهِ وَعَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿ ٢١ 〉 وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنَّ رَجُلًا بَرَّهَانَ رَبِّهٖ كَذَلِكَ لِنَصَّرَفَ عَنْهُ الشُّوْءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُتَّخِصِنِينَ ﴿ ٢٢ 〉 وَأَسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَيْصُومُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿ ٢٣ 〉 (3) .

(2) سورة يوسف : 31 .

(1) تكوين لإصحاح 39 فقرة 7 .

(3) سورة يوسف : 23 - 25 .

● كلمات معجزة موجزة معبرة وأسلوب يجمع بين الروعة والرفعة والرقعة والدقة .

● وفي العهد القديم (وحدث بعد هذه الأمور أن امرأة سيده رفعت عينها إلى يوسف وقالت : اضطجع معي ، فأبى وقال لامرأة سيده : هوذا سيدي لا يعرف معي ما في البيت ، وكل ماله قد دفعه إلى يدي ليس هو في هذا البيت أعظم مني ولم يمسك عني شيئاً غيرك ؛ لأنك امرأته فكيف أصنع هذا الشر العظيم وأخطئ إلى الله ؟ وكان إذ كلمت يوسف يوماً فيوماً أنه لم يسمع لها أن يضطجع بجانبها ليكون معها) (1) .

● يلاحظ تكرار كلمة (اضطجع) في هذا النص .

● وفي سفر التكوين الإصحاح 39 فقرة 18 (فكلمته بمثل هذا الكلام قائلة دخل إلى العبد العبراني الذي جئت به إلينا ليداعبني) .

● والكلمتان (اضطجع) ، (ويداعبني) : ثقيلتان في نطقهما ، فضلاً عن فحشهما وخذشهما للحياء .

2 - وفي القرآن الكريم أنها قدت قميصه من دبر لما ولي هارثاً عنها قال تعالى : ﴿ وَأَسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَْا سَيْدَهَا لُدَا أَلْبَابٍ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (2) .

وفي العهد القديم (فأمسكته بثوبه قائلة : اضطجع معي فترك ثوبه في يدها وهرب وخرج إلى خارج ، وكان لما رأت أنه ترك ثوبه في يدها وهرب إلى خارج أنها نادت أهل بيتها وكلمتهم قائلة انظروا قد جاء إلينا برجل عبراني ليداعبنا دخل إلي ليضطجع معي فصرخت بصوت عظيم وكان لما سمع أنني رفعت صوتي وصرخت أنه ترك ثوبه بجانبها وهرب وخرج إلى خارج) (3) .

وشتان بين ما ذكره القرآن الكريم وبين ما ورد في العهد القديم فالقرآن يبين هنا أن القميص قد من دبر وهذا دليل واضح على براءة يوسف عليه السلام كما ذكر القرآن الكريم ﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قَدْ مِّنْ دُبُرٍ فَكَذَّبَتْ وَهُوَ مِنْ الْكَاذِبِينَ ﴾ (4) وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قَدْ مِّنْ دُبُرٍ فَكَذَّبَتْ وَهُوَ مِنْ الصَّادِقِينَ ﴿ ٧ ﴾ فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قَدْ مِّنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَذِّبِكُنَّ إِنَّ كَذِّبَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿ ٨ ﴾ يُوسُفُ أَعْرَضَ عَن

(2) سورة يوسف : 25 .

(1) تكوين أصحاح 39 فقرات : 8 - 11 .

(3) تكوين أصحاح 39 فقرة 15 ، 16 .

هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكَ كُنْتَ مِنَ الْخَاطِئِينَ ﴿١﴾ .

وفي العهد القديم أن يوسف ترك قميصه عندها ، وفي هذا إدانة لنبي الله يوسف عليه السلام ودليل إثبات على صحة التهمة الموجهة إليه .

3 - والقرآن الكريم يبين لنا أن يوسف عليه السلام لم يدخل السجن إلا بعد انتشار الخبر في المدينة وحادثة النسوة . قال تعالى : ﴿ ثُمَّ بَدَأْ لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيْسَجُوهُنَّ حَتَّىٰ جِئْنَ ﴿٢﴾ .

دخل السجن مع ظهور براءته .

● أما العهد القديم فإنه يذكر أن العزيز أدخل يوسف السجن عقب حادثة المراودة . ونص العهد القديم في ذلك : [فكان لما سمع سيده كلام امرأته الذي كلمته به قائلة بحسب هذا الكلام صنع بي عبدك . أن غضبه حمي . فأخذ يوسف ووضعها في بيت السجن] (3) .

● وليس في العهد أي ذكر للشاهد ولا للنسوة وما حدث لهن وليس كذلك في العهد القديم أي إشارة إلى طلب يوسف عليه السلام إعادة النظر في القضية وإجماع النسوة على براءته واعتراف امرأة العزيز ببراءته وعفته وطهارته ، هذه الأمور المهمة ليس لها أي ذكر في العهد القديم وهي من الركائز الجوهرية في القصة .

قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ أَرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْأَلُهُ مَا بِأَلِ النَّسْوَةِ الَّتِي قَطَعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٢٦﴾ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنِ نَفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْفَنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنِ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٧﴾ ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِبِينَ ﴿٢٨﴾ وَمَا أُبْرِئُ نَفْسِي إِنْ أَلْفَسَ لِأَمَارَةٍ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَجِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٩﴾ .

● وهكذا نجد إغفال العهد القديم كثيرًا من الأحداث الهامة في القصة فضلًا عن ركاكة الأسلوب وتكرار الألفاظ واستعمال الكلمات التي تخدش الحياء .

(2) سورة يوسف : 35 .

(1) سورة يوسف : 26 - 29 .

(4) سورة يوسف : 50 : 53 .

(3) سفر التكوين أصحاب 39 فقرة - 20 ، 21 .

● عبر العهد القديم عن حاكم مصر في ذلك الوقت بـ (فرعون) (1) .

بينما عبر القرآن الكريم عنه بـ (الملك) (2) .

ولم يعبر عنه بلفظ (فرعون) لأن حاكم مصر لم يكن من الفراعنة وإنما كان من (الهكسوس) (3) ولفظ (فرعون) يطلق على المصري الذي يحكم مصر .

ومن هنا فإن تعبير القرآن الكريم تعبير صادق دقيق ، أما تعبير العهد القديم فهو تعبير خاطئ .

(1) يراجع العهد القديم سفر التكوين أصحاب 40 ، 41 ، 42 .

(2) قال تعالى : ﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ ﴾ سورة يوسف 43 وقال تعالى : ﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُؤْتِي يَدِي أَسْتَخْلِصُهُ لِنَفْسِي ﴾ سورة يوسف 54 وقال تعالى : ﴿ قَالُوا نَفَقْدُ صُورَاعَ الْمَلِكِ ﴾ سورة يوسف 72 . وقال تعالى : ﴿ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ ﴾ سورة يوسف 76 .

(3) الهكسوس : هو الاسم الذي أطلقه المصريون على (ملوك الرعاة) : الغزاة الآسيويين الذين دخلوا مصر وأسقطوا الدولة الوسطى واستقروا في مصر ما يقرب من قرنين من الزمان من (1800) إلى (1600) ق م . يراجع قصة الحضارة تأليف - ول ديورانت 75/2 ، 76 ط لجنة التأليف والترجمة والنشر بمصر سنة 1968 م ط 3 وتاريخ السودان القديم د / محمد إبراهيم بكر ط دار المعارف سنة 1983 م .

الفصل السادس

المرأة في قصة أيوب عليه السلام

ويشتمل على : تمهيد : وفيه تعريف موجز بنبي الله أيوب عليه السلام من حيث نسبه الشريف والمكان الذي عاش فيه .

المبحث الأول : ابتلاء أيوب عليه السلام .

المبحث الثاني : سؤال أيوب عليه السلام العافية .

المبحث الثالث : استجابة الله له وكشف الضر عنه .

المبحث الرابع : فوائد مهمة ودروس مستفادة من القصة .

أولا : الفوائد :

هل يجوز للزوج أن يضرب زوجته ؟ .

ما حكم الحيلة في الشريعة الإسلامية ؟ .

وهل الرخصة التي وقعت لأيوب عليه السلام يُحتَاج إلى مثلها في شريعتنا ؟ .

ثانيا : دروس مستفادة من القصة .

المبحث الخامس : ما ورد في العهد القديم والجديد في شأن أيوب

عليه السلام .

تمهيد :

أيوب عليه السلام نبي من الأنبياء الكرام يرجع نسبه إلى نبي الله إبراهيم عليه السلام (1) ، وكان عليه السلام مقيماً في ناحية من نواحي دمشق (2) .

(1) قال تعالى في سورة الأنعام : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ سورة الأنعام 84 . وقد اختلف المفسرون في عودة الضمير في (ومن ذريته) قيل : إلى نوح عليه السلام وقيل : إلى إبراهيم ، إلى نوح باعتباره أقرب مذكور ، وإلى إبراهيم عليه السلام ؛ لأن سياق الكلام فيه وهو المقصود بالذكر ولكن يشكل على هذا الرأي أن لوطا عليه السلام ليس من ذرية إبراهيم عليه السلام وإنما هو ابن أخيه ويجاب على هذا الإشكال بأن العم في مقام الأب ، أو أن لوطاً ذكر هنا على سبيل التغليب يقول أبو السعود :

[(ومن ذريته) الضمير لإبراهيم ؛ لأن مساق النظم الكريم لبيان شئونه العظيمة من إتيان الحجّة ورفع الدرجات وهبة الأولاد الأنبياء وإبقاء هذه الكرامة في نسله إلى يوم القيامة ، كل ذلك لإلزام من ينتمي إلى ملته من المشركين واليهود ، وقيل : الضمير يعود إلى نوح ؛ لأنه أقرب مذكور ، ولأن لوطاً ليس من ذرية إبراهيم ... وروي عن ابن عباس أن هؤلاء الأنبياء كلهم مضافون إلى ذرية إبراهيم ، ولوطاً ابن أخي إبراهيم والعرب تجعل العم أباً] إرشاد العقل السليم 175/2 بتصرف وقال الزركشي : [وأيوب عليه السلام من ذرية إبراهيم بدليل قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ ﴾] البرهان 30/3 . وقال ابن كثير : [وأيوب من ذرية إبراهيم لقوله تعالى : ﴿ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ ﴾] والصحيح في الضمير أنه عائد إلى إبراهيم عليه السلام لا إلى نبي الله نوح عليه السلام [قصص الأنبياء 263 ، 264 .] ولوط وإن كان ابن أخيه إلا أنه دخل في الذرية تغليظاً [نفس المرجع ص 172 وقال الإمام القاسمي : [ذهب الأكثرون إلى أن الضمير في (ومن ذريته) عائد لإبراهيم ؛ لأن مساق النظم لبيان شئونه العظيمة ، كأنه قيل : ولم نزل نرفع درجاته من بعد ذلك ، إذ هدينا من ذريته داوود ... إلخ فهو المقصود بالذكر في هذه الآيات وذكر نوح عليه السلام ؛ لأن كون إبراهيم من أولاده أحد موجبات رفعة إبراهيم] محاسن التأويل للقاسمي 2395/6 ويراجع تفسير المراغي 181/7 وحاشية زاده على البيضاوي 184/2 والكشاف للزمخشري 43/2 وعلي هذا فالضمير في (ومن ذريته) عائد إلى إبراهيم عليه السلام ، ولقد ذهب جمهور المفسرين والمؤرخين إلى أن أيوب من نسل إبراهيم عليه السلام من جهة ولده إسحاق قيل : أيوب عليه السلام هو أيوب بن موص بن رازح بن عيص بن إسحاق ، وقيل أيوب بن موص بن راعوثيل بن العيص بن إسحاق .

يراجع في ذلك تاريخ الرسل والملوك للطبري 322/1 وتهذيب تاريخ دمشق لابن عساكر 193/3 والأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل لمحير الدين الحنبلي 72/1 وبدائع الزهور ووقائع الدهور لابن إياس (أبو البركات محمد ابن أحمد بن إياس الحنفي) وقصص الأنبياء أحداثها وغيرها لمحمد الفقي ص 184 ط وهبة . وحاشية الصاوي على الجلالين 300/3 وإرشاد العقل السليم لأبي السعود 531/3 .

(2) في قرية من القرى التابعة لها قيل إنها قرية البثنية أو البثنة وهي من أعمال دمشق يراجع معجم البلدان لياقوت الحموي 338/1 وفتوح البلدان للبلاذري ص 32 والمختصر في اخبار البشر 116/1 ومرآة الزمان لسبط بن الجوزي 337/1 ومروج الذهب للمسعودي 35/1 .

المبحث الأول

ابتلاء أيوب عليه السلام

ابتلاه الله ﷻ بلاء عظيما في ماله وولده وبدنه فاستقبل أمواج البلاء بالصبر الجميل ، صبر على ذهاب المال وفقد الولد وشدة المرض الذي لازمه مدة طويلة .

قال تعالى في سورة الأنبياء : ﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ (٨٣) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرِّهِ وَعَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ ﴿ (١)

وقال تعالى في سورة ص : ﴿ وَادْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿١١﴾ ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿١٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٣﴾ وَخَذَ بِيَدِكَ ضِعْفًا فَأَضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنُتْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعَمَ الْعَبْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿١٤﴾ (٢)

وفي هذه الآيات الكريمة إشارة إلى البلاء الذي أصاب أيوب عليه السلام وإلى صبره على هذا البلاء ، وتوجهه إلى الله ﷻ بالدعاء ليكشف عنه ما نزل به واستجابة الله تعالى له .

● والابتلاء سنة من سنن الله في عباده قال تعالى : ﴿ وَاتَّبَلُّوْكُمْ حَتَّى تَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّادِقِينَ وَبَلَّوْا أَخْبَارَكُمْ ﴾ (٣) وقال تعالى : ﴿ أَلَمْ أَحْسِبِ النَّاسَ أَنْ يَتَرَكَوْا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿١﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴿٢﴾ (٤)

● وابتلاء الأنبياء عليهم السلام لرفع درجاتهم ، وليكونوا قدوة للمبتلين في الصبر والرضا واليقين .

روى الإمام الترمذي في السنن والإمام أحمد في مسنده وابن ماجه في السنن عن سعد ابن أبي وقاص رضي الله عنه قال : قلت : يا رسول الله ! أي الناس أشد بلاء ؟ قال : « الأنبياء ، ثم الأمثل فالأمثل ، فيبتلى الرجل على حسب دينه ، فإن كان دينه صلبا اشتد بلاؤه وإن كان في دينه رقة ابتلي على حسب دينه ، فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشي

(٢) سورة ص : ٤١ - ٤٤ .

(١) سورة الأنبياء : ٨٣ ، ٨٤ .

(٤) سورة العنكبوت : ١ - ٣ .

(٣) سورة محمد : ٣١ .

على الأرض ما عليه خطيئة» (1) .

● ومرض أيوب عليه السلام لم يكن من الأمراض المنفرة المقززة ، ولم يكن من الأمراض المعدية ؛ لأن الأنبياء عليهم السلام معصومون من الأمراض المنفرة والمعدية .

● يقول الإمام الطبرسي : [قال أهل التحقيق : إنه لا يجوز أن يكون مرضه بصفة يستقدها الناس ؛ لأن في ذلك تنفيرًا ، فأما المرض والفقر وذهاب الأهل فيجوز أن يمتحن به] (2) .

● وقال الشيخ الشنقيطي في أضواء البيان : [والضر الذي أصاب أيوب عليه السلام ونادى ربه ليكشفه عنه كان بلاء أصابه في بدنه وأهله وماله ، ولما أراد الله إذهاب الضر عنه أمره أن يركض برجله ، ففعل ، فنبعت له عين ماء فاغتسل منها وزال كل ما بظاهر بدنه من الضر وشرب منها فزال كل ما بباطنه] (3) .

● وقال الشيخ أبو شهبة [... والذي يجب أن نعتقده أنه ابتلي ، ولكن بلاءه لم يصل إلى حد هذه الأكاذيب من أنه أصيب بالجذام ، أو أن جسمه أصبح قرحة ، وأنه ألقى على كناسة بني إسرائيل يرعى في جسده الدود ، وتعبث به الدواب ، أو أنه أصيب بمرض الجدري ، وأيوب عليه السلام أكرم على الله من أن يلقي على مزبلة وأن يصاب بمرض ينفر الناس من دعوته ويقززهم منه ، وأي فائدة تحصل من الرسالة وهو على هذه الحالة المزرية التي لا يرضاها الله لأنبيائه ورسله ؟ والأنبياء إنما يبعثون من أوساط قومهم - أي خيارهم وأكرمهم حسبًا ونسبًا - ، فأين كانت عشيرته فتواريه ، وتطعمه بدل أن تخدم امرأته الناس وتبيع ضفيرتها في سبيل إطعامه - كما ورد في الإسرائيليات - ؟ بل أين كان أتباعه والمؤمنون به ؟ فهل تخلوا عنه في بلائه ؟! كيف والإيمان ينافي ذلك ؟] (4) .

(1) رواه الترمذي في السنن ك / الزهد باب / الصبر على البلاء - حديث 2396 - 520/4 وقال الترمذي : حسن صحيح ورواه الإمام أحمد في المسند 171/1 ورواه ابن ماجه في السنن ك / الفتن باب / الصبر على البلاء حديث 4023 - 1334/2 وأورده الألباني في صحيح سنن ابن ماجه برقم 3249 - 371/2 وفي صحيح سنن الترمذي برقم 1956 - 286/2 وفي الصحيحة برقم 143 - 225/1 .

(2) مجمع البيان 94/7 .

(3) أضواء البيان 679/4 ط السعودية سنة 1403 هـ .

(4) الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير للدكتور أبو شهبة ص 280 بتصرف يسير ط / مكتبة السنة .

المبحث الثاني

سؤال أيوب العافية

لبث أيوب عليه السلام في بلائه مدة طويلة ، ثم توجه إلى الله بالدعاء فقال - كما ورد في القرآن الكريم في سورة الأنبياء : ﴿ أَنِي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ (1) .

● قال صاحب الظلال : [وأيوب هنا في دعائه : لا يزيد على وصف حاله ﴿ أَنِي مَسَّنِيَ الضُّرُّ ﴾ ووصف ربه بصفته ﴿ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ ثم لا يدعو بتغيير حاله ؛ صبراً على بلائه ولا يقترح شيئاً على ربه ؛ تأدباً معه وتوقيراً ، فهو نموذج للعبد الصابر ، لا يضيق صدره بالبلاء ولا يتململ من الضر الذي تضرب به الأمثال في جميع الأعصار ، بل إنه ليتحرج أن يطلب رفع البلاء ، فيدع الأمر كله إلى الله اطمئناناً إلى علمه بالحال وغناه عن السؤال] (2) .

● وقال المراغي (3) : [وقد وصف أيوب نفسه بما يستحق به الرحمة ووصف ربه بغاية الرحمة ولم يصرح بمطلوبه إيماء منه بأن ربه عليم ، فكأنه يقول : أنا أهل لأن أرحم وأنت الكريم الجواد الذي يرحم فأفرض علي من جودك ورحمتك بما يسعفني ويدفع الضر عني ، فأنت أرحم الراحمين ، وهذا أسلوب في الطلب دقيق المسلك حكيم المنحى] (4) .

وفي سورة (ص) يقول عليه السلام عن دعاء أيوب عليه السلام : ﴿ وَأَذْكُرُ عَبْدًا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴾ (5) .

● قال الإمام الطبري : [يقول الله تعالى لنبيه عليه السلام واذكر يا محمد عبدنا أيوب إذ نادى ربه مستغيثاً به فيما نزل به من البلاء : يا رب إنني مسني الشيطان بنصب وعذاب ، والنصب هو العلة التي نالته في جسده والعناء الذي لاقاه ، والعذاب في ذهاب ماله

(1) سورة الأنبياء : 83 .

(2) الظلال 4/2392 .

(3) هو أحمد بن مصطفى المراغي تخرج من دار العلوم وعمل بها مدرساً وأعيد للعمل أستاذاً للغة العربية والشريعة الإسلامية بالخرطوم ... له مؤلفات متعددة منها ، الوجيز في أصول الفقه ، والحسبة في الإسلام ، وعلوم البلاغة ، إلى جانب تفسيره ... توفي رحمته الله سنة 1371 هـ سنة 1952 م . الأعلام 1/258 معجم المفسرين لعادل نويعض 80/1 مؤسسة نويعض الثقافية .

(5) سورة ص : 41 .

(4) تفسير المراغي 60/17 .

وولده [(1)] .

أقول : النصب ما كان في البدن من آلام وأسقام وعناء ومشقة ، والعذاب ما كان في فقد المال والولد ويشمل أيضًا ما كان في الجسد - من آلام وأسقام ومشقة وعناء - ، والضرر شامل لكل ما ابتلي به عَلَيْهِ السَّلَامُ .

● وإسناد المس إلى الشيطان تأديبًا مع الله وَعَلَّمَ .

يقول القاضي ابن العربي (2) : [... والأفعال كلها خيرها وشرها خلقها الله تعالى والشّر لا ينسب إليه ذكرًا ، وإن كان موجودًا منه خلقًا ، تأديبًا مع الله تعالى ، وكان من دعاء رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « والخير في يديك والشّر ليس إليك ... » (3) على هذا المعنى [(4)] .
وفي تفسير الجلالين : [ونسب المس إلى الشيطان وإن كانت الأشياء كلها من الله تأديبًا معه تعالى] (5) .

وفي الكشف للزمخشري : [.. وقيل : أراد ما كان يوسوس به إليه في مرضه من تعظيم ما نزل به من البلاء ويغريه على الكراهة والجزع فالتجأ إلى الله تعالى في أن يكفيه ذلك بكشف البلاء أو بالتوفيق في دفعه ورده بالصبر الجميل] (6) .

(1) جامع البيان للطبري 106/23 بتصرف .

(2) هو محمد بن عبد الله بن محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الله المعافري الأندلسي الأشبيلي المالكي (أبو بكر بن العربي) القاضي ، الفقيه الأصولي المفسر الأديب النحوي (468 - 543) هـ ولد بأشبيلية بالأندلس وولي القضاء بها ، ورحل إلى كثير من البلدان الإسلامية حيث ذهب إلى بغداد ومصر وغيرها ... من مصنفاته أحكام القرآن ، شرح الجامع الصحيح للترمذي ، المحصول في الأصول ، الإنصاف في مسائل الخلاف في الفقه ، قانون التأويل في تفسير القرآن .

تراجع ترجمته في معجم المؤلفين 242/10 - سير أعلام النبلاء 189/12 - نفع الطيب 335/1 - الديباج المذهب 281 وفيات الأعيان لابن خلكان 296/4 طبقات المفسرين للداودي 167/2 العبر 125/4 .

(3) جزء من الحديث الذي رواه الإمام مسلم في صحيحه عن علي بن أبي طالب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ كتاب صلاة المسافرين باب / الدعاء في صلاة الليل وقيامه رقم 771 صحيح مسلم بشرح النووي 56/6 .
ورواه النسائي في السنن كتاب الافتتاح باب / نوع آخر من الذكر والدعاء بين التكبير والقراءة - سنن النسائي 100/2 .

(4) ويراجع الجامع لأحكام القرآن للقرطبي 210/15 .

(5) تفسير الجلالين - ص 602 .

(6) الكشف 97/4 .

المبحث الثالث

استجابة الله له وكشف الضر عنه

قال تعالى في سورة الأنبياء ﴿ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَاَنْشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَاَتَيْنَاهُ اٰهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِنَا وَذَكَرْنَا لِلْعٰلَمِيْنَ ﴾ .

● قال صاحب الظلال : [رفع عنه الضر في بدنه فإذا هو معافي صحيح ، ورفع عنه الضر في أهله فعوضه عن فقد منهم ورزقه مثلهم] (1) .

● وقال صاحب الظلال أيضًا : [... وتقول بعض الروايات : إن الله أحيا له أبناءه ووهب له مثلهم ، وليس في النص ما يُحتمُّ أنه أحيا له من مات ، وقد يكون معناه أنه بعودته إلى الصحة والعافية قد استرد أهله الذين كانوا بالنسبة إليه كالمفقودين ، وأنه تعالى رزقه بغيرهم زيادة في الإنعام والرحمة والرعاية . مما يصلح ذكره لذوي العقول والإدراك] (2) .

وقال تعالى في سورة ص : ﴿ اَرْكُضْ بِرِجْلِكَ هٰذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴾ أمر الله أيوب عليه السلام أن يضرب الأرض برجله لينبع الماء فيغتسل ويشرب منه ، فإذا اغتسل منه زال المرض عن ظاهر بدنه وإذا شرب منه زال المرض عن باطن بدنه .

● وبعد أن شفاه الله تعالى من مرضه وهب له أهله ومثلهم معهم رحمة به وإحسانا إليه وفي ذلك عبرة وعظة لأصحاب العقول النيرة والقلوب المبصرة ، قال تعالى في سورة ص : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُمُ اٰهْلَهُمْ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذَكَرْنَا لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ (3) .

● وكان أيوب عليه السلام قد حلف أن يضرب زوجته (4) مائة إن شفاه الله تعالى ، فرخص الله له في ضرب زوجته بحزمة من العيدان فيها مائة عود ، يضربها بها ضربة واحدة ليبر بقسمه ، ولا يحنث فيه ، رحمةً ورفقاً بزوجه تلك الزوجة الصالحة الصابرة

(2) المرجع السابق 3022/5 .

(1) في ظلال القرآن 2392/4 .

(3) سورة ص : 43 .

(4) اختلف العلماء في اسم زوجة أيوب قيل : هي ليا بنت يعقوب ، وقيل : رحمة بنت إفرائيم ، وقيل : دينا . والله أعلم بحقيقة اسمها ولو كان في ذكره فائدة لورد في كتاب الله أو في سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

يراجع تفسير القرطبي 209/15 والبداية والنهاية لابن كثير 206/1 .

التقية الوفية التي رافقت زوجها في محنته فكانت له خير سند ومعين ، قال تعالى : ﴿ وَحُذِّبِيكَ ضِعْفًا فَأَضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنَثِي إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعَمَ الْعَبْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ (1) .

أخرج ابن حبان في صحيحه وغيره بأسانيدهم عن أنس بن مالك رضي الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن أيوب نبي الله صلى الله عليه وسلم لبث في بلائه ثماني عشرة سنة ، فرفضه القريب والبعيد ، إلا رجلين من إخوانه كانا من أخص إخوانه ، كانا يغدوان إليه ويروحان ، فقال أحدهما لصاحبه : تعلم ، والله لقد أذنب أيوب ذنبًا ما أذنبه أحد من العالمين قال له صاحبه : وما ذاك ؟ قال : منذ ثماني عشرة سنة لم يرحمه الله فيكشف ما به . فلما راح إليه لم يصبر الرجل حتى ذكر ذلك له . فقال أيوب : لا أدري ما تقول ، غير أن الله يعلم أنني كنت أمر على الرجلين يتنازعان ، فيذكران الله ، فأرجع إلى بيتي فأكفر عنهما ؛ كراهية أن يذكر الله إلا في حق . قال : وكان يخرج إلى حاجته ، فإذا قضى حاجته ، أمسكت امرأته بيده ، فلما كان ذات يوم ، أبطأ عليها فأوحى الله إلى أيوب في مكانه : ﴿ أَرَكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مَغْسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴾ فاستبطأته فبلغته ، فأقبل عليها ، قد أذهب الله ما به من البلاء فهو أحسن ما كان ، فلما رأته قالت : أي بارك الله فيك ، هل رأيت نبي الله هذا المبتلى ، والله ما رأيت أحدًا كان أشبه به منك إذ كان صحيحًا ! قال : فإني أنا هو .

وكان له أندران : أندر للقمح ، وأندر للشعير . فبعث الله سحابتين ، فلما كانت إحداهما على أندر القمح ، أفرغت فيه الذهب حتى فاضت ، وأفرغت الأخرى على أندر الشعير الورق حتى فاضت » (2) .

وروى البخاري في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « بينما أيوب

(1) سورة ص : 44 .

(2) رواه ابن حبان في صحيحه كما في الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان حديث 2887 - 244/4 وفي موارد الظمان برقم 2091 - 431/6 وأخرجه أبو يعلى في مسنده 448/3 حديث 3605 والبخاري في مسنده كما في كشف الأستار 108/3 حديث 2357 والحاكم في المستدرک 581/2 وقال هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ووافقه الذهبي .

وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد 208/8 وقال رواه أبو يعلى والبخاري ورجال البزار رجال الصحيح . وأورده أبو نعيم في الحلية 374/3 وقال : غريب من حديث الزهري لم يروه عنه إلا عقيل ورواه متفق على عدالتهم . والورق هو الفضة ، والأندر الموضع الذي يدرس فيه القمح وغيره .

يغتسل عرياناً : خر عليه رجل جراد من ذهب فجعل يحثي في ثوبه فنادى ربه : يا أيوب ألم أكن أغنيتك عما ترى ؟ قال : بلى يا رب ، ولكن لا غنى لي عن بركتك » (1) .

خلاصة ما سبق :

ابتلى الله ﷻ عبده ونبيه أيوب عليه السلام بفقد الولد وذهاب المال وشدة المرض فصبر على البلاء ورضي بالقضاء ، ورافقتة زوجته في محنته التي طالت ، فكانت له نعم الزوجة الوفية الصابرة الراضية ، وبعد ثمان عشرة سنة من المحنة توجه أيوب إلى ربه داعياً بلطف وأدب وتضرع ، فاستجاب الله دعاءه ، وكشف بلاءه ، وأجزل عليه العطاء ، وفي ذلك عبرة وعظة لكل مبتلى أن يصبر على قضاء الله وأن يستعين بالله ﷻ .

(1) رواه البخاري في صحيحه ك / الأنبياء باب قول الله تعالى : ﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ ﴾ حديث

3391 - فتح الباري 484/6 .

ومعنى (خر عليه) أي : سقط عليه ، (ورجل جراد) أي : جماعة جراد (ويحثي) أي : يأخذ بيديه جميعاً .

المبحث الرابع

فوائد هامة ودروس مستفادة من القصة

أولا : الفوائد الهامة :

- هل يجوز للزوج أن يضرب زوجته .
- ما حكم الحيلة في الشريعة الإسلامية .
- وهل الرخصة التي وقعت لأيوب عليه السلام يحتاج إلى مثلها في شريعتنا .

قال تعالى في سورة (ص) في سياق الحديث عن أيوب عليه السلام : ﴿ وَخَذُ بِيَدِكَ ضِعْفًا فَأَضْرِبْ يَدَهُ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعَمَ الْعَبْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ .

وهذه الآية الكريمة تفيد أن أيوب قد حلف على زوجته أن يضربها مائة إن شفاه الله ، فرخص الله له في ضربها بحزمة من العيدان الرطبة واليابسة حتى يَبْرُ بِقِسْمِهِ وَلَا يَحْنَثُ فِيهِ .

وهنا قد يتساءل البعض فيقول : هل يجوز للزوج أن يضرب زوجته؟ وما حكم الحيلة في الشريعة الإسلامية؟ وهل الرخصة التي وقعت لأيوب عليه السلام يحتاج إلى مثلها في شريعتنا؟ .

وللإجابة عن هذه التساؤلات نقول وبالله التوفيق :

إن أيوب عليه السلام أقسم وهو في مرضه إن شفاه الله تعالى أن يضرب زوجته ؛ وذلك لأنها صنعت ذات يوم ما أغضبه ، قال أبو السعود : [إن امرأته ذهبت لحاجة فأبطأت فحلف إن برئ ليضربنها مائة ضربة فأمره الله تعالى بأخذ ضغث ، والضغث الحزمة الصغيرة من الحشيش ونحوه ، ﴿ فَأَضْرِبْ يَدَهُ ﴾ أي : بذلك الضغث ولا تحنث في يمينك فإن البر يتحقق به ، ولقد شرع الله سبحانه هذه الرخصة رحمة به وبها لحسن خدمتها إياه ورضاه عنها] (1) .

● وقال الإمام الرازي [اختلفوا في السبب الذي لأجله حلف عليها ويعد ما قيل إنها رغبت في طاعة الشيطان أو إنها باعت ذوائبها ، والصواب أنها ذهبت في بعض المهمات فأبطأت عليه فحلف في مرضه ليضربنها مائة إذا برئ ، ولما كانت حسنة الخدمة له لاجرم حلل الله يمينه بأهون شيء عليه وعليها] (2) .

● وفي شرعنا : جواز ضرب الرجل زوجته تأديباً لها إذا كانت ناشزاً ولم ينفع معها الوعظ والهجر ، عندئذ يجوز له أن يلجأ إلى ضربها تأديباً لها لا انتقاماً منها قال تعالى : ﴿ وَاللَّيْنِ تَخَافُونَ سُوءَ بَعْضِهِمْ فِعْظُهُمْ وَأَهْجُرُوهُمْ فِي الْمَصَاحِبِ وَأَضْرِبُوهُمْ فَإِنْ أَطَعْتُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا كَبِيرًا ﴾ (3) .

والآية الكريمة تعطي الحق للزوج في تأديب زوجته إذا أخلت أو قصرت في حقوقه

(1) إرشاد العقل السليم 444/4 بتصرف ويراجع تفسير الكشاف 377/3 وتفسير المراغي 126/23 .

(3) سورة النساء : 34 .

(2) مفاتيح الغيب للرازي 215/25 .

على نحو يعتبر نشوزاً منها ، ويجب على الزوج التدرج في استعمال وسائل التأديب حيث يبدأ أولاً بوعظ زوجته ؛ فإن لم ينفع معها الوعظ تحول إلى الوسيلة الثانية وهي هجرها في المضاجع . وذلك بأن يوليها ظهره عند نومه ، أو يهجر مضجعها فينام بعيداً عنها ، فإن لم ينفع معها الهجر لجأ إلى الوسيلة الثالثة وهي الضرب .

● قال الإمام الرازي : [الذي يدل عليه نص الآية أنه تعالى ابتداءً بالوعظ ، ثم ترقى منه إلى الهجران في المضاجع ، ثم ترقى منه إلى الضرب وذلك تنبيه يجري مجرى التصريح في أنه مهما حصل الغرض بالطريق الأخف وجب الاكتفاء به ولم يجز الإقدام على الطريق الأشق] (1) .

● وعلى الزوج أن لا يتعجل في اللجوء إلى وسيلة الضرب ، بل يصبر على زوجته ويتحمل تقصيرها ويكرر المحاولة في إصلاحها بالوعظ وإلا فبالهجر ، فإذا عيل صبره ولم يعد يتحمل شططها ورأى أن الضرب قد يأتي بالإصلاح المنشود : باشر وسيلة الضرب كعلاج لها وليس كانتقام منها ، لأن بعض النساء قد لا ينفع معهن إلا الضرب .

● أما عن صفة الضرب فإنه يكون غير مُبرِّح أي غير شديد شائن ؛ لما ورد في الحديث « اتقوا الله في النساء فإنكم أخذتموهن بأمانة الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله ، ولكم عليهن أن لا يُوطئنَ كُفْرُكُمْ أحداً تکرهونه ، فإن فعلن ذلك فاضربوهن ضرباً غير مُبرِّحٍ ولهن عليكم رزقهنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بالمعروف ... الحديث » (2) .

● قال الإمام النووي : الضرب المبرِّح هو الشديد الشاق (3) . وقال ابن عباس : الضرب غير المبرح هو بالسواك ونحوه .

● وعلى الزوج أن يتقي ضرب الوجه ويجتنب ضرب البطن وغيره من المواضع المخوفة وفي صحيح البخاري عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت : قال رسول الله ﷺ : « أَمَا يَسْتَحِي أَحَدُكُمْ أَنْ

(1) مفاتيح الغيب 90/10 وراجع المغني لابن قدامة 46/7 . والبدايع للكاساني 334/2 والأم للشافعي 114/5 ،

يراجع المفصل في أحكام المرأة والبيت المسلم د . عبد الكريم زيدان 309/7 ط دار الفكر سوريا .

(2) رواه الإمام مسلم في صحيحه عن جابر بن عبد الله كتاب الحج باب حجة النبي ﷺ صحيح مسلم

بشرح النووي 183/8 ، 184 .

ورواه أبو داود في السنن كالمناسك باب صفة حجة النبي 439/1 والترمذي في السنن كتاب التفسير باب ومن

سورة التوبة حديث 3087 .

(3) شرح النووي على صحيح مسلم 184/8 .

يضرب امرأته كما يضربُ العبد يضربها أول النهار ثم يجامعها آخره ! » (1) .

وعن معاوية بن حيدة القشيري رضي الله عنه أنه قال : يا رسول الله ما حق امرأة أحدنا عليه ؟ قال : « أن تطعمها إذا طَعِمَتْ ، وَتَكْسُوَهَا إِذَا اكْتَسَيْتَ ، وَلَا تَضْرِبَ الْوَجْهَ ، وَلَا تُقَبِّحَ ، وَلَا تهجر إلا في البيت » (2) .

● وينبغي أن لا يضربها أمام أحد ، سواء كان من الأقارب أو من الغرباء ، وأن يتجنب ضربها أمام الأطفال ؛ لأن في ضربها أمامهم أثراً سيئاً على مشاعرهم ، وأن لا يُعْلِمَ أحداً بضربه لزوجته ؛ لأن ذلك مما يخذش الكرامة ، ويسبب للمرأة جرحاً غائراً وحرماً بالغاً ، بالإضافة إلى ما يترتب على ذلك من كشف الأسرار الزوجية وهتك أستارها (3) .

حكم الحيلة في الشريعة الإسلامية

الحيلة : هي ما يتوصل به إلى حالة ما في خفية ، وأكثر استعمالها فيما في تعاطيه خبث ، وقد تستعمل فيما في تعاطيه حكمة (4) ، قال الجرجاني في التعريفات : [الحيلة اسم من الاحتيال وهي التي تُحوّل المرء عما يكرهه إلى ما يحبه] (5) .

● وقال صاحب المصباح : [الحيلة الخدق في تدبير الأمور وهو تقليب الفكر حتى

(1) رواه البخاري في صحيحه ك / النكاح باب / ما يكره من ضرب النساء وقول الله تعالى : ﴿ وَأَضْرِبُوهُنَّ ﴾ أي ضرباً غير مبرح ، حديث 5204 فتح الباري 213/9 .

(2) رواه أبو داود في السنن ك / النكاح باب / في حق المرأة على زوجها حديث 2142 - 244/2 ورواه الإمام أحمد في مسنده 446/4 ، 447 وابن ماجه في السنن ك / النكاح باب في حق المرأة على الزوج وسنده صحيح - سنن ابن ماجه حديث 1850 - 593/1 ، 594 وأورده الألباني في صحيح سنن ابن ماجه برقم 1500 - 311/1 وفي صحيح أبي داود برقم 1859 .

(3) ومن عجائب الأخبار : انقلاب الموازين في بعض الدول الغربية حيث تقوم الزوجة بتأديب زوجها وذلك ما ورد في جريدة الأهرام عدد 1/7/1999 م في دراسة أذاعتها القناة الرابعة في التلفزيون البريطاني مساء اليوم 1/7 أن السيدات يهاجمن أزواجهن بعنف حين يشعرن بأن الرجال في حالة ضعف ، وأظهرت الدراسة أن المرأة الغاضبة يمكن أن تكون عنيفة مثلها مثل الرجل وذكرت أن 40 % من السيدات اللاتي شاركن في الدراسة يستخدمن أسلحة للتعويض عن ضعفهن النسبي أمام الرجال ومنها السكاكين والزجاجات والمطرقة والآلات المعدنية الصغيرة الأخرى !!!

(4) يراجع المفردات للراغب مادة ح و ل ص : 138 .

(5) التعريفات للجرجاني (الشريف بن علي بن محمد الجرجاني) ص 94 ط دار الكتب العلمية بيروت ط 3

يهتدي إلى المقصود [(1)] .

● وضابط ما يجوز وما لا يجوز من الحيل : أن كل طريق مشروع يترتب على سلوكه تحقيق مقاصد الشرع من فعل ما أمر الله به واجتناب ما نهى الله عنه وإحياء الحقوق ونصر المظلوم والانتصاف من الظالم : فهو حلال مباح أو مستحب واجب ويثاب فاعله والదال عليه .

وأن كل طريق يترتب عليه العبث بمقاصد الشرع من إسقاط الواجبات وتحليل المحرمات وقلب الحق باطلاً والباطل حقاً فهو محظور ويذم فاعله والدال عليه (2) .

● يقول الإمام الشاطبي (3) في الموافقات [... لا يمكن إقامة دليل في الشريعة على إبطال كل حيلة كما أنه لا يقوم دليل على تصحيح كل حيلة وإنما يبطل منها ما كان مضاداً لقصد الشرع خاصة ، وهو الذي يتفق عليه جميع أهل الإسلام ، ويقع الاختلاف في المسائل التي تتعارض فيها الأدلة] (4) .

من أمثلة الحيل الشرعية

1 - قال تعالى في قصة أيوب عليه السلام : ﴿ وَخَذَ بِيَدِكَ ضَعْفًا فَأَضْرَبَ بِهِ وَلَا تَحْتَثُّ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ .

● قال الجصاص في كتابه أحكام القرآن : [وفي هذه الآية دليل على جواز الحيلة في التوصل إلى ما يجوز فعله ، ودفع المكروه بها عن نفسه وعن غيره ؛ لأن الله تعالى أمره بضربها بالضغث ليخرج به من اليمين ولا يصل إليها كثير ضرر] (5) .

(1) المصباح المنير مادة ح و ل 73/1 .

(2) يراجع كتاب الحيل في الشريعة الإسلامية د . محمد عبد الوهاب بحيري - رحمته الله - أستاذ التفسير والحديث بكلية أصول الدين - سابقاً ص 23 ط مطبعة السعادة سنة 1394 هـ سنة 1974 م .

(3) هو الإمام المجتهد ، القدوة الأصولي المحدث : أبو إسحاق إبراهيم بن موسى اللخمي الغرناطي المعروف بالشاطبي ، صاحب التصانيف القيمة والتي من أهمها : الموافقات في أصول الأحكام وشرح على الخلاصة في النحو ، والاعتصام بالكتاب والسنة ، والتعريف بأسرار التكليف ... توفي سنة 790 هـ ، تراجع ترجمته في معجم المؤلفين 118/1 وشجرة النور الزكية في طبقات المالكية لمحمد بن محمد مخلوف ص 231 ط دار الكتاب العربي بيروت ، والمجددون في الإسلام لعبد المتعال الصعدي ص 307 والفتح المبين في طبقات الأصوليين تأليف / عبد الله مصطفي المراغي 204/2 الناشر محمد أمين وشركاه بيروت .

(4) الموافقات للشاطبي 237/2 .

(5) أحكام القرآن للجصاص 384/3 .

2 - ومن الحيل الشرعية أيضا ما ورد في قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفُوا زَحَفًا فَلَا تُولُوهُمُ الْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَنْ يُؤَلِّمُ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِتْنَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِعَضْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٦﴾ (1) .

فلقد حرم الإسلام التولي يوم الزحف إلا إذا كان حيلة وخذعة للعدو ﴿ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ ﴾ والتحرف للقتال هو الفر للكر أي يتظاهر بالفرار ؛ ليغر عدوه حتى يخيل له أنه انهزم ثم يكر عليه فيقتله وهذا من باب الكيد والاحتيال في الحرب ، وقوله تعالى : ﴿ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِتْنَةٍ ﴾ أي إلا منضمًا إلى جماعة أخرى يعينهم أو يستعين بهم (2) .

3 - ومن الحيل الشرعية أيضًا ما ورد في صحيح البخاري عن أبي هريرة ؓ عن النبي ﷺ قال : « كانت امرأتان معهما ابناهما ، جاء الذئب فذهب بابن إحداهما فقالت لصاحبتها : إنما ذهب بابنك وقالت الأخرى : إنما ذهب بابنك فتحاكما إلى داود ؑ ففضى به للكبرى ، فخرجتا على سليمان بن داود ؑ فأخبرتا ، فقال اثنوني بالسكين أشقه بينهما ، فقالت الصغرى : لا تفعل يرحمك الله هو ابنها ففضى به للصغرى » (3) .

فلقد استطاع نبي الله سليمان ؑ بهذه الحيلة أن يتوصل إلى صاحبة الحق أم الولد .

من أمثلة الحيل غير الشرعية

1 - قصة أصحاب السبت : قال تعالى : ﴿ وَسَأَلْتَهُم عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ بَيَّنَّا لَهُمْ يَمَّا كَانُوا يُفْسِقُونَ ﴿٤﴾ وَالآيَةَ خَطَابَ لِلرَّسُولِ ﷺ أَنْ يَسْأَلَ الْيَهُودَ كَيْفَ كَانَ حَالُ أَسْلَافِهِمُ الَّذِينَ تَحَالَفُوا عَلَى اسْتِحْلَالِ مَحَارِمِ اللَّهِ ، ﴿ وَسَأَلْتَهُم عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ ﴾ هي قرية إيلة التي تقع بين مدين والطور وهي مشرفة على شاطئ البحر (5) .

﴿ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ ﴾ أي : يظلمون ويتجاوزن الحدود ﴿ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ ﴾ ، كانت تأتيم يوم

(2) يراجع آيات الأحكام للصابوني 595/1 .

(1) سورة الأنفال : 15 ، 16 .

(3) رواه البخاري في صحيحه كتاب الفرائض باب إذا ادعت المرأة ابنا حديث 6769 فتح الباري 56/12 .

(5) على خليج العقبة وتعرف الآن بقرية إيلات .

(4) سورة الأعراف : 163 .

السبت وتدنو من شاطئ القرية بحيث يمكنهم صيدها بسهولة فإذا انقضى يوم السبت لا تأتيمهم ؛ ابتلاء من الله لهم حيث حرم عليهم الصيد يوم السبت فاحتالوا على أمر الله واتخذوا حياضاً فكانوا يسوقون الحيتان إليها يوم السبت فتبقى فيها ، فلا يمكنها الخروج منها لقلة الماء فيأخذونها يوم الأحد . وفي هذا احتيال على شرع الله تعالى ولقد عاقبهم الله تعالى على هذا الصنيع .

2 - ومن الحيل غير الشرعية : نكاح التحليل : وذلك حين يطلق الرجل زوجته ثلاثة فلا تحل له حتى تنكح زوجا غيره قال تعالى : ﴿ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّى تَنكَحَ زَوْجًا غَيْرَهُ ﴾ (1) .

وعن عائشة (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا) أن رسول الله ﷺ سئل عن المرأة يتزوجها الرجل فيطلقها فتزوج رجلاً فيطلقها قبل أن يدخل بها لتحل لزوجها الأول ؟ قال : « لا حتى يذوق عسيلتها » (2) .

وينبغي أن يكون الزوج الثاني راغباً فيها عازماً على دوام العشرة ، فإذا كان مقصده من الزواج بها أن يحللها لزوجها الأول فالزواج باطل والإثم واقع على المحلل والمحلل له . وفي الحديث عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : « لعن رسول الله ﷺ المحلل والمحلل له » (3) . فنكاح التحليل باطل وهو من أكبر الكبائر ، وهو تحايل على شرع الله تعالى .

(1) سورة البقرة : 230 .

(2) رواه الإمام مسلم في صحيحه كتاب النكاح باب لا تحل المطلقة ثلاثة حتى تنكح زوجا غيره - صحيح مسلم بشرح النووي 3/10 .

وقال الإمام النووي « حتى يذوق عسيلتها » كناية عن الجماع ، شبه لذته بلذة العسل وحلاوته وفي هذا الحديث أن المطلقة ثلاثا لا تحل لمطلقها حتى تنكح زوجا غيره ويطأها ثم يفارقها وتنقضي عدتها ، فأما مجرد العقد عليها دون الوطء فلا يبيح وبه قال جميع العلماء من الصحابة والتابعين - المرجع السابق 3/10 .

(3) رواه الترمذي في السنن عن ابن مسعود رضي الله عنه ك النكاح باب في المحلل والمحلل له حديث 1120 - 428/3 ، وقال الترمذي حسن صحيح . ورواه أبو داود في السنن عن علي رضي الله عنه ك / النكاح باب / في التحليل حديث 2076 - 227/2 ورواه الدارمي في السنن عن عبد الله بن مسعود ك / النكاح باب / النهي عن التحليل حديث 2258 - 221/2 ورواه النسائي في السنن عن ابن مسعود ك / النكاح باب / في إحلال المطلقة 149/6 وأورده الألباني في صحيح سنن النسائي برقم 3198 - 720/2 وأورده في صحيح سنن الترمذي برقم 894 - 326/1 ورواه الإمام أحمد في مسنده عن ابن مسعود [المسند بتحقيق أحمد شاكر حديث 4283 ، 4284 ط دار المعارف والمسند 140/6 ، 141 ط المكتب الإسلامي] .

3 - ومن أنواع الحيلة غير المشروعة بيع العينة : وهذا النوع من البيع كثيراً ما يقع في مجتمعنا حيث يحتاج الرجل إلى المال فلا يجد من يقرضه فيذهب ويشترى سلعة من السلع بالتقسيط ثم يبيعها لمن اشتراها منه أو لغيره نقدًا . فيستفيد من المال النقدي الفوري في سبيل دفعه للأقساط فيما بعد ، وهذه حيلة غير مشروعة ولقد نهى الرسول ﷺ عنها ؛ لأنها ضرب من ضروب الربا وفي ذلك يقول ﷺ : « إذا ضن الناس بالدينار والدرهم ، وتبايعوا بالعينة ، واتبعوا أذنان البقر ، وتركوا الجهاد في سبيل الله أنزل الله بهم بلاء فلم يرفعهم عنهم حتى يرجعوا إلى دينهم » (1) .

هل الرخصة التي وقعت لأبيوب رضي الله عنه يُحتاج إلى مثلها في شريعتنا ؟

الجواب : لا يُحتاج إلى مثلها في شريعتنا في أبواب الأيمان ولو كان المحلوف عليه معذورًا لا ذنب له أو ضعيفًا لا يطبق الضرب ؛ وذلك لشرعية الكفارة في شرعنا ، وإنما تسري هذه الرخصة في أبواب الحدود إذا كان من وجب عليه الحد ضعيفًا لا يطبق الضرب المفرق ولا يرجى زوال مرضه كما فعل النبي ﷺ بالضعيف الذي زنا ، أما إذا كان العذر مَرَجُوحًا الزوال فإن الحد يؤخر إلى أن يزول العذر ، روى الإمام أحمد في مسنده وأبو داود في السنن عن أبي أمامة بن سهل بن حنيف قال : أخبرني بعض أصحاب النبي ﷺ من الأنصار أنه اشتكى رجل منهم حتى أُضني (2) فعاد جلدًا على عظم فدخلت عليه جارية لبعضهم فَهَشَّ لها (3) ، فوقع عليها فلما دخل عليه رجال قومه يعودونه أخبرهم بذلك وقال : استفتوا لي رسول الله ﷺ فإني قد وقعت على جارية دخلت علي ، فذكروا ذلك لرسول ﷺ وقالوا ما رأينا بأحد من الناس من الضر مثل الذي هو به ، لو حملناه إليك لتفسخت عظامه ، ما هو إلا جلد على عظم ، فأمر رسول الله ﷺ أن يأخذوا له مائة شِمْرَاخ (4) فيضربوه بها ضربةً واحدةً (5) .

(1) رواه الإمام أحمد في مسنده عن عبد الله بن عمر ورجاله ثقات [الفتح الرباني 25/14] .

والمسند بترتيب وتخريج الشيخ أحمد شاكر حديث 4825 - 33/7 وقال الشيخ شاكر : إسناده صحيح .

(2) أضني : أي : سقم وضعف وهزل . (3) هش لها : مال إليها واشتهاها .

(4) شمرَاخ : هو ما يكون فيه الرطب ويسمى العثكال - لسان العرب 2323/5 مادة ش م رخ - والمصباح المنير 147/1 .

(5) سنن أبي داود كتاب الحدود باب في إقامة الحد على المريض حديث 4472 - 161/4 - ومسند الإمام

أحمد 222/5 عن سعد بن عباد . ورواه الدراقطني في سننه عن سهل بن سعد حديث 64 - 99/3 وعن أبي أمامة بن سهل بن حنيف عن أبي سعيد الخدري حديث 65 - 100/3 سنن الدراقطني للإمام علي بن محمد =

● ومن الدروس المستفادة من القصة : الصبر على الابتلاء والاستعانة بالله تعالى على كشفه ، فالله تعالى هو الذي يكشف البلاء ، والاستعانة بالله تعالى والتوكل عليه لا يتنافى مع الأخذ بالأسباب فعلى المبتلى أن يجتهد في الدعاء إلى الله تعالى أن يكشف عنه ما نزل به وإن كان مريضاً فعليه أن يلتمس الدواء ويسأل الله تعالى العافية والشفاء .

روى الإمام مسلم في صحيحه بسنده عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لكل داء دواء ، فإذا أصيب دَوَاءُ الدَّاءِ بَرَأَ بإذن الله تعالى » (1) .

يا صاحب الهم إن الهم منفرج	أبشر بخير فإن الفارج الله
إذا ابتليت فتق بالله وارض به	إن الذي يكشف البلوى هو الله
الله يُخَدِّثُ بعد العسر ميسرة	لا تياسن فإن الكافي الله
إذا قضى الله فاستسلم لقدرته	ما لامرئ حيلة في ما قضى الله

والابتلاء :

تمحيص لما في القلوب وكفارة للذنوب ، وتنبية للغافلين وإنذار للمسرفين حتى يتوبوا إلى ربهم ، فعلى المبتلى بالمرض المسرف على نفسه أن يعلم أن المرض نذير له حتى يتوب عن المعاصي والذنوب فلا يرجع إليها أبداً حتى لا يكون كمن قال عنهم الشاعر :

تتوب عن الذنوب إذا مرضت	وترجع للذنوب إذا شُفِيت
فكم من مرة نجاك منها	وكم كشف البلا لما ابتليت
أما تخشى بأن تأتي المنايا	وأنت على الخطايا قد بقيت

= الدارقطني ت 385 هـ ط دار المحاسن بالقاهرة وأورده البيهقي في شرح السنة عن أبي أمامة بن سهل بن حنيف حديث 2590 - 302/10 ورواه الشافعي كما في مسنده 288/2 ط دار الكتب العلمية والبيهقي في السنن 230/8 ورجاله ثقات لكنه مرسل وقال ابن حجر في بلوغ المرام إسناد هذا الحديث حسن ولكن اختلف في وصله وإرساله ، يراجع سبل السلام حديث 1137 - 418/4 ط دار الحديث .

ورواه أحمد في مسنده عن سعد بن عبادة 222/5 ، ورواه ابن ماجه عنه في السنن ك الحدود باب الكبير والمريض يجب عليه الحد ، وأورده الألباني في صحيح سنن ابن ماجه برقم 2087 وبالجملة فللحديث طرق كثيرة يقوي بعضها بعض وتعمله صالحاً للاحتجاج به .

(1) رواه الإمام مسلم في صحيحه كتاب السلام باب لكل داء دواء واستحباب التداوي - صحيح مسلم

المبحث الخامس

ما ورد في العهدين القديم والجديد ⁽¹⁾ في شأن أيوب عليه السلام

● من الشخصيات التي احترم حولها جدل كبير بين أهل الكتاب : شخصية أيوب عليه السلام فمنهم من قال : إنه شخصية حقيقية ، ومنهم من قال : إنه شخصية وهمية ، من نسج الخيال .

● والقائلون بأنه شخصية حقيقية يختلفون في زمان وجوده فالبعض يقولون : إنه كان معاصرًا لنبي الله موسى عليه السلام ، وآخرون يقولون إنه كان في زمان بختنصر وقيل : في زمان أردشير ملك الفرس وقيل في زمان سيدنا سليمان عليه السلام .

● وهذه الأقوال المتناقضة المتضاربة يعلق عليها « هورن » أحد علماء اللاهوت البروتستانت قائلاً : [إن خفة هذه الخيالات لدليل كاف على ضعفها] ⁽²⁾ .

وكما اختلفوا في حقيقة أيوب فلقد اختلفوا في السفر المنسوب إليه (سفر أيوب) وهو السفر السابع عشر من أسفار العهد القديم ، قيل : هو من تأليف أيوب عليه السلام وقيل : من تأليف موسى عليه السلام ، وقيل : من تأليف سليمان عليه السلام ، وقيل : كتبه أشعيا ، وقيل : حزقيال ، وقيل : عزرا وقيل غير ذلك .

● أقول : ويا للعجب العجاب ! كيف يؤمن أهل الكتاب بهذا السفر رغم اختلافهم وشكهم المريب في أصله؟! فضلاً عما ورد فيه من تناقضات وخرافات تتنافى مع عصمة الأنبياء عليهم السلام ؟

وفيما يلي نورد أمثلة من هذا السفر تدل على زيفه وبطلانه فنقول وبالله التوفيق :

● في الإصحاح الأول : [وكان ذات يوم وأبناؤه وبناته يأكلون ويشربون خمراً في بيت أخيهم الأكبر ...] وفي نفس الإصحاح : [بنوك وبناتك كانوا يأكلون ويشربون خمراً] ⁽³⁾ .

(1) لم يرد ذكر لأيوب في العهد الجديد إلا في موضع واحد في رسالة يعقوب الخامسة وفيها يقول يعقوب [اقتدوا يا إخواني في احتمال الآلام والصبر عليها بالأنبياء الذين تكلموا باسم الرب ، فنحن نقول عن الصابرين على الألم : طوبى لهم ، وقد سمعتم بصبر أيوب ورأيتم كيف عامله الرب في النهاية وهذا يبين أن الرب كثير الرحمة والشفقة] - يعقوب 11/5 ، 12 .

(2) قصص الأنبياء لعبد الوهاب النجار ص 416 ويراجع شبهات وهمية حول العهد القديم ص 145 ط كنيسة قصر الدوبارة بالقاهرة سنة 1991 م .

(3) سفر أيوب أصحاب 1 فقرة / 14 و فقرة / 19 .

أقول : هل يشرب أولاد أيوب عليه السلام الخمر وقد ورد تحريمها في كثير من نصوص العهدين القديم والجديد ؟ وهي من أكبر الفواحش وأخبث الخبائث ؟ .

● وفي الإصحاح الثاني من سفر أيوب : [فخرج الشيطان من حضرة الرب وضرب أيوب بقرح رديء من باطن قدمه إلى هامته ، فأخذ لنفسه شقفة ليحتك بها ، وهو جالس في وسط الرماد] (1) .

أقول : إن مرض أيوب عليه السلام لم يكن من الأمراض المنفرة المعدية ؛ لأن هذه الأمراض تتنافى مع عصمة الأنبياء عليهم السلام .

● وفي حين يحدثنا القرآن الكريم عن استقبال أيوب عليه السلام لأموج البلاء بالصبر والرضا نجد في سفر أيوب صورة أخرى لنبي الله أيوب تخالف ما ذكره القرآن وتتنافى مع عصمة الأنبياء ، حيث يصفه هذا السفر بأنه كان ، شديد الأسى والحزن والكآبة ، كثير الشكوى والتبرم والاعتراض على هذا الابتلاء .

● ففي الإصحاح الثالث : [... بعد هذا فتح أيوب فاه وسب يومه وأخذ أيوب يتكلم فقال : ليت هلك اليوم الذي ولدت فيه والليل الذي قال قد حبل برجل ، ليكون ذلك اليوم ظلاماً . لا يعتني به الله من فوق ، ولا يشرق عليه نهار . ليملكه الظلام وظل الموت ليحبل عليه سحاب . لترعبه كاسفات النهار . أما ذلك الليل فليمسكه الدجى ولا يفرح بين أيام السنة ولا يدخلن في عدد الشهور . هوذا ذلك الليل ليكن عاقراً لا يسمع فيه هتاف ليلعنه لاعتوا اليوم المستعدون لإيقاظ التنين لتظلم نجوم عشائه . لينتظر النور ولا يكن ولا ير هذب الصبح . لأنه لم يغلق أبواب بطن أمي ولم يستر الشقاوة عن عيني . لِمَ لَمْ أمت من الرحم ؟ عندما خرجت من البطن لِمَ لَمْ أسلم الروح ؟ لماذا أعاننتي الركب ؟ وَلِمَ التُّدِّي حتى أَرْضع ؟] (2) .

● وفي الأصحاح الثامن : نجد أحد أتباع أيوب يتهمه بالرياء ويتشكك في صلاحه [فأجاب بلدد الشوحي وقال : إلى متى تقول هذا وتكون أقوال فيك ريحاً شديدة ؟ هل الله يعوج القضاء أو القدير يعكس الحق ؟ إذا أخطأ إليه بنوك دفعهم إلى يد معصيتهم . فإن بكرت أنت إلى الله وتضرعت إلى القدير . إن كنت أنت زكياً مستقيماً فإنه الآن يتنبه لك ويسلم مسكن برك . وإن تكن أولاك صغيرة فأخترتك تكثر جداً] (3) .

(2) سفر أيوب أصحاح 3 فقرات من 1 : 13 .

(1) سفر أيوب أصحاح 2 فقرات 7 : 9 .

(3) سفر أيوب أصحاح 8 فقرات 1 : 8 .

● وفي الأصحاح التاسع يعترض أيوب على إرادة الله ويتبرم من قضائه فيقول : [أنا مستذنب فلماذا أتعب عبثًا . ولو اغتسلت في الثلج ونظفت يدي بالأشنان فإنك في النقع تغمسني حتى تكرهني ثيابي ؛ لأنه ليس هو إنسانًا مثلي فأجاوبه فنأتي جميعًا إلى المحاكمة . ليس بيننا مصالح يضع يده على كلينا . ليرفع عني عصاه ولا يبيغتنني رعبه إذا أتكلم ولا أخافه . لأنني لست هكذا عند نفسي] (1) .

● وفي الأصحاح العاشر أيضًا اعتراض وضجر ويأس من الحياة وسوء فهم لحقيقة الابتلاء حيث ورد فيه : [قد كرهت نفسي حياتي أسبب شكواي ، أتكلم في مرارة نفسي قائلاً لله : لا تستذنبني فهمني لماذا تخاصمني ؟ أحسنّ عندك أن تظلم أن تُزِدَلْ عمل يديك وتُشرق على مشورة الأشرار إني شعبان هوانًا وناظرٌ مذلتني ... لماذا أخرجتني من الرحم كنت قد أسلمتُ الروح ولم ترني عين ، فكنتُ كأني لم أكن فأقاد من الرحم إلى القبر] (2) .

وفي هذا الأصحاح ما يفيد أن أيوب يعترض على هذا البلاء ، ويعتقد أنه لا يستحق هذا البلاء لأنه لم يذنب .

أقول : إن هذا الكلام افتراء على نبي الله أيوب عليه السلام الذي يعلم تمام العلم أن الابتلاء سنة الله في أنبيائه وأصفياه .

وفي الأصحاح السادس عشر على لسان أيوب : [فَعَزَّ النَّاسُ أَفْوَاهَهُمْ عَلَيَّ ، لَطْمُونِي تَعْيِيرًا عَلَيَّ خَدِي ، وَتَضَافَرُوا عَلَيَّ جَمِيعًا أَسْلَمَنِي اللَّهُ إِلَى الظَّالِمِ وَطَرَحَنِي فِي يَدِ الأَشْرَارِ ، كُنْتُ مَطْمَئِنًّا مُسْتَقَرًّا فَزَعَزَعَنِي الرَّبُّ وَقَبَضَ عَلَيَّ مِنْ عُنُقِي وَحَطَمَنِي وَنَصَبَنِي لَهُ هَدَفًا] (3) .

وفي الأصحاح التاسع عشر على لسان أيوب [... اعلموا أن الله هو الذي أوقعتني في الخطأ ولف أحبولته حولي ، ها إني أصرخ ظلما فلا يستجاب لي ، أدعو وليس حكم ، قد حوِّطَ طريقي فلا أعبر وعلى سبيلي جعل ظلامًا ، أزال عني كرامتي ونزع تاج رأسي هدمني من كل جهة وقلع شجرة رجائي وأضرم علي غضبه وعاملني كأعدائه ، أقاربي قد خذلوني ومعارفي قد نسوني ، نكهتي مكروهة عند أعدائي ، عظمي قد التصق بجلدي ،

(2) سفر أيوب أصحاح 10 فقرات 1 : 31 .

(1) سفر أيوب أصحاح 9 فقرات 29 : 34 .

(3) سفر أيوب أصحاح 16 فقرات 10 : 21 .

ارفقوا بي ، يا أصحابي لأن يد الله قد مستني ؟ لماذا تطاردونني كما يطاردني الله ؟ [(1)] .

وفي الأصحاح الحادي عشر يقول (صوغر) أحد أتباع أيوب : [يا ليت الله يتكلم ويفتح شفتيه معك فتعلم أن الله يغرملك بأقل من إثمك] (2) .

أي : إن الله يعاقبك على ذنوبك بأقل ما تستحق من العقاب .

كما ورد في الأصحاح الرابع والثلاثين والخامس والثلاثين أن إياهو - أحد أتباع أيوب يتهمه بالجهل والتقصير وكثرة العصيان : [إن أيوب يتكلم بلا معرفة ، وكلامه ليس بتعقل ، فليت أيوب كان يمتحن إلى الغاية من أجل أجوبته كأهل الإثم ، لكنه أضاف إلى خطيئته معصية يصفق بيننا ويكثر كلامه على الله] (3) .

[... فغر أيوب فاه بالباطل وأكثر من الكلام بلا معرفة] (4) .

وفي الأصحاح الرابع عشر كلام على لسان أيوب يفيد إنكار البعث حيث ورد : [أما الرجل فيموت ويلى ، الإنسان يسلم الروح فأين هو قد تنفذ المياه من البحيرة والنهر يجف وينضب والإنسان يضطجع ولا يقوم لا يستيقظون حتى لا تبقى السموات ولا يتنبهون من نومهم ... إن مات رجل أفحيا ؟] (5) .

● وهذا افتراء عظيم على نبي الله أيوب الذي يؤمن بالله واليوم الآخر ويؤمن بالقدر خيره وشره حلوه ومره وشأنه في ذلك شأن سائر الأنبياء ﷺ .

● وهكذا نجد في سفر أيوب كثيراً من الأباطيل والافتراءات التي تتنافى مع عصمة نبي الله أيوب ﷺ .

ومما سبق يتضح لنا ما يلي :

1 - اختلاف أهل الكتاب في شأن أيوب ﷺ هل هو شخصية حقيقية أم هو شخصية وهمية ، واختلافهم في الفترة التاريخية التي عاش فيها . واختلافهم في شأن سفر أيوب هل هو من تأليفه أم من تأليف غيره ؟ .

● وفي هذا ما يكفي للدلالة على بطلان هذا السفر وزيفه ؛ إذ كيف يؤمنون به

(2) يراجع أصحاب 11 فقرات 1 : 7 .

(4) أصحاب 35 فقرة 16 .

(1) يراجع أصحاب 19 فقرات 1 : 29 .

(3) أصحاب 34 فقرات 36 ، 37 .

(5) أصحاب 14 فقرات 11 : 15 .

ويختلفون في أصله ومصدره ؟ .

2 - ورد في هذا السفر ما يتنافى مع عصمة الأنبياء عليهم السلام حيث وصف أيوب عليه السلام بالتضجر والتبرم واليأس والإحباط وكثرة الشكوى والتلملم وغير ذلك من الأوصاف والأحوال التي لا تليق بعوام المؤمنين فضلاً عن الأنبياء عليهم السلام وهم أعلم الخلق بالحق عليهم السلام وسننه في الوجود التي من ضمنها سنة الابتلاء .

والحق والصواب فيما جاء به القرآن الكريم الذي تحدث عن صبر أيوب عليه السلام وثباته على الحق ومداومته على العبادة ، وحسن أدبه مع الله تعالى حين توجه إليه بالدعاء والتضرع ليكشف عنه ما أصابه من ضر فاستجاب الله عليه السلام له وكشف عنه ما به من ضر . قال تعالى : ﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿١٢١﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَعَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ ﴿١٢٢﴾ .

والفاء في ﴿ فَاسْتَجَبْنَا ﴾ تفيد التعقيب أي : أن الاستجابة كانت عقب الدعاء كما ورد في سفر أيوب أنه أكثر الشكوى والتلملم والتضرع .

وصفوة القول فيما سبق : أن سفر أيوب مفعم بالأباطيل والأكاذيب والافتراءات على نبي الله أيوب الذي ضرب أروع الأمثلة في الصبر واليقين .

وفيه أيضا افتراء على أولاده حيث ورد في السفر أنهم كانوا يجتمعون لشرب الخمر رغم ورود نصوص كثيرة تحرمها في العهدين .

● أقول : وفي السفر أيضًا افتراء على زوج أيوب عليه السلام حيث ورد في الأصحاح الثاني : [فقالت له امرأته أنت متمسك بعد بكمالك ! بارك الله ومت ، فقال لها : لا تتكلمي كلام الجاهلات أنقبل الخير من عند الله ولا نقبل الشر ؟ في كل هذا لم يخطئ أيوب بشفتيه] (1) .

فامرأة أيوب - كما ورد في سفر أيوب - تتعجب من صبره وثباته كأنها توقعت منه خلاف ذلك ، ثم إنها تمنى موته وتدعوه إلى اليأس من الحياة والقنوط من رحمة الله .

وفي الأصحاح 19 يقول أيوب وهو يتحدث عن نفور الناس منه وكرهيتهم له بسبب مرضه :

[نَكُھْتِي مَكْرُوھَةً عِنْدَ امْرَأْتِي] ⁽¹⁾ .

وفي هذه الفقرة إشارة إلى نفور زوجته منه وكرهيتها له بسبب مرضه الذي طال .
والحق والصواب أن امرأته لم تتخلَّ عنه ، بل كانت نعم الزوجة الصابرة الراضية
الوفية التي تعرف حق زوجها وتراققه في السراء والضراء .

الفصل السابع

المرأة في قصة موسى عليه السلام

تمهيد :

المبحث الأول : حديث القرآن عن أم موسى وآسية بنت مزاحم

امرأة فرعون وأخت موسى .

المبحث الثاني : حديث القرآن عن ابنتي الشيخ الكبير .

المبحث الثالث : الفوائد المتعلقة بالآيات الكريمة .

المبحث الرابع : نظرات في العهد القديم فيما ورد في شأن موسى

عليه السلام .

● تمهيد :

● تحدث القرآن الكريم حديثًا مستفيضًا عن موسى عليه السلام (حياته ، رسالته ، ودعوته) وتناول السياق القرآني مواقف هامة للمرأة في حياة موسى عليه السلام ، حيث ورد الحديث عن أم موسى عليها السلام ، وعن آسية بنت مزاحم (امرأة فرعون) وعن أخت موسى عليها السلام وعن فتاتي مدين - ابنتي الشيخ الكبير .

● ولقد جاء الحديث عن موسى عليه السلام في سور كثيرة ، لمناسبات عديدة ومقاصد هامة ، تتوافق وتتناسق في مجموعها مع مقاصد القرآن الكريم على وجه العموم ومع سياق كل سورة وأهدافها على وجه الخصوص (1) .

● يقول الدكتور محمد بكر إسماعيل في كتابه قصص القرآن : [قصة موسى عليه السلام هي أطول قصة في القرآن الكريم وفيها من العظات والعبر ما ليس في غيرها من القصص ؛ إذ كل قصة من قصص القرآن تتميز عن الأخرى بالتركيز على جانب من جوانب الهداية والتوجيه ، وإن كانت كلها تلتقي على مقصد واحد هو بيان الصراع بين الخير والشر ، وتقوم على منهج تربوي متكامل ، كل قصة تضع فيها قاعدة أو قواعد يندرج تحتها من خصال الإيمان ما شاء الله تعالى] (2) .

● وللمرأة أدوار بارزة في قصة موسى عليه السلام ، وسوف أتحدث عن هذه الأدوار من خلال هذا الفصل في ضوء الآيات الكريمة التي تحدثت عن ذلك ثم أستخلص العبر والعظات والفوائد المتعلقة بتلك الآيات ...

وأسأل الله تعالى أن يوفقني ويهديني سواء السبيل .

(1) من ضمن السور : سورة البقرة والأعراف ويونس وهود وإبراهيم والإسراء والكهف ومريم وطه والأنبياء والمؤمنون والفرقان والشعراء والنمل والقصص والعنكبوت والسجدة والأحزاب والصفافات وغافر وفصلت والشورى والزخرف والدخان والجمانية والأحقاف والذاريات والصف ، والنازعات .

(2) قصص القرآن أ . د محمد بكر إسماعيل ص 179 ط مكتبة فياض ودار المنار للطباعة والنشر . ط / أولى بدون تاريخ .

المبحث الأول

● حديث القرآن الكريم عن أم موسى وامرأة فرعون (آسية بنت مزاحم)

وأخت موسى ﷺ

ملاحظة مهمة :

ورد الحديث عن المرأة في قصة موسى ﷺ في أربع سور هي [سورة طه ، والنحل ، والقصص ، وفي سورة التحريم التي ورد فيها ذكر آسية بنت مزاحم] .
ولقد تناولت سورة القصص قدرًا كبيرًا من هذا الموضوع ؛ لذا فسوف تكون محورًا لنا في حديثنا إن شاء الله تعالى .

بشارة الله ﷻ لأم موسى

قال تعالى : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أُمُّ مُوسَىٰ أَنَّ أَرْضِيهٖ فَإِذَا خَفَّتْ عَلَيْهِ فَالْقِيهٖ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكَ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ (1) .

كلمة في السياق :

هذه الآية الكريمة هي الآية السابعة من سورة القصص وقبل أن أتناولها بالتفسير والبيان أرى لزامًا عليّ أن أتناول الآيات الست السابقة والتي استهلّت بها سورة القصص إتمامًا للفائدة وإبرازًا لأوجه الصلة والمناسبة ، فنقول وبالله التوفيق :

● بدأت السورة الكريمة بقوله ﷻ : ﴿ طَسَّرَ ﴾ .

ولقد سبق الحديث عن الأحرف المقطعة (2) وبيان أنها سر من أسرار القرآن الكريم استأثر الله تعالى بعلمه .

● وفي الآية الثانية من السورة الكريمة يقول ﷻ : ﴿ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴾ والإشارة بلام البعد ﴿ تِلْكَ ﴾ للدلالة على علو منزلتها وسمو قدرها وجلالة شأنها وبعدها عن الاختلاف والاضطراب والتحريف والتبديل وبعدها عن الشبيه والمثيل قال

(2) يراجع تمهيد الفصل الخامس .

(1) سورة القصص : 7 .

تعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ (1) وقال ﷺ : ﴿ أَفَلَا يَتَذَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾ (2) وقال ﷺ : ﴿ لَا يَأْتِيهِ الْبُطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ (3) .

ووصف الكتاب بالمبين : لوضوحه وجلائه ولأنه نزل ﴿ تَيِّبْنَا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهَدَىٰ وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ (4) فهو كتاب مبين ؛ لأنه واضح جلي وهو كتاب مبين ؛ لأنه يفصل بين الحق والباطل وهو كتاب مبين ؛ لأنه يبين للناس ما يصلحهم في معاشهم ومعادهم من عقيدة وشريعة وأخلاق وقصص وأمثال .

● وفي الآية الثالثة يقول ﷺ : ﴿ نَتْلُوا عَلَيْكَ مِنْ نَبَأِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ وفي هذه الآية الكريمة انتقال من الحديث عن القرآن الكريم وبيانه بوجه عام إلى الحديث عن وجه من وجوه بيانه وهو إخباره عن الأمم السابقة ومن ذلك إخباره عن قصة موسى مع فرعون .

● ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضِعُّ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُدِّخِ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ وفي هذه الآية الكريمة وهي الآية الرابعة من آيات السورة : تفصيل بعد إجمال ، وإبراز لشخصية من شخصيات القصة ، هي شخصية فرعون الذي طغى وبغى ، وتكبر وتجبر واغتر بسلطانه ، وأذاق بني إسرائيل أشد صنوف العذاب .

● قال الإمام ابن كثير : [تجبر فرعون وعتا وطفى وبغى وآثر الحياة الدنيا ، وأعرض عن الحق ، ﴿ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا ﴾ قسم الرعية إلى أقسام وفرق وأنواع ، يستضعف طائفة منهم وهم شعب بني إسرائيل ، الذين هم من سلالة نبي الله يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم خليل الله ، وقد سلط عليهم فرعون يستعبدهم ويستخدمهم في أخس الأعمال وأرداها وأدناها ومع هذا فإنه ﴿ يُدِّخِ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴾] (5) .

● وعن الحامل له على هذا الصنيع المنكر يقول ابن كثير :

[كان بنو إسرائيل يتدارسون فيما بينهم ما يأثرونه عن إبراهيم عليه السلام من أنه سيخرج

(2) سورة النساء : 82 .

(1) سورة الحجر : 9 .

(4) سورة النحل : 89 .

(3) سورة فصلت : 42 .

(5) قصص الأنبياء لابن كثير ص 293 بتصرف يسير .

من ذريته غلام يكون هلاك ملك مصر على يديه ، وذلك والله أعلم حين جرى على سارة امرأة الخليل من ملك مصر ، من إرادته إياها على السوء وحفظ الله لها ، وكانت هذه البشارة مشهورة في بني إسرائيل ، فتحدث بها القبط فيما بينهم حتى وصلت إلى فرعون عن طريق المقرين منه فأمر عند ذلك بقتل أبناء بني إسرائيل حذراً من وجود هذا الغلام ولن يغني حذر من قدر [(1)] .

وذكر ابن كثير رواية أخرى عن ابن عباس وابن مسعود - رضي الله عنهما - ، [أن فرعون رأى في منامه ، كأن ناراً قد أقبلت من نحو بيت المقدس ، فأحرقت دور مصر وجميع القبط ولم تضر بني إسرائيل فلما استيقظ هاله ذلك ، فجمع الكهنة والسحرة وسألهم عن ذلك فقالوا : هذا غلام يولد من هؤلاء يكون سبب هلاك أهل مصر على يديه ، فلهدأ أمر بقتل الغلمان وترك النسوان ... واحترز فرعون كل الاحتراز حتى جعل رجالاً وقوابل (2) يدورون على الحبالى ويعلمون ميقات وضعهن ، فلا تلد امرأة ذكراً إلا ذبحه أولئك الذباحون من ساعته .

● وعند أهل الكتاب : أنه إنما كان يأمر بقتل الغلمان ، لتضعف شوكة بني إسرائيل ، فلا يقاومونهم إذا غالبوهم أو قاتلوهم ، وهذا فيه نظر بل هو باطل . وإنما هذا في الأمر بقتل الولدان بعد بعث موسى ﷺ كما قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ ﴾ (3) ولهذا قالت بنو إسرائيل : ﴿ أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ﴾ (4) فالصحيح أن فرعون إنما أمر بقتل الغلمان أولاً ، حذراً من وجود موسى [(5)] ثم واصل القتل بعد ذلك بعد بعثه موسى لكسر شوكة بني إسرائيل .

وقوله تعالى : ﴿ وَرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُكِّنْ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَرَبِّي فرعون وهامان وجنودهما منهم مَا كَانُوا بِحُدُودٍ ﴾ (6) .

● في هاتين الآيتين الكريميتين بيان لسنة من سنن الله ﷻ في خلقه وهي التمكين

(1) المرجع السابق ص 293 بتصريف .

(2) قوابل جمع قابلة وهي : المولدة .

(3) سورة غافر : 25 .

(4) سورة الأعراف : 129 .

(5) سورة القصص : 5 ، 6 .

(6) المرجع السابق ص 293 ، 294 بتصريف .

لأهل الإيمان ، وإهلاك أهل الكفر والطغيان .

● أراد الله تعالى لبني إسرائيل النجاة من فرعون الذي بلغ النهاية في الطغيان وأذاقهم المذلة والهوان وحكمهم بالحديد والنيران ، وقدر الله ﷻ أن يتربى موسى ﷺ في قصر فرعون ، فرعون الذي قتل في طلب موسى آلاف الأطفال الأبرياء .

● يقول صاحب الظلال في تقديمه لسورة القصص : [هذه السورة مكية ، نزلت والمسلمون في مكة قلة مستضعفون ، والمشركون هم أصحاب الحول والطول والجاه والسلطان ، نزلت تضع الموازين الحقيقية للقوى والقيم ، نزلت تقرر أن هناك قوة واحدة في هذا الوجود هي قوة الله وأن هناك قيمة واحدة في هذا الكون ، هي قيمة الإيمان ، فمن كانت قوة الله معه فلا خوف عليه ولو كان مجرداً من كل مظاهر القوة ، ومن كانت قوة الله عليه فلا أمن له ولا طمأنينة ولو ساندته جميع القوى ، ومن كانت له قيمة الإيمان فله الخير كله ومن فقد هذه القيمة فليس بنافعه شيء أصلاً ...] (1) .

● ويقول الطباطبائي في الميزان : [غرض السورة الوعد الجميل للمؤمنين - وهم بمكة قبل الهجرة شرذمة قليلون ، يستضعفهم فراعنة قريش وطغاتها ... - بأن الله سيمن عليهم ويجعلهم أئمة ويجعلهم الوارثين ويمكن لهم ويرى طغاة قومهم منهم ما كانوا يحذرون ، يقص تعالى للمؤمنين من قصة موسى وفرعون أنه خلق موسى - في حين كان فرعون في أوج قوته وقدرته يستضعف بني إسرائيل يذبح أبناءهم ويستحي نساءهم - ، فراه في حجر عدوه ، حتى إذا استوى وبلغ أشده نجاه وأخرجه من بينهم إلى مدين ثم رده إليهم رسولاً منه بسطان مبين حتى إذا أغرق فرعون وجنوده أجمعين وجعل بني إسرائيل هم الوارثين وأنزل التوراة على موسى هدى وبصائر للمؤمنين ، وعلي هذا المجرى يجري حال المؤمنين ، وفيه وعد لهم بالملك والعزة والسلطان ووعد للنبي ﷺ برده إلى معاد ...] (2) .

● لقد طغى فرعون وبغى واغتر بسلطانه وقوته الغاشمة الظالمة ، وأذاق بني إسرائيل أشد صنوف العذاب والنكال وقتل في طلب موسى ﷺ آلاف الأطفال ، وشاء المولى ﷻ أن يولد موسى ﷺ في هذا الجو المعتم .

ولد ﷺ في هذا الجو المشحون بالظلم والعدوان ، ولد والخطر محقق به والموت يترقبه ، ولدته أمه التي أنساها الخوف والفرع آلام الخاض حين رآته ذكراً ، علمت أنها

(2) الميزان في تفسير القرآن للطباطبائي 6/16 .

(1) في ظلال القرآن 2673/5 ، 2674 .

لن تحميه من زبانية فرعون ولن تخلصه من أيديهم الآثمة المملخة بدماء الأطفال الأبرياء الذين خرجوا إلى الحياة ليموتوا على أيدي الطغاة ، ملك الخوف والحزن أقطار قلبها الحنون ، وبينما هي على تلك الحال إذ برسالة من الملك المقندر تحمل بشارة طيبة تقرّ بها العيون وتبتهج بها الأنفس وتشرح لها الصدور .

قال تعالى : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ (1) .

أوحى المولى ﷺ إلى أم موسى ﷺ بالإلهام أو بالنام أو بواسطة ملك (2) ، ﴿ أَنْ أَرْضِعِيهِ ﴾ ما أمكنك إخفاؤه ﴿ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ ﴾ من أعوان فرعون ﴿ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ ﴾ أي : في النيل .

● قال صاحب روح البيان (3) : [فإذا خفت حفظه وعجزت عن تديره فسلميه إلينا ؛ ليكون في حفظنا وتديرونا] (4) .

﴿ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي ﴾ الخوف هو غم يلحق صاحبه لأمر متوقع والحزن هو غم يلحق صاحبه لأمر واقع أو سيقع .

● قال صاحب الكشاف : [فإن قلت ما المراد بالخوفين : حتى أوجب أحدهما ونهى عن

(1) سورة القصص : 7 .

(2) كما بشرت الملائكة أم إسحاق ﷺ وكما جاءت الملائكة لمريم - ﷺ - ويشرونها بمكاتها عند الله ﴿ وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَمْرُؤُكَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ﴾ آل عمران : 42 . ويشرونها بعيسى ﷺ . وكما جاء الملك لثلاثة من بني إسرائيل أبرص وأقرع وأعمى ، وقد أراد المولى ﷺ أن يتلبهم بالصحة والمال فبعث إليهم ملكاً ... الحديث رواه الإمام البخاري في صحيحه عن أبي هريرة ؓ قال سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن ثلاثة من بني إسرائيل أبرص وأقرع وأعمى أراد الله ﷻ أن يتلبهم فبعث إليهم ملكاً ، فأتى الأبرص فقال : أي شيء أحب إليك [الحديث كتاب أحاديث الأنبياء باب حديث الأبرص والأعمى والأقرع في بني إسرائيل حديث 3464 - [فتح الباري 578/6] ورواه الإمام مسلم في صحيحه عنه ك / الزهد والرفائق حديث 2964 صحيح مسلم بشرح النووي 97/18 .

(3) هو إسماعيل حقي بن مصطفى الإسطنبولي الأصل البروسوي (1063 - 1137) هـ ، عالم بالعقيدة والفقه والتفسير والحديث ، من مؤلفاته روح البيان في تفسير القرآن وتسهيل طريق الأصول لتيسير الوصول في التصوف ، وكتاب التوحيد ، وكتاب النجاة ، وشرح الأربعين في الحديث .

تراجع ترجمته في معجم المؤلفين 267/2 .

(4) روح البيان في تفسير القرآن للبروسوي 383/6 ط دار الفكر بدون تاريخ .

الآخر؟ قلت: أما الأول: فالخوف عليه من القتل؛ لأنه كان إذا صاح خافت أن يسمع الجيران صوته فينتموا عليه، وأما الثاني: فالخوف عليه من الغرق ومن الضياع ومن الوقوع في أيدي بعض العيون المبتوثة من قبل فرعون في طلب الولدان وغير ذلك من المخاوف [(1)] .

﴿ إِنَّا رَأَوُوهُ إِلَيْكَ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ .

بشارة عظيمة لأم موسى عليها السلام بعودته إلى حضنها، وتحمله الرسالة وهي أعظم تشريف وتكليف .

ومن بلاغة هذه الآية: أنها اشتملت على كثير من الأساليب البلاغية المتنوعة فلقد ورد فيها خبران وأمران ونهيان وبشارتان، ولقد جاء التعبير بالجملة الاسمية الدالة على التأكيد والثبوت، ﴿ إِنَّا رَأَوُوهُ إِلَيْكَ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ .

● قال القرطبي في تفسيره: [.. حكى الأصمعي قال: سمعتُ جاريةً أعراييةً تنشد وتقول:

أستغفرُ اللهَ لِذَنْبِي كُلِّهِ قَبِلْتُ إِنْسَانًا بِغَيْرِ حِلِّهِ
مثلَ الغزالي ناعماً في دَلِّهِ فانتَصَفَ اللَّيْلُ ولم أصلِّهِ

فقلت: قاتلك الله ما أفصحك! فقالت: أو يُعَدُّ هذا فصاحةً مع قوله تعالى: ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ ... ﴾ الآية فجمع في آية واحدة بين أمرين ونهيين وخبرين وبشارتين! [(2)] .

● وفي سورة طه يقول المولى عليه السلام في سياق الحديث عن نعمه سبحانه على موسى عليه السلام: ﴿ وَلَقَدْ مَنَّا عَلَىٰكَ مَرَّةً أُخْرَىٰ ﴿٣٦﴾ إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ ﴿٣٧﴾ أَنْ أَقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَكَ وَالْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةٌ مِّمِّي وَلِيُضَنِّعَ عَلَىٰ عَيْنِي ﴾ (3) .

وهذه الآيات تنمة لآية القصص وبيان لها، حيث ورد فيها أمر الله لأم موسى أن تضعه في التابوت وتلقي به في اليم، حيث يسير إلى قصر فرعون ولقد امتثلت أم موسى للأمر الإلهي ووضعت وليدها - موسى - في التابوت بعد أن أرضعته وألقت التابوت

(1) الكشاف للزمخشري 3/393 .

(2) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي 13/252 ويراجع النكت والعيون للماوردي 3/243 .

(3) طه: 37 - 39 .

في اليم وسار حتى وصل إلى الساحل المواجه لشرفة قصر فرعون ، [وإنها للحظة عجيبة تلك التي أَلْقَتْ فيها ابنها في النيل دون خوف عليه ولا حزن ، وما ذاك إلا لأن الله طمأنها ووعدها وبشرها ؛ وهي واثقة بوعده الله متوكلة عليه حق التوكل ﴿ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾ (1)] (2) .

● حَقًّا : إن أقدار الله ﷻ تسير سيرًا عجيبيًا ، فأم موسى التي تخشى على وليدها من الموت الذي ينتظره : إذ بها تلقي به في النهر ليصل إلى فرعون ! أي منطلق هذا ؟ إنه منطلق الإيمان ، واليقين بما وعد الرحمن .

● أما فرعون ، الذي قتل في طلب موسى آلاف الأطفال الضعفاء الأبرياء فإنه يرحب بموسى في قصره ليربى في كنفه ؛ استجابة لرغبة زوجته آسية التي أحبت موسى عليه السلام حبًا جمًّا ، أي قدر هذا ؟ إنه قدر الله ﷻ الحق وأمره الكائن ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ (3) إنها قدرة الله ﷻ التي لا تحدها حدود ولا تقيدها قيود ، إنها رعاية الله ﷻ وعنايته بموسى عليه السلام وإعداده له ، وصدق سبحانه إذ يقول : ﴿ وَلِصْنَعِ عَلَى عَيْقٍ ﴾ (4) ﴿ وَأَصْطَفَعْتُكَ لِنَفْسِي ﴾ (5) ﴿ فَأَلَّهُ خَيْرٌ حَفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّحِيمِينَ ﴾ (6) .

موسى في قصر فرعون

قال تعالى : ﴿ فَأَلْقَطَهُهُ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَمَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ ﴾ (7) .

الالتقاط : هو أخذ الشيء من غير طلب ومنه اللقطة واللقيط (8) ، واللام في ليكون

(1) سورة الطلاق : 3 .

(2) القصص القرآني للأستاذ عماد زهير ص 246 ط دار القلم دمشق .

(3) سورة يس : 82 .

(4) سورة طه : 39 .

(5) سورة طه : 41 . (6) سورة يوسف : 64 . (7) سورة القصص : 8 . (8) اللقطة هي ما يلتقطه الإنسان من أموال أو حيوانات أو غيرها ، فهي المال الضائع من صاحبه يلتقطه غيره ، واللقيط هو الطفل المطروح على الأرض عادة ، خوفا من مسؤولية إعالته ، أو فرارا من تهمة الرية أو الزنا فلا يعرف أبوه ولا أمه أو لسبب آخر وللقطة واللقيط أحكامهما في كتب الفقه ولمزيد بيان يراجع الفقه الإسلامي وأدلته للدكتور / وهبة الزحيلي 764/5 كما يراجع المغني لابن قدامة 681/5 ، ومعني المحتاج 422/2 وبدائع الصنائع 198/6 والدر المختار 343/3 وبداية المجتهد 305/2 .

لام العاقبة ومنه قول أبو العتاهية :

لدوا للموت وابنوا للخراب فكلكم يصير إلى تراب
وقول آخر :

أموالنا لذوي الميراث نجمعها وديارنا لخراب الدهر نبنها
وقوله تعالى : ﴿ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزْنًا ﴾ .

● قرأ حمزة والكسائي وخلف (حُزْنَا) بضم الحاء وسكون الزاي وقرأ الباقون بالفتح حَزْنًا (1) .

● قال صاحب الميزان في تفسير القرآن : [والحزْن بفتح الحين والحزُن بالضم والسكون بمعنى واحد كالشَقْم والشَقْم ، والمراد بالحزْن سبب الحزْن فإطلاق الحزن عليه مبالغة في سببته لحزنهم] .

﴿ إِنَّكَ فِرْعَوْنٌ وَهَمَّكَ وَحُنُودُهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ ﴾ .

دأبهم تعمد الخطأ والإصرار عليه ، ومجانبة الحق والإعراض عنه ولقد كان من جملة أخطائهم قتلهم للأطفال الضعفاء في طلب موسى عليه السلام ولما جاء موسى عليه السلام لم يقتلوه ، فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا ، ولم ينفعهم الحذر .

● قال ابن كثير : [كانوا خاطئين على خلاف الصواب ، فاستحقوا هذه العقوبة والحسرة] (2) .

● وقال الزمخشري : [كَانُوا خَاطِئِينَ ﴾ في كل شيء فليس خطؤهم في تربية عدوهم بيدع منهم ، أو كانوا مذنبين مجرمين فعاقبهم الله بأن ربي عدوهم ومن هو سبب هلاكهم على أيديهم] (3) .

● وقال البروسوي [كَانُوا خَاطِئِينَ ﴾ في كل ما يأتون وما يذرون فليس بيدع منهم أن قتلوا ألوفاً لأجله ثم أخذوه يربونه ليكبر ويفعل بهم ما كانوا يحذرون] (4) .

(1) يراجع النشر في القراءات العشر لابن الجزري 341/2 .

(2) قصص الأنبياء لابن كثير ص 296 . (3) الكشاف 394/3 .

(4) روح البيان 384/6 - ويراجع الميزان في تفسير القرآن 11/16 ويراجع ما ذكره صاحب الظلال في هذا المقام أيضاً 2679/5 .

وفي هذه الآية إشارة إلى أن قدرة الله ﷻ وتدبيره وإرادته فوق كل قدرة وتدبير وإرادة ﴿ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (1) وإشارة إلى عناية الله بأنبيائه ورعايته لهم .

وصدق من قال :

وإذا العناية لاحظتك عيونها نم فالمخاوف كلهن أمان

ثانيا : مع آسية بنت مزاحم ... امرأة فرعون (2) ...

حُمِلَ التابوت إلى امرأة فرعون ، وتولت فتحه بنفسها فلما فتحته هالها ما رأت من حسن موسى ﷺ وألقى الله محبة موسى في قلبها فتعلقت به .

● قال ابن كثير : [وذكر المفسرون : أن الجواري التقطته من البحر في تابوت مغلق عليه فلم يتجاسزن على فتحه ، حتى وضعنه بين يدي امرأة فرعون آسية بنت مزاحم ... فلما فتحت الباب وكشفت الحجاب ، رأت وجهها يتلأأ بتلك الأنوار النبوية ... ، فلما رآته ووقع نظرها عليه أحبته حبًا شديدًا جدًا فلما جاء فرعون قال : ما هذا؟! وأمر بذبحه ، فاستوهبته منه ودفعت عنه وقالت : ﴿ قَرَّتْ عَيْنِي لِي وَلَكَ ﴾ (3) .

● قال الماوردي : [وفي قرّة العين وجهان (أحدهما) أنه بردها بالسرور مأخوذ من القر وهو البرد (الثاني) أنه قر فيها دمعها فلم يخرج بالحزن مأخوذ من قر في المكان إذا أقام فيه (4) .

● وقال صاحب المفردات : [.. وقَرَّتْ عينه تَقَرَّرَتْ ، قال تعالى : ﴿ كَيْ نَقَرَ عَيْنُهَا ﴾ وقيل لمن يسر به قرّة عين .. قيل أصله من القرأي : البرد فقرت عينه ، قيل : معناه بردت فصحّت وقيل : بل لأن للسرور دمعة باردة قارة ، وللحزن دمعة حارة ؛ ولذلك يقال فيمن يدعى عليه : أسخن الله عينه ، وقيل : هو من القرار ، والمعنى أعطاه الله ما

(1) سورة يوسف : 21 .

(2) هي آسية بنت مزاحم امرأة فرعون قيل إنها كانت من بني إسرائيل وتزوجها فرعون ، وقيل كانت قرية لموسى ﷺ وقيل من نسل ملك مصر زمان يوسف . والله أعلم بحقيقة ذلك يراجع قصص الأنبياء لابن كثير ص 296 ويراجع غرر التبيان في من لم يسم في القرآن للإمام بدر الدين بن جماعة ت 733 هـ تحقيق د . عبد الجواد خليفة ص 388 - ط / دار قتيبة بيروت 1410 هـ .

(4) النكت والعيون للماوردي 244/3 .

(3) المرجع السابق ص 296 باختصار .

تسكن به عينه فلا يطمح إلى غيره [(1)] .

﴿ لَا تَقْتُلُوهُ ﴾ .

- جاء خطابها بصيغة الجمع لكثرة المشتركين والقائمين على أمر القتل من أمر ومأمورين (2) .

- وقيل خاطبته بصيغة الجمع تعظيمًا له حتى يستجيب لرغبتها (3) . ولا تعارض بين الوجهين .

﴿ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا ﴾ على سبيل التبني ﴿ وَهُمْ لَا يَسْعُرُونَ ﴾ أن هذا الطفل هو المطلوب .

● ولقد نفעה الله بموسى ، وهداها إلى الإيمان ، وكانت من أكمل النساء ، وضربت أروع الأمثلة في العزم والمضاء .

● قال تعالى في سورة التحريم : ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أُمَّرَاتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَبِحْنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَبِحْنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ (4) .

ضرب الله بها المثل للمرأة الصالحة ، الصابرة ، الصامدة الثابتة على الحق رغم فساد البيئة من حولها ورغم ما حولها من الإغراءات والمساومات فهي زوجة لفرعون الذي اغتر بسعة ملكه وقوة جنده ، وهي لم تغتر بكونها ملكة ، ولم يصرفها ذلك عن الإيمان بالله ﷻ .

● حين رأت الآيات البينات ، آمنت بالله ﷻ وصدقت برسالة موسى ﷺ ، وتبرأت من فرعون وعمله وسألت المولى ﷻ أن يبني لها بيتًا في مستقر رحمته ﴿ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ ﴾ : فطلبت الجار قبل الدار .

● قال صاحب الكشاف : [فإن قلت ما معنى الجمع بين عندك وفي الجنة ؟ قلت : طلبت القرب من رحمة الله والبعد من عذاب أعدائه ، ثم بينت مكان القرب بقولها ﴿ فِي الْجَنَّةِ ﴾ أو أرادت ارتفاع الدرجة في الجنة وأن تكون جنتها من الجنان التي هي

(2) تفسير الميزان 11/16 .

(1) المفردات للراغب ص 398 مادة (ق ر ر) .

(4) سورة التحريم : 11 .

(3) إرشاد العقل السليم لأبي السعود 226/4 .

أقرب إلى العرش وهي جنات المأوى ، فعبرت عن القرب إلى العرش بقولها عندك [(1)] .

وقال الإمام القشيري : [قالوا صغرت هممتها حيث طلبت بيتًا في الجنة ، وكان من حقها أن تطلب الكثير ، ولا كما توهموا فإنها قالت : ﴿ رَبِّ آيِن لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ ﴾ فطلبت جوار القربة ، ولَبَّيت في الجوار أفضل من ألف قصر في غير الجوار ومن المعلوم أن العندية هنا عندية القربة والكرامة ، ولكنه على أي حال بيت له مزية على غيره وله خصوصية وفي معناه أنشدوا :

إني لأحسد جاركم لجواركم طوبى لمن أضحى لدارك جارا

يا ليت جارك باعني من داره شبرًا لأعطيته بشبر دارا [(2)]

﴿ وَيَجْنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَيَجْنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ .

(1) الكشاف للزمخشري 572/4 وأقول إن أهل الجنة جميعا في قرب من الله تعالى قال تعالى : ﴿ لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ سورة الأنعام : 127 وقال جل وعلا : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ فِي جَنَّتِ وَنَهَرٍ ﴿٢١﴾ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُقَدِّرٍ ﴾ سورة القمر : 54 ، 55 فهم جميعا في قرب من الله تعالى ويزداد هذا القرب بازدياد الإيمان والعمل الصالح فالجنة درجات متفاوتة ، قال تعالى : ﴿ ... أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ سورة الأنفال : 4 .
وقال ﷺ : ﴿ أَنْظِرْ كَيْفَ فَضَلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَالْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَتٍ وَأَكْبَرُ تَقْضِيلاً ﴾ سورة الإسراء : 21 .
وفي الحديث الشريف يقول ﷺ : « إن في الجنة مائة درجة أعدتها الله للمجاهدين في سبيل الله ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض ، فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة ، وفوقه عرش الرحمن ومنه تفجر أنهار الجنة » رواه البخاري في صحيحه من حديث أبي هريرة ﷺ كتاب الجهاد والسير باب / درجات المجاهدين في سبيل الله - حديث 2790 فتح الباري 14/6 .

وفي الحديث الشريف أيضا يقول ﷺ : « إن أدنى أهل الجنة منزلة لمن ينظر إلى جنانه وأزواجه وخدمه وسرره مسيرة ألف سنة وأكرمهم على الله من ينظر إلى وجهه الكريم غدوة وعشية » الحديث رواه الإمام الترمذي في السنن عن ابن عمر وقال : حديث غريب - سنن الترمذي كتاب التفسير باب / ومن سورة الإنسان 431/5 حديث 3330 - ورواه الإمام أحمد في مسنده عن ابن عمر 13/2 ط دار الفكر - ويراجع الفتح الرباني باب في ذكر الجنة وأوصافها فصل / في بيان ما لأدنى أهل الجنة فيها وما لأعلاهم 197/24 ورواه الحاكم في المستدرک 509/2 - وفي سند هذا الحديث ثوير بن أبي فاختة وهو ضعيف كما ورد في التقريب / ولقد أورد الألباني هذا الحديث في سلسلة الضعيفة برقم / 1985 - 450/4 وفي ضعيف سنن الترمذي برقم 660 ص 433

وفي ضعيف الجامع الصغير برقم 1382 .

(2) لطائف الإشارات للقشيري 177/6 .

● قال الإمام القرطبي في تفسيره : [... وكانت آسية قد آمنت بموسى (1) قال أبو العالية (2) : اطلع فرعون على إيمان امرأته فخرج على الملأ فقال لهم : ما تعلمون من آسية بنت مزاحم ؟ فأثنوا عليها خيراً ، فقال لهم : إنها تعبد رباً غيري ، فقالوا له : اقتلها ، فأوتد لها أوتادا وشد يديها ورجليها فقالت ﴿ رَبِّ آبِنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ ﴾ ووافق ذلك حضور فرعون ، فضحكت حين رأت بيتها في الجنة ، فقال فرعون : ألا تعجبون من جنونها ! إنا نعذبها وهي تضحك ؛ فقُبِضت روحها ، وقال سلمان الفارسي فيما روى عنه عثمان النهدي (3) كانت تعذب بالشمس ، فإذا أذاها حر الشمس أظلتها الملائكة بأجنحتها ، وقيل سمر (4) يديها ورجليها في الشمس ووضع على ظهرها رَحَى ، فَأُطْلِعَهَا اللهُ حَتَّى رَأَتْ مَكَانَهَا فِي الْجَنَّةِ ، قِيلَ إِنَّهُ مِنْ دُرَّةٍ (5) وفي فضلها ومنزلتها يقول ﷺ : « حَشَبَكَ مِنْ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ بِأَرْبَعٍ : مَرِيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ وَآسِيَةُ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ وَخَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ وَفَاطِمَةُ بِنْتُ مُحَمَّدٍ » (6) .

ويقول ﷺ : « كَمَلَ مِنَ الرِّجَالِ كَثِيرٌ وَلَمْ يَكْمُلْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا آسِيَةُ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ وَمَرِيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ وَإِنْ فَضَلَ عَائِشَةُ عَلَى النِّسَاءِ كَفَضَلَ الثَّرِيدُ عَلَى سَائِرِ الطَّعَامِ » (7) .

عود إلى أم موسى ﷺ

قال تعالى : ﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَرَجًا ۗ إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَن رَّبَّنَا عَلَيَّ قَلْبُهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (8) .

- (1) قوله : قيل : وهي عمة موسى قول لا يدل عليه دليل من كتاب أو سنة وكما ذكرنا من قبل أنها قد تكون من بني إسرائيل وقد تكون كما ذكر بعض المفسرين من نسل ملك مصر في عهد يوسف ﷺ والله تعالى أعلم .
 (2) أبو العالية : هو رفيع بن مهرا بن أبو العالية الرياحي البصري المقرئ التابعي ، صاحب تفسير رواه عنه الربيع بن أنس البكري ، من شيوخه : أبي بن كعب قرأ القرآن عليه ، ومن تلاميذه قتادة وأبو عمرو بن العلاء ، توفي سنة 93 هـ على الأصح تراجع ترجمته في : تهذيب التهذيب لابن حجر 284/3 وطبقات المفسرين للدواودي 172/1 .
 (3) أبو عثمان النهدي : من كبار التابعين ، حدث عن كثير من الصحابة وغزا في خلافة عمر ﷺ وبعدها غزوات . وعاش أكثر من مائة عام تراجع ترجمته في سير أعلام النبلاء 175/4 .
 (4) السنن : شدة شيقاً بمسار . لسان العرب 2091/3 . (5) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي 203/18 .
 (6) أخرجه الحاكم في المستدرک وقال حديث صحيح على شرط الشيخين ، ووافقه الذهبي 595/2 ورواه الترمذي في السنن عنه - ك / المناقب باب / فضل خديجة حديث 660/5.3878 وقال : حديث صحيح .
 (7) رواه البخاري في صحيحه عن أبي موسى الأشعري ﷺ كتاب الأنبياء باب قوله تعالى : ﴿ وَصَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا أُمَّرَاتُ فِرْعَوْنَ ﴾ فتح الباري 514/6 . (8) سورة القصص : 10 .

● ماذا كان حال أم موسى بعد أن وضعت صغيرها في التابوت وألقت التابوت في نهر النيل ، ليحمل عليها السلام إلى قصر فرعون ؟ ماذا كان حالها وقد فارقتها وليدها وترك حضنها الدفء وصدرها الحنون ، وألقت به في اليم ليسير إلى فرعون الطاغية ؟ .
 ما أصعب هذه اللحظات على أم موسى ، ويا له من اختبار صعب وامتحان عسير ، لولا رصيدها الإيماني لغلبت العاطفة على عقلها ، وحالت بينها وبين الامتثال للأمر الإلهي .

﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ قَلْبًا ﴾ من كل أمر من أمور الدنيا إلا من موسى عليها السلام ، فهي تفكر في أمره ، وتهتم بحاله ومآله . وقيل فارغًا من الحزن والخوف ليقينها بوعد الله .
 وقيل فارغًا من الوحي لانشغالها بفلذة كبدها ومهجة قلبها وثمره فؤادها وقره عينها وبهجة نفسها : موسى عليها السلام .

● قال الطبرسي [وقيل فارغًا من الوحي الذي أوحى إليها بنسيانها فإنها نسيت ما وعدها الله تعالى به] (1) .

والرأي الذي نرجحه فيما سبق هو الأول : والمعنى : أصبح فؤاد أم موسى خاليًا من التفكير في أي أمر من الأمور الدنيوية ، فهي لا تفكر إلا في موسى ولا تهتم إلا بمصيره الذي ينتظره .

﴿ إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَّنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (2) .
 أي : ﴿ إِنْ كَادَتْ ﴾ من فرط حزنها على فراقه واهتمامها بمصيره ﴿ لَتُبْدِي بِهِ ﴾ لتظهر أنه ذهب لها ولد وتخبر بحالها ؛ لولا أن أن ثبتها الله وصبرها (3) ﴿ لَوْلَا أَنْ رَبَّنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ المصدقين بوعد الله ﷻ .

● قال صاحب روح البيان : [إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ ﴾ قاربت من ضعف

(1) مجمع البيان للطبرسي 378/7 .

وفي كتب اللغة أن الفؤاد هو القلب وقيل وعاء القلب ، أو غشاؤه والقلب حبه وسيداؤه وسمي الفؤاد فؤادا لتوقده وشدة حرارته الناتجة عن مشاعره وأحاسيسه وأصل الفؤاد من (فَأَدَ) يقال فأد اللحم إذا شواه وفأد الخبز جعله في الرماد الحار لينضج والثَّفُؤُودُ : التوقد يراجع لسان العرب 3333/5 .

(2) سورة القصص : 10 .

(3) تفسير القرآن العظيم لابن كثير 381/3 بتصرف .

البشرية وفطر الاضطراب ﴿ لَتُبَدَىٰ بِهِ ﴾ أي : لتظهره وتعلن أمره ﴿ لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا ﴾ بالصبر والثبات ، والربط الشديد وهو العقد القوي [(1)] .

● لقد كانت أم موسى بين حالتين : حالة الاهتمام بأمر وليدها والانشغال به والشوق إليه وهذه طبيعة الأمومة .

وحالة الاطمئنان لوعده الله ﷻ ، واليقين والثبات وهذه حالة المؤمن ، والحالة الأولى مرتبطة ومحكومة بالحالة الثانية ، بمعنى : أن العاطفة منضبطة ومرتبطة ومحكومة بالإيمان .

أخت موسى ﷺ تقص أثره

قال تعالى : ﴿ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصَّرَتْ بِهِ عَنْ جُنْبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ (2) .

طلبت أم موسى من أختها أن تستعلم خبره وتتبع أثره ﴿ فَبَصَّرَتْ بِهِ عَنْ جُنْبٍ ﴾ تابعته وهو في التابوت حتى وصل إلى الساحل الواقع أمام شرفة قصر فرعون كما تتبعته وهم يحملونه ويطوفون به على المرضعات ، فعلت ذلك بطريقة لا تلفت الأنظار إليها ، قال قتادة : ﴿ فَبَصَّرَتْ بِهِ عَنْ جُنْبٍ ﴾ جعلت تنظر إليه وكأنها لا تريده (3) . وقال مجاهد ﴿ عَنْ جُنْبٍ ﴾ أي : بعد (4) .

تحريم المراضع على موسى ﷺ :

قال تعالى : ﴿ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ ﴾ (5) ﴿ الْمَرَاضِعَ ﴾ جمع مرضع ، والتحريم كوني لا شرعي ، تحريم منع لا تحريم شرع ، وقوله تعالى : ﴿ مِنْ قَبْلُ ﴾ أي : من قبل رده إلى أمه ، أو من قبل مجيئه إلى فرعون ، أو من قبل أن تقص أخته أثره ، أو من قبل ذلك كله ؛ لأن هذا التحريم أمر كوني مقدر في علم الله تعالى من قبل أن يولد موسى .

﴿ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ ﴾ لم يقبل موسى ﷺ ثديًا فحاروا في أمره وأرسلوه إلى الأسواق لعلهم يجدون من يقبل ثديها ،

(2) سورة القصص : 11 .

(1) روح البيان للبروسوي 386/6 بتصرف .

(4) المرجع نفسه 381/3 .

(3) تفسير القرآن العظيم لابن كثير 381/3 .

(5) سورة القصص : 12 .

وهنا وفي غمرة هذه الحيرة أقبلت عليهم أخته وقالت لهم بلطف وطفانة : ﴿ هَلْ أَذْكَرٌ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتِ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُمْ نَصِيحُونَ ﴾ ناصحون في كفاله ورعايته ، والنصح هو إخلاص العمل من كل شائبة .

[قال ابن عباس : لما قالت ذلك قالوا لها وما يدريك بنصحهم وشفقتهم عليه ؟ فقالت : رغبتهم في سرور الملك ورجاء منفعتهم] (1) .

موسى ﷺ يعود إلى أمه

قال تعالى في سورة القصص : ﴿ فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَىٰ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِنَعْلَمَ أَنَّكَ وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (2) .

وقال تعالى في سورة طه : ﴿ إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَىٰ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ .. ﴾ (3) .

عاد موسى ﷺ إلى أمه ، وبعودته تحققت البشارة الإلهية الأولى إلى أم موسى ﴿ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ ﴾ ونشأ موسى وترعرع وأزهر وأينع في ظلال العناية الإلهية ، قال تعالى ﴿ وَلِنُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي ﴾ (4) وقال سبحانه : ﴿ وَأَصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي ﴾ (5) وفي هاتين الآيتين بيان لعناية الله تعالى بموسى ﷺ وإعداده لأعظم وأكرم مهمة ، مهمة الرسالة التي أعده المولى ﷻ وهياً لحملها قال تعالى : ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَأَسْتَوَىٰ ءَأَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ (6) .

وبهذا تتحقق البشارة الثانية إلى أم موسى ﷺ ﴿ وَجَاعَلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ .

أوحى الله إليه وهو في طريق العودة من مدين إلى مصر ولكن لماذا ذهب إلى مدين ؟ هذا ما سنتحدث عنه في المبحث الثاني إن شاء الله تعالى .

(2) سورة القصص : 13 .

(4) سورة طه : 39 .

(6) سورة القصص : 14 .

(1) قصص الأنبياء لابن كثير ص 297 .

(3) سورة طه : 40 .

(5) سورة طه : 41 .

المبحث الثاني

موسى عليه السلام وابنتا الشيخ الكبير

تمهيد : أولاً : من هو صالح مدين ⁽¹⁾ ؟ .

ثانياً : لماذا خرج موسى عليه السلام من مصر إلى مدين ؟ .

كان لابنتي الشيخ الكبير - في مدين - دور مهم في حياة موسى عليه السلام كما كان لأمه وأخته وأسية بنت مزاحم ، ولقد تزوج موسى عليه السلام من إحدى الفتاتين في مدين وصحبته في رحلة العودة إلى مصر .

ولكن من هو صالح مدين ذلك الشيخ الكبير ؟ وما السبب في خروج موسى عليه السلام من مصر إلى مدين ؟ هذا ما سوف نتحدث عنه فيما يلي . فنقول وبالله التوفيق :

● أولاً : من هو صالح مدين :

اختلف المفسرون في تعيين من هو صالح مدين الذي تزوج موسى عليه السلام من إحدى ابنتيه فمنهم من قال إنه شعيب عليه السلام ومنهم من قال إنه ابن أخ له يدعى (يثرون) ومنهم من توقف في المسألة ، فلم يرجح هل هو شعيب أم غيره .

يقول الإمام الحافظ ابن كثير في تفسيره : [وقد اختلف المفسرون في هذا الرجل من هو على أقوال : أحدها أنه شعيب النبي عليه السلام الذي أُرسل إلى أهل مدين وهذا هو المشهور عند كثير من العلماء ، وقد قاله الحسن البصري وغير واحد .

وقال آخرون : بل كان ابن أخي شعيب ، وقيل رجل مؤمن من قوم شعيب ، وقال آخرون : كان شعيب قبل زمان موسى عليه السلام بمدة طويلة لأنه قال لقومه : ﴿ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ ﴾ ⁽²⁾ وقد كان هلاك قوم لوط في زمن الخليل عليه السلام بنص القرآن وقد علم أنه بين الخليل وموسى عليه السلام مدة طويلة تزيد على أربعمائة سنة كما ذكر غير واحد ، وما قيل إن شعيباً عاش مدة طويلة إنما هو - والله أعلم - احتراز من هذا

(1) مدين هي مدينة قوم شعيب عليه السلام وهي تجاه تبوك بين المدينة والشام ، وهي واقعة عند خليج العقبة عند نهايته الشمالية قريباً من شمال الحجاز وجنوب فلسطين .

يراجع معجم البلدان لياقوت الحموي 77/5 ، 78 - وأثار البلاد وأخبار العباد ص 261 للإمام القزويني ط دار

بيروت للطباعة والنشر لبنان سنة 1979 م .

(2) سورة هود : 89 .

الإشكال ، ثم من المقوي لكونه ليس شعيباً أنه لو كان إياه لأوشك أن يُصص على اسمه في القرآن ههنا ، وما جاء في بعض الأحاديث في التصريح بذكره في قصة موسى لم يصح إسناده كما سنذكره قريباً إن شاء الله ، قال أبو عبيدة بن عبد الله بن مسعود : (يثرون) هو ابن أخي شعيب ﷺ ، وعن ابن عباس قال : الذي استأجر موسى : (يثرون) صاحب مدين رواه ابن جرير به ، ثم قال : الصواب أن هذا لا يدرك إلا بخبر ، ولا خبر تجب به الحجة في ذلك [(1)] .

● والذي نراه في هذه المسألة أنه ليس بشعيب ﷺ إذ بين موسى ﷺ وبين شعيب ﷺ مدة طويلة لا تقل عن أربعمئة سنة ، ولو كان شعيباً لنص القرآن على اسمه أو ورد في السنة الصحيحة ما يدل على أنه هو ﷺ .

● فالصحيح أنه ليس شعيباً ﷺ وأنه رجل صالح من مدين ، وظاهر النص الكريم والسياق العام للقصة يؤكد ذلك إذ لو كان شعيباً ﷺ وكان أهل مدين حين ذهب إليهم موسى هم أتباع شعيب الذين آمنوا به ونجوا معه من الفئة الكافرة التي حق عليها العذاب ، لكفوا شعيباً وابنتيه مشقة العمل ؛ حباً وتقديراً ومروءة ووفاء وإخلاصاً لنبيهم ﷺ .

ثانياً : لماذا خرج موسى من مصر :

● حكمة إلهية :

أحاطت عناية الله ﷻ بعبده ونبيه موسى ﷺ حين ولادته ، بل ومن قبل أن يولد ، وحفظ الله نبيه وهو في المهد من بطش فرعون ، وشاء سبحانه أن يترى موسى في قصر فرعون ، كما شاءت إرادته سبحانه أن يلبث موسى سنين في أهل مدين ، وبهذا يعيش موسى ﷺ في بيئتين مختلفتين ، لكل بيئة طابعها وسماتها ، وفي ذلك أثر مهم في إعداده وتأهيله لتحمل الرسالة ، قال تعالى في سورة طه : ﴿ وَلَقَدْ مَنَّا عَلَىٰكَ مَرَّةً إِذْ أَخْرَجْنَاكَ مِنَ أَرْضِكَ إِلَىٰ آلِ الْأَمْرِ مَا يُوحَىٰ ﴿٣٨﴾ أَنْ أَقْدِمِيهِ فِي الثَّابُوتِ فَأَقْدِمِيهِ فِي الْآيَةِ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَكَ وَالْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةٌ مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي ﴿٣٩﴾ إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَسَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ آلِكَ كَتَىٰ نَقَرَ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنُ وَقُلْنَا نَسَأُ فَجِئْبِكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا فَلَمَّ تَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَمْؤُوسَىٰ ﴿٤٠﴾ وَأَصْطَفَيْنَاكَ لِنَفْسِي ﴿٤١﴾ (2) .

(1) تفسير القرآن العظيم لابن كثير 3/384 ، 385 بتصرف . (2) سورة طه : 37 - 41 .

وقال تعالى في سورة الشعراء : ﴿ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعَلَتَكَ آتَى فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾ قَالَ فَعَلْنَاهَا إِذَا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ ﴿٢٠﴾ فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾ (1) .

وقال تعالى في سورة القصص : ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى ءَأَيْنَيْتُهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٨﴾ وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينٍ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِنْ شِيعَةِ هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَعْنَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَرَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ ﴿١٩﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٢٠﴾ قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ ﴿٢١﴾ فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِحُهُ قَالَ لِمَ مَوَسَى إِنَّكَ لَعَوِيُّ مُبِينٌ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ ﴿٢٣﴾ وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلَائِكَةَ يَاتِمُونَ بِكَ لَيَقْتُلُونَكَ فَأَخْرِجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ ﴿٢٤﴾ فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢٥﴾ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تَلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿٢٦﴾ (2) .

● موسى عليه السلام يقتل قبطيًا :

● دخل موسى عليه السلام المدينة ذات مرة ﴿ عَلَى حِينٍ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا ﴾ وكان ذلك في وقت القيلولة حين خلت الطرقات والميادين والأسواق من الناس ، فوجد موسى رجلاً قبطيًا مع رجل إسرائيلي وهما ﴿ يَقْتَتِلَانِ ﴾ فاستغاث الإسرائيلي بموسى عليه السلام فأشفق عليه ، وأراد أن ينقذه من يد القبطي المعتدي ، ﴿ فَوَكَرَهُ مُوسَى ﴾ ضرب القبطي بقبضة يده حتى يتعد عن الإسرائيلي ﴿ فَقَضَى عَلَيْهِ ﴾ مات القبطي إثر هذه الوكرة ، ولم يقصد موسى عليه السلام قتله ، ولكنه أراد أن يرد الظلم عن الإسرائيلي ، وقد اعتاد جنود فرعون على ظلم بني إسرائيل وتسخيرهم في الأعمال الشاقة ، قيل إن ذلك القبطي أراد الإسرائيلي في حمل الحطب لمطبخ فرعون (3) ، فامتنع الإسرائيلي عن الذهاب معه فأراد أن يأخذه قهراً وقسراً ، ولما مات القبطي من تلك الوكرة حزن موسى عليه السلام وتألم وندم على ما حدث ،

(1) سورة الشعراء : 18 - 21 .

(2) سورة القصص : 14 : 22 .

(3) يراجع الكشف للزمخشري 398/3 .

وقال كما أخير القرآن : ﴿ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ ﴾ تبرأ من هذا الفعل وندم على ما صنع ، فالإشارة هنا إلى القتل ، وقيل : إن الإشارة هنا إلى عمل المقتول لا إلى عمل نفسه فقلوه ﴿ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ ﴾ أي : عمل هذا المقتول من عمل الشيطان ، والمراد منه بيان كونه مخالفاً لله تعالى مستحقاً للقتل لظلمه وطغيانه ، ويجوز أن تكون الإشارة إلى المقتول : بمعنى أنه جند من جنود الشيطان وحزبه ، يقال فلان من عمل الشيطان أي من أحزابه (1) .

والصواب ما ذكرناه أولاً : من أنه ندم على هذا الفعل وتبرأ منه ، وعلم أن قتله للقبطي أمر مخالف للأولى لأنه كان الأولى به أن ينصحه ويحذره ولكنه وكزه فكان بذلك مخالفاً للأولى .

يقول الدكتور أبو النور الحديدي في كتابه عصمة الأنبياء [... وما ترتب عليه من القتل غير مقصود ، إنما المقصود رفع ظلم القبطي بوسيلة رآها موسى مناسبة لم يجد معه أقل منها ولا تؤدي في أصلها إلى القتل فهذا الفعل من موسى عليه السلام خلاف الأولى ، لأن أمثاله عليه السلام إنما الأولى بهم أن يفصلوا بين خصمين يبغى أحدهما على الآخر ويكفوا الباغي عنهما بالنصيحة والموعظة الحسنة] (2) .

● فهي من الصغائر غير الخسيسة وغير المتعمدة ؛ لأنها خطأ في الاجتهاد ومخالفة للأولى وقد حدثت فهي لا تتنافى مع عصمة الأنبياء عليهم السلام .

روى الإمام مسلم في صحيحه بسنده عن سالم بن عبد الله بن عمر رضي الله عنه أنه قال لأهل العراق : (يا أهل العراق ما أسألكم عن الصغيرة ؟ وأزكبكم للكبيرة ؟ سمعت أبي عبد الله بن عمر رضي الله عنه يقول سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إن الفتنة تجيء من ههنا ، وأوماً بيده نحو المشرق من حيث يطلع قرنا الشيطان ، وأنتم يضرب بعضكم رقاب بعض ، وإنما قتل موسى الذي قتل من آل فرعون خطأ فقال الله عز وجل له : ﴿ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا ﴾ (3) » (4) .

(1) يراجع مفاتيح الغيب للرازي 234/24 .

(2) عصمة الأنبياء للدكتور أبو النور الحديدي أستاذ التفسير وعلوم القرآن بجامعة الأزهر ص 338 ، 339 .

(3) سورة طه : 40 .

(4) صحيح مسلم بشرح النووي كتاب الفتن الباب الأول 32/18 .

● ووجه كونه الظالم ظلماً لنفسه ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ ﴾ إِنَّكُمْ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ⁽¹⁾ : أنه فعل ما يخالف الأولى فحرم نفسه من ثواب فعل الأولى فكان بذلك ظلماً لنفسه حيث حرّمها من الثواب العظيم الذي كان ينتظره لو فعل الأولى .

● قال الألوسي : [وكأنه الظالم بعد أن وقع منه ما وقع تأمل فظهر له إمكان الدفع بغير الوكز ، وأنه لم يثبت في رأيه لما اعتراه من الغضب فعلم أنه فعل خلاف الأولى بالنسبة إلى أمثاله ، فقال ما قال على عادة المقرّبين في استعظامهم خلاف الأولى ...] ⁽²⁾ .

وأما ما ورد في سورة الشعراء من قول الله تعالى بيّناً لما دار بين موسى الظالم وفرعون من حوار : ﴿ قَالَ أَلَمْ نُنزِلْكَ فِيْنَا وَلِيدًا وَلِئْتَ فِيْنَا مِن عَمْرُكَ سِنِينَ ﴿١٧﴾ وَفَعَلْتَ فَعَلْتِكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿١٨﴾ قَالَ فَعَلْنَهَا إِذَا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ ﴿١٩﴾ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ ⁽³⁾ .

فإن قول موسى الظالم ﴿ فَعَلْنَهَا إِذَا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ ﴾ ليس المراد به الضلال على إطلاقه ، بمعنى البعد عن الحق والجهل به .

وإنما المراد به أنه الظالم : [كان متحيراً لا يدري ما يجب عليه أن يفعله في ذلك الموقف] ⁽⁴⁾ فلقد كان الظالم غافلاً وساهياً عن فعل الصواب في ذلك الأمر ، ولقد حمّله ذلك على فعل ما يخالف الأولى .

● يقول الإمام الراغب [.. وإذا كان الضلال ترك الطريق المستقيم عمداً كان أو سهواً ، قليلاً كان أو كثيراً : صح أن يستعمل لفظ الضلال ممن يكون منه خطأ ما لذلك نسب الضلال إلى الأنبياء وإلى الكفار ، وإن كان بين الضالين بون بعيد ... ومن ذلك قول موسى الظالم كما حكى ⁽⁵⁾ القرآن : ﴿ قَالَ فَعَلْنَهَا إِذَا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ ﴾ وفي هذا القول تنبيه على أن ذلك منه سهو ، وقوله تعالى : ﴿ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى ﴾ ⁽⁶⁾ ﴿ تَضِلَّ ﴾ بمعنى تنسى أو تغفل] ⁽⁷⁾ .

(2) روح المعاني للألوسي 54/20 .

(1) سورة القصص : 16 .

(4) مفاتيح الغيب للرازي 235/24 .

(3) سورة الشعراء 18 - 21 .

(6) سورة البقرة : 282 .

(5) الصواب : أن يقول كما أخبر القرآن الكريم .

(7) المفردات مادة ض ل ل ص 298 .

● هذا ولقد توجه موسى عليه السلام إلى ربه بعد هذه الفتنة وتاب إليه سبحانه فتاب الله تعالى عليه ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ .

● يقول صاحب الظلال : [استجاب الله تعالى لضراعته واستغفاره ﴿ فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ ، وكأما أحس موسى بقلبه المهرف وحسه المتوفز (1) في حرارة توجهه إلى ربه ، أن ربه قد غفر له ، والقلب المؤمن يحس بالاتصال والاستجابة للدعاء فور الدعاء حين يصل إرهابه وحساسيته إلى ذلك المستوى ، وحين تصل حرارة توجهه إلى هذا الحد ، واطمأن موسى عليه السلام وهو يستشعر الاستجابة من ربه فإذا هو يقطع على نفسه عهدًا ، يُعْده من الوفاء بشكر النعمة التي أنعمها عليه ربه ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ ﴾ فهو عهد مطلق ألا يقف في صف المجرمين ظهيريًا ، وهو براءة من الجريمة بشتى صورها حتى ولو كانت اندفاعًا تحت تأثير الغيظ ومرارة الظلم والبغي ، ذلك بحق نعمة الله عليه في قبول دعائه ، ثم نعمته في القوة والحكمة والعلم الذي منحه الله تعالى له] (2) .

● ويؤيد ما ذهب إليه صاحب الظلال ما ذكره القاسمي في تفسير ﴿ وَقَلَّتْ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا ﴾ . [أي غم القتل بأن صرفنا عنك ما تخشاه] (3) .

خوف ... وترقب ... وغواية ... وخذلان

قال تعالى : ﴿ فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اَسْتَصِرُّ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ ﴾ (4) .

● وبينما موسى عليه السلام يسير في إحدى طرقات المدينة ، ﴿ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ ﴾ إذ به يجد

(1) المتوفز : المتعجل أو المترقب المتهيئ للمضي يقال : اطمئن فإني أراك مستوفزًا ، وفلان على أوفاز أي : على عجلة واستوفز في قعدته قعد منتصبًا غير مطمئن .

يراجع لسان العرب 4882/6 والمصباح المنير 147/2 . (2) في ظلال القرآن 2682/5 بتصرف .

(3) محاسن التأويل للقاسمي 164/11 والفتون جمع فتنة وهي الابتلاء والمحنة ، أي : فتناك ضروريًا من الفتن ، قال ابن عباس : ﴿ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا ﴾ : خلصناك من محنة بعد محنة ، وُلِدَ في عام كان يقتل فيه الولدان فهذه فتنة ، وألقته أمه في البحر وهم فرعون بقتله ، وقتل قبطيًا ، وأجر نفسه عشر سنين وضل الطريق وتفرقت غنمه في ليلة مظلمة باردة . وكل هذه فتن . يراجع الكشاف للزمخشري 64/3 .

(4) سورة القصص : 18 .

ذلك الإسرائيلي الذي استعاث به بالأمس ، ﴿ فَإِذَا الَّذِي اَسْتَصْرَمُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِحُهُ ﴾ أي يطلب الغوث والنجدة منه ﷺ ؛ بأن ينصره على قبطي آخر ، فلما رأى موسى هذا الموقف وتذكر ما حدث بالأمس قال للإسرائيلي : ﴿ إِنَّكَ لَعَوِيٌّ مُّبِينٌ ﴾ أي : إنك لكثير الخصام ، وقد كنت سببا في قتل القبطي بالأمس ، وتريد مني أن أناصرك اليوم بضرب القبطي ضربًا قد يفضي إلى موته كما مات صاحبه بالأمس !!

﴿ فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ ﴾ (1) .

أراد موسى ﷺ أن يناصر الإسرائيلي على القبطي فأقدم على ذلك فظن الإسرائيلي أن موسى يقصده فقال : ﴿ يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ ... ﴾ .

قال ابن كثير : [قال بعضهم : إنما قال هذا الكلام : الإسرائيلي الذي شاهد ما كان بالأمس - وكأنه لما رأى موسى مقبلًا إلى القبطي اعتقد أنه جاء إليه ، لما عتفه قبل ذلك بقوله : ﴿ إِنَّكَ لَعَوِيٌّ مُّبِينٌ ﴾ فقال ما قال لموسى ، وأظهر الأمر الذي كان وقع بالأمس فذهب القبطي فاستعدى فرعون على موسى - وهذا الذي لم يذكر كثير من الناس سواه - ، ويحتمل أن قائل هذا هو القبطي وأنه لما رآه مقبلًا إليه خافه ، ورأى من سجيته انتصارًا جديدًا للإسرائيلي ، فقال ما قال من باب الظن والفراسة : إن هذا لعله قاتل ذاك القتل بالأمس ، أو لعله فهم من كلام الإسرائيلي حين استصرخه عليه ما دله على هذا ... والله أعلم] (2) .

رجولة وشهامة

وعلم فرعون أن موسى ﷺ هو الذي قتل القبطي فأرسل في طلبه وهنا يسارع رجل صالح إلى موسى ﷺ ليحذره من بطش فرعون وينصحه بمغادرة البلاد .

قال تعالى : ﴿ وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَا مُوسَى إِنَّكَ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ ﴾ (3) فرج منها خافيًا يترقب قال رب نجني من القوم الظالمين ﴿ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تَلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴾ (3) .

(2) قصص الأنبياء لابن كثير ص 300 بتصرف .

(1) سورة القصص : 19 .

(3) سورة القصص : 20 : 22 .

● جاء هذا الرجل الناصح ، وضرب أروع الأمثلة في المروءة والشهامة (1) .

● جاء لينصح موسى ﷺ بالخروج بعيدًا عن فرعون وملئه ، فاستجاب موسى ﷺ للناصح الأمين ، وخرج في حذر وترقب ، واستعان بالله ﷻ وطلب منه النجاة ﴿ فَفَرَجَ مِنْهَا خَافِيًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ ، وطلب من المولى ﷻ الهداية إلى سواء السبيل قال تعالى : ﴿ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تَلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴾ ، وظاهر هذه الآية يدل على أنه قصد بلاد مدين ولكنه لا يعرف الطريق إليها فسأل المولى ﷻ أن يهديه إلى أيسر الطرق وأقربها من مدين .

● قال ابن عطية : [كان موسى لا يعرف تلك الطريق ولم يصحب معه أحدًا فركب مَجْهَلَتَهَا واثقًا بالله تعالى ومتوكلاً عليه ، وقال : ﴿ عَسَى رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴾ وفي هذا ما يدل على أنه كان عارفاً بالله تعالى] (2) .

● وقال صاحب الميزان في تفسير القرآن : [... والمعنى ولما صرف وجهه بعد الخروج من مصر حذاء مدين قال : أرجو ربي أن يهديني وسط الطريق ، فلا أضل بالعدول عنه والخروج منه إلى غيره ، والسياق - كما ترى - يعطي أنه ﷺ كان قاصداً لمدين وهو لا يعرف الطريق الموصلة إليها فترجى أن يهديه ربه] (3) .

موسى ﷺ في مدين

قال تعالى : ﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةٌ مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمْ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴾ (4) .

● بعد رحلة طويلة شاقة قطعها موسى ﷺ سيرًا على الأقدام واستغرقت قرابة ثمانية أيام .

(1) الشهامة : ذكاء الفؤاد المتوقد ، والشهم ذكي الفؤاد المتوقد والجلد أي : قوي التحمل شديد البأس ، وجمع الشهم شهام وقد شهم الرجل شهامة وشهومة إذا كان ذكيًا فهو شهم أي : جلد والشهم نافذ الأمر ماضيه ، والشهم السيد النجد النافذ في الأمور ، والجمع شهوم ، وفرس شهم سريع نشيط قوي ... يراجع لسان العرب 2354/4 مادة (ش . ه . م) .

(2) المحرر الوجيز لابن عطية 156/12 بتصرف . (3) الميزان 24/16 .

(4) سورة القصص : 23 .

وصل موسى ﷺ إلى مدين وقد بلغ من التعب أقصاه ومن الجوع منتهاه ، ﴿ وَكَمًا وَرَدَّ مَاءَ مَدْيَنَ ﴾ هي بئر كانوا يسقون منها - والورود من ورد وأصله قصد الماء ثم يستعمل في غيره يقال : ورد الماء ورودًا فهو وارد والماء مورود ، وقد أوردت الإبل الماء (1) .

● وفي المصباح المنير : [ورد الماء : بلغه ووافاه من غير دخول والورد خلاف الصدر والإيراد خلاف الإصدار] (2) .

● وقال القرطبي : [وورود موسى الماء : معناه : بلغه لا أنه دخل فيه ولفظة الورد قد تكون بمعنى الدخول في المورود وقد تكون بمعنى الاطلاع عليه والبلوغ إليه وإن لم يدخل ، فورود موسى ماء مدين وصوله إليه] (3) .

● فالورود : إتيان الماء ، والصدور: الرجوع عنه .

﴿ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةٌ مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ ﴾ .

وصل موسى ﷺ إلى تلك البئر فوجد طائفة من الناس قد تراحموا حول الماء .

● والأمة : كل جماعة يجمعهم أمرًا ما ، إما دين واحد ، أو زمان واحد ، أو مكان واحد سواء كان ذلك الأمر الجامع جبرًا أو اختيارًا وجمع أمة : أم (4) .

● قال القرطبي : والأمة الجمع الكثير (5) .

● وقال الألويسي : [﴿ أُمَّةٌ مِّنَ النَّاسِ ﴾ أي : جماعة كثيرة مختلفة الأصناف ويشعر بالقيد الأول التنوين ، والثاني ﴿ مِّنَ النَّاسِ ﴾ لشموله للأصناف المختلفة وهي فائدة ذكره ، وقيل : فائدته تحقير أولئك الجماعة وأنهم لا يعرفون بغير جنسهم ، أو محتاجون إلى بيان أنهم من البشر] (6) .

● والظاهر أنهم كانوا يسقون لأنفسهم ولأنعامهم .

﴿ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ ﴾ .

وجد امرأتين تحبسان وتمنعان أغنامهما من أن ترد الماء وتختلط بغنم القوم ، قيل : إن

(1) يراجع : المفردات مادة ورد ص 519 ، 520 .

(2) المصباح مادة ورد 141/3 .

(3) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي 13 / 267 .

(4) المفردات مادة (أ . م . م) ص 23 .

(5) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي 13 / 268 .

(6) روح المعاني للألويسي 59/20 .

الصغرى تدعى صفورا والكبرى ليًا (1) ، والله أعلم بحقيقة اسمهما .

مرودة ... وقوة ... وإخلاص وتجرد

﴿ قَالَ مَا خَطْبُكُمْ ﴾ ؟ .

الخطب هو الأمر العظيم الذي يكثر فيه التخاطب ، و ﴿ خَطْبُكُمْ ﴾ أي : ما شأنكما .

● قال الماوردي : وفي الخطب تفخيم الشيء ومنه الخطبة ؛ لأنها من الأمر المعظم (2) .

لقد نسي موسى الطيّب ما هو فيه من تعب وكرب وجوع وعناء ، وهمه ما رآه ، فتابان تقومان بهذا العمل الشاق ! وتزودان أغنامهما حتى لا تختلط بغنم القوم ! .

أدرك موسى الطيّب أنهما في حاجة إلى مساعدته ، فقام إليهما وسألهما قائلاً ﴿ مَا خَطْبُكُمْ ﴾ فأجابتا عليه بقولهما كما أخبر القرآن الكريم :

﴿ قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصَدِرَ الرِّعَاءُ وَأُبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴾ .

إجابة موجزة لكنها بليغة ، عبرتا فيها عن حالهما وحال أبيهما ﴿ قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصَدِرَ الرِّعَاءُ ﴾ أي : حتى ينصرفوا عن البئر ، حتى لا نختلط بهم ونزاحمهم وهذا لا يليق بنا (3) .

﴿ وَأُبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴾ لا يقدر على أن يتولى السقي بنفسه من الكبر والضعف

(1) يراجع غرر التبيان في من لم يسم في القرآن ص 390 لبدر الدين بن جماعة ومفحومات الأقران في مبهاث القرآن للسيوطي . ص 158 ط / مكتبة صبيح بالقاهرة .

(2) النكت والعيون للماوردي 252/3 .

ويراجع المفردات للراغب ص 150 مادة خ ط ب .

والجامع لأحكام القرآن للقرطبي 268/13 ويراجع مجمع البيان للطبرسي 386/7 ، 387 .

(3) قرأ أبو جعفر وأبو عمرو وابن عامر يصدر بفتح الياء وضم الدال وقرأ الباقر يصدر بضم الياء وكسر الدال يراجع - حجة القراءات لابن زنجلة 542 والنشر في القراءات العشر 341/2 .

وقال الطبرسي : [من قرأ حتى يصدر الرعاء فمعناه حتى يرجعوا من سقيهم ، وفي التنزيل ﴿ يَوْمَئِذٍ يُصَدِّرُ النَّاسَ أَشْنَانًا ﴾ سورة الزلزلة : 6 - ومن قرأ (يُصَدِّر) أراد حتى يصدروا مواشيهم من وِزْدِهِمْ فحذف المفعول] مجمع البيان للطبرسي 385/7 .

وفيه من القراءتين أن الفتاتين لا تتقدمان إلى البئر لتسقى منه إلا بعد انصراف الرعاء بماشيتهم ، حتى لا تختلط الفتاتان بالرجال ، وحتى لا تختلط أغنامهما بماشية القوم . ومدار القراءتين حول معنى واحد وهو أنهما لا يسقيان حتى ينصرف الرعاء بأغنامهم ومواشيهم عن البئر .

ولذلك احتجنا أن نقوم بهذا الشأن .

● قال صاحب روح البيان : [﴿ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴾ أي : كبير السن والقدر والشرف لا يستطيع أن يخرج فيرسلنا للرعي والسقي اضطرارًا] (1) .

● قال صاحب الكشاف : [فَإِنْ قُلْتَ : كيف طابق جوابهما سؤاله ؟ قلت : سألهما عن سبب الزود فقالتا : السبب في ذلك أننا امرأتان ضعيفتان مستورتان لا نقدر على مساجلة الرجال (2) ومزاحمتهم ، فلا بد لنا من تأخير السقي إلى أن يفرغوا ، وما لنا رجل يقوم بذلك ، وأبونا شيخ قد أضعفه الكبر فلا يصلح للقيام به : أبدأت إليه عذرهما] (3) .

﴿ فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾ (4) .

بادر موسى ﷺ إلى مساعدتهما فتولى عنهما أمر السقي ، مع ما كان به من تعب ومن جوع .

قال ابن كثير : [قال المفسرون : وذلك أن الرعاء كانوا إذا فرغوا من وردهم وضعوا على فم البئر صخرة عظيمة ، فتجيء هاتان المرأتان فيشرعان غنمهما في فضل أغنام الناس فلما كان ذلك اليوم ، جاء موسى فرفع تلك الصخرة وحده ، ثم استقى لهما وسقى غنمهما ، ثم رد الحجر كما كان ، قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ؓ : وكان لا يرفعه إلا عشرة ، وإنما استقى ذنوباً واحداً فكفاهما] (5) .

● وظاهر الآيات يدل على أن البئر كانت مكشوفة ، وأن موسى ﷺ زاحم الرجال على البئر حتى سقى ، ولقد ظهرت قوته ﷺ في سقيه في مدة يسيره رغم ما به من تعب ومن جوع .

(1) روح البيان للبروسوي 395/6 .

(2) أصل المساجلة من السجل وهي الدلو ، والمساجلة هي التفاخر والتسابق - قال صاحب لسان العرب : [وساجل الرجل باراه وأصله في الاستقاء وهما يتساجلان ، والمساجلة المفاخرة بأن يصنع مثل صنيعه في جري أو سقي ، قال ابن بري أصل المساجلة أن يستقي ساقيان فيخرج كل واحد منهما في سجله مثل ما يخرج الآخر فأيهما نكل فقد غلب ، فضرته العرب مثلاً للمفاخرة] لسان العرب 1945/3 مادة س ج ل . ونكل أي نكص ، يقال نكل عن العدو أي جبن ونكل عن الشيء انصرف عنه .

(3) الكشاف 401/3 .

(4) سورة القصص : 24 .

(5) قصص الأنبياء لابن كثير ص 302 .

● قال الإمام الألوسي : [والظاهر أنه الكليل سقى لهما من البئر التي عليها الناس] وقال الألوسي معلقاً على ماورد بأن موسى رفع الصخرة من على البئر وكان لا يطبق رفعها إلا عشرة رجال : [... هذا مخالف لما يقتضيه ظاهر الآية من أنه الكليل حين ورد ماء مدين وجد أمة من الناس يسقون ووجد المرأتين تزودان وهذا ظاهر في مقارنة وجدانها لوجدانهم وذودهما لسقيهم ، ولا يكاد يفهم منه أن وجدانها بعد فراغهم من السقي ...] (1) .

● ويقول عبد الوهاب النجار (2) : [... ويقول بعض المفسرين : إنه وجد البئر عليها صخرة عظيمة لا يستقل بإزالتها عن فم البئر إلا جماعة من الأقوياء فنزعها وحده وسقى للمرأتين ، غير أن هذا القول غفلة عما نطقت به الآية ؛ فإنها تصرح بأنه وجد على البئر أمة من الناس يسقون فلم يكن بأحد حاجة إلى إزالة الغطاء عن البئر ، إن كان له غطاء ؛ إذ القوم يسقون بالفعل ، ولا يكون ذلك إلا إذا كانت البئر مفتوحة لا غطاء عليها] (3) .

● والظاهر المتبادر لنا أنه لم يكن هناك إلا بئر واحدة ، وقد ذهب بعض المفسرين إلى وجود بئر أخرى سقى منها موسى ، وهذا قول مخالف لظاهر النص ، وليس هناك ما يدل عليه .

● قال عبد الوهاب النجار في تعليقه على هذا الرأي القائل بوجود أكثر من بئر : [... وبعض المفسرين يقول رأيت هناك بئرين ، وإني أسلم أنه رأى بئرين ولكن ما حجته على أنهما كانت معاً في الوجود على عهد موسى ؟ إذ من المحتمل أنها حُفرت في عهد الإسلام أو قبله بقليل ولم تكن في عهد موسى] (4) .

(1) روح المعاني للألوسي 63/20 ، والإمام الرازي توقف في هذه المسألة وقال : [وليس بيان ذلك في القرآن والله أعلم بالصحيح منه ، ولكن المرأة وصفت موسى الكليل بالقوة فدل ذلك على أنها شاهدت منه ما يدل على فضل قوته] مفاتيح الغيب 239/24 .

(2) هو عبد الوهاب بن أحمد النجار (1278 - 1360) هـ أديب مؤرخ وعالم بالطبيعة والكيمياء وغيرها ، ولد في إحدى قرى محافظة الغربية وانتقل إلى طنطا ومنها إلى القاهرة ، حيث درس في دار العلوم وعمل بعد ذلك ، أستاذاً للأدب والتاريخ وللشريعة .

من مؤلفاته قصص الأنبياء ، تاريخ الخلفاء الراشدين ، مذكرات عن الهند ، زهرة التاريخ والأيام الحمراء وهو كتاب عن ثورة سنة 1919 م ، يراجع معجم المؤلفين 220/6 ، الأعلام للزركلي 333/4 .

(3) قصص الأنبياء لعبد الوهاب النجار ص 199 . (4) المرجع السابق ص 199 .

﴿ ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾ (1) .
سقى لهما ، ثم انصرف إلى شجرة يستظل بها ويستريح ، ودل هذا على أنه عليه السلام
باشر هذا العمل الشاق في شدة الحر .

● ولصاحب الظلال في هذا المقام كلام رائع ، حيث يقول : [إنه يأوي إلى الظل
المادي البليل بجسمه ، ويأوي إلى الظل العريض الممدود ، ظل الله الكريم المنان بروحه
وقلبه ﴿ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾ . رب إني في الهاجرة . رب إني
فقير . رب إني وحيد ضعيف ... ونسمع من خلال التعبير : رفرقة هذا القلب والتجاءه
إلى الحِمَى الآمن ، والركن الركين ، والظل الظليل ، نسمع المناجاة القريبة والهمس
الراقي والاتصال العميق : ﴿ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾] (2) .

والنفوس كلها مفتقرة إلى الله ﷻ في كل حال من الأحوال قال تعالى في سورة
القتال : ﴿ وَاللَّهُ الْعَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ ﴾ (3) وقال ﷻ في سورة فاطر : ﴿ يَتَأَيَّمُوا النَّاسُ
أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْعَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾ (4) .

وقال الإمام الألوسي : [﴿ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾ : أي :
لأي شيء تنزله من خزائن كرمك إلي . ﴿ مِنْ خَيْرٍ ﴾ جل أو قل ﴿ فَقِيرٌ ﴾ أي :
محتاج وهو خبر إن ، وبه يتعلق لما ، وعدي باللام لما أشرنا إليه من تضمنه معنى
الاحتياج ، وجوز أن يكون مُضْمَنًا معنى الطلب واللام للتقوية ، وقيل يجوز أن تكون
للبيان فتتعلق بأعني محذوفًا] (5) .

● وقد ذكر بعض المفسرين أنه ﷺ جهر بهذا الدعاء أمام الفتاتين حتى يعلمنا بحاله (6) .
والصحيح أن موسى ﷺ توجه إلى الله ﷻ بالدعاء في خفية ليكون الدعاء أدعى
للإخلاص وأرجى للقبول ، قال أحد السلف : « إن الله يحب القلب التقى ويسمع
الصوت الخفي » وقال تعالى مادحاً عبده زكريا : ﴿ ذَكَرْ رَحْمَتَ رَبِّكَ عَبْدُكَ زَكَرِيَّا ۚ إِذْ
نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا ﴾ (7) ، وقال ﷻ : ﴿ ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُمْ لَا

(2) في ظلال القرآن 5/2686 .

(1) سورة القصص : 24 .

(4) سورة فاطر : 15 .

(3) سورة القتال (محمد) : 38 .

(5) روح المعاني 20/64 .

(6) ذكر هذا الرأي ابن كثير في قصص الأنبياء ص 302 والمزمخشري في الكشاف 3/402 والماوردي في

(7) سورة مريم : 2 ، 3 .

تفسيره 3/253 وغيرهم .

يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿١﴾ .

● وقال الإمام الرازي : [... قلنا أما رفع الصوت بالدعاء لإسماع المرأتين وطلب الطعام فهذا لا يليق بموسى ﷺ البتة ؛ فلا تقبل تلك الرواية ولكن لعله ﷺ قال ذلك في نفسه مع ربه تعالى] (2) .

شكر المعروف ... ودعوة كريمة .. وصورة من أروع صور الحياء

قال تعالى : ﴿ فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّكِ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقِصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَبَوْتُ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ (3) .

مكث موسى ﷺ مدة سيرة تحت ظل الشجرة ، يتذكر نعم الله ﷻ عليه ويتضرع له سبحانه أن يُفْرِجَ عنه الكرب ، وبينما هو على هذا الحال إذ يأحدى الفتاتين تجيء إليه وتطلب منه أن يلبي دعوة أبيها ليجزيه على صنيعه خيرا ، وذلك أن الفتاتين لما ذهبتا إلى أبيهما مسرعتين وكانت عادتاهما الإبطاء في السقي ، فحدثتهما بما كان من أمر الرجل الذي سقى لهما فأمر إحداهما أن تدعوه له .

﴿ فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ ﴾ .

والاستحياء هو المبالغة في الحياء ، والتكثير في ﴿ اسْتِحْيَاءٍ ﴾ يدل على التعظيم والتفخيم ، فهو أعظم وأفخم حياء ، والتعبير بـ ﴿ عَلَى ﴾ يفيد الاستعلاء ؛ لأنها وصلت إلى أعلى درجات الحياء وقد ظهر هذا واضحا في مشيتها ؛ فكأنها جاءت إلى موسى ﷺ وهي تسير على بساط الحياء فلا تنحرف عنه خطوة واحدة ، وكما لزمها الحياء في خطواتها فقد لزمها أيضا في كلامها .

- وبمعنى آخر - : كما دلت مشيتها على عظيم حياؤها فلقد دل كلامها على فصاحتها وروعة أسلوبها وحشمتها حيث قالت في عبارة موجزة بليغة : ﴿ إِنَّكِ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ﴾ .

● قال ابن كثير في تفسيره : [﴿ قَالَتْ إِنَّكِ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ﴾

(2) مفاتيح الغيب للرازي 24/240 .

(1) سورة الأعراف : 55 .

(3) سورة القصص : 25 .

يعني ليشيك ويكافئك على سقيك لغنمنا ، وهذا تأدب في العادة ، لم تطلبه طلبًا مطلقًا ؛ لئلا يوهم ربية [(1)] .

● « وهذه الدعوة الكريمة التي وجهتها الفتاة إلى موسى عليه السلام هي في الحقيقة بداية لتكريم رباني عظيم ، رزق طيب مبارك ، وأمان في ضيافة رجل صالح ، وزوجة بارة عاقلة طاهرة عفيفة وعمل شريف يناسب روحه السنية التي تشوفت إلى الخلوة والسير في الأرض سير تفكر وتأمل تحننًا وتعبدًا وإعدادًا من الله تبارك وتعالى له للمواجهة الحاسمة مع فرعون وملئه » (2) .

● وَاخْتَلِفَ فِي التِّي جَاءَتْهُ هَلْ هِيَ الصَّغْرَى أَمْ الْكَبْرَى ؟ وَلَيْسَ فِي مَعْرِفَتِهَا كَبِيرٌ فَائِدَةٌ ؛ إِذْ لَوْ كَانَ لَدَلْ عَلَيْهَا الْقُرْآنُ ، أَوْ وَرَدَ ذِكْرُهَا فِي السَّنَةِ النَّبَوِيَّةِ .

● يقول الإمام الرازي بعد أن ذكر اختلاف المفسرين في اسم الفتاتين واختلافهم في التي جاءتته تدعوه للقاء أبيها ، يقول الإمام الرازي : [... وليس في القرآن دلالة على شيء من هذه التفاصيل] (3) .

● استجابة موسى لدعوة الرجل الصالح والد الفتاتين

● استجاب موسى عليه السلام لهذه الدعوة الكريمة من الرجل الصالح والتي حملتها ابنته التي بلغت الغاية في الحياء .

وذهب موسى عليه السلام مع تلك الفتاة إلى أبيها ، روي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : إن موسى قال ابتداء : كوني ورائي فإني رجل عبراني لا أنظر في أدبار النساء ودليني على الطريق يمينًا ويسارًا (4) .

● وقال الإمام الزمخشري في الكشاف : [فإن قلت كيف ساغ لموسى عليه السلام أن يعمل بقول المرأة وأن يمشي معها وهي أجنبية ؟ قلت : أما العمل بقول امرأة فكما يعمل بقول الواحد حرًا كان أو عبدًا ، ذكرًا كان أو أنثى في الأخبار وما كانت إلا مخبرة عن

(1) تفسير ابن كثير 384/3 بتصرف .

(2) مجلة البيان عدد 121 السنة الثانية عشرة رمضان سنة 1418 هـ يناير 1998 مقال بعنوان من فقه الدعاء في قصص الأنبياء - موسى عليه السلام من خلال سورة القصص بقلم د . مصطفى فوضيل ص 43 .

(3) مفاتيح الغيب للرازي 241/24 .

(4) قصص الأنبياء لابن كثير 303 - وتفسير القرطبي 271/13 - والكشاف 403/3 - ومفاتيح الغيب 241/24 .

أبيها بأنه يدعوه ليجزيه ، وأما مماشاته امرأة أجنبية فلا بأس به في نظائر تلك الحال مع ذلك الاحتياط والتورع ، فإن قلت : كيف صح له أخذ الأجر على البر والمعروف ؟ قلت يجوز أن يكون قد فعل ذلك لوجه الله تعالى وعلى سبيل البر والمعروف ، وقيل : إطعام شعيب وإحسانه لا على سبيل أخذ الأجر ، ولكن على سبيل التقبل لمعروف مبتدأ . كيف وقد قص عليه قصصه وعرفه أنه من بيت النبوة من أولاد يعقوب ؟ ومثله حقيق بأن يضيف ويكرم خصوصاً في دار نبي من الأنبياء ⁽¹⁾ وقد روي ما يعضد كلا القولين : روي أنها لما قالت : ليجزيك ، كره ذلك ، ولما قدم إليه الطعام امتنع وقال : إنا أهل بيت لا نبيع ديننا بطلاع ⁽²⁾ الأرض ذهباً ولا نأخذ على المعروف ثمناً حتى قال شعيب : هذه عادتنا مع كل من ينزل بنا [⁽³⁾] .

ومن شيم الكرام البر بالضياف

● نسمة حانية

﴿ فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ .

لقد ذهب موسى عليه السلام مع الفتاة استجابة لدعوة أبيها الرجل الصالح ، الذي ظهر أثر صلاحه على بناته أدباً وحياء وحشمة ، وبراً وإحساناً ، وفصاحة وبيانا .

وأحسن الرجل استقبال ضيفه وأكرم نزله ، وأحس موسى في هذا البيت بالأمن والأمان والراحة والطمأنينة والسعادة والسكينة ، وقص قصته من أولها وحتى وصوله إلى مدين فراراً من فرعون وأعوانه ، فقال له الرجل الصالح الحكيم : ﴿ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ .

طب نفساً يا موسى فأنت هنا في مأمن ومنجاة من فرعون وحاشيته الطغاة البغاة ، قال ابن كثير : [﴿ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ أي : خرجت من سلطانهم فلست في دولتهم] ⁽⁴⁾ .

(1) الصحيح كما ذكرنا آنفاً : أنه ليس نبي الله شعيباً وإنما هو رجل صالح من ذريته .

(2) في لسان العرب وطلاع الأرض ما طلعت عليه الشمس منها ، وطلاع الشيء ملؤه ... وطلاع الأرض ملؤها حتى يطالع أعلاه أعلاها فيساويه . لسان العرب 2689/4 مادة (ط ل ع) .

(3) الكشف للزمخشري 402/3 . (4) قصص الأنبياء لابن كثير ص 303 .

﴿ قَالَتْ إِحَدَهُمَا يَا بَنِيَّ اسْتَجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ ﴾ (1) .
طلبت الفتاة من أبيها أن يستأجر موسى عليه السلام ، وذكرت أهم السمات التي تؤهل
موسى عليه السلام لهذه المهمة ﴿ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ ﴾ .

● قال الإمام الرازي : [... وصفته بالقوة لما شاهدت من كيفية السقي وبالأمانة لما
حكينا من غض بصره حال زودهما الماشية ، وحال سقيه لهما ، وحال مشيه بين يديها
إلى أبيها] (2) .

● وقال صاحب الكشاف : [.... وعن ابن عباس رضي الله عنه : أن شعيباً أحفظته الغيرة (3)
فقال : وما أعلمك بقوته وأمانته ؟ فذكرت إقلال الحجر ونزع الدلو ، وأنه غض بصره ،
وأمرها بالمشي خلفه] (4) .

● ولقد رجحت أن البئر كانت مكشوفة ، ليس عليها غطاء ، واستشهدت على
ذلك بظاهر النص ، ويثبت أن قوة موسى عليه السلام ظهرت في سقيه للغنم في مدة يسيرة .
مع ما كان عليه من تعب وجهد .

● وقال صاحب الكشاف موضعاً حكمة تلك الفتاة وفصاحتها وحشمتها : [وقولها
﴿ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ ﴾ كلام حكيم جامع لايزاد عليه ؛ لأنه إذا
اجتمعت هاتان الخصلتان - أعني الكفاية والأمانة في القائم بأمرك فقد فرغ بالك وتم
مرادك ... وورود الفعل ﴿ اسْتَجَرْتَ ﴾ بلفظ الماضي للدلالة على أنه أمر ثابت محقق ،
قد جرب وعرف] (5) .

● قال الإمام أحمد بن المنير الإسكندري في الانتصاف معلقاً على قول الزمخشري
السابق : [وقد استغنت بهذا الكلام عن أن تقول استأجره لقوته وأمانته] وقال ابن المنير :
[وهو أيضاً أجمل في مدح النساء للرجال من المدح الخاص وأبقى للحشمة وخصوصاً
إن كانت فهمت أن غرض أبيها أن يزوجه منها ، وما أحسن ما أخذ الفاروق رضي الله عنه هذا

(1) سورة القصص : 26 .

(2) مفاتيح الغيب 24/242 ويراجع الميزان في تفسير القرآن للطباطبائي 16/26 .

(3) أي : أثارت حفيظته ، بمعنى أغضبته .

(4) الكشاف 3/403 ويراجع قصص الأنبياء لابن كثير ص 303 .

(5) الكشاف 3/404 بتصرف .

المعنى فقال : أشكو إلى الله ضعف الأمين وخيانة القوي ، ففي مضمون تلك الشكاية سؤال الله تعالى أن يتحفه بمن جمع الوصفين .. [(1)] .

● عرض الرجل الصالح على موسى عليه السلام الزواج من إحدى الفتاتين

قال تعالى : ﴿ قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَيَّ أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَنِي حَقِّحٌ فَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتَ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَيَّ مَا نَقُولُ وَكَيْلٌ ﴿٢٨﴾ ﴾ (2) .

رأى الرجل الصالح موسى عليه السلام وسمع كلامه وأعجب به ، وقبل نصيحة ابنته حين قالت : ﴿ يَا أَبَتِ اسْتَعْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنْ اسْتَجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ ﴾ فوصفت موسى عليه السلام بأفضل الصفات وأجمعها - صفتي القوة والأمانة - ، وطلبت من أبيها أن يستأجره ، وفضن الرجل الصالح إلى إعجاب ابنته بموسى عليه السلام وتقديرها له ، أحس بذلك وفضن إليه وهو الأب الحنون ، والشيخ الكبير صاحب الدراية والخبرة بأمر الحياة ، فعرض على موسى عليه السلام الزواج من إحدى الفتاتين وترك لموسى عليه السلام حرية اختيار من يراها مناسبة له .

والظاهر المتبادر من الآيتين الكريمتين أن الرجل عرض إحدى الفتاتين فقبل موسى عليه السلام هذا العرض ، فما ورد في الآيتين عرض ووعدهم بالنكاح (خطبة) وليس عقداً كما ذكر بعض المفسرين ولو كان الحوار الذي دار عقداً لقال صالح مدين - إني أنكحتك - ولم يقل : ﴿ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ ﴾ ، ولَعَيَّنَ إحدى الفتاتين وقال : ابنتي الصغرى أو الكبرى ، ولما قال : ﴿ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ ﴾ ومن شروط عقد النكاح تعيين طرفي العقد - الرجل والمرأة - .

● قال الزمخشري : [فإن قلت كيف صح أن ينكحه إحدى ابنتيه من غير تمييز ؟ قلت : لم يكن ذلك عقداً للنكاح ، ولكن مواعدة أمر قد عزم عليه ، ولو كان عقداً لقال : قد أنكحتك ولم يقل : ﴿ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ ﴾] (3) .

● وقال القرطبي : [قوله تعالى : ﴿ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ ﴾ يدل على أنه عرض

(1) الانتصاف لأحمد بن المنير بهامش الكشاف 43/3 .

(2) سورة القصص : 27 ، 28 .

(3) الكشاف 404/3 .

لا عقد لأنه لو كان عقداً لعين المعقود عليها له ...] (1) .

● وقال البروسوي : [وقال بعضهم ما حكى عنهما بيان لما عزمنا عليه واتفقا على إيقاعه من غير تعرض لبيان موجب العقد في تلك الشريعة تفصيلاً] (2) .

● قيل : إنه تزوج الصغرى ، وقيل : تزوج من الكبرى ، والذي أراه - والله أعلم - أنه تزوج من الفتاة التي دعته إلى أبيها وطلبت من أبيها أن يستأجره .

وقوله تعالى : ﴿ عَلَيَّ أَنْ تَأْجُرَنِي تَمَنَّى حِجَّ فَإِنْ أْتَمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ (3) .

عرض عليه الزواج من إحدى ابنتيه في مقابل الإجارة لمدة ثماني سنوات أو عشر [وكان النكاح هو الأصل في الطلب دون الاستئجار ، وهذا مشعر باهتمام الأب بموسى عليه السلام وإرادة الخير له] (4) .

وقول الرجل الصالح لموسى : ﴿ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ فيه إشارة إلى تخيير موسى بين الأجلين ؟ أيهما يختار عليه السلام ، ووعده لموسى عليه السلام بحسن معاملته ، والرفق به ؛ لأن الرفق والتسامح واليسر من سمات الصالحين .

● قال الزمخشري : [﴿ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ ﴾] يالزام أتم الأجلين وإيجابه ... أو وعده المساهلة والمسامحة من نفسه ، وأنه لا يشق عليه فيما استأجره من رعي الغنم ، ولا يفعل نحو ما يفعل المعاسرون من المسترعين من المناقشة في مراعاة الأوقات ، والمدافعة في استيفاء الأعمال وتكليف الرعاة أشغلاً خارجة عن حد الشرط ... ﴿ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ يريد بالصلاح حسن المعاملة ووطأة الخلق ولين الجانب ، ويجوز أن يريد بالصلاح على عمومه] (5) .

أقول : والأولى حمل الصلاح على عمومه . وعلق الأمر على المشيئة لبيان أن

(2) روح البيان 398/6 .

(1) الجامع لأحكام القرآن 272/13 .

(4) القصص القرآني عماد زهير ص 277 .

(3) سورة القصص : 27 .

والإجارة في اللغة هي الإثابة ومنه الأجر أي : الثواب وأجرته أثبته ، وفي الاصطلاح : تملك منفعة رقية بعوض يراجع الفقه الإسلامي وأدلته 60/4 ويراجع فتح الباري 514/4 .

(5) الكشاف للزمخشري 405/3 باختصار .

الصلاح مرهون بتوفيق الله تعالى وعونه . فلا صلاح ولا فلاح إلا بتوفيق الله وعونه وفضله .

قبول موسى عليه السلام هذا العرض - وزواجه من إحدى الفتاتين

قال تعالى : ﴿ قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتَ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلِيمٌ مَّا نَقُولُ وَكَئِيلٌ ﴿ (1) .

﴿ قَالَ ذَلِكَ ﴾ إشارة إلى ما عاهده عليه صالح مدين ﴿ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتَ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ ﴾ أي : إن ما قلته وعاهدتني عليه قائم بيننا جميعاً لا نخرج عنه ، وأي المدين الثماني أو العشر أديتها لك فلا إثم علي ولا حرج (2) .

﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ مَّا نَقُولُ وَكَئِيلٌ ﴾ فالله عليم هو الحسيب وهو الرقيب وهو الشهيد وهو الوكيل .

● ولقد تزوج موسى عليه السلام من إحدى الفتاتين .

● وكانت مدة الإجارة على خير ما يرام ، كان موسى عليه السلام قويًا أمينًا وقيًا بالوعد ، وكان صاحب مدين رقيقًا رحيماً عطوفًا كريماً ، وقيًا بالوعد .

روى البخاري في صحيحه عن سعيد بن جبير قال : سألتني يهودي من أهل الحيرة : أي الأجلين قضى موسى ؟ قلت : لا أدري حتى أقدم على حبر العرب فأسأله : فقدمت فسألت ابن عباس فقال : قضى أكثرهما وأطيبهما ، وإن رسول الله إذا قال فعل (3) .

موسى عليه السلام يعود إلى مصر ومعه زوجته

مفاجآت في طريق العودة

* حنَّ موسى عليه السلام إلى أهله ووطنه ، فعزم على الرحيل من مدين بعد أن قضى فيها أكثر من عشر سنوات ، وأخبر زوجته بما عزم عليه فاستجابت لرغبته وأطاعته ، واستأذن من أبيها ، صالح مدين ، فأذن لهما ودعا لهما بالخير والبركة ، واستعد موسى وزوجته

(1) سورة القصص : 28 .

(2) صفوة التفاسير 432/2 طبعة دار الصابوني الطبعة التاسعة .

(3) رواه البخاري في صحيحه ك / الشهادات باب / من أمر بإنجاز الوعد - حديث 2684 فتح الباري 5/342 .

لرحلة العودة إلى مصر ، .. وبعد وداع حازّ لصالح مدين ولأهلها عامة خرج موسى عليه السلام متوجها إلى وطنه الذي طال شوقه إليه واشتد حنينه إلى أمه وأخته وأخيه هارون وسائر أهله وصحبته وعشيرته ؟

- خرج موسى إلى وطنه الذي اضطرّ إلى الفرار منه هرباً من بطش فرعون .
- خرج بعد أن قضى الأجل وضرب المثل في المروءة والوفاء .

قال تعالى في سورة القصص : ﴿ فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ ۚ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿ ١٠١ ﴾ .

وفي سورة طه : ﴿ وَهَلْ آتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى ﴿ ١٠١ ﴾ إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجْدُ عَلَى النَّارِ هُدًى ﴿ ١٠٢ ﴾ .

وفي سورة النمل : ﴿ إِذْ قَالَ مُوسَى لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا سَتَابِئُكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُمْ بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿ ١٠٣ ﴾ .

- خرج موسى مع أهله متجهاً من مدين إلى مصر وكان الوقت شاتياً والجو بارداً والليل مظلماً معتماً ، والطريق مجهولاً .

● وفي غمرة هذه الأحوال العصبية أبصر موسى عليه السلام نارا فأنس بها وطلب من أهله المكث (4) لعله يأتي بقبس (5) ينير لهما في الظلام ، أو جذوة (6) يصطلون بها (7) أو

(2) سورة طه : 9 ، 10 .

(1) سورة القصص : 29 .

(3) سورة النمل : 7 .

(4) (امكثوا) أي الزموا مكانكم ، والفرق بين المكث والإقامة : أن الإقامة تدوم والمكث لا يدوم . قال تعالى ﴿ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴾ سورة النمل : 22 - أي لبث مدة يسيرة ثم عاد والضمير في ﴿ فَمَكَثَ ﴾ يعود إلى الهدهد .

(5) القبس : النار المقتبسة في رأس عود أو فتيلة أو نحوها ، والشهاب هو الشعلة الشديدة التوهج والحرارة (وشهاب قبس) أي شعلة متوهجة ملتبئة ، مقتبسة من تلك النار التي رآها عليه السلام .

وقد اجتمع فيها وصفان : كونها مضبئة يستعان بها في معرفة الطريق وكونها شديدة الحرارة يصطلي بها في تلك الليلة الشاتية الباردة يراجع الكشاف 53/3 ، 349/3 - ومفاتيح الغيب للرازي 180/24 والمفردات للراغب

ص 267 مادة ش ه ب .

(6) والجذوة : القطعة من الجمر المتوقد المرجع السابق ص 90 مادة - ج ذ و - .

(7) تصطلون : تستدفنون بها .

يجد عند النار من يخبرهم ويرشدهم إلى الطريق المقصود .

ومعنى ﴿ إِنِّي ءَأَنْتُ نَارًا ﴾ [إني أبصرت إبصارًا بينًا .

قال الطبرسي [الإيناس وجدان الشيء الذي يؤنس به] (1) ، [وما أنتت به فقد أحسست به مع سكون نفسك إليه] (2) .

وقال الزمخشري في الكشاف : [الإيناس الإبصار البيّن الذي لا شبهة فيه ، ومنه الإنس لظهورهم والاستئناس بهم ، وقيل هو إبصار ما يؤنس به] (3) .

ومعنى ﴿ لَعَلِّي ءَأْتِيكُمْ مِّنْهَا بِخَبْرٍ ﴾ في سورة القصص ، وفي سورة النمل ﴿ سَأَتِيكُمْ مِّنْهَا بِخَبْرٍ ﴾ أي : بمن يخبرني ويرشدني إلى الطريق ، أو بخبر هذه النار ولماذا أضاءت في هذا المكان الموحش المقفر المظلم ؟ ولقد جاء بخبر عظيم حيث كلمه رب العالمين . وكلفه بأشرف وأعظم وأكرم تكليف .

وفي سورة طه : ﴿ لَعَلِّي ءَأْتِيكُمْ مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجْدُ عَلَى النَّارِ هُدًى ﴾ أي : من يهديني وقد وجد الهداية الحقيقية حين كلمه رب العالمين .

وعبر بـ (لعل) لئلا يعد ما ليس بمستيقن الوفاء به (4) وفي هذا درس لأولياء الأمور ، الحكام والآباء والأزواج وغيرهم أن لا يعدّوا إلا بما يمكن تحقيقه ؛ حتى يتمكنوا من الوفاء بما وعدوا .

والتعبير بـ ﴿ سَأَتِيكُمْ ﴾ بسين التسويف : عدّة منه لأهله أن يأتيهم به وإن أبطأ أو كانت المسافة بعيدة (5) .

والتعبير مرة بالسين ﴿ سَأَتِيكُمْ ﴾ ومرة بـ لعل (لعلّي آتيكم) لأن الراجحي إذا قوي رجاءه يقول : سأفعل كذا وسيكون كذا مع تجويزه الخيبة (6) .

وعبر بالجمع في ﴿ سَأَتِيكُمْ ﴾ : قيل لأنها لم تكن وحدها ، بل كان معها من يصح معه الخطاب بالجمع (7) .

(2) المرجع السابق 330/7 .

(4) المرجع السابق 53/3 .

(6) الكشاف 349/3 - ومفاتيح الغيب 181/24 .

(1) مجمع البيان 8/7 .

(3) الكشاف 53/3 بتصرف .

(5) المرجع السابق 349/3 ومفاتيح الغيب 189/24 .

(7) الميزان للطباطبائي 31/16 ، 32 .

● قال الطبرسي : [أقامها موقع الجمع في الأنس بها والسكون إليها في الأمكنة الموحشة] (1) .

● وقال الرازي : [كنى الله ﷻ عنها بالأهل فتبع ذلك ورود الخطاب على لفظ الجمع] (2) .

أقول : ولم يرد في القرآن ولا في السنة ما يدل على أنها كان معها ولد أو خدم ، أو كانت في حالة المخاض ، وليس بمستبعد أن يكون معها ولد أو تكون في حالة المخاض والله أعلم .
والذي أراه في سر الخطاب بالجمع هو ما ذكره الطبرسي من [أنه أنس بها وسكون إليها] بالإضافة إلى تكريمها وتعظيم شأنها بإنزالها منزل الجمع . وفي هذا من حسن المعاشرة ما فيه .

والتعبير بـ (أو) لبيان أنه إن لم يظفر بالأمرين معاً فلعله يظفر بأحدهما ، ثقةً و يقيناً في فرج الله ﷻ وتيسيره .

وحي الله ﷻ إلى موسى ﷺ

قال تعالى في سورة طه : ﴿ وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى ﴿١٠٠﴾ إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجْدٍ عَلَى النَّارِ هُدًى ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا أَنهَا نُودِيَ بِمُوسَى ﴿١٠٢﴾ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاسْجُدْ وَاقْبَلْ نِعْمَتِي إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٠٣﴾ وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى ﴿١٠٤﴾ إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ﴾ .

وفي سورة النمل يقول ﷻ : ﴿ إِذْ قَالَ مُوسَى لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا سَتَابِئُكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ آيَاتِكُمْ بِشَهَابٍ فَبِئْسَ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٧٠﴾ فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مِنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٧١﴾ بِمُوسَى إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ .

وفي سورة القصص يقول جلّ وعلا : ﴿ فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَمْوَسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ .

لقد كلم المولى ﷻ موسى ﷺ وأوحى إليه بالرسالة وأيده بمعجزات تدل على

صدق دعوته ، وقوة حجته - وعاد موسى ﷺ إلى زوجته بعد أن شرفه المولى ﷺ بحمل الرسالة ولا بد أنه ﷺ عرض على زوجته ما رآه وما سمعه فانشرح صدرها وقرت عينها واطمأن قلبها ، وكانت أول من آمن به ﷺ ولا نعرف ماذا كان من أمرها بعد ذلك ولكن الذي نعتقده أنها كانت له سنداً وعاوناً في مواجهة ذلك التكليف الشاق تكليف الرسالة التي أداها موسى ﷺ على أكمل وأتم وجه ، ولم لا ؟ وقد اختاره المولى ﷺ واصطفاه وأثره واجتباؤه وهياه وأعدته لتحمل الرسالة والقيام بها خير قيام ، قال ﷺ : ﴿ وَلِنُضَعَّ عَلَى عَيْنِي ﴾ (1) وقال تعالى : ﴿ ... ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَا مُوسَىٰ ۖ وَأَصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي ﴾ (2) وقال سبحانه : ﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾ (3) وقال ﷺ : ﴿ اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّكَ اللَّهُ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾ (4) .

● إنها مرحلة جديدة في حياة موسى تهيأ وتأهل لها بعد مراحل متعددة ومتنوعة (5)

(1) سورة طه : 39 .

(2) سورة طه : 40 - 41 .

(3) سورة الأنعام : 124 .

(4) سورة الحج : 75 .

(5) مرَّ موسى ﷺ بمراحل متعددة وبظروف صعبة ساعدت في مجموعها على تهيئته وصقله وإعداده لحمل الرسالة .

فلقد ولد ﷺ والأهوال والأخطار تحديق به من كل جانب ، وأوحى المولى ﷺ إلى أمه أن تلقي به في اليم وحمله اليم بقدرة الله ﷻ وتقديره إلى قصر فرعون ، وأراد فرعون أن يقتله ، ولكن امرأته استوهبته منه وقالت ﴿ قَرَّتْ عَيْنِي لِىَ وَلَكَ لَا نَقْسَتُوكَ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا ﴾ وحرَّم المولى ﷺ عليه المراضع حتى عاد إلى أمه لترضعه ويتربى في حجرها وهي أم آمنة على ولدها ، أم مؤمنة بربها ، وقضى موسى ﷺ مرحلة من حياته في قصر فرعون ليطلع عن قرب ويراقب عن كثب أحوال فرعون وجنوده ، وفي هذا درس مهم للدعاة حيث إنه لا بد من الإحاطة بطبيعة المكان وثقافته وأحواله السياسية والاقتصادية والاجتماعية ودراسة الأديان التي يعتنقها أصحاب المكان وإتقان اللغات التي يتكلمون بها .

وخرج موسى ﷺ إلى مدين بعد أن قتل قبطياً وعلم أن فرعون وملاه يأتمرون به ليقتلوه ، وعمل بمهنة رعي الغنم وهي مهنة شاقة عسيرة ولها فوائد كثيرة وحكم بالغة يقول ﷺ : « ما بعث الله نبياً إلا رعى الغنم » فقال أصحابه : وأنت ؟ فقال : « نعم كنت أرها على قراريط لأهل مكة » رواه البخاري في صحيحه عن أبي هريرة ؓ كتاب الإجارة باب رعي الغنم على قراريط حديث 2262 فتح الباري 4/516 وفي رعي الغنم دروس عظيمة في فن القيادة والتربية فُرغِي الغنم يحتاج إلى الصبر والقوة والشجاعة والشفقة والرحمة والأمانة ، ورعي الغنم فرصة للتفكير والتأمل في الكون ، والفكرة تدعو إلى العبرة والعبرة تدعو إلى الحكمة والمعرفة وصدق الشاعر حين يقول :

لست أدخلو لغفلة وسكون
وفرار من السورى وارتياح

وهي أيضًا مرحلة جديدة في حياة زوجته التي اختارها من بيت صالح ؛ على أساس الدين . فَأَنْعِمَ بِهَا مِنْ زَوْجَةٍ ... ، إنها تُدَكِّرُنَا بِأَمْهَاتِ الْمُؤْمِنِينَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُنَّ أَجْمَعِينَ ، كان لهن مواقف رائعة وإسهامات فعالة في الدعوة إلى الله ﷻ .

إِنَّمَا خَلَوْتِي لِفِكْرِي وَذِكْرِي هي زَادِي وَعِدْتِي لِكِفَاحِ وَصَدَقَ الْمَوْلَى ﷺ إِذْ يَقُولُ مُخَاطِبًا مُوسَى ﷺ : ﴿ ثُمَّ جِئْتَ عَلَيَّ قَدَرٍ يَمُوسَى ﴿١٦٦﴾ وَأَصْطَفَعْتُكَ لِنَفْسِي ﴾ سورة طه : 40 - 41 أي جئت من مدين إلى مصر على معاد مقدر وميقات معلوم .

وكل المراحل التي مرت بموسى ﷺ والظروف التي واجهها قد ساعدت في مجموعها على إعدادته وتهيئته لحمل الرسالة ، وقد كشفت لنا عن عظيم قدرة الله ﷻ وتقديره .

يقول د . فائز قنطار أستاذ علم النفس بجامعة دمشق بسوريا وجامعة بيزانسون بفرنسا موضحًا أثر الظروف والعوامل المحيطة بالإنسان في تكوين شخصيته : [إن الهدف الأساسي لكل عملية تربوية هو تهيئة الظروف التي تُمكن الطاقات والقابليات الكامنة عند الفرد من التفتح والتفتح ، ويجمع علماء النفس على أهمية السنوات الأولى في تكوين الفرد ونموه ...] .

كتاب الأمومة ونمو العلاقة بين الطفل والأم ص 13 سلسلة عالم المعرفة عدد 166 إصدار المجلس الوطني للثقافة والفنون بالكويت .

المبحث الثالث

فوائد حول القصة

أولا : صورة المرأة في قصة موسى عليه السلام

- للمرأة في قصة موسى عليه السلام مواقف رائعة وأدوار طيبة .
- فهذه أم موسى عليها السلام تضرب مثلاً في الأمومة الحانية وفي العاطفة الجياشة الصادقة ، العاطفة المنضبطة والمحكومة بالإيمان واليقين والالتزام بأوامر الله تعالى .
- فهي مع حبها لموسى وخوفها عليه فقد ألتقت به في اليم امتثالاً لأمر الله تعالى وبقيناً بوعدة سبحانه .
- وهذه أخت موسى عليها السلام تضرب مثلاً طيباً للبنات المطيعة لأمها وللأخت الفاضلة الحبة لأخيها وللفتاة الذكية الحكيمة ، القادرة على مواجهة المواقف بإيمان وثبات وبحكمة وسرعة بديهة ، تجلى ذلك واضحاً وهي تقص أثر أخيها في حيطة وحذر ، وتتحدث مع آل فرعون في ثبات وحكمة وبلاغة وفطنة .
- وهذه آسية بنت مزاحم امرأة فرعون وسيدة مصر الأولى تضرب مثلاً طيباً للمرأة المؤمنة الصالحة في البيئة الفاسدة ، المرأة التي واجهت الإغراءات والمساومات ، والترغيب والترهيب والتعذيب بصبر وثبات ، المرأة التي لم تغتر بجمالها ولم تغتر بسلطانها ، المرأة التي تتخلى عن المتع الفانية والأعراض الزائلة وتتطلع إلى ما عند الله تعالى .
- المرأة التي ترتقي إلى أعلى درجات الكمال في عالم المرأة ويقترن ذكرها بمريم بنت عمران وبخديجة بنت خويلد وبفاطمة بنت محمد عليها السلام ، لم تصل إلى هذه المكانة السامقة بجمالها ولا بدلالها ولا بسلطانها وإنما وصلت إليها بإيمانها وعملها الصالح وثباتها على الحق .
- ألا : ما أحوجنا في عصرنا هذا إلى مثل هذه الأمثلة الرائعة وهذه النماذج الطيبة !
- أما عن فتاتي مدين فلقد ضربتا مثلاً رائئاً في الخلق الحسن ولقد تجلى ذلك في حياتهما وحشمتهما وبلاغتهما ومروءتهما وتوقيرهما لأبيهما ، وإحسانهما إليه وغير ذلك من الأخلاق الفاضلة التي تدل على صفاء المنبع وحسن المنبت ، لذلك فإن نبي

الله موسى ﷺ يتزوج من إحداهما ، فتكون مثلاً طيباً للزوجة الصالحة ، المطيعة لزوجها ، الموافقة والمرافقة له في الحل والترحال .

ثانياً : دروس في العقيدة

● قدر الله ﷻ :

بمناسبة قوله تعالى : ﴿ فَالْقَطْعَةُ ءَأَلْ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَمَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ ﴾ (1) .

يقول ابن كثير في تفسيره : [روي عن أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز ؓ أنه كتب كتاباً إلى قوم من القدرية (2) في تكذيبهم بكتاب الله تعالى وبأقداره النافذة في علمه السابق : ... وموسى في علم الله السابق لفرعون عدو وحزن قال تعالى : ﴿ وَرُئِيَ فِرْعَوْنَ وَهَمَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴾ وقتلتم أنتم لو شاء فرعون أن يكون لموسى ولياً وناصرًا والله تعالى يقول : ﴿ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ﴾ [(3) .

اليقين بوعد الله ﷻ

وفي موقف أم موسى : درس هام في اليقين بوعد الله ﷻ ، والتوكل عليه والاستعانة به في كل حال ، والتسليم له في كل أمر ، واليقين ثمرة من ثمرات الإيمان ومنزل من منازل الإحسان ، واليقين لا يساكن قلباً فيه سكون لغير الله فإذا سكن القلب للرب ملأه الله باليقين .

وصدق القائل :

لما علمت بأن قلبي فارغ مما سواك ملأته بهداك
وملأت كُلي منكَ حتى لم أدع مني مكاناً خاليًا لسواك

لقد ألتقت أم موسى به في اليم امتثالاً لأمر الله و يقينًا بوعد الله ، سلمت وليدها للقدرة الإلهية والعناية الربانية .

(1) سورة القصص : 8 .

(2) هم الذين كذبوا بالقدر وزعموا أن الأمر أنف أي أن الله تعالى لا يعلم الأشياء إلا بعد حدوثها ووقوعها .

(3) تفسير القرآن العظيم لابن كثير 3/381 .

وإذا العناية لاحظتك عيونها نم فالخواف كلهن أمان

الرجوء إلى الله ﷻ :

في قوله تعالى : ﴿ فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ (١) وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿ (١) إشارة إلى وجوب التوجه إلى الله ﷻ والاستعانة به سبحانه وطلب الهداية منه سبحانه فهو الهادي إلى سواء السبيل وصدق المولى ﷻ إذ يقول : ﴿ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَلِغٌ أَمْرُهُ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴾ (٢) .

وقال تعالى : ﴿ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴾ (٣) فَأَنْقَلَبُوا بِنِعْمَةِ رَبِّهِمْ إِلَى مَدْيَنَ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿ (٤) إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا اللَّهَ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ (٥) .

ويحضرني في هذا المقام الحديث الذي رواه عبد الله بن عباس ؓ حين قال له رسول الله ﷺ : « يا غلام إني أعلمك كلمات : احفظ الله يحفظك . احفظ الله تجده تجاهك . إذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله ، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله تعالى لك ، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله تعالى عليك ، رُفِعَتِ الأَقْلَامُ وَجَفَّتِ الصُّحُفُ » (٦) .

(2) سورة الطلاق : 3 .

(1) سورة القصص : 21 ، 22 .

(3) سورة آل عمران : 173 - 175 .

(4) الحديث رواه الترمذي في السنن وقال حديث حسن صحيح سنن الترمذي ك صفة القيامة والورع والرقائق باب 59 حديث 2516 - 576/4 وأورده ابن رجب الحنبلي (زين الدين أبي الفرج عبد الرحمن بن شهاب الدين بن أحمد بن رجب الحنبلي البغدادي ت 795 هـ) في كتابه جامع العلوم والحكم - حديث 19 ص 223 - ط / مكتبة الدعوة الإسلامية 1400 هـ وقال رواه الترمذي من رواية حنش الصنعاني عن ابن عباس وسنده صحيح .

ثالثا : فوائد فقهية

- 1 - حق الطفل في الرضاعة الطبيعية .
- 2 - عمل المرأة .
- 3 - جواز عرض الولي ابنته على الرجل الصالح ليتزوج منها .
- 4 - الكفاءة في النكاح .
- 5 - الولاية على المرأة في النكاح .

- اللبن الطبيعي يقوي جهاز المناعة عند الطفل ، ويتميز بسهولة الهضم وسرعته ، كما أنه لبن معقم ، بينما يندر خلو اللبن الصناعي من التلوث الجرثومي .
- درجة حرارة لبن الأم ملائمة لحاجة الطفل .
- الإرضاع الطبيعي لا يكلف شيئاً من الناحية الاقتصادية أما الإرضاع الصناعي فإنه يكلف الأسرة نفقات كثيرة .
- ومن فوائد الرضاعة الطبيعية بالنسبة للأم : أنها تفيد في عملية انطمار الرحم بعد الولادة نتيجة مص الطفل للحلمة ، فيعود الرحم إلى حجمه الطبيعي بسرعة كبيرة ، وهذا يقلل من كمية الدم النازف بعد الولادة .
- والنساء المرضعات أقل عرضة للإصابة بسرطان الثدي من النساء غير المرضعات .
- والإرضاع يزيد الأم نضارة وبهجة وراحة نفسية ويشبع عاطفة الأمومة لديها حين تحتضن طفلها وتضمه إلى صدرها وتفيض عليه من نبع حنانها ودفء مشاعرها (1) .
- ولقد أثبتت الأبحاث العلمية الحديثة [أنه لا بد من وضع الوليد على تماسٍ حسي مع الأم بعد الولادة مباشرة ، وذلك لأهمية هذه اللحظات في العلاقات اللاحقة بين الطفل والأم فالتماس الجسدي بين الاثنين يمكن أن يؤثر في الاتصال المتبادل بين الطفل والأم] (2) .
- من هنا فلا بد من [توفير الفرصة للأم لرؤية الطفل وملامسته بعد الولادة مباشرة ؛ فهي في أشد الحاجة لتحسه وتلمسه وتشمه ؛ لذا يجب المزيد من الحذر قبل التفكير في فصل الطفل عن الأم بعد الولادة مباشرة] (3) .

(1) يراجع : مع الطب في القرآن الكريم للدكتور عبد الحميد دياب والدكتور أحمد قرقوز ص 99 وما بعدها ط مؤسسة علوم القرآن دمشق ط 7 سنة 1404 هـ .

ويراجع كتاب التوحيد للشيخ عبد المجيد الزنداني 35/2 ، 36 ص ط دار السلام - ويراجع الطفل المثالي في الإسلامي لعبد الغني الخطيب ص 112 : 115 ط المكتب الإسلامي سنة 1399 هـ .

(2) الأمومة : نمو العلاقة بين الطفل والأم تأليف د . فايز قنطار ص 72 ، 73 .

(3) المرجع السابق ص 72 ، 73 .

درس هام في التربية :

وفي عودة موسى إلى أحضان أمه درس هام في التربية فلقد أراد المولى ﷺ لموسى الكليم أن يتربى في حجر أمه ، وهي أم صالحة آمنة على ولدها ، عاد موسى إليها ليتربى في كنفها تربية إيمانية رشيدة .

ولولا تحريم المراضع على موسى لتولت أمره امرأة من نساء القصر أو من خارجه ، ولكن المولى ﷺ قدر لموسى أن يعود إلى أمه التي تعد نموذجا طيبا للأم الصالحة المؤمنة الموقنة المريية الفاضلة .

وإنني في هذا المقام : أحذر من خطر المريات غير المسلمات واللاتي يأتين من الشرق الأقصى ومن أوروبا وأمريكا ، يأتين من بلادهن ويتولين مسئولية عظيمة جسيمة مسئولية تربية أولاد المسلمين ؟ .

والعجب العجاب كيف نسلم قلوب أطفالنا وعقولهم لنساء كوافر ؟ .

على أي أساس وعلى أي منهج يتربى أطفالنا ؟ .

ماذا نتظر من هؤلاء الأطفال وهم أطفال اليوم شباب الغد ، ورجال المستقبل ؟ .

ماذا نتظر منهم وقد تربوا في أحضان أجنبية ؟ وعلى مناهج غير إسلامية ؟ .

وليس النبت ينبت في جنانٍ كمثل النبت ينبت في فلاة

وهل يرجى لأطفال كمالٍ إذا ارتضعوا ثديي الناقصات⁽¹⁾ ؟

(1) تقول صحيفة (المسلمون) في عددها الصادر يوم 1990/11/23 : « مليون ونصف مليون مربية أطفال في الخليج » ونسبة كبيرة منهن يعملن لدي أسر بها زوجات لا يعملن خارج البيت .

ونشرت الجريدة كذلك مقالة للدكتور عبد العليم مرسي - أستاذ التربية في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية يقول : دلت الدراسات الميدانية في أحد الأقطار الخليجية على أن (43 %) من هذه المريات هنديات و (34 %) سيرلانكيات و (9 %) فلبينيات و (8 %) عربيات و (3 %) كرديات و (1,5 %) إنجليزيات ، أما دين هؤلاء المريات فعلى النحو التالي :

(42 %) مسيحيات و (34 %) بوذيات و (19 %) وثنيات و (5 %) مسلمات) وفي دراسة أجريت على المريات في الكويت تبين أن (36,2 %) جئن من مجتمعات تتناول أطعمة محرمة ، و (43 %) جئن من مجتمعات تتناول الخمور بشكل عادي .

وتشير دراسة أعدها مركز الوثائق والدراسات الإنسانية في جامعة قطر إلى أن (60,5 %) من الخادmates =

● من حقوق المرضعة :

كما أوجب الشرع نفقة المرأة على زوجها سواء كانت حاملاً أو مرضعاً ، أو لم تكن حاملاً ولا مرضعاً ، فالنفقة حق شرعي لها على زوجها ، وللمطلقة المعتدة الحامل سواء كانت في عدة الطلاق الرجعي أو الطلاق البائن لها حقها في النفقة قال تعالى :

﴿ أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وَجْدِكُمْ وَلَا تُضَارُوهُنَّ لِضَعْفِ قُوَّاتِهِنَّ وَإِنْ كُنَّ أَوْلَاتٍ حَمَلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمَلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأَتَمُّوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ وَإِنْ تَعَاَسَرْتُمَّ فَسَازِغُوا لَهُنَّ أُخْرَىٰ ۗ ﴾ (1) .

● بينت هذه الآية الكريمة أن للمطلقة الحامل الحق في النفقة حتى تضع حملها فإذا وضعت حملها فلها الأجرة على إرضاعها مدة الرضاعة وهي عامان كاملان ، وفي سورة البقرة : ﴿ وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بَوْلِدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْرِعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا ءَاتَيْتُم بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّفَقَا اللَّهُ وَأَعْمَلُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۗ ﴾ (2) .

إرضاع الطفل ليس بواجب على أمه إلا في أحوال معينة

وجمهور الفقهاء على أن إرضاع الطفل ليس بواجب على أمه بل هو مندوب ، ولا يجب على الأم إلا إذا عجز الأب عن استئجار ظئر - أي : مرضعة لولده (3) - أو كان

= مسيحيات و (31,5 %) مسلمات و (4 %) وثنيات و (2 %) هندوسيات و (2 %) بوذيات .

وعندما سئلت الخادما عن مدى تقليد الأطفال لهن قلن في الدراسة :

إن (57,1 %) يقلدونها في الكلام و (16,2 %) في متابعة أفلام وطنها و (14,3 %) في طقوسها الدينية و (7 %) في الرقص و (2 %) في تناول الطعام ، و (2 %) في طريقة اللبس .

- يراجع كتاب خطر المريات الأجنبية على الطفل المسلم للأستاذ خالد أحمد الشنتوت ص 16 ، 17 .

ويراجع كتاب أمه عودي إلينا تأليف زينب عبد السلام أبو الفضل ص 102 : 113 ط / دار الشير .

ويراجع مجلة منار الإسلام - الإماراتية عدد شعبان سنة 1417 هـ مقال الطفل بين الأم والخادمة للأستاذ جبر

عبد المعطي جبر ص 99 - وعدد ربيع الآخر سنة 1409 هـ مقال بعنوان حرمة وجود خدم البيوت للشيخ عبد

الوهاب المشهداني ص 108 . وصحيفة المسلمون عدد 1991/1/25 م والمجتمع الكويتية عدد 923 .

(1) سورة الطلاق : 6 . (2) سورة البقرة : 233 .

(3) في حالة اللجوء إلى استئجار ظئر لا بد من حسن اختيارها بحيث تكون في حالة صحية جيدة وأن تكون =

الطفل لا يقبل غير ثدي أمه ، أو عُدم الأب ولم يترك مالا لاستئجار ظئر فيجب على الأم إرضاع ولدها ثلثا يموت (1) .

2 - عمل المرأة

قال تعالى : ﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّكَاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمْ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا سَقَىٰ لَنَا لَا سَقَىٰ حَتَّىٰ يُصَدِرَ الرِّعَاءُ وَأُبُونَا سَيْحٌ كَبِيرٌ ﴿١٦﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿١٧﴾ فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّكِ ابْنُ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَفَضَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١٨﴾ قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَأْبَىٰ اسْتَعْجِرُهُ إِنَّكِ خَيْرٌ مِنَ ابْنِ اسْتَعْجَرَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ ﴿١٩﴾ (2) .

تلقي هذه الآيات الكريمة بظلالها على قضية هامة من القضايا التي شغلت كثيرا من المفكرين والباحثين في شئون المرأة هذه القضية هي : عمل المرأة .

● وللإسلام في موضوع عمل المرأة سياسة رشيدة ونظام حكيم ، ومنهج عادل قويم ؛ والأصل في ميزان الشرع أن الرجل هو الذي يخرج للعمل ، ويتحمل مسؤولية الإنفاق على بيته ، ومن ثم فالعمل واجب عليه حتى يتمكن من الإنفاق على نفسه وعلى من تجب عليه نفقته .

وفي الحديث الصحيح عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته ، الإمام راع ومسئول عن رعيته ، والرجل راع

= عاقلة حكيمة راشدة .

وفي الحديث الذي رواه الإمام البخاري عن عائشة رضي الله عنها قالت : قال صلى الله عليه وسلم : « ... الرضاة تحرم ما تحرم الولادة » رواه البخاري في صحيحه كتاب النكاح باب ﴿ وَأُمَّهُنَّ لَكُمْ أَلْفٌ أَرْضَعْتَكُمْ ﴾ حديث 5099 . الفتح 43/9 ، وقال ابن حجر في شرحه : [... والحكمة في ذلك أن سبب التحريم ما ينفصل من أجزاء المرأة وهو اللبن فإذا اغتذى به الرضيع صار جزءًا من أجزائها فانتشر التحريم بينهما ، بخلاف قرابات الرضيع ؛ لأنه ليس بينه وبين المرضعة ولا زوجها نسب ولا سبب والله أعلم] الفتح 45/9 بتصرف .

(1) الفقه الإسلامي وأدلته 699/7 ، وآيات الأحكام للصابوني 353/1 - ويراجع آيات الأحكام لابن العربي 204/1 والجامع لأحكام القرآن للقرطبي 160/3 ، 168/18 .

والأحوال الشخصية لأبي زهرة ص 403 ط دار الفكر العربي .

(2) سورة القصص : 23 - 26 .

في أهله وهو مسئول عن رعيته ، والمرأة راعية في بيت زوجها ومسئولة عن رعيتها ، والخدام راع في مال سيده ومسئول عن رعيته - قال : وحسبت أن قد قال : والرجل راع في مال أبيه ومسئول عن رعيته وكلكم راع ومسئول عن رعيته « (1) .

وعمل المرأة الحقيقي ورسالتها المكلفة بها هي بيتها ، فهي مسئولة عنه ، وهذا المنهج الإسلامي هو الذي يتناسب مع الفطرة الإنسانية ؛ حيث يتوافق مع طبيعة الرجل وطبيعة المرأة ، قال تعالى في سورة طه : ﴿ ... فَقُلْنَا يَنبَغُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكَ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى ﴿١٧١﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى ﴿١٧٢﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَى ﴿١٧٣﴾ (2) .

بين المولى ﷺ أن عداوة إبليس ليست قاصرة على آدم وحده ، بل إنها تشمل حواء فهي عداوة لهما ولذريتهما ، ووجه الخطاب لآدم وحواء في : ﴿ فَلَا يُخْرِجَنَّكَ مِنَ الْجَنَّةِ ﴾ لأن المسئولية مشتركة بين آدم وحواء ، وقول المولى ﷺ : ﴿ فَتَشْقَى ﴾ خطاب لآدم وحده ؛ لأن السعي في طلب العيش ، لتلبية مطالب الحياة من كسوة ومسكن ومأكل ومشرب واجب على الرجل ، ولا يجب على المرأة إلا عند الضرورة .

شروط وضوابط عمل المرأة

والإسلام لا يمنع المرأة من العمل خارج بيتها ، ولكنه يضع من الشروط والضوابط ما يتناسب مع طبيعة المرأة وما يتواءم مع مصالح المجتمع وهذه الشروط والضوابط هي :

1 - موافقة الولي : فلا تخرج المرأة من بيتها إلا بإذن وليها المسئول عنها ، والأصل هو بقاء المرأة في بيتها لا تخرج إلا للحاجة قال تعالى : ﴿ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى ﴾ (3) .

2 - أمن الفتنة : ومن أسباب الفتنة الاختلاط والتبرج والخلوة بالرجال الأجانب وكل هذه الأسباب التي تؤدي إلى إشعال نار الفتنة حرّمها الإسلام .

3 - أن لا يتنافى عمل المرأة مع مهمتها الأساسية كزوجة وأم .

(1) رواه البخاري في صحيحه عن ابن عمر واللفظ له - كتاب الجمعة - باب الجمعة في القرى والمدن حديث 893 فتح الباري 2/441 .

ورواه مسلم في صحيحه كتاب الإمارة باب فضيلة الإمام العادل صحيح مسلم بشرح النووي 12/213 .

(2) سورة طه : 117 - 119 .

(3) سورة الأحزاب : 33 .

4 - أن لا يتناقض العمل مع طبيعتها كأنثى ، فلا تعمل بالأعمال الشاقة التي تحتاج إلى قوة وخشونة وصلابة ، ولا تعمل بالأعمال التي لا يجوز لها أن تتولاها كالقضاء والولاية العامة وغير ذلك من الأعمال التي لا تتناسب مع طبيعة المرأة ولا تتوافق مع قدراتها وإمكاناتها .

5 - أن يكون عمل المرأة عملاً صالحاً مثمراً مفيداً للمجتمع ، فلا تعمل المرأة بالأعمال المفسدة المضللة كالرقص والغناء والتمثيل وعرض الأزياء وغير ذلك من الأعمال التي تؤدي إلى الفساد والانحلال .

● نموذج طيب رائع للمرأة العاملة

* وحين نتأمل في قصة موسى عليه السلام مع فتاتي مدين ، نجد أنهما قد اضطرتا للخروج إلى العمل لعدم وجود من يقوم مقامهما ، ﴿ قَالَتَا لَا سَقِيَّ حَتَّىٰ يُصَدِّرَ الرَّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴾ .

● كما نجد حرص الفتاتين على الالتزام بمكارم الأخلاق إلى جانب البعد عن كل ما يؤدي إلى الفتنة ، ويبدو هذا بوضوح في عدم اختلاطهما ومزاحمتهما للرجال ، وفي الحوار الذي دار بينهما وبين موسى عليه السلام والذي يدل على خلقهما الكريم وأدبهما الرفيع وأصلهما الطيب الطاهر .

قال تعالى : ﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةٌ مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ ﴾ أي : تدفعا أغنامهما وتمنعانهما من الاختلاط بغنم القوم ، ﴿ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا ﴾ تعجب موسى عليه السلام من قيامهما بهذا العمل الشاق وهما امرأتان ضعيفتان . وأعجب عليه السلام بأدبهما وسمتهما الصالح الذي يدل على خروجهما من بيت صالح .

﴿ قَالَتَا لَا سَقِيَّ حَتَّىٰ يُصَدِّرَ الرَّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴾ فجاء الجواب بقدر السؤال ، جاء الجواب شافياً وافياً ، مع وجازته ، يلاحظ أن موسى عليه السلام هو الذي بادر بسؤالهما عن حالهما ، كما يلاحظ أن الحوار الذي دار لم يستغرق سوى كلمات قلائل ، كلمات محسوبة ، على قدر المطلوب .

كلمات بسيطة لا تكلف فيها ولا تدويق ولا تنميق ، لم يستغرق الحوار ساعات وساعات لكنه استغرق أقل من دقيقة واحدة ، انصرف موسى عليه السلام بعده إلى السقي ثم انصرف من السقي إلى ظل الشجرة دون أن يعود إليهما وينتظر منهما ثناء أو شكراً

﴿ فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾⁽¹⁾ ودلت الفاء على التعقيب والسرعة ، ودلت ثم على الترتيب والترخي ، وفي هذا إشارة إلى أن السقي استغرق وقتًا ليس بالقليل ، وفي ذهابه إلى الشجرة ليستظل بها ما يدل على مشقة العمل الذي قام به ، ويدل على أنه لم ينتظر منهما أجرًا ولا ثناء ولا شكورًا وإنما انتظر الأجر والثواب من الله ، فالعمل خالص لوجه الله ﷻ ، وإذا كان العمل خالصًا لوجه الله ﷻ فلا بد أن يكون العامل مراقبًا لله ﷻ في عمله وإذا كان العمل كذلك كان صالحًا مقبولًا .

● إن واجب المجتمع أن يتعاون مع المرأة التي تضطر إلى الخروج للعمل ، فالمجتمع المسلم مجتمع المودة والرحمة ، والتعاطف والتألف ، والتكافل والتعاون والتضامن ، مجتمع المروءة والشهامة ، والعزة والكرامة .

يقول الدكتور عبد الرب نواب الدين في كتابه عمل المرأة وموقف الإسلام منه :
[... إن الرجل المسلم تأخذه الغيرة في الله فيتصدى لحماية حريمه وصيانتهم عما اضطرون إليه اضطرابًا ، ولهذا قالت الآية الكريمة : ﴿ فَسَقَى لَهُمَا ﴾ وعليه فيجب على كل مسلم أن يفتدي زوجته أو أخته أو بنته أو أمه أو قرييته بنفسه ، ويكفلها ويكفيها مؤونة الكد والكدح من أجل لقمة العيش احتسابًا وطلبًا لمرضاة ربه]⁽¹⁾ .

● ومن الظواهر السيئة في المجتمعات المعاصرة أنك ترى وتسمع عن رجال عدموا المروءة وافتقدوا الشهامة ، وأجبروا زوجاتهم أو بناتهم أو أخواتهم على الخروج إلى العمل مع رغبتهم في البقاء في بيوتهم ومع قدرة هؤلاء الرجال على الإنفاق ؟ وما ذلك إلا بسبب الطمع والجشع وانعدام المروءة وافتقاد الشهامة والكرامة ؟ .

مررتُ على المروءة وهي تبكي فقلت علامَ تنتحبُ الفتاة ؟

فقالَت كيف لا أبكي وأهلي جميعا دون خَلْقِ الله ماتوا

دعوات مشبوهة ودعاوى زائفة

وفي عصرنا هذا نرى من يدفع النساء دفعاً ويسوقهن سوقاً إلى ميادين العمل حيث الاختلاط ومزاحمة الرجال ، ومنافستهم في شتى الأعمال ، والتبرج والخلوة بالأجانب ،

(1) عمل المرأة وموقف الإسلام منه للأستاذ الدكتور عبد الرب نواب الدين ص 101 ط دار الوفاء بالمنصورة

مع ما يعقب ذلك من ضلال وانحلال ومصائب .

● نرى من يدعو إلى ذلك باسم الحرية المطلقة وباسم المساواة الزائفة المكلفة بين الرجل والمرأة ، ولقد نسي هؤلاء الدعاة أو تناسوا وتجاهلوا طبيعة المرأة وقدراتها وطاقاتها ومهمتها الأساسية في الحياة كزوجة وأم ؟ .

● ولقد امتلأت وسائل الإعلام المقروءة والمسموعة والمرئية بهذه الدعوات ، وعلت فيها تلك الأصوات المنكرة التي تنادي بإطلاق العنان للمرأة ومساواتها الكاملة بالرجل في كل شيء - رغم ما بينهما من فروق فطرية طبيعية .

نماذج لتلك الدعوات

ومن هذه الدعوات نذكر على سبيل المثال :

● ما ورد في جريدة أخبار اليوم وتحت عنوان (المناصب المحرمة على المرأة .. تتساقط) كتبت سعاد الديب : (سعدت بخير تولي امرأة منصب رئيس قرية ... في الغربية وأخرى في الشرقية ، وهذا بلا شك خطوة جريئة غير مسبقة تحدث لأول مرة في تاريخ الإدارة المحلية في مصر وتمثل انتصاراً لقضية المرأة وتأكيداً لأهمية دورها ... والمرأة المصرية مطالبة اليوم باقتحام مجالات جديدة غير تقليدية ... وسوف تتهاوى وتتساقط كل السدود والأسوار أمام إصرار المرأة وتمسكها ودفاعها)⁽¹⁾ .

وتقول د . نوال السعداوي : [إن اختيار المرأة للبيت وعدم دخولها في سوق العمل هو بطلالة أشد خطراً على شخصية المرأة ؛ لأنها بطلالة اختيارية ، وقد لا يفرض عليهن في بعض الأحيان - أي القعود في البيت - إلا روااسب القهر النفسي الداخلي]⁽²⁾ .

(1) أخبار اليوم - ص 5 بتاريخ 1993/2/8 وصاحبة هذه الكلمات ترى الحياة معركة بين الرجل والمرأة ، الرجل فيها ظالم معتد والمرأة مظلومة تكافح من أجل البقاء ومن أجل الحرية والمساواة !؟

(2) نوال السعداوي في بحثها : العقبات أمام المرأة العربية والتنمية من بحوث المؤتمر الإقليمي الثاني للمرأة في الخليج والجزيرة العربية 14/14 وفي جريدة الأهرام تقول نوال وهي تعني زميلتها سهير القلماوي وكناتهما من دعاة التغريب والحرية المزيفة ، والمساواة المكلفة ، والشعارات البراقة ، من دعاة التحرر من القيم والأخلاق السامية والتعلق بأهداب الغرب وحباله البالية والإيمان بمبادئه الخاوية .

تقول نوال : [.... لا بد أن يعرض كتاب (أحاديث جدتي وهو من تأليف سهير القلماوي) لا بد من أن يعرض ويقرر على التربية والتعليم ؛ ربما تشجع البنات المصريات على مقاومة الردة الثقافية التي تفرض عليهن الاختفاء وراء الحمار وجدران البيت والمطبخ] الأهرام 7 مايو سنة 1997 مقال بعنوان سهير القلماوي كما عرفتها . =

ويقول رفاعة الطهطاوي : [إن فراغ أيدي النساء عن العمل يشغل ألسنتهن بالأباطيل وقلوبهن بالأهواء والأقاويل ؛ فالعمل يصون المرأة عما لا يليق ويقربها من الفضيلة] (1) .

وتقول نبوية موسى بعد أن أكدت أن الإنسان كالحیوان لا فرق بين ذكر أي حیوان وأنثاه إلا في مسألة التناسل فالكلب الذكر كالكلبة الأنثى وكذلك القط كالثقطة والفأر كالفأرة لا اختلاف في أي شيء إلا في موضوع التناسل (2) .

تقول نبوية : [أريد أن أقول إن المرأة والرجل شيء واحد كالحیوانات التي اعترف بها علماء الطبيعة والتي يتساوى الذكر فيها بالأنثى ، فلم يجعلوا للفأر بابًا وللفأرة بابًا آخر ، ولم يقل أحد إن الفأر صاحب قوامة على الفأرة ، بل إنها تعيش مثله وهما متساويان كذلك الحال في الرجل والمرأة ، فالقول بأن الطبيعة أعدت المرأة للمنزل لضعفها عن الرجل قول لا صحة له وإلا فماذا نقول عن النعجة وهي مع ضعفها عن الخروف تعيش مثله ؟] (3) .

● أقول : تشبيه الإنسان بالحيوان مخالف للحقيقة والواقع ، فلإنسان طبيعته وله صفاته وأهدافه ، وللحيوان أيضًا طبيعة وصفات ومهمة في الحياة وإنكار الفروق والاختلافات بين طبيعة الرجل والمرأة وطاقت كل منهما ومهمته ، إنكار هذه الفروق والاختلافات : إنكار لحقائق ثابتة في الدين والعلم .

= أقول : ماذا تقصد نوال بالردة الثقافية؟ وما هو مفهوم الردة عندها؟ وماذا تعني الثقافة بالنسبة لها؟ هل تعني (الحواديت) القصص المسلية؟ هل تعني الفن والغناء والأفلام الهابطة والمجلات الخاوية العارية؟ نعم إن الثقافة عند نوال السعداوي وأمثالها هي هذا الخواء والهراء وتلك الحكايات والروايات .

(1) الإسلام والحضارة الغربية ص 37 تأليف د . محمد محمد حسين مؤسسة الرسالة بيروت ط 5 سنة 1402هـ ويراجع كتاب المرشد الأمين لرفاعة الطهطاوي ص 66 .

وأقول : لا ندري أي فضيلة يسعى إليها وينادي بها رفاعة ! ولا نعرف أي صيانة للمرأة في خروجها للعمل متبرجة سافرة متبذلة مزاحمة للرجال ومختلطة بهم أي صيانة في هذا ! وأي عمل يقصده الطهطاوي ؟ وهل المرأة في بيتها فارغة عن العمل ؟ وأين مسئوليتها عن بيتها ؟ ورعايتها لزوجها وأولادها ؟ وهل إخراج المرأة من بيتها لتعمل سوف يصلحها ويهذبها ؟

(2) هذا الكلام جهل بالحقيقة والواقع جهل بعالم الحيوان فضلًا عن عالم الإنسان فهناك فروق كثيرة في التكوين وفي السلوك وفي غير ذلك بين الذكر والأنثى في أي نوع .

(3) المرأة والعمل نبوية موسى ص 20 ط 2 سنة 1939 م نقلًا عن المرأة في الإسلام بين الماضي والحاضر د . عبد الله شحاته ص 197 ط الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة 1993 .

* قال البوصيري :

قد تُنكر العينُ ضوءَ الشمسِ من رمدٍ وينكر الفمُ طعمَ الماءِ من سقمٍ

* وقال آخر :

وليس يصحُ في الأذهانِ شيءٌ إذا احتاجَ النُّهاؤُ إلى دليلٍ

كلمات صادقة مضيئة حول عمل المرأة :

● يقول العقاد (1) : [.... بيد أننا نستطيع بغير تردد أن نفهم أن المجتمع الأمثل ليس هو المجتمع الذي تضطر فيه المرأة إلى الكدح لقوتها وقوت أطفالها . كما هو الحال في كثير من الدول الغربية حين يتخلى الرجل عن مسؤوليته نحو أسرته فتضطر المرأة إلى العمل في سبيل توفير المعيشة لأبنائها ...] .

● ويقول العقاد أيضا : [وقد تلجأ المرأة غداً كما تلجأ اليوم إلى كسب الرزق ودفع الحاجة والاعتصام بالعمل من الضنك والتبذل فإذا سيقت المرأة إلى هذه المآزق ، فليس في أحكام الإسلام حائل بينها وبين عمل شريف تزاوله المرأة] (2) .

● ويقول الأستاذ أبو الأعلى المودودي (3) : [والمرأة في المجتمع الإسلامي ربة البيت ،

(1) هو عباس محمود العقاد (1306 - 1383 هـ) مفكر أديب عمل بالتدريس ثم انقطع للكتابة في الصحف وله مؤلفات كثيرة ومقالات عديدة في المجلات الأدبية ومن أهم مؤلفاته المرأة في القرآن - الصديقة بنت الصديق والتفكير فريضة إسلامية - وسلسلة العبقريات وغير ذلك . يراجع الأعلام 266/3 .

(2) المرأة في القرآن للأستاذ عباس محمود العقاد ص 70 ويراجع ما ذكره الأستاذ محمد عزة دروزة في كتابه المرأة في القرآن والسنة ص 53 ، 54 .

(3) أبو الأعلى المودودي مفكر ، مصلح ولد في حيدر آباد 1903/9/25 في أسرة عرفت بالصلاح والعلم وجمع في دراسته بين العلوم الشرعية والعلوم الحديثة واشتغل بالصحافة وتصدى لمفتريات أعداء الإسلام وأسس الجماعة الإسلامية في لاهور 1941 م وأعلن أن رسالتها هي الإصلاح الشامل لحياة المسلمين على أساس العقيدة والشريعة والأخلاق وواجه المودودي كثيراً من المحن والابتلاءات ومنها سجنه من 1948 إلى 1950 والحكم عليه بالإعدام سنة 1953 لمحاربه لفكر القاديانية فتعاطفت الجماهير الإسلامية معه واعتضت على هذا الحكم الجائر الذي لم ينفذ ... هذا وللمودودي مؤلفات قيمة نذكر منها : الحضارة الإسلامية أصولها ومبادئها ، نحن والحضارة الغربية ، الإسلام في مواجهة التحديات المعاصرة ، مفاهيم إسلامية حول الدين والدولة ، حقوق الزوجين ، تحديد النسل ، أسس الاقتصاد بين الإسلام والنظم المعاصرة ، المصطلحات الأربعة في القرآن . تراجع ترجمته في الموسوعة الحركية فتحى يكن 248/1 : 257 ط مؤسسة الرسالة سنة 1400 ط 1 وعلماء ومفكرون عرفتهم محمد المجذوب 5/1 : 43 ط دار الاعتصام .

ذلك اختيار الشرع لها ، وإذا كان على زوجها كسب الأموال فعلها الإنفاق منها في تدبير شئون المنزل فهي « راعية في بيت زوجها وهي مسئولة عن رعيتهَا » (1) .. والإسلام يأذن للمرأة في الخروج إذا لم يكن لها قيم من الرجال ، أو كان معاش قيمها ضئيلا أو كان القيم مريضا أو عاجزا ففي هذه الأحوال يجوز لها أن تخرج للعمل وقد جاء في الحديث « قد أذن الله لَكُنَّ أَنْ تَخْرُجْنَ لِحَوَائِجِكُنَّ » (2) [(3) .

● ويقول الأستاذ البهي الخولي (4) في كتابه المرأة بين البيت والمجتمع : [إن الدين لا يحرم على المرأة أن تعمل ، ولكنه يحرم عليها أن تهجر ميدانها الطبيعي بدون عذر - وهو ميدان لا يجدي فيه سواها ، - إلى ميدان يعمره الرجل بكل كفاءة واقتدار ، حيث لا حاجة إليها ...] .

● ويتحدث البهي الخولي عن أضرار عمل المرأة (سكرتيرة) وبائعة وعارضة أزياء تعرض جمالها البار على ثيابها الرائع لتفيض من جمالها جمالا عليه وتتفنن في فتنة الناظرين وفي ذلك يقول [... ألهذا خلق الإنسان ؟ أو هذه هي قيمته في حضارة المادة ووثنية المال ؟ أو هذا هو ما يراد لنا أن نقلده ؟ إن المرأة في البيت هي المصدر الروحي لإشعاع الرحمة والمودة على زوجها ، وهي بهذه المثابة المهاد الذي يلقي فيه الحنان والعطف والسكينة ، فمن له إذا خرجت وعادت آخر النهار مهدودة القوى ، ضيقة النفس بما لقيت من عناء في يومها ؟] (5) .

ويقول برناردو شو Bernardo sho أحد الكتاب المبرزين في إنجلترا إن العمل الذي تنهض به النساء ... العمل الذي لا يمكن الاستغناء عنه هو حمل الأجنة وولادتها ... وتربيتها ... لكنهن لا يؤجرن على ذلك بأموال نقدية ، الأمر الذي جعل الكثير من

(1) جزء من حديث سبق تخريجه .

(2) رواه البخاري من حديث عائشة عن رسول الله ﷺ كتاب النكاح باب خروج النساء لحوائجهن حديث 5237 فتح الباري 249/9 .

(3) الحجاب لأبي الأعلى المودودي ص 315 بتصرف ط مؤسسة الرسالة بيروت .

(4) عالم ومفكر وداعية تخرج من كلية دار العلوم واشتغل بالدراسات الإسلامية وله دراسات قيمة منها تذكرة الدعاة ، والمرأة بين البيت والمجتمع - وآدم ﷺ - فلسفة تقويم الإنسان وخلافته ، والإسلام وقضايا المرأة المعاصرة .

(5) المرأة بين البيت والمجتمع للأستاذ البهي الخولي ص 127 .

الحمقى ينسون أنه عمل على الإطلاق (1) .

ويقول الفيلسوف الغربي أوغسط كوميث August comit (ينبغي أن تكون حياة المرأة في بيتها وأن لا تكلف بأعمال الرجال ؛ لأن ذلك يصرفها عن وظيفتها ويفسد مواهبها الفطرية وعلى الرجال أن ينفقوا على النساء) (2) .

وتقول الباحثة الأمريكية الشهيرة إيديالين Idealin : [إن تدهور الأخلاق في أمريكا راجع إلى ترك المرأة بيتها واشتغالها بالحياة العامة وإن عودة المرأة إلى بيتها هي الطريقة الوحيدة لإنقاذ الجيل الجديد من التدهور الخلقي] (3) .

ويقول الفيلسوف الاقتصادي جول سموكن Joal smoken : [إن النساء قد صرن الآن نساجات وطباعات إلخ إلخ وقد استخدمتهن الحكومة في معاملها وبهذا قد اكتسبن بضعة دريهمات ولكنهن في مقابل ذلك قد قوضن دعائم أسرهن تقويضا ؟ ! نعم إن الرجل صار يستفيد من كسب امرأته ، ولكن بإزاء ذلك قل كسبه لمزاحمة المرأة له في العمل ... بالإضافة إلى أن هذه الوظائف قد سلخت المرأة عن أسرتها ...

● ويقول : يجب أن تبقى المرأة امرأة ، فإنها بهذه الصفة تستطيع أن تجد سعادتها وأن تهبها لسواها ، فلنصلح حال النساء ولكن لا نغيرهن ولنحذر من قلبهن رجالا] (4) .

● وتقول قاضية سويدية بمناسبة استقبال المرأة السويدية لعام المرأة سنة 1975 م :
[.. تستقبل المرأة العام العالمي استقبالا مهذبا ، وتحنُّ إلى حياة الاستقرار العائلية المتوازنة

(1) الإسلام وقضايا المرأة المعاصرة للبهى الخولي ص 230 ط دار القلم بالكويت . وأقول : لقد أوجب الإسلام على الرجال أن ينفقوا على النساء قال تعالى : ﴿ الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ ﴾ النساء : 34 .

(2) نقلا عن مقال المرأة هل لها أن تتعلم العلوم الحديثة لمحمد فريد وجدي مجلة الأزهر سنة 1354 المجلد 6 ص 485 ويراجع عمل المرأة لعبد الرب نواب الدين ص 133 .

(3) نقلا عن الحركات النسائية في الشرق وصلتها بالاستعمار والصهيونية للأستاذ محمد فهمي ص 5 ط دار الاعتصام .

(4) نقلا عن كتاب المرأة بين الفقه والقانون للدكتور مصطفى السباعي ص 176 : 178 ط المكتب الإسلامي لمزيد بيان عن آثار عمل المرأة اقتصاديا يراجع اقتصاد البيت المسلم في ضوء الشريعة د . حسين شحاته أستاذ الاقتصاد والمحاسبة بجامعة الأزهر ص 89 : 138 - الفصل الرابع - اقتصاديات عمل المرأة في المنهج الإسلامي - ط دار الطباعة والنشر الإسلامية 1990 م .

جنسيا وعاطفيا ونفسيا فهي تريد أن تنازل عن معظم حريتها في سبيل سعادتها [(1)] .

● رسالة دكتورة تطالب بعودة المرأة إلى البيت :

وكتبت إحدى الصحفيات في جريدة أخبار اليوم تحت عنوان صوت نسائي يطالب بعودة المرأة إلى بيتها : قالت عندما ترتفع الأصوات مطالبة بعودة المرأة إلى المنزل تتهم على الفور بالرجعية والتخلف والتعصب والجمود وسائر الاتهامات المعروفة المألوفة ، ولكن المفاجأة أن ينادي بذلك صوت نسائي مثقف وفي رسالة -دكتوراه - بكلية الحقوق جامعة القاهرة ، وعنوان الرسالة (المرأة والوظيفة العامة) واقترحت فيها الباحثة أن تتفرغ المرأة إجباريا لرعاية أطفالها ، وذكرت في رسالتها أن إسهام المرأة في الوظائف العامة يؤدي إلى إغفال الوظيفة الأساسية للمرأة وهي رعاية البيت وتربية النشء [(2)] .

نصيحة من أشهر ممثلة إغراء في العالم

اكتشف المحقق الذي يبحث في قضية انتحار الممثلة العالمية (مارلين مونرو) Marlin Monro أشهر ممثلة في العالم ونجمة الإغراء في (هوليوود) Hollywood معقل - السينما الأمريكية - اكتشف المحقق رسالة محفوظة في صندوق الأمانات في (بنك مانهاتن بأمريكا) ألقت هذه الرسالة بعض الأضواء على انتحار هذه الممثلة العالمية التي كانوا يطلقون عليها ملكة الإغراء في (هوليوود) ولقد وجد على غلاف هذه الرسالة كلمة تطلب عدم فتح هذه الرسالة قبل وفاتها ، قام المحقق بفتح الرسالة فوجدها بخط الممثلة مارلين ، وهي موجهة إلى فتاة تطلب نصيحتها عن الطريق إلى التمثيل والأضواء .

قالت مارلين في رسالتها : احذري المجد !! احذري كل من يخدعك بالأضواء !! إني أتعس امرأة على ظهر الأرض ، لم أستطع أن أكون أما ، إن سعادة المرأة الحقيقية في البيت في الحياة العائلية الشريفة الطاهرة ، بل إن هذه الحياة هي رمز سعادة المرأة بل والمجتمع ، لقد ظلمني كل الناس .. إن العمل في السينما يجعل من المرأة سلعة رخيصة

(1) يراجع كتاب لا تظلموا المرأة للدكتور كامل الفقي ص 216 : 218 ط مكتبة وهبة .

(2) جريدة الأخبار الصادرة بتاريخ 17 / أبريل سنة 1984 م نقلا عن كتاب لا تظلموا المرأة د . كامل الفقي والرسالة للدكتورة أميمة فؤاد مهني .

تافهة مهما نالت من المجد والشهرة الزائفة (1) .

● وتقول الكاتبة الإنجليزية الشهيرة أنا ريوارد Anna reward - لأن تشتغل بناتنا في البيوت خادما ت خير وأخف بلاء من اشتغالهن في العمل حيث تصبح البنت ملوثة بأدران تذهب بروثق حياتها إلى الأبد ، ألا ليت بلادنا كبلاد المسلمين فيها الحشمة والعفاف إنه عار على بلاد الإنجليز أن نجعل بناتنا مثلا للردائل بكثرة مخالطتهن للرجال ، لماذا لا تترك أعمال الرجال للرجال ، وتعود البنت إلى طبيعتها ومهمتها تعود إلى شرفها وكرامتها ترجع إلى بيتها ؟ ! (2) .

● وفي استفتاء أجرته صحيفة واشنطن تايمز الأمريكية Washintgon Times سنة 1996م وجد أن 47% من النساء الأمريكيات يعتقدن أن عمل المرأة يساهم بدور كبير في فساد الأخلاق كما يعتقدن أن بقاء الأطفال مع أمهاتهم أفضل بكثير من دور الحضانة (3) .

● وفي بريطانيا : تقول أسكوت Ascot عضوة مجلس العموم البريطاني :
لقد دخلت المرأة البرلمان ونزلت الحياة العامة ولكن صدقوني إنها لم تنجح وإن مكانها الذي تصلح له هو بيتها .

● وفي ألمانيا قامت مظاهرة نسائية تدعو إلى عودة المرأة للبيت وتفرغها لشئونه ، لأن رسالتها هي : كزوجة وأم ، لا مزاحمة الرجال في المكاتب والمصانع والمرافق الحكومية والمواصلات العامة (4) .

● وفي فرنسا بلد التنوير والتحرير ؟ وفي استفتاء جرى في باريس عن المرأة قامت مجلة Mary باستفتاء للفتيات من جميع الأعمار والمستويات ، وقد شمل الاستفتاء

(1) وفي حديث لأحد أبطال أفلام رعاة البقر يقول في نهايته : إن فائتات هوليوود أكثر نساء العالم تعاسة ! إنهن دمي (لعب) في أيدي تجار هوليوود ، وما على الفنانة كي تصل إلى الشهرة إلا أن تباع نفسها وإرادتها وكرامتها ، ثم لا تلبث أن تأتيها الضربة القاصمة بعد أن ينتهي دورها وتستنفذ مواهبها .

يراجع كتاب المرأة بين الفقه والقانون د . مصطفى السباعي ص 315 ، 316 .

(2) نقلا عن المرأة بين البيت والعمل للدكتور سليمان بن حمد العودة ص 24 ط دار الخلفاء / المنصورة ط 1 سنة 1413 هـ .

(3) يراجع صحيفة المسلمون عدد الجمعة 17 محرم 1418 هـ 1997/5/23 م . أقول ومن أخطر آثار خروج المرأة إلى ميدان العمل وتركها لأولادها وغفلتها عنهم تلك الظاهرة المنتشرة حاليا في البلاد الغربية وغيرها من البلاد التي ينتشر فيها خروج المرأة للعمل : ظاهرة العنف عند الأطفال وهي ظاهرة تنذر بخطر عظيم قادم .

(4) المرجع السابق ص 25 .

حوالي مليون فتاة - وكان عن رأيهن في الزواج ولزوم البيت فأجاب 90 % منهن ب : نعم للبيت ، وكان عنوان الاستفتاء : وداعا يا عصر الحرية والمساواة وأهلا بعصر الحريم (1) .

● وفي أحدث التقارير الغربية عن عمل المرأة أكد المركز الفرنسي لدراسات وبحوث الكفاءات F.N أن ظروف عمل المرأة في فرنسا تنطوي على مفارقات كثيرة ، فهي لا تزال تعاني من انخفاض راتبها عن الرجال - في حالة أداء نفس العمل ، وأشار التقرير إلى أن نجاح أي مهنة يتناسب تناسباً عكسياً مع عدد النساء اللاتي يمارسن هذه المهنة ، وأفاد التقرير أن متوسط الاختلاف بين الرجل والمرأة عن نفس العمل يصل إلى 35 % (2) .

(1) نقلا عن أخبار اليوم 19/6/1977 م . (2) الأهرام المسائي 11 مارس سنة 1993 م .
ويجدر بنا أن نسجل في هذا المقام أن فرنسا بلد التنوير والحرية ! منعت دخول كتاب الحلال والحرام للدكتور يوسف القرضاوي ومنعت دخول الدعاة إليها في شهر رمضان منذ أعوام كما حاربت الحجاب في مدارسها . ومنعت دخول الفتيات المتحجبات ، وهذا كله يتنافى مع الحرية التي تزعمها فرنسا خاصة والغرب عامة ، كما أنها حاكمت المفكر المسلم روجيه جارودي ؛ لأنه ألف كتابا بعنوان الأساطير المؤسسة لدولة إسرائيل ، كشف فيه كثيرا من المزاعم والمفتريات اليهودية وحكمت المحكمة الفرنسية على الفيلسوف المسلم بفرامة قدرها 20 ألف دولار ؛ بسبب ما أورده في كتابه من حقائق تاريخية . فالعجيب أن فرنسا بلد الحرية توجد فيها وفي غيرها من البلدان الأوروبية قوانين تعاقب من يتعرض بالنقد لليهود ، ولا يوجد فيها قوانين تعاقب من يتجرأ على الذات الإلهية ؟ أو يقدح في عصمة الأنبياء ﷺ ؟ فهل هذا هو التحرر الذي يتغنى به أذعياء التغريب والتنوير في بلادنا والذين جعلوا من فرنسا وغيرها من دول الغرب قِيلة لهم يتجهون إليها بعقولهم الخربة وقلوبهم القاسية ، والذين يتجاهلون تعاليم الإسلام ومقاصده الكريمة الحكيمة ، ويتناسون طبيعة المرأة ومهمتها الأساسية في الوجود ، ويغضون الطرف عن الظلم الذي تتعرض له المرأة في الغرب ، ويتغافلون عن الحالة المخزية التي وصلت إليها المرأة في تلك البلاد الغربية ، التي ترفع شعارات الحرية والمساواة ، فقد أصبحت المرأة هناك سلعة تباع وتشترى وتعار ، أصبحت سلعة تعرض وتروج لسلعة ! وأدى خروجها من بيتها إلى كثير من الفتن والبلايا والحن والحطايا والحوادث والكوارث والخبائث .

ولقد أدرك بعض الغربيين خطورة الاختلاط بين الجنسين وعواقبه الوخيمة حتى إن بعض المدارس الغربية بدأت تتخلى عن فكرة الاختلاط التي ابتدعوها وروجوا لها في بلادهم وروجها أذناهم في بلاد المسلمين . وفي هذه الآونة الأخيرة : أقدمت خمس مدارس حكومية في كاليفورنيا وسان فرانسيسكو على تجربة الفصل بين الإناث والذكور أملاً في تحسين المستوى الدراسي وإعادة الانضباط والهدوء إلى المدارس . تقول مديرة مدرسة مارينا الأمريكية إن هذا النظام التعليمي الجديد يقدم بديلاً للأهل القلقين إزاء تدني مستوى التعليم في المدارس الحكومية الأمريكية . مركز الإعلام العربي بالقاهرة نقلًا عن المجتمع الكويتية ع 1337 ، 23 شوال سنة 1419 هـ 1999/2/9 م .
ويقول د / بدر الدين علي أستاذ علم الاجتماع بجامعة لوزيفيل بولاية كنتاكي الأمريكية : أسباب التجربة =

وصفوة القول في قضية عمل المرأة :

● أن الأصل بقاء المرأة في بيتها فلا تخرج إلا لحاجة وأن مهمة المرأة الأساسية هي رعاية بيتها .

● عمل المرأة خارج بيتها جائز بشرط موافقة الولي وأمن الفتنة وأن لا يخرج العمل عن طبيعة المرأة وفطرتها ، وأن لا يصرفها أو يعطلها عن مهمتها الأساسية وأن يكون العمل صالحاً مفيداً للمجتمع كالعامل مدرسة وطبيبة وممرضة للنساء ، وأن لا يكون هذا العمل مخالفاً للشرع كالعامل ممثلة ومغنية وراقصة وعارضة أزياء ، أو أن يستدعي العمل سفرها إلى بلد آخر بدون محرم أو يستدعي خلوتها أو اختلاطها بالرجال أو يتطلب تبرجها أو غير ذلك من الأمور المخالفة للشرع .

3 - جواز عرض الولي ابنته على الرجل الصالح

● عرض صالح مدين ابنته على موسى عليه السلام ليتزوج من إحداهما وهذا عمل طيب ومبادرة كريمة ، ولقد أقر الإسلام هذا الأمر .

وفيما يلي نذكر أمثلة لذلك :

● روى البخاري في صحيحه بسنده عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما « أن أباه عمر رضي الله عنه عرض حفصة ابنته - بعد أن مات عنها زوجها حُنَيْسِ بْنِ حُدَافَةَ السَّهْمِيِّ - عرضها على عثمان بن عفان رضي الله عنه فقال لعمر : سأنظر في أمري ، ثم لقي عمر بعدها

= الأمريكية الجديدة بمنع الاختلاط إلى أن المجتمع الأمريكي بدأ يعاني من المشكلات الاجتماعية التي بدأت تطفو على السطح من جراء ترك الحبل على الغارب ومنح الحرية الشخصية دون قيود ، وبصفة خاصة بالنسبة للطلبة والطالبات وبالرغم من أن الاتجاه السائد هناك هو التحرر إلا أنه من الملاحظ ظهور مجموعات في الآونة الأخيرة بدأت تنادي بالعودة إلى القيم الأصيلة وعدم السماح بوجود علاقة بين الولد والبنت قبل الزواج ، ويضيف إن اتجاه المجتمع الأمريكي لإنشاء مدارس مستقلة فيه دلالة واضحة على أن المجتمع يعاني من النتائج السلبية لهذه الموجة والتحررية ، لكن الذين ينادون بالعودة إلى القيم قلة لا يمكن أن تشكل ضعفاً كبيراً على الاتجاه السائد والتيار الحار ، والحكومة هناك كما يقول أستاذ علم الاجتماع بولاية كنتاكي : لا تتعامل مع مشاكل الحكومة بطريقة سليمة ولا يقدمون حلولاً جذرية وعلى سبيل المثال ظهور الحمل بين طالبات المدارس حولها من مشكلة أخلاقية إلى مشكلة صحية ثم بدأوا في توزيع وسائل منع الحمل وشرح كيفية استخدامها بدلاً من معالجة ظاهرة انتشار الحمل معالجة جوهرية . المرجع السابق .

وقال له : قد بدا لي أن لا أتزوج يومي هذا ، فعرضها عمر على أبي بكر الصديق رضي الله عنه ... يقول عمر رضي الله عنه : فعرضتها على أبي بكر فصممت ولم يزجج إلي شيئا - قال عمر رضي الله عنه : ثم خطبها رسول الله صلى الله عليه وسلم فأنكحتها إياه ، ثم لقيني أبو بكر الصديق رضي الله عنه بعد ذلك وقال لي إنه لم يمنعني أن أرجع إليك فيما عرضت علي إلا أنني كنت علمت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد ذكرها ، فلم أكن لأفشي سر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولو تركها رسول الله صلى الله عليه وسلم لقبثها » (1) .

وكما يجوز للولي أن يعرض ابنته أو أخته على الرجل الصالح ليتزوج منها ، فإنه يجوز للمرأة أن تعرض نفسها على الرجل الصالح ليتزوجها .

2 - روى البخاري في صحيحه بسنده عن سهل بن سعد رضي الله عنه أن امرأة عرضت نفسها على النبي صلى الله عليه وسلم فقال له رجل يا رسول الله زوجنيها ، فقال ما عندك ؟ فقال ما عندي شيء ، قال اذهب فالتمس ولو خاتما من حديد ، فذهب ثم رجع فقال لا والله ما وجدت شيئا ولا خاتما من حديد ، ولكن هذا إزار ي ولها نصفه قال سهل وما له رداء ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : وما تصنع بإزارك إن لبستته لم يكن عليها منه شيء ، وإن لبستته لم يكن عليك منه شيء ، فجلس الرجل حتى إذا طال مجلسه قام ، فرآه النبي صلى الله عليه وسلم فدعاه أو دعى له فسأله عما معه من القرآن فقال معي سورة كذا وسورة كذا فقال له صلى الله عليه وسلم : « أملكناكها بما معك من القرآن » (2) .

وفي هذا الحديث الشريف دليل على جواز عرض المرأة نفسها على الرجل الصالح ، وهذا لا ينقص من قدر المرأة بل إنه يرفع قدرها وشأنها .

4 - الكفاءة في النكاح

قال الإمام أبو بكر بن العربي : [الكفاءة في النكاح معتبرة ، واختلف العلماء: هل هي في الدين والمال والحسب أو في بعض ذلك ؟ والصحيح جواز نكاح الموالي للعرييات

(1) رواه البخاري في صحيحه عن ابن عمر كتاب النكاح باب عرض الإنسان ابنته أو أخته على أهل الخير حديث 5122 فتح الباري 81/9 .

(2) رواه البخاري في صحيحه كتاب النكاح باب / عرض المرأة نفسها على الرجل الصالح حديث 5121 - فتح الباري 80/9 وأخرجه مسلم في صحيحه عن عبد الله بن عمر كتاب النكاح باب / الصداق وجواز كونه تعليم القرآن وخاتم الحديد حديث 1041 صحيح مسلم بشرح النووي 211/9 .

والقرشيات لقوله تعالى : ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَى ﴾ (1) وقد جاء موسى إلى صالح مدين غريبا طريدا خائفا وحيدا ، لا مال معه ولا متاع ومع هذا فقد أنكحه صالح مدين من ابنته لما تحقق من دينه ورأى من حاله وأعرض عما سوى ذلك [(2)] .

حقًا : إن أساس التفاضل بين الناس هو تقوى الله ﷻ ، لأن التقوى هي جماع كل خير ، قال تعالى : ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ﴿١﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴿٢﴾ ﴾ (3) وقال سبحانه : ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا ﴿١﴾ ﴾ (4) ذلك أمر الله أنزلهُ إِلَيْكُمْ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَكْفِرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا ﴿٤﴾ (4) وقال جل وعلا : ﴿ وَتَكَزَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَآتَقُونَ يَتَأَوَّلِي الْأَلْبَابِ ﴿٥﴾ ﴾ (5) وقال ﷻ : ﴿ وَلِبَاسِ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ﴾ (6) .

وقال الشاعر الحكيم :

إذا المرء لم يلبس ثيابا من التقى
تقلب عريانا ولو كان كاسيا
وخير ثياب المرء طاعة ربه
ولا خير في من كان لله عاصيا

وقال آخر :

ولست أرى السعادة جمع مال
ولكن التقى هو السعيد
وتقوى الله خير الزاد زخرا
وعند الله للأتقى مزيد

وقال ثالث :

دَعَكَ مِنْ ذِكْرِ أَبِي وَجَدٌ
ونسب يعليك سور المجدي
ما الفخر إلا في التقى والزهد
وطاعة تُدْنِيكَ مِنْ جَنَّةِ الْخَلْدِ

فينبغي على كل مسلم أن يحسن الاختيار حتى يكون الزواج موقفا مباركا .

يقول المولى ﷻ في سورة النور : ﴿ وَأَنْكِحُوا الْأَيْمَى مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُعْهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَسِيعُ عَلِيمٌ ﴾ (7) .

(2) أحكام القرآن لابن العربي 1466/3 .

(4) سورة الطلاق : 4 ، 5 .

(7) سورة النور : 32 .

(1) سورة الحجرات : 13 .

(3) سورة الطلاق : 2 ، 3 .

(6) سورة الأعراف : 26 .

(5) سورة البقرة : 197 .

ويقول ﷺ : « إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه فأنكحوه إلا تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد عريض » (1) ويقول ﷺ : « تنكح المرأة لأربع لمالها ولحسبها ولجمالها ولدينها فاظفر بذات الدين تربت يداك » (2) .

وعن سهل بن سعد ؓ قال : مر رجل على رسول الله ﷺ فقال : « ما تقولون في هذا ؟ » : قالوا : حَرِيٌّ إِنْ خَطَبَ أَنْ يُنْكَحَ وَإِنْ شَفَعَ أَنْ يُشَفَّعَ وَإِنْ قَالَ أَنْ يُسْتَمَعَ قَالَ : ثم سكت ، فمر رجل من فقراء المسلمين فقال : « ما تقولون في هذا ؟ » قالوا : حَرِيٌّ إِنْ خَطَبَ أَنْ لَا يَنْكَحَ وَإِنْ شَفَعَ أَنْ لَا يَشْفَعَ وَإِنْ قَالَ أَنْ لَا يَسْتَمَعَ ، فقال رسول الله ﷺ : « هذا خير من مِلءِ الأرض مثل هذا » (3) .

وجاء رجل للإمام الحسن بن علي ؑ ، وقال له يا إمام إن لي بنتا قد كثر الخطاب عليها ، فلمن أزوجها ؟ قال له زوجها ممن يتقي الله ، فإنه إن أحبها أكرمها وإن أبغضها لم يظلمها (4) .

(1) الحديث رواه الإمام الترمذي في السنن عن أبي حاتم المزني - ك النكاح باب ما جاءه في « إذا جاءكم من ترضون دينه فزوجوه » حديث 1085 وقال حسن غريب وأبو حاتم المزني له صحة ولا تعرف له عن النبي ﷺ غير هذا الحديث - سنن الترمذي 395/3 ، ورواه الترمذي عن أبي هريرة بلفظ إذا خطب إليكم 395/3 حديث 1084 ورواه ابن ماجه في السنن عن أبي هريرة ك / النكاح باب / الأكفاء حديث 1967 - 632/1 ، 634 ، وأورده الألباني في صحيح سنن الترمذي برقم 865 ، 866 وقال حديث حسن لغيره 314/10 ، 315 وفي الصحيحة برقم 1022 - 20/3 .

(2) رواه البخاري في صحيحه عن أبي هريرة ؓ ك النكاح ب / الأكفاء في الدين حديث 5090 فتح الباري 35/9 ورواه مسلم عن أبي هريرة ك / الرضاع باب / ما يؤمر به من تزويج ذات الدين - صحيح مسلم بشرح النووي 51/10 وأبو داود في سننه ك / النكاح باب / ما يؤمر به من تزويج ذات الدين . حديث 2047 - 219/2 .

(3) رواه البخاري في صحيحه ك النكاح باب / الأكفاء في الدين حديث 5091 فتح الباري 35/9 .

(4) قام أحد الشعراء بصياغة هذا السؤال والجواب في قصيدة شعرية رائعة نذكرها فيما يلي إتماماً للفائدة :

عرض عليه	سؤالا	جاء رجل للحسن بن علي
تتدلى حسنا	وجمالا	إن لدي اليوم فتاة
يرمون علي	الأموال	قد كثر الخطاب عليها
وغدا أفواجا	تتوالى	حتى أصبح بيتي سوقا
ضقت وداعا	واستقبالا	كل يرغب فيها حتى
وأرى منهم	أحسن حالا	وأرى فيهم من هو حسن
قد لا يملك	معها مالا	من يملك منهم أخلاقا

وتاريخنا الإسلامي على امتداده مليء بالمواقف الرائعة والأمثلة العملية للمنهج الإسلامي الرشيد في الاختيار على أساس الدين وحسن الخلق لكننا وباللعجب العجاب نسمع عن كثير من الشباب يذهبون فيطرقون الأبواب للخطبة فيفاجئون بوابل من الأسئلة الغزيرة ؛ يسأل أهل الفتاة الخاطب عن القليل والكثير والتقىير والفتيل والقطمير ، يسألون عن الحسب والنسب ويغفلون السؤال عن الأخلاق والأدب ويسألون عن رصيده في البنوك ، وهل هو من الأرانب أم من الديوك ، ولا يبألون برصيده عند ملك الملوك ، يسألون عما في الجيب ويغفلون عما في القلب ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

5 - الولاية على المرأة في النكاح

● بمناسبة قوله تعالى في قصة موسى مع صالح مدين ﴿ قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَنْكَحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَيَّ أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَنِي حِجًّا ... ﴾ : يقول القرطبي : [في هذه الآية دليل على أن النكاح إلى الولي لا حظ للمرأة فيه ؛ لأن صالح مدين تولاه ، وبه قال الفقهاء وخالف في ذلك أبو حنيفة] (1) .

● وفيما يلي تفصل القول في هذه المسألة فنقول وبالله التوفيق :

ذهب جمهور الفقهاء المالكية والشافعية والحنابلة إلى أن المرأة لا تزوج نفسها ولا غيرها ، وإلى أن الزواج لا ينعقد بعبارتها إذ إن الولاية شرط في صحة العقد ، والعاقده هو الولي (2) .

بل أرجو ديننا وخصالا
لفتاتي ويكون حلالا
دينا وخصالا وخلالا
ممن يخشى الله تعالى
أكرمها حبا ودلالا
لم يظلمها أو يتعالى
فجنى الخير وصال وجال

وأنا لا أرجو أموالا
فترى من أتخيز منهم
وترى من أفضلهم زوجا
قال الحسن له زوجها
فإذا الحب سما بينهما
وإذا البغض نما بينهما
أخذ السائل بوصيته

(1) الجامع لأحكام القرآن 271/13 .

(2) يراجع أحكام القرآن لابن العربي 1476/3 وأحكام القرآن للجصاص ، والشرح الصغير 351/2 - ومغني المحتاج 147/3 والمهذب 35/2 والمغني 456/6 . ويراجع فقه السنة 197/2 . والأحوال الشخصية لأبي زهرة 117 : 129 ط دار الفكر العربي ، والأحوال الشخصية في الشريعة الإسلامية للأستاذ محمد محيي الدين عبد الحميد ص 75 ، 76 ط دار الكتاب العربي ويراجع الفقه الإسلامي وأدلته 186/7 .

ويرى أبو حنيفة وأبو يوسف أن المرأة العاقلة البالغة لها الحق في مباشرة العقد لنفسها بكرا كانت أو ثيبا ، فإذا زوجت نفسها بزواج كفاء لها وكان المهر المتفق عليه مهر مثل أو زيادة صح الزواج ونفذ ولزم .

1 - وإن زوجت نفسها من غير كفاء ، وبغير رضا وليها العاصب فالمروري عن أبي حنيفة وأبي يوسف والمفتي به في المذهب عدم صحة زواجها . وإن كان الزوج كفؤا لكن المهر أقل من مهر المثل وكان لها ولي عاصب فيما أن يرض بهذا المهر الناقص عن مهر مثلها قبل العقد أو بعده وإما أن لا يرض ، فإن كان قد رضي قبل العقد بهذا المهر أورضي به بعد العقد فالعقد نافذ ، ولكنه غير لازم ولهذا الولي العاصب أن يرفع الأمر إلى القاضي طالبا منه فسخ الزواج ، إذا لم يتمم الزوج مهر المثل ، وهذا قول أبي حنيفة وقال أبو يوسف ومحمد : ليس للولي العاصب الاعتراض ؛ لأن ما زاد عن عشرة دراهم - وهو أقل المهر المعتبر شرعا - خالص حق المرأة ، ومن أسقط حقه لم يكن لغيره أن يعترض عليه [(1)] .

● واستدل الجمهور على اشتراط الولي بأدلة كثيرة ، نذكر منها ما يلي :

1 - قوله تعالى : ﴿ وَلَا تُنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ حَرٌّ مِّنْ مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ﴾ (2) .

قال القرطبي : [في هذه الآية دليل بالنص على أن لانكاح إلا بولي] (3) حيث توجه الخطاب للأولياء .

2 - قوله تعالى : ﴿ وَأَنْكِحُوا الْأَيْمَىٰ مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ ﴾ (4) . والخطاب هنا موجه للأولياء فالآية دليل على اشتراط الولي .

3 - قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمَّا تَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَصَوْنَ بَيْنَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ (5) قال ابن عباس (رضي الله عنه) نزلت هذه الآية في الرجل يطلق امرأته طليقة أو طليقتين فتتقاضى عدتها ، ثم يبدو له أن يراجعها ويتزوجها

(1) يراجع بدائع الصنائع للكاساني 241/2 : 247 - والدر المختار 406/2 وما بعدها وفتح القدير 391/2 .

(2) الجامع لأحكام القرآن 72/3 .

(3) سورة البقرة : 221 .

(4) سورة البقرة : 232 .

(5) سورة النور : 32 .

فيمنعها أولياؤها من ذلك فنهى الله أن يمنعوها (1) ، روى الإمام البخاري في صحيحه بسنده عن معقل بن يسار رضي الله عنه قال : نزلت هذه الآية في ، زَوَّجْتُ أختا لي من رجل فطَلَّقَهَا ، حتى إذا انقضت عدتها جاء يَخْطِبُهَا فقلت له زوجتك وأكرمك فطلقتها ثم جئت تخطبها ، لا والله لا تعود إليك أبدا ، وكان رجلا لا بأس به وكانت المرأة تريد أن ترجع فأنزل الله هذه الآية ﴿ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ ﴾ فقلت الآن أفعل يا رسول الله قال فزوجها إياه (2) .

- 4 - قوله صلى الله عليه وسلم : « أيما امرأة أنكحت نفسها بغير إذن وليها فنكاحها باطل فإن دخل بها فلها المهر بما استحل من فرجها فإن اشتجروا فالسلطان ولي من لا ولي له » (3) .
- 5 - قوله صلى الله عليه وسلم : « لا نكاح إلا بولي » (4) أي لا نكاح صحيح .
- 6 - وقوله صلى الله عليه وسلم : « لا تزوج المرأة المرأة ولا تزوج المرأة نفسها » (5) .
- ويؤكد ما تقدم ما ثبت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من سنن فعلية و تقريرية في زواجه

(1) تفسير القرآن العظيم لابن كثير 415/1 .

(2) رواه البخاري في صحيحه كتاب النكاح باب / لا نكاح إلا بولي حديث 5130 فتح الباري 89/9 .
 (3) رواه أبو داود في السنن عن عائشة ك / النكاح باب / في الولي حديث 2083 - 299/2 - ورواه الترمذي ك / النكاح ب / ما جاء في لانكاح إلا بولي ح 1102 سنن الترمذي 407/3 ، 408 - ورواه ابن ماجة في السنن ك / النكاح ب / لا نكاح إلا بولي حديث 1879 - 605/1 ورواه أحمد في مسنده 166/6 وقال الترمذي هذا حديث حسن ورواه البيهقي في السنن 105/7 ، 107 .

وأورده الألباني في صحيح سنن الترمذي ح 880 - 1/318 وفي صحيح سنن ابن ماجة ح 1524 .

316/1 وفي إرواء الغليل برقم 1840 - 243/6 .

(4) رواه أبو داود في السنن عن أبي موسى الأشعري ، سنن أبي داود كتاب / النكاح باب / في الولي حديث 2085 - 299/2 ورواه الترمذي عن أبي موسى وقال حديث صحيح سنن الترمذي ك / النكاح باب / ما جاء في لا نكاح إلا بولي 407/3 - حديث 1102 ورواه ابن ماجة في السنن عن أبي موسى . سنن ابن ماجة ك / النكاح باب / ما جاء في لا نكاح إلا بولي حديث 1881 - 605/1 - 1881 - 1880 عن عائشة ومسنده الإمام أحمد 250/1 ، 394/4 ، 413 ، 418 .

وأورده الألباني في صحيح سنن الترمذي 318/1 حديث 879 وفي إرواء الغليل برقم 1839 - 235/6 وقال صحيح . وصحيح سنن ابن ماجة 317/1 - ح 1525 .

(5) رواه ابن ماجة في السنن عن أبي هريرة رضي الله عنه ك / النكاح باب / لا نكاح إلا بولي حديث 1882 - 605/1 ورواه الدارقطني في سننه 277/3 والبيهقي 110/7 وأورده الألباني في صحيح سنن ابن ماجة 1527 - 1882 - وإرواء الغليل 1841 .

بأمهات المؤمنين فلقد خطب عائشة من أبي بكر (1) وخطب حفصة من أبيها عمر (2) مع أنه أولى بالمؤمنين من أنفسهم ، ولما خطب أم سلمة (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا) لم تزوج نفسها مباشرة بل جعلت أمرها إلى ابنها حيث قالت له قم فزوّج رسول الله ﷺ فزوّجه (3) إلى غير ذلك من الأدلة التي تقرر أنه لا نكاح إلا بولي .

واستدل الأحناف على مذهبهم بما يلي :

1 - قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا مَحْلُ لَكُمْ مِنْ بَعْدِ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ ﴾ (4) .
حيث أسند النكاح إلى المرأة .

أقول : والتعبير بـ « تنكح » باعتبارها طرفا في العقد لا باعتبارها تزوج نفسها بدون ولي .

2 - واستدلوا بحديث عن رسول الله ﷺ ونصه « الثيب أحق بنفسها من وليها والبكر تستأمر وإذنها سكوتها » (5) .

● قال الإمام النووي في شرحه لهذا الحديث : [واعلم أن لفظة أحق هنا للمشاركة معناه أن لها في نفسها حقا في النكاح ، ولوليها حق ، وحقها أوكد من حقه فإنه لو أراد أن تتزوج كفؤا وامتنعت هي لم تجبر ولو أرادت أن تتزوج كفؤا فامتنع الولي أجبر فإن أصر زوّجها القاضي فدل على تأكيد حقها ورجحانه] (6) .

3 - كما استدل الأحناف أيضا بأن المرأة تستقل بعقد البيع وغيره من العقود فمن حقها أن تستقل بعقد الزواج .

● أقول وهذا القياس باطل ؛ لأنه لا قياس مع نص وقد وردت نصوص كثيرة تدل

(1) صحيح البخاري كتاب النكاح باب تزويج الصغار من الكبار حديث 5081 عن عروة بن الزبير وفيه أن النبي ﷺ خطب عائشة إلى أبي بكر فتح الباري 26/9 .

(2) صحيح البخاري كتاب النكاح باب عرض الإنسان ابنته أو أخته على أهل الخير حديث 5122 فتح الباري 81/9 .

(3) الإصابة لابن حجر العسقلاني 459/4 . (4) سورة البقرة : 230 .

(5) رواه الإمام مسلم في صحيحه عن ابن عباس ؓ كتاب / النكاح باب / استئذان الثيب بالنطق والبكر بالسكوت . صحيح مسلم بشرح النووي 204/9 ، 205 ورواه ابن ماجه في السنن عنه ك النكاح / ب /

استثمار البكر حديث 1870 - 601/1 ورواه أبو داود في السنن عنه ك النكاح / ب / في الاستثمار حديث 2092 - 231/2 ورواه النسائي في السنن عنه ك / النكاح باب / استثمار الأب البكر في نفسها 85/6 .

(6) المرجع السابق 204/9 .

على أنه لا نكاح إلا بولي ، كما أن عقد النكاح يختلف عن عقد البيع وغيره من العقود التي تستقل بها المرأة اختلافا كبيرا ، وسوف نبين إن شاء الله الحكمة من ولاية الرجل على المرأة في عقد الزواج .

والرأي الراجح في هذه المسألة هو رأي جمهور الفقهاء ، والأدلة التي استدلوها بها شاهدة على ذلك .

الحكمة من اشتراط الولي

وحق المرأة في اختيار شريك الحياة

اشتراط الولي هو الأصلح للمرأة والأنسب لطبيعتها وفطرتها والأوثق لعرى المودة والمحبة بين أفراد الأسرة .

يقول الشيخ محمد أبو زهرة رحمته الله : [وعقد النكاح لكمال خطره لا يتولاه النساء وعرف الناس قد جرى على ذلك والمصلحة في ذلك قائمة ، لأن عقد الزواج عظيم الخطر ، والرجال صناديق مغلقة لا تعرفهم النساء المعرفة الحقة ؛ لأنهن ملتزمات أخدارهن والبرزات منهن تؤثر العواطف والأحاسيس فيهن ، فتتحكم العواطف والأهواء فيهن ولا ينظرن إلى الأمور نظرة صادقة واعية ، ولذلك كان من المصلحة اشتراك الولي مع المرأة في اختيار زوجها ، فإنه يبحث ويفحص ولا يستهويه منظر أو مظهر وإن ذلك العقد الخطير يعود على الولي بالعار أو الفخار ؛ لأن الزواج ربط بين أسرتين ، والولي يؤديه زواجها من خسيس ويشرفه زواجها من شريف ، وليس عقد الزواج كالعقود المالية ؛ لأن خطرها ليس كخطره ؛ ولأن التخلص من آثارها سهل والغبن فيها لا يؤثر في سير الحياة واتجاهها وليس هناك ناحية استهواء يضل فيها الفكر كالشأن في العلاقة بين الرجل والمرأة] (1) .

● ويقول الأستاذ حسين محمد يوسف في كتابه آداب العقد والزفاف في الإسلام : [لم يرص الإسلام للمرأة أن تباشر عقد النكاح بنفسها ، ابتعادا بها عن مواطن الحرج ، وضنا بكرامتها أن تبذل وبحيائها أن يخدش لتظل - كما يريد الإسلام - درة مكنونة وجوهرة نفيسة مصونة ، لا يُؤصل إليها إلا بعقد شرعي له حرمة أمام الله

(1) الأحكام الشخصية لأبي زهرة ص 129 بتصرف .

والناس ؛ من أجل ذلك اشترط الإسلام الولي لينوب عن المرأة في مباشرة إجراءات الزواج ، واعتبره ركنا من أركان العقد ، أو شرطا من شروط صحته ، مستهدفا من ذلك أن يكون الناصح الأمين للمرأة ، والمعبر الصادق عن إرادتها التي قدرها الإسلام حق قدرها [(1)] .

ويقول المؤلف أيضا : [فموقف الولي من المرأة هو موقف الخبير الأمين الذي يوضح لها ما خفي من الأمور ، حتى لا تخدعها المظاهر الجوفاء ، أو تجرفها العواطف والأهواء ، وحتى يوفر عليها مشقة البحث والاستقصاء عن المتقدمين لخطبتها أو الراغبين في العقد عليها] (2) .

فاشترط الولي هو الأصلح للمرأة لما في ذلك من حمايتها وصونها وكرامتها وشرفها، قال أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن البخاري [اعلم أن أشرف العقود في شرع الله تعالى من المعاملات هو عقد النكاح الذي هو سبب الخير والصلاح ولهذا خص بالإشهاد من العدول ، وحضره الأولياء من الفروع والأصول] (3) .

حرية الاختيار

● ولقد ضمن الإسلام للمرأة حرية اختيار شريك الحياة ، فليس من حق الأب أن يزوج ابنته ممن لا ترغب فيه وإذا أكرهها على الزواج ممن لا ترغب : بطل الزواج ، إلا إذا أجازته ، ورضيت به .

- عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا تنكح الأيم حتى تستأمر ، ولا تنكح البكر حتى تستأذن ، قالوا يا رسول الله وكيف إذن ؟ قال أن تسكت » (4) .
وعن خنساء بنت خدام الأنصارية أن أباهما زوجها وهي ثيب ، فكرهت ذلك فأتت

(1) آداب العقد والزفاف في الإسلام حسين محمد يوسف ص 70 ، 71 بتصرف ط دار الاعتصام سنة 1392 هـ .

(2) المرجع السابق ص 71/70 .

(3) محاسن الإسلام لأبي عبد الله محمد بن عبد الرحمن البخاري ت (546 هـ) ص 42 ط مكتبة القدسي .

(4) رواه البخاري في صحيحه ك / النكاح باب لا ينكح الأب وغيره البكر والثيب إلا برضاها حديث 5136 فتح الباري 9/98 .

ورواه مسلم في صحيحه ك / النكاح باب استئذان الثيب في النكاح بالنطق والبكر بالسكوت 202/9 ورواه النسائي ك النكاح باب استثمار الثيب في نفسها 85/6 ورواه الترمذي ك النكاح باب ما جاء في استثمار البكر والثيب حديث 1107 - 415/3 .

رسول الله ﷺ فرد نكاحها (1) .

- وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن جارية أتت النبي ﷺ فذكرت أن أباهما زوجها وهي كارهة فخيرها رسول الله ﷺ (2) .

- وعن عبد الله بن بريدة عن أبيه قال جاءت فتاة إلى رسول الله ﷺ فقالت : « إن أبي زوجني ابن أخيه ليرفع بي خسيسته ؟ قال فجعل الأمر إليها ، فقالت : قد أجزت ما صنع أبي ، ولكن أردت أن أعلم النساء أن ليس إلى الآباء من الأمر شيء » (3) .

● وكما أنه ليس للأب أن يكره ابنته على الزواج ممن لا ترغب فيه ، كذلك ليس له الحق أن يحول بينها وبين رغبتها في الزواج ممن تحب إذا كان لها كفتا .

وفي الحديث « أيما امرأة نكحت نفسها بغير إذن وليها فنكاحها باطل ، فإن دخل بها فلها المهر بما استحلت من فرجها ، فإن اشتجروا فالسلطان ولي من لا ولي له » (4) .

يقول الإمام الصنعاني في سبل السلام وهو يشرح هذا الحديث [(فإن اشتجروا) عائد إلى الأولياء ، والمراد بالاشتجار : منع الولي من العقد عليها ، وهذا هو العضل ، وبه تنتقل الولاية إلى السلطان إن عضل الولي القريب ، وقيل بل تنتقل إلى الولي الأبعد ، وانتقالها إلى السلطان مبني على منع الأقرب والأبعد وهو المحتمل ، ودل على أن السلطان ولي من لا ولي له لعدمه أو لمنعه] (5) .

(1) رواه البخاري في صحيحه ك النكاح باب إذا زوج الرجل ابنته وهي كارهة فنكاحه مردود حديث 5138 - فتح الباري 101/9 .

(2) رواه أبو داود في السنن ك النكاح باب في البكر يزوجه أبوها ولا يستأمرها وإسناده صحيح - حديث 2096 - سنن أبي داود 232/2 وعون المعبود 123/6 .

ورواه ابن ماجه في السنن ك النكاح باب من زوج ابنته وهي كارهة ح 1875 - 603/1 وأورده الألباني في صحيح سنن أبي داود برقم / 1845 - وفي صحيح سنن ابن ماجه برقم 1520 - 315/1 .

(3) رواه الإمام أحمد في مسنده 136/6 - وفي الفتح الرباني 163/16 ورواه البيهقي في السنن 118/7 - والدارقطني في السنن ك النكاح باب الولي 232/3 ورواه النسائي في السنن ك / النكاح باب / البكر يزوجه أبوها وهي كارهة 87/6 ورواه ابن ماجه في السنن ك / النكاح باب / من زوج ابنته وهي كارهة حديث 1874 - 602/1 ، 603 وقال البوصيري في الزوائد إسناده صحيح .

(4) سبق تخريجه .

(5) سبل السلام شرح بلوغ المرام من جمع أدلة الأحكام للشيخ الإمام محمد بن إسماعيل الأمير اليميني الصنعاني ت 1182 هـ 352/3 ط دار الكتاب العربي .

ويقول الأستاذ محمد محيي الدين عبد الحميد⁽¹⁾ في كتابه الأحوال الشخصية في الشريعة الإسلامية : [والعصل ظلم من الولي وحرام عليه ، وإذا جاء للولي خاطب كفاء وأمهرها مهر المثل فامتنع الولي الأقرب من تزويجها فللعلماء في هذه الحالة رأيان إما أن تنتقل الولاية إلى الأبعد ، وإما أن تنتقل إلى القاضي]⁽²⁾ .

ونخلص مما سبق إلى : أن الإسلام أعطى للمرأة حق اختيار شريك الحياة ، وشرع الولاية عليها في الزواج حماية لها وحفاظا على مصلحتها وتكريما وتشريفا لها وتوثيقا للعقد ولعرى المودة في الأسرة .

جواز جعل منافع الحر صداقا شرعا

استدل بعض الفقهاء بقوله تعالى : ﴿ قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَيَّ أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَنِي حِجْرًا ... ﴾ على جواز جعل منافع الحر صداقا شرعا ، كالحياطة والبناء وتعليم القرآن .

ويدل على هذا من السنة النبوية ما ورد في حديث المرأة التي وهبت نفسها للنبي ﷺ ، ولم يكن له ﷺ رغبة في الزواج منها ، وزوجها من أحد الصحابة ﷺ على أن يعلمها شيئا من القرآن الكريم⁽³⁾ .

وفي رعي موسى ﷺ للغنم إعفاء للفتاتين من هذا العمل الشاق الذي اضطرتا إليه نظرا لعدم وجود من يقوم مقامهما⁽⁴⁾ .

(1) من أعلام الأزهر الشريف - عالم باللغة والفقه والأصول وهو من مواليد محافظة الشرقية سنة 1900 م .. درس في الأزهر الشريف حتى حصل على درجة التخصص في التدريس سنة 1925 م وعمل بالتدريس في كلية اللغة العربية .. وشغل منصب عميدا لها .. واختيرا رئيسا للجنة الفتوى بالأزهر .. له مؤلفات كثيرة وتحقيقات منها : أحكام الموارث في الشريعة الإسلامية ، الأحوال الشخصية في الشريعة الإسلامية ، تحقيق أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك ، شرح قطر الندى وبل الصدى ، تراجع ترجمته في مجلة الأزهر عدد المحرم 1404 هـ (مقال - من أعلام الأزهر الشريف للدكتور / محمد عبد المنعم خفاجة) والأزهر عدد رمضان 1416 (طبقات المصححين ، والمحققين د . سيد الجميلي) .

(2) الأحوال الشخصية لمحمد محيي الدين عبد الحميد ص 84 ويراجع الأحوال الشخصية لأبي زهرة ص 117 ، 118 .

(4) يراجع أحكام القرآن لابن العربي 1470/3 .

وأحكام القرآن للقرطبي 273/13 .

رابعاً

جملة من الأخلاق والآداب الفاضلة التي تستفاد من القصة

- النصح - إسداء المعروف - مقابلة المعروف بالشكر - خلق الحياء - القوة والأمانة -
- فضل تربية البنات والإحسان إليهن - الوفاء بالعهد .

جملة من الأخلاق والآداب الفاضلة التي تستفاد من القصة

في هذه القصة جملة من الأخلاق الكريمة والآداب الفاضلة وفيما يلي بيان لذلك :

● النصيحة :

في قوله تعالى : ﴿ وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنَّكَ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ ﴾ موقف عظيم وخلق كريم يدل على مروءة هذا الرجل ونصحه لموسى عليه السلام فلقد تجشم ⁽¹⁾ الرجل الصعاب وجاء ساعيا من أقصى المدينة تدفعه المروءة ويحدوه الإخلاص ⁽²⁾ والنصح لموسى عليه السلام وفي هذا الموقف العظيم درس لكل مسلم أن يكون ناصحا أميناً .

وفي الحديث الشريف يقول صلى الله عليه وسلم : « المؤمن مرآة أخيه والمؤمن أخو المؤمن يكف عليه ضيعته ويحوطه من ورائه » ⁽³⁾ .

ويقول صلى الله عليه وسلم : « الدين النصيحة قيل لمن قال : لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم » ⁽⁴⁾ وعن جرير بن عبد الله رضي الله عنه قال : « بايعت رسول الله صلى الله عليه وسلم على إقام الصلاة وإيتاء الزكاة والنصح لكل مسلم » ⁽⁵⁾ .

● إسداء المعروف :

وفي قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّكَاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمْ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصَدِرَ الرِّعَاءَ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٣٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٣٤﴾ فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَىٰ اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّكِ آئِي يَدْعُوكَ

(1) يتجشم الصعاب أي يواجهها ويتحملها .

(2) يحدوه الإخلاص - أي يعثه ويدفعه إلى ذلك الأمر ويقوده إليه .

(3) رواه الإمام أبو داود في السنن عن أبي هريرة كتاب الأدب باب في النصيحة حديث 4918 - 280/4 ، وأخرجه البخاري في الأدب المفرد ح 239 - ص 107 وأورده الألباني في صحيح الجامع حديث 6532 وفي سلسلة الصحيحة 923/6 وقال حديث حسن .

(4) رواه الإمام مسلم في صحيحه كتاب الإيمان باب الدين النصيحة صحيح مسلم بشرح النووي 37/2 .

(5) رواه البخاري في صحيحه كتاب الإيمان باب الدين النصيحة حديث 57 فتح الباري 166/1 ورواه الإمام

مسلم في صحيحه ك الإيمان باب الدين النصيحة صحيح مسلم بشرح النووي 39/2 .

لِيَجْزِيَنَّكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتُ مِنَ الْقَوْرِ الظَّالِمِينَ ﴿١٥﴾ قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنْ اسْتَجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ ﴿١٦﴾ (1)

إشارة إلى مروءة موسى عليه السلام وحرصه على إسداء المعروف .

وإسداء المعروف وإغاثة الملهوف ، والإحسان إلى الناس من الأخلاق الطيبة الكريمة التي يدعو إليها الإسلام .

قال تعالى : ﴿ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (2) وقال تعالى : ﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَأَفْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (3) .

وقال تعالى : ﴿ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ﴾ (4) .

وقال تعالى : ﴿ وَمَا تَفْعَلُوا لِأَنفُسِكُمْ مِن خَيْرٍ نَحْدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ وَأَعْظَمَ أَجْرًا ﴾ (5) .

وفي الصحيحين عن أبي ذر رضي الله عنه قال : سئل النبي صلى الله عليه وسلم عن : أي الأعمال خير؟ قال « إيمان بالله وجهاد في سبيله ، قيل فأى الرقاب أفضل؟ قال أغلاها ثمنا وأنفُسها عند أهلها ، قال أفرأيت إن لم أستطع بعض العمل؟ قال فتعيّن صناعا أو تصنع لأخرق (6) قال : أفرأيت إن ضعفت قال : تدع الناس من الشر فإنها صدقة منك على نفسك » (7) .

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كل معروف صدقة وإن من المعروف أن تلقى أخاك بوجه طلق وأن تفرغ من دلوك في إناء أخيك » (8) .

(1) سورة القصص : 23 - 26 .

(2) سورة البقرة : 195 .

(3) سورة الحج : 77 .

(4) سورة المائدة : 2 .

(5) سورة المزمل : 20 .

(6) الأخرق هو الرجل الذي لا صنعة له ولا يحسن العمل يقال رجل أخرق وامرأة خرقاء .

(7) رواه البخاري في صحيحه ك العتق باب أي الرقاب أفضل حديث 2518 فتح الباري 176/5 ومسلم ك الإيمان باب الإيمان بالله تعالى أفضل الأعمال صحيح مسلم بشرح النووي 73/2 .

(8) أخرجه الإمام أحمد في مسنده 344/3 ، 360 وأورده الألباني في صحيح الجامع الصغير برقم 4433 عن جابر وقال حديث حسن - ورواه الترمذي في السنن عن أبي ذر رضي الله عنه وقال حديث حسن غريب وفي الباب عن

جابر وابن مسعود وحذيفة وعائشة وأبي هريرة سنن الترمذي حديث 299/4 - 1956 .

وأورده الألباني في صحيح سنن الترمذي برقم 1594 - 185/2 ، 186 وفي سلسلة الصحيحة برقم 572 - 112/2 ، 113 .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كل سلامى من الناس عليه صدقة كل يوم تطلع فيه الشمس قال تعدل بين اثنين صدقة ، وتعين الرجل في دابته فتحمله عليها أو ترفع له عليها متاعه صدقة قال والكلمة الطيبة صدقة وكل خطوة تمشيها إلى الصلاة صدقة وتميط الأذى عن الطريق صدقة » (1) .

● ويحضرني في هذا المقام قول الشاعر :

ازرع جميلاً ولو في غير موضعه فلن يضيع جميلاً أينما زُرعا
إن الجميل وإن طال الزمان به فليس يحصده إلا الذي زرعا

● مقابلة المعروف بالشكر

وفي حرص صالح مدين على مكافأة موسى عليه السلام على صنيعه إشارة إلى خلق حسن وشيمة كريمة من شيم الكرام هي مقابلة الإحسان بالإحسان والمعروف بالشكران .

يقول صلى الله عليه وسلم : « من صنَعَ إليه معروف فليجزه ، فإن لم يجد ما يجزه فليشكر عليه ، فإنه إذا أثنى عليه فقد شكره وإن كتمه فقد كفره ومن تحلى بما لم يعط فكأما لبس ثوبي زور » (2) .

وعن ابن عمر رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من استعاذ بالله فأعيذوه ، ومن سأل بالله فأعطوه ومن أتى إليكم معروفا فكافئوه فإن لم تجدوا فادعوا له حتى يعلم أن قد كافأتموه » (3) .

(1) رواه البخاري في صحيحه ك الجهاد والسير حديث 2767 ورواه مسلم في صحيحه كتاب الزكاة حديث 1677 والإمام أحمد في مسنده حديث 1677 .

(2) أخرجه الترمذي في السنن عن جابر بن عبد الله الأنصاري كتاب / البر والصلة باب / ما جاء في التشيع بما لم يعطه حديث 2034 - 332/4 وقال حديث حسن غريب ورواه أبو داود في الأدب باب شكر المعروف عن جابر 256/4 حديث 4813 والبخاري في الأدب المفرد عنه حديث 215 - ص 96 باب من صنع إليه معروف فليكافئه واللفظ له . وأورده الألباني في الصحيحة برقم 617 - 181/2 - وأورده في صحيح سنن الترمذي برقم 1656 - 200/2 وقال حديث حسن .

(3) رواه أبو داود في السنن ك / الزكاة باب / عطية من سأل بالله حديث 1672 - 128/2 والنسائي في الزكاة باب / من سأل بالله 5 صلى الله عليه وسلم 82/ - والبخاري في الأدب المفرد باب من صنع إليه معروف فليكافئه حديث 216 وأورده الألباني في صحيح سنن النسائي برقم 2407 - 542/2 وفي الصحيحة برقم 254 - 454/1 . وأخرجه الحاكم في المستدرک وقال صحيح على شرط الشيخين ووافقه الذهبي - 412/1 .

وعن أنس رضي الله عنه أن المهاجرين قالوا : يا رسول الله ذهب الأنصار بالأجر كله ، قال : « لا ما دعوتم الله لهم وأنتيتم عليهم به » (1) .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « لا يشكر الله من لا يشكر الناس » (2) .

● خلق الحياء

الحياء هو انقباض النفس عن القبائح وعن التفریط في حق صاحب الحق (3) .

وفي قوله تعالى : ﴿ فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَىٰ أَسْتَحْيَاءٍ ﴾ تعبير رقيق وتصوير دقيق ووصف بارع لما كانت عليه الفتاة من الحياء وفي هذا التعبير القرآني إشارة إلى ما ينبغي أن تكون عليه الفتاة المسلمة من الحياء ، والحياء شعبة من الإيمان وزينة لمن تحلى به . يقول صلى الله عليه وسلم : « الإيمان بضع وستون أو بضع وسبعون شعبة أفضلها لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق ، والحياء شعبة من الإيمان » (4) .

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : « كان النبي صلى الله عليه وسلم أشدَّ حياءً من العذراء في خدرها ، وكان إذا كره شيئاً عرفناه في وجهه » (5) .

وروي الإمام البخاري ومسلم في صحيحيهما عن عمران بن حصين رضي الله عنه أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول : « الحياء لا يأتي إلا بخير » (6)

- (1) رواه أبو داود في السنن كتاب / الأدب باب / في شكر المعروف ح 4812 - 255/4 والترمذي كتاب القيامة باب / 44 - ثناء المهاجرين على الأنصار حديث 2487 - 563/4 وقال الترمذي حديث صحيح حسن غريب من هذا الوجه والبخاري في الأدب المفرد باب من صنع إليه معروف فليكافئه حديث 217 .
- (2) رواه أبو داود في السنن ك الأدب باب في شكر العروف ح 4811 - 255/4 والترمذي ك / البر والصلة باب / ما جاء في الشكر لمن أحسن إليك وقال حديث حسن صحيح حديث 1954 - 298/4 .
- (3) بصائر ذوي التمييز 515/2 والذريعة في مكارم الشريعة ص 288 : 290 والمفردات مادة ح ي ي . ص 140 .
- (4) رواه الإمام البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه ك الإيمان باب أمور الإيمان حديث 9 فتح الباري 67/1 ورواه الإمام مسلم عنه في صحيحه ك الإيمان باب بيان عدد شعب الإيمان صحيح مسلم بشرح النووي 3/2 .
- (5) رواه البخاري في صحيحه ك / المناقب باب / صفة النبي حديث 3562 فتح الباري 655/6 ورواه في كتاب / الأدب باب / الحياء حديث 6119 فتح الباري 538/10 .
- (6) ورواه مسلم في صحيحه ك / الفضائل باب / كثرة حياته صلى الله عليه وسلم صحيح مسلم بشرح النووي 77/15 ، 78 .
- (6) رواه البخاري في صحيحه ك / الأدب باب / الحياء حديث 6117 فتح الباري 537/10 ورواه الإمام مسلم في صحيحه كتاب / الإيمان باب / الحياء شعبة من الإيمان صحيح مسلم بشرح النووي 6/2 ، 7 .

وروى الترمذي وابن ماجه عن أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « ما كان الحياء في شيء إلا زانه ولا كان الفحش في شيء إلا شانه » (1) .

وروي البخاري في صحيحه عن أبي مسعود عقبة رضي الله عنه قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم : « إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى إذا لم تستح فاصنع ما شئت » (2) فالحياء خير كله ، وهو زينة لصاحبه وشعبة من شعب الإيمان (3) .

ولنا أن نتوقف هنا وقفة ، ونحن نتحدث عن خلق الحياء الذي تجلّى لنا في أروع صوره وبدا لنا في أبهى حلله ونحن نتأمل في الآيات الكريمة التي ورد الحديث فيها عن فتاتي مدين اللتين ضربتا لنا أروع الأمثلة في الحياء والحشمة والطهر والعفاف والفصاحة والحصافة ، لكننا حين نتأمل في حال كثير من النساء في هذا العصر وقد خلعن جلاباب الحياء وهتكن ستره وخرجن كاسيات عاريات مائلات مميلات .

تخرج المرأة من بيتها حاسرة الرأس ، مشمرة لذراعيها ، كاشفة عن ساقها كأنها تسير في أوحال أو مستنقعات ، فضلاً عن الملابس الضيقة التي تشف وتصف وتبدي المحاسن وتبرز المفاتن وتكشف شعرها دون مراعاة لمشاعر الرجال ودون مبالاة بأحاسيسهم ، وفي هذا ما يدل على أنها بدون شعور ولا إحساس .

(1) رواه الترمذي في السنن كتاب / البر باب / ما جاء في الفحش والتفحش حديث 1974 سنن الترمذي 307/4 وقال هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من طريق عبد الرزاق ورواه ابن ماجه في السنن كتاب الزهد باب في الحياء حديث 4185 سنن ابن ماجه 1400/2 - وأورده الألباني في صحيح سنن الترمذي برقم 2057 - 189/2 - وفي صحيح سنن ابن ماجه برقم 3374 - 407/2 وقال حديث صحيح .

(2) رواه البخاري صحيحه كتاب الأدب باب إذا لم تستح فاصنع ما شئت فتح الباري 540/10 ورواه أبو داود في السنن عن أبي مسعود عقبة بن عمرو - ك الأدب باب / في الحياء حديث 4795 - 252/4 .
ورواه ابن ماجه في السنن ك الزهد باب / الحياء عن أبي مسعود حديث 1400/2/4183 .
(3) يقول الشاعر الحكيم موضحاً قيمة الحياء وفضل صاحبه وذم تاركه .

إذا لم تخش عاقبة الليالي ولم تستح فاصنع ما تشاء
فلا والله ما في العيش خير ولا الدنيا إذا ذهب الحياء
يعيش المرء ما استحيا بخير ويبقى العود ما بقي اللحاء

وقال شاعر آخر :

إذا قل ماء الوجه قل حياؤه ولا خير في وجه إذا قل ماؤه
حياؤك فاحفظه عليك فإمّا يدل على فعل الكريم حياؤه

كما قال الشاعر الغيور :

لَحْدَ الرِّكْبَتَيْنِ تَشْمُرِينَ ؟ بِرُبِّكَ أَيُّ بَحْرٍ تَعْبِرِينَ !!
تظنين الرجال بلا شعور لأنك ربما لا تشعرينا

قارن بين هذه المتوحلة : في مسلكها وهيئتها ومشيتها وكلامها ونظراتها وحركاتها وفتاتها : وبين فتاة مدين بنت العبد الصالح حين أرسلها أبوها لدعوة موسى عليه السلام ، قال تعالى : ﴿ فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّكِ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ﴾ .

كأن الحياء بساط ممدود من باب بيتها إلى تلك الشجرة الظليلة التي جلس تحتها نبي الله موسى ...

● القوة والأمانة في قوله تعالى إخبارا عن كلام الفتاة مع أبيها صالح مدين :

﴿ قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَتَّابِتِ اسْتَجِرَةَ إِيَّاكِ خَيْرٌ مِّنْ اسْتَجَرَتِ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ ﴾ (1) إشارة إلى أهمية القوة والأمانة خاصة في ذلك العمل الذي رشحت موسى عليه السلام للقيام به ، ومن قبل قال يوسف عليه السلام لملك مصر : ﴿ قَالَ أَجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلَيْكَ ﴾ (2) وقال عفريت من الجن لسليمان عليه السلام يطلب منه أن يأذن له بإحضار عرش بلقيس ﴿ قَالَ عَفْرَيْتُ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا ءَايِكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَّقَامِكِ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ ﴾ (3) .

ولما اعترض بنو إسرائيل على طالوت ، كيف يكون ملكا عليهم وهو فقير وفيهم الأغنياء قال تعالى : ﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ ﴾ (4) فأجابهم نبيهم ﴿ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مَلَكُومًا مِّنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ (5) .

من هذه الآيات الكريمة نرى قبسا من أنوار القرآن الحكيم وهدية القويم في نظام الحكم والإدارة وكيفية اختيار القيادات ونرى أن القوة مطلوبة في بعض المجالات والتخصصات ، والعلم مطلوب في تخصصات ومجالات وقد يطلب العلم مع القوة ،

(1) سورة القصص : 26 .

(2) سورة يوسف : 55 .

(3) سورة النمل : 39 .

(4) سورة البقرة : 247 .

(5) سورة البقرة : 247 .

ونرى أيضا أن الأمانة المطلوبة في كل حال ، فينبغي أن يكون الحاكم أميناً وينبغي أن تكون بطانته من الأمناء .

يقول عليه السلام : « إذا ضيعت الأمانة فانتظروا الساعة قيل وما إضاعته يا رسول الله ؟ قال إذا وسد الأمر إلى غير أهله » (1) ويقول عليه السلام : « ما من عبد يسترعيه الله رعية فلم يحطها بنصحه لم يجد رائحة الجنة » (2) ويقول أيضا عليه السلام : « ما من وال يلي رعية من المسلمين فيموت وهو غاش لهم إلا حرم الله عليه الجنة » (3) .

فضل تربية البنات والإحسان إليهن

لقد كانت الفتاتان على درجة عالية من الخلق الحسن ولقد بدا ذلك واضحا في حياتهما وفراستهما وبلاغتهما وحسن تعاملهما وغير ذلك من أخلاقهما الفاضلة والتي تدل على حسن تربيتهما .

ومن قبل ضربت أخت موسى عليه السلام مثلا رائعا في حسن الخلق . وتجلى ذلك في طاعتها لأمرها وإحسانها إلى أخيها وتحملها المصاعب والمخاطر وهي تقص أثره في حيلة وحذر .

وتصرفت بحكمة ، وتحدثت مع آل فرعون ببلاغة وفطنة ، وكانت سببا في عودة موسى عليه السلام إلى أمه بقدرة الله تعالى وتقديره .

وفي هذه النماذج القرآنية الرائعة قدوة حسنة وأسوة طيبة للفتيات المسلمات .

والفتاة المسلمة إذا درجت في بيت صالح وتربت في بيئة طيبة وفق منهج الإسلام وتعاليمه الراشدة الحكيمة : صارت بعد ذلك زوجة صالحة وأما طيبة ناصحة (4) ، فتربية

(1) الحديث رواه البخاري في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه كتاب الرقاق باب رفع الأمانة حديث 6496 . فتح الباري 341/11 ومعنى وسد الأمر إلى غير أهله : أسند إلى غير الأكفاء من الناس .

(2) الحديث رواه البخاري في صحيحه عن معقل بن يسار رضي الله عنه كتاب الأحكام باب من استرعى رعية فلم ينصح الحديث 7150 ، فتح الباري 135/13 .

(3) الحديث رواه البخاري في صحيحه عن معقل بن يسار رضي الله عنه كتاب الأحكام باب من استرعى رعية فلم ينصح الحديث ، 7151 فتح الباري 136/13 .

(4) ورحم الله شاعر النيل حافظ إبراهيم ، فقد قال :

من لي بتربية النساء فإنها في الشرق علة ذلك الإخفاق =

البنات مهمة جليلة ومسئولية مهمة وعمل صالح ينبغي أن يحرص عليه الآباء والأمهات .

● روى الإمام مسلم في صحيحه عن عروة بن الزبير رضي الله عنه أن أم المؤمنين عائشة (رضي الله عنها) قالت جئتني امرأة ومعها ابنتان لها ، فسألنتني فلم تجد عندي شيئا غير تمرة واحدة فأعطيتها إياها فأخذتها فقسمتها بين ابنتيها ولم تأكل منها شيئا ثم قامت فخرجت وابتناها فدخل علي النبي صلى الله عليه وسلم فحدثته حديثها فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « من ابتلي من البنات بشيء فأحسن إليهن كن له سترا من النار » (1) .

● وفي رواية أخرى لمسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت : جاءتني مسكينة تحمل ابنتين لها فأطعمتها ثلاث تمرات فأعطت كل واحدة منهما تمرة ورفعت إلى فيها تمرة لتأكلها فاستطعمتها ابتناها فشقت التمرة التي كانت تريد أن تأكلها بينهما ، فأعجبني شأنها فذكرت الذي صنعت لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « إن الله قد أوجب لها بها الجنة ، أو أعتقها بها من النار » (2) .

وروى الإمام مسلم في صحيحه عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من عال جاريتين حتى تبلغا جاء يوم القيامة أنا وهو وضم أصابعه » (3) .

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لا يكون لأحد ثلاث بنات ، أو ثلاث أخوات فيحسن إليهن إلا دخل الجنة » (4) .

أعددت شعبا طيب الأعراق
بالري أورك أيما إيراقي
شغلت مآثرهم مدى الآفاق
في الموقفين لهن خير وثاق
نور الهدى ، وعلى الحياء الباقي

= الأُم مدرسة إذا أعددتها
الأُم روض إن تعهده الحيَا
الأُم أستاذ الأساتذة الأولى
ربوا البنات على الفضيلة إنها
وعليكم أن تستبين نساؤكم

ديوان حافظ إبراهيم ص 282 ط الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة 1980 م ط 2 .

(1) رواه الإمام مسلم في صحيحه عن عروة بن الزبير عن عائشة رضي الله عنها كتاب البر والصلة والآداب باب فضل الإحسان إلى البنات صحيح مسلم بشرح النووي 179/16 .

(2) رواه الإمام مسلم في صحيحه ك البر والصلة باب فضل الإحسان إلى البنات صحيح مسلم بشرح النووي 179/16 ، 180 .

(3) رواه الإمام مسلم في صحيحه ك البر والصلة باب فضل الإحسان إلى البنات 180/16 .

(4) أخرجه أبو داود في السنن ك الأدب / باب فضل من عال يتيما حديث 5147 - 338/4 . والترمذي في كتاب البر والصلة ، باب ما جاء في النفقة على البنات والأخوات وقال الترمذي حديث حسن 1912 - 281/4 .

هذا ولقد بين لنا الحبيب المصطفى ﷺ فضل ومنزلة من يعول ابنته المردودة عليه من طلاق أو موت زوج ، فقال ﷺ : « لسراقة بن جعشم ألا أدلك على أعظم الصدقة ؟ قال بلى يا رسول الله ! قال ابنتك مردودة عليك ليس لها كاسب غيرك » (1) .

وما سبق يتضح لنا فضل تربية البنات والإحسان إليهن ويجدر بنا في هذا المقام أن نشير إلى أن البنت نعمة من الله ﷻ كما أن الولد نعمة من الله ﷻ فهو سبحانه الوهاب الكريم ، الفتح العليم وهو الخالق الرازق المليك المقدر قال تعالى : ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنْشَاءً إِنَّهَا وَهَبٌ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ ۝ أَوْ بُرُوجَهُمْ ذَكَرَانًا ۖ وَإِنشَاءً وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ۝﴾ (2) .

وأد البنات في الجاهلية

فالبنات هبة من الله ﷻ كما أن الولد هبة (3) ، وللبنت حقها في الحياة الكريمة ولذلك فإن الإسلام حرم وتلك العادة الجاهلية المنكرة عادة وأد البنات ، بدفنهن في التراب وهن على قيد الحياة بدعوى خشية العار ، وهي دعوى باطلة كاذبة خاطئة .

قال تعالى : ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٩٦﴾ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ ۚ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٩٧﴾﴾ (4) وقال تعالى في سورة التكوير : ﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ ﴿٩٨﴾ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ ﴿٩٩﴾﴾ (5) .

(1) أخرجه ابن ماجه في السنن ك الأدب باب بر الوالد والإحسان إلى البنات حديث 3667 - والإمام أحمد في المسند ، والنسائي في عشرة النساء والبخاري في الأدب المفرد ح 80 ، 81 ص 41 ، 42 .

(2) سورة الشورى : 49 ، 50 .

(3) ولأمر الشعراء أحمد شوقي أبيات في رثاء (مصطفى فهمي) وقد توفي وترك عددا من البنات : يقول أحمد شوقي :

ورزقت في أصهارك الكرماء
الذكور نعم سلاله العظماء
وكنوز حب صادق ووفاء
والصابرات لشدة وبلاء
والزائراتك في العراء النائى
بسؤالف الحرمات والآلاء
وطلبن عند الدمع بعض عزاء

(5) سورة التكوير : 9/8 .

أبنا البنات رزقتهن كرائمًا
لا تذهبن على الذكور بحسرة
إن البنات ذخائر من رحمة
والساهرات لعله أو كبرة
والباقياتك حين ينقطع البكا
والذاكراتك ما حين تحذنا
عذرا لهن إذا ذهبن مع الأسى

(4) سورة النحل : 58 ، 59 .

ونظرة قاصرة جائزة وفعلة منكرة غادرة وعادة ظالمة غاشمة نعى القرآن الكريم على فاعليها جورهم وقصورهم وظلمهم وغشمهم قال تعالى : ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَنْوَرِي مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾ (١) .

وقال ﷺ : ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ (٢) .

كانت المرأة إذا أدركها المخاض احتفرت حفرة وجلست على شفيرها فإن وضعت ذكراً أظهرته وظهر السرور على أهله وإن ولدت أنثى استأذنت أباهاً فإن شاء أمسكها على هون وإن شاء أمر بإلقائها في الحفرة ورد التراب عليها وهي حية .

وكان الرجل من العرب في الجاهلية إذا ولدت له بنت وأراد أن يستحيها تركها ، فإذا كبرت ألبسها جبة من صوف أو شعر وجعلها ترعى الإبل والغنم في البادية وإذا أراد أن يقتلها تركها حتى إذا بلغت السادسة من عمرها أمر أمها أن تلبسها أجمل الثياب وتزينها ، وزعم أنه سوف يذهب بها إلى زيارة أعمامها في حين أنه قد أعد العدة وحفر الحفرة ثم يسير بها وهي فرحة مسرورة ، لا تدري أنها بعد لحظات ستصير مؤودة مقبورة ، يسير بها حتى يصل إلى الحفرة ثم يأمرها أن تنزل فيها شاءت أم أبت ويهيل عليها التراب ، وهي حية لا تستجديه صرخاتها ولا تستوقفه آهاتها ولا تتحرك فيه عاطفة الأبوة ولا يستجيب لندائها ، يتخلى عن إنسانيته ويتجرد من العواطف والأحاسيس لا لشيء إلا لأنها أنثى ، جاء الإسلام فتواترت هذه الأفعال ، وأعاد للمرأة حقها في الحياة الكريمة الطيبة الحياة الهادئة الآمنة المطمئنة .

أعاد الإسلام للمرأة حقها في الحياة ذلك الحق الذي انتزعته العقول المتحجرة والنفوس الجائرة والعادات الجاهلية والطقوس الشيطانية ، حيث كانوا يتقربون للأصنام والآلهة المزعومة بذبح النساء في المعابد تقريباً وتزلفاً للأصنام والآلهة المزعومة والكلام في هذا الأمر يطول ، لكننا نكتفي بما أورده الإمام الحافظ ابن كثير في كتابه البداية والنهاية ... قال : لما فتح عمرو بن العاص مصر أتى أهلها إليه حين دخل شهر (بؤنة) من الأشهر القبطية فقالوا يا أيها الأمير : إن لنيلنا هذا سنة لا يجري إلا بها فقال لهم ما هي ؟ قالوا إذا كان لثنتي عشرة ليلة خلت من هذا الشهر عمدنا إلى جارية بكر بين

(2) سورة الزخرف : 17 .

(1) سورة النحل : 58 ، 59 .

أبويها فأرضينا أبويها وجعلنا عليها من الحلي والثياب أفضل ما يكون ، ثم ألقيناها في هذا النيل - فقال عمرو بن العاص إن هذا لا يكون في الإسلام وإن الإسلام يهدم ما قبله فأقاموا (بؤنة) والنيل لا يجري إلا قليلاً ولا كثيراً - فكتب عمر بن العاص إلى عمر بن الخطاب بذلك ، فكتب إليه عمر : - إنك قد أصبت بالذي فعلت أما وإنني قد بعثت إليك بطاقة داخل كتابة هذا فألقها في النيل ، فلما وصل الكتاب ألقى عمرو بن العاص هذه البطاقة في النيل ، وفيها من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى نيل مصر : أما بعد فإن كنت تجري من قبلك (أي من نفسك) فلا حاجة لنا بك ولا تجري ، وإن كان الله الواحد القهار هو الذي يجريك فأسأل الله أن يجريك ، فأصبح يوم السبت وقد أجرى الله النيل ستة عشر ذراعاً في ليلة واحدة وقطعت تلك السنة عن أهل مصر إلى اليوم (1) .

وفي الهند : لم يكن للمرأة في شريعة (مانو) حق في الحياة بعد موت زوجها بل يجب أن تموت يوم موته ، بأن تحرق وهي حية مع جثة زوجها ، واستمرت هذه العادة حتى القرن السابع عشر الميلادي حيث أبطلت على كره من رجال الدين الهنود .

وما زالت جريمة وأد البنات موجودة في الهند سنة 1993 م وفي نيودلهي طلبت السلطات الهندية من الأسر في إحدى ضواحي الهند أن يتنازلوا عن بناتهم بدلاً من وأدهن ، بدعوى أنهم يشكلون عبئاً اقتصادياً عليهم (2) .

وفي إيجاد حل لهذه الظاهرة نشرت أخبار اليوم في نفس اليوم أن السلطات الهندية اضطرت هناك إلى وضع أسرة خشبية على أبواب المستشفيات لاستقبال كل مولودة - لا يرغب فيها - وبالفعل نجحت الفكرة ففي يوم واحد اكتشف الأطباء في بلدة (سالم) الهندية وجود سبع إناث على تلك الأسرة الموضوعة على أبواب المستشفى - بل إن الحال في بلاد الصين أعجب من ذلك ؛ فهم يختبرون الحمل ليعرفوا نوع الجنين فإن كان أنثى قاموا بعملية الإجهاض (3) ؟.

ولقد تحدثت أخبار اليوم أن رجلاً من الصين في السادسة والعشرين من العمر قام بخنق طفله البالغة من العمر شهرين وألقى بجثتها في بحر وقضت المحكمة بسجنه ستة

(1) البداية والنهاية للمحافظ ابن كثير ج 1 ص 23 ، 24 دار الكتب العلمية / بيروت .

(2) ذكرت ذلك صحيفة الأهرام عدد السبت 1993/2/13 نقلاً عن وكالة الأنباء العالمية اسوشيتدپرس .

(3) أخبار اليوم عدد السبت 1993/2/13 .

وعشرون عامًا ، ورغم التشدد في مكافحة قتل البنات فإنه لا يتم كشف جميع المجرمين إلا أنه يتم كشف الضحايا ، فقد تم مؤخرًا العثور على العديد من جثث البنات الصغيرات ملقيات على الجسور وفي المراحيض العامة والحقول بمقاطعة (جيانجسو) والإحصاءات الرسمية تشير إلى أنه من بين كل خمسة مواليد على قيد الحياة ثلاثة أطفال فقط يكونون من الذكور (1) .

● ومن طرائف ما يروى أن رجلا من العرب يدعى أباحمزة تزوج امرأة فولدت له بنتا فهجر منزلها ، ومر ذات يوم بيبتها فسمعها وهي تداعب ابنتها وتقول :

ما لأبي حمزة لا يأتينا يظل في البيت الذي يلينا
غضبان ألا نلد البنينا تالله ما ذلك في أيدينا

وإنما نأخذ ما أعطينا

سمع أبو حمزة هذه الأبيات فعاد إلى بيته وصالح امرأته وضم إليه ابنته ورضي بعباء الله ﷻ (2) .

الوفاء بالعهد في وفاء موسى ﷺ بالعهد وقضائه لأتم الأجلين درس هام في الوفاء بالعهد ، والوفاء بالعهد خلق كريم من أخلاق أهل الإيمان قال تعالى في وصفهم :
﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ يَعْهَدُهُمْ إِذَا عَاهَدُوا ﴾ (3) وقال تعالى : ﴿ الَّذِينَ يُؤْفُونَ بَعْدَ اللَّهِ وَلَا يُنْقِضُونَ أَلْمِيثَ ﴾ (4) وقال سبحانه : ﴿ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا ﴾ (5) .
ويقول ﷺ : « إن أحق الشروط أن توفوا به ما استحللتم به الفروج » (6) .

(1) منار الإسلام ص 130 عدد جمادى الأول 1403 هـ - مارس 1983 .

(2) يراجع : بهجة المجالس وأنس المجالس لأبي عمر يوسف بن عبد الله محمد بن عبد البر النمري القرطبي 763/2 ، 764 .
والبيان والتبيين للجاحظ (أبو عثمان عمرو بن بحر) 195/1 ط المطبعة التجارية سنة 1956 والعقد الفريد لابن عبد ربه أحمد بن عبد ربه القرطبي الأندلسي ط / لجنة التأليف والترجمة والنشر 342/3 .

(3) سورة البقرة : 177 .

(4) سورة الرعد : 20 .

(5) سورة الإسراء : 34 .

(6) رواه البخاري في صحيحه عن عقبة بن عامر ؓ ك / النكاح باب / الشروط في النكاح حديث 5151 - 124/9 ورواه مسلم في صحيحه عنه ك / النكاح باب / الوفاء بالشروط في النكاح . ورواه أبو داود عنه ك / النكاح باب / في الرجل يشترط لها دارها حديث 2139 - 244/2 - ورواه الترمذي عنه ك / النكاح باب / ما جاء في الشرط عند عقدة النكاح حديث 1127 - 434/3 .

المبحث الرابع

نظرات في العهد القديم فيما ورد في قصة موسى عليه السلام

حديث العهد القديم عن قصة موسى عليه السلام حديث مضطرب متناقض يدل على وقوع التحريف والتبديل فيه فضلا عن مخالفته للحقيقة .

وفيما يلي نذكر أمثلة على ذلك :

1 - جاء في سفر الخروج (وذهب رجل من بيت لاوى وأخذ بنت لاوى فحبلت المرأة وولدت ابنا) ⁽¹⁾ يعني بالابن المولود موسى عليه السلام .

● وفي سفر الخروج أيضا (وأخذ عمرام يوكابد عمته زوجة له فولدت له هارون وموسى) ⁽²⁾ .

وهذا يعني أن الرجل تزوج بعمته وأنجب منها موسى .

● بينما نقرأ في سفر اللاويين [لا يقترب إنسان إلى قريب جسده ليكشف العورة ، أنا الرب : عورة أهلك وعورة أمك لا تكشف ، إنها عورة أهلك عورة أختك بنت أهلك أو بنت أمك المولودة في البيت أو المولودة خارجا لا تكشف عورتها ، عورة ابنة ابنك أو ابنة بنتك لا تكشف عورتها إنها عورتك ، عورة بنت امرأة أهلك المولودة من أهلك لا تكشف عورتها إنها أختك عورة أخت أهلك لا تكشف إنها قريبة أهلك إلى آخر النص] ⁽³⁾ .

وفي هذه الفقرة الأخيرة ما يدل على حرمة الزواج من العممة وهذا يعني أنه لو حدث فهو زواج باطل ومن هنا فإن سفر الخروج يصرح بأن موسى ولد من زواج باطل وهذا كذب وافتراء على نبي الله موسى عليه السلام والحق الذي نؤمن به أنه عليه السلام ولد من زواج شرعي صحيح وأن أباه تزوج من امرأة ليس ذات محرم له .

هذا وفي إحدى نسخ العهد القديم وهي نسخة - عربية طبعت سنة 1625 م (فتزوج عمران يوكابد ابنة عمه) .

(2) خروج إصحاح 6 فقرة 20 .

(1) خروج إصحاح 2 فقرة 1 .

(3) اللاويين إصحاح 18 فقرة 6 : 18 .

وهي مخالفة للنسخ الأخرى التي تقول (وأخذ عمرام يوكابد عمته زوجة له فولدت له هارون وموسى) (1) وهذا يدل على وقوع التناقض والاختلاف بين النسخ وتحريف الكاتب لكلمة (عمته) واستبدالها بكلمة (ابنة عمه) ؛ لإزالة الإشكال الوارد عليهم لأن الزواج من العممة حرام بنص العهد القديم كما جاء في سفر اللاويين .

2 - يبين القرآن الكريم أن الله تعالى أوحى إلى أم موسى ﷺ قال تعالى : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ (2) جاءها الوحي من الله ﷻ وقد يكون بالإلهام أو بالمنام أو بإرسال ملك - الله أعلم بحقيقته .

وهذا الوحي يدل على تكريم الله تعالى لأم موسى ويدل على مكانتها عند الله تعالى حيث شرفها الله تعالى بأن أوحى إليها بأن ترضع موسى ﷺ فإذا خافت عليه وضعتة في التابوت وألقت به في نهر النيل ، قال تعالى في سورة طه : ﴿ وَلَقَدْ مَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰ ﴿٧٧﴾ إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ ﴿٧٨﴾ أَنْ أَقْذِفِي فِي التَّابُوتِ فَأَقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَكَ ﴾ (3) .

وليس في العهد القديم أي إشارة من قريب أو بعيد إلى وحي الله لأم موسى وهذا إغفال لحدث هام من أحداث القصة .

ولكن الوارد في العهد القديم (ولما لم يمكنها أن تحبته بعد أخذت له سبطاً من البردي وطلته بالحمرة والزفت ووضعت الولد فيه ووضعتة بين الحلفاء على حافة النهر ووقفت أخته من بعيد لتعرف ماذا يفعل به) (4) .

● وهكذا يتضح أن الوارد في العهد القديم أن أم موسى وضعتة في تابوت وألقت به على حافة النهر من تلقاء نفسها حتى أبصرته جواري بنت فرعون فحملته .

3 - كذلك ليس في العهد القديم أي إشارة إلى امرأة فرعون وفي ذلك إغفال لدورها البارز الذي قامت به والقرآن الكريم يسجل لها هذا الدور العظيم ويضرب المولى ﷻ بها المثل في الصلاح والتقوى وفي الثبات أمام الابتلاءات فهي قدوة حسنة وأسوة طيبة لجميع المؤمنات قال تعالى : ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي مِثْلَ مَا بُنِيَ لِرَبِّكِ فَقَالَ لَئِيْلَ مَا تُرِيدُ ﴾ (5) .

(2) سورة القصص : 7 .

(1) خروج إصحاح 6 فقرة 20 .

(4) خروج إصحاح فقرة 2 : 4 .

(3) سورة طه : 37 - 39 .

لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَبِحَجِّي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَبِحَجِّي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١﴾ .
وهكذا نرى العهد القديم يغفل دائما ذكر الأمثلة الرائعة والنماذج الطيبة للصالحين
والصالحات حتى يفتقد الناس القدوة الحسنة ؛ ويتجهوا إلى اتباع أهل الكفر والضلال
والانحلال .

4 - أما عن أخت موسى عليه السلام فلقد تحدث عنها القرآن الكريم في سورتي القصص
وطه قال تعالى : ﴿ إِذْ نَسِيَتْ أَخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ ۖ فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ
أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۗ ﴾ (2) .

وقال تعالى : ﴿ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾ ﴿١٢﴾
وَحَرَمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ
نَصِيحُونَ ﴾ (3) .

● وما ورد في القرآن الكريم في شأن أخت موسى يدل على طاعتها لأمرها وحبها
لأخيها كما يدل على فطنتها وسرعة بديهتها في التعامل مع آل فرعون .

● أما في العهد القديم فقد ورد (فقالت أخته لابنة فرعون هل أذهب وأدعو لك
امرأة مرضعة من العبرانيات لترضع لك الولد فقالت لها ابنة فرعون اذهبي فذهبت الفتاة
ودعت أم الولد فقالت لها ابنة فرعون اذهبي بهذا الولد وأرضعيه لي وأنا أعطي أجرتك
فأخذت المرأة الولد وأرضعته ولما كبر الولد جاءت به إلى ابنة فرعون فصار لها ابنا
ودعت اسمه موسى وقالت إني انتشلته من الماء) (4) .

● وهذا يدل على أن الفتاة تصرفت في الأمر من تلقاء نفسها وأن المراضع لم تحرم
عليه والحقيقة فيما ذكره القرآن الكريم في أمر الفتاة وفي تحريم المراضع على موسى عليه السلام .

5 - وفي سفر الخروج (فأخذت مريم النبية أخت هارون الدف بيدها وخرجت
جميع النساء وراءها بدفوف ورقص وأجابتهم مريم رثموا للرب فإنه قد تعظم الفرس
وراكبه طرحهما في البحر) (5) .

(2) سورة طه 40 .

(1) سورة التحريم : 11 .

(4) خروج إصحاح 2 فقرة 8 : 10 .

(3) سورة القصص : 11 ، 12 .

(5) خروج إصحاح 15 فقرة 21 ، 22 .

فهل هذا يليق بأخت نبي أن تقود النساء في موكب رقص وطبل وغناء؟ أما كان الأولى بها أن تسجد شكرا لله على هذه النعمة وتُذَكَّرُ من حولها من النساء بفضل الله ورحمته وحفظه ورعايته بدلا من إقامة هذا الاحتفال الراقص الذي تظهر فيه النساء بهذه الصورة الخليعة الفاتنة أمام الرجال؟ وما معنى وصف مريم أخت موسى بكونها نبية؟ وإذا كانت نبية فمتى نبأت ومتى أوحى إليها؟ وهل هناك نبوة في النساء؟

نقول إن النبوة في الرجال لا في النساء بدليل قوله تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِيْ اِلَيْهِمْ مِنْ اَهْلِ الْقُرُوءِ ﴾ (1).

وقال تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِيْ اِلَيْهِمْ فَتَشَلُّوْا اَهْلَ الذِّكْرِ اِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْمُرُوْنَ ﴾ (2).

6 - وورد ذكر لمريم أخت موسى في سفر العدد يقول السفر (وتكلمت مريم وهارون على موسى بسبب المرأة الكوشية التي اتخذها؛ لأنه كان قد اتخذ امرأة كوشية فقالا هل كلم الرب موسى وحده ألم يكلمنا نحن أيضا فسمع الرب وأما الرجل موسى فكان حليما جدا أكثر من جميع الناس الذين على وجه الأرض) (3).

وقد ورد في تفسير الكتاب المقدس لأرشيدياكون ما يلي :

[منطوق الآية يرجح أن موسى قد تزوج بزوجة ثانية مما يفيد أن زوجته الأولى قد توفيت؛ لأنه كان قد اتخذ امرأة كوشية (4) ... ومن المؤلم أن موسى المحب لشعبه يقابل بعدم التقدير فيتدمر عليه الشعب مرارا كثيرة ويتكلم عليه أقرب الناس إليه وهم مريم أخته وهارون أخوه ومن المؤلم للنفس أن مريم كانت نبية وهارون كان رئيس الكهنة] (5).

ويقول الأرشيدياكون أيضا [من العيب أن يتكلم المرء في حق الناس عموما ومن العيب أن يتكلم في حق رجال الله ورعاة الكنيسة والخدام لتكن نظرنا إلى الناس نظرة محبة وأحاديثنا عنهم للبنيان والخير وليس للهدم أو التجريح أو لإشباع روح الحسد أو

(2) سورة النحل : 43 .

(1) سورة يوسف : 109 .

(3) العدد لإصحاح 12 فقرة 1 : 3 .

(4) المرأة الكوشية هي امرأة أخرى من نفس القبيلة التي تزوج منها موسى ابنة الرجل الصالح - تفسير الكتاب المقدس ص 181 .

(5) تفسير الكتاب المقدس لأرشيدياكون ص 183 باختصار .

الكراهية التي فينا [(1)] .

وفي سفر العدد [وأما الرجل موسى فكان حليما جدا أكثر من جميع الناس الذين على وجه الأرض] (2) .

في هذه العبارة إشارة إلى أن موسى لم يكتب التوراة وأن هذا الكلام كذب وتلفيق لأنه إذا كان من كلام موسى فكيف عبّر عن نفسه بهذه الصيغة - [وأما الرجل موسى] التي تدل على أنه لا يتكلم عن نفسه ؟ .

أما عن طبيعة هذا الكلام الذي وقع فيه هارون وأخته فيقول الأرشيدياكون صاحب كتاب تفسير الكتاب المقدس :

لم يذكر الوحي لماذا تكلمت مريم وهارون عن موسى بسبب امرأته الكوشية هل لأنه كان يقع بين مريم وبين امرأة موسى بعض الخلافات كما يجري في كثير من البيوتات ؟ هل لأن موسى اختار السبعين شيخا دون أن يستشير أخاه وأخته فظن كل منهما أن المرأة الكوشية لها دخل في هذا الأمر ؟ هل لأن موسى تزوج امرأة غريبة الجنس وكان الأنسب أن يتزوج من بنات شعبه ؟ .

لا شك في أن المرأة الكوشية كانت قد تَهَوَّدَت وربما كانت على جانب من الفضيلة والتقوى كما أن الرب حذر بني إسرائيل من مصاهرة الكنعانيين ولم يحذرهم من الزواج من الكوشيين ؟ أم أن موسى اختار هذه الزوجة بنفسه فرأت مريم أنه كان من الواجب أن يشركها معه في الرأي ؟ .

- إن موسى كان حُرًّا في اختياره وربما فعل هذا بحسن نية وبراعة ، أم هل لأن مريم وجدت أن للمرأة الكوشية شأنًا من بين الشعب لاعتبارها زوجة موسى في الوقت الذي كانت تحب مريم أن يبقى لها شأنها وتظل سيدة شعبها الأولى ؟ إن هذا لا يتفق مع روح المحبة والتواضع لا نستطيع أن نكشف سر تحاملها على أخيها وعلى زوجته وربما كان

(1) المرجع السابق ص 183 - ولي تعليق على هذه العبارة الأخيرة التي ذكرها المؤلف والتي تتنافى تماما مع ما ورد في العهد القديم من افتراءات وأباطيل تقدح في عصمة الأنبياء وتشوه صورتهم من ذلك هذه القصة المختلفة على هارون النبي وأخت موسى ومن ذلك أيضا افتراءاتهم على سائر الأنبياء وانتقاصهم للذات العلية بوصفها بصفات النقص والعيب التي لا تليق بها .

(2) سفر العدد إصحاح 12 فقرة 3 .

عامله الحسد لموسى ولزوجته والتحامل عليهما بدون مبرر [(1)] .

هذا ويقرر العهد القديم أن الرب نزل لمعانة ومعاقبة هارون وأخته على كلامهما في حق المرأة الكوشية التي تزوج بها موسى وبعد أن خاطبها خطاب لوم وعتاب لما صدر عنها في حق أخيها وزوجته ، مضى الرب وارتفعت السحابة التي نزل فيها الرب فإذا بأخت موسى تصير برصاء من ساعتها (فنزل الرب في عمود سحب ووقف في باب الخيمة ودعا هارون ومريم فخرج كلاهما) .

وعاتبهما على كلامهما في حق موسى (فحمى غضب الرب عليهما ومضى فلما ارتفعت السحابة عن الخيمة إذا مريم برصاء كالثلج فالتفت هارون إلى مريم وإذا هي برصاء فقال هارون لموسى : أسألك يا سيدي لا تجعل علينا الخطية التي أخطأنا بها فلا تكن كالليت الذي يكون عند خروجه من رحم أمه قد أكل نصف لحمه فصرخ موسى إلى الرب قائلاً اللهم اشفها فقال الرب لموسى ولو بصق أبوها بصقا في وجهها أما كانت تخجل ؟ فخرجت مريم خارج المحلة سبعة أيام ولم يرتحل الشعب حتى أُرِجِعَتْ مريم وبعد ذلك ارتحل الشعب من حضيروت ونزلوا في برية فاران) (2) .

أقول : لا أدري ما هي الخطيئة التي ارتكبتها مريم في حق أخيها وزوجته حتى استحقت هذا العقاب الشديد ولماذا لم يعاقب هارون وقد كان شريكا لها في الإثم ؟ .

إن العهد القديم لم يصرح بنوع هذا الكلام وإن شراح العهد القديم لم يقطعوا في طبيعة هذا الكلام وإنما كلامهم مجرد ظن وتخمين وهل يليق بأخت موسى عليه السلام التي تربت في بيت صالح والتي تحملت المصاعب وواجهت الأخطار يوم أن خرجت تقص أثر أخيها طاعة لأمها وحبا له وحرصا على حياته هل يليق بها أن تخوض في حق أخيها وزوجته هذا الخوض العظيم ؟ الذي كانت عقوبته وخيمة حيث أصيبت بالبرص وهو مرض يدعو إلى النفور والاشمئزاز ، كما أن مشاركة هارون معها في هذه الجريمة مما يقدر في عصمته وهو نبي من الأنبياء والأنبياء جميعا معصومون من الكبائر ومن الصغائر الحسيسة المنفرة ؛ فهل من المعقول أن يحقد نبي على نبي أو أن يحسد نبي نبيا ؟ إن

(1) تفسير الكتاب المقدس لأرشيد ياكوب ص 183 : 184 .

(2) سفر العدد لإصحاح 12 فقرة 9 : 16 .

ويقول القمص صليب سوريال في كتابه (دراسات في أسفار موسى الخمسة) [ومعنى التكلم على موسى هنا الحكم عليه بالضلال] ص 400 .

هذا مما يتنافى مع أخلاق الأنبياء ويتعارض مع عصمتهم . إن هذه القصة برمتها مدسوسة ومختلقة ومفتراء ، وضعها كتاب العهد القديم لتشويه صورة الأنبياء الكرام ، ولتشويه صورة أخت موسى عليها السلام وللافتراء على الله عز وجل .

واتماما للفائدة نذكر بعضا من افتراءاتهم على موسى وهارون :

1 - في سفر الخروج (فقال الرب لموسى انظر أنا جعلتك إلهًا لفرعون وهارون أخوك (يكون نبيا) ⁽¹⁾ يا له من تحول عجيب ؟ موسى يتحول من نبي إلى إله ؟ ينصبه الله إلهًا على فرعون الذي يدعي الألوهية ؟ .

2 - وفي سفر العدد (فقال الرب لموسى وهارون من أجل أنكما لم تؤمنا بي حتى تقدساني أمام أعين بني إسرائيل لذلك لا تدخلان هذه الجماعة إلى الأرض التي أعطيتهم إياها) ⁽²⁾ .

وفي هذا افتراء على موسى وهارون حيث زُيما بالكفر وهو مستحيل في حق الأنبياء لأنهم معصومون .

3 - وفي سفر العدد (وقال الرب لموسى اصعد إلى جبل عباريم هذا وانظر الأرض التي أعطيت لبني إسرائيل ومتى نظرتها تضم إلى قومك أنت أيضا كما ضم هارون أخوك ؛ لأنكما في بركة صين عند مخاصمة الجماعة عصيتما قولي أن تقدساني بالماء أمام أعينهم] ⁽³⁾ .

وفي هذا اتهام لموسى وهارون عليهما السلام بعصيانهما لأمر الله تعالى وهو محض افتراء عليهما .

4 - وفي سفر التثنية (وكلم الرب موسى في نفس ذلك اليوم قائلا اصعد إلى جبل عباريم هذا جبل بنو الذي في أرض موآب الذي قبالة أريحا وانظر أرض كنعان التي أنا أعطيتها لبني إسرائيل ملكا ، ومت في الجبل الذي تصعد إليه وانضم إلى قومك كما مات هارون أخوك في جبل هور وضم إلى قومه ؛ لأنكما ختتماني في وسط بني إسرائيل عند ماء مريبة قادش في بركة صين إذ لم تقدساني في وسط بني إسرائيل فإنك تنظر الأرض من قبلتها ولكنك لا تدخل إلى هناك إلى الأرض التي أنا أعطيتها لبني

(2) عدد إصحاح 20 فقرة 12 .

(1) خروج إصحاح 7 فقرة 1 .

(3) العدد إصحاح 27 فقرة 12 ، 13 .

إسرائيل (1) .

5 - وفي سفر الخروج (فرجع موسى إلى الرب وقال يا سيد لماذا أسأت إلى هذا الشعب لماذا أرسلتني فإنه منذ دخلت إلى فرعون لأتكلم باسمك أساء إلى هذا الشعب وأنت لم تُخلِّص شعبك ؟) (2) .

وفي سفر الخروج (ولما رأى الشعب أنَّ موسى أبطأ في النزول من الجبل اجتمع الشعب على هارون وقالوا له قم اصنع لنا آلهة تسير أمامنا ؛ لأن هذا موسى الرجل الذي أصدعنا من أرض مصر لانعلم ماذا أصابه ، فقال لهم هارون : انزعوا أقراط الذهب التي في آذان نسائكم وبناتكم وبناتكم وأتوني بها فنزع كل الشعب أقراط الذهب التي في آذانهم وأتوا بها إلى هارون فأخذ ذلك من أيديهم وصوره بالإزميل وصنعه عجلا مسبوكا) (3) .

فهل يعقل أن يصنع هارون لقومه عجلا ذهبيا ويدعوهم إلى عبادته ؟ وبأي منطق فعل ذلك ؟ .

إن هذا إلا إفاك وافتراء على نبي الله هارون عليه السلام والحقيقة كما أخبر القرآن الكريم أنه نهى قومه عن عبادة العجل فلم ينتهوا قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلِ يَقْوِمٍ إِنَّمَا قُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي ﴾ (4) .
والصحيح أن الذي صنع العجل هو السامري .

وبعد فهذه جملة من افتراءات اليهود على نبي الله موسى وهارون عليهما السلام وهذه الأمثلة قليلة من كثير وقطرة من لجة من افتراءات اليهود على أنبياء الله ورسله .

6 - في القرآن الكريم يقول الله تعالى : ﴿ وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينٍ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِنْ شِيعَةِ هَذَا وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَعْنَاهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَرَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٧﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّكُمُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿١٨﴾ قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَاهِرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا

(1) تنبيه إصحاح 32 فقرة 48 : 52 .

(2) خروج إصحاح فقرة 22 ، 23 .

(3) خروج إصحاح 32 فقرة 1 : 4 ويراجع حتى 35 . (4) سورة طه : 90 .

الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ ﴿١٧﴾ فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ
 بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ يَمْوَسَىٰ أَرِيدُ أَنْ نَقْتُلِيكَ كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا
 أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ ﴿١٨﴾ وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ
 يَسْعَى قَالَ يَمْوَسَىٰ ابْنَ الْمَلَأِ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ ﴿١٩﴾
 فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢٠﴾ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تَلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ
 عَسَىٰ رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿٢١﴾ (1)

وفي العهد القديم (وحدث في تلك الأيام لما كبر موسى أنه خرج إلى إخوته لينظر
 في أفعالهم فرأى رجلا مصرياً يضرب رجلا عبرانيا من إخوته فالتفت إلى هنا وهناك
 ورأى أن ليس أحد فقتل المصري وطمره في الرمل) (2) .

ويلاحظ أن القرآن الكريم يبين لنا أن موسى لم يرد قتل المصري ولكنه وكزه وكزه
 من أجل أن يرده عن الإسرائيلي فمات من أثر الوكزة ، فموسى لم يتعمد قتله .

أما عبارة العهد القديم ففيها تصريح بتعمد موسى قتله (فالتفت موسى إلى هنا
 وهناك ورأى أن ليس أحد فقتل المصري وطمره في الرمل) ، قتله وأخفى معالم الجريمة
 ولم يندم على هذا الفعل ولم يستغفر الله على ارتكابه لهذه الجريمة .

● وليس في العهد القديم ذكر لهذا الرجل الذي جاء من أقصى المدينة يسعى ونصح
 موسى بسرعة الخروج من مصر حتى لا يدركه فرعون وجنوده وهذا موقف يدل على
 مروءة الرجل وشهامته وإخلاصه في النصح فهو مثل طيب رائع للرجولة الحقيقية .

● وعجبا كيف يخلو العهد القديم من ذكر هذا المثل الرائع والحديث عن هذا
 النموذج الطيب مع توسع العهد القديم في ذكر التفصيلات التي لا طائل من ورائها ولا
 فائدة من ذكرها .

وفي العهد القديم أن صالح مدين هو (رعوثيل) : ورد ذلك في سفر الخروج
 لإصحاح 18 .

وفي سفر الخروج لإصحاح 3 أن اسمه (يثرون) وهذا تناقض بين القرآن الكريم لم
 يصرح باسم هذا الرجل الصالح وقد ذهب المفسرون إلى أنه نبي الله شعيب عليه السلام .

(2) خروج لإصحاح 2 فقرة 11 ، 12 .

(1) سورة القصص 15 - 22 .

والرأي الصحيح أنه ليس شعيبا عليه السلام ولكنه رجل صالح من أهل مدين .

● وليس في العهد القديم أي إشارة إلى أدب الفتاتين وحشمتهما وحياتهما وحرصهما على عدم الاختلاط بالرجال بينما يبين لنا القرآن الكريم أن الفتاتين كانتا على درجة عالية من الأدب والحشمة والحياء والحكمة .

● وفي العهد القديم (وحدث في تلك الأيام الكثيرة أن ملك مصر مات وتهد بنو إسرائيل من العبودية وصرخوا فصعد صراخهم إلى الله من أجل العبودية فسمع الله أنينهم فتذكر الله ميثاقه مع إبراهيم وإسحاق ويعقوب ونظر الله بني إسرائيل) (1) .

● وفي الإصحاح الثاني والثالث وما بعدهما من سفر الخروج ما يفيد أن فرعون الذي تربي موسى في قصره وخرج من مصر هاربا منه هو فرعون الذي أرسل الله موسى إليه والقرآن الكريم يصرح بذلك قال تعالى : ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَمَزَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خٰطِطِينَ ﴾ (2) وَقَالَتْ أَمْرَأْتُ فِرْعَوْنُ قُرْتُ عَيْنَ لِي وَلَكَ لَا نَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَسْعُرُونَ ﴿ (2) .

وقال تعالى : ﴿ إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ ﴿٧٨﴾ أَنْ أَقْدِفِي فِي الثَّابُوتِ فَأَقْدِفِي فِي الْبَيْتِ فَلْيَلْقِهِ الْبَنِيُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَكَ ﴿ (3) وقال تعالى : ﴿ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَمِئْتَ فِينَا مِنْ عَمْرُكَ سِنِينَ ﴾ (4) .

وفي سفر الخروج [وقال الرب لموسى في مديان اذهب ارجع إلى مصر ؛ لأنه قد مات جميع القوم الذين كانوا يطلبون نفسك فأخذ موسى امرأته وبنيه وأركبهم على الحمير ورجع إلى أرض مصر وأخذ موسى عصا الله في يده] (5) .

وهذا يعني أن موسى قد اصطحب معه زوجته وبنيه في رحلة العودة .

وفي سفر الخروج [فسمع (يثرون) كاهن مديان حمو موسى كل ما صنع الله إلى موسى وإلي إسرائيل شعبه أن الرب أخرج إسرائيل من مصر فأخذ يثرون حمو موسى صفورة امرأة موسى بعد صرفها وابنيها اللذين اسم أحدهما جرشوم ؛ لأنه قال كنت نزيلا في أرض غريبة واسم الآخر أليعازر لأنه قال إله أبي كان عوني وأنقذني من سيف

(2) سورة القصص : 8 ، 9 .

(1) خروج لإصحاح 2 فقرة 23 - 25 .

(4) سورة الشعراء : 18 .

(3) سورة طه : 38 ، 39 .

(5) خروج لإصحاح 4 فقرة 19 ، 20 .

فرعون ، وأتى (يثرون) حمو موسى وابناه وامرأته إلى موسى إلى البرية حيث كان نازلاً عند جبل الله فقال لموسى أنا حموك (يثرون) آت إليك وامرأتك وابناها معها فخرج موسى لاستقبال حميه وسجد وقبله وسأل كل واحد صاحبه عن سلامته ثم دخلا إلى الخيمة [(1)] .

وهذا تناقض ظاهر بين ما ورد في إصحاح 4 ، وإصحاح 18 .

والصحيح أن موسى ﷺ اصطحب معه زوجته في رحلة العودة قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴾ (2) .

ومما سبق يتضح لنا اشتمال العهد القديم على كثير من الافتراءات والتناقضات والأباطيل هذا بالإضافة إلى إغفاله كثيرا من الحقائق الهامة والقضايا الأساسية والركائز الجوهرية في قصة موسى ﷺ .

فهرس موضوعات المجلد الأول

9	المقدمة
23	التمهيد : القصص القرآني : تعريفه أقسامه مقاصده سماته

الفصل الأول

حواء عليها السلام

41	تمهيد
43	المبحث الأول : خلق حواء
71	المبحث الثاني : سكنى حواء مع آدم <small>عليه السلام</small> الجنة
71	المطلب الأول : بيان المراد بالجنة التي سكنها آدم <small>عليه السلام</small> وزوجه حواء
77	المطلب الثاني : تفسير الآيات الواردة في سكنى آدم <small>عليه السلام</small> وزوجه حواء الجنة
80	فائدة في مشتبهات القرآن
85	من أسرار التعبير القرآني .. مقابلة بديعة
88	المبحث الثالث : وسوسة الشيطان لآدم وحواء
95	المبحث الرابع : أكل آدم وحواء من الشجرة
97	المبحث الخامس : توبة آدم وحواء
100	المبحث السادس : هبوط آدم وحواء إلى الأرض
106	المبحث السابع : من المسئول عن الأكل من الشجرة
107	المبحث الثامن : فوائد حول القصة
107	1 - مكانة الزواج في الإسلام
114	2 - عداوة الشيطان للإنسان
119	3 - أثر الذنوب ووجوب المبادرة إلى التوبة
123	المبحث التاسع : نظرات فيما ورد في العهدين القديم والجديد : في شأن آدم وحواء

الفصل الثاني

المرأة في قصة نوح عليه السلام « امرأة نوح »

- 139 المبحث الأول : دعوة نوح عليه السلام وموقف قومه من دعوته
- 143 المبحث الثاني : موقف امرأة نوح عليه السلام من دعوته
- 145 المبحث الثالث : دروس مستفادة من قصة نوح عليه السلام
- 147 المبحث الرابع : نظرات في العهد القديم : فيما ورد في شأن نوح عليه السلام

الفصل الثالث

سارة وهاجر - عليهما السلام زوجا الخليل إبراهيم - عليه السلام

- التمهيد ويدور الحديث فيه بإيجاز عن نبي الله إبراهيم عليه السلام - دعوته
ومحنته وهجرته إلى الشام ومنها إلى مصر مع زوجته سارة
- 155 المبحث الأول : البشارة بإسحاق عليه السلام وموقف إبراهيم عليه السلام وزوجه سارة من البشارة
- 159 الآيات الواردة في هذا الشأن
- 160 أولا : مجيء الملائكة لإبراهيم عليه السلام
- 161 ثانيا : كرم الضيافة
- 163 ثالثا : فزعه عليه السلام من ضيفه ومعرفته بحالهم
- 164 رابعا : البشارة بإسحاق عليه السلام وموقف إبراهيم عليه السلام وزوجه سارة من البشارة
- 166 تحقيق القول في ضحك سارة وسببه
- 172 المبحث الثاني : هاجر زوج سيدنا إبراهيم عليه السلام وأم الذبيح إسماعيل عليه السلام
- 177 المبحث الثالث : فوائد مهمة ودروس مستفادة
- 177 وهي : أولا : الذبيح : هو إسماعيل عليه السلام
- 185 ثانيا : إكرام الضيف
- 187 ثالثا : صورة المرأة في هذه القصة
- 189 المبحث الرابع : نظرات في العهد القديم - في ماورد في شأن سارة وهاجر عليهما السلام

الفصل الرابع

المرأة في قصة لوط عليه السلام امرأة لوط وبناته

- 203 التمهيد : لوط عليه السلام : قرابته من نبي الله إبراهيم عليه السلام ونشأته وهجرته معه إلى الشام
- 205 المبحث الأول : دعوة نبي الله لوط عليه السلام
- 209 المبحث الثاني : موقف قوم لوط من دعوته
- 211 المبحث الثالث : خيانة زوجته .
- 212 المبحث الرابع : هلاك المكذبين بنبي الله لوط عليه السلام ونجاته ومن آمن به
- 212 ويشتمل على : أولا : الملائكة في ضيافة لوط عليه السلام
- 212 ثانيا : موقف قوم لوط عليه السلام من ضيفه
- 214 ثالثا : حوار بين لوط وقومه
- 218 رابعا : فائدة مهمة
- 220 خامسا : نجاة لوط وبناته وهلاك امرأته
- 221 سادسا : هلاك قوم لوط وبيان صنوف العذاب التي حلت بهم
- 227 المبحث الخامس : فوائد حول القصة
- 227 ويشتمل على : أولا : فائدة حول ذم اللواط
- 232 ثانيا : عقوبة اللواط في الشريعة الإسلامية
- ثالثا : تنمة في بيان حكم السحاق وحكم إتيان البهائم وحكم إتيان المرأة في حيضها
- 236 أو في دبرها
- 243 دروس مستفادة من القصة
- 247 المبحث السادس : نظرات في العهد القديم فيما ورد في شأن لوط عليه السلام

الفصل الخامس

قصة يوسف عليه السلام مع امرأة العزيز

- 259 تمهيد : كلمة فى السياق
- 263 المبحث الأول : يوسف عليه السلام فى بيت العزيز
- 272 المبحث الثانى : مراودة امرأة العزيز ليوسف عليه السلام وعصمته
- 273 معنى المراودة وكيف تمت ؟ وموقف يوسف الصديق عليه السلام منها
- 279 تفسير الهم ومعنى البرهان
- 290 شهادة الجميع ببراءة يوسف عليه السلام وعفته
- 292 استباق الباب وقد القميص
- 294 امرأة العزيز تبادر باتهام يوسف عليه السلام - كذبا وزورا - حين فوجئت بالعزيز عند الباب
- 295 يوسف عليه السلام يدافع عن نفسه
- 296 الشاهد يحسم القضية . وموقف العزيز
- المبحث الثالث : حديث النسوة فى المدينة عن مراودة امرأة العزيز ليوسف عليه السلام وموقف
- 303 امرأة العزيز منهن
- 304 حديث النسوة
- 307 موقف امرأة العزيز منهن - مكر بمكر -
- 309 خروج يوسف على النسوة وأثر ذلك عليهن
- 312 اعتراف ... وإصرار ... وتهديد
- 315 المبحث الرابع : السجن طريق النجاة
- 329 المبحث الخامس : الفوائد المتعلقة بقصة يوسف عليه السلام مع امرأة العزيز
- 330 أساس التربية القومية
- 330 التربية حصن منيع
- 330 حرمة الاختلاط والخلوة بالمرأة الأجنبية وأثرهما السيئ
- 331 الاعتصام بالله عز وجل وصيانة الحرمة والحفاظة على النعمة

331	من تبصر العاقبة أمن الندامة
332	منزلة الإخلاص وثمرته
332	الحكم بالقرائن العقلية
333	فضيلة العفة
337	ذم الهوى
340	أنواع النفوس
342	فائدة : حول الغيرة
345	كيد النساء
346	معنى قول رسول الله ﷺ لعائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا : « إنكن صواحب يوسف »
348	فضل الصبر
348	فتنة النساء
349	القصص القرآني أحسن القصص
353	المبحث السادس : ما جاء في العهد القديم في شأن قصة يوسف الطيب وامرأة العزيز
357	الفصل السادس : المرأة في قصة أيوب الطيب
359	تمهيد وفيه تعريف موجز بنبي الله أيوب الطيب من حيث نسبه الشريف والمكان الذي عاش فيه
361	المبحث الأول : ابتلاء أيوب الطيب
363	المبحث الثاني : سؤال أيوب الطيب العافية
365	المبحث الثالث : استجابة الله له وكشف الضر عنه
368	المبحث الرابع : فوائد مهمة ودروس مستفادة من القصة
369	أولا : الفوائد : هل يجوز للزوج أن يضرب زوجته ؟
371	ما حكم الحيلة في الشريعة الإسلامية ؟
375	وهل الرخصة التي وقعت لأيوب الطيب يحتاج إلى مثلها في شريعتنا ؟
376	ثانيا : دروس مستفادة من القصة

المبحث الخامس : ما ورد في العهد القديم والجديد في شأن أيوب عليه السلام 377

الفصل السابع

المرأة في قصة موسى عليه السلام

تمهيد 385

المبحث الأول : حديث القرآن عن أم موسى وآسية بنت مزاحم امرأة فرعون

وأخت موسى 387

المبحث الثاني : موسى عليه السلام وابنتا الشيخ الكبير 402

المبحث الثالث : الفوائد المتعلقة بالآيات الكريمة 427

ثالثا : فوائد فقهية 430

1 - حق الطفل في الرضاعة الطبيعية 431

2 - عمل المرأة 435

3 - جواز عرض الولي ابنته على الرجل الصالح ليتزوج منها 447

4 - الكفاءة في النكاح 448

5 - الولاية على المرأة في النكاح 451

جملة من الأخلاق والآداب الفاضلة التي تستفاد من القصة : 459

النصح 460

إسداء المعروف 460

مقابلة المعروف بالشكر 462

خلق الحياء 463

القوة والأمانة 465

فضل تربية البنات والإحسان إليهن 466

الوفاء بالعهد 471

المبحث الرابع : نظرات في العهد القديم فيما ورد في شأن موسى عليه السلام 472

فهرس موضوعات المجلد الأول 483

المِرَاةُ فِي الْقِصَصِ الْقُرْآنِيِّ

إِعْدَادُ

الدكتور أحمد محمد الشقاوي

مُدَرِّسٌ بِقِسْمِ التَّفْسِيرِ وَعُلُومِ الْقُرْآنِ

بِطَلَبَةِ اسْتِثْنَاءِ الدِّينِ وَاللِّغْوَةِ - جَامِعَةِ الْأَزْهَرِ

المجلد الثاني

دار السلام

للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة

هذا الكتاب

رسالة علمية تقدم بها الباحث لنيل درجة العالمية الدكتوراه من كلية أصول الدين والدعوة الإسلامية بجامعة الأزهر الشريف قسم التفسير وعلوم القرآن وقررت اللجنة بالإجماع منح الباحث درجة العالمية الدكتوراه في التفسير وعلوم القرآن بمرتبة الشرف الأولى

كافة حقوق الطبع والنشر والترجمة محفوظة

للساشر

دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع

لصاحبها

عبد الفادر محمود البكار

الطبعة الأولى

1421 هـ - 2001 م

القاهرة - مصر 120 شارع الأزهر ص ب 161 الغورية
هاتف 5932820 - 2704280 - 2741578 (202) فاكس 2741750 (202)

دار السلام

للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة

الفصل الثامن

قصة نبي الله سليمان عليه السلام مع بلقيس ملكة سبا

ويتكون هذا الفصل من خمسة مباحث :

المبحث الأول : بيان القصة كما وردت في القرآن الكريم .

المبحث الثاني : فوائد حول القصة .

المبحث الثالث : نظرات في العهد القديم فيما ورد في شأن سليمان

عليه السلام .

المبحث الرابع : فائدة حول تفسير قول الله تعالى :

﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً ثُمَّ أَنَابَ ﴾

(سورة ص : 34) .

المبحث الخامس : من افتراءات اليهود على نبي الله داود عليه السلام .

في هذا الفصل

نحن على موعد مع ملك نبي ونبي ملك جمع بين نور النبوة وسلطان الملك ، ملك لمملكة واسعة الأطراف ، مترامية الأبعاد ، ومع ذلك فهي مملكة قوية فتيحة ، حصينة متينة ، بالعلم والإيمان ، والنور والبرهان ، والعدل والإحسان ، والعمل والجهاد ، والعدد والعتاد .

ملك علت همته ، وسمت مكائته ، ومضت عزيمته نبي أضاءت بصيرته وخلصت نيته إنه نبي الله سليمان ابن نبي الله داود عليه السلام . جمع الله له بين خيرى الدنيا والآخرة ، كما جمع الجن والإنس والطيور والوحوش من حوله في خدمته ورهن إشارته .

وفي ذلك نموذج طيب ورد حاسم على من ينادي بفصل الدين الحنيف عن الحياة وجوانبها المتعددة ، فإذا جاز ذلك في منطق الأديان المحرفة والوضعية وانطبقت عليها تلك الشعارات البراقة والكلمات الفضفاضة من مثل : لا سياسة في الدين ولا دين في السياسة ، ودع ما لقيصر لقيصر ومالله لله ... إذا جاز تطبيق ذلك على العلاقة بين تلك الأديان المحرفة الوضعية التي أفسدت الحياة البشرية على حد قول الإمام المجاهد الزاهد عبد الله بن المبارك :

وهل أفسد الدين إلا الملوك وأحبار سوء ورهبانها
لقد رتع القوم في جيفة يبين لذي العلم إنتانها

إذا جاز تطبيق مبدأ فصل السياسة والحياة عن الأديان المحرفة والوضعية فإن هذا لا ينطبق على الدين السماوي والصحيح الذي جاء بصلاحي الدنيا والآخرة وبما يراعى مصالح الفرد والمجتمع وما يناسب متطلبات الروح والجسد .

وفي مملكة نبي الله سليمان عليه السلام حيث العلم والإيمان والإحسان ، والمودة والرحمة ، والهداية والحكمة ، والتألف والتعاطف ، والتعاون والتضامن في هذه المملكة وفي هذا الجو المعطر بنسيم الحرية ، وفي هذه التربة الصالحة الطيبة النقية : نبتت المواهب ونهت العقول وعلت الهمم ، حين أحس كل فرد في المملكة بقيمته واستشعر أهميته وأدرك دوره المنوط به ، حتى النملة في واديهما والهدهد في عالمه كان لهما دور عظيم ، سجله القرآن الكريم ، آيات تلو آيات نفتبس منها العبر والعظات .

نحن في هذا الفصل على موعد مع الهدهد أول سفير في تاريخ الدعوة إلى الله تعالى ما أحوج سفراء المسلمين في هذا العصر وفي كل العصور أن يلتمسوا المنهج ويقتبسوا العبر من حديث القرآن الكريم عن الهدهد ، حينئذ سيجدون دروسًا عظيمة في الولاء والانتماء للحق ورجاله والبراء من الباطل وأتباعه ، والغيرة الصادقة ، وسعة الأفق ، ورحابة الفكر وسمو الغاية وصدق الوسيلة ووضوح الرؤية واستشعار المسؤولية والحكمة والفتنة والبلاغة والسرعة والأمانة وغير ذلك من الآداب والأخلاق الكريمة .

نحن في هذا الفصل على موعد مع ملكة قادت قومها إلى الإيمان بعد أن عاينت الأدلة والبراهين ، ملكة من أشهر الملكات على مر التاريخ ، سجل القرآن الكريم رحلتها من الكفر والضلال إلى الإيمان والهدى .

فمع الفصل الثامن : من هذه الرسالة ، والله المستعان .

المبحث الأول

بيان القصة كما وردت في القرآن الكريم

تمهيد : بين يدي قصة سليمان ﷺ مع بلقيس ملكة سبا

● من نعم الله ﷻ على عبده ونبيه سليمان ﷺ

لم يرد الحديث عن بلقيس ملكة سبا⁽¹⁾ في القرآن الكريم إلا في هذا الموضع من سورة النمل في سياق الحديث عن نعم الله تعالى على عبده ونبيه سليمان ﷺ ، وهي نعم كثيرة ومواهب جليلة من أجلها : النبوة ، وهي أعظم منحة وأجل نعمة ، ومن هذه النعم أيضا نعمة الملك ، والعلم والحكمة ، والحزم والقوة ، ومعرفة منطق الطير ، ومن هذه النعم أيضا : الجيش القوي العجيب الذي انتظم فيه الإنس والجن والطير - رغم ما بينهم من تنافر وتباعد واختلاف - ولكن الله تعالى ألف بينهم تحت قيادة واحدة ، ووفق سياسة راشدة ، في دقة ونظام ، وانقياد والتزام ، وتسليم وإذعان لنبي الله سليمان ﷺ قال تعالى : ﴿ وَحِشْرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودَهُ مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾⁽²⁾ .

● مرور الموكب العجيب والمشهد المهيب على وادي النمل

ويمر الموكب العجيب والمشهد المهيب الذي يتقدمه سليمان ﷺ والجن والإنس بين يديه والطير تظله ، يمر على وادي النمل ، وهناك تبادر نملة من الوادي لتحذر قومها وتأمروهم أن يدخلوا في مساكنهم حتى لا يمر سليمان ﷺ عليهم بجنده الكثيف ، فيحطموا النمل - دون أن يشعروا - ويسمع نبي الله سليمان صوت النملة ، وهي تخاطب قومها ، وتبهمهم وتحذرهم وتلمس لسليمان وجنده العذر ، فيزداد يقينا وإيمانا ، وشكراً وامتنانا بنعم الله عليه - يقول المولى ﷺ : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمَلَةٌ يَتَأْتِيهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾⁽³⁾ فَنَبَسَّ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَتِي وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ﴾⁽³⁾ .

(1) هي أرض باليمن مدينتها مأرب بينها وبين صنعاء مسيرة ثلاثة أيام ، سميت بهذا الاسم لأنها كانت منازل ولد سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان : معجم البلدان لياقوت الحموي 3/181 . ولسان العرب 3/1908 ، 1909 .

(2) سورة النمل : 17 .

(3) سورة النمل : 18 ، 19 .

ثم تمضي الآيات بعد ذلك لتتحدث عن قصة سليمان عليه السلام مع ملكة سبأ ، وما فيها من آيات عجيبة ومعجزات باهرة تدل على أنه عليه السلام مؤيد من قبل المولى عليه السلام ، وأنه استعمل النعم الإلهية والمواهب الربانية في الدعوة إلى الله عليه السلام ، وكان من ثمره ذلك إسلام بلقيس وقومها عن اقتناع تام وإيمان بما جاء به نبي الله سليمان عليه السلام .

تفقد الطير وغياب الهدهد

قال تعالى : ﴿ وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهَدَّهْدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ ﴿١﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لِيَأْتِنِي سُلْطَانٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ . (1)

تبدأ الآيات الكريمة بالحديث عن تفقد الطير وغياب الهدهد الذي سيكون له دور هام في أحداث القصة ﴿ وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ ﴾ أي قام سليمان عليه السلام بذلك الأمر .

﴿ وَتَفَقَّدَ ﴾ : على وزن تفعل ، وهو من فقد ، والفقْد هو عدم الشيء بعد وجوده ، فهو أخص من العدم (2) قال صاحب المصباح : [وتفقدته أي طلبته عند غيبته] (3) وذكر ذلك ابن منظور (4) .

وقال صاحب بصائر ذوي التمييز : [الفاء والقاف والذال : تدل على ذهاب الشيء وضياعه وتفقدته أي طلبته عند غيبته] (5) .

و ﴿ الطَّيْرَ ﴾ جمع واحده طائر ، والمراد هنا جنسه وجماعته التي كانت مسخرة لسليمان عليه السلام وكانت تصحبه في حله وترحاله وتظله بأجنحتها وتؤدي ما يُطلب منها من أوامر ومهام .

● واختلف المفسرون في سبب تفقده للطير : قيل لأنه غاب عن نوبته ، وقيل لأنه كان إذا نزل منزلا تظله الطير من حر الشمس ، فأصابه حرها من موضع الهدهد فنظر فرأى مكانه خاليا ، وروي عن ابن عباس أن الهدهد كان دليل سليمان على الماء ، وكان يعرف موضعه ويراه تحت الأرض كما يرى في الزجاجية ، ويعرف قربه وبعده

(2) المفردات للراغب مادة ف ق د 383 .

(1) سورة النمل : 20 ، 21 .

(4) لسان العرب 3444/5 .

(3) المصباح المنير مادة ف ق د 59/2 .

(5) بصائر ذوي التمييز لمجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي ت 817 هـ 203/4 ط المكتبة العلمية بيروت

فينقر الأرض ، ثم تجيء الشياطين فيحفرون ويستخرجونه في ساعة يسيرة (1) .

ولقد علق الشيخ سعيد حوى (2) على هذا الرأي الأخير بقوله : [إن ذكر هذه الخاصية عند الهدهد شيء ليس فيه نص في كتابنا ، ولا عن رسولنا ﷺ وإنما هو من كلام كبار المفسرين ، ولا نعرف من أين أخذوه ، هل هو استنباط ؟ أو تلقى عن أهل الكتاب ؟ وعلى كل حال فليس من المستبعد أن يكون عند بعض المخلوقات مثل هذه الخواص ، ففي عصرنا صار بإمكان بعض المختصين في علم الجيولوجيا (3) أن يعرفوا من خلال دراسة التربة احتمالات وجود الماء أو البترول في باطن الأرض كما أنه قد وجدت أجهزة تستطيع أن تستكشف الكثير مما هو في باطن الأرض ، فلا بد أن تكون عند بعض المخلوقات مثل هذه الخواص ، ألا ترى أن خاصية الرادار - الاستشعار عن بعد - موجودة عند الطواط ؟] (4) .

أقول : يمكن أن يكون معرفة هدهد سليمان بوجود الماء تحت الأرض خاصية له وهي معجزة لسليمان ﷺ : أن يوجد في أحد جنوده مثل هذه الخاصية العجيبة كما وجد

(1) يراجع تفسير الماوردي 218/3 والطبرسي 340/7 ، وتفسير الرازي 189/24 .

(2) هو الشيخ سعيد بن محمد ديب حوى ولد في حماة بسوريا سنة 1354 هـ سنة 1935 م ... درس في كلية الشريعة جامعة دمشق وتخرج منها .. كما تتلمذ على أيدي كبار علماء سوريا وكان لذلك أثر فعال في حياة الشيخ وفكره ودعوته وابتلي بالسجن خمس سنين (1393 هـ : 1398 هـ) بسبب مواقفه الثابتة الجريئة في نصرة الحق وسافر الشيخ إلى الأردن بعد خروجه من السجن واستقر بها حتى وفاته رحمه الله وحاضر الشيخ في كثير من البلدان العربية والإسلامية والأجنبية وتوفي رحمه الله يوم الخميس الموافق 1 شعبان سنة 1409 هـ 9 مارس سنة 1989 م هذا وللشيخ رحمه الله مؤلفات كثيرة منها - الأصول الثلاثة : الله - الرسول - الإسلام ، الأساس في التفسير ، الأساس في السنة وفقهها ، الأساس في قواعد المعرفة وضوابط الفهم للنصوص ، تربيتنا الروحية ، المستخلص في تزكية الأنفس ، مذكرات في منازل الصديقين والربانيين ، جند الله ثقافة وأخلاقا - جند الله تخطيطا - جولات في الفقهاء الكبير والأكبر - تراجع ترجمته في كتابه هذه تجربتي وهذه شهادتي ط مكتبة وهبه ط أولى سنة 1407 هـ - و (سعيد حوى مع الدعاة العاملين) عدد خاص من إصدار مجلة النذير بالتمسا فيينا سنة 1409 هـ - ومجلة البلاغ الكويتية ذو القعدة سنة 1409 هـ ع 996 . وتراجع رسالتي للماجستير وهي بعنوان : منهج الشيخ سعيد في كتابه الأساس في التفسير جامعة الأزهر كلية أصول الدين بالمنصورة قسم التفسير سنة 1415 هـ - 1994 م .

(3) الجيولوجيا : علم يبحث في طبقات الأرض من حيث تكوينها والعوامل المؤثرة فيها وتاريخها وما فيها من كنوز ومعادن يراجع المعجم الوسيط إصدار مجمع اللغة العربية 156/1 .

(4) الأساس في التفسير 4008/7 .

في الهدهد نوع من الإدراك والحكمة ليست في غيره من الهداهد .

وأقول أيضا : إن الأقمار الصناعية بإمكانها أن تستكشف ما في باطن الأرض من مياه ومعادن وغير ذلك من ثروات وذلك لأن الأشياء الموجودة على سطح الأرض أو في بطنها تبعث أشعة حرارية هي الأشعة تحت الحمراء وتختلف درجات هذه الأشعة باختلاف طبيعة ودرجة حرارة تلك الأشياء ، والأقمار الصناعية مزودة بأجهزة حساسة تميز بين مختلف أنواع الأشعة تحت الحمراء المنبعثة من الأشياء الموجودة على ظهر الأرض أو في باطنها ، كما يوجد في القمر الصناعي حاسب آلي (كمبيوتر) يعالج البيانات التي تعطيها تلك الأجهزة الحساسة ويرسل تلك النتائج إلى الأرض عن طريق جهاز الإرسال ، فيحصل العلماء على خرائط للمياه الجوفية والمعادن وسائر الثروات الموجودة على الأرض (1) .

● والذي أراه : أنه عليه السلام - كعادة القادة الحكماء الراشدين ، أصحاب العزائم القوية والهمم العلية - كان يتفقد أحوال الرعية وينظر في شئونهم ، ولو كان تفقده قاصرا على الهدهد لكان ظاهر النص (وتفقد الهدهد) ولكنه كان عاما لجميع الطير كما يستفاد من ظاهر النص ، وإذا ظهرت عناية القائد بتفقد أقل جنده شأنا وأضعفها قوة فإن تفقده لقوام جيشه وأساسه من الجن والإنس ثابتة من باب أولى ، قال الإمام الألوسي [والظاهر أنه عليه السلام تفقد كل الطير وذلك بحسب ما تقتضيه العناية بأمر الملك والاهتمام بالرعايا لا سيما الضعفاء منها] (2) .

ومن هنا : فإن تفقده عليه السلام للهدهد تابع لتفقده لأحوال جنده ، وليس لأمر خاص بالهدهد كما ذكر ذلك بعض المفسرين .

وهكذا اتصف النبي الملك سليمان عليه السلام بصفات اليقظة والدقة والحزم في إدارة شئون مملكته ، فهو يتفقد أحوال جميع جنده رغم كثرة عددهم واختلاف أجناسهم وأنواعهم .

﴿ فَقَالَ مَالِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ ﴾ .

(1) يراجع كتاب كل شيء عن الأقمار الصناعية وسفن الفضاء تأليف دافيد ديتز ترجمة د . محمد جمال الدين الفندي ص 46 ط دار المعارف ط 7 سنة 1992 م ويراجع أيضا الفضاء الخارجي واستخداماته السلمية تأليف د / محمد بهي الدين عرجون سلسلة عالم المعرفة الكويت عدد 214 .

(2) روح المعاني للألوسي 182/19 .

أصل الكلام أن يقال : ما للهدهد لا أراه ولكنه عدل عن ذلك إلى ﴿ مَا لِي لَا أَرَى
الْهُدْهَدَ ﴾ فكان الأسلوب على هذه الصورة أحسن وأبلغ .

وكان سليمان عليه السلام لما تفقد الطير لم يجد الهدهد في موضعه المعهود فسأل عنه لعله
حاضر مع الجنود في مكان آخر ، فلما أدرك غيبته أضرب عن الكلام السابق وقال ﴿ أَمْ
كَانَ مِنَ الْفَاعِلِينَ ﴾ ف ﴿ أَمْ ﴾ هنا منقطعة : بمعنى (بل) (1) .

واللام في ﴿ الْهُدْهَدَ ﴾ للعهد الذهني ، أي هدهد معين معهود ومعروف .

● وأرى - والله أعلم - أن لهذا الهدهد مزية خاصة تميزه عن باقي الهداهد وهو ما
سوف يظهر بعد ذلك من ذكائه وفطنته وحكمته وفصاحته وإيمانه وغيرته لدينه وولائه
الخالص وطاعته المبصرة لسليمان عليه السلام النبي الملك القائد .

● وكون الهدهد بهذه الصورة العجيبة معجزة لسليمان عليه السلام تشهد بصدق دعوته ،
ونعمة وهبة من الله له ، وإلى هذا المعنى أشار صاحب الظلال حيث بين أن ذلك
الهدهد موهوب بإدراك ليس كإدراك غيره من الهداهد وسائر الطيور بل إنه يعادل
مستوى العقلاء والأذكياء والأتقياء من الناس (2) .

فائدة : والطير من جملة المخلوقات التي تُسَبِّحُ المولى ﷻ قال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ
اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرِ صَفَّتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ
عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾ (3) .

وقال سبحانه : ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ
بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ (4) .

ويقول ﷻ : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ
وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالْدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ
وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴾ (5) .

وحال الهدهد كحال النملة التي خاطبت قومها فنبهتهم وأمرتهم وحذرتهم والتمست

(1) يراجع الكشاف للزمخشري 358/3 ومفاتيح الغيب للرازي 189/24 وروح البيان للبروسوي 6/336 .

(2) يراجع في ظلال القرآن 5/2636 . (3) سورة النور : 41 .

(5) سورة الحج : 18 .

(4) سورة الإسراء : 44 .

العذر لنبي الله سليمان عليه السلام وجنوده قال تعالى : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ وَادِ الْأَنْمَلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَأْتِيهَا النَّمْلُ آذِنُوا مَسْكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ (1) .

ومعرفة سليمان لمنطق الطير ليس باجتهاد منه وإنما هي معجزة من معجزات سليمان عليه السلام والمعجزة أمر خارق للعادة (2) بمعنى أنها مخالفة لنواميس الكون وطبيعته .

ولقد جعل الله سبحانه لكل أمة من الأمم لغات تفاهم بين أفرادها ، وجعل الله سبحانه وتعالى للطيور والحيوانات والحشرات لغات تتفاهم بها فيما بينها .

ولصاحب الظلال في هذا المجال كلام طيب ، يقول رحمه الله : [إن بعض المفسرين المحدثين ممن تبهرهم انتصارات العلم الحديث يحاولون تفسير ما قصه القرآن عن سليمان في هذا الشأن بأنه نوع من إدراك لغات الطير والحيوان والحشرات على طريقة المحاولات العلمية الحديثة ، وهذا إخراج للخارقة عن طبيعتها ، وأثر من آثار الهزيمة والانبهار بالعلم البشري القليل ، وإنه لأيسر وأهون شيء على الله أن يُعَلِّم عبدا من عباده لغات الطير والحيوان والحشرات ، هبة لدئية منه بلا محاولات ولا اجتهادات] (3) .

﴿ لَأَعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَأَذِجَنَّهُ أَوْ لِيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴾ (4) .

لما غاب الهدهد بغير إذن توعدده سليمان عليه السلام بالعذاب الشديد ، أو الذبح إن لم يكن له عذر يشفع له .

● قال الإمام القشيري : [ودل ذلك على تيقظ سليمان عليه السلام في مملكته وحسن قيامه وتكفله بأمور أمته ورعيته ؛ حيث لم يخف عليه غيبة طير هو من أصغر الطيور لم يحضر ساعة واحدة ... وفي تهديده للهدهد - إن لم يكن له عذر - بعذاب شديد دلالة على كمال سياسته وعدله في مملكته] (5) .

● نوع هذا العذاب الشديد :

ولقد تعددت أقوال المفسرين في تحديد نوع هذا العذاب ، فقيل إنه تنف ريشه ، وقيل يطلى بالقطران حتى لا يقدر على الطيران ، وقيل أن يحبس مع الأضداد ، والحبس

(1) سورة النمل : 18 .

(2) يظهرها الله على يد مدعي النبوة تصديقاً له في دعواه وهي مقرونة بالتحدي .

(3) في ظلال القرآن : 2637/5 . (4) سورة النمل : 21 . (5) لطائف الإشارات للقشيري 31/5 .

من أشد صنوف العذاب ، وقيل أن يلزمه خدمة الأقران ، وقيل أن يفرق بينه وبين إلفه وفي ذلك تعذيب له وحرمان .

علي حد قول الشاعر :

وأشدُّ ما لا قيْتُ من ألمِ الهوى قربُ الحبيبِ وما إليه وصولُ
كالعيسِ في البيداءِ⁽¹⁾ يقتلها الظما والماءُ فوقَ ظهورِها محمولُ

وقيل أن يبعده عن خدمته ، وكل هذه الوجوه محتملة ، والله تعالى أعلم .

قال الإمام القشيري [والأولى أن يقال من العذاب الشديد : كيت وكيت ، وألا يقطع بشيء دون غيره على وجه القطع]⁽²⁾ .

وقد توعد سليمان عليه السلام بالعذاب الشديد أو الذبح ، و (أو) هنا للتخيير بين أحد الأمرين ولقد ذكر العذاب أولاً ثم ذكر الذبح لأنه أشد من العذاب [وفي هذا ترقُّ من الشديد إلى الأشد فإن في الذبح تجرع كأس المنية وقد قيل : كل شيء دون المنية سهل]⁽³⁾ .

● وقال الزمخشري : [فإن قلت من أين حلُّ له تعذيب الهدهد ؟ قلت يجوز أن يبيح له الله ذلك لما رأى فيه من المنفعة والمصلحة كما أباح ذبح البهائم والطيور للأكل وغيره من المنافع ، وإذا سخر له الطير ولم يتم ما سخر له من أجله إلا بالتأديب والسياسة جاز أن يباح له ما يستصلح به]⁽⁴⁾ .

﴿ أَوْ لِيَأْتِيَنَّ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴾

﴿ أَوْ ﴾ هنا للتريديد بين الإتيان بالسلطان المبين وبين العذاب الشديد أو الذبح⁽⁵⁾ .

ويقصد هنا بالسلطان المبين : الحجة القاطعة التي تبين عذره في غيابه .

ولكلمة السلطان استعمالات متعددة في اللغة ، فهي ترد بمعنى العلم وبمعنى الحجة والبرهان وبمعنى التسلط والتمكين وبمعنى الحكم⁽⁶⁾ .

(2) لطائف الإشارات 32/5 ، 33 .

(4) الكشاف للزمخشري 359/3 .

(1) أي كالإبل في الصحراء .

(3) روح المعاني للألوسي 184/19 .

(5) حاشية الجمل 308/3 .

(6) يراجع المفردات للراغب ص 238 مادة س ل ط وبصائر ذوي التمييز 247/3 بصيرة في سلطان .

● يقول الإمام الألوسي [وما أطف التعبير بالسلطان دون الحجة هنا : لما أن ما أتى به من العذر انجرَّ إلى الإتيان ببلقيس ، وهي سلطان] (1) .

هذا : ولقد أسهب بعض المفسرين في سرد قصة الهدهد مع سليمان عليه السلام حتى ذكر بعضهم له اسما ، فقالوا إن اسمه يعفور ، أو عمير ، وأنه التقى بهدهد آخر من مملكة سبأ فتعرف كل منهما على صاحبه ثم صاحبه هدهد سبأ ليطلعه على ملك بلقيس فطلب سليمان عليه السلام الهدهد لغيابه عن موضعه فلم يجده فتهدهد وتوعده وأمر عريف الطير وهو النسر أن يحلق في الأجواء ليكشف عن مكان الهدهد فوجده قادما فأراد أن يمسك به فقال له الهدهد بحق الذي قواك وأقدرك عليّ إلا رحمتي ، فتركه وقال : ثكلتك أمك ، إن نبي الله قد حلف ليعذبك قال : وما استثنى ؟ قال : بلى : قال أو ليأتيني بسلطان مبین ، فلما قرب من سليمان أرخى ذنبه وجناحيه يجرها على الأرض تواضعا له ، فلما دنا منه أخذ برأسه فمده إليه ، فقال يا نبي الله : اذكر وقوفك بين يدي الله فارتعد سليمان عليه السلام وعفا عنه ، ثم سأله أين كان ؟ (2) .

أقول : إن هذا الكلام لا أساس له من الصحة ، وهو من وضع القصاصين الذين يذكرون عجائب وغرائب من وحي خيالاتهم ؛ حتى تلقى رواجا بين العوام فيقبلون على بضاعتهم المزجاة ويتزاحمون على مجالسهم الفارغة .

وكم من كلام لا يوافق حكمة لقي الرواج بسوق من لا يعلم

مجيء الهدهد إلى سليمان عليه السلام

قال تعالى : ﴿ فَمَكَتْ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَحِجْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَاءٍ يُقِينِ ﴾ (3) .

﴿ فَمَكَتْ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴾ لم يطل غياب الهدهد عن سليمان عليه السلام فلقد استغرق زمانا يسيرا .

● يقول صاحب الكشاف : [: ﴿ فَمَكَتْ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴾ أي غير زمان بعيد ، كقوله عن قريب أي عن زمان قريب ، ووصف مكته بقصر المدة للدلالة على إسرعه خوفا من

(1) روح المعاني للألوسي 184/19 .

(2) ذكر ذلك الزمخشري في تفسيره 358/3 ويراجع حاشية الجمل 307/3 ، 308 .

(3) سورة النمل : 22 .

سليمان عليه السلام ، وليعلم كيف كان الطير مسخرًا له وليبان ما أعطي من المعجزة الدالة على نبوته وعلى قدرة الله تعالى [(1)] .

● ويقول الطباطبائي في الميزان [الضمير في ﴿ فَمَكَتْ ﴾ لسليمان ، ويحتمل أن يكون للهدهد ، ويؤيد الأول سابق السياق ، ويؤيد الثاني لاحقه] (2) .

والراجع أن المراد به الهدهد لارتباطه بالكلام السابق واللاحق

﴿ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ ﴾ أي اطلعت على ما لم تطلع عليه وأدرت ما لم تدركه ، مع ما آتاك الله من العلم والحكمة .

● يقول الإمام البقاعي : [﴿ أَحَطْتُ ﴾ علما ﴿ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ ﴾ أنت مع اتساع علمك وامتداد ملكك ، والإحاطة بالشيء : العلم به من جميع جهاته ، وفي هذه العبارة : تنبيه على أن أضعف الخلق قد يُؤْتَى ما لا يصل إليه أقوام لتحقاق (3) إلى العلماء علومهم ، ويردوا العلم في كل شيء إلى الله تعالى] (4) .

والحكمة في : [ابتداء كلامه بذلك : لترغيبه في الإصغاء إلى اعتذاره واستمالة قلبه نحو قبوله فإن النفس للاعتذار المنبئ عن أمر بديع أقبل وإلى تلقي ما لا تعلمه أميل] (5) .

ولقد عَقَّبَ ذلك بقوله كما أخبر القرآن ﴿ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَاٍ يُقِينِ ﴾ .

● قال الزمخشري : [فإن قيل كيف خفي على سليمان عليه السلام أمر مملكة سبأ رغم سعة علمه وملكه ، فالجواب أن الله ﷻ قد أخفاها لمصلحة ، كما أخفى مكان يوسف على يعقوب عليه السلام] (6) .

فخفاء هذا الأمر على سليمان عليه السلام لا ينقص من قدره وإنما يكشف لنا عن أن البشر مهما أوتوا من علم فإن علومهم ضئيلة وقاصرة بالمقارنة بعلم الله ﷻ المطلق الكامل المحيط الشامل الذي لا تحده حدود فسبحان من وسع كل شيء رحمة وعلما .

(2) الميزان للطباطبائي 355/15 .

(1) الكشف للزمخشري 359/3 .

(3) أي تصاغر في أنظارهم لأن العلم بحر لا ساحل له ، وفيض لا انقطاع له ، قال تعالى : ﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلَيْهِ ﴾ سورة يوسف : 76 وقال ﷻ : ﴿ وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ سورة الإسراء : 85 .

(4) روح المعاني للألوسي 186/19 بتصرف .

(4) نظم الدرر للبقاعي 150/14 .

(6) الكشف للزمخشري 361/3 بتصرف .

وصف مملكة سبا وبيان ضلالهم وفساد اعتقادهم

﴿ إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَا سَجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٢٦﴾ ﴾ (1)

هذه المرأة هي بلقيس بنت شراحيل بن مالك بن ريان من نسل يعرب بن قحطان وقيل من نسل تبع الحميري ، وقيل اسم أبيها السرح بن الهداهد (2) .

ذكر الإمام الألويسي هذه الآراء وقال : وهذه الأخبار لا نستطيع أن نقطع بصدقها أو بكذبها والله أعلم بصحتها ، وأورد الإمام الألويسي أيضا ما ذكره بعض المفسرين من أن أمها كانت من الجن واسمها ريحانة بنت السكن ، وكان أبوها ملكا من ملوك الجن أراد أن يكافئ والد بلقيس على صنيع له فزوجه من ابنته فأنجبت له بلقيس ، ونقل الألويسي بعض الأخبار الواردة في ذلك ثم علق عليها بقوله [والذي ينبغي أن يعول عليه عدم صحة هذه الأخبار ، وفي البحر (3) « قد طولوا في قصصها - يعني بلقيس - بما لم يثبت في القرآن ولا الحديث الصحيح ، وما ذكر من الحكايات في هذا الشأن : أشبه شيء بالخرافات ... » وقد ذكر عن الحسن فيما روى ابن عساكر أنه قيل بحضرته : إن ملكة سبا أحد أبويها جني ، فقال : لا يتوالدون أي أن المرأة من الإنس لا تلد من الجن والمرأة من الجن لا تلد من الأنس ، نعم روي عن مالك ما يقتضي صحة ذلك ففي الأشباه والنظائر لابن نجيم (4) ... أنه كتب قوم من أهل اليمن إلى مالك بن أنس يسألونه عن نكاح الجن ، وقالوا إن ههنا رجلا من الجن زعم أنه يريد الحلال فقال : لا أرى بأسا في الدين ، ولكن أكره إذا وجدت امرأة حامل قيل لها من زوجك ؟ قالت من الجن فيكثر الفساد في الإسلام بذلك . انتهى .. ولعله لم يثبت عن مالك لظهور ما يرد على تعليل الكراهة ، ثم ليت شعري إذا حملت الجنية من الإنس هل تبقى على لطافتها

(1) سورة النمل : 23 - 26 .

(2) يراجع غرر التبيان في من لم يسم في القرآن لبدر الدين ابن جماعة ص 381 .

(3) البحر المحیط لأبي حيان : 67/7 .

(4) الأشباه والنظائر على مذهب أبي حنيفة النعمان للشيخ زين العابدين بن إبراهيم بن نجيم (926 - 970) هـ

فلا ترى؟ والحمل على كثافته فيرى؟ أو يكون الحمل لطيفا مثلها فلا يريان؟ فإذا تم أمره صار كثيفا وظهر كسائر البشر أو تكون متشكلة في صورة البشر مدة الحمل؟ كل هذه الوجوه لا تخلو من استبعاد كما لا يخفى [(1)] .

ويقول الإمام القرطبي : [قال الماوردي : والقول بأن أم بلقيس جنية مستنكر من العقول لتباين الجنسين ، واختلاف الطبيعة ، وتفارق الحسين ؛ لأن الآدمي جسماني والجنى روحاني وخلق الله الآدمي من صلصال كالفخار وخلق الجنان من مارج من نار ويمتنع الامتزاج مع هذا التباين ويستحيل التناسل مع هذا الاختلاف (2) ، قلت قد مضى القول في ذلك ، والعقل لا يحيله مع ما جاء من الأخبار في ذلك وإذا نظر في أصل الخلق فأصله الماء على ما تقدم بيانه ولا بعد في ذلك والله أعلم ، وفي التنزيل ﴿ وَشَارِكُهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ ﴾ (3) وقال تعالى : ﴿ لَمْ يَطْمِئِنَّا بِإِنْسٍ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانًّا ﴾ (4)] .

ولقد استدلل القرطبي بهذين النصين على جواز وقوع التناكح بين الإنس والجن (5) .

● ويقول الدكتور عمر سليمان الأشقر في كتابه عالم الجن والشياطين . [لا زلنا نسمع أن فلانا من الناس تزوج بجنية أو امرأة من الإنس خطبها جني ، وقد ذكر السيوطي آثارا وأخبارا تدل على وقوع التناكح بين الإنس والجن ، يقول ابن تيمية (وقد يتناكح الإنس والجن ويولد بينهما ولد وهذا كثير معروف (6) ، وعلى فرض إمكان وقوعه فقد كرهه جمع من العلماء كالحسن وقتادة والحاكم بن قتيبة وإسحاق بن راهويه وعقبة بن الأصم والإمام مالك (7) وذهب قوم إلى المنع من ذلك واستدلوا على مذهبهم بأن الله امتن على عباده الإنس بأن جعل لهم أزواجا من جنسهم قال تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾ (8) وقال تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا ﴾ (9) فعلى فرض وقوع الزواج فإن الغاية منه لا تتحقق - وعلى كل فهذه مسألة يزعم بعض

(1) روح المعاني للألوسي 189/19 بتصرف .

(2) النكت والعيون للماوردي 229/3 .

(3) سورة الإسراء : 64 .

(4) سورة الرحمن : 56 .

(5) يراجع الجامع لأحكام القرآن للقرطبي 289/10 ، 183/13 .

(6) مجموع الفتاوى 39/19 وكتاب الجن لابن تيمية ص 35 ط مكتبة الإيمان ط 2 سنة 1987 م .

(7) يراجع الأشباه والنظائر لابن نجيم ص 326 : 328 .

(8) سورة الفرقان : 54 .

(9) سورة الروم : 21 .

الناس وقوعها في الماضي والحاضر فإذا حدثت فهي شذوذ ... وقد يكون فاعلها مغلوبا على أمره لا يمكنه أن يتخلص من ذلك ، ومما يدل على إمكان ذلك قوله تعالى عن الحور العين : ﴿ لَمْ يَطْمِئِنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ ﴾ (1) فدلّت الآية على صلاحية الحور العين للإنس والجن على حد سواء .. [(2)] .

● والذي نراه في هذه المسألة والله أعلم أن التناكح قد يقع بين الإنس والجن فهو غير ممنوع عقلا لأن الجنى يتشكل بصورة البشر ، ولكن هذا الأمر شاذ ومخالف للفطرة التي فطر الله الناس عليها ، وإذا حدث فإنه لا يقع منه تناسل مطلقا ، وعلى هذا فإن ما ورد عن أم بليقيس أنها جنية أمر لا يشهد له نقل صحيح ولا يقر به عقل سليم ، إذ إن التناسل لا يمكن وقوعه من تناكح بين الإنس والجن ، والله أعلم .

● وفي قول الهدهد كما أخبر القرآن ﴿ إِنِّي وَجَدْتُ أَمْرَةً تَمْلِكُهُمْ ﴾ دلالة على فصاحته وبلاغته ؛ فهو لم يقل إني وجدت ملكة عليهم ، ولكنه قال إني وجدت امرأة تملكهم ، وكأنه بهذا الإخبار يتعجب ويدهش من قوم سبأ الذين اختاروا لامراة أن تكون ملكة عليهم ، وكان الأولى بهم أن يختاروا ملكا ، لا أن يسلموا الزمام لامراة ؛ تنقاد وراء العواطف ، وتنساق وراء الأهواء ؛ فالمرأة فُطرت على تقديم العاطفة على العقل ، وجبلت على أن تنقاد لا أن تقود ، وعلى أن تُحْكَم لا أن تُحْكَم .

﴿ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ .

أي من متاع الدنيا وزخرفها ، مما يحتاج إليه الملوك .

● قال صاحب الميزان : [﴿ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ﴾] وصف لسعة ملكها وعظمتها وهو القرينة على أن المراد بكل شيء في الآية كل شيء هو من لوازم الملك العظيم من حزم وعزم وسطوة ومملكة عريضة وكنوز وجنود مجندة ، ورعية مطيعة [(3)] .

(1) سورة الرحمن : 56 .

(2) عالم الجن والشياطين للأستاذ الدكتور عمر سليمان الأشقر ص 17 ط دار الكتب السلفية بالقاهرة 1985 م ولمزيد بيان في هذا الموضوع يراجع آكام المرجان في أحكام الجنان ليدر الدين بن عبد الله الشبلي تحقيق مصطفى عاشور مطبعة ابن سينا . ولقطة المرجان في أحكام الجنان لجلال الدين السيوطي تحقيق مصطفى عاشور ط مكتبة القرآن ، وعقد المرجان فيما يتعلق بالجن لعلي بن برهان الدين الحلبي مطبعة ابن سينا .

(3) الميزان للطباطبائي 355/15 .

● وقال الزمخشري : [فَإِن قَلتَ كَيْفَ قال ﴿ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ مع قول سليمان عليه السلام . ﴿ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ كأنه سوى بينهما ؟ قلت : بينهما فرق بين ؛ لأن سليمان عليه السلام عطف قوله على ما هو معجزة من الله ، وهو تعليم منطلق الطير ، فرجع أولا إلى ما أوتي من النبوة والحكمة وأسباب الدين ، ثم إلى الملك وأسباب الدنيا ، وعطفه الهدهد على الملك فلم يرد إلا ما أوتيت من أسباب الدنيا اللاتئة بحالها فبين الكلامين بون شاسع [(1)] .

﴿ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴾ .

● قال ابن كثير : [يعني سرير مملكتها كان مزخرفا بأنواع الجواهر والآلئ والذهب والحلي الباهرة] (2) .

● وقال ابن كثير أيضا : [قال علماء التاريخ وكان هذا السرير في قصر عظيم مشيد رفيع البناء محكم وكان فيه ثلاثمائة وستون طاقة في مشرقه ومثلها في مغربه قد وضع بناؤه على أن تدخل الشمس كل يوم من طاقة وتغرب من مقابلتها فيسجدون للشمس صباحا ومساء ، ولهذا قال بعد ذلك ﴿ وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾] (3) .

وورد في بعض كتب التفسير تفصيلات أخرى في وصف عرش بلقيس من حيث طوله وعرضه وقوامه وزخارفه (4) ، والله أعلم بحقيقة ذلك ، والأولى أن لا ننشغل بهذه التفصيلات - التي لم يرد بها نص صحيح - عن جوهر القصة ومقاصدها .

فإن قيل كيف سوى الهدهد بين عرش بلقيس وعرش الله في الوصف بالعظمة ؟ قلت بين الوصفين بون شاسع ، فعرشها عظيم بالنسبة إلى عرش غيرها من أبناء الملوك ، وعرش الله ﷻ هو العظيم عظمة مطلقة بالنسبة إلى جميع المخلوقات فليس هناك ما هو أعظم منه ولا ما يساويه ولا ما يدانيه أو يشابهه (5) .

(1) الكشاف للزمخشري 361/3 وراجع غرائب آي التنزيل 351/4 هدية مجلة الأزهر عدد جمادى الأولى سنة 1410 هـ .

(2) قصص الأنبياء لابن كثير ص 495 .

(3) تفسير القرآن العظيم لابن كثير 360/3 ، 361 .

(4) يراجع على سبيل المثال ما ذكره البروسوي في روح البيان 339/6 وما ورد في حاشية الجمل 309/3 وما أورده القرطبي 184/13 .

(5) يراجع تفسير القرطبي 184/13 ، وحاشية الجمل 309/3 - والتفسير الكبير للرازي 190/12 .

● ثم أشار الهدهد إلى ضلالهم وفساد اعتقادهم حين عبدوا الشمس (1) من دون الله وتركوا عبادة المولى ﷺ وهو الخالق ، والشمس مخلوقة مسخرة بأمر الله ﷻ قال ﷻ مخبرا عن كلام الهدهد ﴿ وَجَدْتُنَهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ مع أنها من مخلوقاته ﷻ والشمس مع كبر حجمها وأهميتها في حياتنا فهي ضئيلة بالنسبة إلى غيرها من النجوم التي تكبرها آلاف المرات ، فهناك ملايين المجرات التي تحتوي على شمس أكبر حجما من شمسنا وكلما تقدم العلم وتطورت - المناظير فإنها تكشف لنا عن مجرات جديدة ، فالشمس في ملك الله كحلقة في الفضاء ، أو كحبة رمل في صحراء .

● والشمس نعمة من نعم الله على البشرية فهي مصدر للدفع والحرارة والطاقة ولها منافع أخرى عديدة ، وهي مسخرة بمسيرة بأمر الله بنظام دقيق والحكمة وغاية يعلمها الله سبحانه ، قال تعالى : ﴿ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿١٦٦﴾ وَالْقَمَرَ قَدَرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيرِ ﴿١٦٧﴾ لَا الشَّمْسُ يَلْبَغِيهَا أَنْ تَدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا الَّتِيلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ (2) .

وقال ﷻ : ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمْ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمْ الَّتِيلَ وَالنَّهَارَ ﴿١٦٨﴾ وَءَاتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾ (3) .

وقال سبحانه : ﴿ وَمِنْ ءَايَاتِهِ الَّتِيلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ (4) .

(1) كشفت الدراسات العلمية وأثبتت أن قوم سبأ عبدوا الشمس وجعلوا لأنفسهم آلهة هي (عشر ، والمقة ، وهيس ، وذات الحميم ، وذات بعدان) ، و (عشر) في زعمهم ولد الشمس التي يطلق عليها أم عشر وهي في زعمهم آلهة البركة والخصب والنسل ، و (ذات حميم) يعني ذات الأشعة التي تشبه الحميم ، و (ذات بعدان) أي ذات البعد ، كنية قصد بها الشمس حيث تكون بعيدة عن الأرض ، وفي تسجيل القرآن وإخباره عن عبادة قوم سبأ في ذلك الحين إعجاز تاريخي حيث أثبتت الدراسات العلمية التاريخية ذلك .

يراجع الأنبياء في القرآن عفيف طيارة ص 291 ، والعرب وظهور الإسلام للدكتور محمد مصطفى النجار والدكتور أحمد مجاهد مصباح ص 29 : 31 ط الجامعة الإسلامية بليبيا سنة 1388 هـ .

(2) سورة يس : 33 ، 34 .

(3) سورة يس : 38 - 40 .

(4) سورة فصلت : 37 .

● وبعد أن تحدث الهدهد عن ملكة سبأ وعن سعة ملكها وعن خضوع قومها لها وعن عبادتهم للشمس من دون الله ، بيّن الهدهد أن هذه العبادة الباطلة ما هي إلا انحراف وضلال ناتج عن وسوسة الشيطان لهم .

قال تعالى مخبراً عن كلام الهدهد : ﴿ وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴾ (1) زين لهم إبليس اللعين هذا الباطل وزخرفه لهم فاغتروا به وظنوا أنهم على هدى .

والسبيل هو سبيل الحق والصواب ، وتعريفه باللام وإفراده : لبيان أنه لا سبيل غيره كما قال الشاعر :

الطرق شتى وطريق الحق واحدة والسالكون طريق الحق آحاد

● قال القرطبي : ﴿ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ ﴾ أي عن طريق التوحيد ، ويبيّن بهذا أن ما ليس بسبيل التوحيد فليس بسبيل ينتفع به على التحقيق ﴿ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴾ إلى الله وتوجيهه [(2)] .

﴿ أَلَّا سَجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبَاءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿١٦﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴾ (3) .

بعد أن بيّن الهدهد فساد عقيدتهم وضلال سعيهم ، كشف عن الدين الحق والاعتقاد الصحيح الصدق ، والفهم السليم وهو عبادة الله وحده فهو سبحانه الخالق الرازق ، المنفرد بالملك والسلطان ، لا رب غيره ولا معبود سواه .

قرئ ﴿ أَلَّا سَجُدُوا ﴾ بتخفيف اللام . وقرئ ﴿ أَلَّا سَجُدُوا ﴾ بتشديدها (4) .

● قال أبو البقاء العكبري في التبيان : [﴿ أَلَّا سَجُدُوا ﴾ في (لا) وجهان : أحدهما ليست زائدة ، وموضع الكلام النصب بدلا من (أعمالهم) على تقدير هي ألا

(1) سورة النمل : 24 . (2) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي 185/13 .

(3) سورة النمل : 25 ، 26 .

(4) قرأ أبو جعفر والكسائي بتخفيف اللام والوقف على (ألا يا) والابتداء بـ (اسجدوا) بهزمة مضمومة على الأمر ، على معنى ألا يا هؤلاء ، أو يا أيها الناس اسجدوا فحذفت همزة الوصل بعد (يا) وقبل السين من الخط على مراد الوصل دون الفصل ، وقرأ الباقر بتشديد اللام (ألا) ، ويسجدوا عندهم كلمة واحدة مثل ﴿ أَلَّا تَقُولُوا ﴾ سورة النساء : فلا يجوز القطع على شيء منهما . يراجع النشر في القراءات العشر 2/337 .

يسجدوا . والثاني : هي زائدة ، وموضعه نصب بـ (يهتدون) أي لا يهتدون لأن يسجدوا أو جر على إرادة الجار ، ويجوز أن يكون بدلا من السبيل أي وصددهم عن أن يسجدوا ، وقرأ (ألا يا اسجدوا) فألا للتنبية ، والمنادى محذوف أي يا قوم اسجدوا ، وقال جماعة من المحققين دخل حرف التنبية على الفعل من غير تقدير حذف كما دخل في (هلم)⁽¹⁾ .

● وقال الإمام الزمخشري [من قرأ بالتشديد أراد فصددهم عن السبيل لئلا يسجدوا فحذف الجار مع (أن) ويجوز أن تكون « لا » مزيدة ، ويكون المعنى : فهم لا يهتدون إلى أن يسجدوا ، ومن قرأ بالتخفيف فهو ألا يسجدوا ، ألا للتنبية ويا حرف نداء ومناداه محذوف كما حذفه من قال :

ألا يا اسلمي يا دارمي على البلى ولا زال منهلا بجرعائك القطر⁽²⁾ [⁽³⁾

- ويجوز أن يكون بدلا من أعمالهم ، والتقدير : وزين لهم الشيطان أعمالهم ﴿ أَلَا سَجِدُوا ﴾ أي عدم السجود⁽⁴⁾ .

وقوله تعالى : ﴿ أَلَا سَجِدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبَاءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ .

- كما ذكرنا - من تنمة كلام الهدهد لسليمان عليه السلام ، وفيه بيان لعظمة الله ﷻ وقدرته المطلقة وعلمه المحيط للجلي والخفي .

ومن دلائل قدرته سبحانه ومن مظاهر علمه : إخراج الخبء في السموات والأرض . والخبء : ما خفي في غيره .

قال الإمام الطبرسي : [الخبء : الخبوء وهو ما أحاط به غيره ، حتى منع من إدراكه ، وهو مصدر وصف به يقال خبأته أخبؤه خبأ ، وما يوجد الله تعالى فيخرجه من العدم إلى الوجود يكون بهذه المنزلة ، وقيل الخبء الغيب وهو كل ما غاب عن الإدراك ، فالمعنى : يعلم غيب السموات والأرض عن عكرمة ومجاهد ، وقيل إن خبء السموات

(1) التبيان في إعراب القرآن 1007/2 .

(2) البيت لذي الرمة والشاهد فيه هو أن يا للنداء والمنادى محذوف وتقدير الكلام ألا يا دارمي اسلمي فاستغنى عنه بما بعده وحذفه اهتماما بطلب السلامة لها وفي تكرير نداءها : نوع تفجع ، - يراجع / مشاهد الإنصاف على شواهد الكشاف للشيخ محمد عليان المذكور بهامش الكشاف 361/3 .

(4) يراجع حاشية الجمل 310/3 .

(3) الكشاف 361/3 .

المطر وخبء الأرض النبات [(1)] .

وقال القرطبي : [خبء السموات قطرها ، وخبء الأرض كنوزها ونباتها] (2) .

وقال الألوسي : [الذي يخرج الخبء أي يظهر الشيء المخبوء فيهما كائنا ما كان ، فالخبء مصدر أريد به اسم المفعول] (3) .

● والرأي الراجح في معنى الخبء أنه يشمل كل مخبوء في السموات من أجرام سماوية يظهرها الله ﷻ ومن ظواهر كونية وغير ذلك ، ويشمل كل مخبوء في الأرض من ماء ونباتات ومعادن وكنوز وغير ذلك .

والهدهد الذي يلتقط رزقه بمنقاره الطويل الذي ينقر به الأرض ، هذا الهدهد يستدل على قدرة الله وسعة علمه بإخراجه ﷻ الخبء من السموات والأرض وعلمه بما خفي وما أعلن ومن هنا فإن استدلاله ومنطقه من وحي طبيعته وعمله الذي يقوم به .

● يقول الأستاذ سيد قطب في كتابه التصوير الفني في القرآن : [والهدهد يتحدث عن الخبء بصفة خاصة وهو الموكل بفطرته بالبحث بمنقاره عن طعامه من المخبوء في الأرض ؛ فتكون لفتته هذه أنسب شيء لطبيعته] (4) .

﴿ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴾ .

فهو سبحانه المتفرد بالألوهية صاحب الملك والملكوت والعزة والجبروت وهو الحي الذي لا يموت قال تعالى : ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمَلِكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (5) .

وذكر العرش العظيم لأنه أعظم الأجرام وكل شيء يتضاءل دونه فالسموات والأرض وما فيهن وما بينهن من عوالم ومخلوقات وأجرام بالنسبة للعرش : كحلقة في فلاة .

والكون الذي نعيش فيه مليء بملايين الشمس التي تفوق شمسنا في الحجم وفي الضوء والحرارة . ومع ذلك فإن قوم سبأ عبدوا الشمس من دون الله تعالى ، ولذا ذكر

(2) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي 187/13 .

(1) مجمع البيان للطبرسي 342/7 .

(3) روح المعاني للألوسي 192/19 .

(4) التصوير الفني في القرآن للأستاذ سيد قطب ص 172 ط دار المعارف ط 10 بدون تاريخ .

(5) سورة آل عمران : 26 .

العرش في هذا المقام مناسبة أخرى أفصح عنها سيد قطب في كتابه التصوير الفني حيث يقول [... والهدهد حتى هذه اللحظة في موقف المذنب فالملك لم يردّ عليه بعد . فهو يلمح بأن هناك إلهاً هو رب العرش العظيم ليطامن الملك العظيم من عظمتة الإنسانية أمام هذه العظمة الإلهية] (1) .

وفي ذكر عرش الله تعالى في هذا المقام إشارة إلى ضآلة وحقارة عرش بلقيس ...

الهدهد سفير سليمان ﷺ إلى مملكة سبأ

﴿ قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٧٧﴾ أَذْهَبَ بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْفَهْهُ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّى عَنْهُمْ فَأَنْظَرَ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴾ (2) .

سمع نبي الله سليمان ﷺ إلى مقولة الهدهد بتمامها ، وأعجب بحكمته وفصاحته والتمس فيها الصدق والإخلاص والغيرة على الحق ، ولكنه ﷺ لم يتسرع في الأمر ولم يتعجل في الحكم ، وإنما تصرف بأسلوب الحكماء الراشدين فأراد أن يتثبت من هذا الأمر ، ويقف على صحة كلام الهدهد فقال ﷺ كما أخبر القرآن : ﴿ قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾ .

● قال الإمام الألوسي : [وكان مقتضى الظاهر : أن يقول : أم كذبت ، وإيثار ما عليه النظم الكريم للإيذان بأن كذبه في هذه المادة يستلزم انتظامه في سلك الموسومين بالكذب الراسخين فيه ، فإن مساق هذه الأقاويل الملفقة مع ترتيب أنيق يستميل قلوب السامعين نحو قبولها من غير أن يكون لها مصداق أصلاً لا سيما بين يدي نبي عظيم تُخشى سطوته ، لا يكاد يصدر إلا عن رسخت قدمه في الكذب والإفك وصار سجية له حتى لا يملك نفسه عنه في أي موطن كان ، وزعم بعضهم أن ذلك لمراعاة الفاصلة وليس بشيء أصلاً] (3) .

أقول : إن مراعاة الفاصلة من روعة النظم وعذوبته وحين يجتمع دلالة المعنى وفصاحة اللفظ وحسن الأسلوب مع روعة النظم وعذوبته فنحن أمام أرقى وأعلى درجات البلاغة ، وذلك وجه من وجوه إعجاز القرآن .

(1) التصوير الفني في القرآن / سيد قطب ص 172 - وطامن أي تواضع وانحنى وانخفض والمعنى ليتواضع

(2) سورة النمل : 27 ، 28 .

الملك وينحني أمام العظمة الإلهية .

(3) روح المعاني للألوسي 193/19 .

وقول سليمان عليه السلام : ﴿ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾ .

يحمل في طياته وعيداً وتهديداً للهدهد ، فهو إن كان صادقاً في ما أخبر عن قوم سبأ فسوف ينجو ، وإن كان كاذباً فإن اختلاق قصة مع تأليف الكلام وترتيبه لا يكون إلا من كذاب متوغل في الكذب منخرط في سلك الكذابين وفي هذه الحالة فسوف يضاعف له العقاب ، عقاب الغياب وعقاب الكذب .

﴿ أَذْهَبَ بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْفَهْهُ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّى عَنْهُمْ ﴾ ألق الكتاب إليهم ثم تنح عنهم إلى مكان قريب تتوارى فيه . ﴿ فَأَنْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴾ أي تأمل في موقفهم من هذه الرسالة .

موقف بلقيس من رسالة سليمان عليه السلام

﴿ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنَّي أَخْلَيْتُ إِلَيْكَ كِتَابٌ كَرِيمٌ ﴿١٨﴾ إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿١٩﴾ أَلَّا تَعْلَمُوا عَلَيَّ وَأَتُونِي مُسْلِمِينَ ﴿٢٠﴾ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ ﴿٢١﴾ قَالُوا نَحْنُ أَوْلُوا قُوَّةٍ وَأُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٢٢﴾ قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعْرَازَ أَهْلِهَا آذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٢٣﴾ وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ ﴾ (١) .

حمل الهدهد الرسالة في قدميه أو في منقاره وطار بها إلى مملكة سبأ ودخل قصر بلقيس وألقى الرسالة إليها .

قال الألوسي : [... روي أنه عليه السلام كتب كتابه وطبعه بالمسك وختمه بخاتمه ودفعه إلى الهدهد فذهب به فوجدها راقدة في قصرها بمأرب وكانت إذا رقدت غلقت الأبواب ووضعت المفاتيح تحت رأسها ، فدخل من كوة وطرح الكتاب على نحرها وهي مستلقية ، وقيل نقرها فانتهت فزعة وقيل أتاها والجنود والقادة حوالها فرفرف ساعة والناس ينظرون حتى رفعت رأسها فألقى الكتاب في حجرها فلما رأت الخاتم ارتعدت وخضعت فقالت ما قالت ، وقيل : كان في البيت كوة تنفذ أشعة الشمس منها كل يوم فإذا نظرت إليها سجدت فجاء الهدهد فسداها بجناحيه فرأت ذلك وقامت إليه فألقى الكتاب إليها] (٢) .

وهذه التفصيلات التي ذكرها الألويسي ، ليس هناك ما يصرح بصحتها ، والله أعلم بها ، والذي يهمنا هنا أن نعرف أن الهدهد قد ذهب بالرسالة وألقاها إلى بلقيس فتعجبت من شأنها وبادرت إلى قراءتها ثم رجعت إلى الملأ ، لتشاورهم في أمرها .

وصف الرسالة

﴿ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ ﴾ .

● وصفت الرسالة بالكرم بالكرم لكرم مضمونها ، ولأنها من عند ملك كريم ، وقيل كرم الكتاب لأنه مختوم ، وختم الكتاب من تمامه وحسنه وكرمه وقد ورد أن الرسول ﷺ كتب إلى العجم فقيل له إنهم لا يقبلون إلا كتابا عليه خاتم فاصطنع خاتما (1) .

وقيل وصف الرسالة بالكرم لأن الرسول كان طيرا فعلمت بلقيس أن من تكون الطير مسخرة له لا بد أنه عظيم الشأن كريم المنزلة (2) .

● وفي روح البيان للبروسوي [... لما كان الكتاب سببا لهدايتها وحصول إيمانها سمته كريما لأنها بكرامته اهدت إلى حضرة الكريم ، قال بعضهم لاحترامها الكتاب رزقت الهداية حتى آمنت ، كالسحرة لما قدّموا في قولهم يا موسى إما أن تلقي ، وراعوا الأدب رزقوا الإيمان ، ولما مزق كسرى كتاب رسول الله ﷺ مزق الله ملكه وجزاه على كفره وعناده] (3) الهلاك والخسران .

والذي نراه أن كرم الكتاب يرجع إلى هذه الأمور جميعها فهو كريم في مضمونه ومقصده ، كريم في ألفاظه وأسلوبه كما قال ابن كثير : [وهذا الكتاب في غاية البلاغة والوجازة والفصاحة فإنه حصّل المعنى بأيسر عبارة وأحسنها] (4) وهذا الكتاب كريم لأنه من عند ملك كريم وهو كريم لأنه وصل بطريقة عجيبة غريبة تدل على سعة ملك

(1) الحديث رواه الإمام البخاري في صحيحه ونصه : عن أنس بن مالك ؓ قال لما أراد رسول الله ﷺ أن يكتب إلى الروم قيل له إنهم لن يقرءوا كتابك إذا لم يكن مختوما ، فاتخذ خاتما من فضة ونقش (محمد رسول الله) فكأما أنظر إلى يياضه في يده . صحيح البخاري ك / اللباس باب / اتخاذ الخاتم ليختم به الشيء أو ليكتب به إلى أهل الكتاب وغيرهم . حديث 5875 - فتح الباري 10/337 .

(2) يراجع تفسير ابن كثير 361/3 ولطائف الإشارات للششيري 35/5 .

(3) روح البيان للبروسوي 342/6 ويراجع غرائب القرآن ورجائب الفرقان 99/19 .

(4) تفسير ابن كثير 361/3 ويراجع المعجزة والإعجاز في سورة النمل ص 66 ، 67 تأليف عبد الحميد طهماز .

مرسله وعظمة سلطانه وقوته .

مضمون الرسالة

﴿ إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿١﴾ أَلَّا تَعْلَمُوا عَلَيَّ وَأَتُونِي مُسْلِمِينَ ﴾

لما قرأت بلقيس الرسالة وعرفت مضمونها ومقصدها ومرسلها جمعت قومها لتقرأها عليهم وتطلب مشاورتهم في هذا الأمر ، فبدأت بذكر المرسل ثم ذكرت مضمون الرسالة وكأنها لما قالت ﴿ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيْكَ كِتَابٌ كَرِيمٌ ﴾ قيل لها ممن هو؟ وما مضمونه؟ فقالت ﴿ إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ ﴾ أي مرسل منه ﴿ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ... ﴾ أي هذا مضمونه (1) .

● وهذا الرأي هو الظاهر المتبادر من النص الكريم .

وعلي هذا الرأي فإن اسم سليمان عليه السلام ليس من مضمون الرسالة وإنما هو عنوانها لأنه مرسلها ، وقيل إنه من مضمون الرسالة ، ولكن لماذا قدم على البسملة التي تتضمن ذكر المولى عليه السلام يقول الإمام زين الدين محمد بن أبي بكر الرازي في كتابه غرائب آي التنزيل : [فإن قيل كيف استجاز لسليمان عليه السلام تقديم اسمه في الكتاب على اسم الله تعالى حتى كتب فيه ﴿ إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ قلنا لأنه عرف أنها لا تعرف الله تعالى وتعرف سليمان فخاف أن تستخف باسم الله تعالى إذا كان أول ما يقع نظرها عليه ، فجعل اسمه وقاية لاسم الله تعالى . وقيل إن اسم سليمان كان على (عنوانه) واسم الله تعالى في أول (طيه) (2) .

﴿ أَلَّا تَعْلَمُوا عَلَيَّ وَأَتُونِي مُسْلِمِينَ ﴾ .

نهاهم سليمان عليه السلام وحذرهم من العلو وهو التكبر والإعراض عن الحق ، والعلو سبب للحرمان من الإيمان ، وقرين للفساد والطغيان وسبيل للهلاك والخسران .

ولقد نهى سليمان قوم سبأ عن الإعراض عن منهج الله والتعالي عن آياته ، ودعاهم سليمان عليه السلام إلى الإسلام فقال ﴿ وَأَتُونِي مُسْلِمِينَ ﴾ أي طائعين منقادين مستسلمين لأمر الله تعالى .

(1) يراجع الكشاف للزمخشري 363/3 ومجمع البيان للطبرسي 343/7 .

(2) غرائب آي التنزيل 352/4 ، 353 هدية مجلة الأزهر عدد جمادى الأولى سنة 1410 هـ .

● قال الإمام الرازي [وهذا الكتاب مشتمل على تمام المقصود ، وذلك لأن المطلوب من الخلق ، العلم والعمل والعلم مقدم على العمل ف قوله ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ مشتمل على إثبات الصانع سبحانه وتعالى ، وإثبات كونه عالما قادرا حيا مريدا حكيما رحيفا ، وأما قوله ﴿ أَلَا تَعْلَمُونَ عَلَيَّ ﴾ فهو نهي عن الانقياد لطاعة النفس والهوى والتكبر ... ، فثبت أن هذا الكتاب على وجازته يحوي كل ما لا بد منه في الدين والدنيا ، فإن قيل النهي عن الاستعلاء والأمر بالانقياد قبل إقامة الدلالة على كونه رسولا حقا يدل على الاكتفاء بالتقليد (جوابه) معاذ الله أن يكون هناك تقليد وذلك لأن رسول سليمان عليه السلام إلى بلقيس كان الهدهد ، ورسالة الهدهد معجزة ، والمعجزة تدل على وجود الصانع وعلى صفاته وتدل على صدق المدعي فلما كانت تلك الرسالة دلالة تامة على التوحيد والنبوة لاجرم لم يذكر في الكتاب دليلا آخر] (1) .

بلقيس تطلب المشورة من قومها والحوار الذي دار بينها وبينهم

قال تعالى في سياق الحديث عن قصة سليمان مع بلقيس حين ورد كتاب سليمان إليها وجمعت قومها لتستشيرهم : ﴿ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّ إِلَهِي إِلَهُكَ كَرِيمٌ ﴿٢١﴾ إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿٢٢﴾ أَلَا تَعْلَمُونَ عَلَيَّ وَأَتُونِي مُسْلِمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ ﴿٢٤﴾ قَالُوا نَحْنُ أَوْلُوا قُوَّةٍ وَأُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعْرَاجَ أَهْلِهَا آذَانًا وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٢٦﴾ وَإِنِّي مُرْسَلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ ﴾ (2) .

طلبت بلقيس من قومها إبداء رأيهم وإسداء نصيحهم في هذا الخطب الجليل والحدث المفاجئ ﴿ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي ﴾ ، والفتيا والفتوى الجواب عما يشكل من الأحكام ، ويقال استفتيته فأفتاني بكذا ، قال تعالى : ﴿ وَاسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ ﴾ (3) ، وقال سبحانه : ﴿ فَاسْتَفْتِهِمْ أَهْمُ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ مَنْ خَلَقْنَا ﴾ (4) أي اسألهم عن هذا الأمر الذي أشكل عليهم ، وقال سبحانه في سورة يوسف ﴿ قَضَى الْأَمْرَ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴾ (5) .

(2) سورة النمل : 29 - 35 .

(1) مفاتيح الغيب للرازي 194/24 ، 195 .

(4) سورة الصافات : 11 .

(3) سورة النساء : 127 .

(5) سورة يوسف : 41 .

قال صاحب اللسان : [أفناه في المسألة : إذا أجابه عليها والفتيا تبين المشكل من الأحكام ، وأصله من الفتى وهو الشاب الحدث الذي شب وقوي فكأنه يقوى ما أشكل ببيانه ، فيشب ويصير فتياً أي قويا ، وأفتى المفتى إذا أحدث حكماً] (1) .

﴿ مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونَ ﴾ .

أي ما كنت لأقطع في أمر أو حكم بشيء إلا بشهودكم وبموجب آرائكم والتعبير بـ ﴿ كُنْتُ ﴾ للإيدان بأنها كانت وما زالت ، وإذا كانت هكذا فيما مضى فهي الآن وفي هذا الموقف الصعب وأمام هذا الحدث المفاجئ في أمس الحاجة إلى حكمتهم وقوتهم .

قال الإمام النيسابوري [أرادت بذلك استعطافهم ، وتطبيب نفوسهم واستطلاع آرائهم] (2) .

عناصر القوة

﴿ قَالُوا نَحْنُ أَوْلُوا قُوَّةً وَأَوْلُوا بِأَيِّ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴾ .

ذكروا لها أنهم يمتلكون قوة الأجساد والعتاد فوق أنهم في أهبة الاستعداد وهم مع قوة عددهم وعدتهم أصحاب جرأة وإقدام وصبر وثبات . والأمر مفوض إليها وفي هذا إشارة إلى وحدة كلمتهم واجتماع شملهم ؛ لأن القوة من غير وحدة لا قيمة لها والوحدة بلا قوة لا وزن لها . فلا بد من القوة والاتحاد حتى يتحقق النصر والأمجاد .

قال الشيخ سعيد حوى رحمه الله : [أرادوا بالقوة قوة الأجساد والآلات وباللبأس النجدة والبلاء في الحرب ، ﴿ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ ﴾ أي الأمر موكل إليك ، ونحن مطيعون لك فمرينا بأمرك نطعك ولا نخالفك ، كأنهم أشاروا عليها بالقتال ، أو أرادوا : نحن من أبناء الحرب لا من أبناء الرأي والمشورة ، وأنت ذات الرأي والتدبير] (3) .

فلقد فوضوا الأمر إليها وردوا القول عليها ، لتصنع ما شاءت وهم رهن إشارتها . وهم منقادون لها راضون بحكمها .

(1) لسان العرب 3348/5 مادة ف ت ا .

(2) غرائب القرآن و رغائب الفرقان للنيسابوري 94/19 .

(3) الأساس في التفسير للشيخ سعيد حوى 4011/7 ، 4012 ويراجع الكشاف للزمخشري 364/3 .

ويقول الأستاذ سيد قطب : [وهنا تظهر « المرأة » من خلف « الملكة ... » المرأة التي تكره الحرب والتدمير ، والتي تنضي⁽¹⁾ سلاح الحيلة والملاينة قبل سلاح القوة والمحاشنة والتي تنهياً في صميمها لمواجهة « الرجل » بغير العدا والخصام !]⁽²⁾ .

الهدية الرشوة

﴿ قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾⁽³⁾ وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ ﴿

لقد أحست بلقيس من كلام أولي الأمر من قومها حرصهم على الحرب وميلهم إليها ولكنها لا تريد أن تخوض غمار معركة لا يحمد عقباها ، خاصة مع سليمان الذي بلغت قوة جيشه وتنوع أسلحته أن كان الطير جندا من جنوده ، فكيف تغامر بجيشها وتراهن بقوته في معركة غير متكافئة ، أغلب ظنها أن سليمان عليه السلام سيذيقها من كأس الهزيمة علقما ، وسوف يُحوّل أفراسها مأتما ، ويبدل عزها ذلا ومهانة ومغرماً ، فكيف تجرّ على نفسها وعلى قومها ويلات الحرب وشدائدها العظام ، وعواقبها الجسام ! ؟ .

لقد لجأت إلى سلاح آخر - تفتت عنه ذهنها ودعت إليه فطرتها وطبيعتها الأنثوية - هذا السلاح هو سلاح الإغراء والمساومة والاحتتيال والمخادعة ، والمرأة لا تقوى في كثير من الأحيان على المواجهة الصريحة القاطعة والحاسمة ، ولكنها تركز إلى المراوغة والمداهنة وإن طال أمدها ، لقد قدّمت لما تريد بمقدمة تهدف من ورائها إلى إدخال الخوف والفرع في قلوب قومها من وطأة الحرب ونهايتها الأليمة ، ثم انتهت إلى ما عزمت عليه وهو إرسال الهدية إلى سليمان عليه السلام ﴿ وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ ﴾ ولقد عمدت إلى ذلك لتستميل فؤاده وتخطب وداده ، وقيل لتعرف من خلال ذلك إذا كان ملكا رسولا فهو مؤيد من قبل الله ، وكيف تواجه من يستمد القوة والنصر من الله ، وإذا كان ملكا غير مرسل فإن المال يكفيه والهدية تسكته وإن لم تنفع معه الهدية فليس أمامها خيار سوى الحرب وفي هذه الحالة فهي أمام ملك من ملوك الدنيا والقوة وشدة البأس هي التي تحسم المعركة .

● والهدية كما قال صاحب المفردات مختصة باللطّف الذي يُهدّي بعضنا إلى بعض⁽³⁾ .

(1) تنضي : نضى السيف نضوا وانتضاه سله من غمده أي أخرجه / لسان العرب 6/4457 مادة : ن ض ا .

(2) (3) المفردات للراغب ص 542 مادة ه د ي .

(2) ظلال القرآن ج 5/2640 .

وفي لسان العرب والهدية ما أتحت به ، والتهادي أن يُهدي بعضهم إلى بعض (1) .
ولقد أسهب بعض المفسرين وأغرب في الحديث عن الهدية وأوغلوا في ذلك غير
معتمدين على نقل صحيح (2) .

والذي نراه : أنها أرسلت إليه بهدية عظيمة قيمة ، والله أعلم بحقيقتها وقدرها .
يقول الإمام ابن كثير بعد أن نقل بعض ما ذكره المفسرون في الهدية [والله أعلم
أكان ذلك أم لا ؟ وأكثره مأخوذ من الإسرائيليات] (3) .

● وقال الألوسي بعد أن أورد بعضا مما ذكره المفسرون حول الهدية : [وكل ذلك
أخبار لا يُدري صحتها ولا كذبها ولعل في بعضها ما يميل القلب إلى كذبه والله تعالى
أعلم] (4) .

● ويقول الدكتور أبو شهبه معلقا على ما ورد في تفسير الهدية من إسرائيليات :
[ومعظم ذلك مما لا نشك أنه من الإسرائيليات المكذوبة ، وأي ملك في الدنيا يتسع
ملكه لفرش تسع فراسخ بلبينات الذهب والفضة ، وفي رواية وهب بن منبه ما يدل على
الأصل الذي جاءت منه هذه المرويات وأن من روى ذلك من السلف فإنما أخذه من
مسلمة أهل الكتاب ، وكان أولى بكتب التفسير أن تنزه عن مثل هذا اللغو والخرافات
التي تدست إلى الرواية الإسلامية فأساءت إليها] (5) .

موقف سليمان عليه السلام من الهدية الرشوة

قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونِي بِمَالٍ فَمَا آتَيْنِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا آتَاكُمْ بَلْ
أَنْتُمْ بِهَدْيِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦٥﴾ أَرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً
وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴿٣٦٦﴾ (6) وصل وفد بلقيس إلى سليمان عليه السلام ومعهم الهدايا النفيسة الثمينة ولما
علم سليمان عليه السلام غضب غضبا شديدا وقال كما أخبر القرآن الكريم ﴿ قَالَ أَتُمِدُّونِي

(1) لسان العرب 6/4641 مادة ه د ي .

(2) يراجع ما ذكره صاحب الكشاف 3/365 ، 366 والطبرسي في مجمع البيان 6/345 ، 346 والقرطبي في
الجامع 13/197 ، وما ورد في حاشية الجمل 3/312 ، 313 وفي روح البيان للبروسوي 6/344 ، 345 .

(3) تفسير القرآن العظيم لابن كثير 3/362 ، 364 . (4) روح المعاني للألوسي 19/198 : 200 .

(5) الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير للأستاذ الدكتور محمد بن محمد أبو شهبه (رحمه الله) ص 252 .

(6) سورة النمل : 36 ، 37 .

يَعَالٍ فَمَا ءَاتَيْنَهُ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا ءَاتَيْتُكُمْ ﴿١٠﴾ أي فالذي وهبه المولى ﷺ لي من النبوة والعلم والحكمة والملك ، خير مما آتاكم من متاع قليل وعرض زائل فلا حاجة لي في هديتكم ، ولا وقع لها عندي .

● قال صاحب الكشاف : [والمعنى : أن ما عندي خير مما عندكم وذلك أن الله تعالى آتاني الدين الذي فيه الحظ الأوفر والغنى الأوسع وآتاني من الدنيا ما لا يستزاد عليه فكيف يرضى مثلي بأن يُمدّ بمال ويُصانع به] (1) .

﴿ بَلْ أَنْتُمْ يَهْدِيَتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴾ .

● قال صاحب روح المعاني [هذه الجملة إضراب عما ذكر من إنكار الإمداد بالمال وتعليقه إلى بيان ما حملهم عليه من قياس حاله ﷺ على حالهم وهو قصور همتهم على الدنيا والزيادة فيها ، فالمعنى أنتم تفرحون بما يُهدى إليكم لقصور همتكم على الدنيا وحبكم الزيادة فيها] (2) .

أو أنتم تفرحون بما تهدون فرح تفاخر وامتنان أو تفرحون بهديتكم إذا ردت إليكم (3) .
وعلي هذا ف ﴿ بَلْ ﴾ هنا للانتقال من كلام إلى كلام من غير رجوع عن الأول .
﴿ أَرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَّا قِيلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾ .
أمر الرسول بالرجوع إلى قومه بالهدية الرشوة ، وحمله رسالة إلى قومه تحمل التهديد والوعيد لهم . وأفرد ذكر (الرسول) هنا مع جمع الضمائر الخمسة : (أتمدونن - آتاكم - أنتم - بهديتكم - تفرحون) : لأن خطاب أمير الوفد يتضمن خطاب جميع الوفد ، والرسالة في الغالب يحملها ويبلغها شخص واحد ، أما الإمداد فقد وقع منهم جميعاً (4) .

وقال الشيخ الشنقيطي [... الرسل جماعة وعليهم رئيس منهم فالجمع نظرًا إلى الكل والإفراد نظرًا إلى الرئيس لأن من معه تبع له ، والعلم عند الله تعالى (5)] .

(2) روح المعاني للألوسي 200/19 .

(1) الكشاف للزمخشري 366/3 .

(3) يراجع الكشاف 366/3 .

(4) يراجع روح البيان للبروسوي 346/6 وروح المعاني للألوسي 201/19 .

(5) دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب للشنقيطي ص 227 ملحق بأضواء البيان الجزء العاشر .

ومعنى ﴿ فَلَنَأْيِسَّنَهُمْ بِجُنُودٍ لَا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا ﴾ أي لا طاقة لهم بها والقِبَلُ : المقابلة والمقاومة فهم لا يقدرّون على مقابلتها ومقاومتها .

- ﴿ وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِّنْهَا أَذِلَّةً ﴾ أي من بلادهم وأذلة جمع ذليل وهي جمع قلة ، وفي ذلك مبالغة وتأكيد لذلتهم ، وجمع الكثرة أذلاء .

﴿ وَهُمْ صَغِيرُونَ ﴾ من الصغار وهو الرضا بالمنزلة الدنية (1) .

● قال صاحب لسان العرب : [والصغار الذل والضميم ، والصاغر الراضي بالذل والضميم] (2) .

● وقال الزمخشري : [والذل أن يذهب عنهم ما كانوا فيه من العز والملك ، والصغار أن يقعوا في أسر واستعباد (3)] .

● وقال الألوسي : [والصغار وإن كان بمعنى الذل إلا أن المراد به هنا وقوعهم في أسر واستعباد فيفيد الكلام أن إخراجهم بطريق الأسر لا بطريق الجلال (4)] (5) .

عرش بلقيس بين يدي سليمان ﷺ

قال تعالى : ﴿ قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴿٦٧﴾ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا ءَأَيْنِكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾ قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا ءَأَيْنِكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رآه مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴿٦٩﴾ ﴾ (6) .

لما رد سليمان ﷺ الهدية إلى بلقيس ، وأرسل مع أمير وفدها إنذارا شديد اللهجة ، أدركت بلقيس أنها أمام ملك رسول ، لا طاقة لها بمواجهته ، فما كان منها إلا أن شدت الرحال ومعها وفد من أشرف قومها لتعلن ولاءها واستسلامها لسليمان ﷺ ...

(1) المفردات للراغب مادة ص غ ر .

(2) لسان العرب لابن منظور 2453/4 مادة ص غ ر . (3) الكشف للزمخشري 366/3 ، 367 .

(4) الجلال هو الضرب بالسيف في القتال ، والجلد : القوة والشدة والصبر والصلابة .

(5) روح المعاني للألوسي 201/19 ويراجع مفاتيح الغيب للرازي 196/24 .

(6) سورة النمل : 38 - 40 .

وقد بلغه ﷺ خبر قدومها فأراد أن يريها بعضا من الآيات العجيبة التي تدل على تأييد المولى ﷺ له وعظيم فضله سبحانه عليه ؛ لتعلم بلقيس صدق دعوته وتسلم لله رب العالمين .

قال تعالى : ﴿ قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴾ (1) .

● طلب ﷺ من قومه أن يأتي أحدهم بعرش بلقيس بصورة عجيبة خارقة للعادة تلفت نظرها وتدعوها إلى الإيمان ، وقيل أعجب بعظمة عرشها وروعته فأراد أن يستحوذ عليه قبل أن تسلم فيعصمها إسلامها . قاله قتادة ، وهذا الرأي لا يليق بسليمان ﷺ وهو النبي الملك ؛ كيف يطمع في عرشها وقد رفض هداياها واستقبلها باستنكار وترفع وتعفف ، وقيل أراد أن يختبر عقلها ولهذا قال ﴿ نَكِرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنْظُرْ أَتَهْدِينِ أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴾ (2) وقيل خافت الجن أن يتزوج بها سليمان ﷺ فلا يزالون في الخدمة والسخرة لنسل سليمان ﷺ فقالوا له إن في عقلها خلافا فأراد أن يمتحنها (3) .

● والذي نرجحه في هذه المسألة أنه طلب مجيء عرشها ليكون أمرا خارقا وفعلا عجيبا تدرك به أن سليمان ﷺ مؤيد من قبل الله ﷻ ، وتنكير العرش أمامها اختبارا لذكائها ، ودعوة لها إلى إمعان النظر وإعمال الفكر .

● قال صاحب الظلال : [وترى ما الذي قصد إليه سليمان ﷺ من استحضار عرشها قبل مجيئها مسلمة مع قومها ؟ نرجح أن هذه كانت وسيلة لعرض مظاهر القوة الخارقة التي تؤيده لتؤثر في قلب الملكة وتقودها إلى الإيمان بالله والإذعان لدعوته] (4) .

عرض الجني

عرض سليمان ﷺ على جلسائه : من يأتي منهم بعرش بلقيس في أسرع وقت ؟ .

فنهض عفریت من الجن وقال كما أخبر القرآن الكريم : ﴿ أَنَا ءَأَيْنِكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ ﴾ (5) .

(1) سورة النمل : 38 .

(2) سورة النمل : 41 .

(3) المرجع السابق 225/3 ، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي 202/13 ، 203 .

(4) سورة النمل : 39 .

(5) في ظلال القرآن 2641/5 .

والعفريت : هو المارد القوي الشديد الداهية ⁽¹⁾ . واختلف في اسم هذا العفريت : قيل كان اسمه صخر ، وقيل ذكوان ، وقيل كودن ، وقيل دعوان ⁽²⁾ . والله أعلم بحقيقة اسمه .

موقف سليمان ﷺ من هذا العرض العجيب

لم يأبه سليمان ﷺ بعرض الجنني ولم يهتم به لأنه أراد أسرع من ذلك وقيل : [إن العفريت بنى قوله في إحضار العرش على دعوى قوته ، وفي ذلك من التظاهر والتفاخر بالقوة ما جعل سليمان ﷺ يعرض عنه] ⁽³⁾ .

عرض الذي عنده علم من الكتاب وقبول سليمان ﷺ لعرضه

﴿ قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ﴾ ⁽⁴⁾ . هذا القائل رجل من المقرين إلى سليمان ﷺ وكان عالماً تقياً ، عابداً مجتهداً في العبادة أكرمه الله تعالى وعلمه اسمه الأعظم الذي إذا دعي به أجاب ، وكان مجيء العرش بهذه الصورة كرامة له وتأيداً لسليمان ؛ وكرامات الأولياء امتداد لمعجزات الأنبياء .

● يقول الإمام القرطبي : [... وإن كان الفعل من آصف أو من غيره من أولياء الله فهي كرامة ، وكرامة الولي معجزة للنبي] ⁽⁵⁾ .

ويقول الإمام القشيري : [وكرامات الأولياء ملتحنة بمعجزات الأنبياء ، إذ لو لم يكن النبي صادقاً في نبوته لم تكن الكرامة تظهر على من يُصدِّقه ويكون من جملة أمته] ⁽⁶⁾ .

(1) قال الطبرسي العفريت الخبيث الداهية وأصل العفريت والعفريتة من العفر وهو التراب لأنه يصرع أقرانه في العفر . مجمع البيان 347/7 وقال القرطبي العفريت من الشيطان القوي المارد ، ويقال للشديد إذا كان معه خبث ودهاء . الجامع لأحكام القرآن 203/13 ، وقال الزمخشري العفريت من الرجال الخبيث المنكر الذي يعفر أقرانه ومن الشياطين الخبيث المارد . الكشاف 367/3 ، وقال صاحب المفردات : العفريت من الجن العارم الخبيث ، ويستعار ذلك للإنسان استعارة الشيطان له المفردات ص 339 ويراجع لسان العرب .

3010/4 مادة - ع ف ر .

(2) يراجع الجامع لأحكام القرآن للقرطبي 203/13 ويراجع حاشية الجمل 314/3 .

(3) لطائف الإشارات للقشيري 39/5 بتصرف . (4) سورة النمل : 40 .

(5) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي 206/13 . (6) لطائف الإشارات للقشيري 39/5 .

وفي هذا المعنى يقول الإمام ابن تيمية : [وكرامات الأولياء إنما حصلت ببركة اتباع رسول الله ﷺ فهي في الحقيقة تدخل في معجزات الرسول ﷺ] (1) .

● وفي مجيء العرش على يد الذي أوتي علما من الكتاب إشارة إلى مكانة العلم .

اختلاف المفسرين في تعيين ﴿ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ ﴾ والرأي الراجح

اختلف المفسرون في تعيين ﴿ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ ﴾ .

● قيل إنه (آصف بن برخيا) ابن خالة سليمان عليه السلام ووزيره وكتابه ومؤدبه في صغره (2) .

● واختار بعض المفسرين أن الذي عنده علم من الكتاب هو سليمان عليه السلام (3) .

● وقيل هو جبريل وقيل رجل يدعى (أسطوم) (4) .

● وقيل هو الخضر عليه السلام (5) .

● والذي نرجحه أن الذي عنده علم من الكتاب هو أحد المقرين إلى سليمان عليه السلام وكان عالما ورعا تقيا ، علمه المولى ﷺ اسمه الأعظم الذي إذا دعي به أجاب ، أما عن اسمه فالله أعلم به ، والصواب أن نتوقف في هذا الأمر الذي لم يرد فيه نص .

ولو كان الذي أتى بالعرش هو سليمان عليه السلام لما عرض الأمر على الملأ ، وظاهر النص يدل على أن الذي أتى بالعرش غير سليمان ؛ لأنه لا يعقل أن يكون المتكلم والمخاطب هو سليمان عليه السلام في وقت واحد ، وكما ذكرنا من قبل أن مجيء العرش على يد أحد

(1) الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان لابن تيمية ص 155 ط دار البيان - دمشق سنة 1405 هـ ودخول الكرامة في المعجزات من جهة كونها من المؤيدات للنبي لا أنها معجزة له ؛ فهي تأييد وتكريم وامتداد لمعجزات الرسول وسيأتي مزيد بيان لموضوع الكرامة عند حديثنا عن قصة مريم عليها السلام .

(2) يراجع تفسير ابن كثير 364/3 وتفسير القرطبي 204/13 وروح البيان للبروسوي 349/6 .
وتفسير الجلالين للمحلى والسيوطي ص 499 ط دار المعرفة .

وروح المعاني للألوسي 203/19 ، 204 .

(3) ورجح هذا الرأي الإمام الرازي في تفسيره وقال عنه (وهذا القول أقرب) مفاتيح الغيب 197/24 كما رجحه أيضا الأستاذ عبد الكريم الخطيب في كتابه التفسير القرآني للقرآن 243/19 ، 244 .

(4) يراجع الكشف للزمخشري 367/3 ويراجع تفسير الماوردي 226/3 .

(5) المرجع السابق 226/3 وحاشية الجمل 315/3 .

أتباع سليمان يُعَدُّ تكريماً له ﷺ وتأييداً له ودليلاً على صدق دعوته .

● والقول بأن قوله تعالى : ﴿ قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ﴾ خطاب من سليمان للعفريت لا يخلو من تكلف وتعسف في فهم النص القرآني .

● يقول الألوسي : [ولعل الأظهر أن القائل أحد أتباعه ، ولا يلزم من ذلك أنه ﷺ] لم يكن قادراً على الإتيان به كذلك ؛ فإن عادة الملوك تكليف أتباعهم بمصالح لهم لا يعجزهم فعلها بأنفسهم ، فليكن ما نحن فيه جارياً على هذه العادة ولا يضر في ذلك كون الغرض مما يتم بالقول وهو الدعاء ولا يحتاج إلى أعمال البدن وإتباعه كما لا يخفى ، وفي فصوص الحكم كان ذلك على يد بعض أصحاب سليمان ﷺ ليكون أعظم لسليمان في نفوس الحاضرين [(1)] .

● وفي غرائب القرآن للنيسابوري : [فلا يخفى أن كمال حال التابع وال خادم من جملة كمالات المتبوع والتخديم ولا يلزم من أن يأمر الإنسان غيره بشيء أن يكون الأمر عاجزاً عن الإتيان بذلك الشيء] [(2)] .

● وفي غرائب القرآن للنيسابوري - أيضاً - [وفي قوله تعالى : ﴿ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا ﴾ إشارة إلى أن سليمان ﷺ كان واقفاً على أن في قومه من هو أهل لهذه الكرامة ، وكرامات الأولياء من قوة إعجاز الأنبياء] [(3)] .

● ويقول الأستاذ عبد الحميد طهماز في كتابه المعجزة والإعجاز في سورة النمل :

[ولا يقال : كيف يخلق الله سبحانه هذا الخارق الكبير المعجز على يد رجل من حاشية سليمان ﷺ ولا يخلقه على يد سليمان نفسه ؟ ! لأننا نقول : الخصوصية لا تقتضي الأفضلية ، فالله سبحانه يخص من يشاء بما يشاء ولما يشاء سبحانه ﴿ لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ﴾ (4) . ثم إن خلق هذا الأمر المعجز الخارق على يد رجل من حاشية سليمان ، أجراه الله وخلقه من أجل سليمان وبطلب منه فهو وإن كان كرامة

(1) روح المعاني للألوسي 203/19 ، 204 ويراجع فصوص الحكم لمحيي الدين بن عربي ت 638 هـ ص 156 (فص حكمة رحمانية في كلمة سليمان) ط دار الكتاب العربي بيروت لبنان ط 2 سنة 1400 هـ .

(2) غرائب القرآن و رغائب الفرقان للنيسابوري 96/19 .

(4) سورة الأنبياء : 23 .

(3) المرجع السابق 99/19 .

لهذا الرجل فهو في الحقيقة معجزة للنبي سليمان عليه السلام ولهذا لما حدث الأمر الخارق ورأى العرش مستقرا عنده قال عليه السلام - كما أخبر القرآن الكريم ﴿ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴾ ، وهذا دليل على أن سليمان عليه السلام عرف أنه هو المقصود بهذه المعجزة الكبرى والنعمة العظمى [(1) فقام بشكر الله تعالى .

سرعة مجيء العرش بين يدي سليمان عليه السلام

﴿ قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا ءَاتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ﴾ (2) .

● قال ابن كثير : [قيل أي : ارفع بصرك ، وانظر مد بصرك مما تقدر ، فإنك لا يكلم بصرك إلا وهو حاضر عندك ، وقال وهب بن منبه : امدد بصرك فلا يبلغ مداه حتى آتاك به فذكروا أنه أمره أن ينظر نحو اليمن التي فيها هذا العرش المطلوب ، ثم قام فتوضأ ودعا الله] (3) .

● وقال الزمخشري : [ويجوز أن يكون هذا مثلا لاستقصار مدة المجيء به كما تقول لصاحبك افعل كذا في لحظة ، وفي ردة طرف ، والتفت ترني وما أشبه ذلك ، تريد السرعة] (4) .

● وقال القرطبي : [قال مجاهد : هو إدامة النظر حتى يرتد طرفه خاسئا حسيرا ، وقيل أراد مقدار ما يفتح عينه ثم يطرف ، يقال افعل كذا في طرفة عين وهذا أشبه] (5) .

● والذي نرجحه في معنى ﴿ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ﴾ أي بمقدار ما تفتح عينيك

(1) المعجزة والإعجاز في سورة النمل عبد الحميد طهماز ص 72 ط دار القلم سوريا سنة 1407 هـ ط 1 .

(2) سورة النمل : 40 .

(3) تفسير ابن كثير 364/3 بتصرف .

(4) الكشاف للزمخشري 368/3 .

(5) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي 206/13 .

ذكر الإمام الرازي في هذه المسألة وجها مخالفا للحقائق العلمية حيث قال عن ارتداد الطرف [والطرف تحريك الأجفان عند النظر ، فإذا فتحت الجفن فقد يتوهم أن نور العين امتد إلى المرئي ، وإذا أغمضت الجفن فقد يتوهم أن ذلك النور ارتد إلى العين فهذا هو المراد من ارتداد الطرف ، ولقد سألت أحد أطباء العيون هل تصدر العين ضوءا إلى الشيء المبصر أم أن الشيء المبصر هو الذي يصدر شعاعا إلى العين فأجابني بأن الشيء المبصر يرسل شعاعا إلى العين فتبصره بدليل أن الإنسان إذا كان في مكان مضيء لا يري ما في الظلام ولو كان في الظلام لرأى ما في المكان المضيء .

ثم تطرف وهي مدة وجيزة تدل على سرعة مجيء العرش .

● أما عن كيفية مجيء العرش في هذا الوقت الوجيز وبهذه الصورة العجيبة ، الخارقة للعادة : فلقد ذكر المفسرون في ذلك أقوالاً متعددة :

● قال الإمام الماوردي في تفسيره [... وكان العرش باليمن وسليمان بالشام فقيل : إن الله حرك به الأرض حتى صار بين يديه] (1) .

● وقال الإمام الزمخشري [... دعا آصف فغار العرش في مكانه بمأرب ثم نبغ عند مجلس سليمان عليه السلام بالشام بقدره الله] (2) .

● وقال الإمام الطبرسي [وذكر العلماء في ذلك وجوهاً (أحدها) أن الملائكة حملته بأمر الله تعالى ، (والثاني) أن الريح حملته ، (والثالث) أن الله تعالى خلق فيه حركات متوالية (والرابع) أنه انخرق مكانه حيث هو هناك ثم نبغ (3) بين يدي سليمان (والخامس) أن الأرض طويت له .. (والسادس) أن الله أعدمه في موضعه وأعادته في مجلس سليمان ...] (4) .

● وقال القرطبي [وقيل أعدم الله العرش في مكانه ثم أوجده بين يدي سليمان عليه السلام ، وقيل أعدم المسافة التي بين المكانين ثم أعادها ، وقيل بل جيء به في الهواء ، وقيل ظهر العرش من نفق تحت الأرض ، فالله أعلم أي ذلك كان] (5) .

● ويقول الأستاذ عبد الوهاب النجار [أما الطريقة التي أتى بها العرش على يد الذي عنده علم من الكتاب فشيء لم يكشف عنه العلم ، وهو نص صريح قاطع الثبوت والدلالة ، ومن التعسف تأويله ... وما دام الأمر معجزة خارقة للعادة فلا معنى للمكابرة ، إذ خارق النواميس له أن يخرقها بقدرته التي أوجدها بها - ولعل لمثل هذه الأعمال نواميس أخرى ، لم يكشفها العلم . أطلع الله عليها بعض عباده معجزة لهم في

(1) النكت والعيون للماوردي 277/3 .

(2) الكشاف للزمخشري 368/3 - ونبغ أي ظهر والنبوغ الظهور والخروج والمعنى خرج العرش وظهر عند مجلس سليمان يراجع اللسان 4328/6 مادة ن ب غ .

(3) نبغ الماء إذا خرج من العين وسميت العين ينبوعاً لأن الماء ينبع منها / اللسان 4326/6 مادة ن ب ع ونبغ العرش أي خرج من جوف الأرض وظهر بين يدي سليمان عليه السلام .

(4) مجمع البيان للطبرسي 349/7 بتصريف يسير .

(5) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي 206/13 بتصريف يسير .

وقت يجهل كل الناس تلك النواميس والله تعالى يخلق ما يشاء ويختار [(1)] .

● ويقول الأستاذ عبد الكريم الخطيب عن أهمية العلم وكيفية مجيء العرش : [وفي هذه الحادثة يتجلى فضل العلم ، وما يبلغ به أهله من مقامات عالية تتخاضع بين يديها كل قوة ، ويدل لها كل سلطان : إذا كان هذا العلم من موارد الحق ، وجرى في قلوب سليمة ونفوس طيبة ... والذين يستكثرون على العلم أن ينقل عرش ملكة سبأ من اليمن إلى الشام في غمضة عين ، والذين يقفون من هذا الخبر القرآني موقف المتوقف أو التشكك أو الاتهام حسبهم أن ينظروا في آيات العلم الحديث ، وما حقق من معجزات في عالم المادة حيث ينقل صور الأشياء من سطح القمر إلى الأرض في لحظة خاطفة على (شاشة التلفزيون) فإذا كان هذا هو سلطان العلم المادي على المادة فهل ينكر أن يكون سلطان العلم الروحي على المادة أضعاف ما للعلم المادي عليها ؟ إن العلم المادي ما هو إلا إشارة خافتة من إشارات العلم الروحي ، وليس إلا ومضة خافتة من سناه المتألق ، أما كيف يتم هذا ؟ فإن تصوره ممكن في ضوء العلم المادي] (2) .

● ثم يشير الأستاذ الخطيب إلى الكيفية فيقول [فالمادة كما نعرف - وكما أشرنا إلى ذلك من قبل ، هي نور تجسد من اجتماع الذرات وتركيبها على وجه الخصوص وإذا كان ذلك كذلك فإنه من اليسير على العلم الروحي أنه ينفخ في أي صورة من صور المادة فتتحول إلى ضوء ، ثم يستقبل هذا الضوء في أي مكان يريده ، فينفخ فيه مرة أخرى فإذا هو على صورته الأولى ، ومن يدري ! فلعل العلم المادي يبلغ يوما ، شيئاً من هذا في مجال العلم الروحي !] (3) .

● ويقول الشيخ محمد الغزالي في كتابه [نحو تفسير موضوعي] : [وجاء العرش بقدره الله إلى بيت المقدس من اليمن في لمح البصر ... وأظن تفسيراً لما وقع : أن المادة تحولت إلى طاقة تجري بسرعة الضوء ، ثم عادت سيرتها الأولى عرشاً تجلس عليه الملكة] (4) .

● والذي نراه في هذه المسألة : أن نقل العرش بهذه السرعة أمر خارق للعادة لا يخضع لنواميس الكون ولا يندرج تحت قوانين الطبيعة ؛ لذلك فلا ينبغي البحث فيه

(1) قصص الأنبياء لعبد الوهاب النجار ص 396 بتصرف يسير .

(2) التفسير القرآني للقرآن / للأستاذ عبد الكريم الخطيب 245/19 .

(3) المرجع السابق 245/19 .

(4) نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم للشيخ محمد الغزالي ص 292 ط / دار الشروق ط / ثلاثة سنة 1997 م .

وتحليله وتعليقه بصورة علمية ، ومهمة العلم هنا هي تقريب هذا الأمر إلى الأذهان ؛ والعلم الحديث قد توصل إلى كثير من المكتشفات والاختراعات مثل التطورات الهائلة في عالم الاتصالات (السلكية واللاسلكية) (1) وجهاز الحاسب الآلي والطائرات الأسرع من الصوت ، والصواريخ العابرة للقارات ، وسفن الفضاء ، وإذا كان العلم الحديث قد توصل إلى ذلك بفضل الله ﷻ وقدرته ، فإن مجيء العرش بهذه الصورة العجيبة الخارقة للعادة : مظهر من مظاهر قدرة الله ﷻ المطلقة ، ونعمة من النعم التي أسبغها المولى ﷻ على نبيه سليمان ﷺ وأجراها على يد ولي من الأولياء ، وكرامة الولي معجزة للنبي كما ذكرنا من قبل .

فنحن نؤمن بالكرامة كما هي ولا نطلب لها تعليلاً أو تحليلاً ، بل نفوض علمها إلى العليم الحكيم القادر القاهر .

سليمان ﷺ وشكر النعمة

قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا رآه مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّيَ غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴾ (2) .

● يعترف سليمان ﷺ بفضل الله عليه ، ويشكره تعالى ويزداد طاعة له وتقرباً منه ومعرفة به سبحانه ﴿ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي ﴾ فهو إنعام من الله وهو سبحانه المتفضل ولا متفضل سواه ﴿ لِيَبْلُوَنِي ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ﴾ لأن النعمة ابتلاء من الله فالمؤمن يشكر أنعم الله عليه ، أما الكافر فإنه يعرض عن المنعم ويصد عن سبيله ، وينشغل بالنعمة ، ويسيء استعمالها فيزداد كفراً وشفاء ﴿ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ﴾ حيث ينفعه الشكر في دنياه بالزيادة والبركة وفي الآخرة بحسن المآب وجزيل الثواب .

﴿ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّيَ غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴾ لا يضره ﷻ كفر الكافر ولا ينقص من ملكه شيئاً .

● وفي حاشية الجمل : [﴿ ءَأَشْكُرُ ﴾ أي بأن أراه فضلاً من الله بلا حول مني ولا قوة وأقوم بحقه ، ﴿ أَمْ أَكْفُرُ ﴾ بأن أثبت لنفسي فعلاً وتصرفاً في ذلك ، أو أقصر في أداء موجهه] (3) .

(1) التي جعلت الكون كله كالقرية الصغيرة المحدودة ، حيث أصبح في الإمكان الاتصال بأي مكان في أي

بلد كان . (2) سورة النمل : 40 .

(3) حاشية الجمل 315/3 ويراجع أنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي ص 502 .

● وقال الإمام الطبرسي : [وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَيْبَ عَنِّي كَرِيمٌ ﴿١﴾ غني عن شكر العباد غير محتاج إليه بل هم المحتاجون إليه لما لهم فيه من الأجر والثواب] (1) .

● وقال الإمام الرازي : [غني عن شكرهم لا يضره كفرانهم ، كريم لا يقطع عنهم نعمه بسبب إعراضهم عن الشكر] (2) .

● وقال الإمام الألوسي : [وَمَنْ كَفَرَ ﴿٢﴾ أَي لَمْ يَشْكُرْ ﴿٣﴾ فَإِنَّ رَيْبَ عَنِّي ﴿٤﴾ عَنْ شُكْرِهِ ﴿٥﴾ كَرِيمٌ ﴿٦﴾ بَتَرَكَ تَعْجِيلَ الْعُقُوبَةِ ، وَالْإِنْعَامِ مَعَ عَدَمِ الشُّكْرِ أَيْضًا] (3) .

● وفي الحديث القدسي (يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا ، يا عبادي كلكم ضال إلا من هديته فاستهدوني أهديكم ، يا عبادي كلكم جائع إلا من أطعمته فاستطعموني أطعمكم ، يا عبادي كلكم عار إلا من كسوته فاستكسوني أكسبكم ، يا عبادي إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعاً فاستغفروني أغفر لكم ، يا عبادي إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني ، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئاً ، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد ما نقص ذلك من ملكي شيئاً ، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد فسألوني فأعطيت كل إنسان مسألته ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المحيط إذا أدخل البحر ، يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيتكم بها فمن وجد خيراً فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه) (4) وقال ﷺ في كتابه الكريم : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾ ﴾ (5) وقال سبحانه : ﴿ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِنْ تَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ ﴾ (6) .

(1) مجمع البيان للطبرسي 350/7 بتصرف يسير . (2) مفاتيح الغيب للرازي 199/24 .

(3) روح المعاني للألوسي 206/19 .

(4) رواه الإمام مسلم في صحيحه عن أبي ذر الغفاري ؓ عن النبي ﷺ فيما يرويه عن الله تبارك وتعالى - كتاب البر والصلة والآداب / باب تحريم الظلم صحيح مسلم بشرح النووي 132/16 .

(5) سورة محمد : 38 .

(6) سورة فاطر : 15 - 17 .

قدوم بلقيس إلى سليمان ﷺ وتنكير عرشها

قال تعالى : ﴿ قَالَ نَكِرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنْظُرْ أَنهَدِيَّ أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴾ ﴿٤١﴾ فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكَ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوَيْبِنَا أَلْأَعْلَمُ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿٤٢﴾ وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِن دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴿٤٣﴾ (1)

تنكير العرش : تغيير بعض معالمه وهيئته بحيث يلتبس الأمر على بلقيس فلا تدري : أهو عرشها أم لا ؟ .

● قال الزمخشري : [﴿ نَكِرُوا لَهَا عَرْشَهَا ﴾ أي اجعلوه متنكرا متغيرا عن هيئته وشكله كما يتنكر الرجل للناس لئلا يعرفوه] (2) .

● وقال الطبرسي : [التنكير تغيير الشيء من حال إلى حال ينكرها صاحبها إذا رآها] (3) .

● والتغيير : قيل بنزع ما فيه من فصوص وجواهر ، وقيل بتغيير ألوانه كأن يجعل الأحمر أخضر والأخضر أحمر وهكذا ، وقيل بالزيادة فيه أو النقص منه أو بهما معا ، وقيل بأن يُجعل أعلاه أسفله ومقدمته مؤخرته (4) .

● أما عن العلة في التغيير : فقد قيل : حتى يلتبس الأمر عليها ويعرف مدى ذكائها وفطنتها وسرعة بديحتها ، ﴿ نَنْظُرْ أَنهَدِيَّ أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴾ .

● قال الإمام الرازي : [ولو ترك على ما كان عليه لعرفته لا محالة ، وكان لا تدل معرفتها به على ثبات عقلها وإذا غُيِّر دلت معرفتها أو توقفها فيه على فضل عقل ، ولا يمتنع صحة ما قيل إن سليمان ﷺ ألقى إليه أن فيها نقصان عقل لكي لا يتزوجها أولا تخطب عنده على وجه الحسد فأراد بذلك اختبار عقلها] (5) .

● وقال الإمام الزمخشري : [﴿ نَنْظُرْ أَنهَدِيَّ ﴾ لمعرفة ، أو للجواب الصواب إذا سُئِلَتْ عنه أو للدين والإيمان بنوبة سليمان ﷺ إذا رأت تلك المعجزة البينة من تقدم

(2) الكشاف 369/3 .

(1) سورة النمل : 41 - 43 .

(3) مجمع البيان 7/348 .

(4) يراجع النكت والعيون للماوردي 227/3 وتفسير القرآن العظيم لابن كثير 364/3 .

(5) مفاتيح الغيب للرازي 199/24 بتصرف .

عرشها وقد خلفته وأغلقت عليه الأبواب ونصبت عليه الحراس [(1)] .

● أقول : وحين ترى بلقيس عرشها منكرا وتعمل عقلها في هذا الأمر وتسلم بأنه هو ، حين ترى من القرائن ما يؤكد ذلك مع أنها تركته في قصرها وغلقت عليه الأبواب ووكلت لحراسته جنودا أقوياء ، ومع ما فيه من تغيير ، حين تمنع النظر في ذلك وتتوصل إلى الثبوت من أن هذا العرش المنكر هو عرشها ففي ذلك دعوة لها إلى إعمال الفكر وإمعان النظر في أمر دينها، ولو تفكرت في أمرها لتوصلت إلى بطلان ما كانت عليه من عبادة الشمس وصحة ما عليه سليمان عليه السلام من عبادة الرحمن .

﴿ فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكَ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴾ (2) .

● لما أقبلت بلقيس - ومعها وفد من قومها - إلى سليمان عليه السلام ، وعرض عليها عرشها وقد نكر : وقفت في حيرة وتردد لأن فيه من العلامات ما يثبت أنه عرشها ، ولكن لو كان هو: فما سر التغيير الذي طرأ على بعض معالمه ؟ ومن الذي جاء به وقد كان في حرز مكين ؟ وكيف وصل بهذه السرعة الفائقة ؟ .

﴿ فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكَ ﴾ فأجابت بعد تأمل وتدبر إجابة تدل على ذكائها وفطنتها وسرعة بديهتها : ﴿ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ ﴾ ، [ولم تقل : هو ؛ لاحتمال أن يكون مثله لا عينه ، فأنت بكلمة (كأن) التي تدل على غلبة الظن لجواز أن يكون عرشها ، مع قيام الشك في أنه يكون عرشا آخر غير عرشها] (3) .

● يقول الإمام الطبرسي : [فلم تثبته ولم تنكره ، وقد دل ذلك على كمال عقلها حيث لم تقل : لا ؛ إذ كان يشبه سريرها لأنها وجدت فيه ما تعرفه ، ولم تقل : نعم ؛ إذ وجدت فيه ما غير وبُذِلَ ولأنها خلفته في بيتها وحمله في تلك المدة غير داخل في قدرة البشر ، قال مقاتل : عرفته ولكن شبهوا عليها حين قالوا لها ﴿ أَهَكَذَا عَرْشُكَ ﴾ فشبهت حين قالت ﴿ كَأَنَّهُ هُوَ ﴾ ولو قيل لها هذا عرشك لقاتل نعم ، وقال عكرمة : كانت حكيمة خافت أن تقول : هو هو فتكذب ، وإن قالت : لا : تخشى أن تكذب ، فقالت : ﴿ كَأَنَّهُ هُوَ ﴾ شبهته به ، فقيل لها : فإنه عرشك فما أغنى عنك إغلاق الأبواب] (4) .

(1) الكشاف للزمخشري 369/3 وراجع - روح المعاني للألوسي 206/19 .

(2) سورة النمل : 42 .

(3) المعجزة والإعجاز في سورة النمل للأستاذ عبد الحميد طهماز ص 73 .

(4) مجمع البيان للطبرسي 350/7 .

● وفي حاشية الجمل [وشبهت عليهم مع علمها بحقيقة الحال ؛ تلويحا بما اعتراه بالتنكير من نوع مغايرة في الصفات مع اتحاد الذات ومراعاة لحسن الأدب في مجاراته] (1) .

● ومطابقة الجواب للسؤال يدل على بلاغتها وفطانتها ، فإذا كان العرش قد نُكِرَ والسؤال قد صيغ بأسلوب محير : فإن جوابها أيضا لم يكن قاطعا ، فترك المخاطب في حيرة فهي لم تُثَبِّت ولم تنف وفي ذلك ما يدل على رجحان فكرها واتساع أفقها وبلاغة تعبيرها .

﴿ وَأَوْتَيْنَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴾ (2) .

● قيل : إن هذه الجملة من تمام كلام بلقيس ، وقيل من كلام سليمان عليه السلام وعلى القول إنها من كلامها فإن المعنى : أنها علمت بكون هذا عرشها ، كما علمت بنبوة سليمان عليه السلام قبل علمها بمجيء هذا العرش بتلك الصورة الخارقة ، علمت بنبوته عليه السلام من خلال مجيء الرسالة التي حملها الهدهد وما ورد في طيها من دعوة صريحة صادقة إلى عبادة الله وحده وعلمت بنبوته عليه السلام من خلال رده للهدية الفاخرة ، كما علمت بنبوته عليه السلام من خلال ما حكاها لها الوفد عما رأوه وسمعوه ، والعلم وحده لا يكفي في صحة الإيمان وتمامه فلا بد أن يقترن العلم بالرضا والقبول والتسليم والإذعان والانقياد ، وهذه الأمور لم تجتمع في بلقيس بعد السر في ذلك يفصح عنه قوله تعالى ﴿ وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴾ (3) .

وعلى القول بأن قوله تعالى ﴿ وَأَوْتَيْنَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴾ من كلام سليمان عليه السلام فإن معناه : أننا أوتينا العلم بجلال الله وقدرته ووحدانيته من قبل أن تعرف ملكة سبأ هذه الأمور وفي هذا اعتراف من سليمان عليه السلام بنعم الله عليه وعلى أتباعه إذ هداهم للإيمان .

والذي نرجحه هنا أن قوله تعالى : ﴿ وَأَوْتَيْنَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴾ من تنمة كلامها ، حين رأت العرش وقالت ﴿ كَأَنَّهُ هُوَ ﴾ علمت أن مجيء العرش بهذه الصورة الخارقة يشهد ويؤكد على نبوة سليمان عليه السلام وهي قد علمت بنبوته عليه السلام قبل مجيئها

(2) سورة النمل : 42 .

(1) حاشية الجمل على الجلالين 316/3 .

(3) سورة النمل : 43 .

مستسلمة منقادة - وقبل رؤيتها لهذه الآية العجيبة .

﴿ وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴾ (1) .

● وصدها عن الإيمان ما عليه قومها من عبادة الشمس ، وحرصها على عدم مخالفتهم في عبادتهم ، وقيل وصدها سليمان عليه السلام أي منعها وصرفها عن عبادة الشمس من دون الله ؛ حين دعاها لعبادة الله تعالى ، والرأي الأول هو المختار ، وجملة ﴿ وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴾ جملة مستأنفة تعليلية ، وقعت جوابا لسؤال مقدر يتبادر إلى أذهان السامع وهو إذا كانت علمت بنبوة سليمان من قبل مجيئها ومن قبل رؤيتها للعرش فلماذا لم تؤمن ؟ فكان قوله تعالى : ﴿ وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴾ .

أي منعها من الإيمان ما عليه قومها من الكفر والضلال (2) .

دخول بلقيس الصرح وإسلامها

قال تعالى : ﴿ قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقِهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرٍ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (3) .

● الصرح : هو قصر من زجاج أمر سليمان عليه السلام ببنائه فكان قصرا مشيدا ، وأجرى الماء من تحته .

● قال ابن كثير : [أصل الصرح في كلام العرب هو القصر وكل بناء مرتفع قال عليه السلام : ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَهْمُنُنُ أَبْنُ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ ﴾ (4) .. والممرد المبنى بناء محكما أملس ﴿ مِّن قَوَارِيرٍ ﴾ أي زجاج ، وتمريد البناء تمليسه ، والغرض أن سليمان عليه السلام اتخذ قصرا عظيما منيفا من زجاج لهذه الملكة ليربها عظمة سلطانه فلما رأت ما آتاه الله وعاينت جلالة ما هو فيه وتبصرت في أمره انقادت لأمر الله تعالى وعرفت أنه نبي كريم وملك عظيم وأسلمت لله عز وجل . وقالت ﴿ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ

(1) سورة النمل : 43 . (2) يراجع : النكت والعيون للماوردي 228/3 .

وإرشاد العقل السليم لأبي السعود 203/4 ومفاتيح الغيب للرازي 200/24 ، 201 وروح البيان للبروسوي 352/6 ، 353

(3) سورة النمل : 44 .

وروح المعاني للألوسي 207/19 ، 208 .

(4) سورة غافر : 36 .

نَفْسِي ﴿ أَي بما سلف من كفرها وشركها وعبادتها وقومها للشمس من دون الله ، ﴿ وَأَسَلْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ أي متابعة لدين سليمان في عبادته لله وحده لا شريك له الذي خلق كل شيء فقدره تقديرا [(1)] .

ولقد زعم بعض المفسرين : أن السر في بناء الصرح ودعوة بلقيس إلى دخوله : أن الجن علموا أن سليمان عليه السلام عزم على تزوجها واصطفائها لنفسه فذكروا له جمالها وحسنها ولكنهم أخبروه أن في ساقها هلب (2) عظيم وأن مؤخر أقدامها كمؤخر الدابة فسأه هذا ؛ فاتخذ هذا الصرح ليعلم صحته أم لا ؟ فلما دخلت وكشفت عن ساقها رآها أحسن الناس ساقا وأحسنهم قدما ولكنه رأى على رجلها شعرا لأنها ملكة وليس لها زوج ، فأحب أن يزيل ذلك الشعر فأشاروا عليه بالموسى فقالت بلقيس لا أستطيع ذلك فأمر سليمان عليه السلام الجن أن يصنعوا شيئا ليزيل هذا الشعر فصنعوا (الثورة) (3) . (4) .

● والحق ما ذكرناه أولا أن سليمان عليه السلام بنى الصرح ليربها عظمة ملكه وسلطانه ، ولا يعقل أن يلجأ نبي الله سليمان عليه السلام إلى حيلة من الحيل حتى ينظر إلى ساق بلقيس ويتأمل في قدميها فيستخر الجن لبناء هذا القصر العظيم من أجل أن يتمكن من رؤية ساق تلك المرأة ، هذا الكلام لا أساس له من الصحة ، ولا يليق بعصمة الأنبياء ورفعتهم وترفعهم عن الحيل والهمم الدنية والأعراض الدنيوية ، إن سليمان عليه السلام يجتد نفسه ومن تحت سلطانه وإمرته للدعوة إلى الله ، وإعلاء كلمة الحق ، ولا يجتدهم لمصالح شخصية لا صلة لها بالدعوة .

● يقول الدكتور أبو شهبه في كتابه الإسرائيليات في كتب التفسير : [والحق إن سليمان عليه السلام أراد بينائه الصرح أن يربها عظمة ملكه وسلطانه وأن الله سبحانه وتعالى أعطاه من الملك ومن أسباب العمران والحضارة ما لم يعطها ، فضلا عن النبوة التي هي فوق الملك ، والتي دونها أية نعمة ، وحاشا لسليمان عليه السلام وهو الذي سأل الله أن يعطيه حكما يوافق حكمه تعالى فأوتيته أن يتحايل هذا التحايل حتى ينظر إلى ما حرم الله عليه ،

(1) تفسير ابن كثير 366/3 بتصريف يسير .

(2) الهلب الشعر الكثيف ، يراجع لسان العرب 4682/6 مادة (ه ل ب) .

(3) الثورة ما يزال به الشعر من طلاء يطلى به الجلد - يراجع لسان العرب 4573/6 مادة (ن و ر) .

(4) يراجع : تفسير الجلالين مع حاشية الجمل 317/3 ومجمع البيان للطبرسي 351/7 والجامع لأحكام القرآن

للقرطبي 209/13 والكشاف للزمخشري 370/3 .

وهما ساقاها ، وهو أجلّ من ذلك وأسمى ولولا أنها رأت من سليمان ما كان عليه من الدين المتين والخلق الرفيع لما أذعنت إليه لما دعاها إلى الله الواحد الحق ، ولما ندمت على ما فرط منها من عبادة الكواكب والشمس وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين [(1)] .

وفي قول بلقيس كما أخبر القرآن الكريم :

﴿ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (2) تصريح بإيمانها واقتدائها بنبي الله سليمان ﷺ .

● والإسلام هو دين الله تعالى الذي ارتضاه لعباده المؤمنين وهو دعوة جميع الأنبياء من لدن آدم وحتى خاتم النبيين والمرسلين سيدنا محمد ﷺ .

● وفي الإسلام تذوب الفوارق ؛ فالإسلام دين الوحدة والمساواة ، دين التآلف والتعاطف ، دين المودة والرحمة ، دين العدالة والسماحة ، والمسلمون جميعًا مهما اختلفت أجناسهم وألوانهم وألسنتهم ، ومهما تناءت أوطانهم : أمة واحدة ، وقلب واحد ، شعارهم كما قال شاعرهم :

أبي الإسلام لا أب لي سواه إذا افتخروا بقرى أو تميم

ومشاعرهم الإيمانية الفياضة يعبر عنها الشاعر الحكيم بقوله :

يا أخي في الهند أو في المغرب أنت لي أنت مني أنت بي

وصدق المولى ﷺ إذ يقول : ﴿ يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُّوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَأَعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾ (3) وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّةٌ رَكُومَةٌ وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ ﴾ (3) .

هل تزوج سليمان ﷺ من بلقيس

اختلفت أقوال المفسرين في هذه المسألة : بعضهم قال إنه تزوجها وقال آخرون إنه لم يتزوجها بل زوجها لملك همدان (4) ، وتوقف البعض في هذا الموضوع .

(1) الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير للدكتور محمد بن محمد أبو شهبة ص 350 ويراجع ما ذكره الحافظ ابن كثير في هذا المقام في تفسيره 3/366 .

(2) سورة النمل : 44 . (3) سورة المؤمنون : 51 ، 52 .

(4) همدان : من بلاد ما وراء النهر وهي الآن تابعة لجمهورية أذربيجان إحدى الدول التي استقلت من الاتحاد السوفيتي السابق .

يقول الإمام القرطبي [يروى أن سليمان عليه السلام تزوجها وأسكنها الشام ... قاله الضحاك ، وقيل تزوجها وردّها إلى ملكها باليمن وكان يأتيها على الريح كل شهر مرة ، فولدت له غلاما سماه داود مات في زمانه ، وقال محمد بن إسحاق ووهب بن منبه لم يتزوجها سليمان وإنما قال لها اختاري زوجا ، فقالت مثلي لا ينكح وقد كان لي من الملك ما كان ، فقال لا بد في الإسلام من ذلك فاختارت ذا تبع ملك همدان فزوجه إياها وردّها إلى اليمن ، وأمر زبيعة أمير الجن في اليمن أن يطيعه فبنى له المصانع ، ولم يزل أميرا حتى مات سليمان ، وقال قوم : لم يرد فيه خبر صحيح لا في أنه تزوجها ولا في أنه زوّجها] (1) .

وقال الإمام الرازي [واختلفوا في أنه هل تزوجها أم لا ، وهل تزوجها في هذه الحال أو قبل كشفها عن ساقها ، والأظهر في كلام الناس أنه تزوجها ، وليس لذلك ذكر في الكتاب ولا في خبر مقطوع بصحته ، ويروى عن ابن عباس أنها لما أسلمت قال لها: اختاري من قومك من أزوجك منه فقالت: مثلي لا ينكح الرجال مع سلطاني ، فقال : النكاح من الإسلام فقالت : إن كان كذلك فزوجني ذا تبع ملك همدان فزوجه إياه ثم ردّها إلى اليمن ، ولم يزل بها ملكا والله أعلم] (2) .

● والأولى أن نتوقف في هذه المسألة التي لم يرد بها نقل صحيح ، وأن نفوض علمها إلى الله تعالى .

(1) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي 13/209 : 211 بتصرف ويراجع قصص الأنبياء لابن كثير ص 499 .

(2) مفاتيح الغيب للإمام الرازي 24/201 .

المبحث الثاني

فوائد حول القصة

- 1 - فائدة حول الشورى في الإسلام .
- 2 - فائدة حول حكم تولي المرأة الولاية العامة والقضاء .
- 3 - فائدة حول رد سليمان عليه السلام الهدية .
- 4 - فائدة حول قوله تعالى : ﴿ وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴾ سورة النمل : 43 .
- 5 - دروس : في القيادة والحكم .
- 6 - فائدة حول الابتلاء .

1 - فائدة حول الشورى

جمعت بلقيس أكابر قومها لتشاورهم في شأن رسالة نبي الله سليمان عليه السلام قال تعالى : ﴿ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ ﴾ (1) . وفي هذا الموقف إشارة إلى أهمية الشورى ، وبهذه المناسبة نتحدث عن مكانة الشورى في الإسلام فنقول وبالله التوفيق :

● للشورى مكانتها في الإسلام : فهي ركن هام من أركانه ، ومقصد كريم من مقاصده ، ولها مجالاتها المتعددة في الأمور التي لم يرد فيها نص من كتاب أو سنة ، أما ما ورد فيه نص فلا مجال للتشاور والاجتهاد فيه ؛ لأنه لا اجتهاد مع نص .

قال تعالى في كتابه الكريم : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْدَمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَقْرَبُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ (2) وقال سبحانه : ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُمْنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا ﴾ (3) وقال عليه السلام : ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (4) فلا ينبغي تقديم قول أو رأي أو أمر على كتاب الله وسنة رسوله عليه السلام .

● والمؤمن الصادق هو الذي يمتثل لأوامر الله ورسوله ويجتنب ما نهى عنه الله وما نهى عنه رسول الله عليه السلام ، يفعل ذلك عن إيمان وتسليم ورضا وقبول .

● والمجتمع المسلم مجتمع الأمن والأمان والمودة والرحمة والبر والتقوى ، والتعاون والتضامن والتكافل والتشاور والتناصح .

● والحاكم المسلم يستشير أهل العلم والخبرة ، والنصح والرشد وفي الحديث الشريف يقول عليه السلام : « المستشار مؤتمن » (5) .

(1) سورة النمل : 32 .

(2) سورة الحجرات : 1 .

(3) سورة النور : 51 .

(4) سورة الأحزاب : 36 .

(5) رواه أبو داود في السنن عن أبي هريرة ك الأدب باب في المشورة حديث 5128 - 333/4 .

ورواه الترمذي في السنن ك الأدب باب المستشار مؤتمن - عن أبي هريرة وقال حديث حسن حديث 2822 - 115/5

ورواه عن أم سلمة وقال حديث غريب حديث 2823 - 116/5 ورواه ابن ماجة في السنن أبواب الآداب باب

المستشار مؤتمن حديث 3745 عن أبي هريرة وحديث 3746 عن أبي مسعود وقال البوصيري في الزوائد إسناد

حديث أبي مسعود صحيح ؛ رجاله ثقات - سنن ابن ماجة 1233/2 .

ويقول ﷺ : « الدينُ النصيحة » (1) .

فينبغي أن يتخير الحاكم المسلم من الأمة الإسلامية أفضلهم علما وأحسنهم خلقا وأخلصهم نصحا حتى يحقق بفضل مشورتهم المخلصة ما فيه الخير والصلاح للعباد والبلاد .

وصدق القائل :

إذا كنتَ في حاجةٍ مرسلًا فأرسلُ حكيما ولا تُوصيه
وإن خطبُ أمرٍ عليكَ التوى فشاوِزْ لبيبًا ولا تعصِه (2)

والشورى ضرورة من الضرورات التي لا بد منها وفي القرآن الكريم والسنة النبوية ما يبين لنا أهمية الشورى وضرورتها في إطار المجتمع المسلم .

قال تعالى : ﴿ فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ (3) .

وقال ﷺ : ﴿ وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ (4) .

وفي السيرة النبوية الكثير من مواقف الشورى ففي غزوة بدر طلب رسول الله ﷺ المشورة من الصحابة الكرام حيث قال أشيروا علي أيها الناس ، وهو يقصد بذلك الأنصار ﷺ وقد ثبتوا على الحق وصدقوا ما عاهدوا الله عليه ، ونصروا دعوة الله .

= وأورده الألباني في صحيح سنن ابن ماجة 308/2 ، 309 برقم 3019 ، 3020 - عن أبي هريرة وعن أبي مسعود وقال حديث صحيح - ورواه أبو يعلى في مسنده عن أم سلمة حديث 6870 - 244/6 .

(1) رواه الإمام مسلم في صحيحه عن تميم بن أوس الداري ونصه عن تميم ﷺ أن النبي ﷺ قال : الدين النصيحة قلنا لمن يا رسول الله قال لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم / صحيح مسلم ك / الإيمان باب / بيان أن الدين النصيحة صحيح مسلم بشرح النووي حديث (55) 37/2 ورواه الترمذي في السنن عن أبي هريرة ك / البر والصلة باب / النصيحة حديث 1926 - 286/4 .

(2) البيتان لصالح بن عبد القدوس ، يراجع بهجة المجالس وأنس المجالس لأبي عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر النمري القرطبي 456/2 .

وقال الحباب بن المنذر : يا رسول الله أمنزل أنزلك الله ؟ أم هي الحرب والرأي والمكيدة ؟ فقال رسول الله ﷺ : بل هي الحرب والرأي والمكيدة ، فقال الحباب يا رسول الله : فإن هذا ليس بمنزل فانهض بالناس حتى تأتي أذى ماء من القوم فننزله ثم نغور ما وراءه من القُلب ، ثم نبنى عليه حوضا فنملؤه ماء ثم نقاتل القوم فنشرب ولا يشربون فقال رسول الله ﷺ : لقد أشرت بالرأي (1) .

ولقد استشار رسول الله ﷺ بعض الصحابة الكرام في شأن أسرى بدر (2) فأشار عمر بقتلهم وأشار أبو بكر بقبول الفداء منهم وكان هذا قبل نزول قوله تعالى : ﴿ مَا كَانَتْ لِنَبِيِّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أُسْرَى حَتَّى يُتَخَذَ فِي الْأَرْضِ ... ﴾ (3)

● وفي غزوة الخندق أخذ رسول الله ﷺ برأي سلمان الفارسي بحفر الخندق (4) .

● وفي صلح الحديبية - وقد عقد الرسول ﷺ الصلح دون أن يدخل مكة وقد شق ذلك على الصحابة الذين كانت قلوبهم تهفو وتشوق إلى زيارة بيت الله الحرام وكان للصلح حكمه البالغة التي ظهرت فيما بعد ، ومن ذلك أنه كان فرصة عظيمة لنشر الدعوة الإسلامية في ربوع الجزيرة العربية - وقد أمر الرسول ﷺ الصحابة الكرام أن يقوموا فينحروا ويتحللوا من الإحرام فلم يبادر منهم أحد ، فأعادها ثلاث مرات فلم يبادر منهم أحد ، فذكر ذلك لأم سلمة ، وكانت معه فأشارت عليه برأي سديد قالت يا نبي الله اخرج إليهم ولا تكلم أحدا منهم بكلمة حتى تنحر بدنك وتدعو حالقك فيحلقك فخرج رسول الله ﷺ فلم يكلم منهم أحدا حتى فعل ذلك ، نحر بدنة وحلق فلما رأى الصحابة ذلك قاموا فنحروا وجعل بعضهم يحلق بعضا (5) .

● وهناك أمثلة أخرى كثيرة في السيرة النبوية وفي التاريخ الإسلامي تبين لنا كيف طبق المسلمون مبدأ الشورى تطبيقا عمليا ، فاجتمعت كلمتهم وطابت نفوسهم وتحقق العدل بينهم ، وفاضت بينهم روح المودة والمحبة والإخلاص والتضحية والولاء والانتماء ،

(1) السيرة النبوية لابن هشام 652/1 ط دار الفكر القاهرة .

(2) المرجع السابق 718/1 .

(3) سورة الأنفال : 67 .

(4) المرجع نفسه 1025/2 .

(5) يراجع الروض الأنف للسهبلي 37/4 ط / الطباعة الفنية المتحدة بالقاهرة .

ويراجع تفسير القرآن العظيم لابن كثير 199/4 ورأي أم سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا يدل على كمال عقلها وتمام رشدتها فلقد كان رأيا موقفا وكم من نساء عاقلات راشدات كانت لهن مواقف محمودة وآراء سديدة رشيدة .

وكان الترابط التام والانسجام⁽¹⁾ بين المحكومين والحكام .

2 - فائدة حول حكم تولي المرأة الولاية العامة والقضاء

أجمع الفقهاء على أن المرأة لا تتولى الولاية العامة للمسلمين واستدلوا على ذلك بالحديث الصحيح الذي رواه الإمام البخاري في صحيحه عن أبي بكرة رضي الله عنه قال : لما بلغ النبي صلى الله عليه وسلم أن فارساً ملكوا ابنة كسرى عليهم قال : « لن يفلح قوم ولّوا أمرهم امرأة »⁽²⁾ . فلا يجوز تولية المرأة إماماً للمسلمين .

ويرى جمهور الفقهاء : أن المرأة لا تتولى القضاء لأن القضاء مندرج تحت الولاية العامة فيحرم تولية المرأة قاضية ؛ ويأثم من يوليها ، وإذا وليت فلا يصح قضاءها لأن من ضمن شروط القضاء في الإسلام : الذكورة ؛ فلا يجوز تولية الأنثى⁽³⁾ .

(1) لمزيد بيان يراجع الشورى وممارستها الإيمانية للدكتور عدنان علي رضا النحوي ط 3 سنة 1409 دار النحوي بالرياض السعودية ويراجع فقه السيرة للبطوي ص 171 ، 189 - 233 ، 252 ط مكتبة الدعوة الإسلامية شباب الأزهر القاهرة ط 7 سنة 1398 هـ والشورى لمحمد سلامة جبر ط دار البحوث الأهلية الكويت ط 1 سنة 1400 هـ والشورى لمحمود الخالدي ط دار الجيل بيروت سنة 1404 هـ .

والشورى بين التأثير والتأثر د . عبد الحميد إسماعيل الأنصاري ط دار الشروق - القاهرة سنة 1402 هـ والشورى في ظل نظام الحكم الإسلامي / عبد الرحمن عبد الخالق ط دار القلم بالكويت سنة 1975 م والقيادة والجنديّة في الإسلام د . محمد السيد الوكيل ص 39 : 69 ط دار الوفاء بالمنصورة سنة 1406 هـ .

(2) رواه الإمام البخاري في صحيحه كتاب الفتن باب 18 حديث 7099 فتح الباري 58/13 .

(3) يراجع المنعي لابن قدامة الحنبلي 380/11 ط دار الكتاب العربي بيروت سنة 1403 هـ ويراجع المحرر في الفقه على مذهب الإمام أحمد بن حنبل لمجد الدين أبي البركات ومعه النكت والفوائد السنينة 203/2 ط دار الكتاب العربي - ويراجع منار السبيل في شرح الدليل على مذهب الإمام أحمد بن حنبل للشيخ إبراهيم بن محمد بن سالم 458/2 ط المطبعة الهاشمية بدمشق سنة 1375 هـ ويراجع الأحكام السلطانية للبقوي الفراء الحنبلي ت 458 هـ - ص 44 - ط الحلبي القاهرة ، ويراجع المنتقى شرح موطأ الإمام مالك للإمام الباجي تأليف القاضي أبي الوليد سليمان بن خلف بن سعد الباجي الأندلسي من أعيان الطبقة العاشرة ومن فقهاء المالكية (403 - 494) هـ - 182/5 ط دار الكتاب العربي بيروت ط 3 سنة 1403 هـ - ويراجع أحكام القرآن للقاضي أبي بكر بن العربي المالكي 1445/3 ، 1446 ط الحلبي ط 1 سنة 1377 هـ ويراجع الشرح الصغير على أقرب المسالك إلى مذهب الإمام مالك للعلامة أبي البركات الدرديري 187/4 ط دار المعارف بمصر سنة 1394 هـ ، ويراجع المجموع للنووي 127/20 ط دار الفكر . ويراجع كفاية الأخيار في حل غاية الاختصار للإمام تقي الدين أبي بكر بن محمد الحسيني الحصري الدمشقي الشافعي من علماء القرن التاسع الهجري 257/2 ط الحلبي والأحكام السلطانية للإمام الماوردي ص 53 ، 54 ط الخانجي بالقاهرة سنة 1327 هـ .

كما أن القضاء يحتاج إلى رجاحة عقل وحصافة رأي وقوة ذاكرة واستيعاب للقضايا والأحداث وتغليب الحق على العواطف ، والتفرغ للقضاء وراحة البال والمرأة قد يفوتها شيء من الوقائع والأدلة بسبب نسيانها الناتج عن طبيعتها وفطرتها وما يطرأ عليها من حيض وحمل وولادة ورضاعة وغير ذلك من الأعمال الموكلة بها ، وللمرأة عواطفها الجياشة ومشاعرها الفيّاضة التي قد تغلب عليها وتتحكم فيها فلا تحكم بالحق ، كما أنها حين تتولى القضاء تُعَرِّض نفسها للفتن ؛ فقد تخرج في ساعات متأخرة من الليل لمعاينة الجريمة ، وقد تحتاج إلى الانفراد بالمتهمين وفي ذلك ما يؤدي إلى الفتنة .

هذا ولم يثبت على مر التاريخ الإسلامي أن امرأة تولت القضاء في بلد من بلدان المسلمين التي تقيم شرع الله .

● وأجاز ابن جرير الطبري فيما روي عنه وابن القاسم من المالكية وابن حزم الظاهري أجازوا للمرأة أن تتولى القضاء⁽¹⁾ ، عند الطبري وابن حزم يجوز مطلقاً في جميع الأقضية وعند ابن القاسم يجوز في الأموال وفيما لا يتطلع عليه الرجال كالولادة وعيب نساء باطن .

وقد استدلوا على ذلك بأن الأصل في الأشياء الإباحة ما لم يقم دليل المنع فكل من يصلح للفصل في الخصومة فإنه يجوز وتصح ولايته القضاء ، والمرأة صالحة وقادرة على الفصل في الخصومة وليس بها مانع من ذلك ، ويرد على ذلك بحديث رسول الله ﷺ الذي يقول فيه « لن يفlech قوم ولوا أمرهم امرأة » كما أن المرأة يعتريها النسيان ويطرأ عليها الحيض والنفاس والحمل والولادة⁽²⁾ .

● وقد حكى القاضي أبو بكر بن العربي مناظرة جرت في هذه المسألة بين القاضي أبي بكر بن الطيب المالكي وبين أبي الفرج بن طرار⁽³⁾ في مجلس السلطان الأعظم

(1) يراجع المحلى لابن حزم الظاهري 429/9 والأحكام السلطانية للماوردي ص 65 - ونظام القضاء في الإسلام للمستشار جمال صادق المرصفاوي ص 25 ط المجلس العلمي بجامعة الإمام محمد بن سعود سنة 1404 هـ .

(2) يراجع نظام القضاء في الإسلام للأستاذ جمال صادق المرصفاوي ص 32 .

(3) هو : المعافي بن زكريا بن يحيى بن حميد بن حماد بن داوود النهرواني الجريري (أبو الفرج بن طرار) فقيه أصولي أديب نحوي لغوي (303 - 390) هـ ، تفقه على مذهب ابن جرير الطبري وناصره ، وولي القضاء ببغداد وتوفي بالنهروان . من مؤلفاته : المجلس الصالح الكافي والأنيب الناصح الشافي ، الحدود والعقود في أصول الفقه ، تفسير القرآن - والمرشد في الفقه وشرحه . تراجع ترجمته في معجم المؤلفين 302/21 - تاريخ بغداد 230/13 ، 231 ، وفيات الأعيان 132/2 - معجم الأدباء 151/19 شذرات الذهب 134/3 طبقات المفسرين للداوودي 322/2 .

عضد الدولة (1) قال أبو الفرج بن طرار : الدليل على أن المرأة يجوز أن تحكم : أن الغرض من الأحكام تنفيذ القاضي لها وسماع البينة عليها والفصل بين الخصوم فيها وذلك ممكن من المرأة كما مكانه من الرجل ، فاعترض عليه القاضي أبو بكر بن الطيب ونقض كلامه بالإمامة الكبرى فإن الغرض منها حفظ الثغور وتدبير الأمور ، وذلك يتأتى من المرأة كما يتأتى من الرجل . أ . ه .

● ولقد علق أبو بكر بن العربي على هذه المناظرة بقوله : ليس كلام الشيخين في هذه المسألة بشيء فإن المرأة لا يتأتى منها أن تبرز إلى المجالس وتخالط الرجال وتفاوضهم مفاوضة النظير لأنها إن كانت فتاة حرم النظر إليها وكلامها وإن كانت برزة (2) لم يجمعها بالرجال مجلس تزدحم فيه معهم وتكون مناظرة لهم ولم يفلح قط من تصور هذا ، ولا من اعتقده (3) .

● ولقد استدلوأ أيضا على جواز تولية المرأة القضاء : بأنها يجوز توليتها الإفتاء فيجوز أيضا توليتها القضاء ، ويجب عن هذا بأن هناك فرقا بين الإفتاء وهو إخبار عن حكم شرعي دون إلزام ، وبين القضاء وهو إخبار عن حكم شرعي مع الإلزام ، فالإفتاء ليس من الولايات أما القضاء فهو من الولايات ، ومن هنا فلا يقاس بينهما لاختلافهما (4) .

● كما استدلوأ أيضا بخبر يفيد تولية عمر رضي الله عنه امرأة تدعى أم الشفاء الحسبة (5) على السوق ، وإذا جازت الحسبة للنساء فإن القضاء جائز قياسا على الحسبة ، وأجاب القاضي ابن العربي عن ذلك بأن هذا الخبر لم يصح وأنه من دسائس المبتدعة في الأحاديث وهو

(1) هو السلطان عضد الدولة أبو شجاع صاحب العراق وفارس ، ابن السلطان ركن الدين حسن بن بويه الديلمي عاش ثمانين وأربعين سنة وتوفي سنة 372 هـ ببغداد سير أعلام النبلاء 249/16 والمنتظم لابن الجوزي 113/7 والكمال لابن الأثير 84/8 .

(2) هي التي تخرج وتظهر على الرجال كبير سنهما .

(3) أحكام القرآن لابن العربي 3/1445 ، 1446 .

(4) يراجع نظام القضاء في الإسلام ص 33 كما يراجع كتاب / حول اتفاقية القضاء على إشكال التمييز ضد المرأة من المنظور الإسلامي للإمام الشيخ جاد الحق علي جاد الحق شيخ الأزهر السابق ص 105 هدية الأزهر عدد صفر 1416 هـ . ويراجع روضة القضاء وطريق النجاة للعلامة أبي القاسم علي بن محمد بن أحمد الرحبي السمناني ت 499 هـ تحقيق د . صلاح الدين الناهي 62/1 ، 63 ط مؤسسة الرسالة ط 2 سنة 1404 هـ .

(5) الحسبة : هي أمر بالمعروف إذا ظهر تركه ونهي عن المنكر إذا ظهر فعله - أوهي وظيفة دينية من باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . يراجع الفقه الإسلامي وأدلته للدكتور وهبة الزحيلي 6/763 ، 764 .

مخالف لحديث الرسول ﷺ : « لن يفلح قوم ولّوا أمرهم امرأة » وهو أيضا مناف للمواقف العمرية الحكيمة الراشدة فالمرأة إذا تولت الحسبة في الأسواق فسوف يؤدي ذلك إلى اختلاطها بالرجال وتزاحمها معهم ومن هنا فإن هذا الخبر غير صحيح (1) .

● وذهب الحنفية عدا زفر (2) إلى أن المرأة لا يجوز أن تتولى القضاء ، فإن وليته يأثم من ولاها وتصح أقضيتهما في غير الحدود والقصاص .

وفي حاشية ابن عابدين [والمرأة تقضي في غير حد وقود ، وإن أثم المولي لها] (3) . وفي بدائع الصنائع : [وأما الذكورة فليست من شرط جواز التقليد في الجملة ؛ لأن المرأة من أهل الشهادات في الجملة إلا أنها لا تقضي في الحدود والقصاص لأنه لاشهادة لها في ذلك وأهلية القضاء تدور مع أهلية الشهادة] (4) .

● وعليه هذا فالحنفية يحرمون تولية المرأة القضاء كما ذهب إلى ذلك الجمهور ولكن المرأة إذا قضت أجزيت أقضيتهما بخلاف ما ذهب إليه الجمهور من حرمة توليتها وبطلان أقضيتهما .

ولقد استدل الأحناف على صحة مذهبهم بأن القضاء كالشهادة والمرأة تشهد في غير الحدود والقصاص فتكون أهلا للقضاء في غير الحدود والقصاص ، ويرد على ذلك بأن الشهادة تختلف عن القضاء ؛ فالشهادة هي إثبات حق للغير على الغير أما القضاء فهو الإلزام بحكم شرعي ، ولو جاز لكل من تقبل شهادته أن يكون قاضيا لجاز لكثير من العوام الذين تقبل شهادتهم أن يعينوا قضاة لأن شهادتهم مقبولة ، وهذا أمر لا يجوز .

وصفوة القول فيما سبق : أنه لا يجوز للمرأة أن تتولى الولاية العامة ولا القضاء ، وإن قضت فأقضيتهما غير ملزمة ، فضلا عن إثمها وإثم موليها ، وعمل المرأة في الولاية العامة أوفى القضاء أمر لا يتناسب مع طبيعتها كأنثى ، تتغلب عليها العواطف ، وتضعف في كثير من المواقف ، وتغتر بالمظاهر ، ولا يتواكب مع مهمتها في الحياة كزوجة وأم لأن الولاية العامة والقضاء يحتاج إلى عمل متواصل وجهد وافر .

(1) يراجع أحكام القرآن للقاضي أبي بكر بن العربي 3/1445 ، 1446 .

(2) هو أبو الهذيل زفر بن الهذيل بن قيس الكوفي وهو واحد من كبار أئمة المذهب الحنفي ولد في أصبهان سنة 110 هـ وتوفي بالبصرة سنة 158 يراجع مقدمة كتاب الفقه الإسلامي وأدلته 30/1 ، 31 .

(3) حاشية ابن عابدين (محمد أمين) رد المحتار على الدر المختار 356/4 ط دار إحياء التراث العربي ط 2 سنة 1407 هـ .

(4) بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع للعلامة الفقيه علاء الدين أبي بكر بن مسعود الكاساني الحنفي ت 587 هـ

4079/9 ط مطبعة الإمام بالقاهرة سنة 1392 هـ سنة 1972 م ويراجع فتح القدير 486/5 للكمال بن الهمام .

3 - فائدة حول رد سليمان ﷺ للهدية

من الدروس المهمة التي نتعلمها من قصة سليمان : درس الأمانة في الحكم ، والترفع عن حطام الدنيا الزائل والثبات أمام المساومات والإغراءات التي يلجأ إليها أهل الباطل ، وقد كان بإمكان سليمان ﷺ أن يقبل الهدية ويرض بها ، ويرضخ لرغبة بلقيس فيتركها وشأنها ، ويذرها وقومها في الضلال والإضلال ، ولكنه رد الهدايا وترفع عن الدنيا قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانُ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَهُ اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا آتَانَكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدْيِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴾ (1) .

وكانت بلقيس قد أرسلت الهدية لتستميل فؤاده وتخطف وداده ، وقيل لتعرف من خلال ذلك ما إذا كان ملكا رسولا فهو مؤيد من عند الله ، وكيف تواجه من يستمد القوة والعزة والنصرة من الله ! وإذا كان ملكا غير مرسل فإن المال يكفيه والهدية تلهيه وتصرفه عن دعوته ، وإن أصر على موقفه فليس أمامها خيار سوى الحرب وهي في هذه الحالة في مواجهة ملك غير مرسل ، ملك من ملوك الدنيا ، والذي يحسم المعركة بينهما هو منطق القوة ، وشدة البأس ، وحد الحسام .

● والهدية إن قصد بها شراء الضمائر والذمم وتضييع الحقوق وإسكات الألسنة عن النطق بالحق فهي رشوة محرمة ، وإذا كان لا يقصد بها ذلك وإنما القصد منها نشر المحبة والمودة وتطيب النفوس وإزالة الضغائن فهي مستحبة مقبولة .

● ولقد كان ﷺ يقبل الهدية ولا يقبل الصدقة وكان يثيب على الهدية وقصده من ذلك تأليف القلوب وتطيب النفوس .

روى الإمام البخاري بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « يانساء المسلمين ، لا تحقرن جارة لجارتها ولو فرسن شاة » (2) .

(1) سورة النمل : 36 .

(2) رواه البخاري في صحيحه كتاب الهبة باب 1 حديث 2566 / فتح الباري 233/5 .

وقال ابن حجر في الفتح : [(وفرسن شاة) : فرسن : عظم قليل اللحم وهو للبعير موضع الخافر للفرس ويطلق على الشاة مجازا ، وأشير بذلك إلى المبالغة في إهداء الشيء اليسير وقبوله لا إلى حقيقة الفرسن لأنه لم تجر العادة بإهدائه . والمعنى : لا تمنع جارة من الهدية لجارتها الموجود عندها ؛ لاستقلاله بل ينبغي أن تجود لها بما تيسر وإن كان قليلا فهو خير من العدم ... وفي الحديث الحض على التهادي ولو باليسير لأن الكثير قد لا يتيسر كل وقت ، وإذا تواصل اليسير صار كثيرا ، وفيه استحباب المودة وإسقاط الكلفة] .
فتح الباري 235/5 باختصار .

وَرَوَى أَيْضاً عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ : قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنْ لِي جَارِينَ فَأَلِي أَيُّهُمَا أَهْدِي ؟ قَالَ : « إِلَى أَقْرَبِهِمَا مِنْكَ بَابَا » (1) .

وَرَوَى الْبُخَارِيُّ فِي الْأَدَبِ الْمَفْرُودِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : « تَهَادُوا وَتَحَابُوا » (2) .
وَرَوَى الْبُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ : كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقْبَلُ الْهَدِيَّةَ وَيُشِيبُ عَلَيْهَا (3) .

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : « لَوْ دَعَيْتُ إِلَى ذِرَاعٍ أَوْ كِرَاعٍ لَقَبَلْتُ » (4) .
وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا أَتَى بِطَعَامٍ سَأَلَ عَنْهُ : أَهْدِيَّةٌ أَمْ صَدَقَةٌ ؟ فَإِنْ قِيلَ صَدَقَةٌ : قَالَ لِأَصْحَابِهِ كُلُوا وَلَمْ يَأْكُلْ ، وَإِنْ قِيلَ هَدِيَّةٌ ضَرَبَ بِيَدِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَكَلَ مَعَهُمْ (5) .

فالهدية إذا كانت لتأليف القلوب وتطبيب النفوس فيستحب قبولها .

ولقد أحسن من قال :

هدايا الناس بعضهم لبعض تولد في قلوبهم الوصالا

وتزرع في الضمير هوى وودا وتكسبهم إذا حضروا جمالا

ولقد قبل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هدية المقوقس حين بعث إليه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كتابا يدعو إلى الإسلام فرد عليه المقوقس ردا طيبا وبعث بهدية لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقبلها صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولو ردها رسول الله

(1) رواه البخاري في صحيحه كتاب الهبة باب بمن يبدأ بالهدية حديث 2595 فتح الباري 260/5 .

(2) رواه البخاري في الأدب المفرد عن أبي هريرة - باب قبول الهدية حديث 594 ص 258 ورواه البيهقي في السنن الكبرى 169/6 عن أبي هريرة - وقال الحافظ ابن حجر في التلخيص الحبير 70/3 : حديث حسن .

(3) رواه البخاري في صحيحه كتاب الهبة باب المكافأة في الهبة حديث 2585 فتح الباري 249/5 .

(4) رواه البخاري في صحيحه كتاب الهبة باب القليل من الهبة حديث 2568 وقال ابن حجر في الفتح وخص الذراع والكراع بالذكر ليجمع بين الحقيق والخطير لأن الذراع كانت أحب إليه من غيرها والكراع لاقيمة لها .. وفي ذلك حض على قبول الهدية ولو قلّت لتلا يمتنع الباعث من الهدية ؛ لاحتقار الشيء فحضر على ذلك لما فيه من التآلف . فتح الباري 236/5 بتصرف .

والحديث رواه الترمذي عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أبواب الأحكام باب ما جاء في قبول الهدية وإجابة الداعي حديث 1338 - 623/3 وقال الترمذي حديث حسن صحيح .

(5) رواه البخاري في صحيحه كتاب الهبة باب قبول الهدية حديث 2576 فتح الباري 240/5 .

ﷺ لكان لذلك أثر سيئ في نفس المقوقس وفي نفوس أهل مصر ، ومن ضمن الهدية السيدة مارية القبطية رضي الله عنها وقد اتخذها رسول الله ﷺ سرية له وأنجبت إبراهيم عليه السلام ووهب الرسول ﷺ أختها سيرين لحسان بن ثابت عليه السلام (1) .

ولقد كان ذلك شرفاً لأهل مصر وتكريماً لهم وتوثيقاً لعري المودة والرحمة ، ولقد أوصى الرسول ﷺ بأهل مصر خيراً وفي الحديث الشريف عن أبي ذر رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إنكم ستفتحون أرضاً يذكر فيها القيراط فاستوصوا بأهلها خيراً فإن لهم ذمة ورحماً » (2) .

ولكن كيف نوفق بين قبول الرسول ﷺ الهدية وبين حديثه ﷺ الذي رواه عياض ابن حمار أنه أهدى للنبي ﷺ هدية أو ناقة فقال النبي ﷺ أسلمت ؟ فقال لا . قال فإني نهيت عن زبد المشركين (3) .

● قال الإمام ابن حجر : [... وجمع الطبري بين الأحاديث بأن الامتناع فيما أهدى له خاصة والقبول فيما أهدى للمسلمين ، وفيه نظر لأن من جملة أدلة الجواز ما وقعت الهدية فيه له خاصة وجمع غيره بأن الامتناع في حق من يريد بهديته التودد والموالة والقبول في حق من يرجى بذلك تأنيسه وتأليفه على الإسلام وهذا أقوى من الأول ، وقيل يحمل القبول على من كان من أهل الكتاب ، والرد على من كان من أهل الأوثان ، وقيل يمتنع ذلك لغيره من الأمراء وأن ذلك من خصائصه ﷺ ومنهم من ادعى نسخ المنع بأحاديث القبول ومنهم من عكس ، وهذه الأجوبة الثلاثة ضعيفة فالنسخ لا يثبت بالاحتمال ولا التخصيص] (4) .

● وقال الإمام أبو العلي محمد عبد الرحمن بن عبد الرحيم المباركفوري في كتابه تحفة الأحوذى بشرح جامع الترمذي [... ولا يبعد أن يقال إن الأصل هو عدم جواز قبول هدايا المشركين ، لكن إذا كان في قبول هداياهم مصلحة عامة أو خاصة فيجوز قبولها

(1) يراجع الرقيق المختوم لصفي الدين المباركفوري ص 396 ط دار الوفاء ونور اليقين في سيرة سيد المرسلين للشيخ محمد الحضري بك ص 198 مطبعة الاستقامة سنة 1397 هـ .

(2) رواه مسلم في صحيحه كتاب فضائل الصحابة باب وصية النبي ﷺ بأهل مصر صحيح مسلم بشرح النووي 96/16 ورواه البيهقي في دلائل النبوة عنه 321/6 والإمام أحمد في مسنده 174/5 .

(3) رواه الترمذي في السنن كتاب الجهاد والسير باب ما جاء في قبول هدايا المشركين وقال الترمذي حديث حسن صحيح سنن الترمذي حديث 1577 - 119/4 وتحفة الأحوذى 200/5 .

وأورده الألباني في صحيح سنن الترمذي برقم 1281 - 112/2 . (4) فتح الباري 273/5 .

والله تعالى أعلم [(1)] .

● وفي كتاب / شرح السير الكبير لمحمد بن الحسن الشيباني [(وإذا بعث ملك العدو إلى أمير الجند بهدية فلا بأس بأن يقبلها ويصير فيئا للمسلمين) لأن النبي ﷺ كان يقبل هدية المشركين في الابتداء (وإذا طمع في إسلامهم فهو مندوب إلى أن يؤلفهم فيقبل الهدية ويهدي إليهم عملا بقوله ﷺ (تهادوا تحابوا) وإذا لم يطمع في إسلامهم فله أن يظهر معنى الغلظة والشدّة عليهم برد الهدية فإن قبلها كان ذلك فيئا للمسلمين) لأنه ما أهدي إليه بعينه ، بل لمنعته ومكاته فكان هذا بمنزلة المال المصاب بقوة المسلمين (وهذا بخلاف ما كان لرسول الله ﷺ من الهدية فإن قوته ومنعته لم تكن بالمسلمين على ما قال الله تعالى ﴿ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ﴾ (2) فهذا كانت الهدية له خاصة ثم الذي حمل المشرك على الإهداء إليه خوفه منه وطلب الرفق به وبأهل مملكته ...] (3) .

● وقال القاضي أبو بكر بن العربي [وفي صفة النبي محمد ﷺ أنه كان يقبل الهدية ولا يقبل الصدقة ولذلك كان سليمان ﷺ وجميع الأنبياء ﷺ يقبلون الهدية ، وإنما جعلت بلقيس قبول الهدية أو ردها علامة على ما في نفسها ، يروى أنها قالت : إن كان نبيا لم يقبل الهدية وإن كان ملكا قبلها ، ولأنه قال في كتابه لها ﴿ أَلَا تَعْلَمُونَ عَلَيَّ وَأَتُوفِّي مُسْلِمِينَ ﴾ وهذا لا تقبل فيه فدية ولا تؤخذ عنه هدية ، وليس هذا من الباب الذي تقرر في الشريعة من قبول الهدية بسبيل ، وإنما هي رشوة ، وبيع الحق بالمال هو الرشوة التي لا تحل ، وأما الهدية المطلقة للتجنب والتواصل فإنها جائزة من كل واحد وعلى كل حال ، وهذا ما لم تكن من مشرك فإن كانت من مشرك ففي الحديث (نهيت عن زبد المشركين) ... قال الخطابي : يشبه أن يكون هذا الحديث منسوخا لأنه قد قبل هدية غير واحد من المشركين أهدي له المقوقس مارية أم إبراهيم ﷺ كما أهدي إليه بغلة وأهدي له أكيدر رومة فقبل منهما] (4) .

أقول في هذه المسألة ، وباللّه التوفيق والسداد : إذا قصد بالهدية شراء الضمائر

(1) تحفة الأحوذى 200/5 . (2) سورة المائدة : 67 .

(3) شرح كتاب السير الكبير لمحمد بن الحسن الشيباني (132 - 189) هـ إملأء محمد بن أحمد السرخسي 1237/4 مطبعة شركة الإعلانات الشرقية سنة 1971 م .

(4) أحكام القرآن لابن العربي 1461/3 بتصرف . ويراجع معالم السنن للخطابي 41/3 .

وتخريب الذم وإسكات الألسنة وإلجامها حتى لا تنطق بالحق فالهدية هنا رشوة محرمة والراشي والمرتشي ملعون (1) .

وإذا سلمت الهدية من هذه الأغراض الدنيوية والهمم الدنية فكان القصد بها تأليف القلوب وتطبيب النفوس والتواصل فإنها جائزة ، ولقد كان قبول رسول الله ﷺ للهدية تطيباً للنفوس وتأليفاً للقلوب ، وكان ﷺ يثيب على الهدية وقد كان لهذا أثره الطيب في النفوس ، التي كانت تتوق حبا وإكراماً للرسول ﷺ .

4 - فائدة حول قوله تعالى :

﴿ وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴾ (2)

كانت بلقيس على درجة عالية من الذكاء ورجاحة العقل ورحابة الفكر، ومع هذا فلقد كانت تعبد الشمس من دون الله ، وكم من أناس على جانب كبير وحظ وافر من العلم والمعرفة ومع هذا فإنهم يؤمنون بعبائد باطلة زائفة !! .

● من هنا فإننا نلفت أنظار الدعاة إلى الله تعالى أن يهتموا بدراسة أحوال المدعويين النفسية والاجتماعية وغيرها ، ويبحثوا عن أسباب انحراف الناس عن الحق مع وضوحه وجلائه .

● هذا وللإمام ابن القيم في هذا المقام كلام قيم أورده في كتابه مفتاح دار السعادة ، وبين فيه أسبابا كثيرة تصد الناس عن الحق نذكر منها ما يلي :

● السبب الأول : ضعف معرفته بالحق (3) .

(1) وفي الحديث عن أبي هريرة ؓ قال : « لعن رسول الله ﷺ الراشي والمرتشي في الحكم » رواه الترمذي وقال حديث حسن صحيح ورواه أيضا في نفس الباب عن عبد الله بن عمرو ؓ وقال حديث حسن صحيح - سنن الترمذي ك الأحكام باب ما جاء في الراشي والمرتشي في الحكم . حديث 1336 ، 622/3 ، 624 وأورده الألباني في صحيح سنن الترمذي برقم 1073 ، 36/2 .

ورواه أبو داود في السنن عن عبد الله بن عمرو ؓ ك / الأفضية باب في كراهة الرشوة حديث 3580 - 300/3 - ورواه ابن ماجه في السنن ك الأحكام باب التغليظ في الخيف والرشوة حديث 2313 - 775/2 .

وأورده الألباني في صحيح سنن ابن ماجه برقم 1871 - 34/2 . (2) سورة النمل : 43 .

(3) ضعف معرفته بالحق لأن الحق لم يصل له بصورة واضحة ناصحة ، ومثال ذلك المجتمعات الغربية الكافرة التي تصل إليها دعوة الإسلام بصورة مشوهة محرفة بسبب هيمنة الإعلام الغربي المزيف وغياب الإعلام الإسلامي أو ضعفه ؛ بسبب تقصير المسلمين وقصورهم في واجب الدعوة إلى الله تعالى .

● والسبب الثاني : عدم الأهلية وقد يكون معرفته بالحق تامة ولكنه لا يملك الاستعداد لقبول الحق ، لا يسعى إلى التغيير ، لا ينشد الحق والصواب ، في قلبه مرض يحول بينه وبين اتباع الحق : قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (1) خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشْوَةً وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿ (1)

وقال ﷺ : ﴿ فِي قُلُوبِهِمْ تَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴾ (2) .

فمثله كمثل الأرض الصلدة نزل عليها الماء فلم تنتفع به مطلقا .

● السبب الثالث : قيام مانع الحسد أو الكبر أو كليهما كما وقع لإبليس اللعين وكما وقع لأبي جهل وكما وقع لليهود وغيرهم .

● السبب الرابع : مانع الرياسة والملك كما حصل لفرعون .

● السبب الخامس : مانع الشهوة وحب المال .

● السبب السادس : محبة الأهل والأقارب والأصدقاء وإيثارهم على الحق .

● السبب السابع : محبة الدار والوطن والتعلق بهما وإيثارهما على الحق .

● السبب الثامن : مانع الإلف والعادة والمنشأ .

● السبب التاسع : التعلق بنهج الآباء والأجداد وتقليدهم تقليدا أعمى ، وإيثار ما

كانوا عليه من ضلال وجهل . على الحق والهدى (3) .

قال تعالى : ﴿ أَمْ ءَأَنبَأْتُمْ كِتَابًا مِّن قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ ﴾ (4) بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا ءَابَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ ءَأَثَرِهِم مِّمَّهَدُونَ ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا ءَابَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ ءَأَثَرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴾ (4)

قال تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُم اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا أَوَّلُوا كَأَن ءَابَاؤُهُمْ لَا يَفْقَهُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾ (5) .

(1) سورة البقرة : 6 ، 7 .

(2) سورة البقرة : 10 .

(3) يراجع مفتاح دار السعادة لابن القيم ص 104 ، 105 .

(5) سورة البقرة : 170 .

(4) سورة الزخرف : 21 - 23 .

ومن هذه الأسباب أيضا التي تحول بين الناس وبين اتباع الحق الخوف من طغيان المستكبرين وبطشهم ، ومن هنا فإنه لابد للحق من قوة تحميه وتحمي أتباعه في شتى بقاع الأرض .

قال تعالى : ﴿ وَقَالُوا لَهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةً وَيَكُونَ الَّذِينَ كَلِمَةُ اللَّهِ فَلَا تَأْتَهُمُ فَاتٌ ﴾ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿ (1) .

ومنها أيضا تزوين إبليس للعين وجنوده من الجن والإنس تزوينهم للباطل وزخرفته حتى تغتر به النفوس الضعيفة وتقع به العقول الجوفاء ، وتسلم به الأفئدة الهواء ، وترضى به وتميل وتركن إليه الأهواء ، قال تعالى مخيرا عن كلام الهدهد : ﴿ وَجَدْتَهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَرَبِّنَّ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴾ (2) .

وقال ﷺ : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيْطَانِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١٧١﴾ وَلِصَّغِيِّ إِلَيْهِ أَعْيَدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرْتَضُوهُ لِيَفْتَرُوا مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ ﴾ (3) .

وأعجبتي واستوقفتني عبارة طيبة للإمام الغزالي تناسب هذا المقام وهي [أكثر الجهالات إنما رسخت في قلوب العوام بتعصب جماعة من جهلة أهل الحق أظهرها الحق في معرض التحدي والإذلال ونظروا إلى ضعفاء الخصوم بعين التحقير والازدراء مما أدى إلى حصول المعاندة والمخالفة ، ورسوخ الاعتقادات الباطلة ، وتعذر على العلماء المتلطفين محوها] (4) .

5 - دروس مهمة في القيادة والحكم

● من قصة سليمان عليه السلام مع بلقيس ملكة سبأ نستخلص دروسا هامة في القيادة والحكم ، هي كما يلي :

- وجوب تفقد الرعية والجند والنظر في شئونهم والتعرف على أحوالهم ، والحزم في القيادة والحكم وتحقيق الانضباط التام والالتزام والنظام والإحكام ، وعقاب المهملين والمقصرين والمتخلفين والتماس الأعذار وقبولها إن كانت صادقة مقنعة .

(2) سورة النمل : 24 .

(1) سورة الأنفال : 39 .

(3) سورة الأنعام : 112 ، 113 .

(4) نقلاً عن الاعتصام بالكتاب والسنة للشاطبي 230/2 ط دار المعرفة بيروت بدون تاريخ .

● وفي سرعة مجيء الهدهد بعد أن انتهى من مهمته التي لم يكلف بها من سليمان وإنما بادر إليها بنفسه وهذا يدل على انضباط الهدهد والتزامه ، والذاتية في الحركة لصالح الدعوة ، وفي قول الهدهد لسليمان عليه السلام ﴿ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ ﴾ إشارة إلى مكانة العلم وفضيلة تحصيله وأن العلم بحر لا ساحل له وفيض لا ينقطع ، ومن أطلعه المولى عليه السلام على أشياء ، فقد خفيت عنه أشياء أخرى ، ومن هنا فإن إحاطة الهدهد بما لم يحط به سليمان عليه السلام - مع ضعف الهدهد وقصوره ومع عظمة سليمان وقوته وعلمه وحكمته - لا يقدح في مكانة نبي الله سليمان ولا ينقص من قدره فالذي أحاط بكل شيء علما هو الله ، والذي لا يخفى عليه شيء هو الله ، قال عليه السلام : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴾ (1) وقال سبحانه : ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَنْزِلُ الْأَمْرُ بِبَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴾ (2) .

وقال عليه السلام : ﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾ (3) وقال سبحانه : ﴿ قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ نُنْفِذَ كَلِمَاتِ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا ﴾ (4) .

وفي قصة موسى مع الخضر ، حيث أعلم المولى عليه السلام الخضر بأمر لا يعرفها موسى وقد ظن موسى أنه أعلم من في الأرض ، فأعلمه المولى عليه السلام أن هناك من هو أعلم منه فأوحى الله إليه : إن لي عبداً يجمع البحرين هو أعلم منك .. وفي القصة لما التقى موسى بالخضر بعد رحلة طويلة وشاقة - في طلب العلم - ووجد موسى الخضر مسجى بثوبه ، قد جعل طرفه تحت رجليه وطرفه تحت رأسه ، فسلم عليه موسى ، فكشف عن وجهه وقال هل بأرضي من سلام ؟ من أنت ؟ قال أنا موسى ، قال موسى نبي بني إسرائيل ؟ قال نعم ، قال فما شأنك ؟ قال جئت لتعلمني مما علمت رشداً ، قال يا موسى إن لي علما لا ينبغي لك أن تعلمه وإن لك علما لا ينبغي لي أن أعلمه ، فأخذ طائر بمنقاره من البحر فقال والله ما علمي وما علمك في جنب علم الله إلا كما أخذ هذا الطائر بمنقاره من البحر ... (5) .

(1) سورة آل عمران : 5 .

(2) سورة الطلاق : 12 .

(3) سورة يوسف : 76 .

(4) سورة الكهف : 109 .

(5) الحديث أخرجه الإمام البخاري في صحيحه عن عبد الله بن عباس عن أبي بن كعب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، الحديث رقم 4725 كتاب التفسير باب ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتْنِهِ لَا آتِيحَ حَتَّىٰ أَتْلُغَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا ﴾ سورة الكهف : 60 والحديث رقم 4726 باب ﴿ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنَهُمَا نَبَسَا حَتَّىٰ هَمَّآ ... ﴾ سورة الكهف - فتح الباري 261/8 : 264 .

فالعلم ليس له نهاية والعالم مهما بلغ في العلم من درجات فإنه لا يتوقف عن طلبه ، ولقد أمر المولى ﷺ رسوله ﷺ بالتزود من العلم فقال تعالى : ﴿ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ (1) .

● وفي حديث الهدهد مع سليمان ﷺ ، وإصغائه ﷺ للهدهد نستخلص من ذلك : أن على الحاكم والقائد والقاضي أن يعطي المتهم الحق في الدفاع عن نفسه ، والحرية في التعبير ، فبدون الحرية لن يكون هناك أمن ولا استقرار ، ولن يحصل تقدم ولا ازدهار ؟ .

● ومن حديث الهدهد يتبين لنا قوة إيمانه وشدة حبه وإخلاصه للحق وولائه لنبي الله سليمان النبي الملك القائد ، وقوة بيانه ، وبلاغة تعبيره ويتجلى ذلك واضحا في دقة العرض والتحليل وحسن المطلع والختام .

● وفي قول سليمان ﷺ بعد أن سمع كلام الهدهد ﴿ قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾ إشارة إلى وجوب التثبت من الأخبار .

● وفي إرسال سليمان ﷺ كتابا مع الهدهد إلى ملكة سبأ ما يدل على وجوب المسارعة إلى الخيرات وتوظيف الطاقات والاستفادة من الإمكانيات المتاحة في نشر الدعوة .

● وفي حمل الهدهد للكتاب والتزامه وامثاله لما أمره به سليمان ﷺ في ذلك ما يدل على وجوب السمع والطاعة للحاكم والقائد المسلم ، وأن تكون التكاليف واضحة وفي حدود الإمكان بقدر طاقة المكلف وإمكانياته .

● وفي مضمون الكتاب ﴿ إِنَّهُمْ مِنْ سُليْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿١٣﴾ أَلَّا تَعْلَمُوا عَلَىٰ وَاتُوفِي مُسْلِمِينَ ﴾ (2) .

في ذلك إشارة إلى كرم مضمونه وبلاغته ، فهو مع وجازة ألفاظه فقد حوى كثيرا من المعاني الكريمة والمقاصد السامية ، وفي هذا درس مهم للقادة والحكام أن يراعوا هذه الأمور في كتبهم (رسائلهم) وفي خطبهم .

● وفي استشارة بلقيس للملأ من قومها إشارة إلى أهمية الشورى في الحكم وكونها ركنا هاما من أركان العدالة والحرية . وأسلوبها مطلوبها لتبادل الآراء وتلاقح الأفكار

والوصول إلى أفضلها .

● وفي قولهم للمكتهم ﴿ نَحْنُ أَوْلُوا قُوَّةً وَأَوْلُوا بِأَسِ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴾ (1) .

● في هذا القول إشارة إلى أن من عناصر القوة لأي أمة وفي أي جيش قوة العدة والعتاد وشدة البأس والنجاد ، ووحدة الصف ، والولاء للقائد .

● وفي إرسال بلقيس بهدية إلى سليمان عليه السلام إشارة إلى ميلها لسلح الإغراء والمساومة بدلا من منطق القوة والمواجهة والمقاومة ، وهذا من ضعف النساء وكيدهن .

● وفي رد سليمان عليه السلام للهدية إشارة إلى ما يجب أن يكون عليه الحاكم من العفة والأمانة ، والعزة والكرامة ، والنزاهة ، والثبات أمام الإغراءات والمساومات قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانُ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَيْنَاهُ اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا آتَاكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدْيِكُمْ فَرِحُونَ ﴾ (2) .

فمتاع الدنيا مهما كثر فهو قليل ، ومهما عظم فهو حقير ، ومهما طال فهو إلى الزوال يصير ، وأهل الكفر دائما مشغولون بنعيم الدنيا ومنهرون بيريقها ومعجبون بزخرفها .

● وفي قول سليمان عليه السلام لأمير الوفد ﴿ أَرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأَيَّبَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾ (3) درس مهم لما ينبغي أن يكون عليه الحاكم المسلم : من القوة في الحق والشدة مع أعداء الله ، والصمود أمام مساوماتهم وإغراءاتهم وتهديداتهم وسائر مكائدهم ، قال تعالى : ﴿ وَلَا يَزَالُونَ يَقْبَلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَعُوا ﴾ (4) وقال سبحانه : ﴿ وَذُو لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً ﴾ (5) أي متساوون في الإثم والعقاب .

وقال عليه السلام : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْطَرُونَ ﴾ (6) .

فلا ينبغي أن يغفل حكامنا وقادتنا هذه الحقائق المهمة ، فهذا نبي الله سليمان عليه السلام يواجه كيدهم ومساومتهم بالقوة والشدة والتهديد والوعيد ، لأنه لا ينبغي أن يترك المجال لأعداء الله لينفقوا الأموال في نشر الكفر والضلال وإشاعة الانحلال ، ثم نقف مكتوفي الأيدي ؟ .

(2) سورة النمل : 36 .

(4) سورة البقرة : 217 .

(6) سورة الأنفال : 36 .

(1) سورة النمل : 33 .

(3) سورة النمل : 37 .

(5) سورة النساء : 89 .

فكما أنه ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾⁽¹⁾ فكذلك لا ينبغي لأحد أن يصد عن سبيل الله ويحارب دعوة الله ويشوه صورة الإسلام ويضطهد المسلمين . يقول المولى ﷺ ﴿وَقَلِّبُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾⁽²⁾ .

● فالجهاد في سبيل الله يهدف إلى إزالة العقبات والمعوقات التي تحول دون وصول دعوة الله إلى الناس ، ويفتح الطريق أمامها ، ويحارب الأنظمة التي تضطهد المسلمين وتصد عن سبيل الله ؟ .

6 - فائدة حول الابتلاء

● ومن قول سليمان ﷺ لما رأى العرش مستقرا عنده بقدره الله ﷻ ونعمته ﴿فَلَمَّا رآهُ مُسْتَقَرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾⁽³⁾ من موقف سليمان الحكيم ﷺ إشارة إلى أن الابتلاء كما يكون بالشر فقد يكون بالخير .

ولقد قال المولى ﷻ في سورة الأنبياء : ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبَلُّوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾⁽⁴⁾ .

وقال سبحانه في سورة محمد : ﴿وَلَنَبَلُّوكُم حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجْتَهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّادِقِينَ وَنَبَلُّوا أَخْبَارَكُمْ﴾⁽⁵⁾ .

وقال ﷺ : « عجبا لأمر المؤمن إن أمره كله خير وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن ؛ إن أصابته سراء شكر فكان خيرا له وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له »⁽⁶⁾ فالمؤمن يتقبل البلاء بنفس راضية مطمئنة ، يصبر عند الشدائد ويشكر عند الرخاء .

● يقول الإمام الراغب : [... إن اختبار الله تعالى للعباد ، تارة بالمسارّ ليشكروا وتارة بالمضار ليصبروا ، فصارت المحنة والمنحة جميعا بلاء ، فالحننة مقتضية للصبر والمنحة مقتضية للشكر ، والقيام بحقوق الصبر أيسر من القيام بحقوق الشكر ، فصارت المنحة

(1) سورة البقرة : 256 .

(2) سورة الأنفال : 39 .

(3) سورة النمل : 40 .

(4) سورة الأنبياء : 35 .

(5) سورة محمد : 31 .

(6) رواه الإمام مسلم في صحيحه عن صهيب بن سنان الرومي ، كتاب الزهد باب في أحاديث متفرقة صحيح مسلم بشرح النووي 125/18 .

أعظم البلاءين ، وبهذا النظر قال أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه : بلينا بالضراء فصبرنا وبلينا بالسراء فلم نصبر [(1)] .

فوائد متنوعة حول القصة

أولاً : من عجائب النمل :

بمناسبة حديثنا عن النملة التي استوقفت نبي الله سليمان عليه السلام وسمع كلامها فازداد شكراً لله تعالى بهذا المناسبة نتوقف هذه الوقفة من عالم النمل .

وهو عالم عجيب غريب ، فالنمل مهندس بارع في البناء وخبير في التخطيط وعلیم بأساليب التخزين والتهوية وهو فلاح بارع يزرع ويحصد ويخزن ويربي الماشية !!! وفيما يلي بيان ذلك :

مساكن النمل : تحتوي على طبقات كثيرة ، وبكل طابق غرف كثيرة فيها أماكن لراحة العاملات ، ومخزن لادخار الأقوات ، ومطعم لتناول الوجبات ، وثكنة عسكرية في حالة تأهب واستعداد للخوض في المعارك مع نمل آخر أو مع عدو يشكل خطراً أو تهديداً لمملكة النمل بالإضافة إلى مقبرة لدفن من يموت من النمل ، فضلاً عن جناح خاص للملكة ومكان لوضع البيض والعناية به ومكان لتربية صغار النمل وإصطبل لبقرة النمل وهو نوع من أنواع الحشرات وهو المن أو البق يسرح به النمل في الصباح ليتغذى على أوراق الشجر والنباتات أو يجلب له الغذاء إذا تعسر إخراجها ، ويقوم النمل بجلبه بطريقة يعجز البشر عن تنفيذها مهما أوتوا من علم ، كما يقوم النمل بزراعة أنواع من الفطريات والنباتات وحصدها .

وقد شوهد في أفريقيا نمل يصنع الجسور لعبور الموانع المائية .

وللنمل أساليب علمية بارعة في التخزين والتهوية فهو يقسم الحبة إلى فلتتين حتى لا تبت ففسد ، لكنه يقسم حبة الكزبرة إلى أربع فلقات حتى لا تبت لأن نصفها يبت ، وإذا أصاب الحبوب بللاً أو رطوبة ينشرها النمل في الشمس حتى لا تفسد !

وقد قام أحد العلماء بدراسة عالم النمل سنوات عديدة وحسب ذات يوم ما قامت به نملة في أعمال الحفر والبناء ونسبه إلى جسمها وإلى شغل الإنسان وجسمه فوجد أن

(1) المفردات للراغب ص 61 مادة ب ل ي .

مجهودها بالنسبة لحجمها يساوي مقدار حفر رجل خليجين طول كل منهما 72 قدمًا وعمقه 5 أقدام بالإضافة إلى بناء أربعة حوائط من الطين ارتفاع كل حائط قدمين وبسمك 15 بوصة ! .

ومن المواقف العجيبة ما روي أن الخليفة المأمون كان يسير في موكب له فاستوقفه رجل ليعرض عليه مسألة فلم يقف الخليفة فقال الرجل : يا أمير المؤمنين استوقف سليمان ابن داود عليه السلام لنملة ليستمع إليها وما أنا عند الله بأصغر ولا أحقر من نملة وما أنت بأعظم ولا أكرم من نبي الله سليمان ، فقال له المأمون صدقت ووقف له وسمع منه وقضى حاجته !

وقام أحد العلماء بالتأمل في حياة بعض النمل ، ولاحظ أن النملة إذا وجدت طعامًا من حبوب أو حشرات أو غير ذلك فإن قدرت على حمله بنفسها تحمله إلى جحرها وإن لم تقدر عينت مكانه وذهبت لاستدعاء من يعينها فقام العالم بنقل الطعام الذي وصلت إليه نملة فكانت كلما استدعت من يعينها على حمله لم يجده مكانه لأن العالم كان ينقله إلى مكان آخر فيرجع النمل إلى مساكنه وتعود النملة إلى البحث فتعثر على الطعام فتذهب وتستدعي النمل فيقوم العالم بنقل الطعام حتى لا يعثر النمل عليه وتكرر ذلك مرات عديدة حتى ظن النمل أن النملة تكذب عليهم فقاموا بمحاكمتها وأعدموها بتمزيقها تمزيقًا .

فكان جزاء الكذب في عالم النمل هو الموت !!!!

ثانيًا : من عجائب الطير : (بمناسبة الحديث عن الهدد)

وجبة إضافية للتراب :

من غابات غينيا قام عالمان من علماء البيولوجيا بالعمل في خطة بحثية حول البيغاء ، فلقت انتباههما أن البيغاوات بعد الانتهاء من تناول الطعام المكون من بذور ثمار بعض النباتات والأشجار يقوم البيغاء بتناول وجبة من التراب ، حاول الباحثون معرفة السبب في ذلك ؛ هل لأن التراب فيه نسبة من المعادن والعناصر الغذائية التي لا توجد في الطعام ؟

لا فطعامهم غني ومفيد جدًا .

هل لأن التراب يساعد حواصل الطير على الهضم .

لا : فالبيغاوات تمتلك مناقير حادة قادرة على تمزيق الطعام كما أن هذا التراب ناعم لا يساعد على طحن الطعام .

إذًا فما السر في ذلك ؟

السر هو أن طعام البيغاوات المكون من بذور بعض الأشجار والنباتات البرية والغنية بالعناصر الغذائية والمعادن ، هذا الطعام أيضًا يحتوي على نسبة من السموم القاتلة الفتاكة وحببيات التراب تجذب تلك الجزيئات السامة (تنقية لها) فتمنع امتصاصها في أمعاء البيغاء فلا يؤثر السم في الطائر وترسب السموم حتى تخرج دون أن تمتصها الأمعاء .

من الذي هدى البيغاوات إلى ذلك ؟ إنه الله رب العالمين .

﴿ الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى ﴾ (1) ﴿ الَّذِي خَلَقَ فُسُوءِي ﴿ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى ﴾ (2) .

يوم الوشاح :

كانت جارية تجلس كثيرًا مع السيدة عائشة وتردد هذا البيت :

ويوم الوشاح من أعاجيب ربنا على أنه ظلّمه الكفر نجاني

فقال لها أم المؤمنين عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا ما هذا البيت الذي أسمعك منك ؟ فقالت شهدت عروسًا لنا دخلت لتغتسل ومعها وشاح لها فوضعت على ثيابها فجاءت الحدأة فأبصرت حمرة فأخذته ففقدوا الوشاح ، فاتهموني به وفتشوني فدعوت الله تعالى إن برأني أدخل الإسلام فجاءت المرأة وألقت الوشاح بينهم فأخذوا يعتذرون لي ، ويقولون : اجعلينا في حل فذهبت إلى رسول الله ﷺ فأسلمت ونظمت هذا البيت فأنا أنشده لثلاثي أنسى نعمة الله عليّ .

وهناك مواقف وطرائف ودروس وعبر كثيرة عن عالم الطير لا يتسع المقام لذكرها .

● في حديث الهدهد كما أخبر القرآن الكريم عن عرش الرحمن في سياق إنكار الهدهد على قوم سبوا عبادتهم الشمس من دون الله في ذلك إشارة بليغة إلى ضلالة

وحقارة الشمس التي عبدوها من دون الله تعالى .

فما هي إلا ذرة في الكون الفسيح ، أو حبة رمل في صحراء شاسعة أو كقطرة ماء في بحر لحيٍّ بالنسبة لهذا الكون الذي يحتوي على بلايين الشموس وبلايين المجرات كل هذا في السماء الدنيا ، وشمسنا عبارة عن نجم واحد في مدينة نجوم هائلة تابعة لمجرتنا المعروفة بدرب اللبانة وهل تشتمل على حوالي 400 مليار نجم من كل الأنواع تتحرك في تناسق معقد ومنتظم ومن كل هذه النجوم لا يعرف سكان الكرة الأرضية إلا الشمس .

إن المسافات الهائلة بين الأرض والشمس وبيننا وبين النجوم لا يمكن قياسها بالوحدات القياسية المعتادة كالأميال والكيلومترات فإن فعلنا ذلك كنا كمن يقيس بين القاهرة والخرطوم بالمليمتر ، لكن العلماء يقيسون المسافات الشاسعة بين الأجرام السماوية بالسنة الضوئية (1) - سرعة الضوء - .

أي أن الضوء الذي يقطع في الثانية الواحدة مسافة 186 ألف ميل يقطع في السنة ستة بلايين مليون من الأميال - لاحظ أن البليون يساوي 10 (9) - إلى عشرة وأمامها تسعة أصفار = 10,000,000,000 .

والتربليون يساوي 10 (12) = 10,000,000,000,000 .

وبيننا وبين الشمس 93 مليون ميل يقطعها الضوء في ثمانية دقائق ، علمًا بأن أقرب نجم إلى مجموعتنا الشمسية يبعد بمقدار 4,25 سنة ضوئية ، وأما (الشعري اليمانية) فيبعد عنا مسافة 9 سنوات .

ويبلغ حجم الشمس بالنسبة للأرض بمقدار (130,500) مرة ومع هذا فهناك نجوم أكبر حجمًا من الشمس بمقدار 100 مليون مرة كما هو الحال في النجم المسمى بـ (منكب الجوزاء) .

وهذا ما توصل إليه العلم البشري وكل يوم نسمع عن اكتشاف جديد وبعيد جديد في الفضاء ، فما بالنا بالسموات العلى ، وما بالنا بالكروسي والعرش؟؟؟

والكروسي جسم عظيم بين يدي العرش قال عنه رب العالمين في آية الكروسي ﴿ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ﴾ . . .

(1) السنة الضوئية = 6 بليون مليون من الأميال .

وقال عنه عليه السلام: « ما السموات والسبع والأرضون السبع عند الكرسي إلا كحلقة ملقاة في أرض فلان » (1) .

فما بالنا بعرش الرحمن وإذا كان الأمر كذلك فلماذا عبد قوم سبأ الشمس وما هي إلا ذرة في الكون الفسيح لماذا عبدوها من دون الله مع حقارتها وضآلتها أمام غيرها من النجوم العظيمة ؟ .

ومن هنا ندرك حكمة الهدهد وبلاغته حين قال كما أخبر القرآن الكريم : ﴿ فَكَتَبَ عَنَّا بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ نَحِطُ بِهِ، وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَأٍ يَقِينٍ ﴿١٢١﴾ إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿١٢٢﴾ وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿١٢٣﴾ أَلَا سَجَدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿١٢٤﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿١٢٥﴾ ﴾ (2) .

تفقد أحوال الرعية :

في موقف سليمان عليه السلام من رعيته وتفقدته لأحوالها وسؤاله عن الهدهد في هذا درس مهم للحكام أن يتفقدوا أحوال الرعية ويسهروا على مراعاة شئونهم .

وهذا عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول : (لو عثرت دابة في العراق لسألني الله عنها لم توسع لها الطريق يا عمر) .

وفي حياته رضي الله عنه مواقف كثيرة في تفقد أحوال الرعية نذكر منها ما يلي :

● عن عبد الله بن زيد بن أسلم عن أبيه عن جده أسلم قال : بينما أنا وعمر بن الخطاب وهو يعس في المدينة إذ أصابه الإعياء والتعب فاتكأ على جانب جدار في جوف الليل ، فإذا امرأة تقول لابنتها : يا ابنتاه قومي إلى ذلك اللبن فامذقيه بالماء ، فقالت لها يا أماه أما علمت ما كان من عزمة أمير المؤمنين اليوم ؟ فقالت : وما كان من عزمته قالت :

(1) الحديث رواه البيهقي في الأسماء والصفات ص 510 ، 511 وابن عساكر في تاريخ دمشق كما في التهذيب 356/6 وابن جرير الطبري في جامع البيان 399/3 وأورده السيوطي في الدر المنثور 328/1 وعزاه إلى أبي الشيخ في العظمة وابن مردويه وأورده الألباني رضي الله عنه في الصحيحة - حديث 223/1-109 .

(2) سورة النمل : 22 - 26 .

أمر منادياً ينادي في الناس : أن لا يشاب اللبن بالماء ، فقالت لها قومي يا ابنتي فإنك بموضع لا يراك فيه أمير المؤمنين ولا منادي أمير المؤمنين فقالت الصبية : والله ما كنت لأطيعه في الملا وأعصيه في الخلا إذا كان أمير المؤمنين لا يرانا فإن الله تعالى يرانا وإذا كان أمير المؤمنين عنا بعيداً فإن الله منا قريب ، إذا كان أمير المؤمنين يغيب فإن الله شاهد لا يغيب ، فأعجب عمر بن الخطاب بهذه الفتاة المؤمنة الأمانة فذهب إلى بيته وجمع أولاده بعد صلاة الفجر وقال لهم هل فيكم من يرغب في الزواج فقال عبد الله : لي زوجة وقال عبد الرحمن : لي زوجة وقال عاصم يا أبتاه لا زوجة لي فزوجني ، فبعث إلى الجارية وزوجها من عاصم فولدت بنتاً كان من نسلها أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه .

● وفي ذات ليلة يخرج أمير المؤمنين بالليل يتفقد أحوال رعيته ومعه أسلم فيمران بيت من الشعر فيقصدها ويلقي أمير المؤمنين السلام على أهل البيت ، فيسمع صوت امرأة تبكي وتتألم . فيسأل عنها صاحب البيت فقال إنها زوجتي وهي في حالة المحاض وليس معنا من يرعانا فأسرع أمير المؤمنين إلى بيته وقال لزوجته أم كلثوم هل لك في أجر ساقه الله إليك وأخبرها الخبر قالت نعم ، وحمل على ظهره دقيقتاً وسمناً وحملت أم كلثوم ما يصلح للولادة ، ودخلت على المرأة وجلس عمر في الخارج مع الرجل وأخذ يتحدث إليه والرجل لا يعرفه ، ووضعت المرأة غلاماً ، فخرجت أم كلثوم تقول يا أمير المؤمنين بشر صاحبك بغلام فلما سمع الرجل قولها استعظم صنيع عمر وأخذه الروع والهيبه وأخذ يعتذر لأمير المؤمنين فقال له لا عليك ، إذا أصبحت فأتنا فلما أصبح أتاه وفرض مولوده من بيت مال المسلمين .

● وفي إحدى جولاته الليلية التفقدية لفت انتباهه وطرق مسامعه صوت طفل يبكي فتوجه نحو البيت الذي سمع منه الصوت ونادى على أم الطفل قائلاً اتقي الله وأحسني إلى صبيك فلما كان بعد قليل سمع بكاء الطفل مرة أخرى فعاد إلى أمه يحذرها من إهمالها لطفلها ، فلما كان آخر الليل مر على ذلك البيت فسمع بكاء الطفل فنادى على أمه قائلاً ويحك إني لأراك أم سوء ، مالي أرى ابنك لا يقر منذ الليلة من البكاء ، فقالت له دون أن تعرفه يا عبد الله لقد أزعجتنا طول الليل ، إني أحمله على الفطام فيأبى ، فقال عمر ولم ؟ قالت الأم : لأن عمر لا يفرض إلا للمفطوم ، قال وكم عمر ابنك فقال كذا وكذا شهراً ، فقال رضي الله عنه لا تحمليه على الفطام وانصرف ، وبعد صلاة الصبح خطب في الناس وقال والدمع بعينه : يا ويح عمر كم قتل من أولاد المسلمين ألا لا

تعجلوا فطام صبيانكم قبل أوانه ، فإننا نفرض لكل مولود في الإسلام .

● وفي جولة أخرى تفقدية ليلية سمع صوت صغار يبكون حول قدر منصوبة على النار وأمهم تقلب في القدر فسأل أهمهم عن سبب بكائهم ؟ فقالت من الجوع فقال ﷺ : وأي شيء في النار وإذا ؟ قالت ماء أعللهم به حتى يناموا ، والله بيننا وبين عمر قالت هذا وهي لا تدري أنه عمر ، فقال أي رحمك الله : وما يدري عمر بك فقالت متعجبة من هذا السؤال : يتولى أمرنا ثم يغفل عنا !!! يقول أسلم : فأقبل عليّ وقال انطلق بنا فخرجنا نهروا حتى أتينا إلى دار الدقيق فأخرج عدلاً من دقيق وكمية من شحم وقال احمله عليّ قلت أنا أحمله عنك ، قال أتحمل عني أوزاري يوم القيامة ؟ وحمل عمر على ظهره بنفسه وذهب إلى بيت الصبية وأخرج دقيقاً وشحمًا ووضعها في القدر وجعل ينفخ في النار حتى نضج الطعام وطاب فقال للمرأة أطعميهم وأنا أسطح لهم أي ألقبه لهم حتى يبرد ولم يزل يفعل ذلك حتى شبعا ، وهي تقول له جزاك الله خيرًا جزاك الله خيرًا ، كنت أولى بهذا الأمر من عمر وانصرف من عندها ثم فرض لها ولأولادها من بيت مال المسلمين .

● وفي إحدى الجولات التفقدية لفت انتباهه صوت امرأة تنشد شعرًا فاقترب من الصوت فإذا بها تقول :

تطاول هذا الليل واسود جانبه	وألمني ألا حبيب الأعبه
فوالله لولا الله لا شيء غيره	لزلزل من هذا السرير جانبه
مخافة ربي والحياء يردني	وأكرم بعلي أن تنال مراكبه

فعلم أمير المؤمنين أن هذه المرأة غاب عنها زوجها ، فذهب إلى أهل بيته وسألهم : كم تصبر المرأة على زوجها فقلن تصبر أربعة أشهر مصداقاً لقوله الله ﷻ : ﴿ لِلَّذِينَ يُؤَلُّونَ مِنْ نِسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِنْ فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿ (1) فأوصى أمير المؤمنين بأن لا يغيب رجل عن زوجته أكثر من أربعة أشهر .

● ومن تفقده لحال رعيته كان يسأل عن أحوال عماله وسيرتهم في الناس وكان

يعزل من لا يصلح لهذا الأمر وله في ذلك مواقف مشهورة .

● وكان رجل من أهل الشام ذو بأس وكان يفد إلى أمير المؤمنين عمر ففقده فسأل عنه فقالوا يا أمير المؤمنين : لقد تتابع في هذا الشراب أي شرب الخمر حتى صار لها مدمناً . فدعا عمر كاتبه فقال : اكتب : من عمر بن الخطاب إلى فلان بن فلان سلام عليكم فإنني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذي الطول لا إله إلا هو إليه المصير ، ثم قال لأصحابه : ادعوا الله لأخيكم أن يقبل بقلبه ويتوب الله عليه فلما وصل كتاب عمر إلى ذلك الرجل جعل يقرؤه ويردده ويقول غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذي الطول قد حذرني عقوبته ووعدني أن يغفر لي ؟ فلم يزل يرددتها على نفسه حتى بكى ونزع من شرب الخمر ولم يرجع إليها فلما بلغ عمر خبره قال هكذا فاصنعوا إذا رأيتم أحاكم زل زلة فسددوه ووثقوه وادعوا الله به أن يتوب ، ولا تكونوا أعواناً للشيطان عليه .

ومن المواقف الخالدة المضيئة في تفقد الحكام الراشدين للرعية ما ذكره كتاب التاريخ : أن عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه خرج يوماً وهو في الشام فركب هو ومولاه مزاحم ، وكان كثيراً ما يركب فيلقى الركبان يتحسس الأخبار عن البلاد ، فلقىهما راكب قادم من المدينة فسألاه عن حال الناس هناك وعن الأمر الذي خرجا من أجله ، فقال لهما : إن شئتما جمعت لكما خبري وإن شئتما بغيضتني تبغيضاً ، فقالا : لا بل اجمعه : فقال إنني تركت المدينة والظالم بها مقهور ، والمظلوم بها منصور ، والغني موفور ، والعائل مجبور فقال عمر هذا والله : أحب إلي مما طلعت عليه الشمس .

وسأل رماح بن عبيدة عن أهل العراق ، سيرة الولاة فيهم فأخبره بكل خبر عنهم فقال عمر : « الحمد لله على ذلك ، لو أخبرتني عنهم بغير ذلك عزلتهم ولم أستعن بهم بعدها أبداً ، إن الراعي مسؤول عن رعيته » .

ووفد عليه وفد من بعض الآفاق فأنتهى إلى باب عمر فقرع الباب وقد كان عمر أراد أن ينام ولكنه أذن للرسول أن يدخل عليه ودعا بشمعة وجلس مع الرسول وأخذ يسأل عن حال أهل البلد ، وسيرة العمال فيهم وعن الأسعار وعن بيت المظالم ، حتى فرغ من السؤال ، فسأله الرسول : وأنت يا أمير المؤمنين كيف حالك مع أهل بيتك ، وأهل خزانتك فنفخ عمر الشمعة وقال يا غلام علي بالسراج فجاء بفتيلة لا تكاد تضيء فقال عمر للرسول سل عما أحببت ، فعجب الرسول لإطفائه للشمعة وإحضاره فتيلاً !! فقال

له أمير المؤمنين : يا عبد الله إن شمعة التي رأيتني أطفأتها من مال الله ومال المسلمين وكنت أسألك عن شئونهم وأحوالهم وحوادثهم ، فلما صرت لتسألني عن أمري وأمر عيالي أطفأت نار المسلمين .

وهذه أمثلة لتفقد الخلفاء الراشدين للرعية وهناك أمثلة أخرى عديدة لا يتسع المقام لذكرها .

وواجب المسلم أن يتفقد أحوال أخيه المسلم ، وفي ذلك يقول عطاء : تفقدوا إخوانكم بعد ثلاث :

فإن كانوا مرضى فعودوهم ، وإن كانوا مشاغيل فأعينوهم ، وإن كانوا نسوا فذكروهم .

● وكان في السلف من يتفقد عيال صاحبه بعد موته ، يقوم بحاجتهم ويتردد كل يوم إليهم ويموّنهم من ماله فكانوا لا يفقدون من أبيهم إلا عينه - شخصه - بل كانوا يرون من صاحب أبيهم ما لم يروا من أبيهم في حياته .

● وأحتم الكلام في هذا الموضوع بهذا الموقف للإمام أبي حنيفة وذلك أنه كان له جار بالكوفة يعمل إسكافيًا ، يقضي طول النهار في صنعته حتى إذا جنه الليل عاد إلى بيته ومعه الطعام فيطبخه ويأكله ثم يشرب الخمر حتى يثقله الشراب فيغني قائلًا :

أضاعوني وأي فتى أضاعوا ليوم كريمة وسداد ثغر

فلا يزال يشرب ويردد هذا البيت حتى يغلبه النوم ، وكان أبو حنيفة يسمع جلبته كل ليلة فيتأذى منه ، وفي ليلة فقد أبو حنيفة صوته - على غير العادة - فتفقدته - فقيل إنه محبوس أخذه العسس بالليل وهو في طريقه إلى بيته متأخرًا فصلى أبو حنيفة الفجر وركب بغلته وانطلق إلى بيت الأمير واستأذنه على الأمير فأذنوا له ودخل على الأمير فرحب به وأكرمه وسأله عن حاجته فقال لي جار إسكافي أخذه العسس بالليل فأمر الأمير بتخليته - إطلاق سراحه - إكرامًا واستجابة لأبي حنيفة رضي الله عنه وعاد الرجل مع أبي حنيفة ، فقال له أبو حنيفة : يا فتى : أضعناك ؟ فقال : لا بل حفظت ورعيت ، جزاك الله عن حرمة الجوار ورعاية الحقوق ، وتاب الرجل ولم يعد إلى ما كان عليه .

المبحث الثالث

ملاحظات على ما ورد في العهد القديم

في شأن سليمان عليه السلام وملكة سبأ

حين نتأمل في العهد القديم فيما ورد في شأن سليمان عليه السلام وملكة سبأ فإننا نلاحظ أن كثيرا من الأحداث المهمة والمواقف العظيمة في هذه القصة ليس لها وجود في العهد القديم .

في حين نجد العهد القديم يهتم بأمور لا فائدة منها ولا طائل من ورائها فضلا عن مخالفتها للحقيقة هذا إلى جانب ما فيه من افتراءات .

وفيما يلي نذكر أمثلة على ذلك :

1 - لم يرد في العهد القديم أي إشارة إلى الهدهد الذي كان له دور مهم وبارز .

2 - لم يرد في العهد القديم ذكر للعقيدة التي كانت سائدة وموجودة في مملكة سبأ وهي عبادة الشمس من دون الله عز وجل . بينما أشار القرآن الكريم إلى تلك العقيدة وبيّن زيفها وفسادها وبطلانها .

كما بين القرآن الكريم العقيدة الصحيحة عقيدة الوحداية ، وأقام الأدلة العقلية والبراهين الجلية التي تدل على صحة وثبوت ورسوخ تلك العقيدة التي جاء بها الأنبياء جميعا من لدن آدم عليه السلام وحتى خاتم النبيين والمرسلين سيدنا محمد عليه السلام .

ولقد سجل القرآن الكريم مضمون الرسالة التي أرسلها نبي الله سليمان عليه السلام إلى ملكة سبأ قال تعالى : ﴿ إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿١٥﴾ أَلَا تَعْلَمُونَ عَلَىٰ وَأَتُونِي مُسْلِمِينَ ﴿١٦﴾ (1) .

كما صرح القرآن الكريم بإيمان بلقيس قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقِهَا قَالَتْ إِنَّهُ صَرَخٌ مُّعَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرٍ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٠﴾ (2) .

3 - أغفل العهد القديم الأمور والأحداث التي وقعت قبل ذهاب ملكة سبأ إلى سليمان عليه السلام ومنها إرسال الهدهد برسالة إلى بلقيس وموقفها وحاشيتها من تلك الرسالة وإرسالها بهدية إلى سليمان عليه السلام ورده للهدية وعلمه بقدمها إليه ومجيء الذي عنده علم من الكتاب بعرشها بقدرة الله ﷻ وتنكير العرش اختبارا لها ثم بناء الصرح ودخولها فيه ، كما لم يصرح العهد القديم بإيمان بلقيس .

4 - هذا ولقد بدأ العهد القديم الحديث عن ملكة سبأ ببيان أنها لما سمعت عن ملك سليمان وحكمته : جاءت إلى أورشليم بموكب عظيم ومعها هدايا كثيرة وجاءت لتمتحن سليمان بمسائل (وسمعت ملكة سبأ بخبر سليمان لمجد الرب فأنت لتمتحنه بمسائل فأنت إلى أورشليم بموكب عظيم جدا بجمال حاملة أطيابا وذهبا كثيرا وحجارة كريمة وأتت إلى سليمان وكلمته بكل ما كان بقلبها) (1) . وأعجبت بلقيس بملك سليمان وأعطت الملك مائة وعشرين وزنة ذهب أطيابا كثيرة جدا وحجارة كريمة (2) وغير ذلك من الهدايا . (وأعطي الملك سليمان لملكة سبأ كل مشتهاها الذي طلبت عدا ما أعطاها إياه حسب كرم الملك سليمان فانصرفت وذهبت إلى أرضها هي وعبيدها) (3) .

5 - في القرآن الكريم يبين لنا المولى ﷻ أن ملكة سبأ لما وصل إليها كتاب سليمان جمعت قومها واستشارتهم في أمره ورأت أن ترسل إلى سليمان بهدية لتختبر صدقه وتنظر في حقيقة أمره هل هو نبي مرسل وهبه الله تعالى الملك ليستعين به على الدعوة إلى الله تعالى ؟ .

أم هو ملك صاحب أطماع في توسيع رقعة مملكته على حساب الممالك الأخرى ؟ .

قال تعالى : ﴿ قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعْرَآةَ أَهْلِهَا آذِنًا وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾ (٢٢) وَإِنِّي مُرْسَلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ ﴿٢٣﴾ فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَيْنِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا آتَيْتُكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٢٤﴾ .

وتنكير هدية لتعظيمها وتفخيمها وتكثيرها وتنكير (مال) هنا يفيد تقليله وتحقيره فالهدية مهما بلغت من العظمة والفخامة والكثرة فهي قليلة حقيرة في مقابل ما وهب الله سبحانه وتعالى سليمان عليه السلام من نعم عاجلة وما ادخره له من نعم آجلة قال تعالى

(1) سفر الملوك الأول إصحاح 10 فقرة 1 : 3 .

(2) سفر الملوك الأول إصحاح 10 فقرة 11 .

(4) سورة النمل : 34 - 36 .

(3) سفر الملوك الأول إصحاح 10 فقرة 14 .

﴿ فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتَيْدُونِنِي بِمَالٍ فَمَا آتَيْنِيهِ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَيْتُكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِهَيْدَتِكُمْ فَفَرِحُونَ ﴾ (1) .

6 - ومن الشواهد على ذلك أيضا توسع العهد القديم في ذكر الهدايا التي وصلت لسليمان عليه السلام حتى حصرت ما ورد من الذهب والفضة والعبيد والقروود والطواويس والحلل والأسلحة والعطور والخيل والبغال وغير ذلك من الهدايا .

كما توسع العهد القديم في بيان سعة ملك سليمان فذكرت عدد الفرسان وعدد المركبات وعدد الخيل حتى التبن وعلف الدواب جاء ذكره في هذا السياق (2) - وهكذا نجد إغفال العهد القديم للحقائق المهمة والركائز الجوهرية والأحداث الأساسية في القصة واهتمامه بذكر التفاصيل التي لا طائل من ورائها ولا جدوى من ذكرها فضلا عن كونها مجافية ومخالفة للحقيقة .

7 - ومن الافتراءات التي وردت في العهد القديم والتي تقدح في عصمة سليمان عليه السلام ما ورد في سفر الملوك الأول عن سليمان عليه السلام أنه أحب نساء غريبة كثيرة من بلاد مختلفة يقول سفر الملوك الأول [وأحب الملك سليمان نساء غريبة كثيرة مع بنت فرعون ، موآبيات وعمونيات وأدوميات وصيدونيات وحثيات من الأمم الذين قال عنهم الرب لبني إسرائيل « لا تدخلون (3) إليهم وهم لا يدخلون (4) إليكم لأنهم يميلون قلوبكم وراء آلهتهم » فالتصق سليمان بهؤلاء بالحبة وكانت له سبعمائة من النساء السيدات وثلاثمائة من السراري فأمالت نساؤه قلبه وكان في زمان شيخوخة سليمان أن نساءه أملن قلبه وراء آلهة أخرى ولم يكن قلبه كاملا مع الرب إلهه كقلب داود أبيه . فذهب سليمان وراء عشتورث إلهة الصيدونيين وملكوم رجس العمونيين (5) .

● ثم يقول نفس السفر (وهكذا فعل لجميع نساءه الغريبات اللواتي كن يوقدن ويذبحن لآلهتهن فغضب الرب على سليمان لأن قلبه مال عن الرب إله إسرائيل الذي تراءى له مرتين وأوصاه في هذا الأمر أن لا يتبع آلهة أخرى فلم يحفظ ما أوصى به الرب

(1) سورة النمل : 36 .

(2) سفر الملوك الأول إصحاح 10 فقرات 4 : 7 .

(3) الصواب لا تدخلوا لأن (لا) هنا : ناهية ، والفعل المضارع مجزوم بحذف النون لأنه من الأفعال الخمسة .

(4) الصواب لا يدخلوا لما سبق ذكره .

(5) الملوك الأول إصحاح ص 11 فقرة 1 : 6 .

ما ورد في العهد القديم في شأن سليمان عليه السلام ...
فقال الرب لسليمان من أجل أن ذلك عندك ولم تحفظ عهدي وفرائضي التي أوصيتك
بها فإني أمزق المملكة عنك تمزيقا وأعطيها لعبدك) .

فهذا النص يقده في عصمة سليمان عليه السلام والحقيقة أن الأنبياء معصومون من الكفر
ومن الكبائر ومن الصغائر المنفرة فهم صفوة الخلق وهم أعلم الناس بمقام الله تعالى
وأخشاهم له .

وهناك افتراءات أخرى كثيرة على نبي الله سليمان عليه السلام وعلى أبيه نبي الله داود
عليه السلام جاءت في العهد القديم .

المبحث الرابع

فائدة حول تفسير قول الله تعالى

﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً ثُمَّ أَنَابَ ﴾ (1)

ورد في بعض كتب التفسير أن سليمان عليه السلام ذهب ذات يوم ليغتسل وأعطى خاتمه لزوجة له تدعى جرادة ، فجاء الشيطان في صورة سليمان عليه السلام وقال لها هاتي خاتمي فأعطته إياه ، فلما لبسه دانت له الجن والإنس والشياطين ، فلما خرج سليمان عليه السلام من الخلاء قال لها هاتي الخاتم ، فقالت قد أعطيته لسليمان ، قال أنا سليمان! قالت كذبت لست سليمان ، فجعل لا يأتي أحدا يقول له أنا سليمان إلا كذبه وسخر به ، حتى جعل الصبيان يرمنونه بالحجارة ، فلما رأى ذلك عرف أنه من أمر الله ﷻ وقام الشيطان يحكم بين الناس ، فلما أراد الله تعالى أن يرد على سليمان عليه السلام سلطانه ألقى الله في قلوب الناس إنكار ذلك الشيطان ، فأرسلوا إلى نساء سليمان عليه السلام فقالوا لهن : أيكون من سليمان شيء ؟ قلن : نعم ، إنه يأتينا (2) ونحن حُيِّضُ ، وما كان يأتينا قبل ذلك ! فلما رأى الشيطان أن قد فطن له وأن أمره سينكشف بعث بالخاتم وألقى به في البحر فتلقته سمكة فأخذته ، وكان سليمان عليه السلام يعمل على شاطئ البحر بالأجر ، فجاء رجل ، فاشترى سمكا ؛ فيه تلك السمكة التي في بطنها الخاتم ، فدعا سليمان عليه السلام فقال له : تحمل لي هذا السمك ، ثم انطلق إلى منزله ، فلما انتهى الرجل إلى باب داره أعطاه تلك السمكة التي في بطنها الخاتم ، فأخذها سليمان عليه السلام ، فشق بطنها ، فإذا الخاتم في جوفها ، فأخذه ، فلبسه ، فلما لبسه دانت له الإنس ، والجن ، والشياطين ، وعاد إلى حاله ، وهرب الشيطان حتى لحق بجزيرة من جزائر البحر ، فأرسل سليمان عليه السلام في طلبه ، فجيء به فنقبوا له في رخام وأدخلوه فيها ثم أحكموا غلقها بالنحاس وطرحوه في البحر [(3)] .

وفي الدر المنثور للسيوطي : أن هذا الشيطان يسمى صخرا ، وقيل آصف وأن سليمان عليه السلام سأله كيف تفتنون الناس ؟ فقال له الشيطان أرني خاتمك فلما أعطاه نبذه آصف في البحر فذهب ملك سليمان وقعد آصف على كرسيه حتى كان ما كان من أمر

(1) سورة ص : 34 . (2) يأتينا : يباشرنا ، أي : يجامعنا .

(3) الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير لأبي شعبة ص 270 ، 271 بتصرف يسير .

السمكة والعثور على الخاتم ورجوع ملك سليمان .

● وفي بعض الروايات أن الشيطان لم يسلط على نساء سليمان ؛ لأن الله عصمهن منه فلم يقربهن (1) .

وهذه المرويات المتناقضة المتضاربة : لا أساس لها من الصحة إذ كيف يتمثل الشيطان بصورة سليمان ويياشر مهامه ؟ وهل كان ملك سليمان ﷺ ونبوته وسلطانه وقوته في خاتمه ؟ هل الخاتم هو مصدر ذلك ؟ .

● يقول ابن كثير في قصص الأنبياء : [وقوله تعالى ﴿ وَكَذَّبْنَا سُلَيْمَانَ وَالْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴾ ذكر ابن جرير وابن أبي حاتم وغيرهما من المفسرين ها هنا آثارا كثيرة عن السلف وأكثرها أو كلها متلقاة من الإسرائيليات وفي كثير منها نكارة شديدة ...] (2) .

● ويقول القاضي عياض (3) : [ولا يصح ما نقله الإخباريون من تشبه الشيطان بسليمان وتسلطه على ملكه وتصرفه في أمته بالجور في حكمه لأن الشيطان لا يتسلط على مثل هذا ، والأنبياء معصومون من ذلك] (4) .

● وقال الدكتور أبو شهبه رحمه الله : [هذه المرويات أكاذيب وتلفيقات ولكن بعض الكذبة كان أحرص وأبعد غورا من البعض الآخر فلم يتورط فيما تورط فيه البعض من ذكر تسلط الشيطان على نساء سليمان ﷺ ؛ وذلك حتى يكون لما لفته وافتراه بعض القبول عند الناس أما البعض الآخر فكان ساذجا في كذبه مغفلا في تلفيقه ، فترك آثار الجريمة بينة واضحة] (5) .

● ويقول أبو شهبه أيضا : [والحق إن نسج القصة مهلهل ، عليه أثر الصنعة

(1) الدر المنثور : 309/5 : 311 .

(2) قصص الأنبياء لابن كثير ص 502 .

(3) هو عياض بن موسى بن عياض اليحصبي السبتي أبو الفضل (476 - 544 هـ) عالم المغرب وإمام أهل الحديث في عصره ولي قضاء سبتة ثم قضاء مراكش وتوفي بها مسموما ، قيل سُمِّه يهودي - من تصانيفه الشفا بتعريف حقوق المصطفى - الغنية في ذكر مشيخته - تقريب المسالك في معرفة أعلام مذهب الإمام مالك - مشارق الأنوار - في الحديث . تراجع ترجمته في الأعلام 99/5 - وفيات الأعيان 392/1 .

(4) الشفا 162/2 بتصرف .

(5) الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير ص 273 بتصرف .

والاختلاق ويصادم العقل السليم والنقل الصحيح في هذا ، وإذا جاز للشيطان أن يتمثل برسول الله سليمان فأى ثقة بالشرائع بعد هذا ؟ وكيف يسلط الله الشيطان على نساء نبيه سليمان وهو أكرم على الله من ذلك ؟ وأي ملك أو نبوة يتوقف أمرهما على خاتم يدومان بدوامه ويزولان بزواله ، وما عهَدْنَا في التاريخ البشري شيئا من ذلك ؟ وإذا كان خاتم سليمان بهذه المثابة فكيف يُغْفَلُ اللهُ شأنه في كتابه المهيمن الشاهد على الكتب السابقة ؟ وكيف تنكره زوجته جرادة وهي أعرف الناس به ؟ ... الحق إن نسج القصة مهلهل لا يصمد أمام النقد وإن آثار الكذب والاختلاق بادية عليها ⁽¹⁾ .

● ومن الوجوه الغريبة الواردة في تفسير قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ ... ﴾ ما أورده الرازي : أن سليمان ابتلي بمرض شديد ، ضنى منه حتى صار لشدة المرض كأنه جسد بلا روح ثم أناب أي رجع إلى حالة الصحة ⁽²⁾ .

وهذا الوجه لا دليل عليه وهو من التكلف والتعسف في فهم النص القرآني .

● والأغرب من ذلك ما ذهب إليه عبد الوهاب النجار في كتابه قصص الأنبياء في تفسير قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ ... ﴾ حيث قال : [وعندني وجه لم يذكره أحد من العلماء وهو أن كرسي داود إنما هو كرسي سليمان لأن داود كان يرشح سليمان للملك من بعده والجلوس على كرسيه . وقد قام أبشالوم بن داود وثار على والده وانتزع الملك من داود وجلس على الكرسي الذي هو في الواقع كرسي سليمان وهرب منه داود إلى شرق الأردن ، وسرّح الجيوش لمقاتلته وبأشالوم الحرب بنفسه فقتل أبشالوم ، إذ مر به بغله تحت بطمة ⁽³⁾ فتعلق في أغصانها من شعره فأتى رئيس الجند يوأب وقتله وعاد سليمان إلى كرسيه بعد أن تزعر بفعل أخيه أبشالوم ، وتضرع إلى الله وسأله ملكا لا ينبغي لأحد من بعده .

ولا شك في أن سليمان في تلك البرهة كان يعتقد اعتقادا جازما لا شك فيه أن الكرسي الملكي أقلت من يده ولا راد له سوى الله تعالى فاستغفره تعالى لما قد أسلف من هواجس نفسية لا يخلو منها من كان مثله في سن الصبا من زهو بذلك الكرسي

(1) المرجع السابق ص 273 ، 274 بتصرف يسير .

(2) مفاتيح الغيب للرازي 209/26 .

(3) بطمة : وهي شجرة لها ثمرة ناعمة للسعال وللكلية ومدرّة للبول وأوراقها ناعمة للشعر، القاموس المحيط لمجد

الدين الفيروزآبادي 80/4 المكتبة التجارية الكبرى ط 5 .

الذي ينتظره . والملك العريض الذي سيكون بيده صولجانه فامتحنه الله تعالى بمن اغتصب ذلك الكرسي وتسرب إلى نفسه ديب اليأس فاستغفر سليمان ربه لتلك الهواجس التي تعد بالنسبة للمقربين ذنوبا وهي غير ذنوب وأتاب إليه ضارعا أن يهب له ملكا لا ينبغي لأحد من بعده فأثاه الله ذلك الملك بعد وفاة أبيه داود الذي كان قد بلغ من الكبر عتيا وسخر لسليمان ما سخر من الجن والإنس والطير والرياح التي تجري بأمره [(1)] .

أقول : والعجب العجاب كيف يعتمد الأستاذ عبد الوهاب على ما ورد في العهد القديم من أباطيل ويعرض عن التفسير الصحيح للآية الذي ورد في السنة النبوية وهي المصدر الثاني في التفسير بعد المصدر الأول وهو تفسير القرآن بالقرآن ؟ .

إن محاولة المطابقة بين النص القرآني ونص العهد القديم ضرب من التعسف والتكلف ، والجهد بقواعد التفسير ، وأصوله إذ كيف يفسر القرآن الكريم وهو الكتاب الحق الذي تكفل الله بحفظه كيف يفسر بنصوص العهد القديم الباطلة المحرفة الزائفة ؟ .

التفسير الصحيح لقوله تعالى : ﴿ وَكَذَّبْنَا سُلَيْمَانَ ... ﴾ .

● الصحيح في تفسير هاتين الآيتين ما ورد في الصحيحين واللفظ للبخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : قال : سليمان بن داود لأطوفن الليلة على سبعين امرأة تحمل كل امرأة فارسا يجاهد في سبيل الله فقال له صاحبه (2) : إن شاء الله فلم يقل (3) ولم تحمل شيئا إلا واحدا ، ساقطا أحد شقيه ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم لو قالها لجاهدوا في سبيل الله (4) .

(1) قصص الأنبياء - عبد الوهاب النجار ص 392 وما ذكره مأخوذ عن سفر صموئيل 2 إصحاح 13 : 18 .

(2) صاحبه هو الملك كما ورد في بعض الروايات ولم يقل بلسانه وإن كان موقنا بقلبه أن كل شيء بمقدار وفي بعض الروايات (فني) . فتح الباري 533/6 .

(3) وفي بعض الروايات (تسعين) يراجع فتح الباري 532/6 .

(4) رواه البخاري في صحيحه واللفظ له عن أبي هريرة ك الأنبياء باب قول الله تعالى ﴿ وَوَهَبْنَا لِداوُدَ سُلَيْمَانَ يَعمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ سورة ص : 30 - حديث 3424 - فتح الباري 528/6 ورواه الإمام مسلم في صحيحه عنه ك الإيمان باب الاستثناء حديث 1654 ، صحيح مسلم 1275/3 - تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ط دار إحياء الكتب العربية الباني الحلبي .

المبحث الخامس

من افتراءات اليهود على نبي الله داود ﷺ

● من الافتراءات التي اختلقها اليهود - لعنهم الله - في العهد القديم زعمهم أن داود عليه السلام فعل الفاحشة مع امرأة أوريا أحد رجال داود المخلصين الشجعان . وزعموا أنها حبلت من داود الذي احتال في ذلك حتى انتهى به الأمر إلى دفع أوريا إلى الصفوف المواجهة للعدو حتى يقتل ، وقد كان ، ولما خلا الجو لداود تزوج المرأة ، وأنجب منها بعد ذلك سليمان ! .

● فداود في نظرهم مقترف للجريمة الزنا وسليمان في زعمهم ولد لأبوين اجتماعا على الفاحشة ؛ وهذا كذب وافتراء وزور وبهتان على نبي الله داود وابنه نبي الله سليمان عليهما السلام .

● وفيما يلي نتناول ما ورد في العهد القديم في هذا الشأن وما أورده شراحه .

فندقول وبالله التوفيق :

ورد في العهد القديم في سفر صموئيل الثاني الإصحاح الحادي عشر : [... وكان عند تمام السنة في وقت خروج الملوك أن داود أرسل يوبأب وعبيده معه وجميع إسرائيل فأخبروا بني عمون وحاصروا (ربة) . وأما داود فأقام في أورشليم . وكان في وقت المساء أن داود قام عن سريره وتمشى على سطح بيت الملك فرأى من أعلى السطح امرأة تستحم . وكانت المرأة جميلة المنظر جدا . فأرسل داود وسأل عن المرأة فقال واحد : أليست هذه (بتشيع بنت أليعام امرأة أوريا الحثي) ؟ فأرسل داود رسلا وأخذها فدخلت إليه فاضطجع معها وهي مطهرة من طمئها . ثم رجعت إلى بيتها . وحبلت المرأة فأرسلت وأخبرت داود وقالت إني حبلتي . فأرسل داود إلى يوبأب يقول أرسل إلى أوريا الحثي - فأرسل يوبأب أوريا إلى داود . فأتى أوريا إليه فسأل داود عن سلامة يوبأب وسلامة الشعب ونجاح الحرب . وقال داود لأوريا انزل إلى بيتك واغسل رجلك . فخرج أوريا من بيت الملك وخرجت وراءه حصّة من عند الملك . ونام أوريا على باب بيت الملك مع جميع عبيد سيده ولم ينزل إلى بيته . فأخبروا داود قائلين لم ينزل أوريا إلى بيته فقال داود لأوريا أما جئت من السفر . فلماذا لم تنزل إلى بيتك ؟ فقال أوريا لداود إن تابوت وإسرائيل ويهوذا ساكنون في الخيام وسيدي يوبأب وعبيد سيدي نازلون

على وجه الصحراء وأنا آتي إلى بيتي لأكل وأشرب وأضطجع مع امرأتي ! وحياتك وحياة نفسك لا أفعل هذا الأمر . فقال داود لأوريا أقم هنا اليوم أيضا وغدا أطلقك . فأقام أوريا في أورشليم ذلك اليوم وغده . ودعاه داود فأكل أمامه وشرب وأسكره . وخرج عند المساء ليضطجع في مضطجعه مع عبيد سيده وإلى بيته لم ينزل .

وفي الصباح كتب داود مكتوبا إلى يوبأ وأرسله بيد أوريا . وكتب في المكتوب يقول اجعلوا أوريا في وجه الحرب الشديدة وارجعوا من ورائه فيضرب ويموت [(1)] .

● وفي نفس الإصحاح أن أوريا قتل في الحرب بعد أن أبلى بلاء حسنا وقتل معه جند كثير ووصل الخبر لداود ففرح بموت أوريا وفي نفس الإصحاح : [فلما سمعت امرأة أوريا أنه قد مات أوريا رجلها ندمت بعلمها . ولما مضت المناحة أرسل داود وضمتها إلى بيته وصارت له امرأة وولدت له ابنا . وأما الأمر الذي فعله داود فقبح في عيني الرب] (2) .

هذا ولقد قام شراح العهد القديم بتأكيد ما ورد فيه من إفك ، أكدوه بأساليب ملتوية ملفقة ، وفيما يلي نتناول بعض تعليقاتهم على ما ورد في العهد القديم :

جاء في السنن القويم في تفسير العهد القديم أن داود كان مستعدا للسقوط في الخطيئة لأنه لا شيء يهين الإنسان للسقوط كالبطالة ، وذكر القس إلياس مقار أن الشيطان عرف سبيله إلى داود لقد جاءه في وقت فراغه وإهماله للواجب لأنه كان الأولي به أن يكون في جبهة القتال مع جيشه ، ولو فعل ذلك لنجا من الخطيئة (3) وفي السنن القويم أيضا أن ذلك كان أول خطوة في الخطيئة حيث إن من ينظر إلى امرأة ليستهيها فقد زنى بها قلبه (4) .

ويقول صاحب كتاب حياة داود : [أرسلت امرأة أوريا رسالة إلى داود شريكها في الخطيئة بأن النتائج لا يمكن إخفاؤها وكان ناموس موسى يقضي بموت الطرفين في خطية الزنا فكان لا بد من اتخاذ إجراءات سريعة لإخفاء الجريمة يجب أن يعود أوريا إلى بيته وعاد فعلا ولكن عودته لم يكن فيها معالجة للأمر ، حيث رفض دخول بيته رغم أن

(1) سفر صموئيل الثاني إصحاح 11 فقرة 1 : 16 . (2) سفر صموئيل الثاني إصحاح 11 فقرة 26 .

(3) السنن القويم في تفسير العهد القديم / سفر صموئيل الثاني إصحاح 180 تأليف نخبة من علماء اللاهوت صدر عن مجمع الكنائس في الشرق الأدنى بيروت 1973 م .

(4) المرجع السابق ص 180 .

الملك سقاه خمرا ، ولكن روحه العسكرية لم تسمح له حتى بمجرد تحية زوجته بينما كانت الحرب الشديدة قائمة [(1)] .

● وهكذا تبدو صورة داود في العهد القديم صورة عاشق واله يتهرب من الجهاد ويؤثر السلامة والراحة وينشغل بالشهوات والملذات ويتلصص على البيوت من صومعته العالية حتى تقع عينه على امرأة تستحم فيشتهيها وفي الحال يرسل بعض خواصه ليحضرها وما هي إلا لحظات حتى كانت بين يديه فيقع عليها فتحبل فيتأمر على زوجها حتى ينتهي به الأمر إلى أن يزج به في الصفوف الأمامية ليقتل وقد كان ، ويخلو الجوداود فيتزوج من تلك الفتاة التي أنجبت له سليمان ! .

● إن هذه الافتراءات التي تولى كبرها كُتِّبُ العهد القديم لا تليق بعوام أهل الإيمان فكيف بمن اصطفاهم الله ﷻ وطهرهم واجتباهم وآثرهم ! .

وكيف ينسبون فعل الفاحشة إلى نبي من الأنبياء وقد ورد في كتبهم تحريم الزنا ! (2) .

يقول القرطبي في كتابه الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام :

[... هذه الفواحش المنكرة وهذه الصفات المذمومة المستقدرة هل تليق بأولي الديانات ؟ فكيف بمعدن النبوات ؟ وهل يحمد ذكرها عند ذوي المروءات ؟ فكيف عند الحي الكريم إله المخلوقات ؟ تبا لهم ولمن يصدقهم فوالله لقد افتروا على رسل الله وكذبوا على كتب الله ﴿ افْتَرَاءٌ عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴾ (3)] (4) .

ويعقب الإمام ابن حزم في الفصل على افتراءات العهد القديم فيقول :

[وتالله ما رأيت أمة تقر بالنبوة وتنسب إلى الأنبياء ما ينسبه هؤلاء الكفرة فتارة ينسبون إلى إبراهيم عليه السلام أنه تزوج إلى أخته فولدت له إسحاق ! ثم ينسبون إلى يعقوب

(1) حياة داود - د . ف . ماير ص 208 ، 209 ترجمة القص مرقص داود ط / مكتبة الحجة بالقاهرة ويراجع السنن القويم ص 181 .

(2) ورد تحريم الزنا وعقوبته في العهد القديم وهي الرجم أو الحرق يراجع سفر اللاويين إصحاح 20 والثنية إصحاح 22 كما ورد تحريم القذف وعقوبته وهي التعزير بالضرب وغرامة مالية والزواج بالمقدوفة . يراجع سفر الثنية إصحاح 22 .

(3) سورة الأنعام : 140 .

(4) الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام وإظهار محاسن دين الإسلام . للقرطبي (أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري تحقيق د . أحمد حجازي السقا ط دار التراث العربي سنة 1980 م ص 199 .

أنه تزوج إلى امرأة فُدِّسَتْ له أخرى فأُنْجبت منه أولادا كان من ذريتهم موسى وهارون وداود وسليمان وغيرهم من الأنبياء ! ثم ينسبون إلى روبين أنه زنا بامرأة أبيه يعقوب ! وينسبون إلى يهوذا أنه زنا بامرأة ولده فحبلت وولدت من الزنا ولدا منه انتسل داود وسليمان ! ... ثم ينسبون إلى موسى أن أمه عمه أبيه ! وينسبون إلى داود أنه زنى جهارا بامرأة رجل من جنده محصنة وزوجها حي وأنها ولدت منه من ذلك الزنا ابنا ذكرا ثم مات وولدت له سليمان بعد ذلك ! ثم ينسبون إلى أمنون بن داود أنه زنا بأخته من أبيه ! كما ينسبون إلى أبشالوم بن داود أنه فسق بسراري أبيه علانية أمام الناس ! كما ينسبون إلي سليمان أنه تزوج بنساء كوافر ومال إليهن وقرب القرابين للأوثان تزلفا إلى نسائه ! ... فعلى كل من يصدق بشيء من هذا الإفك لعنة الله وغضبه ، وعلى كاتبه لعنة الله وغضبه عدد كل شيء خلق الله ... فاحمدوا الله يا مسلمون على ما هداكم له من الملة الزهراء التي لم يَشُبْها تبديل ولا تحريف والحمد لله رب العالمين [(1)] .

● ويقول الأستاذ الدكتور عبد الستار فتح الله السعيد :

[لقد نَصَّبَ الوحي الإلهي الأنبياء ﷺ - أسوة حسنة للناس ، ووصفهم بما هم أهل من طهارة وسمو ونبيل وإحسان ، وجاء اليهود وهم قوم بهت فعمكسوا على الوحي قضيته وألصقوا بالأنبياء ﷺ كل رذيلة منهم مثلا يغري بالسوء ويكتسح في النفس الإنسانية كل عناصر المقاومة ولا يجعلها تتماثل ريشما تتهالك وتتسارع في الخطايا] (2) .

أقول : إن الافتراءات الواردة في العهد القديم أدلة واضحة على اضطرابها وزيفها وبطلانها والعجب ! كيف ينسبون الفاحشة إلى داود ثم يمتدحون بره وطهره وتقواه ؟ ! .

● ففي سفر صموئيل الثاني يقول داود : (يكافئني الرب حسب بري حسب طهارة يدي ، يرد علي لأني حفظت طرق الرب ولم أعص إلهي ؛ لأن جميع أحكامه أمامي وفرائضه لا أحيد عنها) (3) .

(1) الفصل في الملل والأهواء والنحل لابن حزم الظاهري 1/147 ، 148 بتصرف .

(2) معركة الوجود بين القرآن والتلمود للأستاذ الدكتور عبد الستار فتح الله سعيد أستاذ التفسير وعلوم القرآن بجامعة الأزهر وجامعة أم القرى ص 154 ، 155 ط 2 مكتبة المنار الأردن - الزرقاء ط / سنة 1402 هـ .

(3) سفر صموئيل الثاني : لإصحاح 22 فقرات 21 : 24 .

- وفي الإصحاح الثالث من سفر الملوك الأول [فقال سليمان إنك قد فعلت مع عبدك داود أبي رحمة عظيمة حسبما سار أمامك بأمانة وبر واستقامة قلب معك ، وحفظت له هذه الرحمة العظيمة وأعطيته ابنا يجلس على كرسيه كهذا اليوم] (1) .
- وفي الإصحاح السادس من أخبار الأيام الثاني (قال الله لداود : إن يكن بنوك طرقهم يحفظون حتى يسيروا في شريعتي كما سرت أنت أمامي) .
- فهل يريد الله من أبناء داود أن يسيروا على نهج أبيهم ؟ الذي ينسب العهد القديم له فعل الفاحشة (2) !؟ .

- وفي سفر الملوك الأول - الإصحاح الحادي عشر : [قول الرب لبريعام بن ناباط بن سليمان : ولا آخذ كل المملكة من يده لأجل داود عبدي الذي اخترته الذي حفظ وصاياي وفرائضي ... فإذا سمعت لكل ما أوصيك به وسلكت في طريقي وفعلت ما هو مستقيم في عيني وحفظت فرائضي ووصاياي كما فعل داود عبدي أكون معك وأبني لك بيتا آمنا كما بنيت لداود ، وأعطيك إسرائيل] (3) .
- وما سبق يتضح لنا وقوع التناقض والاضطراب في العهد القديم مما يدل على زيفه وبطلانه .

الإسرائيليات الواردة في بعض كتب التفسير

في تفسير (نبا الخصم)

بينت فيما سبق بطلان ما ورد في العهد القديم من إفك وبهتان على نبي الله داود عليه السلام ، ولقد أورد بعض المفسرين في تفسيرهم لقوله تعالى : ﴿ وَهَلْ أَتَاكَ نَبُوءُ الْخَصْمِ إِذْ سَأَرُوا الْمِحْرَابَ ﴾ (1) إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَحَفَّ خَصْمَانِ بَعَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ (2) إِنَّ هَذَا أَجَى لَمْ يَسْعُ وَيَسْعُونَ نَجْمَةً وَلِي نَجْمَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفَلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ (3) قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَجْمِكَ إِلَى نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخَالِطَاءِ يُبْنِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ (4) فَغَفَرْنَا

(2) سفر أخبار الأيام الثاني إصحاح 6 فقرة 17 .

(1) سفر الملوك الأول إصحاح 3 فقرة 7 .

(3) سفر الملوك الأول إصحاح 11 فقرة 34 .

لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ ﴿٥٦﴾ يَدَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ ﴿٥٧﴾ .

أوردوا ما يقدر في عصمة نبي الله داود عليه السلام متأثرين في ذلك بما ورد عن أهل الكتاب ، وهذه الرويات حين نعرضها على ميزان النقد يظهر لنا بطلانها سندا ومتنا وفيما يلي بيان ذلك :

الرواية الأولى : روى الطبري في تفسيره عن محمد بن سعد عن أبيه عن عمه قال : حدثني أبي عن أبيه عن ابن عباس في قوله تعالى ﴿ وَهَلْ أُنْتَكَبَتْ أَلْحَصَمِ ... ﴾ قال : إن داود كان في محرابه فاطلع من كوته فوجد امرأة تغتسل فأعجب بها وأرسل إليها فأخبرته أن زوجها غائب فكتب إلى أمير الجيش أن يجعله في المقدمة ليهلك ففعل فكان يصاب أصحابه وينجو هو ، وربما نصروا ، وإن الله تعالى لما رأى ذلك الذي وقع من داود أراد أن يستنقذه فأرسل إليه ملكين فبينما داود ذات يوم في محرابه إذ تسور عليه الخصمان ففرع منهما حين رأهما فقال أحدهما ﴿ إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَجْمَةً وَلِي نَجْمَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ ﴾ فقال داود أنت كنت أحوج إلى نعتك منه ﴿ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَجْمِكَ إِلَىٰ نَجْمِهِ .. ﴾ فنظر الملكان أحدهما إلى الآخر حين قال داود ذلك ، فتبسم أحدهما إلى الآخر فرآه داود فعلم أنه المقصود فخر راعيا وأتاب أربعين ليلة حتى نبت الخضرة من دموع عينيه ثم شدد الله ملكه (1) .

الرواية الثانية : وروى الطبري في تفسيره أيضا عن محمد بن الحسين عن أحمد بن المفضل عن أسباط عن السدي أن داود كان في محرابه فتمثل له الشيطان في صورة حمامة من ذهب ، فأعجب بها وقام إليها ومد يده نحوها ليأخذها فتنحّت حتى وقعت في كوة فذهب إليها فطارت من الكوة فنظر أين تقع فبعث في أثرها من يمسك بها فأبصر امرأة تستحم على سطح لها فأعجب بحسنها البار ، وحانت منها التفاتة فأبصرته فألقت شعرها على جسدها فاستترت به ، فزاده ذلك رغبة فيها فسأل عنها فعلم أنها امرأة (أوريا) أحد قواده ، فكتب داود إلى أمير الجند أن ابعث (أوريا) إلى عدو كذا وكذا حتى يقتل فبعثه فانتصر على ذلك العدو، وكتب أمير الجند إلى داود بذلك فكتب إليه داود أن ابعثه إلى عدو كذا وكذا - أشد منهم بأسا - فبعثه فاتصروا عليهم ،

وكتب أمير الجند إلى داود بذلك فكتب إليه أن ابعته إلى عدو كذا وكذا فبعته فقتل في المرة الثالثة ، وتزوج داود بامرأته ودخل عليها فلم تلبث معه إلا يسيرا حتى جاء إليه الملكان . إلخ القصة (1) .

الرواية الثالثة : وروى الطبري عن بشر عن سعيد عن مطر عن الحسن نحو ذلك (2) .

الرواية الرابعة : كما روى الطبري هذه القصة عن ابن حميد عن سلمة عن محمد ابن إسحاق عن بعض أهل العلم عن وهب بن منبه (3) .

الرواية الخامسة : وأوردها الطبري في تفسيره أيضا بسند مرفوع ، قال : حدثني يونس قال أخبرنا ابن وهب قال أخبرنا ابن لهيعة عن أبي صخر عن يزيد الرقاشي عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : وذكر القصة (4) .

الرواية السادسة : كما أوردها البغوي في تفسيره (معالم التنزيل) عن الكلبي ومقاتل (5) .

● وحين نتأمل في هذه الرويات نجد بينها اختلافات كثيرة في تفصيلاتها إلى جانب مخالفتها للعقل والنقل ومن ذلك ما ورد في الرواية الأولى أن داود ظل أربعين ليلة راکعاً حتى نبتت الخضرة من دموع عينيه ، وهذا الكلام لا يقبله العقل ، ففي أي مكان كان يصلي في حقل أم في بستان ؟ وهل يعقل أن يبكي إنسان أربعين يوماً بكاء متواصلاً متدفقاً ؟ حتى تنبت الأرض من تحته ؟ وهل ينشغل داود عن العبادة بحمامة تلهيه وتقطع عليه خلوته ؟ ... وهل يصدر من نبي الله داود هذه الأفعال التي لا تليق بعوام أهل الإيمان فكيف بصفوة الصفوة ؟ .

● وكما أن هذه الروايات باطلة من جهة المتن فهي باطلة من ناحية السند وفيما يلي بيان ذلك .

● أما الرواية الأولى التي أوردها الطبري عن محمد بن سعد عن أبيه عن عمه قال : حدثني أبي عن أبيه عن ابن عباس ... إلخ . فهي باطلة : لأن ابن سعد ضعيف وأبوه وعمه كذلك .

● ففي لسان الميزان يقول ابن حجر : [ابن سعد) هو محمد بن سعد بن محمد

(2) المرجع السابق 94/23

(4) المرجع السابق 96/23

(1) المرجع السابق 93/23

(3) المرجع السابق 95/23

(5) معالم التنزيل للبغوي 591/4

ابن الحسن بن عطية العوفي قال الخطيب كان لنا في الحديث [(1)] .

وقال ابن حجر في لسان الميزان عن أبيه (سعد بن محمد بن الحسن) قال فيه الإمام أحمد : إنه جهمي (2) ، ليس أهلاً لأن يكتب عنه (3) .

وجاء عن (عمه الحسن بن الحسن بن حسن بن عطية) : ضعفه يحيى بن معين وقال ابن حبان روى أشياء لا يتابع عليها ، ولا يحتج بخبره وقال النسائي وأبو حاتم : ضعيف وقال الجوزجاني : واهي الحديث وذكره العقيلي في الضعفاء (4) ومن هنا فإن هذه الرواية باطلة سنداً ومتناً .

أما الرواية الثانية : التي رواها الطبري عن السدي من طريق أحمد بن المفضل وأسباط فأحمد بن المفضل : القرشي الكوفي : قال عنه أبو حاتم : كان صدوقاً من رؤساء الشيعة وقال الأزدي منكر الحديث (5) .

أسباط بن نصر الهمداني : قال عنه أبو حاتم سمعت أبا نعيم يضعفه ... وقال النسائي : ليس بالقوي ، وقال الساجي في الضعفاء : روى أحاديث لا يتابع عليها عن سماك بن حرب وقال ابن معين ليس بشيء (6) .

أما السدي فهو إسماعيل بن عبد الرحمن السدي من التابعين وثقه أحمد وضعفه ابن معين وقال أبو حاتم لا يحتج به ، ورمي بالتشيع (7) .

وفي تهذيب التهذيب قال ابن حجر قال عبد الله بن حبيب بن أبي ثابت سمعت الشعبي وقيل له إن السدي قد أعطي حظاً من علم القرآن فقال : قد أعطي حظاً من جهل بالقرآن ، وقال يحيى بن معين ضعيف ، وقال الجوزجاني كذاب شتام ، وقال أبو زرعة لين ، وقال أبو حاتم يكتب حديثه ولا يحتج به ، وقال ابن عدي له أحاديث يرويها عن عدة شيوخ وهو عندي مستقيم الحديث ، صدوق لا بأس ، وقال حسين بن واقد سمعت عن السدي فأقمت حتى سمعته يتناول أبا بكر وعمر فلم أعد له ، وحكي

(1) لسان الميزان لابن حجر 174/5 ط مؤسسة الأعلمي للمطبوعات بيروت سنة 1390 هـ ط ثانية .

(2) جهمي نسبة إلى حهم بن صفوان .

(3) المرجع السابق 18/3 .

(4) المرجع السابق 278/2 .

(5) تهذيب التهذيب 81/1 .

(6) المرجع السابق 211/1 ، 212 وميزان الاعتدال 32/4 .

(7) المغني في الضعفاء للذهبي 82/1 .

عن أحمد أنه يحسن الحديث إلا أن هذا التفسير الذي يجيء به قد جعل له إسنادا واستكلفه (1) .

أقول والسدي من المشهورين بالنقل عن أهل الكتاب دون تثبت أو نقد .
وأما الرواية الثالثة : التي نقلها الطبري عن سعيد عن مطر فإن كليهما لا يؤخذ عنه ولا يوثق في روايته .

ورد في تهذيب التهذيب عن سعيد بن إياس الجريري : قال أبو حاتم تغير حفظه قبل موته ، وقال أحمد عن يزيد بن هارون : الجريري منكر الحديث ، وقال ابن سعد اختلط في آخر عمره (2) .

أما مطر : وهو مطر بن طهمان الوراق فلقد ورد عنه في تهذيب التهذيب : أنه ليس بالقوي ، وقال فيه ابن سعد ضعيف الحديث ، وعن أبي داود قال : ليس بحجة ولا يقطع به في حديث إذا اختلف ، وقال ابن حبان : ربما أخطأ ، وكان معجبا برأيه ، وكان يحيى بن سعيد يضعف حديثه عن عطاء (3) .

أما الرواية الرابعة : رواية الطبري عن ابن حميد عن سلمة عن محمد بن إسحاق عن بعض أهل العلم عن وهب بن منبه ، ففيها مجهول (بعض أهل العلم) وهذا كاف في بطلانها ، كما أنها واردة عن وهب بن منبه وهو مشهور بالنقل عن أهل الكتاب دون تحر أو تثبت (4) .
وأما الرواية الخامسة : المرفوعة ففيها يزيد الرقاشي .

- يزيد بن أبان وهو وإن ذكر بعض العلماء أنه من العباد الزهاد إلا أن علماء الجرح والتعديل قد جرحوه ، فكان شعبة يتكلم فيه بالعظام وقال أحمد لا يكتب حديثه ، وقال فيه ابن معين يزيد رجل صالح وليس حديثه بشيء ، وقال ابن سعد كان ضعيفا قدريا وقال النسائي والحاكم يزيد متروك الحديث (5) .

(1) تهذيب التهذيب لابن حجر 314/1 . (2) تهذيب التهذيب 5/4 ، 6 .

(3) المرجع السابق 167/1 ، 169 .

(4) تراجع ترجمته في تهذيب التهذيب / وطبقات فقهاء اليمن للجمدي ص 57 ووفيات الأعيان 88/5 .

والتفسير والمفسرون للذهبي 169/1 والإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير ص 105 .

(5) تراجع ترجمته في تهذيب التهذيب 310/11 والمغني في الضعفاء 747/2 - وخلاصة تهذيب الكمال ص

369 والمجروحين من المحدثين والضعفاء والمتروكين 67/1 لابن حبان البستي .

وأما الرواية السادسة التي أوردها البغوي في معالم التنزيل فهي عن الكلبي ومقاتل والكلبي هو محمد بن السائب بن بشرأبو النضر الكوفي النسابة المفسر ، قال سفيان الثوري : قال الكلبي قال لي أبو صالح انظر كل شيء رويت عني عن ابن عباس فلا تروه وقال معتمر بن أبي سليمان عن أبيه كان بالكوفة كذابان أحدهما الكلبي (1) .

وأما عن مقاتل فهو مقاتل بن سليمان البلخي وهو مبتدع ، قصاص قال أبو حنيفة أفرط جهم في نفي التشبيه حتى قال إنه تعالى ليس بشيء وأفرط مقاتل في - الإثبات - حتى جعل الله مثل خلقه .

وقال وكيع : كان مقاتل كذابا ، وقال سفيان بن عيينة ، سمعت مقاتلا يقول إن لم يخرج الدجال في سنة 150 هـ فاعلموا أنني كذاب ، وقال ابن معين ليس بثقة ، وقال عمرو بن علي متروك الحديث كذاب ، وقال ابن سعد أصحاب الحديث يتقون حديثه وينكرونها ، وقال أبو حاتم : متروك الحديث ، وقال النسائي : كذاب (2) .

ومما سبق يتضح لنا بطلان الروايات الموقوفة والرواية المرفوعة التي ورد فيها

ما يقده في عصمة نبي الله داود عليه السلام

● يقول ابن كثير : [وقد ذكر كثير من المفسرين من السلف والخلف ها هنا قصصا وأخبارا أكثرها إسرائيلية ومنها ما هو مكذوب لا محالة ، تركنا إيرادها في كتابنا قصدا ؛ اكتفاء واقتصارا على مجرد تلاوة القصة في القرآن الكريم والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم] (3) .

● وقال القاضي عياض في كتابه الشفا : [وأما قصة داود عليه السلام فلا يجب ولا يجوز ولا يصح أن يلتفت إلى ما ذكره القصاصون الناقلون عن فجار أهل الكتاب من اليهود والنصارى الذين بدلوا وحرفوا كتبهم وغيروا ما فيها ...] (4) .

● ويذكر الإمام الرازي في تفسيره أن هذه الروايات الباطلة المنسوبة إلى سيدنا داود عليه السلام لو نسبت إلى أفسق الناس وأشدهم فجورا لاستنكف منها واعتبرها أمرا منكرا ،

(1) تراجع ترجمته في ميزان الاعتدال 556/3 وتهذيب التهذيب 179/9 .

(2) تراجع ترجمته في ميزان الاعتدال 173/4 ، 175 . تهذيب التهذيب 279/10 ، 284 .

(3) قصص الأنبياء لابن كثير ص 482 . (4) الشفا للقاضي عياض 827/2 .

ولو أن ذلك الخبيث الأفاك الذي يقرر تلك القصة لو أنه زُمِيَ وَقُذِفَ بمثل ما ادعاه على نبي الله داود عليه السلام : لبالغ في تنزيه نفسه ولصّب جام الغضب واللعنة على من يرميه بذلك ، وهذه المفتريات لو نسبت إلى أفسق الملوك لكان ذلك منه أمراً منكراً ، وإذا كان كذلك فكيف يليق بالعاقل نسبة تلك الافتراءات إلى النبي المعصوم عليه السلام ، الذي كان مشغولاً في معظم أوقاته بالعبادة ⁽¹⁾ والدعوة والجهاد والحكم بين الناس ⁽²⁾ .

الاتجاه الصحيح في تفسير ﴿ وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ ... ﴾

بيننا فيما سبق بطلان ما ورد في العهد القديم من افتراء على نبي الله داود عليه السلام . كما أوردنا ما أورده بعض المفسرين في كتبهم من إسرائيليّات تسربت عن طريق أهل الكتاب ، وهي مرويات باطلة من جهة السند ومن جهة المتن ، وبقي لنا أن نبين الاتجاه الصحيح في تفسير قوله تعالى : ﴿ وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ سُورُوا إِلَيْكَ الْحَرَابَ ... ﴾ . فنقول وبالله التوفيق :

إن الله ﷻ أراد أن يختبر داود عليه السلام في أصول الحكم فأرسل إليه ملكين دخلا عليه وهو في محرابه ففوجئ بهما وفرع منهما فقالا له : ﴿ لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ ۝ إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْمَةً وَاِثْنَيْ عَشَرَ نَعْمَةً فَقَالَ أَكْفَلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ ﴾ .

وكان على داود عليه السلام بعد أن سمع من أحد الخصمين أن يستمع إلى الآخر ولكنه تعجل في الحكم وقال كما أخبر القرآن الكريم : ﴿ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَجِيكَ إِنْ يَعْلَمِهُ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ﴾ . وهذا هو الخطأ الذي وقع فيه نبي الله داود وتاب منه ويؤيده ويؤكد سباق الآيات بعد ذلك ﴿ وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ ﴾ أي امتحنناه واختبرناه .

(1) روي الإمام البخاري في صحيحه عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « أحب الصيام إلى الله صيام داود ، كان يصوم يوماً ويفطر يوماً ، وأحب الصلاة إلى الله صلاة داود كان ينام نصف الليل ويقوم ثلثه وينام سدسه » صحيح البخاري ك / أحاديث الأنبياء باب / أحب الصلاة إلى الله صلاة داود حديث 3420 فتح الباري 525/6 .

(2) مفاتيح الغيب للرازي 185/26 بتصريف ويراجع عصمة الأنبياء للرازي ص 111 .

﴿ وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴿١٦﴾ فَعَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَنَاقِبٍ ﴿١٧﴾ يٰدَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ ﴾ .

ولقد ذكر هذا الرأي الإمام البقاعي وبين أنه مناسب لسياق الآيات - السابق واللاحق - وفي ذلك يقول : [ولما كان السياق للتدريب على الصبر والثبات الشافي والتدبر التام والابتلاء لأهل القرب وكان المظنون بمن أوتي فصل الخطاب أن لا يقع له لبس في حكم ولا عجلة في أمر ، وكان التقدير هل أتت هذه الأنبياء عطف عليه - مبينا عواقب العجلة معلما أن على من أعطي المعارف أن لا يزال ناظرا إلى من أعطاه ذلك ، سائلا له التفهيم ، استعجازا لنفسه ، متصورا لمقام العبودية التي كرر التنبيه عليها في هذه السورة بنحو قوله نعم العبد ...] (1) .

● ويقول البقاعي أيضا : [ولما أتم ذلك ذهب الداخلون عليه فلم ير منهم أحدا فوق في نفسه أنه لا خصومة ، وأنهم إنما أرادوا أن يجربوه في الحكم ويدربوه عليه ، وأنه يجوز للشخص أن يقول ما لم يقع إذا انبني عليه فائدة عظيمة تعين ذلك الكلام طريقا للوصول إليها أو كان أحسن الطرق مع خلو الأمر عن فساد ، وحاصله أنه ذكر كلام ، والمراد به بعض لوازمه فهو مثل دلالة التضامن في المفردات وهذا مثل قول سليمان عليه السلام اتوني بالسكين أشقه بينهما وليس مراده إلا ما يلزم عن ذلك من معرفة الصادقة والكاذبة بإباء الأم لذلك وتسليم المدعية كذبا ... ﴿ وَظَنَّ دَاوُدُ ﴾ ﴿ بدهابهم ﴾ ﴿ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ ﴾ أي اختبرناه بهذه الحكومة في الأحكام التي يلزم الملوك مثلها ليتبين أمرهم فيها ، وعلم أنه بادر إلى نسبة المدعي عليه إلى أنه ظلم من قبل أن يسمع كلامه ويسأله المدعي الحكم فعاتبه الله على ذلك والأنبياء عليهم السلام لعلو مقاماتهم يعاتبون على مثل هذا فهو من قصر الموصوف على الصفة ، أي هذه القصة مقصورة على الفتنة لا تعلق لها بالخصومة (2) .

● وبين الإمام البقاعي أن الواجب على كل مسلم أن ينزه نبي الله داود عليه السلام عن هذه المفتريات .

وذكر هذا الرأي أيضا الأستاذ سيد قطب في تفسيره وفي ذلك يقول : [... والقضية - كما عرضها أحد الخصمين - تحمل ظلما صارخا مثيرا لا يحتمل التأويل . ومن ثم

(1) نظم الدرر في تناسق الآيات والسور 355/16 باختصار .

(2) المرجع السابق 360/16 ، 361 باختصار .

اندفع داود عليه السلام يقضي على إثر سماعه لهذه المظلمة الصارخة ، ولم يوجه إلى الخصم الآخر حديثا ، ولم يطلب إليه بيانا ، ولم يسمع له حجة ، ولكنه مضى يحكم : ﴿ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَجِيكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ ⁽¹⁾ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ⁽²⁾ ﴾ ، ويبدو أنه عند هذه المرحلة اختفى عنه الرجلان : فقد كانا ملكين جاءا للامتحان ! امتحان النبي الملك الذي ولاه الله أمر الناس ، ليقضي بالحق والعدل ، وليتبين الحق قبل إصدار الحكم دون استشارة أو عجلة ، وعليه ألا يأخذ بظاهر قول واحد . قبل أن يمنح الآخر فرصة للإدلاء بقوله وحجته ؛ فقد يتغير وجه المسألة كله ، أو بعضه ، وينكشف أن ذلك الظاهر كان خادعا أو كاذبا أو ناقصا ! عندئذ تنبه داود عليه السلام إلى أنه ابتلاء ﴿ وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتْنَتْهُ ⁽³⁾ ﴾ فأدر كته طبيعته ... إنه أواب ... ﴿ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ⁽⁴⁾ ﴾ .

● ويعلق صاحب الظلال على ما وقعت فيه بعض التفاسير من إسرائيلييات فيقول :

[وخاضت بعض التفاسير مع الإسرائيليات حول هذه الفتنة خوضا كبيرا تنتزه عنه طبيعة النبوة ، ولا يتفق إطلاقا مع حقيقتها ، حتى الروايات التي حاولت تخفيف تلك الأساطير سارت معها شوطا ، وهي لا تصلح للنظر من الأساس ، ولا تتفق مع قول الله تعالى : ﴿ وَإِنَّ لِمَ عِنْدَنَا لَازْلَفَىٰ وَحُسْنَ مَّعَآبٍ ⁽⁵⁾ ﴾ .

● ويستند صاحب الظلال إلى ظاهر السياق ليؤكد به ما ذهب إليه في فهم الآيات فيقول :

[والتعقيب القرآني الذي جاء بعد القصة يكشف كذلك عن طبيعة الفتنة ويحدد التوجيه المقصود بها من الله لعبيده الذي ولاه القضاء والحكم بين الناس ﴿ يَدَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَصِلُونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ ⁽⁶⁾ ﴾] ⁽⁷⁾ .

(1) الخلطاء : الأقوياء المخاطون بعضهم لبعض قال النسفي (الخلطاء) الشركاء والأصحاب [مدارك التنزيل

للنسفي 39/4] .

(2) سورة ص : 24 .

(3) سورة ص : 24 .

(4) سورة ص : 24 .

(5) سورة ص : 25 .

(6) سورة ص : 26 .

(7) في ظلال القرآن 3018/5 بتصرف .

وهناك اتجاه آخر في تفسير هذه الآيات يتوافق مع ظاهر النص القرآني ، وهو أن الخصمين من البشر والخصومة حقيقية وليست افتراضية ، وأيد هذا الرأي الإمام أبو حيان في البحر المحيط وأورده الزمخشري في الكشاف ورجحه أبو شهبه في كتابه الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير وفي ذلك يقول : [إن داود عليه السلام كان قد وزع مهام أعماله ومسئوليته فجعل أيامًا للقضاء بين الناس وأيامًا يتفرغ فيها للعبادة وأيامًا لوعظ بني إسرائيل وفي اليوم الذي يتفرغ فيه للعبادة : دخل عليه خصمان تسورا عليه من جهة السور فارتاع منهما وفرع من دخولهما فجأة دون استئذان ودون دخول من الباب . فظن بهما سوءًا أنهما جاءا ليقتلاه : فكان ذنبه سوء الظن بهما وهذا لا يليق بمقام الأنبياء كما قيل - حسنات الأبرار سيئات المقربين - فالرجلان خصمان حقيقة ، وليسوا ملكين كما زعموا ، والنعاج على حقيقتها وليس ثمة رموز ولا إشارات ، وهذا التأويل هو الذي يوافق نظم القرآن ويتفق مع عصمة الأنبياء فالواجب الأخذ به ونبد الخرافات والأباطيل التي هي من صنع بني إسرائيل وتلقفها القصاص وأمثالهم ممن لا علم عندهم (1) .

وقال الزمخشري : (وقيل أن الخصمين كانا من الإنس ، وكانت الخصومة على الحقيقة بينهما .. وإنما فرع لدخولهما عليه في غير وقت الحكومة أن يكونا مغتالين ، وما كان ذنب داود عليه السلام إلا أنه صدق أحدهما على الآخر وظلمه قبل مسأله) .

وأيد هذا الرأي ابن المنير في الانتصاف لموافقته لعصمة نبي الله داود عليه السلام ولظاهر الآيات وأن ذنب داود عليه السلام هو العجلة في الحكم (2) .

والأولى أن يحمل ذنب داود عليه السلام في أنه تعجل الحكم على أحدهما دون السماع للخصم الآخر أما كونه ظن بهما أنهما جاءا لاغتياله فهذا رأي مستبعد .

وصفوة القول فيما سبق : أن ما ذكره بعض المفسرين في كتبهم من إسرائيليات في تفسير ﴿ نَبُؤًا أَخَصَم ﴾ ، ما ذكره في هذا الشأن من فتنة داود بامرأة أوريا : افتراء على نبي الله داود عليه السلام .

(1) الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير د / أبو شهبه ص 269 بتصرف .

(2) الكشاف 88/4 والانتصاف بها من الكشاف 88/4 ، 89 ، والبحر المحيط 390/7 .

الفصل التاسع

حديث القرآن الكريم عن مريم عليها السلام

- المبحث الأول : النسب الطاهر .
- المبحث الثاني : مع أم مريم عليها السلام .
- المبحث الثالث : كفالة زكريا عليه السلام لمريم عليها السلام .
- المبحث الرابع : عود إلى قصة مريم عليها السلام اصطفاء الله سبحانه لمريم عليها السلام .
- المبحث الخامس : من أوجه إعجاز القرآن الكريم إخباره عن أحوال الأمم السابقة .
- المبحث السادس : بشارة الملائكة لمريم عليها السلام بعيسى عليه السلام وجملة من أوصافه .
- المبحث السابع : مجيء جبريل عليه السلام وظهوره لمريم في صورة بشرية .
- المبحث الثامن : وقوع النفخ في مريم عليها السلام وحملها بعيسى عليه السلام .
- المبحث التاسع : ولادة عيسى عليه السلام وما صاحبها من رحمت ونفحات .
- المبحث العاشر : مجيئها بعيسى إلى قومها واتهامهم لها .
- المبحث الحادي عشر : فوائد حول القصة .

تمهيد :

وردت قصة مريم عليها السلام في سور كثيرة ولمناسبات متعددة نذكر منها ما يلي :

● في سورة آل عمران : ورد الحديث عنها في سياق الحديث عن عيسى عليه السلام وبيان أنه بشر رسول خلقه الله ﷻ من غير أب ، كما خلق آدم من غير أب ولا أم يقول تعالى ﴿ **إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ** ﴾ (1) .
وعيسى عليه السلام فرع طيب من شجرة طيبة مباركة فأمه مريم عليها السلام خير نساء العالمين ، اصطفاها الله تعالى وطهرها وآثرها وأنعم عليها بنعم كثيرة وأكرمها بكرامات ظاهرة ، وأمها امرأة صالحة صادقة ، وفتية تقية ، نذرت حملها لله تعالى محررا فتقبل الله منها نذرها .

وأبوها عمران عليه السلام الإمام العابد والخير الزاهد صاحب المكانة السامية في قلوب العباد المخلصين الذين تسابقوا وتنافسوا على كفالة مريم عليها السلام تقربا إلى الله تعالى ، ووفاء وعرفانا وبراً وإحسانا إلى معلمهم وإمامهم عمران عليه السلام الذي مات دون أن تكتحل عيناه برؤية ابنته مريم عليها السلام ، وسميت هذه السورة بهذا الاسم تكريما لعمران عليه السلام ولأصله الطاهر ولذريته الصالحة الطيبة .

● ويأتي ذكر جانب آخر من قصة مريم عليها السلام في سورة تحمل اسمها تكريما لها وهي سورة مريم التي ورد فيها الحديث عن مجيء جبريل عليه السلام لها في صورة بشرية وهي في خلوتها تعبد الله ﷻ ، واستعاذتها بالله تعالى منه ، وإخباره إياها بحقيقته ومهمته التي كلفه الله بها والتي جاء من أجلها ، وتعجبها من تلك البشارة العجيبة وجواب جبريل عليه السلام على استفهامها التعجبي ، ونفخه فيها وحملها بعيسى عليه السلام ومدة الحمل وساعة المخاض ، تلك الساعة العصبية العسيرة التي مرت بمريم النذيرة ، والتي تمت الموت من شدة ما مر بها ، ومولد عيسى عليه السلام وما صحبه من رحمت ونفحات وإرهاصات ، وقدم مريم إلى قومها ومعها وليدها عيسى عليه السلام وموقفهم من ذلك ونطق عيسى عليه السلام وهو في المهد .

● وفي سورة الأنبياء يرد ذكرها عليها السلام وابنها نبي الله عيسى عليه السلام في سياق

الحديث عن نعم الله ﷻ ورحمته بأنبيائه وأصفياؤه قال تعالى : ﴿ وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ ﴾ (1) .

● يقول صاحب الظلال : [ولا يذكر هنا اسم مريم لأن المقصود في سلسلة الأنبياء هو ابنها عيسى ﷺ وقد جاءت تبعا له في السياق ، وإنما يذكر صفتها المتعلقة بولدها ﴿ وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا ﴾ أحصنته فصانته من كل مباشرة والإحصان يطلق عادة على الزواج بالتبعية ؛ لأن الزواج يحصن من الوقوع في الفاحشة ، أما هنا فيذكر في معناه الأصيل وهو الحفظ والصون أصلا من كل مباشرة شرعية أو غير شرعية ، وذلك تنزيها لمريم عن كل ما رماها به اليهود ..] (2) .

كما يرد ذكرها ﷺ في سورة المؤمنون مع ابنها نبي الله عيسى ﷺ في سياق الحديث عن رحمة الله بأنبيائه وعنايته بهم وحفظه لهم قال تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴾ (3) .

ويرد ذكرها أيضا في سورة التحريم مع آسية بنت مزاحم كمثل طيب ونموذج رائع ، وصورة مشرقة متألفة للمرأة الصالحة الصادقة المؤمنة المحسنة التقية النقية ، بعد أن ضرب الله تعالى مثلا للمرأة الكافرة .

قال تعالى : ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ ثَوْجٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ ﴿٥١﴾ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَبِخِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَبِخِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتِبَ عَلَيْهَا إِكْرَامٌ ﴿٥٣﴾ وَكَانَتْ مِنَ الْمُقْنِنِينَ ﴾ (4) .

● ملاحظة مهمة : ونظرا لأن قدرا كبيرا من قصة مريم ﷺ قد ورد في سورتي آل عمران ومريم ، فسوف أجعل هاتين السورتين محورا لحديثي في هذا الفصل إن شاء الله .

(2) الظلال 2395/4 .

(1) سورة الأنبياء : 91 .

(4) سورة التحريم : 10 - 12 .

(3) سورة المؤمنون : 50 .

المبحث الأول

النسب الطاهر

قال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ 》 (1) .

تمهيد :

* هاتان الآيتان الكريمتان توطئة وتمهيد للحديث عن مريم عَلَيْهَا السَّلَامُ ، وابنها نبي الله عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وبيان أنه بشر رسول خلقه الله عَلَيْهِ السَّلَامُ من أم دون أب كما خلق آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ من غير أب ومن غير أم .

وفي ذلك رد على النصارى الذين زعموا كذباً وزوراً أن عيسى إله وابن إله ، وهاتان الآيتان الكريمتان جزء من الآيات التي نزلت لترد على كثير من مزاعم النصارى ، وذلك أن وفداً من نصارى نجران (2) جاءوا إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في المدينة فأحسن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ استقبالهم وأكرم نزلهم ودار حوار بينه وبينهم أقام فيه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حججاً ظاهرة وأدلة دامغة تدحض مزاعمهم وتدلل على فساد معتقداتهم ، وأنزل الله تعالى في هذا الشأن صدر سورة آل عمران .

● يقول الإمام الواحدي في أسباب النزول . قال المفسرون : (قدم وفد نجران وكانوا ستين رجلاً على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وفيهم أربعة عشر رجلاً من أشرفهم ، وفي الأربعة عشر ثلاثة نفر إليهم يؤول أمرهم ، فالعاقب أمير القوم وصاحب مشورتهم الذي لا يصدرون إلا عن رأيه واسمه عبد المسيح ، والسيد إمامهم وصاحب رحلهم واسمه الأيهم ، وأبو حارثة بن علقمة أسقفهم وحبرهم ، وإمامهم وصاحب مدراسهم ، وكان قد شرف فيهم ودرس كتبهم حتى كان أكثرهم علماً في أمور دينهم ، وكانت ملوك الروم قد شرفوه ومولوه وبنوا له الكنائس لعلمه واجتهاده ، فقدموا على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، ودخلوا مسجده حين صلى العصر ، عليهم ثياب الحبرات ، جببات وأردية ، في جمال رجال الحارث بن كعب ، يقول بعض من رآهم من أصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ما رأينا

(1) سورة آل عمران : 33 ، 34 .

(2) نجران : بلدة واقعة في جنوب المملكة العربية السعودية - بالقرب من حدود اليمن .

وفدا مثلهم وقد حانت صلاتهم فقاموا فصلوا في مسجد رسول الله ﷺ فقال رسول الله ﷺ: «دعوه» فصلوا إلى المشرق، فكلم السيد والعاقب رسول الله ﷺ فقال لهما: «أسلما»، فقالا: قد أسلمنا قبلك. قال: «كذبتما؛ منعكما من الإسلام دعواؤكما لله ولدا، وعبادتكما الصليب، وأكلكما الخنزير» قالا: إن لم يكن عيسى ولد الله فمن أبوه؟ وخاصموه جميعا في عيسى، فقال لهما النبي ﷺ: «ألستم تعلمون أنه لا يكون ولد إلا ويشبه أباه؟» قالوا: بلى. قال: «ألستم تعلمون أن ربنا حي لا يموت، وأن عيسى أتى عليه الفناء؟» قالوا: بلى، قال: «ألستم تعلمون أن ربنا قيّم على كل شيء يحفظه ويرزقه؟» قالوا: بلى. قال: «فهل يملك عيسى من ذلك شيئا؟» قالوا: لا، قال: «فإن ربنا صور عيسى في الرحم كيف شاء، وربنا لا يأكل ولا يشرب ولا يحدث؟» قالوا: بلى، قال: «ألستم تعلمون أن عيسى حملته أمه كما تحمل المرأة ثم وضعته كما تضع المرأة وليدها، ثم غذي كما يغذي الصبي، ثم كان يطعم ويشرب ويحدث؟» قالوا: بلى، قال: «فكيف يكون هذا كما زعمتم؟» فسكتوا، فأنزل الله ﷻ فيهم صدر سورة آل عمران إلى بضع وثمانين آية منها (1).

وروى البخاري في صحيحه عن حذيفة بن اليمان ؓ قال: جاء العاقب والسيد صاحبا نجران إلى رسول الله ﷺ، يريدان أن يلاعنا، قال: وقال أحدهما لصاحبه: لا تفعل، فوالله لئن كان نبيا فلاعنا لا نفلح نحن ولا عقبننا من بعدنا، قال: إنا نعطيك ما سألتنا، وابعث معنا رجلاً أميناً، ولا تبعث معنا إلا أميناً، فقال: «لأبعثن معكم رجلاً أميناً حق أمين» فاستشرف له أصحاب رسول الله ﷺ، فقال: «قم يا أبا عبيدة بن الجراح»، فلما قام، قال رسول الله ﷺ: «هذا أمين هذه الأمة» (2).

(1) أسباب النزول للواحدي النيسابوري ص 66، 67 ط دارالكتب العلمية بيروت. ويراجع أسباب النزول للسيوطي بهامش الجلالين ص 151 ط دار المعرفة بيروت. ويراجع تفسير القرآن العظيم لابن كثير 368/1: 371 وسيرة ابن هشام 158/2: 166 ط مكتبة الكليات الأزهرية.

(2) رواه البخاري في صحيحه عن حذيفة كتاب المغازي باب / قصة أهل نجران [فتح الباري 695/7]. ورواه الإمام مسلم في صحيحه عنه ك / فضائل الصحابة - باب فضائل أبي عبيدة بن الجراح صحيح مسلم بشرح النووي 192/15.

وفي صحيح مسلم من حديث سعد بن أبي وقاص ؓ - في فضائل علي بن أبي طالب ؓ - قال [ولما نزلت هذه الآية ﴿ قُلْ قَالُوا نَدْعُ آبَاءَنَا وَأَبْنَاؤُنَا وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَدِلْ فَتَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ ﴾ سورة آل عمران آية 61 - دعا رسول الله ﷺ عليا وفاطمة وحسنا وحسينا فقال اللهم هؤلاء أهلي]. رواه الإمام مسلم في صحيحه عنه في كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل علي بن أبي طالب ؓ.

والظاهر : أنهم لما أنكروا الحجج الساطعة والأدلة القاطعة التي بينها لهم رسول الله ﷺ ، نزلت آية المباهلة فأراد بعضهم أن يباهل ؛ جهلا منهم بحقيقة المباهلة وعاقبتها الوخيمة على الكاذب ، فقال لهم العاقب ، يا معشر النصارى : لقد عرفتم أن محمدا نبي مرسل ، ولقد جاءكم بالفصل من خير صاحبكم ولقد علمتم أنه ما لاعن قوم نبيا قط فبقي كبيرهم ولا نبت صغيرهم، وإنه الاستئصال منكم إن فعلتم ، فإن كنتم أيتيم إلا إلف دينكم والإقامة على ما أنتم عليه من القول في صاحبكم فوادعوا الرجل وانصرفوا إلى بلادكم ، فأتوا النبي ﷺ ، فقالوا يا أبا القاسم قد رأينا أن لا نلاعنك ، وتركك على دينك ونرجع على ديننا ، ولكن ابعث معنا رجلا من أصحابك ترضاه لنا يحكم بيننا في أشياء اختلفنا فيها في أموالنا فإنك عندنا رضا فأرسل الرسول ﷺ معهم أبا عبيدة بن الجراح القوي الأمين (1) .

● وفي خبر المباهلة دليل قاطع على صدق نبوته ﷺ وبطلان عقائد النصارى الفاسدة لأنه لم يرو أحد من موافق ولا مخالف : أنهم أجابوا إلى ذلك .

● يقول الأستاذ : مصطفى محمد الحديدي الطير : [والمتأمل في هذه القصة يرى أن امتناعهم عن المباهلة ، دليل على شكهم في صدق ما هم عليه ، وأن دعوة الرسول ﷺ إليهم إليها دليل على ثقته بصدقه واطمئنانه إلى نصر ربه ، وذلك من أعلام النبوة المحمدية] (2) .

● ويقول الإمام ابن حجر في تعليقه على الحديث الذي رواه الإمام البخاري في شأن المباهلة [وفيها مشروعية مباحة المخالف إذا أصر بعد ظهور الحجة ، وقد دعا ابن عباس إلى ذلك ثم الأوزاعي (3) . ووقع ذلك لجماعة من العلماء ، ومما عرف بالتجربة أن من

(1) تفسير القرآن العظيم لابن كثير 1/368 ، 369 وأسباب النزول للواحيدي ص 67 ، 68 وسيرة ابن هشام 2/165 .

(2) نقلا عن مقالة بمجلة الأزهر عدد المحرم 1407 هـ ص 18 بعنوان وفد نجران في آل عمران والأستاذ مصطفى الطير هو : مصطفى محمد الحديدي الطير من أعلام الأزهر الشريف (1901 - 1988 م) عمل مدرسا للتفسير والدراسات العليا بكلية أصول الدين وعضوا بجمع البحوث الإسلامية - من مؤلفاته عقد الجمان في تبيان غريب القرآن - نافذة على الإيمان - أصدق الأنبياء فيما تشابه من أخبار الأنبياء - التفسير المعاصر من عهد الإمام محمد عبده إلى اليوم - ترجمته في مجلة الأزهر عدد ربيع الآخر 1409 هـ ص 442 (من أعلام الأزهر الشريف مقال أعده ناصر وهدان وقدمه أحمد محمد الخواص) .

(3) الأوزاعي : هو أبو عمرو عبد الرحمن بن محمد الأوزاعي إمام الشام في عصره (88 - 157 هـ) حدث عن عطاء بن أبي رباح والزهري وغيرهم .

باهل وكان مبطلا لا تمضي عليه سنة من يوم المباهلة ، ووقع لي ذلك مع شخص كان يتعصب لبعض الملاحدة ، فلم يقم بعدها غير شهرين [(1)] .

● مما سبق يتضح لنا أن قصة مريم عَلَيْهَا السَّلَامُ وردت في سياق الحديث عن حقيقة عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ وبيان أنه بشر رسول ، جعله الله آية عجيبة باهرة تدل على طلاقة قدرة الله عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وفي ذلك كله رد على ضلال النصارى وغلوهم في أمر المسيح ، وسبب نزول صدر سورة آل عمران هو الرد على وفد نصارى (نجران) الذين قدموا إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في المدينة فأكرم وفادتهم وأحسن نزلهم وجادلهم بالتلي هي أحسن ، وأقام عليهم الحججة والبرهان ودعاهم إلى المباهلة فخافوا على أنفسهم لمعرفة أنهم على ضلال وزيف ، وأن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على هدى وبصيرة ، وأيقنوا أن المباهلة تعني بالنسبة لهم الهلاك والعذاب

● قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى ﴾ .

(اصطفى) يصطفي اصطفاء اختار واجتنب واستخلص .

والأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ هم صفوة الخلق وهم المصطفون ، قال تعالى : ﴿ وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ ﴾ (2) .

واصطفاء الأنبياء يدور حول معنيين :

الأول : تصفيتهم وتخليتهم وتحليتهم حتى يكونوا جديرين ومؤهلين لمقام النبوة قادرين على تحمل تكاليفها وتبعاتها .

الثاني : الاصطفاء : الاختبار والاجتباء فالمولى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد اختارهم لحمل الرسالة وتبليغ الدعوة ومن هنا فإن الاصطفاء فضل من الله ونعمة وهداية ورحمة وتوفيق وعصمة .

﴿ ءَادَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ .

اصطفاهم الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وطهرهم واجتباهم وآثرهم وعمهم بأسمى الدرجات ، وخصهم باسمى المقامات .

● قال الإمام الألويسي : [ووجه الاصطفاء في جميع الرسل أنه سبحانه خصهم بالنفوس القدسية ، وما يليق بها من الكمالات الروحانية والجسمانية حتى إنهم امتازوا

على سائر الخلائق مخلقا ومخلقا ... [(1)] .

واصطفاه الله لآدم عليه السلام : بأن خلقه عليه السلام بيده ونفخ فيه من روحه ، وأسجد له الملائكة الكرام ، سجود تكريم وجعله أصلاً وأباً للبشرية ، وأسكنه الجنة ، ولما وقع في المعصية وتاب إلى الله تاب الله عليه واجتباها ﴿ ثُمَّ أَجْنَبَهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴾ (2) واستخلفه في الأرض هو وذريته . واصطفى الله سيدنا نوحاً عليه السلام بالنبوة وحمل الرسالة ، وإبراهيم عليه السلام هو أبو الأنبياء وهو خليل الله أكرمهم المولى عليه السلام بالرسالة وأنجاه من النار ، ورزقه ذرية صالحة .

(وآل عمران) اصطفاهم الله ، وهم من آل إبراهيم ، ولكنهم خصوا بالذكر من باب ذكر الخاص بعد العام ، تشريفاً وتكريماً ، ولأن السياق سوف ينتقل إلى الحديث عنهم بشيء من التفصيل ، وقد ذكر بعض المفسرين أن عمران هو أبو موسى وهارون عليه السلام ، وأن الاصطفاء هنا لموسى وهارون عليه السلام بالنبوة والكتاب والنصر على فرعون وجنوده ، والصحيح : أن عمران هو أبو مريم عليها السلام لدلالة السياق على ذلك ، وهو من نسل داود عليه السلام ، ويرجع أصله إلى إبراهيم عليه السلام (3) .

● قال الإمام ابن كثير [وكان عمران صاحب صلاة بني إسرائيل في زمانه] (4) وكان رجلاً صالحاً ، وكانت له زوجة صالحة طيبة طاهرة خيرة تقية وفيه مطيعة لزوجها ، ومطيعة لربها ، وكان من نتاج هذا الزواج المبارك ، إكرام المولى عليه السلام لهما بمريم عليها السلام .

﴿ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ .

● قال ابن كثير : [يخبر المولى عليه السلام أنه اختار هذه البيوت على سائر أهل الأرض] (5) .

● وقال صاحب روح البيان : [والمراد بالعالمين أهل زمان كل واحد منهم أي اصطفى كل واحد منهم على عالمي زمانه] (6) .

وقال صاحب محاسن التأويل : [﴿ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ : أي على عالمي زمانهم أي اصطفى كل واحد منهم على عالمي زمانه] (7) .

● أقول إن الله عليه السلام قد اصطفى الأنبياء على سائر الخلق ، واصطفى كل نبي على

(1) روح المعاني للأوسى 131/3 .

(2) سورة طه : 122 .

(3) يراجع جامع البيان للطبري 328/6 ط دار المعارف تحقيق أحمد شاكر .

(4) تفسير القرآن العظيم لابن كثير 358/1 .

(5) المرجع نفسه 358/1 .

(6) روح البيان للبروسوي 25/2 .

(7) محاسن التأويل للقاسمي 85/4 .

عالمي زمانه وفضل بعض الأنبياء على بعض كما قال تعالى ﴿ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ ﴾ (1) وفضل رسول الله ﷺ على سائر الخلق وعلي عامة البشر وعلي جميع الأنبياء والرسل فهو ﷺ أكرم الخلق وحبيب الحق ، وخاتم الأنبياء والمرسلين ، ورحمة الله للعالمين ، وصاحب المقام المحمود والحوض المورود والشفاعة العظمى .

وصدق المولى ﷺ إذ يقول مخاطباً رسوله الكريم ﴿ .. وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾ (2) .

● وفي القرآن الكريم آيات أخرى كثيرة تدل على منزلة رسول الله ﷺ وعظيم فضله .

● وفي السنة النبوية أيضاً أحاديث كثيرة يبين فيها رسول الله ﷺ فضل الله عليه وتكريمه له نذكر منها على سبيل المثال ما يلي :

1 - روى الإمام البخاري في صحيحه عن أبي هريرة ؓ قال : قال رسول الله ﷺ : « إن مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بني بيتاً فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية ، فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ويقولون هلا وضعت هذه اللبنة ؟ : فأنا اللبنة ، وأنا خاتم النبيين » (3) .

2 - وروى الإمام مسلم في صحيحه عن واثلة بن الأسقع ؓ قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل واصطفى قريشاً من كنانة ، واصطفى من قريش بني هاشم ، واصطفاني من بني هاشم » (4) .

وروى مسلم أيضاً . عن أبي هريرة ؓ قال : قال رسول الله ﷺ : « أنا سيد ولد آدم يوم القيامة وأول من ينشق عنه القبر وأول شافع وأول مشفع » (5) .

﴿ ذُرِّيَّةٌ بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ .

ذرية : الذرية هي النسل ، وهي مأخوذة من (ذرأ) الله الخلق يذرؤهم ذرئاً أي

(1) سورة البقرة : 253 . (2) سورة النساء : 113 .

(3) رواه الإمام البخاري في صحيحه كتاب المناقب باب خاتم النبيين ﷺ حديث 3535 .

[فتح الباري ج 6 ص 645] .

(4) الحديث رواه الإمام مسلم في صحيحه كتاب الفضائل باب فضل نسب النبي ﷺ ، وتسليم الحجر عليه

[صحيح مسلم بشرح النووي 36/15] .

(5) الحديث رواه الإمام مسلم في صحيحه كتاب الفضائل باب فضل نسب النبي ﷺ ، وتسليم الحجر عليه

[صحيح مسلم بشرح النووي 37/15] .

خلقهم ، والجمع (الذراري) ولقد تركت العرب همزتها تخفيفا ، وقيل مأخوذة من (ذرا) أي بث وفرق كما قال تعالى ﴿ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيحُ ﴾ (1) ، أي لحفته ولطافته .

- والمراد بالذرية : الأبناء خاصة وقد تطلق على الآباء والأبناء ومنه قوله تعالى ﴿ وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلِكِ الْمَشْحُونِ ﴾ (2) . (3) - وإطلاقها على الآباء إطلاق مجازي (4) .

وقوله تعالى ﴿ ذُرِّيَّةٌ بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ ﴾ أي في التناصر وفي الولاء وفي التعاون على البر والتقوى كما قال ﷺ عن المؤمنين في سورة التوبة :

﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (5) .

وعن قتادة قال : « ﴿ ذُرِّيَّةٌ بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ ﴾ في النية والعمل والإخلاص والتوحيد » (6) .

ونصب ﴿ ذُرِّيَّةٌ ﴾ هنا على المدح والتخصيص .

﴿ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ .

﴿ سَمِيعٌ ﴾ لأقوال العباد ، عليم بضمائرهم وأفعالهم ، يصطفي من خلقه من يعلم استقامته قولا وفعلًا ، سميع لكل قول مجيب لصالح الدعاء وخالص الرجاء ، بصير بأحوال العباد مطلع على مكنون الفؤاد .

● وفي هاتين الآيتين الكريميتين : رد على اليهود والنصارى الذين يزعمون أنهم أبناء الله وأحباؤه وصفوة خلقه مع فساد اعتقادهم وسوء أخلاقهم وعدائهم للحق ومخالفتهم لما جاء به الأنبياء ﷺ .

وفي الآيتين أيضا توجيه وإرشاد إلى وجوب اتباع الأنبياء والافتداء بهم والسير على طريقهم ففيه الصلاح والفلاح .

(2) سورة يس : 41 .

(1) سورة الكهف : 45 .

(3) لسان العرب 1491/3 مادة ذرأ .

(4) المصباح المنير 95/1 ويراجع المفردات للراغب ص 178 مادة ذرأ .

(6) جامع البيان للطبري 157/3 .

(5) سورة التوبة : 71 .

المبحث الثاني

مع - أم مريم عليها السلام

قال تعالى : ﴿ إِذْ قَالَتِ أُمُّرَاتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٧﴾ فَلَمَّا وَضَعَتَهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿٣٨﴾ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا ﴿٣٩﴾ (1) .

بدأت قصة مريم عليها السلام في بيت صالح هو بيت أبيها عمران ذلك الإمام التقي النقي الذي أكرمه الله ﷻ بزوجة طيبة سالحة ، وكان من نتاج هذا الزواج المبارك ومن ثمراته الطيبة : السيدة مريم عليها السلام ، ربيبة بيت الطهر والعفاف .

﴿ إِذْ قَالَتِ أُمُّرَاتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا ﴿٣٧﴾ .

وكانت عليها السلام تدعو المولى ﷻ أن يرزقها ولدا ذكرا تقر به عينها وتبتهج به نفسها وينشرح له صدرها ، فلما تحرك الحمل في أحشائها نذرت ما في بطنها محررا أي خالصا لوجه الله تعالى منقطعاً لعبادته وخدمة بيت المقدس ، والمحرر هو الخالص ومنه : الذهب الحر : أي الخالص من الشوائب .

● عن مجاهد قال : (إن المحرر هو الخالص لله ﷻ لا يشوبه شيء من أمر الدنيا ولا يشغله شاغل عن عبادة الله تعالى) (2) .

● وقال الإمام الرازي [وهذا التحرير لم يكن جائزا إلا في الغلمان أما الجارية فكانت لا تصلح لذلك لما يصيبها من الحيض والأذى ، ثم إن حنة (3) نذرت مطلقا : إما لأنها بنت الأمر على التقدير ، أو لأنها جعلت ذلك النذر وسيلة إلى طلب الذكر] (4) .

● وقال صاحب التحرير والتنوير [... وإطلاق المحرر على هذا المعنى الذي ذكرناه إطلاق تشریف لأنه لما خلص لخدمة بيت المقدس فكأنه حرر من أسر الدنيا وقيودها] (5) .

(2) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي 66/4 .

(1) سورة آل عمران : 35 - 37 .

(4) مفاتيح الغيب للرازي 25/8 .

(3) الله أعلم بحقيقة اسمها .

(5) التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور 232/3 .

﴿ فَتَقَبَّلَ مِنِّْي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ .

طلبت امرأة عمران أن يتقبل المولى ﷺ نذرها ويقبل نذيرها قبولاً حسناً .

والقبول : قبول الشيء على وجه يقتضي ثواباً ، ومنه قبول الهدية والمولى ﷺ لا يقبل من الأعمال إلا ما كان خالصاً لوجهه الكريم موافقاً لشريعته الحكيم ، قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴾ (1) وقال تعالى : ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ ﴾ (2) .

﴿ إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ .

السميع لكل قول ، المجيب لصالح الدعاء ، والعليم بكل قصد وفعل .

● قال صاحب مفاتيح الغيب : [﴿ إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ ﴾ لتضرعي ودعائي وندائي ﴿ الْعَلِيمُ ﴾ بما في ضميري وقلبي ونيتي] (3) .

● وقال صاحب روح البيان : [﴿ إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ ﴾ لجميع المسموعات التي من جملتها تضرعي ودعائي ﴿ الْعَلِيمُ ﴾ لكل المعلومات التي من زمرتها ما في ضميري لا غير] (4) .

● ويقول صاحب الظلال [وهذا الدعاء الخاشع من امرأة عمران بأن يتقبل منها ربها نذرها - وهو فلذة كبدها - ينم عن ذلك الإسلام الخالص لله ، والتوجه إليه كلية والتحرر من كل قيد ، والتجرد إلا من ابتغاء قبوله ورضاه ﴿ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ (5) .

● ولادة امرأة عمران بانثى ، وتسميتها مريم وحفظ الله لمريم ولذريتها من الشيطان الرجيم .

قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَكِنَّ الذَّكَرَ كَأَلْأُنْثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴾ (6) .

﴿ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ ﴾ أجاب الله دعاء امرأة عمران ، تلك المرأة

(2) سورة فاطر : 10 .

(1) سورة المائدة : 27 .

(4) روح البيان للبروسوي 26/2 ، 27 .

(3) مفاتيح الغيب للإمام الرازي 26/8 .

(6) سورة آل عمران : 36 .

(5) في ظلال القرآن للشهيد سيد قطب 392/1 .

الصابرة الصادقة الصالحة التي توجهت إلى المولى ﷺ بالدعاء والرجاء أن يرزقها الولد الصالح ، فاستجاب الله لها [وآتاها سؤلها ، فشعرت بالجنين يتحرك بين أحشائها ، فاخضر عودها ، وأشرقت الدنيا في عينها وغَمَرَتْهَا وزوجها نشوة من السرور ...] (1) .

فالبنون قرة العيون ، وثمره الفؤاد ، وبهجة النفوس وريحانة القلوب وفلذات الأكباد .

ولكن لم تطل فرحتها ولم تتم بهجتها فلقد مات زوجها عمران عليه السلام ، فتبدل سرورها حزنا ، [وقد كانت تتمنى بقاء زوجها حتى ينعم برؤية فلذة كبده وتكتحل عيناه برؤية ولده ، ولكن قضاء الله حُجْمٌ (2) ، ولا راد لقضائه] (3) ولا معقب لحكمه ، ولقد استقبلت هذه الأمور بالصبر الجميل ، والإيمان واليقين .

ومضت الأيام وجاءت ساعة الوضع ، ووضعت امرأة عمران وليدها فإذا به أنثى ، ولما عرفت ذلك اعتذرت لربها لأنها كانت ترجو أن يكون المولود ذكرا لتهبه لخدمة بيت المقدس كما نذرت ، والأنثى لا تصلح لهذه المهمة ، كما جرت العادة بذلك ، فتوجهت امرأة عمران إلى ربها قائلة ﴿ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ ۖ وَالْمَقَدَسُ كَمَا نَذَرْتُ ، وَالْأُنْثَىٰ لَا تَصْلُحُ لِهَذِهِ الْمِهْمَةِ ، كَمَا جَرَّتِ الْعَادَةُ بِذَلِكَ ، فَتَوَجَّهْتُ امْرَأَةً عِمْرَانَ إِلَىٰ رَبِّهَا قَائِلَةً ﴿ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ ۖ ﴾ .

● قال ابن كثير : [وكانوا في ذلك الزمان يندرون لبيت المقدس خداما من أولادهم] (4) .

﴿ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ ﴾ .

اختلف المفسرون في بيان معنى هذه العبارة ؛ ومرجع اختلافهم إلى اختلاف أوجه القراءات في - التاء - من (وضعت) فقراءة ابن عامر ، وشعبة ، ويعقوب بضم التاء (وضعتُ) ، وقرأ الباقر بسكون التاء (وضعت) (5) وقرئ في الشواذ بكسر التاء هكذا (وضعتِ) منسوبة إلى ابن عباس (6) .

(1) سيدات نساء العالمين ، سيرتهن وفضائلهن للشيخ موسى الأسود ط 2 سنة 1410 مكتبة السنديس .

(2) حُجْمٌ : أي قضي وقدر : يراجع لسان العرب 1007/2 مادة ح م م .

(3) قصص القرآن محمد أحمد جاد المولى ورفاقه ص 245 بتصرف ط دار التراث .

(4) قصص الأنبياء لابن كثير ص 549 .

(5) يراجع النشر في القراءات العشر لابن الجزري 231/2 ط وحجة القراءات لابن زنجلة ص 160 ط مؤسسة

الرسالة ط 2 سنة 1399 هـ وتفسير الطبرسي 736/2 .

(6) يراجع مختصر في القراءات الشاذة لابن خالويه ص 20 .

وعلى الأول : فالتاء تاء الفاعل ، وهي تاء المتكلمة أي بما وضعت .

وعلى الثاني : فالتاء تاء التأنيث أي بما وضعت هي .

وعلى الثالث : فالتاء تاء المخاطبة ، أي بما وضعت أنتِ والقراءتان الأولى والثانية متواترة ، أما الثالثة فإنها شاذة لا يعول عليها ، ويقال إنها منسوبة إلى ابن عباس .

ومعناها (والله أعلم بما وضعت) فهي جملة اعتراضية من كلام الله لها ، بيانا لعظيم شأن ذلك المولود .

● قال الإمام الرازي موجها للقراءة الشاذة (وَضَعْتِ) [على خطاب الله لها ، أي : إنك لا تعلمين قدر هذا الموهوب والله هو العالم بما فيه من العجائب والآيات] (1) .

أما عن توجيه القراءتين المتواترتين ، فعلى النحو التالي :

أولا : القراءة الأولى (والله أعلم بما وضعت) : من تمام كلام امرأة عمران قالتها اعتذارا إلى ربها ؛ لعجزها عن الوفاء بنذرها ، أو قالتها تسليية لنفسها ، لبيان أن لله في ذلك حكمة يعلمها ، فالله ﷻ يدبر أحوال الخلق وفق قدرته وإرادته وعلمه وحكمته ، ولعل هذه الأنتى عند الله خير من الذكر ؛ لأن ما يفعله الرب بالعبد خير مما يريد العبد لنفسه ، كما قال ﷻ : ﴿ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (2) .

وكما قال ﷻ : ﴿ ... فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ (3) .

وكما قال سبحانه : ﴿ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ (4) .

فهو سبحانه الذي يجبر الخلق على مراده فلا يقع في سلطانه إلا ما أَرَادَهُ . وإرادته سبحانه متعلقة بعلمه وحكمته وعزته وقدرته ، ولطفه ورحمته .

● ويمكن توجيه القراءة على : أنها فوضت العلم إلى الله فقالت ﴿ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ ﴾ لأنها [لما قالت : ﴿ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى ﴾] خافت أن يظن بها أنها تخبر الله تعالى ، فأزالت هذه الشبهة بقولها هذا [(5)] .

(1) مفاتيح الغيب للإمام الرازي 26/8 .

(2) سورة البقرة : 216 .

(3) سورة النساء : 19 .

(4) سورة الإنسان : 30 .

(5) القصص القرآني - تأليف عماد زهير حافظ ص 398 ، 399 ط دار القلم دمشق .

لأن قولها ﴿ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ ﴾ للاعتذار ، لا للإعلام ، فالله سبحانه لا تخفى عليه خافية . ولقد توجه الإشكال إلى هذه القراءة بأنها لو كانت إخباراً عن أم مريم وتمام خطابها لكان الأولى أن تقول (رب إني وضعتها أنثى ، وأنت أعلم بما وضعت) ؟ ويمكن الإجابة على هذا الإشكال بأن جملة (والله أعلم بما وضعت) التفات من الخطاب إلى الغيبة والاتفات صورة رائعة من صور البلاغة .

ثانيا : وعلى القراءة الثانية ﴿ وَضَعْتُ ﴾ : فهي جملة اعتراضية ، وقد سيقت تعظيماً لشأن المولودة ، و بياناً لعلو منزلتها ، و سمو قدرها ، فهي سيدة نساء العالمين ، اصطفاها الله وطهرها ، واجتباها وآثرها ، وجعلها وابنها آية للعالمين .
والجملة من كلام الله ﷻ ، وليست من تمام كلام امرأة عمران .

● فائدة في الحكمة من تعدد القراءات :

والقراءتان متواترتان ولا تناقض بينهما ؛ فكل قراءة لها توجيه مفيد في فهم المعنى ، وتعدد القراءات في الكلمة الواحدة مع اتفاق المعاني وانسجامها ، وتكاملها ، وجه من وجوه الإعجاز القرآني ولون من ألوان بلاغته .

يقول الشيخ سعيد حوى رحمته الله في كتابه الأساس في التفسير : والوقف في قراءة : يعطيك معني ، والوقف في قراءة أخرى : يعطيك معني جديدا ، والإعراب المتعدد للكلمة الواحدة في القراءة الواحدة أو في القراءات يعطيك معاني جديدة ، وكل معنى من هذه المعاني صحيح في بابه ، وباجتماعها تتولد معان كثيرة لا تتناهي ، ولا يستطيع أحد لها حصراً ، وليس هذا هو كل شيء في القرآن ، بل إن هذا بعض الشيء [(1)] .

يعني بذلك أن وجوه الإعجاز القرآني كثيرة ومتعددة ولا حصر لها .

﴿ وَليْسَ الذِّكْرُ كَالْأُنْثَىٰ ﴾ .

● أي : وليس الذكر الذي طلبته ونذرتة كالأنثى التي وضعتها ، فالذكر يتمكن الوفاء بالنذر بخدمته في المسجد ، أما الأنثى فإنها لا تقدر على القيام بما يقوم به الذكر ، كما أنه يعثرها من الأحوال ما يحول بينها وبين البقاء في المسجد وذلك حين يأتيها الحيض ، أو النفاس عند الولادة .

● يقول ابن كثير في تفسيره : [**﴿ وَكَيْسَ الذَّكْرَ كَالْأُنْثَى ﴾** أي في القوة والجلد في العبادة وخدمة المسجد الأقصى] (1) .

● ويقول الإمام الرازي في تفسيره : [ثم قال تعالى حكاية عنها **﴿ وَكَيْسَ الذَّكْرَ كَالْأُنْثَى ﴾** وفيه قولان (الأول) أن مرادها تفضيل الولد الذكر على الأنثى ، وسبب هذا التفضيل من وجوه : أحدها : أن شرعهم يجوز تحرير الذكور دون الإناث ، والثاني : أن الذكر يصح أن يستمر على خدمة موضع العبادة ، ولا يصح ذلك في الأنثى لمكان الحيض وسائر عوارض النساء والثالث : الذكر يصلح لقوته وشدته للخدمة دون الأنثى ؛ فهي ضعيفة لا تقوى على الخدمة ، والرابع : أن الذكر لا يلحقه عيب في الخدمة والاختلاط بالناس ، وليس كذلك الأنثى ... فهذه الوجوه تقتضي فضل الذكر على الأنثى في هذا المعنى .

● والقول (الثاني) أن المقصود من هذا الكلام ترجيح هذه الأنثى على الذكر كأنها قالت الذكر مطلوب ، والأنثى موهوبة لي ، وليس الذكر الذي يكون مطلوب كالأُنْثَى التي هي موهوبة لله لي . وهذا الكلام يدل على أن تلك المرأة كانت مستغرقة في معرفة جلال الله ، عالمة بأن ما يفعله الرب بالعبد خير مما يريد العبد لنفسه] (2) .

● وهناك وجه آخر في معنى هذه العبارة وهو أن **﴿ وَكَيْسَ الذَّكْرَ كَالْأُنْثَى ﴾** جملة اعتراضية وليست موصولة بكلام أم مريم بل هي من كلام الله **﴿ كَيْسَ ﴾** ، والمراد بها تعظيم شأن المولودة ودفع ما توهمته امرأة عمران من أن الذكر المطلوب خير من الأنثى الموهوبة لقدرته على إتمام الوفاء بالندر ، فهذه الأنثى لها منزلة ومكانة عند الله تفوق كثيرا من الرجال فلقد اصطفاه الله وطهرها واصطفاه على نساء العالمين وجعلها وابنها آية باهرة وقصة عجيبة .

والمعنى على ذلك : وليس الذكر الذي تمتته كالأُنْثَى التي [وهبت لها ، فإن دائرة علمها وأمنيتها لا تكاد تحيط بما فيها من جلائل الأمور ، فهي أفضل من مطلوبها ، وهي لا تعلم ...] (3) وعلى هذا فاللام إما أن تكون للعهد الذهني أي وليس الذكر الذي طلبته كالأُنْثَى التي وضعتها ، أو للجنس والمعنى وليس جنس الذكر كجنس الأنثى من جهة القدرة والصلاحية للخدمة في بيت المقدس وإمكان الاستمرار في هذه المهمة .

(2) تفسير الرازي 26/8 ، 27 بتصرف يسير .

(1) تفسير ابن كثير 359/1 .

(3) روح البيان للبروسوي 27/2 .

تسميتها مريم

﴿ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ ﴾

ولنا في هذه العبارة ملاحظتان :

الملاحظة الأولى : أن امرأة عمران انفردت بتسمية مريم وما ذلك إلا لوفاة زوجها عمران عليه السلام وهي حامل في مريم .

● يقول الإمام الألوسي : [واستقلالها بالتسمية لكون أبيها قد مات وأمها حامل بها ، فتقديم المسند إليه للتخصيص ، يعني التسمية مني لا يشاركني فيها أبوها] (1) ، [وقيل وفي ذلك تعريض بيتهما ؛ استعطافاً له تعالى ، وجعلاً ليتها شفيعاً لها] (2) .

● ويقول صاحب روح البيان [وظاهر هذا الكلام يدل على أن عمران كان قد مات قبل وضع حنة مريم ، وإلا لما تولت الأم تسمية المولود لأن العادة أن التسمية يتولاها الآباء] (3) .

الملاحظة الثانية : أنها فعلت ذلك تقرباً إلى المولى ﷺ بهذه التسمية الحسنة فمريم عليها السلام تعني في لغتهم العابدة والخادمة وللأسم علاقته بالمسمى فهي ترجو أن يكون لها حظ وافر من اسمها .

● قال الإمام القاسمي : [قال المفسرون هي في لغتهم بمعنى العابدة ؛ سمتها بذلك رجاء وتفاؤلاً أن يكون فعلها مطابقاً لاسمها] (4) .

● وقال ابن حجر : [ومريم بالسريانية تعني الخادم] (5) .

● وفي هذه التسمية إشارة إلى عزمها على إمضاء نذرها ، ورجائها أن يكون عند الله مقبولاً .

● يقول صاحب روح البيان [... ﴿ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ ﴾ من مقول حنة ، عطف على قولها ﴿ إِنِّي وَضَعْتُهَا ﴾ أي إني جعلت اسمها مريم ورضها من عرضها على علام الغيوب التقرب إليه تعالى ، واستدعاء العصمة لها ، فإن مريم في لغتهم بمعنى العابدة ،

(1 ، 2) تفسير الألوسي 136/3 .

(3) روح البيان 27/2 .

(4) محاسن التأويل للإمام القاسمي 91/4 .

(5) فتح الباري لابن حجر 541/6 .

وخادم الرب ، وإظهار أنها غير راجعة في نيتها ، وإن كان ما وضعته أنثي وأنها وإن لم تكن خليقة بسدانة بيت المقدس فلتكن من العابدات فيه ...] (1) .

حفظ الله لمريم ولذريتها من الشيطان الرجيم

قال تعالى : ﴿ وَإِنِّي أُعِيدُهَا بِلِغْكِ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴾ .

● ما زال الحديث موصولا عن مناجاة امرأة عمران لربها وتضرعها إليه أن يقبل وليدها ويجعلها مباركة ، ويحفظها من الشيطان الرجيم فالمولى عليه السلام خير حافظ ، وهو سبحانه أرحم الراحمين ، وأحكم الحاكمين .

● وفي هذه الدعوة التي توجهت بها امرأة عمران لربها إشارة إلى حرصها ورجائها في أن يحفظ الله لها بنتها ويرعاها حتى تشب وتكبر وتكون لها ذرية ولقد استجاب الله تعالى لها .

● روى الإمامان البخاري ومسلم في صحيحيهما عن أبي هريرة رضي الله عنه ، قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول [ما من بني آدم مولود إلا يمسه الشيطان حين يولد فيستهل صارخا من الشيطان ، غير مريم وابنها ، قال أبو هريرة واقروا إن شئتم ﴿ وَإِنِّي أُعِيدُهَا بِلِغْكِ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴾] (2) .

● فائدة :

وسر تكرار ﴿ إِنِّي ﴾ هنا للتأكيد ، ولتغيير المخبر به ، لأنه قد يشعر كلامها السابق أنها كارهة لما جاءها ، فأكدت في كلامها هذا : إظهارا لرضاها بما قدر الله تعالى ، ولذلك

(1) روح البيان 27/2 .

(2) رواه الإمام البخاري في صحيحه واللفظ له عن أبي هريرة كتاب أحاديث الأنبياء باب قول الله تعالى ﴿ وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ ﴾ مريم : 16 [فتح الباري 541/6] ورواه أيضا في كتاب التفسير باب ﴿ وَإِنِّي أُعِيدُهَا بِلِغْكِ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴾ [فتح الباري 60/8] .

ورواه الإمام مسلم في صحيحه عن أبي هريرة كتاب الفضائل / باب فضائل عيسى عليه السلام بلفظ يمسه الشيطان ولفظ (إلا نخسه الشيطان فيستهل صارخا من نخسة الشيطان) .

صحيح مسلم بشرح النووي 120/15 وروى مسلم في نفس الباب عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (صياح المولود حين يقع نزغة من الشيطان) 120/15 قال الإمام النووي [ومعنى نزغة : نخسة وطعنة ، ومنه قولهم نزغه بكلمة سوء أي رماه بها] نفس المرجع 120/15 ، 121 .

انتقلت للدعاء لها الدال على الرضا والمحبة (1) . ولقد جاءت أفعال ثلاثة بصيغة الماضي (نذرت) (وَضَعْتُهَا) ، (سميتها) للدلالة على التحقق والثبوت وفي التعبير بـ (نذرت) و (سميتها) ما يفيد عزمها ومضيها على الوفاء بما نذرت به بلا تردد ولا تراجع وفي التعبير بـ ﴿ وَآتَىٰ أُعْيِدُهَا ﴾ ما يدل على التجدد والاستمرار المستفاد من التعبير بالفعل المضارع ، لأن الاستعاذة مطلوبة في كل وقت وحين (2) .

تقبل المولى ﷺ لمريم وإنباتها نباتا حسنا

قال تعالى : ﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا .. ﴾ .

بعد هذه المناجاة الصادقة ، والدعوات الخالصة من امرأة عمران عَلَيْهَا السَّلَامُ والتي طلبت من ربها أن يتقبل منها نذيرها ، وأن يبارك لها في وليدتها ويعيدها وذريتها من الشيطان الرجيم ، أجاب الله لها الدعاء وحقق لها الرجاء ، وكانت الإجابات الإلهية والنفحات الربانية والمواهب اللدنية التي تنتظر هذه الوليدة السعيدة ، حيث تقبلها ربها قبولاً حسناً ، وأنبتها نباتاً حسناً ، حتى نمت وترعرعت ، وأزهرت وأينعت ، وأثمرت كلمة من الله وروحاً منه هو عبد الله ونبية عيسى السَّلَامُ ، الذي جعله الله وأمه آية للعالمين .

يقول ﷺ : ﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ ﴾ والفاء هنا للتعقيب ، لبيان سرعة استجابة المولى ﷺ لدعائها وسرعة تحقيقه لرجائها ، فهو ﷺ من المؤمن قريب ولدعائه مجيب قال تعالى : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾ (3) .

وقال ﷺ : ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ (4) .

● قال الشيخ المراغي : [تقبل الله مريم من أمها ورضي أن تكون محررة لعبادته وخدمة بيته على صغرها وأنوثتها وكان التحرير لا يجوز إلا لغلام قادر على خدمة البيت] (5) .

● وقال ﴿ بِقَبُولٍ ﴾ ولم يقل (بتقبل) : [للجمع بين الأمرين : التقبل الذي هو

(1) يراجع التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور 234/3 .

(2) يراجع في هذا المقام روح المعاني للألوسي 3/136 ، 137 وإعراب القرآن الكريم لمحي الدين درويش 1/498 ط اليمامة للطباعة ودار ابن كثير ، دمشق بيروت سنة 1408 هـ سنة 1988 م .

(3) سورة البقرة : 186 .

(4) سورة غافر : 60 .

(5) تفسير المراغي 145/1 بتصرف .

الترقي في القبول ، والقبول الذي يقتضي الرضا والإثابة [(1)] .

● وقال الإمام الطبرسي : [إنما جاء مصدر تقبلها على القبول دون التقبل لأن فيه معنى قبلها ، كما يقال تكرم كرماً لأنه فيه معنى كرم ، ومثله وأنبثها نباتاً حسناً لأن فيه معنى فنبت] (2) .

● وقال الإمام الألوسي : [... والمعنى فاستقبلها ربها وتلقاها من أول وهلة من ولادتها بقبول حسن ، وأظهر الكرامة فيها] (3) .

● وقال الإمام الرازي : [وقال ﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ ﴾ ولم يقل بتقبل حسن : لأن القبول والتقبل متقاربان ، قال تعالى ﴿ وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ﴾ (4) أي إنباتاً ، والقبول مصدر قولهم قبل فلان الشيء قبولا إذا رضيه] (5) .

● وذكر الإمام الرازي فرقا بين القبول والتقبل حيث قال : [التقبل يدل على شدة اعتناء ذلك الفاعل بإظهار الفعل كالصبر والتجلد ونحوهما فإنهما يفيدان الجد في إظهار الصبر والجلد ، فكذا هاهنا التقبل يفيد المبالغة في إظهار القبول ، فإن قيل : فلم لم يقل فتقبلها ربها بتقبل حسن حتى صارت المبالغة أكمل ؟ والجواب : أن لفظ التقبل وإن أفاد ما ذكرنا فإنه يفيد نوع تكلف مع خلاف الطبع ، أما القبول فإنه يفيد معنى القبول على وفق الطبع وهذه الوحدة وإن كانت ممتنعة في حق الله تعالى إلا أنها تدل من حيث الاستعارة على حصول العناية العظيمة في تربيته وهذا الوجه مناسب معقول] (6) .

● وفي حاشية زادة تعليقا على قول الإمام البيضاوي في تفسير (فتقبلها ربها بقبول حسن) .

(أي فرضي بها في النذر مكان الذكر بوجه حسن) :

يقول صاحب الحاشية (7) : إشارة إلى أن (تقبل) بمعنى الثلاثي المجرد نحو تعجب وعجب من كذا ، وتبرأ وبرئ منه ، والقبول مصدر قولهم قبل فلان الشيء إذا رضيه ، إلا أنه عبر عن معنى القبول بلفظ التقبل للدلالة على المبالغة في إظهار القبول لأن باب التفعّل يدل

(2) مجمع البيان للطبرسي 739/2 .

(1) محاسن التأويل للإمام القاسمي 92/4 .

(4) سورة نوح : 17 .

(3) روح المعاني للألوسي 138/3 ، 139 .

(6) المرجع السابق 28/8 .

(5) مفاتيح الغيب للإمام الرازي 28/8 .

(7) هو محمد محي الدين بن مصطفى مصلح الدين - الشهير بمحي الدين شيخ زادة مفسر وفقه على مذهب الحنفية كان مدرسا في استانبول - من مؤلفاته حاشيته على تفسير البيضاوي وشرح مفتاح البلاغة للسكاكي وشرح البردة وحاشية على مشارق الأنوار للصابغاني . تراجع ترجمته في كشف الظنون 888/1 والأعلام للزركلي 99/7 .

على شدة اعتناء الفاعل بإظهار ذلك الفعل كالتصبر والتجلد ونحوهما ، فإنهما يفيدان المبالغة في إظهار القبول ، فإن قيل فلم لم يقل فتقبلها ربها بتقبل حسن حتى تكمل المبالغة ؟ فالجواب : أن لفظ التقبل وإن أفاد ما ذكرنا إلا أنه يفيد نوع تكلف على خلاف الطبع وأما القبول فإنه يفيد معنى القبول على وفق الطبع ، فذكر التقبل أولاً ليفيد الجد والمبالغة ، ثم ذكر القبول ليفيد أن ذلك القبول ليس على خلاف الطبع بل على وفق الطبع وأحسن الوجوه [(1)] .

﴿ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا ﴾ .

مع قبولها عند الله قبولاً حسناً ، فقد أكرمها الله وأنعم عليها بأن أنبتها نباتاً حسناً .
قال ابن كثير : [جعلها شكلاً مليحاً ومنظراً بهيجاً] (2) .

● وقال الزمخشري : [..] ﴿ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا ﴾ مجاز عن التربية الحسنة العائدة عليها بما يصلحها في جميع أحوالها [(3)] .

● وقال الإمام الألوسي : [أي رباها الرب تربية حسنة في عبادة وطاعة لربها] (4) .

● وقال الشيخ الصابوني : [أي رباها تربية كاملة ونشأها تنشئة صالحة] (5) .

● وروي عن ابن عباس رضي الله عنه : أنه صلى الله عليه وسلم سوى خلقها فكانت تشب في يوم ما يشب غيرها في عام (6) .

● وهذا القول لا يستند إلى دليل قاطع من كتاب أو سنة ، وإنني لأعتقد أنه موضوع على ابن عباس ؛ فكيف تنمو في يوم ما ينمو المولود في سنة ، إن هذا الرأي ليترتب عليه أنها بلغت في أربعة عشر يوماً ما يبلغه غيرها في أربع عشرة سنة وهذا ما لا يتصوره عقل ولا يؤيده نقل صحيح ولا يشهد به تاريخ موثق .

فينبغي أن نقف عند ظاهر النص الكريم ﴿ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا ﴾ الذي يفيد حسن نمائها وسلامتها واكتمال بنيتها اكتمالاً طبيعياً ، ولو كان في ذلك ما يخرق عادة البشر في نموهم الفطري لكان أحرى بالذكر هنا فالمقام مقام - بيان فضل الله عليها .

(1) حاشية محي الدين شيخ زادة على تفسير البيضاوي 621/1 ط المكتبة الإسلامية ديار بكر تركيا .

(2) تفسير ابن كثير 359/1 . (3) الكشاف للزمخشري 358/1 . (4) روح المعاني 139/3 .

(5) صفوة التفاسير للشيخ الصابوني 20/2 ط دار القرآن الكريم .

(6) روح المعاني 139/3 - الرازي 29/8 القرطبي 69/4 .

المبحث الثالث

كفالة زكريا لمريم عليهما السلام

قال تعالى : ﴿ وَكَفَلَهَا زَكْرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا صِرَاطَ الْمَسْجِدِ وَكَفَلَهَا رَزْقًا قَالَ يَمْرُؤُا أَنَّى لَكَ هَذَا قَالَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ (1) .

بعد أن تقبل المولى ﷺ مريم ﷺ وأنتهت نباتا حسنا ، جعل لها من يقوم بشأنها ، ويعني بأمرها ويهتم بإصلاحها ؛ قيص لها نبيا من الأنبياء هو زكريا ﷺ ، فكان كفالته لها نعمة من الله ورحمة .

قال تعالى : ﴿ وَكَفَلَهَا زَكْرِيَّا ﴾ .

- ولكن كيف تمت تلك الكفالة ؟

لقد تم هذا الأمر بتوفيق من الله ﷻ بعد أن تنافس الأبحار والرهبان وتنازعوا على كفالة مريم ، كل يرجو ويطلب لنفسه أن ينال هذا الشرف وأن يحظى بذلك المقام ، فمريم ﷺ بنت إمامهم ومعلمهم عمران ﷺ الرجل الصالح الذي مات دون أن تكنحل عيناه برؤية ابنته وحرصا على هذا الشرف ووفاء للمعلم والمربي والمصلح والإمام كان تنافسهم وتسابقهم الذي وصل إلى حد النزاع والاختصاص على كفالة مريم ﷺ .

قال تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُ أَقْلَمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾ (2) .

فلقد كان كل واحد منهم شديد الحرص على كفالة تلك اليتيمة ، ولما لم تجتمع لهم كلمة ولم يتفق لهم رأي - فكل واحد يريد أن يستأثر بهذه المكرمة ، وكان أولى بهم أن يتركوا كفالتها لنبي الله زكريا ﷺ ، ولما طال جدالهم حول من يكفلها : اتفقوا على أن يقترعوا فيما بينهم فمن فاز في القرعة فقد فاز بكفالة مريم .

قال تعالى : ﴿ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُ أَقْلَمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ ﴾ .

- روى الإمام البخاري في صحيحه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال في تفسير قوله تعالى :

﴿ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَمَهُمْ ﴾ : [اقترعوا فجرت الأقلام مع الجرية ، وعال قلم زكريا الجرية فكفلها زكريا] (1) .

قال الإمام ابن حجر : (وعال قلم زكريا) أي ارتفع على الماء وفي إحدى الروايات وعلا ، و (الجرية) بكسر الجيم والمعنى : أنهم اقترعوا على كفالة مريم أيهم يكفلها فأخرج كل واحد منهم قلما وألقوها كلها في الماء فجرت أقلامهم مع الجرية إلى أسفل وارتفع قلم زكريا فأخذها] (2) .

أقول : وسواء جرى قلم زكريا وسبق أقلامهم أو جرت أقلامهم وثبت قلمه أو علا قلمه وسبح على الماء وغاصت أقلامهم أو العكس ، على أي حال كان الاقتراع : فالمهم أن زكريا عليه السلام فاز بالقرعة وتولى كفالة مريم عليها السلام .

فائدة في القراءات (وكفلها) :

قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وأبو جعفر ويعقوب (وكفلها) بالفاء المفتوحة المخففة على إسناد الفعل إلى زكريا عليه السلام : إخبار من الله بأنه هو الذي تولى كفالتها ، بدليل قوله تعالى ﴿ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَمَهُمْ ﴾ .

وقرأ الباقون بالتشديد (وكفلها) على أن الفاعل هو الله تعالى والهاء لمريم أي : جعل زكريا لها كافلا والقراءتان صحيحتان متواترتان ، لا اختلاف بينهما في المعنى فالمولى عليه السلام قد أكرم مريم عليها السلام بأن جعل زكريا لها كافلا ولقد توجه زكريا وقصد كفالة مريم تقربا إلى الله عليه السلام ووفاء وعرفانا وبراً وإحساناً ، وكلا القراءتين صحيحتان ومتوافقتان .

وزكريا عليه السلام وإن كان قد أقبل على كفالتها ، فإن الذي هداه إلى ذلك ووفقه ويسر له ذلك الأمر هو الله عليه السلام (3) .

(1) رواه الإمام البخاري في صحيحه / كتاب الشهادات ، باب القرعة في المشكلات [فتح الباري 345/5]
(و عال) أي ارتفع على الماء .

(2) فتح الباري 347/5 باختصار ، ويراجع ما نقله ابن جرير الطبري عن عكرمة في هذا المقام جامع البيان لابن جرير الطبري تحقيق أحمد شاكر 351/6 .

(3) قرأ مجاهد (فتقبلها ربه) (وأنتها) (وكفلها زكريا) على لفظ الأمر في الأفعال الثلاثة وعلي نصب (ربه) لأنه منادي منصوب لكونه مضافاً . وذلك دعاء من امرأة عمران بأن يتقبل الله مريم وينبتها نباتا حسنا ويجعل زكريا لها كفيلا - الكشاف للزمخشري 358/1 ، ويراجع النشر في القراءات العشر 239/2 .

كرامة لمريم عليها السلام

قال تعالى : ﴿ كَلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَمْرَأُ أَيُّ لَدَى هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ قام نبي الله زكريا ﷺ بكفالة مريم ، وجعل مقامها في بيت المقدس ، في أشرف مكان : وهو المحراب .

قال صاحب الكشاف : [قيل بني زكريا لها محراباً في المسجد أي غرفة : يصعد إليها بسلم ، وقيل المحراب أشرف المجالس ومقدمها ، كأنها وضعت في أشرف موضع من بيت المقدس ، وقيل كانت مساجدهم تسمى المحاريب ، وروي أنه كان لا يدخل عليها إلا هو وحده ، وكان إذا خرج غلق عليها سبعة أبواب] (1) .

وقال الإمام البغوي : [المحراب أشرف المجالس ومقدمها ، ولا يكون محراباً إلا أن يرتقي إليه بدرج] (2) .

وقال صاحب المفردات : [ومحراب المسجد قيل سمي بذلك لأنه موضع محاربة الشيطان والهوى ، وقيل سمي بذلك لكون حق الإنسان فيه أن يكون حريياً من أشغال الدنيا ومن توزع الخواطر - يعني خلياً من ذلك - وقيل الأصل فيه أن محراب البيت صدر المجلس ثم اتخذت المساجد فسمي صدره به ، وقيل بل المحراب أصله في المسجد وهو اسم خص به صدر المجلس ، فيسمى صدر البيت محراباً تشبيهاً بمحراب المسجد وكأن هذا أصح ..] (3) .

قال صاحب المصباح المنير [... ويقال محراب المصلي مأخوذ من المحاربة لأن المصلي يحارب الشيطان ، ويحارب نفسه] (4) أي يقوم على إصلاحها وتهذيبها وتزكيتها . واختار لها زكريا هذا المكان وهو أرقى وأسمى وأشرف موضع في المسجد - وكل مكان في المسجد له سموه وشرفه وفضله - اختار لها هذا المكان إكراماً لها .

﴿ كَلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا ﴾ .

(1) الكشاف للزمخشري 358/1 وقوله : روي بصيغة التمرض والتضعيف (لا يدخل عليها إلا هو وحده) لأنه كفيها ، فلا يدخل عليها رجل أجنبي عنها (وإذا خرج غلق عليها سبعة أبواب) عبارة لا تخلو من مبالغة لا تليق بواقع القصة ، فالحذر والحيطه لا تصل إلى هذا الحد .

(2) معالم التنزيل 297/1 . (3) المفردات للراغب مادة ح ر ب . ص 112 .

(4) المصباح المنير للفيومي 10/2 مادة ح ر ب .

﴿ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا ﴾ لم يحمله إليها ، ولا هو مما يعهد في هذا الوقت من الزمن ، وهو يعلم أنه لا يدخل عليها غيره ؛ فهو القائم على كفالتها ، حتى أثار ذلك الأمر دهشته وعجبه .

● قال الإمام ابن كثير : [قال مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير والضحاك وقتادة وغيرهم : وجد عندها فاكهة الصيف في الشتاء وفاكهة الشتاء في الصيف ، وعن مجاهد قال : ﴿ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا ﴾ أي علما ، أو قال صحفا فيها علم . والأول أصح وفيه دلالة على كرامات الأولياء ، وفي السنة لهذا نظائر كثيرة ...] (1) .

أقول : والرزق يشمل غذاء الأجساد وغذاء الأرواح فهو يشمل الطعام والشراب ، وغير ذلك من ضرورات الحياة ، من كل ما ينتفع به الإنسان وما يحصله ، كما أنه يشمل : غذاء الأرواح من علم وغيره .

● والرزق الذي كان عند مريم عليها السلام هو أعم من الفاكهة في غير حينها المعهود ولذلك جاء بصيغة التنكير التي تفيد التعظيم والتعظيم والتكثير فهو رزق حسي ورزق معنوي .

● وهذا الرزق كرامة من سلسلة الكرامات التي أظهرها الله لمريم تمهيدا للآية العجبية التي تنتظرها وهي خلق عيسى عليه السلام من غير أب فالكرامة تكريم لها وتشريف وتمهيد وإعداد لها حتى تكون مهيأة لما ينتظرها .

موقف زكريا عليه السلام من هذه الكرامة

● سؤاله لمريم ﴿ أَنْ لَكَ هَذَا ﴾ وجواب مريم عليه

﴿ قَالَ يَتَرَمَّيَنَّ أَنْ لَكَ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ (2) .

سأل زكريا مريم متعجبا ومنبهرًا بما يقع لها ، سألها وقال لها ﴿ أَنْ لَكَ هَذَا ﴾ من أين لك هذا ؟ وكيف وصل إليك ولا يدخل عليك غيري .

﴿ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ .

فعماء الله ممدود ، لا تحده حدود ، ولا تقيدته قيود ، وفضل الله عظيم وخزائنه ملامى .

● قال صاحب روح البيان : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [أي بغير تقدير لكثرتة ، أو بلا محاسبة ، أو من حيث لا يحتسب كما قال تعالى ﴿ وَبِرِزْقِهِ مَنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾ (1)] (2) .

فالله سبحانه يعطي العبد من حيث لا يحتسب العبد ، أي بدون تقدير منه ولا تدبير وفي الحديث القدسي (يمين الله ملأى لا يغيضاها شيء ، سحاء الليل والنهار أرايتم ما أنفق منذ خلق السموات والأرض فإنه لم يغيض ما في يمينه) (3) وفي حديث آخر (يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم اجتمعوا في صعيد واحد فسألوني ، فأعطيت كل واحد مسألته ما نقص ذلك من ملكي إلا كما ينقص المحيط إذا أدخل البحر) (4) .

● توجهه إلى المولى ﷺ بالدعاء أن يرزقه ذرية صالحة .

قال تعالى في سورة آل عمران : ﴿ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴾ (5) .

تمهيد :

زكريا عليه السلام هو زوج أخت مريم ، وهو نبي من أنبياء بني إسرائيل يرجع نسبه إلى سليمان بن داود ومنه إلى إبراهيم عليه السلام ، فهو من نسل طاهر ومن أصل كريم .

وامراته زوجة صالحة صابرة ، ابتلاها المولى ﷺ بالعقم ، فأسلمت أمرها لله ورضيت بقضاء الله ، وعاشت مع زوجها حياة هادئة هانئة ولقد أثنى المولى ﷺ في كتابه الكريم على زكريا وزوجته وولده يحيى ، فقال سبحانه : ﴿ وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ ﴿٨١﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا غُلَامًا رَافِعِينَ ﴾

(2) روح البيان 29/2 .

(1) سورة الطلاق : 3 .

(3) الحديث رواه الإمام مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه - كتاب الزكاة باب الحث على النفقة وتشير المنفق بالخلف - صحيح مسلم بشرح النووي 80/7 وعبر النبي صلى الله عليه وسلم عن توالي النعم بسح اليمين - وفي المصباح المنير (سح) الماء سحا : سال من فوق إلى أسفل وسححته إذا أسلته .. والسح هو الصب الكثير المصباح المنير 122/2 مادة (س ح ح) .

(4) رواه الإمام مسلم في صحيحه من حديث أبي ذر جندب بن جنادة رضي الله عنه ك البر والصلة - باب تحريم الظلم -

(5) سورة آل عمران : 38 .

صحيح مسلم بشرح النووي 131/16 : 133 .

لَنَا خَلْشَعِينَ ﴿١﴾ .

لقد أكرم المولى ﷺ زكريا ﷺ بإكرامه لمريم تلك اليتيمة صاحبة المنزلة العظيمة ، وكانت تلك الكرامة التي حدثت لمريم سببا مباشرا في توجه زكريا ﷺ إلى الله ودعائه بأن يرزقه ذرية طيبة .

﴿ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ ﴾ .

﴿ هُنَالِكَ ﴾ أي في ذلك الوقت وفي نفس المكان ، وزكريا ﷺ يشهد هذه الكرامة ، ويرى تلك الآية العجيبة ، في المحراب مكان العبادة والطاعة ، والرحمات والبركات والنفحات ، يتوجه زكريا بالدعاء راجيا من المولى ﷺ أن يرزقه ذرية طيبة .

قال الإمام القشيري : [لما رأى كرامة الله سبحانه مع مريم ازداد يقينا على يقين ورجاء على رجاء فسأل الولد على كبر سنه ، وإجابته إلى ذلك كانت نقضا للعادة] (2) .

﴿ هُنَالِكَ ﴾ أي في ذلك الوقت الذي رأى فيه الفاكهة في غير حينها تعلق رجاؤه بقدرة الله ورحمته ولطفه أن يرزقه الولد في غير حينه .

قال ابن كثير : [... قال بعضهم : قال زكريا : يا من يرزق مريم الثمر في غير أوانه هب لي ولدا وإن كان في غير أوانه] .

﴿ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ﴾ .

في ذلك الوقت والمكان الذي رأى فيه كرامة لمريم تدل على صلاحها وقربها من الله تمنى أن يكون له ولد صالح تقر به عينه ، وينشرح به صدره .

وجاء الطلب بلفظ الهبة : [لأن الهبة إحسان محض ، ليس في مقابلة شيء وهو يناسب ما لا دخل فيه للوالد ، لكبر سنه ، ولا للوالدة ؛ لكونها عاقرا لا تلد] (3) .

يقول الإمام الجصاص (4) في كتابه - أحكام القرآن [... الهبة : تمليك الشيء من

(1) سورة الأنبياء : 89 - 90 .

(2) لطائف الإشارات للقشيري 1/251 ط دار الكتاب العربي القاهرة .

(3) روح المعاني للألوسي 3/144 .

(4) الجصاص هو أحمد بن علي الرازي الحنفي - أبو بكر (305 - 370) هـ فقيه مجتهد توفي ببغداد من مؤلفاته شرح مختصر الطحاوي في فروع الفقه الحنفي وأحكام القرآن وكتاب في أصول الفقه - معجم المؤلفين 7/2 والأعلام للزركلي 10/232 .

غير ثمن ، ويقولون : قد تواهبوا الأمر بينهم ، وسمى الله تعالى ذلك هبة على وجه المجاز ، لأنه لم تكن هناك هبة على الحقيقة ، إذ لم يكن تمليك شيء ، وقد كان الولد حرا لا يقع فيه تمليك ، ولكنه لما أراد أن يخلص الولد له على ما أراد من عبادة الله ووراثته للنبوة والعلم : أطلق عليه لفظ الهبة ، كما سمي الله تعالى بذل النفس للجهاد في سبيل الله شراء ، وهو تعالى مالك الجميع من الأنفس والأموال ، قبل أن يجاهدوا وبعده ، وسمى ذلك شراء لما أولاهم عليه من الثواب الجزيل [(1)] .

﴿ مِنْ لَدُنْكَ ﴾ .

والتعبير بـ ﴿ لَدُنْكَ ﴾ دون التعبير بـ (من عندك) : [لأن حصول الولد في العرف والعادة له أسباب مخصوصة ، فلما طلب الولد مع فقدان تلك الأسباب كان المعنى : أريد منك إلهي أن تعزل الأسباب في هذه الواقعة ، وأن تحدث هذا الولد بمحض قدرتك من غير توسط شيء من الأسباب] (2) .

والولد هبة من الله وعطاء من عنده ، ومنح الولد مع اجتماع موانعه من كبر السن والعقم أمر خارق للعادة ، مظهر لعظيم قدرة الله وجليل صنعه ولطيف إرادته . لذلك كان التفسير بـ (لدن) التي هي أخص من (عند) لأن هبة الولد لزكريا مع كبر سنه وعقم زوجته فيه منحة وخصوصية من الله تعالى له ، والله قادر على كل شيء .

﴿ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ﴾ .

طيب الشيء : هو ملائمته لصاحبه فيما يريد له ، فالبلد الطيب هو الذي يلائم حياة أهله من حيث الماء والهواء وسعة الرزق ونحو ذلك قال تعالى : ﴿ وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرِجُ نَبَاتَهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ ﴾ (3) وقال في قصة سبأ ﴿ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُمْ بَلَدًا طَيِّبَةً وَرَبِّ عَفُورٌ ﴾ (4) .

والعيشة الطيبة والحياة الطيبة ما يلائم بعض أجزائها بعضا ويسكن إليها القلب ، ومنه الطيب : للعطر الذكي والذرية الطيبة هو الولد الصالح لأبيه ، الذي يلائم من حيث صفاته وأفعاله ما عند أبيه من الرجاء والأمنية .

(1) أحكام القرآن للخصاص 11/2 ط الباي الحلبي . (2) مفاتيح الغيب للرازي 33/8 .

(4) سورة سبأ : 15 .

(3) سورة الأعراف : 58 .

● يقول الطباطبائي : [فقول زكريا عليه السلام (رب هب لي من لدنك ذرية طيبة إنك سميع الدعاء) لما كان الباعث عليه ما شاهد من أمر مريم وخصوص كرامتها على الله ، وامتلاء قلبه من شأنها لم يملك من نفسه إلا أن يسأل ربه أن يهبه مثلها كرامة ومكانة عند الله . ولذلك استجيب في عين ما سأل من الله ، ووهب له يحيى وهو أشبه الأنبياء بعيسى عليه السلام ، وأجمع الناس لما عند عيسى وأمه مريم الصديقة من صفات الكمال والكرامة ...] (1) .

﴿ إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴾ .

أي قابله ومجيبه ، [وإنما قيل السامع : للقابل المجيب ؛ لأن من كان أهلاً أن يسمع منه فهو أهل أن يقبل منه ، ومن لا يعتد بكلامه ، فكلامه بمنزلة ما لا يسمع] (2) . هذا ولقد تحدث القرآن الكريم عن دعاء زكريا عليه السلام في مواضع أخرى وأري إتماماً للفائدة ، أن أتناولها بالبحث والدراسة والله المستعان .

حديث سورة مريم عن دعاء زكريا عليه السلام .

قال تعالى : ﴿ كَهَيْعَتِكَ ① ذَكَرْتُ رَحْمَتَ رَبِّكَ عَبْدُكَ زَكَرِيَّا ② إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا ③ ﴾ . (3)

تبدأ الآيات الكريمة بـ ﴿ كَهَيْعَتِكَ ﴾ وهي من الحروف المقطعة التي افتتحت بها بعض السور ونحن نفوض علمها إلى الله تعالى .

﴿ ذَكَرْتُ رَحْمَتَ رَبِّكَ عَبْدُكَ زَكَرِيَّا ﴾ .

هذه الآية الكريمة تذكير للنبي صلى الله عليه وسلم برحمة الله صلى الله عليه وسلم بعبده ونبيه زكريا عليه السلام .

فائدة : [تضمنت الآية الكريمة ﴿ ذَكَرْتُ رَحْمَتَ رَبِّكَ عَبْدُكَ زَكَرِيَّا ﴾ العناصر الأساسية لموضوع سورة مريم ، وهي : الرب ، والعبد ، ورحمة الرب للعبد وحاجة العبد للرب ، وكمال الرب جل جلاله في غناه عن كل ما سواه وفي رحمته وإحسانه لعبيده ، ولهذا سنرى آيات السورة تركز على الاسم الكريم الرحمن ، الذي يدل على غاية الإحسان ، وكمال العبد في تذلل وعبادته لربه ومولاه ، والأنبياء عليهم السلام هم أكثر الخلق

(1) الميزان للطباطبائي 175/3 بتصرف .

(2) مجمع البيان للطبرسي 742/1 .

(3) سورة مريم : 1 - 3 .

عبادة وتذللًا لله تعالى ؛ فهم النموذج الإنساني الكامل للكمال البشري بما امتازوا به من كمال العبودية لله تعالى [(1)] .

﴿ إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا ﴾ (2) .

دعا ربه خفية ، ومن المعلوم أن إخفاء الدعاء أو الجهر به عند الله سواء فهو سبحانه ﴿ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ﴾ (3) ، ﴿ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴾ (4) ، يسمع دبيب النملة السوداء على الصخرة الصماء في الليلة الظلماء ، وهو ﷻ قريب مجيب للدعاء .

وللدعاء في السر مزية فهو أَدْعَى للخضوع والحشوع والإخلاص ، وأقرب للإجابة ، يقول قتادة : إن الله يعلم القلب التقي ، ويسمع الصوت الخفي (5) . وقيل أخفاه لئلا يهزأ الناس به فيقولون انظروا إلى هذا الشيخ الفاني يطلب الولد ! (6) . والأرجح والأظهر أنه أخفى الدعاء حتى يكون أَدْعَى للإخلاص وأرجى للقبول . وفي الحديث (....) أربعوا على أنفسكم فإنكم ليس تدعون أصم ولا غائبا إنكم تدعون سميعا قريبا ، وهو معكم ... (7) .

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَأَشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا ﴾ .

جملة مستأنفة وقعت بيانا لحال زكريا وبيانا لدعائه .

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي ﴾ أي ضعفت عظامي وخارت قواي ، [وإسناد ذلك إلى العظم لما أنه عماد البدن ودعام الجسد فإذا أصابه الضعف والرخاوة تداعى ما وراءه وتساقطت قواه] (8) .

(1) التوحيد والتنزيه في سورة مريم تأليف عبد الحميد محمود طهماز ص 11 ط دار القلم ط 1 سنة 1410 هـ .

(2) سورة مريم : 3 .

(3) سورة طه : 7 .

(4) سورة آل عمران : 5 .

(5) تفسير ابن كثير 10/3 وتفسير الماوردي 578/2 .

(6) تفسير الماوردي 578/2 .

(7) رواه الإمام مسلم في صحيحه من حديث أبي موسى الأشعري - كتاب الذكر والدعاء والتوبة - باب

استحباب خفض الصوت بالذكر إلا في المواضع التي ورد الشرع فيها برفعه كالتلبية وغيرها .

صحيح مسلم بشرح النووي 25/17 ، 26 .

(8) روح المعاني للإمام الألويسي 59/16 والكشاف للزمخشري 4/3 والماوردي 578/2 .

● يقول الأستاذ عبد الكريم الخطيب (1) في تفسيره : [ووهن العظم ضعفه ودقته ... وإذا ضعف عظم الإنسان ووهن : أوشك أن ينهار بنيانه ، وأن تنقض أركانه ، فهيكل الإنسان هو هذا العظم ، الذي يقوم به شكله ، وتتحدد به هيئته ... وقوله : « وهن العظم مني » أبلغ في الإبانة عن الضعف ، وذهاب القوة ، من قوله : « وهن عظمي » إذ إن القول الأول يشير إلى أنه لا عظم معه ، بل لقد ذهب العظم وما بقي منه فإنه لا غناء فيه ... أما القول الآخر فإنه يحدث عن أن معه عظما وأنه لا زال يملكه ويحرص عليه ...] (2) .

وقوله تعالى حكاية عن قول زكريا عليه السلام ﴿ وَأَشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا ﴾ أي وشاب شعر الرأس كناية عن كبر سنه ، يقول صاحب الظلال [... والتعبير المصور يجعل الشيب كأنه نار تشتعل ويجعل الرأس كله كأنما تشتمله هذه النار المشتعلة ، فلا يبقى في الرأس المشتعل سواد] (3) .

فالشيب يسري في الرأس وينتشر كما تسري النار وتشتعل في الهشيم .

- والمراد من هذا : الإخبار عن الضعف والكبر ودلائله الظاهرة والباطنة (4) .

وفي هذا إشارة إلى ضعفه ، وقره إلى رحمة الله ﷻ .

﴿ وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴾ .

أي ولم أعهد منك ربي إلا إجابتي في دعوتي فأنت رجائي وغايتي ، وأنت قصدي ووجهتي ، عودتني على الكرم والإحسان .

● قال صاحب روح البيان : [ولم أكن بدعائي إياك خائبا في وقت من أوقات هذا

العمر الطويل بل كلما دعوتك استجبت لي ، وهذا توصل منه بما سلف من الاستجابة عند كل دعوة إثر تمهيد ما يستدعي الرحمة ويستجلب الرأفة من كبر السن ، وضعف الحال ، فإنه تعالى بعدما عوّد عبده بالإجابة دهرا طويلا لا يخيبه أبدا لا سيما عند الاضطرار وشدة الافتقار - روي أن محتاجا قال لبعضهم : أنا الذي أحسنت إليّ وقت كذا ، فقال : مرحبا

(1) عبد الكريم الخطيب مفكر إسلامي - خريج كلية دار العلوم سنة 1937 له مؤلفات كثيرة منها التفسير

القرآني للقرآن - إعجاز القرآن - الإنسان في القرآن - القصص القرآني في منظوقه ومفهومه - قضية فلسطين

- السياسة المالية في الإسلام - تراجع ترجمته في كتاب عبد الكريم الخطيب والثقافة الإسلامية للسيد أبو

ضيف المدني ط دار الفكر العربي 1979 . (2) التفسير القرآني للقرآن 723/16 .

(4) تفسير ابن كثير 111/3 .

(3) في ظلال القرآن 2302/4 .

بمن توسل بنا إلينا ، وقضي حاجته ، وكأنه يقول ما رددتني حين ما كنت قوي القلب والبدن ... فلورددتني الآن بعدما عوّدتني القبول مع نهاية ضعفي : لتضاعف ألم قلبي ، وهلكت ، يقال : سعد بحاجته إذا ظفر بها ، وشقي بها إذا خاب ... [(1)] .

● ويقول صاحب الظلال : [يعترف زكريا بأن الله قد عوده أن يستجيب إليه إذا دعاه فلم يشق مع دعائه لربه ، وهو في فتوته وقوته . فما أحوجه الآن في هرمه وضعفه أن يستجيب الله له ويتم نعمته عليه] (2) .

أقول وهذا أدب من آداب الدعاء أن يستهله العبد بالثناء على المولى ﷺ بما وصف به نفسه من صفات الكمال والجلال فهو سبحانه المحمود ولا يزال على ما أبدى من النعم وأسدى من الكرم .

وينبغي على الداعي أن يكون موقنا بالإجابة ، وحسن الظن بالله ﷻ وواقفا بما عند الله ، فلقد ورد في الحديث القدسي الذي رواه رسول الله ﷺ عن رب العزة سبحانه يقول : (أنا عند ظن عبدي بي وأنا معه حين يذكرني ، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي ، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ هم خير منهم ، وإن تقرب مني شبرا تقربت إليه ذراعا وإن تقرب إلى ذراعا تقربت منه باعا ، وإن أتاني يمشي أتيته هرولة) (3) .

وفي رواية أخرى للإمام مسلم عن أبي هريرة ؓ قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله يقول أنا عند ظن عبدي بي ، وأنا معه إذا دعاني » (4) .

وروى الإمام مسلم في صحيحه أيضا عن أنس ؓ قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا دعا أحدكم فليعزم في الدعاء ولا يقل اللهم إن شئت فأعطني فإن الله لا مستكره له » (5) .

وفي رواية أخرى له عن أبي هريرة ؓ أن رسول الله ﷺ قال : « إذا دعا أحدكم فلا يقل اللهم اغفر لي إن شئت ، ولكن ليعزم المسألة وليعظم الرغبة ، فإن الله لا

(1) روح البيان 314/5 بتصرف يسير . (2) في ظلال القرآن 2302/4 بتصرف يسير .

(3) رواه الإمام البخاري في صحيحه عن أبي هريرة ؓ - كتاب التوحيد باب قول الله ويحذركم الله نفسه ، فتح الباري 395/12 ورواه الإمام مسلم في صحيحه عن أبي هريرة ، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار - باب الحث على ذكر الله تعالى - صحيح مسلم بشرح النووي 2/17 .

(4) صحيح مسلم كتاب الذكر والدعاء / باب فضل الذكر والدعاء وحسن الظن بالله تعالى - صحيح مسلم بشرح النووي 11/17 .

(5) صحيح مسلم كتاب الذكر والدعاء ... / باب العزم في الدعاء صحيح مسلم بشرح النووي 6/17 .

يتعاضمه شيء أعطاه (1) .

وفي رواية أخرى عن أبي هريرة قال : قال النبي ﷺ : « لا يقولن أحدكم اللهم اغفر لي إن شئت اللهم ارحمني إن شئت ، ليعزم في الدعاء فإن الله صانع ما شاء لا مكره له » (2) .

قال الإمام النووي : [قال العلماء : عزم المسألة : الشدة في طلبها والجزم من غير ضعف في الطلب ، ولا تعليق على المشيئة ونحوها ، وقيل هو حسن الظن بالله تعالى في الإجابة ، ومعنى الحديث : استحباب الجزم في الطلب ، وكراهة التعليق على المشيئة ، قال العلماء : سبب كراهته أنه لا يتحقق استعمال المشيئة إلا في حق من يتوجه عليه الإكراه والله تعالى منزّه عن ذلك] (3) .

فعلى العبد أن يحسن الظن بالله وأن يكون موقناً واثقاً برحمة الله وإجابته للدعاء وفي الحديث المروي عن رسول الله ﷺ : « ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة ، واعلموا أن الله ﷻ لا يستجيب دعاء من قلب غافل لاه » (4) .

﴿ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا ﴾ (5) .

يخبر زكريا ﷺ عن أسباب طلبه للولد فقد وهن منه العظم وشاب الشعر وتقدم به العمر ، وهو خائف من أن يموت دون وارث له ، يرث عنه النبوة والصلاح .

● قال الشيخ الصابوني : ﴿ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي ﴾ : [أي وإنني خفت بني العم والعشيرة من بعد موتي أن يضيعوا الدين ولا يحسنوا وراثته العلم والنبوة] (6) أو وإنني خفت من فعل الموالى وصنيعهم من بعدي وعلي هذا القول فالكلام على حذف مضاف .

(1) صحيح مسلم نفس الكتاب والباب - 6/17 . (2) صحيح مسلم نفس الكتاب والباب - 7/17 .

(3) نفس المرجع 8/17 .

(4) رواه الإمام الطبراني في كتاب الدعاء عن أبي هريرة 812/2 ط دار البشائر الإسلامية - تحقيق د . محمد سعيد بن محمد البخاري ط سنة 1407 هـ سنة 1987 م ورواه الترمذي في الدعوات باب 66 حديث 3479 وقال هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه - سنن الترمذي 483/5 ورواه الحاكم في المستدرک 493/1 وقال هذا حديث مستقيم الإسناد تفرد به صالح المري وهو أحد الزهاد ولم يخرجاه وتعقبه الذهبي بأن صالح المري متروك ورواه الإمام أحمد في مسنده عن عبد الله بن عمرو 177/2 وفيه ابن لهيعة وهو ضعيف وأورده الألباني في صحيح سنن الترمذي برقم 2766 - 164/3 وقال حديث حسن وأورده أيضا في الصحيحة برقم 594 - 143/2 .

(6) صفوة التفسير 35/16 .

(5) سورة مريم : 5 .

● وقال الإمام القاسمي : [وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوْلَىٰ مِنْ وَرَائِي] : أي الذين يلون أمر رهطي من بعد موتي ، لعدم صلاحية أحد منهم لأن يخلفني في القيام بما كنت أقوم به ، من الإرشاد ووعظ العباد ، وحفظ آداب الدين والتمسك بهديه المتين [(1)] .

وقال الإمام الزمخشري : [كان مواليه - وهم عصبته : إخوته وبنو عمه - شرار بني إسرائيل ، فخافهم على الدين أن يغيروه ويدلوه وأن لا يحسنوا الخلافة على أمته ، فطلب عقبا من صلبه صالحا يقتدي به في إحياء الدين ويرتسم مراسمه فيه] (2) .

فائدة في القراءات :

قرأئ : (وإني خفت الموالى) بفتح الخاء وتشديد الفاء المفتوحة ، وسكون التاء (3) .

● قال الزمخشري : [وقرأ عثمان ومحمد بن علي وعلى بن الحسين ﷺ خفت الموالى من ورائي ، وهذا على معنيين ، أحدهما : أن يكون (ورائي) بمعنى خلفي وبعدي ، فيتعلق الظرف بالموالي : أي قلوا وعجزوا عن إقامة أمر الدين ، فسأل ربه تقويتهم ومظاهرتهم بولي يرزقه ، والثاني أن يكون بمعنى قدامي ، فيتعلق بـ (خفت) : ويريد أنهم خفوا قدامه ، ودرجوا ولم يبق منهم من به تقو واعتضاد] (4) .

وقال الإمام الألوسي : [وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوْلَىٰ مِنْ وَرَائِي] ... والمراد : قلّ الموالى وعجزوا عن القيام بأمر الدين من بعدي ، فالخفة هنا : ضد الثقل ، ويجوز أن يكون الخفة من الخفوف بمعنى السير السريع ، ومعنى من ورائي : من قدامي وقبلي ، والمراد مات الموالى القادرون على إقامة مراسم الملة ومصالح الأمة ، وذهبوا قدامي ، ولم يبق منهم من به تقو واعتضاد ، فيكون محتاجا إلى العقب لعجز مواليه عن القيام بعده بما هو قائم به ، أو لأنهم ماتوا قبله فبقي محتاجا إلى من يعتضد به ...] (5) .

﴿ وَكَانَتْ أَمْرًا نِي عَاقِرًا ﴾ .

قال الألوسي : [أي لاتلد من حين شبابها إلى شيبها] (6) .

(1) محاسن التأويل للقاسمي 111/11 .
 (2) الكشف للزمخشري 4/3 .
 (3) يراجع : المحتسب لابن جني 37/2 ، ويراجع مختصر في شواذ القرآن لابن خالويه ص 83 .
 (4) المرجع السابق 4/3 ، 5 .
 (5) روح المعاني للإمام الألوسي 62/16 .
 (6) المرجع السابق 63/16 .

وقال الإمام الرازي : وفي الإخبار عنه بلفظ الماضي (وكان) إعلام بتقدم العهد في ذلك وغرض زكريا من هذا الكلام بيان استبعاد حصول الولد ، فكان إيراد بلفظ الماضي أقوى [(1) في الدلالة ، فهي عاقر منذ شبابها ، فكيف بها الآن وقد بلغت من الكبر عتيا ! .

﴿ فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا ﴾ .

أي هب لي من لذنك من يلي أمري ، ويسير على نهجي ﴿ يَرْثُنِي وَيَرْثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ﴾ المقصود هنا ليس ميراث الملك أو المال ، وإنما ميراث النبوة والحكمة فالأنبياء لا يورثون دينارا ولادهما ، وإنما يورثون الحكمة والهدى والصلاح ، والميراث يكون في المال أو في الملك أو في العلم والحكمة أو في النبوة والصلاح والأول مستبعد لأنه لم يطلب الولد ليرث ماله فالأنبياء لا يورثون مالا .

وليس ميراث ملك لأن زكريا لم يكن ملكا وآل يعقوب لم يتوارثوا ملكا ويحيى ~~الملك~~ لم يصبح ملكا .

ومن هنا فإن الميراث الحقيقي الذي ورثه عن أبيه هو النبوة والصلاح والعلم والحكمة . وحظنا نحن من ميراث الأنبياء هو العلم فالعلم ميراث الأنبياء .

يقول صاحب المفردات : [وقوله تعالى : ﴿ ... وَيَرْثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ﴾ يعني وراثه النبوة والعلم والفضيلة دون المال ، فالمال لا قدر له عند الأنبياء حتى يتنافسوا فيه ، بل قلما يقتنون المال ويملكونه] (2) .

﴿ وَأَجْعَلُهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴾ .

أي مرضيا عندك في جميع أحواله .

● قال ابن كثير : [أي مرضيا عندك وعند خلقك تحبه وتحببه إلى خلقك في دينه وخلقه] (3) .

(1) مفاتيح الغيب للرازي 183/21 .

(2) المفردات للراغب ص 519 مادة (ورث) ولقد اختار ابن كثير في تفسيره أن الميراث هنا هو ميراث النبوة والعلم مستدلا على ذلك بالعقل والنقل يراجع تفسير ابن كثير 111/3 .

(3) المرجع السابق 111/3 .

يقول المولى ﷺ في ختام السورة - سورة مريم - ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا ﴾ أي سيجعل لهم في قلوب العباد محبة ومودة .

قال الإمام الماوردي في تفسير الآية [فيها وجهان : أحدهما - حبا في الدنيا مع الأبرار ، وهيبة عند الفجار ، الثاني - يحبهم الله ويحبهم الناس ... ويحتمل ثالثا : أن يجعل ثناء حسنا ...] (1) .

وفي الحديث الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إن الله إذا أحب عبدا دعا جبريل فقال : إني أحب فلانا فأحبه قال : فيحبه جبريل ، ثم ينادي في السماء فيقول : إن الله يحب فلانا فأحبه فيحبه أهل السماء ، قال : ثم يوضع له القبول في الأرض وإذا أبغض عبدا دعا جبريل فيقول إني أبغض فلانا فأبغضه ، قال فيبغضه جبريل ، ثم ينادي في أهل السماء إن الله يبغض فلانا فأبغضوه ، قال : فيبغضونه ثم توضع له البغضاء في الأرض » (2) .

● - وفي سورة الأنبياء ، يرد ذكر الدعاء الذي نادى به زكريا عليه السلام وهو قول المولى ﷺ :

﴿ وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ ﴾ (3) .

● فائدة في المناسبات .

وهذا هو الموضوع الثالث الذي يتحدث فيه القرآن الكريم عن دعاء زكريا عليه السلام ، وسياق الآيات هنا في بيان رحمة الله بأبيائه ونعمه عليهم ، ونلاحظ أن مضمون الدعاء في السور الثلاث واحد والهدف منه واحد ، وإن تنوعت الأساليب ، فإن تنوعها يكشف عن حقائق هذا الدعاء ومقاصده ، ومن الممكن أن يكون الدعاء قد تكرر من زكريا عليه السلام ، ومن الجائز أن يكون قد دعا الله مرة واحدة ولكن القرآن الكريم كتاب الله المعجز قد سجل هذا الدعاء في ثلاثة مواضع من ثلاث سور ، جمعت هذه المواضع حقيقة الدعاء ومقاصده بحيث يدل كل موضع على المقصود ، وبحيث تكوّن المواضع

(1) النكت والعيون للماوردي 602/2 ، 603 .

(2) رواه الإمام مسلم في صحيحه عن أبي هريرة كتاب البر والصلة والآداب باب / إذا أحب الله عبدا وضع له القبول في الأرض / صحيح مسلم بشرح النووي 183/16 ، 184 .

(3) سورة الأنبياء : 89 .

الثلاثة صورة كاملة ، لحقيقة هذا الدعاء ومقاصده ، وهذا لون من ألوان الإعجاز القرآني ، الذي يصور المعنى الواحد في صور متعددة ، ليس بينها تناقض ولا تضارب ، وإنما يجمعها تناسق وتكامل وترابط .

وصدق المولى ﷺ إذ يقول : ﴿ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ أَلْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾ (1) .

● وفي موضع سورة الأنبياء : ﴿ وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ ﴾ (2) .

وفي هذا الموضع : يطلب زكريا عليه السلام من المولى ﷺ أن لا يتركه وحيدا لا ولد له ؛ يقوم بوراثه الصلاح والنبوة من بعده ﴿ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ ﴾ فالوارث الحقيقي هو الله سبحانه وهو الباقي بعد فناء خلقه ، قال تعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴾ (3) ، وقال ﷺ : ﴿ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ (4) وقال سبحانه : ﴿ لَهُمْ مَلِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ (5) .

● قال ابن كثير في تفسير : ﴿ وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ ﴾ : [دعاء وثناء مناسب للمسألة] (6) .

● وقال صاحب الكشاف : [﴿ وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ ﴾ أي لم ترزقني من يرثني فلا أبالي فإنك خير وارث] (7) .

● ولقد علق الإمام الألويسي على هذا الرأي فقال : [واعترض بأنه لا يناسب مقام الدعاء ، إذ من آداب الداعي أن يدعو بجهد واجتهاد وتصميم منه ، وفي الحديث الصحيح عن رسول الله ﷺ : إذا دعا أحدكم فلا يقل : اللهم اغفر لي إن شئت وارحمني إن شئت وارزقني إن شئت ليعزم مسألته فإن الله تعالى يفعل ما يشاء لا مكره له) ... ويمكن أن يقال : ليس هذا من قبيل ارزقني إن شئت إذ ليس المقصود منه إلا إظهار الرضا والاعتماد على الله ﷻ ، لو لم يجب دعاءه ، وليس المقصود من ارزقني إن

(1) سورة النساء : 82 .
 (2) سورة الأنبياء : 89 .
 (3) سورة مريم : 40 .
 (4) سورة آل عمران : 180 .
 (5) سورة الزمر : 44 .
 (6) تفسير ابن كثير 193/3 .
 (7) الكشاف للزمخشري 133/3 .

شئت ذلك فتأمل [(1)] .

وقال الإمام الألويسي في معنى ﴿ وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ ﴾ : [وفيه مدح له تعالى بالبقاء وإشارة إلى فناء من سواه من الأحياء ، وفي ذلك استمطار لسحاب لطفه ﷻ] (2) .

استجابة المولى ﷺ لدعاء زكريا ﷺ

وبشارة الملائكة له بيحيى ﷺ

1 - قال تعالى في سورة آل عمران : ﴿ فَنادته الملائكة وهو قائم يصلي في المحراب أن الله يبشرك بيحيى مصدقا بكلمة من الله وسيدا وحصورا ونبيا من الصالحين ﴾ (3) .

2 - وقال ﷺ في سورة مريم : ﴿ يذكريا إنا نبشرك بغلام اسمه يحيى لم نجعل له من قبل سميا ﴾ (4) .

3 - وقال سبحانه في سورة الأنبياء : ﴿ فاستجبنا له ووهبنا له يحيى وأصلحنا له زوجه إنهم كانوا يسرعون في الخيرات ويدعوننا رعبا ورهبا وكانوا لنا خاشعين ﴾ (5) .

1 - في الموضع الأول من سورة آل عمران يذكر المولى ﷺ أن الملائكة نادى على زكريا ﷺ وهو يصلي في المحراب ، وبشرته بغلام يدعى يحيى يكون سيذا وحصورا ونبيا من الصالحين .

قال تعالى ﴿ فَنادته الملائكة وهو قائم يصلي في المحراب ﴾ نادى عليه الملائكة وهو في هذا المكان الطاهر المبارك وبشرته ببشارة عظيمة ، قال ابن كثير: [خاطبته الملائكة مشافهة خطابا أسمعته ، وهو قائم يصلي في محراب عبادته ومحل خلوته ومجلس مناجاته وصلاته] (6) .

والتعبير بالفاء هنا يدل على التعقيب ، المفيد لسرعة الجواب ، كما قال تعالى في سورة الأنبياء ﴿ فَاستجبنا له ووهبنا له يحيى وأصلحنا له زوجه ﴾ .

(1) روح المعاني للإمام الألويسي 87/17 بتصرف يسير .

(2) سورة آل عمران : 39 .

(3) المرجع السابق 87/17 .

(4) سورة مريم : 7 .

(5) سورة الأنبياء : 90 .

(6) تفسير ابن كثير 360/1 ، 361 .

● ولقد اختلف المفسرون في المراد بالملائكة هنا : هل هم جمع منهم أم أن المراد جبريل عليه السلام ؟ .

وظاهر النص : يفيد أن المنادى جمع من الملائكة وقيل إن المنادى جبريل ، ذكر ذلك ابن جرير في تفسيره عن ابن مسعود رضي الله عنه (1) قال الألويسي معلقا على هذا الرأي : [فالجمع هنا مجاز عن الواحد للتعظيم ، أو يكون هذا من إسناد فعل البعض للكل ، وقيل الجمع فيه مثل قولك : فلان يركب الخيل ويلبس الدياح ، واعترض بأن هذا إنما يصح إذا أريد واحد لا بعينه ، وههنا أريد المعين فلعل ما تقدم أولى بالإرادة وقيل الجمع على حاله والمنادى كان جملة من الملائكة] (2) .

والذي أراه في هذه المسألة أن المنادى جمع من الملائكة كما يفيد ظاهر النص ؛ لأن الأصل هو الأخذ بظاهر النصوص واستعماله الحقيقي دون اللجوء إلى صرف الكلام عن الحقيقة إلى المجاز .

﴿ أَنْ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى ﴾ .

ذكر المبشر به وهو يحيى عليه السلام يدل على أنه ذَكَرَ وعلى أن المولى عليه السلام قد اختار له الاسم الطيب المبارك .

وفي سورة مريم ﴿ يَنْزَكِرُنَا إِنَّا بُشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا ﴾ (3) .

وفي هذه الآية إشارة إلى أن المبشر به وهو يحيى عليه السلام سوف يولد ويكبر حتى يصير غلاما . وفي قوله تعالى ﴿ لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا ﴾ ما يفيد أن هذا الاسم لم يسم به أحد قبل يحيى عليه السلام ، فهو اسم بكر ، وللإسم البكر الجميل وقعه في النفوس ، واختيار هذا الاسم ليحيى نعمة وهبة من الله ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى ﴾ فالمسمى والاسم هبة ونعمة من الله عليه السلام .

يقول صاحب التحرير والتنوير : [فاسم يحيى مبتكر ، وللأسماء المبتكرة الفريدة مزايا منها : قوة تعريف المسمى بها لقلّة الاشتراك إذ لا يكون مثله كثيرا مدة وجوده ، وكذلك

(2) روح المعاني للإمام الألويسي 145/3 .

(1) جامع البيان للإمام الطبري 169/3 .

(3) سورة مريم : 7 .

مزية اقتداء الناس به من بعد ، حين يسمون أبناءهم ذلك الاسم تيمنا واستجادة [(1)] .
ويتسابق الأمهات والآباء إلى الأسماء الجديدة المتكررة المستحسنة .

أما عن سر التسمية بهذا الاسم ، فلقد قيل : لأن الله أحيا قلبه بالإيمان والطاعة ،
فالإيمان حياة القلوب ، والطاعة زادها ، وقيل : لأن الله أحيا قلبه بالنبوة ، وقيل : لأن
الدين يحيا به ، وزكريا ﷺ طلبه من أجل الدين (2) ، وقيل : لأنه مات شهيداً
والشهداء أحياء عند ربهم يرزقون .

وأرى أن هذه الوجوه كلها محتملة ، فلقد أحياه الله ﷻ بالإيمان والنبوة ، وأحيا به
القلوب . وجدد به الدين ، ونال الشهادة في سبيل الله .

فائدة حول الحياة الحقيقية :

يقول الأستاذ عبد الكريم الخطيب في تفسيره : [وفي تسميته يحيى إشارة إلى أنه
سبقت له ذكر مخلد في هذه الحياة ، وأن حياته ستمتد بعد موته بما يجري على السنة
الناس من ذكره ، في مقام الحمد والثناء] (3) .

أقول وفي هذا المعنى يقول الشاعر :

الناس صنفان موتى في حياتهم وآخرون يبطن الأرض أحياء

ويقول الإمام علي بن أبي طالب ﷺ :

ففز بعلم تعش حياً به أبداً الناس موتى وأهل العلم أحياء

ويقول أمير الشعراء أحمد شوقي مادحا رسول الله ﷺ الذي أحيا الله به موات
القلوب :

أخوك عيسى دعا ميتاً فقام له وأنت أحييت أجيالاً من العدم (4)

فالحياة الحقيقية في الإيمان بالله ﷻ ، وفي العلم النافع ، وفي العمل الصالح . قال

(1) التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور 69/16 .

(2) تراجع هذه الأقوال في مجمع البيان للإمام الطبرسي 742/1 ومفاتيح الغيب للإمام الرازي 146/8 .

(3) التفسير القرآني لعبد الكريم الخطيب 725/16 ، 726 .

(4) ديوان أحمد شوقي .

تعالى : ﴿ أَوْ مَنْ كَانَ مِيثًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (1) .

قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ (2) وقال ﷺ : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنَّثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (3) .

وللأستاذ سيد قطب في مقدمة تفسيره كلمات طيبة يطيب لي في هذا المقام أن أنقلها :

يقول صاحب الظلال : [الحياة في ظلال القرآن نعمة . نعمة لا يعرفها إلا من ذاقها ، نعمة ترفع العمر ، وتباركه ، وتزكيه والحمد لله .. لقد منّ الله على بالحياة في ظلال القرآن فترة من الزمان ، ذقت فيها من نعمته ما لم أذق قط في حياتي ، ذقت فيها هذه النعمة التي ترفع العمر وتباركه وتزكيه ...] (4) .

﴿ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ ﴾ .

مؤمننا بعيسى ﷺ ، قيل إن يحيى ﷺ هو أول من صدق بعيسى ﷺ ، وسمى عيسى ﷺ كلمة الله لأنه وجد بها وهي قوله ﷺ : ﴿ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ .

وقيل مصدقا بكلمة من الله : أي مؤمنا بكتاب منه تعالى (5) .

﴿ وَسَيِّدًا ﴾ .

قيل هو الكريم ، وقيل هو الحليم وقيل الحسن الخلق ، وقيل التقي وقيل الشريف ، وقيل الفقيه العالم ، وقيل الراضي بقضاء الله تعالى ، وقيل المطاع الفائق أقرانه وقيل المتوكل ، وقيل العظيم الهمة ، وقيل من يفوق قومه في الخير ، وقيل المالك الذي تجب طاعته ، وقيل غير ذلك (6) .

(2) سورة الأنفال : 24 .

(1) سورة الأنعام : 122 .

(4) في ظلال القرآن للأستاذ سيد قطب 11/1 .

(3) سورة النحل : 97 .

(5) الكشف للزمخشري 360/1 وتفسير القرآن العظيم لابن كثير 361/2 والجامع لأحكام القرآن للقرطبي 76/4 .

(6) يراجع في ذلك النكت والعيون للإمام الماوردي 313/1 ، 314 والكشاف للزمخشري 360/1 ، والجامع لأحكام القرآن للإمام القرطبي 4 - 76 ، 77 ومفاتيح الغيب للإمام الرازي 36/8 وروح المعاني للإمام الألويسي

وصفوة القول في معنى ﴿ وَسَيِّدًا ﴾ أنه ﷺ ساد نفسه بأن حملها على طاعة الله وصرفها عن معصيته ، وساد قومه بما تحلى به من مكارم الأخلاق ، ومن ساد نفسه ساد غيره .

﴿ وَحَصُورًا ﴾ .

قيل : هو الذي لا يهيم بمعصية ، فضلا عن أن يقربها ، فقد حصر نفسه أي حبسها ومنعها من الهمم الدنية ، والهموم الدنيوية (1) .

وقيل هو الذي لا يأتي النساء لا لعجزه عن ذلك وإنما لزهده وانشغاله بالطاعات والقربات (2) .

وهذان الرأيان هما أصح ما ورد في معنى ﴿ وَحَصُورًا ﴾ أما ما وقع فيه بعض المفسرين من أنه كان ﴿ وَحَصُورًا ﴾ لا يأتي النساء لعجزه عن ذلك ، أو قصوره فهذا كلام مرفوض مردود ومنكر قبيح لا يليق بالأنبياء لأنهم منزهون عن العيوب والنقائص فهم أمثلة للكمال البشري في خلقتهم وفي خُلُقِهِمْ .

وسياق الكلام يدل على البشارات التي ساقتها الملائكة لزكريا ﷺ لتدخل على قلبه السرور ، والحضور صفة مدح وكمال لا صفة ذم ونقصان .

● قال الإمام الألويسي ﴿ وَحَصُورًا ﴾ معناه الذي لا يأتي النساء مع القدرة على ذلك قاله ابن عباس في إحدى الروايات عنه ، وفي بعضها إنه العين الذي لا ذَكَرَ له يتأتى به النكاح ويُنزَل ... ثم قال الألويسي : والأصح الأول إذ العنة عيب لا يجوز على الأنبياء ، وبتسليم أنها ليست بعيب فلا أقل أنها ليست بصفة مدح ، والكلام مخرج مخرج المدح [(3)] .

أقول : إن يحيى ﷺ كان قادرا على إتيان النساء فلم يكن عنده عجز أو قصور في أمر النكاح ولكنه رغب عن الزواج وزهد في النساء وانشغل بطاعة الله ﷻ وتبليغ دعوته ، وهذا في حقه فضيلة ولقد ذكر الله هذه الصفة في سياق الحديث عن صفاته الحميدة التي أكرمها بها وكون يحيى ﷺ لم يتزوج فإن تركه للزواج خصوصية من خصوصياته

(1) يراجع في ذلك تفسير ابن كثير 361/1 ، وروح البيان للبروسوي 31/2 .

(2) تفسير ابن كثير 361/1 - ومفاتيح الغيب للرازي 36/8 ، 37 وروح المعاني للألويسي 148/3 ومحاسن التأويل

(3) روح المعاني للإمام الألويسي 148/3 .

للقاسمي 95/4 .

التي خصه الله بها ، وهي في حقه فضيلة لأن الله مدحه بكونه ﴿ وَحَصُورًا ﴾ .
﴿ وَيَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴾ .

أي ناشئا منهم لأنه من أصلابهم وهو من جملتهم (1) .

وقيل المراد بالصلاح ما فوق الصلاح الذي لا بد منه في منصب النبوة ، وعليه مبني دعاء سليمان عليه السلام كما ذكر المولى عليه السلام في كتابه الكريم حكاية عن سليمان عليه السلام وهو يدعو ويقول : ﴿ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ﴾ (2) . (3) .

قال الإمام الرازي : [فإن قيل : إذا كان منصب النبوة أعلى من منصب الصلاح ، فما الفائدة في وصفه بالصلاح بعد وصفه بالنبوة ؟ قلنا : إن للأنبياء قدرا من الصلاح لو انتقص لانتفت النبوة ، فذلك القدر بالنسبة إليهم يجري مجرى حفظ الواجبات بالنسبة إلينا ، ثم بعد اشتراكهم في ذلك القدر تتفاوت درجاتهم في الزيادة على ذلك القدر ، وكل من كان أكثر نصيبا منه كان أعلى قدرا . والله أعلم] (4) .

وقال الأستاذ عبد الكريم الخطيب في كتابه التفسير القرآني للقرآن [... ومعنى هذا أن الصلاح صفة ملازمة له قبل النبوة ومع النبوة ، فلو لم يكن نبيا من الأنبياء لكان صالحا من عباد الله الصالحين] (5) .

2 - وفي الموضع الثاني من سورة مريم يأتي الجواب من قبل الله ﷻ ﴿ يَنْزَكِرُنَا إِنَّا نَبِّشُرُكَ بِغُلَامٍ أَسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا ﴾ .

أي لم نجعل له شبيها من أهل عصره في أحواله وصفاته ، أو لم نجعل له من قبل من يشاركه في هذا الاسم .

قال الزمخشري : [... لم يسم أحد يحيى قبله ، وهذا شاهد على أن الأسامي السنع (6)

(1) الكشاف للزمخشري 360/1 وراجع روح المعاني للألوسي 148/3 ومحاسن التأويل للقاسمي 95/4 .

(2) سورة النمل : 19 .

(3) روح المعاني للألوسي 148/3 وروح البيان للبروسوي 31/2 .

(4) مفاتيح الغيب للإمام الرازي 37/8 بتصرف .

(5) التفسير القرآني للقرآن لعبد الكريم الخطيب 440/3 .

(6) السنع : الحسنة - ورد في لسان العرب : السنع الجمال والحسن وامرأة سنيعة أي جميلة - اللسان 2118/3

جديرة بالأثرة ، وإياها كانت العرب تنتحي في التسمية لكونها أُنْبه وأنوه (1) وأنزّه (2) عن النبز (3) وقيل ﴿ لَمْ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا ﴾ مثيلا وشبيها كقوله ﴿ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ﴾ وإنما قيل للمثل سمي لأن كل متشاكلين يسمى كل واحد منهما باسم المثل والشبيه والنظير ، فكل واحد منهما سمي لصاحبه ... قالوا لم يكن له مثل في أنه لم يعص ولم يهجم بمعضية قط ، وأنه ولد بين شيخ فان وعجوز عاقر ، وأنه كان حصورا [(4)] .

3 - وفي الموضع الثالث في سورة الأنبياء ﴿ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْكَرُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَشِيعِينَ ﴾ (5) .

ولقد أفادت هذه الآية : أن المولى ﷺ قد استجاب دعاء زكريا ﷺ وأصلح زوجته للحمل والولادة ، وأثنى سبحانه على زكريا ويحيى وامرأة زكريا أثنى عليهم المولى ﷺ بأنهم ﴿ كَانُوا يُسْكَرُونَ فِي الْخَيْرَاتِ ﴾ أي يبادرون إلى فعل الطاعات ، ﴿ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ﴾ يجمعون بين الرغبة والرغبة ، بين الخوف والرجاء ، وهذه حال المؤمن ، وكما قال ﷺ : ﴿ أَوْلَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴾ (6) .

ويقول ﷺ : ﴿ تَبِعَ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ (7) وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴿ (7) .

﴿ وَكَانُوا لَنَا خَشِيعِينَ ﴾ خاشعين لله ﷺ .

● قال الإمام الراغب : [الخشوع الضراعة وأكثر ما يستعمل الخشوع فيما يوجد على الجوارح ، والضراعة أكثر ما تستعمل فيما يوجد في القلب ولذلك قيل فيما روي إذا ضرع القلب خضعت الجوارح] (8) .

(1) أنوه : أرفع وأعلى - ورد في لسان العرب : نوه ناه الشيء ينوه ارتفع وعلا - اللسان 4588/6 مادة ن و هـ .

(2) أنزه : أي أبعد كما في اللسان 4401/6 مادة ن ز هـ .

(3) الكشاف للزمخشري 5/3 والنبز بالتحريك اللقب ، والنبز بالتسكين التلقب ، واللمز - كما في اللسان 4324/6

(4) الكشاف للزمخشري 5/3 .

(5) سورة الأنبياء : 90 .

(6) سورة الإسراء : 57 .

(7) سورة الحجر : 49 ، 50 .

(8) المفردات للراغب مادة خ ش ع ص 148 .

موقف زكريا عليه السلام من هذه البشارة

قال تعالى في سورة آل عمران : ﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ۝٨١ ﴾ قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْرًا وَاذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَرِ ۝٨٢ ﴾ (1) .

وقال تعالى في سورة مريم : ﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا ۝٨١ ﴾ قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا ۝٨٢ ﴾ قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ۝٨٣ ﴾ فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ۝٨٤ ﴾ (2) .

دعا زكريا عليه السلام ربه أن يرزقه الولد فاستجاب المولى ﷻ لدعائه ، وجاءته الملائكة تبشره بغلام يرث النبوة والصلاح عنه ولقد كانت الاستجابة مفاجأة لزكريا عليه السلام ، فقال ﷻ متعجبا من هذه البشارة ، وشاكر المولى ﷻ على هذه النعمة ، ومتسائلا عن كيفية تحققها ووقوعها ؟ .

﴿ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ ۝٨١ ﴾ .

● قال الإمام الرازي : [والكبير : كبير الرجل يكبر ، إذا أسن قال ابن عباس كان يوم بشر بالولد ابن عشرين ومائة سنة ، وكانت امرأته بنت تسعين وثمان] (3) .

وقد ذكر الإمام ابن الجوزي أن عمر زكريا عليه السلام حين بشر كان عشرين ومائة سنة (4) .

والله أعلم بحقيقة سنه وسن زوجته ، والذي يهمنا هنا أنهما بلغا من السن مبلغا كبيرا .

● قال صاحب روح البيان [﴿ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ ﴾ أي أدركني كبير السن وأثر في ، وفيه دلالة على أن كبير السن من حيث كونه من طلائع الموت طالب للإنسان لا يكاد يتركه] (5) .

(2) مريم : 8 - 11 .

(1) سورة آل عمران : 40 ، 41 .

(4) زاد المسير في علم التفسير لابن الجوزي 328/1 .

(3) مفاتيح الغيب للرازي 39/8 .

(5) روح البيان للبروسوي 31/2 .

وتساؤل زكريا ﷺ عن كيفية وقوع هذه البشارة هل سيعود إلى شبابه هو وزوجته؟ أم سيعود له شبابه ويتزوج بامرأة أخرى تكون ولودا؟ .

● يقول الإمام الماوردي : [ولم يقل ذلك عن شك بعد الوحي ولكن على وجه الاستخبار : أتعيدنا شاين ؟ أو ترزقنا الولد شيخين ؟] (1) .

وفي سورة مريم ﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلْمٌ وَكَانَتِ آمْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا ﴾ (2) .

● يقول الإمام الكرمانى قدم في سورة آل عمران ذكر الكبير وآخر ذكر المرأة وقال في سورة مريم ﴿ وَكَانَتِ آمْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا ﴾ فقدم ذكر المرأة ، لأن في مريم قد تقدم ذكر الكبير في قوله تعالى ﴿ وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي ﴾ وتأخر ذكر المرأة في قوله ﴿ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَأْيِ وَكَانَتِ آمْرَأَتِي عَاقِرًا ﴾ ثم أعاد ذكرها فأخر الكبير ليوافق ﴿ عِتِيًّا ﴾ ما بعده من الآيات وهي ﴿ سَوِيًّا ﴾ ، و ﴿ وَعَشِيًّا ﴾ ، و ﴿ صَبِيًّا ﴾ [(3)] .

وقوله تعالى ﴿ عِتِيًّا ﴾ : العتي هو النهاية في الكبر واليبس والجفاف ، ﴿ مِنْ الْكِبَرِ عِتِيًّا ﴾ السن الذي تعتو فيه العظام والمفاصل ، أي تيبس وتجف وهو حال لا سبيل إلى إصلاحها ومداواتها .

● وفي هذا المقام يجدر بنا أن نشير إلى أن العلم الحديث مع التقدم الهائل والإمكانات العظيمة في مجال الطب فإنهم إلى الآن لم يكتشفوا ولن يكتشفوا علاجا لمرض الشيخوخة وما يعترى الطاعنين في السن من ضعف ووهن وأمراض .

الله ﷻ هو القادر وهو الفعال لما يريد

1 - قال تعالى في سورة آل عمران : ﴿ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴾ (4) .

2 - وقال ﷻ في سورة مريم : ﴿ قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىٰ هَيْنٍ وَقَدْ خَلَقْتَنكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا ﴾ (5) .

(1) النكت والعيون للماوردي 580/2 .

(2) سورة مريم : 8 .

(3) البرهان في توجيه متشابه القرآن للإمام الكرمانى ص 47 .

(4) سورة مريم : 9 .

(5) سورة آل عمران : 40 .

قال الإمام الألوسي في تفسيره : [﴿ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴾] : أي يفعل الله ما يشاء أن يفعله من الأفعال العجيبة الخارقة للعادة فعلا مثل ذلك الفعل العجيب ، والصنع البديع الذي هو خلق الولد مع الحالة التي يستبعد معها الخلق بحسب العادة [(1)] .
وفي التعبير باسم الجلالة ما يفيد الهيبة والعظمة والروعة والإجلال .

وفي التعبير بوصف الربوبية في موضع سورة مريم دلالة بالغة : فالرب هو الخالق المدبر المصرف لشئون خلقه ، وكما خلق ﷺ عبده زكريا ﷺ من العدم فهو سبحانه قادر على أن يأتي بالولد مع كبر السن وعقم الزوجة فالله ﷻ لا يعجزه شيء ولا يمتنع عليه شيء وقدرة المولى ﷻ قدرة مطلقة لا تحدّها حدود ، ولا تقيدّها قيود وهذا الأمر الذي يتعجب منه زكريا ﷺ ويقف أمامه مشدوها ومبهورا ، هو أمر هين يسير على الله ﷻ .
قال الإمام القرطبي [... أي كما خلقتك الله تعالى بعد العدم ولم تك شيئا موجودا فهو القادر على خلق يحيى وإيجاده] (2) .

زكريا يطلب آية من الله ﷻ

قال تعالى في سورة آل عمران : ﴿ قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ ءآيَتُكَ ءَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَاذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَرِ ﴾ (3) .
وقال ﷻ في سورة مريم : ﴿ قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ ءآيَتُكَ ءَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴿١١﴾ فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴾ (4) .

طلب زكريا ﷺ آية من المولى ﷻ ، أي علامة تدل على وقت حدوث الحمل .
● ولقد زعم بعض المفسرين أن زكريا ﷺ شك في هذه البشارة وخاف من أن تكون وسوسة شيطانية إلى قلبه فطلب الآية ، أي العلامة الدالة على صدق هذه البشارة وأنها وحي من الله ، وليس وسوسة شيطانية ، وهذا الرأي غير صحيح ، لأنه لا يجوز بأي حال من الأحوال أن يشك النبي في الوحي ، ويظن أنه وسوسة وإلا فإن الأمر يختلط عليه ويلتبس عليه ويتوقف عن تنفيذ الأوامر حتى يتثبت وهذا أمر مستحيل ... فالوحي له

(2) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي 84/11 .

(1) روح المعاني للإمام الألوسي 150/3 .

(4) سورة مريم : 10 ، 11 .

(3) سورة آل عمران : 41 .

علاماته ودلالاته وخصائصه والوسوسة لها أيضا علاماتها ودلالاتها وخصائصها .

● يقول السيد الشريف الرضي (1) في كتابه حقائق التأويل في متشابه التنزيل يقول في الرد على من قال إن زكريا ﷺ التبس عليه الخطاب هل هو وحي إلهي أم وسواس شيطاني : [وهذا القول جهل عظيم من قائله وقلة بصيرة بمنازل الأنبياء ﷺ وما يجوز عليهم مما لا يجوز ؛ لأنهم ﷺ تجلّ أقدارهم عن تلاعب الشياطين بهم ، وأن يشكل نداء الشيطان من نداء الملك عليهم ، وإذا كانت الملائكة هي التي أتته بالبشارة ، وقد جرت عادته إذ هو نبي - باستماع كلامها ، وألف مهابطها ، وثلج صدره بما تؤديه إليه عن ربها فأبي عذر له في أن يعترضه الريب أو يختلجه الشك ؟ .

وفي قوله تعالى : ﴿ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ ﴾ دليل قاطع على أنه لم يشك ولو كان شاكا كما زعموا لما جعل رجوع الخطاب متوجها إلى الله تعالى ، بل جعله مبهما وموقوفا كما يفعل الشاك المرتاب ، والذاهل الحيران ...] (2) .

● وإذ تبين لنا بطلان هذا الزعم : القائل : بأن زكريا ﷺ طلب الآية ليتأكد من كون هذه البشارة من عند الله وليست من وسواس الشيطان ، فما هو السر في طلبه لآية ؟ .

● نقول وبالله التوفيق : إنه طلب الآية : كعلامة على وقت بداية وقوع الحمل ، حتى يفرح قلبه بذلك بعد أن فرح بالبشارة وحتى يتلقى ذلك بالشكر لله ﷻ واهب النعم .

● قال الإمام الماوردي : [قوله ﷻ : ﴿ قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً ﴾ أي علامة لوقت الحمل ليتعجل السرور به] (3) .

● وقال الزمخشري [... أي اجعل لي علامة أعلم بها وقوع ما بشرت به] (4) .

(1) السيد الشريف الرضي ولد سنة 359 هـ في أسرة علم ، وكان شيعي المذهب وله مؤلفات كثيرة ومصنفات جمة في الأدب والعلوم الشرعية منها نهج البلاغة وهو كتاب يجمع ما أثر عن الإمام علي بن أبي طالب من خطب وأشعار وأمثال وحكم ، وله أيضا تلخيص البيان عن مجازات القرآن وله حقائق التأويل في متشابه التنزيل ، وكان أديبا شاعرا ، تراجع ترجمته في مقدمة كتابه حقائق التأويل ص 20 : 112 للمحقق .

(2) حقائق التأويل في متشابه التنزيل للسيد الشريف الرضي ص 92 ، 93 بتصرف ط دار الأضواء بيروت

(3) النكت والعيون للماوردي 314/1 .

(4) الكشاف للزمخشري 7/3 .

● وقال صاحب روح البيان [... أي علامة تدل على تحقق المسئول أو وقوع الحمل وإنما سألتها لأن العلق (1) أمر خفي لا يوقف عليه فأراد أن يطلعه الله عليه ليتلقى تلك النعمة الجليلة منه حين حصولها بالشكر ولا يؤخره إلى أن يظهره ظهوراً معتاداً] (2) .

المولى ﷺ يمنح زكريا ﷺ آية

قال تعالى في سورة آل عمران : ﴿ قَالَ ءَايَتُكَ ءَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْرًا وَاذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَرِ ﴾ (3) .

وفي سورة مريم يقول ﷺ : ﴿ قَالَ ءَايَتُكَ ءَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴾ (4) .

● أجاب المولى ﷺ زكريا ﷺ فيما طلبه ، فأعطاه الآية الدالة على وقوع الحمل وهذه الآية هي امتناعه عن الكلام لمدة ثلاثة أيام بلياليهن ، فلا يتكلم إلا بالإشارة والإيماء ، ففي سورة آل عمران ﴿ قَالَ ءَايَتُكَ ءَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْرًا ﴾ أي إلا إشارة ، وفي سورة مريم ﴿ قَالَ ءَايَتُكَ ءَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴾ أي كاملة وتامة ومتابعة ، فكلمة ﴿ سَوِيًّا ﴾ حال من ﴿ ثَلَاثَ لَيَالٍ ﴾ وقيل هي حال من الفاعل وهو زكريا ﷺ أي أن لا تكلم أنت الناس ثلاث ليال وأنت سوي ، أي صحيح سليم لا مرض بك .

● قال الزمخشري [... قال علامتك أن تمنع الكلام فلا تطيقه وأنت سليم الجوارح سوي الخلق ، ما بك خرس ولا بكم ، ودلّ ذكر الليالي هنا - يعني في سورة مريم - والأيام في سورة آل عمران - : على أن المنع من الكلام استمر به ثلاثة أيام ولياليهن] (5) .

وقال البروسوي [... قالوا : رجع تلك الليلة إلى امرأته فقربها ووقع الولد في رحمها فلما أصبح امتنع عن الكلام] (6) .

ولقد زعم بعض المفسرين أنه منع الكلام عقاباً له على طلب الآية : وهذا خطأ جسيم وزعم باطل ، مبني على زعم سابق وهو أنه شك في البشارة هل هي وحي من

(1) من علقت المراة إذا حبلت .

(2) روح البيان للبروسوي 31/2 ويراجع روح المعاني 150/3 .

(3) سورة آل عمران : 41 .

(4) سورة مريم : 10 .

(5) الكشاف للزمخشري 7/3 .

(6) روح البيان للبروسوي 318/5 وقوله [ووقع الولد في رحمها] كناية عن حصول الحمل وعلوقه .

الله أم وسوسة شيطانية وقد أثبتنا بطلان هذا الزعم ، وذكرنا أنه ما كان لزكريا ﷺ أن يعجز عن التمييز بين صوت الحق وصوت الباطل ، بين كلام الملائكة وبين كلام الشيطان ، بين الوحي وبين الوسوسة .

ولقد منع زكريا ﷺ من الكلام ولذلك حكمة بليغة فللصمت فوائد عديدة ، ففيه راحة النفس ، وهدوء البال ، وسكينة القلب ، وانطلاق الفكر ، وصفاء العقل ، ومن هنا فمنع زكريا ﷺ من الكلام من تمام نعمة الله عليه ورعايته له .

● يقول الأستاذ عبد الكريم الخطيب في تفسيره : [والسؤال هنا : لم كانت هذه الآية على هذا الوجه ، وهو أن يصمت زكريا عن الكلام - إجباريا أو اختياريا (1) - ثلاثة أيام ؟ ... والذي نراه والله أعلم - أن هذا الصمت الذي فرضه الله تعالى على زكريا مدة ثلاثة أيام ، هو الدواء الذي تسكن به النفس المضطربة المهتاجة بهذا الخبر العجيب ... وهو طَبٌّ بليغ لا يغني غيره غناؤه في مثل تلك الحال ... ذلك أنه ليس أحسن من الصمت علاجا لجمع النفس المشتتة ، وتسكين القلب المهتاج ! ولو كان ذلك الصمت عقوبة لكان تكديرا لتلك النعمة التي كانت في ذاتها آية من آيات الله .. وتعالى آيات الله أن تشاب بسوء وجلت نعمه أن تختلط بكدر !] (2) .

فصومه عن الكلام نعمة تستوجب الشكر ولهذا جاء التوجيه الإلهي له ﷺ ﴿ وَأَذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَخِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ ﴾ .

ويوضح الأستاذ الخطيب أنه حينما تعطل أداة الكلام فإن الإنسان لا يعدم وسيلة أخرى للتفاهم والتعبير وهي الإشارة التي هي عوض عن الكلام : [فإذا كان ذلك شأن الإنسان ، حيث يستطيع أن يخرج عن الأسباب المألوفة ، ويحقق بأسباب غيرها ما كان يحققه بها فإن قدرة الله تعالى - التي هي فوق نطاق الأسباب أبدا - أحق وأولى بالألا تحتجزها الأسباب التي نراها مصاحبة للمسببات ! وأنه إذا كان من مألوف الحياة الواقعة تحت حواسنا ألا تلد العقيم ، وألا يولد للشيخ الفاني ، فإن قدرة الله - إذا قضت حكمته - تجعل العقيم ولودا ، وتخلق من الشيخ الفاني بنين وبنات .. ﴿ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (3)] (4) .

(1) لو كان اختياريا كما يزعم الأستاذ الخطيب لما تحقق كونه علامة يعرف بها حدوث الحمل .

(2) التفسير القرآني للقرآن للأستاذ عبد الكريم الخطيب 443/3 ، 444 بتصرف .

(3) سورة النحل : 60 .

(4) المرجع السابق 444/3 .

ولصاحب الظلال في هذا المقام كلام طيب حيث يقول ﷺ بعد أن وضع أن القدرة الإلهية لا تفرق بين هين وعسير ، أو بين مألوف وغريب فقدرته ﷻ مطلقاً من كل قيود ، ومنطلقة بلا حدود ، يقول صاحب الظلال : [... ولكن زكريا لشدة لهفته على تحقق بشرى ، ولدهشة المفاجأة في نفسه راح يطلب إلى ربه أن يجعل له علامة يسكن إليها : ﴿ قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً ﴾ .. وهنا يوجهه الله سبحانه إلى طريق الاطمئنان الحقيقي ، فيخرجه من مألوفه في ذات نفسه ... إن آيته أن يحتبس لسانه ثلاثة أيام إذا هو توجه إلى الناس ، وأن ينطلق إذا توجه إلى ربه وحده يذكره ويسبحه ... ﴿ قَالَ آيَتُكَ إِلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمَزًا وَادَّكُرَ رَبِّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَرِ ﴾ ... ويسكت السياق هنا ، ونعرف أن هذا قد كان فعلاً ، فإذا زكريا ﷺ يجد في ذات نفسه غير المألوف في حياته وحياة غيره ... ، لسانه هذا هو لسانه ولكنه يحتبس عن كلام الناس ، وينطلق لمناجاة ربه ... أي قانون يحكم هذه الظاهرة ؟ إنه قانون الطلاقة الكاملة للمشيئة العلوية ... فبدونه لا يمكن تفسير هذه الغريبة .. كذلك رزقه بيحيى وقد بلغه الكبر وامرأته عاقر !!!] (1) .

زكريا ﷺ يواصل ذكر الله ﷻ

قال تعالى في سورة آل عمران : ﴿ وَادَّكُرَ رَبِّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَرِ ﴾ (2) .
وفي سورة مريم يقول ﷻ : ﴿ فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴾ (3) .

فزكريا ﷺ رغم منعه من الكلام إلا أنه يواصل ذكر الله ﷻ ويأمر الناس به حيث يشير إليهم بما يفهم منه دوام الذكر ، وزكريا ﷺ أنعم الله عليه بالصمت وفي الصمت فكرة وعبرة كما أنعم الله عليه بتوفيقه إلى الذكر فاجتمع له الذكر مع الفكر ، والذكر من أسنى المقامات ومن أجل القربات ومن أفضل الأعمال ومن أسنى الأحوال . والذكر مطلوب في كل حال حتى يصير المؤمن على صلة بالله ﷻ ، وزكريا ﷺ يواصل ذكر الله حتى وهو ممنوع عن الكلام فالذكر من أيسر العبادات ومن أعظمها أجراً .

وفي الحديث الشريف : « كلمتان خفيفتان على اللسان ثقيلتان في الميزان حبيبتان

(2) سورة آل عمران : 41 .

(1) في ظلال القرآن 395/1 .

(3) سورة مريم : 11 .

إلى الرحمن ، سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم » (1) .

- والعشي : من حين زوال الشمس إلى أن تغيب ، وأصل العشي الظلمة ولذلك كان العشي ضعف البصر ، فسمي ما بعد الزوال عشاء لاتصاله بالظلمة ، وأما الإبكار فمن حين طلوع الفجر إلى وقت الضحى ، وأصله التعجيل ، لأنه تعجيل الضياء (2) .

وزكريا ﷺ يواصل دعوة قومه إلى ذكر الله ﷻ وحين يمتنع عن الكلام فإن الإشارة توصل إلى المطلوب . ﴿ فَفَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴾ أشار إليهم أن يداوموا على التسبيح في جميع الأوقات .

صفات يحيى ﷺ كما وردت في سورة مريم

قال تعالى في سورة مريم ﴿ يَتَّبِعُنِي أَنْزِلْنَاهُ بِقُوَّةٍ وَنَادَيْنَاهُ أَنْ حَكِّمْ عَلَىٰ صَيْبًا ۖ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا ۗ ﴿١٣﴾ وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ۗ ﴿١٤﴾ وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُعْثَرُ حَيًّا ۗ ﴿١٥﴾ (3) .

يقول الإمام أبو السعود في تفسيره : [﴿ يَتَّبِعُنِي ﴾ استئناف طوي قبله جمل كثيرة ، مسارعة إلى الإنباء بإنجاز الوعد الكريم] (4) .

وقال الطبرسي : [هاهنا اختصار عجيب ، تقديره فوهبنا له يحيى وأعطيناه الفهم والعقل وقلنا له يا يحيى خذ الكتاب] (5) .

﴿ يَتَّبِعُنِي خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ ﴾ الباء هنا للملابسة : أي أخذنا ملابساً للقوة ، ملازماً لها في جميع الأحوال ، والكتاب هنا هو التوراة .

● قال الزمخشري : [... أي خذ التوراة بجد واستظهار بالتوفيق والتأييد] (6) .

● وقال الإمام الرازي في تفسير القوة هنا [... الجِد والصبر على القيام بأمر النبوة

(1) الحديث : رواه الإمام البخاري في صحيحه عن أبي هريرة ﷺ ك / الدعوات باب فضل التسبيح حديث 6406 فتح الباري 210/11 ورواه الإمام مسلم في صحيحه عنه ك / الذكر والدعاء .. باب فضل التهليل والتسبيح حديث 2694 صحيح مسلم بتحقيق محمد فؤاد عبد الباقي 2072/4 .

(2) سورة مريم : 12 - 15 .

(3) النكت والعيون للماوردي 315/1 .

(4) مجمع البيان للطبرسي 781/6 .

(5) إرشاد العقل السليم لأبي السعود 420/3 .

(6) الكشف للزمخشري 7/3 .

وخصالها يرجع إلى حصول ملكة تقتضي سهولة الإقدام على المأمور به والإحجام عن المنهي عنه [(1)] .

● وقال ابن كثير : [أي تعلم الكتاب بقوة أي بجهد واجتهاد وحرص] [(2)] .

وقال الطبرسي : [يا يحيى خذ الكتاب يعني التوراة بما قواك الله عليه وأيدك به ومعناه وأنت قادر على أخذه قوي على العمل به وقيل بجهد وصحة عزيمة على القيام بما فيه] [(3)] .

وصفوة القول : أن هذا أمر إلهي ليحيى عليه السلام أن يأخذ التوراة مأخذ الجد في العلم بها ، وفي فهمها وفي العمل بها ودعوة الناس إلى الأخذ بها ﴿ وَءَاتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا ﴾ .

● قال ابن جرير : [أعطاه الله الفهم لكتابه في حال صباه قبل بلوغه سن الرجال] [(4)] .

● وقال ابن كثير : [﴿ وَءَاتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا ﴾ أي الفهم والعلم والجد والعزم والإقبال على الخير ... والاجتهاد فيه وهو صغير حدث] [(5)] .

● وقال الماوردي [﴿ وَءَاتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا ﴾ : فيه أربعة وجوه : أحدها اللب ، والثاني : الفهم والثالث : الأحكام والمعرفة بها ، والرابع : الحكمة] [(6)] .

● وقال الإمام القاسمي [الحكمة وفهم التوراة والعلم والاجتهاد في الخير] [(7)] .

● وقال عبد الكريم الخطيب : [والحكم هنا ، هو الحكمة التي يحكم بها في الأمور التي تعرض له] [(8)] .

ومدار هذه الأقوال حول العلم والفهم والمعرفة والجد والعزم والإقبال على الخير .

● وقال الإمام الخازن في تفسيره [﴿ وَءَاتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا ﴾ قال ابن عباس وآتيناه الحكم ، يعني النبوة ، صبييا ، وهو ابن ثلاث سنين وذلك أن الله تعالى أحكم عقله وأوحى إليه] [(9)] .

(1) مفاتيح الغيب للإمام الرازي 191/21 .

(2) تفسير القرآن العظيم للحافظ ابن كثير 113/3 .

(3) مجمع البيان للطبرسي 781/6 .

(4) جامع البيان للطبرسي 42/16 .

(5) تفسير القرآن العظيم لابن كثير 113/3 بتصرف .

(6) النكت والعيون للماوردي 581/2 .

(7) محاسن التأويل للقاسمي 114/11 .

(8) التفسير القرآني للقرآن عبد الكريم الخطيب 727/16 .

(9) لباب التأويل للخازن 240/4 .

وهذا رأي ضعيف وقول بعيد لأن النبوة مرتبة عظيمة تعطى عند بلوغ الأشد وكمال الرشد .

ومن هنا فإن الرأي الراجح في معنى الحكم : هو العلم والفهم والجد والعزم ، والمعرفة بالأحكام ، وفهم التوراة والحكمة .

روى ابن كثير عن عبد الله بن المبارك عن معمر قال : قال الصبيان ليحيى بن زكريا اذهب بنا نلعب فقال ما للعب خلقنا قال فهذا معنى ﴿ وَعَائِنَهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا ﴾ (1) أي الحرص على العلم والجد والعزم .

﴿ وَحَنَانًا مِّنْ لَّدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا ﴾ .

قوله ﷻ : ﴿ وَحَنَانًا ﴾ عطف على الحكم أي وآتيناه الحكم وحنانا ، والتنوين للتعظيم والتفخيم ، والحنان : الرفق واللين والشوق والعطف ، ولقد ملأ الله قلب يحيى بالحنان لأبويه ولغيرهما ، فكان برا بأبويه ورحيما بالناس .

يقول صاحب الظلال : [... وآتاه الله الحنان هبة لدنية لا يتكلفه ، ولا يتعلمه ، إنما هو مطبوع عليه ومطبوع به . والحنان صفة ضرورية للنبي المكلف برعاية القلوب والنفوس وتأليفها واجتذابها إلى الخير في رفق] (2) .

﴿ وَزَكَاةً ﴾ .

أي وطهارة ، فالزكاة هي الطهارة ، والتركية التطهير والتنمية .

قال تعالى : ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّيْنَاهَا ۖ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۗ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ۗ ۝١ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ۗ ۝٢ ﴾ (3) ومعنى زكاه أي طهرها ونقاها وهذبها وصفها ، وسمى بها إلى أعلى المقامات وأسمى الدرجات .

● قال صاحب الظلال في معنى ﴿ وَزَكَاةً ﴾ : [... وآتاه الطهارة والنفقة ونظافة القلب والطبع ، يواجه بها أدران القلوب ودنس النفوس فيطهرها ويزكيها ...] (4) .

﴿ وَكَانَ تَقِيًّا ﴾ .

(1) تفسير ابن كثير 113/3 وتفسير الماوردي 582/2 . (2) في ظلال القرآن لسيد قطب 2304/4 .

(4) في ظلال القرآن 2304/4 .

(3) سورة الشمس : 7 - 10 .

كان مطيعا لله ﷻ ، يمثل ما أمره به ويجتنب ما نهى عنه والتقوى هي - [جماع الخير كله ، وهي وصية الله في الأولين والآخرين وهي خير ما يستفيده الإنسان] (1) .

ولقد أمر الله عباده المؤمنين بالتقوى وفي القرآن مواضع كثيرة فيها الحث على تقوى الله والترغيب فيها وفي فضلها نذكر منها ما يلي قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ (2) وقال سبحانه : ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ۗ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾ (3) وقال ﷻ : ﴿ وَتَكَزَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ وَاتَّقُونِ يَا أُولِيَ الْأَلْبَابِ ﴾ (4) .

وقال ﷻ : ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَىٰكُمْ ﴾ (5) .

وفي السنة النبوية أحاديث كثيرة في فضل التقوى ، ولقد كان من دعاء رسول الله ﷺ : « اللهم إني أسألك الهدى والتقى والعفاف والغنى » (6) .

وعن أبي أمامة الباهلي ؓ قال : سمعت رسول الله ﷺ يخطب في حجة الوداع فقال : « اتقوا الله ، وصلوا خمسكم ، وصوموا شهركم ، وأدوا زكاة أموالكم ، وأطيعوا أمراءكم ، تدخلوا جنة ربكم » (7) .

﴿ وَبِرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا ﴾ .

﴿ وَبِرًّا بِوَالِدَيْهِ ﴾ أي محافظا على البر بهما والإحسان إليهما وبر الوالدين من أعظم الأعمال الصالحة التي أمر بها المولى ﷻ في كتابه الكريم قال تعالى : ﴿ وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾ (8) .

وقال ﷻ : ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أٰفٍ وَلَا نَهْرَهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴾ (9) .

(2) سورة آل عمران : 102 .

(1) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي 163/1 .

(4) سورة البقرة : 197 .

(3) سورة الطلاق : 2 ، 3 .

(6) سبق تخريجه .

(5) سورة الحجرات : 13 .

(7) رواه الإمام الترمذي في سننه . عن أبي أمامة أبواب الصلاة باب ما ذكر في فضل الصلاة حديث 616 - 516/2

وقال حديث حسن صحيح ، ورواه الإمام أحمد في مسنده 251/5 وإسناده صحيح وأخرجه الحاكم في المستدرک وقال صحيح على شرط مسلم ولا نعرف له علة ولم يخرجاه ووافقه الذهبي 9/1 .

(8) سورة النساء : 36 .

وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذَّلِيلِ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيْتَنِي صَغِيرًا ﴿١﴾ .

فربط المولى ﷺ بين عبادته سبحانه وبين بر الوالدين ، لبيان فضيلة الإحسان إلى الوالدين ، وعلى قدر إيمان العبد وقربه من الله على قدر إحسانه لأبويه وبره بهما .

﴿ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا ﴾ .

قال الألوسي : [أي ولم يكن متكبرا متعاليا عن قبول الحق والإذعان له ، أو متطاولا على الخلق ، وقيل الجبار هو الذي لا يرى لأحد عليه حقا] (2) [وقيل هو المتعظم الذي لا يتواضع لأمر الله] (3) .

وفي الحديث الشريف يقول رسول الله ﷺ : « لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر » فقال رجل يا رسول الله : إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنا ونعله حسنة ؟ فقال رسول الله ﷺ : « إن الله جميل يحب الجمال ، الكبر بطر الحق وغمط الناس » (4) واطر الحق دفعه وردة على قائله ، وغمط الناس احتقارهم .

وفي الحديث الشريف يقول رسول الله ﷺ : « لا يزال الرجل يذهب بنفسه حتى يكتب في الجبارين فيصيبه ما أصابهم » (5) ومعنى يذهب أي يرتفع ويتعالى ويتكبر .

ويحیی الطیلسی كان متواضعا لله ﷻ رفيقا بالناس محبا للحق ومذعنا له ﴿ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا ﴾ فهو الطیلسی نبي معصوم ، مطيع لله ﷻ في جميع أحواله .

قال تعالى : ﴿ وَسَلِّمْ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴾ (6) .

(1) سورة الإسراء : 23 ، 24 .

(2) روح المعاني للألوسي 73/16 .

(3) روح البيان للبروسوي 320/5 .

(4) الحديث رواه الإمام مسلم في صحيحه عن عبد الله بن مسعود ؓ كتاب الإيمان - باب تحريم الكبر حديث 91 صحيح مسلم بتحقيق محمد فؤاد عبد الباقي 93/1 ، ورواه الترمذي في سننه عنه ك / البر والصلة باب ما جاء في الكبر وقال حديث حسن صحيح غريب ، سنن الترمذي 317/4 حديث 1999 واطر الحق أي دفعه وإنكاره ترفعا وتجبيرا ، وغمط الناس : احتقارهم .

(5) رواه الإمام الترمذي في سننه عن سلمة بن الأكوع عن أبيه ؓ ، وقال حديث حسن غريب . سنن الترمذي ك / البر والصلة باب ما جاء في الكبر حديث 2000 - 318/4 ويذهب بنفسه أي يتعالى ويتكبر ، وفي إسناد هذا الحديث عمر بن راشد اليمامي وهو ضعيف - يراجع ضعيف سنن الترمذي حديث 343 - ص 225

وسلسلة الأحاديث الضعيفة حديث 1914 - 387/4 . (6) سورة مريم : 15 .

السلام هو التحية المباركة الطيبة ، المتعارفة ، وهي تحمل معاني السلم ، والأمن والأمان والرحمة والبركة والإحسان .

● يقول الإمام القرطبي : [سلم الله تعالى على يحيى وحياه في المواطن التي يكون الإنسان فيها في غاية الضعف والحاجة وقلة الحيلة والفقير إلى الله تعالى عظيم الحول] (1) .

● وقال صاحب روح البيان [﴿ وَسَلِّمْ ﴾ أي سلامة من الله تعالى وأمان ﴿ عَلَيْهِ ﴾ أي على يحيى ، أصله وسلمنا عليه في هذه الأحوال وهي أوحش المواطن ، لكن نقل إلى الجملة الاسمية للدلالة على ثبات السلام واستقراره فإن وحشتها لا تكاد تزول إلا بثبات السلام فيها ودوامه] (2) .

(2) روح البيان للبروسوي 320/5 .

(1) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي 88/11 .

المبحث الرابع

عود إلى قصة مريم عليها السلام

اصطفاء الله عَلَيْهَا السَّلَامُ لمريم عليها السلام

قال تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَأِئِكَةُ يَمْرَمِمْ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَأَصْطَفَاكِ عَلَيَّ نِسَاءَ الْعَالَمِينَ ﴿١٩﴾ يَمْرَمِمْ أَقْنِي لِرَبِّكِ وَأَسْجُدِي وَأَذْكَبِي مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴿٢٠﴾ ^(١) .

المناسبة : ما زال السياق يواصل الحديث عن نعم الله عَلَيْهَا السَّلَامُ على آل عمران ، وكيف اصطفاهم المولى عَلَيْهَا السَّلَامُ وفضلهم ، حيث بدأ السياق بالحديث عن امرأة عمران واستجابة المولى لدعائها ، وقبوله سبحانه لنذرهما ، وانتقل السياق إلى الحديث عن مريم عَلَيْهَا السَّلَامُ ونشأتها الصالحة في رعاية الله عَلَيْهَا السَّلَامُ وعنايته ، وكفالة زكريا عَلَيْهَا السَّلَامُ التي كانت توفيقا من الله لمريم ولزكريا عَلَيْهَا السَّلَامُ ، الذي دعا المولى عَلَيْهَا السَّلَامُ بأن يرزقه الولد بعد أن رأى كرامة لمريم ، واستجاب الله دعوته ، ورزقه يحيى عَلَيْهَا السَّلَامُ الذي جمع الله عَلَيْهَا السَّلَامُ له محاسن الصفات ومحامد الأخلاق .

ثم يعود السياق مرة ثانية إلى مريم عَلَيْهَا السَّلَامُ وإلى اصطفاء الله عَلَيْهَا السَّلَامُ لها .

● يقول الإمام الألوسي [﴿ وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَأِئِكَةُ يَمْرَمِمْ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ ... ﴾] تنمة لشرح أحكام اصطفاء آل عمران ووقعت قصة زكريا ويحيى عَلَيْهَا السَّلَامُ في البين لما فيها مما يؤكد ذلك الاصطفاء [^(٢)] .

● ويقول الإمام القاسمي : [﴿ وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَأِئِكَةُ يَمْرَمِمْ ﴾] شروع في تنمة فضائل آل عمران [^(٣)] .

﴿ وَإِذْ ﴾ معطوف على ﴿ إِذْ قَالَتِ أَمْرَأْتُ عَمْرَنَ رَبِّي إِنِّي نَذَرْتُ ... ﴾ والمعنى اذكر يا محمد إذ قالت امرأة عمران عَلَيْهَا السَّلَامُ واذكر أيضا ما قالته الملائكة لمريم عَلَيْهَا السَّلَامُ من بشارات ، ففي هذه القصة عبر وعظات ينبغي أن يتذكرها المؤمن جيدا ، وأن يستفيد منها ، وأن يذكر الناس بها قال تعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةً لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾

(2) روح المعاني للإمام الألوسي 154/3 .

(1) سورة آل عمران : 42 ، 43 .

(3) محاسن التأويل للإمام القاسمي 96/4 .

مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَأِكَةُ يَمْرِمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ ﴾ .

الاصطفاء : سبق الحديث عنه ، وقلنا إن معناه يدور حول الاختيار والانتقاء والتصفية والتحلية ومريم عليها السلام اصطفاها المولى عليه السلام بأن اختارها لهذا المقام الأسمى حيث جعلها من بيت صالح ، وقبلها قبولاً حسناً ، وأنبتها نباتاً حسناً ، وجعل زكريا عليه السلام لها كافلاً ، وأجرى الكرامة على يديها إكراماً لها وإحساناً إليها .

● قال الإمام الطبرسي : [﴿ يَمْرِمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ ﴾ أي اختارك وألطف لك حتى تفرغت لعبادته ، واتباع مرضاته ، وقيل معناه اصطفاك لولادة المسيح] (2) .

● وقال الإمام الزمخشري : [... اصطفاك أولاً حين تقبلتك من أمك ورباك واختصك بالكرامة السنية] (3) .

● وقال الإمام القرطبي [﴿ ... إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ ﴾ أي اختارك] (4) .

● وقال الإمام ابن كثير : [هذا إخبار من الله تعالى بما خاطبت به الملائكة مريم عليها السلام عن أمر الله لهم بذلك أن الله قد اصطفاها أي اختارها لكثرة عبادتها ، وزهادتها وشرفها وطهارتها من الأكدار والوساوس] (5) .

وفي قصص الأنبياء يقول ابن كثير : [﴿ اصْطَفَاكِ ﴾ أي اختارك واجتباك] (6) .

وذكر الإمام الرازي في حقيقة اصطفاها عدة وجوه : منها أنه قبل تحريرها مع أنها كانت أنثى ولم يحصل مثل هذا المعنى لغيرها من الإناث ، ومنها ما وقع لها من الكرامة حيث كان رزقها يأتيها من عند الله ، ومنها أنه فرغها لعبادته ، وخصها في هذا المعنى بأنواع اللطف والهداية والعصمة ، ومنها أنه أسمعها كلام الملائكة شفاهاً (7) .

﴿ وَظَهَرَ كُ ﴾ .

(2) مجمع البيان للطبرسي 745/1 .

(1) سورة يوسف : 111 .

(4) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي 82/4 .

(3) الكشاف للزمخشري 362/1 .

(6) قصص الأنبياء لابن كثير ص 553 .

(5) تفسير القرآن العظيم لابن كثير 362/1 .

(7) مفاتيح الغيب للإمام الرازي 43/8 بتصرف .

- للطهارة مراتب أربع : المرتبة الأولى تطهير الظاهر عن الأحداث والأخبار والفضلات . المرتبة الثانية : تطهير الجوارح عن الجرائم والآثام ، المرتبة الثالثة تطهير القلب عن الأخلاق المذمومة والذائل المفقوتة ، المرتبة الرابعة : تطهير السر عما سوي الله تعالى ، وهي طهارة الأنبياء صلوات الله عليهم ، والصدّيقين (1) .

قال ابن كثير في القصص : [وطهره أي من الأخلاق الرذيلة وأعطاك الصفات الجميلة] (2) وقال في التفسير : [طهره من الأكدار] (3) .

● وقال الألوسي : [وطهره من الأدناس والأقذار التي تعرض للنساء مثل الحيض والنفاس حتى صرت صالحة لخدمة المسجد قاله الزجاج وروي عن الحسن وابن جبير أن المراد طهره بالإيمان عن الكفر ، والطاعة عن المعصية ، وقيل نزهه عن الأخلاق الذميمة والطباع الرديئة ، والأولى الحمل على العموم أي طهره من الأقذار الحسية والمعنوية والقلبية والقالية] (4) .

● وقال صاحب روح البيان : [وطهره من الكفر والمعصية ومن الأفعال الذميمة والعادات القبيحة ومن ميسس الرجال ، ومن الحيض والنفاس - قالوا كانت مريم لا تحيض - ، ومن تهمة اليهود وكذبهم بإنطاق الطفل] (5) .

● وقال القاسمي : [وطهره عن الرذائل] (6) .

● وقال الإمام الرازي : [وأما التطهير ففيه وجوه : أحدها أنه تعالى طهرها عن الكفر والمعصية ، فهو كقوله تعالى في أهل بيت النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمْ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً ﴾ (7) ، وثانيها أنه تعالى طهرها عن ميسس الرجال ، وثالثها : طهرها عن الحيض ، قالوا كانت مريم لا تحيض ، ورابعها وطهره من الأفعال الذميمة والعادات القبيحة ، وخامسها وطهره عن مقالة اليهود وتهمتهم وكذبهم] (8) .

(1) إحياء علوم الدين للإمام أبي حامد الغزالي 125/1 ط المكتب الثقافي بالقاهرة .

(2) قصص الأنبياء لابن كثير 553 . (3) تفسير القرآن العظيم لابن كثير 362/1 .

(4) روح المعاني للألوسي 154/3 ، 155 ويراجع معاني القرآن للزجاج 410/1 .

(5) روح البيان للبروسوي 32/2 . (6) محاسن التأويل للقاسمي 96/4 . (7) سورة الأحزاب : 33 .

(8) مفاتيح الغيب للإمام الرازي 43/8 بتصرف يسير . ونحو هذا : ما ذكره أبوحيان الأندلسي في تفسيره البحر

● وقال الزمخشري [طهره كما يستقدر من الأفعال ، وما قرفك به اليهود] (1) .

وما سبق يتضح لنا : المقصود بطهارة مريم عليها السلام وهو طهارتها بالإيمان والطاعة من الكفر والمعصية ، وبالأخلاق الحميدة والصفات الحسنة من الأخلاق الذميمة والصفات القبيحة ومن ميسس الرجال بأي حال من الأحوال ، ومن تهمة اليهود عليهم لعنة الله ، حيث برأها المولى صلى الله عليه وسلم من افتراءاتهم وجاءت براءتها على لسان المسيح عليه السلام وهو في المهد . وذكر كثير من المفسرين أن المولى صلى الله عليه وسلم قد طهرها من الحيض والنفاس ولعل الحكمة من ذلك هي : صلاحيتها للبقاء في بيت المقدس دون مانع شرعي ، لأنه لا يجوز للحائض أو النفساء المكث في المسجد ولا يجوز لها أن تدخله وهي حائض أو نفساء ، والحيض والنفاس ليس عيبا ولا نقيصة ولكنها عادة في النساء لا تنقص من قدرهم ولا تحط من شأنهم بل تتناسب مع طبيعتهم وتتواكب مع مهمتهم في الحياة . وطهارة مريم من الحيض فضيلة في حقها حتى تصلح للقيام بمهمتها من الاعتكاف في بيت المقدس ، فهي عليها السلام العفيفة الشريفة الحية النقية الراضية المرضية .

﴿ وَأَصْطَفَيْنَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ﴾ .

اصطفاء بعد اصطفاء ، والاصطفاء الثاني هو أنه صلى الله عليه وسلم أكرمها بهذه الآية العجيبة حيث وهبها عيسى عليه السلام المخلوق بقدره الله صلى الله عليه وسلم من غير أب ليكون آية للعالمين (2) .

قال تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴾ (3) .

وقيل إن الاصطفاء الثاني هو عين الأول ، وكرر للتأكيد وبيان من اصطفأها عليهن .

ذكر ذلك الإمام الألويسي وقال ولعل الأول أولى ؛ لما أن التأسيس خير من التأكيد (4) .

مسألتان متعلقتان بخطاب الملائكة لمريم واصطفائها

المسألة الأولى : هل هي عليها السلام من جملة الأنبياء ؟ .

وللإجابة عن هذا السؤال نقول وبالله التوفيق :

(1) الكشاف للزمخشري 362/1 .

(2) يراجع مفاتيح الغيب للرازي 43/8 وروح البيان للبروسوي 32/1 وروح المعاني للألوسي 155/3 ومحاسن

التأويل للقاسمي 96/4 .

(3) سورة المؤمنون : 50 .

(4) روح المعاني للألوسي 155/3 ويراجع مفاتيح الغيب للرازي 43/8 .

زعم بعض أهل العلم أن مريم عَلَيْهَا السَّلَامُ نبيهة من الأنبياء ؛ لأن الله سُبْحَانَهُ قد أوحى إليها ، وكذلك الحال في أم إسحاق وأم موسى لأن الوحي قد خاطبهن .

ومن الذين قالوا بهذا الزعم : الإمام ابن حزم الظاهري الأندلسي الذي عقد فصلا في كتابه الفصل بعنوان (نبوءة النساء) : ادعى فيه ثبوت نبوءة النساء ومن كلامه في ذلك : [... جاء في القرآن أن الله سُبْحَانَهُ قد أرسل ملائكة إلى نساء فأخبروهن بوحي حق من الله تعالى ، من ذلك تبشير الملائكة لأم إسحاق به قال سُبْحَانَهُ ﴿ وَأَمْرَاتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكْتُ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَقَ يَعْقُوبَ ﴾ (1) .

فهذا خطاب من ملك لغير نبي بوجه من الوجوه ، ووجدناه تعالى قد أرسل جبريل إلى مريم عَلَيْهَا السَّلَامُ فخطبها وقال لها : ﴿ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا ﴾ (2) فهذه نبوءة صحيحة بوحي صحيح ، ورسالة من الله تعالى إليها ، وهكذا أم موسى أوحى الله تعالى إليها أن تلقي موسى في اليم ، وأنه سوف يعيده ، ويجعل له شأنًا قال تعالى : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خَفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ (3) [(4) .

ومن القائلين بنبوءة مريم أيضا الإمام القرطبي الأندلسي في تفسيره حيث يقول : [والصحيح أن مريم نبيهة لأن الله تعالى أوحى إليها بواسطة ملك كما أوحى إلى سائر الأنبياء وأما آسية فلم يرد ما يدل على نبوتها دلالة واضحة بل على صِدْقِيَّتِهَا وَفَضْلِهَا كما ورد بيانه في سورة التحريم ...] (5) .

وقال القرطبي : إن مريم أفضل النساء على الإطلاق ؛ لأنها نبيهة والنبي أفضل من الولي ، فهي أفضل من كل النساء : الأولين والآخرين مطلقا ، ثم بعدها في الفضيلة فاطمة ثم خديجة ثم آسية [(6) .

وقال أيضا : [ومن قال لم تكن نبيهة قال : إن رؤيتها للملك كما رُؤِيَ جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ في صورة بشرية حين سؤاله عن الإسلام والإيمان ولم تكن الصحابة بذلك أنبياء ،

(2) سورة مريم : 19 .

(1) سورة هود : 71 .

(3) سورة القصص : 7 .

(4) يراجع الفصل في الملل والأهواء والنحل لابن حزم الظاهري 17/5 ، 18 .

(5) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي 83/4 بتصرف . (6) المرجع السابق : 83/4 .

والأول أظهر وعليه الأكثر والله أعلم [(1)] .

وقال في تفسير قوله تعالى ﴿ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ ﴾ (2) [يجوز أن تكون صديقة مع كونها نبية كإدريس عليه السلام] (3) .

والصحيح في هذه المسألة أن مريم عليها السلام ليست نبية وإنما هي صديقة والدليل على ذلك ما يلي :

1 - ظاهر النص الكريم ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ ﴾ (4) فهو يدل دلالة صريحة قاطعة على أن النبوة في الرجال دون النساء .

2 - أن مريم وأم إسحاق وأم موسى لم يأت في القرآن تصريح بنبوتهن ضمن من صرح الله بنبوتهم .

3 - أن كلام الملائكة لمريم عليها السلام لا يعد دليلاً على ثبوت نبوتها ، إذ النبوة هي وحي من الله تعالى لنبي من الأنبياء بكيفية مخصوصة ، وبواسطة الملك ، كما أن كلام جبريل لها لم يكن برسالة أو نبوة بمفهومها الشرعي وإنما كان بأمر من الله تعالى وبشارة منه سبحانه وكلام الملائكة لأم إسحاق لم يكن إلا بشارة لها ؛ والحكمة في الكلام المباشر أن البشارة تعظم في النفس بعظم المبشر بها .

4 - أن الإلهام كما يقع للأنبياء فقد يقع للأولياء ، ويكون في حقهم كرامة وليس بمعجزة ، والرؤيا الصالحة نوع من أنواع الوحي (الإلهامي) ولم يقل أحد أن كل من رأى رؤيا صالحة فهو نبي .

5 - أن الوحي بمعناه اللغوي - الإعلام في خفاء - : جاء في القرآن الكريم في مواضع كثيرة ولم يقل أحد أنه نبوة ، قال تعالى : ﴿ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ أُنْيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا نَبِيًّا طَائِعِينَ ﴿١١١﴾ فَفَضَّنَهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنٍ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا ﴾ (5) .

(1) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي 84/4 بتصرف . (2) سورة المائدة : 75 .

(3) المرجع السابق 84/4 وقال ﴿ قَالَ فِي حَقِّ إِدْرِيسَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴾ وَأَذْكُرُ فِي الْكَلْبِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ﴿ سورة

مريم : 56 . (4) سورة النحل : 43 .

(5) سورة فصلت : 11 ، 12 .

وقال تعالى : ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٧﴾ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ... ﴾ (1) .

ولم يقل أحد من العقلاء بنبوة الأرض والسماء ولا بنبوة النحل ، إذ إن الوحي بمفهومه اللغوي أوسع من معناه الشرعي ففي اللغة الوحي هو الإعلام في الخفاء ، وفي الشرع : إعلام الله تعالى لنبي من أنبيائه بحكم شرعي ونحوه بواسطة أو بغير واسطة (2) .

هذا ولم يرد في القرآن الكريم ولا في السنة وصفها بالنبوة وإنما جاء وصفها بأوصاف أخرى تدل على صلاحها وطهرها وصديقيتها .

قال تعالى : ﴿ مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَاكُلَانِ مِنَ الطَّعَامِ ﴾ (3) .

هل السيدة مريم عَلَيْهَا السَّلَامُ أفضل النساء على الإطلاق ؟

أجمع العلماء على أن لمريم عَلَيْهَا السَّلَامُ مكانتها وفضلها عند الله عَلَيْهِ السَّلَامُ كما أخبر القرآن الكريم وورد في السنة النبوية ، فلقد اصطفاها المولى عَلَيْهِ السَّلَامُ وطهرها واجتباها وآثرها ، فهي عَلَيْهَا السَّلَامُ من أفضل النساء وأعقلهن وأكملهن .

ولكن هل هي أفضل النساء على الإطلاق ؟

هذا ما اختلف فيه العلماء على ثلاثة آراء :

● الرأي الأول : أنها أفضل نساء العالمين على الإطلاق واستند أصحاب هذا الرأي إلى :

1 - ظاهر الآية الكريمة ﴿ يَمْزِجُ مِمَّا ارْتَدَىٰ مِن نَّارِ الْجَهَنَّمَ لِيُظْهِرَ لَهَا بَهْرَتَهَا وَسَيَجْزِي رَبُّهَا أَيُّهَا الْمَرْءُ الْكَافِرُ ﴾ (4) أي على نساء جميع العصور .

2 - حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال : « حسبك من نساء العالمين بأربع : مريم بنت عمران ، وآسية امرأة فرعون ، وخديجة بنت خويلد ، وفاطمة بنت

(1) سورة النحل : 68 ، 69 .

(2) يراجع في تعريف الوحي ومعانيه مدخل إلى الدراسات القرآنية د . محمود بلتاجي ص 87 وما بعدها ط مكتبة الشباب 1987 ، كما يراجع في نفس الموضوع دراسات في علوم القرآن الكريم د . عبد الباسط بلبول ص 17 : 40 ط دار الطباعة المحمدية سنة 1401 هـ سنة 1980 م .

(3) سورة آل عمران : 42 .

(4) سورة المائدة : 75 .

(محمد) (1) .

ولقد قال الإمام الرازي بعد أن ذكر هذا الحديث [... فهذا الحديث يدل على أن هؤلاء الأربع ، أفضل النساء وهذه الآية تدل على أن مريم أفضل من الكل ، وقول من قال المراد أنها مصطفاة على عالمي زمانها : فهذا ترك للظاهر] (2) .

3 - ما رواه ابن عساكر في - تاريخ دمشق - تراجم النساء بسنده عن ابن عباس رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « سيدة نساء أهل الجنة مريم بنت عمران ، ثم فاطمة ، ثم خديجة ، ثم آسية امرأة فرعون » (3) .

4 - كما استدل القرطبي على أفضليتها على سائر النساء بنبوتها حيث قال : فظاهر القرآن والأحاديث يقتضي أن مريم أفضل من جميع النساء ... لأنها نبيه والنبي أفضل من الولي ، فهي أفضل من كل النساء الأولين والآخرين مطلقا ، ثم بعدها في الفضيلة فاطمة ثم خديجة ثم آسية [(4) ، وقد سبق تحقيق القول في أنها ليست نبيه ولكنها صديقة .

الرأي الثاني : أن مريم عليها السلام ليست أفضل النساء على الإطلاق وإنما هي أفضل نساء عصرها واستدلوا بما يلي :

1 - أن الآية ﴿ ... وَأَصْطَفَيْنَاكَ عَلَى نِسَاء الْعَالَمِينَ ﴾ تدل على أنها مفضلة على نساء عصرها ، كما قال صلى الله عليه وسلم : ﴿ يَبْنَؤُ إِسْرَائِيلَ أَذْكُرُوا نَعْمَتِي أَلَيْحِ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ (5) أي على عالمي زمانكم وقال تعالى : ﴿ يَمْوَسَّىٰٓ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلِمَةٍ ﴾ (6) ولم يقل أحد بأفضلية بني إسرائيل على جميع أهل

(1) الحديث أخرجه الحاكم في المستدرک وقال حديث صحيح على شرط الشيخين . ووافقه الإمام الذهبي 595/2 ورواه الإمام الترمذي في السنن عنه - ك / المناقب باب / فضل خديجة حديث (3878) 660/5 وقال حديث صحيح .

(2) مفاتيح الغيب للإمام الرازي 43/8 ، 44 .

(3) الحديث رواه ابن عساكر في تاريخ دمشق عن ابن عباس يراجع تاريخ مدينة دمشق وذكر فضلها وتسمية من حل بها من الأماثل أو اجتاز بنواحيها من واردتها وأهلها / للحافظ أبي القاسم علي بن الحسن بن هبة الله ابن عبد الله الشافعي المعروف بابن عساكر 538/19 مخطوطة بالمكتبة الظاهرية بدمشق ويراجع أيضًا مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر - للإمام محمد بن مكرم المعروف بابن منظور (630 : 711 هـ) 85/26 ط دار الفكر 1409 هـ .

(4) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي 83/4 بتصرف .

(6) سورة الأعراف : 144 .

(5) سورة البقرة : 47 .

العصور ، كما لم يقل أحد بأن موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ أفضل من جميع الأنبياء فالأمة الإسلامية خير الأمم ورسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو أفضل الأنبياء وخاتمهم ، وفي تفسير الجلالين : ﴿ وَأَصْطَفَيْنَاكَ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ﴾ أي أهل زمانك (1) .

2 - ما رواه البخاري ومسلم وغيرهما عن علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال : قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « خير نساءها مريم وخير نساءها خديجة » (2) .

قال ابن حجر في الفتح : [والذي يظهر لي أن قوله « خير نساءها » أي نساء زمانها وكذا في خديجة ، وقد جزم كثير من الشراح أن المراد نساء زمانها لما تقدم من أحاديث الأنبياء ، عن أبي موسى رفعه « كمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء إلا مريم وآسية » (3) فقد أثبت في هذا الحديث الكمال لآسية كما أثبت لمريم ، فامتنع حمل الخيرية في حديث الباب على الإطلاق] (4) .

3 - وقال ابن حجر أيضا : [وجاء ما يفسر المراد صريحا ، فروى البزار والطبراني من حديث عمار بن ياسر ، رفعه « لقد فضّلت خديجة على نساء أمتي كما فضّلت مريم على نساء العالمين » (5) وهو حديث حسن الإسناد] (6) .

(1) تفسير الجلالين ص 72 .

(2) رواه الإمام البخاري في صحيحه ك / مناقب الأنصار ، ب / تزوج النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خديجة وفضلها / فتح الباري 165/7 حديث 3815 ورواه مسلم في صحيحه عنه ك / فضائل الصحابة باب / فضائل خديجة حديث 2430 - صحيح مسلم بشرح النووي 198/15 ، ورواه الترمذي في سننه عنه ك / المناقب باب / فضل خديجة حديث 3877 - سنن الترمذي 565/5 ، 660 ورواه الحارث بن أبي أسامة في مسنده عن عبد الله بن جعفر - كما ورد في بغية الباحث عن زوائد مسند الحارث للهيثمي حديث 995 - 911/2 ورجال إسناده كلهم ثقات - والمطالب العالية في زوائد الثمانية لابن حجر برقم (3982) 68/4 ط / دار المعرفة بيروت ويراجع مختصر إتحاف السادة المهرة بزوائد المسانيد العشرة لأبي العباس شهاب الدين البوصيري ت 840 هـ مجلد / 5 حديث رقم / 7548 ط / دار الكتب العلمية بيروت .

(3) رواه البخاري في صحيحه ك / الأنبياء ، باب / قوله تعالى : ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا امْرَأَتَ وَعْرُونَ ﴾ ونصه : عن أبي موسى الأشعري قال : قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « كمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء إلا آسية امرأة فرعون ، ومريم بنت عمران ، وإن فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام » فتح الباري 514/6 .

(4) فتح الباري 168/7 .

(5) قال الهيثمي في مجمع الزوائد رواه البزار والطبراني وفيه أبو يزيد الحميري ولم أعرفه مجمع الزوائد 222/9 ويراجع كشف الأستار 236/3 - حديث 2655 .

(6) فتح الباري 168/7 .

4 - وقد أخرج النسائي بإسناد صحيح ، والحاكم من حديث ابن عباس مرفوعا « أفضل نساء أهل الجنة خديجة وفاطمة ومريم وآسية » (1) .

5 - ما رواه الإمام أحمد في مسنده عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « فاطمة سيدة نساء أهل الجنة إلا ما كان من مريم بنت عمران » (2) .

قال ابن كثير معلقا على هذا الحديث : [إسناده حسن ... والمقصود أن هذا يدل على أن مريم وفاطمة أفضل هذه الأربع ، ثم يحتمل الاستثناء أن تكون مريم أفضل من فاطمة ، ويحتمل أن يكونا على السواء في الفضيلة] (3) .

6 - وهناك حديث صحيح يدل على أن فاطمة الزهراء سيدة نساء أهل الجنة على الإطلاق ، وهو ما رواه البخاري في صحيحه عن عائشة رضي الله عنها قالت : قال النبي صلى الله عليه وسلم : « فاطمة سيدة نساء أهل الجنة » (4) .

7 - ورواه الإمام مسلم في صحيحه بسنده من حديث عائشة رضي الله عنها وفيه [... فقال النبي صلى الله عليه وسلم يا فاطمة أما ترضين أن تكوني سيدة نساء المؤمنين أو سيدة نساء هذه

(1) الحديث رواه النسائي في السنن الكبرى عن ابن عباس ك / المناقب باب مناقب مريم 93/5 حديث 8355 . والحاكم في المستدرک - ك / التاريخ باب / ذكر أفضل نساء العالمين 594/2 - وقال هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه بهذا اللفظ ، ووافقه الذهبي .

(2) رواه الإمام أحمد في المسند 64/3 ويراجع : الفتح الرباني - كتاب / قصص الماضين من بني إسرائيل باب / ما جاء في فضل مريم بنت عمران 133/20 ، 134 .

ورواه الحاكم في المستدرک 151/3 وقال هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه وقال الذهبي صحيح الإسناد . - ورواه الترمذي في السنن عن أم سلمة ك المناقب باب / فضل فاطمة حديث 3873 658/5 وقال الترمذي حديث حسن غريب من هذا الوجه ورواه أبو يعلى في مسنده عن أبي سعيد الخدري حديث 1164 - 58/2 - وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد 201/9 وقال أخرجه أحمد وأبو يعلى ورجالهما رجال الصحيح ورواه الحارث بن أبي أسامة في مسنده كما في بغية الباحث برقم 989 - 908/2 .

(3) قصص الأنبياء لابن كثير ص 566 .

(4) رواه البخاري في صحيحه معلقا في كتاب فضائل الصحابة ، باب مناقب فاطمة رضي الله عنها وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « فاطمة سيدة نساء أهل الجنة » .

فتح الباري 131/7 وقد رواه موصولا في كتاب المناقب باب علامات النبوة من حديث عائشة رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أسر إلى فاطمة رضي الله عنها أنها أول أهل بيته لحاقا به وأنها سيدة نساء أهل الجنة حديث 3624 - فتح الباري 726/6 .

الأمّة] (1) .

وذلك أنها لما قربها الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إليه في مرض موته أُسِّرَ إليها بأنه سوف يلحق بالرفيق الأعلى ، فبكت حزنا على فراقه ، ثم أُسِّرَ إليها بأنها أول من تلحق به من أهل بيته وأنها سيّدة نساء المؤمنين ، أوسيدة نساء هذه الأمّة فضحكت فرحا بهذه البشارة الطيبة .

8 - وما رواه ابن عساكر في التاريخ عن ابن عباس عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال : « أربع نسوة سادت علمهن ، مريم بنت عمران ، وآسية بنت مزاحم ، وخديجة بنت خويلد وفاطمة بنت محمد وأفضلهن عالما فاطمة » (2) .

10 - وما رواه الحارث بن أسامة في مسنده بسند صحيح ولكنه مرسل (مريم خير نساء عالمها) (3) .

الراي الذي نختاره :

قبل أن نرجح في هذه المسألة لا بد أن نشير إلى أفضلية مريم وخديجة وفاطمة وآسية وعائشة رضي الله عنهن فمريم ذكر اسمها في القرآن صراحة ، وفي القرآن الكريم سورة كاملة تسمى سورة مريم ، وفي هذا تكريم لها وتشريف ، ولقد خاطبتها الملائكة شفاهة وفي هذا أيضا تكريم لها ، وخديجة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا لها فضلها ومكانتها فهي أول أمهات المؤمنين ، وأول من أسلم من النساء وهي التي ناصرته الرسول وآزرته بكل ما تملك ، حتى سُمِّيَ العام الذي ماتت فيه هي وأبو طالب عم الرسول الذي كان مناصرا للرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سُمِّيَ هذا العام عام الحزن ، وفاطمة بنت رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأما خديجة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا ، وزوجها علي بن أبي طالب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ولقد كان صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يحبها حبا شديدا ويحب عليا ويحب الحسن والحسين ، ولقد أُسِّرَ النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنها أول من سيلحق به بعد موته ففرحت بهذه

(1) رواه الإمام مسلم في صحيحه عن عائشة ك / فضائل الصحابة ، باب فضائل فاطمة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا - صحيح مسلم بشرح النووي 5/16 ، 6 .

(2) الحديث : رواه ابن عساكر في تاريخ دمشق 521/19 وفي المختصر 81/26 وأورده ابن كثير في البداية والنهاية 61/1 .

(3) الحديث : رواه الحارث بن أبي أسامة في مسنده عن هشام عن عروة عن أبيه قال : قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (مريم خير نساء عالمها ، وفاطمة خير نساء عالمها) بغية الباحث عن زوائد مسند الحارث للهيثمي حديث 990 - 909/2 ويراجع مختصر إتحاف السادة المهرة بزوائد المسانيد العشرة لأبي العباس شهاب الدين البوصيري ت 840 هـ مجلد / 5 حديث رقم / 7549 ط / دار الكتب العلمية بيروت .

البشارة ولها مناقب كثيرة ومآثر عظيمة لا يتسع المقام لذكرها .
 وآسية بنت مزاحم تلك المرأة المؤمنة الصالحة في بيت فرعون ، آمنت وثبتت على الحق ودعت المولى ﷺ أن ينجيها من فرعون وعمله ومن القوم الظالمين .
 ولكل واحدة منهن مزايا وخصائص والمزية لا تقتضي الأفضلية وقد يوجد في المفضول ما ليس في الفاضل .

والذي نختاره في هذه المسألة : أن مريم عَلَيْهَا السَّلَامُ خير نساء عالمها لأن كلمة العالمين قد تحمل على الإطلاق كما قال تعالى : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ . وقد تحمل على عالم زمان معين كما في قوله تعالى : ﴿ يَتَّبِعِي إِسْرَائِيلَ أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ (1) ولو حُمِلت كلمة العالمين على الإطلاق فإن الاصطفاء هنا قد يكون اصطفاء مخصوصا حيث اصطفاهما الله واختصها بالآية العجيبة والمعجزة الباهرة وهي حملها بعيسى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بدون أب ، قال تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً ﴾ (2)
 وأما حديث ابن عساكر الذي جاء مصرحا بترتيب الأفضلية فهذا الحديث سنده ضعيف ، لأن فيه عبد العزيز بن محمد الداراوردي قال عنه ابن سعد كان ثقة كثير الحديث ، يغلط ، وقال أبو زرعة : سيئ الحفظ (3) .

وهذا الحديث مع ضعف إسناده فهو مخالف للحديث الذي رواه النسائي والحاكم بسند صحيح وليس فيه الترتيب ، ومن هنا فإن هذا الحديث لا يحتاج به قال ابن حجر [وقد أورد ابن عبد البر من وجه آخر عن ابن عباس رفعه (سيدة نساء العالمين مريم ثم فاطمة ثم خديجة ثم آسية) قال وهذا حديث حسن يرفع الإشكال ... قلت الحديث الدال على الترتيب ليس بثابت وأصله عند أبي داود والحاكم بغير صيغة الترتيب] (4) .

قال الإمام الألويسي [... والذي أميل إليه أن فاطمة البتول أفضل النساء المتقدمات والمتأخرات من حيث إنها بضعة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بل ومن حيثيات أخرى أيضا ، ولا يعكر على ذلك الأخبار السابقة لجواز أن يراد بها أفضلية غيرها من بعض الجهات ، وبحيثية من الحيثيات - وهذا سائق على القول بنبوة مريم إذ بضعية من روح الوجود

(2) سورة المؤمنون : 50 .

(1) سورة البقرة : 47 .

(3) تذكرة الحفاظ للذهبي 269/1 وطبقات الحفاظ للسيوطي 115 .

(4) فتح الباري 168/7 .

وسيد كل موجود لا أراها تقابل بشيء ، وأين الثريا من يد المتناول ...] ⁽¹⁾ ويقصد الألووسي أنه على القول بنبوة مريم - وقد أثبتنا بطلانه - فإن فاطمة أفضل منها لأنها بنت الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وبضعة منه وهو روح الوجود وسيد كل موجود .

وحديث (فاطمة سيدة نساء أهل الجنة إلا ما كان من مريم بنت عمران) .
والذي رواه الإمام أحمد والحاكم والترمذي : يحتمل أفضلية مريم على فاطمة ، ويحتمل التسوية بينهما كما ذكر ابن كثير في قصص الأنبياء ، والأحاديث التي وردت على الإطلاق (فاطمة سيدة نساء أهل الجنة) تدل صراحة على فضلها على سائر النساء ومن هنا فإننا نرجح قول من قال بأن فاطمة خير النساء على الإطلاق تليها مريم ثم خديجة ثم عائشة ثم آسية بنت مزاحم رضي الله عنهن .
والله أعلم بالصواب .

متطلبات الاصطفاء

قال تعالى : ﴿ يَمْزِيئُ أَقْنِي لِرَبِّكَ وَأَسْجُدِي وَأَزْكِي مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴾ .
● المناسبة : بعد هذه المنزلة الرفيعة والمكانة العالية التي أكرم المولى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بها مريم : يأمرها سبحانه - عن طريق خطاب الملائكة الكرام لها - بأن تجتهد في العبادة شكرا لله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على هذه النعم والمواهب ؛ ومواصلة للسير في طريق الهدى والصلاح .
يقول الإمام الرازي : [.. لما بين تعالى أنها مخصوصة بمزيد المواهب والعطايا من الله تعالى ، أوجب عليها مزيدا من الطاعات شكرا لتلك النعم السنية] ⁽²⁾ .

ويقول الإمام الألووسي : [الظاهر أنه من مقول الملائكة أيضا وصَّوَّها بالمحافظة على الصلاة بعد أن أخبروها بعلو درجاتها وكمال قربها إلى الله تعالى لئلا تفترو ولا تغفل عن العبادة] ⁽³⁾ .

- وقوله تعالى : ﴿ يَمْزِيئُ أَقْنِي لِرَبِّكَ ﴾ .
القنوت إطالة القيام في الصلاة قاله مجاهد ، أو هو القيام في الصلاة قاله بعضهم ،

(2) مفاتيح الغيب للرازي 44/8 .

(1) روح المعاني للألووسي 155/3 .

(3) روح المعاني للألووسي 156/3 .

وقيل القنوت هو العبادة قاله قتادة والسدي وابن زيد وقيل الإخلاص قاله سعيد بن جبير وابن جريج والربيع بن أنس (1) .

وقال الإمام الراغب : [القنوت هو لزوم الطاعة مع الخضوع] (2) .

وعلى هذا : فمدار القنوت على الطاعة ولزومها والعبادة والاجتهاد فيها مع الإخلاص والخشوع والخضوع لله رب العالمين .

- وتكرير النداء ﴿ يَمْرِيءُ ﴾ للتنبيه ؛ والإشارة إلى أهمية ما يرد في ثناياه .

- وفي النداء هنا باسم مريم ومعناه العابدة ما يدل على التشريف والتكريم والمعنى يا من اسمها مريم - العابدة - عليك أن تجتهد في عبادة الله ﷻ .

- قال الإمام الألويسي : [والتعرض لعنوان الربوبية للإشعار بعلّة وجوب الامتثال لأوامره سبحانه] (3) .

- وقوله تعالى : ﴿ وَأَسْجُدِي وَأَزْكِي مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴾ .

إن حملنا القنوت على مطلق الطاعة والعبادة : فالسجود والركوع من ذكر الخاص بعد العام لمزيد العناية والاهتمام .

- وإن حملنا القنوت على القيام : فالركوع والسجود من تنمة الأركان ؛ لأن الصلاة قيام وقعود وركوع وسجود .

- وإن حملنا القنوت على الإخلاص وعلى الخشوع والخضوع : فالركوع والسجود من الأفعال الظاهرة ، والإخلاص والخشوع والخضوع من الأفعال الباطنة ، ولا تستقيم العبادة إلا بصحة الظاهر وصلاح الباطن .

وفي هذا توجيه لمريم ﷺ : أن تجمع بين أفعال القلوب وأفعال الجوارح ، حتى يستوي الظاهر بالباطن ، ويستقيم الاعتقاد مع القول والعمل .

قال صاحب روح البيان : [وتقديم السجود على الركوع : إما لكون الترتيب في

(1) يراجع في ذلك جامع البيان للطبري 404/6 تحقيق أحمد شاكر ، وزاد المسير لابن الجوزي 387/1 والنكت والعيون للماوردي 315/1 .

(2) المفردات للراغب ص 413 مادة ق ن ت . (3) روح المعاني للإمام الألويسي 156/3 ، 157 .

شريعتهم كذلك ، وإما لكون السجود أفضل أركان الصلاة وأقصى مراتب الخضوع ، ولا يقتضي ذلك كون الترتيب الخارجي كذلك ، بل اللائق به الترقى من الأدنى إلى الأعلى ، وإما ليقترن اركعي بالراكعين للإشعار بأن من لا ركوع في صلاتهم ليسوا مصلين] (1) .

وقوله تعالى : ﴿ وَأَرْكِعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴾ أي كوني في عدادهم وسيري في طريقهم ، فهو الطريق المستقيم وهو المنهج القويم .

وجاء التعبير بـ ﴿ وَأَرْكِعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴾ ولم يقل مع الراكعات [لأن هذا الجمع أعم ، إذ يشمل الرجال والنساء على سبيل التغليب ، ولمناسبة رؤوس الآي ؛ ولأن الاقتداء بالرجال أفضل] (2) وأغلب الاقتداء يكون بالرجال .

- والآية الكريمة أمر من المولى عليه السلام لمريم عليها السلام أن تجتهد في العبادة وأن تداوم على الطاعة ، وتكثر السجود وتركع مع الراكعين ؛ حتى تزداد قربا من رب العالمين .

فالصلاة صلة بين العبد وربّه ، وهداية ورحمة ، وشفاء وعصمة ، وفضل من الله ونعمة ، وقرب وحب ، ونور وشفاء لما في الصدور ، ومعراج إلى الله عليه السلام ، ترفع الدرجات وتحط الخطايا .

قال الإمام الغزالي في الإحياء : [والصلاة عماد الدين وعصام اليقين ورأس القربات وعزة الطاعات] (3) .

ولكل ركن من أركان الصلاة حكمه البالغة وأسراره الحكيمة ؛ فالصلاة خشوع وخضوع وقيام وعود وركوع وسجود ، وفي الحديث الشريف يقول رسول الله صلى الله عليه وآله : « أقرب ما يكون العبد لربه وهو ساجد فأكثروا الدعاء » (4) ، وصدق المولى عليه السلام إذ يقول ﴿ وَأَسْحُدْ وَأَقْرَبْ ﴾ (5) .

وروى الإمام مسلم عن ثوبان مولى رسول الله صلى الله عليه وآله قال : سألت رسول الله صلى الله عليه وآله عن أحب الأعمال إلى الله عليه السلام أو عن عمل أعمله يدخلني الجنة فقال صلى الله عليه وآله : « عليك بكثرة

(2) روح المعاني للألوسي 158/3 .

(1) روح البيان للبروسوي 33/2 .

(3) إحياء علوم الدين 145/1 .

(4) زواه الإمام مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه - كتاب الصلاة ، باب ما يقال في الركوع والسجود -

(5) سورة العلق : 19 .

صحيح مسلم بشرح النووي 200/4 .

السجود لله فإنك لا تسجد لله سجدة إلا رفعك الله بها درجة وحط عنك بها خطيئة» (1).

وروى البخاري في صحيحه عن عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ : « كان يقوم من الليل حتى تتفطر قدماه ، فقالت عائشة : لم تصنع هذا يا رسول الله ، وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ قال : أفلا أكون عبدا شكورا » (2).

(1) رواه الإمام مسلم في صحيحه كتاب الصلاة باب فضل السجود والحث عليه صحيح مسلم بشرح النووي، 4/205 .
 (2) رواه الإمام البخاري في صحيحه / كتاب التفسير باب (ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ويتم نعمته عليك ويهديك صراطا مستقيما) سورة الفتح : 2 فتح الباري 8/448 .
 ورواه بمعناه عن المغيرة بن شعبة كتاب التهجد باب قيام النبي ﷺ الليل فتح الباري 3/18 ، 19 .

المبحث الخامس

من أوجه إعجاز القرآن الكريم إخباره عن أحوال الأمم السابقة

قال تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُ
أَقْلَمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرِيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾ (1) .

ذلك : إشارة إلى ما سبق ذكره من أخبار عن اصطفاء الله للأنبياء وخبر امرأة عمران ،
وابنتها ، وخبر زكريا ويحيى عليهما السلام وغير ذلك من الأخبار التي جاءت بها السورة
الكريمة .

والأنباء : جمع نبأ وهو الخبر العظيم الشأن .

وإخبار القرآن الكريم عن هذه الأمور وجه من وجوه إعجازه فهو معجزة غيبية تدل على
صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم وثبوت رسالته ، معجزة تحدى الله بها الجن والإنس ، وعجز الجميع
عن الإتيان بمثله أو سورة منه أو آية واحدة ، قال تعالى : ﴿ قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ
عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَتْ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ (2) .

وقال تعالى : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ قُلْ فَاتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَلَعْتُمْ مِنْ دُونِ
اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (3) .

وقال تعالى : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ نَقَوْلَهُ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿۱﴾ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا
صَادِقِينَ ﴾ (4) .

ولقد عجز الجميع عن الإتيان بمثله أو بسورة منه أو بآية واحدة وما زال التحدي
والإعجاز قائما إلى قيام الساعة .

وفي الحديث الشريف يقول صلى الله عليه وسلم : « ما من الأنبياء نبي إلا أعطي من المعجزات ما مثله
آمن عليه البشر ، وإنما الذي أوتيته : وحي أوحاه الله إلي فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا » (5) .

(1) سورة آل عمران : 44 .

(2) سورة الإسراء : 88 .

(3) سورة يونس : 38 .

(4) سورة الطور : 33 ، 34 .

(5) رواه الإمام البخاري في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه كتاب فضائل القرآن باب - كيف نزل الوحي فتح
الباري 618/8 ورواه الإمام أحمد في مسنده كتاب فضائل القرآن وتفسيره ، باب أعظم معجزات النبي صلى الله عليه وسلم
الفتح الرباني 70/18 .

● ومن ضمن وجوه إعجاز القرآن إخباره عن أحوال الأم السابقة ، وفي قصة مريم وزكريا ويحيى عليهم السلام ما يدل على ذلك .

إن كثيرا من الأحداث الهامة في حياة مريم عليها السلام لم نعرفها إلا عن طريق القرآن الكريم من ذلك حديث القرآن عن حمل أمها بها ونذرها للعبادة و تنافس الأبحار على كفالتها وكفالة زكريا لها واصطفاء الله تعالى لها وغير ذلك من مآثرها التي لم نعرفها إلا عن طريق القرآن الكريم ، فهذه الأحداث لم يرد لها ذكر في العهد الجديد .

- ولم يرد في العهد الجديد أيضا كلام عيسى عليه السلام وهو في المهدي ، مع كونه آية عظيمة وحجة ساطعة على براءة مريم عليها السلام مما ادعاه اليهود .

والأنجيل التي يؤمن بها النصارى متعارضة ومتناقضة ، وفي بعضها ما يؤكد افتراءات اليهود على السيدة مريم ، ففي إنجيل لوقا ومتى حديث عن نسب عيسى عليه السلام وأنه عيسى ابن يوسف النجار وإن ورد الاختلاف في أسماء وأعداد أجداده إلا أن الأنجيل متفقة على أن عيسى ابن يوسف النجار ، وأن يوسف النجار كان خطيبا لمريم قبل ميلاد المسيح وأنه تزوجها وأنجب منها أولادا آخرين كانوا بمثابة الإخوة لعيسى ، وقصة يوسف النجار في الأنجيل متضاربة ومختلفة ، وفي حين أثنى القرآن على مريم ووفائها حقها ؛ فإن الأنجيل لم توضح مكانتها عند الله ، في حين يبين القرآن الكريم طهارتها وشرف أصلها واصطفاءها .

وفي إنجيل مرقس إصحاح 3 : 31 - 35 ما يفيد تجاهل المسيح لمريم وإخوته وفيه :

[وجاء حينئذ إخوته وأمه ووقفوا خارجا ، وأرسلوا إليه يدعونه ، وكان الجميع جالسا حوله ، فقالوا له هوذا أمك وإخوتك خارجا يطلبونك ؟ فأجابهم قائلا من أمي وإخوتي ؟ ثم نظر حوله إلى الجالسين وقال : ها أمي وإخوتي لأن من يصنع مشيئة الله هو أخي وأختي وأمي] .

وورد في إنجيل لوقا إصحاح 8 : 19 ، 20 نفس الموقف ويلاحظ من كلمة : من أمي وإخوتي ؟ مدى تجاهله لأمه وإخوته وضيقة بهم .

وفي إنجيل مرقس إصحاح 6 : 2 - 5 [ولما كان السبت ابتداء يعلم في الجمع ، وكثيرون إذ سمعوا بهتوا قائلين من أين لهذا هذه ؟ وما هذه الحكمة التي أعطيت له ؟ ... أليس هذا هو النجار ابن مريم وأخو يعقوب ويهوذا وسمعان ؟ فكانوا يعثرون به ، فقال

لهم يسوع : ليس نبي بلا كرامة إلا في وطنه وبين أقربائه وفي بيته ، ولم يقدر أن يصنع هناك ولا قوة واحدة .

وقد ورد هذا الخبر في إنجيل متى - إصحاح 13 : 54 - 58 .

● ويلاحظ الاستخفاف بالمسيح وتعميره بأمه ، وشعور المسيح بالإهانة والسخرية ولذلك نطق بتلك العبارة ، وفي هذا النص ما يدل على معاناة يسوع بسبب أمه ، وشعوره باتهام اليهود لها وضيقة من ذلك !! .

● وفي عرس قانا الجليل كما ورد في إنجيل يوحنا ما يدل على انفعال المسيح على أمه وفيه [وفي اليوم الثالث كان عرس في قانا الجليل وكانت أم يسوع هناك ودعي أيضا يسوع وتلاميذه إلى العرس ، ولمافرغت الخمر قالت أم يسوع له : ليس لهم خمر؟ فقال لها ما لي ولك يا امرأة؟ لم تأت ساعتى بعد] يوحنا 2 : 1 - 5 .

فهل يتفق هذا مع أخلاق النبوة؟ إن كل هذه الأخبار كاذبة خاطئة ، والمسيح ﷺ كان باراً بأمه رفيقاً بها محسناً إليها ، قال تعالى مبيناً ما قاله عيسى ﷺ عن نفسه وهو في المهدي .

﴿ وَبِرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴾ (1) .

إن ما ورد في الأناجيل في شأن عيسى ﷺ وفي شأن مريم متضارب متناقض بعيد عن الحقيقة منحرف عن الصواب ، حتى شراح الأناجيل قد أصابتهم الحيرة ووقعوا في أخطاء وتناقضات وهم يشرحون الأناجيل ، وقصة يوسف النجار قصة متضاربة متناقضة مدسوسة ومكذوبة وليس له أي صلة بمريم ﷺ .

● وهذا التباين بين ما ورد في الأناجيل وبين ما ذكره القرآن الكريم عن مريم ونشأتها وطهرها وعفتها وحملها بالمسيح ﷺ من غير أب ، بقدرة الله ﷻ وحكمته يرد على مزاعم كثير من المستشرقين بأن قسماً كبيراً من أخبار القرآن الكريم مقتبس من كتب اليهود والنصارى ، فالقرآن كتاب الله تعالى الذي نزل بالحق على رسول الله ﷺ الذي جاء بالحق والذي لا ينطق إلا بالحق ، والقرآن مهيمن على الكتب السابقة ، وهو محفوظ من التحريف والتبديل قال تعالى : ﴿ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا

اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١﴾ .

وقال سبحانه : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ (2) .

وقال ﷻ : ﴿ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْفُرْقَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾ (3) .

● واليهود والنصارى حَرَفُوا وَبَدَّلُوا وَكْتَمُوا كثيرا من الحقائق ، ولقد جاء القرآن الكريم بالقول الفصل في أمور كثيرة ، جاء ليكشف تلك الجرائم التي وقع فيها اليهود والنصارى حينما حرفوا التوراة والإنجيل ، جاء ليكشف ذلك بالأدلة القاطعة والبراهين الساطعة ، قال تعالى : ﴿ يَتَأْهَلِ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ ﴾ (4) .

وقال تعالى : ﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَفُصُّ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ (5) وَإِنَّهُ هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٦﴾ .

(2) سورة الحجر : 9 .

(4) سورة المائدة : 15 .

(1) سورة آل عمران : 62 .

(3) سورة النساء : 82 .

(5) سورة النمل : 76 ، 77 .

المبحث السادس

بشارة الملائكة لمريم عليها السلام بعيسى عليه السلام وجملة من أوصافه

قال تعالى : ﴿ إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿١٦﴾ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٧﴾ ﴾ (1) .

● المناسبة : بعد أن اصطفى الله عليه السلام مريم عليها السلام وطهرها وأمرها بالاجتهاد في العبادة والمداومة على الطاعة ، وأوصاها بالإخلاص والخشوع والخضوع له سبحانه ، تهيأت بذلك مريم عليها السلام للمعجزة الكبرى والآية العجاب وهي حملها بعيسى عليه السلام على خلاف العادة بدون أب .

وكما بشرتها الملائكة بأنها المصطفاة الطاهرة جاءت بها بشارة أخرى وهي أن المولى عليه السلام اصطفاه لتلك المهمة العظيمة الشأن .

﴿ إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ ﴾ .

وهل المبشر هنا هو جمع من الملائكة أم جبريل عليه السلام أم جمع من الملائكة .

الظاهر في هذا الموضوع أن البشارة جاءت عن طريق جمع من الملائكة الكرام ، وفي سورة مريم أتاهم جبريل عليه السلام ﴿ قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا ﴾ (2) .

وفي هذا ما يدل على أن جبريل قد جاءها وبشرها بعيسى عليه السلام وكثير من المفسرين ذهبوا إلى أن الذي بشرها هو جبريل عليه السلام (3) .

قال أبو السعود في تفسيره : [والجمع كما في قولهم فلان يركب الخيل ويلبس الثياب وما له غير فرس وثوب ، قال الزجاج أي أتاه النداء من هذا الجنس الذين هم الملائكة وقيل لما كان جبريل عليه السلام رئيسهم عبر عنه باسم الجماعة تعظيماً له ، وقيل الرئيس لا بد له من أتباع ، فأسند النداء إلى الكل مع كونه صادراً عنه خاصة] (4) .

(1) سورة آل عمران : 45 ، 46 .

(2) سورة مريم : 19 .

(3) يراجع الكشف للزمخشري 305/1 ، ومعالم التنزيل للبغوي 300/1 والمحرر الوجيز لابن عطية 96/3 ، 118

وزاد المسير لابن الجوزي 387/1 وتفسير أبي السعود 355/1 ، 356 ومفاتيح الغيب للرازي 42/8 ، 46 .

(4) تفسير أبي السعود 355/1 ، 356 ويراجع إعراب القرآن ومعانيه للزجاج 404/1 .

وقال الإمام الرازي قوله ﴿ إِذْ قَالَتِ الْمَلَأِكَةُ يَمْرِمِ إِنَّ اللَّهَ يَبْشُرُكَ ﴾ [ظاهر قوله تعالى ﴿ إِذْ قَالَتِ الْمَلَأِكَةُ ﴾ يفيد الجمع إلا أن المشهور أن ذلك المنادي كان جبريل عليه السلام وقد قررناه فيما تقدم] (1) حيث قال في موضع ﴿ وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَأِكَةُ يَمْرِمِ إِنَّ اللَّهَ أَصْطَفَاكَ ﴾ [قالوا المراد بالملائكة ههنا جبريل وحده ، وهذا كقوله تعالى : ﴿ يُزَلُّ الْمَلَأِكَةُ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ ﴾ (2) يعني جبريل ، وهذا وإن كان عدولا عن الظاهر إلا أنه يجب المصير إليه لأن سورة مريم دلت على أن المتكلم هو جبريل وحده قال تعالى ﴿ فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴾ (3) [(4) .

وقال صاحب روح البيان : [والمراد بالملائكة هنا جبريل ، والجمع لما ذكرنا قبل من التعظيم] (5) .

● أقول ولا مانع من تكرار البشارة ، بشرتها الملائكة أولا وعلى رأسهم جبريل ثم تمثل جبريل عليه السلام في صورة بشرية فأعاد بشارتها فأعادت تعجبها ؛ زيادة في الاطمئنان واليقين واستفسارا عن كيفية تحقق هذه البشارة العجيبة .

﴿ إِنَّ اللَّهَ يُبْشِرُكَ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ﴾ (6) .

سمي المسيح كلمة الله لأنه موجود بكلمة « كن » كما قال ﷺ لما سألت مريم عليها السلام ﴿ قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ (7) .

قال صاحب روح البيان [وأطلق على عيسى لفظ الكلمة بطريقة إطلاق السبب على المسبب لأن سبب ظهوره وحدوثه هو الكلمة الصادرة منه تعالى ، وهي كن وحدوث كل مخلوق وإن كان بسبب هذه الكلمة لكن السبب المتعارف للحدوث لما كان مفقودا في حق عيسى عليه السلام كان إسناد حدوثه إلى الكلمة أمم وأكمل فجعل ﷺ بهذا الاعتبار كأنه نفس الكلمة] (8) .

● وقيل الكلمة هي البشارة لأن الملائكة بشرت مريم عليها السلام بعيسى ولأن الله

(2) سورة النحل : 2 .

(4) المرجع السابق 42/8 ، 43 .

(6) سورة آل عمران : 45 .

(8) روح البيان للبروسوي 34/2 .

(1) مفاتيح الغيب للرازي 47/8 .

(3) سورة مريم : 17 .

(5) روح البيان للبروسوي 34/2 .

(7) سورة آل عمران : 47 .

بشر به كما ورد في التوراة في الإصحاح العشرين من السفر الخامس (أقبل الرب من سيناء وتجلى من ساعير وظهر من جبال فاران) وسيناء حيث كانت مبدأ رسالة موسى وساعير جبال بيت المقدس وكان عيسى يتعبد فيها ، وفاران جبال مكة حيث كان بداية مهبط الروح الأمين على قلب خاتم المرسلين وإمام النبيين وسيد الأولين والآخرين عَلَيْهِمُ السَّلَام .

ذكر ذلك الإمام الألوسي ورجح أن المسيح سمي بكلمة الله لأنه وجد من غير أب بكلمة « كن » على خلاف أفراد بني آدم فكان تأثير الكلمة في حقه أظهر وأكمل (1) .
وقريب من ذلك ما ذكره المراغي في تفسيره (2) .

﴿ اَسْمُهُ الْمَسِيحُ عَيْسَى ابْنُ مَرْيَمَ ﴾ .

بشرها المولى عَلَيْهِ السَّلَام بالاسم كما بشرها بالسمى ، ومعنى المسيح : المبارك (3) وقيل سمي المسيح لأنه كان يمسح على عين الأعمى فيرتد بصيرا بإذن الله ويبرئ الأكمه والأبرص بإذن الله . وقيل المسيح : يعني الصديق وقيل سمي بذلك لأنه ممسوح بالزيت المبارك الذي كانت الأنبياء من قبله تمسح به ، وهو زيت طيب الرائحة ، وقيل المسيح يعني من مسحه الله أي خلقه خلقا حسنا مباركا ، كما يقولون به مسحة جمال ، والمسيخ من مسخه الله أي خلقه في صورة قبيحة وجعله ملعونا (4) .

وقيل لأن جبريل مسحه بجناحه وقت الولادة ليكون معاذا من الشيطان الرجيم (5) .
وقيل لكثرة سياحته ، أي سيره في الأرض ، وقيل لأنه كان مسيح القدمين لا أخصص لهما (6) .

وقيل لأنه يمسح رأس اليتامى ابتغاء مرضات الله (7) .

والراجع من هذه الأقوال : أنه سمي بالمسيح : يعني المبارك أو لأنه كان يمسح بيده المباركة على المريض فيشفى بإذن الله تعالى .

(1) روح المعاني للألوسي 160/3 بتصرف .

(2) يراجع تفسير المراغي 154/1 كما يراجع مفاتيح الغيب للرازي 47/8 ، 48 .

(3) الكشاف للزمخشري 363/1 .

(4) الجامع لأحكام القرآن للإمام القرطبي 88/4 ، 89 بتصرف .

(5) روح المعاني للألوسي 161/3 . (6) تفسير القرآن العظيم لابن كثير 363/1 ، 364 .

(7) مجمع البيان للطبرسي 749/1 .

وعيسى بدل من المسيح ومعناه السيد وقيل مشتق من العيس ، وسمي به لأن لونه
البيضا كان أيضا مشربا بالحمرة ، وقيل عيسى معرب يسوع وهي كلمة عبرية ،
والصحيح أن هذا علم من الأعلام لا اشتقاق له .

وفي قوله تعالى : ﴿ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ﴾ إشارة إلى أن عيسى عليه السلام سيولد من غير أب ،
لأنه لو ولد من أب لصرح باسمه بدلا من التصريح باسم أمه وفي هذا رد على ضلال
النصارى في المسيح حيث زعموا أنه ابن الله وأنه إله ، تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا .

﴿ وَجِئَهَا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ﴾ .

أي حالة كونه وجيها فيهما .

قال الإمام الألوسي : [الوجيه ذو الجاه والشرف والقدر ، وقيل الكريم على من يسأله
فلا يُردّ لكرم وجهه عنده ، خلاف من يبذل وجهه للمسألة فيرد ، ووجاهته في الدنيا
بالنبوة والتقدم على الناس وفي الآخرة بقبول شفاعته وعلو درجته ، وقيل وجاهته في
الدنيا بقبول دعائه بإحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص ، وقيل بسبب أنه كان مبرعا من
العيوب التي افتراها اليهود عليه ، وفي الآخرة ما تقدم] (1) .

أقول : وهنا يتبادر لنا سؤال : وهو إذا كان المسيح بهذه المكانة من الوجاهة فيكيف
تعرض له اليهود بالأذى والاضطهاد ؟ .

نقول إن تعرض اليهود له بالأذى والاضطهاد لم ينقص من قدره ولم يقدر في
وجاهته ومنزله ، فالأنبياء هم أشرف خلق الله ، وأكرمهم وأعزهم ، وقد تعرضوا للأذى
والاضطهاد ، فلم يزدهم ذلك إلا عزة ورفعة ، وكرامة وإباء ، وعزيمة ومضاء ، وإيمانا
وتسليما ويقينا وتثبيتا .

﴿ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴾ .

أي عند الله تعالى : قال الإمام الألوسي [وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴾ أي عند الله يوم القيامة ،
قاله قتادة وقيل هو إشارة إلى رفعه إلى السماء ، وصحبته الملائكة ، وقيل من المقربين من
الناس بالقبول والإجابة] (2) .

(1) روح المعاني للألوسي 162/3 ويراجع الرازي 50/8 .

(2) روح المعاني للألوسي 162/3 .

وقال الطبرسي في مجمع البيان : [﴿ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴾ إلى ثواب الله وكرامته] (1) .
 كما قال تعالى : ﴿ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ﴿١١﴾ أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ﴿١٢﴾ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴾ (2) .
 ﴿ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ .

كلامه في المهد حين أنطقه الله تعالى ببراءة أمه من اتهام اليهود عليهم لعنة الله .

قال عليه السلام : ﴿ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ﴾ (3) قَالَ إِنْ بَدَأَ اللَّهُ عَاتِلَنِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿١١﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَنِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿١٢﴾ وَبِرًّا بَوَالِدِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿١٣﴾ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿١٤﴾ (3) .

والكهولة في الأربعين وقيل ثلاث وثلاثين ، والكهل ما اجتمعت قوته وكمل شبابه واكتهل النبات إذا قوي (4) .

أما عن كلامه في الكهولة : فقيل ذكر هنا لتبشير أمه بأنه سيبلغ مبلغ الرجال ، وقيل لبيان فصاحة كلامه وبلاغته في المهد وفي الكهولة على السواء ، وقيل إشارة إلى أنه سيرفع إلى السماء ثم ينزل إلى الأرض في آخر الزمان فيكلم الناس ، وقد بلغ سن الكهولة وقيل رد على النصاري الذين زعموا أنه إله ، والإله لا يمر بهذه التقلبات ، ولا ينتقل من حال إلى حال ، والمسيح سينتقل من حال الطفولة إلى حال الكهولة (5) ،

(1) مجمع البيان للطبرسي 749/1 . (2) سورة الواقعة : 10 - 12 . (3) مريم : 29 - 33 .

(4) مفاتيح الغيب للرازي 51/8 وراجع مجمع البيان للطبرسي 748/2 .

(5) راجع روح المعاني للإمام الألويسي 163/3 ، 164 .

ينزل المسيح عليه السلام قبل قيام الساعة كما ورد في الأحاديث الصحيحة التي صرحت بذلك منها :

* ما رواه الشيخان في صحيحيهما والترمذي في السنن عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «الذي نفسي بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكما مقسطا فيكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية ويفيض المال حتى لا يقبله أحد» .

رواه الإمام البخاري في صحيحه عن أبي هريرة ك البيوع باب قتل الخنزير حديث 2222 - فتح الباري 483/4 ورواه الإمام مسلم في صحيحه بلفظه عنه / ك الإيمان باب بيان نزول عيسى ابن مريم عليه السلام حاكما . صحيح مسلم بشرح النووي 191/2 ورواه الإمام الترمذي في السنن بنفس اللفظ عن أبي هريرة ك الفتن باب ما جاء في نزول عيسى ابن مريم عليه السلام حديث 2233 - سنن الترمذي 439/4 .

هذا وفي السنة أحاديث أخرى صحيحة صريحة كثيرة . راجع في هذا المقام : التصريح بما تواتر في نزول المسيح لمحمد أنور الكشميري ط دار الكتب العلمية بيروت سنة 1410 هـ .

والمنتقل من حال إلى حال حادث ومتغير ، والحادث والتغير يتنافى مع صفة الألوهية .
ومن فوائد كلامه في المهد : إثبات براءة أمه ، وبيان عبوديته لله ونبوته وبركته وبره
بأمه ، ونفي كونه جبارا شقيا ، فهو بر رحيم رفيق حلیم .
ومن فوائد كلامه في الكهولة أيضا : هداية الناس إلى ما فيه صلاح دينهم ودنياهم .
ولقد أنكر النصارى كلام المسيح في المهد لأنهم لو اعترفوا به للزمهم الاعتراف
بعبوديته لله ﷻ التي تكلم بها ﴿ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَنِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ... ﴾ .

موقف مريم ﷺ من هذه البشارة

قال تعالى : ﴿ قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ
مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ (1) .

قالت مريم ﷺ متعجبة من هذه البشارة العجيبة ، ومتسائلة عن كيفية وقوعها ﴿ رَبِّ
أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ ﴾ وجاءها الجواب من قبل العزيز الوهاب القادر على كل
شيء ﴿ كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ .

يقول صاحب الظلال : [وجاءها الجواب ، يردها إلى الحقيقة البسيطة التي يغفل
عنها البشر لطول ألفتهم للأسباب والمسببات الظاهرة ، لعلمهم القليل ، ومألوفهم
المحدود ﴾ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿ وحين
يرد الأمر إلى هذه الحقيقة الأولية يذهب العجب ، وتزول الحيرة ، ويطمئن القلب ،
 ويعود الإنسان إلى نفسه يسألها في عجب : كيف عجبت من هذا الأمر الفطري !!
وهكذا القرآن الكريم ينشئ التصور الإسلامي لهذه الحقائق الكبيرة بمثل هذا اليسر
الفطري القريب . وهكذا كان يجلو الشبهات التي تعقدها الفلسفات المعقدة ويقر الأمر
في القلوب وفي العقول على السواء] (2) .

(2) في ظلال القرآن 398/1 .

(1) سورة آل عمران : 47 .

تتمة في سياق الآيات

تمضي الآيات بعد ذلك في سورة آل عمران لتواصل الحديث عن صفات المسيح عليه السلام ونعم الله عليه وتأييده له بالمعجزات التي تدل على نبوته ، كما تدل على بشريته ، وعن حقيقة رسالته التي جاء بها .

- ويطوي السياق الحديث عن مريم عليها السلام وينتقل للحديث عن المسيح ابن مريم وعن موقف الناس من دعوته . وقد ورد الحديث عن مريم في سور أخرى في مقدمتها سورة مريم التي واصلت الحديث عنها بمزيد من التفصيل وسميت بذلك الاسم تشريفا وتكريما لمريم عليها السلام . وفيما يلي ننتقل لقصة مريم من خلال سورة مريم .

المبحث السابع

مجيء جبريل عليه السلام وظهوره لمريم في صورة بشرية

قال تعالى في سورة مريم : ﴿ وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَدَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ۖ فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ۗ ﴾ (1) .

المناسبة :

بعد أن تحدث المولى ﷺ عن زكريا عليه السلام ، وكيف رزقه الله ﷻ ، بولد مع كبر سنه وعقم زوجته ، يتحدث المولى ﷺ عن خلقه عيسى بدون أب ، فالقصة الأولى بمثابة التمهيد للقصة الثانية .

يقول الإمام النيسابوري : [هذا شروع في ابتداء خلق عيسى ، ولا ريب أن خلق الولد بين شيخين كبيرين فانيين أقرب إلى مناهج العادات من تخليق الولد من غير أب ، فلهذا أخرجت قصة عيسى عن قصة يحيى ترقيا من الأدنى إلى الأعلى] (2) .

أين كانت مريم عليها السلام حين جاءها جبريل بصورة بشرية

قال تعالى : ﴿ وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ ۗ ﴾ .

أي في القرآن الكريم لأن القصص القرآني بمثابة الزاد الذي يتزود به المؤمن في حياته وبمثابة النور الذي يضيء لنا الطريق إلى الله . ولا غنى للمؤمن عن ذلك الزاد وهذا النور فهو دائما في حاجة إليه ، لذلك فلا بد من دوام التأمل والتدبير في القصص القرآني والاعتبار به قال تعالى : ﴿ وَكَلَّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ۗ ﴾ (3) .

قال القرطبي : [﴿ وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ ۗ ﴾ والخطاب لمحمد ﷺ ، أي عرفهم قصتها ليعرفوا كمال قدرتنا] (4) .

وقوله تعالى : ﴿ إِذِ انْتَبَدَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ۗ ﴾ ﴿ انْتَبَدَتْ ﴾ من النبذ ، وهو

(1) سورة مريم : 16 ، 17 .

(2) غرائب القرآن ورغائب الفرقان للنيسابوري 45/16 بتصرف .

(4) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي 90/11 .

(3) سورة هود : 120 .

إلقاء الشيء وطرحه لقلّة الاعتداد به .

قال الزمخشري : والانتباز : الاعتزال والانفراد (1) .

وفي لسان العرب وانتبذ فلان أي ذهب في ناحية وانتبذ عن قومه تنحى عنهم (2) .

ولقد اختلف العلماء في ذلك المكان الذي انتبذت إليه كما اختلفوا في سبب انتبازها وفي ذلك الحجاب الذي اتخذته :

قال ابن كثير : [اعتزلتهم وتنحت عنهم وذهبت إلى شرقي المسجد الأقصى ، قال السدي لحيض أصابها وقيل لغير ذلك ... وقال قتادة ﴿ مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴾ شاسعا متنحيا وقال محمد بن إسحاق ذهبت بقلتها لتسقي الماء وقيل إنها اتخذت لها منزلا تتعبد فيه فالله أعلم] (3) .

وفي قصص الأنبياء يقول ابن كثير : [... وكانت إنما تخرج من المسجد في زمن حيضها أو لحاجة ضرورية لا بد منها ، فبينما هي يوما قد خرجت لبعض شئونها و﴿ أَنْتَبَذَتْ ﴾ أي انفردت وحدها شرقي المسجد الأقصى إذ بعث الله إليها الروح الأمين جبريل عليه السلام ﴿ فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴾] (4) .

● وقال الإمام الخازن [قيل جلست إلى مكان في الدار مما يلي المشرق وكان ذلك اليوم شاتيا شديد البرد فجلست في مشرفة (5) تفلي رأسها ، وقيل إن مريم كانت قد طهرت من الحيض فذهبت تغتسل ، وقيل إن مريم كانت في المسجد فإذا حاضت تحولت إلى بيت خالتها حتى إذا طهرت عادت إلى المسجد] (6) .

● وقال الزمخشري : [خلعت للعبادة في مكان مما يلي شرقي بيت المقدس ، أو من دارها معتزلة عن الناس ، وقيل قعدت في مشرفة للاغتسال من الحيض محتجبة بحائط أو بشيء يسترها : وكان موضعها المسجد فإذا حاضت تحولت إلى بيت خالتها فإذا

(1) الكشاف للزمخشري 9/3 .

(2) لسان العرب 4322/6 مادة ن ب ذ .

(3) تفسير القرآن العظيم لابن كثير 114/3 .

(4) قصص الأنبياء لابن كثير 562 .

(5) المشرفة - بالفاء - المكان المرتفع الذي يشرف الإنسان عليه ويعلوه وأرى أن هذا المعنى غير مراد هنا والصواب المشرفة وهو موضع القعود للشمس ، وتشرفت : أي جلست في الموضع الذي تشرق فيه الشمس

يراجع لسان العرب مادة ش ر ف 2242/4 ومادة ش ر ق 2245/4 .

(6) لباب التأويل للخازن 241/4 .

طهرت عادت إلى المسجد فينما هي في مغتسلها أتاها الملك في صورة آدمي ... [(1)] .

● **وقال القرطبي** [واختلف الناس لم انتبذت ؟ فقال السدي : انتبذت لتطهر من حيض أو نفاس ، وقال غيره لتعبد الله ، وهذا حسن ، وذلك أن مريم عليها السلام كانت وقفا على سداثة المعبد وخدمته والعبادة فيه ، فتنحت من الناس لذلك ، ودخلت في المسجد إلى جانب المحراب في شقيه لتخلو للعبادة فدخل عليها جبريل عليه السلام [(2)] .

● **وقال الألوسي** [اعتزلت وانفردت من أهلها وأتت مكانا شرقيا من بيت المقدس أو من دارها لتختلي هناك للعبادة ، وقيل قعدت في مشرفة لتغتسل من الحيض محتجة بحائط أو بجبل أو بثوب] (3) .

وذكر الرازي في هذه المسألة خمسة وجوه : هي أنها لما رأت الحيض خرجت بعيدا عن المسجد حتى تطهر وتغتسل ثم تعود إلى مكان عبادتها فلما طهرت جاءها جبريل عليه السلام وقيل طلبت الخلوة للعبادة ، وقيل للاغتسال من الحيض في مشرفة محتجة بشيء يسترها ، وقيل كانت في بيت زكريا عليه السلام في محراب فيه وكان زكريا إذا خرج أغلق عليها فأرادت أن تخرج ودعت الله فانفرج لها السقف وخرجت إلى المفازة فجلست في المشرفة وراء الجبل فأتاها الملك ، وقيل عطشت فخرجت إلى المفازة لتستقي ، وعلق الرازي على هذه الوجوه بقوله واعلم أن كل هذه الوجوه محتمل وليس في اللفظ ما يدل على ترجيح واحد منها .

● **وقال القاسمي** : [اعتزلت وانفردت شرقي بيت المقدس لثلا يشغلها أهلها عن العبادة] (4) .

● **وقال عبد الكريم الخطيب** : [انتبذت أي انتحت ناحية وأخذت مكانا خاصا وفي التعبير عن هذا بالانتبذ ما يشير إلى أنها كانت في حال خاصة تكره فيها أن تختلط بالناس] (5) .

● **والذي أرجحه في هذا الموضوع** : أن المكان الشرقي هو شرقي بيت المقدس ، وأنها اتجهت إليه لتعتكف وتختلي للعبادة ففي الخلوة رياضة للنفس وسمو بالروح وشحن

(1) الكشف للزمخشري 9/3 .

(2) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي 90/11 .

(3) روح المعاني للألوسي 74/16 بتصرف .

(4) محاسن التأويل للقاسمي 115/11 بتصرف .

(5) التفسير القرآني للقرآن عبد الكريم الخطيب 729/16 .

للهمة وصفاء للقلب وزيادة قرب من المولى ﷺ .

ويحضرني في هذا المقام قول الشاعر :

لست أخلو لغفلة وسكون وفرار من الورى وارتياح
إنما خلوتني لفكرٍ وذكرٍ هي زادي وُعُدَّتِي لكفاحي

وإنما جاءها الملك في هذا المكان الطاهر المبارك كما جاء لذكريا ﷺ وهو قائم يصلي في المحراب حيث البركات والرحمات والنفحات . أما من زعم أن الملك جاءها وهي تغتسل من حيضها أو تملأ قلتها بالماء ، أو انفرج لها السقف فخرجت إلى الجبل لتفلي رأسها فكلها أقوال ضعيفة متهافنة ، لا أساس لها من الصحة .

إذ كيف يأتيها الملك بهذه البشارة العظيمة وهي في هذه الأحوال ؟ ! .

﴿ فَأَتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا ﴾ (1) .

أي جعلت بينها وبينهم سترا حتى لا يشغلها شيء عن العبادة .

قال القاسمي : [لئلا تحجبها رؤية الخلق عن أنوار الحق] (2) .

﴿ فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا ﴾ (3) .

هو جبريل ﷺ أرسله المولى ﷺ ليبشرها بعيسى ﷺ .

وسمي جبريل ﷺ روحا [لأن الدين يحيا به وبوحيه] (4) كما يحيى الجسد

بالروح وكما تحيا الأرض بالماء .

والإضافة في ﴿ رُوحَنَا ﴾ للتشريف والتعظيم وبيان أن جبريل ﷺ رسول رب العالمين .

﴿ فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴾ (5) .

والملك يتشكل بالأشكال الحسنة ، ولقد جاء جبريل ﷺ إلى رسول الله ﷺ في صورة حسنة وهيئة جميلة فسأله عن الإسلام والإيمان والإحسان وعن علامات الساعة فأجابته الرسول ﷺ فلما انصرف جبريل قال الرسول ﷺ للصحابة الكرام الذين شهدوا

(2) محاسن التأويل للقاسمي 115/11 .

(4) روح المعاني للألوسي 75/16 .

(1) سورة مريم : 17 .

(3) سورة مريم : 17 .

(5) سورة مريم : 17 .

هذا الحدث الجليل : أتعرفون من هذا قالوا الله ورسوله أعلم فقال هذا جبريل أتاكم ليعلمكم أمور دينكم (1) .

فالملائكة أجسام نورانية تتشكل بالأشكال الحسنة (2) .

ولقد تمثل جبريل عليه السلام لمريم وهو على صورة شاب سوى الحلقة ، ولا ينبغي لنا أن نبحث عن كيفية تمثله فهذا أمر لا يعلمه إلا الله ، وكل محاولة للبحث عن كيفية تمثله إنما هي رجم بالغيب .

وإنما تمثل لها عليه السلام بهذه الصورة لتستأنس به ولا تنفر منه ولتفهم كلامه ، ولأنها لا تطبق رؤيته عليه السلام بصورته الأصلية .

ولقد أغرب بعض المفسرين في تفسير هذه الآية وذكروا أقوالا ضعيفة لا يعتد بها . من ذلك ما ذكره البعض : أن جبريل تمثل لها بصورة يوسف النجار حتى تستأنس به ، (3) وهذا قول ضعيف إذ يلزم من صحته التباس الأمر عليها هل هو ملك رسول أم أنه يوسف النجار ؟ . وقيل : تمثل لها بشرا سويا ليهيئ شهوتها فتتحدر البويضة إلى رحمها .

وهذا رأي ضعيف سخيف ومريم عليها السلام أشرف وأطهر وأنزله من أن تنظر إلى أحد بشهوة فهي الطاهرة العفيفة الشريفة الحية النقية .

● قال الإمام الألوسي : [... وما قيل من أن ذلك لتتهيج شهوتها فتتحدر نطفتها إلى رحمها فمع ما فيه من الهجنة التي ينبغي أن تنزه مريم عنها : يكذبه قوله تعالى : ﴿ قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا ﴾ فإنه شاهد عدل بأنه لم يخطر ببالها شائبة ميل إليه فضلا عن الحالة المترتبة على أقصى مراتب الشهوة والميل ، نعم كان تمثله على ذلك الحسن الفائق والجمال الرائق لأن عادة الملك إذا تمثل أن يتمثل بصورة بشر جميل كما كان يأتي النبي صلى الله عليه وسلم في صورة دحية الكلبي رضي الله عنه أو لابتلائها وسير (4)

(1) سبق تخريج حديث جبريل عليه السلام .

(2) يراجع عقيدة المؤمن لأبي بكر الجزائري ص 160 .

(3) أشار الإمام الألوسي إلى هذا الرأي ، روح المعاني 75/16 .

(4) سير عفتها : امتحانها في عفتها حتى تكشف عنها واضحة جلية - ورد في اللسان : السير التجربة ، وسير

الشيء سيرا : خيره ، وأسبر لي ما عنده أعلمه والسير استخراج كنه الأمر .

يراجع لسان العرب مادة س ب ر 1919/3 .

عفتها ، ولقد ظهر منها من الورع والعفاف ما لا غاية وراءه ،] (1) .

قال الأستاذ عبد الحميد محمود طهماز في كتابه التوحيد والتنزيه في سورة مريم : [وما زعمه بعض المفسرين من أنه جاء إليها بصورة شاب أمرد وضياء الوجه ، جعل الشعر لتَهيج شهوتها به ، فتنحدر نطفتها إلى رحمها فغير صحيح لأن خلق عيسى عليه السلام كان أمرا خارقا لكل النواميس والأسباب وليس له ارتباط بأي سبب من الأسباب التي جعلها الله تعالى مقدمة لخلق غيره من البشر ، وقد ثبت علميا في العصر الحاضر أن إفراز مبيض المرأة للبيوضة وانحدارها إلى الرحم غير مرتبط بشهوتها واتصال الرجل بها] (2) .

مريم عليها السلام تستعيز بالله تعالى من ذلك الذي دخل عليها خلوتها

قال تعالى : ﴿ قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا ﴾ (3) .

استعادت مريم عليها السلام بربها من ذلك الرجل الأجنبي الذي قطع عليها خلوتها ودخل بغير إذن ، وفي استعاضتها بالله تعالى ما يدل على كمال ورعها وتام عفافها وشدة حياتها .

وفي استعاضتها بالله تعالى توجه إليه سبحانه أن يرحم ضعفها ويصرف عنها السوء ، وفي الاستعاذة أيضا استثارة واستنهاض لبواعث الرحمة والتقوى في قلب ذلك الرجل ، فهو إن كان رحيما فسوف يرحم ضعفها ووحدتها وإن كان تقيا فسوف ينصرف عنها ولا يمسه بسوء .

ولقد اختلف المفسرون في معنى هذه العبارة التي قالتها مريم عليها السلام ﴿ قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا ﴾ - قيل إن ﴿ إِنْ ﴾ هنا شرطية وجوابها محذوف لدلالة السياق عليه والتقدير [﴿ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا ﴾ فسوف تتعد عني .

● قال الزمخشري : [إن كان يرجى منك أن تتقي الله تعالى وتخشاه وتحفل بالاستعاذة به فإني عائذة به منك كقوله تعالى : ﴿ يَقِيْتُ اللَّهَ حَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ (4)] (5) .

(1) نفس المرجع 75/16 .

(2) التوحيد والتنزيه في سورة مريم للأستاذ عبد الحميد محمود طهماز ص 35 ، 36 ط دار القلم دمشق سنة

(3) سورة مريم : 18 .

1410 هـ سنة 1990 م .

(4) الكشف للزمخشري 9/3 .

(5) سورة هود : 86 .

● وقال الإمام الرازي [قوله تعالى : ﴿ قَالَتْ إِنَّيْ أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا ﴾] فيه وجوه : أحدها : أرادت إن كان يرجي منك أن تتقي الله ويحصل ذلك بالاستعاذة به فإني عائدة به منك وهذا في نهاية الحسن لأنها علمت أنه لا تؤثر الاستعاذة إلا في التقي وهو كقوله تعالى : ﴿ اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ ⁽¹⁾ أي إن شرط الإيمان يوجب هذا لا أن الله تعالى يخشى في حال دون حال ، وثانيها أن معناه ما كنت تقيا حيث خلوت بي ، وثالثها أنه كان في ذلك الزمان إنسان فاجر اسمه تقي يتبع النساء فظنت مريم عليها السلام أن ذلك الشخص المشاهد هو ذلك التقي والأول هو الأوجه ⁽²⁾ .

- وقيل إن تقي اسم لرجل كان معروفا بالصلاح ، فقالت مريم له إن كنت مثل تقي في صلاحه وتقواه فسوف تبتعد عني لأنني أعوذ بالرحمن منك ، وقيل إنه عمها أتاها جبريل في صورته .

- وقيل إن تقي اسم لرجل كان معروفا بالفسق والفجور ، وكان يتعرض للنساء فظنت مريم أنه هو فاستعاذت بالله منه ، ومن شره ، وهذه الأقوال الثلاثة ضعيفة وهي مبنية على الظن والتخمين لا على العلم واليقين .

قال ابن كثير في القصص : [قال أبو العالية ⁽³⁾ : قد علمت أن التقي ذو نهيية . وهذا يرد قول من زعم أنه كان في بني إسرائيل رجل فاسق مشهور بالفسق اسمه تقي فإن هذا قول باطل لا دليل عليه وهو من أسخف الأقوال] ⁽⁴⁾ .

وقال ابن كثير في التفسير : [لما تبدى لها الملك في صورة بشر وهي في مكان منفرد وبينها وبين قومها حجاب خافته وظنت أنه يريد لها على نفسها فقالت ﴿ إني أعوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا ﴾ أي إن كنت تخاف الله ، تذكيرا له بالله وهذا هو المشروع في الدفع أن يكون بالأسهل فالأسهل فخوفته أولا بالله عليه السلام ...] ⁽⁵⁾ .

(1) سورة البقرة : 278 . (2) مفاتيح الغيب للرازي 197/21 ، 198 .

(3) هو أبو العالية رفيع بن مهران الرياحي ، أدرك الجاهلية وأسلم بعد وفاة الرسول عليه السلام بستين روي عن علي وابن مسعود وابن عباس وابن عمرو وأبي بن كعب وغيرهم وهو من ثقات التابعين المشهورين بالتفسير ت سنة 90 هـ .

تهذيب التهذيب 284/3 ، خلاصة تهذيب الكمال ص 205 ، والتفسير والمفسرون للذهبي 116/1 .

(4) قصص الأنبياء لابن كثير ص 562 . (5) تفسير القرآن العظيم لابن كثير 115/3 .

وروي الإمام البخاري في صحيحه عن أبي وائل (1) أنه قال : علمت مريم أن التقي ذو نهية حين قالت ﴿ إِنَّ كُنْتَ نَبِيًّا ﴾ [(2) وقال ابن حجر وقوله (نهية) بضم النون وسكون الهاء أي ذو عقل وانتهاه عن فعل القبيح ، وأغرب من قال إنه اسم رجل يقال له تقي كان مشهورا بالفساد فاستعادت منه (3) .

جبريل ﷺ يكشف عن حقيقته ومهمته

قال تعالى : ﴿ قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا ﴾ (4) .
أزال عنها خوفها ، ووضح لها أنه ملك من ملائكة الرحمن جاء بأمر من عنده سبحانه ليهب لها غلاما زكيا ؟ أي غلاما طاهرا مباركا .

- فائدة في القراءات :

قرأ أبو عمرو وورش وقالون بخُلف عنه ويعقوب (ليهب لك) بالياء لأن الواهب هو الله ﷻ .

وقرأ الباقر وخُلف قالون (لأهب لك) بالهمز مكان الياء (5) .

وفي توجيه هذه القراءات وجوه :

قال الإمام القرطبي : [﴿ لِأَهَبَ لَكِ ﴾] جعل الهبة من قبله لما كان الإعلام بها من قبله ، وقيل معنى لأهب - بالهمز - محمول على المعنى : أي قال أرسلته لأهب لك [(6) على الحكاية .

وقال الألوسي : [﴿ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ ﴾] أي لأكون سببا في هبته بالنفخ في الدرع ، ويجوز أن يكون حكاية لقوله تعالى بتقدير القول ، أي ربك الذي

(1) أبو وائل هو شقيق بن سلمة أبو وائل الأسدي الكوفي من كبار التابعين أدرك النبي ﷺ ولم يره ، ولد في السنة الأولى من الهجرة وتوفي سنة 82 هـ تقريبا - الطبقات الكبرى لابن سعد 96/6 وتهذيب التهذيب لابن حجر 361/4 .

(2) صحيح البخاري كتاب أحاديث الأنبياء باب قول الله تعالى واذكر في الكتاب مريم فتح الباري 549/6 .

(3) سورة مريم : 19 .

(4) المرجع السابق 552/6 .

(5) حجة القراءات لابن زنجلة ص 440 ويراجع : النشر في القراءات العشر 317/2 .

(6) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي 91/11 ويراجع السراج المنير للشربيني 418/2 ، 419 .

قال : أرسلت هذا الملك لأهب لك ... [(1)] .

● وللإمام الرازي توجيهان لهذه القراءة حيث يقول [... الأول : إن الهبة لما جرت على يده بأن كان هو الذي نفخ في جيبها بأمر الله تعالى جعل نفسه كأنه هو الذي وهب لها ، وإضافة الفعل إلى ما هو سبب له مستعمل قال تعالى في الأصنام ﴿ رَبِّ إِنِّي أَضَلَّنَ أَضْلَلَنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ ﴾ (2) أي كن سببا في إضلالهم والثاني : إن جبريل عليه السلام لما بشرها بذلك كانت تلك البشارة الصادقة جارية مجرى الهبة [(3)] .

● والقراءتان صحيحتان متواترتان ، فالواهب هو الله ﷻ ، وجبريل عليه السلام أرسله ربه ليبشرها وليقوم بمهمة النفخ فيها للتحقق هذه المعجزة بقدرته الله ﷻ .

قال ابن كثير : [وكلا القراءتين لها وجه حسن ومعنى صحيح وكل تستلزم الأخرى] (4) .

تعجب مريم عليه السلام من البشارة

﴿ قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلْمٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴾ .

علمت وأيقنت أن هذه البشارة صادقة ، وأن الذي بين يديها ملك مرسل من عند الله ، ولكنها تعجبت وتساءلت عن كيفية تحقق هذه البشارة العجيبة . لأن العادة أن الولادة لا تكون إلا عن حمل من رجل ، والحمل إما أن يكون من زواج شرعي أو طريق غير شرعي وهي عليه السلام لم يمسهما بشر بزواج ، وحاشاها أن تكون بغيا .

والبغي : هي الفاجرة التي تبغي الرجال في الحرام ، قال الإمام الراغب [... وبغت المرأة بغاء إذا فجرت وذلك لتجاوزها إلى ما ليس لها ، قال ﷻ : ﴿ وَلَا تُكْرِهُوا فَتِيَّتَكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّبِنْعُوْا عَرْضَ الْحَيٰوةِ الدُّنْيَا وَمَنْ يُكْرِهِنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُوْرٌ رَّحِيْمٌ ﴾ (5) [...] (6) .

(2) سورة إبراهيم : 36 .

(1) روح المعاني للألوسي 77/16 .

(4) تفسير القرآن العظيم لابن كثير 115/3 .

(3) مفاتيح الغيب للإمام الرازي 198/21 .

(5) سورة النور : 33 .

(6) المفردات للراغب مادة ب غ ي (ص 55 ، 56) وإكراه الفتيات على البغاء له طريق مباشر وهو حملهن على هذا الأمر بالقهر والقسر ، وطريق غير مباشر ويكون بمنعهن من الزواج أو بالمغلاة في المهور التي قد تؤدي إلى تأخر سن الزواج وقد يؤدي ذلك إلى انحراف الفتاة .

- وقيل للمرأة بغيا ولم يقل بغية لأنه وصف غالب على المؤنث كحائض (1).

- فائدة في المشتبهات :

في سورة آل عمران ﴿ قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ ﴾ (2).

وفي سورة مريم ﴿ قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكْ بَغِيًّا ﴾ (3).

● ففي سورة آل عمران تأتي كلمة ﴿ وَلَدٌ ﴾ وفي مريم ﴿ غُلَامٌ ﴾ ؟ .

ويجيب عن هذا التساؤل الإمام الكرمانى فيقول : [... لأن في سورة آل عمران تقدم ذكر المسيح ، وهو ولدها ﴿ إِذْ قَالَتْ أَلَمْ تَكُنْ لِي مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ﴾ (4) .

وفي سورة مريم تقدم ذكر الغلام ﴿ لِأَهَبَ لَكَ غُلَامًا زَكِيًّا ﴾ (5) [(6) .

● وفي سورة آل عمران ﴿ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ ﴾ وفي سورة مريم ﴿ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكْ بَغِيًّا ﴾ وقوله تعالى ولم يمسنني بشر يشمل في الحقيقة ما كان عن طريق نكاح أو سفاح ، فلماذا ورد في سورة مريم ولم أك بغيا ، مع أن قوله تعالى : ﴿ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ ﴾ يشمل ذلك ؟ أقول إن ما ورد في سورة مريم مناسب لما أوردته السورة الكريمة من إتيانها قومها بالولد واقتراثهم عليها ونطق عيسى وهو في المهد ببراءتها ولم ترد هذه التفصيلات في سورة آل عمران .

ويقول الإمام الرازي في تفسيره

[... والجواب من وجوه : أحدهما : أنها جعلت المس عبارة عن النكاح الحلال لأنه كناية عنه ، لقوله تعالى ﴿ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ ﴾ (7) والزنا ليس كذلك إنما يقال فَجَزَ بها أو ما أشبه ذلك ولا يليق به رعاية الكنايات ، وثانيها : أن إعادتها لتعظيم حالها كقوله تعالى ﴿ حَفِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى ﴾ (8) وقوله ﴿ وَمَلَكَيْتِهِ

(2) سورة آل عمران : 47 .

(1) روح البيان للبروسوي 322/5 .

(4) آل عمران : 45 .

(3) سورة مريم : 20 .

(5) سورة مريم : 19 .

(6) البرهان في توجيهه متشابه القرآن للكرمانى ص 47 بتصريف .

(8) سورة البقرة : 238 .

(7) سورة البقرة : 236 .

وَرُسُلِهِمْ وَجَبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ ﴿١﴾ فكذا هاهنا ، أن من لم تعرف من النساء بزواج فأغلظ أحوالها إذا أتت بولد أن تكون زانية فأفرد ذكر البغاء بعد دخوله في الكلام الأول لأنه أعظم ما في بابه [(2)] .

جواب جبريل عليه السلام عن سؤال مريم التعجبي .

قال تعالى : ﴿ قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىٰ هَيْنٍ ۗ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴾ (3) .

﴿ قَالَ كَذَلِكَ ﴾ : أي الأمر كما تقولين من أنك غير متزوجة ولست بغية ، ﴿ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىٰ هَيْنٍ ﴾ فالمولي عليه السلام هو القادر ، وقدرته مطلقة وإرادته محققة ، لا يحدها حدود ولا تقيدتها قيود ، ومن خلق آدم من غير أم ولا أب ، وخلق حواء من أحد أضلاع آدم : فهو قادر على خلق عيسى من أم دون أب .

﴿ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِلنَّاسِ ﴾ دلالة وعلامة وحجة وبرهان على قدرة الله تعالى قال تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ ءَايَةً وَأَوَيْنَهُمَا إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴾ (4) .

﴿ وَرَحْمَةً مِّنَّا ﴾ رحمة من الله تعالى لمريم ، ولكل من آمن برسالته عليه السلام ، فهو رحمة لمريم لأنه إكرام لها من الله واصطفاء لها على نساء العالمين بهذه الآية العجيبة الفريدة ، ورحمة لها لأنها صارت به أم نبي له وجاهته ومكانته في الدنيا والآخرة .

ورحمة لكل من آمن به من قومها والأنبياء جميعهم رحمة من الله تعالى .

﴿ وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴾ أمرا مقدورا من الله تعالى ومسطورا في اللوح المحفوظ (5) .

(2) مفاتيح الغيب للرازي 199/21 ، 200 .

(4) سورة المؤمنون : 50 .

(1) سورة البقرة : 98 .

(3) سورة مريم : 21 .

(5) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي 91/11 بتصرف .

المبحث الثامن

وقوع النفخ في مريم عليها السلام وحملها بعيسى عليه السلام

قال تعالى : ﴿ فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَدَّتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا ﴾ (1) .
بعد أن سكنت مريم لأمر الله ورضيت بقضاء الله ، وأيقنت أن تلك إرادة الله
وحكمته نفخ فيها روح القدس فحملت بعيسى عليه السلام .

● فائدة في السياق

ولقد طوى السياق القرآني في سورة مريم الحديث عن نفخ روح القدس عليه السلام في
مريم ، وجاء الحديث عن النفخ في سورة الأنبياء وسورة التحريم وفي ذلك إشارة إلى
الوحدة القرآنية ، فكل آية لها سياقها الذي ينتظم مع سابقها ولاحقها ، وكل آية لها
صلتها بموضوع السورة ولها اتصالها بالسياق العام للقرآن الكريم .

وحين نجمع الآيات المتفرقة في الموضوع الواحد نجد أنفسنا أمام نسيج فريد ، وبناء
محكم متلائم وموضع متكامل .

وصدق المولى عليه السلام إذ يقول : ﴿ الرَّ كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ
خَيْرٍ ﴾ (2) ويقول سبحانه : ﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَابًا تَفَسَّرُ
مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ
يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾ (3) .

● في سورة الأنبياء يقول المولى عليه السلام : ﴿ وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا
مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ ﴾ (4) .

● وفي سورة التحريم ﴿ وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ
رُوحِنَا وَصَدَقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتِبَ عَلَيْهَا إِذْ وَقَعْتَ عَلَى مَرْيَمَ بِمَا كَانَتْ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (5) .

● والآية الأولى في سياق الحديث عن نعم الله عليه السلام ورحمته بالأنبياء وآلهم ، وفيها

(2) سورة هود : 1 .

(1) سورة مريم : 22 .

(4) سورة الأنبياء : 91 .

(3) سورة الزمر : 23 .

(5) سورة التحريم : 12 .

بيان لما كانت عليه مريم من العفة والطهارة ، وأن الله ﷻ قد أرسل إليها جبريل ، فنفخ فيها لتحمل بولد من غير أب ، لتكون وابنها آية للعالمين .

● وفي سورة التحريم تلك السورة التي تعالج بعض الأمور التي حدثت في بيت النبوة ، بين أمهات المؤمنين .

في هذه السورة يوضح المولى ﷻ أن قرابة النسب لا تغني عن قرابة الدين ، فالعبرة بالإيمان والعمل الصالح .

وفي هذه السورة نماذج للمرأة الطالحة مع الزوج الصالح ؛ حيث يذكر المولى ﷻ موقف امرأة نوح وامرأة لوط وهما زوجتان كافرتان ، كما تأتي نماذج للمرأة الصالحة فيذكر المولى ﷻ امرأة فرعون ، ثم يذكر مريم بنت عمران ، وكما أن إيمان نوح ولوط ومكانتهما عند الله وقرابتهما من المرأتين لم تشفع لهما كذلك فإن كفر فرعون لم يضر امرأته لأنها كانت مؤمنة محسنة عابدة ، صادقة صابرة صامدة .

ومريم عَلَيْهَا السَّلَامُ بنت عمران نشأت في بيت صالح ، وكانت عفيفة شريفة . اختارها المولى ﷻ لتكون وابنها آية للعالمين .

﴿ وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتِبَ لَهَا إِحْسَانًا وَأَنَّهَا مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ .

فائدة في مشتبهات القرآن

في سورة الأنبياء ﴿ فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا ﴾ .

وفي سورة التحريم ﴿ فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا ﴾ .

حيث جاء الضمير الغائب المتصل بعد حرف الجر (في) مرة بصيغة التأنيث ومرة أخرى بصيغة التذكير ولقد تعددت أقوال العلماء في بيان الحكمة من ذلك .

● قال الإمام الزمخشري : [أحصنت فرجها إحصانا كلياً عن الحلال والحرام جميعاً كما قالت ﴿ وَلَمْ يَمَسَّ سِنِيَّ بِشَرٍّ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴾ فإن قلت : نفخ الروح في الجسد عبارة عن إحيائه ، قال الله تعالى : ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي ﴾ ⁽¹⁾ أي أحييته ، وإذا

ثبت ذلك كان قوله ﴿ فَفَخَّخَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا ﴾ ظاهر الإشكال ؛ لأنه يدل على إحياء مريم . قلت معناه نفخنا الروح في عيسى فيها ، أي : أحييناه في جوفها . ونحو ذلك أن يقول الزمّار : نفخت في بيت فلان أي : نفخت في المزمّار في بيته . ويجوز أن يراد : وفعلنا النفخ في مريم من جهة روحنا وهو جبريل عليه السلام ؛ أنه نفخ في جيب درعها فوصل النفخ إلى جوفها . فإن قلت هلا قيل - آيتين - كما في قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا آيَاتٍ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ (1) قلت : لأن حالهما بمجموعهما آية واحدة ، وهي ولادتها إياه من غير فحل (2) .

● وقال الخطيب الإسكافي في كتابه درة التنزيل وغرة التأويل [... الجواب أن يقال : لما كان القصد في سورة الأنبياء إلى الإخبار عن حال مريم وابنها ، وأنهما مجعلا آية للناس وكان النفخ فيها مما جعلها حاملا والحامل صفة الجملة فكأنه قال : والتي أحصنت فرجها فصيرها النفخ حاملا حتى ولدت ، والعادة جارية أن لا تحمل المرأة إلا من فحل ولا يولد الولد من غير أب ، فلما كان القصد التعجب من حالتها وأنها بالنفخ صارت حاملا : رد الضمير إلى جملتها إذ كان النفخ في فرجها نفخا فيها أوجب القصد إلى وصفها بعد النفخ بصفة ترجع إلى جملتها دون بعضها : كان قوله ﴿ فَفَخَّخَا فِيهَا ﴾ أولى من قوله ﴿ فَفَخَّخَا فِيهِ ﴾ .

● وأما قوله في سورة التحريم : ﴿ وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا ﴾ : فلما لم يكن القصد فيه إلى التعجب من حالها بالحمل عند النفخ وولادتها لا عن ضراب الفحل لم يكن ثم من القصد إلى وصف جملتها بغير الصفة التي كانت عليه قبلها : فجاء اللفظ على أصله والمعنى فنفخنا في فرجها ، ولم يسق الكلام إلى ما سيق إليه في سورة الأنبياء من وصف حالها بعد النفخ فاختلفا لذلك [(3)] .

● وقال الإمام الكرمانى في كتابه البرهان في توجيه متشابه القرآن : [قوله تعالى في سورة الأنبياء ﴿ وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا ﴾ وفي التحريم ﴿ فَفَخَّخَا فِيهِ ﴾ لأن المقصود في هذه السورة (سورة الأنبياء) ذكرها ، أي ذكر مريم عليها السلام وما آل إليه أمرها حتى ظهر فيها ابنها وصارت هي وابنها آية . وذلك لا يكون إلا بالنفخ في حملها وتحملها ، والاستمرار على ذلك إلى ولادتها فهذا اختصت بالتأنيث ، وما

(2) الكشف للزمخشري 133/3 .

(1) سورة الإسراء : 12 .

(3) درة التنزيل وغرة التأويل للخطيب الإسكافي ص 302 ، 303 بتصرف .

في التحريم مقصور على ذكر إحصانها وتصديقها بكلمات ربها ، وكأن النفخ أصاب فرجها وهو مذكر والمراد به فرج الجيب ، أو غيره ، فخصت بالتذكير [(1)] .

● ويقول الإمام أحمد بن إبراهيم بن الزبير الغرناطي الأندلسي (2) في كتابه ملاك التأويل :

[وجه اختلاف الضمير ﴿ فَنَفَخْنَا فِيهَا ﴾ و ﴿ فَنَفَخْنَا فِيهِ ﴾ : مع اتحاد المعنى : أن الضمير في الأولى عائد إلى ما أشير إليه بالوصول الذي هو ﴿ أَلْتِي ﴾ وهي مريم المفتوح باسمها في آية التحريم أعيد الضمير هنا إليها من حيث أن ذلك تخصيص وتكريم جليل وآية باهرة ، وقد قصد هاهنا تشريفها وتشريف ابنها بالذكر في قوله تعالى ﴿ وَجَعَلْنَاهَا وَأَبْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ ﴾ ولم يقع في آية التحريم ذكر ابنها ، فلما اتسع المقصود هنا بذكر من لم يذكر هناك وقصد من التشريف ما هو أكثر ، ناسبه التوسعة في عودة الضمير فأعيد إلى الذات المطهرة - بجملتها فقييل - فنفخنا فيها من روحنا وأفهم ذلك ما أفهمه الضمير الخاص بمحل النفخ من غير إشكال .

وفي سورة التحريم قال ﴿ فِيهِ ﴾ لعوده إلى الموضع المخصوص وقصد بآية التحريم تخصيصها في ذاتها بعظيم إيمانها وتصديقها وإثباتها في القانتين وتشبيه حالها في سابق سعادتها بالمذكورة قبلها واجتماعهما في ضرب المثل بهما للمؤمنين ، فالسياق هنا غيرالسياق في سورة الأنبياء والحامل على ذكرها هنا غير الحامل على ذكرها هناك ، مع اتحاد الوصف الواقع به المدح مع تناظر الألفاظ وتشاكلها ، فجاء كل على ما ثبت فيه ، فلهذا ورد الضمير على ما ورد من المخصوص فقييل ﴿ فِيهِ ﴾ ولم يرد ذكر لابنها في سورة التحريم ؛ فالمقصود هنا ذكر كونها في عداد الصالحين القانتين .

● والجواب عن وجه اختصاص كل واحد من الموضعين بالوارد فيه أن آية الأنبياء

(1) البرهان في توجيه متشابه القرآن لما فيه من الحجة والبيان لتاج القراء محمود بن حمزة بن نصر الكرمانني ص 143 ، 144 بتصرف .

(2) هو أحمد بن إبراهيم بن الزبير الثقفي الغرناطي ولد سنة 628 هـ في مدينة جيان التي تقع بين شمال غرناطة وشرقي قرطبة بالأندلس وعرف بإخلاصه وحبه للعلم وتفانيه في نصرة الحق وورعه وعفته ولطف معاشرته وكان خطيبا بارعا وقاضيا عادلا له مصنفات كثيرة منها البرهان في تناسب سور القرآن، وتعليق على كتاب سيبويه ، وشرح كتاب الإشارة للباجي - فيلسوف من فلاسفة الإسلام في المغرب - وكتاب سبيل الرشاد في فضل الجهاد توفي سنة 708 هـ بغرناطة . تراجع ترجمته في :

نفع الطيب في غصن أندلس الرطيب 98/6 والدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة 89/1 .

وردت في سياق الحديث عن جملة من الرسل موصوفين بخصائص عليية وآيات نبوية ، أولهم إبراهيم ثم ابنه إسحاق ثم ابنه يعقوب ثم نوح ولوط ، وداود وسليمان وأيوب وإسماعيل وإدريس وذو الكفل وذو النون وزكريا فلما ذكر هؤلاء العلية عليهم السلام بخصائص ومنح ناسب ذلك ذكر مريم وابنها بما منحها عليها السلام ، وأما آية التحريم فمقصود فيها ذكر عظيمتين جليلتين يبين بهما حكم أسبقية القدر بالإيمان والكفر وهما قصة امرأتي نوح ولوط .

وأن انضواءهما إلى هذين النبيين الكريمين عليهم السلام انضواء الزوجية التي لا أقرب منها ومع ذلك لم يغنيا عنهما من الله شيئا ، وقصة امرأة فرعون وقد انضوت إلى أكفر كافر فلم يضرها كفره ، ثم ذكرت مريم عليها السلام للالتقاء في الاختصاص وسبقية السعادة ، ولم يدع داع إلى ذكر ابنها فلا وجه لذكره هنا ، وأما آية الأنبياء فلذكره هناك أوضح حامل ، فجاء كل على ما يجب ، ولا يمكن فيه عكس الوارد والله أعلم [(1)] .

ومما سبق يتضح لنا : أن جبريل عليه السلام بعد أن بشر مريم بعيسى عليه السلام وأنه سيولد بقدره الله تعالى دون أب ، قام جبريل بمهمة نفخ الروح ، لتتحقق تلك الآية العجيبة .

(1) ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه التشابه اللفظ من آي التنزيل للإمام أحمد بن إبراهيم بن الزبير الثقفي الغرناطي 845/2 ، 847 تحقيق سعيد الفلاح ط دار الغرب الإسلامي ط 1 سنة 1403 هـ سنة 1983 م بيروت لبنان .

سن مريم حين حملت . ومدة حملها بعبسى ﷺ ومعنى

﴿ فَأَنْبَدَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا ﴾ ومجيء المخاض لها عند جذع

النخلة ، وتمنيها الموت في هذه اللحظات العصبية

قال تعالى : ﴿ فَحَمَلَتْهُ فَأَنْبَدَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿١١﴾ فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَلَيْتَنِي مِثُّ قَبْلِ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَّنْسِيًّا ﴾ (1) .

أولاً : سن مريم حين حملت كان حمل مريم ﷺ بعبسى ﷺ دون أب أمرا خارقا للعادة فهل كانت مدة الحمل على ما جرت به العادة أم كانت أيضا أمرا خارقا للعادة ؟ . لم يصرح القرآن الكريم بسنها حين حملت ولا بمدة حملها ، ومع ذلك نجد للمفسرين أقوالا متعددة في تحديد سنها حين حملت وفي تحديد مدة الحمل .

● قال الإمام الرازي : [قيل حملته وهي بنت ثلاث عشرة سنة ، وقيل بنت عشرين سنة ، وقد كانت حاضت حيضتين قبل أن تحمل وليس في القرآن ما يدل على شيء من هذه الأحوال] (2) .

● ويقول الشيخ المراغي في تفسيره [وكذلك لاحاجة إلى تعيين سنها حينئذ إذ لا يتعلق به كبير فائدة] (3) .

● ويقول الشيخ عبد الوهاب النجار [... والذي أقوله أنها كانت بلغت مبلغ النساء وكفى ، وأدع علم ما بقي من ذلك إلى الله تعالى] (4) .

والذي أختاره في هذه المسألة : أنه ليس هناك دليل صحيح على تعيين سنها ، والظاهر المتبادر إلى الأذهان أن مريم ﷺ قد كانت في مرحلة من السن يمكن فيها الحمل ، وتتهياً أسبابه ، هذا مع كمال عقلها وحسن إدراكها وفهمها للأمور .

(2) مفاتيح الغيب للإمام الرازي 201/21 .

(4) قصص الأنبياء لعبد الوهاب النجار ص 454 .

(1) سورة مريم : 22 ، 23 .

(3) تفسير المراغي 44/16 .

ثانيا : مدة حملها :

قال الإمام الماوردي في تفسيره : [واختلفوا في مدة حملها على أربعة أقاويل : أحدها تسعة أشهر ، والثاني ستة أشهر ، والثالث يوما واحدا والرابع ثمانية أشهر ، وكان هذا آية عيسى فإنه لم يعيش مولود لثمانية أشهر سواه (1)] (2) .

● أقول والراجح في هذه المسألة أن حملها كان طبيعيا كما تحمل سائر النساء ، والغالب في سن الحمل أن يقع في تسعة أشهر ولو كان حملها على خلاف ما جرت به العادة لكان أمرا عجيبا خارقا ، ولأورده القرآن كما أورد أمورا أخرى عجيبة وقعت لمريم عليها السلام .

● قال الإمام الرازي : [قال ابن عباس رضي الله عنهما إنها كانت في تسعة أشهر كما في سائر النساء بدليل أن الله تعالى ذكر مدائحها في هذا الموضع فلو كانت عاداتها في مدة الحمل بخلاف عادات النساء لكان ذلك أولى بالذكر ...] (3) .

● وقال الإمام الحافظ ابن كثير في تفسيره : [فالمشهور عن الجمهور أنها حملت به تسعة أشهر] (4) .

● وقال أيضا [فالمشهور الظاهر والله على كل شيء قدير أنها حملت به كما تحمل النساء بأولادهن] (5) .

● وذكر الإمام الألوسي اختلاف المفسرين في مدة حملها ، واستهل الأقوال بما روي عن ابن عباس أن مدة حملها كانت تسعة أشهر كسائر النساء ثم ذكر بقية الأقوال وفي ختام كلامه قال [وقد يعيش المولود لثمان إلا أنه قليل فليس ذلك من خواصه عليها السلام إن صح . ولم يصح عندي شيء من هذه الأقوال المضطربة المتناقضة بيد أنني أميل إلى أولها] (6) .
يعني بالأول ما ذكره أن مدة حملها كانت تسعة أشهر كسائر النساء .

(1) من الناحية الطبية لاصحة لما ذكره الماوردي في تفسيره من أنه لم يعيش مولود ولد على ثمانية أشهر ولقد سألت الأطباء الثقات في هذا فأجابوا بأن هناك أطفالا كثيرين يولدون على سن ثمانية أشهر ويعيشون .

(2) النكت والعيون للإمام الماوردي 583/2 بتصرف .

(3) مفاتيح الغيب للإمام الرازي 202/21 بتصرف . (4) تفسير القرآن العظيم للحافظ ابن كثير 116/3 .

(5) المرجع السابق 116/3 . (6) روح المعاني للألوسي 79/16 ، 80 .

● وقال الشيخ عبد الوهاب النجار معلقا على الأقوال التي ذهبت إلى أن الحمل كان على خلاف العادة : [والذي أميل إليه أن كل هذا تكلف من أصحاب هذه الأقوال لأن أمره في الحمل لما كان عجيبا أرادوا أن يجعلوه في مدة الحمل أيضا عجيبا ، ونحن ليس في أيدينا ما يُثبِت العجبية في مدة الحمل ، فالأليق أن يحمل على الأمر الطبيعي الذي جرت العادة بمثله] (1) .

والذي نراه في هذه المسألة : في مدة الحمل أنه كان طبيعيا كسائر النساء ومرجع ذلك إلى أمرين .

أحدهما : لو كان خارقا للعادة وعجبية من العجائب لذكرها القرآن .

ثانيهما : لو كان في مدة وجيزة على خلاف العادة كما ذكر بعض المفسرين لشك قوم مريم في هذا الوليد هل هو ابنها أم لا ، ولسجل القرآن ذلك التساؤل الذي سوف يصدر منهم بناء على هذا الشك .

حيث يتساءلون في هذا الأمر ويقولون يا مريم هل هذا ولدك أم ولد غيرك ؟ ولو كان ولدك فقد جئت شيئا عجيبا خارقا !! .

ثالثا : معنى ﴿ فَأَنْبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا ﴾ .

مكانا قصيا : أي مكانا بعيدا عن قومها حتى لا يتعرضوا لها بسوء .

قال الطبرسي : [﴿ فَأَنْبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا ﴾ أي تنحت بالحمل إلى مكان بعيد ، وقيل معناه انفردت به مكانا بعيدا من قومها حياء من أهلها وخوفا من أن يتهموها بسوء] (2) .

والراجح أن هذا المكان القصي هو شرقي بيت لحم حيث ولد المسيح ﷺ ، كما ورد في الحديث الذي رواه النسائي في السنن والبيهقي في دلائل النبوة عن أنس بن مالك من حديث الإسراء وفيه يقول ﷺ : « ... فقال لي جبريل انزل فصل فصليت ، فقال : أتدري أين صليت ؟ صليت ببيت لحم ، حيث ولد عيسى ابن مريم » (3) .

(1) قصص الأنبياء لعبد الوهاب النجار ص 452 ، وذهب إلى ذلك أيضا الأستاذ عبد الكريم الخطيب في كتابه

(2) مجمع البيان للطبرسي 789/6 .

التفسير القرآني للقرآن 731/16 .

(3) رواه النسائي في السنن عن أنس بن مالك ك / الصلاة - باب فرض الصلاة سنن النسائي 222/1 .

ورواه الإمام البيهقي في دلائل النبوة 356/2 وقال البيهقي هذا إسناد صحيح عن شداد بن أوس .

● والظاهر المتبادر من سياق الآيات أنها وضعت في المكان القصبي الذي انتبذت إليه أو قريبا منه ، وقد كانت في هذا المكان وحيدة فريدة .

أما ما ورد أنها فَرَّتْ مع يوسف النجار إلى مصر بعد أن علم بأمرها وقيل إنه حاول قتلها ، حيث ظن بها السوء بعد أن رآها حاملا فجاءه الروح القدس وأخبره بأنها حملت من الروح القدس (1) فإنه منقول عن الإنجيل ، وأخبار الإنجيل عن يوسف النجار متناقضة ومتضاربة تشهد ببطانها وتهافتها .

ففي رواية إنجيل متى (2) أن الروح القدس أتى ليوسف النجار في المنام ليخبره أن مريم حبلت من الروح القدس وأن عليه أن يتزوجها ويسمي المولود يسوع وذلك حتى يظن الناس أنه ابنه ولم يذكر إنجيل متى شيئا عن بشاراة الملائكة لمريم ولا عن كيف تم حملها .

وحين نقارن بين رواية الميلاد في إنجيل متى وفي إنجيل لوقا نجد التضارب والاختلاف حول يوسف النجار هل كان خطيبا لمريم حين ولدت عيسى أم كان زوجها ؟ ومتى علم بحملها ؟ وما موقفه من هذا الحمل ؟ وهل ظهر له الملك وأخبره عن حقيقة الحمل ؟ أم لم يظهر له ؟ إلى غير ذلك من التساؤلات التي تدل على وجود التحريف والتزييف في الأناجيل .

والذي أراه والله أعلم أن يوسف النجار لم تكن له أدنى صلة بمريم ﷺ ، وأنه لم يَحْتَلِ بها أو يسافر معها أو يتول أمرها أو يخدمها حاشاها ﷺ ، وهي الطاهرة العفيفة الحية الشريفة أن تكون لها أدنى صلة برجل أجنبي عنها .

والقرآن الكريم والسنة النبوية لم يرد فيهما أي ذكر ليوسف النجار وما ورد في كتب التفسير فإنه من الإسرائيليات التي مَرَدُّها إلى أهل الكتاب وقد نقلوها عن الأناجيل المحرفة المزيفة التي تضاربت وتناقضت تضاربا وتناقضا يدل على ضعفها وزيفها .

رابعا : مجيء المخاض لها وتمنيها الموت من شدة ما مَرَّ بها

قال تعالى : ﴿ فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِنَّكِ جَائِعٌ النَّخْلَةَ قَالَتْ يَلَيْتَنِي مِثُّ قَبَلِ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَّنْسِيًّا ﴾ (3) .

(1) ذكره الزمخشري في الكشاف ولم يعلق عليه - الكشاف 11/3 ، ولم يعلق عليه صاحب الانتصاف .

(3) سورة مريم : 23 .

(2) إنجيل متى لإصحاح 1 : 18 - 25 .

معنى ﴿ فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ ﴾ أي أوجأها المخاض واضطرها ، والمخاض : آلام الولادة (الطلق) .

● قال الزمخشري : [﴿ فَأَجَاءَهَا ﴾ أجاء : منقول من جاء ، إلا أن استعماله قد تغير بعد النقل إلى معنى الإلجاء ، ألا تراك تقول جئت المكان وأجأنيه زيد ، كما تقول بلغته وأبلغنيه ، ونظيره أتى ولا يستعمل إلا في الإعطاء ، ولا يقال أتيت المكان وأتانيه فلان] (1) .

وقال الطبرسي : [﴿ فَأَجَاءَهَا ﴾ أي جاء بها المخاض ، وهو مما يُعَدَّى تارة بالباء ، وتارة بهمزة النقل قال زهير :

وجار سار معتمدا علينا أجاءته المخاوف والرجاء
أي جاءت به ، وألجأته] (2) .

● وقال ابن كثير : [وقوله تعالى : ﴿ فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ ﴾ أي فاضطرها وألجأها الطلق إلى جذع النخلة في المكان الذي تنحت إليه ...] (3) .

وجذع النخلة هو ساقها ، قال القرطبي : [والجذع ساق النخلة اليابسة في الصحراء الذي لا سعف عليه ولا غصن له ، ولهذا لم يقل إلى النخلة] (4) .

تمنيها الموت في هذه اللحظات العصبية

﴿ قَالَتْ يَلَيْتَنِي مِثُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًا مَّنْسِيًا ﴾ .

تمنت لو أنها قد ماتت ، قبل هذا الموقف العصب ، وكانت نسيا منسيا ، أي شيئا حقيرا لا يعتد به ولا يؤبه له ، من شأنه أن ينسى فلا يذكر ، ولكن كيف تمت ذلك مع ما علمت من البشارة والكرامة ؟ .

عن ذلك يجيب المفسرون بأجوبة كثيرة ومتنوعة :

● يقول الإمام ابن كثير في التفسير : [.. وقوله تعالى إخبارا عنها ﴿ قَالَتْ يَلَيْتَنِي مِثُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًا مَّنْسِيًا ﴾ فيه دليل على جواز تمني الموت عند الفتنة ،

(1) الكشف للزمخشري 11/3 .

(2) مجمع البيان للطبرسي 787/6 ، 788 بتصرف . (3) تفسير ابن كثير 116/3 .

(4) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي 92/11 ويراجع المصباح المنير 45/1 ويراجع مجمع البيان للطبرسي 790/6 .

فإنها عرفت أنها ستبتلى وَتَمْتَحَن بهذا المولود الذي لا يحمل الناس أمرها فيه على السداد ولا يصدقونها في خبرها ، وبعدما كانت عندهم عابدة ناسكة تصبح عندهم فيما يظنون صورة سيئة فقالت ﴿ يَلَيَّتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا ﴾ أي قبل هذا الحال ، ﴿ وَكُنْتُ نَسِيًّا مَّنْسِيًّا ﴾ أي لم أخلق ولم أك شيئاً ، قال ابن عباس قالت ذلك استحياء من الناس [(1)] .

● وقال الإمام الزمخشري : [تمت لو كانت شيئاً تافها لا يؤبه له ، من شأنه وحقه أن ينسى في العادة ، وقد نُسِي وَطُرِح فوجد فيه النسيان الذي هو حقه وذلك لما لحقها من فرط الحياء من الناس على حكم العادة البشرية ، لا كراهة لحكم الله أو لشدة التكليف عليها إذا بهتوها وهي عارفة ببراءة ساحتها وباختصاص الله إياها بغاية الإجلال والإكرام ، وإنه لمقام دحض قَلَمًا تثبت عليه الأقدام أن تعرف اغتباطك بأمر عظيم وفضل باهر تستحق به المدح وتستوجب التعظيم ، ثم تراه عند الناس لجهلهم به عيباً يعاب به ويعنف بسببه (2) ، أو أنها تمت الموت لخوفها على الناس أن يعصوا الله فيها] (3) .

وفي حاشية الجمل على الجلالين : [تمت الموت من جهة الدين إذ خافت أن يظن بها السوء في دينها ، أو استحياء من الناس فأنساها الاستحياء بشاراة الملائكة لها بعمسى ﷺ ، أو لعلها قالت ذلك لثلا تقع المصيبة بمن يتكلم فيها ، وإلا فهي راضية بما بشرت به فلا يرد السؤال كيف تمت الموت مع أنها كانت تعلم أن الله تعالى بعث لها جبريل ﷺ ووعدها بأن يجعلها وولدها آية للعالمين ...] (4) .

وسوف نتحدث عن حكم تمنى الموت إن شاء الله عند حديثنا عن الأحكام والعبر .

(1) تفسير القرآن العظيم لابن كثير 116/3 ، 117 بتصرف .

(2) ويحضرني في هذا المقام قول البحري :

كانت ذنوبي فقل لي كيف أعتذر ؟

إذا محاسني اللاتي أدلُّ بها

ديوان البحري 954/2 ط / دار المعارف .

(3) الكشف للزمخشري 11/3 ، 12 بتصرف ويراجع ما ذكره الشرييني في السراج المنير 420/2 وهو قريب مما ذكره الزمخشري .

(4) حاشية الجمل على الجلالين 57/3 ، 58 ويراجع روح البيان 326/5 كما يراجع الجامع لأحكام القرآن للقرطبي 92/11 - وإرشاد العقل السليم لأبي السعود 578/3 .

المبحث التاسع

ولادة عيسى عليه السلام وما صاحبها من رحمات ونفحات

قال تعالى: ﴿فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا أَلَا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿١٦﴾ وَهَزَيْتِ إِلَيْكَ بِجَنَاحِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطُ عَلَيْكَ رَطْبًا جَنِينًا ﴿١٧﴾ فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فِيمَا تَرَيْنَ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا ﴿١٨﴾ (1).

في هذه الحالة الأليمة التي ألمت بمریم عليها السلام وفي تلك اللحظات العصبية التي مرت بها وهي تعاني من آلام المخاض والوحدة والوحشة والترقب لما ينتظرها من قومها حين يجدوا معها هذا الوليد ، في غمرة هذه الآلام الحسية والنفسية تدرکها رحمة الله تعالى وجميل أطافه فيتحول العسر إلى يسر ، والضيق إلى سعة ، ويولد عيسى عليه السلام وينطقه (2) المولى ﷺ ويقول لها كما أخبر القرآن ﴿فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا أَلَا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾ .

ولقد ذكر بعض المفسرين أن المنادي هو جبريل عليه السلام واحتجوا بأن عيسى عليه السلام لم يتكلم حتى أتت به أمه إلى قومها وأن جبريل عليه السلام كان في بقعة من الأرض منخفضة وهي كانت في ربوة عالية فنادها من ذلك المكان المنخفض وهي في ربوة عالية .

● قال القاسمي : [﴿فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا﴾ أي من مكان أسفل منها تحت أكمة (3) وهو جبريل] (4) .

● والذي أراه في هذه المسألة : أن الذي نادها هو عيسى عليه السلام ، وذلك لأمر : هي : - أنه آخر مذكور ، والضمير يعود إلى أقرب مذكور لفظاً ورتبة قال تعالى ﴿فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَدَّتْ بِهِ مَكَانًا قَاصِيًا ﴿١٦﴾ فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جَنَاحِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَّوَدِيًّا ﴿١٧﴾ فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا أَلَا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿١٨﴾ وَهَزَيْتِ إِلَيْكَ بِجَنَاحِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطُ عَلَيْكَ رَطْبًا جَنِينًا ﴿١٩﴾ فَكُلِي وَاشْرَبِي

(2) مفاتيح الغيب للرازي 204/21 .

(1) سورة مریم : 24 - 26 .

(3) الأكمة : تل وقيل شرفة كالراية وهو ما اجتمع من الحجارة في مكان واحد والجمع أكم وأكمت مثل قصبه ، وقصب وقصبات - وجمع الأكم إكام مثل جبل وجبال - وجمع الإكام أكم بضمتين مثل كتاب وكتب - وجمع الأكم آكام مثل عنق وأعناق المصباح المنير 10/1 مادة أ ك م .

(4) محاسن التأويل للقاسمي 118/11 .

وَقَرِي عَيْنًا فِيمَا تَرَيْنَ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا ﴿٦٦﴾ فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَمْرُؤُا لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا ﴿٦٧﴾ يَتَأَخَذُ هَرُونَ مَا كَانَ أَبُوكَ أَمْرًا سَوِيًّا وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بَغِيًّا ﴿٦٨﴾ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ... ﴿٦٩﴾ (1)

يلاحظ عودة الضمير إلى عيسى عليه السلام في الآيات - هو علي هين - ولنجعله - فحملته - فانتبذت به - فناداها من تحتها - فأنت به قومه تحمله - فأشارت إليه ، قال إني عبد الله .

- أنطق الله عيسى عليه السلام تسليية لأمه وتثبيتا لقلبها ، وإشارة لها إلى أنه كما نطق أمامها وحدها فسوف ينطق أمام قومه ببراءتها ﴿ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْأَمْعِدِ صَبِيًّا ﴾ ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَنِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٦٧﴾ ولقد أجرى الله هذه الآية أمامها وحدها ، ثم أجزاها بعد ذلك أمام قومه ، كما أجرى الله معجزة قلب العصا إلى حية أمام موسى وحده قبل أن يُجزئها أمام فرعون وملئه تثبيتا لموسى عليه السلام وإعدادا له لمواجهة هذا الموقف .

- ومما يؤيد ويؤكد أن المنادى هو عيسى عليه السلام قراءة ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وعاصم في رواية شعبة بفتح ميم ﴿ مَنْ ﴾ على أنه اسم موصول ، وفتح تاء تحتها (من تحتها) (2) . وفي هذه القراءة إشارة إلى أنه كان تحتها أحد ، والذي تحتها هو عيسى عليه السلام .

قال الإمام الرازي : [ولا يليق بالملك أن يناديها من تحتها وهي في حالة الولادة والانكشاف] (3) .

وقال الأستاذ عبد الكريم الخطيب : [والذي نأخذ به ، هو أن المنادي لها لا يكون ملكا إذ لو كان ملكا لناداها من علو ، وهو الجهة المنزل منها ... وأنه إذا كان المنادي ملكا فكيف يجيء إليها من تحت لا من فوق ؟ وإذن فالمنادي لها هو من كان تحتها بالفعل وهو وليدها ! .

وفي حديث وليدها إليها في هذا الوقت ، ما يكشف لها عن التجربة التي ستواجه بها قومه منه ، حين تدعوه إلى الكلام ، فيتكلم ... ولو أن عيسى لم يكن قد تكلم

(2) يراجع حجة القراءات لابن زنجلة ص 441 .

(1) سورة مريم : 22 - 29 .

(3) مفاتيح الغيب للإمام الرازي 205/21 .

إليها ، وأسمعها صوته من قبل ، لما وجدت الجرأة على أن تُلْقَى قومها بالطفل ثم تلقاهم بهذا التحدي وهو أن تدعوهم إلى الاستماع إليه [(1)] .

﴿ قَدْ جَعَلَ رَبُّكَ تَحَنُّكَ سِرِّيًّا ﴾ .

السريّ : قيل هو الجدول - النهر الصغير الجاري - سمي بذلك لأن الماء يسري فيه وعلى هذا القول عامة المفسرين (2) .

وقيل السري هو عيسى عليه السلام ، والسري هو الرجل الذي له شرف ومروة وهو من السرو بمعنى الشرف والرفعة (3) .

● والراجع في هذه المسألة أن السري هو الجدول - النهر الصغير ، لأن الماء يسري فيه ، والسياق يدل على ذلك قال تعالى ﴿ فَكُلِّي وَأَسْرِي وَقَرِي عَيْنًا ﴾ فدل الأكل على وجود الرطب ودل الشرب على وجود الماء الذي جاء عن طريق ذلك (السري) . روى البخاري في صحيحه بسنده عن البراء بن عازب رضي الله عنه قال (سريا) نهر صغير بالسرانية (4) .

وأخرجه الحاكم عن البراء قال : السري هو الجدول ، أي النهر الصغير (5) . وقد أجرى لها المولى عليه السلام هذا النهر كرامة لها ، وإرهاصا لعيسى عليه السلام ، وتسلية لقلبها . قال صاحب الظلال : [الأرجح أنه جرى للحظته من ينبوع أو تدفق من مسيل ماء في الجبل] (6) .

(1) التفسير القرآني للقرآن لأستاذ عبد الكريم الخطيب 731/16 .

(2) يراجع جامع البيان للطبري 54/16 وتفسير القرآن العظيم لابن كثير 117/3 وزاد المسير لابن الجوزي 221/5 ، ومفاتيح الغيب للرازي 205/21 والجامع لأحكام القرآن للقرطبي 94/11 ومجمع البيان للطبرسي 790/6 وروح البيان للبروسوي 327/5 .

(3) يراجع المفردات للراغب مادة س ر ي ص 231 ، والكشاف للزمخشري 12/3 ، 13 .

(4) رواه الإمام البخاري في صحيحه كتاب / أحاديث الأنبياء باب قول الله تعالى ﴿ واذكر في الكتاب مريم ﴾ . فتح الباري 549/6 .

(5) رواه الحاكم في المستدرک وقال حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ، ووافقه الذهبي - المستدرک كتاب التفسير باب تفسير سورة مريم 373/2 .

(6) في ظلال القرآن سيد قطب 437/4 .

وقيل : إن جبريل ضرب الأرض بجناحه فظهرت عين ماء عذب ، فجرى الجدول ، وقيل ضربه عيسى برجله فسرى الماء ، وقيل كان نهرا يابساً فجرى فيه الماء بقدره الله ﷻ (1) .
أقول : إن الله ﷻ قد أجرى لها ذلك الجدول بالماء ، ولا نخوض في بيان الكيفية حيث لم يرد بذلك نص .

● وعن الحكمة من سريان الماء وتساقط الرطب يقول الإمام الزمخشري : [فإن قلت ما كان حزنها لفقد الطعام والشراب حتى تُسَلَّى بالسري والرطب ؟ قلت لم تقع التسلية بهما من حيث إنهما طعام وشراب ، ولكن من حيث إنهما معجزتان تريان الناس أنها من أهل العصمة ، والبعد عن الريّة ، وأن مثلها مما قرفوها (2) به بمعزل وأن لها أموراً خارجة عن العادات خارقة لما ألفوا واعتادوا ، حتى يتبين لهم أن ولادها من غير فحل ليس ببدع من شأنها] (3) .

﴿ وَهَزَى إِلَيْكَ يَمِزُجَ النَّخْلَةَ سَنَقَطَ عَلَيْكَ رُطْبًا جَنِيًّا ﴾ (4) .

نعمة أخرى ونفحة كبرى لمريم عليها السلام ، أن يأتيها رزقها من الرطب وهي في مكانها ، بقدره الله ﷻ ولطفه ورحمته .

وهل كانت هذه النخلة يابسة ثم اخضرت ثم أثمرت أم كانت خضراء غير مثمرة فأثمرت ، أم كانت مثمرة . لقد تعددت أقوال المفسرين في هذا .

● والذي نرجحه والله أعلم أنها كانت يابسة فاخضرت وأثمرت وفي ذلك كرامة لمريم عليها السلام وتسلية لقلبها وإظهار لقدرة الله ﷻ وعجيب صنعته .

● يقول ابن كثير في قصص الأنبياء : [قيل : كان جذع النخلة يابساً ، وقيل كانت نخلة مثمرة فالله أعلم . ويحتمل أنها كانت نخلة لكنها لم تكن مثمرة إذ ذاك ، لأن ميلاده كان في زمن الشتاء وليس ذاك وقت ثمر ، وقد يُفهم ذلك من قوله تعالى على سبيل الامتنان ﴿ سَنَقَطَ عَلَيْكَ رُطْبًا جَنِيًّا ﴾] (5) .

(1) تراجع هذه الأقوال في باب التأويل للخازن 242/4 .

(2) قرفوها به أي اتهموها يقال قرفه بكذا : أضافه إليه واتهمه به وألصقه . يراجع اللسان 3600/5 مادة (ق ر ف) .

(3) الكشاف للزمخشري 13/3 . (4) سورة مريم : 25 .

(5) قصص الأنبياء لابن كثير ص 565 ، 566 .

وقال الإمام بدر الدين بن جماعة: ﴿ وَهَزَيْتَ إِلَيْكَ بِمِجْنَعِ النَّخْلَةِ سُدَّقْتَ عَلَيْكَ رُطْبًا جَنِينًا ﴾ (1).

وهي نخلة يابسة... مضت إليها لتستند إليها في وجع الولادة فأورقت وأثمرت في غير أوانها [(2)].

قال تعالى: ﴿ فَكُلِّي وَأَشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا ﴾ (3).

ذكر الماء أولاً ثم ذكر الطعام ﴿ قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴾ (4) وَهَزَيْتَ إِلَيْكَ بِمِجْنَعِ النَّخْلَةِ سُدَّقْتَ عَلَيْكَ رُطْبًا جَنِينًا ﴿ (4) لأن الحاجة إلى الماء أهم وأعظم من الحاجة إلى الطعام لأن الإنسان قد يصبر على الجوع ولكنه لا يصبر على العطش .

وقدم الأكل على الشراب ﴿ فَكُلِّي وَأَشْرَبِي ﴾ لأن الأكل دائماً يكون أولاً ثم يتبعه الشراب .

● قال الإمام الرازي: [وقدم الأكل على الشرب لأن احتياج النفساء إلى أكل الرطب أشد من احتياجها إلى شرب الماء لكثرة ما سال منها من الدماء ثم قال ﴿ وَقَرِّي عَيْنًا ﴾ ، وههنا سؤال وهو أن مضرة الخوف أشد من مضرة الجوع والعطش والدليل عليه أمران : أحدهما : أن الخوف ألم الروح والجوع ألم البدن ، وألم الروح أقوى من ألم البدن .

والثاني : أنه لو أجيعت شاة ثم قدم إليها طعام وربط عندها ذئب فإنها لن تأكل خوفاً من الذئب ولو كسرت رجلها وأجيعت لأكلت وهذا يعني أن ألم الخوف أشد من ألم البدن ، إذا ثبت هذا فنقول فلم قدم الله تعالى في الحكاية دفع ضرر الجوع والعطش على دفع ضرر الخوف . والجواب أن هذا الخوف كان قليلاً لأن بشارة جبريل عليه السلام كانت قد تقدمت فما كانت تحتاج إلى التذكير مرة أخرى [(5)] .

ومعنى وقري عينا : أي وطببي نفساً ولا تغتمي . وارفضي عنك ما أحزنك وأهمك

(1) سورة مريم : 25 .

(2) غرر التبيان في من لم يسم في القرآن لابن جماعة ص 329 بتصريف يسير .

(3) سورة مريم : 26 .

(4) سورة مريم : 24 ، 25 .

(5) مفاتيح الغيب للرازي 206/21 .

﴿ فَأَمَّا تَرِينٌ مِّنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ
إِنْسِيًّا ﴾ .

أمرت بالصوم لأمرين أحدهما أن كلام عيسى عليه السلام وهو في المهد أقوى وأبلغ في إزالة التهمة عنها ، وفيه أن تفويض الأمر إلى الأفضل أولى ، والثاني : أن السكوت عن جدال السفهاء أصون للعرض ، ومن أذل الناس سفيها لم يجد مسافها .

والأصل في الصوم هو الإمساك والمراد به هنا الإمساك عن الكلام .

المبحث العاشر

مجيئها بعيسى إلى قومها واتهامهم لها

قال تعالى : ﴿ فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَمْرُؤُا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا فَرِيًّا ﴿١٧﴾
يَتَأَخَّتْ هَنْرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ أَمْرًا سَوًّا وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿١٨﴾ (1) .

● قال الإمام القرطبي : [لما اطمأنت لما رأيت من الآيات وعلمت أن الله تعالى سيبين عذرها، أتت به تحمله من المكان القصبي الذي كانت انتبذت فيه] (2) .

● والفاء هنا في ﴿ فَأَتَتْ ﴾ تفيد التعقيب ، والسرعة ، وهناك مفارقة عجيبة في هذه القصة ففي بدايتها ﴿ فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا ﴾ وفي نهاية المطاف ﴿ فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ .. ﴾ .

● ففي الموضع الأول نرى مريم العذراء تسارع بحملها وتفر به بعيدا عن قومها ، خوفا من نفوسهم المريضة وعقولهم الفاسدة وظنهم السيئ وكلامهم الجارح حين يرونها وهي حامل .

● وفي الموضع الثاني بعد أن وضعت المسيح وقرت عينها به واطمأن قلبها إليه وانشرح صدرها ، بالكرامات التي وقعت لها ، وامتلاً قلبها يقينا ، وتبدل خوفها أمنا ، وحزنها سرورا وضعفها قوة وعزة وترفعا وتحديا وتعاليا على الباطل وجنوده ، فجاءت إلى قومها يحملها اليقين ويحدوها الأمل ويقودها الإيمان ، وهي تحمل وليدها الحبيب نبي الله عيسى عليه السلام جاءت ولسان حالها يقول معبرا عن نفسها الطاهرة الزكية العزيزة الأبية ، الآمنة المطمئنة ، الراضية المرضية ، الهادئة الهاتئة بهذه الهدية التي منحها لها رب البرية ، جاءت ولسان حالها يقول :

فليتك تحلو والحياة مريرة
وليت الذي بيني وبينك عامر
وإذا صح منك الود فالكل هين
وليتك ترضى والأنام غضاب
وبيني وبين العالمين خراب
وكل ما فوق التراب تراب

(2) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي 99/11 .

لقد أصبحت مريم أمًا لنبي ، ومع ذلك فإنها تعرف سلفا موقف قومها ، الذين يقابلون الآيات بالإنكار والجحود ، والإنعامات بالحسد والحقد لذلك لما رأوها قالوا : دون تفكر أو تمهل كما أخبر القرآن الكريم .

﴿ قَالُوا يَمْرَيْمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا ﴾ .

أي شيئا فظيحا منكرا .

قال صاحب المفردات : [الفري قطع الجلد للخرز والإصلاح ، والإفراء للإفساد ، والافتراء فيهما وفي الإفساد أكثر ... وقوله تعالى إخبارا عن قول قوم مريم ﴿ قَالُوا يَمْرَيْمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا ﴾ قيل معناه عظيما ، وقيل عجيبا وقيل مصنوعا ، وكل ذلك إشارة إلى معنى واحد] (1) .

وقال صاحب اللسان [... والفري الأمر العظيم ومعنى ﴿ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا ﴾ أي شيئا عظيما ، وقيل مصنوعا مختلفا وفلان يفري الفري إذا كان يأتي بالعجب في عمله ، وفريت دهشت وحررت] (2) .

﴿ يَتَأَخَتَّ هَرُونَ مَا كَانَ أَبُوكَ أَمْرًا سَوْءَ وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بَغِيًّا ﴾ .

بعد أن اتهموها ، وافتروا عليها ، قالوا لها ساحرين بها ومتهكمين ﴿ يَتَأَخَتَّ هَرُونَ مَا كَانَ أَبُوكَ أَمْرًا سَوْءَ وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بَغِيًّا ﴾ .

أي كيف تصنعين ذلك وأنت سليلة الطهر والعفاف ، وربيبة التقى والصلاح .

● ولقد تعددت أقوال المفسرين في بيان المراد من قولهم كما أخبر القرآن

﴿ يَتَأَخَتَّ هَرُونَ ﴾ .

قيل كان لها أخ من أبيها يدعى هارون كان صالحا تقيا ، فهي أخته لأبيه (3) ، وقيل نسبة إلى رجل صالح في زمانها كان يدعي هارون فهي شبيهته ، وليست أخته ، يحكي أنه لما مات تبع جنازته أربعون ألفا من الصالحين كلهم يسمى هارون تبركا باسمه (4)

(1) المفردات للراغب مادة ف ر ي ص 379 باختصار .

(2) لسان العرب مادة ف ر ي 3408/5 . ويراجع الكشاف للزمخشري 14/3 .

(3) غرائب القرآن و رغائب الفرقان للنيسابوري 51/16 ، والسراج المنير للخطيب الشربيني 423/2 .

(4) غرائب القرآن للنيسابوري 52/16 ولباب التأويل للخازن 244/4 .

وقيل عنوا هارون أبا موسى عليه السلام وكانت من أعقابها ، قال السدي كانت من أولاده ، والمراد أنها واحدة منهم كما يقال يا أبا العرب (1) .

وقيل كان رجلا طالحا معلنا بالفسق فسموها به على سبيل التشبيه (2) .

قال ابن كثير : [﴿ يَتَأَخَتْ هَرُونَ ﴾ أي شبيهة هارون في العبادة ، ﴿ مَا كَانَ أَبُوكَ أَمْرًا سَوِيًّا وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بَغِيًّا ﴾ أي أنت من بيت طيب طاهر معروف بالصلاح والعبادة والزهادة فكيف صدر هذا منك قال السدي : قيل لها يا أخت هارون أي أخي موسى وكانت من نسله كما يقال للتميمي يا أبا تميم وللمضري يا أبا مضر ، وحكي ابن جرير عن بعضهم أنهم شبهوها برجل فاجر كان فيهم ، يقال له هارون ، وأغرب من هذا كله من زعم أنها أخت موسى وهارون التي قص لنا القرآن خبرها قال تعالى في سورة القصص ، وقالت ﴿ لِأَخْتِهِ قُصِيَّةٌ قَبَّصَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ (3) ... وهذا القول خطأ محض (4) وبين موسى وعيسى عليه السلام مئآت السنين .

● وأقول : إن ما ورد أنه كان في زمانها رجل يدعى هارون كان فاسقا وما قيل إنه كان لها أخ من أبيها يدعى هارون ، وما قيل إن هارون كان رجلا صالحا في بني إسرائيل وشبهت به وتبع جنازته أربعون ألفا كلهم يدعى هارون : كل هذه الأقوال واهية وساقطة .

● والصحيح في هذه المسألة : أنهم قالوا يا أخت هارون تشبيها لها : بهارون النبي أخي موسى عليه السلام ، وكانوا يسمون بأسماء الأنبياء والصالحين على سبيل التشبيه .

ويجوز في اللغة إطلاق الأخ على النظير والشبيه والمعين ، قال تعالى : ﴿ وَمَا تُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا ﴾ (5) .

وقال سبحانه : ﴿ إِنَّ الْمُبْدِرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ ﴾ (6) ويؤيد هذا الرأي ما ورد في صحيح مسلم بسنده عن المغيرة بن شعبة قال : لما قدمت نجران سألتوني فقالوا : إنكم

(1) غرائب القرآن للنيسابوري 51/16 ، ولباب التأويل للخازن 244/4 .

(2) غرائب القرآن للنيسابوري 52/16 . (3) سورة القصص : 11 .

(4) تفسير القرآن العظيم لابن كثير 118/3 ، 119 بتصرف .

(5) الزخرف : 48 . (6) الإسراء : 27 .

تقرأون في القرآن ﴿يَتَأَخَذَ هَرُونَ﴾ ؛ وموسى قبل عيسى بكذا وكذا ، فلما قدمت على رسول الله ﷺ سألته عن ذلك فقال : إنهم كانوا يسمون بأنبيائهم والصالحين قبلهم (1) .

● كلام المسيح ﷺ وهو في المهدي براءة أمه .

قال تعالى : ﴿ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْأَمْهِدِ صَبِيًّا ﴾ (2) قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَنِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا (3) وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَنِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا (4) وَبَرًّا بِوَالِدِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا (5) وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا (6) . (2)

نطق عيسى ﷺ وهو في المهدي بقدرة الواحد الأحد ، نطق أول ما نطق بأنه عبد الله وفي هذا رد على النصارى الذين زعموا أنه إله وابن إله ، تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا .

● يقول الإمام الرازي في هذا المقام : [إن الذي اشتدت إليه الحاجة في ذلك الوقت إنما هو نفي التهمة عن مريم ؑ ، ثم إن عيسى ﷺ لم ينص على ذلك وإنما نص على إثبات عبودية نفسه كأنه جعل إزالة التهمة عن الله تعالى أولى من إزالة التهمة عن الأم ، فلهذا أول ما تكلم إنما تكلم بها ، لأن التكلم بإزالة التهمة عن الله تعالى يفيد إزالة التهمة عن الأم لأن الله سبحانه لا يخص الفاجرة بولد في هذه الدرجة العالية والمرتبة العظيمة ، وأما التكلم بإزالة التهمة عن الأم فلا يفيد إزالة التهمة عن الله تعالى فكان الاشتغال بذلك أولى] (3) .

● وقال الإمام الألوسي في روح المعان : [وذكر عبوديته لله تعالى أولاً لأن الاعتراف بذلك على ما قيل هو أول مقامات السالكين ، وفيه رد على من يزعم ربوبيته وفي جميع ما قال تنبيه على براءة أمه لدلالته على الاضطفاء والله سبحانه أجل من أن يصطفي ولد

(1) رواه الإمام مسلم في صحيحه : كتاب الآداب - باب النهي عن التكني بأبي القاسم وما يستحب من الأسماء - صحيح مسلم بشرح النووي 116/14 .

ويراجع في هذه المسألة جامع البيان للطبري الذي رجح هذا الرأي 59/16 والجامع لأحكام القرآن للقرطبي 100/11 ، 101 ، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير 118/3 وقصص الأنبياء لابن كثير 567 .

(3) مفاتيح الغيب للإمام الرازي 209/21 .

(2) سورة مريم : 29 - 33 .

الزنا ، وذلك من المسلمات عندهم ، وفيه من إجلال أمه ﷺ ما ليس في التصريح ، وقيل لأنه تعالى لا يخص بولد موصوف بما ذكر إلا مبرأة مصطفاة [(1)] .

﴿ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَنِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴾ .

﴿ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ﴾ فهو ﷺ عبد من عباد الله ، أنعم الله عليه وآتاه الكتاب قال تعالى : ﴿ إِنَّ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ (2) أي جعلناه آية عجيبة على قدرة الله وقدوة حسنة يقتدي بها الناس .

﴿ ءَاتَنِي الْكِتَابَ ﴾ آتاه المولى ﷺ الإنجيل قال تعالى : ﴿ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ ءَأَثَرِهِمْ بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ ﴾ (3) .

والإنجيل كتاب مكمل للتوراة وتمام لها قال تعالى مخبرا عن قول عيسى ﷺ لقومه ﴿ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَلَأُحَدِّثَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِبَيِّنَاتٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ۗ إِنَّ اللَّهَ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴾ (4) .

﴿ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴾ أنعم الله عليه بالنبوة ، والنبوة منزلة عظيمة ومكانة عالية لا تكون إلا لأشرف وأكرم وأظهر خلق الله .

● فنبوته ﷺ دليل على براءة أمه لأن الأنبياء هم أظهر الناس نسبا .

﴿ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ ﴾ أي نفاعا حيث كنت ، وقيل معلما للخير ، وقيل البركة أصلها من بروك البعير والمعنى جعلني ثابتا في الدين ، صاحب عزم ويقين ، وقيل البركة هي الزيادة والعلو ، فكأنه قال جعلني في جميع الأشياء غالبا موقفا إلى أن يكرمني الله بالرفع إلى السماء (5) .

ولقد ذهب بعض المفسرين إلى أن عيسى ﷺ أوتي الإنجيل وصار نبيا وهو في المهدي ، واستدلوا بظاهر النص ﴿ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَنِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴾ والصواب في هذا الموضوع أن هذا باعتبار ما سيكون ، وما هو مقدر في علم الله ﷻ ، فهو في حكم

(2) سورة الزخرف : 59 .

(1) روح المعاني للألوسي 89/16 .

(4) آل عمران : 50 ، 51 .

(3) سورة الحديد : 27 .

(5) يراجع غرائب القرآن للنيسابوري 53/16 ومفاتيح الغيب للرازي 214/21 ، 215 .

الواقع المحقق لأنه سيقع بإذن الله (1) .

﴿ وَأَوْصِنِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴾ .

أي أوصاه بها حين يقدر على القيام بها ، والصلاة والزكاة لا تجب إلا بعد البلوغ وإن كانت تصح قبل ذلك ، ففي الحديث الشريف « رفع القلم عن ثلاث عن النائم حتى يستيقظ وعن الصبي حتى يبلغ ، وعن المجنون حتى يفيق » (2) .

● قال الشيخ عبد الرحمن السعدي (3) [أي أوصاني بالقيام بحقوقه التي من أعظمها الصلاة وحقوق عباده التي من أجلها الزكاة ، مدة حياتي أي فأنا ممثّل لوصية ربي ، عامل عليها منفذ لها] (4) .

● وقال الإمام الألوسي : [... وأنت تعلم أن الظاهر المتبادر من المدة المذكورة مدة كونه

(1) يقول الشوكاني في تفسيره [وقيل إنه آتاه الكتاب وجعله نبيا في تلك الحال وهو بعيد . فتح القدير للشوكاني 321/3 ويراجع ما ذكره الطبري في جامع البيان 80/16 وابن كثير في تفسيره 119/3 وابن الجوزي في زاد المسير 229/5 وقال الإمام الألوسي : والتعبير بلفظ الماضي في الأفعال الثلاثة إما باعتبار ما في القضاء المحتوم أو بجعل ما في شرف الوقوع لا محالة كالذي وقع] روح المعاني للألوسي 89/16 وقال الإمام الطبرسي [﴿ آتَانِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴾ أي حكم لي بإتيان الكتاب والنبوة وقيل إن الله تعالى أكمل عقله في صفه وأرسله إلى الناس في ذلك الوقت وكان مكلفا عاقلا ، ... وقيل إن معناه إني عبد الله سيؤتيني الكتاب وسيجعلني نبيا] مجمع البيان 791/6 ، 792 بتصرف .

(2) الحديث : رواه الترمذي في السنن عن علي ؓ ك / الحدود باب / ما جاء فيمن لا يجب عليه الحد حديث 1423 وقال الترمذي حديث علي حسن غريب وقد روي من غير وجه عنه عن النبي ﷺ - ورواه أبو داود في السنن عنه ك / الحدود باب / في المجنون يسرق أو يصيب حدا حديث 4399 ، 4400 ، 4401 - 140/4 ورواه أيضا بسنده عن عائشة ؓ حديث 4398 - 139/4 ، 140 ورواه ابن ماجة في السنن - ك / الطلاق باب / طلاق المعتوه والصغير والنائم - عن عائشة حديث 2041 - 658/1 وعن علي حديث 2042 - 658/1 ، 659 وأورده الألباني في صحيح سنن الترمذي برقم 1150 - 64/2 وقال حديث صحيح - وفي صحيح سنن ابن ماجة برقم 1660 ، 1661 - 347/1 وقال حديث صحيح .

(3) هو الشيخ عبد الرحمن بن ناصر بن عبدالله السعدي التميمي (1307 - 1376 - هـ) ، اشتغل بالعلم منذ صغره حتى بلغ إلى طور الاجتهاد وله مصنفات كثيرة في شتى فروع العلم : منها القواعد الحسان في تفسير القرآن ، والدررة البهية ، تراجع ترجمته في كتاب علماء نجد خلال ستة قرون لعبد الله البسام 422/2 ، والأعلام للزركلي 234/3 .

(4) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان 103/5 ط الرئاسة العامة لإدارة البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد - الرياض 1404 هـ .

﴿الطَّيِّبَاتُ﴾ حيا في الدنيا على ما هو المتعارف وذلك لا يشمل مدة كونه ﴿الطَّيِّبَاتُ﴾ في السماء [(1)] .
وفي ذلك إشارة إلى أن التكاليف الشرعية لا تسقط عن العبد ما دام حيا عاقلا وفي ذلك رد على بعض غلاة الصوفية والفرق المنحرفة الذين يقولون بسقوط التكليف عن العبد عند بلوغه درجة معينة . والحق إن التكليف لا يسقط عن المكلف إلا بالموت أو الجنون .

﴿ وَبِرًّا بِوَالِدَيْكَ ﴾ : أي جعلني المولى ﷺ بارا بأمي ، رفيقا بها ، محسنا إليها وفي ذلك إشارة إلى نزاهتها وبرائها من افتراء اليهود عليها .

﴿ وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴾ أي ولم يجعلني متجبرا متكبرا على الحق والخلق بل جعلني برا رحيفا عطوفا كريما متواضعا للحق ، مطيعا لأوامر الله ﷻ .

وبهذه الصفات التي تحلى بها عيسى ﷺ استحق السعادة في الدنيا والآخرة واستحق السلام من المولى ﷺ في الدنيا والآخرة .

﴿ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴾ .

ومروره بهذه الأطوار ، وتقلبه في هذه الأدوار دليل على حدوثه وبشريته ، فالإله لا يتغير ولا يتحول ، والإله لا يفتقر لشيء ، ولا يحتاج إلى شيء .

● قال الإمام الزمخشري : [والمعنى : ذلك السلام الموجه إلى يحيى في المواطن الثلاثة موجه إلي والصحيح أن يكون هذا التعريف تعريضا باللعنة على متهمي مريم ﷺ وأعدائها من اليهود ، وتحقيقه أن اللام للجنس فإذا قال وجنس السلام عليّ خاصة فقد عرض بأن ضده عليكم ونظيره قوله تعالى : ﴿ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ مِنْ أُمَّةٍ مَدْيَنَةٍ ﴾ (2) يعني ﴿ أَنَّ الْعَذَابَ عَلَيَّ مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى ﴾ (3) وكان المقام مقام منكرة وعناد فهو مثنة (4) لنحو هذا من التعريض [(5)] .

ولقد طوى السياق القرآني موقف قومها من هذه الآية القاطعة والحجة الساطعة ،

(2) سورة طه : 47 .

(1) روح المعاني للألوسي 90/16 .

(3) سورة طه : 48 .

(4) المثنة العلامة ، وإنه لمنته لكذا : أي خليق به . يراجع لسان العرب 4122/6 ، 4123 مادة م أن .

(5) الكشف للزمخشري 16/3 .

وأشارت الآية الكريمة إلى اختلاف اليهود والنصارى في حقيقة عيسى عليه السلام قال تعالى : ﴿ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿١٣١﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿١٣٢﴾ وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿١٣٣﴾ فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١﴾ .

فاليهود كذبوه ، واتهموا أمه بما هي بريئة منه رغم ثبوت براءتها وظهور نزاهتها ، وحسن سيرتها والنصارى غالوا فيه حتى أوصلوه إلى مرتبة الألوهية والحقيقة إنه بشر رسول ، وأمه صديقة عفيفة اصطفاها الله تعالى وطهرها واجتباها وآثرها قال تعالى : ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ أَنْظِرْ كَيْفَ بُنِيَ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ أَنْظِرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴿٢﴾

المبحث الحادي عشر

ما يتعلق بالقصة من أحكام وعبر وفوائد

- عامل الوراثة والبيئة وأثرهما في التربية .
- حرية المرأة في الإسلام .
- قضية المساواة بين الرجل والمرأة .
- القوامة : هل هي ظلم للمرأة .
- حق المرأة في الميراث .
- الترغيب في كفالة اليتيم .
- كرامات الأولياء .
- مشروعية القرعة في الإسلام .
- رد على شطحات بعض المتصوفة .
- فائدة حول نفخ الروح في عيسى عليه السلام .
- حكم تمني الموت .
- التوكل على الله لا يتنافى مع الأخذ بالأسباب .
- فوائد الرطب للنفساء .
- فائدة حول الصمت ، حكم نذر الصمت في شريعتنا .
- ما يتعلق بقصة زكريا ويحيى عليهما السلام من عبر وأحكام .

عامل الوراثة والبيئة وأثرهما في التربية

بمناسبة قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَعِيسَىٰ ابْنَ مَرْيَمَ وَعَالَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ (١) ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿ (١) نتحدث عن عامل الوراثة والبيئة وأثرهما في التربية فنقول وبالله التوفيق :

من العوامل الأساسية والأسس الرئيسة في التربية : عامل الوراثة وعامل البيئة ، ولقد أشار القرآن الكريم وصرحت السنة النبوية بأهمية العامل الوراثي وأثره الفعال في تكوين الإنسان الخَلْقِي والخَلْقِي :

قال تعالى : ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴾ (٢) .

يعني خلقنا الإنسان من ماء الرجل وماء المرأة ، وأمشاج جمع مشج ومشيج أي خليط ، لأن الجنين ينشأ من اختلاط ماء الرجل بماء المرأة ، وهي مرحلة النطفة ، ثم تليها مرحلة العلقة ثم المضغة المخلقة وغير المخلقة ، قال تعالى : ﴿ ... ثُمَّ خَلَقْنَا النَّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظْمًا فَكَسَوْنَا الْعِظْمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴾ (٣) .

وقال تعالى في سورة نوح : ﴿ مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴾ (٤) وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴾ (٤) .

أي في مراحل متعددة وقال تعالى : ﴿ ... يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّنْ بَعْدِ خَلْقٍ ﴾ (٥) .

● أخرج الإمام أحمد في مسنده عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن يهوديا مر بالنبى صلى الله عليه وسلم وهو يحدث أصحابه ، فقالت قريش : يا يهودي إن هذا يزعم أنه نبي ؟ فقال : لأسألنه عن شيء لا يعلمه إلا نبي ، فقال يا محمد مم يخلق الإنسان ؟ فقال صلى الله عليه وسلم يا يهودي من كل يخلق ، من نطفة الرجل ، ومن نطفة المرأة ، فقال اليهودي : هكذا كان يقول من قبلك (٦) .

(٢) سورة الإنسان : ٢ .

(١) سورة آل عمران : ٣٣ ، ٣٤ .

(٥) سورة الزمر : ٦ .

(٤) سورة نوح : ١٣ ، ١٤ .

(٣) سورة المؤمنون : ١٤ .

(٦) الحديث رواه الإمام أحمد في مسنده عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه وقال الهيثمي - بعد أن أورده في مجمع الزوائد ومنبع الفوائد ... رواه أحمد والطبراني والبراز بإسنادين ، وفي أحد أسانيد البراز عامر بن مدرك ، وثقه ابن حبان وضعفه غيره وفي إسناد الجماعة - يعني في إسنادهم جميعا - عطاء بن السائب وقد اختلط [- الفتح الرباني 31/20 ومجمع الزوائد 241/8 .

إذا فالعامل الوراثي أمر مشترك بين الأب والأم ، روى الإمام مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه ، أن أعرابيا أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله إن امرأتي ولدت غلاما أسود ، وإنني أنكرته ، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم هل لك من إبل ؟ قال نعم ، قال ما ألوانها ؟ قال حمر : ، قال هل فيها من أورك ؟ قال نعم ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فأنى هو ؟ قال يا رسول الله لعله نزعة عرق ⁽¹⁾ له ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : وهذا لعله يكون نزعة عرق له ⁽²⁾ .

ولقد حكم رسول الله صلى الله عليه وسلم بعوامل الوراثة : حينما قذف هلال بن أمية زوجته بشريك بن سحماء ، قال صلى الله عليه وسلم : أبصروها : فإن جاءت به أبيض سبطا ⁽³⁾ قضيء العينين ⁽⁴⁾ : فهو لهلال بن أمية ، وإن جاءت به أكحل جعدا حمش الساقين ⁽⁵⁾ فهو لشريك بن سحماء قال فأثبت أنها جاءت به أكحل جعدا حمش الساقين ⁽⁶⁾ .

وهناك أحاديث أخرى في هذا الموضوع لا يتسع المقام لذكرها .

وصدق المولى عليه السلام إذ يقول : ﴿ ذُرِّيَّةٌ بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ ⁽⁷⁾ ويقول ﴿ وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرِجُ نَبَاتَهُ يَا ذَّن رِبِّهِ وَالَّذِي خُبْتُ لَا يُخْرِجُ إِلَّا نَكِدًا ﴾ ⁽⁸⁾ .

فالأصل الطيب الصالح كالنبت الطيب الصالح لا يأتي إلا بخير قال تعالى : ﴿ صَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴾ ⁽⁹⁾ تُوَفِّي أَكْلَهَا كُلِّ حِينٍ يَا ذَّن رِبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿ ⁽⁹⁾ .

فالعامل الوراثي لا يتوقف عند النواحي الجسمانية فقط ولكنه يتعدى ذلك إلى الأخلاق والطباع لذلك حث الإسلام وورغب في حسن اختيار الزوجة لأنها ستكون أما

(1) نزعة عرق هو ما يطلق عليه مصطلح النزوع إلى الأصل في الصفات الوراثية . يراجع مجلة الأزهر عدد جمادى الأول سنة 1415 هـ ص 631 مقال بعنوان التأصيل الإسلامي لعلم الوراثة للدكتور أحمد فؤاد باشا : كلية العلوم القاهرة .

(2) رواه مسلم في صحيحه كتاب اللعان باب 1 [صحيح مسلم بشرح النووي 134/10] ورواه البخاري في صحيحه كتاب الحدود باب ما جاء في التعريض حديث 6847 - فتح الباري 182/12 .

(3) سبط الشعر أي مسترسل شعره وعكسه جعد الشعر .

(4) أي فاسد العين ، كثيرة القرحة والإحمرار والدموع اللسان ج 5 مادة (ق ض أ) ص 3659 .

(5) الجعد هو خلاف المسترسل وحمش الساقين أي دقيق الساقين .

(6) رواه مسلم في صحيحه عن أنس بن مالك ، كتاب اللعان باب 1 - صحيح مسلم بشرح النووي 128/10 ، 129 .

(7) سورة آل عمران : 34 . (8) سورة الأعراف : 58 . (9) سورة إبراهيم : 24 ، 25 .

مسئولة عن تربية أبنائها .

قال أبو الأسود الدؤلي لبنيه لقد أحسنت إليكم صغاراً ، وأحسنت إليكم كباراً ، وقبل أن تولدوا ، قالوا : وكيف أحسنت إلينا قبل أن نولد ؟ فقال اخترت لكم أماصالحة .

فأول إحساني إليكم تخيري لماجدة الأعراق باد عفافها (1)

وليس النبات ينبت في جنان كمثل النبات ينبت في الفلاة

وهل يرجى لأطفال كمال إذا ارتضعوا ثدي الناقصات

فالأم الصالحة والأب الصالح هما أساس الذرية الصالحة وللبيئة أثرها المهم ودورها الفعال في التربية يقول ﷺ : « ما من مولود إلا يولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه ، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء » (2) ثم قرأ ﴿ فَأَقَمَ لِجَهَنَّمَ حَنِيْفًا فَطَرَتَ اللهُ أَلَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا بُدَّيْلَ لِخَلْقِ اللهُ ذَلِكَ أَلَيْبُ الْقَيْمِ وَلَكِنْ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (3) .

فعلي الآباء والأمهات مسؤولة كبرى في تربية الأولاد وفي الحديث الشريف يقول ﷺ : « إن الله سائل كل راع عما استرعاه حفظه أم ضيعه ويسأل الرجل عن أهل بيته » (4) .

فالطفل سريع التأثر بمن حوله :

قال الشاعر :

وينشأ ناشئُ الفتيانِ منَّا على ما كان عوْدُه أبوه

(1) أدب الدنيا والدين للماوردي ص 195 .

(2) أخرجه البخاري في صحيحه عن أبي هريرة كتاب الجنائز باب ما قيل في أولاد المشركين حديث 1385 [فتح الباري 290/3 وكتاب التفسير باب ﴿ لَا بُدَّيْلَ لِخَلْقِ اللهُ ﴾ حديث 4775] 372/8 وأخرجه مسلم في صحيحه كتاب القدر باب معنى كل مولود يولد على الفطرة ، وحكم موتى أطفال الكفار ، وأطفال المسلمين [صحيح مسلم بشرح النووي 207/16] . (3) سورة الروم : 30 .

(4) رواه الطبراني في المعجم الكبير عن ابن مسعود حديث 8855 - 172/9 وقال الهيثمي في مجمع الزوائد 208/7 وفتادة لم يسمع من ابن مسعود - ورواه عبد الرزاق في المصنف عن ابن عمر باب / الإمام راع حديث 20650 - 319/11 ورواه ابن حبان في صحيحه كما في موارد الظمان - 130/5 حديث 1562 وأورده الألباني في سلسلة الصحيحة 179/4 حديث 1636 .

وقال آخر :

وينشأ الصغيرُ على ما كان والدهُ
إن الأصولَ عليها ينبت الشجر

ويحضرني في هذا المقام تلك القصة التي نقلتها لنا كتب الأدب وهي المستطرف من كل فن مستطرف قال المؤلف : حكى بعضهم قال : دخلت البادية فإذا أنا بعجوز بين يديها شاة مقتولة وإلي جانبها جرو ذئب ، فقالت : أتدري ما هذا ؟ فقلت لا ، قالت هذا جرو ذئب أخذناه صغيراً وأدخلناه بيتنا وربيناه فلما كبر فعل بشاتي ما ترى !! .
وأنشدت :

بقرت شويهتي وفجعت قلبي وأنت لشاتنا طفلٌ ريب
غذيت بدرّها ونشأت معها فمن أنباك أن أباك ذيبٌ
إذا كان الطباغُ طباعٌ سوء فلا أدبٌ يفيدُ ولا أديبٌ (1)

حرية المرأة في الإسلام

بمناسبة الحديث عن قوله تعالى : ﴿ إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَدَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا ﴾ .

يطيب لنا أن نتوقف هنا وقفة أمام معنى الحرية في الإسلام .

والحرية في الإسلام مفهوم واضح ، ومبدأ أساسي من المبادئ التي أرساها الإسلام ومقصد من مقاصده المهمة فالإسلام هو الحرية ، والحرية (الحقيقية) هي الإسلام .

● يقول الأستاذ محمد قطب : [والإسلام في كلمة واحدة : هو (التحرر) من كل سلطان على الأرض ؛ يقيد انطلاق البشرية ، أو يقعد بها عن التقدم الدائم في سبيل الخير] (2) .

ولا سبيل إلى حياة حقيقية بدون حرية كاملة ، والحرية في الإسلام حق للفرد وحق للمجتمع ، والحرية في الإسلام ليست حرية مطلقة ولكنها منضبطة منظمة بحيث لا تصطدم بحرية الآخرين . ولا تتعدى الحدود التي وضعها لنا رب العالمين .

(1) المستطرف 302/1 .

(2) شبهات حول الإسلام محمد قطب ص 21 باختصار ط دار الشروق .

أما التحرر الذي يدعو إليه الغرب ، فهو دعوة مشبوهة ودعوى كاذبة وكلمة زائفة وعبارات طنانة وشعارات براقة خداعة ، لأنها تعني التحرر من كل فضيلة ، والتمرغ في أوحال الرذيلة وتحطيم القيم والأخلاق الكريمة ، والهجوم الشرس على دين الإسلام وتعاليمه القويمة .

إن الحرية الغربية التي يريدنا أعداء الإسلام وأدعياء التقدم أن نسعى إليها هي حرية جوفاء وكلمات رنانة وشعارات براقة لا مضمون لها ولا محتوى . إنها حرية الانغماس في بحار الشهوات والتمرغ في أوحال الملذات بدون حسيب ولا رقيب .

● ولصاحب الضلال في هذا المقام كلام طيب : يقول ﷺ في تفسير قوله تعالى ﴿ إِذْ قَالَتْ أَمْرَأْتُ غَمَّرَنِّي رَبِّي إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا ﴾ [...] والتعبير عن الخلوص المطلق بأنه تحرر تعبير موح ، فما يتحرر حقاً إلا من يخلص لله كله ، ويفر إلى الله بجملته ، وينجو من العبودية لكل أحد ، ولكل شيء ، ولكل قيمة ، فلا تكون عبوديته إلا لله وحده ، فهذا هو التحرر إذن ... وما عداه عبودية ، وإن تراءت في صورة الحرية ! ومن هنا يبدو التوحيد هو الصورة المثلى للتحرر ، فما يتحرر إنسان وهو يدين لأحد غير الله بشيء ما في ذات نفسه ، أو في مجريات حياته أو في الأوضاع والقيم والموازن والقوانين والشرائع التي تصرف هذه الحياة لا تحرر وفي قلب الإنسان تعلق أو تطلع أو عبودية لغير الله ، وفي حياته شريعة أو قيم أو موازين مستمدة من غير الله وحين جاء الإسلام بالتوحيد جاء بالصورة الوحيدة للتحرر في عالم الإنسان ⁽¹⁾ .

فالحرية في الإسلام هي التحرر من قيود الأهواء وعوائق الشهوات وأسر شياطين الإنس والجن وأغلال التعصب الممقوت وظلمات الجهل والضلال .

تحرر من كل ما يحول بين الإنسان وبين الوصول إلى الحق وإلى الطريق المستقيم ، وغاية الحرية وذروة سنامها العبودية الخالصة لله ﷻ .

والعبودية له تعالى هداية وعصمة ونور وحكمة وتوفيق ورحمة وفضل من الله ونعمة ، وسمو وارتقاء ، وطهر ونقاء وعز وكرامة ، ورشاد واستقامة .

(1) في ضلال القرآن لسيد قطب 392/1 وفي هذا المعنى يقول صاحب التحرير والتنوير [...] وإطلاق المحرر على هذا المعنى الذي ذكرناه إطلاق تشريف لأنه لما خلص لخدمة بيت المقدس فكأنه حرر من أسر الدنيا وقيودها [.

أما العبودية لغير الله تعالى فهي كفر وعصيان ومذلة وهوان وزور وبهتان وضلال وانحلال وشقاء وضياع .

● إن الحرية التي يدعو إليها الغرب هي العبودية والذل والهوان للمال وللنساء والتقيد بأغلال الشهوات .

● إن الحرية الغربية تسير وفق ما وضعه اليهود للوصول إلى مصالحهم ولتحقيق مآربهم ففي (بروتوكولات حكماء صهيون) التي وضعها اليهود كمخططات يصلون بها إلى السيطرة على العالم كله والهيمنة عليه . وقد شاء المولى ﷺ أن يكشف تلك المخططات ، وأن تعلن بعد أن كانت سرية في طي الكتمان .

في البروتوكول الأول منها [لقد كنا أول من صاح في العالم في العصور الغابرة بالحرية والإنحاء والمساواة] (1) .

وفي البروتوكول الثالث [إن كلمة الحرية تدفع بالجماهير إلى صراع مع الله ومقاومة سننه في الطبيعة ولذلك عند ما تصبح الكلمة لنا نمحو كلمة الحرية من معجم الحياة ، لأنها تحولت رمزا للقوى المتوحشة التي حولت الجماهير إلى حيوانات متعطشة إلى الدماء] (2) .

وتحت شعار الحرية استغل اليهود المرأة ، وأخرجوها من بيتها ؛ لتزاحم الرجال في ميادين الحياة وهي متبرجة ومبتذلة ومنسلخة عن مهمتها في الحياة ومتجاهلة لطبيعتها وفطرتها ومنبهة بالشعارات البراقة - الحرية - المساواة - العدالة .

وتحت شعار الحرية جعلوا المرأة سلعة تجارية تَعْرِض وتُعْرَض وتُرَوِّج وترَوِّج لسلع لا صلة لها بعالم المرأة ، وإلا فما دخل المرأة بدعايات أمواس الحلاقة وملابس الرجال !! ولقد وصل الحال بالمرأة إلى أن وضعوها في واجهات العرض في المحلات [الفاترينات] لتلفت الأنظار وتجلب الزبائن !! حدث هذا في فرنسا بلد النور والحرية !! .

تحت شعار الحرية نصبوا للمرأة أسواق النخاسة تحت مسميات براقاة منها ما أطلقوا عليه مسابقات ملكات جمال العالم والكون حيث تتبارى النساء ويتسابقن بعرض صدورهن وأردافهن بصورة شبه عارية أمام لجان لجان التحكيم التي تختار أجمل النساء

(1) بروتوكولات حكماء صهيون البروتوكول الأول ص 44 ط مكتبة الإيمان بالمنصورة .

(2) البروتوكول الثالث ص 68 .

وفق المواصفات وطبق المقاييس والمعايير التي وضعها شياطين الإنس !! .

أي كرامة للمرأة في أن تعرض جسدها لتنهشه العيون الجريئة والألسنة المسعورة والنفوس الضارية الضائعة !! الأمر كما قيل .

عرضنا أنفسنا عزت علينا عليكم فاستخفَّ بها الهوانُ
ولو أن حفظناها لعزت ولكن كل معروض مهانُ

ومما يؤسف له أن هذه المخططات الخبيثة والأفكار الشيطانية قد استهوت بعض النساء المسلمات ، ومرجع ذلك إلى جهلهم بالدين ، وبعدهن عن تعاليمه وآدابه ، وانبهارهن بالحضارة الغربية المادية الزائفة .

وكم من كلام لا يوافق حكمة لقي الرواج بسوق من لا يعلم
والحق الذي لا مرأى فيه : أن الإسلام أنصف المرأة وحررها وأكرمها فهي حرة مكرمة
عفيفة طاهرة في ظل تعاليم الإسلام ونظامه العادل .

- وأقرب مثال على ذلك القصة التي بين أيدينا قصة امرأة عمران وابنتها مريم ، وكيف كرمهما المولى ﷺ بأن ذكرهما في القرآن الكريم وتحدث عن أحوالهما المرضية .

لقد أعطى الإسلام للمرأة كافة الحقوق ، وأمر بحسن معاملة النساء فالمرأة هي الأم وهي الأخت ، وهي البنت وهي الزوجة وهي القريبة أو الجارة ، أو غير ذلك ونحن مطالبون بالإحسان إلى المرأة والرحمة والشفقة بها (1) .

وتعليمها أمور دينها حتى تكون على بصيرة من أمرها وحتى لا تختلط عليها المفاهيم ، وتنقلب أمامها الموازين ، فترى الحسن قبيحا والقبيح حسنا ، والمعروف منكرا والمنكر

(1) لمزيد بيان في هذا الموضوع يراجع : المرأة بين الفقه والقانون للدكتور مصطفى السباعي ط / المكتب الإسلامي ، المرأة بين البيت والمجتمع للبهى الخولي ط دار الكتاب العربي ، المرأة وحقوقها في الإسلام للعلامة أبي النصر مبشر الطرازي ط دار عمر بن الخطاب - الإسكندرية / حقوق المرأة في الإسلام عبد القادر شيبه الحمد ط دار الكتاب العربي - حقوق النساء في الإسلام للسيد رشيد رضا ط المكتب الإسلامي - ماذا عن المرأة د . نور الدين عتر ط دار الفكر - والمرأة في التصور الإسلامي للأستاذ عبد المتعال الجبري ط / مكتبة وهبة / والمرأة المسلمة وفقه الدعوة إلى الله للدكتور علي عبد الحليم محمود ط دار الوفاء / والمرأة في الإسلام بين الماضي والحاضر د . عبد الله شحاتة ط الهيئة المصرية العامة للكتاب .

معروفا على حد قول الشاعر :

يُقَضَى على المرء في أيام محنته حتى يرى حسنا ما ليس بالحسن

فائدة بمناسبة قوله تعالى : ﴿ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَى ﴾ (1)

حول قضية المساواة بين الرجل والمرأة

● ذكرنا من قبل أن هذه العبارة إما أن تكون من تمام كلام امرأة عمران وعلى هذا فإن اللام للعهد الذهني أي وليس الذكر الذي طلبته كالأُنثى التي وضعتها ؛ لأن الأُنثى لا تصلح للخدمة كما يصلح الذكر ، أو اللام للجنس أي وليس جنس الذكر كجنس الأُنثى في القدرة والصلاحية للخدمة في بيت المقدس وإما أن تكون العبارة من كلام الله ﷻ والمعنى تعظيم شأن هذه المولودة وبيان رفعة منزلتها فوق ما كانت تتصوره وترجوه امرأة عمران ، وهذه العبارة لها دلالتها ، فهي مع وجازتها إلا أنها تطوي معاني كثيرة وحكما بالغة .

يقول الشيخ سعيد حوى : [فالأُنثى ليست كالذكر في تركيبها الجسمي ، ولا في تركيبها النفسي ، ومن ثم فلا بد أن تكون وظيفتها تختلف عن وظيفة الذكر ، ولا بد أن يترتب على ذلك اختلاف في المسؤوليات واختلاف في الحقوق والواجبات ، ومن أراد المساواة المطلقة بين الرجال والنساء : فليستو بينهما في التركيب الجسمي والنفسي أولا ثم فليطالب] (2) .

● ولمزيد بيان نقول : لقد أثبت العلم أن هناك فروقا كثيرة عضوية ونفسية بين الرجل والمرأة ، وهي فروق كثيرة ومتعددة ليس هذا مجال حصرها ، ولكننا نكتفي هنا بالإشارة إلى بعضها .

يقول الأستاذ محمد عثمان الخشت في كتابه (من إعجاز القرآن وليس الذكر كالأُنثى دراسة من منظور الإسلام والعلوم الحديثة) [... والحقيقة الواضحة التي توصل إليها العلماء المختصون أن الأُنثى تختلف اختلافا كبيرا عن الذكر في كل خلية من خلايا جسمها ، وفي كل عضو من أعضائها وفوق كل شيء في جهازها العصبي] (3) .

(1) سورة آل عمران : 36 .

(2) الأساس في التفسير : 762/2 .

(3) من إعجاز القرآن ﴿ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَى ﴾ دراسة من منظور الإسلام والعلوم الحديثة محمد عثمان

الخشت ص 45 بتصرف - ط مكتبة القرآن بدون تاريخ .

● ويقول أيضا : [إن ملايين الخلايا توضح لنا تلك الحقيقة الفاصلة بين الذكر والأنثى ، خلايا الدم ... خلايا العظم ... خلايا الجلد ... خلايا الشعر ... خلايا المخ ... كل خلية من خلايا الجسم ... كل ذرة من ذرات تكوينه ... كل هرمون من هرموناته ... كل الحقائق الجوهرية تُبَيِّننا بأنه ﴿ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَىٰ ﴾] (1) .

ويضيف أيضا موضحا معنى الخلية [والخلية للكائن الحي بمثابة حجر الزاوية ، وهي بالنسبة لأنسجة الجسم كالحجارة بالنسبة للبناء ، وحجمها يتناهى في الصغر ، ويتجاوز عددها في جسم الإنسان ثلاثين مليون خلية ، وتبلغ من التنوع والاختلاف مبلغا عظيما] (2) .

هذا بالإضافة إلى اختلاف المرأة عن الرجل من الناحية العقلية والنفسية فالمرأة سريعة الانفعال ، سريعة الاستجابة للدوافع ، سريعة التأثر بالعواطف إلى غير ذلك من السمات التي تختص بها المرأة ، والتي تمكنها من أداء دورها المنشود في هذه الحياة كزوجة وكأم (3) ، ولولا ما أودعه المولى ﷺ في المرأة من عاطفة جياشة ورقة فياضة لانصرفت الأمهات عن صغارهن ولستمن من تربيتهن ، « فالأمومة بكل ما تحويه من مشاعر نبيلة وأعمال رفيعة وصبر على الجهد المتواصل ، ودقة متناهية في الملاحظة وفي الأداء : هي التكييف النفسي والعصبي والفكري الذي يقابل التكييف الجسدي و كلاهما متناسق مع الآخر و متمم له ... » (4) .

● إن الذين يدعون إلى المساواة الكاملة بين الرجل والمرأة في جميع الحقوق والواجبات لا يسعون بذلك إلى إسعادها وراحتها بل إلى إشقائها ، لا يسعون بذلك إلى تحقيق العدالة لها وإنما هم أشد الناس ظلما للمرأة ، إنهم يسعون إلى تنفيذ مخطط قديم

(1) المرجع السابق ص 45 بتصرف .

(2) المرجع السابق ص 45 بتصرف .

(3) يراجع - من إعجاز القرآن ﴿ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَىٰ ﴾ القسم الأول في ببيان الجسم ووجه النشاط

الفسولوجي (العضوي) من 9 : 56 والقسم الثاني : في السمات النفسية والعقلية .

ولمزيد بيان يراجع مبادئ علم التشريح ووظائف الأعضاء د . شفيق عبد الملك دار الفكر العربي ، وعلم تشريح

الإنسان د . شفيق عبد الملك المطبعة التجارية الحديثة ، وتشريح الحوض للذكر والأنثى د . شفيق عبد الملك -

ط / المطبعة التجارية الحديثة .

والهرمونات د . محمد خليل صلاح / مطبعة نهضة مصر والهرمونات : هي الإفرازات البدينة التي تتحكم في

النشاط الجسماني . ويراجع أيضا خلق الإنسان بين الطب والقرآن للدكتور . محمد علي البار ط الدار

السعودية للنشر والتوزيع ، والإنسان ذلك المجهول تأليف إلكسيس كارليل ترجمة شفيق أسعد مكتبة المعارف .

(4) شبهات حول الإسلام محمد قطب بتصرف ص 116 ، 117 .

للسيطان الرجيم هذا المخطط هو تغيير خلق الله ، والثورة على الفطرة .

قال ﷻ في كتابه الكريم في سورة النساء : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴾ (١١٦) . إنَّ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنْتَا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا ﴿١١٧﴾ لَعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا ﴿١١٨﴾ وَلَا ضَلَّتْهُمْ وَلَا مُنِيتَهُمْ وَلَا مَرَّتَهُمْ فَلَيُبَسِّطَنَّ ءَاذَانَ الْعَٰنَةِمْ وَلَا مَرْئِيَهُمْ فَلَيَغْفِرَنَّ لَكَ اللَّهُ وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا ﴿١١٩﴾ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾ (١) .

● إن جزء تغيير خلق الله وتبديل فطرة الله التي فطر الناس عليها هو الخسران المبين ، وإن الوعود التي يروجها شياطين الإنس والشعارات التي يرفعونها ماهي إلا وعود كاذبة وشعارات خداعة براءة .

● إن الدعوة إلى المساواة التامة بين الرجل والمرأة دعوة مزيفة إلى مساواة مكلفة ، تحمل المرأة ما لا تطيق فتصير المرأة بهذا الحمل الثقيل - كالمثبت لا ظهرأ أبقى ولا أرضا قطع .

● إن حركات تحرير المرأة والمساواة بينها وبين الرجل هي حركات مشبوهة ومرتبطة بالاستعمار الحاق الذي يسعى إلى إبعاد المسلم عن تعاليم دينه ، والدليل على ذلك أن أول مظهر من مظاهر حركة تحرير المرأة في مصر ، وأول بادرة لأصحابها وأول ما دعوا إليه هو تحرير المرأة من عفتها وكرامتها وخلع تاج العفة والوقار والكرامة والطهر خلع الحجاب الشرعي .

يحكي لنا التاريخ هذا المشهد المأساوي ، ويصور لنا تلك المسرحية الهزلية - ففي سنة 1919 كانت الثورة المصرية قد قامت ، وملأت المظاهرات شوارع القاهرة وغيرها من المدن تهتف ضد الإنجليز وتطالب بالجلء التام أو الموت الزؤام ، وفتح الإنجليز النيران بصورة عشوائية على تلك الحشود فسقط الكثير من القتلى والجرحى ، وفي وسط هذه المظاهرة الجادة قامت مسرحية هزلية لعبتها بعض النسوة وعلي رأسهن صفيه زغلول ، وتجمع النسوة أمام ثكنات قصر النيل - ميدان التحرير - وهتفن ضد الإنجليز ثم بتدبير سابق ودون مقدمات ظاهرة ، خلعن الحجاب وألقين به على الأرض وأشعلن فيه النيران !!! (2)

(1) سورة النساء : 116 - 120 .

(2) يراجع كتاب واقعا المعاصر للأستاذ محمد قطب ص 258 ط مؤسسة المدينة للصحافة بجدة . ويراجع -

المرأة المصرية من الفراغة إلى اليوم بقلم درية شفيق ص 133 مطبعة مصر 1955 م .

ولكن ما العلاقة بين هذه الحادثة وبين الاحتلال ، وهل هذه الفعلة إرضاء للإنجليز أم إسخاط لهم . وهل الإنجليز هم الذين فرضوا الحجاب على المرأة وهل الحجاب هو سبب تخلف المسلمين؟ ووقوعهم فريسة للاستعمار؟ وهل التبرج هو الحل ، والسبيل إلى الحرية؟ .
أقول : إن تبرج المرأة ابتذال وامتهان لها ، ونيل من كرامتها وشرفها .

وصدق القائل إذ يقول :

عرضنا أنفسنا عزت علينا عليكم فاستخف بها الهوان
ولو أنا حفظناها لعزّت ولكن كل معروض مهان

● إن الغرب الذي يسعى إلى المساواة المطلقة بين الرجل والمرأة ، قد هضم المرأة حقوقها وقد وضع الفوارق والحوازج بين البشر وقَسَمَ العالم إلى عوالم ، وفرق بين الناس ، وجعل بينه وبين الدول النامية والشعوب الضعيفة بونا شاسعا وججرا محجورا وحجابا مستورا ، فإذا كان الغرب قد عجز عن تطبيق المساواة وتحقيق العدالة والحرية والسلامة والأمن بينه وبين بني البشر فكيف يتزعم أنه يتبنى قضايا المرأة ويسعى إلى مساواتها بالرجل في جميع الأحوال وفي شتى الميادين ؟ .

وإني وكل مسلم غيور لنتساءل : أين حركات تحرير المرأة ومساواتها الكاملة بالرجال؟ أين الجمعيات النسائية ، أين هم من مأساة المسلمات في كوسوفا وفي البوسنة والهرسك وفي كشمير وغيرها ؛ أين كرامة المرأة أين حريتها بل أين أبسط حقوق آدميتها أجيونا يا دعاة الحرية ، أنبؤونا يا أنصار الحضارة الغربية ويا حماة العلمانية ؟

لو أن قردًا نفق في أوروبا لقامت الدنيا وما قعدت !! لو أن كلبًا رُكِلَ أو حبس في أمريكا لتدافع الآلاف للدفاع عن كرامة الكلب وحرته فمن للمسلمات في كوسوفا؟ من للعداري اللاتي يُعْتَصَبْنَ في وضح النهار وأمام أهليهن !! من للجبالي اللاتي يعدّبن ويجهضن !! من للنساء العجائز اللاتي يطردن ويشردن !! .

من للأمهات اللاتي يفرق بينهن وبين أولادهن ، فينزع الوليد من حجر أمه ويخطف الطفل من بين أحضانها !! أي ذنب جناه حتى ينزع من طفولته ويحال بينه وبين أمه .

أين حرية المرأة وكرامتها بل أين الرحمة بل أين العدالة وأين حركات تحرير المرأة التي ملأت الدنيا شعارات رنانة وكلمات طنانة وعبارات جوفاء !! .

بل الأمر كما قيل :

قَتْلُ قَرِيْبٍ بِغَايَةِ جَرِيْمَةٍ لَا تُعْتَفَرُ
وَقَتْلُ شَعْبٍ بِأَسْرِهِ قَضِيَّةٌ فِيهَا نَظَرٌ !!

نعم والله فيها نظر ولكن من ينظر فيها قد عميت بصائرهم وقست قلوبهم وضئت آذانهم ، وخرست ألسنتهم عن النطق بالحق .

أين حقوق المرأة ؟ أين العدالة والمساواة الموعودة ؟ أين أين ... !!!

وهل حصلت المرأة على حق المساواة في غير الإسلام ؟ .

يحكي لنا التاريخ أن المرأة كانت تلاقي العنت والشقاء حتى في المجتمعات المتقدمة والبلاد المتحضرة ، وكان يحكم عليها بالموت إذا خالفت زوجها أو أسرفت في ماله ، وكانت تعد روحا شريرة في بعض البلاد بل عدها مجمع من (مجامع روما) (1) مخلوقا لا عقل له ، وزعم أنه لا حق لها في الآخرة أي أنها لا تبعث كما يبعث الناس وإنما تنتهي حياتها بالموت (2) .

● أما الإسلام فإنه قد جاء ليحقق المساواة بين الرجل والمرأة في المبدأ والمعاش والمعاد: أما في المبدأ فلقد أعلن أن الناس جميعا خلقوا من أصل واحد ولا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى

قال تعالى : ﴿ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاهُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ (3) .

جاء الإسلام ليحارب العصبية القبلية ويمحو التفرقة العنصرية ويذيب كل الفوارق ويصهر الناس في سبيكة واحدة ، ويجمعهم تحت راية واحدة ويوجههم إلى قبة واحدة ،

(1) المجامع هي مجالس استشارية في الكنيسة وهي قسمان مجامع مسكونية أي عالمية ،نسبة إلى الأرض المسكونة ،ومجامع محلية وقد عقدت المجامع المسكونية عدة مرات في القرون الأولى وشهدوا ممثلوا الكنائس من شتى الأقطار وكان السبب الرئيسي في عقدها مناقشة بعض العقائد النصرانية . يراجع : المسيحية / سلسلة مقارنة الأديان أحمد شلبي ص 199 .

(2) يراجع المجتمع الإسلامي كما تنظمه سورة النساء ص 25 تأليف الشيخ محمد المدني ط المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية .

(3) سورة الحجرات : 13 .

يأمرهم بعبادة إله واحد هو الله ﷻ الواحد الأحد الفرد الصمد .

والمرأة في تحمل المسئولية كالرجل ، وإن كانت المسئولية قد تختلف باختلاف طبيعة كل من الرجل والمرأة .. إلا أن هناك الكثير من المسئوليات المشتركة بينهما ، فالمرأة مسئولة عن نفسها وعن بيتها ؛ وفي الحديث الشريف : « كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيتيه ، فالرجل راع في بيته ومسئول عن رعيتيه والمرأة راعية في بيت زوجها ومسئولة عن رعيتها ، والخادم راع في مال سيده ومسئول عن رعيتيه وكلكم راع وكلكم مسئول عن رعيتيه » (1) .

إنها مسئولية عامة ومسئولية خاصة ، مسئولية فردية ومسئولية جماعية .

● والعمل الصالح ، والثواب عليه أمر مشترك بين الرجل والمرأة ، ومع أن الإسلام قد أعفى المرأة من وجوب القيام بالأعمال الشاقة التي لا تتناسب مع طبيعتها كالجهاد وغير ذلك إلا أن هناك ميادين أخرى يمكن للمرأة من خلالها أن تحصل الأجر والثواب بمقدار أجر المجاهدين في سبيل الله قال تعالى : ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (2) .

وقال ﷻ : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (3) .

وقال تعالى : ﴿ فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَمَلٍ مِّنْكُمْ مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنثَىٰ بَعْضُكُمْ مِّنْ بَعْضٍ ﴾ (4) فالمرأة بعض من الرجل ، والرجل بعض من المرأة وكل منهما مكمل للآخر .

ويقول الحق سبحانه : ﴿ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّادِرِينَ وَالصَّادِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْحَافِظِينَ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾ (5) .

(2) سورة التوبة : 71 .

(1) الحديث : سبق تخريجه .

(4) سورة آل عمران : 195 .

(3) سورة النحل : 97 .

(5) سورة الأحزاب : 35 .

وافدة النساء

روى البزار في مسنده عن ابن عباس رضي الله عنه : أن أسماء بنت يزيد الأنصاري رضي الله عنها أتت إلى النبي صلى الله عليه وسلم وهو بين أصحابه فقالت يا رسول الله : إني وافدة النساء إليك - إن الله بعثك بالحق للرجال وللنساء فأمننا بك واتبعناك ، وإنا معشر النساء محصورات مقصورات قواعد بيوتكم وحاملات أولادكم . وأنتم معشر الرجال فضلتم علينا بالجمع والجماعات ، وعيادة المرضى ، وشهادة الجنائز ، وأفضل من ذلك الجهاد في سبيل الله تعالى ، وإن الرجل إذا خرج حاجا أو مرابطا أو معتمرا حفظنا لكم أموالكم وغزلنا لكم أثوابكم ، وربينا لكم أولادكم أفما نشارككم في هذا الأجر والخير يا رسول الله ؟ .

فالتفت رسول الله صلى الله عليه وسلم بوجهه الكريم إلى أصحابه ثم قال : هل سمعتم مقالة امرأة أحسن من هذا عن أمر دينها فقالوا يا رسول الله ما ظننا أن امرأة تهتدي إلى مثل ذلك ؟ . فالتفت النبي صلى الله عليه وسلم إليها ثم قال : « انصرفي أيتها المرأة وأعلمي من خلفك من النساء أن حسن تبعل المرأة لزوجها وطاعتها له وابتغاءها مرضاته يعدل ذلك كله » (1) .

ومن هذا الحديث يتبين لنا : أن المرأة في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم لم تبحث عن مساواة مكلفة أو حرية مزيفة ولكنها كانت تسعى إلى ما يرضي الله ويكون لها أجرا وذخرا يوم تلقاه .

وهذه أم سلمة رضي الله عنها تسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم فتقول له يا رسول الله ما لنا لا نذكر في القرآن كما يذكر الرجال ؟ : فينزل قول المولى صلى الله عليه وسلم : ﴿ فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَمَلٍ مِّنْكُمْ مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُمْ مِّنْ بَعْضٍ ﴾ (2) .

وفي رواية أخرى : يا رسول الله لم أسمع الله ذكر النساء في الهجرة بشيء فأنزل الله الآية (3) .

وقيل في نزول قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾

(1) رواه البزار في مسنده وقال : لا نعلمه يروى عن النبي صلى الله عليه وسلم إلا من هذا الوجه يراجع كشف الأستار حديث 1474 وقال الهيثمي في المجمع رواه البزار وفيه رشدين بن كريب وهو ضعيف ، مجمع الزوائد 308/4 .

(2) سورة آل عمران : 195 .

(3) أسباب النزول للواحدي ص 100 ط دار نهر النيل ، وللسيوطي ص 208 بهامش الجلالين . ورواه الحاكم في المستدرک 300/2 وقال صحيح على شرط البخاري ولم يخرجاه وواقفه الذهبي ، ورواه الترمذي في السنن ك التفسير باب 5 حديث 3023 221/5 .

لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ وَسَأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿١﴾ (١) قيل في سبب نزولها : (أن النساء سألن الجهاد فقلن وددنا أن الله جعل لنا الغزو فنصيب من الأمر ما يصيب الرجال ...) (٢) .

● إن الذي يدعو إلى المساواة المتكلفة والمكلفة بين الرجل والمرأة يتجاهل طبيعة كل منهما ويغفل عن سنة الله في الكون ، فالمرأة والرجل وإن اتفقا في أمور فإنهما مختلفان في أمور أخرى ومع ذلك فلا غنى لأحدهما عن الآخر ، ومثل الرجل والمرأة كمثل الليل والنهار قال الله تعالى : ﴿ وَاللَّيْلُ إِذَا بَغَتْهُ ۖ وَالنَّهَارُ إِذَا تَجَلَّى ۖ وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ۗ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ۗ ﴾ (٣) .

فكما أن الليل مهمته وللنهار أيضا مهمته : كذلك للذكر مهمته وللأنثى مهمتها ، ودورها المنشود في الحياة .

وكما أنه لا غنى عن الليل والنهار فكذلك لا غنى بالرجل عن المرأة ولا بالمرأة عن الرجل فهما مخلوقان متكاملان متلازمان .

لا يستغني أحدهما عن الآخر وفي الحديث (النساء شقائق الرجال) (٤) .

وتأمل معي في قول المولى ﷺ : ﴿ وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ۗ ﴾ (٥) .

وقوله سبحانه : ﴿ مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ۖ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ ۗ ﴾ (٦) .

● يقول الأستاذ الدكتور محمود محمد عمارة عن هذه الآية الكريمة : [... إنها تضع الناس أمام بحرين يلتقيان ، أما أحدهما فعذب فرات يروي غلة الظمآن ، وأما الآخر فملح أجاج لا يسيغه إنسان ، ورغم أن البحرين يلتقيان إلى حد التداخل فيمتزجان في مرأى العين . إلا أنهما لا يبغيان حيث يفصل بينهما حاجز من قدرة الله سبحانه فيبقى كلاهما محتفظا بخصائصه ... إنهما لا يستويان ... ومع ذلك لا يختصمان ، فيبينهما

(1) سورة النساء : 32 .

(2) أسباب النزول للواحي ص 107 ، 108 ورواه الحاكم في المستدرک وقال صحيح الإسناد على شرط الشيخين ولم يخرجاه ووافقه الذهبي 305/2 ، 306 - ورواه الترمذي في السنن كالتفسير باب 5 حديث 3022 .

(3) سورة الليل : 1 - 4 .

(4) سبق تخريجه .

(5) سورة الفرقان : 53 .

(6) سورة الرحمن : 19 ، 20 .

تجانس يجعلهما مصدرا لثروة غذائية معدنية ، وقاعدة لنشاط تجاري هائل ، فإذا كانت مادة البحرين مختلفة ومع هذا فقد تجانسا فعلا معا ؛ رغم اختلاف طبيعتهما - فلم لا يكون الأمر كذلك بالنسبة للذكر والأنثى ، إن مادتهما واحدة وهي الماء ولكل منهما دوره في الحياة الذي يكون مكملا للآخر (1) .

القوامة : هل هي ظلم للمرأة

مسألة القوامة من المسائل التي يتخذ منها أعداء الإسلام دليل إدانة ومقالاً للطعن في التشريع الرباني .

حيث يزعمون - كذباً وزوراً - أن القوامة ظلم للمرأة وامتهان لكرامتها وانتقاص لحقوقها .

فيما يلي أناقش هذا الادعاء الظالم وتلك الدعوى الباطلة ، فأقول وبالله التوفيق :
القوامة تشريع إسلامي حكيم يدل على عدالة الإسلام وحكمته ومراعاته لطبيعة النفس البشرية وصلاح منهجه لكل زمان ومكان ولكل الأجيال في جميع الأحوال .
قال تعالى : ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾ (2) .

وأصل القوامة للشيء : هي مراعاته والمحافظة عليه ، ومنه القيم ، والقائم .

قال صاحب اللسان : قيم المرأة : زوجها لأنه يقوم بأمرها ، وما تحتاج إليه ، وقام الرجل على المرأة : مانها وإنه لقوام عليها أي مائن لها ، ومعنيّ بها ، مكلف بأمرها (3) .

هذا ومدار القوامة كما بينت الآية الكريمة أمران :

الأمر الأول : وهو فطري ﴿بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ أي بما فضل الله الرجال على النساء بسعة الأفق ورحابة الفكر والقدرة على التدبير ومواجهة الصعوبات ومجابهة المعضلات التي يتعرض لها الكيان الأسري .

(1) صفحات من تاريخ المرأة المسلمة ص 49 تأليف أ . د محمود محمد عمارة أستاذ الدعوة والثقافة الإسلامية بكلية أصول الدين جامعة الأزهر فرع شبين الكوم ط المجلس الأعلى للشئون الإسلامية .

(3) لسان العرب لابن منظور / مادة ق و م .

(2) سورة النساء : 34 .

الأمر الثاني : أمر كسي : وهو مسئولية الرجل عن زوجته وأسرته رعاية وحماية وإنفاقاً وتوجيهاً ، قال تعالى : ﴿ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ ﴾ .

فالقوامة تكليف للرجل ليتمكن من القيام بمسئولته على خير وجه والرجل قوام على أهل بيته لأن البيت مملكة صغيرة والأسرة صورة مصغرة من المجتمع ، وقوامة الرجل على أهل بيته لا تعد انتقاصاً أو امتهاناً وإلا كانت الشعوب والرعايا ناقصين ممتهين !!! ولكنه لا بد لكل شعب من حاكم عام كما أنه لا بد لكل بيت من مسئول عام .

وهذا أبو بكر الصديق ؓ يوضح لنا في خطبته حين تولى الخلافة أن الحكم ليس قهراً أو قسراً أو تسلطاً من الحاكم ، وليس عجزاً ونقصاً وامتهاناً للمحكوم ، ويقول أبو بكر الصديق : (أيها الناس قد وليت عليكم ولست بخيركم فإن أحسنت فأعينوني وإن أسأت فقوموني) .

وهذا عمر بن عبد العزيز في خطبته حين تولى الخلافة يقول : (أما وإني لست بخيركم ، ولكني أثقلكم حملاً) .

ومن هنا فإن قوامة الرجل أو رئاسته على المرأة لا ينتقص من كرامتها ولا يقلل من شأنها ، ولا يعني أنها مسخرة للرجل وأنه مسلط عليها : ولكنها مسئولية والتزام وتكليف .

وكما أن للرجل مسئولياته فللمرأة مسئوليات كثيرة ومتنوعة لا تقل شأنًا عن مسئوليات الرجل ، بل إنها تعادلها في الأجر والثواب إن هي أحسنت القيام عليها .

ولما كان الرجل قواماً على المرأة موجهاً لها ؛ فلقد أمره الإسلام بحسن المعاشرة ولين الجانب قال تعالى : ﴿ وَعَايِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ (1) .

وكان ﷺ وهو المثل الأعلى والقُدوة الحسنة والأسوة الطيبة كان أوسع الناس صدراً وألينهم عريكة وأصدقهم لهجة وأوفاهم ذمة وكان أرحم الناس بالنساء والصبيان ، يداعب أهله ويتلطف معهم .

ومن وصاياه ﷺ بالنساء ما رواه الإمام مسلم عن جابر ؓ قال : قال رسول الله ﷺ :

« ... فاتقوا الله في النساء فإنكم أخذتموهن بأمان الله ، واستحللتم فروجهن بكلمة الله ، ولكم عليهن أن لا يُؤاظننَّ فرشكم أحدًا تکرهونه فإن فعلن ذلك فاضربوهن ضربًا غير مبرح ولهن عليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف » (1) .

وروي أيضًا بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا يفرك مؤمن مؤمنة إن كره منها خلقًا رضي منها آخر » (2) .

هذا وللمرأة طبيعتها ومهمتها في الوجود كما أن للرجل طبيعته ومهمته ، والمرأة تواقفة إلى قوامه الرجل عليها ، تجد سعادتها وراحتها وأمنها في وجود رجل يقوم على شئونها ويشبع عاطفتها . فالقوامه رحمة بالمرأة ورعاية لها ومراعاة لطبيعتها وهي لا تعني إلغاء شخصية المرأة في البيت أو المجتمع وإنما هي مسئولية تنظيمية ووظيفة شرعية داخل الكيان الأسري لإدارته وصيانته وحمايته كما أن السفينة لا بد لها من ملاح والقافلة لا بد لها من حادٍ والركب لا بد له من أمير والعمل لا بد له من مدير .

ونقول لمن يعترض على القوامه : هل نترك سفينة الحياة الزوجية بلا قيادة ؟ أو يقودها الزوجان معًا ؟ أو تتولاها المرأة وحدها ؟ أما الاحتمال الأول فيخالف العقل والمنطق لأنه غني عن القيادة ، وأما الاحتمال الثاني فإن قائدين لسفينة واحدة تؤدي إلى غرقها ، وأما الاحتمال الثالث فإن طبيعة المرأة لا تتواءم مع هذه المهمة .

وأختم كلامي في هذا الموضوع بما نقله الأستاذ عبد الوهاب مطاوع في جريدة الأهرام في عدد الجمعة 12/3/1993 عن الشاعر الهولندي المعروف بالآب كاتس : يقول نقلب البيت رأسًا على عقب حين يسكت الديك وتصيح الدجاجة ، ويعلق الكاتب على هذه العبارة قائلًا : والمقصود بالعبارة هو أن الحياة الزوجية تختل بالفعل حين لا يقوم كل طرف من أطرافها بالدور الذي تؤهله طبيعته لأدائه أو حين يحاول القيام بدور مخالف تمامًا لهذه الطبيعة .

(1) رواه الإمام مسلم في صحيحه ك / الحج حديث 2137 - واللفظ لمسلم ، ورواه أبو داود في السنن ك / المناسك حديث 3065 .

(2) رواه الإمام مسلم في صحيحه ك / الرضاع حديث 2672 .

حق المرأة في الميراث

الإسلام دين العدالة والإنصاف والرضا والعفاف والمودة والرحمة والتآلف والتعاطف والتعاون والتضامن .

ونظام الميراث في الإسلام نظام عادل حكيم وتشريع دقيق قويم لأنه من عند الله ﷻ وهو الذي فرضه وقدره وقسمه وهو العليم بما يصلح العباد في عاجلهم وآجلهم في معاشهم وفي معادهم .

والغريب أن أعداء الإسلام يتهمونه بأنه ظلم المرأة وانتقصها حقها وجعل ميراثها نصف ميراث الرجل ، لذا يطالبون بمساواة المرأة بالرجل في حين طالب البعض بإعطائها ضعف الرجل في الميراث نظراً لضعفها وقلة حيلتها وهوانها .

ومن العجيب : أن الذين يعترضون على حكم الله ﷻ في الميراث يتعللون بضعف المرأة واحتياجها إلى المعونة بينما تراهم ينكرون ويتجاهلون ضعف المرأة وقصورها حين يتحدثون عن القوامة والرياسة وتولي المرأة القضاء والأعمال الشاقة ، وذلك يدل على تخبطهم وضلالهم عن الحق ومجافاتهم للواقع وانحرافهم عن الفطرة السليمة .

لقد كانت المرأة في الجاهلية محرومة من الميراث ، وكانت حجة أهل الجاهلية في ذلك أنها لا تحمل السلاح ولا تزود عن الحياض كما يفعل الرجال ، ولم يكتفوا بحرمانها من الميراث ولكنهم جعلوها سلعة تباع وتشترى وتورث كما يورث المتاع إذا مات عنها زوجها .

وهكذا كان حالها عند اليونان تباع وتشترى وهي سلبية الحرية فاقدة للأهلية .

أما عند الرومان فلقد حرمت من حقها في الملكية وهي التصرف في مالها .

وفي شريعة حمورابي كانت المرأة مملوكة مهينة .. وكان من قوانينهم أن من قتل بنتاً لرجل فإنه يسلم ابنته ليقتلها أو ليتملكها .

أما في الأحكام اليهودية فإنه لا ميراث للمرأة من أبيها في وجود أخيها كما أنها إذا مات عنها زوجها يرثها إخوته كما يورث المتاع .

وفي أوروبا كان ظلم المرأة واحتقارها وامتهانها هو الطابع السائد ومن العجيب أن القانون الإنجليزي حتى عام 1805 م كان يبيح للرجل أن يبيع زوجته ، أما الثورة الفرنسية

فإنها اعتبرت المرأة قاصرة فاقدة الأهلية واستمر ذلك حتى تعديل القانون الفرنسي عام 1938 م .

أما ديننا الحنيف دين السماحة واليسر والعدالة والبر فلقد كرم المرأة وأعاد لها حقوقها التي سلبتها الأديان المحرفة والمذاهب الوضعية الزائفة ، والحضارات البائدة والتقاليد الراكدة ، أعاد إليها حقها في التملك والتصرف فيما تملك وحقها في الميراث . قال تعالى : ﴿ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴾ (1) ، فكما أن للرجل نصيبه من الميراث فللمرأة أيضًا نصيبها الذي قدره الله ﷻ لها ، وقد يزيد عن نصيب الرجل وقد يتساوى وقد يقل .

أما أمثلة الزيادة فنذكر منها ما يلي :

- ماتت وتركت زوجًا وبتنًا وأخًا شقيقًا : فللزوج الربع وللبنات النصف وللأخ الشقيق الباقي .

- ماتت وتركت زوجًا وبتنين وأخًا شقيقًا : للزوج الربع وللبنتين الثلثان وللأخ الشقيق الباقي .

- ومثال ذلك أيضًا البنت مع ابن الابن عند وجود أم أو أب ، أو زوجة أو زوج فإن البنت تأخذ أكثر من ابن الابن .

- ومثل بنتين مع أب وأم وزوجة تأخذان أكثر من ابنتين مع الأب والأم والزوجة .

وأما أمثلة التساوي : فنذكر منها أيضًا :

- ميراث الأخ الشقيق مع البنت كميراث الأخت الشقيقة مع البنت ، وميراث الأم كميراث الأب إذا كان للميت أولاد وميراث الجد مع الجدة عند وجود الابن ، وميراث الأخ لأم مع الأخت لأم ، قال تعالى : ﴿ وَإِنْ كَانَتْ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَلَةً أَوْ امْرَأَةً وَوَلَةً أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَجِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ فَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ ﴾ (2) .

(2) سورة النساء : 12 .

(1) سورة النساء : 7 .

- وفي بعض الحالات ترث المرأة ولا يرث الذكر مع اتحاد القرب والدرجة فأم الأم ترث وأب الأم في درجتها لا يرث ، والأخت الشقيقة ترث مع البنت وتحجب الأخ لأب فلا يرث وفي بعض الحالات ترث بنت الابن ولا يرث ابن الابن وكذا الأخت لأب ترث في حالات لا يرث فيها الأخ لأب .

وهذه الأمثلة عملية تبين لنا أن ميراث الرجل والمرأة في الإسلام لا يقوم مطلقاً على تفضيل الرجال على النساء كما يدعي أعداء الإسلام ، فالذي قضى وقدر وفرض وحدد هو الله ﷻ وهو العليم الحكيم ، يعلم ما يصلح العباد في دنياهم وأخراهم .
لنفرض أن رجلاً مات عن ابن وبنت وترك لهما مالا فماذا سيكون مصير هذا المال بعد أمد قليل .

إنه بالنسبة للبنت لا ينقص فنفتها واجبة على أخيها مادامت لم تتزوج ، وقد يزيد مالها بالتجارة أو بأي وسيلة أخرى من وسائل الاستثمار ؛ بالإضافة إلا أنها تأخذ صداقها من زوجها ولا تتحمل شيئاً من أعباء الزواج وتكاليفه كما أن نفقتها واجبة على زوجها حال حياته وعلى أولادها من بعده ، أما بالنسبة لأخيها فينفق على نفسه وعليها وإذا أراد الزواج فإنه يدفع للزوجة الصداق ويقوم بتأثيث بيت الزوجية .

ثم عليه بعد ذلك أن ينفق على زوجته وعياله ، فهل من الحكمة بعد ذلك كله أن تكون المرأة هي المنتفعة على طول الخط والمعفاة من كل نفقة على هذا الوجه ؟
هل من الحكمة مع هذا أن يكون نصيبها مثل نصيب الرجل في جميع الأحوال ؟ وهل الذين لا يعجبهم حكم الله أعلم من الله وأرحم بالعباد من أرحم الراحمين ؟ .

الترغيب في كفالة اليتيم

حرص الأحرار من بني إسرائيل على كفالة مريم وتنافسوا على ذلك تنافسا شريفا وصل بهم إلى حد الاقتراع لحرص كل واحد منهم على الأجر والثواب ، فمريم بنت إمامهم ومعلمهم ، وهي طفلة يتيمة تحتاج إلى يد حانية وإلى قلب عطوف ، يقودها إلى بر الأمان .
ولقد حثنا الإسلام على كفالة اليتيم ، وأمر بإصلاح شأنه والمحافظة على ماله ، وتنميته ، حتى يبلغ سن الرشد .

قال تعالى : ﴿ وَأَبْلُوا إِلَيْنَا حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ

أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهَدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴿١﴾ .

وقال ﷺ أمرًا بإعطاء اليتيم حقه من المال ونهايا عن أكل أموال اليتامى ﴿١﴾ وَأَتُوا اليتيمَ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَبَدَّلُوا الْخَيْرَ بِالْأَسْفَلِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴿٢﴾ (٢) أي إيما كبيرا .

وقال ﷺ ناهيا عن قرب مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن ﴿٣﴾ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا ﴿٣﴾ .

فعلى المسئول عن اليتيم أن لا يقرب ماله إلا لإصلاحه وتنميته حتى يسلمه لليتيم عند بلوغه سن الرشد .

● ولقد بين المولى ﷺ عقوبة أكل مال اليتامى فقال في كتابه الكريم متوعدا من يرتكب هذه الكبيرة : ﴿٤﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلُونَ سَعِيرًا ﴿٤﴾ .

وقال ﷺ في حديثه الشريف : « اجتنبوا السبع الموبقات » : قالوا وما هن يا رسول الله ؟ قال : « الشرك بالله والسحر وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق وأكل مال اليتيم وأكل الربا والتولي يوم الزحف ، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات » (٥) .

● هذا : ولقد بشر رسول الله ﷺ القائمين على أمور اليتامى والمصلحين لشئونهم والمتعهدين بكفالتهم وتربيتهم بمنزلة عالية في الجنة ، فقال ﷺ : « الساعي على الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله » قال أبو هريرة ؓ وأحسبه قال : « وكالقائم لا يفتر وكالصائم لا يفطر » (٦) .

(2) سورة النساء : 2 .

(1) سورة النساء : 6 .

(4) سورة النساء : 10 .

(3) سورة الإسراء : 34 .

(5) رواه الإمام البخاري في صحيحه عن أبي هريرة ؓ كتاب الحدود باب رمي المحصنات [فتح الباري 188/12]

ورواه الإمام مسلم في صحيحه كتاب الإيمان باب أكبر الكبائر صحيح مسلم بشرح النووي 83/2 .

(6) رواه البخاري في صحيحه كتاب الأدب باب الساعي على الأرملة / فتح الباري حديث 6006 - 451/10 .

ورواه الإمام مسلم في صحيحه كتاب الزهد باب فضل الإحسان إلى الأرملة والمسكين واليتيم / صحيح

مسلم بشرح النووي 112/18 .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم كافل اليتيم له أو لغيره أنا وهو كهاتين في الجنة وأشار بالسبابة والوسطى (1) .

وعن أبي هريرة أيضا قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أنا أول من يفتح باب الجنة إلا أنني أرى امرأة تبادرني فأقول لها : مالك ؟ ومن أنت ؟ فتقول : أنا امرأة قعدت على أيتام لي (2) .

● وما سبق يتبين لنا مدى حرص الإسلام ، وترغيبه في كفالة اليتيم بتعهده وإصلاح شأنه والحفاظ على ماله وتنميته له ، وإكرامه وحسن معاملته ، كما نهانا الإسلام وحذرنا من أكل أموال اليتامى ظلما ، ومن إهانتهم وسوء معاملتهم وإهمالهم والتخلي عنهم .

كرامات الأولياء

قال تعالى في قصة مريم عليها السلام : ﴿ كَلَّمَآ دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَمْرِؤُْمُ أَنَّى لَئِبْ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ (3) .

في هذه الآية دليل على وقوع الكرامات للأولياء ، فهذا الرزق الذي ساقه المولى صلى الله عليه وسلم لمريم بغير حساب وبهذا الأمر العجاب كرامة لها .

والكرامة هي أمر خارق للعادة يظهره الله على يد عبد صالح غير مدع للرسالة (4) ، وهي مأخوذة من الكرم والإكرام لأنها كرم وجود من المولى صلى الله عليه وسلم وإكرام لصاحبها

(1) رواه الإمام مسلم في صحيحه بلفظه عن أبي هريرة كتاب الزهد باب فضل الإحسان إلى الأرملة والمسكين واليتيم / صحيح مسلم بشرح النووي 112/18 ، 113 .

ورواه الإمام البخاري في صحيحه عن سهل بن سعد ونصه أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا وقال بإصبعيه السبابة والوسطى ، كتاب الأدب باب فضل من يعول يتيما فتح الباري حديث 6005 - 450/10 .

(2) رواه أبو يعلى في مسنده حديث 6621 - 125/6 وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد 162/8 وقال رواه أبو يعلى عن أبي هريرة وفيه عبد السلام بن عجلان وثقه أبو حاتم وابن حبان وقال يخطئ ويخالف وبقية رجاله ثقات .

(3) سورة آل عمران : 37 .

(4) يراجع : المختار من شرح البيجوري على الجوهرة المسمى تحفة المرید على جوهرة التوحيد للشيخ إبراهيم البيجوري ص 183 ط 1401 هـ . ص 183 ط المعاهد الأزهرية سنة 1401 هـ سنة 1981 م .

ويراجع تبسيط العقائد الإسلامية للشيخ الداعية حسن أيوب ص 176 ط دار الاعتصام ط 3 سنة 1398 هـ سنة 1978 م ويراجع أيضا عقيدة المؤمن للشيخ أبي بكر جابر الجزائري ص 142 : 150 ط مكتبة الدعوة الإسلامية ، مطبعة الحلبي بالقاهرة .

وتكريم له .

وعقيدة أهل السنة والجماعة الإيمان بها ، والتسليم لها إذا وقعت أو وصلت للسامع عن طريق الرواة الثقات .

قال الإمام القاسمي وفي الآية : ﴿ كَلَّمَ دَخَلَ عَلَيْهَا زَكْرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا ... ﴾ دليل على وقوع الكرامة لأولياء الله تعالى كما وقعت لحبيب بن عدي الأنصاري ؓ حين أسر بمكة وحبس بها فخرجوا به من مكة ليقتلوه في الحل ، وقد وجد عنده وهو في محبسه قطف من العنب ، جاء إليه من عند الله ﷻ كرامة له وتثبيتا لقلبه والقصة في صحيح البخاري (1) .

وقال الإمام الطحاوي ؓ : [ونؤمن بما جاء من كراماتهم ، وصح عن الثقات في رواياتهم] (2) .

وقال صاحب جوهره التوحيد : [وَأُثِّبْنَ لِلأَوْلِيَاءِ الْكِرَامَةَ .. ومن نفاها أُنْبِذَن كلامه] وقال الإمام البيجوري : [والكرامة أمر خارق للعادة يظهر على يد عبد ظاهر الصلاح ملتزم لمتابعة نبي مكلف بشريعته مصحوب بصحيح الاعتقاد والعمل الصالح علم بها أو لم يعلم] (3) .

والكرامة ثابتة للولي : والولي هو المؤمن التقى ، الذي استقام على منهج الله قال تعالى : ﴿ أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٦﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴾ (4) .

وقال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشُرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٧﴾ نَحْنُ أَوْلِيَائُكُمْ فِي

(1) صحيح البخاري عن أبي هريرة ؓ وفي الحديث تحكي بنت الحارث بن عامر - وكان حبيب قد قتل أبها في غزوة بدر - تحكي بنت الحارث تقول : [والله ما رأيت أسيرا قط خيرا من حبيب ، والله لقد وجدته يوما يأكل من قطف عنب في يده وإنه لموثق في الحديد وما بمكة من ثمر .. وإنه لرزق من الله رزقه حبيبا ...] صحيح البخاري كتاب الجهاد والسير ، باب هل يستأسر الرجل ؟ ومن لم يستأسر ، ومن ركع ركعتين عند القتل / فتح الباري 6/ 191 ، 192 .

(2) شرح العقيدة الطحاوية : للإمام الطحاوي ، شرح / علي بن علي بن محمد بن أبي العز الدمشقي وتحقيق / شعيب الأرنؤوط ص 495 ط دار البيان بدمشق ، ط 1 سنة 1401 هـ سنة 1981 م .

(3) المختار من شرح البيجوري على الجوهره ص 183 ، 184 .

(4) سورة يونس : 62 ، 63 .

الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهَى أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ ﴿٣١﴾ تَزُولُ مِنْ عَفْوَِرٍ رَّحِيمٍ ﴿١﴾ .

وللولاية مراتب متعددة ؛ متفاوتة بتفاوت درجات الإيمان والتقوى (2) .

وفي الحديث الشريف الذي رواه الإمام البخاري في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله قال : من عادى لي وليا فقد آذنته بالحرب ، وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضته عليه ، وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها ، وإن سألني لأعطينه ، ولئن استعاذ بي لأعيذنه ، وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن نفس المؤمن يكره الموت وأنا أكره مساءته » (3) .

فلا بد للولي أن يكون مؤمنا تقيا ، مستقيما على منهج الله صلى الله عليه وسلم .

قال الشيخ البيجوري في شرحه لجوهرة التوحيد : [والأولياء جمع ولي وهو العارف بالله تعالى وبصفاته حسب الإمكان ، المواظب على الطاعة المجتنب للمعاصي ، بمعنى أنه لا يرتكب معصية بدون توبة ، وليس المراد أنه لاتقع منه معصية بالكلية إذ ليس معصوما] (4) .

وقال ابن حجر : في شرح حديث من عادى لي وليا : [والمراد بالولي العالم بالله المواظب على طاعته ، المخلص في عبادته] (5) .

وما حدث لمريم عليها السلام ، دليل على وقوع الكرامة ، وقد حدثت كرامات كثيرة للصحابة الكرام وللتابعين ، ولغيرهم من أولياء الله الصالحين . ﷺ أجمعين .

من ذلك ما حدث لأبي بكر الصديق حين جاء بيته ومعه أضياف وأحضر لهم طعاما ، فكانوا لا يأكلون لقمة إلا ربا من أسفلها أكثر منها حتى أكلوا وشبعوا جميعا وصار الطعام أكثر مما كان فرفع أبو بكر الطعام إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأكل من الطعام أقوام

(1) سورة فصلت : 30 - 32 .

(2) يراجع الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان لابن تيمية [مجموعة التوحيد ص 444 ط دار الإسلام للنشر والتوزيع بدون تاريخ] .

(3) رواه الإمام البخاري في صحيحه ، كتاب الرقاق ، باب التواضع / فتح الباري 11/348 ، 349 .

(5) فتح الباري 11/350 .

(4) المختار من شرح البيجوري ص 184 .

كثيرون (1) .

● والبراء بن مالك كان إذا أقسم على الله تعالى أبر قسمه وكان إذا اشتد الأمر بالمسلمين في الحرب يطلبون منه أن يقسم عليه تعالى أن ينصرهم ويهزم عدوهم ، فيقسم على الله بذلك ويبر الله له قسمه وقد أقسم على الله ﷻ في معركة القادسية وقال : أقسمت عليك يا رب لما منحتنا أكتافهم وجعلتني أول شهيد ، فمنحوا أكتافهم - يعني هزموا أعداء الله - واستشهد البراء في هذه المعركة .

● وعمر بن الخطاب ﷺ له كرامات كثيرة منها أنه لما أرسل جيشا إلى بلاد الفرس ، وأمر عليهم رجلا يدعى سارية ، فبينما عمر يخطب إذ به يصيح على المنبر يا سارية .. الجبل .. الجبل . ولما قدم رسول الجيش مبشرا بنصر المؤمنين في المعركة بقيادة سارية قال لعمر : يا أمير المؤمنين لقينا عدونا فهزمونا وجاءهم مدد كثير أحاط بنا فسمعنا صوتا يشبه صوتك يقول يا سارية الجبل فلجأنا إلى الجبل ، وأعدنا صفوفنا ونصرنا الله على أعدائنا ... فكان القائل يا سارية الجبل هو سيدنا عمر وكانت هذه الصيحة المدوية سببا من أسباب نصر المسلمين ، وكرامة لأمير المؤمنين عمر ﷺ (2) .

ومما سبق يتبين لنا حقيقة الكرامة ، ووقوعها ، والكرامة تقع من الولي ، والولي هو المؤمن التقى ، وما حدث لمريم هو كرامة لها ، ولقد ذكرنا أمثلة أخرى تدل على وقوع الكرامة ..

(1) رواه الإمام البخاري في صحيحه عن عبد الرحمن بن أبي بكر ﷺ ك / الأدب باب / قول الضيف لصاحبه والله لا آكل حتى يأكل حديث 6141 فتح الباري 10/551 ورواه الإمام مسلم في صحيحه عن عبد الرحمن بن أبي بكر ﷺ كتاب الأشربة / باب إكرام الضيف وفضل إثاره حديث 2057 صحيح مسلم تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي 1627/3 ط دار إحياء الكتاب العربي بدون تاريخ .

(2) يراجع الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان لابن تيمية / مجموعة التوحيد ص 511 ولقد ذكر ابن تيمية في هذا الكتاب أمثلة عديدة من الكرامات التي حدثت للصالحين من الصحابة والتابعين وغيرهم . من أهل التقى والصلاح . الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان / مجموعة التوحيد / ص 509 : 514 ويراجع حياة الصحابة للشيخ محمد يوسف الكاندهلوي 3/532 : 682 ط دار التراث القاهرة - بدون تاريخ ويراجع رياض الصالحين للإمام النووي ﷺ أي زكريا يحيى بن شرف النووي الدمشقي (631 - 676 هـ) (باب كرامات الأولياء وفضلهم) وقد ذكر فيه جملة من الكرامات في ضوء الكتاب والسنة / ص 565 ط دار المأمون للتراث دمشق بيروت سنة 1402 هـ سنة 1982 .

مشروعية القرعة في الإسلام

ومن الأحكام المستفادة من القصة : مشروعية القرعة .

قال تعالى : ﴿ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُ أَقْلَمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾ (1) .

قال الإمام القرطبي رحمته الله : استدل بعض علمائنا بهذه الآية على إثبات القرعة وهي أصل في شرعنا لكل من أراد العدل في القسمة ، وهي سنة عند جمهور الفقهاء في المستويين في الحجة ليعدل بينهم وتطمئن قلوبهم وترتفع الظنة عمن يتولى قسمتهم ولا يفضل أحد منهم على صاحبه إذا كان المقسوم من جنس واحد ؛ اتباعا للكتاب والسنة [(2)] .

وقد عقد الإمام البخاري في صحيحه ، - كتاب الشركة - بابا بعنوان : هل يقرع في القسمة ؟ . وفي كتاب الشهادات عقد بابا بعنوان - باب القرعة في المشكلات ، وقوله عليه السلام : ﴿ إِذْ يَقُولُ أَقْلَمَهُمْ ... ﴾ .

وذكر حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مثل القائم على حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها فكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم ، فقالوا لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقا ولم نؤذ من فوقنا ؟ فإن يتركوهم وما أرادوا هلكوا جميعا ، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعا » (3) .

وروى الإمام البخاري أيضا : عن عائشة رضي الله عنها قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أراد سفرا أقرع بين نسائه فأيتهن خرج سهمها خرج بها معه ، وكان يقسم لكل امرأة منهن يوما وليلتها ... إلخ الحديث (4) .

- وروى الإمام البخاري أيضا عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : لو يعلم

(1) سورة آل عمران : 44 .

(2) الجامع لأحكام القرآن للإمام القرطبي 86/4 ويراجع أيضا ما ذكره عن القرعة في تفسير قوله تعالى عن يونس عليه السلام ﴿ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ ﴾ سورة الصافات آية : 141 / تفسير القرطبي 124/15 : 126 .

(3) رواه البخاري في صحيحه عن النعمان بن بشير ، كتاب الشركة - باب هل يقرع في القسمة ؟ والاستهم فيه / فتح الباري 157/5 ورواه أيضا في كتاب الشهادات ، باب القرعة في المشكلات فتح الباري 345/5 ، 346 .

(4) رواه الإمام البخاري في صحيحه / كتاب الشهادات باب القرعة في المشكلات / فتح الباري 346/5 .

الناس ما في النداء والصف الأول ثم لم يجدوا إلا أن يستهموا عليه لاستهموا ... إلخ الحديث (1) .

وفي هذه الأحاديث ما يدل على مشروعية القرعة والاستهم أي الاقتراع في المشكلات .

رد على شطحات بعض المتصوفة

ذذهب بعض غلاة المتصوفة إلى أن العبد يسقط عنه التكليف بعد وصوله إلى درجة الولاية ، حينئذ يصير « فعله لا فعل ووزره « وزر » على حد قول أحدهم .

يقول الهجويري في كتابه كشف المحجوب في بيان هذه الضلالة (وفريق من الملاحدة . المنتسبين إلى الصوفية - قالوا : تلزم الخدمة إلى أن يصير العبد وليًا ، فإذا صار وليًا ارتفعت الخدمة) (2) .

وعلق الهجويري على هذه الضلالة بقوله : (ولا يوجد في طريق أي مقام يرتفع فيه أي ركن من أركان الخدمة) .

وقد ردّ أيضًا على هذه الضلالة كثير من أعلام الصوفية ، وبينوا أن من شروط لزوم الولاية العمل بالكتاب والسنة ، يقول الجنيد : (من لم يحفظ القرآن الكريم ولم يكتب الحديث لا يقندي به في هذا الأمر - يعني التصوف - لأن علمنا هذا مقيد بالكتاب والسنة) ويقول القشيري : (حتى يكون الولي وليًا يجب قيامه بحقوق الله تعالى على الاستقصاء والاستيفاء) (3) .

أقول : وفي قصة مريم عليها السلام دليل على أن التكليف لا يسقط عن العبد حتى ولو ارتقى إلى أعلى الدرجات وأسمى المقامات الإيمانية بل إنه كلما ازداد رفعة وارتقاء زاد لله تعالى عبادة وطاعة وحبًا وقربًا ، وهذه مريم عليها السلام بشرتها الملائكة بأن الله اصطفاها وطهرها واصطفاها على نساء العالمين ثم عقبته الملائكة الكرام ذلك بيان أن من مقتضيات هذا الاصطفاء : المزيد من الاجتهاد في الطاعات شكرًا لله تعالى .

(1) رواه الإمام البخاري في صحيحه / كتاب الشهادات - باب القرعة في المشكلات فتح الباري 346/5 .

(2) كشف المحجوب للهجويري 453/2 ط المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية سنة 1395 هـ .

(3) الرسالة القشيرية للإمام القشيري ص 431 ط بيروت لبنان .

قال تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَكَةُ يَمْرَيْمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ﴿١٢١﴾ يَمْرَيْمُ اقْنِي لِرَبِّكِ وَأَسْجُدِي وَأَذْكِعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴾ (1) .

فائدة حول نفخ الروح في عيسى عليه السلام

- قال تعالى : ﴿ يَتَأَهَّلَ الْكِتَابَ لَا تَقْلُوبُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ ﴾ (2) وقال تعالى : ﴿ وَالَّتِي أَحْصَيْنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ ﴾ (3) .

وقال سبحانه : ﴿ وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَيْنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَقْتَ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتِبَ عَلَيْهَا إِتْقَانُ الْإِسْلَامِ وَذِكْرُ اللَّهِ عَالِمًا إِنَّ اللَّهَ فَاعِلُ الْاَعْمَالِ ﴾ (4) .

وكلمة ﴿ وَرُوحٌ مِنْهُ ﴾ ، و ﴿ مِنْ رُوحِنَا ﴾ لا تعني أنها جزء وبعض من الله فحرف ﴿ مِنْ ﴾ هنا ليس للتبعيض وإنما لابتداء الغاية .

وبهذه المناسبة يروى أن طبيباً نصرانياً كان يعالج الرشيد ، وكان يناظر علي بن الحسين الواقدي المروزي ، وفي ذات يوم قال النصراني للإمام علي بن الحسين الواقدي : إن في كتابكم ما يدل على أن عيسى جزء من الله وتلى الآية التي ذكرناها من سورة المائدة .

فقرأ بعدها الواقدي قول الله ﷻ : ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ ﴾ (5) وقال إذن يلزم أن يكون جميع تلك الأشياء جزءاً منه تعالى ؟ فأفحم النصراني ، وأسلم ، وفرح الرشيد فرحاً شديداً ووصل الواقدي بصلات عظيمة (6) .

أقول وحال عيسى عليه السلام كحال آدم وسائر البشر قال تعالى مبيناً خلق آدم : ﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي خَلِّقُ بَشَرًا مِنْ طِينٍ ﴿١٧﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴾ (7) ولم يقل أحد بأن آدم إله لأن الله نفخ فيه من روحه ، وفي الحديث

(2) سورة النساء : 171 .

(1) سورة آل عمران : 42 ، 43 .

(4) سورة التحريم : 12 .

(3) سورة الأنبياء : 91 .

(6) إرشاد العقل السليم لأبي السعود 259/2 .

(5) سورة الجاثية : 13 .

(7) سورة ص : 71 ، 72 .

الشريف الذي رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال :
 حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الصادق المصدوق « إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه
 أربعين يوماً . ثم يكون في ذلك علقة مثل ذلك . ثم يكون في ذلك مضغة مثل ذلك .
 ثم يرسل الملك فينفخ فيه الروح . ويؤمر بأربع كلمات : بكتب رزقه وأجله وعمله
 وشقي أم سعيد . فوالذي لا إله غيره ! إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون
 بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب . فيعمل بعمل أهل النار ، فيدخلها . وإن
 أحدكم ليعمل بعمل أهل النار . حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع . فيسبق عليه
 الكتاب . فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها » (1) .

فائدة حول حكم تمنى الموت

يتبادر لنا ونحن نتدارس قول المولى عليه السلام حكاية عن مريم عليها السلام حين اشتد عليها
 الخطب وضاق بها الأمر ﴿ فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَىٰ جِئِذِ النَّحْلِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا
 وَكُنْتُ نَسِيًّا مَّنْسِيًّا ﴾ (2) .

يتبادر لنا هذا التساؤل : هل يجوز للمسلم أن يتمنى الموت ؟ وبداية : نقول : إن الحياة
 نعمة من الله صلى الله عليه وسلم فهي قنطرة للآخرة وواجبنا أن نعبرها ، لا أن نعرها ، والدنيا مزرعة
 للآخرة ، ومن جدّ وجد ومن زرع حصد ، وعلي قدر المغارس يكون اجتناء الغارس قال
 تعالى : ﴿ وَأَبْتَعْ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ﴾ (3) .
 وأنشد محمود الوراق :

لا تُتْبِعِ الدُّنْيَا وَأَيَّامَهَا ذُمَّا وَإِنْ دَارَتْ بِكَ الدَّائِرَةُ
 مِنْ شَرَفِ الدُّنْيَا وَمِنْ فَضْلِهَا أَنْ بِهَا تُسْتَدْرِكُ الْآخِرَةَ

فعلى المؤمن أن يغتنم كل لحظة من حياته في عمل الصالحات ، فالمرء أسير عمر يسير ،
 والمرء مقترض من عمره المنقرض .

(1) الحديث : رواه البخاري في صحيحه عن عبد الله بن مسعود ك / بدء الخلق ب / ذكر الملائكة ح 3208
 فتح الباري 6/350 ورواه مسلم في صحيحه عنه - واللفظ له ك / القدر ب / كيفية خلق آدمي في بطن أمه
 وكتابة رزقه وأجله وعمله - وشقاوته وسعادته ح 2643 صحيح مسلم بشرح النووي 16/189 ، 190 .

(3) سورة القصص : 77 .

(2) سورة مريم : 23 .

والمرء يفرح بالأيام يقطعها وكل يوم مضى نقص من الأجل

● روى الإمام أحمد في مسنده عن عبد الرحمن بن أبي بكرة عن أبيه ، أن رجلا قال يا رسول الله أي الناس خير ؟ قال : من طال عمره وحسن عمله (1) .

● وروى الإمام أحمد في مسنده عن عمرو بن الحمق الخزاعي رضي الله عنه أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول إذا أراد الله بعبده خيرا استعمله قيل وما استعمله ؟ قال يفتح له عملا صالحا بين يدي موته حتى يرضى عنه من حوله (2) .

وروى الإمام أحمد في مسنده عن أبي عتبة الخولاني رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا أراد الله بعبده خيرا غسله ، قيل : وما غسله ؟ قال يفتح له عملا صالحا قبل موته ثم يقبضه عليه » (3) .

ومن هنا نعلم مدى أهمية الوقت في حياة المسلم ، وأن طول العمر مع حسن العمل خير وبركة ونعمة من الله على العبد المؤمن .

ولقد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن تمني الموت عند حدوث مكروه ونزول ضرر . روى الإمامان البخاري ومسلم في صحيحيهما عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا يتمنى أحدكم الموت لضر نزل به فإن كان لأبد متمنيا للموت فليقل اللهم أحيني ما كانت الحياة خيرا لي وتوفني إذا كانت الوفاة خيرا لي » (4) .

(1) رواه الإمام أحمد في مسنده / الفتح الرباني كتاب الجنائز باب / كراهة تمني الموت وفضل طول العمر مع حسن العمل 50/7 ورواه الترمذي في السنن من حديث عبد الله بن بسر وقال حديث حسن صحيح سنن الترمذي ك الزهد باب / ما جاء في طول العمر للمؤمن حديث 2330 - 489/4 .

(2) رواه الإمام أحمد في مسنده الفتح الرباني ك الجنائز باب / من مات على شيء بعثه الله عليه 41/7 ، 42 ، ورواه الحاكم في المستدرک وقال صحيح على شرطهما ولم يخرجاه ووافقه الذهبي . المستدرک 340/1 .

(3) رواه الإمام أحمد في مسنده ك الجنائز ب / من مات على شيء بعثه الله عليه 41/7 ، 42 ورواه الحاكم عن عمرو بن الحمق وصححه ووافقه الذهبي 340/1 وقال المنذري في الترغيب والترهيب (وعسله) من العسل وهو طيب الثناء ، وقال بعضهم هذا مثل أي وقفه الله لعمل صالح يتحفه به كما يتحف الرجل أخاه إذا أطعمه العسل - الترغيب والترهيب للمنذري 135/4 .

(4) رواه الإمام البخاري في صحيحه كتاب الدعوات باب الدعاء بالموت والحياة حديث 6351 فتح الباري 154/11 . ورواه الإمام مسلم في صحيحه كتاب الذكر والدعاء باب كراهة تمني الموت لضر نزل به - صحيح مسلم بشرح النووي 7/17 - ورواه الإمام أحمد في مسنده / الفتح الرباني ك / الجنائز باب كراهة تمني الموت وفضل طول العمر مع حسن العمل - 43/7 ، 44 .

وروى الإمام مسلم في صحيحه أيضا عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا يتمنى أحدكم الموت ولا يدع به من قبل أن يأتيه إنه إذا مات أحدكم انقطع عمله ، وإنه لا يزيد المؤمن عمره إلا خيرا » (1) .

وروى البخاري ومسلم في صحيحهما عن إسماعيل بن أبي خالد عن قيس بن حازم قال : أتيت خبابا وقد اکتوى سبعا (2) قال : لولا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهانا أن ندعو بالموت لدعوت به (3) .

● ويجوز الدعاء بطلب الموت عند وقوع الفتن واشتداد الحزن ، وخوف المؤمن على نفسه من الافتتان ، ومن ذلك أيضا ما يتعرض له المسلم في بعض المجتمعات من الاضطهاد والتعذيب والمساومات ففي مسند الإمام أحمد من حديث معاذ رضي الله عنه وفيه يقول صلى الله عليه وسلم في دعائه المأثور : « وإذا أردت بقوم فتنة فتوفني إليك غير مفتون » (4) .

وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر الرجل فيقول : يا ليتني مكانه » (5) .

ومن هنا يتبين لنا جواز تمني الموت عند وقوع الفتن ، وفي ذلك يقول الإمام ابن كثير في التفسير : [فعند حلول الفتن في الدين يجوز سؤال الموت ؛ ولهذا قال الإمام علي في آخر خلافته لما رأى أن الأمور لا تجتمع له ولا يزداد الأمر إلا شدة ، فقال : اللهم خذني إليك فقد سئمتهم وسئموني ...] (6) .

(1) رواه الإمام مسلم في صحيحه كتاب الذكر والدعاء باب كراهة تمني الموت لضر نزل به - صحيح مسلم بشرح النووي 8/17 ورواه الإمام أحمد في مسنده ، الفتح الرباني ك / الجنائز - باب كراهة تمني الموت 44/7 ، 45 .

(2) أي اکتوى سبع مرات وفي رواية مسلم وقد اکتوى سبع كيات في بطنه .

(3) رواه البخاري واللفظ له كتاب الدعوات باب الدعاء بالموت والحياة حديث 6349 فتح الباري 11/154 ورواه مسلم في صحيحه كتاب الذكر والدعاء باب كراهة تمني الموت لضر نزل به ، وقد رواه بألفاظ متقاربة والمعنى واحد - صحيح مسلم بشرح النووي 8/17 .

(4) مسند الإمام أحمد / أبواب الدعاء ، باب ما جاء في أدعية كان يدعو بها النبي صلى الله عليه وسلم الفتح الرباني 14/283 ورواه الترمذي في السنن أبواب التفسير ، تفسير سورة ص حديث (3235) 343/5 وقال : هذا حديث حسن صحيح وأورده الألباني في صحيح سنن الترمذي 97/3 ، 98 حديث 2580 .

(5) رواه الإمام البخاري في صحيحه كتاب الفتن باب لا تقوم الساعة حتى يُعْبَط أهل القبور حديث 7115 فتح الباري 13/80 وذكر ابن حجر أن هذا عند وقوع الفتن وخوف ذهاب الدين وضعفه بغلبة الباطل وأهله وظهور المعاصي والبدع / فتح الباري 13/81 . (6) تفسير القرآن العظيم لابن كثير 2/492 .

ونخلص من هذا إلى قيمة الحياة وضرورة العمل الصالح الذي يكون ذخرا للمؤمن عند الله ، وأن طول العمر مع حسن العمل منزلة كريمة ونعمة عظيمة من الله وأن تمني الموت عند نزول الضر ، كالمرض أو فقد الولد أو الفقر - مثلا : لا يجوز ، ويجوز تمني الموت عند وقوع الفتن في الدين ، حين يخاف المسلم على نفسه من أن يفتن في دينه ، كما ذكرنا .

ولا يتنافى هذا مع حب لقاء الله ، فالمؤمن يحب لقاء الله ويستعد له في كل لحظة ، ويشتاق إلى ربه ويتوق إلى ما عند الله من أجر وثواب ، أما الكافر والعاصي فإنه يكره الموت لأنه يقطع عليه لذة الدنيا ، وخوفه من المصير الذي ينتظره بعد الموت .

قال تعالى في سورة البقرة : ﴿ قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ أَلْدَارُ الْأَخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٥١﴾ وَلَنْ يَتَمَنَّوَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿١٥٢﴾ وَلَنَجْذِثَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسُ عَلَى حَيَاتِهِ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرَ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُرْجِحِجِهِ مِّنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٥٣﴾ (1) .

وقال تعالى : ﴿ قُلْ يَتَّخِثُ الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٦١﴾ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٦٢﴾ قُلْ إِنْ أَلْمَوْتُ الَّذِي تَفْرُوتُ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلْقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عِلْمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٣﴾ (2) .

وفي الحديث الشريف عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم « من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه ، قالت عائشة رضي الله عنها - أو بعض أزواجه إنا لنكره الموت ؟ قال : ليس ذلك ولكن المؤمن إذا حضره الموت بشر برضوان الله وكرامته ، فليس شيء أحب إليه مما أمامه ، فأحب لقاء الله وأحب الله لقاءه ، وإن الكافر إذا حضر بُشِّرَ بعذاب الله وعقوبته ، فليس شيء أكره إليه مما أمامه ، فكره لقاء الله - وكره الله لقاءه » (3) .

(1) سورة البقرة : 94 - 96 . (2) سورة الجمعة : 6 - 8 .

(3) رواه البخاري في صحيحه عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه كتاب الرقاق باب / من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه حديث 6507 واللفظ للبخاري - فتح الباري 364/11 . ورواه الإمام مسلم في صحيحه عن عائشة بألفاظ متقاربة والمعنى واحد كتاب الذكر والدعاء - باب كراهية تمني الموت لضر نزل - صحيح مسلم بشرح النووي 9/17 .

التوكل على الله لا يتنافى مع الأخذ بالأسباب

قال تعالى في سورة مريم: ﴿ وَهَزَيْتَ إِلَيْكَ بِجَنَاحِ النَّخْلَةِ سَقَطَ عَلَيْكَ رُطْبًا جَنِيًّا ۝ فَكَلِمَةٍ وَأَشْرِيٍّ وَقَرِيٍّ عَيْنًا ۝ ﴾ (1).

● التوكل على الله ﷻ أمر واجب شرعي ، فهو يعني تفويض الأمر لله ﷻ والتسليم له وأن يعلم العبد أن تدبير الله له خير من تدبيره لنفسه قال تعالى: ﴿ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ۗ ﴾ (2) وقال سبحانه: ﴿ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ ﴾ (3) وقال ﴿ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ (4) وفي الحديث الشريف « لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماسا وتروح بطانا » (5) وفي حديث الأعرابي: (قلت يا رسول الله أرسل ناقتي وأتوكل ؟ قال اعقلها وتوكل) (6).

فالتوكل على الله لا ينافي الأخذ بالأسباب ، ومريم ﷺ كان رزقها يأتيها من عند الله ، ولما جاءت ساعة المخاض أمرها الله ﷻ أن تهز النخلة أخذا بالأسباب .

وفي ذلك يقول الشاعر :

توكل على الرحمن في الأمر كله
ولا ترغبن بالعجز يوما عن الطلب
ألم تر أن اللة قال لمريم
وهزي إليك الجذع يساقط الرطب

(2) سورة الطلاق : 3 .

(1) سورة مريم 25 ، 26 .

(4) سورة المائدة : 23 .

(3) سورة النمل : 79 .

(5) رواه الترمذي في السنن عن عمر بن الخطاب ﷺ كتاب الزهد باب في التوكل على الله حديث 2344 وقال الترمذي حسن صحيح 495/4 ورواه ابن ماجه في السنن عنه كتاب الزهد باب التوكل واليقين حديث 4164 - 1394/2 وتغدو : أي تخرج من أول النهار وخماسا أي جياعا ويطانا أي ممتلئة الأجواف ، جمع بطين - والحديث أورده الألباني في صحيح سنن الترمذي برقم 1911 - 274/2 وقال حديث صحيح - وأورده في صحيح سنن ابن ماجه برقم 3359 - 404/2 .

(6) الحديث : رواه الترمذي في السنن عن أنس بن مالك ﷺ كتاب / صفة القيامة والرقائق والورع باب / 60 حديث 2517 - 576/4 وقال الترمذي حديث غريب لانعرفه إلا من هذا الوجه وقد روي عن عمرو بن أمية الضمري عن النبي ﷺ نحو هذا - والحديث أورده الألباني في صحيح سنن الترمذي برقم 2044 - 309/2 وقال حديث حسن ، ورواه ابن حبان في صحيحه عن عمرو بن أمية كما في موارد الظمان حديث 2549 - 243/8 وأخرجه الحاكم في المستدرک 623/3 ورواه القضاعي في مسند الشهاب عن عمرو بن أمية - برقم 633 - 368/1 عن عمرو بن أمية بلفظ قيدها وتوكل وسكت عنه الحاكم وقال الذهبي في التلخيص سنده جيد .

ولو شاء أن تجنُّه من غير هزة جتنُّه ولكن كل شيء له سبب

فوائد الرطب للنفساء

وفي أكل مريم عليها السلام من الرطب إشارة إلى ما أثبتته الطب من أهمية الرطب للمرأة النفساء حيث أثبتت الأبحاث العلمية أن الرطب يحتوي على مادة تقوي عمل عضلات الرحم في الأشهر الأخيرة للحمل فتساعد على الولادة من جهة كما تقلل كمية نزف الدم الحاصل بعد الولادة من جهة أخرى ، ويحتوي الرطب على نسب عالية من السكريات السهلة الهضم والامتصاص مثل سكر الجلوكوز ، ومن المعروف أن هذه السكريات هي مصدر الطاقة الأساسي وهي الغذاء المفضل للعضلات . وعضلة الرحم من أضعف عضلات الجسم ، وتقوم بدور كبير أثناء الولادة ، وإذا كان علماء التوليد يقدمون للحامل في حالة المخاض الماء والسكر ، فإن الآية الكريمة قد نصت على إعطاء السوائل ﴿ فَكُلِّي وَأَشْرَبِي ﴾ ، كما أن الرطب يخفض ضغط الدم عند الحوامل فترة ليست طويلة ، ثم يعود لطبيعته ، وبانخفاض ضغط الدم تقل كمية الدم النازقة ، والرطب أيضا من المواد المليئة للقولون ومن المعلوم طبييا أن المليينات النباتية تفيد في تسهيل وتأمين عملية الولادة (1) .

● قال تعالى : ﴿ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلَمَهَا هَظِيمٌ ﴾ (2) أي سهل التناول والهضم .

فائدة حول الصمت

قال تعالى : ﴿ فَإِمَّا تَرَيْنَ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا ﴾ .

للصمت فوائده وحكمه : قال بعض الحكماء : الزم الصمت تكن حكيما ، وقال أحد البلغاء : رب مسكوت عنه أبلغ من منطوق به ، وقال بعض الأدباء : سعد من لسانه صموت وكلامه قوت ، وقال بعض الفصحاء : اعقل لسانك إلا عن حق توضحه ،

(1) يراجع في هذا الموضوع : مع الطب في القرآن الكريم تأليف د . عبد الحميد دياب ، د . أحمد قرقوز ص 28 ، 29 ط مؤسسة علوم القرآن دمشق بيروت ط 7 سنة 1404 هـ سنة 1984 م . ويراجع الطب النبوي لابن القيم ص 240 وهو يتحدث عن الرطب وفوائده ويذكر من ضمنها فوائده في حالة المخاض ط دار الكتب العلمية بيروت سنة 1403 هـ سنة 1983 م .

(2) سورة الشعراء : 148 .

أو باطل تدحضه ، أو حكمة تنشرها ، أو نعمة تدركها (1) .

وصمت مريم عَلَيْهَا السَّلَامُ ؛ حتى تفسح المجال لمن هو أفضل منها وأبلغ منها ليثبت لقومها طهارتها ونزاهتها وعفتها .

ولقد بلغ قومها من السفاهة مبلغا عظيما حتى رموها وهي الطاهرة العفيفة بما هي بريئة منه ، ومع ذلك فإنها امتنعت عن الكلام وفي ذلك إشارة إلى الإعراض عن السفهاء وعدم مجاراتهم في سفهم .

قال تعالى : ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَمًا ﴾ (2) .

وقال تعالى : ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ (3) .
فالإعراض عن السفهاء من شيم العقلاء الكرام .

قال الإمام الشافعي :

إذا نطق السفية فلا تجبه
فخيّر من إجابته السكوث
سكت عن السفية فظن أنني
عييت عن الجواب وما عييت (4)
وقال أيضا :

يخاطبني السفية بكل قبح
فأكره أن أكون له مجيبا
يزيد سفاهة فأزيد حلما
كعود زاده الإحراق طيبا (5)

حكم نذر الصمت في شريعتنا

من التزم بالنذر بألا يكلم أحدًا من الآدميين ، أو نذر الصمت ، فهذا وإن كان مشروعًا في الشرائع السابقة فهو غير مشروع في شريعة الإسلام .

فلا يجوز نذر الصمت في شرعنا لما فيه من التضييق وتعذيب النفس .

(1) يراجع أدب الدنيا والدين للماوردي ص 331 ط / الدار المصرية اللبنانية .

(2) سورة الفرقان : 63 . (3) سورة الأعراف : 199 .

(4) ديوان الإمام الشافعي / راجعه وعلق عليه د . محمد زهدي يكن ص 49 ط دار يكن للنشر بيروت بدون تاريخ .

(5) المرجع السابق ص 45 .

وفي صحيح البخاري عن ابن عباس قال : بينا النبي ﷺ يخطب إذا هو برجل قائم ، فسأل عنه ، فقالوا : إنه (أبو إسرائيل) ، نذر أن يقوم ولا يقعد ولا يستظل ولا يتكلم ويصوم ، فقال النبي ﷺ : « مره فليتكلم وليستظل وليتم صومه » (1) .

يقول صاحب التفسير المنير (2) [وليس الصوم عن الكلام مشروعاً في الإسلام ، روى ابن أبي حاتم وابن جرير عن حارثة قال : كنت عند ابن مسعود فجاء رجلاً ، فسلم أحدهما ولم يسلم الآخر فقال ما شأنك قال أصحابه حلف ألا يكلم الناس اليوم فقال له ابن مسعود كلم الناس وسلم عليهم فإن تلك امرأة علمت أن أحدا لا يصدقها أنها حملت من غير زوج ، يعني بذلك مريم ؑ ليكون عذرا لها إذا سئلت] (3) .

ونخلص من هذا إلى أنه لا يجوز نذر الصمت في شريعتنا .

ما يتعلق بقصة زكريا ويحيى ؑ من عبر وأحكام

حب الولد فطرة إنسانية

جلبت النفوس على حب الولد ، فالولد هو قرّة العيون ، وثمرّة الفؤاد ، وقلعة الأكباد ، وبهجة النفوس وزينة الحياة قال تعالى : ﴿ الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمْلاً ﴾ (4) .

والولد هبة من الله ﷻ وإنعام منه سبحانه ، قال تعالى : ﴿ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنثًا وَنَهَبَ لِمَنْ يَشَاءُ الذَّكَورَ ﴿١٤﴾ أَوْ يَزْوَاجَهُمْ ذَكَرَانًا وَنِثًا وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴾ (5) .

(1) رواه البخاري في صحيحه كتاب النذور الإيمان باب النذر فيما لا يملك وفي معصية حديث فتح الباري 594/11 .
 (2) هو د . وهبه بن مصطفى الزحيلي ، أستاذ ورئيس قسم الشريعة بجامعة دمشق من مواليد سنة 1932 م ، حصل على الدكتوراة من جامعة القاهرة كلية الحقوق قسم الشريعة الإسلامية وكانت رسالته بعنوان آثار الحرب في الفقه الإسلامي دراسة مقارنة ومن أهم مؤلفاته الفقه الإسلامي وأدلته ، وتخرّيج وتحقيق (تحفة الفقهاء للسمرقندي بالاشتراك مع د . محمد المنتصر الكتاني . وأصول الفقه الإسلامي ، والتفسير المنير) . ترجمته في معجم المؤلفين السوريين ص 219 .

(3) التفسير المنير للدكتور / وهبه الزحيلي 77/16 ط دار الفكر دمشق .

ويراجع الجامع لأحكام القرآن للقرطبي 98/11 ، وجامع البيان للطبري 56/16 ، 57 .

(5) سورة الشورى : 49 ، 50 .

(4) سورة الكهف : 46 .

وقال تعالى في سورة النحل - سورة النعم : ﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا
وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْزَلِكُمْ بَيْنَ وَحَفْدَةٍ وَرَزَقَكُمْ مِنْ الطَّيِّبَاتِ أَفِيَابِطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ
اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴾ (1) .

فالولد هبة وإنعام من الله ، وحب الولد : فطرة إنسانية .

فهم رياحين القلوب وثمرات الأفئدة وصدق من قال :

إنما أولادنا أكبادنا أرواحنا تمشي على الأرض

إن هبت الريح على بعضهم امتنعت عيني عن الغمض

فحبهم والتعلق بهم والتشوق للقائهم والتحرق عند فراقهم طبيعة إنسانية وعاطفة
فطرية أودعها الله في النفس البشرية ، وهذه أعراية تعانق ولدها وتداعبه وهي تقول :

أحبه حب الشحيح ماله قد ذاق طعم الفقر ثم ناله

إذا أراد بذله بداله

فولدها في نظرها أحب إليها من حب الشحيح للمال الذي ناله بعد فقر مدقع .

وهذه أعراية أخرى تناغي صغيرها وتشمه وتحتضنه وهي تقول :

يا حبذا ربح الولد ربح الخزامى في البلد !

أهكذا كل ولد أم لم يلد مثلي ولد ؟

فرائحة صغيرها أذكى في أنفها من أطيب الروائح .

وسئلت أعراية عن أفضل أولادها فقالت أولادي كالعقد لا يدري أين طرفاه .

وسئلت أخرى عن أحب أولادها إليها فقالت الصغير حتى يكبر والمريض حتى يشفى

والمسافر حتى يعود .

ولقد جاء الإسلام بما لا يجافي هذه الفطرة ، ولا ينافي تلك النزعة ، فهذا أبو الأنبياء

إبراهيم عليه السلام يدعو المولى عليه السلام فيقول : ﴿ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ (2) .

ويستجيب المولى ﷺ لدعوته ويصلح له في ذريته قال تعالى: ﴿فَبَشِّرْنَاهُ بِعَلْقٍ حَلِيمٍ﴾ (1) وهو إسماعيل عليه السلام ويقول سبحانه أيضا: ﴿وَبَشِّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ (2).

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً﴾ (3).

وقال سبحانه في وصف عباد الرحمن في سورة الفرقان: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِن أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ (4).

وهذا زكريا عليه السلام يطلب الولد فيقول - كما أخبر القرآن الكريم: ﴿قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ ولقد حث رسول الله ﷺ على تزوج الودود الولود فقال ﷺ: « تزوجوا الودود الولود فإني مكاثر بكم الأمم » (5) ولقد دعا ﷺ لأنس بن مالك بكثرة الولد فقال: « ... اللهم أكثر ماله وولده وبارك له فيما أعطيته » (6) وقد استجاب الله دعوة نبيه وأكثر لأنس المال والولد وبارك له فيما أعطاه .

● ونهى رسول الله ﷺ عن الاختصاص لمنافاته للفطرة ومجافاته للطبيعة وحرمان صاحبه من الولد ، فعن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه أنه قال : أراد عثمان بن مظعون رضي الله عنه أن يتبتل فنهاه النبي ﷺ ولو أجاز له ذلك لاختصينا (7) .

وحب الولد نزعة إنسانية وسنة فطرية أقرها الإسلام ، فعن عائشة رضي الله عنها قالت جاء أعرابي إلى النبي ﷺ : فقال : أتقبلون صبيانكم فما نقبلهم ؟ . فقال النبي ﷺ : أو أملك لك أن نزع الله من قلبك الرحمة (8) .

(1) سورة الصافات : 101 .

(2) سورة الصافات : 112 .

(3) سورة الرعد : 38 .

(4) سورة الفرقان : 74 .

(5) سورة الصافات : 101 .

(6) سورة الرعد : 38 .

(7) الحديث سبق تخريجه .

(8) رواه البخاري في صحيحه عن أنس كتاب الدعوات ، باب الدعاء بكثرة المال مع البركة حديث 6378 ، 6379 فتح الباري 186/11 ورواه الإمام مسلم في صحيحه عنه ك / فضائل الصحابة - باب من فضائل أنس بن مالك - صحيح مسلم بتحقيق محمد فؤاد عبد الباقي حديث 2480 - 1928/4 .

(9) رواه البخاري في صحيحه عن سعد بن أبي وقاص كتاب النكاح باب ما يكره من التبتل والخصاء حديث 5073 فتح الباري 19/9 .

ورواه الإمام مسلم في صحيحه مسلم عنه ك / النكاح باب استحباب النكاح لمن تاقت نفسه إليه ووجد مؤنة حديث 1402 صحيح مسلم بتحقيق محمد فؤاد عبد الباقي 1020/2 .

(10) رواه البخاري في صحيحه كتاب الأدب باب رحمة الولد وتقبيله ومعانقته حديث 5998 فتح الباري 440/10 ورواه مسلم في صحيحه كتاب الفضائل باب رحمته ﷺ وتواضعه صحيح مسلم بشرح النووي 76/16 .

ومن هنا : فإن طلب الولد الصالح أمر مرغوب ، فالولد الصالح رحمة من الله ونعمة ، وبه يصلح البيت ويصلح المجتمع وتستقيم الحياة فعلينا أن نعد أولادنا ونؤدبهم ونربيهم ليكونوا صالحين ومصلحين .

- وحب الولد فطرة إنسانية ، ورحمة من عند الله ، وحنان منه سبحانه أودعه قلوب الرحماء ، نسأل الله أن يصلح في ذرياتنا حتى تقر بهم عيوننا وتسعد بهم قلوبنا ، ويجمعنا الله بهم في مستقر رحمته كما قال : ﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِيْنٌ ﴾ (1) وفي الحديث يقول ﷺ : « إن الله ليرفع الدرجة للعبد الصالح في الجنة فيقول يا رب أنى لي هذا فيقول باستغفار ولدك لك » (2) .

وفي الحديث أيضا يقول ﷺ : « إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له » (3) .

فائدة حول : آداب الدعاء

حوى دعاء زكريا عليه السلام آدابا كثيرة ومعاني سامية نذكر منها ما يلي :

في قوله تعالى ﴿ إِذْ نَادَى رَبَّهُ يَدَآءً حَفِيْثًا ﴾ ما يدل على أن أفضل الدعاء ما كان في الخفاء فإنه أقرب إلى الإخلاص وأدعى للخشوع وأرجى للقبول ونتعلم من دعاء زكريا عليه السلام : تحري الأوقات الشريفة الفاضلة المباركة قال تعالى : ﴿ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ ... ﴾ فإنه عليه السلام لما رأى كرامة مريم ازداد إيمانا على إيمان ، وبقينا على يقين ، فتوجه بالدعاء وهو في هذا المقام الأسنى والمكان الأسمى ، في بيت الله ﷻ حيث تنزل الخيرات والبركات والرحمات ومن هنا فإن بركة الوقت مع سمو المكان مع علو الحال والمقام الذي يكون عليه الداعي كل هذه العوامل تكون أدعى إلى قبول الدعاء .

(1) سورة الطور : 21 .

(2) رواه الإمام أحمد في مسنده بإسناد صحيح عن أبي هريرة المسند 509/2 ورواه الطبراني في الدعاء حديث 1249 - 195/3 ورواه ابن ماجه في السنن عنه حديث 366 - 1207/2 وقال في الزوائد إسناده - صحيح ورجاله ثقات .

(3) رواه الإمام مسلم في صحيحه عن أبي هريرة كتاب الوصية باب ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته حديث 1631 صحيح مسلم بتحقيق محمد فؤاد عبد الباقي 1255/3 .

● ومن الأوقات الشريفة الفاضلة التي يستحب فيها الدعاء .

شهر رمضان من الشهور ويوم الجمعة من أيام الأسبوع ، والعشر الأول من ذي الحجة ومن شهر رمضان العشر الأواخر منه ، وليلة القدر ، ووقت السحر ، وبين الأذان والإقامة وعند الجهاد في سبيل الله وعند نزول الغيث ، وعند ختم القرآن وفي القنوت وفي السجود وبعد التشهد وبعد التسليم وعند الفطر من الصيام وعند حضور القلب ، وشفاء النفس .

ويستحب في الدعاء أن يكون الداعي على طهارة ، مخلصا في نيته مستقبلا للقبلة مجددا التوبة ، متحريرا للطيب في مطعمه .

والدعاء في المساجد أدمى للقبول وأرجى للإجابة .

ويستحب للداعي أن يستفتح دعاءه بالثناء على المولى ﷺ والصلاة على رسول الله ﷺ ويتخير من الكلام أطيبه وأعذبه دون تكلف في الألفاظ وأن يكون الداعي حاضر القلب واعيا لما يقول ، وأن يعظم رجاءه في الله ﷻ فهو سبحانه سميع قريب مجيب .

ومن مشكاة النبوة نقتبس هذه الأضواء لتضيء لنا طريق الدعاء .

1 - عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه أن رسول الله قال : [إن القلوب أوعية وبعضها أوعى من بعض ، فإذا سألتم الله ﷻ أيها الناس فاسألوه وأنتم موقنون بالإجابة ، فإن الله لا يستجيب لعبد دعاه عن ظهر قلب غافل] ⁽¹⁾ . أي دعاه وهو معرض عنه ، لا يعي ما يقول .

2 - وعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول المسجد بيت كل تقي ، وتكفل الله لمن كان المسجد بيته بالروح والرحمة والجواز على الصراط إلى رضوان الله إلى الجنة ⁽²⁾ .

(1) رواه الإمام أحمد في مسنده - الفتح الرباني أبواب الدعاء ، باب تأكد حضور القلب في الدعاء 272/14 وهو حديث حسن - يراجع الترغيب والترهيب كتاب الذكر والدعاء / باب الترهيب من رفع المصلي رأسه إلى السماء وقت الدعاء وأن يدعو الإنسان وهو غافل 276/2 ورواه الترمذي في السنن بمعناه عن أبي هريرة ك / الدعوات باب / 66 حديث 3479 - 483/5 وقال هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه .

(2) ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد وعزاه إلى الطبراني في الكبير والأوسط والبخاري في مسنده وقال إسناده حسن ، ورجال البزار كلهم رجال الصحيح ، مجمع الزوائد 22/2 وكشف الأستار 217/1 ، 218 باب في عمار المساجد . وأورده الألباني في صحيح الترغيب حديث 328 - 131/1 وقال رواه الطبراني في الكبير والأوسط والبزار وإسناده حسن .

3 - وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الملائكة تصلي على أحدكم ما دام في مصلاه الذي يصلي فيه ، تقول اللهم اغفر له ، اللهم ارحمه ما لم يحدث » (1) .

4 - وعنه رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « ما توطن رجل المساجد للصلاة والذكر إلا تبشيش الله تعالى إليه كما يتبشيش أهل الغائب بغائبهم إذا قدم عليهم » (2) .

وتبشيش : أي فرح وانشرح وتبشيش الله إليه أي قابله بالرضا والرحمات والنفحات .

فضل المداومة على الذكر

من الدروس المستفادة من قصة زكريا عليه السلام : فضل المداومة على ذكر الله تعالى ، والذكر من أفضل الأعمال ومن أجل القربات ، ولقد أمرنا المولى صلى الله عليه وسلم بالمداومة على ذكره ، قال صلى الله عليه وسلم : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ۖ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۗ ﴾ (3) .

وقال سبحانه : ﴿ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ۗ ﴾ (4) .

وقال صلى الله عليه وسلم في صفات المؤمنين : ﴿ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقَعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هٰذَا بَطٰلًا سُبْحٰنَكَ قِنَا عَذَابَ النَّارِ ۗ ﴾ (5) ولقد جمعت هذه الآية بين فضيلة الذكر والتفكير والدعاء وقال سبحانه ﴿ وَأَذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ الْغٰفِلِينَ ۗ ﴾ (6) .

وزكريا عليه السلام رغم احتباس لسانه عن كلام الناس إلا أن المولى صلى الله عليه وسلم قد أمره بالذكر ﴿ قَالَ ءَايَتُكَ ءَلَّا تُكَلِمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْرًا وَأَذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ ﴾

(1) رواه الإمام البخاري في صحيحه عن أبي هريرة كتاب الصلاة باب الحدث في المسجد حديث 445 فتح الباري 1/641 - ورواه الإمام مسلم في صحيحه عنه كتاب المساجد ومواضع الصلاة باب فضل صلاة الجماعة وانتظار الصلاة صحيح مسلم بتحقيق محمد فؤاد عبد الباقي حديث (273) 1/459 ورواه البيهقي في شعب الإيمان باب في الصلوات / فضل المشي إلى المساجد 3/86 .

(2) رواه الحاكم وصححه ، ووافقه الذهبي - المستدرک 1/213 ورواه ابن حبان في صحيحه - يراجع موارد الظمان إلى زوائد ابن حبان 99 وابن خزيمة في صحيحه 2/379 - وذكره المنذري في الترغيب والترهيب 1/1320 كتاب الصلاة باب فضل الترغيب في الجلوس في المساجد .

(4) سورة البقرة : 152 .

(3) سورة الأحزاب : 41 ، 42 .

(6) سورة الأعراف : 205 .

(5) سورة آل عمران : 191 .

وَالْإِنْكَارِ ﴿١﴾ .

قال القرطبي : [أمره الله تعالى بألا يترك الذكر في نفسه مع اعتقال لسانه ، وقال محمد بن كعب القرظي لو رخص لأحد في ترك الذكر لرخص لذكريا عليه السلام - لما حبس لسانه عن كلام الناس ولرخص للمجاهد في سبيل الله حين ينشغل بقتال الأعداء ولكن الله ﷻ أمر زكريا مع منعه من كلام الناس بمداومة الذكر وأمر المجاهدين بكثرة الذكر قال تعالى : ﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيَتْمْ فَكُتُّوا فَانصَبُوا وَادْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (2) [(3) .

درس هام في الدعوة إلى الله ﷻ من قصة زكريا ويحيى عليهما السلام

ويعلمنا زكريا عليه السلام درساً هاماً في الدعوة إلى الله ﷻ ، وهو أن لا يتخلى الدعاة عن دعوتهم أبداً ، وأن يعيشوا بها ويتعاشوا معها في كل زمان ومكان وفي كل الظروف والأحوال ، وأن لا يقصروا فيها مهما كانت العوائق والمشطات ، وأن يجندوا لها كل ما يملكون من قدرات وطاقات وأوقات وملكات وإمكانيات ، وأن لا يستقلوا أي عمل أو جهد دعوي مهما كان يسيراً ، فزكريا عليه السلام وهو ممنوع عن الكلام إلا أنه يعتمد في دعوته على الإشارة وهي بديل الكلام ووسيلة من وسائل التعبير .

قال تعالى : ﴿ فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴾ (4) .

فإذا حرم الدعاة من وسيلة دعوية فليلجأوا إلى غيرها ، وإذا أغلق أمامهم باب فليطرقوا باباً آخر ، فمن داوم قرع الأبواب ولج .

فعلى الدعاة إلى الله أن يترودوا بالعزم واليقين ، وأن يعلموا أن الدعوة كما أنها مزية وتشريف فهي مسؤلية وتكليف ، وكما أنها أمر طريف شائق فهي أيضاً طريق صعب شائك .

نسأل الله أن يثبتنا على طريق الحق ، وأن يرزقنا الإخلاص والصدق .

● على الآباء أن يتخيروا لأبنائهم أحسن الأسماء وأطيبها وأن يتجنبوا تسميتهم بالأسماء القبيحة المنكرة .

(2) سورة الأنفال : 45 .

(1) سورة آل عمران : 41 .

(4) سورة مريم : 11 .

(3) الجامع لأحكام القرآن 82/4 بتصرف .

- من قوله تعالى في وصف يحيى وسيدا وحصورا : نستفيد ما يلي :

● السيادة الحقيقية هي في طاعة الله وفي تقواه وفي العلم والعمل ، وصدق من قال :
المتقون سادة والعلماء قادة ومجالستهم زيادة .

وقال الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام :

ما الفخرُ إلا لأهل العلم إنهم
وقدر كل امرئ ما كان يحسنه
ففز بعلم تعش حيا به أبدا
علي الهدى لمن استهدى أدلاء
والجاهلون لأهل العلم أعداء
الناس هلكى وأهل العلم أحياء

وقيل في وصف الإمام مالك بن أنس إمام دار الهجرة وصاحب الموطأ ، والذي ينسب إليه المذهب المالكي أحد المذاهب الأربعة .

يأبي الجواب فلا يراجع هيبه
أدب الوقارِ وعزُّ سلطانِ الثقي
والسائلون نواكس الأذقان
فهو المطاعُ وليس ذا سلطان

ولما دخل عبد الله بن المبارك إحدى المدن ووافق ذلك زيارة أحد الخلفاء العباسيين لها ، اجتمع الناس حول عبد الله بن المبارك العالم المحدث الزَّهْد وتزاحموا حوله حتى ارتفع الغبار وتقطعت النعال ورأت زوجة الخليفة العباسي هذا المنظر المهيب فقالت هذا والله هو السلطان لا سلطان أمير المؤمنين الذي لا يجمع الناس إلا بسيفه وذهبه .

● ومن قوله تعالى ﴿ وَحَصُورًا ﴾ نستفيد من هذه الصفة التي وصف الله بها يحيى عليه السلام : أن حبس النفس عن الشهوات أمر محبوب ومطلب مرغوب ، قال الإمام ابن تيمية : المحبوس من حبس قلبه عن ربه والمأسور من أسره هواه ، ولما دخل إلى سجن القلعة وصار داخل الأسوار نظر إليها وقرأ قول الله تعالى : ﴿ فَضْرَبَ بَيْنَهُمْ سُورًا لَّهُ بِابْءٍ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ ﴾ (1) وكان يقول ما يصنع أعدائي بي أنا جنتي وبستاني في صدري إن رحمت فهي معي لا تفارقني إن حبسي خلوة وقتلي شهادة وإخراجي من بلدي سياحة (2) .

(1) سورة الحديد : 13 .

(2) الوابل الصيب من الكلم الطيب تأليف الإمام شمس الدين محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية ص 44 ط المطبعة السلفية ط 5 سنة 1400 هـ .

● ومن قوله تعالى : ﴿ يَبِيحَيَّ حُذِّ الْأَكْتَبَ بِقُوَّةٍ ﴾ دعوة لنا إلى الجد والاجتهاد والعزم والمضاء في طلب العلم وفي العمل به وفي دعوة الناس إليه .

● وفي قوله تعالى : ﴿ وَمَا آتَيْنَهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا ﴾ إرشاد للآباء والأمهات أن يحسنوا تربية أولادهم منذ نعومة أظفارهم . وأن يوجهوا أطفالهم إلى الاستفادة من أحوال الأنبياء وأخبارهم خاصة ما كانوا عليه في صغرهم .

● وفي قوله تعالى : ﴿ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا ﴾ ما يفيد أن صفة الحنان وأيضاً صفة الرحمة من الصفات الفطرية التي أودعها المولى ﷺ في قلوب من يحب من عباده ، وعلى الداعية إلى الله أن يتحلى بصفات الرحمة والحنان والرفق يقول ﷺ : « إن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه ، ولا ينزع من شيء إلا شانه » (1) .

وفي الحديث : « إن الله رفيق يحب الرفق ويعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف وما لا يعطي على ما سواه » (2) .

وفي الحديث أيضاً يقول ﷺ : « من حرم الرفق حرم الخير » (3) .

● ومن قوله تعالى في بيان أوصاف يحيى عليه السلام ﴿ وَرَزَقْنَاهُ ﴾ أي وطهارة ونماء ، والطهارة هنا طهارة النفس والقلب والنماء هو الرقي والسمو في المقامات العلية والأحوال الشريفة المرضية فعلى الداعية إلى الله أن يسعى إلى تزكية نفسه بالطاعات والقربات وأن يجمع بين العلم والعمل والإخلاص حتى تكون دعوته ناجحة ، وعلي القائمين على تأهيل الدعاة وإعدادهم أن يركزوا على الجانب العملي قال تعالى : ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ (4) .

(1) الحديث رواه مسلم في صحيحه عن عائشة ك / البر والآداب والصلة باب / فضل الرفق . حديث 2594 صحيح مسلم بشرح النووي 146/16 .

(2) الحديث رواه مسلم في صحيحه عن عائشة ك البر والآداب والصلة باب فضل الرفق حديث 2593 - صحيح مسلم بشرح النووي 146/16 .

(3) رواه مسلم في صحيحه عن جرير بن عبد الله ك البر والصلة والآداب باب فضل الرفق .

حديث 2592 صحيح مسلم بشرح النووي 146/16 .

(4) سورة فصلت : 33 .

● ومن قوله تعالى في بيان أوصاف يحيى **الطَّيِّبِ ﴿ وَكَانَ تَقِيًّا ﴾** ما يرشدنا إلى أهمية التقوى فهي سر النجاح وهي طريق الفلاح قال تعالى : **﴿ وَأَتَقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ وَاللَّهُ يَكُلُّ شَيْءًا عَلَيْهِ ﴾** ⁽¹⁾ وقال **﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ﴿ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾** ⁽²⁾ وقال تعالى : **﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا ﴾** ⁽³⁾ .
وقال جل وعلا : **﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴾** ⁽⁴⁾ .

● ومن قوله تعالى عن يحيى **الطَّيِّبِ : ﴿ وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا ﴾** ⁽⁵⁾ ما يفيد أن الداعية قدوة في بيته ، رحيمًا بأبويه ، يحسن إليهما فينال بذلك بركة رضاهما وصالح دعائهما ، والداعية ينشد الحق ، ولا يتعالى على الخلق ويجتهد في تجنب المعاصي ، ويتحرى الطاعات .

● ومن تحلى بهذه الأوصاف الحسنة التي اجتمعت في نبي الله يحيى **الطَّيِّبِ** فلقد توسم طريق الهدى والفلاح والأمن والأمان .

امرأة زكريا **الطَّيِّبِ**

امرأة زكريا **الطَّيِّبِ** تلك المرأة الصالحة الصادقة الصابرة التي نشأت في بيت صالح ، وابتليت بالعمق فصبرت على هذا الابتلاء وأقبلت على طاعة الله ، والمسارة في الخيرات والمداومة على الدعوات الصالحات قال تعالى في وصف آل زكريا **الطَّيِّبِينَ : ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْأَرُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَعَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَشِيعِينَ ﴾** ⁽⁶⁾ .

ولقد استجاب الله دعاء زكريا **الطَّيِّبِ** ، وأصلح له زوجه ، بأن جعلها صالحة للحمل والولادة بعد أن كانت عقيما ، وبأن زادها صلاحا على صلاح ورزقهما بيحيى **الطَّيِّبِ** ، الذي ورث النبوة والصلاح عن أبويه ، وكان بارا بهما محسنا إليهما .

(2) سورة الطلاق : 2 ، 3 .

(4) سورة المائدة : 27 .

(6) سورة الأنبياء : 90 .

(1) سورة البقرة : 282 .

(3) سورة الطلاق : 4 .

(5) سورة مريم : 14 .

الفصل العاشر

نساء في العهد النبوي

أنزل الله ﷻ في شأنهن قرآنا

ويشتمل هذا الفصل على ستة مباحث :

المبحث الأول : ما نزل في شأن حادثة الإفك .

المبحث الثاني : زواج رسول الله ﷺ من السيدة زينب بنت جحش

ﷺ ، والحكمة من إباحة الإسلام تعدد الزوجات .

المبحث الثالث : ما نزل في سورة التحريم في شأن أمهات المؤمنين .

المبحث الرابع : ما نزل في شأن خولة بنت ثعلبة التي ظاهر منها

زوجها أوس بن الصامت .

المبحث الخامس : ما نزل في سورة الممتحنة في شأن النساء .

المبحث السادس : أم جميل امرأة أبي لهب .

المبحث الأول

ما نزل في شأن حادثة الإفك

ويشتمل هذا المبحث على ثلاثة مطالب :

- المطلب الأول : قصة الإفك كما في الصحيحين .
 المطلب الثاني : التفسير التحليلي للآيات الكريمة التي نزلت في هذا الشأن .
 المطلب الثالث فوائد مهمة :

- 1 - حكم من قذف أم المؤمنين عائشة وسائر أمهات المؤمنين رضي الله عنهن .
- 2 - هل يحبط العمل الصالح بارتكاب الكبيرة .
- 3 - منهج الإسلام في حماية الأعراض .

تمهيد

تَعَرَّضَ رسول الله ﷺ لكثير من المحن والابتلاءات شأنه في ذلك شأن جميع الأنبياء ﷺ الذين ابتلاهم الله ﷻ أشد البلاء .

وكان من ضمن ما ابتلي به رسول الله ﷺ تلك الحملة الشعواء العمياء ، وذلك البهتان العظيم على زوجه أم المؤمنين الصديقة بنت الصديق ، عائشة بنت أبي بكر . ولقد تولى كبر هذا الإفك رأس الكفر وعمود النفاق عبد الله بن أبي بن سلول . اختلقه وأشاعه في أرجاء المدينة ليؤدي بذلك الرسول ﷺ وليطعن في نبوته وليشغله عن دعوته وليهز صورته أمام الناس .

هذا ولقد نزلت براءة أم المؤمنين عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا مما رماها به أهل الإفك ، آيات بينات نزل بها أمين الوحي جبريل على قلب المصطفى ﷺ .

آيات بينات تبرئ ساحة عائشة مما رماها به أهل الإفك ، وتشهد لها بالطهارة والنزاهة . آيات بينات تشتمل على حكم بالغة وأحكام راشدة .

وفي هذا المبحث إن شاء الله تناول هذه الآيات الكريمة بالتفسير والتحليل ونتناول بعض الفوائد المتعلقة بها .

المطلب الأول

قصة الإفك كما في الصحيحين

روى الإمامان البخاري ومسلم في صحيحيهما عن الزهري عن عروة عن عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قالت : « كان رسول الله ﷺ إذا أراد سفراً أقرع بين نسائه ، فأيتهن خرج سهمها خرج بها معه ، وإنه أقرع بيننا في غزاة (1) فخرج سهمي ، فخرجت معه بعدما أنزل الحجاب ، وأنا أُحْمَل في هودج (2) وأنزل فيه ، فسرنا حتى إذا فرغ رسول الله ﷺ من غزوته تلك وقفل (3) ، ودنونا من المدينة أذن ليلة بالرحيل ، فقامت حين آذنوا بالرحيل حتى جاوزت الجيش ، فلما قضيت من شأني أقبلت إلى الرحل فلمست صدري فإذا عقد لي من جزع ظفار (4) قد انقطع ، فرجعت فالتمسته فحبسني ابتغاؤه .

وأقبل الرهط الذين كانوا يرحلون لي (5) فاحتملوا هودجي فرحلوه على بعيري وهم يحسبون أنني فيه . وكان النساء إذ ذاك خفافاً لم يثقلهن اللحم ؛ وإنما نأكل العُلقة (6) من الطعام ، فلم يستنكر القوم حين رفعوه خفة الهودج ، فحملوه وكنت جارية حديثة السن ، فبعثوا الجمال وساروا ، فوجدت عقدي بعدما استمر الجيش ، فجمت منزلهم وليس فيه أحد منهم ، فتميمت منزلي وظننت أنهم سيفقدوني فيرجعون إلي .

فبينما أنا جالسة غلبتني عيناي فمتمت ، وكان (صفوان بن المعطل السلمي) ثم الذكواني قد عرس وراء الجيش فادلج (7) فأصبح عند منزلي . فرأى سواد إنسان نائم ، فأتاني فعرفني حين رأني - وكان يراني قبل الحجاب - فاستيقظت باسترجاعه حين عرفني ، فحمرت وجهي بجلبابي ، والله ما كلمني بكلمة ، ولا سمعت منه كلمة غير استرجاعه ، وهوي حتى أناخ راحلته ، فوطئ على يديها فركبتها ، فانطلق يقود بي الراحلة ، حتى أتينا الجيش بعدما نزلوا معرسين (8) ، قالت : فهلك في شأني من هلك

(1) هي غزوة بني المصطلق وكانت في السنة الخامسة من الهجرة على القول الأرجح .

(2) الهودج مركب من مراكب النساء يوضع على ظهر البعير .

(3) وقفل : أي رجع من غزوته .

(4) عقد من جزع ظفار : الجزع : خرز يمني وظفار قرية باليمن .

(5) أي يجعلون الرحل على البعير .

(6) العُلقة : القدرالقليل

(7) فادلج : قال الجوهري : أدلج إذا سار من أول الليل فإذا سار من آخره فقد أدلج بتشديد الدال كذا في

(8) عرس : نزل آخر الميل .

وكان الذي تولى كبر الإثم (عبد الله بن أبي بن سلول) فقدمنا المدينة فاشتكيت بها شهراً ، والناس يُفيضون في قول أصحاب الإفك ولا أشعر وهو يريني (1) في وجعي أنني لا أرى من النبي ﷺ اللطف الذي كنت أرى منه حتى أشتكى ، إنما يدخل فيسلم ثم يقول : كيف تيكم ؟ ثم ينصرف ، فذلك الذي يريني منه ، ولا أشعر بالشر حتى نَقِهْتُ (2) .

فخرجت أنا وأم مسطح قَبْلَ الْمَنَاصِعِ (3) وهو متبرّزنا . وكنا لا نخرج إلا ليلاً إلى ليل ، وذلك قبل أن نتخذ الكُنْفَ (4) ، وأمرنا أمر العرب الأول في التبرز قَبْلَ الْغَائِطِ ، فأقبلت أنا وأم مسطح - وهي ابنة أبي رهم بن المطلب بن عبد مناف ، وأمها بنت صخر بن عامر خالة أبي بكر الصديق - وابنها (مسطح بن أثانة) حتى فرغنا من شأننا نمشي ، فعثرت أم مسطح في مِرْطِهَا (5) فقالت : تعس مسطح ، فقلت لها : بئس ما قلت ، أتسبين رجلاً شهد بدرا ؟ فقالت يا هَتَّاهُ (6) : ألم تسمعي ما قال ؟ فقلت : وما قال ؟ فأخبرتني بقول أهل الإفك ، فازددت مرضاً إلى مرضي ، فلما رجعت إلى بيتي دخل رسول الله ﷺ فقال : كيف تيكم ؟ فقلت : ائذن لي أن آتي أبوي - وأنا حينئذ أريد أن أستيقن الخبر من قبلهما - فأذن لي ، فأتيت أبوي فقلت لأمي : يا أمتاه ماذا يتحدث الناس به ؟ فقالت يا بنية : هوّني على نفسك الشأن ، فوالله لقلما كانت امرأة قط وضيئة (7) ، عند رجل يحبها ولها ضرائر إلا أكثرن عليها ، فقلت : سبحان الله ولقد تحدث الناس بهذا ؟ .

قالت : فبكيت تلك الليلة حتى أصبحت لا يرقأ لي دمع ، ولا أكتحل بنوم ، ثم أصبحت أبكي .. فدعا رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب وأسامة بن زيد - رضي الله عنهما - حين استلبت (8) الوحي يستشيرهما في فراق أهله ، قالت : فأما أسامة فأشار عليه بما يعلم من براءة أهله ، وبالذي يعلم من الود لهم ، فقال أسامة : هم أهلك يا رسول الله ، ولا نعلم والله إلا خيراً .

وأما علي بن أبي طالب فقال يا رسول الله : لم يضيق الله عليك ، والنساء سواها

(1) يريني : أي يجعلني أشك وأرتاب .
 (2) نقهت : يقال نقه : أي صح من مرضه .
 (3) المناصع : المواضع التي يتخلى فيها جمع منصع . (4) الكنف : جمع كنيف وهو بيت الخلاء .
 (5) مرطها : المرط : كساء من خز أو صوف أو كتان . (6) يا هتاه : أي يا هذه فهو خطاب للأنتى .
 (7) وضيئة : ذات حسن وجمال .
 (8) استلبت الوحي : أي لبث مدة طويلة لا ينزل .

كثير ، وسل الجارية تخبرك . قالت : فدعا رسول الله ﷺ بريرة (1) فقال لها : هل رأيت فيها شيئا يريبك ؟ فقالت ؛ لا والذي بعثك بالحق نبيا ، إن رأيت منها أمرا أغمصه (2) عليها أكثر من أنها جارية حديثة السن ، تنام عن عجين أهلها ، فتأتي الداجن (3) فتأكل . قالت : فقام رسول الله ﷺ من يومه واستعذر من (عبد الله بن أبي ابن سلول) فقال وهو على المنبر : من يعذرني من رجل بلغني أذاه في أهلي ؟ فوالله ما علمت على أهلي إلا خيرا ... ولقد ذكروا لي رجلا ما علمت عليه إلا خيرا ، وما كان يدخل على أهلي إلا معي .

قالت : فقام (سعد بن معاذ) فقال يا رسول الله أنا والله أعذرک منه ، إن كان من الأوس ضربنا عنقه ، وإن كان من إخواننا من الخزرج أمرتنا ففعلنا فيه أمرک !

فقام (سعد بن عبادة) وهو سيد الخزرج - وكان رجلا صالحا ولكن أخذته الحمية - فقال لسعد بن معاذ : كذبت لعمرُ الله لا تقتله ولا تقدر على ذلك .

فقام (أسيد بن حضير) وهو ابن عم سعد بن معاذ فقال لسعد بن عبادة : كذبت لعمر الله لنقتلنه ، فإنك منافق تجادل عن المنافقين .

فثار الحيان (الأوس) و (الخزرج) حتى همّوا أن يقتتلوا ، ورسول الله ﷺ على المنبر ، فلم يزل يخفضهم (4) حتى سكتوا ونزل .

وبكيت يومي ذلك لا يرقأ لي دمع ، ولا أكتحل بنوم ، ثم بكيت ليلتي المقبلة لا يرقأ لي دمع ، ولا أكتحل بنوم ، فأصبح أبواي عندي ، وقد بكيت ليلتين ويوما حتى أظن أن البكاء فالتق كبدي ، فبينما هما جالسان عندي وأنا أبكي إذ استأذنت امرأة من الأنصار ، فأذنت لها ، فجلست تبكي معي .

فبينما نحن كذلك إذ دخل علينا رسول الله ﷺ ، ثم جلس - ولم يجلس عندي من يوم قيل في ما قيل قبلها ، وقد مكث شهرا لا يُوحى إليه في شأنني بشيء - فتشهد حين جلس ثم قال : « أمّا بعد فإنه بلغني عنك كذا وكذا ، فإن كنت بريئة فسيبرئك

(1) حقق ابن القيم الجوزية أن الجارية التي سئلت لم تكن بريرة لأنها كاتبته وَعُتِقَتْ قبل هذا بمدة طويلة ، إنما قال علي كرم الله وجهه فسئل الجارية تخبرك فظن بعض الرواة أنها بريرة فسمّاها - زاد المعاد 116/2 .

(2) أغمصه : أعييه .

(3) الداجن : الشاة في البيت .

(4) يخفضهم : يأمرهم بخفض الصوت والهدوء .

الله تعالى ، وإن كنت ألممت بذنب ، فاستغفري الله تعالى وتوبى إليه ، فإن العبد إذا اعترف بذنبه ثم تاب تاب الله عليه .

فلما قضى رسول الله ﷺ مقالته قَلَصَ (1) دمعي حتى ما أحس منه بقطرة ، فقلت لأبي : أجب عني رسول الله ﷺ فيما قال !! قال : والله ما أدري ما أقول لرسول الله . فقلت لأمي : أجيبني عني رسول الله ﷺ فيما قال !! قالت : والله ما أدري ما أقول لرسول الله . قالت : وأنا جارية حديثة السن لا أقرأ كثيرا من القرآن ، فقلت : إني والله أعلم أنكم سمعتم حديثا تحدث الناس به ، واستقر في نفوسكم وصدقتم به ، فلئن قلت لكم : إني بريئة لا تصدقوني بذلك ، ولئن اعترفت لكم بأمر ، والله يعلم أنني منه بريئة لتصدقني ، فوالله ما أجد لي ولكم مثالا إلا أبا يوسف إذ قال ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾ (2) .

ثم تحولت فاضطجعت على فراشي ، وأنا والله أعلم أنني بريئة ، وأن الله تعالى مبرئي براءتي ولكن والله ما كنت أظن أن ينزل الله تعالى في شأني وحيا يتلى ، ولشأني في نفسي كان أحقر من أن يتكلم الله تعالى في كلاما يتلى ، ولكن كنت أرجو أن يرى رسول الله ﷺ في النوم رؤيا يبرئني الله تعالى بها .

فوالله ما رام (3) مجلسه ، ولا خرج أحد من البيت ، حتى أنزل الله تعالى على نبيه ﷺ فأخذه ما كان يأخذه من البرحاء (4) ، فسُرِّي (5) عنه وهو يضحك ... فكان أول كلمة تكلم بها أن قال لي : « يا عائشة احمدي الله تعالى فإنه قد برأك » .

فقلت لي أمي : قومي إلى رسول الله ﷺ فاحمديه - فقلت : والله لا أقوم إليه ، ولا أحمد إلا الله تعالى ، هو الذي أنزل براءتي ، فأنزل الله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِآلِافِكَ عُصْبَةٌ مِّنْكَ ﴾ الآيات العشر .

فلما أنزل الله تعالى هذا في براءتي ، قال أبو بكر الصديق ؓ - وكان ينفق على مسطح بن أثاثة لقربائه منه وفقره - والله لا أنفق على مسطح شيئا أبدا بعدما قال لعائشة

(1) قَلَصَ : أي جف . (2) سورة يوسف : 18 .

(3) ما رام مجلسه : أي ما نهض من مجلسه .

(4) البرحاء : شدة الحمى والمراد هنا الشدة التي تصحب نزول الوحي على قلب المصطفى ﷺ .

(5) فسُرِّي : أي ذهبت عنه الشدة .

فأنزل الله تعالى ﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ .. ﴾ إلى قوله : ﴿ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ فقال أبو بكر ؓ : بلى والله إني لأحب أن يغفر الله لي ، فرجع إلى مسطح النفقة التي كان يجري عليه ، وقال : والله لا أنزعها منه أبدا .

قالت عائشة : وكان رسول الله ﷺ سأل زينب بنت جحش عن أمري فقال : « يا زينب ما علمت وما رأيت ؟ » فقالت يا رسول الله : أحمي سمعي وبصري ، والله ما علمت عليها إلا خيرا « قالت : وهي التي كانت تساميني من أزواج النبي ﷺ فعصمها الله تعالى بالورع . قالت : فطفقت أختها (حمنة) تحارب لها ، فهلكت فيمن هلك من أصحاب الإفك » .

قال ابن شهاب : (فهذا ما انتهى إلينا من أمر هؤلاء الرهط) (1) .

(1) الحديث رواه البخاري في صحيحه عن عائشة ك التفسير باب ﴿ لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ .. ﴾ حديث 4750 فتح الباري 306/8 ورواه الإمام مسلم في صحيحه عن عائشة ك التوبة باب في حديث الإفك وقبول توبة القاذف حديث 2770 صحيح مسلم بشرح النووي 102/17 .

المطلب الثاني

التفسير التحليلي للآيات الكريمة التي نزلت في هذا الشأن

● فائدة في السياق :

لما بيّن الله سبحانه أحكام قذف المحصنات وعِظَم أمره عَقَّب ذلك ببيان أحكام قذف الزوجات (اللعان) ثم عَقَّبَه ببيان حكم قذف أمهات المؤمنين زوجات خاتم النبيين والمرسلين وأشرف وأكرم الخلق أجمعين ﷺ ، بين الله عظم هذا الأمر وعقوبته كما بين براءة السيدة عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا مما رماها به أهل الإفك والبهتان .

● يقول صاحب الظلال : [... وبعد الانتهاء من بيان حكم القذف يورد نموذجاً من القذف يكشف عن شناعة الجرم وبشاعته ؛ وهو يتناول بيت النبوة الطاهر الكريم ، وَعَرَّضَ رسول الله ﷺ - أكرم إنسان على الله وَعَرَّضَ صديقه أبي بكر ﷺ أكرم إنسان على رسول الله ﷺ ، وَعَرَّضَ رجل من الصحابة : صفوان بن المعطل ﷺ يشهد رسول الله ﷺ أنه لم يعرف عليه إلا خيراً ...] (1) .

هذا الحدث الذي شغل المسلمين في المدينة شهراً كاملاً حتى جاء الجواب الكافي والدواء الشافي والحكم الحاسم من أحكم الحاكمين الذي لا تخفي عليه خافية ، ولا تغيب عنه غائبة في الأرض ولا في السماء .

جاء الجواب القاطع ببراءة السيدة عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا مما رماها به أهل الإفك والبهتان .

ولنا مع الآيات الكريمة التي نزلت في هذا الشأن وقفة ... فنقول وبالله التوفيق .

قوله ﷻ : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ﴾ .

الإفك : هو أبلغ ما يكون من الكذب والافتراء ، وأصل الإفك القلب ، ومنه ﴿ وَالْمُؤَنَّفَكَةَ ﴾ وهي قرى قوم لوط سُمِّيت بذلك لانقلاب موازينها حيث صار فيها الشر خيراً والخير شراً والمنكر معروفاً والمعروف منكراً ، فأهلك الله أهلها ونجى لوطاً ومن آمن معه ؛ قال تعالى : ﴿ وَالْمُؤَنَّفَكَةَ أَهْوَى ﴾ ﴿ فَغَشَّهَا مَا عَشَى ﴾ (2) وقال ﷻ : ﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَلَيْهَا سَاقِلَهَا ﴾ (3) .

(3) سورة هود : 82 .

(2) سورة النجم : 53 ، 54 .

(1) في ظلال القرآن 2494/4 .

قلب الله تلك القرى فجعل عاليها سافلها ، فسميت بالموثفكة من الإفك وهو القلب وصرف الشيء عن وجهه ، والحديث الإفك هو الحديث المقلوب ، وعبر سبحانه عن الكلام الكذب الذي رميت به السيدة عائشة بالإفك لأن المعروف عنها خلاف ذلك ، فهي الطاهرة العفيفة النقية التقية ، وفي لفظ المجيء ما يدل على أنهم اختلقوه وأظهروه من عند أنفسهم من غير أن يكون له أصل .

واللام في ﴿ يَا لَإِفْكَ ﴾ لام العهد الذهني ، أي الإفك المعهود في الأذهان ، ويجوز كون اللام للجنس فيفيد القصر كأنه لا إفك إلا ذلك الإفك ، وفي هذا إشارة إلى شناعته وبشاعته وفضاعته وكذبه وبطلانه .

﴿ عَصَبَةٌ مِّنْكُمْ ﴾ .

أي جماعة من بينكم ، وهم رأس النفاق عبد الله بن أبي بن سلول زعيم المنافقين ، وزيد بن رفاعه وهو من المنافقين أيضا ، وحسان بن ثابت ومسطح بن أثانة وحمنة بنت جحش وغيرهم ممن خاض في هذا الأمر .

يقول الإمام الرازي : [أما قوله ﴿ مِّنْكُمْ ﴾ فالمعنى أن الذين أتوا بالكذب في أمر عائشة جماعة منكم أيها المؤمنون ؛ لأن عبد الله كان من جملة من حكم له بالإيمان ظاهرا] (1) .
وقال الألويسي : [... قيل إن قوله ﴿ مِّنْكُمْ ﴾ خارج مخرج الأغلب الأعم وأغلب أولئك العصبة من المؤمنين] (2) .

﴿ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ .

فلقد كشف هذا الأمر عن أعداء الدين من المنافقين وما تنطوي عليه قلوبهم من سوء نية وخبث طوية ، وفي كشفهم وفضحهم خير للمؤمنين حيث يحذرون منهم ومن مخططاتهم الخبيثة .

● يقول صاحب الكشاف : [ومعنى كونه خيرا لهم : أنهم اكتسبوا فيه الثواب العظيم ؛ لأنه كان بلاء مبينا ومحنة ظاهرة ، وأنه نزلت فيه ثماني عشرة آية كل واحدة منها مستقلة بما هو تعظيم لشأن رسول الله ﷺ وتسلية له وتنزيهه لأمة المؤمنين رضوان الله

(1) مفاتيح الغيب 174/23 .

(2) روح المعاني للألويسي 115/18 .

عليها ، وتطهير لأهل البيت ، وتهويل لمن تكلم في ذلك أو سمع به فلم تمتجّه أذناه (1) وعدة ألطاف للسامعين والتالين إلى يوم القيامة وفوائد دينية وأحكام وآداب لا تخفى على متأملها [(2)] .

ويقول ابن كثير في تفسيره : [﴿ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ﴾] في الدنيا والآخرة ، لسان صدق في الدنيا ورفعة منازل في الآخرة ، وإظهار شرف لهم باعتناء الله تعالى بعائشة أم المؤمنين ﷺ حيث أنزل الله براءتها في القرآن العظيم الذي ﴿ لَا يَأْتِيهِ الْبَطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ ﴾ (3) ، ولهذا لما دخل عليها ابن عباس ﷺ وعنها وهي في ساعة الموت .

قال لها : أبشري فإنك زوجة رسول الله ﷺ وكان يحبك ولم يتزوج بكرا غيرك ونزلت براءتك من السماء ، وروى ابن جرير في تفسيره بسنده عن محمد بن عبد الله بن جحش قال : تفاخرت عائشة وزينب ﷺ ، فقالت زينب أنا التي نزل تزويجي من السماء ، وقالت عائشة وأنا التي نزل عذري - أي براءتي - من السماء [(4)] .

● ومن ذلك الخير أيضا ما تمخض عنه هذا الحدث الجليل من مواقف مشهودة محمودة للرسول ﷺ ولصحبه الكرام ، فهذا رسول الله ﷺ وهو أشد الناس غيرة على عرضيه - يتحمل أذى الناس له في عرضيه ولو شاء أن يضرب أعناق كل من خاض في الإفك لفعل ، وحينما نزلت الآيات ببراءة السيدة عائشة ﷺ نراه لا يقيم الحد إلا على من ثبتت عليه جريمة القذف ، وهذه عائشة ﷺ تواجه هذه المحنة بصبر وثبات وتوجه إلى الله ﷻ ، وهذا أبو بكر الصديق ﷺ كان قد أقسم أن لا ينفق على قريبه مسطح بن أثانة الذي خاض في عرض عائشة ﷺ فينزل في ذلك قول الله ﷻ .

﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي

(1) تمتجّه أذناه تستقبحه وترده .

(2) الكشاف للزمخشري 218/3 وراجع مفاتيح الغيب 174/23 والظلال 2500/4 وراجع متشابه القرآن للقاضي عبد الجبار الهمداني ت 415 هـ تحقيق د . عدنان زرزور ص 522 ط دار التراث بالقاهرة .

(3) سورة فصلت : 42 .

(4) تفسير ابن كثير 272/3 بتصرف وراجع جامع البيان للطبري 11/21 .

سَبِيلِ اللَّهِ وَلِيَعْفُوا وَيَصْفَحُوا أَلَّا يُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١﴾ .
 فيقول أبو بكر والله إنني أحب أن يغفر الله لي ويعيد إلى مسطح ما كان يصله به من نفقة ويقول والله لا أنزعها أبدا .

● وها هُنَّ أزواج النبي ﷺ - ضرائر عائشة - لا يقلن على عائشة إلا خيرا ، ويتجلى لنا ذلك واضحا في موقف زينب بنت جحش رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ، فهي مع غيرتها المفرطة من عائشة لم تقل عنها إلا خيرا .

تقول عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا : وكان رسول الله ﷺ قد سأل زينب بنت جحش عن أمري فقال يا زينب ما علمت وما رأيت ؟ فقالت يا رسول الله أحمي سمعي وبصري والله ما علمت عليها إلا خيرا ، قالت عائشة وهي التي كانت تساميني من أزواج النبي ﷺ فعصمها الله تعالى بالورع ، وطفقت أختها حمنة تحارب لها فهلكت فيمن هلك من أصحاب الإفك .

● ومن ذلك الخير أيضا : أن هذه الواقعة حجة ساطعة ودلالة قاطعة على صدق رسول الله ﷺ .

● يقول الأستاذ الدكتور محمد عبد الله دراز (2) - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - في معرض حديثه على أن القرآن كلام الله ﷻ ، وأن الرسول ﷺ لم يكن ليأتي بشيء من القرآن من تلقاء نفسه :
 [لقد كانت تنزل به نوازل من شأنها أن تحفره إلى القول ، وكانت حاجته القصوى تلح عليه أن يتكلم بحيث لو كان الأمر إليه لوجد له مقالا ومجالا ولكنه كانت تمضي الليالي والأيام تتبعها الليالي والأيام ولا يجد في شأنها قرآنا يقرؤه على الناس ، ألم يرجف المنافقون بحديث الإفك عن زوجه عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ، وأبطأ الوحي وطال الأمر والناس يخوضون حتى بلغت القلوب الحناجر وهو لا يستطيع إلا أن يقول - بكل تحفظ واحتراس - : لا أعلم عنها إلا خيرا ، ثم إنه بعد أن بذل جهده في التحري والسؤال والاستشارة ومضى الشهر بأكمله والكل يقولون ما علمنا عليها من سوء ، لم يزد على

(1) سورة النور : 22 .

(2) علم من أعلام الأزهر الشريف حاصل على الدكتوراة من جامعة السوربون بتاريخ 1947/12/15 ، وموضوعها دستور الأخلاق في القرآن الكريم ومن مؤلفاته مدخل إلى دراسة علوم القرآن - وكتابه النبأ العظيم - وكتابه - الدين - دراسة في علم مقارنة الأديان .

أن قال لها آخر الأمر : يا عائشة أما إنه قد بلغني كذا وكذا فلئن كنت بريئة فسيبرئك الله وإن كنت أُلْمْتُ بذنب فاستغفري الله ، هذا كلامه بوحى ضميره (1) وهو كما ترى كلام البشر الذي لا يعلم الغيب وكلام الصديق المثبت الذي لا يتبع الظن ولا يقول ما ليس له به علم ، على أنه لم يغادر مكانه بعد أن قال هذه الكلمات حتى نزلت الآيات الكريمة من سورة النور معلنة براءتها ومصدرة الحكم المبرم بشرفها وطهارتها . فماذا كان يمنعه ﷺ لو أن أمر القرآن إليه أن يتقول بكلمات حاسمة ليحامي بها عرضه ويزود به عن حياضه ويذُت بها عن عرينه ، وينسبها إلى الوحي السماوي لتقطع ألسنة المتخرفين ؟ ولكنه ما كان ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله [(2)] .

وصدق المولى ﷺ إذ يقول عن القرآن الكريم في سورة الحاقة : ﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُمْ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا يَقُولُ كَاهِنٌ قَلِيلًا مَّا تَذْكُرُونَ ﴿٤٢﴾ نَزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٣﴾ وَلَوْ نَقُولُ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا يَنْكُرُ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِنَّهُ لَتَذْكُرٌ لِلْمُنْفِقِينَ ﴿٤٨﴾ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُمْ مُّكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ ﴿٥١﴾ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴿٥٢﴾ .

● وللإمام ابن القيم في هذا المقام كلام طيب يبين فيه الحكمة من انقطاع الوحي وتأخره مع شدة الحاجة إليه يقول رحمه الله : [... واقتضى تمام الامتحان والابتلاء أن حبس الوحي عن رسول الله ﷺ شهرا كاملا ليزداد المؤمنون الصادقون إيمانا وثباتا على العدل والصدق وحسن الظن بالله ورسوله وأهل بيته والصدّيقين من عباده ، ويزداد المنافقون إفكا ونفاقا ، ويظهر للرسول ﷺ وللمؤمنين سرائر المنافقين .

وأيا كان من حكمة تأخر الوحي أن القضية نضجت وتمخضت واستشرفت قلوب المؤمنين أعظم استشراف إلى ما يوحيه الله ﷻ إلى رسوله ﷺ فيها ، وتطلعت إلى ذلك غاية التطلع فوافى الوحي أحوج ما كان إليه الرسول ﷺ وأهل بيته والصدّيق وأهله وسائر المؤمنين الصادقين ، فورد الوحي عليهم ورود الغيث على الأرض أحوج ما كانت إليه فوقع الوحي منهم أعظم موقع وألطفه وشوّوا به أتم السرور وحصل لهم به غاية الهناء ، فلو أطلع الله رسوله على حقيقة الحال من أول وهلة وأنزل الوحي على الفور بذلك

(1) عبارة (بوحى ضميره) تعبير غير سائغ . وغير مقبول .

(2) النبا العظيم للدكتور محمد عبد الله دراز ص 24 ط دار القلم بالكويت سنة 1397 هـ سنة 1977 م .

لفات هذه الحكم وأضعافها بل أضعاف أضعافها [(1)] .

﴿ لِكُلِّ أَمْرٍ مِّنْهُمْ مَا أَكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ ﴾ .

أي لكل امرئ من الخائضين القاذفين جزاء ما اكتسبه من الإثم بقدر ما خاض وأفاض .

﴿ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرًا مِنْهُمْ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ .

أي الذي تحمل معظم الإثم حيث اختلق هذا الكلام متعمدا الإساءة إلى بيت النبوة ، وهذا الأفاك الأثيم هو عبد الله بن أبي بن سلول الذي قال : امرأة نبيكم باتت مع رجل حتى أصبحت ثم جاء يقود بها ... هذا الأفاك افتري واختلق هذا الإفك وبثه وأشاعه .

فكان جزاؤه الخزي والفضيحة في الدنيا ، بأن ظهر نفاقه وفضح أمره ، ومات على كفره ، وله في الآخرة عذاب عظيم على الكفر والنفاق والبهتان قال تعالى عن عقاب المنافقين : ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ يَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴾ (2) وهذا المنافق يتحمل وزره ووزر كل من خاض في الإفك ﴿ وَيَحْمِلُ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيَسْتَلْنَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ (3) أثقال ضلالهم وإضلالهم لغيرهم .

هذا ولقد أقيم حد القذف على حسان بن ثابت ومسطح بن أثانة وحمنة بنت جحش ، واختلف العلماء في رأس المنافقين هل أقيم عليه الحد أم لا ؟ والصواب أنه لم يُحد ، لما ورد في الحديث الذي رواه الترمذي وأبو داود وغيرهما عن عائشة رضي الله عنها قالت لما نزل عذري من السماء قام النبي صلى الله عليه وسلم على المنبر فذكر ذلك وتلا ما نزل في من القرآن فلما نزل من المنبر أمر بالرجلين حسان ومسطح والمرأة - حفنة بنت جحش ، فضربوا حدهم (4) .

(1) زاد المعاد 114/2 بتصرف .

(2) سورة النساء : 145 .

(3) سورة العنكبوت : 13 .

(4) أخرجه الترمذي في السنن ك / التفسير باب / 25 (ومن سورة النور) وقال حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث محمد بن إسحاق - السنن حديث 3181 - 314/5 - ورواه أبو داود في السنن ك / الحدود باب / حد القذف - حديث 4474 - السنن 162/4 وعون المعبود 173/12 - ورواه ابن ماجه في السنن ك / الحدود باب / حد القذف حديث 2567 - 857/2 - وأورده الألباني في صحيح سنن الترمذي برقم 2542 - 84/3 - كما أورده أيضا في صحيح سنن ابن ماجه برقم 2081 - 84/2 وقال الألباني حديث حسن .

قال ابن القيم في زاد المعاد : [ولما جاء الوحي ببراءتها أمر رسول الله ﷺ بمن صرح بالإفك فحدوا ثمانين ولم يحد الخبيث عبد الله بن أبي مع أنه رأس أهل الإفك ؛ فقيل لأن الحدود تخفيف عن أهلها وكفارة والخبيث ليس أهلا لذلك وقد وعده الله بالعذاب العظيم في الآخرة فيكفيه ذلك عن الحد ، وقيل بل كان يستوشي الحديث ويجمعه ويحكيه ويخرجه في قوالب من لا ينسب إليه ، وقيل بل ترك حده لمصلحة هي أعظم من إقامته كما ترك قتله مع ظهور نفاقه وتكلمه بما يوجب قتله مرارا ، وذلك لتأليف قومه وعدم تنفيرهم من الإسلام فإنه كان مطاعا فيهم رئيسا عليهم فلم يؤمن إثارة الفتنة في حده ولعله ترك لهذه الوجوه كلها ، ومجئد مسطح وحسان وحمنة ، وهم من المؤمنين الصادقين تطهيرا لهم وتكفيرا ، وترك عبد الله إذا فليس هو من أهل ذاك] (1) .

﴿ لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴾ (2) .

هلا إذ سمعتم بهذا الكلام ظننتم خيرا بأنفسكم وأمكم عائشة رضي الله عنها فهي أم المؤمنين كما قال رب العالمين : ﴿ أَلَتْنِي أَوْلِيَ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجَهُمْ أُمَّهَاتُهُمْ ... ﴾ (3) .
- وما كان للمؤمن أن يفجر بأمه كما لا يعقل أن تفجر الأم بابنها (4) .

وعائشة هي أم المؤمنين وزوج إمام المتقين وخاتم النبيين والمرسلين ، ولها حرمتها ولها مكانتها وسيرتها العطرة الطيبة التي تشهد لها بالطهر والعفاف ، وصفوان بن معطل صحابي جليل عابد مجاهد طاهر عفيف . وكان الواجب عليكم أن تحسنوا الظن بأمكم زوجة نبيكم التي لا تعلموا عنها إلا خيرا ، وتحسنوا الظن بصفوان فهو معروف لديكم ، وتذكروا هذا الإفك الواضح البطلان ، الذي ينكره العقل والمنطق وتمجّه الآذان وتأباه الفطرة السليمة والنفوس المستقيمة التي تنظر في الأمور بتعقل وتبصر .

● قال الزمخشري : [فإن قلت : هلا قيل : لولا إذ سمعتموه ظننتم بأنفسكم خيرا وقتلتم ؟ ولم عدل عن الخطاب إلى الغيبة ، وعن الضمير إلى الظاهر ؟ قلت : ليبالغ في التوبيخ بطريقة الالتفات ، وليصرح بلفظ الإيمان ، دلالة على أن الاشتراك فيه مقتضي أن

(1) زاد المعاد 2/114 ، 115 بتصرف .

(2) سورة النور : 12 .

(3) سورة الأحزاب : 6 .

(4) المختصر في تفسير القرآن لابن صمادح التجيبي ت 419 هـ تحقيق د . عدنان زرزور ص 280 ط مؤسسة

لا يصدق مؤمن على أخيه ولا مؤمنة على أختها قول عائب ولا طاعن . وفيه تنبيه على أن حق المؤمن إذا سمع قالة في أخيه ، أن يني الأمر فيها على الظن لا على الشك . وأن يقول بملء فيه بناء على ظنه بالمؤمن الخير : ﴿ هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴾ هكذا بلفظ المصرح ببراءة ساحته كما يقول المستيقن المطلع على حقيقة الحال . وهذا من الأدب الحسن الذي قل القائم به والحافظ له ، وليتك تجد من يسمع فيسكت ولا يشيع ما سمعه [(1)] .

وقال القرطبي : [... وقيل المعنى أنه كان ينبغي أن يقيس فضلاء المؤمنين والمؤمنات الأمر على أنفسهم ، فإن كان ذلك يبعد فيهم فذلك في عائشة وصفوان أبعده ، وروي أن هذا النظر السديد وقع من أبي أيوب الأنصاري وامراته ، وذلك أنه دخل عليها فقالت له : يا أبا أيوب ، أسمعت ما قيل ! فقال نعم ! وذلك هو الكذب ، أكنت أنت يا أم أيوب تفعلين ذلك ؟ قالت : لا والله ، قال : فعائشة والله أفضل منك ، قالت أم أيوب نعم ، فهذا الفعل ونحوه هو الذي عاتب الله تعالى عليه المؤمنين إذ لم يفعله جميعهم] (2) .

﴿ تَوَلَّوْا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةٍ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴾ (3) .

هلا جاءت تلك العصبة الكاذبة (بأربعة شهداء) عدول : يشهدون بأنهم شاهدوا وعابنوا ذلك الأمر الذي قالوا به ﴿ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴾ فإذا لم يمكنهم الإتيان بهم فهم في حكم الله وشريعته المؤسسة على الدلائل الظاهرة المستيقنة . كاذبون مفترون أفاكون .

والذين رموا عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا لم تكن لهم بينة على زعمهم وافترائهم فقامت عليهم الحجة وكانوا في حكم الله وشرعه هم الكاذبون .

يقول صاحب الكشاف : [وفي هذا توبيخ وتعنيف للذين سمعوا الإفك فلم يجدوا في دفعه وإنكاره ، واحتجاج عليهم بما هو ظاهر مكشوف في الشرع : من وجوب تكذيب القاذف بغير بينة ، والتنكيل به إذا قذف امرأة محصنة من عرض نساء المسلمين ، فكيف بأم المؤمنين الصديقة بنت الصديق حرمة رسول الله ﷺ وحببية حبيب الله ؟] (4) .

(2) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي 202/12 .

(1) الكشاف 218/3 .

(4) الكشاف 219/3 .

(3) سورة النور : 13 .

ويقول الأستاذ الدكتور سيد جبل رحمته الله : [والذين اتهموا عائشة رضي الله عنها لم يهتموها بناء على شيء رأوه بأعينهم فقالوه بألسنتهم بل إنهم اختلقوا هذا الإفك بناء على تخلفها عن الرحيل ثم وصولها إلى الجيش على بعير صفوان وليس في هذا مجال للشك بل إن وصولها على هذا الحال يدل دلالة قاطعة على براءة ساحتها] (1) .

﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ .

لولا ما تفضل الله به عليكم من نعمه العظيمة وآلائه الجسيمة والتي من أجلها رحمة بكم حيث الإمهال وقبول التوبة ، لولا ذلك لعجل لكم العقوبة في الدنيا من جرّاء ما خضتم فيه ، فضلا عن العقاب الأليم في الآخرة .

● قال ابن كثير : [.. وهذا فيمن عنده إيمان يقبل الله بسببه التوبة كمسطح وحسان وحمنة ، فأما من خاض فيه من المنافقين كعبد الله بن أبي بن سلول وأضرابه فليس أولئك مرادين في هذه الآية لأنه ليس عندهم من الإيمان والعمل الصالح ما يعادل هذا ولا ما يعارضه] (2) .

﴿ إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيئًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ ﴾ .

في هذه الآية الكريمة تصوير دقيق لحال الخائضين في الإفك ، الذين تناقلوه بألسنتهم دون تثبت ودون تدبّر ، فهو قول لم يتجاوز الأفواه وهو كذب وزور وظلم وبهتان .

قال الزمخشري : [وصفهم بارتكاب ثلاثة آثام وعلق مس العذاب العظيم بها أحدها : تلقي الإفك بألسنتهم ، والثاني التكلم بما لا علم لهم به ، والثالث استصغارهم لذلك وهو عظيمة من العظائم] (3) .

﴿ وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ ﴾ (4) .

كان الأولى بكم والواجب عليكم حين سمعتم هذا الكلام المفترى أن تردوه

(1) تفسير سورة النور د . السيد أحمد خليل جبل ط / سنة 1409 هـ . بدون إشارة إلى جهة الطبع .

(2) تفسير القرآن العظيم لابن كثير 274/3 . (3) الكشاف 220/3 بتصرف .

(4) سورة النور : 16 .

وتعارضوه ، وتزهوا الله سبحانه أن يقع هذا الأمر من زوجة نبيه وحببية حبيبه ﷺ .

● قال الزمخشري : [فإن قلت كيف جاز أن تكون امرأة النبي كافرة كامرأة نوح وامرأة لوط ولم يجز أن تكون فاجرة ؟ قلت لأن الأنبياء مبعوثون إلى الكفار ليدعوهم ويستعطفوهم فيجب أن لا يكون معهم ما ينفر عنهم ولم يكن الكفر عندهم مما ينفر وأما الزنا فإنه من أعظم المنفرات] (1) . لذلك فإنه لم يقع قط من امرأة نبي .

وقوله تعالى : ﴿ هَذَا بُهْتَنٌ عَظِيمٌ ﴾ إشارة إلى حديث الإفك ، وحقيقة البهتان : أن يقال على الإنسان ما ليس فيه ، فعن أبي هريرة ؓ أن رسول الله ﷺ قال : « أتدرون ما الغيبة ؟ قالوا الله ورسوله أعلم . قال ذكرك أخاك بما يكره ، قيل أفرأيت إن كان في أخي ما أقول ؟ قال إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهته » (2) .

فالبهتان هو أن يدعي على إنسان ما ليس فيه ، فيبهته فيفاجئه بهذا الادعاء الكاذب ، وهو أعظم البهتان لأنه افتراء على السيدة عائشة ؓ وهي أم المؤمنين وزوج المصطفى ﷺ وهي الصديقة بنت الصديق ؓ ، وهي التي لم يعرف عنها إلا الخير والبر والعفاف والتقوى .

﴿ يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ .

نهى من الله لعباده المؤمنين وتحذير لهم من الخوض والعود إلى مثل هذا الحديث ، أبدا ما مادموا أحياء مكلفين .

﴿ وَيَبِّئُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ .

يبين الله تعالى لعباده المؤمنين ما فيه الخير والصلاح لهم في دنياهم وأخراهم . فهو سبحانه العليم بما يصلح شئون خلقه والحكيم فيما يفعله سبحانه .

قال الزمخشري [ويبين الله لكم الدلالات على علمه وحكمته بما ينزل عليكم من الشرائع ويعلمكم من الآداب الجميلة ويعظكم به من المواعظ الشافية البليغة ، والله عالم بكل شيء ، فاعل لما يفعله بدواعي الحكمة] (3) .

(1) المرجع السابق بتصرف 220 ، 221 .

(2) رواه الإمام مسلم في صحيحه ك / البر والآداب باب تحريم الغيبة صحيح مسلم بشرح النووي 142/16 .

(3) الكشاف 221/3 بتصرف .

ويقول الأستاذ سيد قطب رحمه الله : [﴿ وَيَسِّرُ اللَّهُ لَكُمْ آلَاتِكُمْ .. ﴾] على مثال ما بين في حديث الإفك وكشف عما وراءه من كيد وما وقع فيه من أخطاء وخطايا . ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ يعلم البواعث والنوايا والغايات والأهداف ، ويعلم مداخل القلوب ومسارب النفوس وهو حكيم في علاجها وتدير أمرها ووضع النظم والحدود التي تصلح بها ...] (1) .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ ءَامَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (2) .

● تحدثت الآيات السابقة عن براءة السيدة عائشة ، وكذب وافتراء أهل الإفك ووجوب التحري والتثبت من الأخبار وحسن الظن بالكرام الأخيار ورحمة الله بعباده وتفضله عليهم بالإمهال وقبول التوبة ، وفي هذه الآية الكريمة وعيد وتهديد لأولئك الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في المجتمع المسلم ويتلذذون حين يخوضون في أعراض أهل الإيمان ولا يبالون بما يترتب على ذلك من أضرار جسيمة ومن عواقب وخيمة ، هؤلاء الأفاكون الآثمون لهم عذاب شديد أليم في الدنيا والآخرة ، لقاء ما صنعوه .

● وهذه الآية وإن كانت قد نزلت في أعقاب حادثة الإفك إلا أنها عامة لأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب .

● يقول الإمام الرازي : [لاشك أن ظاهر قوله تعالى ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ ﴾ يفيد العموم ، ولا شك في أن هذه الآية نزلت في قذف عائشة إلا أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب فوجب إجراؤها على العموم ...] (3) .

● ويقول صاحب الظلال : [والذين يرمون المحصنات - وبخاصة أولئك الذين تجرأوا على رمي بيت النبوة الكريم - إنما يعملون على زعزعة ثقة الجماعة المؤمنة بالخير والعفة والنظافة ؛ وعلى إزالة التحرج من ارتكاب الفاحشة وذلك عن طريق الإيحاء بأن الفاحشة شائعة فيها ... بذلك تشيع الفاحشة في النفوس لتشيع بعد ذلك في الواقع ، ومن أجل هذا وصف الذين يرمون المحصنات بأنهم يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا ، وتوعدهم بالعذاب الأليم في الدنيا والآخرة ، وذلك جانب تربوي وإجراء وقائي يقوم على خبرة بمداخل النفس البشرية ومكانتها ومن ثم جاء التعقيب بقوله تعالى

(2) سورة النور : 19 .

(1) في ظلال القرآن 2503/4 .

(3) مفاتيح الغيب 183/23 .

﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [(1)] .

● فالآية وإن كانت قد نزلت في أعقاب حادث الإفك إلا أنها عامة في جميع الذين يحبون أن تشيع الفاحشة بين المؤمنين بأي وسيلة كانت ، فهي تنطبق على جميع صور إشاعة الفاحشة بقذف المحصنات الغافلات المؤمنات لرزعة الثقة في المجتمع وبث جذور الشك والريبة بين الناس كما تنطبق الآية على مروجي الفاحشة الذين يأججون نيران الشهوات الخامدة ويشيرون الغرائز الكامنة ، بالغناء الفاحش والأشعار الماجنة ، والصور الخليعة العارية والأفلام والمسلسلات الهزلية الهابطة ، والمسرحيات العابثة الساقطة ، يشيعون التبرج والسفور ويشجعون عليه بأساليبهم الخبيثة ووسائلهم الخسيسة ، كما تنطبق الآية الكريمة أيضا على الذين يحبون أن تشيع الفاحشة بيناء وتشديد وإعداد المسارح الهزلية الراقصة والملاهي الليلية العابثة ونوادي وقرى وشواطئ العري ودور البغاء . كما تنطبق الآية على من يحاربون شرع الله ويعطلون إقامة الحدود على القاذفين والزناة ، ويحاربون كل داعية إلى الفضيلة والطهر والعفاف .

فالآية الكريمة تنطبق على جميع هؤلاء الذين يحبون إشاعة الفاحشة بين المؤمنين ، بشتى السبل والوسائل .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ ءَامَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ﴾ .

عذاب الدنيا عقوبة عاجلة وعذاب الآخرة هو العقاب الآجل الذي ينتظرهم إن لم يتوبوا إلى الله تعالى .

﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ .

يعلم الذين يحبون إشاعة الفاحشة يعلم سرهم وجهرهم ويطلع على نواياهم الخبيثة ونفوسهم الأمارة بالسوء ويعلم قبح فعلهم وشناعته وما يترتب عليه من فساد وانحلال ، وفسق وضلال .

● قال الإمام الرازي : [وأما قوله تعالى ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ : فهو حسن الموقع بهذا الموضع ؛ لأن محبة القلب كامنة ونحن لا نعلمها إلا بالأمارات ، أما

(1) في ظلال القرآن سيد قطب 4/2503 بتصرف ونحو ذلك ما ذكره صاحب التحرير والتنوير 18/185 .

الله سبحانه فهو لا يخفى عليه شيء فصار هذا الذكر نهاية في الزجر ؛ لأن من أحب إشاعة الفاحشة وإن بالغ في إخفاء تلك المحبة فهو يعلم أن الله تعالى يعلم ذلك منه ، وإن علمه سبحانه بذلك الذي أخفاه كعلمه بالذي أظهره ويعلم قدر الجزاء عليه [(1)] .

﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ (2) .

كرر سبحانه منته على عباده وتفضله عليهم ورحمته ورأفته بهم بترك تعجيل عقوبتهم ، وفي هذا تذكير بعظيم فضل الله تعالى وواسع رحمته ، وتذكير بعظم ذلك الافتراء على السيدة عائشة رضي الله عنها .

قال الإمام النسفي : [وكرر المنة بترك المعاجلة بالعقاب مع حذف الجواب مبالغة في المنة عليهم والتوبيخ لهم ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ حيث أظهر براءة المقدوفة وقبل توبة القاذف] (3) .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوبَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوبَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ (4) .

● نهى الله عباده المؤمنين عن اتباع خطوات الشيطان ، أي مسالكه ومذاهبه ومسايريه ووساوسه والتي من أخطرها إشاعة الفاحشة بين المؤمنين بإساءة الظن واتهام الأبرياء وإطلاق الألسنة في أعراض الناس وغير ذلك من طرق إشاعة الفاحشة التي تعد من أخطر الوسوس الشيطانية على الفرد والمجتمع .

● والإسلام حين حرم الزنا حرم كل ما يوصل إليه من قول أو فعل أو قصد خبيث (5) ، قال تعالى : ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا ﴾ (6) .

● ومن فضل الله ورحمته بنا أن هدانا للإيمان ووقفنا إلى طريق الطهر والنقاء ، فهو سبحانه الذي يزكي النفوس ، ويطهرها وينقيها ويرقيها إلى أعلى درجات الإيمان والإحسان وهو سبحانه السميع لكل قول والعليم بكل قصد وفعل . والله سبحانه عليم

(2) سورة النور : 20 .

(1) مفاتيح الغيب للرازي 184/23 .

(4) سورة النور : 21 .

(3) تفسير النسفي 137/3 .

(5) من ذلك النظرة المحرمة والخلوة بالأجنبيات والاختلاط المنهي عنه والتبرج والغناء الفاحش وغير ذلك من

(6) سورة الإسراء : 32 .

الخطوات الشيطانية .

بمن ينشد الخير ، وعليم بمن يقصد الشر ويسعى إليه .

﴿ وَلَا يَأْتِلْ أَوْلُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولَى الْقُرْبَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ .

سبب نزول الآية :

نزلت هذه الآية الكريمة في أبي بكر الصديق رضي الله عنه حين حلف ألا ينفق على مسطح ابن أئمة (1) بعد الذي قاله في شأن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها ، ولقد أقيم الحد على مسطح وتاب إلى الله تعالى ، فلما نزلت هذه الآية قال الصديق : بلى والله إنا نحب أن يغفر لنا ربنا ، ثم أعاد إلى مسطح ما كان يصله به من نفقة وقال والله لا أنزعها أبدا (2) .

ومعنى الآية الكريمة : ولا يحلف أولوا الفضل والسعة أن لا يؤتوا أقاربهم المحتاجين الذين أساءوا إليهم ؛ فالكريم لا يقابل الإساءة بالإساءة ، وإنما يقابل الإساءة بالإحسان ، ويعفو ويصفح ، ابتغاء مرضات الله وطمعا في رحمة الله ﴿ وَيَعْفُوا وَيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ ﴾ .

● يقول ابن كثير : [... والجزاء من جنس العمل ؛ وكما تغفر ذنب من أذنب إليك يغفر الله لك وكما تصفح يصفح عنك] (3) .

● وهذه الآية وإن كانت قد نزلت في شأن أبي بكر الصديق رضي الله عنه حيث حلف على مسطح ألا ينفق عليه لأنه آذاه في عرضه ، إلا أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص

(1) مسطح بن أئمة من المهاجرين وهو من أقارب أبي بكر الصديق رضي الله عنه وكان أبو بكر يحسن إليه وينفق عليه لأنه كان من المساكين والمساكين هو : من قدر على مال أو كسب حلال يقع موقعا من كفايته وكفاية من يعول ولكن لا يتم به الكفاية كمن يحتاج إلى عشرة فيجد سبعة أو ثمانية ، يقول تعالى ﴿ أَمَا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسْكِينٍ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ ﴾ سورة الكهف 79 وصفهم هذا الوصف مع ملكهم لهذه السفينة للإشارة إلى أن إيراد السفينة لا يفي بالنفقة عليهم ، وفي الحديث يقول صلى الله عليه وسلم : « ليس المسكين الذي تردده التمرة والتمرتان ولا اللقمة واللقمتان إنما المسكين الذي يتعفف » اقرأوا إن شئتم ﴿ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْتَلُونَ النَّاسَ بِالْحَقِّ ﴾ البقرة 273 .

والحديث رواه البخاري في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه ك / التفسير باب ﴿ لَا يَسْتَلُونَ النَّاسَ بِالْحَقِّ ﴾ حديث 4539 فتح الباري 50/8 .

(2) أسباب النزول للواحد ص 217 وأسباب النزول للسيوطي بهامش تفسير الجلالين ص 579 .

(3) تفسير القرآن العظيم 276/3 بتصرف .

السبب ، وفي هذه الآية الكريمة إشارة إلى فضل أبي بكر الصديق وعظيم منزلته عند الله ﷺ وفيها أيضا بيان لجواز الحنث في اليمين إذا رأى الحالف في غيرها خيرا منها ، قال تعالى في سورة المائدة : ﴿ لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَدْتُمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَرْتُمْ بِهِ إِطْعَامَ عَشْرَةِ مَسْكِينٍ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كَسْوَتَهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (1) .

وقال تعالى في سورة البقرة : ﴿ وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصَلِّحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ (2) ، وفي الحديث الصحيح يقول ﷺ : « من حلف على يمين فرأى غيرها خيرا منها فليأت الذي هو خير وليكفر عن يمينه » (3) .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعُنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ (4) .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ ﴾ أي يقذفون وأصل الرمي القذف بشيء صلب كالحجر وغيره ثم استعير للقذف باللسان لأنه نوع أذى .

قال النابغة :

وَجُرْحُ اللِّسَانِ كَجُرْحِ اليَدِ

وقال آخر :

جراحاتُ السنانِ لها التثامُ ولا يلتامُ ما جرح اللسانُ

(1) سورة المائدة : 89 .

(2) سورة البقرة : 224 .

(3) رواه الإمام مسلم في صحيحه بلفظه عن عدي بن حاتم وعن أبي هريرة - كتاب الإيمان باب من حلف على يمين فرأى غيرها خيرا منها - صحيح مسلم بشرح النووي 11/114 ، 115 ورواه الترمذي بلفظه عن أبي هريرة وقال حديث حسن صحيح - أبواب النذور والأيمان باب في الكفارة قبل الحنث حديث 1585 سنن الترمذي / وصحيح الترمذي للألباني حديث 1236 - 97/2 ط المكتب الإسلامي سنة 1408 هـ ورواه البخاري عن عبد الرحمن بن سمرة كتاب الأيمان والنذور باب لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم ولفظ رواية البخاري « ... وإذ حلفت على يمين فرأيت غيرها خيرا منها فكفر عن يمينك واثت الذي هو خير » حديث 6622 - فتح

(4) سورة النور : 23 .

الباري 11/525 .

﴿ الْمُحْصَنَاتِ ﴾ جمع محصنة والمراد بها هنا العفيفة الطاهرة (1) .

﴿ الْغَافِلَاتِ ﴾ جمع غافلة وهي التي غفلت عن الفاحشة بحيث لم تخطر ببالها لكونها مطبوعة على الخير مجبولة على العفاف والطهر ، فهي سليمة الصدر ، نقية القلب .

﴿ الْمُؤْمِنَاتِ ﴾ المتصفات بالإيمان وما يستدعيه من خصال حسنة .

﴿ لِعُنُوقِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ﴾ .

بسبب جرمهم وظلمهم واتهامهم للطاهرات العفيفات .

﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ في الدنيا والآخرة .

وهذه الآية وإن كانت قد نزلت في أعقاب حادثة الإفك إلا أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب وقد اختار شيخ المفسرين الإمام الطبري في تفسيره : عموم هذه الآية (2) ويعضد العموم ما ورد في الصحيحين عن أبي هريرة ؓ أن رسول الله ﷺ قال : « اجتنبوا السبع الموبقات قيل وما هن يا رسول الله ؟ قال : الشرك بالله والسحر وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق ، وأكل الربا وأكل مال اليتيم والتولي يوم الزحف وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات » (3) .

قال ابن كثير وقد أجمع العلماء رحمهم الله قاطبة على أن من سب عائشة بعد نزول براءتها ، ورمأها بما رماها به أهل الإفك فإنه كافر لأنه معاند للقرآن ، وفي بقية أمهات

(1) أصل المحصنة من الإحصان وهو المنع وتأتي المحصنة في لغة القرآن الكريم ويراد بها المتزوجة لأن الزواج حصن حصين قال تعالى في سياق الحديث عن المحرمات من النساء ﴿ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ... ﴾ سورة النساء 24 .

فالمرأة المتزوجة لا يجوز التزوج بها ما دامت متزوجة ، وتأتي المحصنة في القرآن ويراد بها الحرة قال تعالى ﴿ وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فَتْيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ﴾ النساء 25 والمحصنات هنا هن الحرائر ويقابلهن الإماء . وتأتي المحصنة ويراد بها العفيفة الطاهرة التي أحصنت فرجها أي حفظته إلا من الحلال الطيب قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ ﴾ فالمحصنات هنا هن العفيفات الطاهرات . (2) جامع البيان للطبري 83/18 .

(3) الحديث رواه الإمام البخاري في صحيحه عن أبي هريرة ؓ ك الحدود باب رمي المحصنات ، حديث 6857

- فتح الباري 188/12 .

ورواه الإمام مسلم في صحيحه عنه كتاب الإيمان باب أكبر الكبائر - صحيح مسلم بشرح النووي 83/2 .

المؤمنين قولان أصحهما أنهن كعائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا وعنهن ، والله أعلم [(1)] .

أقول : أما بالنسبة لغير أمهات المؤمنين فإن الحكم يختلف فمن قذف غير أزواج النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فليس بكافر وإنما هو مرتكب لكبيرة ، ومرتكب الكبيرة ليس بكافر ، ما لم يكن مستحلاً لها فإن كان مستحلاً لها فهو كافر لإنكاره معلوماً من الدين بالضرورة .

﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ .

تعترف الألسنة وتقر على أصحابها وتشهد الأيدي والأرجل تنطق بقدرة الله عَلَيْكُمْ ، كما قال تعالى في سورة فصلت : ﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١١﴾ حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءَهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَرُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾ وَقَالُوا لِمَ جُؤِدِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَلَوْلَئِي تَرْجَعُونَ ﴿١٣﴾ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرَدْتُمْ أَنْ تُصَبِّحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿١٥﴾ فَإِنْ يَصِيرُوا قَالَتِ النَّارُ مَثْوَىٰ لَهُمْ وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ ﴾ (2) .

وكما قال عَلَيْكُمْ في سورة يس : ﴿ الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ (3) .

وكما ورد في الحديث الصحيح عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال : كنا عند رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فضحك حتى بدت نواجذه (4) ، ثم قال : هل تدرون مم أضحك ؟ قلنا الله ورسوله أعلم . قال : « من مجادلة العبد لربه يقول يا رب ألم تُجرني من الظلم ؟ فيقول بلى ، فيقول فإني لا أجزى عليّ شاهداً إلا من نفسي ، فيقول له عَلَيْكُمْ كفى بنفسك اليوم عليك شهيدا ، وبالكرام الكاتبين شهودا ، فيختم على فيه ، ويقال لأركانها : انطقي ، فتنتطق بعمله ، ثم يخلى بينه وبين الكلام ، فيقول : بعدا لكن وسحقا ؛ فعنكن كنت أناضل » (5) .

﴿ يَوْمَئِذٍ يُؤْفِكُهُمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ ﴾ (6) .

(1) تفسير القرآن لابن كثير 276/3 . (2) سورة فصلت : 19 - 24 . (3) سورة يس : 65 .

(4) التاجذ : السنن : بين الضرس والنايب - المصباح المنير مادة ن ج ذ 112/2 .

(5) رواه مسلم في صحيحه ك / الزهد الباب الأول حديث 2969 صحيح مسلم بشرح النووي 104/18 .

(6) سورة النور : 25 .

يجزيهم الله تعالى الجزء الأوفى بعد أن يحاسبهم حسابا دقيقا على كل صغيرة وكبيرة ، يقول ﷻ : ﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَسِيبِينَ ﴾ (1) .

ويقول ﷻ : ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴾ (2) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾ (2) .

وقال سبحانه : ﴿ وَوَضَعَ الْكِتَابَ فَتَرَى الْمَجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ (3) .

وإذا كان الأمر كذلك فلا بد أن يراقب العبد ربه في كل قول وفي كل فعل ، ويعلم أن الله تعالى مطلع عليه لا تخفى عليه خافية ولا يغيب عنه غائبة فهو سبحانه الحق ، يقول الحق ويحكم بالحق ، ويأمر بقول الحق ، وهو سبحانه المبين الذي يظهر الحق ، ومن ذلك إظهاره لبراءة السيدة عائشة رضي الله عنها وإنطاقه الجوارح لتشهد على صاحبها يوم القيامة . ﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَسُوهُ وَأَلَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ (4) ﴿ يَوْمَ هُمْ بَرْزُورُونَ لَا يُخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴾ (5) ﴿ يَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ (5) ، ﴿ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ ﴾ (6) .

﴿ الْحَيْثُ لِلْحَيْثِينَ وَالْحَيْثُونَ لِلْحَيْثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ .

● في هذه الآية الكريمة تصريح بأن الخبيثات من النساء للخبيثين من الرجال ، أي مختصات بهم لا يتجاوزونهم إلى غيرهم ، والخبيثون من الرجال للخبيثات من النساء ، وحيث كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أطيب الأطيبين وخيرة الأولين والآخرين تبين كون الصديقة رضي الله عنها من أطيب الطيبات بالضرورة واتضح بطلان ما قيل فيها من الأباطيل والخرافات ﴿ أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ ﴾ الإشارة هنا إلى الصديقة عائشة ، والصحابي الجليل

(2) سورة الزلزلة : 7 ، 8 .

(1) سورة الأنبياء : 47 .

(4) سورة المجادلة : 6 .

(3) سورة الكهف : 49 .

(6) سورة الحاقة : 18 .

(5) سورة غافر : 16 ، 17 .

صفوان والإشارة بلام البعد للدلالة على بعد المنزلة وعلو المكانة وفي قوله تعالى : ﴿ **أَوْلَيْكَ مُبْرَؤُونَ مِمَّا يَقُولُونَ** ﴾ تصريح ببراءة السيدة عائشة وبراءة الصحابي الجليل صفوان بن المعطل ؓ مما رميا به .

● يقول ابن كثير : [وما كان الله ليجعل عائشة زوجة لرسول الله ﷺ إلا وهي طيبة ، لأنه أطيّب من كل طيّب من البشر ، ولو كانت خبيثة لما صلحت له شرعا ولا قدرا ولهذا قال تعالى : ﴿ **أَوْلَيْكَ مُبْرَؤُونَ مِمَّا يَقُولُونَ** ﴾ أي هم بعداء عما يقوله أهل الإفك والعدوان] (1) .

● هذا وللآية الكريمة فهم آخر لا يتنافى مع ما ذكرناه ، وهو أن الكلام القبيح أولى بأهل القبح من الناس والكلام الطيب أولى بالطيبين من الناس فما نسبه أهل النفاق إلى عائشة من كلام هم أولى به وهي أولى بالبراءة والنزاهة (2) .

يقول الإمام الألوسي : [وقيل المراد : الخبيثات من القول مختصة بالخبيثين من فريقي الرجال والنساء لاتصدر عن غيرهم ، والخبيثون من الفريقين مختصون بالخبيثات من القول متعرضون لها ، والطيبات من القول للطيبين من الفريقين أي مختصة بهم لاتصدر عن غيرهم .

والطيّبون من الفريقين مختصون بالطيبات من القول لا يصدر عنهم غيرها ، وأولئك الطيبون مبرءون مما يقول الخبيثون أي لا يصدر عنهم مثل ذلك] (3) .

وقيل : إن الخبيثات من الأعمال لاتليق إلا بالخبيثين من الناس والطيبات من الأعمال إنما تليق بالطيبين من الناس .

والآية الكريمة تحتمل هذه المعاني كلها والأول هو الأظهر لملاءمته للسياق .

﴿ **لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ** ﴾ .

بعد أن برأ الله ساحة أم المؤمنين عائشة : بشرها بالمغفرة والرزق الكريم وهو الجنة دار الكرامة ومستقر الرحمة التي أعدها الكريم لعباده الكرام .

(1) تفسير القرآن العظيم 278/3 ويراجع روح المعاني للألوسي 131/18 ويراجع تفسير سورة النور لأبي الأعلى المودودي ص 139 ط دار الاعتصام بدون تاريخ .

(2) تفسير القرآن العظيم لابن كثير 278/3 . (3) روح المعاني للألوسي 131/18 .

وفي هذه الآيات من الدلالة على فضل الصديقة ما فيها . ولقد روي عنها أنها قالت : لقد أعطيت تسعا ما أعطيتهن امرأة : لقد نزل جبريل عليه السلام بصورتني في راحته حين أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يتزوجني ، ولقد تزوجني بكرا وما تزوج بكرا غيري ، ولقد توفي وإن رأسه لفي حجري ، ولقد فُبرَ في بيتي ، ولقد حفته الملائكة في بيتي . وإن الوحي لينزل عليه في أهله فيتفرقون عنه وإن كان لينزل عليه وأنا معه في لحافه ، وإنني ابنة خليفته وصديقه ، ولقد نزل عذري من السماء ، ولقد وعدت مغفرة ورزقا كريما [(1)] .

● ويقول الزمخشري : [ولقد برأ الله تعالى أربعة بأربعة : برأ يوسف بالشاهد ﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ .. ﴾ ، وبرأ موسى من قول اليهود فيه بالحجر الذي ذهب بثوبه (2) وبرأ مريم بإنطاق ولدها عيسى عليه السلام وهو في المهد ﴿ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ... ﴾ وبرأ عائشة بهذه الآيات العظام في كتابه المعجز ، المتلو على وجه الدهر ، مثل هذه التبرئة بهذه المبالغات ، فانظر كم بينها وبين تبرئة أولئك ؟ وما ذاك إلا لعلو منزلة رسول الله صلى الله عليه وسلم والتنبيه على إنافة (3) محل سيد ولد آدم وخيرة الأولين والآخرين وحجة الله على العالمين ، ومن أراد أن يتحقق عظمة شأنه صلى الله عليه وسلم وتقدم قدمه ، وإحرازه لقصب السبق دون كل سابق فليتلق ذلك من الآيات التي نزلت في شأن حديث الإفك ، وليتأمل كيف غضب الله في حرمة ، وكيف بالغ في نفي التهمة عن حجابها [(4)] .

(1) الكشف للزمخشري 225/3 ومفاتيح الغيب للرازي 192/23 والجامع لأحكام القرآن للقرطبي 212/12 روح المعاني للألوسي 132/18 .

(2) روى البخاري في صحيحه بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن موسى كان رجلا حيبا ستيرا لا يرى من جلده شيء استحياء منه ، فأذاه من آذاه من بني إسرائيل فقالوا : ما يستتر هذا التستر إلا من عيب بجلده : إما برص وإما أدرة ، وإما آفة . وإن الله أراد أن يبرئه مما قالوا لموسى ، فخلا يوما وحده فوضع ثيابه على الحجر ثم اغتسل . فلما فرغ أقبل إلى ثيابه ليأخذها ، وإن الحجر عدا بثوبه ، فأخذ موسى عصاه وطلب الحجر فجعل يقول : ثوبي حجر ، ثوبي حجر حتى انتهى إلى ملأ من بني إسرائيل فرأوه عريانا أحسن ما خلق الله ، وأبرأه مما يقولون ، وقام الحجر ، فأخذ ثوبه فلبسه ، وطفق بالحجر ضربا بعصاه ، فوالله إن بالحجر لندبا من أثر ضربه ثلاثا أو أربعاً أو خمسا ، فذلك قوله صلى الله عليه وسلم في [سورة الأحزاب : 69] ﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَكَوُفُوا كَالَّذِينَ ءَادُوا مُوسَىٰ فَبَرَأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهاً ﴾ .

ويراجع تفسير القرآن العظيم لابن كثير 520/3 .

والأدرة : على وزن غرفة وهي انتفاخ الخصى ، يراجع المصباح المنير 6/1 .

(3) إنافة محل سيد ولد آدم علوه وسموه . (4) الكشف 223/3 ، 224 بتصرف يسير .

المطلب الثالث

فوائد مهمة

- 1 - حكم من قذف أم المؤمنين عائشة وسائر أمهات المؤمنين رضي الله عنهن .
- 2 - هل يحبط العمل الصالح بارتكاب الكبيرة .
- 3 - منهج الإسلام في حماية الأعراس .

1 - حكم من قذف أم المؤمنين عائشة وسائر أمهات المؤمنين رضي الله عنهن

- قال ابن كثير : أجمع العلماء قاطبة على أن من سب عائشة رضي الله عنها بعد نزول براءتها ، ورماها بما رماها به أهل الإفك فإنه كافر معاند للقرآن (1) .
- وقال الزركشي : من قذفها فقد كفر لتصريح القرآن الكريم ببراءتها (2) .
- وقال السيوطي : [﴿ إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ ... ﴾ الآيات نزلت في براءة عائشة فيما قذفت به ، وذهب الفقهاء إلى كفر قاذفها لتكذيبه نص القرآن (3) .
- وقال النووي في شرحه لصحيح مسلم خلال تعداده للفوائد المتعلقة بحديث الإفك . [... الحادية والأربعون : براءة عائشة من الإفك وهي براءة قطعية بنص القرآن العزيز ولو تشكك فيها إنسان لصار كافرا مرتدا (4) .
- وحاصل القول أن من قذف عائشة رضي الله عنها بعد نزول براءتها فهو كافر مرتد باتفاق أهل العلم ، وفي بقية أمهات المؤمنين رضي الله عنهن قولان أصحهما أنهن كعائشة رضي الله عنهن .
- قال الألوسي : [وحكم رمي سائر أمهات المؤمنين كحكم رمي عائشة وكذا حكم رمي أزواج الأنبياء وأمهاتهم ، وعندني أن حكم رمي بنات النبي صلى الله عليه وسلم كذلك لاسيما بضعته الطاهرة الكريمة فاطمة الزهراء رضي الله عنها ...] (5) .

(1) تفسير القرآن العظيم لابن كثير 276/3 .

(2) الإجابة لإيراد ما استدركته عائشة على الصحابة ص 52 ط المكتب الإسلامي سنة 1390 هـ .

(3) الإكليل في استنباط التنزيل ص 160 . (4) صحيح مسلم بشرح النووي 117/17 ، 118 .

(5) روح المعاني للألوسي 128/18 .

● وقال القاضي عياض : [ومن سب غير عائشة من أزواج النبي ﷺ ففيه قولان : أحدهما يقتل لأنه سب النبي ﷺ بسب وقذف حليلته والآخر أنهن كسائر الصحابة يجلد القاذف حد المفترى - القذف - والمختار هو القول الأول] (1) .

● وذكر ابن تيمية في كتابه الصارم المسلول أن قذف أم المؤمنين عائشة كفر بلا خلاف ، وفي قذف غيرها من أمهات المؤمنين قولان أصحهما أنه كقذف أم المؤمنين عائشة يكفر فاعله (2) .

هل يحبط العمل الصالح بارتكاب الكبيرة ؟

● مذهب أهل السنة والجماعة أن مرتكب الكبيرة ليس بكافر إلا إذا كان مستحلاً لها ، فإذا كان مستحلاً لها فهو كافر ، ولا يحبط العمل الصالح بارتكاب الكبيرة إلا إذا كان مستحلاً لها فإذا كان لها مستحلاً فهو كافر مرتد قال تعالى : ﴿ وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فِيمَنْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ (3) .

وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَوْحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكَتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ (4) .

● ومن الأدلة التي استدلت بها أهل السنة على أن العمل الصالح لا يحبط بارتكاب الكبيرة قوله تعالى : ﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولَى الْقُرْبَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا ... ﴾ (5) .

فهذه الآية الكريمة نزلت في أعقاب حادثة الإفك ، وذلك أن أبا بكر الصديق كان قد حلف أن لا ينفق على مسطح بعد أن خاض مع الخائضين في الإفك وكان مسطح قريباً لأبي بكر وكان من المهاجرين البدرين (6) وكان من المساكين ولو كان قذفه للسيدة عائشة محبطاً لعمله لما وصفه الله تعالى بكونه من المهاجرين في سبيل الله بعد

(1) شرح الشفا في شمائل أصحاب الاصفطا للقاضي عياض 534/5 مطبعة المدني بدون تاريخ .

(2) يراجع الصارم المسلول على شاتم الرسول ص 565 : 567 ط دار الكتب العلمية بيروت سنة 1398 هـ سنة

(3) سورة البقرة : 217 .

1978 م .

(5) سورة النور : 22 .

(4) سورة الزمر : 65 .

(6) الذين شهدوا غزوة بدر .

أن وقع في القذف ، فدل هذا على أن ثواب هجرته لم يحبط بوقوعه في تلك الكبيرة .
 ● يقول الإمام الرازي : احتج أصحابنا بهذه الآية على بطلان المحابطة ، وقالوا إنه سبحانه وصف مسطح بكونه من المهاجرين بعد أن ارتكب كبيرة القذف فدل هذا على أن ثواب كونه مهاجراً لم يحبط بإقدامه على القذف [(1)] .

منهج الإسلام في حماية الأعراض

الإسلام دين الطهر والعفاف والعدالة والإنصاف والمودة والرحمة والعزة والكرامة .
 ولقد جاء هذا الدين الحنيف بتشريعات حكيمة وآداب قويمه تهدف إلى حماية الأعراض وصيانة الحرمات .

● فلقد حرم الإسلام الزنا وجرمه لما يترتب عليه من أضرار جسيمة وأخطار عظيمة وعواقب وخيمة أليمة على الفرد والمجتمع ، في الدنيا والآخرة ، منها هتك الأعراض وتدنيس الحرمات واختلاط الأنساب ، وإشاعة روح العداوة ، وبث بذور الفتنة في المجتمع ، إلى غير ذلك من الرذائل والبلايا المترتبة على الزنا ، من أجل ذلك حرمه الإسلام وجرمه (2) ، وحرم كل ما يوصل إليه ويرغب فيه من دواعي وأسباب ومقدمات (3) ، قال تعالى : ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا ﴾ (4)
 وقال سبحانه : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ (5) .

كما حرم الإسلام القذف لما يترتب عليه من تدنيس للشرف وهتك للعرض وافتراء على الأبرياء قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَالْجِدْوُهُمْ تُمْنِنِينَ جَلْدَةً وَلَا نَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا

(1) مفاتيح الغيب للرازي 191/23 .

(2) حكم الله تعالى على الزاني المحصن (المتزوج) بالرجم حتى الموت وعلى الزاني غير المحصن بالجلد مائة جلدة .

(3) من ضمن هذه الأسباب والمقدمات النظرة المحرمة والدخول على النساء (الأجنبية) والخلوة بهن والاختلاط والتبرج وغير ذلك من الدواعي والأسباب الموصلة إلى الزنا من قول أو فعل .

(4) سورة النور : 21 .

(5) سورة الإسراء : 32 .

فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١﴾ .

وقال **عَلِيٌّ** : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعُنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٢﴾ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣﴾ يَوْمَئِذٍ يُوفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ ﴿١٤﴾ - وقال **عَلِيٌّ** : « اجتنبوا السبع الموبقات » قالوا يا رسول الله ما هن ؟ قال : « الشرك بالله ، والسحر ، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق ، وأكل الربا وأكل مال اليتيم ، والتولي يوم الزحف ، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات » (3) .

● يقول الأستاذ أبو الأعلى المودودي في كتابه - الحجاب - عن حكمة تحريم القذف : [إن قذف المحصنة من النساء لا يجر عليها وحدها سوء المقالة والشهرة بل يشيع الفاحشة في المجتمع ويفسد العلائق وينشر العداوة بين الأسر ويدخل الريبة في الأنساب ، ويدفع به شخص واحد عشرات من النفوس إلى الشدائد والمحن عددا من السنين بمجرد ما يتفوه به من كلمة بهتان] (4) .

والعرض أغلى ما يمتلكه الإنسان فإذا فقداه فقداه بلا رجعة ، وفي سبيل المحافظة عليه تزهق الأرواح وتراق الدماء ويجود الكرام بأنفسهم ، فإذا مات المسلم وهو يزود عن حوضه ويدافع عن عرضه فهو شهيد ، وفي ذلك يقول **عَلِيٌّ** : « من قاتل دون ماله فقتل فهو شهيد ، ومن قاتل دون دمه فقتل فهو شهيد ومن قاتل دون أهله فقتل فهو شهيد » (5) .

(2) سورة النور : 23 : 25 .

(1) سورة النور : 4 ، 5 .

(3) الحديث رواه الإمام البخاري في صحيحه عن أبي هريرة **رَضِيَ** ك الحدود باب رمي المحصنات ، حديث 6857 - فتح الباري 188/12 ورواه الإمام مسلم في صحيحه عنه كتاب الإيمان باب أكبر الكبائر - صحيح مسلم بشرح النووي 83/2 والمحصنات هن الطاهرات العفيفات والغافلات أي الغافلات عن الفواحش لا تخطر ببالهن والغافلات عما قذفن به والحكم يشمل النساء والرجال وإنما عبر عنه بصيغة جمع المؤنث السالم على سبيل التغليب لأن أغلب من يقذف من النساء . ولأن هتك أعراض النساء وتدنيس شرفهن أعظم بلية وأشد خطرا من هتك أعراض الرجال وتدنيس شرفهم .

(4) الحجاب لأبي الأعلى المودودي ص 137 ط دار التراث العربي بدون تاريخ .

(5) رواه النسائي في السنن عن سعيد بن زيد ك / تحريم الدم باب من قاتل دون أهله 115/7 ، 116 ورواه أبو داود في السنن عنه ك / السنة - باب / في قتال اللصوص حديث 4772 - 246/4 ورواه الترمذي في السنن عنه ك / الديات - باب / ما جاء فيمن قتل دون ماله فهو شهيد حديث 1421 - 22/4 وقال الترمذي هذا حديث حسن . - وأورده الألباني في صحيح سنن النسائي برقم 3817 - 858/3 وأورده أيضا في صحيح سنن الترمذي برقم 1148 - 63/2 وقال حديث صحيح .

● ولقد أكد الإسلام وشدد على حرمة الأعراض وقرنها بحرمة الدماء كما ورد في خطبة الوداع التي ألقاها رسول الله ﷺ في الجموع الغفيرة من الصحابة الكرام وفيها قال : « إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم حرام عليكم كحرمة يومكم هذا ، في شهركم هذا ، في بلدكم هذا ، ألا هل بلغت » (1) .

وقال ﷺ أيضا : « ... المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره التقوى ههنا ، ويشير إلى صدره ثلاث مرات ، بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه » (2) .

● ومن هدي الإسلام في حماية الأعراض أمره بالدقة والتحري في النقل والتثبت من الأخبار، وتحريمه للسخرية بالآخرين والاستهزاء بهم وتحقير شأنهم وتحريمه للظن السيئ في غير ريبة وتحريمه للتجسس وتتبع العورات وتحريمه للغيبة ، وحثه على الستر على المسلمين والزود عن أعراضهم . قال تعالى : ﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنِيءٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهْلَةٍ فَتُصِحُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ ﴾ (3) .

والتبين هو التحري والدقة والاستيثاق والاستيضاح والتثبت و التحوط والتحري والدقة في النقل وفي الآيات التي نزلت في أعقاب حادثة الإفك يقول ﷺ : ﴿ إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ ﴾ (4) .

وقال تعالى : ﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَسْخَرُونَ مِنْ قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا يُسَاءَ مِنْ نِسَاءِ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الْأَسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ (5) .

حرم الإسلام السخرية بالآخرين وتحقير شأنهم لأن ذلك يتنافى مع حقوق الأخوة

(1) رواه البخاري في صحيحه عن أبي بكره ؓ ك العلم باب قول النبي ﷺ : « رب مبلغ أوعى من سامع » حديث 67 فتح الباري 190/1 ورواه الإمام مسلم في صحيحه عنه ك / القسامة باب تغليظ تحريم الدماء والأعراض والأموال حديث 1679 صحيح مسلم بتحقيق محمد فؤاد عبد الباقي 1305/3 .

(2) رواه الإمام مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة ك البر والآداب تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره . 121/120 واللفظ لمسلم ورواه الإمام البخاري في صحيحه عن ابن عمر ؓ كتاب المظالم والغصب باب لا يظلم المسلم المسلم ولا يسلمه حديث 2442 فتح الباري 116/5 .

(3) سورة النور : 15 .

(4) سورة الحجرات : 6 .

(5) سورة الحجرات : 11 .

الإسلامية ، كما حرم اللمز وهو العيب يقال لمزه أي عابه ورجل لَّمَزَ ولمزة أي عياب وطعان .

● وحرم الإسلام أيضا التنازير بالألقاب أي التلقب بالألقاب القبيحة التي توغر الصدور وتحقر من الآخرين ، كما حرم الإسلام سوء الظن بالمسلمين في غير ريبة وتتبع عوراتهم والتجسس عليهم ، قال تعالى : ﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَجْتَبَاوُا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّكْ بَعْضُ الظَّنِّ إِتْمٌ وَلَا يَجَسَّسُوا ﴾ (1) .

● وفي الآيات التي نزلت في حديث الإفك يقول ﷺ : ﴿ لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُو ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٦﴾ لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴾ (2) .

● وعن أبي هريرة ؓ قال : قال رسول الله ﷺ : « إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث ولا تحسسوا ولا تجسسوا ولا تنافسوا ولا تحاسدوا ولا تباغضوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخوانا » (3) .

● وعن أبي بركة الأسلمي ؓ قال : قال رسول الله ﷺ : « يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان قلبه لا تغتابوا المسلمين ولا تتبعوا عوراتهم ؛ فإنه من اتبع عوراتهم يتبع الله عورته ، ومن يتبع الله عورته يفضحه في بيته » (4) .

● وعن معاوية ؓ قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إنك إن اتبعت عورات

(1) سورة الحجرات : 12 .

(2) سورة النور : 12 ، 13 .

(3) الحديث رواه الإمام مسلم في صحيحه ك البر والآداب - باب تحريم الظن والتجسس صحيح مسلم بشرح النووي 118/16 ، 119 والتجسس والتجسس قيل هما بمعنى واحد وهو تتبع العورات وطلب معرفة الأخبار الغائبة والأحوال الخفية وقيل التجسس بالحاء الاستماع لحديث القوم وبالجميم البحث عن العورات وقيل بالجميم التفتيش عن بواطن الأمور وأكثر ما يقال في الشر وقيل بالجميم أن تطلبه لغيرك والحاء أن تطلبه لنفسك .. والله تعالى أعلم - المرجع السابق 119/16 بتصرف .

والتنافس هنا الرغبة في الشيء وحب التفرد به فهي من الأناية والأثرة ، والتنافس على الدنيا التكالب عليها والتناحر على عرضها الزائل .

(4) رواه أبو داود في سننه ك الأدب باب في الغيبة حديث 4880 ورجاله ثقات سنن أبي داود 270/4 . وأخرجه الإمام أحمد في مسنده 420/4 ، 421 - وأبو يعلى في مسنده بإسناد حسن . مسند أبي يعلى 4723/13 والطبراني في الكبير حديث 11444 - وذكره الهيثمي في المجمع 94/8 وقال رواه الطبراني ورجاله ثقات .

المسلمين أفسدتهم أو كدت أن تفسدهم» (1).

● وعن ابن مسعود رضي الله عنه أنه أتى برجل فقيل له هذا فلان تقطر لحيته خمرا فقال : إنا قد نهينا عن التجسس ولكن إن يظهر لنا شيء نأخذ به (2).

● وعلى المسلم أن لا يضع نفسه في مواضع الشبهات ولا يزوج بها في مواطن التهمة والريبة قال زيد بن ثابت رضي الله عنه : إني لأكره أن أرى في مكان يساء بي الظن ، وقال الربيع ابن أنس (3) مكتوب في الحكمة من يصحب صاحب السوء لا يسلم ومن يدخل مداخل السوء يتهم ومن لا يملك لسانه يندم .

وحسبنا في هذا المقام ما ورد في الصحيحين عن علي بن الحسين رضي الله عنهما أن صفية زوج النبي صلى الله عليه وآله وسلم أخبرته أنها جاءت إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم تزوره في اعتكافه في المسجد في العشر الأواخر من رمضان فتحدثت عنده ساعة ثم قامت تنقلب فقام النبي صلى الله عليه وآله وسلم معها يقلبها ، حتى إذا بلغت باب المسجد عند باب أم سلمة مر رجلان من الأنصار فسلما على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال لهما : إنما هي صفية بنت حبي فقلنا سبحان الله يا رسول الله ! فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم : « إن الشيطان يبلغ من ابن آدم مبلغ الدم ، وإني خشيت أن يقذف في قلوبكم شيئا » (4).

● كما حرم الإسلام الغيبة لما فيها من هتك للأعراض وإساءة للآخرين قال تعالى ﴿ وَلَا يَنْتَبِ بِبَعْضِكُمْ بَعْضًا أَيُّحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ ﴾ (5).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : « أتدرون ما الغيبة ؟ » قالوا : الله ورسوله

(1) رواه أبو داود في سننه بإسناد صحيح كالأدب باب في النهي عن التجسس حديث 4888 سنن أبي داود 272/4 .

(2) رواه أبو داود في سننه بإسناد صحيح على شرط البخاري ومسلم 4890 كالأدب باب في النهي عن التجسس سنن أبي داود 272/4 ، 273 .

(3) هو الربيع بن أنس البكري الخراساني روي عن أبي العالية رفيع بن مهران ، صدوق له أوهام توفي سنة 140هـ تراجع ترجمته في تقريب التهذيب لابن حجر ص 205 .

(4) رواه الإمام البخاري في صحيحه ك / الاعتكاف باب / هل يخرج المعتكف لحوائجه إلى باب المسجد حديث 2035 - فتح الباري 326/4 ورواه الإمام مسلم في صحيحه ك / السلام باب / بيان أنه يستحب لمن رؤي خاليا بامرأة وكانت زوجته أو محرما له : أن يقول هذه فلانة ليدفع سوء الظن به . صحيح مسلم بشرح

(5) سورة الحجرات : 12 .

النووي 153/14 .

أعلم قال ﷺ : « ذكرك أخاك بما يكره » قيل : أفرأيت إن كان في أخي ما أقول ؟ قال : « إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهته » (1) .

● كما دعا الإسلام إلى الزود عن أعراض الناس ورد غيبتهم ، فعن أبي الدرداء ؓ عن النبي ﷺ قال : « من رد عن عرض أخيه ؛ رد الله عن وجهه النار يوم القيامة » (2) .

وعن أبي هريرة ؓ عن النبي ﷺ قال : « لا يستر عبد عبدًا في الدنيا إلا ستره الله يوم القيامة » (3) .

فعلى كل مسلم أن يصون لسانه ويصون سمعه ، وأن يعلم أن اللسان والأذن أمانة ، وأنه سيحاسب عليهما يوم القيامة قال تعالى : ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴾ (4) .

وقال ﷺ في سياق الحديث عن صفات المؤمنين : ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴾ (5) وقال تعالى : ﴿ مَا يَلْفُظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ (6) .

ويقول ﷺ : ﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (7) يُؤْفِقُهُمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ ﴾ (7) .

● وقال ﷺ : « من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه » (8) .

(1) رواه الإمام مسلم في صحيحه ك البر والآداب باب تحريم الغيبة صحيح مسلم بشرح النووي 142/16 .

(2) رواه الترمذي في السنن وقال : حديث حسن - سنن الترمذي ك البر والصلة باب ما جاء في الذب عن عرض المسلم حديث / 1931 - 288/4 - وتحفة الأحوذى 58/6 ، ورواه ابن أبي الدنيا في كتاب الصمت حديث 250 ، ورواه أبو نعيم في الحلية 257/7 ط دار الكتاب العربي بيروت سنة 1400 هـ .

ورواه الحارث بن أبي أسامة في مسنده عن أبي الدرداء ولفظه : نال رجل من رجل عند النبي ﷺ فرد عنه رجل فقال رسول الله ﷺ : « من رد عن عرض أخيه كان له حجابا من النار » يراجع بغية الباحث عن زوائد مسند الحارث للهيثمي حديث 881 - 836/2 .

(3) رواه الإمام مسلم في صحيحه ك / البر والآداب باب / بشارة من ستر الله تعالى عليه في الدنيا أن يستر عليه في الآخرة صحيح مسلم بشرح النووي 143/16 .

(4) سورة المؤمنون : 3 .

(4) سورة الإسراء : 36 .

(5) سورة النور : 24 ، 25 .

(6) سورة ق : 18 .

(8) رواه الترمذي في السنن عن أبي هريرة ك / الزهد باب 11 حديث 2317 - 483/4 ورواه ابن ماجة في السنن عنه ك / الفتن باب / كف اللسان في الفتنة حديث 3976 / 1315/2 وصححه الألباني في صحيح الترمذي

حديث 1886 - 268/2 ، 269 وصحيح ابن ماجه حديث 3211 - 360/2 .

● وفي حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه حين قال له صلى الله عليه وسلم: «... ألا أخبرك برأس الأمر وعموده وذروة سنامه؟ فقال معاذ: قلت: بلى يا رسول الله قال: رأس الأمر الإسلام وعموده الصلاة وذروة سنامه الجهاد في سبيل الله ثم قال: «ألا أخبرك بملاك ذلك كله؟» قلت: بلى يا رسول الله، فأخذ بلسانه وقال: «كُفَّ عليك هذا»، قلت: يا رسول الله وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به؟ فقال: «ثكلتك أمك؟ وهل يكُثُّ الناس في النار على وجوههم إلا حصائدُ ألسنتهم» (1).

● وعن أبي هريرة رضي الله عنه أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول: «إن العبد ليتكلم بالكلمة من رضوان الله تعالى ما يلقي لها بالا يرفعه الله بها درجات، وإن العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله تعالى لا يلقي لها بالا يهوي بها في جهنم» (2)، وعن سهل بن سعد رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «من يضمن لي ما بين لحييه وما بين رجليه، أضمن له الجنة» (3).

وعن عقبه بن عامر رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله ما النجاة؟ قال: «أمسك عليك لسانك، وليسعك بيتك، وابك على خطيئتك» (4).

ومن شعر الإمام الشافعي:

أَمْسِكْ لِسَانَكَ أَيُّهَا الْإِنْسَانُ لَا يَلْدَعَنَّكَ إِنَّهُ ثَعْبَانُ
كَمْ فِي الْمَقَابِرِ مِنْ قَتِيلٍ لِسَانِهِ كَانَتْ تَهَابُ لِقَاءَهُ الشَّجَعَانُ (5)

إِذَا شِئْتَ أَنْ تَحْيَا سَلِيمًا مِنَ الْأَذَى وَحِظُّكَ مَوْفُورٌ وَعِزُّكَ صَيِّبٌ
لِسَانُكَ لَا تَذَكُرْ بِهِ عَوْرَةَ امْرِئٍ فَكُلُّكَ عَوْرَاتٌ وَلِلنَّاسِ أَلْسُنٌ

(1) رواه الترمذي في السنن عن معاذ بن جبل ك / الإيمان باب ما جاء في حرمة الصلاة وقال: حديث حسن صحيح 2616 - 13/5 وابن ماجه في السنن ك / الفتن باب كف اللسان في الفتنة حديث 3973 .
1314/2 وهو حديث صحيح . يراجع صحيح سنن الترمذي للألباني حديث 2210 - 328/2 وصحيح سنن ابن ماجه للألباني حديث 3209 - 359/2 .

(2) رواه الإمام البخاري في صحيحه ك / الرقاق باب / حفظ اللسان حديث 6478 فتح الباري 314/11 .

(3) رواه البخاري في صحيحه ك / الرقاق باب / حفظ اللسان حديث / 6474 فتح الباري 314/11 .

(4) رواه الترمذي في السنن وقال: حديث حسن حديث (2406) 523/4 وأخرجه أحمد في مسنده 29/5 . وأخرجه ابن المبارك في الزهد حديث 134 والحديث بشواهد في رتبة الصحيح لغيره ولقد صححه الألباني وذكره في سلسلة الأحاديث الصحيحة برقم 890 - 581/2 وفي صحيح سنن الترمذي حديث 1961 - 287/2 .

(5) ديوان الإمام الشافعي ص 82 ط / مكتبة المعرفة حمص سوريا .

وعينك إن أبدت إليك معايِبَ
وعاشر بمعروفٍ وسامح من اعتدى
فصنّها وقل يا عين للناس أعيُنْ
وفارق ولكن بالتي هي أحسن (1)

* * *

عَفّوا تعف نساءؤكم في المحرم
من يزِن في بيتٍ بألفي درهمٍ
من يزِن يزُنْ يه ولو بجداره
إن الزنا دين فإن أقرضتهُ
يا هاتكا ستر الرجال وقاطعا
لو كنت حرًا من سلالة طاهر
وتجنبوا ما لا يليقُ بمسلمٍ
يُزَن في بيته بغير الدرهمِ
إن كنت يا هذا لبيبا فافهم
كان الوفا من أهل بيتك فاعلم
سبل المودة عشت غير مكرم
ما كنت هتاكًا لحرمة مسلمٍ

المبحث الثاني

زواج رسول الله ﷺ من السيدة زينب بنت جحش

والحكمة من إباحة الإسلام تعدد الزوجات

ويشتمل هذا المبحث على ما يلي :

أولاً : الآيات الواردة في هذا الشأن .

ثانياً : تحقيق القول في سبب النزول .

ثالثاً : التفسير التحليلي للآيات .

رابعاً : الحكمة من إباحة الإسلام تعدد الزوجات .

خامساً : موقف الديانتين اليهودية والنصرانية من التعدد .

سادساً : الحكمة من تعدد زوجات الرسول ﷺ .

تمهيد :

زواج رسول الله ﷺ من زينب بنت جحش حدث هام من الأحداث التي تحدث عنها القرآن الكريم نظراً لما يتعلق بها من دروس وعبر وحكم وأحكام .

وفي هذا الفصل نتناول الآيات القرآنية التي وردت في هذا الشأن ونفسرها ثم نتحدث عن حكمة تعدد الزوجات في الإسلام وموقف الديانتين اليهودية والنصرانية من التعدد . وحكمة زواج الرسول ﷺ من أمهات المؤمنين رضي الله عنهن .

أولاً الآيات الواردة في هذا الشأن

﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَخُفِيَ فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٢٣﴾ مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴿٢٤﴾ الَّذِينَ يَلْبِغُونَ رِسَالَتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴿٢٥﴾ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِنْ

رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿١﴾ .

ثانيا : تحقيق القول في سبب النزول

● زينب بنت جحش رضي الله عنها : هي زينب بنت جحش بن رثاب بن يعمر الأسدية الهاشمية القرشية ، أمها أميمة بنت عبد المطلب عمه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أسلمت زينب وهاجرت مع أخيها عبد الله بن جحش رضي الله عنه (2) .

● وزيد بن حارثة رضي الله عنه هو زيد بن حارثة بن شراحيل بن كعب الكلبي القضاعي القحطاني ، خرجت به أمه سعدي بنت ثعلبة لتزور أهلها بني معن بن طيء فأصابته خيل من بني القين بن جسر فأخذوه وباعوه بسوق من أسواق العرب ، واشتراه حكيم بن حزام بن خويلد الأسدي وأهداه لعمته خديجة بنت خويلد رضي الله عنها ، وقيل إن حكيم اشتراه لعمته من سوق عكاظ بأربعمائة درهم ، ولما تزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم خديجة رضي الله عنها وهبته زيدا ، وكان أبو زيد - حارثة بن شراحيل - قد جزع على ولده أشد الجزع وتألم على فراقه أعظم الألم ، وجدّ في البحث عنه حتى علم بمكانه في مكة فانطلق مع أخيه « كعب » ومعهما مال كثير لافتداء زيد ، ووصلا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم عند البيت العتيق فقالا له : يا ابن سيد قومه : أنتم جيران الله تفكون العاني وتطعمون الأسير ، وقد جئتك في ابني زيد ؛ فأحسن إلينا في فدائه ؛ فإننا سندفع لك . فقال صلى الله عليه وسلم : أو غير ذلك ؟ قالا ما هو ؟ قال : أدعوه وأخيره فإن اختار كما فهو لكما بغير فداء وإن اختارني فوالله ما أنا بالذي أختار فداء علي من اختارني ، فلما جاء زيد قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم هل تعرف هؤلاء ؟ قال نعم ، هذا أبي ، وهذا عمي . قال فأنا من قد علمت وقد رأيت صحبتي لك فاخترني أو اخترهما ، فقال زيد : ما أنا بالذي أختار عليك أحدا أنت مني بمكان الأب والعم ، فقالا : ويحك يا زيد ، أتختار العبودية على الحرية وعلى أهلك وأمك وأهل بيتك ؟ قال : قد رأيت من هذا الرجل شيئا ما أنا بالذي أختار عليه أحدا ، فلما رأى النبي صلى الله عليه وسلم ذلك أخرجته إلى الحجر وقال : اشهدوا أن زيدا ابني يرثني

(1) سورة الأحزاب : 37 - 40 .

(2) يراجع الإصابة في معرفة الصحابة لابن حجر 307/4 : أسد الغابة في معرفة الصحابة 53/2 .

والاستيعاب في معرفة الأصحاب 306/4 وطبقات ابن سعد 71/8 والسبط الثمين لمحّب الدين الطبري ص 107 ط حلب وسير أعلام النبلاء 211/2 .

وأرثه وكان ذلك قبل البعثة (1) .

● جاء الإسلام بمبدأ المساواة بين الناس وأراد رسول الله ﷺ أن يقرر هذا المبدأ المهم تقريرا عمليا ، وحتى يتم ذلك في بيئة تحكمها الحمية الجاهلية والعصية القبلية فلقد اختار رسول الله ﷺ مثلا عمليا ونموذجا فعليا من خلال تزويج زيد بن حارثة - الذي كان رقيقا فأعتق - من زينب بنت جحش ذات الحسب والنسب والحصل الطيبة التي ترشحها للزواج من أفضل وأكرم وأغنى الرجال .

- ذهب رسول الله ﷺ ليخطب زينب لزيد ، لكنها لم تكن راغبة في هذا الزواج ؛ ولم تر في زيد صورة الرجل الذي تتمناه وتطمح إليه فرفضت وقالت لا أتزوجه أبدا وأنا سيدة أبناء عبد شمس (2) فنزل قول الله ﷻ : ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مِؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلًّا مُبِينًا ﴾ (3) .

● قال ابن كثير : [روى العوفي عن ابن عباس رضي الله عنهما] قال : قوله تعالى ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مِؤْمِنَةٍ ... ﴾ الآية نزلت في زينب بنت جحش الأسدية وذلك حين انطلق رسول الله ﷺ يخطبها لزيد بن حارثة فقالت لست بناكحة فقال رسول الله ﷺ : « بلى فانكحيه » قالت يا رسول الله أوامر في نفسي ؟ فبينما هما يتحدثان أنزل الله هذه الآية على رسول الله ﷺ ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مِؤْمِنَةٍ ... ﴾ الآية ، فقالت زينب قد رضيت له لي منكحيا يا رسول الله ؟ قال نعم ، قالت إذا لا أعصي رسول الله ﷺ قد أنكحت نفسي ... وقال مجاهد وقادة نزلت هذه الآية في زينب بنت جحش حين خطبها رسول الله ﷺ على مولاه زيد فامتنعت ثم أجابت بعد نزول الآية [(4)] .

فتزوجت زينب من زيد امتثالا واستجابة لذلك التوجيه الإلهي ، لكن الحياة الزوجية لم تكن هادئة هانئة ، بل كانت مفعمة بالمنغصات والأكدار حتى كثرت شكوى زيد لرسول الله ﷺ من زينب التي لم تتلاءم ولم تتواءم مع هذه الحياة الزوجية ، فهي لا تجد في قلبها أي ميل لزيد ولما جاء القرآن الكريم بتحريم التبني تلك العادة التي كانت ضاربة بجذورها

(1) يراجع أسد الغابة 2/224 والإصابة في معرفة الصحابة لابن حجر 1/545 والاستيعاب 1/525 وسير أعلام النبلاء 1/221 والعرب وظهر الإسلام للدكتور محمد مصطفى النجار والدكتور أحمد مجاهد مصباح ص 756 ط الجامعة الإسلامية بليبيا ط سنة 1388 هـ سنة 1969 م .

(2) يراجع طبقات ابن سعد 8/101 .

(3) سورة الأحزاب : 26 .

(4) تفسير القرآن العظيم 3/489 بتصرف .

في أعماق المجتمع الجاهلي - قال تعالى في سورة الأحزاب : ﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفَيْهِ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ النَّسَى تَطْهَرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكَ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ ﴿١﴾ أَدْعَوْهُمْ لِأَبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا ءَابَاءَهُمْ فَاِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١﴾ .

لما نزل تحريم عادة التبني وكان رسول الله ﷺ متبنيا لزيد وكان يدعى زيد بن محمد فأبطل رسول الله ﷺ هذا التبني وصار زيد يدعى زيد بن حارثة كما كان من قبل أن يتبناه رسول الله ﷺ ، وشاءت إرادة الله ﷻ أن يطلق زيد زينب ثم يتزوجها رسول الله ﷺ ليبطل ما درج عليه الناس من تحريم زوجة المتبني على المتبني ، وأعلم المولى ﷺ رسول الله ﷺ بذلك فشق عليه ذلك الأمر وخشي من قول أهل السوء فيه : لقد تزوج محمد بمطلقة متبناه ، خاف من وقع ذلك على النفوس ، في حين كثرت شكوى زيد من زينب لرسول الله ﷺ وكلما استأذن زيد من رسول الله ﷺ في طلاق زينب قال له ﷺ : « أمسك عليك زوجك واتق الله » فيمثل زيد لتوجيهات رسول الله ﷺ ويذهب إلى بيته فلا يجد من زوجته إلا الصدود والإعراض حتى ضاق صدره وعيل صبره وعزم على طلاقها بعد أن استيقن أن حياته معها لن يصفو كدرها ولن يستقر حالها ، فذهب إلى رسول الله ﷺ يستأذنه في طلاقها فأذن له .

ولما انقضت عدة زينب أرسل رسول الله ﷺ زيدا ليخطبها له ﷺ ، وتزوج بها رسول الله ﷺ لحكمة جليلة ولغاية عظيمة وهي إبطال ما درج عليه الناس من تحريم زوجة المتبني على المتبني .

وفيما يلي : نذكر ما ورد في هذا الشأن من الروايات الصحيحة .

- روى البخاري في صحيحه بسنده عن أنس بن مالك ؓ أن هذه الآية ﴿ وَتُخْفَى فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ ﴾ نزلت في شأن زينب بنت جحش وزيد بن حارثة (2) .
- وروى البخاري في صحيحه بسنده عن أنس ؓ قال : جاء زيد بن حارثة يشكو فجعل النبي ﷺ يقول : « اتق الله وأمسك عليك زوجك » قال أنس : لو كان رسول الله ﷺ كاتما شيئا لكتم هذه ، قال : فكانت زينب تفخر على أزواج النبي ﷺ ، تقول :

(1) سورة الأحزاب 4 ، 5 .

(2) رواه البخاري في صحيحه كتاب التفسير باب : ﴿ وَتُخْفَى فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ ﴾ حديث 4787 فتح الباري 383/8 .

زَوْجِكُنْ أَهَالِيكُنْ وَزَوْجِنِي اللَّهُ تَعَالَى مِنْ فَوْقِ سَبْعِ سَمَاوَاتٍ (1) .

● وقال ابن حجر : [وقد أخرج ابن أبي حاتم هذه القصة (2) من طريق السدي فساقها سياقاً واضحاً حسناً ولفظه : بلغنا أن هذه الآية (3) نزلت في زينب بنت جحش ، وكان رسول الله ﷺ قد رغب في تزويجها من زيد موله فكرهت ذلك ثم إنها رضيت بما صنع رسول الله ﷺ فزوجها إياه ، ثم أعلم الله نبيه ﷺ بعد أنها من أزواجه فكان يستحي أن يأمر زيداً بطلاقها ، وكان لا يزال يكون بين زيد وزينب ما يكون من الناس فأمره رسول الله ﷺ أن يمسك عليه زوجته وأن يتقي الله ، وكان يخشى الناس أن يعيبوا عليه ويقولوا تزوج امرأة ابنه وكان قد تبنى زيداً .

- وعنده (4) من طريق علي بن زيد عن علي بن الحسين قال : أعلم الله نبيه ﷺ أن زينب ستكون من أزواجه قبل أن يتزوجها ، فلما أتاه زيد يشكوها إليه وقال له : « اتق الله وأمسك عليك زوجك » قال الله : قد أخبرتك أنني مزوجكها ﴿ وَخُفِيَ فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ ﴾ وقد أطنب الحكيم الترمذي في تحسين هذه الرواية وقال : إنها من جواهر العلم المكنون وكأنه لم يقف على تفسير السدي الذي أوردته ، وهو أوضح سياقاً وأصح إسناداً لضعف علي بن زيد بن جدعان ... ووردت آثار أخرى أخرجها ابن أبي حاتم والطبري ونقلها كثير من المفسرين لا ينبغي التشاغل بها والذي أوردته منها هو المعتمد ، والحاصل أن الذي كان يخفيه النبي ﷺ هو إخبار الله إياه أنها ستصير زوجته ، والذي كان يحمله على إخفاء ذلك خشية قول الناس تزوج امرأة ابنه وأراد الله إبطال ما كان عليه أهل الجاهلية من أحكام التبني بأمر لا أبلغ في الإبطال منه وهو تزوج امرأة الذي يدعي ابناً ووقوع ذلك من إمام المسلمين ليكون أدعى لقبولهم [(5) .

● وروى الإمام مسلم في صحيحه بسنده عن أنس بن مالك ؓ قال : لما انقضت عدة زينب قال رسول الله ﷺ لزيد : « اذكرها علي » قال : فانطلق زيد حتى أتاها وهي تخمر عجينها ، قال : فلما رأيتها عظمت في صدري حتى ما أستطيع أن أنظر إليها ؛ أن

(1) رواه البخاري في صحيحه كتاب التوحيد باب ﴿ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ ﴾ ، ﴿ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴾ حديث 7420 فتح الباري 415/13 .

(2) يعني قصة زواج الرسول ﷺ بزینب .

(3) آية ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ ... ﴾ الأحزاب : 37 .

(4) يقصد : عند ابن أبي حاتم . (5) فتح الباري لابن حجر 384/8 بتصرف .

رسول الله ﷺ ذكرها فوليتها ظهري ونكصت على عقبى (1) ، فقلت يا زينب : أرسل رسول الله ﷺ يذكرك قالت ما أنا بصانعة شيئا حتى أوامر ربي فقامت إلى مسجدها (2) ونزل القرآن وجاء رسول الله ﷺ فدخل عليها بغير إذن (3) قال أنس ؓ : ولقد رأيتنا أن رسول الله ﷺ أطعمنا الخبز واللحم حين امتد النهار ، فخرج الناس وبقي رجال يتحدثون في البيت بعد الطعام فخرج رسول الله ﷺ واتبعته فجعل يتبع حُجْرَ نسائه يسلم عليهن ويقلن يا رسول الله كيف وجدت أهلك ، قال أنس فما أدري أنا أخبرته أن القوم قد خرجوا أو أخبرني ، فانطلق حتى دخل البيت فذهبت معه فألقى الستر بيني وبينه ونزل الحجاب قال ووعظ القوم بما وعظوا به ، زاد ابن رافع في حديثه - فنزل قول الله ﷻ : ﴿ لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرٍ نَظِيرِ بْنِ إِدْنَهٗ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَسِينِ لِجَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذَى النَّبِيَّ فَيَسْتَعِجِ مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَعِجِ مِنْ الْحَقِّ ﴾ (4) [(5) .

وبعد فهذه جملة من الأحاديث الصحيحة الواردة في زواج النبي ﷺ من أم المؤمنين زينب بنت جحش ، ولقد ورد في بعض كتب التفسير والحديث والسيرة مرويات ضعيفة باطلة في هذا الشأن ، هذه المرويات فيها كذب وافتراء على رسول الله ﷺ ، وفيما يلي نوردها ونعلق عليها : حتى نبين بطلانها ، ونحذر الناس منها .

(1) قال الإمام النووي : [معناه أنه هابها وأجلها من أجل إرادة النبي ﷺ تزوجها فعاملها معاملة من تزوجها ﷺ في الإعظام والإجلال والمهابة وقوله : (أن رسول الله ﷺ ذكرها) : أي من أجل ذلك وقوله (نكصت) أي رجعت وكان قد جاء إليها ليخطبها وهو ينظر إليها على ما كان من عاداتهم وهذا قبل نزول الحجاب فلما غلب عليه الإجلال تأخر وخطبها وظهره إليها لئلا يسبقه النظر إليها] شرح النووي على صحيح مسلم 328/9 ، وقال ابن حجر معلقا على إرسال الرسول ﷺ زيدا إلى زينب ليخطبها ﷺ [وهذا أيضا من أبلغ ما وقع في ذلك وهو أن يكون الذي كان زوجها هو الخاطب ، لئلا يظن أحد أن ذلك وقع قهرا بغير رضاه ، وفيه أيضا اختيار ما كان عنده منها هل بقي منه شيء أم لا ..] فتح الباري 385/8 .

(2) أي موضع صلاتها من بيتها .

(3) (نزل القرآن ...) يعني نزل قوله تعالى ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ ﴾ إلى قوله تعالى ﴿ وَكَانَ اللَّهُ يَكُلِّمُ مَنْ يَشَاءُ عَلَى مَا يَشَاءُ ﴾ الأحزاب : 37 : 40 - ودخل عليها رسول الله ﷺ بغير إذن لأنها صارت زوجته بأمر الله تعالى ﴿ فَلَمَّا فَصَّ زَيْدٌ مَنَّتَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكُمَا ... ﴾ .

(4) سورة الأحزاب : 53 .

(5) صحيح مسلم بشرح النووي كتاب النكاح باب زواج زينب بنت جحش ونزول الحجاب وإثبات وليمة

1 - روى الإمام الطبري في تفسيره قال : [حدثنا بشر قال حدثنا يزيد قال حدثنا سعيد عن قتادة قال : في قوله تعالى ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ ... ﴾ : نزلت في زيد بن حارثة أنعم الله عليه بالإسلام وأنعم الرسول ﷺ عليه بالعتق ، ﴿ أَمْسِكَ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ ﴾ قال قتادة كان يخفي ود أنه طلقها] (1) .

2 - وروى الطبري أيضا في تفسيره قال : [حدثني يونس قال أخبرنا ابن وهب قال: قال ابن زيد : خرج رسول الله ﷺ ذات يوم يريد زيدا وعلى الباب ستر من شعر فرفعت الريح الستر فانكشف وزينب في حجرتها حاسرة ، فوقع إعجابها في قلب النبي ﷺ فلما وقع ذلك كُرِّهت إلى الآخر ، فجاء فقال : يا رسول الله إني أريد أن أفارقها ، قال : أرابك منها شيء ؟ قال لا والله ما رابني منها شيء ولا رأيت إلا خيرا فقال له رسول الله ﷺ : « أمسك عليك زوجك واتق الله » ، فذلك قوله تعالى ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكَ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ ﴾ أي وتخفي في نفسك إن فارقها تزوجتها] (2) .

3 - وروى ابن سعد في الطبقات قال : [أخبرنا محمد بن عمر قال حدثني عبد الله ابن عامر الأسلمي عن محمد بن يحيى بن حبان قال : جاء رسول الله ﷺ بيت زيد يطلبه وكان زيد إنما يقال له زيد بن محمد فجاءه الرسول ﷺ فلم يجده وقامت إليه زينب فأعرض رسول الله ﷺ عنها ، فقالت ليس هو ههنا يا رسول الله فادخل بأبي أنت وأمي فأبى رسول الله ﷺ أن يدخل وإنما عجلت زينب أن تلبس لما قيل لها رسول الله ﷺ على الباب ، فوثبت عجلي ، فأعجبت رسول الله ﷺ فولى وهو يهمهم بشيء لا يكاد يفهم إلا ربما أعلن : سبحان مصرف القلوب ... إلخ الرواية] (3) .

الحكم على هذه الروايات

1 - الرواية الأولى : وردت في تفسير الطبري بسنده .

قال : [حدثنا بشر حدثنا يزيد قال حدثنا سعيد عن قتادة] وذكر الرواية ، وهي ضعيفة لكونها مرسله حيث إن السند انتهى إلى قتادة وهو تابعي .

(1) جامع البيان للطبري 10/22 .

(2) المرجع السابق 10/22 ، 11 وذكرها الطبري في التاريخ 90/2 .

(3) طبقات ابن سعد 71/8 وذكرها الطبري في التاريخ 89/2 .

كما أن « سعيد بن أبي عروبة » الذي رواها عن قتادة كان كثير التدليس ، واختلط ، وروايته عن قتادة معننة والمحدثون يردون رواية المدلس إذا عنعنها ولم يصرح بسماعها ، قال أبو حاتم في (سعيد) : هو قبل أن يختلط ثقة وقال أبو داود كان وكيع يقول كنا ندخل على سعيد فنسمع فما كان من صحيح حديثه أخذناه ، وما لم يكن صحيحا طرحناه ، وقال الأزدي اختلط اختلاطا قبيحا (1) .

ومن هنا فإن هذه الرواية ضعيفة وباطلة .

2 - الرواية الثانية : وقد أوردها الطبري في تفسيره وتاريخه حيث قال : [حدثني يونس قال أخبرنا ابن وهب قال : قال ابن زيد] وذكر الرواية . وهي ضعيفة من وجوه متعددة .

فهي مروية عن ابن وهب وهو عبد الله بن وهب المصري ، قال عنه ابن سعد : عبد الله بن وهب كان كثير العلم ثقة ، فيما قال وكان يُدَّلس ، وقال النسائي : كان يتساهل في الأخذ ، ولا بأس به (2) .

وهذه الرواية عنه لا تقبل لأنه لم يصرح فيها بالسماع .

وهذه الرواية ضعيفة أيضا لأنها مرسلة فهي مروية عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، ولم يذكر فيها صحابي ، كما أن عبد الرحمن بن زيد متهم بالكذب والتحديث بالغرائب ورواية الموضوعات ، وقد ضعفه الإمام أحمد والإمام علي بن المديني ، وتكلم في حديثه غير واحد من علماء الجرح والتعديل ، وقد كثر في روايته رفع المرسل وإسناد الموقوف فاستحق أن يترك حديثه (3) .

ومن هنا فإن هذه الرواية ضعيفة وباطلة كسابقتها .

3 - الرواية الثالثة : وقد أوردها ابن سعد في الطبقات والطبري في التاريخ .

قال ابن سعد : (أخبرنا محمد بن عمر قال حدثني عبد الله بن عامر الأسلمي عن محمد بن يحيى بن حبان) ورواها الطبري في التاريخ فقال : (حدثت عن محمد بن عمر قال حدثني عبد الله بن عامر الأسلمي عن محمد بن يحيى بن حبان قال ...) .

(2) المرجع السابق 74/6 .

(1) تهذيب التهذيب لابن حجر 64/4 .

(3) يراجع تهذيب التهذيب 178/6 .

وهذه الرواية ضعيفة وباطلة من عدة وجوه نوردتها فيما يلي :

1 - أن محمد بن عمر « الواقدي » الذي حدث عنه ابن سعد والطبري ليس مرضيا عند علماء الجرح والتعديل ؛ قال عنه زكريا بن يحيى الساجي : محمد بن عمر القاضي قاضي بغداد متهم ، وقال البخاري : الواقدي مدني ، سكن بغداد ، متروك الحديث ، تركه أحمد وابن المبارك وابن نمير (1) .

2 - عبد الله بن عامر الأسلمي ضعيف الحديث : قال عنه أحمد وأبو زرعة وأبو عاصم والنسائي ضعيف ، وقال أبو حاتم متروك ، وقال ابن معين ضعيف ليس بشيء ، وقال البخاري يتكلمون في حفظه ذاهب الحديث ، وقال ابن حبان كان يقلب الأسانيد والمتون ويرفع المراسيل (2) .

3 - وهذه الرواية مرسله لأن الراوي الأعلى فيها تابعي وليس فيها ذكر لصحابي .

ومن هنا فإنها ضعيفة والروايتان السابقتان أيضا ضعيفتان فلا يصح الاستدلال بها والاستناد عليها .

● قال ابن حجر : [ووردت آثار أخرى أخرجها ابن أبي حاتم والطبري ونقلها كثير من المفسرين لا ينبغي التشاغل بها والذي أورده منها هو المعتمد] (3) .

● وقال ابن كثير : [ذكر ابن أبي حاتم وابن جرير ههنا آثارا عن بعض السلف رضي الله عنهم أجمعين] (4) .

● وقال القاضي عياض رحمه الله في كتابه الشفا : [... فإن قلت : فما معنى قوله تعالى في قصة زيد ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ ... ﴾ الآية فاعلم أكرمك الله ولا تسترب في تنزيه النبي ﷺ من أنه أمر زيدا بإمساك زينب وهو يحب تطبيقه إياها ، كما ذكر عن جماعة من المفسرين ، وأصح ما في هذا ما حكاه أهل التفسير: أن الله تعالى كان قد أعلم نبيه أن زينب ستكون من أزواجه فلما شكها إليه زيد قال له النبي ﷺ ﴿ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ ﴾ وأخفى منه في نفسه ما أعلمه الله به من أنه سيتزوجها مما الله مبدية ومظهره بتمام التزويج وطلاق زيد لها] (5) .

(2) تهذيب التهذيب والتقريب 424/1 .

(1) المرجع السابق 275/5 والتقريب 194/2 .

(4) تفسير القرآن العظيم لابن كثير 491/3 .

(3) فتح الباري 384/8 .

(5) الشفا في بيان حقوق الاصطفا 166/2 : 168 بتصرف .

● وقال القاضي أبو بكر بن العربي : [... فأما قولهم أن النبي ﷺ رآها فوَقعت في قلبه فباطل ؛ فإنه كان معها في كل وقت وموضع ، ولم يكن حينئذ حجاب فكيف تنشأ معه وينشأ معها ويلحظها في كل ساعة ، ولا تقع في قلبه إلا إذا كان لها زوج قد وهبته نفسها فكيف يتجدد له هوى لم يكن ، حاشا لذلك القلب المطهر من هذه العلاقة الفاسدة ، وقد قال الله تعالى : ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفِثَنَّهُمْ فِيهِ وَرَزَقُ رِيكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴾ (1) [..] (2) .

ثالثا : التفسير التحليلي للآيات

بعد أن بينا الروايات الصحيحة التي وردت في شأن زواج النبي ﷺ بزینب بعد أن طلقها زيد بن حارثة وبيننا الحكمة في ذلك ، ثم أوردنا الروايات الباطلة وبيننا ضعفها من ناحية السند وبطلانها من ناحية المتن ودعّمنا هذا بكلام المحققين في هذا الموضوع : نتناول فيما يلي التفسير التحليلي للآيات التي وردت في هذا الشأن فنقول وبالله التوفيق .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ ﴾ .

اذكر يا محمد حين تقول ﴿ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ ﴾ بالإسلام وهو أجلّ النعم ، ﴿ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ ﴾ بالعتق وغيره من وجوه الإحسان . قال الزمخشري [... فهو متقلب في نعمة الله ونعمة رسوله ﷺ وهو زيد بن حارثة] (3) .

﴿ أَمْسِكَ عَلَيْكَ زَوْجَكَ ﴾ .

إمسك بمعروف ، ﴿ وَأَتَقَ اللَّهُ ﴾ في معاملتها فلا تظلمها وإن كنت غير راض عنها فإن العدل واجب في الرضا وفي الغضب (4) .

(2) أحكام القرآن لابن العربي 1543/3 .

(1) سورة طه : 131 .

(3) الكشاف 540/3 .

(4) قال ابن العربي : [فإن قيل لأي معنى قال له ﴿ أَمْسِكَ عَلَيْكَ زَوْجَكَ ﴾ وقد أخبره الله أنها زوجته ؟ قلنا : أراد أن يختبر منه رغبته فيها أو رغبته عنها ؛ فأبدى له زيد من النفرة عنها والكراهة فيها ما لم يكن علمه منه في أمرها ، فإن قيل كيف يأمره بالتمسك بها وقد علم أن الفراق لا بد منه ؟ وهذا تناقض ؟ قلنا بل هو صحيح للمقاصد الصحيحة ؛ لإقامة الحجّة ومعرفة العاقبة ألا ترى أن الله تعالى يأمر العبد بالإيمان وقد علم أنه لا يؤمن فليس في مخالفة متعلق الأمر لمتعلق العلم ما يمنع من الأمر به عقلا وحكما . وهذا من نفيس العلم فتيقنوه وتقبلوه] أحكام القرآن لابن العربي 1544/3 بتصرف .

﴿ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ ﴾ .

أي طلاق زيد لزينب ، وزواجك منها لاستئصال آثار التبني ، وهو الذي أبداه الله ﷻ ، وفي هذه الآية رد بليغ حاسم على تلك الرويات الباطلة التي يزعم قائلوها أنه ﷺ أخفى في نفسه حب زينب وتمني طلاق زيد لها . لأن الذي أبداه الله ﷻ هو زواجه ﷺ من زينب ، ولو كان الذي أخفاه هو رغبته في الزواج من زينب لكان الذي أبداه الله هو ذلك الهوى والحب .

﴿ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ ﴾ .

وكانت تلك الخشية إشفاقاً منك عليهم ورحمة بهم ، تخشى الناس ألا يطيقوا سماع هذه الحالة ولا يقوموا على تحملها فربما خطر ببالهم ما ينفي عنهم وسعهم ⁽¹⁾ . وكان المولى ﷻ قد أعلم رسوله أن زيدا سوف يطلق زينب وسوف يتزوجها ﷺ لحكمة جلييلة وهي إبطال ما درج عليه الناس من تحريم زوجة المتبنى .

● قال صاحب التحرير والتنوير : [والخشية هنا كراهية ما يرجف ⁽²⁾ به المنافقون فهي خشية كراهة لاختشية خوف ؛ إذ النبي ﷺ لم يكن يخاف أحداً من ظهور تزوجه بزينب ولم تكن قد ظهرت أراجيف المنافقين بعد ، ولكن النبي ﷺ كان يتوسم من خبثهم وسوء طويتهم ما يعثهم على القالة في الناس لفتنة الأمة فكان يعلم ما سيقولونه ويمتعض منه ... ولم تكن خشية تبلغ به مبلغ صرفة عما يرغبه بدليل أنه لم يتردد في تروج زينب بعد طلاق زيد ولكنها استشعار في النفس وتقدير لما سيرجفه المنافقون] ⁽³⁾ .

﴿ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا ﴾

الوطر : الحاجة التي لصاحبها فيها همة والمراد بقوله ﴿ قَضَى زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا ﴾ أي لم يتبق له فيها حاجة ، أي طلقها ، فالتعبير كناية عن الطلاق ، وقال سبحانه : ﴿ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا ﴾ ولم يقل فلما طلقها : للإشارة إلى أن طلاق زيد لها ثم زواج رسول الله ﷺ منها ليحسم أمر التبني ويصير الرسول بذلك قدوة لقومه فيقتلع تلك العادة من جذورها ، ولو قال فلما طلقها لكان يمكن أن يكون هذا الطلاق متأثراً

(1) لطائف الإشارات 163/5 .

(2) ما يشيعونه في الناس من اتهام وتشكيك في الرسول ﷺ .

(3) التحرير والتنوير 33/22 بتصرف .

بشيء من هذا الموقف ، أي أن زيدا طلقها وله فيها حاجة ، طلقها وما زال يرغب فيها ؛ ولهذا أوثرت هذه الكناية في هذا الموقف على لفظ الطلاق ؛ لما فيها من دلالة بينة على نفي أن يكون هناك عامل ما في طلاق زيد لزينب إلا أن يكون فراغ حاجته منها وأنه لم يصبح له فيها مأرب ، وهذه الكناية لم تستعمل في القرآن إلا في هذا الموضع لتكون إشارة إلى أن طلاق زيد لزينب كان برغبته واختياره . وفي هذه الكناية أيضا دحض لما روي أن زيدا قال لرسول الله ﷺ لعل زينب أعجبتك ، أفأفارقها ؟ أو أنه قال لزينب لعلك وقعت في قلب رسول الله ﷺ فهل لك أن أطلقك حتى يتزوجك .

● قال الطبرسي : [﴿ فَلَمَّا فَصَى زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا ﴾] معناه فلما قضى زيد حاجته من نكاحها فطلقها وانقضت عدتها ولم يكن في قلبه ميل إليها ولا وحشة من فراقها ، فإن معنى القضاء هو الفراغ من الشيء على التمام [(1)] .

وقوله تعالى : ﴿ زَوَّجْنَاكَهَا ﴾ أي بعد طلاق زيد . وفي هذه العبارة تصريح بأن زواج الرسول ﷺ من زيد بأمر إلهي .

﴿ لِيَكُنِيَ لَا يَكُونُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا ﴾ .
أي لدفع الحرج (2) عن المسلمين الذين يرغبون في الزواج من نساء أدعيائهم إذا قضوا منهن وطرا .

﴿ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴾ .

فهو سبحانه لا راد لفعله ولا معقب لحكمه ، هو المقدر وهو المدبر ، وزواج زيد من زينب ثم تطبيقه إياها ثم زواج رسول الله ﷺ منها كل ذلك بتقدير من الحكيم الخبير .

مشيئة الخالق الباري وقدرته وحكمة الله فوق الشك والتهم

مشيئة الله في أحبابه سبقت لحكمة حيرت في فهمها الفكر

﴿ مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ ﴾ .

إذا كان أمر الله مفعولا وقدره مقدورا وقضاؤه نافذا فكيف يكون على النبي حرج

(1) مجمع البيان للطبرسي 565/8 .

(2) الحرج هو : الضيق وأصله الموضع الكثير الشجر الذي يصعب السير فيه لكثرة ما يعتري السائر فيه من أغصان متدللة متشابكة .

في شيء هو من أمر الله الذي فرضه عليه وقدره له .

﴿ سُنَّةٌ ⁽¹⁾ اللَّهُ فِي الَّذِينَ حَلَّوْا مِنْ قَبْلُ ﴾ .

تأكيد لمعنى نفي الحرج أي كيف يكون حرج فيما هو سنة قد سنها الله في النبيين والمرسلين .

● قال ابن كثير : [﴿ مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ ﴾ أي فيما أحل له وأمره به من تزويج زينب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ... وقوله تعالى : ﴿ سُنَّةٌ اللَّهُ فِي الَّذِينَ حَلَّوْا مِنْ قَبْلُ ﴾ أي هذا حكم الله تعالى في الأنبياء قبله لم يكن ليأمرهم بشيء وعليهم في ذلك حرج وهذا رد على من توهم من المنافقين نقصا في تزويجه من زينب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا] ⁽²⁾ .

● وقال القرطبي : [قوله تعالى : ﴿ سُنَّةٌ اللَّهُ فِي الَّذِينَ حَلَّوْا مِنْ قَبْلُ ﴾ : هذه مخاطبة من الله تعالى لجميع الأمة : أعلمهم أن هذا ونحوه هو السنن الأقدم في الأنبياء أن ينالوا ما أحله لهم ؛ أي سنّ لحمد ﷺ التوسعة عليه في النكاح سنة الأنبياء الماضية كداود وسليمان وغيرهما] ⁽³⁾ .

● وقال الزمخشري [﴿ سُنَّةٌ اللَّهُ ﴾ اسم موضوع موضع المصدر مؤكدا لقوله تعالى : ﴿ مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ ﴾ كأنه قيل : سن الله ذلك سنة في الأنبياء الماضين ، وهو أن لا يحرج عليهم الإقدام على ما أباح لهم ووسع عليهم في باب النكاح وغيره] ⁽⁴⁾ .

﴿ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدْرًا مَقْدُورًا ﴾ أي قضاء مقضيا وحكما قاطعا وإرادة نافذة .

● قال صاحب التحرير والتنوير : [وكان أمر الله مقدرا على حكمة أرادها الله تعالى من ذلك الأمر ، فالله ﷻ لما أمر رسوله ﷺ بتزويج زينب التي فارقها زيد كان عالما بأن ذلك لائق برسوله ﷺ كما قدر لأسلافه من الأنبياء] ⁽⁵⁾ .

● ومن قدر الله في أنبيائه أن يتحملوا المصاعب والمشاق في سبيل تبليغ الرسالة ، ومن قدر الله في أنبيائه أن يفرض عليهم من الأحكام الخاصة بهم ما يكون عوناً على نشر الدعوة ، من ذلك زواجه ﷺ بأكثر من أربعة لمقاصد كريمة وحكم جامعة .

(1) (سنة) مصدر منصوب بفعل مقدر من لفظه وقيل مفعول به منصوب بفعل محذوف تقديره الزم .

(2) (3) الجامع لأحكام القرآن 195/14 بتصرف .

(2) تفسير القرآن العظيم 492/3 بتصرف .

(5) التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور 42/22 .

(4) الكشاف 543/3 .

﴿ الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَهَا حَسْبًا وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ ﴾

هذه طبيعة الأنبياء وحالهم فهم صفوة الخلق وأعلم الناس بالحق وأخشاهم لله تعالى ورسول الله ﷺ هو أفضلهم مكانة وأكرمهم منزلة وأعظمهم خشية .

● وليس هناك تعارض بين قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَهَا حَسْبًا وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴾ وبين قوله تعالى ﴿ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ ﴾ .

● يقول الطبرسي : [... وقوله تعالى لنبينا ﴿ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ ﴾ الخشية هنا لا تتعلق بالتبليغ وإنما يخشى ﷺ المقالة القبيحة فيه ، والعاقل كما يتحرز من المضار يتحرز من إساءة الظن به والقول السيئ فيه ، ولا يتعلق شيء من ذلك بالتكليف] (1) .

﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾ (2) .

في هذه الآية رد على قول من قال: إن محمداً قد تزوج من حليمة ابنة زيد لأن زيدا ليس ابنا له ﷺ .

قال الزمخشري : [﴿ مِّن رِّجَالِكُمْ ﴾ أي لم يكن أبا رجل منكم على الحقيقة حتى يثبت بينه وبينه ما يثبت بين الأب وولده من حرمة الصهر والنكاح] (3) .

والتعبير بـ ﴿ مِّن رِّجَالِكُمْ ﴾ : لأنه ﷺ كان قد رُزِقَ بأبنائه الثلاثة أبي القاسم والطيب والطاهر من السيدة خديجة وكانوا قد لحقوا بربهم قبل أن يبلغوا الحلم ، كما أنه ﷺ رزق بعد ذلك بإبراهيم من السيدة مارية القبطية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا .

قال الزمخشري : [فإن قلت : أما كان أبا للطاهر والطيب والقاسم وإبراهيم ؟ قلت قد أخرجوا من حكم النفي بقوله ﴿ مِّن رِّجَالِكُمْ ﴾ من وجهين ، أحدهما : أن هؤلاء لم يبلغوا مبلغ الرجال . والثاني : أنه قد أضاف الرجال إليهم ، وهؤلاء رجاله لا رجالهم] (4) .

﴿ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ﴾ .

(1) مجمع البيان للطبرسي 566/8 بتصرف . (2) سورة الأحزاب : 40 .

(3) المرجع السابق 544/3 .

(4) الكشف 544/3 .

قال ابن عباس : المراد : أنه ﷺ لو لم يختم به النبيين لرزقه الله بالولد الذي يكون بعده نبيا (1) وقال مقاتل بن سليمان ولم يجعل محمد أبا أحد من رجالكم لأنه لو جعل له ابنا لجعله نبيا وليس بعده نبي (2) .

وفي هذه الآية الكريمة إشارة إلى أن الرسول ﷺ مبلغ عن ربه ، وأن الذي فعله من الزواج بزینب إنما كان بأمر إلهي وحكمة تشريعية هي إبطال عادة التبني وما درج عليه الناس من تحريم الزواج بزوجة المتبني ، إذا طلقها أو مات عنها .

﴿ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾ .

عليم بأقوالكم وأفعالكم وأحوالكم وهو سبحانه عليم بما فيه الصلاح والفلاح لعباده في الدارين .

رابعا : الحكمة من إباحة الإسلام تعدد الزوجات

الإسلام دين اليسر والتسامح ، دين الطهر والعفاف ، دين العدالة والإنصاف ، دين كامل وتشريع شامل وحكم عادل ومنهج رباني ، واقعي ، فطري ، يناسب الفطرة الإسلامية ، منهج وسطي يحقق الانسجام بين مطالب الروح والجسد ، والتوازن التام بين مصالح الفرد والمجتمع .

● يقول الأستاذ سيد قطب في الظلال : [إن الإسلام نظام للإنسان . نظام واقعي إيجابي . يتوافق مع فطرة الإنسان وتكوينه ، ويتوافق مع واقعه وضروراته ، ويتوافق مع ملابسات حياته المتغيرة في شتى البقاع وشتى الأزمان ، وشتى الأحوال .

إنه نظام واقعي إيجابي ، يلتقط الإنسان من واقعه الذي هو فيه ، ومن موقفه الذي هو عليه ، ليرتفع به في المرتقى الصاعد ، إلى القمة السامقة . في غير إنكار لفطرته أو تنكر ؛ وفي غير إغفال لواقعه أو إهمال ؛ وفي غير عنف في دفعه أو اعتساف ! .

إنه نظام لا يقوم على الخدقة الجوفاء ؛ ولا على النظرّف المائع ؛ ولا على « المثالية » الفارغة ؛ ولا على الأمنيات الحاملة ، التي تصطدم بفطرة الإنسان وواقعه وملابسات حياته ، ثم تتبخر في الهواء ! .

(2) النكت والعيون للماوردي 373/3 .

(1) زاد المسير لابن الجوزي 393/6 .

وهو نظام يراعي خلق الإنسان ، ونظافة المجتمع ، فلا يسمح بإنشاء واقع مادي ، من شأنه انحلال الخلق ، وتلوّث المجتمع ، تحت مطارق الضرورة التي تصطدم بذلك الواقع . بل يتوخى دائما أن ينشئ واقعا يساعد على صيانة الخلق ، ونظافة المجتمع ، مع أيسر جهد يبذله الفرد ويبذله المجتمع [(1)] .

ومن تشريعات الإسلام الحكيمة ونظمه القويمة : إباحته لتعدد الزوجات قال تعالى في سورة النساء : ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْبَيْنِ فَاُنْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبْعًا فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَذَىٰ أَلَّا تَعْلَمُوا ﴾ (2) .

(1) في ظلال القرآن 579/1 . (2) سورة النساء : 3 .

وفي هذه الآية الكريمة دليل صريح على إباحة التعدد بشرط أن لا يزيد على أربع إذا وجد الرجل في نفسه القدرة على العدل بينهن في النفقة والسكنى والمبيت فإذا وجد في نفسه العجز عن إقامة العدل بينهن فعليه أن يكتفي بواحدة ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ﴾ يقول الشيخ محمد محمد المدني في كتابه المجتمع الإسلامي كما تنظمه سورة النساء [والخوف من عدم العدل هو حالة وجدانية يشعر بها المرء إذا تدبر أمره وعرف مدى قدرته وطاقته المادية والأدبية و (ظروف) حياته أنه عندئذ يجد في نفسه معنى الخوف أو الاطمئنان أي يستطيع الحكم على نفسه وتقدير أمره تقديرا صحيحا فيخاف إن علم قصورا ويطمئن إذا علم كفاية واستعدادا] المجتمع الإسلامي كما تنظمه سورة النساء محمد محمد المدني ص 143 ط المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية سنة 1382 هـ . ومن هنا فإن العدل المقصود في هذه الآية ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً ﴾ المراد به العدل في الأمور المادية من نفقة وسكنى ومبيت وغير ذلك ، أما الميل القلبي فهو أمر غير مستطاع لأن القلوب متقلبة ولكن إذا أثر الميل القلبي على العدل في الأمور المادية بأن قَصُرَ الرجل في حق إحدى زوجاته من نفقة أو مسكن أو مبيت . لحبه وميله للأخرى فهذا ظلم بين حذر الإسلام منه ففي الحديث الشريف يقول ﷺ : « من كانت له امرأتان فمال إلى إحداهما جاء يوم القيامة وأحد شقيه ساقط » الحديث رواه الإمام أبو داود في السنن عن أبي هريرة ك النكاح باب في القسم بين النساء حديث 2133 - 244/2 ورواه الإمام الترمذي عن أبي هريرة ك النكاح باب ما جاء في التسوية بين الضرائر حديث 1141 - 447/3 ورواه النسائي في السنن عنه ك / عشرة النساء باب ميل الرجل إلى بعض نسائه 63/7 .

ورواه ابن ماجه في السنن عن أبي هريرة ك النكاح باب القسمة بين النساء حديث 1969 - 633/1 .

وأورده الألباني في صحيح سنن النسائي برقم 3682 - 827/3 وقال صحيح وأخرجه في غاية المرام في تخريج أحاديث الحلال والحرام برقم 229 وفي مشكاة المصابيح برقم 3236 وفي صحيح سنن الترمذي برقم 912 - 33/1 . فالميل المشار إليه في الحديث هو تفضيل إحدى الزوجات على غيرها في النفقة والمسكن والمبيت وغير ذلك ، أما ميل الرجل ميلا قلبيا إلى إحدى الزوجات ميلا قلبيا مع مراعاته لحقوقهن جميعا وإقامته لميزان العدل بينهن في الأمور المادية فإن هذا الميل القلبي لا مؤاخذه فيه وهو المشار إليه في قوله تعالى ﴿ وَكُنْ تَسْتَعِيبُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ وَإِنْ تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ

ونظام التعدد يكشف لنا عن سماحة الإسلام وعدالته وواقعيته وحكمته ومع ذلك نجد حملة شعواء من أعداء الإسلام وأدعيائه على هذا التشريع الحكيم ، والدافع وراء هذه الحملة الهوجاء هو جهلهم بالحق وتعصبهم للباطل . وصدق الشاعر حين يقول :

وَكَمْ مِنْ عَائِبٍ قَوْلَا سَلِيمَا وَأَفْتُهُ مِنْ الْفَهْمِ السَّقِيمِ
ولكن تأخذُ الأذهانُ منه على قدرِ القرائحِ والفهومِ
قد تنكر العينُ ضوءَ الشمسِ من رميدٍ وينكرُ الفمُ طعمَ الماءِ من سقمِ

تقول الأستاذة مريم جميلة⁽¹⁾ : لا يوجد حكم من أحكام الشريعة الإسلامية تعرّض للهجوم العنيف أكثر من حكم الله في تعدد الزوجات ...

حيث يزعم أعداء الله أنه دليل على الخط من قدر المرأة المسلمة ، ويفسرونه على أنه قانون شهواني ، وأقل ما يقوله دعاة التحديث عن التعدد إنه نظام متخلف لا يصلح فقط إلا للمجتمعات المتخلفة ... وفي الواقع إن الذين يروجون لهذه الافتراءات يعلمون تمام العلم أن عدم التعدد (تقييد التعدد وتحريمه وتجريمه) هو الذي أدّى إلى تخلف وفساد المجتمعات في العصر الحديث وأدّى إلى انحطاطها ؛ حيث زادت النساء على الرجال بسبب الحروب فزاد الفساد واللقطاء وانتشرت الأمراض والفوضى⁽²⁾ .

= كَانَ عَفُورًا رَجِيمًا ﴿ النساء : 129 .

وعائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت : كان رسول الله ﷺ يقسم بين نسائه فيعدل ويقول : « اللهم هذا قسمي فيما أملك فلا تلمني فيما تملك ولا أملك » رواه الإمام أبو داود في السنن عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا كتاب النكاح باب في القسم بين النساء . حديث 2134 - سنن أبي داود 242/2 ورواه الإمام الترمذي في السنن عن عائشة ك النكاح باب ما جاء في التسوية بين الضرائر حديث 1140 - 446/3 .

ورواه الإمام النسائي في السنن عن عائشة ك / عشرة النساء باب ميل الرجل إلى بعض نسائه دون بعض - سنن النسائي 64/7 ورواه ابن ماجه في السنن عن عائشة ك / النكاح باب القسمة بين النساء حديث 1970 - 634/1 وأورده ابن حبان وصححه - كما في موارد الظمان برقم 1305 - 244/4 ورواه الحاكم في المستدرک وقال صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه - وواقفه الذهبي - المستدرک 187/2 .

(1) أمريكية ، هداها الله للإسلام فاعتنفته بعد أن اقتنعت به ولها كتاب قيم بعنوان لماذا أسلمت؟ ط المختار الإسلامي تحدثت فيه عن رحلتها من اليهودية إلى الإسلام ، ولها مجموعة كتب أخرى في التعريف بالإسلام ورد شبهات أعدائه .

(2) تحذير إلى المرأة المسلمة ص 7 بتصرف مريم جميلة ترجمة طارق خاطر ط المختار الإسلامي .

ويقول الشيخ محمد الغزالي رحمته الله : [قرأت أن بابا الفاتيكان (1) خطب في قطر إفريقي مسلم ، وتدد بنظام التعدد ووصفه بأقبح الأوصاف ... وتساءلت : ماذا قال عن فوضى الشهوات الجنسية في أوروبا ، وعن قدرة شخص واحد على الفتك بعشرات الأعراس ؟] (2) .

● وفي كتابه تحرير المرأة يقول قاسم أمين (3) [تعدد الزوجات علامة تدل على فساد الأخلاق واختلال الحواس وشبهه في طلب اللذائذ] (4) .

● وفي كتابها : النسائيات تقول ملك حفني ناصف وهي من أدياء تحرير المرأة : [إن تعدد الزوجات مفسدة للرجال وللصحة وللمال وللأخلاق وللأولاد ولقلوب النساء] (5) .

● هذه بعض شبهات أعداء الإسلام وأديائه ، الذين يهاجمون هذا النظام الإسلامي الحكيم ويزعمون أنه نظام جائر ينبغي أن يمنع بكل وسيلة .

● وفيما يلي نبذ ظلام هذه الشبهات ونكشف عن عدالة نظام التعدد وحكمه البالغة ونبين أيضا موقف الديانتين اليهودية والنصرانية من التعدد ؛ إتماما للفائدة : فنقول وباللله التوفيق :

إن للتعدد حكما كثيرة وأسبابا متعددة نذكر منها ما يلي :

(1) هو أعلى منصب في الكنيسة الكاثوليكية ومقره بالفاتيكان وهي دولة مستقلة تقع في قلب روما عاصمة دولة إيطاليا .

(2) الحق المرص 83 بتصرف ط دار الريان للتراث .

(3) هو من أكبر أدياء التحرير في مصر وله في ذلك كتابان مطبوعان : المرأة الجديدة ، وتحرير المرأة ولقد اقتبس فكره من الغرب وأراد أن تكون المرأة المسلمة مسخرة . للمرأة الغربية ولا يتم ذلك إلا بانسلاخ المرأة المسلمة من تعاليم دينها وقيمه الفاضلة ولقد لقبته دعوته رواجيا بين نساء ورجال بعيدين عن فهم الإسلام ومعرفة أحكامه البالغة وحكمه البليغة .

(4) تحرير المرأة لقاسم أمين ص 133 ط دار المعارف .

(5) النسائيات / ملك حفني ناصف ص 30 وملك حفني : داعية من دعاة تحرر المرأة المسلمة وتقليدها للمرأة الغربية في الأخلاق والعادات .

ويراجع في هذا المقام ما كتبه درية شفيق في كتابها المرأة المصرية من الفراعنة إلى اليوم وفي هذا الكتاب تهاجم نظام التعدد في الإسلام وتدعو إلى فرض القوانين التي تمنعه / يراجع ما كتبه في هذا الموضوع في كتابها المرأة المصرية من الفراعنة إلى اليوم ص 31 : 41 ط مطبعة مصر سنة 1955 م .

● التعدد هو الحل الأمثل لمواجهة ظاهرة زيادة عدد النساء على الرجال ، هذه الزيادة التي تُعدّ سنة كونية كشفت عنها وأكدتها الأبحاث والإحصائيات العلمية ، ولو اكتفى كل رجل بزوجة واحدة لوجدنا « ملايين » النساء بلا زواج .

● وفي دائرة المعارف البريطانية أن : [خطر الموت أقل للنساء بالنسبة إلى الرجال في أية مرحلة من مراحل العمر بصفة عامة] ⁽¹⁾ .

● وفي الحرب العالمية الأولى (1914 : 1918) م : قتل أكثر من ثمانية مليون جنديا فضلا عن المدنيين الذين كانوا من ضحايا الحرب ومعظمهم من الرجال .

● وفي الحرب العالمية الثانية (1939 : 1945) م : كان عدد الضحايا 65 مليوناً بين قتل وجريح بعاهة مستديمة ومعظمهم من الرجال .

● وفي حرب العراق مع إيران (1980 : 1988) م ترمّلت 82 ألف امرأة إيرانية وقرابة مائة ألف عراقية .

● هذا بالإضافة إلى أن أكثر نزلاء السجون والمعتقلات في العالم من الرجال ، وعلى سبيل المثال نجد في الولايات المتحدة الأمريكية والتي يعتبرونها رمزا للحضارة وعنوانا للحرية ، نجد الجهات القضائية هناك تتعامل يوميا مع ما يقرب من مليون وثلاثمائة ألف شخص ، يودع كثير منهم في السجون ، وتبلغ نسبة الذكور فيهم حوالي 97 % .

● وفي عصرنا الحاضر نجد معظم ضحايا التقدم الصناعي من الرجال في الحوادث والكوارث الصناعية كحوادث السيارات والطائرات وكوارث المصانع والآلات الصناعية والزراعية الحديثة ، يحدث هذا بالرغم من التقدم العلمي الكبير .

وفي إحدى الإحصائيات الحديثة ⁽²⁾ لبعض الدول الأوروبية والاتحاد السوفيتي

(1) دائرة المعارف البريطانية 37/1 نقلا عن المرأة بين شريعة الإسلام والحضارة الغربية للمفكر الهندي المسلم وحيد الدين خان - ترجمة سيد رئيس أحمد الندوي ص 238 : 240 ط دار الصحوة للنشر ودار الوفاء ط 1 سنة 1414 هـ سنة 1994 م .

(2) دائرة المعارف البريطانية ط سنة 1984 نقلا عن المرأة بين شريعة الإسلام والحضارة الغربية ص 240 ، 241 - وفي كتاب درية شفيق الذي تطالب فيه بمنع تعدد الزوجات أوردت في نهاية الكتاب إحصائيات لسنوات 47 ، 48 ، 49 ، 50 ، 1951 م وفي هذه الإحصائيات لجميع هذه السنوات نرى زيادة عدد النساء عن الرجال ! يراجع المرأة المصرية من الفراعنة إلى اليوم ص 283 وما بعدها ط مطبعة مصر 1955 م .

« السابق » والولايات المتحدة نجد ما يلي :

نسبة الإناث	نسبة الذكور	السدولة
% 52,93	% 47,07	النمسا
% 51,98	% 48,02	ألمانيا
% 51,01	% 48,99	فرنسا
% 51,39	% 48,89	إيطاليا
% 51,39	% 48,61	بولندا
% 51,06	% 48,94	أسبانيا
% 51,33	% 48,67	سويسرا
% 53,30	% 46,70	الاتحاد السوفيتي « السابق »
% 51,42	% 48,58	الولايات المتحدة

وطبقا لإحصائيات تمت سنة 1987 م في الولايات المتحدة نجد أن عدد النساء يزيد عن الرجال بـ 7,8 مليون امرأة ويعني ذلك لو تزوج كافة الرجال فستبقى هناك 8,7 مليون امرأة بدون زواج (1) ، فأين يذهبن ! وكيف نعالج هذا الواقع ؟ وكيف نتعامل معه ؟ هل نغمض أعيننا ونصم آذاننا عنه ؟ هل نقف مكتوفي الأيدي ونترك المشكلة بدون حل حاسم ؟ .

يقول الأستاذ سيد قطب في الظلال : [.... إن هز الكتفين لا يحل مشكلة ! كما أن ترك المجتمع يعالج هذا الواقع حسبما اتفق لا يقول به إنسان جاد يحترم نفسه ويحترم الجنس البشري ! ولا بد إذن من نظام ، ولا بد من إجراء ، وعندئذ نجد أنفسنا أمام احتمال من ثلاثة احتمالات :

1 - أن يتزوج كل رجل صالح للزواج من امرأة واحدة .. ثم تبقى واحدة أو أكثر - حسب درجة الاختلال الواقعة - بدون زواج تقضي حياتها أو حياتهن - لا تعرف الرجال ! .

2 - أن يتزوج كل رجل بواحدة زوجا شرعيا ثم يعاشر ما وراء ذلك بدون زواج .

(1) المرأة بين شريعة الإسلام والحضارة الغربية وحيد الدين خان ص 240 .

3 - أن يتزوج الرجل بأكثر من واحدة (1) .

مناقشة هذا الاحتمال : أما الاحتمال الأول ففيه ظلم للمرأة وحرمانها من أمر فطري تنوق إليه وتمناه .

● يقول الدكتور عبد الناصر العطار : [ولاشك أنه إذا لم تتح للمرأة الفرصة في الزواج الفردي المناسب : كان تعدد الزوجات خيرا لها من أن تعيش راهبة أو ضائعة بلا حقوق] (2) .

● ويقول - وستر مارك (3) في كتابه تاريخ الزواج : [إن هناك مجتمعات في أفريقيا ينتشر فيها التعدد ويندر أن ترى فيها فتاة إلا وهي متزوجة ؛ الأمر الذي ذهب معه الباحثون في علم الاجتماع : إلى أن المجتمع الذي ينتعش فيه تعدد الزوجات نجد كل امرأة فيه زوجا] (4) .

ومن هنا فإن العدل الاجتماعي يقتضي أن يكون التعدد مباحا حتى تتاح الفرصة أمام كل امرأة للزواج ولو برجل متزوج لأن عيشها بدون زوج حرمان لها من حقها الطبيعي سيما وأن أعداد النساء أكثر من أعداد الرجال كما سبق أن بينا ذلك .

● أما الاحتمال الثاني : فإنه يترتب عليه تعدد العشيقات والحليلات وهذا لا يقبله عاقل فكيف نحارب تعدد الزوجات الحليلات ونفتح الباب على مصراعيه أمام تعدد العشيقات الحليلات ؟ كيف نغلق باب النكاح ونفتح أبواب السفاح ؟ كيف نترك الحلال الطيب ونلهث وراء الحرام الخبيث ؟ .

● يقول المفكر الإسلامي / الأستاذ أنور الجندي : [إن سد باب تعدد الزوجات يعني فتح عشرات الأبواب الفاجرة غير الشرعية ولقد أشارت هيئة الأمم المتحدة إلى أن العالم يواجه الآن مشكلة الحرام أكثر من الحلال في شأن المواليد ، وإن نسبة الأطفال غير الشرعيين ارتفعت إلى 60 % في بعض البلاد و 75 % في بعضها ، أما الشعوب

(1) في ظلال القرآن 1/579 ، 580 بتصرف .

(2) تعدد الزوجات في الشريعة الإسلامية تأليف أ . د عبد الناصر العطار أستاذ بكلية الحقوق قسم الشريعة الإسلامية ص 7 مطبعة النهضة بالقاهرة .

(3) من كبار علماء الاجتماع في الغرب .

(4) History of Marriage wester Mark opcit . 41

تاريخ الزواج / وستر مارك نقلا عن الأسرة والمجتمع للدكتور على عبد الواحد وافي ص 42 ط مكتبة الفجالة .

الإسلامية فإنها محفوظة من هذا الوباء ... [(1)] .

أقول : إن نظام تعدد الخليلات في الغرب قد انتشر انتشارا ذريعا ولقد أعلنت وزارة البحث العلمي الألمانية أن 99 % من الألمان يمارسون تعدد العشيقات (2) .

وفي الولايات المتحدة بلغت نسبة الحوامل بدون زواج في عام واحد بإحدي مدارس نيويورك 2478 حاملا ، وفي إحدي المدارس الثانوية بلغ نسبة الحبابي من البنات 48 % وأثبتت الإحصائيات أن مليون حمل على الأقل يسقط وآلاف الأطفال يقتلون فور ولادتهم (3) وفي إحدى الإحصائيات في الولايات المتحدة ثبت أن 90 % من الشباب الأمريكي مصابون بالأمراض الجنسية (4) .

ويقول الأستاذ وحيد الدين خان : لقد قتل خلال الحرب العالمية الثانية ملايين الرجال مما أدى إلى زيادة كبيرة في عدد النساء بالنسبة للرجال ونتج عن ذلك الشيوع الجنسي وقد شوهدت على واجهة منازل بعض النساء اللاتي فقدن أزواجهن خلال الحرب العالمية الثانية لافتات تقول : مطلوب ضيف للمبيت .

● وما زال هذا الوضع قائما في الغرب حتى بعد الحرب بسبب زيادة أعداد النساء على الرجال ... (5) .

● وفي السويد تعطي الزوجة حق اختيار صديق لها ، له ما للزوج من حقوق .

● وفي فرنسا وإنجلترا قد يعلم الزوج أن لزوجته صديقا أو أصدقاء وقد تعلم الزوجة أن لزوجها خليل أو خليلات ويغض كل منهما العين عن ذلك ويتبادلان التسامح ، ليشبع كل منهما نزوته ، وهناك عرف سائد في فرنسا يسمونه التعايش الثلاثي وهو أن يقيم العشييق مع عشيقته وزوجها في منزل واحد ، ويعيش الثلاثة على أتم وفاق على هذا الوضع ، بل وقد يحدث أفضع من هذا مما يخجل القلم كتابته (6) ، فهل بعد هذا كله

(1) تصحيح المفاهيم أنور الجندي ص 199 ط دار الاعتصام .

(2) جريدة الأهرام عدد 1993/3/27 .

(3) الدعوة الإسلامية والإنقاذ العالمي عبد الله ناصح علوان ص 13/11 ط دار السلام ط 1 سنة 1405 هـ سنة 1985 م .

(4) جاهلية القرن العشرين محمد قطب ص 164 ط دار الشروق .

(5) المراة بين شريعة الإسلام والحضارة الغربية ص 243 ، 244 بتصرف .

(6) تعدد الزوجات في الإسلام إبراهيم محمد حسن الجمل ص 90 ط دار الاعتصام سنة 1986 م .

يُعيثون ويعترضون على نظام تعدد الزوجات ، ولا يزالون بما يحدث عندهم في الغرب من تعدد العشيقات ؟ .

شتان بين الحالين ، وهل يستوي الخبيث والطيب ؟ .

● هذا وهناك أسباب أخرى للتعدد منها مرض الزوجة وعجزها عن القيام بواجباتها نحو زوجها وبيتها ؛ فيتزوج بمن ترعاها وترعاه .

● ومن أسباب التعدد أيضا : عقم المرأة وحاجة الرجل إلى الولد وهو مطلب طبيعي فطري .

● ومن الأسباب أيضا كثرة أعباء الزوجة وحاجتها إلى من يعينها ويشاركها في أعمال البيت .

● ومن أسبابه أيضا أن الرجل قد يعجب بامرأة أخرى غير زوجته ولا يتمكن من التغلب على عواطفه وهنا إما أن يتزوجها فليجأ إلى الحل الحلال ، وإما أن يعاشرها في الحرام .

● هذا وللتعدد فوائد متعددة منها توطيد العلاقات بين الناس من خلال المصاهرة ، ومنها أيضا كثرة النسل ، والتعدد باب من أبواب السعة في العيش ، والبركة والبسطة في الرزق وغير ذلك من الفوائد العديدة والحكم البالغة .

خامسا : موقف الديانتين اليهودية والنصرانية من التعدد

1 - التعدد في الديانة اليهودية :

التعدد مباح في اليهودية ؛ يشهد لذلك ما ورد في العهد القديم من نصوص تدل على ذلك ، منها أن كثيرا من الأنبياء الذين ورد ذكرهم في العهد القديم قد تزوجوا بأكثر من واحدة .

1 - ففي سفر التكوين أن إبراهيم عليه السلام تزوج بسارة وهاجر وتزوج بامرأة تدعى قطورة وكانت له سراري كثيرة ففي الإصحاح 25 فقرة 1 [وعاد إبراهيم فأخذ زوجة اسمها قطورة] .

وفي نفس الإصحاح فقرة 7 [وأما بنو السراري اللواتي كانت لإبراهيم فأعطاهم

إبراهيم عطايا وصرفهم عن إسحاق ابنه شرقا [.

2 - ولقد ورد في سفر التكوين أيضا أن يعقوب تزوج بابنتي خاله ليثة وراحيل ، كما تزوج بجاريتيهما زلفة وبلهة [يراجع سفر التكوين إصحاح 30 ، 31 ، 32 ، 34 ، 35 .

3 - وورد في العهد القديم أن موسى تزوج من بنت كاهن مدين ، وتزوج أيضا من امرأة كوشية . يراجع سفر الخروج إصحاح 2 فقرة 16 : 21 وسفر العدد إصحاح 12 فقرة 1 : 15 .

4 - وفي سفر أخبار الأيام الأولى في الإصحاح الثالث أن داود تزوج من تسع نساء بالإضافة إلى الكثير من السراري اللاتي لا يقل عددهن عن أربعين سرية ويراجع سفر صموئيل الثاني إصحاح 5 فقرة 12 ، 13 .

5 - وجاء في سفر الملوك الأول عن سليمان عليه السلام [وأحب سليمان نساء كثيرة وكانت له سبعمائة من النساء السيدات وثلاث مائة من السراري فأمالت نساؤه قلبه [سفر الملوك الأول إصحاح 11 .

● وفي العهد القديم أمثلة أخرى كثيرة لتعدد الزوجات من ذلك ماورد في : سفر التكوين [أخذ عيسو نساءه من بنات كنعان [إصحاح 36 فقرة 2 ، 3 .

وفي سفر القضاة [وكان لجدعون سبعون ولدا من صلبه ؛ لأنه كانت له نساء كثيرات [سفر القضاة إصحاح 8 فقرة 30 .

وفي أخبار الأيام الثاني [وأحب رحبعام معكة بنت أبشالوم أكثر من جميع نساءه وسراريه لأنه اتخذ ثماني عشرة امرأة وستين سرية [أخبار الأيام الثاني إصحاح 11 فقرة 21 ، 22 .

وكل هذه النصوص تدل على أن التعدد مباح في اليهودية ؛ حيث ورد في العهد القديم أمثلة كثيرة تدل على وقوع التعدد للأنبياء وغيرهم . وليس في العهد القديم أي نص يمنع التعدد أو يقيد به بعدد معين .

2 - موقف النصرانية من تعدد الزوجات

● ذكرنا فيما سبق أنه لم يرد في العهد القديم أي نص يحرم التعدد أو يقيد به ، بل ورد فيه نصوص متعددة تدل على وقوع التعدد .

وكذلك الحال في العهد الجديد لم يرد فيه أي نص يصرح بتحريم التعدد أو تقييده

بعدد معين ، ولم يذهب أحد من النصارى في العصور الأولى إلى أن دينهم يحرم عليهم تعدد الزوجات ، وإذا كان التعدد مباحا في العهد القديم فكيف يحرمه النصارى وهم يؤمنون بكل ما ورد في العهد القديم ؛ وقد ورد في العهد الجديد على لسان المسيح [لا تظنوا أنني جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء ما جئت لأنقض بل لأكمل فإنني الحق أقول لكم : إلى أن تزول السماء والأرض لا يزول حرف واحد أو نقطة واحدة من الناموس حتى يكون الكل ...] متى إصحاح 5 فقرات 21/17 .

وفي متى أيضا [حينئذ خاطب يسوع الجموع والتلاميذ قائلا : على كرسي موسى جلس الكتبة والفريسيون فكل ما قالوه لكم أن تحفظوه فاحفظوه وافعلوه ، ولكن حسب أعمالهم لا تعملوا لأنهم يقولون ما لا يفعلون] متى إصحاح 23 فقرات 1 : 4 .

● تناقض مريب :

● وحين يجد النصارى أنه لا مفر من إباحة التعدد - سيما في المجتمعات الأفريقية والآسيوية التي ينتشر فيها التعدد - نجدهم لا يحرمونه بل ربما دعوا إليه حتى القساوسة المبشرين في أفريقيا يباح لهم تعدد الزوجات بينما لا يباح للقساوسة في أوروبا وهذه سياسة الكنيسة في نشر دعوتها فهي تحرم وتحلل لترغب الناس في اعتناق النصرانية (1) .

● ومن قبل : حين دخلت النصرانية إلى أوروبا ووجدت اليونانيين والرومانين يحرمون التعدد سايرتهم على هذا النظام فحرمت تعدد الزوجات حتى يدخلوا في دينهم ، يقول وسترمارك : إن الكنيسة وحدها هي التي ابتدعت القول بمنع تعدد الزوجات خضوعا لمؤثرات أجنبية عن المسيحية ذاتها (2) .

(1) في أندونيسيا يحاول المبشرون تغيير قانون الأسرة في المسيحية لإباحة التعدد إلى غير حد وذلك في سبيل نشر النصرانية ، وفي تايلاند ما زال التعدد يمارس دون حد على مرأى ومسمع من المبشرين ذكر ذلك أ . د رؤوف شلبي رحمه الله في كتابه الدعوة الإسلامية في عهدها المدني ص 321 ، 323 .

ويراجع في هذا المقام المرأة في الإسلام للدكتور علي عبد الواحد وافي ص 161 بتصرف ط دار نهضة مصر ط 2 - والإسلام والنصرانية في أواسط أفريقيا تأليف نورجيه ص 92 ، 98 بتصرف نقلا عن نظام الأسرة في الإسلام للدكتور محمد سالم محيسن والدكتور شعبان محمد إسماعيل ص 36 بتصرف ط مطبعة الجمهورية ويراجع أيضا بين الإسلام والمسيحية لأبي عبيدة الخزرجي ص 89 بتصرف تحقيق د . محمد شامة ط مكتبة وهبة ط 2 سنة 1395 هـ .

(2) تاريخ الزواج تأليف وسترمارك نقلا عن موانع الزواج في الشرائع السماوية تأليف د . أحمد غنيم ط 1 سنة 1982 ط دار النهضة .

● وفي تاريخ النصرانية نجد نماذج كثيرة لرجال كانت لهم أكثر من زوجة ولم ينكر عليهم أحد ذلك من هؤلاء الإمبراطور شارلمان الذي كان له زوجتان وعدة سراري ، والإمبراطور فلافيوس فالنتيان الذي سن قانونا يبيح التعدد ولم ينكر عليه أحد من رجال الكنيسة لأن الكثيرين منهم كانوا يمارسون تعدد الزوجات وتعدد العشيقات واستمر العمل بهذا القانون إلى أن جاء جستنيان (527 - 565) فحرم التعدد لكنه لم ينجح في تحريمه وجاء من بعده من أباح التعدد (1) .

● وهكذا نجد النصارى يبيحون التعدد حيناً ويحرمونه أحياناً أخرى وربما أبيض في مكان وحرم في مكان آخر أو حرمة طائفة وأباحته طائفة أخرى مما يدل على التناقض والاختلاف في شريعتهم .

● يقول الأستاذ عباس العقاد : [ولا حجر على تعدد الزوجات في التوراة ولا في الإنجيل بل هو مباح مأثور عن الأنبياء أنفسهم من عهد إبراهيم الخليل عليه السلام إلى عهد الميلاد ولم يرد في الأناجيل نص واحد يحرم ما أباحه العهد القديم للآباء والأنبياء ولن دونهم من الخاصة والعامة، وما ورد في الأناجيل يشير إلى الإباحة في جميع الحالات والاستثناء في حالة واحدة . وهي حالة الأسقف حين لا يطبق الرهبانية فيقنع بزوجة واحدة اكتفاء بأهون الشرور . وقد استحسّن القديس أوغسطين أن يتخذ الرجل سرية مع زوجته إذا عقلت هذه وثبت عليها العقم ، وحرم مثل ذلك على الزوجة إذا ثبت لها عقم زوجها لأن الأسرة لا يكون لها سيدان ، واعترفت الكنيسة بأبناء شرعيين للعاهل شارلمان من عدة زوجات ، وقال وسترمارك - العالم ... في تاريخ الزواج - إن تعدد الزوجات باعتراف الكنيسة بقي إلى القرن السابع عشر، وكان يتكرر كثيرا في الحالات التي لا تخصها الكنيسة والدولة] (2) .

هذا ولقد ارتفعت أصوات وتعلت صيحات غربية تنادي بإباحة التعدد ومن بين المنادين بذلك كبير أساقفة كانتربري - زعيم الكنيسة البروتستانتية - الذي يقول : [لا يوجد علاج لمنع التحلل الخلقي والانهيال العائلي في الغرب إلا بإباحة الزوجات فهو الذي يمنع المرأة من الانهيال النفسي ويرد إليها كرامتها وعزتها] (3) .

(1) يراجع المرأة في الإسلام . د . علي عبد الواحد وافي ص 161 .

(2) حقائق الإسلام وأبوابه خصومه عباس العقاد - الأعمال الكاملة 170/5 ويراجع أيضا ما ذكره في 179/5 .

(3) تعدد الزوجات لا تعدد العشيقات د . عبد الحليم عويس ص 21 ط دار الاعتصام ط سنة 1978 .

ويقول جوستاف لوبون في كتابه حضارة العرب : [إن نظام تعدد الزوجات نظام طيب يرفع المستوى الأخلاقي في الأمم التي تقوم به ، ويزيد الأسرة ارتباطا ، ويمنح المرأة احتراما لا تراه في أوروبا ... إنه نظام من أفضل الأنظمة وأوفاهها بأدب الأمة التي تذهب إليه وتعتمده به وأوثقها للأسرة ، وسبيله أن تكون المرأة المسلمة أسعد حالا وأوجه شأنًا وأحق باحترام الرجل من أختها الغربية] (1) .

هذا ولقد امتدح الفيلسوف الألماني الشهير شوبنهاور نظام تعدد الزوجات وانتقد بشدة منع التعدد وما يترتب عليه من أضرار (2) .

وفي سنة 1948 م عقد مؤتمر للشباب في ميونخ وطالب بإباحة تعدد الزوجات وفي سنة 1949 م طالب أهالي مدينة بون (3) من السلطات الألمانية بإباحة التعدد (4) .

سادسا : الحكمة من تعدد زوجات الرسول ﷺ

تمهيد :

من الشبهات التي أثارها أعداء الإسلام حول شخصية الرسول ﷺ زعمهم أنه كان (شهوانيا) ، وسندهم على هذا الزعم هو تعدد زوجاته ﷺ .

والحقيقة إن تعدد زوجاته ﷺ كان لحكم بالغة ومقاصد سامية ولو كان رسول الله ﷺ كما يزعمون لاصطفى لنفسه ما يشاء من النواهد الأبقار الفاتنات الجميلات ، ولكنه ﷺ لم يتزوج بكرا إلا عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا ، التي لم يتزوجها إلا بعد أن تجاوز الخمسين من عمره وكان قد استهل حياته الزوجية بأم المؤمنين خديجة بنت خويلد ، تزوجها وعمره خمس وعشرون عاما وكان عمرها أربعين عاما وظل معها إلى أن ماتت وهي في الخامسة والستين .

ثم تزوج من السيدة سودة بنت زمعة وكانت امرأة عجوزا ، لاحظ لها من الجمال .

ثم تزوج بأم المؤمنين عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا وتزوج بغيرها من أمهات المؤمنين .

والملاحظ أنه ﷺ لم يعدد زوجاته إلا بعد أن تجاوز الخمسين من عمره ، وفي هذا رد

(1) حضارة العرب جوستاف لوبون ص 482 : 484 .

(2) يراجع تعدد الزوجات في الإسلام إبراهيم الجمل ص 89 .

(3) عاصمة ألمانيا الاتحادية .

(4) يراجع الإسلام والرسول في نظر منصفى الشرق والغرب تأليف أ. أحمد بن حجر ص 58 ط الدوحة قطر سنة 1978 م .

على ما زعمه أعداء الإسلام .

● ومن المعروف أن الرجل الشهواني يجري وراء الشهوات ويعيش من أجل اللذات ، ويلهث وراء المتع ؛ فيأكل كل مالذ وطاب من الطعام والشراب ، فهل كان رسول الله ﷺ كذلك ؟ .

● الحقيقة إنه عاش حياة الزهد والحشونة في العيش فكان يطوي في أحيان كثيرة من شدة الجوع ، وكان كثير الصيام والقيام .

وفي ما يلي نذكر جملة من الأحاديث الواردة في هذا الشأن :

1 - عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : نام رسول الله ﷺ على حصير فقام وقد أثر في جنبه قلنا : يا رسول الله لو اتخذنا لك وطاء ⁽¹⁾ .

فقال « مالي وللدنيا ؟ ما أنا في الدنيا إلا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها » ⁽²⁾ .

2 - وعن عروة عن عائشة رضي الله عنها أنها كانت تقول : والله يا ابن أختي إن كنا لننظر إلى الهلال ثم الهلال : ثلاثة أهلة في شهرين وما أوقد في آيات رسول الله ﷺ نار .

قلت : يا خالة فما كان يعيشكم ؟ قالت : الأسودان : التمر والماء إلا أنه قد كان لرسول الله ﷺ جيران من الأنصار وكانت لهم منائح ⁽³⁾ وكانوا يرسلون إلى رسول الله ﷺ من ألبانها فيسقيننا . متفق عليه ⁽⁴⁾ .

(1) الوطاء هو الفراش الوطيء اللين .

(2) رواه الترمذي في السنن عن ابن مسعود وقال حديث حسن صحيح ك الزهد باب 44 حديث 2377 سنن الترمذي 508/4 ورواه الإمام أحمد في مسنده 391/1 ، 441 وابن ماجه في السنن ك الزهد باب مثل الدنيا حديث 4109 ورواه الحاكم في المستدرک 310/4 وقال : صحيح على شرط البخاري ووافقه الذهبي وأورده الألباني في صحيح سنن الترمذي وقال حديث صحيح - حديث 280/2 - 1936 وفي صحيح سنن ابن ماجه برقم 3317 - 394/2 وفي سلسلة الصحيحة برقم 439 - 724/1 .

(3) جمع منيحة وهي الرغد والعطية ، وأصلها الشاة أو الناقة يعطيها صاحبها رجلا ليشرب لبنها ثم يردها إذا انقطع لبنها ثم جعلت كل منيحة عطية لسان العرب مادة م ن ح - 4274/6 .

(4) رواه الإمام البخاري في صحيحه عن عروة بن الزبير عن عائشة رضي الله عنها ك الرقائق باب حديث 6459 فتح الباري 287/11 ورواه الإمام مسلم في صحيحه عن عروة عن عائشة ك الزهد الباب الأول حديث 2972 صحيح مسلم بشرح النووي 106/18 ، 107 .

3 - وعن سعيد المقبري عن أبي هريرة ؓ أنه مر بقوم بين أيديهم شاة مصلية . فدعوه فأبى أن يأكل وقال : خرج رسول الله ﷺ من الدنيا ولم يشبع من خبز الشعير (1) رواه البخاري ومعنى مصلية بفتح الميم أي مشوية .

4 - وعن النعمان بن بشير ؓ قال : لقد رأيت نبيكم ﷺ وما يجد من الدقل ما يملأ به بطنه (2) رواه مسلم . والدقل : تمر رديء .

5 - وعن أبي هريرة ؓ قال : قال رسول الله ﷺ : « اللهم اجعل رزق آل محمد قوتا » (3) متفق عليه . ومعنى قوتا أي ما يسد الرمق .

كما أن حادثة تخيير رسول الله ﷺ لنسائه : من أعظم الأدلة على زهده ﷺ وخشونة عيشه وهو وأمهات المؤمنين اللاتي راجعنه ﷺ في النفقة وطلبن منه السعة في العيش - وذلك حين فتحت البلاد وكثرت الغنائم - فغضب الرسول ﷺ من نسائه رضي الله عنهن واعتزلهن حتى نزلت آيتا التخيير فخيرنهن ﷺ فاخترن الله ورسوله والدار الآخرة .

قال تعالى في سورة الأحزاب : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لَأَزْوَاجَكُمْ إِن كُنْتُمْ تُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَرَبِّئْتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعَنَّ وَأُسْرِحَنَّ سَرَاً جَمِيلاً ﴿١٧﴾ وَإِن كُنْتُمْ تُرِيدُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالْدارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْراً عَظِيماً ﴿١٨﴾ .

روى الإمام مسلم في صحيحه بسنده عن جابر بن عبد الله ؓ قال : دخل أبو بكر يستأذن على رسول الله ﷺ . فوجد الناس جلوسا يبابه لم يؤذن لأحد منهم . قال : فأذن لأبي بكر فدخل . ثم أقبل عمر فاستأذن فأذن له . فوجد النبي ﷺ جالسا ، حوله نساؤه واجما ساكتا . قال : فقال : لأقولن شيئا أضحك النبي ﷺ فقال : يا رسول الله ! لو رأيت بنت خارجة ! سألتني النفقة فقممت إليها فوجأت عنقها . فضحك رسول الله

(1) رواه البخاري في صحيحه ك / الأطعمة باب ما كان النبي ﷺ وأصحابه يأكلون حديث 5414 فتح الباري 460/9 .

(2) رواه الإمام مسلم في صحيحه ك / الزهد والرقائق الباب الأول حديث 2978 صحيح مسلم بشرح النووي 109/18 .

(3) رواه البخاري في صحيحه ك الرقائق باب كيف كان عيش النبي ﷺ وأصحابه وتخليهم عن الدنيا حديث 646 فتح الباري 287/11 - ورواه مسلم في صحيحه ك الزكاة باب في الكفاف والقناعة حديث 1055 .

ﷺ وقال : « هن حولي كما ترى يسألني النفقة . فقام أبو بكر ﷺ إلى عائشة يجأ عنقها . فقام عمر إلى حفصة يجأ عنقها . كلاهما يقول : تسألن رسول الله ﷺ ما ليس عنده ؟ فقلن : والله ! لا نسأل رسول الله ﷺ شيئا أبدا ليس عنده . ثم اعتزلهن شهرا أو تسعا وعشرين . ثم نزلت عليه هذه الآية : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِّأَزْوَاجِكُمْ ... حَتَّىٰ بَلَغَ لِّلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ قال فبدأ بعائشة فقال : « يا عائشة ! إني أريد أن أعرض عليك أمرا أحب أن لا تعجلي فيه حتى تستشيرني أبيك » قالت : وما هو ؟ يا رسول الله ! فتلا عليها الآية . قالت : أفيك ، يا رسول الله ! أستشير أبي ؟ بل أختار الله ورسوله والدار الآخرة . وأسألك أن لا تخبر امرأة من نسائك بالذي قلت . قال : « لا تسألني امرأة منهن إلا أخبرتها . إن الله لم يعثني معنئا ولا متعتنا . ولكن بعثني معلما ميسرا » (1) .

يقول الإمام ابن كثير في تفسيره : [هذا أمر من الله تبارك وتعالى لرسوله ﷺ بأن يخير نساءه بين أن يفارقهن فيذهب إلى غيره ممن يحصل لهن عنده الحياة الدنيا وزينتها وبين الصبر على ما عنده من ضيق الحال ، ولهن عند الله تعالى في ذلك الثواب الجزيل فاخترن رضي الله عنهن وأرضاهن : الله ورسوله والدار الآخرة فجمع الله تعالى لهن بعد ذلك بين خير الدنيا وسعادة الآخرة] (2) .

ويقول صاحب الظلال : [لقد اختار النبي ﷺ لنفسه ولأهل بيته معيشة الكفاف ، لا عجزا عن حياة المتاع ، فقد عاش حتى فتحت له الأرض ، وكثرت غنائمها ، وعم فيؤها ، واغتني من لم يكن له من قبل مال ولا زاد ! ومع هذا فقد كان الشهر يمضي ولا توقد في بيوته نار . مع جوده بالصدقات والهبات والهدايا . ولكن ذلك كان اختيارا للاستعلاء على متاع الحياة الدنيا ورغبة خالصة فيما عند الله . رغبة الذي يملك ولكنه يعف ويستعلي] (3) .

● هذا ولقد كان تعدد زوجاته ﷺ خصوصية من خصوصياته خصه الله بها دون سائر أمته ، وذلك لحكم كثيرة ومقاصد كريمة نتحدث عنها فيما يلي :

(1) رواه الإمام مسلم في صحيحه كتاب الطلاق باب بيان أن تخيير الرجل امرأته لا يكون طلاقا إلا بالنية صحيح مسلم بتحقيق محمد فؤاد عبد الباقي 1103/2 حديث 1478 .

(2) تفسير القرآن العظيم لابن كثير 480/3 .

(3) في ظلال القرآن 2853/5 .

أولا : الحكمة التعليمية

كان لأمهات المؤمنين رضي الله عنهن دور هام في نشر العلم بصفة عامة ونقل وبيان الأحكام الخاصة بالنساء على وجه الخصوص .

وإبراز جوانب هامة من جوانب عظمتها ﷺ وهو أخلاقه وسلوكه الطيب في بيته واجتهاده في العبادة من صيام تطوع وقيام وذكر ، وغير ذلك من الطاعات . وفي كتب السنة كثير من الأحاديث التي رويت عن أمهات المؤمنين وفي مقدمتهن السيدة عائشة رضي الله تعالى عنها ، التي كانت من أكثر الصحابة علما وكانوا يرجعون إليها فيما أشكل عليهم .

● روى الإمام الترمذي في سننه عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال : ما أشكل علينا أصحاب رسول الله ﷺ حديث قط فسألنا عائشة إلا وجدنا عندها منه علما (1) .

وروى الطبراني عن عروة قال : ما رأيت امرأة أعلم بطب ولا بفقه ولا بشعر من عائشة (2) .

هذا وللسيدة عائشة رضي الله عنها في كتب السنة 2210 حديثا ، في الصحيحين 316 حديثا منها 194 متفق عليه ، 54 انفرد به البخاري ، 68 انفرد به مسلم .

● ولأم المؤمنين أم سلمة رضي الله عنها 378 حديثا ، في الصحيحين منها 29 حديثا واتفق البخاري ومسلم على ثلاثة عشر حديثا منها وانفرد البخاري بثلاثة ومسلم بثلاثة عشر .

● ولأم المؤمنين حفصة رضي الله عنها 60 حديثا ، في مسند بقي بن مخلد ولها في الصحيحين 10 أحاديث اتفقا على أربعة وانفرد مسلم بستة .

● ولأم المؤمنين أم حبيبة رملة بنت أبي سفيان رضي الله عنها 65 حديثا واتفق الشيخان على حديثين وانفرد مسلم بستة أحاديث .

● ولأم المؤمنين زينب بنت جحش رضي الله عنها أحد عشر حديثا منها حديثان متفق عليهما في الصحيحين .

● ولأم المؤمنين صفية رضي الله عنها عشرة أحاديث منها حديث واحد اتفقا عليه في الصحيحين .

(1) سنن الترمذي ك المناقب باب فضل عائشة 705/5 وقال الترمذي حديث حسن صحيح .

(2) قال الهيثمي رواه الطبراني وإسناده حسن مجمع الزوائد 242/9 .

- ولأم المؤمنين ميمونة رضي الله عنها ثلاثة عشر حديثاً منها سبعة أحاديث في الصحيحين .
- ولأم المؤمنين جويرية بنت الحارث رضي الله عنها سبعة أحاديث منها في الصحيحين حديث واحد عند البخاري .
- ولأم المؤمنين سودة بنت زمعة رضي الله عنها خمسة أحاديث منها عند البخاري حديث وعند مسلم حديثاً (1) .

وما سبق تتجلى لنا الحكمة التعليمية من تعدد زوجاته صلى الله عليه وآله اللاتي كان لهن دور بارز في نشر السنة النبوية وبيانها للناس .

● قال صاحب سبل الهدى والرشاد : وقال بعض العلماء : السر في إباحة أكثر من أربع أن الله تعالى علمه بواطن الشريعة وظواهرها وما يستحيي من ذكرها وما لا يستحيي ، فكان رسول الله صلى الله عليه وآله أشد الناس حياء ؛ فجعل الله تعالى له نسوة لينقلن من الشرع ما يرينه من أفعاله ويسمعنه من أقواله التي كان يستحيي من الإفصاح عنها بحضرة الرجال ؛ لتكمل الشريعة فكثرة عدد النساء ؛ لينقلن عنه من الأفعال ما يستحيي هو من التلطف به ، من منامه وخلوته وغير ذلك من الأمور التي تكون دالة على نبوته وجده واجتهاده في العبادة ومن أمور يشهد كل ذي لب بأنها لا تكون إلا لنبى وما كان يشاهدها غيرهن فحصل بذلك خير عظيم (2) .

● روى الإمام البخاري في صحيحه عن عائشة رضي الله عنها أن امرأة سألت النبي صلى الله عليه وآله عن غسلها من الحيض فأمرها كيف تغتسل قال : « خذي فرصة من مسك فتطهري بها قالت كيف أتطهر؟ قال تطهري بها قالت كيف ؟ قال سبحان الله تطهري تقول عائشة رضي الله عنها - فاجتذبتها إليّ فقلت تتبعي بها أثر الدم » (3) .

وروى الإمام البخاري أيضاً في صحيحه عن أم سلمة رضي الله عنها قالت : جاءت أم سليم إلى رسول الله صلى الله عليه وآله فقالت : يا رسول الله إن الله لا يستحيي من الحق فهل على المرأة من غسل إذا احتلمت ؟ قال النبي صلى الله عليه وآله إذا رأت الماء ، فغطت أم سلمة - تعني وجهها -

(1) يراجع سير أعلام النبلاء للذهبي 2/139 : 238 .

(2) سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد للإمام محمد بن يوسف الصالحى الشامي 10/438 .

(3) صحيح البخاري كتاب الحيض باب ذلك المرأة نفسها إذا تطهرت من الحيض وكيف تغتسل ... حديث

وقالت : يا رسول أو تحتلم المرأة ؟ قال نعم تربت يمينك فميم يشبهها ولدها ؟ » (1) .

ثانيا : الحكمة التشريعية

هي حكمة جليلة من أحكام تعدد زوجات الرسول ﷺ ، وتتجلى لنا في زواجه ﷺ من السيدة زينب بنت جحش رَضِيَ اللهُ عَنْهَا لإبطال ما درج عليه الناس من عادة التبني وما يتصل بها من تحريم زوجة المتبنى على المتبنى .

تلك العادة التي كانت متأصلة في العرب قبل الإسلام حيث كان الرجل يتبنى ولد غيره فيقول له - أنت ابني أرثك وترثني - وتجري على المتبنى ما يجري على الابن الحقيقي من أحوال إرث ونكاح وغير ذلك .

ومن البدهي أن العرف متى استشرى في المجتمع فإن إبطاله أمر عسير وشاق إلا على ذوي الهمم العالية والعزائم القوية والعقيدة الراسخة ولقد شاءت إرادة الله تعالى أن يتحمل رسول الله ﷺ مهمة إبطال عادة التبني وإزالة آثاره فكان زواجه من السيدة زينب بنت جحش بعد أن طلقها زيد الذي كان رسول الله ﷺ قد تبناه قبل أن ينزل الوحي بتحريم التبني . وفي هذا الدرس العملي والبيان الفعلي أعظم الأثر في إبطال التبني .

ثالثا : الحكمة الاجتماعية

المجتمع المسلم مجتمع متماسك قوي تجمعه المودة والرحمة والألفة والمحبة والتعاون والتضامن قال تعالى : ﴿ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (2) .

ولقد كان رسول الله ﷺ حريصا كل الحرص على توثيق الصلات ودعمها وتأليف القلوب بأساليب شتى من بينها المصاهرة التي تعد من أحد أسباب الألفة والمودة (3) .

(1) صحيح البخاري كتاب العلم باب الحياء في العلم حديث 130 فتح الباري 1/276 .

(2) سورة الأنفال : 63 .

(3) يقول الماوردي : [المصاهرة من أسباب الألفة لأنها استحداث مواصلة وتمازج مناسبة تصدر عن رغبة واختيار ، انعقد على خير وإيثار ... قال تعالى : ﴿ وَمِنَ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَحَمَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ الروم 21 . ولم تزل العرب تحتذب البعداء وتتألف الأعداء بالمصاهرة حتى يرجع المنافر مؤانسا ، ويصير العدو مواليا [أدب الدنيا والدين ص 191 .

● ولقد تزوج رسول الله ﷺ من السيدة عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا بنت أبي بكر الصديق رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وكان في هذا الزواج زيادة في توثيق الصلة وتعميق المحبة بين النبي ﷺ وبين أبي بكر الصديق رَضِيَ اللهُ عَنْهُ (1) .

● كما كان زواج الرسول ﷺ من حفصة بنت عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُما تكريما له وبراه به وتوثيقا وتعميقا للصلة (2) .

● هذا ولقد تزوج رسول الله ﷺ بالسيدة سودة بنت زمعة وكانت من المؤمنات المهاجرات : أسلمت وهاجرت مع زوجها - السكران بن عمرو الأنصاري - إلى الحبشة .

ومات ﷺ بعد الرجوع من الهجرة الثانية . فصارت وحيدة فريدة لا ناصر لها ولا معين ، ولو عادت إلى أهلها بعد وفاة زوجها لعذبوها عذابا شديدا ليفتنوها عن دينها . فبادر رسول الله ﷺ إلى نكاحها رحمة بها ورأفة بشأنها وحماية لها وتكريما لصدق إيمانها وإخلاصها وتضحيتها ؟ .

● ولقد كان لزواج الرسول ﷺ منها أثر طيب في نفوس قومها ، ولم تكن سودة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا ذات جمال بل كانت عجوزا ، وفي هذا دحض لمفتريات أعداء الإسلام الذين يزعمون أن زواج الرسول من أمهات المؤمنين كان من أجل إشباع الشهوات ولو كان كذلك فكيف يتزوج الرسول ﷺ بأم المؤمنين سودة وهي ليست ذات جمال بل إنها عجوز (3) .

(1) روى البخاري ومسلم عن عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قالت : قال رسول الله ﷺ : رأيتك في المنام ثلاث ليال جاءني بك الملك في سرقة من حرير فيقول هذه امرأتك فأكشف عن وجهها فإذا هي أنت فأقول إن يك من عند الله يمضه [رواه البخاري في صحيحه ك مناقب الأنصار باب تزويج النبي ﷺ عائشة 223/7 ومسلم كتاب فضائل الصحابة باب فضل عائشة صحيح مسلم بشرح النووي 202/15 .

(2) حديث زواج الرسول ﷺ بحفصة بعد أن عرضها عمر عليه : رواه الإمام البخاري في صحيحه عن عبد الله بن عمر كتاب النكاح باب عرض الإنسان ابنته أو أخته على أهل الخير فتح الباري 81/9 .

(3) يراجع زوجات النبي ﷺ الطاهرات وحكمة تعددهن - محمد محمود الصواف ص 25 : 27 . ط دار الاعتصام ط 4 بدون تاريخ .

وتفسير آيات الأحكام للصابوني 330/2 ، وتاريخ الطبري 222/2 .

● كما تزوج ﷺ بأُم المؤمنين أم سلمة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا .

وهي من المؤمنات المهاجرات ، آمنت وهاجرت مع زوجها (عبد الله بن عبد الأسد)
(أبو سلمة) ، واستشهد ﷺ في غزوة أحد .

فبقيت هي وأيتامها الأربعة فتزوجها رسول الله ﷺ شفقة بها وبأولادها الأيتام
وتكريما لها رَضِيَ اللهُ عَنْهَا .

● روى الإمام مسلم في صحيحه عن أم سلمة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ما من عبد تصيبه مصيبة فيقول : إنا لله وإنا إليه راجعون اللهم أجرني في مصيبتى واخلف لي خيرا منها » إلا أجره الله في مصيبته وأخلف له خيرا منها قالت : فلما توفي أبو سلمة قلت كما أمرني رسول الله ﷺ فأخلف الله لي خيرا منه ، رسول الله ﷺ (1) .

● وروى ابن سعد في الطبقات بسنده عن أم سلمة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا أن أبا سلمة دعا لها قبل موته وقال : اللهم ارزق أم سلمة بعدي رجلا خيرا مني لا يحزنها ولا يؤذيها ، فلما مات أبو سلمة قلت من هذا الذي هو خير من أبي سلمة ؟ ... وذكر ابن سعد خطبة الرسول ﷺ لها (2) .

● وقال ابن عبد البر في الاستيعاب [إن أبا سلمة قال عند وفاته : اللهم اخلفني في أهلي بخير فأخلفه رسول الله ﷺ على زوجته أم سلمة فصارت أما للمؤمنين وعلى بنيه سلمة وعمرو وزينب ودره] (3) .

● كما تزوج رسول الله ﷺ بأُم حبيبة ، رملة بنت أبي سفيان وهي من المؤمنات المهاجرات .

أسلمت وهاجرت مع زوجها (عبيد الله بن جحش) إلى الحبشة ولكنه فُتِن في دينه وارتد عن الإسلام ودخل في النصرانية .

فحاولت أم حبيبة أن تعيده إلى رشده لكنه أعرض عن الحق وآثر الكفر على الإيمان

(1) صحيح مسلم بشرح النووي / كتاب الجنائز باب ما يقال عند المصيبة 221/6 .

(2) الطبقات الكبرى لابن سعد 88/8 .

(3) الاستيعاب لابن عبد البر ترجمة أبي سلمة عبد الله بن عبد الأسد المخزومي .

وَخَيْرَهَا بَيْنَ الرِّدَّةِ وَبَيْنَ الطَّلَاقِ فَاخْتَارَتِ الطَّلَاقَ فَطَلَّقَهَا ، وصارت وحيدة فريدة حائرة لا تدري ماذا تصنع ؟ أعود إلى قومها فيطشوا بها ويشتموا فيها ؟ أم تظل في ديار الغربية والمحنة والفتنة ؟ . ولقد فوضت أمرها إلى ربها فهو سبحانه نعم المولى ونعم النصير ﴿ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَلِّغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴾ (1) .

وعلم الرسول ﷺ بحالها فرق لها وأشفق عليها وأراد أن يجزيها على صبرها وثباتها فأرسل إلى النجاشي ملك الحبشة وَوَكَّلَهُ فِي أَمْرِ زَوْجِهَا فَأَصْدَقَهَا النُّجَاشِيُّ وَجَهَّزَهَا مِنْ عِنْدِهِ وَأَرْسَلَهَا مَعَ شَرْحِبِيلِ بْنِ حَسَنَةَ فِي السَّنَةِ السَّابِعَةِ مِنَ الْهَجْرَةِ (2) .

ولقد كان لزواج رسول الله ﷺ بأم حبيبة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا وقع طيب وأثر حسن في نفس أبي سفيان الذي قال حين بلغه خبر هذا الزواج المبارك : هذا الفحل لا يجدهع أنفه (3) - أي إنه كفاء كريم لا يرد .

● وتزوج رسول الله ﷺ من السيدة زينب بنت خزيمة التي استشهد زوجها (عبيدة ابن الحارث بن عبد المطلب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) في غزوة بدر .

وكانت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا تقوم بإسعاف الجرحى وتضميد جراحهم ولم يشغلها استشهاد زوجها عن القيام بواجبها حتى كتب الله النصر للمؤمنين في غزوة بدر ، وكان عمرها رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا حين تزوجها الرسول ستين عاما .

ولم يطل بها المقام في بيت النبوة حيث توفيت بعد زواجها من الرسول ﷺ بزمن يسير (4) .

رابعا : الحكمة السياسية

سعى رسول الله ﷺ إلى تأليف قلوب القبائل العربية لكسر الحواجز وإزالة الضغائن وكسب العواطف وجمع الشمل وفتح آفاق جديدة للدعوة الإسلامية .

(1) سورة الطلاق : 3 .

(2) المواهب اللدنية 205/1 وسير أعلام النبلاء 221/2 إنسان العيون 222/3 والطبقات 97/8 ، روى النسائي في السنن عن عروة بن الزبير عن أم حبيبة أن رسول الله ﷺ تزوج أم حبيبة وهي بأرض الحبشة زوجها النجاشي وأمهرها أربعة آلاف وجهازها من عنده وبعث معها شرحبيل بن حسنة ولم يبعث إليها رسول الله ﷺ بشيء رواه النسائي وإسناده صحيح ك النكاح باب القسط في الصدقة 119/6 .

(3) الطبقات 99/8 - تاريخ الطبري 90/3 - السمط الثمين 99 - الاستيعاب 1845/4 والإصابة 85/8 .

(4) سيرة ابن هشام 297/4 وتاريخ الطبري 179/3 والسمط الثمين 112 .

ولقد تجلت هذه الحكمة الرشيدة والسياسة الحكيمة في زواج رسول الله ﷺ من جويرية بنت الحارث سيد بني المصطلق وكانت قد وقعت في سهم ثابت بن قيس بن شماس أو ابن عم له فكاتبته (1) على نفسها ، وذهبت إلى رسول الله ﷺ تسأله في كتابتها فدخلت عليه وقالت له يا رسول الله أنا جويرية بنت الحارث وإنه كان من أمري ما لا يخفى عليك .

وإني وقعت في سهم ثابت بن قيس بن شماس وإني كاتبك على نفسي فجئتك أسألك في كتابتي ، فقال لها ﷺ فهل لك إلى ما هو خير من ذلك ؟ قالت وما هو يا رسول ؟ قال أؤدي عنك كتابتك وأتزوجك قالت : نعم يا رسول الله فقال ﷺ قد فعلت ، فتسامع الناس أن رسول الله ﷺ قد تزوج جويرية فقالوا أصهار رسول الله ﷺ يُشترقون ؟ فأعتقوا ما في أيديهم .

تقول السيدة عائشة : فما رأينا امرأة كانت أعظم بركة على قومها منها أعتقت بسببها مائة أهل بيت من بني المصطلق (2) .

● ومن ذلك أيضا زواج رسول الله ﷺ من صفية بنت حيي بن أخطب وكانت قد وقعت في سهم بعض المسلمين بعد غزوة خيبر فقال بعض الصحابة :

إنها لا تصلح إلا لرسول الله فعرضوا الأمر على الرسول الكريم فدعاها وخيبرها بين أمرين : إما أن يعتقها ويتزوجها فتكون زوجة له ، وإما أن يطلق سراحها فتلحق بأهلها فاختارت أن يعتقها وتكون زوجة له ، وذلك لما رآته من جلالته قدره (3) وعظمته وحسن معاملته وقد أكرمها المولى ﷺ بالإسلام ، « ووصل رسول الله ﷺ بهذا الزواج قومها الذين دأبوا على مخاصمته طوال حياتهم » (4) .

لما سبق يتضح لنا ما في زواج رسول الله ﷺ من حكم بالغة وأحكام بليغة .

(1) والمكاتبه أن يشترى الرقيق نفسه من مولاه ليؤدي ثمنه إليه من كسبه .

(2) وردت هذه القصة في مسند الإمام أحمد عن عائشة 277/6 وسنن أبي داود كتاب العتق باب في بيع المكاتب إذا فسخت الكتابة 22/4 وسندها صحيح .

(3) وردت قصة زواج الرسول بها في صحيح البخاري عن أنس ؓ حديث 947 كتاب الخوف باب التبرير والغلس بالصحيح فتح الباري 507/2 ، 508 وفي صحيح مسلم كتاب النكاح عن أنس ؓ باب فضل إعتاقه أمته ثم يتزوجها 218/9 : 223 .

(4) زوجات النبي ﷺ الطاهرات وحكمة تعددهن - محمد محمود الصواف ص 76 ط دار الاعتصام سنة 1979 م .

المبحث الثالث

ما نزل في سورة التحريم في شأن أمهات المؤمنين

في هذا المبحث :

- أولا : الآيات الواردة في هذا الشأن .
- ثانيا : تحقيق القول في سبب النزول .
- ثالثا : التفسير التحليلي للآيات .
- رابعا : المعنى الإجمالي .
- خامسا : فوائد حول الآيات .

أولا : الآيات الواردة في هذا الشأن

قال تعالى في صدر سورة التحريم : ﴿ يَأْتِيهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبَغَّى مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَحِيمٌ ① قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ② وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَفَ بَعْضُهُمْ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَأَهَا بِهِ ③ قَالَتْ مَنْ أَبْأَكَ هَذَا قَالَ نَبَأَنِي الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ④ إِنْ نُوْبًا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَعَتْ قُلُوبُكُمْ وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَلِّحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةَ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ ⑤ عَسَىٰ رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبَدِّلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ قَنَاطٍ تَنَبَّتٍ عِيدَاتٍ سَيِّحَاتٍ تَنَبَّتٍ وَأَبْكَارًا ⑥ .

ثانيا : سبب النزول

هذه الآيات الكريمة التي استهلكت بها سورة التحريم نزلت تعقيبا على ما حدث في بيت النبوة ، حيث حرم رسول الله ﷺ على نفسه شيئا أحله الله له وأسرى بذلك إلى إحدى زوجاته وهي حفصة فنبأت به عائشة فنزل القرآن الكريم بآيات بينات فيها عتاب لرسول الله ﷺ وتوجيه لأمهات المؤمنين رضي الله عنهن .

وفيما يلي نذكر أسباب نزول هذه الآيات

كان يمكث عند زينب ابنة جحش ويشرب عندها عسلا فتواصيت أنا وحفصة أَنَّ أَيَّتَنَا دخل عليها النبي ﷺ فلتقل إنني لأجد منك ريح مغاير (1) فدخل على إحداهما فقالت له ذلك فقال « لا بأس شربت عسلا عند زينب ابنة جحش ولن أعود فنزلت ﴿ يَأْتِيَهَا النَّيُّ لِمَ تُحْرِمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ ﴾ إلى ﴿ إِنْ نُنُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَعَتْ قُلُوبُكُمْ ﴾ لعائشة وحفصة ﴿ وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا ﴾ لقوله : بل شربت عسلا » (2) .

2 - وأخرج النسائي في السنن والحاكم في المستدرک بسنديهما عن أنس بن مالك رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ كانت له أمة يطؤها ، فلم تزل به عائشة وحفصة حتى جعلها على نفسه حراما فأنزل الله تعالى ﴿ يَأْتِيَهَا النَّيُّ لِمَ تُحْرِمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْنِغِي مَرْضَاتِ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَحِيمٌ ... ﴾ الآيات (3) .

3 - وروى البزار في مسنده والطبراني في تفسير قوله تعالى : ﴿ يَأْتِيَهَا النَّيُّ لِمَ تُحْرِمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ ﴾ عن ابن عباس قال : نزلت هذه الآية في سريره (4) .

(1) مغاير : صمغ يسيل من شجر (العرظ) طعمه حلو غير أن رائحته ليست بطيبة .

يراجع لسان العرب 3276/5 - مادة (غ ف ر) .

(2) رواه الإمام البخاري في صحيحه واللفظ له ، كتاب الطلاق باب ﴿ لِمَ تُحْرِمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ ﴾ حديث 5267 ، فتح الباري 287/9 وفي رواية أخرى له (....) ولكني كنت أشرب عسلا عند زينب ابنة جحش ، وقد حلفت لا تخبري بذلك أحدا (صحيح البخاري - ك / التفسير باب / سورة التحريم حديث 4912 الفتح 524/8 والحديث رواه الإمام مسلم في صحيحه كتاب الطلاق باب وجوب الكفارة على من حرم امرأته ولم ينو الطلاق 73/10 ورواه النسائي في السنن كتاب الطلاق باب تأويل قوله تعالى ﴿ يَأْتِيَهَا النَّيُّ لِمَ تُحْرِمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ ﴾ 151/6 .

(3) رواه النسائي في السنن كتاب الطلاق باب ﴿ يَأْتِيَهَا النَّيُّ لِمَ تُحْرِمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ ﴾ 151/6 . وأخرجه أيضا في السنن الكبرى / في عشرة النساء باب الغيرة ورجاله ثقات حديث 3959 وأخرجه أيضا في تفسيره حديث 627 - 449/2 (تفسير النسائي ط مكتبة السنة 1410 هـ ط أولى) وقال الحافظ ابن حجر في الفتح بعد عزوه إلى النسائي وسنده صحيح وله شاهد مرسل أخرجه الطبري بسند صحيح عن زيد بن أسلم التابعي الشهير قال أصاب رسول الله ﷺ أم إبراهيم ولده في بيت بعض نسائه فقالت يارسول الله في بيتي وعلي فراشي فنزلت ﴿ يَأْتِيَهَا النَّيُّ لِمَ تُحْرِمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ ﴾ .

يراجع جامع البيان للطبري 100/28 والفتح 288/9 .

ورواه الحاكم في المستدرک كتاب التفسير باب تفسير سورة التحريم وقال هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجوه وأقره الذهبي 493/2 .

(4) رواه البزار بإسنادين والطبراني ورجال البزار رجال الصحيح مجمع الزوائد كتاب التفسير باب سورة

4 - وذكر الإمام ابن كثير في تفسيره رواية أوردها الهيثم بن كليب في مسنده بسنده عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لحفصة لا تخبري أحدا أن أم إبراهيم عليّ حرام فلم يقربها حتى أخبرت عائشة فأنزل الله تعالى : ﴿ قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ ﴾ .

وقال ابن كثير بعد إيراد هذه الرواية التي عزاها إلى الهيثم بن كليب في مسنده [وهذا إسناد صحيح ولم يخرج أحد من أصحاب الكتب الستة وقد اختاره الحافظ الضياء المقدسي في كتابه المستخرج (1) .

وهذه الرواية ذكرها السيوطي في أسباب النزول وعزاها إلى الضياء في المختارة (2) .

قال ابن حجر ووقع عند سعيد بن منصور بإسناد صحيح إلى مسروق قال : حلف رسول الله صلى الله عليه وسلم لحفصة لا يقرب أمته وقال هي علي حرام ، فنزلت الكفارة ليمينه وأمر أن لا يحرم ما أحل الله ...

وأخرج الضياء في المختارة عن أيوب عن نافع عن ابن عمر عن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لحفصة لا تخبري أحدا أن أم إبراهيم حرام عليّ قال فلم يقربها حتى أخبرت عائشة فأنزل الله ﴿ قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ ﴾ .

وأخرج الطبراني في عشرة النساء وابن مردويه من طريق أبي بكر بن عبد الرحمن عن أبي سلمة عن أبي هريرة قال : دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم بمارية في بيت حفصة ، فجاءت فوجدتها معه فقالت يا رسول الله في بيتي تفعل هذا معي دون نسائك ؟ فذكر نحوه .

وللطبراني من طريق الضحاك عن ابن عباس قال دخلت حفصة بيتها فوجدته صلى الله عليه وسلم مع مارية فعاتبته ، فذكر نحوه . وهذه طرق يقوي بعضها بعضا (3) .

مما سبق يتضح لنا :

● أن هناك روايات متعددة في أسباب نزول صدر سورة التحريم ورد في بعضها أن

(1) تفسير القرآن العظيم لابن كثير 4/386 . ويراجع الأحاديث المختارة أو المستخرج من الأحاديث المختارة مما لم يخرج البخاري ومسلم في صحيحهما - تأليف ضياء الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الواحد بن أحمد بن عبد الرحمن الحنبلي المقدسي (567 - 643 هـ) حديث رقم 189-299/1 ، 300 ط مكتبة النهضة الحديثة مكة المكرمة ط أولى 1410 هـ - والحديث إسناده صحيح .

(3) يراجع الفتح 8/525 .

(2) أسباب النزول للسيوطي بهامش الجلالين ص 784 .

الآيات نزلت في قصة تحريم الرسول ﷺ شرب العسل على نفسه وبعضها في قصة تحريمه أم إبراهيم « مارية القبطية » رَضِيَ اللهُ عَنْهَا على نفسه .

● يقول الإمام الشوكاني بعد أن أورد قصة تحريم العسل وقصة تحريم السيدة مارية القبطية :

[فهذان السببان صحيحان لنزول الآية ، والجمع ممكن بوقوع القضيتين قصة العسل وقصة مارية وأن القرآن نزل فيهما جميعا وفي كل واحد منهما أنه أُسْرََّ إلى بعض أزواجه ...] (1) .

ويقول الإمام ابن حجر في الفتح بعد أن أورد الروايات التي وردت في تحريم مارية : [وهذه طرق يقوي بعضها بعضا فيحتمل أن تكون الآية نزلت في السببين معا] (2) .

[وقصارى ما يمكن أن يقال يحتمل أن يكون النبي ﷺ قد شرب عسلا عند زينب ، وجاء إلى حفصة فقالت له ما قلت فحرم العسل واتفق له ﷺ قبيل ذلك أو بعينه أن وطئ جاريته مارية في بيتها في يومها على فراشها فحرم مارية وقال لحفصة ما قال تطيبيا لخاطرها واستكتمها ذلك فكان منها ما كان ، ونزلت الآية بعد القضيتين فاقترصر بعض الرواة على إحداهما ، والبعض الآخر على نقل الأخرى وقال كل : فأنزل الله تعالى ﴿يَتَأْتِيهَا آتِيَةٌ...﴾ إلى آخر الآيات .

وهو كلام صادق إذ ليس فيه دعوى كل حصر علة النزول فيما نقله فإن صح هذا هان أمر الاختلاف وإلا فاطلب لك غيره [(3) والله تعالى أعلم .

● وقال الإمام الطبري في جامع البيان بعد أن ذكر الروايات الواردة في تحريم العسل ، وفي تحريم مارية [والصواب أن يقال كان الذي حرمه النبي ﷺ على نفسه شيئا كان الله قد أحله له ، وجائز أن يكون ذلك جاريته ، وجائز أن يكون ذلك شرابا من الأشربة ، وجائز أن يكون غير ذلك ، غير أنه أي ذلك كان فإنه كان تحريم شيء كان له حلال وعاتبه الله على تحريمه على نفسه ما كان له قد أحله ، وَيَبِينُ له تحلة يمينه] (4) .

● وقال الشيخ الصابوني في كتابه قيس من نور القرآن الكريم بعد أن ذكر الروايات الواردة في تحريم مارية ، والواردة في تحريم شرب العسل [... وهذه خلاصة للرواية

(2) يراجع الفتح 8/525 .

(1) فتح القدير للشوكاني 5/252 .

(4) جامع البيان 102/12 ط دار المعرفة .

(3) روح المعاني 28/151 .

الثانية - ويقصد رواية تحريم شرب العسل - وهي مروية في الصحيحين بأوسع من هذا وهي أصح إسنادا من الرواية الأولى . - يقصد رواية تحريم مارية - ولكن كونها سببا للنزول مستبعد والذي يرجح الرواية الأولى وأنها سبب للنزول . أمور نجملها فيما يلي :

الأول : أن مثل تحريم بعض النساء مما يتغني به مرضاة بعض الأزواج ، لا شرب العسل أو عدمه ، الثاني : أن الاهتمام بنزول سورة فيها الوعيد والتهديد لأزواج رسول الله ﷺ بالطلاق واستبدال نساء خير منهن بهن ، وأن الله وملائكته والمؤمنين سند وعون لرسول الله يدل على وجود تنافس بينهن وغيره ، وذلك إنما يكون في تحريم بعض النساء عليه لا في شرب العسل ونحوه .

الثالث : أن هذه الحادثة من إفشاء السر ، كادت تؤدي إلى طلاق زوجات الرسول ﷺ حتى اعتزلهن شهرا ، نظرا لدقة الموضوع وشدة حساسيته مما أغضب الرسول ﷺ حتى حلف عليهن ، وذلك إنما يكون في أمر مهم ، مثل تحريمه لبعض النساء ، وحلفه ألا يقرب « مارية القبطية » إرضاء لأزواجه واستكتم البعض منهن في هذا الأمر ، فأفشت السر فهذا ما يرجح الرواية الأولى (1) .

أقول : والراجع في سبب نزول هذه الآيات هو ما ورد عن تحريم مارية رضي الله عنها وذلك لموافقة هذه القصة لسياق الآيات الكريمة ، وأما قضية تحريم العسل ، وقول بعض السلف نزلت فيه فالمراد منه أن الآيات تشمل قضية بعمومها على ما عُرف من عادة السلف في قولهم نزلت في كذا (2) .

ثالثا : التفسير التحليلي

عتاب لطيف من المولى ﷺ إلى حبيبه ومصطفاه سيدنا محمد ﷺ

قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبَيَّنَىٰ مَرَضَاتِ أَرْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ .

في هذه الآية الكريمة التي استهلكت بها سورة التحريم : يُوجَّه المولى سبحانه وتعالى

(1) قيس من نور القرآن للصابوني 158/14 ط دار القلم دمشق .

(2) يقول الإمام الزركشي في البرهان ، [وما يذكره المفسرون من أسباب متعددة لنزول الآية قد يكون من هذا الباب لا سيما وقد عرف من عادة الصحابة والتابعين أن أحدهم إذا قال نزلت هذه الآية في كذا فإنه يريد بذلك أن هذه الآية تتضمن هذا الحكم لا أن هذا كان السبب في نزولها] . البرهان في علوم القرآن 32/1 .

خطابه وعتابه إلى رسوله الكريم ﷺ فيقول له : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ ﴾ وفي النداء بهذه الصيغة تكريم له وإشعار له بعلو منزلته وسمو مهمته وتنبية له إلى عظم ذلك الأمر الواقع بعد النداء .

يقول الطبرسي : [ناداه سبحانه بهذا النداء تشريفاً له وتعليماً لعباده كيف يخاطبونه في أثناء محاوراتهم ويذكرونه في خلال كلامهم] (1) .

﴿ لِمَ نَحْرِمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ ﴾ لم تمتنع عن هذا الحلال الطيب (2) ، والمراد به هنا امتناعه ﷺ عن شرب العسل كما ورد في الصحيحين ، أو امتناعه عن إتيان السيدة مارية رضيها الله عنها كما ورد في روايات أخرى صحيحة ، والثاني هو الراجح لموافقته لسياق الآيات الكريمة .

﴿ تَبَنَّى مَرْصَاتَ أَزْوَاجِكَ ﴾ أي تفعل ذلك إرضاء لهن ! وهن أحق بالسعي إلى إرضائك ، فذلك واجب عليهن .

قال الألوسي : [وإنما عاتبه الله تعالى رفقا به وتنويها بقدره وإجلالا لمنصبه عليه الصلاة والسلام أن يراعي مرضات أزواجه بما يشق عليه ، جريا على ما ألف من لطف الله تعالى به] (3) .

﴿ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ .

● قال الألوسي : [فيه تعظيم شأنه ﷺ بأن تزك الأولى بالنسبة إلى مقامه السامي الكريم يُعَدُّ كالذنب وإن لم يكن في نفسه كذلك ، وأن عتابه ﷺ ليس إلا لمزيد الاعتناء به] (4) .

● وقال القرطبي [﴿ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ غفور لما أوجب المعاتبة ، رحيم يرفع

(1) مجمع البيان 472/5 .

(2) قوله تعالى ﴿ لِمَ نَحْرِمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ ﴾ .

المقصود بالتحريم هنا هو الامتناع عن الحلال ، وحرمان النفس منه مع اعتقاد حله وهذا لاحرمة فيه .

أما التحريم المنهي عنه فهو اعتقاد تحريم ما أحل الله وهو كاعتقاد تحليل ما حرم الله فهذا حرام وهو كفر بواح . قال تعالى : ﴿ وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِنَقُتُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يَفْلِحُونَ ﴾ سورة النحل - 116 .

(4) المرجع السابق 147/28 .

(3) روح المعاني للألوسي 148/28 .

المؤاخذاة ، وقد قيل إن ذلك كان ذنبا من الصغائر ، والصحيح أنه معاتبه على ترك الأولى وأنه لم تكن له صغيرة ولا كبيرة [(1)] .

﴿ قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ ﴾ .

من مغفرته سبحانه ورحمته بعباده أن جعل لهم تحلة لأيمانهم ، وفي هذا إشارة إلى أنه قرن امتناعه باليمين ، كما ورد في الروايات التي ذكرناها آنفا .

﴿ وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ ﴾ أي يتولى أمركم

﴿ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾ يعلم ما فيه المصلحة لعباده في العاجل والآجل ، ولا يخفى عليه شيء من أحوالهم ، وهو سبحانه الْحَكِيمُ لا يأمركم ولا ينهاكم إلا بما تقتضيه الحكمة .

السر المذاع

﴿ وَإِذْ أَسْرَ النَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَفَ بَعْضُهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ ﴾ .

صلة هذه الآية بما سبقها واضحة ظاهرة ، فالرسول حَرَّمَ على نفسه شرب العسل أو إتيان مارية - على القول الراجح - وَأَسْرَ (2) إلى حفصة بذلك .

﴿ فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ ﴾ نقلت هذا الخبر إلى السيدة عائشة وكان على حفصة أن تحفظ هذا السر فلا تديعه ﴿ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ ﴾ أطلعه على ما فعلته حفصة من إذاعة السر لعائشة .

﴿ عَرَفَ بَعْضُهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ ﴾ عرفها بعض ما أذاعته معاتباً وأعرض عن بعضه تكريماً وتسامحاً ، ومن عادة الكرام التغافل عن الهفوات ، والاعتصاب في اللوم والعتاب وإذا كان هذا هو حال الكرام فما بالك بحال أكرم الكرماء الْخَبِيرُ .

﴿ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ ﴾ .

العليم بجميع الأقوال ، والأفعال ، والأحوال الذي وسع كل شيء علماً ، الخبير

(1) الجامع لأحكام القرآن 184/18 .

(2) والإسرار هو إفشاء الحديث إلى الغير مع الإيصاء بكتمانه .

بيواطن الأمر فضلا عن ظواهرها .

ترغيب ... وترهيب

﴿ إِنْ نُؤْبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمْ وَإِنْ تَظَهَّرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَلِّحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَكِ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ ﴾ .

الخطاب هنا موجه إلى عائشة وحفصة رضي الله عنهما ، والاتفات هنا من الغيبة إلى الخطاب مبالغة في اللوم والعتاب لأن المبالغ في العتاب يجعل المعاتب أولا بعيدا عن ساحة الحضور ثم إذا اشتد غضبه أقبل عليه مصرحا له بما يريد ⁽¹⁾ والمعنى ﴿ إِنْ نُؤْبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمْ ﴾ أي فقد وقع منكما ما يستوجب التوبة من الميل إلى خلاف ما يحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وصغت أي زاغت ومالت عن الحق وعلى هذا فجملة ﴿ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمْ ﴾ تعليل لجواب الشرط ودليل عليه والتقدير إن تتوبا إلى الله فلتوتبكما موجب وسبب لأنه قد صدر عنكما ما يقتضيها وهو ميل قلوبكما إلى خلاف ما يحبه صلى الله عليه وسلم ، أما عن جواب الشرط فهو محذوف وتقديره ﴿ إِنْ نُؤْبَا إِلَى اللَّهِ ﴾ يتب عليكما ، أو يكن خيرا لكما ، أو فهو خير لكما أي التوبة ، وقال ﴿ قُلُوبُكُمْ ﴾ ولم يقل قلبكما - على التثنية - طلبا لحفة اللفظ عند إضافته إلى ضمير المثني كراهية لاجتماع المثنيين ، فإن صيغة التثنية قليلة لقلة دورانها في الكلام فلما أمن اللبس ساغ التعبير بصيغة الجمع عن التثنية ⁽²⁾ .

﴿ وَإِنْ تَظَهَّرَا عَلَيْهِ ﴾ وإن تجتمعا على خلاف ما يحبه بسبب الغيرة المفرطة .
﴿ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ ﴾ يتولاه ويرعاه سبحانه وتعالى ﴿ وَجِبْرِيلُ وَصَلِّحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَكِ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ ﴾ ﴿ وَجِبْرِيلُ ﴾ أمين الوحي صلى الله عليه وسلم ﴿ وَصَلِّحُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ أهل الإيمان والصلاح .

وفي حاشية الشهاب : [(والمراد بالصالح الجنس) الشامل للقليل والكثير والمراد به الجمع هنا كالحاضر والسامر ولذا عم بالإضافة ؛ لأن الجمع المضاف من صيغ العموم ؛ ولذا لم يحمل على العهد هنا] ⁽³⁾ .

(1) يراجع روح المعاني 152/28 .

(2) يراجع التحرير والتنوير 356/28 وروح المعاني 152/28 .

(3) حاشية الشهاب 212/8 - وما بين القوسين كلام البيضاوي .

﴿ وَالْمَلَكَةُ ﴾ جميعا ﴿ بَعْدَ ذَلِكَ ﴾ أي بعد ولاية الله ورعايته ونصرته ﴿ ظَهِيرٌ ﴾ أي متظاهرون مجتمعون متعاونون على نصره رسول الله ﷺ .

فالجميع في صف رسول الله ﷺ ، وعلى هذا فالوقف على ﴿ مَوْلَاهُ ﴾ والابتداء بـ ﴿ وَجِبْرِيلُ وَصَلِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ ﴾ .

ويمكن أن يكون الوقف على ﴿ وَجِبْرِيلُ ﴾ أي ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ ﴾ هو ناصره ومؤيده ﴿ وَجِبْرِيلُ ﴾ ناصره ومؤيده كذلك .

والابتداء بـ ﴿ وَصَلِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ ﴾ أي بعد نصره الله تعالى ونصرة جبريل عليه السلام .

ويمكن أن يكون الوقف على ﴿ وَصَلِحُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

والمعنى (فإن الله ناصره ومؤيده وجبريل وصالح المؤمنين كذلك ينصرونه ويؤيدونه) .

والابتداء بـ ﴿ وَالْمَلَكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ ﴾ أي بعد نصر الله تعالى ونصرة جبريل وصالح المؤمنين .

● قال الطباطبائي : [﴿ وَالْمَلَكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ ﴾ : أفراد الخبر للدلالة على أنهم متفقون في نصرته متحدون صفا واحدا . وفي جعلهم بعد ذلك أي بعد ولاية الله وجبريل وصالح المؤمنين تعظيم وتفخيم] (1) .

وهكذا نجد الوقف على موضع يعطي معنى ، والوقف على موضع آخر يفيد معنى آخر ، والوقف على موضع ثالث يضيف معنى جديدا وكل هذه المعاني يحتملها النص والسياق وهذا من بلاغة القرآن الكريم ورفعته وروعته (2) .

﴿ عَسَىٰ رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبَدِّلَهُ أَرْوَاجًا خَيْرًا مِّنْكَنَّ مَسَلِمَاتٍ مُّؤْمِنَاتٍ فَنِينَتٍ تَنِينَتٍ عِينَاتٍ سَدِجَاتٍ نَّيِّنَاتٍ وَأَبْكَارًا ﴾ الخطاب هنا لجميع أمهات المؤمنين .

قال الزمخشري : [فإن قلت كيف تكون المبدلات خيرا منهن ولم تكن على وجه الأرض نساء خيرا من أمهات المؤمنين ؟ قلت : إذا طلقهن رسول الله لعصيانهن له

(1) الميزان 19 / 332 .

(2) ومن ألوان البديع في هذه الآيات الكريمة جناس الاشتقاق في (النبي - نبات - نبأها - أنبأك - نبأني) و (أظهره - تظاهرا - ظهر) .

وأيضاهن إياه لم ييقن على تلك الصفة ، وكان غيرهن من الموصوفات بهذه الأوصاف مع الطاعة لرسول الله ﷺ والنزول على هواه ورضاه خيرا منهن ، وقد عَرَضَ بذلك في قوله ﴿ قَنِتْ ﴾ لأن القنوت هو القيام بطاعة الله ، وطاعة الرسول ﷺ من طاعة الله [(1)] .

﴿ مُسَلِّمَاتٍ مُّؤْمِنَاتٍ ﴾ ملتزمات بأحكام الإسلام ومتحليات بخصال الإيمان ﴿ قَنِتٍ ﴾ من القنوت وهو الخضوع والخشوع والقيام بالطاعة أحسن قيام قال تعالى : ﴿ وَقَوْمُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ ﴾ (2) وقال تعالى : ﴿ وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُمْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعَمَلْ صَالِحًا نُؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴾ (3) وقال تعالى : ﴿ فَالْفَالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ ﴾ (4) .

﴿ عِدَاتٍ ﴾ مقبلات على عبادة الله وهي أسمى غاية في هذا الوجود قال تعالى ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ (5) ، ﴿ سَائِحَاتٍ ﴾ من السياحة وقد اختلف في المراد بها هنا قيل الهجرة أي : هن مهاجرات إلى الله تعالى ومن خصال الهجرة هجرة المعاصي والذنوب ، وقيل سائحات أي صائمات فالسياحة هي الصيام : [وإنما قيل للصائم سائح لأنه يستمر في الإمساك عن الطعام كما يستمر السائح في السير على الأرض] (6) .

● قال الرازي : [وقيل للصائم سائح لأن السائح لا زاد معه فلا يزال ممسكا إلى أن يجد من يطعمه ، فشبه بالصائم الذي يمسك إلى أن يجيء وقت إفطاره] (7) .

وقيل سائحات أي ماضيات في طاعة الله تعالى ، ذاهبات في ذلك كل مذهب ، من ساح الماء إذا ذهب ، وقيل سائحات أي جائلات بأبصارهن وبصائرهن في ملكوت الله تعالى فهن منشغلات بالتفكير والتدبر .

﴿ نَبِيَّاتٍ وَأَبْكَارًا ﴾ .

نبيات جمع نيب وهي التي زالت عذرتها - أي غشاء بكارتها - وسميت بذلك لأنها ثابت أي رجعت بعد زواجها الأول إلى بيت أبيها ، وأما البكر فهي العذراء سميت بذلك لأنها على حالتها الأولى التي خلقت عليها .

(2) سورة البقرة : 238 .

(4) سورة النساء : 34 .

(7) مفاتيح الغيب 45/29 .

(1) الكشاف 567/4 بتصرف .

(3) سورة الأحزاب : 31 .

(6) مجمع البيان 475/5 .

(5) سورة الذاريات : 56 .

وجاء حرف العطف (الواو) بين الثيات والأبكار لأن الثيوبة والبركة صفتان متنافيتان لا تجتمعان في المرأة ؛ فالمرأة إما بكر وإما ثيب ، فلا تكون بكرا وثيبا في وقت واحد ، وترك العطف في الصفات السابقة ﴿ مُؤْمِنَاتٍ قُنَّاتٍ تَئْتِينَ عِدَاتِ سَيِّحَاتٍ ﴾ لأن هذه الصفات كلها يمكن أن تجتمع في شخص واحد فبينها كمال اتصال .

● قال الزمخشري : [فإن قلت لم أخليت الصفات كلها عن العاطف ووسط بين الثيات والأبكار؟ قلت لأنهما صفتان متنافيتان لا يجتمعان فيهن اجتماع سائر الصفات فيهن فلم يكن بد من الواو] (1) .

● وقال ابن كثير : [وقوله تعالى : ﴿ تَئْتِينَ وَأَبْكَارًا ﴾] أي منهن ثيات ومنهن أبكارا ليكون ذلك أشهى إلى النفس فإن التنوع ييسط النفس] (2) .
وتقديم الثيات على الأبكار لأن أزواج النبي ﷺ كلهن ثيات ما عدا عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا فهي الوحيدة التي تزوجها رسول الله ﷺ وهي بكر والله أعلم .

رابعا : المعنى الإجمالي

تبدأ الآية الأولى بتوجيه العتاب إلى النبي ﷺ على تحريمه شرب العسل أو مارية على الرأي الراجح ، فما كان له ﷺ أن يفعل ذلك ابتغاء مرضات أزواجه فهن أحق بالسعي والجد في ابتغاء رضاه ﷺ .

ثم تتحدث الآية الثانية : عن مظهر من مظاهر رحمة الله سبحانه ومغفرته وهو تشريع كفارة اليمين وفي ذلك ما فيه من التخفيف والتيسير بالأمة الإسلامية ، والله سبحانه هو العليم بما يصلح العباد في عاجلهم وأجلهم وهو الحكيم فيما يشرع لهم .

ثم تتحدث الآية الثالثة : عن ذلك الأمر الذي حدث في بيت النبوة وذلك أن رسول الله ﷺ حين حرم على نفسه ما حرم أسر بذلك إلى حفصة فنقلت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا هذا الخبر إلى عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا فأطلع الله رسوله الكريم على ما حدث من حفصة فعاتبها عتابا لطيفا وأخبرها ببعض ما نقلته لعائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ولم يخبرها بالكل ، وذلك من طبيعة الكرام ألا يستقصوا - كما قيل : الكريم لا يستقصي - فتعجبت حفصة كيف علم الرسول ﷺ بصنيعها هل أخبرته عائشة ؟ أم جاء الخبر عن طريق الوحي ؟ .

(2) تفسير القرآن العظيم لابن كثير 4/390 .

(1) الكشاف 4/567 ، 568 بتصرف .

﴿ فَلَمَّا نَبَاتَ بِهِنَّ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَفَ بَعْضَهُمْ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَتْهَا بِهِنَّ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَاتِي الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾ .

ثم يتوجه الخطاب في الآية الرابعة : إلى حفصة وعائشة بدعوة إلى التوبة إلى الله تعالى ؛ فقد مالت قلوبهما إلى خلاف ما يحب ﷺ بسبب الغيرة المفرطة ، ويحذرهما المولى ﷺ من التظاهر على رسول الله ﷺ أي الاجتماع والاتفاق على خلاف ما يحبه ﴿ وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَلِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ ﴾ فالولى ﷺ ناصره ومؤيده ، وجبريل الطيّب والمؤمنون الصالحون والملائكة الكرام كلهم في نصره رسول الله ﷺ وفي صفه .

وتحمل الآية الخامسة تهديدا شديدا إلى أمهات المؤمنين جميعهن ﴿ عَسَىٰ رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبَدِّلَهُمْ أَرْوَاجًا خَيْرًا مِّنْكَنَّ مُؤْمِنَاتٍ مَّؤْمِنَاتٍ قَنِينَاتٍ تَنَبَّاتٍ عِيدَاتٍ سَيِّحَاتٍ ثَنِينَاتٍ وَأَنْبَكَارًا ﴾ .

يقول صاحب الظلال : [وهي الصفات التي يدعوهن إليها عن طريق الإيحاء والتلميح . الإسلام الذي تدل عليه الطاعة والقيام بأوامر الدين . والإيمان الذي يعمر القلب ، وعنه ينبثق الإسلام حين يصح ويكتمل . والقنوت وهو الطاعة القلبية ، والتوبة هي الندم على ما وقع من معصية والاتجاه إلى الطاعة والعبادة وهي أداة الاتصال بالله والتعبير عن العبودية له . والسياحة وهي التأمل والتدبر والتفكير في إبداع الله والسياحة بالقلب في ملكوته وهن - مع هذه الصفات - من الثيبات ومن الأبقار ، كما أن نساءه الحاضرات كان فيهن الثيب وفيهن البكر ، وهو تهديد لهن لا بد كان له ما يقتضيه من تأثير مكائدهن في قلب رسول الله ﷺ وما كان ليغضب من قليل ! وقد رضيت نفس النبي ﷺ بعد نزول هذه الآيات ، وخطاب ربه له ولأهل بيته ، واطمأن هذا البيت الكريم بعد هذه الزلزلة ، وعاد إليه هدوؤه بتوجيه الله سبحانه ، وهو تكريم لهذا البيت ورعاية تناسب دوره في إنشاء منهج الله في الأرض وتثبيت أركانه] (1) .

خامسا : فوائد حول الآيات

تعرض لنا هذه الآيات الكريمة صفحة من الحياة البيئية لرسول البشرية ﷺ وصورة من الانفعالات والاستجابات الإنسانية بين بعض نساءه وبعض ، وبينهن وبينه ، وانعكاس هذه الانفعالات والاستجابات في حياته ﷺ حيث حرم الرسول ﷺ على نفسه ما حرم

ابتغاء مرضاة زوجاته وأسر بذلك إلى حفصة رضي الله عنها فأخبرت عائشة وكان بالإمكان أن يمر هذا الموقف الذي حدث في بيت النبوة مروراً عابراً ولكن الله سبحانه أنزل فيه قرآناً يتلى ؛ وذلك لتقويم الموقف وبيان عظم منزلته ﷺ ورفعة مكانته وتوجيه العتاب له ، كيف يحرم على نفسه ما أباح الله له ، وكيف يفعل ذلك ابتغاء مرضات أزواجه وكان عليهن أن ينشغلن ويجهدن في ابتغاء مرضاته ﷺ ، وإذا كان الله تعالى يعاتب رسوله الكريم بسبب أنه حرم على نفسه ما أحل الله له ابتغاء مرضات أزواجه ، فما بالنا بأولئك الذين يسعون إلى إرضاء زوجاتهم بارتكاب المحرمات وفعل المنكرات ، فنجد من يعق والديه ويقطع أرحامه ليرضي زوجته ، ونجد من يمد يديه إلى الحرام ليلبي مطالب الزوجة التي لا تنقطع ، فأين هذا من أخلاق الزوجة الصالحة التي قال عنها المولى ﷺ : ﴿ مُسَلِّمَتٌ مُّؤْمِنَةٌ قَنِينَةٌ تَتَّبِعُ عَيْدَاتٍ سَيِّئَاتٍ تُبَيِّنُ وَأَبْكَارًا ﴾ وقال عنها ﷺ في سورة النساء : ﴿ فَالْفَكْلِخَاتُ قَنِينَتٌ حَفِظَتْ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ ﴾ (1) فهي صالحة خاشعة خاضعة لله رب العالمين تطيع زوجها وتأخذ بيده إلى مرضاة الله لا تدعي له سرا ولا تفسى له أمراً ، فهي ستر لزوجها وزوجها ستر لها ، قال الله ﷻ : ﴿ هُنَّ لِيَاسُ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِيَاسُ لَهُنَّ ﴾ (2) ، فهي حافظة له في حضوره وغيابه ، حافظة لماء وجهه فلا تكلفه ما لا يطيق ولا تعيره بفقره إن كان فقيراً بل ترضى بما قسم الله وتقر عينها بما قضى الله ، وتوصي زوجها بتقوى الله ، وتنصحه بتحري الكسب الحلال الطيب ، متمثلة في ذلك مقولة نساء السلف الصالح لأزواجهن إذا خرج أحدهم إلى عمله : اتق الله فينا ولا تطعمنا حراماً فإننا نصبر على الجوع ولكننا لا نصبر على نار جهنم .

ويحضرني في هذا المقام قول الشاعر :

زوجة المرء خِلٌّ يُسْتَعَانُ بِهِ	على الليالي ونورٌ في دياجيبها
مَسْلَاةٌ فِكْرَتِهِ إِنْ بَاتَ فِي كَدْرِ	مدت إليه لتواسيه أياديها
إِنْ مَرَّ بَيْتُهَا يَوْمًا بِضَائِقَةٍ	قامت تدبر البيت تديراً ينجيها
وَزَوْجُهَا مَلِكٌ وَالْبَيْتُ مَمْلَكَةٌ	والئمن والسعد يُجْرِي في نواحيها

المبحث الرابع

ما نزل في شأن خولة بنت ثعلبة التي ظاهر منها زوجها أوس بن الصامت

في هذا المبحث :

أولا : آيات الظهار .

ثانيا : سبب النزول .

ثالثا : التفسير التحليلي للآيات .

رابعا : فوائد حول الآيات .

خامسا : المعنى الإجمالي لها .

أولا : الآيات

قال تعالى : ﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَدِّلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ۝ الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسَائِهِمْ مَا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا الَّتِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوفٌ غَفُورٌ ۝ وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَا ذَلِكَ تُوعِظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ۝ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامَ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَا فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝ (1) .

ثانيا : سبب النزول

كان الظهار في الجاهلية أمرا شائعا ، من الأمور التي ابتدعها أهل الجاهلية ودرجوا عليها وألفوها حتى صارت عندهم شرعا ، فكان الرجل منهم إذا كره زوجته أو غضب عليها قال لها أنت علي كظهر أمي ، فتصير محرمة عليه .

● وحدث في عهد الإسلام أن ظاهر أوس بن الصامت (أخو الصحابي الجليل عبادة ابن الصامت) من زوجته خولة بنت ثعلبة ، ثم بدا له بعد ذلك أن يواقعها فلم تمكنه من

نفسها وذهبت إلى رسول الله ﷺ تستفتيه في هذا الأمر وتجادله في هذا الشأن فأنزل الله ﷻ في ذلك قرآنا يتلى .

● روى الحاكم في المستدرک بسنده عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت : تبارك الذي وسع سمعه كل شيء ، إني لأسمع كلام خولة بنت ثعلبة ويخفى عليّ بعضه وهي تشتكي زوجها إلى رسول الله ﷺ ، وهي تقول يا رسول الله أكل شبابي ، ونثرت له بطني حتى إذا كبرت سني وانقطع له ولدي ظاهر مني - اللهم إني أشكو إليك ، قالت عائشة : فما برحت حتى نزل جبريل بهذه الآيات ﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا ... ﴾ [إخ الآيات (1)] .

وروى الإمام أبو داود في السنن عن خويلة (2) بنت مالك بن ثعلبة قالت : ظاهر مني زوجي أوس بن الصامت فجئت رسول الله ﷺ أشكو إليه ، ورسول الله ﷺ يجادلني فيه ويقول : اتق الله فإنه ابن عمك . فما برحت حتى نزل القرآن ﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا ﴾ إلى آخر الآيات ... فقال ﷺ يعتق رقبة ، قلت لا يجد ، فقال فيصوم شهرين متتابعين . قلت يا رسول الله إنه شيخ كبير ما به من صيام قال فليطعم ستين مسكينا . قلت ما عنده من شيء يتصدق به . قالت : فأتي ساعتئذ بعرق من تمر . قلت يا رسول الله فإني أعينه بعرق آخر . قال : قد أحسنت اذهبي فأطعمي بها عنه ستين مسكينا وارجعي إلى ابن عمك (3) .

- وروى ابن حبان في صحيحه عن خويلة بنت ثعلبة قالت : فيّ والله وفي أوس بن الصامت أنزل الله جل وعلا صدر سورة المجادلة ، قالت كنت عنده ، وكان شيخا كبيرا قد ساء خلقه وضجره قالت : فدخل عليّ يوما فراجعته في شيء فغضب وقال أنت علي كظهر أمي ، ثم خرج فلبث في نادي قومه ساعة ثم دخل علي فإذا هو يريدني على

(1) رواه الحاكم في المستدرک واللفظ له وقال حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه وصححه الذهبي - المستدرک كتاب التفسير 481/2 ورواه البخاري معلقا في صحيحه عن عائشة . كتاب التوحيد باب ﴿ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴾ فتح الباري 384/13 ورواه النسائي موصولا - في السنن كتاب الطلاق باب الظهار 167/6 - ورواه ابن ماجه في السنن عن عائشة في المقدمة باب (فيما أنكرت الجهمية) 67/1 حديث 188 ورواه أيضا في كتاب الطلاق باب الظهار 666/1 حديث 2063 ورواه الإمام أحمد في مسنده عن عائشة . كتاب التفسير باب قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها (الفتح الرباني 298/18) . (2) خويلة : تصغير خولة .

(3) أخرجه أبو داود في السنن ك النكاح باب الظهار حديث 2199 [عون المعبود 301/6] .

نفسي ، قالت : قلت كلا والذي نفس خويلة بيده لا تخلص إليّ وقد قلت ما قلت حتى يحكم الله ورسوله ﷺ فينا بحكمه ، قالت فواتبني فغلبته بما تغلب به المرأة الشيخ الضعيف ، فألقيته عني ثم خرجت إلى بعض جاراتي فاستعرت منها ثيابا ثم خرجت حتى جئت رسول الله ﷺ فجلست بين يديه فذكرت له ما لقيت منه فجعلت أشكو إليه ما ألقى من سوء خلقه .

قالت : فجعل رسول الله ﷺ يقول يا خويلة ابن عمك شيخ كبير فاتقي الله فيه ، قالت : فوالله ما برحت حتى نزل القرآن ، فتنغشى رسول الله ﷺ ما كان يغشاه ثم سري عنه ، فقال يا خويلة قد أنزل الله جل وعلا فيك وفي صاحبك ، قالت : ثم قرأ علي : ﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَدِّدُكَ فِي زَوْجِهَا ﴾ إلى قوله تعالى ﴿ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (1) .

ثالثا : التفسير التحليلي للآيات

1 - سماع الله ﷻ للمرأة التي ظاهر منها زوجها ورحمته سبحانه بها

قال تعالى : ﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَدِّدُكَ فِي زَوْجِهَا ﴾ .

- سمع الله تعالى قول تلك المرأة التي جاءت تجادل رسول الله ﷺ في أمر زوجها الذي ظاهر منها .

- قال أبو السعود : [ومعنى سمعه تعالى لقولها إجابة دعائها لا مجرد علمه تعالى بذلك كما هو المعنى بقوله تعالى ﴿ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا ﴾ أي يعلم تراجعكما الكلام] (2) .

- وقال صاحب التحرير والتنوير : [والسماع في قوله سمع معناه الاستجابة للمطلوب وقبوله ، بقرينة دخول (قد) التوقعية عليه فإن المتوقع هو استجابة شكواها] (3) .

- وقال الزمخشري [فإن قلت ما معنى (قد) قلت معناه التوقع لأن رسول الله ﷺ والمجادلة كانا يتوقعان أن يسمع الله مجادلتها وشكواها وينزل في ذلك ما يفرج عنها] (4) .

(1) رواه ابن حبان في صحيحه واللفظ له ك الطلاق باب الظهار حديث 4265 صحيح ابن حبان 238/6 .
ورواه الإمام أحمد في مسنده ك التفسير باب ﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَدِّدُكَ فِي زَوْجِهَا ﴾ (الفتح الرباني 297/18)
ورواه البيهقي في السنن الكبرى ك / الظهار باب من له الكفارة بالصيام عن خويلة بنت ثعلبة - السنن 7/389 .

(2) تفسير أبي السعود 8/150 . (3) التحرير والتنوير لابن عاشور 8/28 .

(4) الكشاف 4/485 .

- وقال الطباطبائي في الميزان : [والمراد بالسمع في قوله تعالى ﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ ﴾ استجابة الدعوة وقضاء الحاجة من باب الكناية وهو شائع والدليل عليه قوله ﴿ تَجِدُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ ﴾ الظاهر في أنها كانت تتوخى طريقا إلى أن لا تنفصل عن زوجها .

وأما قوله ﴿ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمْ ﴾ فالسمع فيه بمعناه المعروف [(1) .

﴿ وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ ﴾ : تبث شكواها إلى الله تعالى .

﴿ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمْ ﴾ : أي يسمع ذلك الحوار (2) الذي دار بين خولة بنت ثعلبة ورسول الله ﷺ .

﴿ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾ : سميع لكل مسموع ، بصير بكل مبصر .

سميع لكل قول بصير بكل فعل ، فعلى المؤمن أن يراقب الله ﷻ في معاملته لزوجته وفي جميع معاملاته .

2 - حرمة الظهار

﴿ الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسَائِهِمْ مَا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوفٌ غَفُورٌ ﴾ (3) .

أصل الظهار في اللغة : مأخوذ من الظهر ، والظهر من كل شيء خلاف البطن ، والجمع أظهر وظهور وظهران .

وظاهر الرجل امرأته مظهارة وظهارا ، قال لها : أنت علي كظهر ذات رحم .

وقد تظهر منها وتظاهر وظهر من امرأته تظهيرا : كله بمعنى واحد (4) .

(1) الميزان للطباطبائي 178/19 .

(2) الحوار والمحاورة المراجعة في الكلام من حار الشيء يحور حورا أي رجع يرجع رجوعا . قال عنتره : يصف فرسه :

لو كان يدري ما المحاورة اشتكى
ولكان لو علم الكلام مكلمي
وفي المفردات ، والحوار المرادة في الكلام ومنه التحوار . قال تعالى ﴿ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمْ ﴾ .

المفردات ص 135 مادة (ح و ر) .

(4) لسان العرب 2764/4 : 2770 .

(3) سورة المجادلة : 2 .

والظهار في الاصطلاح : هو أن يشبه امرأته أو عضوا منها بمن تحرم عليه ، ولو إلى أمد ، أو بعضو منها (1) .

وفي قوله تعالى : ﴿ مِنْكُمْ ﴾ إنكار لهذا الأمر واستهجان له وبيان أنه لا يليق بالطائفة المؤمنة فهو منكر وزور وظلم .

وقوله تعالى : ﴿ مَا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ وَزُورًا ﴾ .

أي : لا تعتبر المرأة بقوله أنت علي كظهر أمي أو كأمي أو مثل أمي أو ما أشبه ذلك لا تصير أمه بذلك ، إنما أمه التي ولدته .

قال ابن عاشور : [وجملة ﴿ مَا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ ﴾ خبر عن ﴿ إِلَّا الَّذِينَ ﴾ أي ليس أزواجهم أمهات لهم بقول أحدهم أنت علي كظهر أمي ، وهذا تمهيد لإبطال أثر صيغة الظهار في تحريم الزوجة بما يشير إلى أن الأمومة حقيقة ثابتة لا تصنع بالقول ، إذ القول لا يبدل حقائق الأشياء .

كما قال تعالى في سورة الأحزاب :

﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرِجَالٍ مِّنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفَيْهِ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكَ كَقَوْلِكُمْ بَأْفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ ﴾ [(2)] (3) .

وقال الألوسي : ﴿ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ ﴾ أي ما أمهاتهم على الحقيقة ﴿ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ ﴾ فلا يشبه بهن في الحرمة إلا من ألحقها الله تعالى بهن كالمرضعات وزوجات النبي ﷺ - أمهات المؤمنين - فهن في حكم الأمهات ... [(4)] .

﴿ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُورٌ غَفُورٌ ﴾ دل هذا على تحريم الظهار لأنه قول منكر وزور .

- قال ابن حجر واستدل بقوله تعالى : ﴿ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ وَزُورًا ﴾

(1) يراجع الفقه الإسلامي وأدلته د . وهبه الزحيلي 585/7 .

(2) سورة الأحزاب 4 . (3) التحرير والتنوير 12/28 ، 13 بتصرف .

(4) روح المعاني للألوسي 5/28 بتصرف .

على أن الظهار حرام (1) .

- وقال الإمام ابن القيم : [... والظهار حرام لا يجوز الإقدام عليه ، لأنه كما أخبر الله عنه منكر من القول وزور وكلاهما حرام . والفرق بين جهة كونه منكراً وجهة كونه زوراً أن قوله : أنت علي كظهر أمي يتضمن إخباره عنها بذلك وإنشاء تحريمها ، فهو يتضمن إخباراً وإنشاءً ، فهو خبر زور وإنشاء منكر ، فإن الزور هو الباطل بخلاف الحق الثابت ، والمنكر بخلاف المعروف ، وختم سبحانه الآية بقوله ﴿ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوءٌ غَفُورٌ ﴾ وفيه إشعار بقيام سبب الإثم الذي لولا عفو الله ومغفرته لأخذ به (2) .

3 - كفارة الظهار :

وقوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّ ذَلِكَ تُوعُظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ۗ ﴾ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّ فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۗ .

بين المولى ﷺ في هاتين الآيتين الكريمتين كفارة الظهار لمن أراد أن يرجع عما قال ، ويعود إلى معاشرته زوجته بعد أن ظاهر منها قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا ﴾ فالعود هنا هو الرجوع عن مقولة الظهار .

﴿ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ﴾ عتق رقبة سليمة من العيوب صغيرة كانت أو كبيرة ذكراً أو أنثى .

﴿ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّ ﴾ أي من قبل حدوث أي مسيس بينهما من جماع أو تقبيل أو أي وجه من وجوه الاستمتاع وهذا هو مذهب جمهور الفقهاء الحنفية والمالكية والحنابلة وقال الشافعي في أحد قولي « المحرم على المظاهر هو الوطاء فقط لأن المسيس كناية عن الجماع .

﴿ ذَلِكَ تُوعُظُونَ بِهِ ﴾ أي تزجرون حتى تتركوا الظهار ، لحرمة ولعظم كفارته . قال الزمخشري : [﴿ ذَلِكَ ﴾ الحكم ﴿ تُوعُظُونَ بِهِ ﴾ لأن الحكم بالكفارة دليل على ارتكاب الجناية ، فيجب أن تتعظوا بهذا الحكم حتى لا تعودوا إلى الظهار ،

وتخافوا عقاب الله عليه [(1)] .

وقال القرطبي : [﴿ ذَلِكُمْ تُوَعِّظُونَ بِهِ ﴾ أي تؤمرون به ﴿ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ من التكفير وغيره [(2)] .

وقال الألوسي : ﴿ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ من الأعمال كالتكفير وما يوجبه من جنابة الظهر ﴿ خَيْرٌ ﴾ أي عالم بظواهرها وبواطنها ومجازيكم بها فحافظوا على حدود ما شرع الله ولا تخلوا بشيء منها (3) .

● وقال صاحب الظلال : ﴿ ذَلِكُمْ تُوَعِّظُونَ بِهِ ﴾ فالكفارة تذكرة وعظة بعدم العودة إلى الظهر الذي لا يقوم على حق ولا معروف ﴿ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ خبير بحقيقته وخبير بوقوعه وخبير بنيتكم فيه وهذا التعقيب يجيء قبل إتمام الحكم لإيقاظ القلوب وتربية النفوس وتنبهها إلى قيام الله على الأمر بخبرته وعلمه بظواهره وخفيه [(4)] .

● قوله : ﴿ فَمَنْ لَمْ يُحِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّ فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فِإِطْعَامُ سِتِّينَ مَسْكِينًا ﴾ أي من لم يتمكن من عتق رقبة فعليه صيام شهرين متتابعين فإن عجز عن صيام الشهرين فعليه أن يطعم ستين مسكينا ﴿ ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ أي ذلك المشار إليه من تحريم الظهر وكفارته (لتؤمنوا بالله ورسوله ، فمن لوازم الإيمان ومقتضياته أن تلتزموا بهذه الأحكام -

﴿ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ ﴾ فلا تعدوها .

﴿ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ لأنهم كفروا بالله واتهكوا محارمه وتعدوا حدوده) .

فوائد حول آيات الظهر

● معنى العود في قوله تعالى ﴿ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا ﴾ .

اختلف الفقهاء في معنى العود والمقصود منه ، فذهب الظاهرية إلى أن المقصود بالعود أن يكرر المظاهر قول الظهر الذي قاله أولاً أخذاً بظاهر النص فالعود هو تكرار القول (5) .

● ومذهب الشافعية في العود : أن يمسك زوجته زمانا يمكنه أن يطلقها فيه فلا

(2) الجامع لأحكام القرآن 283/17 .

(1) الكشف 487/4 .

(4) الظلال 6/3506 ، 3507 .

(3) روح المعاني 13/28 .

(5) المحلى لابن حزم الظاهري 50/10 .

يفعل ، واستدلوا على ذلك بأن الظهار وهو تشبيه الزوجة بالأُم يقتضي أن لا يمسكها ، فإذا أمسكها فقد عاد فيما قال (1) .

● ومذهب الحنفية في العود : أنه العزم على وطئها عزمًا مؤكدًا ، فقوله تعالى ﴿ ثُمَّ يَعُودُونَ ﴾ أي ثم يرجعون فيما قالوا بالعزم على الوطء لأن ما قاله المظاهر هو تحريم الوطء فكان العود لنقضه وفسخه استباحة للوطء (2) .

● ومذهب الأحناف هو مذهب الحنابلة والمالكية وهو إرادة الوطء والعزم عليه (3) .

● والراجح في هذه المسألة هو ما ذهب إليه الجمهور : الأحناف والحنابلة والمالكية ، ومذهب الشافعية في هذه المسألة متقارب في المعنى من مذهب الجمهور؛ لأن العود إلى الإمساك أو الوطء أو إبقائها بعد الظهار بدون طلاق يدل على إرادة المعاشرة والعزم على الوطء ، وهو ما ذهب إليه الجمهور .

أما عن مذهب الظاهرية في معنى العود فإنه مذهب باطل مردود إذ كيف يفسر العود بالرجوع إلى قول الظهار مرة ثانية ، وقد وصف القرآن هذا القول بأنه منكر وزور .

● قال ابن العربي : [فأما القول بأن العود هو العود إلى لفظ الظهار فهو باطل قطعاً لا يصح وإنما يشبه أن يكون من جهالة داود الظاهري (4) وأشياعه وقد رويت قصص المتظاهرين وليس في ذكر الكفارة عليهم ذكر لعود القول منهم وأيضا فإن المعنى ينقضه لأن الله تعالى وصفه بأنه منكر وزور فكيف يقال له إذا أعدت القول المحرم والسبب المحذور وجبت عليك كفارة؟ وهذا لا يعقل ، ألا ترى أن كل سبب يوجب الكفارة لا تشترط فيه الإعادة من قتل ووطء في صوم أو غيره] (5) .

2 - حرمة الوطء قبل الكفارة وحكم الاستمتاع فيما دون الوطء :

اتفق الفقهاء على حرمة الجماع قبل الكفارة ، واستدلوا على ذلك بظاهر الكتاب والسنة ، قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ

(1) المجموع بشرح المذهب للنووي 357/16 . بدائع الصنائع للكاساني 236/3 .

(3) يراجع المغني لابن قدامة 352/7 - والشرح الصغير 478/1 .

(4) هو أبو سليمان داود بن علي بن خلف الأصفهاني المشهور بالظاهري نسبة إلى مذهبه - له آراء كثيرة خالف فيها الجمهور ويعتمد مذهبه على الأخذ بظاهر النصوص وكان له أتباع في بغداد وشيراز وغيرهم واندثر مذهبه في نهاية القرن الخامس الهجري . (5) أحكام القرآن لابن العربي المالكي 1741/4 .

قَبْلِ أَنْ يَتَمَّاسًا ﴿١﴾ .

وعن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنه « أن رجلا ظاهر من امرأته ثم واقعها قبل أن يكفر فأتى النبي صلى الله عليه وسلم فأخبره فقال ما حملك على ما صنعت ؟ قال رأيت بياض ساقها ، قال فاعتزلها حتى تكفر » (1) .

ومما سبق يتضح لنا حرمة إتيان المظاهر لزوجته قبل الكفارة فإذا وقع المظاهر على زوجته قبل أن يكفر فهو آثم ولا تلزمه كفارة أخرى .

وفي قصة سلمة بن صخر البياضي الذي ظاهر من زوجته ثم واقعها قبل أن يكفر وذوذهب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يستفتيه في هذا الشأن فأمره أن يكفر كفارة واحدة ونص الحديث كما ورد في سنن الترمذي (أن سلمان بن صخر الأنصاري البياضي ظاهر من زوجته حتى يمضي رمضان فلما مضى نصف من رمضان وقع عليها ليلاً فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكر له فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أعتق رقبة » قال : لا أجد لها قال : « فصم شهرين متتابعين » قال : لا أستطيع قال : « فأطعم ستين مسكينا » قال : لا أجد فقال الرسول صلى الله عليه وسلم لفروة بن عمرو : « أعطه ذلك العرق - وهو مكتل يأخذ خمسة عشر صاعاً أو ستة عشر صاعاً - إطعام ستين مسكينا » (2) .

- (1) رواه الإمام أبو داود في السنن ك الطلاق باب في الظهار حديث 2221 - السنن 268/2 .
ورواه الإمام النسائي في السنن عن ابن عباس وفيه فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : « لا تقربها حتى تفعل ما أمر الله صلى الله عليه وسلم » وفي رواية أخرى عن عكرمة « فاعتزل حتى تقضي ما عليك » سنن النسائي ك الطلاق باب في الظهار 167/6 ، 168 ،
ورواه الترمذي في السنن عن عكرمة عن ابن عباس وقال : هذا حديث حسن صحيح غريب سنن الترمذي ك الطلاق باب في المظاهر يواقع قبل أن يكفر - حديث 1199 - 503/3 .
ورواه ابن ماجه في السنن ك الطلاق - باب / المظاهر يجامع قبل أن يكفر 666/1 حديث 2065 .
وذكره الألباني في صحيح النسائي بأرقام 3235/3234 ، 3236 ، 729/2 ، 730 ،
وفي إرواء الغليل برقم 2091 وقال : حديث صحيح 139/7 وفي صحيح ابن ماجه برقم 168 - 352/1 .
وذكره الألباني في صحيح الترمذي برقم (958) 352/1 .
- (2) رواه الترمذي في السنن وقال : حديث حسن والعمل على هذا الحديث عند أهل العلم سنن الترمذي ك الطلاق ب / ما جاء في كفارة الظهار حديث 1200 - 503/3 .
ورواه ابن ماجه في السنن عن سلمة بن صخر البياضي ك الطلاق باب في الظهار / حديث 2026 .
ورواه أبو داود في السنن عن سلمة بن صخر ك الطلاق باب / في الظهار حديث (2213) 265/2 .
وذكره الألباني في صحيح الترمذي برقم 113/3/2628 وفي صحيح ابن ماجه برقم 2062 - 351/1 وفي صحيح أبي داود برقم 1917 - ورواه الإمام أحمد في مسنده عن سلمة بن صخر الأنصاري [الفتح الرباني ك الظهار باب من ظاهر من امرأته في رمضان خشية الوقوع في الجماع بالنهار 23/17] .

وفي هذه الأحاديث دليل على أنه يحرم على المظاهر إتيان زوجته التي ظاهر منها وأنه إذا جامعها قبل أن يكفر فهو آثم ، ولا يلزمه كفارة أخرى (1) .

واختلف الفقهاء في حكم الاستمتاع فيما دون الوطء فمذهب الجمهور - الأحناف ، الحنابلة ، المالكية - حرمة الاستمتاع بالوطء وما هو دونه .

ومذهب الشافعي في أحد قولييه أن المحرم هو الوطء فقط لأن الميسس كناية عن الجماع ، واستدل الجمهور بقوله تعالى : ﴿ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّ ﴾ فإنه يشير إلى حرمة الاستمتاع بأي وجه كان . كما أن مقتضى التشبيه يفيد ويقضي بذلك ؛ فالمظاهر حين يقول لزوجته : أنت علي كظهر أمي فإن التحريم هنا يعني حرمة الاستمتاع بالزوجة بأي وجه كحرمة الاستمتاع بالأم بأي وجه .

والرسول ﷺ أمر المظاهر من زوجته والذي وطأها قبل أن يُكفّر ، أمره ﷺ بأن يعتزلها حتى يُكفّر والاعتزال هنا على إطلاقه ولم يرد ما يحدده .

وحجة الثوري والشافعي أن الآية ذكرت الميسس وهو كناية عن الجماع كما أن الحرمة ليست لمعنى يخل بالنكاح فهو أشبه بالحيض الذي يحرم الاستمتاع فيما بين السرة والركبة .

- والرأي الراجح : في هذه المسألة هو ما ذهب إليه الجمهور لقوة أدلته ولأنه أسلم وأحوط لأن من حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه (2) .

المعنى الإجمالي

ظاهر أوس بن الصامت من زوجته خولة بنت ثعلبة ثم بدا له أن يواقعها فامتنعت ولم تمكنه من نفسها وذهبت مسرعة إلى بيت النبوة لتستفتي رسول الله ﷺ ، وأخذت تحاوره في هذا الشأن حتى نزل في شأنها قرآن يتلى .

آيات بينات استهلّت بها سورة المجادلة ، تلك السورة التي يذكرنا اسمها بتلك الحادثة التي نزل الوحي في شأنها .

(1) يراجع المذهب 117/2 والمغني 367/7 والشرح الصغير 651/2 ورد المختار 800/2 .
 (2) المغني 348/7 وبدائع الصنائع 234/3 وأحكام القرآن للجصاص 423/3 .
 وأحكام القرآن لابن العربي 1740/4 وأحكام القرآن للصابوني 528/527/2 .

● سمع الله كلام تلك المرأة وأجاب دعاءها فهو سبحانه السميع لكل قول ، والعليم بكل فعل ، والظاهر قول منكر وزور ؛ لأن تشبيه الزوجة بالأُم تشبيه تنكره النفوس السوية والطباع السليمة والفترة المستقيمة ، وهو تشبيه باطل مخالف للحق ، والأمومة حقيقة ثابتة لاتصنع بالقول ؛ لأن القول لا يبدل حقائق الأشياء قال تعالى : ﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرِجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ النِّسَى تَظَاهِرُونَ مِنهِنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكَ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ ﴾ (1) .

ومن هنا حرم الإسلام الظهار لأنه منكر من القول وزور وظلم للمرأة وامتهان لها ، وتقويض لدعائم البيت المسلم وتفكيك لروابط الأسرة والمجتمع ، فهو حرام ومرتكبه آثم ، تلزمه الكفارة إذا رجع عن قوله وعزم على العود إلى معاشرته زوجته ، والكفارة على الترتيب لا على التخخير .

● عتق رقبة فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين فمن لم يستطع فإطعام ستين مسكيناً .

● وفي موقف الإسلام من الظهار : حجة ساطعة ودلالة واضحة على تكريم الإسلام للمرأة وصيانته وحمايته لحقوقها وحرصه على إصلاح واستقرار الأسرة المسلمة .

وفي هذه الكفارة ما يعود بالفائدة على الفرد والمجتمع فعتق الرقبة هو سبيل إلى تحرير الرقيق ، وللإسلام موقف فريد ومنهج رشيد في تحرير العبيد من خلال تخفيف منابع الاسترقاق ، وفتح الأبواب على مصاريعها للعتق عن طريق الكفارات والقربات .

● وفي صوم شهرين متتابعين تهذيب للأخلاق وتقويم للسلوك ورياضة للنفوس وتركيزية لها وسمو بالأرواح ، فالصوم تأديب بالجوع وخشوع للمولى وخضوع وكل عبادة لها حكمة والصوم ظاهره العذاب وباطنه فيه الرحمة يُعَلِّم الصبر ويعين على خصال البر ويقدم زناد التأمل والفكر ، وينشرح به الصدر ، وفي إطعام ستين مسكيناً لفتة كريمة إلى الرحمة بالمساكين والإحساس بمعاناتهم ومعايشة أحوالهم وفي هذا إرهاف للحس وترقيق للمشاعر وتطبيب للقلوب ، وتركيزية للنفوس .

وهكذا نجد في الكفارة حِكْمًا رائعة وثمرات يانعة للنفوس والمجتمع ، وهي مع شدتها وثقلها إلا أنها رحمة للناس ولطف بهم وزجر عن الوقوع في هذا المنكر الزور .

وسبحان من جلت حكمته ووسعت كل شيء رحمته

فائدة مهمة

من روائع التاريخ الإسلامي

يذكر لنا التاريخ الإسلامي أن خولة بنت ثعلبة استوقفت أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه في الطريق ذات يوم ، فوقف لها وحدثته فاستمع لها حتى طال حديثها وكان من ضمن ما قالته لأمير المؤمنين : هيهات يا عمر عهدتك وأنت تسمى عميرا فلم تذهب الأيام حتى سميت عمرا ، ثم لم تذهب الأيام حتى سميت أمير المؤمنين ، فاتق الله في الرعية ، واعلم أن من خاف الوعيد قرب عليه البعيد ، ومن خاف الموت يخشى الفوت [أي موت الفجاءة] .

فقال لها (الجارود) قد أكثرت أيتها المراة على أمير المؤمنين فقال عمر رضي الله عنه دعها ، وفي رواية « فقال له قائل حبست الناس لأجل هذه العجوز ؟ .

قال وَيَحْكُ أَتَدْرِي مِنْ هَذِهِ ؟ فقال لا قال هذه امرأة قد سمع الله شكواها من فوق سبع سموات ، هذه خولة بنت ثعلبة ، والله لو لم تنصرف عني إلى الليل ما انصرفت عنها حتى تنقضي حاجتها » (1) .

(1) السيرة الحلبية لبرهان الدين الحلبي 724/2 ط محمد علي صبيح 1353 هـ .

المبحث الخامس

ما نزل في سورة المتحنة في شأن النساء

ويشتمل هذا البحث على ما يلي :

أولاً : من عدالة الإسلام وسماحته مع غير المسلمين .

ثانياً : ما نزل في شأن امتحان المؤمنات المهاجرات .

ثالثاً : ما نزل في شأن بيعة النساء .

رابعاً : فوائد حول الآيات .

أولاً : من عدالة الإسلام وسماحته مع غير المسلمين

قال تعالى : ﴿ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوْدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَحِيمٌ ٧ ﴾ لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِينِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِينِكُمْ وَظَلَمُوا عَلَيْكُمْ إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٩﴾ .

فائدة في السياق :

بدأت سورة المتحنة بالنهي عن موالات أعداء الله لما في ذلك من المفسد والأضرار العاجلة والآجلة في الدين والدنيا قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿١﴾ إِنْ يَشْفَقُواكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ ﴿٢﴾ .

وحذر المولى ﷺ من مَعْبَةِ موالات أعداء الله يوم القيامة حيث لا ينفع العبد إلا إيمانه وصلاحه قال تعالى : ﴿ لَنْ تَنْفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصَلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣﴾ .

ثم ضرب المولى ﷺ صورة من صور البراء بإبراهيم عليه السلام وأتباعه المؤمنين حين تبرعوا من أقربائهم المشركين قال تعالى : ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءُؤُا مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ

الْمَصِيرُ ﴿١٧﴾ وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبَهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىٰ ثَمَرًا إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ .

والإسلام دين السماحة واليسر في شرائعه وشعائره في حالة السلم وفي حالة الحرب .
رحمة بالضعفاء ونصرة للمظلومين وعدالة للمغلوبين .

يقول الشيخ الصابوني : [... أمر رسول الله ﷺ أسماء أن تصل أمةا وأن تقبل هديتها وتكرمها وتحسن إليها ، وهكذا تقوم شريعة الإسلام على مسألة من سالمتنا ، ومقاتلة من عادانا ، أو وقف في طريق الدعوة يريد منعها وصد الناس عنها ، وغرض الإسلام أن يجتمع الناس تحت راية (لا إله إلا الله) إخوة متحابين ، متعاونين على البر والتقوى ، إن المسلم يعيش في هذه الدنيا لعقيدته وفكرته ، ويجعلها قضيته الكبرى مع نفسه ومع جميع الناس ، فلا خصومة على مصلحة ولا قتال على عصبية من أرض أو عشيرة أو جنس أو نسب إنما الجهاد لتكون كلمة الله هي العليا ، ولتكون شريعة الله هي المنهج المطبق في الحياة ، ولهذا لا عدوان على من سالم وناصح إنما السيف على من طغى وبغى وأراد أن يفسد في الأرض وهذه فلسفة الإسلام في أمر الجهاد] (1) .

ثانيا : ما نزل في شأن امتحان المؤمنات المهاجرات

قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا جَاءَكُمْ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا مِنْ حِلٍّ لهنَّ وَلَا هُنَّ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَءَأْوَهُنَّ مَا أَنفَقُوا وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذَا ءَالَيْتُمُوهُنَّ أَجْرَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكُوفِرِ وَسَلُّوا مَا أَنفَقْتُمْ وَلَيْسَلُّوا مَا أَنفَقُوا ذَلِكَمُ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٧﴾ وَإِنْ فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقِبْتُمْ فَاتَّوُّا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُمْ مِّثْلَ مَا أَنفَقُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿١٨﴾ .

سبب النزول :

سبب النزول : أورد الإمام الواحدي في أسباب النزول عن ابن عباس ؓ قال : إن مشركي مكة صالحوا رسول الله ﷺ عام الحديبية على أن من أتاه من أهل مكة رده إليهم ، ومن أتى أهل مكة من أصحابه فهو لهم ، وكتبوا بذلك الكتاب وختموه ، فجاءت سبيعة بنت الحرث الأسلمية بعد الفراغ من الكتاب ، والنبى ﷺ بالحديبية فأقبل زوجها وكان كافرا ، فقال : يا محمد رد علي امرأتي ، فإنك قد شرطت لنا أن ترد علينا من أتاك

منا وهذه طينة الكتاب لم تجف بعد فأنزل الله تعالى هذه الآية (1) .

وفي أسباب النزول للسيوطي : [أن أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط هاجرت في الهدنة فخرج أخوها عمارة والوليد ابنا عقبة حتى قدما على رسول الله ﷺ وكلماه في أم كلثوم أن يردها إليهما فبين الله ﷻ أن العهد بينه وبين المشركين لا ينطبق على النساء ، فلا يجب ردهن إلى المشركين وأنزل الله آية الامتحان ...] (2) .

التفسير التحليلي للآيات

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ نداء من الله ﷻ لعباده المؤمنين .

﴿ إِذَا جَاءَكُمْ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ ﴾ من ديار الكفر إلى ديار الإيمان

﴿ فَأَمْتَحِنُوهُنَّ ﴾ اختبروهن : هل هن مؤمنات حقا ؟ أم جئن كارهات لأزواجهن ، أو طامعات في عرض من أعراض الدنيا الزائلة ؟ .

وقد ورد عن ابن عباس رضي الله عنهما : (أن النبي ﷺ كان يستحلف المرأة فيقول : بالله الذي لا إله إلا هو : ما خرجت من بغض زوج ؟ بالله ما خرجت رغبة عن أرض إلى أرض ؟ بالله ما خرجت التماس دنيا ؟ بالله ما خرجت لإحباله ورسوله ؟ فإذا حلفت على ذلك أعطى زوجها مهرها وما أنفق عليها ولم يردها) (3) .

وقال الزمخشري : [سماهن مؤمنات : لتصديقهن بألسنتهن ونطقهن بكلمة الشهادة ، ولم يظهر منهن ما ينافي ذلك ، أو لأنهن مشارفات لثبات إيمانهن بالامتحان] (4) .

﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ ﴾ .

وهو ﷻ المحيط بكل شيء علما ، الخبير ببواطن الأمور فضلا عن ظواهرها .

● قال الزمخشري : [فإن قلت فما فائدة قوله تعالى : ﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ ﴾ وذلك معلوم لا شبهة فيه ؟ قلت : فائدته بيان أن لا سبيل إليكم إلى ما تطمئن به النفس ويثلج به الصدر من الإحاطة بحقيقة إيمانهن ، فإن ذلك مما استأثر به علام الغيوب ، وأن ما يؤدي إليه الامتحان من العلم كاف في ذلك ، وأن تكليفكم لا يعدوه] (5) .

(1) أسباب النزول للواحدي النيسابوري ص 284 .

(2) أسباب النزول للسيوطي بهامش تفسير الجلالين ص 765 ، 766 بتصرف .

(3) زاد المسير لابن الجوزي 240/8 .

(4) الكشاف 517/4 .

(5) المرجع السابق 518/4 .

﴿ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ ﴾ أي بما يظهر لكم من امتحانهن .

﴿ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ ﴾ لأنه لا تحل مؤمنة لكافر ، كما لا يحل المشرك للمؤمنة
﴿ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ﴾ .

﴿ وَءَاتُوهُنَّ مَّا أَنْفَقُوا ﴾ أعطوا أزواجهن الكفار ما دفعوا لهن من مهور ، وهذا الحكم يدل على سماحة الإسلام وعدالته والحكمة في رد مهورهن إلى الكفار لئلا يجتمع عليهم خسارتان ، خسارة زوجته ، وخسارة ماله الذي دفعه لها - المهر - .

- قال مقاتل هذا إذا تزوجها مسلم ، فإن لم يتزوجها فليس لزوجها الكافر شيء (1) .

وقال قتادة : الحكم في رد الصداق إنما هو في نساء أهل العهد فأما من لا عهد بينه وبين المسلمين فلا يرد إليهم الصداق ، وقال القرطبي بعد أن أورد قول قتادة : والأمر كما قال (2) .

﴿ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أَجْرَهُنَّ ﴾ إذا أسلمن ، وانقضت عدتهن فيحل لكم الزواج بهن بشرط المهر .

﴿ وَلَا تُنْسِكُوا بَعْضَ الْكُفَّارِ ﴾ .

العصمة ما يعتصم به من عقد أو سبب والكوافر جمع كافرة ، والمعنى من كانت له زوجة كافرة بعد نزول هذه الآية فليفارقتها ولا يعتد بها ، لأنها لم تعد زوجة له ومن ارتدت زوجته وانقلبت إلى دار الكفر فلقد انقطعت عصمتها أي انبت عقد زواجها .

﴿ وَسَأَلُوا مَا أَنْفَقْتُمْ وَلَسْتَلُوا مَا أَنْفَقُوا ﴾ .

أي اطلبوا ما أنفقتم من مهور نسائكم اللاتي لحقن بالكفار ، وليطلبوا هم - أي الكفار - ما أنفقوا على أزواجهن المهاجرات اللاتي تزوجتم بهن بعد إسلامهن .

﴿ ذَلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَنْصِبُ عَلَيْكُمْ وَيُنَكِّتُكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ .

ذلكم أيها المسلمون هو حكم الله ﷻ الذي شرعه لكم ، وفيه صلاحكم وفلاحكم في الدنيا والآخرة فلا تحيدوا عنه ، ولا تعتدوا بغيره ، والله ﷻ عليم بما يصلح عباده في عاجلهم وآجلهم ، وشرعه ﷻ مبني على الحكم البالغة والمقاصد العالية .

﴿ وَإِنْ فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقِبْتُمْ فَاتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُمْ مِثْلَ مَا أَنْفَقُوا ﴾ .

(1) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي 65/18 ويراجع زاد المسير لابن الجوزي 241/8 .

(2) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي 65/ 18 .

إن انفلت منكم أيها المسلمون بعض النساء ولحقن بدار الكفر ، ولم يدفع لكم المشركون ما تستحقون من أموال - عوضا لكم - وأصبتم من الكفار غنيمة فأعطوا لمن فرت زوجته مثل ما أنفق عليها من المهر من الغنيمة التي أصبتموها .

﴿ وَأَنْقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴾ .

راقبوا الله ﷻ في أعمالكم ، واحذروا عذابه إن خالفتم أوامره .

ثالثا : ما نزل في شأن بيعة النساء

قال تعالى : ﴿ يَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يَبَايَعُكَ عَلَىٰ أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِيَنَّكَ فِي مَعْرُوفٍ بَيَاعِهِنَّ وَأَسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٧﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا نَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَسُؤُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَبِيسُ الْكُفَّارُ مِنَ أَحْصَابِ الْقُبُورِ ﴾ .

في هذه الآية الكريمة بيان من الله ﷻ لرسوله الكريم بكيفية مبايعة النساء ، والمبايعة ، والبيعة : أخذ العهد على بذل الجهد في الطاعة والنصرة .

والرسول ﷺ حين أخذ العهد على النساء لم يصفاهن كما صافح الرجال لأنه لا يجوز مصافحة المرأة الأجنبية .

وفي الصحيحين . عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت : كان رسول الله ﷺ يمتحن من هاجر إليه من المؤمنات بهذه الآية ﴿ يَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ ... ﴾ إلى قوله ﴿ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ قالت عائشة فمن أقر بهذا الشرط من المؤمنات قال لها رسول الله ﷺ : قد بايعتك كلاما ، ولا والله ما مسبت يده يد امرأة قط في المبايعة ، ما يبايعهن إلا بقوله قد بايعتك على ذلك (1) .

وأركان هذه البيعة كما تبينها الآية الكريمة : كما يلي :

﴿ أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا ﴾ .

فالركن الأول لهذه البيعة هو إخلاص العقيدة لله ﷻ ، فهو سبحانه الواحد الأحد

(1) رواه البخاري في صحيحه واللفظ له عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ك / التفسير باب ﴿ إِذَا جَاءَكُمْ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ ﴾ حديث 4891 - فتح الباري 504/8 ، 505 ورواه الإمام مسلم في صحيحه عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ك / الإمارة باب / كيفية بيعة النساء - [صحيح مسلم بشرح النووي 10/13] .

الفرد الصمد . والعقيدة الخالصة : هي الأساس المتين والحصن الحصين والنبراس المبين .
والإسلام في ثلاث كلمات : عقيدة وشريعة وأخلاق .

﴿ وَلَا يَسْرِقَنَّ ﴾ .

بيان للركن الثاني من أركان البيعة وهي النهي عن السرقة ، وهي أخذ الشيء خفية من حرز مثله وهي جريمة لا تغتفر ، مبنية على الخيانة والعدوان منافية للإيمان .

﴿ وَلَا يَرْبِّينَ ﴾ .

فالزنا من أفحش الكبائر وأكبر الفواحش ، إثمه عظيم ومرتعته وخيم وعقابه أليم وضرره جسيم ، والمؤمنة الصادقة : طاهرة عفيفة ، أمينة شريفة .

﴿ وَلَا يَقْتُلَنَّ أَوْلَادَهُنَّ ﴾

نهى عن قتل الأولاد بأي صورة من الصور التي كانت شائعة في المجتمع الجاهلي ... ولهذا الموضوع مزيد بيان إن شاء الله تعالى .

﴿ وَلَا يَأْتِينَ بِنُهْتَنِ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ ﴾ .

كانت المرأة في الجاهلية إذا خافت من زوجها أن يطلقها لعقمها ، التقت ولدا ونسبته إلى زوجها كذبا وزورا حتى يبقها في عصمته .

قال صاحب الكشاف : [كانت المرأة تلتقط المولود ، فتقول لزوجها هو ولدي منك ؛ كني بالبهتان المفترى بين يديها ورجليها عن الولد الذي تلتصقه بزوجها كذبا ، لأن بطنها الذي تحمله فيه بين اليدين وفرجها الذي تلده به بين الرجلين] (1) .

﴿ وَلَا يَعْصِيَنَّكَ فِي مَعْرُوفٍ ﴾ .

نهى عن مخالفة الرسول ﷺ ، فطاعته ﷺ واجبة على كل مسلم ومسلمة ، قال تعالى : ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (١٦) قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ وَمَا آتَاكُمْ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ﴾ .

وقال ﷺ : « كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبى » قيل ومن يأبى يا رسول الله ؟

(1) الكشاف للزمخشري 520/4 ويراجع إرشاد العقل السليم لأبي السعود 715/5 .

قال : « من أطاعني دخل الجنة ومن عصاني فقد أبى » (1) .

﴿ فَبَايَعَهُنَّ وَأَسْتَغْفِرَ لَهُنَّ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ .

فبايعهن على هذه الأركان ، واستغفر لهن الله فهو سبحانه الغفور الرحيم .

فائدة في السياق :

وكما بدأت سورة الممتحنة بالنهي عن موالة أعداء الله فلقد ختمت بتأكيد هذا النهي والتذكير به قال تعالى في ختام السورة الكريمة : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَسُؤُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَبِئْسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ ﴾ . وبهذا يتناسق مطلع السورة مع خاتمها ، وفي هذا ما يدل على روعة النظم القرآني ودقته .

رابعا : فوائد حول الآيات

بمناسبة قوله تعالى في سياق الحديث عن أركان البيعة

﴿ وَلَا يَسْرِقَنَّ ﴾

أورد في هذا المقام الحديث الذي ورد في صحيح البخاري عن عائشة رضي الله عنها أن هنداً بنت عتبة قالت : يا رسول الله إن أبا سفيان رجل شحيح ، وليس يعطيني ما يكفيني وولدي إلا ما أخذت منه وهو لا يعلم ؟ فقال خذي ما يكفيك وولدك بالمعروف (2) .

● وبمناسبة قوله تعالى : ﴿ وَلَا يَقْتُلَنَّ أَوْلَادَهُنَّ ﴾ نشير هنا إلى :

حكم الإجهاض في الإسلام

والإجهاض هو إسقاط الجنين ناقص الحلقة لخروجه قبل مدته (3) .

والأصل في الإجهاض : الحظر ، قال الإمام أبو حامد الغزالي في الإحياء في سياق

(1) الحديث رواه الإمام البخاري في صحيحه عن أبي هريرة ك / الاعتصام بالكتاب والسنة باب الاقتداء بسنن

رسول الله ﷺ حديث 7280 فتح الباري 13/263 .

(2) رواه البخاري في صحيحه ك النفقات باب / إذا لم ينفق الرجل للمرأة أن تأخذ بغير علمه ما يكفيها

وولدها بالمعروف حديث 418/9/5364 .

(3) المعجم الوسيط 1/144 إصدار مجمع اللغة العربية بالقاهرة .

حديثه عن العزل في الجماع : [وليس هذا كالإجهاض والوآد لأن ذلك جناية على موجود حاصل ، وله أيضا مراتب ، وأول مراتب الوجود أن تقع النطفة في الرحم وتختلط بماء المرأة وتستعد لقبول الحياة وإفساد ذلك جناية ، فإن صارت مضغة وعلقة كانت الجناية أفحش وإن نفخ فيه الروح واستوت الخلقلة ازدادت الجناية تفاحشا ، ومنتهى التفاحش في الجناية بعد الانفصال حيا] (1) .

● هذا ولقد أجمع علماء المسلمين على تحريم الإجهاض بعد نفخ الروح أي بعد 120 يوما من أيام تكون الجنين ، فالإجهاض بعد النفخ حرام قطعا إلا في حالة واحدة وهي إذا كان في بقاء الجنين خطر مؤكد على حياة الأم ، وشهد بذلك الأطباء الثقات فلقد أجاز الفقهاء الإجهاض في هذه الحالة ، أما قبل نفخ الروح فهناك خلاف بين الفقهاء في حكم الإجهاض في تلك الفترة ، وفيما يلي بيان ذلك :

أولا رأي الأحناف

للحنفية في هذه المسألة رأيان :

الأول : يحرم الإجهاض قبل نفخ الروح بغير عذر ، فإن الماء بعد ما وقع في الرحم مآله الحياة ، فله حكم الحياة كما في بيضة صيد الحرم لو كسرهما المحرم ضمنها ، لأنها أصل الصيد (2) .

الرأي الثاني : يباح الإجهاض قبل أن يستبين شيء من خلقه ، يقول : الكمال بن الهمام في كتابه فتح القدير يباح الإسقاط بعد الحمل ما لم يتخلق منه شيء (3) .

ويقول ابن نجيم المصري في كتابه البحر الرائق : امرأة عالجت في إسقاط ولدها لا تأثم ما لم يستبين شيء من خلقه (4) .

وقال ابن وهبان قاضي (حماه) الحنفي : الإسقاط للبذرة الأولى محمول على حالة العذر ، أو أنها لا تأثم إثم القتل (5) .

(1) إحياء علوم الدين للغزالي 53/2 .

(2) الفتاوى الحنانية (فتاوى قاضيخان للإمام فخر الدين حسن بن منصور الأوزجدي الفرغاني الحنفي ت 295 هـ

410/3 ورد المختار على الدر المختار لابن عابدين 167/3 . (3) فتح القدير للكمال بن الهمام 495/2 .

(4) البحر الرائق شرح كنز الدقائق ابن نجيم المصري 233/8 ط دار الكتب العلمية بيروت .

(5) رد المختار على الدر المختار لابن عابدين 176/3 .

ومن الأعداء المقبولة للإسقاط عند الحنفية ما ذكره صاحب الفتاوى الخانية وهو لا يرى الإسقاط قبل نفخ الروح إلا لعذر فقد قال رحمته : [والمرضة إذا ظهر بها الحبل وانقطع لبنها وليس في مقدور الأب استئجار ظئر ، ويخاف هلاك الولد ، قالوا يباح لها أن تعالج في استئزال الدم ما دام الحمل نطفة أو علقة أو مضغة لم يخلق له عضو ، وقدروا تلك المدة بمائة وعشرين يوماً وإنما يباح لها إفساد الحمل باستئزال الدم لأنه ليس بآدمي ، فيباح لصيانة الآدمي] (1) .

مذهب المالكية : حرمة الإجهاض قبل نفخ الروح سواء بعد الأربعين يوماً أو قبلها ، وجاء في الشرح الكبير للدردير في فقه المالكية : [ولا يجوز إخراج المني المتكون في الرحم ولو قبل الأربعين يوماً ، وإذا نفخت فيه الروح حرم إجماعاً] (2) .

مذهب الشافعية : يحرم الإجهاض بعد الأربعين يوماً باتفاق عند علماء المذهب واختلف في الإجهاض قبل الأربعين والراجح عندهم هو التحريم ، ورد في نهاية المحتاج [اختلف أهل العلم في النطفة قبل تمام الأربعين على قولين قيل لا يثبت لها حكم السقط والوَأد ، وقيل لها حرمة ولا يباح إفسادها ولا التسبب في إخراجها بعد الاستقرار في الرحم بخلاف العزل فإنه قبل حصولها فيه ، قال الكرايسي سألت أبا بكر بن أبي سعيد الفراني عن رجل سقى جاريته شراباً لتسقط ولدها ؟ فقال : ما دامت نطفة أو علقة فواسع له ذلك إن شاء الله تعالى] (3) .

وقال الشبراملسي في حاشيته : [واختلفوا في جواز التسبب في إلقاء النطفة بعد استقرارها في الرحم فقال أبو إسحاق المروزي يجوز إلقاء النطفة والعلقة ونقل ذلك عن أبي حنيفة وفي الإحياء للغزالي في مبحث العزل ما يدل على تحريمه وهو الأوجه لأنها بعد الاستقرار آيلة إلى التخلق المهياً لنفخ الروح ولا كذلك العزل] (4) .

مذهب الخنابلة : يباح للمرأة إلقاء النطفة قبل أربعين يوماً بدواء مباح ويؤخذ من هذا أن الإجهاض بشرب الدواء المباح في هذه الفترة حكمه الإباحة ، ونقل ابن قدامة في المغني : أن من ضرب بطن امرأة فألقت جنيناً فعليه كفارة وغرة ، وإذا شربت الحامل

(1) الفتاوى الخانية 410/3 .

(2) الشرح الكبير للدردير بحاشية الدسوقي 266/2 ويراجع بداية المجتهد لابن رشد 453/2 ط الكليات الأزهرية .

(3) نهاية المحتاج للرملي 416/8 .

(4) حاشية أبي الضياء الشبراملسي القاهري على نهاية المحتاج 179/6 .

دواء فألقت به جنينا فعليها غرة وكفارة ، ومقتضى وجوب الكفارة أن المرأة آثمة فيما فعلت ويؤخذ من النصوص التي ساقها ابن قدامة أن الضمان لا يكون إلا بالنسبة للجنين الذي ظهرت فيه الروح على الصحيح (1) .

مذهب الظاهرية : ورد في المحلى لابن حزم الظاهري [مسألة : المرأة تتعمد إسقاط ولدها - إن كان لم ينفخ فيه الروح فالغرة عليها ، وإن كان قد نفخ فيه الروح فإن كانت لم تتعمد قتله فالغرة - أي دية الجنين - على عاقلتها والكفارة عليها ، وإن كانت تعمدت قتله فالقود : القصاص عليها - أو المفاداة في مالها فإن ماتت هي في كل ذلك قبل إلقاء الجنين ثم ألقته فالغرة واجبة في كل ذلك ، في الخطأ على عاقلة الجاني - هي كانت أو غيرها - وكذلك في العمد قبل أن ينفخ فيه الروح ، وأما إن كان قد نفخ فيه الروح فالقود على الجاني إن كان غيرها ، وإن كانت هي فلا قود ، وغرة ، ولا شيء لأنه لاحكم على ميت ، وماله قد صار لغيره] (2) .

وهذا يعني أن الظاهرية لا يجيزون إسقاط الحمل لا قبل مضي أربعة أشهر على الحمل ، ولا بعد مضي هذه المدة ، ولم يذكر ابن حزم استثناء من منع الإسقاط لا لمرض ولا لغيره من عذر (3) .

وجاء في فتوى صادرة عن دار الإفتاء المصرية سنة 1968 م برقم (1097) حكم الإجهاض :

- اتفق الفقهاء على أنه لا يجوز إسقاط الحمل بعد نفخ الروح ، ويعتبر الإسقاط في هذه الحالة جناية على حي ، وجريمة يعاقب مرتكبها دنوباً وأخروياً .
- إذا كان في بقاء الحمل إلى وقت الوضع خطر على حياة الأم بتقرير الأطباء المختصين وذوي الكفاءة والأمانة ، فإنه يباح إسقاطه ، بل يجب إذا تعين ذلك لإنقاذ حياة الأم .
- اختلف الفقهاء في حكم إسقاط الجنين قبل نفخ الروح وظاهر أقوال الحنفية ترجيح القول بعدم جواز الإسقاط إلا لعذر (4) .

(1) يراجع المغني لابن قدامة الحنبلي 815/8 والروض المربع بشرح زاد مختصر المقنع 316/2 - والفروع 191/6 .

(2) المحلى 31/11 .

(3) يراجع المفصل في أحكام المرأة والبيت المسلم د . عبد الكريم زيدان 124/3 والإجهاض بين الطب والدين وخطره على المسلمين لنخبة من العلماء جمع وترتيب الشيخ صفوت الشوافي ط دار الطباعة والنشر الإسلامية سنة 1994 .

(4) الفتاوى الإسلامية 2573/7 الصادرة عن دار الإفتاء المصرية .

- وفي قرار مجلس هيئة كبار العلماء رقم 140 بتاريخ 1407/6/20 هـ ما يلي : لا يجوز إسقاط الحمل في مختلف مراحلہ إلا لمبرر شرعي وفي حدود ضيقة جدا .
- إذا كان الحمل في الطور الأول وهي مدة الأربعين وكان في إسقاطه مصلحة شرعية ، أو دفع ضرر جاز إسقاطه ، أما إسقاطه خشية المشقة في تربية الأولاد أو خوفا من العجز عن تكاليف معيشتهم وتعليمهم أو من أجل مستقبلهم ، أو اكتفاء بما لدى الزوجين من الأولاد فغير جائز .

والله تعالى أعلم

المبحث السادس

أم جميل امرأة أبي لهب

في هذا البحث :

- أولاً : ما نزل في شأن أم جميل وزوجها . ثانياً : بين يدي سورة المسد .
ثالثاً : التفسير التحليلي . رابعاً : المعنى الإجمالي .

أولاً : نزول سورة المسد في شأن أم جميل وزوجها أبي لهب

قال تعالى : ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ۝ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝ وَأَمْرَاتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ۝ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ۝ ﴾ (1) .

ثانياً : بين يدي السورة

- أم جميل : هي أروى بنت حرب بن أمية أخت أبي سفيان بن حرب .
كنيتها أم جميل ، وهي امرأة عدو الله أبي لهب ، الذي ناصب الرسول ﷺ العدا ، ولم يراع حقاً للقرابة والجوار ، فلقد كان بمس العم وبمس الجار ، لم يكتف بتخاذله عن نصرة ابن أخيه وحمايته ، بل عاداه وحاربه واجتهد في صد الناس عنه .
- روى الإمام البخاري في صحيحه بسنده عن ابن عباس ؓ قال : « لما نزلت ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ صعد النبي ﷺ على الصفا فجعل ينادي : يا بني فهر ، يا بني عدي - لبطون قريش - حتى اجتمعوا ، فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولا ليعرف الأمر ، فجاء أبو لهب وقريش ، فقال رسول الله ﷺ : أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلاً بالوادي تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقي ؟ قالوا : نعم ، ماجرنا عليك إلا صدقا . قال : فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد . فقال أبو لهب : تباً لك سائر اليوم ، ألهذا جمعتمنا ؟ فنزلت ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ﴾ إلى آخر السورة (2) .
- واصل أبو لهب عداوته الشديدة للرسول ﷺ ، فكان يتبعه في موسم الحج وفي الأسواق ،

(1) سورة المسد .

(2) رواه الإمام البخاري في صحيحه عن ابن عباس ؓ ك التفسير باب ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ سورة

ويكذبه، ويقول للناس لا تصدقوه فأنا عمه وأعرف الناس به (1)، إنه ابن أخي وأنا أعلم أنه كذاب، وكانت أم جميل تحمل الشوك وتنتثره في طريق رسول الله ﷺ، وكانت امرأة سليطة اللسان.

ولما نزلت سورة المسد غضبت أم جميل واشتد حنقها على الرسول ﷺ، وعلى ما جاء به فذهبت إليه والشر يتطاير منها والحقد يحملها والغدر يقودها. حتى وصلت إلى رسول الله ﷺ وهو جالس مع أبي بكر الصديق ؓ عند الكعبة، وفي يدها فهر (2).

فلما وقفت أمامهما، ذهب الله يبصرها عن رسول الله ﷺ، فلم تبصر سوى أبي بكر ؓ، فقالت له: يا أبا بكر أين صاحبك؟ قد بلغني أنه يهجونني! والله لو وجدته لضربته بهذه الحجارة، أما والله إنني لشاعرة... ثم أنشدت:

مذمما عصينا * وأمره أبينا * ودينه قلينا

ثم انصرفت، فقال أبو بكر ؓ: يا رسول الله أما تراها رأتك؟ فقال ما رأتني؛ لقد أخذ الله يبصرها عني.

وذهبت أم جميل إلى أخيها أبي سفيان تثير ثائرتة وتدفعه دفعا إلى الاعتداء على رسول الله ﷺ، ويرضح لها أبو سفيان ويقول لها سأكفيك إياه، وتنفرج أسارير تلك الحاقدة، ولكن سعادتها لا تكتمل بل خاب ظنها وضل سعيها لأن أبا سفيان لم يجرؤ على الاقتراب من رسول الله ﷺ إذ إنه حين وصل إليه متقلدا سيفه رأى ثعبانا فاغرا فاه متأهبا للفتك به، فخاف أبو سفيان وعاد من حيث أتى (3).

ذكر الإمام الفخر الرازي في تفسيره: أنها قالت لأبي بكر: قد دُكر لي أن صاحبك هجانني! فقال أبو بكر لا ورب هذا البيت ما هجاك. فقلت وهي تقول: قد علمت قريش أنني بنت سيدها.

● ولكن كيف يقسم أبو بكر برب البيت أن الرسول ﷺ لم يهجها؟

الجواب عن ذلك: أن أبا بكر صادق فيما قال، لأن القرآن لا يسمى هجوا، ولأنه كلام الله لا كلام الرسول ﷺ (4).

● ولقد قامت أم جميل بالضغط على ولديها (عتبة وعتيبة) من أجل تطليق ابنتي رسول الله ﷺ أم كلثوم ورقية، وقالت لولديها: «رأسي برأسيكما حرام إن لم تطلقا ابنتي محمد» ورضخ ولداها لرغبتها الخبيثة الخسيسية، والتي قصدت من ورائها إلى قطع تلك الوشيجة وإدخال الحزن والهم على قلب الرسول ﷺ، حتى ينشغل عن دعوته ويغفل عن رسالته وبالفعل قام عتبة بتطليق... وقام عتيبة بتطليق...

(1) سيرة ابن هشام 447/1.

(2) الفهر الحجر الذي يملأ الكف وقيل الحجارة مطلقا.

(3) سيرة ابن هشام 366/1، 367، الرحيق المختوم ص 101، 102.

(4) مفاتيح الغيب للرازي 763/32 بتصرف.

وأراد عتبة الخروج إلى الشام ، فقال : لآتين محمداً فلاؤذينه ؛ فأثاه فقال : يا محمد ، أنا كافر بالنجم إذا هوى وبالذي دنا فتدلى ، ثم تفل في وجه رسول الله ﷺ ورد عليه ابنته وطلقها ، فقال رسول الله ﷺ : اللهم سلط عليه كلباً من كلابك ، وكان أبو طالب حاضراً ، فوجم لها وقال : ما كان أغناك يا ابن أخي عن هذه الدعوة ! فرجع عتبة إلى أبيه فأخبره ، ثم خرجوا إلى الشام فنزلوا منزلاً ، فأشرف عليهم راهب من الدير فقال لهم : إن هذه أرض مسبغة⁽¹⁾ فقال أبو لهب لأصحابه أغثونا يا معشر قريش هذه الليلة ، فإني أخاف على ابني دعوة محمد ، فجمعوا جمالهم وأناخوها حولهم وأحدقوا بعتبة ؛ فجاء السبع يتشمم وجوههم ، حتى ضرب عتبة فقتله ، وفي ذلك قال حسان بن ثابت :

من يرجع العام إلى أهله فما أكيل السبع بالراجع⁽²⁾

ثالثاً : التفسير التحليلي للسورة الكريمة

- قوله تعالى : ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾ أي خابت وخسرت وهلكت وحرمت من كل خير ، وخص اليدين بالتباب ، لأن كثيراً من الأعمال تكون بهما ، وقيل المراد باليدين نفسه ، وقد يعبر عن اليدين بالنفس ، قال تعالى : ﴿ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتَ يَدَاكَ ﴾⁽³⁾ ، وعلى هذا فإنه عبر بالبعض وأراد الكل وهذا نوع من أنواع المجاز المرسل علاقته الجزئية .

وقيل : إن اليد هنا صلة كقولهم أصابته يد الدهر ويد الرزايا ويد المنايا : يقصدون بذلك أصابه الدهر وأصابته الرزايا والمنايا⁽⁴⁾ .

- وأبو لهب هو عبد العزى بن عبد المطلب عم رسول الله ﷺ ، وإنما وردت كنيته في السورة ولم يرد اسمه لأن اسمه عبد العزى ، والعزى صنم ولم يصف الله في كتابه العبودية لصنم ، وقيل لأن الله تعالى أراد أن يحقق نسبته بأن يدخله النار فيكون أباً لها ، تحقيقاً للنسب وإمضاءً للفأل والطيرة التي اختارها لنفسه⁽⁵⁾ .

- وقيل كنى بذلك لتلهب وجنته وإشراقها ، فيجوز أن يذكر بذلك تهكما به لأنه كان يفتخر بذلك⁽⁶⁾ .

- وقوله تعالى ﴿ وَتَبَّ ﴾ أي وقد حصل ذلك كما تقول : أخزاه الله وقد فعل

(1) أرض مسبغة أي كثيرة السباع . (2) الكشاف ص 417 . (3) سورة الحج : 10 .
(4) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي 235/20 ، 236 ، مجمع البيان للطبرسي 851/10 .
(5) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي 236/20 ، 237 وحاشية الصاوي على الجلالين 495/4 .
(6) الكشاف للزمخشري 814/4 .

وأهلكه الله وقد هلك (1) .

فالأولى دعاء عليه والثانية إخبار عن حاله ومآله . فالهلاك والخسران والمذلة والهوان عاقبته الأليمة في الدنيا والآخرة .

- ﴿ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ﴾ : لم ينفعه ذلك ولن يدفع عنه العذاب يوم القيامة ؛ ذكر عن ابن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما دعا قومه إلى الإيمان وأنذرهم من النار قال أبو لهب : (إن كان ما يقول ابن أخي حقا فإني أفتدي نفسي يوم القيامة من العذاب بمالي وولدي) (2) .

فبيّن المولى صلى الله عليه وسلم أنه لن ينفعه ماله وكسبه يوم القيامة . قال تعالى : ﴿ لَنْ تَنْفَعَكُم أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصَلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ (3) .

- وقال صلى الله عليه وسلم : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا نَقَبِلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (4) . يُرِيدُونَ أَنْ يُخْرَجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾ (4) .

- وقال سبحانه : ﴿ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴾ (5) . إِلَّا مَنْ أتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ (5) . ﴿ سَيَصِلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴾ : أي شديدة الاشتعال عظيمة الالتهاب زيادة في النكال والعذاب .

- ويلاحظ الصلة بين كنيته (أبو لهب) وبين مصيره المحتوم ﴿ سَيَصِلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴾ حيث وافقت كنيته عاقبته . وفي هذا من البلاغة ما فيه .

● يقول صاحب التحرير والتنوير : [ووصف النار بـ ﴿ ذَاتَ لَهَبٍ ﴾ : لزيادة تقرير المناسبة بين اسمه وبين كنيته إذ هو أبو لهب والنار ذات لهب وبين لفظي ﴿ لَهَبٍ ﴾ الأول و ﴿ لَهَبٍ ﴾ الثاني جناس تام] (6) .

وجه من وجوه إعجاز القرآن الكريم

- ولو أن أبا لهب أسلم أو أسلمت زوجته لأقاما الحججة على خلاف ما جاء به القرآن ولكنهما ظلا على كفرهما وعنادهما حتى أهلكهما الله صلى الله عليه وسلم وفي هذا دليل واضح

(1) حاشية الجمل 601/4 وحاشية الصاوي 495/4 والجواهر في تفسير القرآن الكريم للشيخ طنطاوي جوهرى

285/26 ط 2 سنة 1350 هـ البايي الحلبي . (2) تفسير القرآن العظيم لابن كثير 564/4 .

(3) سورة الممتحنة : 3 . (4) سورة المائدة : 36 ، 37 .

(5) سورة الشعراء : 88 ، 89 . (6) التحرير والتنوير 604/15 بتصرف .

ويرهان على صدق ما جاء به القرآن الكريم .

- يقول ابن كثير في تفسيره : [قال العلماء : (وفي هذه السورة معجزة ظاهرة ودليل واضح على النبوة فإنه منذ نزل قوله تعالى : ﴿ سَيَصِلَ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝۱۰ ﴾ وَأَمْرَاتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ۝۱۱ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ۝۱۲ ﴾ فأخبر عنهما بالشقاء وعدم الإيمان لم يقيض لهما أن يؤمنا ولا واحد منهما لا باطنا ولا ظاهرا ، ولا سرا ولا علانية فكان هذا من أقوى الأدلة الباهرة الباطنة على النبوة الظاهرة) [(1) .

- ﴿ وَأَمْرَاتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ۝۱۱ ﴾ : كانت تحمل الأشواك وتنثرها أمام بيت رسول الله ﷺ إيذاء له فكان جزاؤها في الآخرة من جنس عملها في الدنيا ، حيث تحمل الحطب على ظهرها في نار جهنم لترداد النار حرارة والتهابا وسعيرا عليها وعلى زوجها التي كانت تنفث فيه روح الحقد وتذكي نار غضبه وتضرم لهيب حسده لرسول الله ﷺ فيزداد حنقا عليه وإيذاء له .
- وقيل كانت تمشي بين الناس بالنميمة فتنمي العداوة بينهم كما تزداد النار اشتعالا وحرارة حين يلتقى الحطب فيها .

● قال القرطبي : [قال ابن عباس ومجاهد وقتادة : ﴿ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ۝۱۱ ﴾ كانت تمشي بالنميمة بين الناس ، تقول العرب فلان يحطب على فلان إذا ورش به - أي حرش به ، وأغري به قال الشاعر :

إن بني الأدرم حملوا الحطب هم الوشاة في الرضا والغضب

عليهم اللعنة تترى والحرب (2) .

وقال أكتثم بن صيفي لبنيه : « يا بني إياكم والنميمة فإنها محرقة للقلب ، وإن النمام ليعمل في ساعة ما لا يعمل الساحر في شهر » .

وفي هذا المعنى يقول الشاعر :

إن النميمة نازٌ ويك محرقة ففِرَّ عنها وجانب من تعاطاها

« ولذلك قيل : نار الحقد لا تخبو » وثبت عن النبي ﷺ أنه قال : « لا يدخل الجنة نمام (3) » [(4) .

(1) تفسير ابن كثير 565/4 بتصرف .

(3) الحديث أخرجه البخاري في صحيحه عن حذيفة بن اليمان ك / الأدب باب ما يكره من النميمة حديث 6056 فتح

الباري بشرح صحيح البخاري 487/10 وأخرجه مسلم في صحيحه عنه ك / الإيمان باب بيان غلظ تحريم النميمة حديث 168

واللفظ لمسلم صحيح مسلم بشرح النووي 112/2 . (4) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي 239/20 بتصرف .

وقيل ﴿ حَمَالَةَ الْحَطَبِ ﴾ : كانت تُعَيِّرُ رسولَ الله ﷺ بالفقر ثم إنها كانت تحتطب بنفسها وتحمل الحطب على ظهرها لشدة بخلها وحرصها فعميت بالبخل . روي هذا القول عن قتادة (1) .

وقيل ﴿ حَمَالَةَ الْحَطَبِ ﴾ : أي حمالة الخطايا والذنوب ، وإذا كان الحطب يشعل النار فإن الخطايا والآثام تلقي بصاحبها في النار ، قال تعالى : ﴿ وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ أَلَا سَاءَ مَا يَزِينُونَ ﴾ (2) .

قريء (حمالة) بالرفع و (حمالة) بالنصب (3) .

فالرفع على أن (حمالة) خبر أول ل (وامرأته) وجملة ﴿ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴾ في محل رفع خبر ثان .

والنصب على الذم أو الحال من (وامرأته) والمعنى (أنها تصلى ناراً ذات لهب) ... حال كونها (حمالة الحطب) لما ورد أنها تحمل الحطب في نار جهنم كما كانت تحمله في الدنيا . وفي التعبير بصيغة المبالغة (حمالة) على وزن (فعالة) لبيان أن صنيعها هذا صفة ملازمة لها لا تنفك عنها ، وعمل دؤوب لا تنقطع عنه .

﴿ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴾ : الجيد : العنق و ﴿ فِي جِيدِهَا ﴾ أي في عنقها . قال امرؤ القيس :

وجيدٌ كجيدِ الديمِ ليس بفاحشٍ إذا هي نصتُهُ ولا بمعطلٍ (4)

والمسد : هو جبل من ليف أو خوص أو شعر أو وبر أو صوف (5) .

وقال سعيد بن المسيب (6) : كانت لها قلادة فاخرة فقالت لأنفقتها في عداوة محمد فأعقبها الله تعالى حبلا في جيدها من مسد جهنم ، لأن الجزء من جنس العمل (7) .

(1) المرجع السابق 240/20 بتصرف . (2) سورة الأنعام : 31 .

(3) قرأ عاصم بالنصب ، وقرأ الباقون بالرفع ، يراجع النشر في القراءات العشر 404/2 .

(4) ديوان امرؤ القيس ص 16 ط دار المعارف .

() والديم (الظبي الأبيض الخالص البياض ، (نصته) أي رفعته ، (معطل) لا حلي عليه ، وقوله (ليس بفاحش) أي ليس بكره المنظر . (5) لسان العرب 6/4199 .

(6) هو سعيد بن المسيب بن حزن ، تابعي جليل ، من كبار القراء والفقهاء ومن المحدثين الثقات .

تراجع ترجمته في تقريب التهذيب 306/1 .

(7) تفسير القرآن العظيم لابن كثير 564/4 بتصرف . ويراجع الجامع لأحكام القرآن للقرطبي 242/20 .

- وقيل : في عنقها حبل يجمع بين خشونة الليف وحرارة النار ، وثقل الحديد يجعل في عنقها زيادة في عذابها .

- وقيل : سلسلة من حديد طولها سبعون ذراعاً تدخل من فيها وتخرج من دبرها وتدار حول عنقها في النار ، ورد هذا القول عن ابن عباس وعروة بن الزبير .
وسميت السلسلة مسدًا بمعنى أنها ممسودة أي مفتولة (1) .

- قال الشيخ سعيد حوى : [ويرجح أن المراد به الإشارة إلى نوع من أنواع عذابها في الآخرة ، فهو حبل من النار أو سلسلة ذرعها سبعون ذراعًا أو قلادة من نار] (2) .
- أقول : وفي هذا العذاب إهانة وإيلام ؛ فهو عذاب حسي وعذاب معنوي .

فالجيد هو من محاسن المرأة ومفاتها ، سيما إذا حلي بقلادة ثمينة تزيد حسنا على حسن ، ولقد تبارى الشعراء في وصف جيد المرأة وإبراز محاسنه ومفاته .
قال الأعشى :

يوم تبدى لنا قُتَيْلَةً عن جيد أسيل تزينه الطوق
وقال امرؤ القيس :

وجيد كجيد الديم ليس بفاحش إذا هي نصته ولا بمعطل
وإذا كانت المرأة تجتهد في تحلية جيدها بالعقود الفريدة الثمينة فإن أم جميل لا حلي لها في الآخرة سوى المسد الذي يطوق عنقها ، وفي هذا إهانة لها ونكال بها ووبال عليها .

رابعًا : المعنى الإجمالي

بدأت هذه السورة الكريمة بوعيد شديد لأبي لهب الذي حمله الحقد والحسد والغرور والكبرياء على مناصبة رسول الله ﷺ العداة ؛ فاستحق الهلاك والخسران ، والمذلة والهوان في الدنيا والآخرة (3) .

(1) مجمع البيان للطبرسي 852/10 بتصرف . (2) الأساس في التفسير 6742/11 بتصرف .

(3) ذكر لنا التاريخ تلك الميعة الشنيعة التي ماتها أبو لهب ، وذلك أنه أصيب بداء يسمى داء العدسة وهو عبارة عن قرح تملأ البدن وهو مرض وبائي ، ولقد أصاب أبا لهب عقب انتصار المسلمين في غزوة بدر ، كما أصابته الحسرة والندامة والغم . ولما أصيب بهذا الرباء تخلى عنه أهله وعشيرته فلبث سبع ليالٍ وحيدًا مستوحشًا حزنيًا كثيرًا لا يعبأ به أحد حتى هلك وبقي ثلاثة أيام لا يقترب من جثته أحد ، ولما أنتنت جثته وخشي أولاده السبة والعار في تركها =

﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿٦٨﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ﴿٦٩﴾ .

ثم تحدثت السورة عن شريكته في تلك الحملة العدائية الحاقدة وهي أم جميل ، تلك المرأة التي ملأ الحقد عليها أقطار قلبها ، وظهر ذلك على لسانها بذاة وسلاطة ، وعلى سلوكها سوءا وقبحا ، تقف من وراء أبي لهب ، تنفث فيه سمومها وتدفعه دفعا إلى مواصلة العداء والإيذاء والتصدي لدعوة الحق .

وكما كانت قرينته في تلك الحملة فهي قرينته في نار جهنم

﴿ وَأَمْرَاتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ﴿٧٠﴾ .

كناية عن سعيها بالنميمة وبثها العداوة والبغضاء بين الناس ، وقيل تعبيرا عن شحها حيث كانت تحتطب بنفسها وتحمل الحطب على ظهرها أو رأسها مع أنها تملك من المال ما يغنيها ويكفيها عن القيام بهذه المهمة ؛ إن استأجرت من يقوم بذلك .

وقيل إخبارا عن عداوتها لرسول الله ﷺ وإيذائها له ونثرها الأشواك أمام بيته .

﴿ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسْمُومٍ ﴿٧١﴾ .

في عنقها حبل من مسد جهنم زيادة في العذاب والنكال والإهانة ، حبل تنأى عن حملة الجبال ، يطوق عنقها جزاء وفاقا لكفرها وعنادها وفسادها ولحقدتها الذي ملأ عليها شغاف قلبها فنزع الرحمة منه ، وأعمى بصيرتها ، وأطاح بعقلها .

إن أم جميل مثلٌ سيئٌ للمرأة الحاقدة الحاسدة التي يطغىها الحقد ويعميها الحسد .

= دون أن توارى حفروا له حفرة ودفعوه إليها بقصن شجرة حتى سقط في الحفرة ، ثم أقفوا عليه الحجارة من بعيد حتى توارى جثته ، فصاروا كأنهم يرمونها ويشيعونه بهذه الرجوم . وهكذا يموت هذا الحاسد الحاقد هما وغما وغيظا وكمدا . تراجع : سيرة ابن هشام /1 ، 687 ، 688 والرحيق المختوم 264 ، 266 .
وصدق الشاعر إذ يقول :

حتى يَرَوْا فيكَ الذي يَكُمِدُ	لا ماتَ مُحْسِذُكَ بل نُحِلُّدُوا
فإنما الكاملُ من يُحَسِدُ	لا زلتَ محسودا على نعمة
فإنَّ صَبْرَكَ قاتلُهُ	اصبرْ على كيدِ الحسودِ
إن لم تجذْ ما تَأْكُلُهُ	فالنارُ تأكلُ بعضَهَا

الخاتمة

وتشتمل على

أولا : خلاصة البحث ونتائجه وتوصياته

● **القصص القرآني** هو إخبار الله تعالى في كتابه الكريم عن أحوال الأمم الماضية والنبوات السابقة والحوادث الواقعة في العهد النبوي .

وذلك مثل حديث القرآن الكريم عن الإسراء والمعراج ، والهجرة وغزوة بدر وأحد والأحزاب و صلح الحديبية وغزوة حنين وغزوة تبوك ، وحديث القرآن الكريم عن زواج الرسول ﷺ من زينب بنت جحش وعن براءة السيدة عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا من حديث الإفك .

● **للقصص القرآني** مقاصد سامية وأغراض حكيمة وفوائد عديدة تتواكب وتناسب مع المقصد العام للقرآن الكريم ، وهو هداية البشرية إلى ما يصلحها في عاجلها وآجلها في معاشها ومعادها .

● **فالقصص القرآني** عظة وعبرة ، وهداية ورحمة ، وتفصيل وحكمة ، وتثبيت للقلوب وتزكية للنفوس ، وسمو بالأرواح وزاد للدعاة ، ومشكاة للمبرين والمصلحين ، يحفز الهمم ، ويوقظ الأمم ، ويشير المشاعر والوجدان ، ويروح عن القلوب .

● **والقصص القرآني** حجة ساطعة وآية قاطعة تشهد بصدق رسول الله ﷺ فيما جاء به .

● **والقصص القرآني** ترسيخ للعقيدة ، وتثبيت لأصول الشريعة وبيان لعداوة إبليس اللعين للإنسانية جمعاء ، وجذور هذه العداوة وامتدادها وأخطارها عبر العصور والأجيال ، وبيان لأساليه الماكرة الغادرة في الإغواء والتضليل .

● **ومن أغراض القصص القرآني** مقارعة أهل الكتاب بالحجة والبرهان ، ومواجهتهم بما وقعوا فيه من التحريف والتبديل والكتمان ، وبيان القول الفصل فيما اختلفوا فيه ، والإجابة عن تساؤلاتهم وتفنيد مزاعمهم وشبهاتهم .

● **ومن أغراض القصص القرآني** بيان نعم الله تعالى على بني إسرائيل ومواقفهم الجاحدة من تلك النعم ، وتعنتهم مع أنبيائهم وسوء طبائعهم وفساد أخلاقهم .

- ويتميز القصص القرآني بالواقعية فهو تصوير حي وتعبير دقيق عن أحداث ماضية هذه الأحداث مليئة بالعبير والعظات التي نستمد منها ونترود بها في واقعنا المعاصر ، فهو واقعي في أحداثه ، واقعي في عبره وعظاته .
- ومن السمات البارزة للقصص القرآني : إيراد بعض قصصه في أكثر من سورة ، وفي هذا ما يدل على بلاغة النظم القرآني وإعجازه وهذا الأسلوب هو : عادة البلغاء وشيمة الفصحاء وهو أسلوب حكيم من أساليب التربية ، ومن خلاله تتجلى لنا الوحدة الموضوعية للقرآن الكريم .
- ويتميز القصص القرآني بدقة ألفاظه ورقتها ، وروعة أساليبه ورفعتها .

الفصل الأول

(حواء عَلَيْهَا السَّلَامُ)

- تحدث القرآن الكريم عن خلق حواء عَلَيْهَا السَّلَامُ ، وَيَسِّن أنها خلقت من آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ ، خلقتها الله عَلَيْهِ السَّلَامُ من أحد أضلاعه .
- اختلفت طبيعة المراة عن طبيعة الرجل نظرا لاختلاف مهمة كل في الحياة .
- لا يعني خلق حواء من أحد أضلاع آدم أن تكون أضلاعه ناقصة عن أضلاعها .
- خلق حواء من ضلع آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ دليل بيِّن على عظيم قدرة الله وبديع صنعته .
- لاصحة لما ورد في بعض كتب التفسير والحديث من نسبة الشرك إلى آدم وحواء أو إلى حواء وحدها ، ولقد أثبت بطلان هذه الرويات سندا ومتنا .
- في خلق حواء من أحد أضلاع آدم دليل على تفرعها منه وتبعيتها له فأدم عَلَيْهِ السَّلَامُ هو الأصل وحواء فرع منه وقصتها جزء من قصته .
- خلق حواء عَلَيْهَا السَّلَامُ من أحد أضلاع آدم حقيقة غيبية لا نعرف لها كيفية ، والذين ذهبوا إلى تحديد الضلع الذي خلقت منه لا دليل لهم على ما ذهبوا إليه والصواب أن نفوض علم ذلك إلى علام الغيوب .
- اختلف العلماء في تحديد الجنة التي سكنها آدم وحواء ، والذي أرجحه في هذه المسألة أنها جنة الخلد .

- آدم عليه السلام وزوجه حواء في المسئولية سواء ، أُسْكِنَا الجنة معا وَنُهِيا عن الأكل من الشجرة معا ، وحذرهما الله تعالى من وسوسة الشيطان ، وأكلا من الشجرة وبدت سوءاتهما ، وتابا معا إلى الله تعالى فتاب عليهما .
- فالمسئولية مشتركة ، لا كما ورد في العهدين القديم والجديد من إلقاء المسئولية على حواء وحدها .
- أكل آدم عليه السلام من الشجرة لا يقدر في عصمته ؛ لأن هذا الفعل من الصغائر غير الخسيصة ولقد تاب آدم عليه السلام وتاب الله عليه واصطفاه واجتباه .
- هبوط آدم عليه السلام وحواء من الجنة إلى الأرض كان مقدرًا في علم الله تعالى قبل أن يخلق آدم عليه السلام ولم يكن عقوبة لهما .
- في قصة آدم وحواء كثير من العبر والعظات والفوائد ، ولقد تناولنا بعضها منها ؛ حيث تحدثت عن الزواج في الإسلام ، وأثر الذنوب وعاقبتها الوخيمة على الفرد والمجتمع في العاجل والآجل ، ووجوب المبادرة إلى التوبة الخالصة ، والتحذير من الاغترار بالشیطان الرجيم .

الفصل الثاني

المرأة في قصة نوح عليه السلام

في هذا الفصل :

- تحدثت عن دعوة نبي الله نوح وموقف قومه من دعوته وموقف زوجته ، وهلاكها مع الهالكين ، كما تحدثت عن أهم ما يتعلق بالقصة من عبر وعظات .
- ومن الركائز الجوهرية لهذه القصة ما يلي :
- مكث نوح عليه السلام في قومه يدعوهم إلى الله تعالى ألف سنة إلا خمسين عاما .
- سلك نوح عليه السلام في الدعوة إلى الله تعالى أساليب متنوعة ، ومع ذلك فإنه لم يؤمن به إلا القليل ، أما الكثرة الكاثرة فلقد ظلت على كفرها ولم تردد إلا عتوا ونفورا .
- خيانة امرأة نوح : في الدين وليست في العرض ؛ لأن نساء الأنبياء معصومات من الوقوع في الفاحشة لحرمة الأنبياء عليهم السلام .

ومن الدروس المستفادة من هذه القصة :

- التوحيد هو أساس دعوة جميع الأنبياء ومحورها .
- ضرب نبي الله نوح عليه السلام أروع الأمثلة في الصبر والثبات على الحق والحكمة في الدعوة إلى الله عز وجل واليقين بوعده سبحانه .
- الكافر يعاقب على كفره ولا تنفعه قرابته من أهل الإيمان - في النسب أو المصاهرة كما أن المؤمن يثاب على إيمانه ولا يضره قرابته من الكافرين ، وامرأة نوح عليها السلام مع قرابتها وقربها منه إلا أنها كذبت به وآثرت ما عليه قومها من الكفر والضلال على ما جاء به زوجها نبي الله من الإيمان والهدى ، فلم تنفعها قرابتها له ولم يشفع لها قربها منه .

الفصل الثالث

سارة وهاجر « زوجا نبي الله إبراهيم عليه السلام »

- وفي هذا الفصل تحدثت عن سيدنا إبراهيم عليه السلام : دعوته وثباته على الحق ونجاته من النار التي ألقى فيها ، وهجرته إلى الشام ومنها إلى مصر مع زوجته سارة التي عصمها الله وحفظها من ملك مصر الذي فتن بجمالها .
- كما تحدثت في هذا الفصل عن البشارة بإسحاق عليه السلام ومن ورائه يعقوب تلك البشارة - المضاعفة - لإبراهيم عليه السلام ولزوجه سارة ، تكريما من الله لهما ، وجزاء على صبرهما وتضحيتهما .
- كما تحدثت عن ضيافة إبراهيم عليه السلام للملائكة الكرام وتناولت آداب الضيافة وفضل إكرام الضيف .
- كما تحدثت عن ضحك سارة ؛ فرحا واستبشارا بنجاة لوط ومن آمن به من أهل بيته وهلاك المكذبين المعرضين ، وفي ضحكها حين علمت بذلك الأمر إشارة إلى قوة إيمانها وحبها وولائها لأهل الإيمان وبغضها وبرائها من أهل الكفر والعصيان ، هنالك وفي ظل هذه المشاعر الإيمانية والأحوال الرضية جاءت البشارة بالذرية ...
- ولا صحة لما ذكره بعض المفسرين من أن الضحك مجاز عن الحيض ، ولقد بينت

- كما تحدثت عن نجاة نبي الله لوط ومن آمن به من أهل بيته وهلاك امرأته مع قومه الذين حل بهم العذاب .
- وفي الفوائد المتعلقة بالقصة : تحدثت عن ذم اللواط وعقوبة فاعله ، فبينت أنه شذوذ وانحراف ، وفسوق وإسراف ، وضلال ومذلة للرجال ، ومفسدة للنساء اللاتي قد يلجأن إلى إشباع شهوتهن عن طريق السحاق أو الزنا ؛ وذلك حين ينصرف الرجال عن نساءهم ؛ وهنا تتقوض أركان الأسرة وينفطر عقد المجتمع .
- كما تحدثت عن انتشار اللواط في المجتمعات الغربية بسبب الفراغ الديني والخواء الروحي .
- وتحدثت أيضا عن عقوبة اللواط في الشريعة الإسلامية ورجحت مذهب من قال : يقتل فاعله محصنا كان أو غير محصن فاعلا كان أو مفعولا به .
- كما تحدثت عن حكم السحاق وإتيان البهائم وإتيان المرأة في حيضها أو في دبرها وبينت ما يترتب على ذلك من أضرار .
- وفي الدروس المستفادة من القصة تحدثت عن أثر العقيدة في إصلاح الفرد والمجتمع ، وأهمية القوة في نصرته الحق ونشر الدعوة .

الفصل الخامس

قصة يوسف مع امرأة العزيز

في هذا الفصل :

- حققت القول في : من هو عزيز مصر ، وما معنى المرادة وما المقصود منها ، والتفسير الصحيح للهم والبرهان ، مع التنبيه على الإسرائيليات الواردة في هذا الشأن .
- كما تحدثت عن شهادة الجميع ببراءة يوسف عليه السلام وطهارته .
- وتحدثت أيضا عن الشاهد في القضية ورجحت أنه لم يكن طفلا في المهدي كما ورد في بعض كتب التفسير بل كان رجلا .
- كما تحدثت عن موقف امرأة العزيز من حديث النسوة ومكرها بهن ، وتحدثت أيضا عن تهديدها ليوسف بالسجن والصغار ، وعن تفضيل يوسف عليه السلام السجن الذي

كان طريقا لنجاته .

● وبينت في هذا الفصل صورة امرأة العزيز التي تعد نموذجا للمرأة المدللة المتسلطة الخائنة الماكرة ، الظالمة الشاكية ، نموذجا للمرأة المتحررة من القيم والأخلاق ، الراسفة في أغلال الهوى والأشواق ، المرأة الفاتنة الماجنة ، المرأة التي استغلت ميل زوجها لها وهيامه بها فأخذت بمجامع قلبه ، وسعت إلى تحقيق مآربها بسلطان جمالها ودلالها وسلاح إغرائها ، ومعسول كلامها .

المرأة التي لا تحفظ لزوجها عهدا ولا تصون له ودا ولا ترعى له حرمة .

● أما عن النسوة اللاتي خضن في شأنها فهن صورة مكررة لنساء القصور الزاخرة بالمتع والنعم ، الخاوية من الأخلاق والقيم ، الرافلات في المتع والملذات ، المنشغلات بسفاسف الأمور ، الفاتنات المفتونات ، العاذلات العشيقات ، الخادعات المخدوعات .

● أما العزيز فلم نجد له موقفا حاسما في هذه القضية ، يدل على حزمه وغيرته بل إنه - تحت سلطان المرأة - يسجن يوسف عليه السلام إرضاء لها .

● كما تحدثت في هذا الفصل عن العبر والعظات والفوائد المتعلقة بالقصة وهي أساس التربية القويمية - التربية حصن منيع - حرمة الاختلاط والخلوة بالمرأة الأجنبية وأثرهما السيئ - الاعتصام بالله تعالى وصيانة الحرمه والحفاظة على النعمة - من تبصر العاقبة أمن الندامة - منزلة الإخلاص وثمرته - الحكم بالقرائن العقلية - فضيلة العفة - ذم الهوى - أنواع النفوس - فائدة : حول الغيرة - كيد النساء - معنى قول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لعائشة رضي الله عنها « إنكن صواحب يوسف » - فضل الصبر - فتنة النساء - القصص القرآني أحسن القصص .

الفصل السادس

المرأة في قصة أيوب عليه السلام

وفي هذا الفصل دار الحديث حول ابتلاء أيوب عليه السلام بصنوف شتى من البلاء من ضمنها المرض الشديد .

● ولم يكن هذا المرض من الأمراض المنفرة المعديّة ؛ لأن الأنبياء معصومون من ذلك ومبرعون من كل العيوب والأمراض المنفرة .

● ولقد صبر نبي الله أيوب عليه السلام على البلاء وصبرت زوجته التي كانت مثالا طيبا ونموذجا رائعا للزوجة الصابرة ، الوفية .

● مكث أيوب عليه السلام في مرضه سنوات عديدة فلم يزد إلا إيمانا وثباتا ويقينا ورضا بقضاء الله .

● ولقد توجه عليه السلام إلى ربه داعيا متضرعا أن يكشف الله عنه الضر فاستجاب الله دعاءه وكشف الضر عنه .

● كان عليه السلام قد حلف على أن يضرب زوجته إن شفاه الله تعالى ، وقد اختلف في سبب حلفه ، قيل أنه أرسلها لقضاء بعض المهمات فأبطأت عليه وحلف ليضربنها مائة إذا برئ ، ولما كانت سندا له وعونا في محنته فرض الله له تحلة يمينه بأهون شيء عليه وعليها رحمة به وبها وإثابة له ولها .

وفي الفوائد المتعلقة بالقصة :

تحدثت عن حكم الحيلة في الشريعة الإسلامية ، ومتى يجوز للرجل أن يضرب زوجته ، وما هي الضوابط الشرعية لهذا الأمر .

الفصل السابع

المرأة في قصة موسى عليه السلام

في هذا الفصل :

تحدثت عن أم موسى وأخته وآسية بنت مزاحم ، ودورهن في حياة موسى عليه السلام وحققت القول في صالح مدين فبينت أنه ليس نبي الله شعيبا عليه السلام كما تحدثت عن فتاتي مدين وأدبهما وحشمتهما ، ومرورة موسى عليه السلام وقوته وأمانته ، وإخلاصه لله رب العالمين ، كما تحدثت عن زواج موسى عليه السلام من إحدى الفتاتين ، وعودته إلى مصر بعد أن أمضى عشر سنوات أجيرا لصالح مدين .

● لقد كان للمرأة دور فعال ومكانة بارزة في قصة موسى عليه السلام .

● فهذه أمه تعد مثالا طيبا للأمم الحانية ، والعاطفة الجياشة ، الصادقة النابعة المتدفقة ، المنضبطة المحكومة بالإيمان واليقين .

● فهي مع حبها لوليدها وخوفها عليه إلا أنها ألقته في اليم امتثالاً لأمر الله ويقينا في وعده ﷺ .

● وهذه أخته الطيبة : مثلاً طيباً للفتاة المسلمة البارة بأماها المحبة لأخيها ، الفتاة الذكية الحكيمة ولقد تجلّى ذكاؤها وحكمتها وحنكتهما حين قصت أثر أخيها في حيلة وحذر ، وتحدثت مع آل فرعون في شأن موسى - بثبات وحكمة وفطنة .

● أما آسية بنت مزاحم : امرأة فرعون ، وسيدة مصر الأولى فلقد ضربت أروع الأمثلة للمرأة المؤمنة الصالحة في البيئة الكافرة الفاسدة المرأة التي لم تغتر بجمالها ودلالها وسلطانها ، بل إنها تتخلى عن تلك المتع الفانية وتتطلع إلى ما عند ربها من نعيم مقيم ، المرأة التي تواجه أذى فرعون وبطشه بصبر وثبات ، المرأة التي ارتقت إلى أعلى درجات الكمال في عالم المرأة ، حتى اقترن ذكرها بذكر مريم بنت عمران وخديجة بنت خويلد وفاطمة بنت رسول الله ﷺ .

أما عن فتاتي مدين فلقد ضربتا أروع الأمثلة في الخلق الحسن ، النابع عن أصل طيب ، وتربية راشدة ، ولقد تجلّى ذلك واضحا في حياتهما وحشمتهما وبلاغتهما وبرهما بأبيهما « ذلك الشيخ الكبير » .

هذا ولقد تناولت في هذا الفصل دروسا وفوائد وأحكاما متعلقة بالقصة :

من ضمنها : موقف الإسلام من عمل المرأة ، والولاية على المرأة في النكاح ، والكفاءة في الزواج ، وجواز عرض الولي ابنته أو أخته على الرجل الصالح ليتزوج بها ، وحرية المرأة في اختيار شريك الحياة ، وفضل تربية البنات والإحسان إليهن .

الفصل الثامن

قصة نبي الله سليمان ﷺ مع بلقيس ملكة سبأ

وفي هذا الفصل :

تحدثت عن نعم الله تعالى على نبي الله سليمان ﷺ ، وتفقدته ﷺ للطير ، وغياب الهدهد وتوعده ﷺ له بالعذاب الشديد أو الذبح إن لم يكن لغيابه عذر مقبول . ومجيء الهدهد من مملكة سبأ نبأ يقين ووصفه الدقيق العميق لتلك المملكة ، ونظر

سليمان عليه السلام في أمر الهدهد ، وإرساله رسالة إلى بلقيس عن طريق الهدهد ومضمون هذه الرسالة وموقف بلقيس منها ، واستشارتها لأكابر قومها ، وإرسالها هدية رشوة إلى سليمان عليه السلام الذي رد الهدية ردًا عنيفا ، ومجيء بلقيس خاضعة مستسلمة ، وإيمانها بنبي الله سليمان عليه السلام بعد أن عاينت من المعجزات والدلائل ما يدل على صدقه عليه السلام من ذلك إحضار عرشها وتنكيره وبناء الصرح وغير ذلك .

ولقد حققت القول في : من الذي جاء بالعرش ، وكيف جاء به ؟ وكيف تنكيره ؟ والفائدة من ذلك ، ودخولها الصرح وإسلامها وهل تزوجها عليه السلام ؟ . ونهت في هذا الفصل على كثير من الإسرائيليات الواردة في قصة نبي الله سليمان وبينت بطلانها وتهافتها .

كما تناولت كثيرا من الفوائد المهمة المتعلقة بالقصة وهي :

- حكم تولية المراة الولاية العامة والقضاء - مبدأ الشورى في الإسلام .
- الابتلاء يكون بالخير والشر - فائدة حول رد سليمان عليه السلام للهدية .
- دروس مهمة في فن القيادة والحكم .

● هذا : وبلقيس : صورة للمراة حين تحكم فتلجأ إلى سلاح الحيلة والملاينة قبل سلاح القوة والمخاشنة ، المراة التي لا تقوى في كثير من الأحيان على المواجهة الصريحة الحاسمة ، ولكنها تركز إلى المراوغة والمداهنة وإن طال أمدها . المراة : المتوقدة الذكاء ، السريعة البديهة ، الفصيحة الحصيفة .

الفصل التاسع

حديث القرآن الكريم عن مريم عليها السلام

في هذا الفصل تحدثت عن نسبها الطاهر وأصلها الكريم ، إذ يرجع نسبها إلى نبي الله داود عليه السلام ومنه إلى خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام ﴿ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ (1) .

● وهي عَلِيَّةُ بنت عمران ذلك الحبر العابد الذي كانت له مكانة سامية في قلوب أهل التقى والصلاح .

● وأمها : امرأة عمران : مثال طيب للمرأة الصالحة التقية الوفية .

● تمت أن يرزقها الله بولد ذكر ونذرت إن تحققت تلك الأمنية الغالية أن تهب الموهوب للعبادة والخدمة في بيت المقدس ، ولما تحرك الجنين في أحشائها وتعلق رجاؤها بخالقها وبارئها أن يكون المولود ذكرا ، ومرت الأيام وجاءت ساعة المخاض وولدت بسلام ، إذ بها تفاجأ بخلاف ما تمت ، تلد أنثى فتفرح وتستبشر بهبة الله لكنها تقع في حيرة من أمرها ، ماذا تصنع في نذرها ؟ وهنا تتوجه إلى علام الغيوب قائلة كما أخبر تعالى في كتابه الكريم ﴿ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ ﴾ وأنت أعلم بما وضعت ، فماذا أصنع في نذري ؟ .

● وليس الذكر الذي رجوت ونذرت كالأنثى التي وضعتها ، فالأنثى لا تقدر على القيام بما يقوم به الذكر ؛ لما يعترئها من موانع شرعية تحول بينها وبين المكث في المسجد وذلك كالحيض والنفاس - عند الولادة - .

● ومع ذلك فإن امرأة عمران تعزم على الوفاء بنذرها ، فتبدأ بما عزم عليه بتسمية الوليدة - مريم - وهي في لغتهم تعني العابدة .

● وتتوجه امرأة عمران إلى ربها أن يعيد نذيرتها وذريتها من الشيطان الرجيم .

● هذا ولقد تقبل الله عَلَيْهَا من أم مريم نذرها وبارك لها في نذيرها فأنبئتها نباتا حسنا حتى نمت وترعرعت وأزهرت وأينعت في رياض الإيمان ودرجت في ساحة الطهر ، وتدرجت في مقامات الإحسان .

كفالة زكريا عَلَيْهِ لمريم

● أكرم المولى عَلَيْهَا مريم بأن جعل زكريا عَلَيْهَا كفيلا لها فكانت كفالته نعمة من الله ورحمة .

● ولقد تمت هذه الكفالة بتوفيق من الله عَلَيْهَا بعد أن تنافس الأحرار والرهبان على كفالتها كل يرغب في أن ينال هذا الشرف وأن يحظى بذلك المقام فمريم عَلَيْهَا بنت إمامهم ومعلمهم الذي مات دون أن تكتحل عيناه برؤيتها .

- ولما طال تنازعهم في هذا الأمر اتفقوا على الاقتراع فيما بينهم ، فأيهم يفوز بالقرعة ، فإنه يحظى بكفالة مريم ، ولقد حظي بذلك نبي الله زكريا عليه السلام .
- وكان من الثمرات اليانعة لهذا العمل الطيب الذي قام به نبي الله زكريا عليه السلام ما أخبر عنه القرآن من أنه عليه السلام كان كلما دخل عليها المحراب وجد عندها رزقا لم يحمله إليها ولا هو مما يعهد في هذا الوقت من الزمان ، قال المفسرون كان يجد عندها في الشتاء فاكهة الصيف ، وفي الصيف فاكهة الشتاء ، فسألها متعجبا ﴿يَمْرِمُ أَنَّ لَكَ هَذَا﴾ فقالت : ﴿هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ .
- وهنالك : بعد هذه الآية العجيبة والإجابة الشافية يتوجه زكريا عليه السلام إلى ربه أن يهبه الولد - مع كبر سنه وعقم زوجته - كما وهب مريم عليها السلام هذا الرزق - في غير أوانه .

- ويخبرنا القرآن الكريم في أكثر من سورة عن دعاء زكريا عليه السلام الذي نبع من قلب خالص ومن نفس زكية طاهرة ، ومن لسان صادق ، ومن عقل واع مستنير ، كما يخبرنا القرآن الكريم في أكثر من سورة باستجابة الله تعالى لزكريا عليه السلام وبشارة الملائكة له يحيى عليه السلام .

اصطفاء الله ﷻ لمريم

- نعم الله تعالى على مريم أكثر من أن تحصى ، فهي سليلة نسب طاهر ، وربيبية بيت صالح ، ولقد أكرمها الله ﷻ بأن جعلها في كفالة زكريا عليه السلام ، وأكرمها تعالى بأن رزقها رزقا كريما على خلاف ما جرت به العادة .
- كما اصطفاه على نساء عالمي زمانها في الطاعة والعبادة وعلى نساء العالمين بأن جعلها أما لمولود بغير أب .
- قيل إن مريم خير نساء عالمها فحسب ، وقيل خير نساء العالمين على الإطلاق ، اصطفاه الله ﷻ وطهرها من الكفر والمعصية ، ومن الأخلاق الذميمة ، ومن الحيض والنفاس ، ومن اتهام أهل الزينغ والضلال .

قصة مريم في القرآن الكريم وجه من وجوه إعجازه

جاء القرآن الكريم بالقول الفصل المبين في هذه القصة ، وكشف عن كثير من

الحقائق الغيبية التي لم ترد في العهد الجديد من ذلك نذر امرأة عمران ، وكفالة زكريا عليه السلام لمريم بعد تنافس الأخبار واقتراعهم ، وكرامة مريم عليها السلام التي شهدها زكريا عليه السلام .
كل هذه التفاصيل المهمة في القصة لم يرد لها ذكر في العهد الجديد في حين اشتمل هذا العهد على أباطيل واقتراءات وتناقضات واضطرابات .

بشارة الملائكة لمريم عليها السلام بعيسى

اصطفى الله تعالى مريم عليها السلام وطهرها وأمرها بالاجتهاد في العبادة والمداومة على الطاعة والخشوع والخضوع له سبحانه ، وتهيأت مريم للآية العجيبة وهي حملها بعيسى عليه السلام بدون أب ، وكما بشرتها الملائكة بأنها المصطفاة الطاهرة فلقد بشروها بأن الله اصطفاه لتلك المهمة العظيمة الشأن .

موقف مريم من البشارة

ولقد تعجبت مريم من هذه البشارة العجيبة فذكرها الملائكة الكرام بأن الله تعالى قادر على كل شيء له الخلق والأمر ﴿ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾

مجيء جبريل عليه السلام وظهوره لمريم في صورة بشرية

جاء جبريل عليه السلام إلى مريم ودخل عليها خلوتها ففزعت منه واستعاذت بالله تعالى قائلة كما أخبر القرآن : ﴿ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِن كُنْتَ تَقِيًّا ﴾ وفي ذلك ما يدل على ورعها وعفافها وشدة حياتها فأزال عنها خوفها ووضح لها أنه ملك مرسل من عند الله تعالى ليهب لها غلاما زكيا ، فتعجبت وتساءلت عن كيفية تحقق هذه البشارة العجيبة ؛ لأن العادة جرت أن الولادة لا تكون إلا عن حمل من رجل ، والحمل إما أن يكون بزواج شرعي أو طريق غير شرعي ، وهي عليها السلام لم يمسهها بشر بزواج ، وحاشاها أن تكون بغيا ، وهنا يبين لها الملك أن هذا الأمر العجيب خارق لنواميس الكون ، بقدرة الذي يقول للشيء كن فيكون .

حصول النفخ ، والحمل

وبعد أن سكنت مريم لأمر الله ورضيت بقضاء الله ، وأيقنت أن تلك إرادة الله وحكمته ، نفخ فيها روح القدس فحملت بعيسى عليه السلام ، ولقد اختلف المفسرون في

تحديد سنها حين حملت .

● والذي أرجحه أنها كانت في مرحلة من العمر يمكن فيها الحمل وتتهياً أسبابه ، هذا مع كمال عقلها وحسن إدراكها واختلفوا في مدة حملها ، والذي أرجحه أنه كان حملاً طبيعياً كعادة غالب النساء ولو كان حملها على خلاف ما جرت به العادة لكان أمراً عجيباً خارقاً ، ولأورده القرآن الكريم كما أورد أموراً أخرى عجيبة وقعت لمريم . واختلفوا في المكان القصي الذي انتبذت إليه مدة حملها والذي أرجحه أنه شرقي بيت لحم لما ورد في السنة النبوية من حديث الإسراء والمعراج (.... صليت بيت لحم حيث ولد عيسى ابن مريم) (1) .

مجيء المخاض وتمنيها الموت من شدة ما مر بها

جاءها المخاض وهي وحيدة فريدة في مكان بعيد فتمنت الموت من شدة ما مر بها ومن فرط حياؤها من كلام الناس الذي ينتظرها حين تقدم عليهم بوليدها الذي جاء على خلاف ما جرت به العادة ؟ فلا يصدقونها .

تمنت لو أنها ماتت قبل هذا الموقف العصيب ، وكانت نسيا منسيا أي شيئاً حقيراً لا يعتد به ، شيئاً من شأنه أن ينسى فلا يذكر .

ولادة عيسى ﷺ وما صحبها من رحمت ونفحات

وفي غمرة هذه الآلام التي ألمت بمريم وهي تعاني من آلام المخاض والوحدة والوحشة ، وتترقب ما ينتظرها من قومها ، في غمرة هذه الآلام الحسية والنفسية تدركها رحمة الله وجميل ألطافه فيتحول عسرهما يسراً ، فيولد عيسى ﷺ وينطقه المولى ﷺ فينادي أمه قائلاً كما أخبر القرآن : ﴿ فَتَادَبَهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ۝٢٤ وَهَزَيْتَ إِلَيْكَ يَجِدُكَ الْوَحْلَةَ سَنَقُطُ عَلَيْكَ رَطْبًا جَنِيًّا ۝٢٥ فَكَلِمَةَ أَشْرَىٰ وَفَرَىٰ عَيْنًا فَإِمَّا تَرِينِ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا ۝٢٦ ﴾ (2) .

● ولقد رجحت أن المنادي هو عيسى ﷺ .

كما تحدثت عن مجيء مريم إلى قومها ومعها عيسى ﷺ ومسارعتهم إلى اتهامها ،

و كلام عيسى عليه السلام في المهد ببراءة ساحة أمه و طهارتها و استهلاله الكلام ببيان عبوديته لله رب العالمين و بيان نعم الله تعالى عليه و التي من أجلها نعمة النبوة .

كما تناولت أهم الفوائد المتعلقة بالقصة و هي :

عامل الوراثة و البيئة و أثرهما في التربية . فائدة حول حرية المرأة في الإسلام . فائدة حول قضية المساواة بين الرجل و المرأة و موقف الإسلام منها . الترغيب في كفالة اليتيم . مشروعية القرعة في الإسلام . كرامات الأولياء . حب الولد فطرة إنسانية . آداب الدعاء . فضل المداومة على الذكر . درس هام في الدعوة إلى الله عز وجل . امرأة زكريا عليه السلام . فائدة حول نفخ الروح في عيسى عليه السلام . حكم تمنى الموت . التوكل على الله لا يتنافى مع الأخذ بالأسباب . فوائد الرطب للنفساء . حكم نذر الصمت في الشريعة الإسلامية .

الفصل العاشر

نساء في العهد النبوي . أنزل الله في شأنهن قرآنا

و لقد قسمت هذا الفصل إلى : ستة مباحث :

المبحث الأول وفيه تحدثت عن نزول القرآن الكريم معقبا على حادثة الإفك مبينا براءة أم المؤمنين عائشة (رضي الله عنها) ، التي أنزل الله في براءتها آيات بينات اشتملت على حكم بالغة و أحكام بليغة فيها الخير و الصلاح و الطهر و العفاف للمجتمع المسلم .

● و لقد أجمع العلماء على كفر من قذف أم المؤمنين عائشة بعد نزول براءتها ، و في بقية أمهات المؤمنين (رضي الله عنهن) قولان : أصحهما أنهن كعائشة رضي الله عنها يكفر من قذفهن .

● و مذهب أهل السنة و الجماعة أن مرتكب الكبيرة ليس بكافر إلا إذا كان مستحلا لها .

● الإسلام دين الطهر و العفاف و العدالة و الإنصاف و العزة و الكرامة ، و لقد اشتمل هذا الدين الحنيف على تشريعات حكيمة ، و آداب قويمة تهدف إلى حماية الأعراس و صيانة الحرمات من ذلك تحريم الزنا و القذف و تجريمهما ، و التشديد و التأكيد على حرمة الأعراس و بيان اقترانها بحرمة الدماء و الأموال ، و أن المسلم إذا مات و هو يدافع عن عرضه فهو شهيد ، و حرم الإسلام السخرية بالآخرين و سوء الظن في غير ريبة و التجسس

وتتبع العورات والغيبة والبهتان .

ودعا الإسلام إلى الستر على المسلمين وإحسان الظن بهم إلا إذا تبين خلاف ذلك وأمر بالتثبت من الأخبار والتحري في النقل ، كما أمر بحفظ اللسان والانشغال بإصلاح النفس قبل الانشغال بإصلاح الغير .

وفي المبحث الثاني تحدثت عن زواج الرسول ﷺ بزینب بنت جحش والحكمة التشريعية من هذا الزواج وحققت القول في أسباب نزول الآيات الكريمة الواردة في هذا الشأن وقمت بتفسيرها تفسيراً تحليلياً ، كما تحدثت عن حكمة إباحة الإسلام تعدد الزوجات وعن حكمة تعدد زوجات الرسول ﷺ .

وفي المبحث الثالث (ما نزل في سورة التحريم في شأن أمهات المؤمنين) تحدثت عن سبب نزول صدر سورة التحريم ورجحت أنها نزلت في تحريم رسول الله ﷺ السيدة مارية على نفسه إرضاء لأم المؤمنين حفصة ، التي أسر رسول الله ﷺ إليها بهذا الأمر فأخبرت عائشة فعاتب الله ﷻ رسول الكريم ؛ لأنه حرم على نفسه ما أحل الله له ابتغاء مرضاة بعض أزواجه ، وكان الأولى بهن أن يجتهدن في إرضائه ﷺ ، كما عاتب رسول الله ﷺ حفصة على إفشائها سر رسول الله ﷺ واشتملت الآيات الكريمة على توجيهات رشيدة وتشريعات حكيمة .. فيها السعادة والصلاح للمرأة المسلمة وللبيت المسلم .

وفي المبحث الرابع تحدثت عن (ما نزل في شأن ظهار أوس بن الصامت من زوجته خولة بنت ثعلبة ، وحكم الظهار في الإسلام وكفارته وما في ذلك من حكم بالغة .

● ففي موقف الإسلام من الظهار حجة ساطعة ودلالة واضحة على تكريم الإسلام للمرأة وصيانتها وحمايتها لحقوقها وحرصه على إصلاح واستقرار البيت المسلم ، وفي كفارة الظهار فوائد عديدة للفرد والمجتمع .

وفي المبحث الخامس تحدثت عن (ما نزل في سورة الممتحنة في شأن النساء)

وما يتعلق بذلك من أحكام وعبر .

وفي المبحث السادس تحدثت عن نزول سورة المسد في أبي لهب وأم جميل زوجته التي كانت رداءً لزوجها وظهيرا له في معاداة رسول الله ﷺ وإيذائه فاستحقت هي وزوجها الهلاك والخسران والخزي والهوان في الدنيا والآخرة .

● أما عن العهدين القديم والجديد فإن الناظر فيهما يجد كثيرا من التناقضات والاضطرابات والافتراءات على الله تعالى وعلى أنبيائه ﷺ وعلى الملائكة الكرام وعلى كثير من النساء .

● هذا إلى جانب إغفال العهدين لكثير من الركائز الأساسية والمحاور الجوهرية في حياة الأنبياء من ذلك منهج كل نبي في الدعوة إلى الله تعالى وصبره وثباته على الحق ، وغير ذلك .

● هذا بالإضافة إلى التركيز على تفصيلات كثيرة لا طائل من ورائها ولا فائدة من ذكرها فضلا عن تهافت أكثرها أمام النقد العلمي .

فلا يكاد يخلو أي سفر من الأسفار من الافتراءات على الذات الإلهية بتشبيه الله تعالى بخلقه ونفي صفات الكمال والجلال عنه تعالى ووصفه بصفات لا تليق بذاته المقدسة ﴿ سُبْحٰنَهُ وَتَعٰلٰى عَمَّا يَقُوْلُوْنَ عُلُوًّا كَبِيْرًا ﴾ (1) .

● وليس هناك نبي من الأنبياء سلم من افتراءات أهل الكتاب فآدم ﷺ في زعمهم يجهل صفة من صفات الله تعالى وهي العلم ، حيث اختبأ من الله حتى لا يراه ، ويلقي المسئولية على حواء في الأكل من الشجرة ، ولم يرد في العهد القديم ولا الجديد ذكر لتوبته هو وزوجه حواء .

● ونوح في زعمهم يشرب الخمر فيسكر ويتعري فيراه ولده حام أبو كنعان فيسخر منه ، فيدعو نوح على كنعان ولد حام ، أقول : وهذا كذب وافتراء على نبي الله نوح ﷺ .

● وإبراهيم ﷺ في زعمهم يستجيب لرغبة سارة النابغة من غيرتها فيطرد هاجر وابنها إسماعيل إلى واد قفر ، وهذا كذب وافتراء على خليل الرحمن إبراهيم ﷺ .

● ولوط ﷺ في زعمهم يتباطأ ويتقاعس عن الخروج من القرية التي حق عليها العذاب فتدفعه الملائكة دفعا ويخرجونه كرها ، وفي زعمهم أيضا أنه فعل الفاحشة بابنتيه فأنجب منهما مؤاب وعمون ومن نسل مؤاب كان داود ومن نسل داود كان سليمان ﷺ .

- كما ورد في إنجيل متى الإصحاح الأول في شجرة نسب عيسى عليه السلام - أنه من نسل داود ومن نسل نساء زانيات هن ثامار ⁽¹⁾ وراحاب ⁽²⁾ فضلا عن بنت لوط الكبرى التي أنجبت مؤاب من الفاحشة ، وإضافة إلى بتشبع التي ورد في العهد القديم أن داود زنا بها وهي زوجة لقائده أوريا ثم احتال على زوجها ودفع به في الصفوف الأمامية حتى قتل ، وخلا الجو لداود فتزوج بها وأنجب منها سليمان ، وكان من نسلها - نسل داود وبتشبع : - عيسى كما ورد في إنجيل متى ، الإصحاح الأول منه !! .

فعبجا لليهود الذين شوخوا صور أنبيائهم وافتروا عليهم والأعجب من ذلك : النصرارى قدسوا عيسى عليه السلام ، وعبدوه مع أنهم يزعمون أن في سلسلة نسبه كثيرا من الذين ارتكبوا الفاحشة .

● أما عن نبي الله يوسف في العهد القديم فإن المتأمل فيما ورد عن قصته عليه السلام مع امرأة العزيز يجد إغفالا وإهمالا لكثير من الأحداث التي أخبرنا بها القرآن والتي تثبت وتؤكد براءته عليه السلام وعفته وطهارته ، فلم يرد ذكر للشاهد الذي أثبت براءته ولم يرد ذكر لحديث النسوة في المدينة ودعوة امرأة العزيز لهن إلى مأدبة في القصر ، وانبهارهن بجمال يوسف حين رأيته ، واعتراف المرأة أمامهن وإصرارها على المراودة وتهديدها ليوسف أمامهن كما لم يرد في العهد القديم اعتراف المرأة والنسوة ببراءة يوسف حين طلب فتح سجل القضية قبل أن يخرج من السجن .

وفي سفر أيوب : نجد افتراءات على نبي الله أيوب بوصفه بالضجر والضييق والتملل واليأس من رحمة الله والسخط على قضاء الله في حين ورد في العهد الجديد (رسالة يعقوب) أن أيوب كان مثلا للصبر على البلاء . وهذا تناقض بين ما ورد في العهدين .

وفي قصة موسى في العهد القديم طعن في نسبه حيث زعموا أنه ولد من زواج غير شرعي ؛ لأن أباه تزوج من عمته يوكابد ، وزواج الرجل بعمته باطل شرعا .

فكيف يولد نبي من زواج غير شرعي .

(1) ورد في العهد القديم سفر التكوين إصحاح 38 أن ثامار زنى بها حموها يهوذا بن يعقوب فأنجب فارص وزارح .

(2) في العهد القديم أنها عاهرة تزوجت (سلمون) من سبط يهوذا فأنجب منها بوغز جد داود - سفر يشوع إصحاح 2 ، 6 .

وفي العهد أيضا أن موسى تعمد قتل القبطي ولم يتب إلى الله من ذلك وفي العهد أيضا كثير من الافتراءات على نبي الله موسى عليه السلام . التي لا تليق بعوام الناس فضلا عن خواص الأنبياء .

بالإضافة إلى التناقضات التي بينها في موضعها !! .

● ومن الافتراءات على نبي الله داود ما ورد أنه فعل الفاحشة بامرأة أوديا ثم تزوجها وأنجب منها سليمان وهذا كذب وافتراء .

ومن الافتراءات على نبي الله سليمان أنه تزوج بنساء كوافر أملى قلبه إلى أديانهم الباطلة فغضب الرب عليه ومزق مملكته .

● ومن افتراءات العهد القديم على النساء . ما ورد في سفر التكوين أن مسئولية الأكل من الشجرة على حواء ومن أجل ذلك عوقبت هي ومن بعدها من النساء بالأم ومخاطر الحمل والوضع .

● وزعمهم أن سارة غارت من هاجر غيرة شديدة دفعتها إلى إيذائها وطردها إلى مكان قفر . وهذا كذب وافتراء على سارة عليها السلام .

● وزعمهم أن ابنتي لوط فعلتا الفاحشة مع أبيهما وهذا افتراء على نبي الله لوط عليه السلام وعلى بناته الطاهرات العفيفات .

● وزعمهم أن امرأة أيوب تبرمت وتضجرت منه ويمست من شفائه ودعته إلى اليأس من الحياة والقنوط من رحمة الله ، وهذا كذب وافتراء على تلك المرأة الوفية التقية الصابرة .

● وزعمهم أن أخت موسى حين نجاه الله من فرعون أخذت ترقص وتغني وخرج النساء وراءها يرقصن ويغنين ، وهذا كذب وافتراء على أخت موسى تلك الفتاة التي درجت في بيت التقى والصلاح والاحتشام وزعمهم أن أخت موسى تكلمت في حقه كلاما سيئا فعوقبت بالبرص ولقد بينا كذب هذا الزعم .

● وفي مقابل هذه الافتراءات في حق كثير من النسوة نجد إغفالا وإهمالا لكثير من مناقب النساء ومآثرهن .

- وذلك مثل إغفال العهد القديم لتوبة حواء مع آدم عليهما السلام .

- وإغفال الحديث عن مواقف سارة عليها السلام حين نزل الملائكة في ضيافة زوجها نبي الله إبراهيم عليه السلام فكانت نعم الزوجة المعينة لزوجها ، وحين علمت بهلاك قوم لوط ونجاته ومن آمن معه من أهل بيته ففرحت واستبشرت بنصر الله .

- وموقف هاجر عليها السلام حين تركها إبراهيم عليه السلام في مكة وهي يومئذ واد قفر لا أنيس فيه ، ومع ذلك فلقد رضيت بقضاء الله وقالت يا إبراهيم آله أمرك بهذا ؟ قال نعم قالت : إذا لا يضيعنا الله أبدا .

- وإغفال الحديث عن وحي الله تعالى إلى أم موسى عليها السلام الذي يعد تكريما لها وتثبيتا لقلبها .

- وإغفال الحديث عن موقف أخته حين قصت أثره حتى عادت به إلى أمه ، وإغفال الحديث عن أخلاق فتاتي مدين اللتين ضربتا أروع الأمثلة في الحياء والحشمة .

- وإغفال الحديث عن إسلام بلقيس عن اقتناع تام .

- وإغفال العهد الجديد الحديث عن تكريم الله لمريم ونسبها الطاهر ، ونذر أمها ، وتنافس الأحبار على كفالتها وكراماتها ، وبشارة الملائكة لها بأن الله اصطفاها وطهرها ، ومجيء جبريل عليه السلام لها في صورة بشرية واستعاذتها بالله منه وتبشيرها بغلام بدون أب بقدرة الله عز وجل ، والنفحات والبركات والرحمات التي صاحبت ساعة الولادة وكلام عيسى عليه السلام في المهد ، كل هذه الأحداث المهمة ليس لها ذكر في العهد الجديد .

● في حين تحدث القرآن الكريم عنها حديثا مفصلا في سور كثيرة منها سورة سميت (سورة مريم) ومن العجائب التي صادفتني في بحثي أنني وجدت في العهد القديم أسفارا تنسب إلى نساء عاهرات فاجرات من ضمنها سفر راعوث وسفر أستير !!! في مقابل إغفال الحديث عن مآثر ومناقب النساء الفاضلات الصالحات !! ألا يذكرنا هذا الأمر العجيب بالإعلام الغربي الذي يوجه الأنظار والاهتمام ويشغل الرأي العام بأخبار أهل الفسق والانحلال !! .

ومن الشواهد على ذلك :

ما أعلنه رئيس أساقفة كانتربري من نص أميرة القلوب - الخاوية الفارغة المظلمة - أميرة المجون والفتون والإغراء والإغواء الأميرة التي ظهرت على شاشات التلفزيون لتعلن أمام الملايين عبثها ومجونها وغرامياتها ومغامراتها مع حارسها الخاص الموكل بصونها

وحفظها ، والغريب أن الجماهير تعاطفت مع مجونها ونزواتها الفاضحة ، وتجاوبوا مع أهوائها وعواطفها الجامحة ومع ذلك فحينما لقيت حتفها في حادثة مروعة مع أحد عشاقها وشيعت جنازتها إذ برئيس الأساقفة يعلن ويقرر أمام الملأ أن تلك الأميرة الجريئة التي هتكت ستر نفسها بالأمس القريب إذ برئيس الأساقفة يعلن من معقل كنيسته أن الأميرة المدرجة في أكفانها المضرجة في دمائها قتيلة العشق والغرام : في عداد القديسين والقديسات فأى قداسة تلك أيها الإنجيلي !! وبأي حق منحتها من نفسك هذا المقام !! وبأي وجه وبأي دليل !! .

ومما سبق يتضح لنا : أن للقصص القرآني مقاصد سامية وأغراضا حكيمة وفوائد عديدة تتواكب وتتناسب مع المقصد العام للقرآن الكريم وهو هداية البشرية إلى ما يصلحها في دنياها وأخرها .

● يتميز القصص القرآني بالواقعية في أحداثه وعبره كما يتميز بدقة ألفاظه ورقتها وروعة أساليبه ورفعته .

● للمرأة في القصص القرآني مكانها ومكانتها ؛ فهي عنصر فعال وركن مهم في كثير من القصص القرآني ، الذي اشتمل على نماذج متعددة ومتنوعة للمرأة .

نماذج للمرأة في شتى أدوار حياتها ، وفي شتى أحوالها .

نماذج للمرأة في شتى العصور من حواء وحتى نساء العهد النبوي .

ولقد كان عرض القرآن الكريم لهذه النماذج عرضا صادقا دقيقا ، عرضا شافيا وافيًا ، عرضا هادفا بئاء .

● الإسلام رسالة عالمية ، ودين كامل ، ونظام شامل وتشريع عادل ، ومنهج واقعي

رباني وسطي ، يراعي التوازن بين متطلبات الروح والجسد ، ويحقق الانسجام التام بين مصالح الفرد والمجتمع ، والإسلام كلُّ لا يتجزأ وهو عقيدة وشرعية وأخلاق .

عقيدة صحيحة خالصة لله رب العالمين ، وشرعية ربانية واقعية وسطية راشدة حكيمة ، وأخلاق كريمة طيبة .

● وللمرأة في الإسلام مكانة عظيمة ومنزلة كريمة ، فالمرأة ركن ركين وحصن حصين ، في الأسرة المسلمة التي تعد لبنة في بناء المجتمع المسلم .

ولقد سوى الإسلام بين الرجل والمرأة في كثير من التكاليف المشتركة بينهما ، و فرق بينهما في بعض التكاليف وذلك نظرا لاختلاف طبيعة كل منهما ومهمته في الحياة . فالرجل له طبيعته وله مهمته ، والمرأة طبيعتها ومهمتها في الوجود كزوجة وأم ، ومن هنا كان الاختلاف في بعض تكاليف الشريعة ، والله تعالى هو الذي خلقنا ويعلم ما يصلحنا في معاشنا ومعادنا قال تعالى : ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ (1) .

لقد أنصف الإسلام المرأة وكرمها بعد أن ظلمتها وأهانتها الأديان المحرفة والمذاهب الوضعية .

ووجدت المرأة مكانتها وقيمتها في الإسلام بعد أن اعتبرتها الأديان والمذاهب الأخرى سلعة تباع وتشترى وعدوها من سقط المتاع .

● لنا في الأنبياء ﷺ الأسوة الحسنة والقدوة الطيبة ، فواجبنا أن نترسم خطاهم وأن نتنسم شذاهم . قال تعالى في سورة الأنعام : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ ءَاتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هُنَّ لِأَوْلَآءٍ فَقَدْ وَكَلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ ﴿٨٩﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَّتْهُمْ أَقْتَدَهُ فُلٌ لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴾ (2) .

● حوت بعض كتب التفسير إسرائيلية فيها ما يخالف أصول ديننا الحنيف والواجب على الباحثين والدارسين أن ينبهوا على هذه الإسرائيليات وأن يبينوا ضعفها وتهافتها .

● اشتمل العهدان القديم والجديد على كثير من التناقضات والأباطيل والافتراءات على الله تعالى وعلى أنبيائه الكرام ﷺ وعلى الملائكة المكرمين وعلي كثير من النساء .

● هذا إلى جانب إغفال العهدين لكثير من الركائز الجوهرية والمحاور الأساسية في حياة الأنبياء ﷺ ، مع التركيز على تفصيلات كثيرة لا طائل من ورائها ولا جدوى من ذكرها .

● أثار أعداء الإسلام كثيرا من الشبهات حول موقفه من المرأة ولقد عرضت في هذه الرسالة لموقف الإسلام من كثير من قضايا المرأة وذلك مثل عمل المرأة والولاية على المرأة في النكاح ، وقضية المساواة بين الرجل والمرأة وغير ذلك في ضوء القصص القرآني .

(2) سورة الانعام : 89 ، 90 .

(1) سورة الملك : 14 .

وإذا كان لي أن أقدم بعض التوصيات في ختام هذه الرسالة .

● فإني أوصي أولاً وأخراً بتقوى الله ﷻ فهي مفتاح كل خير ، وهي وصية الله للأولين والآخرين قال تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ ... ﴾ (1) .

● كما أوصي طلاب العلم بمواصلة الجد والاجتهاد في طلبه وتجديد النية ، والاستعانة بالله ﷻ فهو خير معين .

● وأوصي أساتذتي الكرام بجامعة الأزهر بالعمل على إقامة مركز متخصص في الرد على شبهات أعداء الإسلام من المستشرقين والمبشرين وغيرهم ، خاصة شبهاتهم حول عصمة الأنبياء ﷺ وحول موقف الإسلام من المرأة .

كما أوصي بإقامة مركز لدراسة قضايا المرأة المعاصرة من منظور إسلامي وإقامة المؤتمرات والمحاضرات في هذا الشأن .

كما أوصي بعمل مجلة متخصصة عن المرأة المسلمة ، فالنساء المسلمات في مصر وغيرها من بلدان العالم الإسلامي في حاجة ماسة إلى مجلة متخصصة عن المرأة المسلمة والبيت المسلم .

وأوصي أيضاً أساتذتي الأجلاء في جامعة الأزهر بتدريس مادة متخصصة في قضايا المرأة والبيت المسلم على الطالبات بكليات البنات وتقرر هذه المادة المتخصصة في جميع الأقسام ، بل إن الواجب أن تقرر على جميع الطالبات المسلمات في شتى المراحل التعليمية .

أوصي أجهزة الإعلام في مصر والعالم الإسلامي أن تراقب الله ﷻ فيما تعرضه ، وأن تهتم بمعالجة قضايا المرأة من منظور إسلامي وأن تركز على عرض النماذج الطيبة والأمثلة الحسنة للمرأة .

وفي ختام هذه الرسالة أسأل الله ﷻ أن يوفقنا إلى ما يحبه ويرضاه ، وأن يعيننا على نصرة دينه ، وأن يوفق ولاية أمورنا إلى ما فيه الخير والصلاح والفلاح في الدنيا والآخرة ، وأن يوحد كلمة المسلمين ويجمع شملهم ويصلح ذات بينهم ، وينصرهم على أعدائهم إنه نعم المولى ونعم النصير .

ثانيا : المراجع

أولا القرآن الكريم

ثانيا : كتب التفسير :

- 1 - أحكام القرآن للجصاص أبو بكر أحمد بن علي الرازي الجصاص ، ت 370 هـ ط دار المصحف - القاهرة بدون تاريخ .
- 2 - أحكام القرآن لابن العربي (أبو بكر محمد بن عبد الله ت 543 هـ) ، ط البابي الحلبي ط 1 سنة 1377 هـ ، سنة 1958 م .
- 3 - أحكام القرآن للشيخ محمد علي السائس مطبعة محمد علي صبيح بدون تاريخ .
- 4 - إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم للعلامة أبي السعود (محمد بن محمد مصطفى العمادي الحنفي ت 982 هـ ط دار الفكر بدون تاريخ) .
- 5 - الأساس في التفسير للشيخ سعيد حوى ت 1409 هـ ط دار السلام ط أولى سنة 1405 هـ .
- 6 - أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن للشنقيطي محمد الأمين بن محمد المختار الجكني ت 1393 هـ طبع على نفقة الأمير أحمد بن عبد العزيز آل سعود السعودية ط 1403 هـ .
- 7 - أنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي (عبد الله بن عمر ت 685 هـ) ط دار الجيل بيروت بدون تاريخ .
- 8 - الانتصاف للإمام أحمد بن المنير الإسكندري ت 683 هـ بهامش الكشاف للزمخشري ط دار الريان للتراث سنة 1407 هـ ط الثالثة .
- 9 - البحر المحيط للإمام محمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي الغرناطي ت 754 هـ ط دار إحياء التراث العربي ط سنة 1411 هـ ثانية .
- 10 - تفسير الجلالين للعلامة جلال الدين محمد بن أحمد المحلي ت 684 هـ والعلامة جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي ت 911 هـ ط دار المعرفة بيروت بدون تاريخ .
- 11 - تفسير سورة النور للأستاذ أبي الأعلى المودودي ت 1979 م ط دار الاعتصام 1977 م .
- 12 - تفسير القرآن العظيم للإمام الحافظ عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي ت 774 هـ ط دار التراث العربي بدون تاريخ .

- 13 - تفسير القرآن الحكيم المشتهر باسم تفسير المنار للسيد محمد رشيد رضا ط دار المنار سنة 1372 هـ سنة 1953 م ط ثانية .
- 14 - تفسير المراغي للأستاذ أحمد مصطفى المراغي 1371 هـ ط دار الفكر 1394 هـ ثالثة .
- 15 - تفسير النسائي للإمام أحمد بن شعيب النسائي ت 303 هـ ط مكتبة السنة 1410 هـ ط 1 .
- 16 - تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان للشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي ت 1376 هـ ط الرئاسة العامة لإدارة البحوث العلمية والإفتاء والدعوة الرضا ط 1404 هـ .
- 17 - التحرير والتنوير للأستاذ محمد الطاهر بن عاشور ت 1393 هـ ط دار سحنون للنشر والتوزيع تونس بدون تاريخ .
- 18 - التذوق الجمالي لسورة يوسف تأليف محمد علي أبو حمدة ط دار البشير عمان الأردن - ط أولى سنة 1405 هـ .
- 19 - التفسير القرآني للقرآن للأستاذ عبد الكريم الخطيب ط دار الفكر العربي بالقاهرة بدون تاريخ .
- 20 - التفسير المنير للدكتور وهبة الزحيلي ط دار الفكر دمشق سوريا ط أولى سنة 1415 هـ .
- 21 - التفسير الموضوعي لسورة يوسف للدكتور محمد البهي ط مكتبة وهبة ط 1 - 1396 هـ .
- 22 - التفسير الواضح للدكتور محمد محمود حجازي ط دار الكتاب العربي 1380 هـ .
- 23 - التوحيد والتنزيه في سورة مريم للأستاذ عبد الحميد طهماز ط دار القلم دمشق سنة 1410 هـ ط أولى .
- 24 - جامع البيان في تفسير القرآن للإمام أبي جعفر محمد بن جرير الطبري ت 310 هـ ط دار الريان للتراث ، ودار الحديث بالقاهرة سنة 1407 هـ .
- 25 - جامع البيان للطبري / حقه وعلق حواشيه محمود محمد شاكر ، وراجعه وخرج أحاديثه أحمد محمد شاكر ط دار المعارف سنة 1957 م .
- 26 - الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي ت 671) ط الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة 1987 م .

- 27 - الجواهر الحسان في تفسير القرآن للإمام عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبي الجزائري المالكي ت 875 هـ ط دار الكتب العلمية ط سنة 1416 هـ أولى .
- 28 - الجواهر في تفسير القرآن للشيخ طنطاوي جوهرى ت 1940 م ط 2 البايي الحلبي 1350 هـ .
- 29 - حاشية الصاوي على الجلالين للإمام أحمد بن محمد الصاوي المصري المالكي ت سنة 1241 هـ ط دار إحياء التراث العربي .
- 30 - حاشية محيي الدين شيخ زادة على تفسير البيضاوي ط دار صادر بيروت ، المكتبة الإسلامية بديار بكر تركيا بدون تاريخ .
- 31 - الدر المصون في علوم الكتاب المكنون للإمام (أحمد بن يوسف المعروف بالسمن الحلبي ت 756 هـ) ط دار القلم بدمشق ط 1 سنة 1407 هـ .
- 32 - الدر المنثور في التفسير بالمأثور لجلال الدين السيوطي ت 911 هـ ط دار الفكر سنة 1403 هـ .
- 33 - روائع البيان في تفسير آيات الأحكام للشيخ محمد علي الصابوني ط دار التراث العربي بدون تاريخ .
- 34 - روح البيان للبروسوي إسماعيل حقي البروسوي ت سنة 1370 هـ ط دار الفكر بدون تاريخ .
- 35 - روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني للإمام الألوسي شهاب الدين السيد محمود الألوسي ت 1270 هـ ط دار إحياء التراث العربي ط 4 سنة 1405 هـ .
- 36 - زاد المسير في علم التفسير للإمام أبي الفرج عبد الرحمن بن الجوزي (ت 596 هـ) ط المكتب الإسلامي بيروت ط 1 سنة 1385 هـ سنة 1965 م .
- 37 - السراج المنير في الإعانة على معرفة بعض معاني كلمات ربنا الحكيم الخبير للإمام شمس الدين محمد بن أحمد الخطيب الشربيني ت 977 هـ ط دار المعرفة بيروت ط 2 بدون تاريخ .
- 38 - صفوة التفاسير للشيخ محمد علي الصابوني ط دار القرآن الكريم بيروت .
- 39 - عناية القاضي وكفاية الراضي (حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي) لشهاب الدين الخفاجي ت 1069 هـ ط / دار صادر بيروت بدون تاريخ .

- 40 - غرائب القرآن و رغائب الفرقان لنظام الدين الحسن بن محمد بن الحسين القمي النيسابوري ت 728 هـ ط البايي الحلبي سنة 1381 هـ ط أولى .
- 41 - فتح البيان في مقاصد القرآن للشيخ صديق حسن خان ت 1307 هـ مطبعة العاصمة بالقاهرة ط سنة 1965 م .
- 42 - فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير للإمام محمد بن علي بن محمد الشوكاني ت 1255 هـ ط البايي الحلبي سنة 1350 هـ ط أولى .
- 43 - الفتوحات الإلهية بتوضيح تفسير الجلالين للدقائق الخفية للإمام سليمان بن عمر العجيلي الشافعي الشهير بالجملة ت 1204 هـ ط دار المنار للنشر والتوزيع والبايي الحلبي بدون تاريخ .
- 44 - في ظلال القرآن للأستاذ سيد قطب ت 1966 م دار الشروق سنة 1407 هـ - ط 13 .
- 45 - قس من نور القرآن الكريم للشيخ محمد علي الصابوني ط دار القلم بسوريا ط 1 سنة 1409 هـ سنة 1988 م .
- 46 - الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل للإمام محمود بن عمر الزمخشري المعتزلي ت 528 هـ ط دار الريان للتراث سنة 1407 هـ ط ثالثة .
- 47 - لباب التأويل في معاني التنزيل للإمام علاء الدين علي بن محمد بن إبراهيم البغدادي ت 741 هـ ط البايي الحلبي سنة 1375 هـ ط ثانية .
- 48 - لطائف الإشارات للإمام عبد الكريم القشيري ت 465 هـ ط دار الكتاب العربي بالقاهرة .
- 49 - مجمع البيان في تفسير القرآن للشيخ أبي علي الفضل بن الحسن الطبرسي ت 548 هـ ط دار المعرفة بيروت سنة 1406 هـ ط أولى .
- 50 - المجتمع الإسلامي كما تنظمه سورة النساء للشيخ محمد محمد المدني ط المجلس الأعلى للشئون الإسلامية سنة 1382 هـ .
- 51 - محاسن التأويل للإمام جمال الدين القاسمي ت 1332 هـ ط دار إحياء الكتب العربية بدون تاريخ .
- 52 - المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز للقاضي عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي ت 546 هـ ط المجمع العلمي بفاس المغرب سنة 1395 هـ وطبعة دار الكتب العلمية بيروت .

- 53 - المختصر في تفسير القرآن لابن صمداح التجيبي ت 419 هـ تحقيق د . عدنان زرزور ط مؤسسة الرسالة بيروت سنة 1399 هـ ط أولى .
- 54 - مدارك التنزيل وحقائق التأويل للإمام عبد الله بن أحمد بن محمود النسفي ت 710 هـ / ط دار الكتاب العربي بيروت سنة 1402 هـ .
- 55 - معاني القرآن لأبي زكريا يحيى بن زياد الفراء ت 207 هـ ط دار السرور بيروت .
- 56 - معاني القرآن وإعرابه للزجاج (أبي إسحاق إبراهيم بن السري ت 311 هـ) . ط سنة 1408 هـ ط أولى ط عالم الكتب .
- 57 - مفاتيح الغيب (التفسير الكبير) للإمام فخر الدين الرازي ت 606 هـ ط دار الفكر سنة 1405 هـ .
- 58 - المعجزة والإعجاز في سورة النمل للأستاذ عبد الحميد طهماز ط دار القلم بسوريا سنة 1407 هـ ط أولى .
- 59 - الميزان في تفسير القرآن للأستاذ محمد حسين الطباطبائي ط مؤسسة الأعلمي بيروت ط سنة 1403 هـ .
- 60 - نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم للشيخ (محمد الغزالي ت 1996 م) ط دار الشروق سنة 1997 م ط الثالثة .
- 61 - نظم الدرر في تناسب الآيات والسور لبرهان الدين إبراهيم بن عمر بن حسن البقاعي ت 885 هـ ط دار الكتاب الإسلامي بالقاهرة ط 2 سنة 1413 هـ .
- 62 - النكت والعيون (تفسير الماوردي) لأبي الحسن علي بن محمد بن حبيب الماوردي البصري ت 450 هـ ط دار الصفوة بمصر سنة 1413 هـ ط أولى .
- 63 - الوحي والنبوة والعلم في سورة يوسف للأستاذ عبد الحميد طهماز ط دار القلم دمشق ط 1 .

ثالثا : مراجع في علوم القرآن الكريم

- 64 - إتحاف فضلاء البشر بالقراءات الأربعة عشر للعلامة الشيخ أحمد محمد البنا ت 1117 هـ تحقيق د . شعبان محمد إسماعيل ط عالم الكتب بيروت سنة 1407 هـ .
- 65 - أسباب النزول للواحدى النيسابوري (أبي الحسن علي بن أحمد الواحدى

- النيسابوري ت 468 هـ ط دار الكتب العلمية بيروت سنة 1395 هـ .
- 66 - أسباب النزول للسيوطي (لباب النقول في أسباب النزول) بهامش تفسير الجلالين ط دار المعرفة بيروت بدون تاريخ .
- 67 - الإسرائيليات وأثرها في كتب التفسير د . رمزي نعاة ط دار القلم دمشق سنة 1390 هـ سنة 1970 م طبعة أولى .
- 68 - الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير للدكتور محمد محمد أبي شهبة ط مكتبة السنة بالقاهرة سنة 1408 هـ .
- 69 - الأشباه والنظائر في الألفاظ القرآنية التي ترادفت مبانيتها وتنوعت معانيها تأليف عبد الملك بن محمد الثعالبي ت 429 هـ ط عالم الكتب بيروت 1404 هـ ط أولى .
- 70 - أضواء البيان على متشابهات القرآن للشيخ خليل ياسين ط دار ومكتبة الهلال بيروت 1980 م ط 2 .
- 71 - إعجاز القرآن للقاضي أبي بكر بن الطيب الباقلائي ت 403 هـ بهامش تفسير الجلالين ط دار عالم المعرفة بدون تاريخ .
- 72 - إعجاز القرآن والبلاغة النبوية للأستاذ مصطفى صادق الرافعي ت سنة 1356 هـ ط دار الكتاب العربي 1393 هـ ط 9 .
- 73 - إعجاز القرآن (وليس الذكر كالأنتى) دراسة من منظور الإسلام والعلوم الحديثة - تأليف محمد عثمان الخشت ط مكتبة القرآن .
- 74 - إعراب القرآن الكريم لمحيي الدين درويش ط دار ابن كثير دمشق / بيروت ، ومؤسسة الإمامة للطباعة دمشق / بيروت 1408 هـ 1988 م ط أولى .
- 75 - براعة الاستهلال في فوائح القصائد والسور - د . محمد بدري عبد الجليل ط المكتب الإسلامي .
- 76 - بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز لمجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزبادي ت 817 هـ ط المكتبة العلمية بيروت .
- 77 - البرهان في توجيه متشابه القرآن لما فيه من الحججة والبيان لتاج القراء محمود بن حمزة بن نصر الكرمانلي ط دار الاعتصام 1977 م .

- 78 - البرهان في علوم القرآن للإمام بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي ت 794 هـ تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم بدون تاريخ .
- 79 - التبيان في إعراب القرآن لأبي البقاء عبد الله بن الحسين العكبري ط دار الجيل بيروت 1402 هـ ثانية .
- 80 - التصوير الفني في القرآن للأستاذ سيد قطب ط دار المعارف ط 10 بدون تاريخ .
- 81 - حجة القرآن لابن زنجلة - أبو زرعة عبد الرحمن بن محمد تحقيق سعيد الأفغاني ط مؤسسة الرسالة 1399 هـ ط ثانية .
- 82 - حقائق التأويل في مشابه التنزيل للسيد الشريف الرضي ت 406 هـ ط دار الأضواء بيروت ط أولى .
- 83 - الحجة في القراءات السبع لابن خالويه (الحسين بن أحمد بن خالويه ت 370 هـ ط دار الشروق بيروت 1971 م) .
- 84 - خلق الإنسان بين الطب والقرآن د . محمد علي البار ط الدار السعودية للطباعة والنشر .
- 85 - دراسات في علوم القرآن د . عبد الباسط ببلول ط دار الطباعة المحمدية 1401 هـ .
- 86 - درة التنزيل وغرة التأويل للخطيب الإسكافي (أبو عبد الله محمد بن عبد الله ت 420 هـ) ط دار الآفاق الجديدة بيروت 1401 هـ ط 4 .
- 87 - السبعة في القراءات لأبي بكر أحمد بن موسى بن العباس بن مجاهد التميمي البغدادي ت 324 هـ ط دار المعارف تحقيق د . شوقي ضيف .
- 88 - غرائب آي التنزيل للإمام زين محمد بن أبي بكر بن عبد القادر بن عبد المحسن الرازي الحنفي ت 666 هـ هدية مجلة الأزهر 1410 هـ .
- 89 - غرر التبيان في من لم يسم في القرآن لبدر الدين محمد بن إبراهيم بن سعد الله بن جماعة ت 733 هـ تحقيق د . عبد الجواد خلف ط دار قتيبة بيروت 1410 هـ ط أولى .
- 90 - الفوز الكبير في العلم بأصول التفسير للأستاذ الدكتور محمد متولي إدريس ط المكتب العلمي الحديث بالزقازيق مصر 1413 هـ ط ثانية .
- 91 - كشف المعاني في المتشابه من المثاني للإمام بدر الدين بن جماعة تحقيق د . عبد الجواد خلف ط دار الوفاء 1410 هـ ط أولى .

- 92 - الكشف عن وجوه القراءات السبع وعللها وحججها لأبي محمد مكي بن أبي طالب القيسي ت 437 هـ مؤسسة الرسالة بيروت .
- 93 - مباحث في علوم القرآن د . صبحي الصالح ط دار العلم للملايين بيروت 1984 م ط 14 .
- 94 - مباحث في علوم القرآن للشيخ مناع خلیل القطان ط مكتبة وهبه 1401 هـ ط 5 .
- 95 - متشابه القرآن للقاضي عبد الجبار بن أحمد الهمداني ت 415 هـ تحقيق د . عدنان زرزور ط دار التراث بدون تاريخ .
- 96 - متشابه النظم القرآني في قصة آدم عليه السلام - للدكتور عبد الجواد محمد محمد طبق ط دار الأرقم - بالزقازيق .
- 97 - مع الطب في القرآن الكريم تأليف د . عبد الحميد دياب ، ود . أحمد قرقوز ط مؤسسة علوم القرآن دمشق 1404 هـ ط 7 .
- 98 - المحتسب في تبیین وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها لأبي الفتح عثمان بن جني ت 392 هـ ط المجلس الأعلى للشئون الإسلامية 1386 هـ .
- 99 - المستنير في تخريج القراءات المتواترة من حيث اللغة والإعراب والتفسير - للدكتور محمد سالم محيسن ط مكتبة الكليات الأزهرية بدون تاريخ .
- 100 - مجاز القرآن لأبي عبيدة معمر بن المثنى التميمي ت 210 هـ تحقيق د . فؤاد سزكين ط الخانجي .
- 101 - مختصر في شواذ القرآن لابن خالويه ط مكتبة المتنبي بالقاهرة .
- 102 - مدخل إلى الدراسات القرآنية د . محمود البتاجي ط مكتبة الشباب 1987 م .
- 103 - ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من آي التنزيل للإمام أحمد بن إبراهيم بن الزبير الثقفي الغرناطي ، تحقيق سعيد الفلاح ط دار الغرب الإسلامي 1403 هـ بيروت ط أولى .
- 104 - مفحمت الأقران في مبهمات القرآن للسيوطي ط مكتبة صبيح بالقاهرة .
- 105 - مناهل العرفان في علوم القرآن للشيخ محمد عبد العظيم الزرقاني ط دار الفكر .
- 106 - المفردات في غريب القرآن للإمام أبي القاسم الحسين بن محمد المعروف

- بالراغب الأصفهاني ت 502 هـ ط دار المعرفة بيروت بدون تاريخ .
- 107 - نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر لابن الجوزي ط مؤسسة الرسالة بيروت 1405 هـ ط الثالثة .
- 108 - نظرات في القرآن الكريم للشيخ محمد الغزالي ط دار الكتب الحديثة ط 5 .
- 109 - النبأ العظيم د . محمد عبد الله دراز ط دار القلم بالكويت 1397 هـ .
- 110 - النشر في القراءات العشر للإمام ابن الجوزي أبو الخير محمد بن محمد الدمشقي ت 833 هـ ط دار الفكر بدون تاريخ .
- 111 - النهج القويم في دراسة علوم القرآن الكريم د . عبد الغني الراجحي ط البايي الحلبي .

رابعًا : كتب السنة النبوية وعلومها

- 112 - إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل للشيخ محمد ناصر الدين الألباني ط المكتب الإسلامي 1405 هـ ، ط ثانية ت يوم 1999/10/2 ، 22 جماد الآخر 1420 هـ .
- 113 - الإجابة لإيراد ما استدركنه عائشة على الصحابة للإمام الزركشي ط المكتب الإسلامي 1390 هـ .
- 114 - الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان - للأمير علاء الدين علي بن بلبان الفارسي ت 739 هـ - تحقيق شعيب الأرنؤوط - ط مؤسسة الرسالة بيروت ؟
- 115 - الأدب المفرد للإمام أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري ط دولة الإمارات العربية المتحدة 1401 هـ .
- 116 - الأسماء والصفات للإمام البيهقي (أبو بكر أحمد بن الحسين) ط دار الكتب العلمية بيروت .
- 117 - بغية الباحث عن زوائد مسند الحارث (ابن أبي أسامة ت 282) للحافظ نور الدين علي بن سليمان بن أبي بكر الهيثمي ت 807 هـ تحقيق ودراسة د . حسين أحمد صالح الباكري ط مركز خدمة السنة والسيرة النبوية بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة .
- 118 - تاريخ مدينة دمشق وذكر فضلها وتسمية من حل بها من الأماثل أو اجتاز بنواحيها من واردتها وأهلها للحافظ أبي القاسم علي بن الحسن بن هبة الله بن عبد الله : المعروف بابن عساكر مخطوطة بالمكتبة الظاهرية بدمشق .

- 119 - تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة الدينوري ت 276 هـ ط دار الكتب الإسلامية 1402 هـ - ط أولى .
- 120 - تحفة الأحوزي بشرح سنن الترمذي (أبو عيسى محمد بن سورة ت 279 هـ) تأليف محمد بن عبد الرحمن المباركفوري ط المكتبة السلفية بالمدينة 1387 هـ .
- 121 - تقريب التهذيب للحافظ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني ت 852 هـ ط دار المعرفة بيروت بدون تاريخ .
- 122 - تمييز الطيب من الخبيث فيما يدور على ألسنة الناس من الحديث للشيخ عبد الرحمن علي بن محمد بن عمر بن الديع الشيباني ط صبيح 1382 هـ .
- 123 - تهذيب الآثار وتفصيل الثابت عن رسول الله ﷺ من الأخبار لأبي جعفر الطبري تحقيق محمود محمد شاكر ط / جامعة الإمام ابن سعود بدون تاريخ .
- 124 - تهذيب الكمال في أسماء الرجال للحافظ جمال الدين أبي الحجاج يوسف المزني ت 742 هـ ط / دار الفكر بيروت 1414 هـ .
- 125 - تهذيب التهذيب لابن حجر العسقلاني ط / دار صادر - بيروت بدون تاريخ .
- 126 - الترغيب والترهيب للمنزري (زكي الدين عبد العظيم بن عبد القوي ت 656 هـ) ط / دار الحديث بدون تاريخ .
- 127 - التلخيص الحبير في تخريج أحاديث الرافعي الكبير لابن حجر العسقلاني ط مكتبة ابن تيمية بدون تاريخ .
- 128 - جامع بيان العلم وفضله لأبي عمر يوسف بن عبد البر النمري القرطبي ت 463 هـ ط المكتبة السلفية بالمدينة المنورة 1388 هـ .
- 129 - جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثاً من جوامع الكلم للإمام زين الدين أبي الفرج عبد الرحمن بن شهاب الدين بن أحمد بن رجب الحنبلي ت 795 هـ ط مكتبة الدعوة الإسلامية 1400 هـ ط 5 .
- 130 - الجرح والتعديل لأبي محمد عبد الرحمن بن أبي حاتم الرازي ت 327 هـ ط دار الكتب العلمية بيروت بدون تاريخ .
- 131 - حلية الأولياء وطبقات الأصفياء للحافظ أبي نعيم أحمد بن عبد الله

الأصفهاني ت 430 هـ - ط مطبعة الأنوار المحمدية - وطبعة / دار الكتب العلمية بيروت 1400 هـ .

132 - دلائل النبوة للإمام البيهقي (أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي ت 458 هـ) تحقيق د . عبد المعطي قلعجي ط دار الكتب العلمية بيروت 1405 هـ ط أولى .

133 - الدعاء للإمام الطبراني (أبي القاسم سليمان بن أحمد ت 360 هـ) تحقيق د . محمد سعيد البخاري ط دار البشائر الإسلامية 1407 هـ .

134 - رياض الصالحين للإمام أبي زكريا يحيى بن شرف النووي الدمشقي (ت 676 هـ) ط دار المأمون للتراث دمشق بيروت 1402 هـ ط رابعة .

135 - « ذم اللواط » للحافظ أبي بكر محمد بن الحسين الآجري ت 260 هـ ط مكتبة القرآن .

136 - الزهد لعبد الله بن المبارك ت 181 هـ تحقيق حبيب الله الأعظمي ط مجلس إحياء المعارف بالهند 1385 هـ .

137 - سبل السلام شرح بلوغ المرام من جمع أدلة الأحكام للشيخ محمد بن إسماعيل الأمير الصنعاني ت 1182 هـ ط دار الكتاب العربي .

138 - سلسلة الأحاديث الصحيحة للشيخ محمد ناصر الدين الألباني ط المكتب الإسلامي 1405 هـ ط 4 ومكتبة المعارف بالرياض 1412 هـ ط أولى .

139 - سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيئ في الأمة - للألباني ط مكتبة المعارف بالرياض 1412 هـ ط أولى .

140 - سنن ابن ماجه (أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني ت 275 هـ) ط دار الريان للتراث بدون تاريخ .

141 - سنن أبو داود (أبو داود سليمان بن شعث السجستاني الأزدي ت 257 هـ) ط دار الفكر بدون تاريخ .

142 - سنن الترمذي (أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذي ت 297 هـ) ط دار الفكر 1408 هـ .

143 - سنن الدارقطني (علي بن عمر الدارقطني ت 385 هـ) ط دار المحاسن بالقاهرة 1386 هـ .

- 144 - سنن الدارمي (عبد الله بن عبد الرحمن الدارمي السمرقندي ت 255 هـ) ط دار الريان للتراث 1407 هـ ط أولى .
- 145 - سنن النسائي (أحمد بن شعيب النسائي ت 303 هـ) بشرح السيوطي وحاشية السندي ط دار الكتاب العربي بيروت بدون تاريخ .
- 146 - السنن الكبرى للبيهقي (أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي) ط دار الفكر بدون تاريخ .
- 147 - السنن الكبرى للنسائي - تحقيق د . عبد الغفار سليمان البنداري وسيد كسروي حسن ط دار الكتب العلمية بيروت لبنان ط أولى 1411 هـ .
- 148 - شعب الإيمان للبيهقي ط دار الكتب العلمية 1410 هـ ط أولى .
- 149 - صحيح ابن خزيمة (أبو بكر محمد بن إسحاق بن خزيمة السلمي النيسابوري ت 311 هـ ط / المكتب الإسلامي تحقيق د . محمد مصطفى الأعظمي ط أولى 1395 هـ .
- 150 - صحيح الأدب المفرد للألباني ط / المكتب الإسلامي .
- 151 - صحيح سنن ابن ماجه للألباني ط / مكتب التربية العربي لدول الخليج ط 3 - 1408 هـ .
- 152 - صحيح الترغيب والترهيب للمنذري ، اختيار وتحقيق الألباني ط المكتب الإسلامي 1402 هـ .
- 153 - صحيح سنن الترمذي للألباني ط المكتب الإسلامي 1408 هـ .
- 154 - صحيح الجامع الصغير للألباني ط المكتب الإسلامي .
- 155 - صحيح سنن النسائي للألباني مكتب التربية العربي لدول الخليج 1409 ط أولى .
- 156 - صحيح مسلم بشرح النووي (الإمام مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري ت 261 هـ) دار إحياء التراث العربي ط 3 بدون تاريخ .
- 157 - ضعيف سنن ابن ماجه للألباني ط المكتب الإسلامي 1408 هـ ط أولى .
- 158 - ضعيف سنن أبي داود للألباني المكتب الإسلامي ط 1412 هـ ط أولى .
- 159 - ضعيف سنن الترمذي للألباني المكتب الإسلامي ط 1411 هـ ط أولى .
- 160 - ضعيف سنن النسائي للألباني المكتب الإسلامي ط 1411 هـ ط أولى .

- 161 - عشرة النساء للنسائي ط مكتبة التراث الإسلامي .
- 162 - عمدة القاري شرح صحيح البخاري للإمام بدر الدين أبو محمد محمود بن أحمد العيني ت 855 هـ ، ط دار إحياء التراث العربي بيروت بدون تاريخ .
- 163 - عمل اليوم والليلة للإمام أحمد بن شعيب النسائي ت 303 هـ تحقيق د . فاروق حمادة ، كلية الآداب جامعة محمد الخامس الرباط - ط مؤسسة الرسالة بيروت .
- 164 - عون المعبود بشرح سنن أبي داود لأبي الطيب محمد شمس الحق العظيم آبادي ط المكتبة السلفية بالمدينة 1388 هـ ط 2 .
- 165 - غاية المرام في تخريج أحاديث الحلال والحرام للألباني ط 3 المكتب الإسلامي 1405 هـ .
- 166 - الطب النبوي للإمام ابن القيم ط دار الكتب العلمية بيروت 1403 هـ .
- 167 - فتح الباري بشرح صحيح البخاري لابن حجر العسقلاني ط دار الريان للتراث 1407 هـ .
- 168 - فيض القدير شرح الجامع الصغير للحافظ عبد الرؤوف المناوي ط دار الفكر 1391 هـ .
- 169 - الفتح الرباني في ترتيب مسند الإمام أحمد بن حنبل الشيباني للشيخ أحمد عبد الرحمن البنا الساعاتي ط دار الشهاب بدون تاريخ .
- 170 - كشف الأستار عن زوائد البزار للهيتمي ط مؤسسة الرسالة بيروت 1404 هـ - ط أولى .
- 171 - كشف الخفا ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس للشيخ إسماعيل بن محمد العجلوني ت 1162 هـ - ط مكتبة التراث الإسلامي بدون تاريخ .
- 172 - لسان الميزان لابن حجر ط مؤسسة الأعلمي للمطبوعات بيروت 1390 هـ ط ثانية .
- 173 - مجمع الزوائد ومنبع الفوائد للهيتمي ط دار الكتاب العربي بيروت 1402 هـ .
- 174 - المجروحين من المحدثين والضعفاء والمتروكين لابن حبان البستي ت 354 هـ ط دار الوعي حلب 1902 هـ .
- 175 - مختصر تحاف السادة المهرة بزوائد المسانيد العشرة للإمام شهاب الدين البوصيري ت 840 هـ ط دار الكتب العلمية بيروت .

- 176 - مختصر تاريخ دمشق للإمام محمد بن مكرم المعروف بابن منظور (ت 711 هـ) ط دار الفكر سنة 1409 هـ .
- 177 - مساوي الأخلاق لأبي بكر بن محمد بن جعفر بن سهل السامرائي الخرائطي ت 327 هـ ط مكتبة القرآن .
- 178 - مسند أبي يعلى الموصلي (ت 307 هـ) ط دار القبلة جدة ومؤسسة علوم القرآن بيروت ط 1 - 1408 هـ .
- 179 - مسند الإمام أحمد بن حنبل ط المكتب الإسلامي بدون تاريخ ، ط دار المعارف بتحقيق أحمد شاكر 1957 م .
- 180 - مسند الإمام الشافعي ط دار الكتب العلمية بيروت 1400 هـ - ط أولى .
- 181 - مسند الشهاب للقاضي أبي عبد الله محمد بن سلامة القضاعي ت 454 هـ ط مؤسسة الرسالة بيروت ط 1 - 1405 هـ .
- 182 - مسند عبد الله بن المبارك تحقيق د . صبحي البديري مكتبة المعارف بالرياض - ط أولى 1407 هـ .
- 183 - المستخرج من الأحاديث المختارة مما لم يخرج به البخاري ومسلم في صحيحيهما : للإمام ضياء الدين أبي عبد الله محمد بن عبد الواحد بن أحمد بن عبد الرحمن الحنبلي المقدسي (567 - 643 هـ) ط مكتبة النهضة الحديثة بمكة المكرمة ط 1 سنة 1410 هـ .
- 184 - المستدرک على الصحيحين للإمام أبي عبد الله الحاكم النيسابوري ت 405 هـ وفي ذيله تلخيص المستدرک للإمام شمس الدين الذهبي ت 848 هـ .
- 185 - مشكاة المصابيح للشيخ ولي الدين محمد بن عبد الله الخطيب التبريزي تحقيق محمد ناصر الدين الألباني ط المكتب الإسلامي 1381 هـ .
- 186 - المصنف في الأحاديث والآثار لابن أبي شيبة (عبد الله بن محمد بن أبي شيبة الكوفي العبسي ت 235 هـ) ط دار الفكر .
- 187 - المصنف للحافظ أبي بكر عبد الرزاق بن همام الصنعاني ت 211 هـ ط المكتب الإسلامي 1403 هـ ط 2 .
- 188 - المطالب العالية بزوائد المسانيد الثمانية لابن حجر ط دار المعرفة بيروت 1414 هـ .

- 189 - معالم السنن للإمام أبي سليمان محمد الخطابي ت 388 هـ ط المكتبة العلمية بيروت .
- 190 - المعجم الأوسط للطبراني تحقيق محمود شاكر ط مكتبة المعارف بالرياض 1415 هـ .
- 191 - المعجم الصغير للطبراني ط دار الكتب العلمية بيروت 1403 هـ .
- 192 - المعجم الكبير للطبراني ط دار البيان العربي ط 2 بدون تاريخ .
- 193 - المغني في الضعفاء للذهبي (شمس الدين الذهبي) تحقيق د . نور الدين عتر بدون إشارة إلى جهة الطبع ولا تاريخها .
- 194 - المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم للإمام الحافظ أحمد بن عمر بن إبراهيم القرطبي المالكي ت 565 هـ ط دار ابن كثير دمشق 1417 هـ ط أولى .
- 195 - موارد الظمان إلى زوائد ابن حبان للهيثمي ط دار الثقافة العربية بدمشق 1416 هـ ط 1 .
- 196 - ميزان الاعتدال في نقد الرجال للإمام الذهبي ط دار الفكر العربي بدون تاريخ .
- 197 - نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار من أحاديث سيد الأخيار - تأليف محمد ابن علي بن محمد الشوكاني ط دار الحديث بدون تاريخ .
- 198 - النهاية في غريب الحديث والأثر / لابن الأثير (مجد الدين أبي السعادات المبارك بن محمد الجزري ت 606 هـ) ط المكتبة العلمية بيروت .
- 199 - الوابل الصيب من الكلم الطيب تأليف الإمام ابن قيم الجوزية ط المكتبة السلفية 1400 هـ ط 5 .

خامسًا : مراجع في القصص القرآني :

- 200 - تاريخ الأنبياء / د . محمد الطيب النجار ط دار الاعتصام 1979 م .
- 201 - تاريخ الدعوة - تأليف الدكتور جمعة علي الخولي ط دار الطباعة المحمدية 1404 هـ ط أولى .
- 202 - دراسات في التفسير الموضوعي للقصص القرآني للدكتور أحمد جمال العمري ط مكتبة الخانجي ط 1406 هـ ط أولى .
- 203 - سيكولوجية القصة في القرآن د . التهامي نفرة ط الشركة التونسية للتوزيع 1971 م .

- 204 - عصمة الأنبياء والرد على الشبه الموجهة إليهم - تأليف الدكتور محمد أبو النور الحديدي مطبعة الأمانة 1399 هـ ط أولى .
- 205 - قصص الأنبياء لابن كثير ت 774 هـ بدون إشارة إلى جهة الطبع .
- 206 - قصص الأنبياء لعبد الوهاب النجار ط مكتبة دار التراث بدون تاريخ .
- 207 - قصص الأنبياء أحداثها وعبرها للأستاذ محمد الفقي ط مكتبة وهبة .
- 208 - قصص القرآن لمحمد أحمد جاد المولى ورفاقه ط دار التراث .
- 209 - قصص القرآن من آدم عليه السلام إلى أصحاب الفيل - للدكتور محمد بكر إسماعيل ط مكتبة فياض بالمنصورة ودار المنار بالقاهرة ط أولى بدون تاريخ .
- 210 - القصص القرآني (بين الآباء والأبناء) د . عماد زهير حافظ ط دار القلم دمشق ط 1410 هـ طبعة أولى .
- 211 - قصة آدم عليه السلام دراسة تحليلية موضوعية للدكتور محمد متولي إدريس ط 1993 بدون إشارة إلى جهة الطبع .
- 212 - قصتا آدم ويوسف عليهما السلام - عبد الكريم الخطيب ط دار الفكر العربي ومطبعة المدني بالقاهرة 1974 م .
- 213 - كيد النساء وعصمة الأنبياء - عبد العظيم عبد العزيز سبيع ط دار الاعتصام 1407 هـ .
- 214 - مع الأنبياء في القرآن الكريم - قصص ودروس وعبر من حياتهم - عفيف عبد الفتاح طيارة ط دار العلم للملايين ط 18 بدون تاريخ .
- 215 - نظرات في أحسن القصص / د . محمد السيد الوكيل ط دار القلم دمشق 1415 هـ ط أولى .
- 216 - يوسف بن يعقوب تأليف أحمد عز الدين عبد الله ط مطبعة السعادة مصر بدون تاريخ .

سادسًا : مراجع عن المرأة والبيت المسلم :

- 217 - آداب العقد والزفاف في الإسلام - حسين محمد يوسف ط دار الاعتصام 1392 هـ ط 1 .

- 218 - الإجهاض بين الطب والدين وخطره على المسلمين / لنخبة من العلماء جمع وترتيب الشيخ صفوت الشوادفي ط جماعة أنصار السنة المحمدية 1416 هـ .
- 219 - الأسرة تحت رعاية الإسلام / للشيخ عطية صقر ط مؤسسة الصباح 1400 هـ ط أولى .
- 220 - الإسلام وقضايا المرأة المعاصرة / للبهى الخولي ط دار القلم بالكويت .
- 221 - اقتصاد البيت المسلم في ضوء الشريعة / د . حسين شحاته ط دار الطباعة والنشر الإسلامية بالقاهرة 1990 م .
- 222 - أمّاه عودي إلينا / زينب عبد السلام أبو الفضل ط دار البشير ط 1994 م .
- 223 - الأمومة - نمو العلاقة بين الطفل والأم / تأليف د . فايز قنطار ط سلسلة عالم المعرفة بالكويت عدد 166 - أكتوبر 1992 م .
- 224 - تحذير إلى المرأة المسلمة - تأليف / مريم جميلة - ترجمة طارق خاطر ط المختار الإسلامي 1992 م .
- 225 - تحرير المرأة / قاسم أمين ط دار المعارف .
- 226 - تعدد الزوجات في الإسلام / إبراهيم محمد حسن الجمل ط دار الاعتصام 1986 م .
- 227 - تعدد الزوجات في الشريعة الإسلامية / د . عبد الناصر العطار / مطبعة النهضة بالقاهرة .
- 228 - تعدد الزوجات لا تعدد العشيقات / د . عبد الحلیم عويس ط دار الاعتصام 1978 م .
- 229 - حسن الأسوة بما ثبت من الله ورسوله في النسوة / السيد محمد صديق حسن خان ت 1307 هـ مطبعة المدني بدون تاريخ .
- 230 - حقوق المرأة في الإسلام / عبد القادر شبية الحمد ط دار الكتاب العربي بدون تاريخ .
- 231 - حقوق النساء في الإسلام / للسيد رشيد رضا ط المكتب الإسلامي .
- 232 - حول اتفاقية القضاء على أشكال التمييز ضد المرأة من المنظور الإسلامي / لشيخ الأزهر السابق جاد الحق علي جاد الحق رحمه الله - هدية مجلة الأزهر عدد صفر 1416 هـ .
- 233 - الحجاب / لأبي الأعلى المودودي ط مؤسسة الرسالة بيروت .

- 234 - الحركات النسائية في الشرق وصلتها بالاستعمار والصهيونية تأليف الأستاذ محمد فهمي ط دار الاعتصام .
- 235 - زوجات النبي ﷺ الطاهرات وحكمة تعددهن تأليف / محمد محمود الصواف ط دار الاعتصام ط 4 .
- 236 - سيدات نساء العالمين - سيرتهن وفضائلهن ، تأليف / الشيخ موسى الأسود مكتبة السنديس الكويت 1410 هـ ط أولى ط ثانية .
- 237 - صفحات من تاريخ المرأة المسلمة / د . محمود محمد عمارة ط المجلس الأعلى للشئون الإسلامية .
- 238 - عمل المرأة وموقف الإسلام منه د . عبد الرب نواب الدين ط دار الوفاء بالمنصورة 1406 هـ - ط أولى .
- 239 - مكانة المرأة في الإسلام وتعدد الزوجات / أحمد عبد الوهاب ط مكتبة وهبة 1989 م ط 1 .
- 240 - الماسونية والمرأة - جمعان بن عياض الزهراني إصدار رابطة العالم الإسلامي عدد 149 / سنة 1415 هـ .
- 241 - المرأة بين البيت والعمل د . سليمان بن حمد العودة ط دار الحلفاء بالمنصورة 1413 هـ ط أولى .
- 242 - المرأة بين البيت والمجتمع للبهى الخولي ط دار الكتاب العربي .
- 243 - المرأة بين شريعة الإسلام والحضارة الغربية تأليف وحيد الدين خان ترجمة سيد رئيس أحمد الندوي / ط دار الصحوة للنشر ودار الوفاء ط 1414 هـ ط أولى .
- 244 - المرأة بين الفقه والقانون د . مصطفى السباعي ط المكتب الإسلامي .
- 245 - المرأة في الإسلام بين الماضي والحاضر د . عبد الله شحاته ط الهيئة المصرية العامة للكتاب 1993 م .
- 246 - المرأة في التصور الإسلامي / الأستاذ عبد المتعال الجبري ط مكتبة وهبة ط 1406 هـ ط ثامنة .
- 247 - المرأة في الميدان / للأستاذ أمين سلامة ط دار النشر المتحدة 1958 ط أولى .

- 248 - المرأة المسلمة وفقه الدعوة إلى الله / د . علي عبد الحليم محمود ط دار الوفاء 1412 هـ ، ط ثانية .
- 249 - المرأة المصرية من الفراعنة إلى اليوم / درية شفيق ط مطبعة مصر 1955 م .
- 250 - المرأة حقوقها في الإسلام / للعلامة أبي النصر مبشر الطرازي - ط دار عمر ابن الخطاب - الإسكندرية .
- 251 - نظام الأسرة في الإسلام د . محمد سالم محيسن ، د . شعبان محمد إسماعيل ط مطبعة الجمهورية بالقاهرة .
- 252 - المشاكل الزوجية وحلولها في ضوء الكتاب والسنة محمد عثمان الخشت ط مكتبة القرآن .
- 253 - المفصل في أحكام المرأة والبيت المسلم د . عبد الكريم زيدان مؤسسة الرسالة ط 1417 هـ ط 3 .
- 254 - المؤامرة على المرأة المسلمة تاريخ ووثائق د . السيد أحمد فرج ط دار الوفاء بالمنصورة ط 1411 هـ ، ط ثالثة .
- 255 - لا تظلموا المرأة - د . كامل الفقي ط مكتبة وهبه .

سابعًا : مراجع في التاريخ وفي السيرة النبوية :

- 256 - آثار البلاد وأخبار العباد للإمام القزويني ط دار بيروت للطباعة والنشر - لبنان 1979 م .
- 257 - الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل للقاضي مجير الدين الحنبلي ط المطبعة الحيدرية بالنجف الأشرف .
- 258 - بدائع الزهور ووقائع الدهور لابن إياس : أبي البركات محمد بن أحمد بن إياس الحنفي ط الحلبي 1374 هـ ط رابعة .
- 259 - البداية والنهاية لابن كثير ط مكتبة المعارف بيروت 1401 هـ ، ط 4 .
- 260 - تاريخ السودان القديم د . محمد إبراهيم بكر ط دار المعارف 1983 م .
- 261 - تاريخ الخلفاء للسيوطي ط مطبعة المدني 1383 هـ .

- 262 - تهذيب تاريخ دمشق لابن عساكر : ثقة الدين القاسم علي بن الحسن بن هبة الله ، ط دار المسير بيروت 1399 هـ ، ط ثانية .
- 263 - تاريخ الأمم والملوك للطبري - ط دار الكتب العلمية بيروت ط 3 - 1411 هـ .
- 264 - التاريخ الإسلامي / محمود شاكر ط المكتب الإسلامي 1991 م .
- 265 - الرحيق المختوم - بحث في السيرة النبوية / تأليف فضيلة الشيخ صفى الرحمن المباركفوري ط دار الوفاء بالمنصورة 1411 هـ ، 1991 م .
- 266 - الروض الأنف للسهيلي أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد بن أبي الحسن الخثعمي (508 - 581) هـ ط / الطباعة المتحدة بالقاهرة . بدون تاريخ .
- 267 - زاد المعاد في هدي خير العباد للإمام ابن القيم ط الباني الحلبي 1369 هـ - ط ثانية .
- 268 - سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد للإمام محمد بن يوسف الصالحي الشامي ت 942 هـ . ط دار الكتب العلمية بيروت 1414 هـ ط أولى .
- 269 - السيرة الحلبية في سيرة الأمين المأمون إنسان العيون تأليف علي بن برهان الدين الحلبي (975 - 1044 هـ) ط محمد علي صبيح القاهرة 1353 هـ .
- 270 - السيرة النبوية / محمد بن عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري ت 218 هـ ط الباني الحلبي 1375 هـ .
- 271 - السيرة النبوية للإمام الحافظ ابن كثير ط دار المعرفة بيروت 1402 هـ .
- 272 - السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة د . محمد محمد أبو شهبه ط دار القلم دمشق 1409 هـ ط أولى .
- 273 - شرح الشفا في شمائل الاصفطا - نور الدين القاري الهروي الحنفي الشهير بملا علي القاري ط مطبعة المدني بالقاهرة - بدون تاريخ .
- 274 - الطبقات الكبرى لابن سعد (محمد بن سعد ت 230 هـ) ط دار صادر بيروت .
- 275 - العرب وظهور الإسلام للدكتور محمد مصطفى النجار والدكتور أحمد مجاهد مصباح ط الجامعة الإسلامية بليبيا 1388 هـ ، 1969 م ، ط أولى .
- 276 - فقه السيرة د . محمد سعيد رمضان البوطي مكتبة الدعوة الإسلامية ط 2 بدون تاريخ .

- 277 - قصة الحضارة لول ديورانت ط لجنة التأليف والترجمة والنشر 1968 م ، ط 3 .
- 278 - مختصر أخبار البشر لابن كثير ط دار المعرفة بيروت .
- 279 - مرآة الزمان في تاريخ الأعيان لسبط بن الجوزي (شمس الدين بن المظفر يوسف) ط دار الشروق بيروت 1405 هـ ، ط أولى .
- 280 - مروج الذهب ومعادن الجوهر لأبي الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي ت 346 هـ / ط دار الكتب العلمية بيروت 1416 هـ ، ط أولى .
- 281 - مكة في عصر ما قبل الإسلام للسيد أحمد أبو الفضل عوض الله مطبوعات الدارة - بالسعودية ط 1401 هـ ، ط ثانية .
- 282 - المحبر للعلامة المؤرخ أبي جعفر محمد بن حبيب ت 245 هـ ، ط المكتب التجاري بيروت .
- 283 - نور اليقين في سيرة سيد المرسلين للشيخ محمد الخضري بك مطبعة الاستقامة 1397 هـ .
- ثامناً : مراجع في العقيدة الإسلامية :**
- 284 - تبسيط العقائد الإسلامية للشيخ حسن أيوب ط دار الاعتصام 1398 هـ ط ثالثة .
- 285 - توحيد الخالق للشيخ عبد المجيد الزنداني ط دار السلام 1415 هـ ، ط ثالثة .
- 286 - التوحيد للشيخ عبد المجيد الزنداني ط دار السلام 1415 هـ .
- 287 - شرح أسماء الله الحسنى للإمام عبد الكريم القشيري ط مجمع البحوث الإسلامية 1390 هـ .
- 288 - شرح العقيدة الطحاوية (للإمام الطحاوي) شرح على بن علي بن محمد بن أبي العز الدمشقي تحقيق شعيب الأرنؤوط ، ط دار البيان بدمشق 1401 هـ ط أولى .
- 289 - شرح العقيدة الطحاوية (للإمام الطحاوي) شرح علي بن علي بن محمد بن أبي العز الدمشقي طبعة المكتب الإسلامي 1391 هـ ط رابعة .
- 290 - عقيدة المؤمن للشيخ أبي بكر جابر الجزائري ط مكتبة الدعوة الإسلامية ومطبعة الحلبي بالقاهرة .

- 291 - الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان لابن تيمية ط دار البيان بدمشق 1405 هـ .
- 292 - المختار من شرح البيجوري على الجوهرة (تحفة المريد على جوهرة التوحيد للشيخ إبراهيم البيجوري 1401 هـ 1981 م - المعاهد الأزهرية) .
- 293 - المقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى للإمام أبي حامد الغزالي ط مكتبة القرآن .
- تاسعًا : مراجع في الفقه وأصوله :**
- 294 - الأشباه والنظائر على مذهب أبي حنيفة النعمان تأليف الشيخ زين العابدين ابن إبراهيم بن نجيم ت 970 هـ ، ط مؤسسة الحلبي 1387 هـ ، ط أولى .
- 295 - الأم : للإمام الشافعي (محمد بن إدريس) ط البايب الحلبي .
- 296 - الأحوال الشخصية للشيخ محمد أبي زهرة ط دار الفكر .
- 297 - الأحوال الشخصية تأليف محمد محيي الدين عبد الحميد ط دار الكتاب العربي بيروت 1404 هـ ، ط أولى .
- 298 - الأحكام السلطانية للإمام بغوي الفراء الحنبلي ت 458 هـ ط الحلبي .
- 299 - الأحكام السلطانية للإمام الماوردي ط الخانجي بالقاهرة 1327 هـ .
- 300 - البحر الرائق شرح كنز الدقائق للشيخ زين العابدين بن إبراهيم بن نجيم ط دار الكتب العلمية بيروت .
- 301 - بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع للعلامة الفقيه علاء الدين أبي بكر بن مسعود الكاساني الحنفي ت 587 هـ ، ط مطبعة الإمام بالقاهرة 1392 هـ .
- 302 - التشريع الجنائي في الإسلام مقارنة بالقانون الوضعي للأستاذ عبد القادر عودة ت 1954 م - ط مؤسسة الرسالة ط 1403 هـ ، ط رابعة .
- 303 - الحيل في الشريعة الإسلامية د . محمد عبد الوهاب بحيري ط مطبعة السعادة 1394 هـ ، 1974 م ، ط أولى .
- 304 - رد المختار على الدر المختار شرح تنوير الأبصار للفقهاء محمد أمين الشهير بابن عابدين ت 1252 هـ وهو مطبوع مع الدر المختار ط / البايب الحلبي 1386 هـ .
- 305 - شرح كتاب السير الكبير لمحمد بن الحسن الشيباني ، السير للإمام محمد

الحسن الشيباني صاحب أبي حنيفة ت 189 هـ والشرح لشمس الأئمة السرخسي ط مطبعة شركة الإعلانات المصرية 1972 م .

306 - الشرح الصغير على أقرب المسالك إلى مذهب الإمام مالك لأبي البركات الدردير ط دار المعارف 1394 هـ .

307 - المغني لابن قدامة الحنبلي ط دار الكتاب العربي بيروت 1403 هـ .

308 - فتح القدير للكمال بن الهمام الحنفي ت 861 هـ ط دار الكتب العلمية بيروت .

309 - الفتاوى الخانية للإمام فخر الدين حسن بن منصور الأوزجندي الفرغاني الحنفي ت 295 هـ ، مطبوعة على هامش الفتاوى الهندية المطبعة الأميرية ببولاق 1310 هـ .

310 - الفقه الإسلامي وأدلته للدكتور وهبة الزحيلي ط دار الفكر دمشق ط 1417 هـ الطبعة الرابعة .

311 - كفاية الأخيار في حل غاية الاختصار للإمام تقي الدين أبي بكر بن محمد الحسيني الدمشقي الشافعي ط دار إحياء الكتب العربية بدون تاريخ .

312 - المجموع شرح المهذب للإمام النووي ت 676 هـ . ط دار الفكر .

313 - المحلى لابن حزم الظاهري (أبو محمد علي بن أحمد بن حزم ت 456 هـ ط المكتب التجاري بيروت .

314 - المنتقى شرح الموطأ للإمام الباجي (أبي الوليد سليمان بن خلف الباجي الأندلسي ت 494 هـ . ط دار الكتاب العربي بيروت ط 1403 ط 3 .

315 - نهاية المحتاج إلى شرح المنهاج في الفقه على مذهب الشافعي تأليف شمس الدين محمد بن أبي العباس أحمد بن حمزة بن شهاب الدين الرملي ت 1004 هـ ومعه حاشية أبي الضياء نور الدين الشيراملي القاهري ت 1087 هـ ط الباني الحلبي 1357 هـ .

316 - الموافقات للإمام الشاطبي ط دار إحياء الكتب العربية

عاشراً : مراجع في الدعوة والثقافة الإسلامية والنظم الإسلامية :

317 - إحياء علوم الدين للإمام أبي حامد الغزالي ط المكتب الثقافي بدون تاريخ .

318 - الإسلام والجنس - فتحي يكن ط مؤسسة الرسالة بيروت 1401 هـ 1981 م .

- 319 - إغاثة اللهفان من مكائد الشيطان لابن قيم الجوزية ط دار الحديث .
- 320 - الأمراض الجنسية عقوبة إلهية د . عبد الحميد القضاة ط دار النشر الطبية لندن 1985 ط أولى .
- 321 - الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي / لابن قيم الجوزية ط دار الكتب العلمية .
- 322 - حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح لابن القيم ط مكتبة المدني بالقاهرة .
- 323 - الداء والدواء لابن القيم ط مكتبة التراث الإسلامي .
- 324 - الدعوة الإسلامية والإنقاذ العالمي د . عبد الله ناصح علوان ط دار السلام 1405 هـ .
- 325 - ذم الهوى لابن الجوزي ط دار الكتب الإسلامية بالقاهرة - ط 1381 هـ ط أولى .
- 326 - الذريعة إلى مكارم الشريعة للراغب الأصفهاني تحقيق د . أبو اليزيد العجمي ط دار الوفاء 1405 هـ ط 1 .
- 327 - روضة القضاء وطريق النجاة لأبي القاسم علي بن محمد بن أحمد الرحبي السمناني ت 499 هـ تحقيق د . صلاح الدين الناهي ط مؤسسة الرسالة 1404 هـ ط 2 .
- 328 - الشورى لمحمود الخالدي ط دار الجيل بيروت 1404 هـ .
- 329 - الشورى بين التأثير والتأثر د . عبد الحميد إسماعيل الأنصاري ط دار الشروق 1402 هـ .
- 330 - الشورى في ظل نظام الحكم الإسلامي - عبد الرحمن عبد الخالق ط دار القلم بالكويت 1975 م .
- 331 - الشورى وممارستها الإيمانية عدنان علي رضا النحوي ط دار النحوي بالرياض 1409 هـ ، ط 3 .
- 332 - الطفل المثالي في الإسلام / عبد الغني الخطيب ط المكتب الإسلامي 1399 هـ .
- 333 - الطفل في الشريعة الإسلامية د . محمد بن أحمد الصالح - مطبعة النهضة بمصر .
- 334 - القيادة والجندي في الإسلام د . محمد السيد الوكيل ط دار الوفاء بالمنصورة 1406 هـ .
- 335 - محاسن الإسلام لأبي عبد الله محمد بن عبد الرحمن البخاري ت 546 هـ ،

ط مكتبة القدسي .

336 - مفتاح دار السعادة لابن القيم - ط مكتبة حميدو بالإسكندرية 1399 هـ ، ط 3 .

337 - نظام القضاء في الإسلام / للمستشار جمال صادق المرصفي ط المجلس العلمي بجامعة الإمام ابن سعود 1404 هـ .

حادي عشر : مراجع في الأديان

338 - الكتاب المقدس - ويضم العهدين ، القديم والجديد ط دار الكتاب المقدس في الشرق الأوسط 1987 م .

339 - إنجيل برنابا . نسبة إلى برنابا / ترجمة خليل سعادة - وتقديم رشيد رضا ط دار القلم بالكويت .

340 - الإنجيل كتاب الحياة - ترجمة تفسيرية ط المطبعة العصرية بمصر ودار الثقافة 1987 م ط ثامنة .

341 - الأجوبة الفاخرة عن الأسئلة الفاجرة للقرافي (أحمد بن إدريس بن عبد الرحمن أبو العباس شهاب الدين ت 684 هـ) تحقيق د . بكر زكي عوض ط مكتبة وهبة 1407 هـ ط ثانية .

342 - الأسفار المقدسة / دراسة : د . علي عبد الواحد وافي ط دار المعارفة .

343 - الإسلام والمسيحية لأبي عبيدة الخزرجي تحقيق د . محمد شامة ط مكتبة وهبة 1395 هـ ط ثانية .

344 - بذل المجهود في إفحام اليهود للسموأل بن يحيى المغربي ت 575 هـ تحقيق د . محمد عبد الله الشرقاوي ط دار الهداية 1406 هـ .

345 - تفسير الكتاب المقدس للأرشد ياكون ط مدارس الأحد بروض الفرج القاهرة .

346 - تنزيه نبي الله داود عن مطاعن وأكاذيب اليهود في العهد القديم والإسرائيليات د . فتحي محمد الزغبى ط 1412 هـ ، ط أولى بدون إشارة إلى جهة الطبع .

347 - التراث اليهودي الصهيوني والفكر الفرويدي ط عالم الكتب بالقاهرة ط 1 ، 1970 م .

348 - جريدة وطني - عدد الأحد 18/11/1979 جريدة أسبوعية قطبية .

- 349 - خطر اليهودية العالمية على الإسلام والمسيحية - د . عبد الله التل ط المكتب الإسلامي بيروت لبنان .
- 350 - دراسات حول أسفار موسى الخمسة صليب سوريال ط مكتبة التريية . الكنسية الأرثوذكسية بالجيزة 1987 م .
- 351 - دراسات في التوراة للشيخ عطية الشوادفي مدير عام الوعظ بالأزهر سابقا ط المؤتمر العاشر لمجمع البحوث الإسلامية 1406 هـ ، 1985 م .
- 352 - ديانة مصر القديمة تأليف أدولف أورمان ترجمة عبد المنعم أبو بكر ط الهيئة المصرية العامة للكتاب .
- 353 - السنن القويم في تفسير العهد القديم تأليف عصبة من علماء اللاهوت صدر عن مجمع الكنائس في الشرق الأدنى بيروت 1973 م .
- 354 - العقيدة اليهودية وخطرها على الإنسانية د . سعد الدين صالح ط دار الهدى مصر 1404 هـ ، 1984 م .
- 355 - الفصل في الملل والأهواء والنحل لابن حزم الظاهري - علي بن أحمد بن سعيد بن حزم بن غالب الأندلسي القرطبي الظاهري ت (456 هـ) .
- 356 - الفولكلور في العهد القديم / جيمس فريزر ط دار المعارف ط ثانية .
- 357 - قاموس الكتاب المقدس تأليف عصبة من علماء اللاهوت ط دار الثقافة 1994 ط تاسعة .
- 358 - الكنيسة أسرارها وطقوسها دراسة مقارنة للباحث عادل محمد محمد درويش - رسالة دكتوراه - كلية أصول الدين بالقاهرة .
- 359 - الماسونية بين الحقيقة والشعارات / محمد زكي الدين ط الدار السعودية للنشر والتوزيع جدة السعودية .
- 360 - مركز المراة في الشريعة اليهودية / السيد محمد عاشور ط دار الاتحاد العربي بالقاهرة .
- 361 - معجم الإيمان المسيحي صبحي حموي يسوعي ط دار الشرق بيروت 1994 م ط 1 .
- 362 - معركة الوجود بين القرآن والتلمود د . عبد الستار فتح الله سعيد ط مكتبة المنار بالأردن 1402 هـ .
- 363 - المسيحية - سلسلة مقارنة الأديان أحمد شلبي مطبعة النهضة المصرية 1975 م .

- 364 - المسيحية في الإسلام إبراهيم لوقا - ط المطبعة التجارية الحديثة 1958 ط ثالثة .
 365 - اليهودية - سلسلة مقارنة الأديان أحمد شلبي ط مطبعة النهضة المصرية
 1974 م .

ثاني عشر : مراجع في التيارات المعاصرة :

- 366 - أساليب الغزو الفكري للعالم الإسلامي د . علي جريشة و د . محمد شريف
 الزبيق ط دار الاعتصام 1978 م .
 367 - الأساليب الحديثة في مواجهة الإسلام د . سعد الدين صالح ط دار الأرقم
 1409 هـ .
 368 - الإسلام في مواجهة الزحف الأحمر للشيخ محمد الغزالي ط المكتبة العصرية
 صيدا - لبنان .
 369 - أصول الفكر الماركسي - أوجست كونر ترجمة مجاهد عبد المنعم مجاهد
 ط دار الآداب بيروت 1968 ط أولى .
 370 - أصول الفلسفة الماركسية جورج بوليتزر - ترجمة شعبان بركات المكتبة
 العصرية صيدا لبنان .
 371 - انهيار الشيوعية أمام الإسلام د . سعد الدين صالح ط دار الأرقم 1411 هـ .
 372 - الإنسان بين المادية والإسلام . محمد قطب ط دار إحياء الكتب العربية -
 بدون تاريخ .
 373 - بروتوكولات حكماء صهيون . ترجمة محمد خليفة التونسي ط دار الكتاب
 العربي بيروت و طبعة مكتبة الإيمان بالمنصورة .
 374 - تصحيح المفاهيم / تأليف الأستاذ أنور الجندي ط دار الاعتصام .
 375 - حقائق الإسلام وأباطيل خصومه تأليف - عباس محمود العقاد مجموعة
 الأعمال الكاملة للعقاد - ط دار الكتاب اللبناني .
 376 - الحق المر - تأليف الشيخ محمد الغزالي ط دار الريان للتراث .
 377 - الحلول المستوردة كيف جنت علينا ؟ تأليف د . يوسف القرضاوي ط مكتبة

وهبة 1397 هـ ط 3 .

- 378 - شبهات حول الإسلام محمد قطب ط دار الشروق .
- 379 - العالم الإسلامي والمكائد الدولية خلال القرن الرابع عشر الهجري تأليف فتحي يكن ط مؤسسة الرسالة 1403 هـ ط 2 .
- 380 - هزيمة الشيوعية في عالم الإسلام تأليف الأستاذ أنور الجندي ط دار الاعتصام 1983 م .
- 381 - واقعا المعاصر تأليف الأستاذ محمد قطب ط مؤسسة المدينة للصحافة بجدة .

ثالث عشر : المعاجم اللغوية :

- 382 - الأساس في البلاغة للزمخشري ط دار الكتب المصرية 1372 هـ ، 1953 م ط أولى .
- 383 - الاشتقاق لأبي بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي ت 321 هـ تحقيق وشرح عبد السلام هارون . ط دار المسيرة بيروت 1399 هـ ، 1979 م ، ط ثانية .
- 384 - تاج العروس من جواهر القاموس للإمام (محب الدين أبي الفضل السيد محمد المرتضى الحسيني الواسطي الزبيدي الحنفي نزيل مصر ت 1205 هـ) ط المطبعة الخيرية بجمالة مصر 1306 هـ .
- 385 - التعريفات للجرجاني ط دار الكتب العلمية بيروت 1408 هـ ، 1988 م (الشريف علي بن محمد الجرجاني) ط 3 .
- 386 - القاموس المحيط لمجد الدين الفيروزآبادي ط المكتبة التجارية الكبرى ط 5 .
- 387 - لسان العرب لجمال الدين أبي الفضل محمد بن مكرم بن علي بن أحمد بن أبي القاسم بن منظور (711 هـ) . ط دار المعارف بدون تاريخ .
- 388 - مختار الصحاح للإمام محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي ط دار مصر للطباعة .
- 389 - معجم مقاييس اللغة لأبي الحسين أحمد بن فارس ت 395 هـ ط البايي الحلبي 1390 هـ ، ط ثانية .
- 390 - المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للعلامة أحمد بن محمد بن علي المقرئ الفيومي ت 770 هـ ، ط المطبعة العثمانية 1312 هـ .

391 - المعجم الوسيط إصدار مجمع اللغة العربية بالقاهرة .

رابع عشر : مراجع في الأدب والبلاغة والنحو :

392 - أدب الدنيا والدين للماوردي ت 450 هـ ط الدار المصرية اللبنانية 1408 هـ ط أولى .

393 - الإنصاف في مسائل الخلاف بين النحويين والبصريين والكوفيين للإمام كمال الدين أبي البركات عبد الرحمن بن محمد بن أبي سعيد الأنباري النحوي ت 577 هـ ط المكتبة التجارية بالقاهرة 1380 هـ ، ط أولى .

394 - بهجة المجالس وأنس المجالس وشحد الذاهن والهاجس لأبي عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر النمري القرطبي ت 463 هـ تحقيق محمد مرسي الخولي ط دار الكتب العلمية بدون تاريخ .

395 - البلاغة الواضحة لعلي الجارم ومصطفى أمين ط دار المعارف بدون تاريخ .

396 - البيان والتبيين للجاحظ (أبي عثمان عمرو بن بحر) ت 355 ط المطبعة التجارية 1956 .

397 - ديوان امرئ القيس ط دار المعارف 1984 ط 4 جمع وتحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم .

398 - ديوان أمية بن أبي الصلت ط المطبعة التعاونية دمشق 1974 ط أولى .

399 - ديوان أبي الطيب المتنبي ط المكتبة الثقافية بيروت .

400 - ديوان الإمام الشافعي ط دار يكن للنشر بيروت بدون تاريخ .

401 - ديوان البوصيري ط البابي الحلبي .

402 - ديوان حافظ إبراهيم ط الهيئة المصرية العامة للكتاب .

403 - ديوان البحتري ط دار المعارف .

404 - روضة المحبين ونزهة المشتاقين لابن القيم ط دار الفكر العربي .

405 - شرح ابن عقيل على ألفية بن مالك (بهاء الدين عبد الله بن عقيل الهمداني

المصري (ت 769 هـ) وابن مالك (أبو عبد الله محمد بن جمال الدين بن مالك ت

682 هـ) ط الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية 1410 هـ .

- 406 - شرح القصائد العشر لأبي زكريا يحيى بن علي بن محمد الخطيب التبريزي
ت 502 هـ ، ط صبيح بالقاهرة 1384 هـ .
- 407 - الشوقيات . شعر أمير الشعراء أحمد شوقي ط المكتبة التجارية بالقاهرة 1961 م .
- 408 - الصناعتين الكتابة والشعر لأبي الهلال الحسن بن عبد الله بن سهيل
العسكري ت 395 هـ ، ط البايي الحلبي تحقيق علي البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم .
- 409 - عيون الأخبار لأبي محمد عبد الله بن سليم بن قتيبة الدينوري ت 276 هـ
ط ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر .
- 410 - العقد الفريد لابن عبد ربه (أحمد بن عبد ربه القرطبي الأندلسي) ط لجنة
التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة 1940 م .
- 411 - مشاهد الإنصاف على شواهد الكشاف للشيخ محمد عليان المذكور بهامش
الكشاف ط دار الريان للتراث 1407 هـ ، ط ثالثة .
- 412 - معجم الشواهد العربية للأستاذ عبد السلام هارون ط دار المعارف .
- 413 - المستطرف في كل فن مستظرف لشهاب الدين محمد بن أحمد الأبشيهي
ت 850 هـ ، ط دار مكتبة الحياة بيروت 1988 م .
- 414 - نقد البردة للشيخ عبد البديع صقر ط دار الاعتصام 1406 هـ ، ط ثانية .

خامس عشر : كتب الإعلام والتراجم

- 415 - أخبار الحكماء لجمال الدين القفطي ت 624 هـ ، ط دار الآثار ببلنجان بدون تاريخ .
- 416 - أسد الغاية في معرفة الصحابة للشيخ عز الدين أبي الحسن علي بن أبي الكرم محمد
ابن محمد بن عبد الكريم الشيباني المعروف بابن الأثير ط دار إحياء التراث العربي بدون تاريخ .
- 417 - الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر العسقلاني ومعه الاستيعاب لابن عبد
البر ط دار الكتاب العربي .
- 418 - الأعلام لخير الدين الزركلي ط دار العلم للملايين ط 7 - 1986 م .
- 419 - الإمام الشوكاني حياته وفكره د . عبد الغني قاسم أستاذ التربية بجامعة
صنعاء مؤسسة الرسالة بيروت ط 1408 هـ ، ط أولى .

- 420 - إنباه الرواة على أنباه النحاة جمال الدين أبو الحسن علي بن يوسف القفطي
ت 624 هـ ط دار الكتب المصرية .
- 421 - بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة للسيوطي ط البابي الحلبي 1384 هـ ط أولى .
- 422 - تاريخ بغداد أو مدينة السلام - منذ تأسيسها وحتى سنة 463 هـ - للخطيب
البغدادي (أبو بكر أحمد بن علي الخطيب البغدادي 463 هـ) ط دار الكتب العلمية
بيروت بدون تاريخ .
- 423 - تاريخ العلماء النحويين للقاضي أبي المحاسن المفضل بن محمد التنوخي
المصري ت 442 هـ ، ط جامعة الإمام ابن سعود 1410 هـ .
- 424 - تراجم الأعلام المعاصرين في العالم الإسلامي للأستاذ أنور الجندي ط دار
الاعتصام .
- 425 - التفسير والمفسرون د . محمد حسين الذهبي ط مكتبة وهبة 1413 هـ .
- 426 - حلية الأولياء وطبقات الأصفياء للحافظ أبي نعيم أحمد بن عبد الله
الأصفهاني ت 430 هـ ط مطبعة الأنوار المحمدية .
- 427 - حياة الصحابة للشيخ محمد يوسف الكاندهلوي ط مكتبة دار التراث بدون تاريخ .
- 428 - الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة لابن حجر العسقلاني ط دار الجيل بيروت
بدون تاريخ .
- 429 - سيد قطب تراثه الأدبي والفكري د . عبد الرحمن البليهي كلية الشريعة
 بالرياض ط 1390 هـ بالرياض .
- 430 - سيد قطب حياته وأدبه - عبد الباقي محمد حسين ط دار الوفاء .
- 431 - سيد قطب حياته ومنهجه في الحركة والنقد الموجه إليه - محمد توفيق
بركات ط دار الدعوة بيروت .
- 432 - سير أعلام النبلاء شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي ط مؤسسة
الرسالة ط 1410 هـ ط 7 .
- 433 - شذرات الذهب في أخبار من ذهب لأبي الفلاح عبد الحي بن العماد الحنبلي
ت 1089 هـ ، ط مكتبة المقدسي بمصر 1450 هـ .

- 434 - الضوء اللامع لأهل القرن التاسع للسخاوي شمس الدين محمد بن عبد الرحمن السخاوي ط دار الجيل 1412 هـ ط أولى .
- 435 - طبقات الأولياء لسراج الدين أبو حفص عمر بن علي بن أحمد المصري ط الخانجي 1393 هـ .
- 436 - طبقات الحفاظ للسيوطي ط دار الكتب العلمية بيروت 1403 هـ .
- 437 - طبقات الشافعية لابن قاضي شهبة ط دار الندوة الجديدة بيروت .
- 438 - طبقات الشافعية الكبرى للسبكي تاج الدين أبو نصر عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي السبكي ت 771 هـ ، ط دار المعرفة بيروت بدون تاريخ .
- 439 - طبقات فحول الشعراء لابن سلام تحقيق محمود محمد شاكر ط المدني بمصر سنة 1399 .
- 440 - طبقات فقهاء اليمن لعمر بن علي بن سمرة الجعدي ألفه سنة 586 هـ ط مطبعة السنة المحمدية بالقاهرة 1957 م .
- 441 - طبقات القراء للإمام شمس الدين أبو الخير محمد بن محمد الجزري ت 833 هـ ط دار الكتب العلمية سنة 1402 هـ .
- 442 - طبقات المفسرين للداوودي (شمس الدين محمد بن محمد بن علي بن أحمد الداوودي ت 945 هـ ط دار الكتب العلمية بيروت 1403 هـ ط أولى .
- 443 - طبقات المفسرين للسيوطي ط دار الكتب العلمية بيروت 1403 هـ ط أولى وطبعة طهران 1960 م .
- 444 - عبد الكريم الخطيب والثقافة الإسلامية للسيد أبو ضيف المدني ط دار الفكر العربي 1979 م .
- 445 - علماء ومفكرون عرفتهم / محمد المجذوب ط دار الاعتصام .
- 446 - عيون الأنباء في طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة تحقيق نزار رضا 1965 م بيروت .
- 447 - غاية النهاية في طبقات القراء للإمام شمس الدين أبي الخير محمد بن محمد الجزري ت 833 هـ ط دار الكتب العلمية بيروت 1402 هـ ط ثالثة .
- 448 - فوات الوفيات محمد بن شاكر أحمد الكتبي ت 674 هـ مطبعة السعادة

- بمصر ومكتبة النهضة بدون تاريخ .
- 449 - الفتح المبين في طبقات الأصوليين للشيخ عبد الله مصطفى المراغي - طبعة محمد أمين دمج وشركاه - بيروت لبنان .
- 450 - الفهرست لابن النديم محمد بن إسحاق بن النديم ت 385 هـ ط دار المعرفة بيروت .
- 451 - معجم الأدباء لياقوت الحموي ط دار صادر بيروت .
- 452 - معجم المفسرين لأستاذ عادل نويهض ط مؤسسة نويهض الثقافية ط 1988 م ط الثالثة .
- 453 - معجم المؤلفين لعمر رضا كحالة ط / مكتبة المثنى ودار إحياء التراث العربي بيروت .
- 454 - معجم المؤلفين السوريين للأستاذ عبد القادر عياش ط دار الفكر دمشق .
- 455 - مناقب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ابن الجوزي ط دار الكتب العلمية بيروت .
- 456 - منهج الشيخ سعيد حوى في كتابه الأساس في التفسير / أحمد محمد الشرقاوي رسالة ماجستير كلية أصول الدين بالمنصورة 1415 هـ 1994 م .
- 457 - المحدثون في مصر والأزهر - تأليف د . الحسيني هاشم ، ود . أحمد عمر هاشم ط المؤتمر العاشر لمجمع البحوث الإسلامية بالأزهر 1406 هـ .
- 458 - المجددون في الإسلام من القرن الأول إلى القرن الرابع عشر الهجري / عبد المتعال الصعيدي ط مكتبة الآداب بالقاهرة بدون تاريخ .
- 459 - الموسوعة الحركية فتحي يكن [تراجم لنخبة من الدعاة المعاصرين] ط مؤسسة الرسالة 1400 هـ ، ط أولى .
- 460 - الموسوعة الصوفية [تراجم لفرق وأعلام الصوفية] للدكتور عبد المنعم حفني ط دار الرشاد 1412 هـ 1992 م ، ط أولى .
- 461 - نزهة الألباء في طبقات الأدباء لأبي البركات الأنباري (كمال الدين عبد الرحمن بن محمد بن الأنباري ت 577 هـ) ط مكتبة المنار - الأردن 1405 هـ ، ط 3 .
- 462 - نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب للشيخ أحمد بن محمد المقرئ التلمساني ت 1041 هـ . ، ط دار صادر / بيروت 1388 هـ .

463 - نكت الهميان في نكت العميان لصالح الدين الصفدي المطبعة الجمالية بالقاهرة سنة 1911 م .

464 - هذه تجربتي وهذه شهادتي للشيخ سعيد حوى ط مكتبة وهبة الجزء الأول ط أولى 1407 هـ .

465 - وفيات الأعيان لأبي العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان ت 681 هـ ، ط النهضة المصرية 1367 هـ .

سادس عشر : مراجع متنوعة :

466 - تشريح الحوض للذكر والأنثى د. شفيق عبد الملك ط المطبعة التجارية الحديثة .

467 - الإنسان ذلك المجهول تأليف أليكسيس كارليل ترجمة شفيق أسعد ط مكتبة المعارف .

468 - الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي لابن قيم الجوزية ط دار الكتب العلمية بيروت .

469 - الجن - لابن تيمية ط مكتبة الإيمان 1987 م .

470 - داء الإيدز والأمراض التناسلية تأليف / الفاضل العبيد عمر ط دار النفائس 1993 م .

471 - دائرة المعارف / لبطرس البستاني ط دار المعرفة بيروت .

472 - الداء والدواء لابن القيم - ط مكتبة التراث الإسلامي .

473 - علم تشريح الإنسان / د . شفيق عبد الملك المطبعة التجارية الحديثة .

474 - عالم الجن والشياطين د . عمر سليمان الأشقر ط دار الكتب السلفية بالقاهرة 1985 م .

475 - العادات الجنسية لدى المجتمعات تأليف أحمد علي المجدوب ط الدار المصرية اللبنانية ط 1990 م ط 1 .

476 - فصوص الحكم لمحبي الدين بن عربي ت 638 هـ ط دار الكتاب العربي بيروت لبنان 1400 هـ ط ثانية .

- 477 - الفضاء الخارجي واستخداماته السلمية د / محمد بهي الدين عرجون عالم المعرفة ع 214 .
- 478 - كشاف اصطلاحات الفنون - لمحمد علي الفاروقي التهانوي ط المؤسسة المصرية للتأليف والترجمة والنشر ط 1382 هـ .
- 479 - كل شيء عن الأقمار الصناعية وسفن الفضاء تأليف دافيد ديتز ترجمة ط . محمد جمال الدين الفندي ط دار المعارف 1992 م ، ط 7 .
- 480 - مبادئ علم التشريح ووظائف الأعضاء د . شفيق عبد الملك ط دار الفكر العربي .
- 481 - مجمع الأمثال لأبي الفضل أحمد بن محمد بن إبراهيم الميداني ط دار الجيل بيروت .
- 482 - مجموع الفتاوى لابن تيمية ط الرياض .
- 483 - معجم البلدان لياقوت الحموي ط دار صادر بدون تاريخ .
- 484 - الموسوعة العربية الميسرة ط دار القلم ومؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر بإشراف شفيق غربال .

سابع عشر : صحف ومجلات :

- 485 - أخبار اليوم - جريدة يومية مصرية عدد 19/6/1997 م .
- عدد 8/2/1993 م - عدد 17/4/1984 م .
- 486 - أسماء مجلة شهرية تصدر عن الاتحاد الثقافي في باريس عدد 3 - السنة الأولى جمادى الآخر 1409 هـ .
- 487 - الأزهر مجلة : عدد المحرم 1404 هـ ، والمحرم 1407 هـ وربيع الآخر 1409 هـ ورمضان 1416 هـ وعدد ذو القعدة 1416 هـ ، وذو الحجة 1416 هـ .
- 488 - الاعتصام - مجلة شهرية عدد إبريل 1989 م .
- 489 - الأهرام - جريدة يومية عدد 27/3/1993 م - 1/7/1999 م .
- 490 - الأهرام المسائية - جريدة يومية مسائية 11/3/1993 م .

491 - البلاغ الكويتية - مجلة أسبوعية عدد ذو القعدة 1409 هـ ع 996 وعدد المحرم 1410 هـ ع 1003 .

492 - البيان مجلة صادرة من الاتحاد الإسلامي بلندن عدد رمضان 1418 هـ يناير 1998 م السنة الثانية عشرة .

493 - منار الإسلام مجلة شهرية تصدر عن وزارة الأوقاف بدولة الإمارات عدد شعبان 1417 هـ .

494 - المجتمع الكويتية ع 909 - 21 مارس 1989 وعدد 1192 ذو القعدة 1416 هـ .

495 - المسلمون / صحيفة أسبوعية تصدر من السعودية عدد 1989/4/21 .

وعدد 1990/11/23

وعدد 1997/5/23

496 - الوعي الإسلامي مجلة شهرية تصدر عن وزارة الأوقاف الكويتية عدد 355 ، 1416 هـ .

فهرس بأطراف الأحاديث النبوية

رقم الصفحة	طرف الحديث	المسلسل
792 - 774	أتدرون ما الغيبة ؟	1
692	أتدري أين صليت ؟	2
788 - 780 - 732	اجتنبوا السبع الموبقات	3
584	أحب الصيام إلى الله صيام داود	4
234	إذا أتى الرجل الرجل فهما زانيان	5
760	إذا أراد سفرا أقرع بين نسائه	6
741	إذا أراد الله بعبد خيرا غسله	7
450	إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه	8
59	إذا حدثكم أهل الكتاب	9
621	إذا دعا أحدكم فليعزم ...	10
621	إذا دعا أحدكم فلا يقل اللهم اغفر لي إن شئت	11
466	إذا ضيعت الأمانة فانتظروا الساعة	12
869	أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلا بالوادي	13
619	أربعوا على أنفسكم	14
375	إذا ضمن الناس بالدينار والدرهم	15
750	إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث	16
72	احتج آدم وموسى	17
46	استوصوا بالنساء خيرا	18
622	ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة	19
78	أعددت لعبادي الصالحين (حديث قدسي)	20
310	أعطي يوسف شطر الحسن	21
656	أفضل نساء أهل الجنة	22
662	أفلا أكون عبدا شكورا	23
661	أقرب ما يكون العبد لربه وهو ساجد	24
370	أما يستحي أحدكم أن يضرب امرأته كما يضرب العبد	25
793	أمسك عليك لسانك	26
793	ألا أخبرك برأس الأمر ؟	27
547	إلى أقربهما منك بابا	28
371	أن تطعمها إذا طعمت	29
48	أن رسول الله ﷺ حين قدم عليه أولئك نفر من مضر	30
366	إن أيوب الكليل نبي لبث في بلائه	31

رقم الصفحة	طرف الحديث	المسلسل
740	إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً	32
397	إن أدنى أهل الجنة منزلة لمن ينظر إلى جنانه	33
391	إن ثلاثة من بني إسرائيل أبرص وأقرع وأعمى	34
348	إن الدنيا حلوة خضرة	35
755	إن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه	36
791	إن الشيطان يبلغ من ابن آدم مبلغ الدم	37
119	إن العبد إذا أخطأ خطيئة	38
793	إن العبد ليتكلم بالكلمة	39
397	إن في الجنة مائة درجة أعدها الله	40
129	إن في القتل شهادة وفي الطاعون شهادة وفي البطن شهادة	41
751	إن القلوب أوعية ، وبعضها أوعى من بعض	42
625	إن الله إذا أحب عبداً	43
698	إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل	44
286	إن الله تجاوز لأمتي	45
645	إن الله جميل يحب الجمال	46
53	إن الله خلق الخلق حتى إذا فرغ من خلقه	47
755	إن الله رفيق يحب الرفق	48
713	إن الله سائل كل راع عما استرعاه	49
286	إن الله كتب الحسنات والسيئات ثم بين ذلك	50
824	إن الله لم يبعثني معتنا ولا متعتنا	51
750	إن الله ليرفع الدرجة للعبد الصالح	52
54	إن الله لا ينظر إلى صوركم	53
121	إن الله ييسط يده بالليل ليتوب	54
343	إن الله يغار والمؤمن يغار	55
120	إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر	56
621	إن الله يقول أنا عند ظن عبدي بي	57
598	إن مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بنى بيتا	58
464	إن مما أدرك الناس من كلام النبوة	59
343	إن من الغيرة ما يحب الله ومنها ما يكره الله	60
784	إن موسى كان رجلاً حَيِّياً ستيراً	61
733	أنا أول من يفتح باب الجنة	62
598	أنا سيد ولد آدم يوم القيامة	63
621	أنا عند ظن عبدي بي (حديث قدسي)	64
548	إنكم ستفتحون أرضاً يذكر فيها القيراط	65

رقم الصفحة	طرف الحديث	المسلسل
790	إنك إن اتبعت عورات المسلمين أفسدتهم	66
347 - 346	إنكن صواحب يوسف	67
323	إنها صفيية	68
724	انصرفي أيتها المرأة وأعلمي من خلقتك من النساء	69
749	أو أملك لك أن نزع الله من قلبك الرحمة	70
361	أي الناس أشد بلاء؟ قال الأنبياء	71
119	إياكم ومحقرات الذنوب	72
457 - 453	أما امرأة أنكحت نفسها بغير إذن وليها	73
199	الأنبياء إخوة من علات	74
463	الإيمان بضع وسبعون شعبة	75
59	بلغوا عني ولو آية	76
74	بينما أنا أسير في الجنة	77
366	بينما أيوب يغتسل عريانا	78
187	تري المؤمنين في توادهم وتراحمهم	79
749 - 111	تزوجوا الودود الولود فإني مكاثر بكم الأمم	80
450 - 110	تنكح المرأة لأربع	81
547	تهادوا تحابوا	82
338	ثلاث منجيات وثلاث مهلكات	83
344	ثلاثة لا ينظر الله ﷻ إليهم يوم القيامة	84
454	الطيب أحق بنفسها من وليها	85
457	جاءت فتاة إلى رسول الله ﷺ فقالت إن أبي زوجني	86
338	حبك الشيء يعمي ويصم	87
59	حدثوا عن بني إسرائيل	88
653	حسبك من نساء العالمين بأربع	89
463	الحياء لا يأتي إلا بخير	90
655	خير نسائها مريم	91
74	دخلت الجنة فرأيت فيها قصرا ودارا	92
110	الدنيا متاع	93
460	الدين النصيحة	94
	رفع القلم عن ثلاث	95
435	الرضاعة تحرم ما تحرم الولادة	96
238	سئل رسول الله ﷺ عن الذي يأتي امرأته وهي حائض	97
259	سئل رسول الله ﷺ من أكرم الناس قال أتقاهم لله	98
234	سبعة يظلمهم الله ﷻ في ظلهم	99

رقم الصفحة	طرف الحديث	المسلسل
732	الساعي على الأرملة	100
607	صياح المولود حين يقع نزغة من الشيطان	101
186	طعام الواحد يكفي الاثنين	102
556	عجبا لأمر المؤمن	103
219	على السمع والطاعة في النشاط والكسل	104
661	عليك بكثرة السجود	105
514	فاتخذ خاتما من فضة	106
656	فاطمة سيدة نساء أهل الجنة	107
469	قال سليمان <small>عليه السلام</small> لأطوفن الليلة على سبعين امرأة	108
442	قد أذن الله <small>عليك</small> لكن أن تخرجن	109
733	كافل اليتيم له أو لغيره أنا وهو	110
760	كان رسول الله <small>صلى الله عليه وسلم</small> إذا أراد سفرا أقرع بين نسائه	111
373	كانت امرأتان معهما ابناهما	112
864	كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبي	113
462	كل سلامي من الناس عليه صدقة	114
461	كل معروف صدقة	115
435	كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته	116
640	كلمتان خفيفتان على اللسان	117
398	كامل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء	118
259	الكريم ابن الكريم	119
340	الكيس من دان نفسه	120
53	لئن كنت كما قلت فإنما تسقهم المل	121
550	لعن الله الراشي والمرتشي	122
374	لعن رسول الله المحلل والمحلل له	123
186	لقد عجب الله من صنعكما بضيفكما	124
376	لكل داء داء	125
296	لم يتكلم في المهد إلا ثلاثة	126
157	لم يكذب إبراهيم النبي <small>صلى الله عليه وسلم</small> قط إلا ثلاث كذبات	127
744	لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله	128
454	لو دعيت إلى ذراع أو كراع لقبلت	129
542	لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة	130
195	ليس الكذاب الذي يصلح بين الناس	131
823	اللهم اجعل رزق آل محمد قوتا	132
749	اللهم أكثر ماله وولده	133

رقم الصفحة	طرف الحديث	المسلسل
644 - 334	اللهم إني أسألك الهدى والتقى	134
348	ما تركت بعدي فتنة أضر	135
752	ما توطن رجل المساجد للصلاة	136
464	ما كان الحياء في شيء إلا زانه	137
829	ما من عبد تصيبه مصيبة	138
466	ما من عبد يسترعيه الله رعية	139
713	ما من مولود إلا يولد على الفطرة	140
466	ما من وال يلي رعية	141
636	ما من الأنبياء نبي إلا أعطي من المعجزات	142
118	ما منكم من أحد إلا وقد وكل به قرينه	143
737	مثل القائم على حدود الله والواقع فيها	144
747	مره فليتكلم وليستظل وليتم صومه	145
467	من ابتلي من البنات بشيء	146
	من أتى بهيمة فاقتلوه	147
743	من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه	148
130	من أحق الناس بحسن صحابتي ؟	149
121	من تاب قبل أن تطلع الشمس من مغربها	150
792	من حسن إسلام المرء	151
755	من حرم الرفق حرم الخير	152
779	من حلف على يمين فرأى غيرها خيرا منها	153
792	من رد عن عرض أخيه	154
462	من استعاذ بالله فأعيذوه	155
53	من سره أن يبسط له في رزقه	156
462	من صنع إليه معروفًا فليخزّه	157
741	من طال عمره وحسن عمله	158
735	من عادى لي وليا (حديث قدسي)	159
467	من عال جاريتين حتى تبلغا	160
788	من قاتل دون ماله فهو شهيد	161
186	من كان يؤمن بالله واليوم الآخر	162
	من كان له امرأتان	163
234	من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط	164
793	من يضمن لي ما بين لحييه وما بين رجليه	165
341	المجاهد من جاهد نفسه في الله	166
539	المستشار مؤتمن	167

رقم الصفحة	طرف الحديث	المسلسل
789	المسلم أخو المسلم	168
752	الملائكة تصلي على أحدكم ما دام في مصلاه	169
460	المؤمن مرآة أخيه	170
826	نعم إذا رأيت الماء	171
343	نهى رسول الله أن يطرق الرجل أهله ليلاً	172
113	النساء شقائق الرجال	173
781	هل تدرون مم أضحك ؟	174
594	هذا أمين الأمة	175
742	وإذا أردت بقوم فتنة	176
364	والخير في يديك والشر ليس إليك	177
671	والذي نفسي بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم	178
712	وهذا أيضا لعله يكون نزعة عرق	179
59	لا تصدقوا أهل الكتاب	180
453	لا تزوج المرأة المرأة	181
121	لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها	182
456	لا تنكح الأيم حتى تستأمر	183
374	لا حتى يذوق عسيلتها	184
55	لا فضل لعربي على عجمي	185
453	لا نكاح إلا بولي	186
741	لا يتمنى أحدكم الموت لضرٍ	188
645	لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر	189
874	لا يدخل الجنة تمام	190
645	لا يزال الرجل يذهب بنفسه	191
463	لا يشكر الله من لا يشكر الناس	192
622	لا يقولن أحدكم اللهم اغفر لي إن شئت	193
467	لا يكون لأحد ثلاث بنات	194
236	لا ينظر الرجل إلى عورة الرجل	195
615	يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي (حديث قدسي)	196
429	يا غلام إني أعلمك كلمات	197
73	يجمع الله تبارك وتعالى الناس	198
112	يا معشر الشباب	199
146	يا معشر قريش	200
546	يا نساء المسلمات لا تحقرن جارة لجارتها	201
711	يا يهودي من كل يخلق	202
203	يلقى إبراهيم أباه أزر يوم القيامة	203
615	يمين الله ملأى لا يغيضها شيء	204

فهرس الأعلام المترجم لهم

رقم الصفحة	الاسم	المسلسل
688	أحمد بن إبراهيم بن الزبير الثقفي الغرناطي	1
363	أحمد بن مصطفى المراغي	2
391	إسماعيل حقي بن مصطفى (البروسوي)	3
82	(الإسكافي) أبو عبد الله محمد بن عبد الله	4
181	(الأصمعي)	5
56	(الألوسي) شهاب الدين محمود بن عبد الله الألوسي البغدادي	6
34	بدر الدين الزركشي	7
191	بدر الدين العيني	8
81	بدر الدين بن جماعة	9
34	(الباقلاني) أبو بكر محمد بن الطيب	10
161 ، 90	البقاعي	11
378	البهي الخولي	12
52	البيضاوي	13
281	(الثعالبي) عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف	14
83	جمال الدين القاسمي	15
616	(الجصاص) أحمد بن علي الرازي	16
65	حليل بن حبشة بن سلول الخزاعي	17
58	الحسن البصري	18
94	(الخازن) علاء الدين أبو الحسن	19
852	داود بن علي الظاهري	20
79	الراغب الأصفهاني	21
79	الربيع بن أنس البكري	22
44	الزمخشري	23
280	سعيد بن جبير	24
260	سفيان الثوري	25
298	سفيان بن وكيع بن الجراح	26
497	سعيد حوى	27
109	سيد قطب	28
284	(السمين) أحمد بن يوسف	29
637	السيد الشريف الرضي	30
260	(الشعبي) عامر بن شراحيل	31
102	الشوكاني	32

رقم الصفحة	الاسم	المسلسل
283	(الشنقيطي) محمد الأمين الشنقيطي	33
211	الضحاك بن مزاحم	34
239	طاووس بن كيسان	35
48	(الطبرسي) أبو علي الفضل بن الحسن بن الفضل	36
43	(الطبري) أبو جعفر محمد بن جرير	37
441	عباس محمود العقاد	38
267	عبد الحميد طهماز	39
236	عبد القادر عودة	40
620	عبد الكريم الخطيب	41
339	عبد الله بن المبارك	42
413	عبد الوهاب بن أحمد النجار	43
298	عطاء بن السائب	44
167	(عكرمة) البربري المدني مولى ابن عباس	45
57	عمر بن إبراهيم العبدى	46
571	عياض (القاضي)	47
47	(فخر الدين الرازي) محمد بن عمر بن الحسين	48
62	(الفراء) يحيى بن زياد بن عبد الله أبو زكريا الديلمي الفراء	49
204	(الفيروزآبادي) محمد بن يعقوب بن محمد بن إبراهيم	50
64	قصي بن كلاب	51
251	(القرافي)	52
	(القرطبي) أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي الأندلسي المفسر	53
51		
144	(القشيري) عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك النيسابوري	54
285	(القشيري) أبو نصر عبد الرحمن بن عبد الكريم	55
	ابن هوازن	
58	كعب الأحبار	56
82	الكرماني	57
339	مالك بن دينار	58
167	مجاهد بن جبير	59
33	د . محمد السيد الوكيل	60
62	محمد صديق حسن خان القنوجي	61
102	محمد الطاهر بن عاشور	62
768	محمد عبد الله دراز	63
104	محمد علي الصابوني	64

رقم الصفحة	الاسم	المسلسل
32	محمد الغزالي	65
179	محمد بن كعب القرظي	66
279	محمد بن محمد بن أبي شهبة	67
458	محمد محيي الدين عبد الحميد	68
46	(مسلم) مسلم بن الحجاج أبو الحسين القشيري النيسابوري	69
595	مصطفى الطير	70
35	مصطفى صادق الرافعي	71
76	منذر بن سعيد البلوطي	72
171	الماوردي	73
64	(النسفي) أبو البركات عبد الله بن أحمد بن محمود النسفي	74
60	(النيسابوري) حسن بن محمد بن حسين القمي النيسابوري	75
58	وهب بن منبه	76
787	د . وهبه بن مصطفى الزحيلي	77
364	القاضي أبو بكر بن العربي	78
282	أبو زيد سعيد بن أوس الأنصاري	79
398	أبو عثمان النهدي	80
181	أبو عمرو بن العلاء	81
66	(أبو مسلم) محمد بن بحر الأصبهاني	82
93	أبو منصور الأزهري	83
285	(أبو منصور) الماتريدي	84
76	أبو هاشم الجبائي	85
681	أبو وائل شقيق بن سلمة	86
441	أبو الأعلى المودودي	87
130	أبو الأسود الدؤلي	88
90	أبو البقاء العكبري	89
79	أبو السعود العمادي	90
398	(أبو العالية) رفيع بن مهران الرياضي	91
282	أبو العباس المبرد	92
	(ابن أبي العز) علي بن علي بن محمد بن أبي	93
68	العز الدمشقي الحنفي	
96	(ابن دريد) محمد بن الحسن بن دريد	94
195	ابن شهاب الزهري	95
196	ابن قتيبة الدينوري	96
71	ابن قيم الجوزية	97

رقم الصفحة	الاسم	المسلسل
98	(ابن الجوزي) عبد الرحمن بن علي بن محمد	98
339	جمال الدين ابن السماك	99
233	(ابن القصار) علي بن أحمد بن البغدادى	100
63	ابن المنير الإسكندراني	101

فهرس موضوعات المجلد الثاني

الفصل الثامن

قصة نبي الله سليمان عليه السلام مع بلقيس ملكة سبأ

- 493 في هذا الفصل
- 495 المبحث الأول : بيان القصة كما وردت في القرآن الكريم
- 538 المبحث الثاني : فوائد حول القصة
- 539 1 - فائدة : حول الشورى في الإسلام
- 542 2 - فائدة : حول حكم تولي المرأة الولاية العامة والقضاء
- 546 3 - فائدة : حول رد سليمان عليه السلام الهدية
- 4 - فائدة حول قوله تعالى في سورة النمل : ﴿ وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴾
- 550 5 - دروس : في القيادة والحكم
- 552 6 - فائدة حول الابتلاء
- 556 المبحث الثالث : نظرات في العهد القديم فيما ورد في شأن سليمان عليه السلام
- 566 المبحث الرابع : فائدة حول تفسير قول الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً ثُمَّ أَنَابَ ﴾
- 570 المبحث الخامس : من افتراءات اليهود على نبي الله داود عليه السلام
- 574

الفصل التاسع

حديث القرآن الكريم عن مريم عليها السلام

- 591 تمهيد
- 593 المبحث الأول : النسب الطاهر
- 600 المبحث الثاني : مع أم مريم عليها السلام
- 611 المبحث الثالث : كفالة زكريا عليه السلام لمريم عليها السلام
- 647 المبحث الرابع : اصطفاء الله سبحانه لمريم عليها السلام
- 663 المبحث الخامس : من أوجه إعجاز القرآن الكريم إخباره عن أحوال الأمم السابقة
- 667 المبحث السادس : بشارة الملائكة لمريم عليها السلام بعيسى عليه السلام وجملة من أوصافه

- 674 المبحث السابع : مجيء جبريل عليه السلام وظهوره لمريم في صورة بشرية
- 685 المبحث الثامن : وقوع النفخ في مريم عليها السلام وحملها بعتسى عليه السلام
- 696 المبحث التاسع : ولادة عيسى عليه السلام وما صاحبها من رحمت ونفحات
- 702 المبحث العاشر : مجيئها بعتسى إلى قومها واتهامهم لها
- 710 المبحث الحادي عشر : ما يتعلق بالقصة من أحكام وعبر وفوائد
- 711 - عامل الوراثة والبيئة وأثرهما في التربية
- 714 - حرية المراة في الإسلام
- 718 - قضية المساواة بين الرجل والمراة
- 731 - الترغيب في كفالة اليتيم
- 733 - كرامات الأولياء
- 737 - مشروعية القرعة في الإسلام
- 739 - فائدة حول نفخ الروح في عيسى عليه السلام
- 740 - حكم تمنى الموت
- 744 - التوكل على الله لا يتنافى مع الأخذ بالأسباب
- 745 - فوائد الرطب للنفساء
- 745 - فائدة حول الصمت
- 746 - حكم نذر الصمت في شريعتنا
- 747 - ما يتعلق بقصة زكريا ويحيى عليهما السلام من عبر وأحكام

الفصل العاشر

نساء في العهد النبوي أنزل الله ﷻ في شأنهن قرآنا

- 759 المبحث الأول : ما نزل في شأن حادثة الإفك
- 760 المطلب الأول : قصة الإفك كما في الصحيحين
- 765 المطلب الثاني : التفسير التحليلي للآيات الكريمة التي نزلت في هذا الشأن
- 785 المطلب الثالث : فوائد مهمة
- 785 1 - حكم من قذف أم المؤمنين عائشة وسائر أمهات المؤمنين (رضي الله عنهن)
- 786 2 - هل يحبط العمل الصالح بارتكاب الكبيرة

- 787 3 - منهج الإسلام في حماية الأعراض
- المبحث الثاني : زواج رسول الله ﷺ من السيدة زينب بنت جحش رَضِيَ اللهُ عَنْهَا والحكمة من إباحة الإسلام تعدد الزوجات 795
- أولا : الآيات الواردة في هذا الشأن 795
- ثانيا : تحقيق القول في سبب النزول 796
- ثالثا : التفسير التحليلي للآيات 804
- رابعا : الحكمة من إباحة الإسلام تعدد الزوجات 809
- خامسا : موقف الديانتين اليهودية والنصرانية من التعدد 817
- سادسا : الحكمة من تعدد زوجات الرسول ﷺ 821
- المبحث الثالث : ما نزل في سورة التحريم في شأن أمهات المؤمنين 832
- أولا : الآيات الواردة في هذا الشأن 832
- ثانيا : تحقيق القول في سبب النزول 832
- ثالثا : التفسير التحليلي للآيات 836
- رابعا : المعنى الإجمالي 842
- خامسا : فوائد حول الآيات 843
- المبحث الرابع : ما نزل في شأن خولة بنت ثعلبة التي ظاهر منها زوجها أوس بن الصامت 845
- أولا : آيات الظهار 845
- ثانيا : سبب النزول 845
- ثالثا : التفسير التحليلي للآيات 847
- فوائد حول آيات الظهار 851
- المعنى الإجمالي لها 854
- المبحث الخامس : ما نزل في سورة الممتحنة في شأن النساء 857
- أولا : من عدالة الإسلام وسماحته مع غير المسلمين 857
- ثانيا : ما نزل في شأن امتحان المؤمنات المهاجرات 859
- ثالثا : ما نزل في شأن بيعة النساء 862
- رابعا : فوائد حول الآيات 864
- المبحث السادس : أم جميل امرأة أبي لهب 869

- 869 أولاً : نزول سورة المسد في شأن أم جميل وزوجها
- 869 ثانيا : بين يدي سورة المسد
- 871 ثالثا : التفسير التحليلي للسورة الكريمة
- 875 رابعا : المعنى الإجمالي
- 877 الخاتمة
- 877 خلاصة البحث ونتائجه وتوصياته
- 901 قائمة بمراجع البحث
- 937 فهرس للأحاديث النبوية
- 945 فهرس للأعلام المترجم لهم
- 948 فهرس موضوعات المجلد الثاني

رقم الإيداع

2000/7095

I. S. B. N الترقيم الدولي

977 - 5146 - 89 - 5